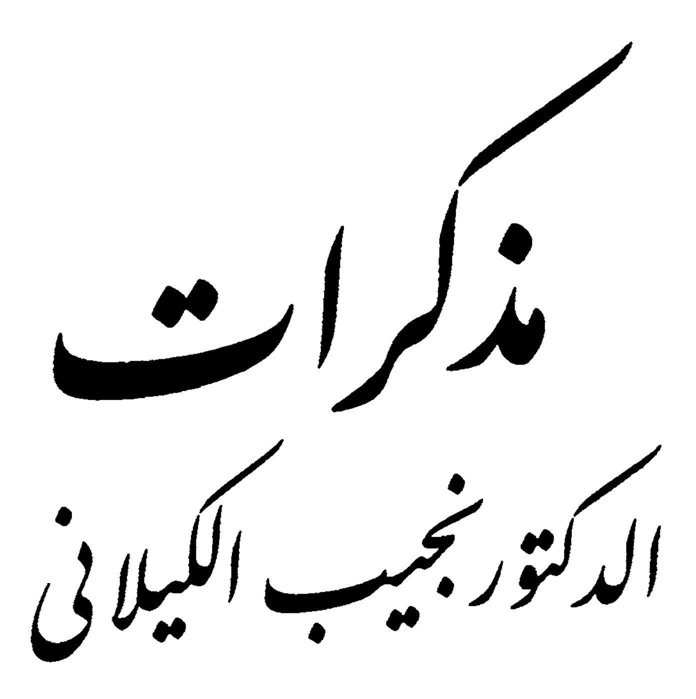
مذكرات

الدكتور نجيب الكيلانى



كتاب المختار



الجزء الأول



كتاب المختار

المقدمة



إن ملامح أى عصر من العصور، فى أية منطقة من العالم، تتحدد من خلال معطياته الثقافية، وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية، وإنتاجه الفنى، ووقائعه السياسية، هذا هو الأساس، لكن يظل النموذج « الفرد » بكل ما يفكر فيه وينفعل به، ويمارسه من قول وفعل، ويعتنقه من عقيدة أو فلسفة، ويمر به من تجارب وأحداث، يبقى ذلك النموذج « الفرد » تعبيرًا حيًا عن زمنه ومكانه، وتتفاوت أهمية الأفراد تبعًا للأدوار التى يؤدونها فى حياتهم، فالسياسى نموذج فى جانب من جوانب تلك الحياة، وكذلك المهندس والطبيب والصحافى والفلاح والصانع والتاجر ورجل الأعمال، لكن يبقى الفنان- أديبًا أو رسامًا أو ممثلًا- صورة نابضة لواقع الفترة الزمنية التى يعيشها، والبيئة التى يتحرك فيها، إذا صدق فى تعبيره، وامتلك الأداة الناجحة للترجمة عن الأفكار والمشاعر والأحداث ..

من هنا جاءت أهمية السيرة الذاتية، التى تحتل حيزًا كبيرًا فى أدبنا المعاصر، فكاتب السيرة المفيدة حقًا هو بمثابة بؤرة تلتقى وتتجمع عندها سمات الحياة وأحداثها وردود أفعالها، وكلما نجح الكاتب فى دقة التعبير عن نفسه وزمانه ومكانه وأحداثه، كلما اكتسبت السيرة الذاتية أهمية خاصة، ولا يقف الأمر عند حد السيرة الذاتية، بل إن القاص الذى يبدع فى رسم شخصيات قصصه، ويتعمق أحلامها وهواجسها وأفكارها، ويتقن تصوير العلاقات المتشابكة التى تربط الشخصية بما يحيط بها من مؤثرات، ذلك القاص يلعب دورًا كبيرًا فى إبراز ملامح العصر المميزة، ويساهم فى إثراء التاريخ والرصد المتشعب الواسع لحركة الحياة .

قضية أخرى جديرة بالنظر، هل « القيمة العلمية والفكرية » للسيرة الذاتية، ترتبط بالمكانة الاجتماعية أو السياسية أو العلمية التى يعتقدها صاحبها ؟ هذا أمر شائك، فما أكثر الزعماء والقادة الذين يزيفون الوقائع، ليبرئوا أنفسهم من اتهامات ألصقت بهم، أو انتقادات وجهت إليهم، أو شوائب أخلاقية علقت بهم، إنها مشكلة عامة، وعيب

كبير، يضر بالقيمة الحقيقية لما تسفر عنه السيرة الذاتية، وهناك فئة أخرى من كتاب السيرة الذاتية، ليس لديهم القدرة الفنية، ولا الأداة السليمة، للتعبير الصادق الصحيح، ثم ندلف إلى الفئة الثالثة التى لا تعرف لعملها فى كتابة السيرة الذاتية هدفًا سوى اكتساب المزيد من المجد والشهرة، بل والمال أيضًا، ومن المعروف أن مؤسسات النشر الكبرى تلهث وراء الشخصيات المرموقة، وتستحثها لكتابة المذكرات، بل إن بعض هذه الشخصيات تلقى «بالمادة الخام» والوثائق والمستندات والأحداث أمام من يستطيع أن يبدع فى الصياغة، أو يجيد فى بلاغة التعبير، فينوب عنها فى تسجيل تلك الأحداث والمشاعر والأفكار، وقد تخرج أبعد ما تكون عن واقع تلك الشخصيات وانفعالها، إنها صناعة جديدة «أو قل تجارة رابحة» فى عالم المذكرات والسير الذاتية، وهى طريقة لا شك تضر بالحقيقة وتسلبها أعز ما تملك من صدق وأمانة.

أما الأمر التالى الذى لا يمكن تجاهله فهو الظروف السياسية التى يعيشها العالم، وهى ظروف أقل ما يقال فيها أنها مدعاة للخوف والقلق والترقب، فهناك قوى خفية وظاهرة، تحد من حرية الرأى، وأمانة التعبير، فالكاتب يكتب، وسيوف القهر والتهديد مسلطة فوق عنقه، ولا أرانى فى حاجة لحصر الكتاب الذين لاقوا حتفهم اغتيالًا، أو ألقى بهم فى غياهب السجون، أو أجبروا على حياة المنافى، أو حوربوا فى أرزاقهم، بل تتعداهم اللعنة إلى زوجاتهم وأبنائهم وأسرهم ... إن الحرية الحقيقية .. حبر على ورق . . حتى فى أوروبا وأمريكا .. ولذلك نرى بعض كتاب السير الذاتية- إن لم يكن أغلبهم- يسقطون بعض الأحداث الهامة، أو يغضون الطرف عن وقائع أساسية، أو يقدمون الحقائق من لفائف كثيرة من المراوغة والدهاء والرمز والبتر، مما يجعلها عويصة الفهم، واهنة التأثير، وتوقع المحللين والدارسين فى تيه من التخمينات والتوهمات، وربما لا تقطع بشىء محدد ذى قيمة ..

إن القيود كثيرة، والعقبات عديدة ..

وأنا هنا أحاول أن أقتطف لمحات من حياتى .. ربما يكون فيها شىء من الفائدة، والواقع أننى لم أفكر فى كتابة سيرة ذاتية من قبل، فقد كنت أعتقد أنها من حق الأعلام البارزين وحدهم، أولئك الذين تركوا آثارًا بارزة على أحداث التاريخ، أو بصمات واضحة على حركة الحياة، لكننى أمام رغبات ملحة من بعض الأبناء الأعزاء فى الدول العربية والإسلامية، تطالب بكتابة شىء عن حياتى حتى يستعينوا بها، وهم يعدون رسالات الماجستير والدكتوراة فى عدد من الجامعات، بخصوص «الأدب

الإسلامى » وبالذات حول الروايات الإسلامية المعاصرة التى كتبتها منذ سنوات ، باعتبارها تطبيقًا عمليًا لما دعوت إليه فى كتابى « الإسلامية والمذاهب الأدبية » و « حول الدين والدولة » ومن طبيعة الأطروحات التى تقدم فى الجامعات أن تشمل جانبًا عن حياة الكاتب ، ويحتاج الدارس فى مثل تلك الأحوال إلى نصوص مؤكدة ، عن الكاتب وحياته وتجاربه ومؤلفاته ووجهة نظره ، ولقد رأيت أنه من واجبى نحو هؤلاء الأبناء الأعزاء ، والأصدقاء الأحباء ، أن أسجل تلك اللمحات ، آملًا أن يجدوا فيها شيئًا من الفائدة ، وأن تساهم بقدر متواضع فى مسيرة « الأدب الإسلامى » الذى ندعو إليه بإصرار ويقين ..

وحينما استعرضت حياتى الماضية التى ناهزت الثانية والخمسين ، وجدت فيها أحداثًا بارزة ، وثيقة الصلة بكبريات الأمور فى مسيرة الدعوة الإسلامية المعاصرة ...

نعم .. ولدت فى قرية تعانى القهر والحرمان والمرض والجهل فى دلتا مصر .. وانخرطت فى سلك دعوة « الإخوان المسلمين » واكتويت بنيران العذاب والاغتراب والقلق الطويل .. فكانت سنوات السجن الحارقة مؤذنة بميلاد جديد ..

وقضيت فى إمارات الخليج العربي – حتى الآن – ما يقرب من ستة عشر عامًا كانت حافلة بالتجارب والرؤى والممارسات ..

واختلطت بالعديد من الشخصيات .. وزراء .. وكتاب .. وصحافيين .. ورجال أعمال .. من شتى الجنسيات ، وزرت العديد من الدول العربية والإسلامية والأجنبية .. كما شاركت فى مؤتمرات أدبية وعلمية متنوعة ...

وحياتى الطبية هى الأخرى كانت ثرية بالكثير من الممارسات ..

ولقد قضيت أكثر من ثلاثين عامًا فى الكتابة ... جمعت بين الشعر والقصة القصيرة والرواية والبحوث .. كما شاركت فى الكتابة لبعض المجلات والصحف تربو على العشرين ، كما ترجمت بعض كتاباتى إلى لغات أجنبية ..

الواقع أن سنوات الشباب وما بعدها كانت عاصفة حافلة بالأحداث ، لم أكن بعيدًا عما يجرى منذ عصر « فاروق » حتى عهد « السادات » ، ولم أتوقف عن العمل الأدبى إلا فى السنوات الثلاث الأخيرة لظروف تتعلق بطبيعة عملى وحياتى الخاصة ، وتجربتى هى تجربة عشرات . . بل مئات الألوف من أبناء جيلنا .. مع تميز كل تجربة بخصائص ذاتية لابد منها..

إن فترات الأزمات الطاغية التى عشناها لم تكن لِتُحتمل .. لولا الإيمان بالله ..

ولولا الأمل الحى النابض فى القلوب .. والذى لا يموت أبدًا فى قلب المؤمن ... وهذا هو السبب الوحيد فى الإفلات- مؤقتًا- من قبضة الإفناء والتدمير .. وصدق الله العظيم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ .

وبعد ..

تلك مقدمة لابد منها قبل أن نبدأ فى اصطياد « لمحات » من حياة مسلم .. فلاح .. طالب علم .. طبيب .. سجين .. مهاجر .. صديق للقلم .. عاش فى الثلثين الأخيرين من القرن العشرين الميلادى .. وليس لهذه اللمحات قيمة سوى أنها من « شاهد » على عصره ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾

دبى فى ٢- ١٠- ١٩٨٣م
٢٧ من المحرم ١٤٠٤هـ

الدكتور نجيب الكيلانى

❁❁❁

[١] قرية شرشابة



تقع قرية شرشابة على بعد عشرين كيلو مترًا من مدينة طنطا المعروفة ، وتعتبر طنطا أكبر مدن الوجه البحرى باستثناء الإسكندرية ثغر مصر التاريخى العريق ، وكانت قريتنا فى الماضى فى منطقة زراعية شبه منعزلة ، فلا يمر بها مثلًا قطار السكة الحديد ، ولا طرق الحافلات أو سيارات الأجرة ، وكانت الوسيلة الوحيدة للانتقال فى أوائل الثلاثينيات ، من القرن العشرين هى الحمير أو عربات الكارو ، أما المدن الثلاثة الشهيرة التى كان يقصدها القادرون من أبناء القرية فى تلك الأيام فهى طنطا وفيها مقر محافظة الغربية ، و « زفتى » وكانت المركز ، والمحلة الكبرى القلعة الصناعية لمنسوجات الأقطان . وأرض شرشابة خصبة ، تجود بالمحاصيل الوفيرة من قطن وقمح وذرة وفول وخضراوات متنوعة وقليل من الفواكه ، كما كان يزرع الأرز فى بعض مناطقها ، لكن ثمن القطن هو عماد الحياة الاقتصادية آنذاك ، فمنه يشترى الفلاح ملابسه وضروريات حياته ، ولا تقام الأعراس والأفراح والموالد إلا فى موسمه .

لم يكن فى قريتنا إقطاع يذكر ، لكن كان هناك بعض كبار الملاك القليلى العدد ، وكانت ملكياتهم تتراوح بين ١٠- ١٠٠ فدان ، ولم يكن هؤلاء « الأغنياء » - كما كان يطلق عليهم- إقطاعيين بالمعنى الصحيح ، وإن اتسمت تصرفاتهم بقدر غير قليل من التجبر والاستغلال والاستبداد ، فقد وجد فى تلك القرية ملكيات « لخواجات » يونانيّ الجنسية ، ووقف السيدتين « حكمت هانم جنيد ، وسعاد هانم جنيد » ، بالإضافة إلى حوالى عشرة آخرين من أهالى القرية يمتلكون من ١٠- ٣٠ فدانًا .

وهناك نسبة كبيرة لا يمتلكون شبرًا من الأراضى الزراعية ، فكانوا يشتغلون كأجراء ، أو يستأجرون فدانًا أو أكثر ليتعيشوا من زراعته ، ويقضون أعمارهم فى ضيق وصبر دون الكفاف من الرزق ، أما صغار الملاك الذين يحوزون جزءًا من الفدان أو فدانًا أو أكثر ، فقد كانوا لا شك أفضل حالًا من المعدمين والمستأجرين على الرغم مما يكابدونه من فقر ومشقة .

وكنا ونحن أطفال نرى الشاحنات الكبيرة تأتى فى مواسم معينة من العام ، ثم يحشر فيها مئات الفلاحين ، ويحملون إلى مناطق بعيدة يطلقون عليها « الوَسايا » ، حيث الإقطاعيات الكبيرة خارج حدود المحافظة ، وهناك يقضون شهرًا أو شهرين فى العمل الشاق ، سواء فى زمهرير الشتاء ، أو فى قيظ الصيف ، ثم يعودون بقروش قليلة ، وأمراض كثيرة ، هؤلاء هم عمال التراحيل التعساء ، الذين يسافرون وليس على أجسادهم إلا الملابس المهترئة ، وجوال به أرغفة جافة قاتمة ، وكثيرًا ما كان البعض منهم يقضى نحبه ، ثم يطويه النسيان إلى الأبد .

ويبعد عن قريتنا تفتيش للخاصة الملكية ولإسماعيل باشا صبرى والملكة نازلى ، وهو يتبع مركز « السنطة » ، ويفصل قريتنا عنه « بحر شبين » العذب ، وبضعة كيلو مترات لا تزيد عن الثلاثة ،

ولا يمكن العبور إلى شاطئ ذلك الإقطاع إلا عن طريق القوارب أو المراكب الصغيرة المثبتة لدى الضفتين بجنازير حديدية متينة .

والمؤسسات التعليمية فى قريتنا آنذاك هى المدرسة الأولية (الإلزامية) التى تفتح أبوابها للبنات صباحًا ، وللبنين ظهرًا ، ثم مكاتب تحفيظ القرآن التى يتعلم فيها الطفل القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على يدى فقيه القرية الذى يؤدى ذلك كله ، مقابل مبلغ زهيد جدًا ، وقد يكون الأجر مجرد رغيف من الخبز يحمله الطفل معه يوميًا إلى سيدنا ..

من هاتين المؤسستين تخرجت أعداد كبيرة من أبناء القرية ، وواصلوا مراحلهم التعليمية فى الأزهر الشريف والمدارس والجامعات ، وأصبح منهم العلماء والأطباء والمهندسون والمحامون وكبار ضباط الشرطة والمعلمون وأساتذة الجامعات وغيرهم .. وعلى ما أذكر فقد كان فى هذه القرية الكبيرة نسبيًا (خمسة آلاف نسمة آنذاك) جهازان للراديو ، يتجمع حولهما المحظوظون فى ليالى السمر ، وقد يسمح لأطفال « مكتب تحفيظ القرآن » فى بعض المناسبات بالجلوس فى خشوع قرب نافذة الحجرة التى تضم الراديو « كى يستمعوا إلى أغانٍ حلوة أذكر منها- عند تنصيب فاروق ملكًا- أغنية :

مـلـك الـمـلـوك يـا زيـن   يـا فـاروقـنـا يـا نـور الـعـيـن

وأغنيات أخرى عن حياة الفلاح الجميلة ، ولقمة عيشه الهنيئة ، وحياته الهادئة السعيدة ، وأناشيد وطنية حماسية تشعل المشاعر وأحاديث دينية وثقافية لا نكاد نفهم منها شيئًا ..

ومن أهم المناسبات فى القرية الحفل السنوى لشاعر الربابة ، وحفلات موالد الأولياء والأعياد والمولد النبوى وليلة الإسراء وعاشوراء والهجرة النبوية ، ثم مولد « السيد البدوى » فى طنطا الذى يحظى بأهمية خاصة لدى عامة الفلاحين ..

كان شاعر الربابة « السيد حوّاس » يأتى فى موعد محدد ، وكانت تقام له منصة فى قاعة واسعة ، يؤمها خلق كثير ، يفترشون التراب ، ويجلسون فى خشوع يستمعون إلى تقاسيم الربابة الساحرة ، وإلى قصص أبي زيد الهلالى ودياب بن غانم ، والجازية وناعسة وعزيزة ويونس ، وكانت مشاعرهم تلتهب عند المواقف البطولية الحاسمة ، والمواقف المشحونة بالعواطف والانفعالات ، فتنشق حناجرهم عن هتافات صاخبة ، ويلوحون بأيديهم فى حماسة بالغة ، تعبيرًا عن إعجابهم واستجابتهم ، ونفس الشيء كان يحدث بالنسبة لمن اشتهروا بأصواتهم الجميلة فى غناء « المواويل » ، وللموال مكانة كبيرة فى نفوس الفلاحين ، وهو صورة شبيهة « بالملاحم » ؛ إذ يروى المغني- صاحب الصوت الجميل المؤثر- قصة مثيرة ، كقصة الأدهم الشرقاوى « والشاويش متولى » وغيرهم ، وهى مواويل فى مجملها تتغنى بالفضيلة والشجاعة والأخذ بالثأر ، والقيم المتأصلة فى ذلك المجتمع . وكانت القرية تحتفل بمقدم أى مقرئ شهير للقرآن فى أى مأتم من المآتم الكبيرة ، ويحتشدون لسماع آيات الذكر الحكيم ، ويطربون أيما طرب للصوت الأخاذ المؤثر .

ولا أستطيع أن أنسى فى هذا المقام طائفة « الغوازى » ، وهن مجموعة من النساء المتبرجات المتزينات ، يلبسن الملابس الحريرية الضيقة الصارخة الألوان ، ويفرضن أنفسهن فرضًا على أفراح الريف ، فيأتين- كثيرًا دون دعوة- ليرقصن ويغنين ، ويضربن بالدفوف ، ويَتَّبِسْنَ بالأغاني الخليعة ، والحركات

المائعة ، وقد كان بعض أهالى القرية يرفضون مشاركتهن ، ويتكرمون عليهن ببعض المال حتى ينصرفن فقد كانت بعض الطبقات المرفهة الثرية تحرص على استحضار بعض الراقصات فى أفراحهم بأجور مرتفعة ، وعلى الرغم من أنها حفلات شبه خاصة ، إلا أن الفلاحين كانوا يندسون بينهم ، ويغامرون بالاندفاع لرؤية تلك المشاهد الغريبة المثيرة التى لم يألفوها . ولا يكاد يمر يوم إلا ونرى « الغوازى » وأتباعهن يجوبون شوارع القرية ، ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا يفدون من قرية قريبة وهى « كفر العرب » المتلاصقة لقرية سنباط الشهيرة ، حتى إنهم كانوا ينسبون إلى « سنباط » أساسًا ، وهناك فيلم سينمائى اسمه « غازية من سنباط » للمخرج سيد زيادة سجل هذه الظاهرة .

الواقع أن غالبية النساء العاملات فى هذه « المهنة » من الفقيرات اللاتى لا يكْدن يجدْن لقمة العيش ، أما الموالد فقد كانت متعة ثرية العطاء بالنسبة للفلاحين عمومًا ، حيث كانت تقام حلقات الذكر ؛ إذ يقفون صفوفًا مستطيلة أو مربعة أو مستديرة ، ويقف المنشد ليترنم بالمدائح النبوية ، ومناقب الصحابة ، وكرامات الأولياء فى إيقاع ينسجم مع حركات الذاكرين الذين يتطوحون يمنة ويسرة ، أو أمام وخلف ، ويتنامى الإيقاع ويتلاحق ويتسارع ، فتشتعل حركة الذاكرين ، ويصرخون عشقًا ولوعة ، ويهتفون بأعلى أصواتهم « حى .. حى .. يا الله .. مدد يا رسول الله .. مدد يا حسين .. مدد يا أم هاشم .. »[1]

ولا يقتصر الأمر على حلقات الذكر ، وغناء المنشدين العذب ، بل يتعداه إلى مواكب تطوف أنحاء القرية ، حيث تنتصب البيارق والرايات الخاصة بمختلف الطرق الصوفية ، وتضرب الطبول ويعلو صوت الناى والأرغول ، ويدقون آلات نحاسية ذات لحن مميز ، ويختلط ذلك كله بزغاريد النساء على الجانبين وفوق الأسطح ، وهى مناسبات كان الناس يسعدون بها فى الواقع فيمرحون ، ويأكلون اللحم والثريد ، ويسهرون حتى وقت متأخر من الليل ، وتظل القرية منتشية بهذا اللون من الترفيه والمتعة لفترة غير قصيرة من الزمن ، فترى الأطفال يعيدون ترتيل ما حفظوه من عبارات وأغان ، وهم يلهون ويلعبون فى نور القمر ، فى حارات القرية وشوارعها أو عبر الحقول ، أو على شطآن الترع ..

وما زلت حتى الآن أحفظ الكثير من تلك الأغانى والأهازيج الشعبية والمدائح النبوية والملاحم والأشعار ، فقد كنت أذهب إلى سوق القرية وأشترى مطبوعات صغيرة فيها ملحمة الأدهم الشرقاوى والمدائح النبوية والسير الشعبية عن الهلالية وغيرهم ..

ومن الأغانى التى كنت أعجب بها أيما إعجاب ، مقطوعات أذكر منها :

حب الحسن والحسين فى مهجتى ساكن ... وحب طه النبى جوّا الحشا ساكن
يا ما نفسى أزورك يا نبى واقعد حداك ساكن ... وأشوف حمام الحمى حول المقام ساكن

وأغنية أخرى تقول :

على شط بحر الحقيقة ناس صيادين ... متعممين بالشبك ، فى الأصل صيادين
يا مدعى الكبر هو الكبر عَلّى مين ... الكبر يا ما خفض ناس كانوا علما وعلامين
فرعون لما طغى وحاز الكبر على العالمين ... إبليس لما غواه ، كان ُلى غرّه مين ؟

---

(١) إن ما يرويه المؤلف ، وقائع تاريخية لا دخل لها بالمعتقدات . (الناشر)

وثالثة تقول :

رن القدح يا سليمى كلمى سيدك إللى عطاك رضاه والنور فى إيدك

... إلخ . هذا ومن أشهر المنشدين فى منطقتنا فى تلك القرية (محمود عبد الهادى » الشهير بمحمود الدبوس ، والشيخ عزب ، والحاج رمضان ، ومن أشهر شعراء الربابة « السيد حواس » الذى مات منذ عهد قريب ، بعد أن قدم الكثير فى الإذاعة ، ولم يزل فى قريتنا امرأة عجوز كانت فى تلك الأيام البعيدة مطربة شهيرة جميلة ، لا أذكر من أية قرية أتت ، لكنها تعيش اليوم مصابة بالفالج ، ولا تكف عن ترديد ذكريات شبابها وغزواتها ..

وكما قلت فقد كانت قريتنا تستعد استعدادًا حافلًا لمولد سيدى أحمد البدوى فى طنطا ، وكان مولده يستمر أكثر من أسبوعين ، حيث تتعطل الدراسة فى المعهد الدينى ، ويخرج الفلاحون- بعد جمع محصول القطن وبيعه- أفواجًا أفواجًا ، وهم يركبون الجمال والحمير ، حاملين معهم خيامهم وزادهم ونساءهم وأطفالهم ، ثم يعيشون فى الخيام التى يقيمونها فى الساحة الكبيرة ، أيامًا وليالى ممتعة ، إلى جوار السيرك والمسارح ومختلف الألعاب السحرية والرياضية ولعب الحظ التى لا تخرج عن كونها نوعًا من المقامرة ، والأسواق المختلفة ، وحلقات الذكر ، ومحاضرات وزارة الأوقاف ، ورقص الغوازى ، ومواويل المغنين ، ومواكب المتصوفين ، وزفة الخليفة ، فى خليط عجيب غريب من المشاهد والألوان .. وفى خضم ذلك الحشد الذى فاق أخيرًا أكثر من مليون ونصف نسمة ، تسمع العجائب عن كرامات « السيد » وتاريخه وبطولاته ..

ولم تخلُ قريتنا من بعض المظاهر الإيجابية الرصينة التى يتولى أمرها فئة من المثقفين المحدثين من خلال دروس السيرة والفقه والتفسير فى المساجد ، وبعض الاحتفالات الجادة فى المناسبات الدينية والسياسية ، لكن الفلاحين لم يكونوا ليقبلوا على الممارسات بنفس الحماسة والكثرة ، ربما لسمو أسلوبها فى التعبير ، وعدم القدرة على التبسيط ، ولخلوها من الترفيه والتشويق ، لكنها كانت ظاهرة موجودة على أية حال ، وكان المتحدثون فيها يحظون باحترام الناس وتقديرهم ..

والذى أذكره فى تلك الأيام أيضًا معارك الانتخابات الدامية ، فقد انقسمت قريتنا منذ زمن بعيد- بسبب الخلافات السياسية- إلى قسمين ، الناحية الشرقية وهى تؤيد حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا ، والناحية الغربية التى تتبع حزب « السعديين » بزعامة أحمد ماهر باشا ، الذى اغتيل فى أواسط الأربعينيات ، من القرن العشرين ، بعد أن أعلن دخول مصر الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء . وبسبب هذه الانشقاقات السياسية شهدت قريتنا خلافات ومصادمات عنيفة ، كانت تطفو على السطح بقوة إبان الانتخابات الحزبية ، وعند الترشيح لمنصب « العمدة » ، إذ كانت الناحيتان تتبادلان المنصب وفقًا للظروف السياسية التى تلائم كلًا منهما ، وما زالت آثار هذه الشقاقات والخلافات باقية- لحد ما- إلى يومنا هذا .

ولا يخفى على القارئ أن النصف الأول من ثلاثينيات ذلك القرن قد شهد حكم « صدقى باشا » المستبد ، الذى ألغى الدستور ، وحكم مصر بالعنف والقهر ، فى ظل الاحتلال البريطانى ، فضلًا عن الأزمة الاقتصادية الكبرى التى هزت أركان الاقتصاد العالمى كله آنذاك ، وقد انعكست آثار هذه الأزمة

على مصر عامة ، وعلى قريتنا بالتبعية ، فكانت أيامًا عصيبة ، انخفض فيها سعر القطن ، وشح المال والزاد ، وقاسى الناس الأمرين ، ووجد « الخواجات » الذين يعيشون فى القرية ، الفرصة سانحة للتعامل بالربا ، واستغلوا عجز الفلاحين عن السداد ، فحجزوا على مواشيهم وممتلكاتهم ، وانتزعوا الكثير من أراضيهم سدادًا للديون . وما زلت أذكر مدى العناء الذى قاست منه أسرتنا فى تلك الفترة العصيبة ، وقد تمثل ذلك فى الحصول على الملبس المناسب ، والغذاء الكافى ، ونواحى الإنفاق الضرورية للحياة ...

فى هذه القرية ولدت ... كان ذلك فى اليوم الأول من شهر يونيو عام ١٩٣١. وكنت أول مولود لأبى وأمى ...

❁❁❁

[٢] طفل فى القرية



لم يكن فى قريتنا كهرباء ولا ماء نقى ، معظم بيوت القرية يشربون من ماء الترعة الجارى ، حيث تذهب النسوة ليملأن الجرار بصفة دائمة ، أما القلة من بيوت القرية فمصدر المياه عندهم « الطلمبات » ، التى تجذب الماء من جوف الأرض ، وكان الناس يعرفون أن مياه الطلمبات أنقى وأنظف ، ومن ثم يتزاحمون عليها ، لكن المشكلة أن أصحاب هذه الطلمبات فى غالبيتهم يتقاضون أجرًا موسميًا ممن يأخذون الماء ، قد يكون جعلًا شهريًا أو كمية صغيرة من محصول الأرض « القمح أو الذرة » لكن جدى إبراهيم رحمه الله- جدى لأبي- قد أقام طلمبة مجانًا أمام بيتنا القديم فى شرشابة ، وفى مثل هذه الحالة يطلق على الطمبة « سبيل لله » ، ،فى وقت العصر تشهد حشودًا متزاحمة من النسوة اللاتى يردن الماء حيث الضجيج والصياح .

وبعد أن ولدت بعام وشهر واحد ، ولد أخى « أمين » ، وكانت أمى مضطرة لأن تحملنا على كتفيها معًا ، وتعطى كل واحد ثديًا ، فلم يكن فى زمانها ألبانًا صناعية ، ومن الضرورى أن تتم الرضاعة لعامين حسب السُّنة ، وكان جدى ينتهز فرصة الحشود حول الطلمبة ، ليحل مشكلة الرضاعة ، إذ إن لبن أمى لم يكن ليكفينا معًا ، ولذلك كان يشير إلى نوع معين من النسوة يتميزن بجمال الخلق والخلقة ، وتبدو عليهم أمارات الصحة والعافية ، ويكلفهن بإرضاعنا .. هكذا كانت تحدثنى أمى ، بعد أن كبرت .. وعندما أصبحت « طبيب القرية » فى وحدتها « المجمعة » بعد سنوات طويلة ، كنت أفاجأ بإحدى المريضات تقول لى : « أنا أمك .. لقد أرضعتك من ثديى هذا » ، وتكرر هذا الأمر كثيرًا ، وكم كنت أسعد وأنا أستمع لهذه الكلمة الحلوة ، فمعنى ذلك أن عناصر حياتي التى تجرى فى عروقى ، قد جادت بها يومًا ما هؤلاء السيدات الطيبات ، وهو شعور أخوى سام أعتز وأفخر به .

كان جدى إبراهيم شخصية مميزة لا شك فى ذلك ، تزوج من النساء أربع ، وأنجب من الرجال أربعة وبنتين ، ومن الطريف أن التى تولت أمرى كلية ، وأشرفت على طعامى وملبسى وكل شئون حياتى واحدة من نسائه لم تكن هى جدتى ، لكن زوجة جدى هذه « مباركة » (وهذا هو اسمها) عاشت معى ولى تمامًا ، لم يرزقها الله بذرية فكنت بالنسبة لها كل شىء ، وخاصة بعد وفاة جدى فى عام ١٩٣٦، وكنت أقول دائمًا « يا خالتى » ، وهى لم تكن من قريتنا ، ولكنها ابنة إحدى الأسر المعروفة فى قرية « ميت ميمون » القريبة منا ، والتابعة لمركز السنطة .

أقول كان جدى إبراهيم شخصية مميزة قوية ، بمعايير القوة الشائعة فى ذلك العصر ، كان مرهوب الجانب ، مطاع الكلمة ، على الرغم من عدم ثرائه ؛ إذ لم يكن يمتلك إلا حوالى خمسة أفدنة ، وقد أخبرتنى أمى أن اللصوص كانوا يسطون على مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية دون أن يكترثوا لبعض كبار الملاك أو صغارهم ، فيستولون على المحاصيل ليلًا ، وكانت هذه الأراضى فى حوض بعيد

يطلق عليه « حوض القتيل »- لست أدرى سبب هذه التسمية- واجتمع الملاك ورأوا أنه لا حل لهذه المشكلة سوى أن يتولى جدى « الشيخ إبراهيم » حراسة الأرض ، وكان مجرد إعلان هذا الخبر كافيًا بأن يوقف اللصوص والخطافين عند حدهم .

وما زلت أذكر يوم أن حدثت جريمة غامضة فى المنطقة ، راح ضحيتها شقيق « خالتى مباركة » واسمه الجوهرى ، لقد اختفى هذا الشاب فجأة ولم يعثر له على أثر ، وباتت قرية « ميت ميمون » المجاورة فى حالة من الغليان لا مثيل لها ، إن جثة الضحية يجب أن يُعثر عليها ، وإلا كان العار والفضيحة ..

إن الضحية صهر لجدى إبراهيم ، ولا يمكن أن يمر الأمر هكذا بسهولة ، وجلس جدى يفكر ، وحاول البحث والتنقيب وربط الأحداث الماضية بعضها ببعض .. إن « ميت ميمون » قتلت منذ سنوات « خواجة » كان يتجر فى الأقطان ، واستولت على ما معه من مال ، وأقيمت محاكمة كبرى آنذاك أسفرت عن أحكام بالإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة ، ومن طبيعة مثل هذه القضايا أن تكون فيها وشايات وشهود وقرائن ، مما يقتضيه التحقيق ... كل ما أذكره أن ذيول هذه القضية تركت أحقادًا وحزازات بين بعض الأسر ، ودفعت البعض لأعمال العنف والأخذ بالثأر .. وهكذا قضى على « الجوهرى » .. هذا ما فهمه جدى ، وأكدته تحريته .. كان ذكيًا ..

وأرسل على الفور إلى من تحوم حولهم الشكوك والشبهات قائلًا : « إذا لم تظهر جثة الجوهرى خلال هذا اليوم فسوف يحدث ما لا تحمد عقباه .. »

ثم تعهد بحل الموضوع سلميًا عند ظهور « الجثة » دون إراقة دماء جديدة .

وكانت جثة الضحية مدفونة فى حفرة عميقة ، على شاطئ بحر شبين أو العباسى كما يطلق عليه الفلاحون .. كان يومًا رهيبًا تقشعر له الأبدان .. رأيت بعينى رأسى - وكنت إذ ذاك فى الثالثة من عمرى على ما أظن ، « الطبيب الشرعى » يشرح جثة الجوهرى فى الهواء الطلق ، والنسوة يصرخن ويلطمن الخدود ، ويشققن الجيوب ، ويضعن الطين على وجوههن وعلى رءوسهن ، وأذكر أننى كنت أبكى لبكاء « خالتى مباركة » ؛ إذ كنت ممسكًا بذيلها ، وهى تولول وتلف جلباب أخيها حول عنقها .

وفى يوم التهديد الذى أرسله جدى للجناة ، أشيع أنهم سوف يقتلون أبى انتقامًا .. كيف تصرف جدى حيال هذا الخطر ؟ إنه تصرف غريب .. لقد أصدر أوامره بأن يذهب أبى على الفور إلى حيث الأسرة الآثمة ، ويمر متحديًا أمام بيوتهم ويحتك بجموعهم .. كان أبناء العائلة والأقارب والجيران فى توجس شديد ، ورأوا أن يتابعوا أبى عن كثب ، لكن جدى صمم أن يذهب وحده ... وذهب ..

ثم عاد سالمًا .. وتنفس الجميع الصعداء ..

الواقع أن القرية كان لها تقاليد غريبة وعجيبة فى ذلك العصر .. ولا يتسع المقام لذكر الكثير منها .

وكان هذا الجد مسموع الكلمة لدى عمدة القرية (محمد بك) ، وكثيرًا ما كان يشارك فى حل بعض المعضلات التى يتعرض لها البعض ، فكانوا يرحبون به حكمًا عدلًا لا يحيد ولا يميل ، وأذكر أنه كان يتحدث بصوت جَديٍّ صارم ، ونبرته تميل إلى السخرية فى بعض الأحيان ، كما كان شهمًا كريمًا ، يحرص على إخراج زكاة المحصول ، ويغدق- ما أمكن- على الفقراء ، ويصل الرحم ، لكنه لا يتورع أن يسب عند الضرورة .. إن السنوات التى عشتها إلى جواره كانت سنوات مرضه الأخير فى غالبيتها ، إذ كان يعالج من مرض السكر ومضاعفاته ... وللأسف كان مصرًا على التدخين حتى النهاية ...

وذات يوم سمعت صراخًا وعويلًا .. وذهبت إلى غرفته .. كان مسجى فى فراشه فى هدوء واطمئنان .. مرتديًا قميصه الأبيض ... شاحب الوجه .. ساكنًا .. قالوا : إنه مات .. بكيت معهم بضع دقائق .. ثم انصرفت إلى جدتى أطلب منها أن تشترى لى « نظارة زهر العطر » أى زرقاء .. كنا نشتريها برغيف أو كوز من الذرة .. وألححت فى الطلب حتى أحضروها لى .. وكانت أمى رحمها الله تذكرنى دائمًا بهذه الواقعة ، وتضحك من أعماقها .. المهم أنى لبست النظارة وخرجت لألعب مع إحدى فتيات الجيران ... وفجأة وجدتها تبكى وتصيح وتنظر إلى الشارع .. تابعت نظراتها .. رأيتهم يحملون نعش جدى على الأعناق .. ووجدتنى أبكى معها ..

كانت أكبر منى بعامين أو ثلاثة .. وكانت تندبه بعبارات حزينة باكية كتلك العبارات التى يرددها النسوة .. وكان لعباراتها تأثير مؤلم على مشاعرى ..

ويلاحظ أنه عند « غسل الميت » تكف النساء فى قريتنا عن النديب والنحيب ، ويجلسن يرددن بعض كلمات خلف امرأة متخصصة فى هذا الفن الباكى :

فمثلًا تقول النادبة :

ومن مات يوم أربع ... لا صلىّ ولا تركّع
والله القبر فيه موضع ... لمن تارك حدود الله

فترد عليها النسوة قائلات :

اللهم صلى على المصطفى

وتعود النادبة تقول :

ومن مات يوم الخميس ... لا صلىّ ولا رجم إبليس
والله القبر فيه خنّيس ... لمن تارك حدود الله

ترد النسوة :

اللهم صلى على المصطفى

وهكذا تظل لنادبة تردد الأناشيد الباكية الحزينة ، فى إيقاع وترتيل يسيل العبرات ويهز المشاعر ، ويجعل القلوب تخفق فى خوف ورعب ، وخاصة قلوب لأطفال من أمثالنا .

وجدى هو الذى أخذنى بنفسه إلى « مكتب القرية » وأنا فى الرابعة من عمرى ، أذكر ذلك جيدًا ، وأشترى لى لوحًا ومحبرة وقلمًا من البوص .. كما اشترى لى طباشيرًا ولوحًا من الإردواز ومصحفًا ...

أمر غريب للغاية . لقد تعلمت فى هذا المكتب فى تلك الفترة الكثير والكثير .. فما إن بلغت السابعة من العمر حتى ألممت بقواعد القراءة والكتابة ، ومبادئ الحساب ، وقدرًا لا يستهان به من القرآن الكريم ، وبعض الأحاديث النبوية ، ومقتطفات من السيرة ، وأناشيد دينية ووطنية ، وأسماء الله الحسنى وأسماء الرسول ونسبه وأولاده ، وبعض القصص القرآنى ..

وفى هذه المرحلة من العمر ذهبت إلى المدرسة الأولية الوحيدة بالقرية ، وكان التعليم فيها إلزاميًا ، ومن يتخلف عنها من أبناء القرية تفرض الغرامات على ولى أمره ، وهكذا أصبحت مرتبطًا « بالكتّاب » أى مكتب تحفيظ القرآن صباحًا ، وبالمدرسة الأولية ظهرًا ، ولا يفصل بينهما سوى وقت قصير يكفى بالكاد لتناول طعام الغذاء بالمنزل .

وفى المدرسة الأولية لم أجد أى عناء ، فقد كانت الدروس التى تعطى لنا بسيطة للغاية ، بالنسبة لى على الأقل ، لأنى تعلمت معظمها فى المكتب ، وأحسست بتراخى المدرسين وكسلهم ، مما جعل الاستفادة محدودة ، ولا تخرج عن بعض مواد الجغرافيا والتاريخ والصحة والعلوم ، وتنظيم مراحل دروس الحساب ، ولهذا فإنى مدين فى تأسيس حياتى العلمية بالكثير « لكتّاب الشيخ محمد درويش » رحمه الله .

الشىء الوحيد المؤلم ، هو أننا كنا نقضى حاجتنا فى العراء على شاطئ المجرى المائى الصغير الذى يمر بالمبنى .

بعد وفاة جدى ، خرج عمى « محمد » من البيت ، وكان من أم غير جدتى ، واستقل بنفسه ، وتزوجت عمتى الثانية ، وكانت الأولى قد تزوجت منذ زمن بعيد ، وتجمع باقى أفراد الأسرة حول أبى فى بيتنا القديم عمى عبد الفتاح ، وعمى أحمد وخالتى مباركة وجدتى لأبى ، وأمى وأولادها ، وكان عمى أحمد فلاحًا أصيلًا ..

أما عمى عبد الفتاح فله قصة مثيرة ، لعلى كتبت طرفًا منها فى روايتى « الطريق الطويل » ، فقد كان طالبًا أزهريًا ضعيف البصر ، لكنه تراخى فى إكمال دراسته بعد المرحلة الابتدائية ، وأتى ليعيش فى القرية دون عمل ، فقد كان من الصعوبة بمكان أن يجد مثله وظيفة حكومية أو أهلية ، ولم يكن يصلح بتاتًا للعمل فى الحقل ، وهكذا كان يقضى يومه دون إنتاج ، إذ يصحو فى الصباح متأخرًا ، ثم يلحق ببعض الأصدقاء العاطلين ، ويقضى ليله فى السهر الخالى من أى مضمون إيجابى ، وكان فراغه مدعاة لأن يقبل على التدخين بمختلف أنواعه ، وبالطبع فإن ذلك كان مثار سخط وانتقاد شديد من أفراد الأسرة ، ولم تكن الأسرة بمستطيعة أن تنفق على لهوه وعبثه القليل ، فبدأ يبيع نصيبه من ميراثه فى الأرض ، وكان فرضًا على أبى أن يشترى منه ما يريد بيعه من قراريط ، لأن بيع أرضنا للغير يُعتبر فى القرية عارًا وفضيحة ، ولم تستطع محاولات أبى الفاشلة فى التجارة ، وبيع بعض المواشى والحلى والمحاصيل أن تسد ما يطلبه عمى عبد الفتاح من أقساط ثمن أرضه ، مما أوقعنا فى الديون والرهن ، وهما مشكلة ظللنا نعانى منها الأمرين فى هذه الفترة العصيبة .

ومع توالى الأزمات التى سببها عمى إلا أنه كان رجلًا طيب القلب ، حسن الثقافة ، كان هو المتعلم الوحيد فى الأسرة إن صح التعبير .. كان طيب القلب عطوفًا ذكيًا كريمًا ، وكان منكبًا على قراءة كتب المنفلوطى (النظرات- ماجدولين .. الخ) ، وكتب الرافعى (وحى القلم- المساكين- أوراق الورد) ودواوين شوقى ومسرحياته ، والقليل من مؤلفات طه حسين ، وبعض كتب التراث ، وكنت آخذ بعض هذه الكتب- بعد أن كبرت- وأحاول القراءة فيها ، فأفهم البعض ، ولا أستطيع استيعاب البعض الآخر ، وكنت ألجأ إليه أحيانًا ليشرح لى ما غمض منها ..لقد كان عمى بحق هو المورد الأول لثقافتى ، وهو الذى أخذ بيدى إلى التزود من الثقافة العامة ، وكان لا يبخل على الكتب بمال ، وأتذكر أنه كان ناقمًا على الحياة السياسية ، شديد النقد للأحزاب القائمة ..

إن عمى عبد الفتاح يستحق حيزًا كبيرًا من هذه الذكريات ، وقد أعود إليه فى صفحات أخرى ، لكن المهم ، أنه بعد أتى على كل ما يملك ، رفض أن يعيش عالة على أحد ، لقد باع آخر جزء من أرضه ، ثم اعتزم الهجرة إلى القاهرة ليبحث عن مصدر رزق فيها ، يومها بكى أبى ، وبكت أمى ،

وبكيت أنا الآخر بمرارة ، وقال له أبي : « لتبق معنا يا شيخ عبد الفتاح .. ورزقي ورزقك على الله ..»

لكنه ابتسم في مرارة وحزن وقال : « هذا لا يصح .. أنا لست صغيرًا .. ومن العيب الشنيع أن أبقى هكذا دون عمل .. إن كرامتي لا تسمح بذلك .. سوف أمضي إلى المدينة متوكلًا على الله .. وليكن ما يكون ..» ... وحمل متاعه ورحل ..

كانت الحرب العالمية محتدمة الأوار آنذاك ، والدنيا كما تقول خالتي مباركة « على كف عفريت ..»

ولم ينس عمي أني يأتي لوداعي في المدرسة الابتدائية التي كنت قد انتقلت إليها في قرية سنباط ، وأن ينفحني بقدر يسير من المال .. ولما رآني أبكي .. قال وشفته ترتعش : « لا تبك .. أنت رجل الآن .. وعما قريب تنال شهادة الابتدائية وتخطو الخطوة الأولى نحو المستقبل العظيم إن شاء الله ..»

يمكنني القول أن عمي عاني الكثير من المتاعب في البداية ، وتحمل شظف الحياة ومشاقها ، (وعمل في الأعمال التي لا تليق) ، لكنه في النهاية استطاع الحصول على عمل كتابي بوزارة الدفاع ، واستقر به إلى آخر حياته ، وأفاض الله عليه من نعمه ، وتزوج واتجه إلى الذكر والعبادة وقراءة القرآن ، فستره الله ، ووفقه توفيقًا كبيرًا ، وأحسن خاتمته ، ولم ينجب ، وبعد أن خرج بالتقاعد ، عاد إلى القرية ليعيش معنا هو وزوجته حتى وافتاهما المنية فيها ..

كانت أمي من أسرة كبيرة شهيرة في القرية هي أسرة الشافعي ، وكانت كثيرًا ما تبدى اعتزازها وافتخارها بأسرتها، بل وأسرة أخوالها أيضًا في كفر مجاور « كفر حسين » ، ومن المعروف أن أسرة الشافعي أيسر حالًا ، وأكثر أموالًا ، وأشد احتفالًا بتعليم أبنائها في المدارس الحديثة والأزهر ، وقد كان لهم فضل السبق في التعليم بالقرية هم وأسرة « جمال الدين » وعدد قليل من الأسر الأخرى ، كما إن عمدة القرية واثنين من مشايخ البلد ، وشيخ الخفراء من آل الشافعي ، أما جدى لأمي (الحاج عبد القادر الشافعي) فقد كان بحق رجلًا صالحًا ، حسن السمعة ، ومن كبار تجار القطن ، ولم يكن يبارى في فعل الخير ، وحب الناس له ، ونظافة سيرته ، وعدالة حكمه .

يمكن القول أنه واحد من القلائل ذوى السيرة العطرة في تاريخ القرية ، وكان حافظًا للقرآن ، صديقًا لعلماء الدين محبًا لهم ، لا يتعامل بالربا أبدًا ، رغم ظروف تجارته في القطن ، حيث تعرض للكثير من المحن والانتكاسات ، كما حظى مرات أخرى بالتوفيق والانتصارات ، وعندما تحيق به أزمة ، كان يبادر ببيع جزء من أرضه ليسدد ديونه ، ويرفض الاقتراض من البنوك أو الخواجات ، وسرعان ما يعوض خسارته في موسم قادم ، ثم يشترى أرضًا زراعية من جديد يعوض بها ما باعه . ولقد كنت شديد التأثر بأخلاقيات وسلوك هذا الرجل العظيم في طفولتي أكثر من تأثرى بأى إنسان آخر ، كان يشجع والدى على تعليمي ، ويقدم لي الهبات ، وخاصة عندما يعقد لي امتحانًا في المساء وهو مضطجع على سريره ، وكان رفيقًا بي عندما أخطئ ، فلا يكاد يشعر الآخرين بخطأى ، وكان يسألني في بعض المسائل الحسابية ، بل وفي بعض الألغاز الرياضية الطريفة ، التي تعتبر نوعًا من اختبارات الذكاء ، كما كان يدربني على الخطابة- حيث كنا في عصر تقاس فيه عظمة القادة والزعماء بمقدرتهم على صياغة القول ، وبراعة البيان ، وقوة الحنجرة- وحتى بعد أن كبرت ، واتخذت خطًا سياسيًا مغايرًا

لطريق حزب الوفد ، كان يناقشنى ويحاول توجيهى ، ويكشف لى عن بعض الأمور الغامضة ، والواقع أننى ظللت أكن له الاحترام والحب حتى اليوم ، وكان هو الآخر- رحمه الله- يحبنى أشد الحب ، إذ كنت أول حفيد له ، وكان ترتيبى الأول فى دراستى ، مما يجعله يعتز بى فى مجالسه الخاصة ، لدرجة أننى كنت دائمًا رسول أخوالى المقاربين لى فى السن (مالك وإبراهيم) إليه عند إلحاح بعض المطالب . وكما فعل جدى لأبى عند الذهاب إلى مكتب القرية ، فعل جدى لأمى ، إذ أخذنى إلى المدرسة الابتدائية بسنباط بنفسه ، وسجلنى فيها بعد أن أقنع والدى اللذين كانا خائفين من الأعباء المالية الكثيرة للتعليم .. وعند اعتقلت فى المرة الأولى عام ١٩٥٥ كان راقدًا فى فراش المرض ، وبكى واستدعى ولديه مالك وإبراهيم وقال بأسى : « اذهبا وابحثا عن ابن أختكما ..» ومات رحمه الله بعد شهور من اعتقالى حيث كنت سجينًا فى سجن « قره ميدان » أى سجن مصر ..

ومن المعروف أن نشوب الخلافات بين أفراد الأسرة الواحدة أمر لا يمكن تجنبه ، وأشهد الله أن جدى الحاج عبد القادر كان دائمًا يحكم بخطأ أمى ، حتى ولو لم تكن كذلك ، ويفعل نفس الشىء مع أبى ، وذلك بالنسبة لأعمامى وعماتى ، وكان يقول دائمًا .. « لأن تكون مظلومًا ، خير ألف مرة من أن تكون ظالمًا ..» تلك كانت فلسفته ، ولذلك كان أفراد أسرتنا يقصدونه دون تردد عندما تنشب أية خلافات .. لقد كان سلوكه العملى مصداقًا لتدينه وإيمانه ، وفى مجال الرزق لم يكن يخشى الغد أبدًا ، كان واثقًا من رحمة الله ، وأذكر أنه كان يتناول طعام الفطور أمام بيته ، ويدعو كل من يمر لمشاركته الطعام ، ونادرًا ما كان يأكل وحده ، ومع التزامه الصدق والجد والأمانة والدأب ، إلا أنه كان محبًا للمرح ، يبتسم للنكتة ، ويحفل بالحكايات الطريفة ، والمواقف المحرجة ، ويضحك حتى يحمر وجهه الأشقر المليء بالنمش ..، كان أولاده وأحفاده وأصهاره كثيرًا ما يجتمعون حول سريره فى المساء ، ويروى كل منهم الطرائف والملح التى جمعها ، وبعض النوادر التى تحدث فى القرية ، وهو يستمع فى منتهى السعادة والاستمتاع ، وغالبًا ما ينام مبكرًا ، حتى لا تفوته صلاة الفجر ...

ومن الغريب أنه زوج بناته الثلاثة بسهولة ويسر فى أسر متواضعة ، وكان بإمكانه أن ينتظر الفرص المواتية لزيجات أفضل من الناحية الاجتماعية ، لكنه لم يكن يعطى هذا الأمر كبير اهتمام ، يكفى أى يكون الزوج مناسبًا من الناحية السلوكية والأخلاقية .. وكانت زوجة « سكينة » التى ماتت دون الخمسين ، على قدر كبير من الحكمة والدقة والذكاء ، فقد أدارت شئون بيتها على أحسن ما تكون الإدارة ، ويكون الحزم ..

كان جدى لأبى « إبراهيم » يحبه الناس ويهابونه . وكان جدى لأمى « عبد القادر » يحبه الناس ويجلونه .. غير أن لكل واحد منهما أسلوبه الخاص ، وفلسفته فى الحياة ، وتعبيره المميز عن نوعية ومنهج من مناهج الحياة التى عاصراها ..

أذكر أن جدى إبراهيم كان قد أنذر زوجه الرابعة « مبروكة » بألا تهجر البيت مرة أخرى إلى بيت أهلها فى « ميت بدر حلاوة » ، وأفهمها أنه الإنذار الأخير ، وكاد يجن عندما عاد ذات مساء ليجدها وقد سافرت غاضبة دون إذنه ، وذلك بسبب خلافات بينها وبين زوجاته الأخريات ، فما كان منه إلا أن رفض طعام العشاء ، ثم امتطى حماره وانطلق تحت جنح الليل قاصدًا « ميت بدر حلاوة » ، ولم ينزل

هناك عن حماره ، بل طلب زوجه ، فلم يجدوا إلا التسليم ، وانصرف وهى تسير كسيرة وراءه ، وتحكى لى أمى أن جدى فى هذه الليلة همّ بإلقاء مبروكة فى بئر عميق بالطريق ، لولا أنها توسلت إليه بوليدها ، وأوصته به خيرًا ، فرق قلبه ، وصفح عنها على أن تكون المخالفة الأخيرة[١] .. لم ينظر جدى إلى الأمر من زاوية حجم الجرم وحجم العقاب ، بقدر ما فكر فى الأوضاع الاجتماعية والتقاليد السائدة ، إن خروج زوجة على طاعة زوج كجدى فى مثل تلك الأيام يعتبر أمرًا مشينًا للغاية ..

واندلعت الحرب العالمية الثانية وأنا فى الثامنة من عمرى ، وشاهدت أمورًا غريبة تحدث فى القرية ، رأيت مهاجرين قدموا من الإسكندرية ليسكنوا فى حارتنا المتربة بالقرية ، وهم بملابسهم الإفرنجية ، ولهجاتهم الإسكندرانية ، وحريتهم المنطلقة ، حيث تمرح النسوة ، ويغنى الشباب ، ولا يتحرجون فى الكلام مع أحد ، وقد أحدث ذلك فى حارتنا انقلابًا كبيرًا[٢] .

وكان الفلاحون ملزمين بحكم القانون بتوريد محاصيل القمح أو أغلبها للحكومة لإعاشة قوات الاحتلال ، وهكذا شحت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ووقع الناس فى ضوائق اقتصادية خانقة ، فكان من المألوف أن ترى الغرباء يفدون إلى القرية باحثين عن الحبوب والبقول ليشتروها ويلحون ، بل يتذللون عند الطلب ، ولم يكن غريبًا أن نسمع عن بيت فلان بأن ليس فيه كسرة خبز منذ يومين .. وأصبح الحصول على القماش والجاز والسكر والشاى والبطاطس والعدس والفول ، أمرًا بالغ الصعوبة ، إنى أتذكر أننا كنا نصنع الشاى أحيانًا بالعسل ، وكنا نستعمل البطاطا الحلوة بدل البطاطس ، وأصبح اللحم لا يشترى إلا فى فترات متباعدة ، وأسودّ لون الصابون والسكر والرغيف ، بل وجدت أثرياء البلدة يصنعون من البطاطين الصوفية الإنجليزية المسروقة جلابيب لهم ، بعد أن انعدم استيراد الصوف من بريطانيا العظمى آنذاك ، وضج الناس بالشكوى ، وأنشئت وزارة خاصة للتموين ، كانت بداية للنهب والاستغلال والسوق السوداء .

كما كثر دخول الصحف القرية ، وأخذ الناس يتحدثون عن أهوال الحرب ، وعن هتلر وتشرشل وموسولينى وستالين وروزفلت وغيرهم من زعماء العالم ، وعن الأسلحة الجديدة التى تبيد البشر ، ومن الأمور الملفتة للنظر أن أهالى قريتنا كانوا يعجبون بهتلر أيما إعجاب ، وأشيع عنه أنه رجل مؤمن يحب المسلمين والمصريين ، بل كان البعض يطلق عليه « محمد هتلر » وكانوا يفرحون لأية انتصارات يحققها الألمان ، ويقابلون الأنباء التى تتحدث عن انتصارات الحلفاء بالشك والريبة والضيق ..

وفى خضم تلك الأحداث المرعبة المتلاحقة تقرر أن التحق بمدرسة الأمريكان الابتدائية بقرية سنباط ، وهى مدرسة إرسالية تبشيرية أمريكية ... كان المفروض أننى أعد نفسى للالتحاق بالأزهر الشريف فى طنطا ، وكنت قد أوشكت علي الانتهاء من حفظ القرآن ، وأكملت استعدادى لامتحان الحساب والإملاء ، فضلًا عن أن المدرسة الأولية لا أمل بعدها .. ويبدو أن جدى عبد القادر رأى عدم مناسبة الدراسة الأزهرية لخالى مالك وإبراهيم ، فرأى أن يذهب بنا نحن الثلاثة إلى مدرسة الأمريكان ،

---

(١) انظر قصة «أنين السواقي» في كتابنا «عند الرحيل»

(٢) انظر قصة «مهاجرون» في كتابنا «عند الرحيل»

وهى المدرسة الوحيدة بالمنطقة التى تدرس اللغة الإنجليزية ، وتمنح شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ..

وفى صبيحة يوم مشرق من أيام آخر أغسطس سرنا فى الطريق إلى سنباط التى تبعد عنا ما يقرب من خمسة كيلو مترات ، كنا أنا وخالى نسير فى المقدمة ، ومن خلفنا سار جدى عبد القادر وصاحباه ، واستقبلنا مدرس اللغة العربية (الشيخ أحمد الراعي) صديق جدى بالبشر والترحاب فى غرفة الناظر (عطا الله أفندى نخلة) وكان قصيرًا جدًا ، وأديت الامتحان على السبورة السوداء المعلقة على حائط غرفة الناظر .. حيث أملوا على بعض مسائل الحساب ، واختبارًا فى الإملاء .. ونجحت بتفوق ، وكان المفروض أن يتم قبولى بالسنة الثانية طبقًا لمستواى ، لولا جهلى باللغة الإنجليزية التى تدرس فى هذه المدرسة اعتبارًا من العام الأول ..

وأصبح من المفروض أن يشترى لى أبى سروالًا قصيرًا وقميصًا من « الكاكى » ، وطربوشًا أحمر ، وحذاء جديدًا ، وكتبًا فى مختلف العلوم ، وكراسات كافية وبعض الأدوات الأخرى .. والأهم من ذلك أن يدفع أبى ستة جنيهات كمصاريف دراسية على أقساط .. وهو مبلغ كبير جدًا فى ذلك الوقت ..

وكان على أن أذهب إلى المدرسة عند مطلع الشمس ، وأعود منها وقت الأصيل (نظام اليوم الكامل) .. بعد أن أكون قد قطعت على قدمى ما يقرب من عشرة كيلومترات كاملة .. يوميًا .. صيفًا وشتاء ... بينما كان أبناء الأثرياء يذهبون ركوبًا على الحمير ، إن استخدام الحمير بالنسبة لى أمر مستحيل ، فليس لدى أسرتى سوى حمار واحد ، وليس من المعقول أن آخذه معى من الصباح للعصر ، وأهمل متطلبات الأراضى الرراعية والمواشي وما يتعلق بحياة الفلاح من أعمال ..

لم أكن أشعر بالتعب ، كنا نسير أفواجًا ، نضحك ونمرح ونجرى ، ونحكى القصص والْمُلَح ونتشاجر أحيانًا ، ونقلد المدرسين ، وخاصة حضرة الناظر ، وكان البعض منا- وأنا منهم- يخجل من لبس السروال ، فكانوا يلبسون الجلباب فوق البدلة ، ثم نخلعه عند وصولنا إلى باب المدرسة ، كما نخلع الطاقية أيضًا .. إن الذى يسير فى شوارع قريتنا بسروال أو عارى الرأس متهم .. هكذا كان ..

إن خروجى من قرية شرشابة إلى مدرسة سنباط ، كان بداية الرحلة الطويلة .. الرحلة التى امتدت إلى آفاق الدنيا .. ويا لها من رحلة ! !

❁❁❁

[٣] طريق بلا نهاية



توقظنى « خالتى » عند الفجر كل يوم ، وتعد لى طعام الفطور وتسخنه ، ثم تعطينى كوبًا كبيرًا من مغلى الحلبة المخلوط باللبن المسكر ، وتعلق الحقيبة القماشية المليئة بالكتب والكراسات فى عنقى فتتدلى إلى جانبى ، وأمسك بيدى اليسرى وجبة الغذاء اليومية ، والتى لا تخرج عن الخبز الفلاحى وقطعة من الجبن الخالى من الدسم ، ثم آخذ مليمين أو ثلاثة أو نصف قرش على الأكثر ، وهو مصروفى اليومى أو كل يومين ، ثم لا شىء بعد ذلك ..

كان الطريق إلى مدرسة الأمريكان بسنباط خاليًا تمامًا من أية سيارات ، وهو طريق مترب لكنه نظيف ، والحقول الخضراء على جانبيه ، وقبيل سنباط يوجد ضريح سيدى « نجم الدين » ، وهو ضريح بسيط للغاية ، عبارة عن مقبرة من الطوب اللبن ، تظللها شجرة جميز ضخمة ، وإلى جوار الشجرة زير ماء لعابرى السبيل ، وجوار الضريح أيضًا ، يوجد بيت صغير ، أقرب للكوخ منه للبيت ، وكنا كأطفال نعتبر سيدى نجم الدين (أو نجيم) كما يسميه العامة ، وليًا من أولياء الله الصالحين ، له رعاية خاصة بالطلبة أيام الامتحانات ، إذ كنا نظن أنه يعرف مدى ما نكابده من مشقة يومية فى المشى وفى المذاكرة ، ولذلك كنا نقدم له النذور التى لا تخرج عن بضع مليمات ، نعطيها لامرأة وحيدة ، تقيم فى البيت الصغير المجاور ، وكان إذا رسب طالب من الطلبة أقسم ألا يعطى سيدى نجم الدين أى شىء ، وقد يتشاجر معه مشاجرة طريفة ، هى فى الواقع من جانب واحد ..

ومعظم أساتذة مدرسة الأمريكان آنذاك كانوا من الإخوة المسيحيين بما فيهم الناظر ، وينتمون أصْلًا إلى أسر من الصعيد ، وكان لهجتهم « الصعيدية » تنم عن ذلك بوضوح .

وكان أبرز هؤلاء المدرسين ، وأشهرهم على الإطلاق « أنجلى أفندى حنا » ، إذ كان متين البنيان ، يلبس نظارة طبية سميكة ، ويمسك بيده دائمًا عصا خيزران ثقيلة ، يقال أنها منقوعة فى الزيت ، كما يحكم الطربوش على رأسه بصورة دائمة لا تتغير ، وهو يدرس الحساب لبعض الفصول ، وكذلك العلوم ، كما يدرس الإنجليزية للصف الأول ، وهو إلى جوار ذلك « ضابط المدرسة » المشرف على النظام ، وكان دائمًا متوترًا عالى الصوت ، لا يتفاهم إلا بالخيزرانة ، مؤمن أعمق الإيمان بالعقاب الصارم كوسيلة للإصلاح والتقويم ورفع المستوى العلمى والخلقى للتلاميذ والتلميذات ، وكان هو الذى يشرف على طابور البداية والنهاية والفسحة ، ويلقى التعليمات اليومية دون مراجعة ، وكنا نخاف منه أشد الخوف ، ونحلم به أثناء الليل ، كان إذا كثر عدد المخطئين فى الفصل ، يصر على معاقبة الجميع دون رحمة ، ويحرمهم من الفسحة الكبيرة- فسحة الغذاء- ويثقل عليهم فى الواجبات .. أذكر مرة أنه فى إحدى حصص العلوم قرر معاقبة فصلنا ، وأخذ ينادينا بالأرقام ، فقد كان لكل طالب رقم يحفظه

جيدًا، فيقول واحد .. اثنين .. ثلاثة .. وهكذا، وكان رقمى هو الأخير (حرف النون) السادس والثلاثون .. وكان من المعروف أننى أول الفصل فى الامتحان .. وآلمنى أن أتلقى العقاب بتلك الخيزرانة المؤلمة مع أنى أعطيت إجابات صحيحة كاملة، وثارت ثائرتى، فكبتها .. إن «أنجلى أفندى» لا يتراجع عن قرار أصدره، ولا يقبل أية مناقشة أو تفاهم .. وجاء دورى، فخرجت من مقعدى بخطى سريعة مرتجفة وقلبى يدق، ومددت يدى لكى أتلقى الضرب على راحتى فى استسلام وأنا أقول: «يا أفندى أنا لم أخطئ، فما السبب فى عقابى»

ابتسم فى صدق، وقلما كان يحدث ذلك، ثم نحى عصاه وقال: «حسنًا .. سوف أسألك سؤالًا آخر، إن أجبت عليه فسوف أسامحك ..» كان السؤال سهلًا للغاية، فأجبت عليه بسرعة، فضحك وهو يقول: «انصرف .. سماح هذه المرة»

وكان أمرًا مثيرًا للدهشة بين الطلبة، أن يتسامح أنجلى أفندى .. ومرة أخرى أعطانا مسألة حساب، فقمت بحلها تحريرًا على الفور، وكم كانت دهشتى عندما رأيته يشطب عليها ويكتب «خطأ»، وأمسك عصاه هذه المرة، وعاقبنى عقابًا مريرًا على كلتا يدى، فانهمرت دموعى بغزارة، ولم يستطع أى طالب أن يقدم الإجابة الصحيحة التى يريدها، وأخيرًا عاقب الفصل كله، ثم وضع الحل النموذجى على السبورة السوداء، وطلب منا جميعًا أن ننقله فى كراساتنا ونتفهمه حتى لا نخطئ مرة أخرى ..

الحق أننى لم أقتنع بحله، ولم أستطع إدخاله فى رأسى، وفى الفسحة الصغيرة تسللت إلى غرفة المدرسين، ولم يكن «أنجلى أفندى» موجودًا فيها لحسن الحظ، وانفردت بالأستاذ «أديب أفندى» وهو مدرس رياضيات آخر متخصص متمكن، وشرحت له القضية، وأبديت وجهة نظرى، فأطال الرجل النظر لدقائق قليلة، ثم هز رأسه، ونظر إلى فى عطف وتقدير وقال: «انصرف أنت .. وجفف دموعك ..»

وفى الحصة الأخيرة جاء «أنجلى أفندى»، وقال بصوت صارم حاسم: «اخرجوا كراسات الحساب، واكتبوا هذا الحل السابق ..»

دق قلبى من الفرح، إنه الحل الذى ارتأيته، هزنى الفخر، وشعرت بالشماتة فى «أنجلى أفندى»، لكنى دفنت رأسى فى الكراس ولم أرفع إليه عينى حتى لا يقرأ شيئًا فيها، ثم عاد إلى الدرس الجديد .. لكن والحق يقال كان الرجل مخلصًا فى عمله، لا يضيع دقيقة من وقتنا، وكان يراقبنا داخل المدرسة وخارجها، فعندما قرر أن نسكن فى قرية سنباط، حتى يتابع مذاكرتنا بنفسه أثناء الليل فى المدرسة تحت الأضواء الغازية، كان يداهمنا فى مسكننا المستأجر بقروش قليلة، ويتصنت علينا، ليرى هل نلعب أم نذاكر، ويا ويلنا إن كنا نلهو أو نعبث .. إنه على الفور يدخل علينا، ونحن جلوس على الحصير الذى نفترشه، ويأمرنا بعدم الوقوف، ثم يضربنا «علقة ساخنة» بعصاه التى لا ترحم ..

كان شبح «أنجلى أفندى» يطاردنا فى كل مكان، وكنا نحسب له ألف حساب، ومن لا يستطيع الصمود أمام هذه المعاملة القاسية، عليه أن يبحث له عن مكان آخر (وهذا غير متوفر)، أو يستسلم للأمر الواقع ويحاول أن يجتهد، حتى يخلص بجلده ..

وكان لأنجلى أفندى أسبوع كل عام يذهب فيه إلى الصعيد، كى يستحضر زاده من السمن والجبن والعدس وباقى مواد التموين الأخرى، وكنا نتنفس الصعداء فى هذا الأسبوع، وتتحول المدرسة بحق إلى حالة من الفوضى لا مثيل لها، ويزداد العبث، وترتفع صيحات الطلبة، وتكثر المشاجرات والمشاحنات، كما يكثر الإهمال والغياب والحضور فى وقت متأخر من الصباح، وكأن الطلبة ينتقمون من قسوة «أنجلى أفندى» ونظامه العسكرى الرهيب، فإذا ما عاد من إجازته، ساد الصمت والحزن والنظام، ويبدو أن الناظر «عطا الله أفندى نخلة» يدرك حالتنا النفسية، فيترك لنا الحبل على الغارب أثناء غياب أنجلى أفندى، كنوع من التخفيف أو الترفيه.

وذات مرة سافر «انجلى أفندى» إلى الصعيد، وعمت الفرحة أرجاء المدرسة الصغيرة، وكنا أثناء الليل نجلس فى غرفتنا المستأجرة فى منزل «عجايبى وزوجته كاترينا» نغنى ونضحك، ونتبادل النكات، ونمتص عيدان قصب السكر، وفى ليلة من هذه الليالى الباردة الشديدة المطر، جلسنا نتسامر بعد العشاء، وكان معنا طالب كبير السن نوعًا، جلس على بسطة النافذة المطلة على الشارع، وأخذ يروى لنا عن بعض قصص العشق والغرام فى قريتنا،ويحدثنا عن امرأة داعرة، ويطنب فى الوصف بحماس بالغ، وجلجل فى الصمت والظلام صوت «أنجلى أفندى» عند النافذة وهو يقهقه ويقول: «نم يا كلب حتى الصباح .. وسأعرف كيف أؤدبك ..»

وقذف المسكين بكليته من النافذة التى تعلو أكثر من متر وربع بالغرفة وساد الصمت والرعب .. يا إلهى .. من الذى أتى بأنجلى أفندى فى هذه الساعة من الليل البهيم الممطر؟ إن أسبوع الإجازة لم ينته بعد ..

وكانت قصة مؤلمة سجلتها ذات يوم تحت عنوان «الغرباء» ونشرتها فى مجلة القصة المصرية، ثم جمعتها مع مثيلاتها فى كتاب «عند الرحيل».

أمر لا ينكر هو أن هذا الرجل القاسى كان سببًا فى نسبة النجاح المرتفعة كل عام فى المدرسة، ولابد أن يكون هناك واحد منا أو أكثر من العشرة الأوائل فى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية فى منطقة وسط الدلتا، وهى من أكبر المناطق التعليمية، وفى أغلب الأحيان كان أنجلى أفندى يستطيع أن يتنبأ بنسبة النجاح، وبمن سيكون من الأوائل ..

كانت إدارة المدرسة على علاقة طيبة بأولياء الأمور، وتتفاهم معهم حول أية مشكلة من المشاكل، وكانت الدروس الخصوصية علنية ومسموح بها، لكنها كانت قليلة. وكان بالمدرسة ما يسمونه «درس الأحد»، وهو درس دينى حسب الديانة المسيحية، وكنا نقابل الدرس بغير حماس، فأغلبنا من المسلمين، ثم شكونا إلى آبائنا، فطلبوا من المدرسة قصره على الطلبة المسيحيين، وقد تم ذلك بالفعل، لكن هذا لم يمنع بعض المناقشات التى تدور بيننا وبين المدرسين أو الطلبة المسيحيين حول فضل سيدنا عيسى، والمقارنة بين المسيحية والإسلام، لكن هذه المناقشات، لم تخرج عن إطار التسامح والآداب المرعية فى الحوار والجدل، ولم تتسبب فى إلحاق الأذى بأحد ..

وكان أستاذ اللغة العربية شيخنا الجليل الأستاذ «أحمد الراعى سليمان» رجلًا متمكنًا من علمه، وذا خبرة واسعة، أحسن تدريس اللغة والدين الإسلامى لنا، وترك بصماته على تفكيرنا وسلوكنا

وعواطفنا ، وكان صديقًا لجدى « الحاج عبد القادر الشافعى » ، وعلى الرغم من طيبته وابتسامته إلا أنه لم يكن يتسامح مع المهملين أو المقصرين ، بل كان يقسو على خالى الأصغر « إبراهيم » رغم صداقته لوالده ، ويضربه دون رحمة .

وكان الفصل مشتركًا بين البنين والبنات ، وإن كان عدد البنات لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة أو أكثر قليلًا ، ومن بين الطالبات ابنة الناظر « أيرث » وابنة « أنجلى أفندى »

- « وداد » وابنة عمدة سنباط « تهانى » وابنة أستاذ اللغة العربية والدين « محاسن » وغيرهن ..

عندما دخلت المدرسة الأمريكية لأول مرة ، كنت خائفًا جدًا من اللغة الإنجليزية التى لا أعرف فيها سوى حرف واحد وهو «L» عرفته بالصدفة ، وجاء أنجلى أفندى فى أول درس ، يكتب حرفًا لكل طالب ينطقه وحده ، وارتجف قلبى ، إننى لا أعرف شيئًا ، وهتفت من أعماقى « يا رب » ، إن كل من يخطئ يضرب بالعصا .. وشعرت بالظلم ، يجب أن يعلمنا أولًا ، ثم يجرى لنا الاختبار ، لكن كيف نجرؤ على قول ذلك ؟ وكم كانت دهشتي- عندما جاء الدور علي- ووجدته يكتب الحرف الوحيد الذى ارتسمت صورته فى مخى ، فأجبت وجلست وأنا لا أكاد أصدق ، إنها صدفة فى منتهى الغرابة ، وطوال الكيلو مترات الخمسة أثناء عودتى من المدرسة ، التقطت أحد الطلبة القدماء ، وطلبت منه أن يكتب لى الحروف الأبجدية الإنجليزية ، ثم قمت أنا بكتابة النطق فوق كل حرف ، وفى المساء جلست تحت ضوء لمبة الجاز فى بيتنا وسط ضجيج الأسرة ، وأخذت أحفظ الحرف ، ولم أنم إلا بعد أن أتقنت حفظها قراءة وكتابة .. ولم يكن فى أسرتنا أو جيراننا أو شارعنا الطويل من يعرف شيئًا عن الإنجليزية ، ومن ثم كان من الضرورى أن أعتمد على نفسى فى كل شىء ، وأن أعتصم بالله .. وهكذا مرت تلك العقبة الكئود بسلام .

كانت قرية سنباط كبيرة ، وملتحمة بكفر العرب ، وكان فيها حى كامل للإخوة المسيحيين ، يُطلق عليه « حصة سنباط » ، وكان معظم الإخوة المسيحيين من ذوى اليسار والوظائف ، فهم يعملون فى مكتب البريد ، وفى سكة حديد الدلتا وأعمال الصيرفة وتجارة المجوهرات ، ويمتلكون ماكينة الطحين الوحيدة فى سنباط ، ولهم بعض المتاجر والحرف الهامة كالنجارة وصناعة الأحذية وتربية النحل وغير ذلك ، وكان هذا يبدو جليًا على ملابس أولادهم ومصروفاتهم اليومية ، كما كان للمسيحيين كنيسة فى قلب القرية ، وقد ذهبنا إليها ذات يوم من باب الفضول ، فكان من الملفت للنظر أن نرى الزائرين من المسيحيين يقبلون الستائر والأبواب ويتبركون بها ، مثلما يفعل بعض الدهماء من المسلمين فى أضرحتهم!!

وعلى مقربة من البيت الذى نستأجره فى سنباط ، يوجد بيت تقيم فيه « الغوازى » اللائى تحدثت عنهن فى الصفحات السابقة ، وفى كثير من الليالى كنا نسمع دقات الطبول والدفوف وأصوات الغناء والموسيقى ، والضحكات المتكسرة حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكنا نحاول أن نتلكأ حول ذلك البيت لنشاهد ما يجرى داخله من مجون وعبث ، عبر الأبواب والنوافذ ، وقد يحلو لبعض الطلبة أن يصفقوا ويرددوا مقاطع بعض الأغنيات التى يسمعونها بالداخل ، ومن أشهرها آنذاك أغنية:

البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلي وعيونى لما بكوا دابت مناديلي

روح يا قمر والنبى ع الحلو مسيّ لي ع الحلـــو مـــــســــيّ لـــــي

ولم يكن من المستغرب أن ترى فى مدرستنا (وهى مدرسة أهلية خاصة) طلبة قد تخطو السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، إذ لم يكن عمر محدد للطلبة أو الطالبات ما دام ولى الأمر يدفع المصروفات المطلوبة .

وعلى غير العادة كان « أنجلى أفندى حنا » يبدو منشرحًا باسمًا إذا خرج معنا فى إحدى الرحلات ، وكان أهم هذه الرحلات إلى القناطر الخيرية ، حيث يدفع كل طالب قرشين أو ثلاثة ، تكفى كأجرة للقطار ولبعض الأطعمة المشتركة ، وكنا نأخذ معنا فى هذه المناسبة بعض الفطائر الفلاحى اللذيذة الطعم ، وكمية من الجبن والعسل الأسود ، ويتركنا أنجلى أفندى نلهو ونمرح فى الحدائق الجميلة الشاسعة ، بل ويشاركنا فى لعب الكرة بشىء من الوقار والتأنق ، ويسمح لنا بالاختلاط مع مدارس أخرى تأتى مصادفة من القرى المجاورة ، ومن مدينة زفتى ، وكانت أغنيتنا المفضلة ونحن نركب « قطار الدلتا » الصغير تقول :

الفاتحة للكمسري قلع الطربوش وعمل وَليّ

كما كان النشيد المدرسى المقرر آنذاك :

بلادى بلادى فداكِ دمى وهبت حياتى فِدىً فاسلمي
غرامك أول ما فى الفؤادِ ونجواكِ آخر ما فى فمي
سأهتف باسمك ما إن حييت تعيش بلادى ويحيى الملك .

وكان ملعب المدرسة صغيرًا جدًا ، وفيه استعدادات للعب كرة السلة ، ويشاركنا فيها بعض المدرسين الشباب ، ولم نكن نغفل حصة الألعاب على الرغم من الكيلو مترات العشرة التى نقطعها ذهابًا وإيابًا ، كما كانت تعقد المباريات المختلفة فى هذا الفناء الصغير (الملعب) ، وتوزع جوائز رمزية على المتفوقين .

وكان يجلس إلى جوارى على المقعد المدرسى الأخ « عبد الأحد جمال الدين » ، وهو حاليًا الأستاذ الدكتور عبد الأحد رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة ، ومستشارنا الثقافى السابق فى فرنسا ، وأستاذ سابق أيضًا بكلية الحقوق ، وكان مولعًا بالسياسة منذ صغره ، وتربطنا معًا صداقة وطيدة ، وكان من رأيه ، أن نجمع مليمات لنشترى صحيفة يومية للفصل نقرؤها معًا بصوت عالٍ ، لنعرف أخبار الحرب والسياسة والإنجليز بالذات ، وقد وافق « أنجلى أفندى » على ذلك ، كما طلبنا فى يوم من الأيام من إدارة المدرسة أن يُسمح لنا بالخروج فى مظاهرة سلمية أثناء الفسحة الكبيرة فقط ، نعبر فيها عن مشاعرنا ضد الإنجليز ، ونطالب فيها « بالجلاء التام » ، أو الموت الزؤام » ، وذهلنا عندما تمت الموافقة على ذلك ، مع التزامنا ببعض الشروط الضرورية التى يفرضها النظام والأدب ، وسرنا فى شوارع سنباط- كما يفعل الكبار فى المدارس الثانوية- وأخذنا نردد " الجلاء بالدماء ... مصر والسودان لنا .. وانجلترا إن أمكنا .. نموت وتحيا مصر .. والله أكبر والعزة لمصر ..»

كما كان لنا بعض الهتافات المضحكة ، نقولها فى حماس عجيب مثل:

* كنت فين يا « بيغن » وأمك بتدوّر عليك
* كنت عند « تشرشل » .. الله يحنن عليك ..

وبلغنا فى مظاهرتنا الصغيرة مكتب البريد ، واعتلى « عبد الأحد » مصطبة مجاورة ، وأخذ يرتجل فى حماسة بعض العبارات المأثورة عن مصطفى كامل وسعد زغلول باشا ، وغيرهما من الزعماء ، ونحن نصفق ونهتف ونهلل ، وما إن انتهى من خطبته ورواد « سوق الاثنين » بسنباط ينظرون إلينا فى متعة وابتسام ، حتى ظهر « أنجلى أفندى » بخيزرانته ، ونادى بأعلى صوته قائلًا : « كفى يا أولاد .. لقد عبرتم عن شعوركم .. عودوا إلى المدرسة لأن الفسحة أوشكت على الانتهاء .. »

كان لطيفًا رقيقًا هذه المرة أيضًا ، رغم الخيزرانة التى فى يمينه ، وجرينا كأننا فى سباق إلى الشارع الطويل الذى يؤدى إلى المدرسة ..

وعلى ذكر الفسحة الكبيرة ، وهى عادة بعد الحصة الخامسة ، نخرج من المدرسة ، ونذهب إلى أحد المساجد القريبة ، الذى يقع ملاصقًا للغيطان الخضراء ثم نجلس فى تجمعات ، ونفك عقدة المناديل ، ونبدأ فى أكل الخبز والجبن والمخللات والخس الأخضر أو البصل ، وفى الغالب نخلط الطعام كله ، ونأكل سويًا .. إن شعورنا بالجوع يجعلنا نلتهم الطعام التهامًا رغم تواضعه ، كنا كمن يأكل لحمًا مشويًا ، ثم نشرب الماء العذب من طلمبة المسجد ، ونتوضأ ونصلى ، ثم نعود إلى المدرسة لتكملة الحصص ، وننصرف آخر اليوم الدراسى حوالى الثالثة والنصف بعد الظهر تقريبًا ..

وأمام المدرسة يباع الترمس والفول السودانى والخروب والبطاطا الساخنة الشهية ، ويمكننا أن نشترى بما معنا من مليمات أو بما تبقى لدينا من خبز جاف ، وما أكثر ما يسيل لعابنا أمام البطاطا الحلوة فى الشتاء فى وقت لا يكون معنا ما نشترى به ، فننصرف فى حسرة ، دون أن نقترب من البائعة العجوز شبه العمياء الست « إخوات » .

وكثيرًا ما كان يحدث احتكاك بين أبناء شرشابة وأبناء سنباط ، ويصل الأمر لدرجة كبيرة من التوتر ، وكان يحدث أن يتفق الطرفان على إقامة معركة رسمية فى مكان محدد ، وموعد محدد ، فيحدث الصدام بالعصى والكرابيج والأيدى ، ولا ينتهى إلا إذا سلب أحد الطرفين سلاح الآخر ، وذات مرة حضر « أنجلى أفندى » بنفسه كأنما انشقت عنه الأرض ، ووجدنا منهمكين فى المعركة ، ودوت صفارته التى نعرفها جيدًا ، والتى تشبه صفارة الخفراء فى القرى ، وسرعان ما توقفت المعركة ، فحاولنا الهرب ، لكن صيحاته أوقفتنا جامدين متلبسين .. وأوقفنا وسط الشارع طابورين متقابلين ، واحد لأبناء شرشابة والآخر لأبناء سنباط ، وأعطانا بخيزرانته درسًا عمليًا لن ننساه ، وأمسك بى من أذنى قائلًا : « حتى أنت ؟ »

وكاد يخلع أذنى ، لكنه كان رفيقًا بى لحد كبير عندما هوى بخيزرانته على كفى .. لماذا كان يحدث ذلك ؟

لم يكن هذا السلوك أمرًا غريبًا آنذاك ، إن الأسر فى قريتنا تتصارع وتتقاتل ، والدماء تراق لأوهى الأسباب ، والأخذ بالثأر أمر طبيعى ، والخلافات الناجمة عن الانتماءات الحزبية تزعج قريتنا ، والصراع على « العمودية » و « مشيخة » البلد أمر مألوف ، حتى علماء قريتنا كانوا يختلفون ويتشاجرون فى المساجد بسبب حكم شرعى ، يوافق عليه « الشافعية » ويرفضه « الحنفية » ، أو بسبب التصوف وما يدور حوله من آراء ، ورأيت بعينى رأسى عالمًا يهجم على المنبر ، ويجر عالمًا آخر لينزله ، بسبب الخلاف حول

بعض الفرعيات المتعلقة بزكاة رمضان . والأعجب من ذلك إن لى عمًا عالمًا مقيمًا فى بلدة « حنون » ، ويعتبر واحدًا من كبار رجال الجمعية الشرعية ، كان يأتى لزيارتنا كل عام ، ويذهب إلى المسجد الكبير لخطبة الجمعة ، وذات مرة حدث خلاف بينه وبين إمام المسجد حول ركعتى السنة قبل الخطبة .. واحتدم الخلاف ، وتوتر الموقف ، ويومها وجدت الفلاحين من أسرتنا يذهبون ، ويحضرون العصى الغليظة ، استعدادًا لما قد يطرأ من معارك ، كنت صغيرًا لا أعرف أبعاد هذا ، لكن الله سلم ، بسبب حكمة عمى العالم ، وتصريحه من أراد أن يصلى الركعتين فليصلهما ، ومن لم يرد فليفعل ، وتحدث يومها عن التسامح بين المسلم وأخيه ، وإفساح الصدر للخلافات ، ومن ذاك اليوم حفظت العبارة الشهيرة التى تقول (اختلاف الأئمة ، رحمة بالأمة) وبعد أن نضجت ، وتربيت فى مدرسة « الإخوان المسلمين » ، ومررت بالعديد من التجارب المريرة ، كنت أشعر تدريجيًا بتضاؤل تلك النزعات التعصبية رويدًا رويدًا .. لقد كان زماننا القديم مليئًا بالعلل والتناقضات ، وكانت حياتنا فى القرية فى المدينة خاضعة لتقاليد ومؤثرات ومواصفات يصعب الإفلات من إسارها ، لكن هل عالم اليوم تخلص من الحروب والصراعات والعلل والتناقضات ؟ ما أشبه الليلة بالبارحة وإن اختلفت الأسباب والمواصفات ...

كانت إجازة الصيف فى المرحلة الابتدائية- بل فى المراحل التالية أيضًا- طويلة ، وكان لابد من ملئها ، لكن كيف ؟ لم يكن فى استطاعتى أن أذهب إلى المصايف ، أو أسافر إلى المدن ، ولذلك فإن الرياضة والقراءة كانا هما الملاذ الأول والأخير ..

كنت أعشق لعبة كرة القدم وألعاب القوى ، وكان بالقرية مساحات شاسعة تصلح للعب ، كما كانت « جماعات نشر الرياضة بالقرى » والتى يترأسها الأمير عمرو إبراهيم تؤدى دورًا بارزًا للفلاحين ، ولهذا استطعت أن أتقن اللعب الكثيرة مثل رمى الرمح والقرص والجلة ، والوثب الطويل والوثب بالبوصة ، والجرى لمسافات طويلة ، كما تقدمت كثيرًا فى لعبة كرة القدم ، وأصبحت واحدًا من الفريق الرسمى لمدرسة طنطا الثانوية الجديدة ، وهو أمل يحلم به الكثيرون ، وسافرت للاشتراك فى مسابقات بالنادى الأهلى بالجزيرة .

لكن تبقى فترة الصباح والمساء ، حاولنا إقامة نادٍ صغير ، وأخذت ألتهم الكتب التهامًا ، وكانت معظم قراءاتى فى كتب الأدب والدين وبعض المجلات السيارة قديمها وحديثها مثل مجلة الرسالة والهلال والمقتطف والأزهر ، وكنت مولعًا بكتب الشعر خاصة .

وكان شيخ الطريقة الصوفية الأحمدية فى بلدنا المرحوم « الشيخ محمود المداح » وكان رجلًا وسيمًا نظيفًا رقيقًا كأنه ملاك ، وكان أنيقًا فى جبته الجميلة وقفطانه ، مجرد مشاهدته توحى بالراحة والاطمئنان والإجلال ، وكنا نقبل يده فى حب يقترب من العشق ، وكان - رحمه الله- يحبنى ويعجب بى لتواجدى بالمسجد كثيرًا ، ولتفوقى فى الدراسة ، لدرجة أنه اختارنى دون غيرى ، لكى يملى على خطاباته الخاصة التى يرسلها لإخوانه وأصدقائه ودراويشه فى مختلف الأنحاء ، وبعد أن أنتهى من كتابة الخطاب ، يأخذه منى ، ثم يوقع عليه « الفقير إلى الله تعالى محمود أحمد المداح » ، وكان يوصينى ألا أخبر أحدًا بمضمون خطاباته ، وبالطبع كانت وصيته أمرًا ، ولهذا كنت أحضر مجالس الذكر والحضرات منذ الصغر ، وأحفظ « المنظومة » التى تبدأ بالبيت التالى :

لأسمائك الحسنى عُبيدك قد ثنى عنانا له يرجو بها يدرك المنى

كما حفظت معظم « بردة البوصيرى » ، ،كان لإعجابى وارتباطى بهذا الرجل الكثير من الفوائد والسلوك الإيجابى فى حياتى فى تلك الفترة ، على الرغم من أن نظرتى للتصوف والمتصوفين قد تعمقت بالإطلاع والدراسة ، وتطورت إلى وضع مقبول لا غبار عليه ، ولا شبهة فيها ، تحت شعار الآية الكريمة ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ، فسمة المؤمن الحق ، الإيمان والتقوى ..

إن قراءات الصيف التى ضمت الكثير من المؤلفات ، حتى قصص الجيب والروايات البوليسية والترجمات العديدة ، وحفظ القرآن والكثير من الأحاديث النبوية ، والشعر القديم والحديث ، وبعض النصوص البلاغية ، وسير القدماء والمحدثين وغيرها ، قد زودنى بحصيلة كبيرة من المعرفة ..

ومن حسن الحظ أن فئة من الجامعيين والخريجين ، خاصة فى الأزهر الشريف ، كانوا يجمعوننا حولهم فى القرية أثناء الإجازة الصيفية ، وكنا نرى فى أيديهم الكتب القيمة ، ونسمع حوارهم الثرى المفيد ، ونتعلم منهم الكثير من النصوص والأحكام الشرعية ، والمقارنات الأدبية ، والأخبار التاريخية ، أذكر منهم بالذات الأستاذ الفاضل محمد أحمد حسب الله المدرس ، والمحقق أيضًا فى دار المعارف فيما بعد ، فقد كان أكثرهم علمًا وثقافة ودراية ، وقد تخرج من كلية اللغة العربية ، ثم درس عامين بمعهد التربية العالى بالإسكندرية فى علم النفس والفلسفة والتربية ، وكان يطلب منى أن أشاركه فى قراءة بعض الكتب الهامة أثناء المرحلة الثانوية ، أذكر منها كتاب « قادة الفكر » و « وحى القلم » وأجزاء من دواوين شوقى ومسرحياته وديوان المتنبى وبعض قصائد أبى العلاء المعرى ..

كانت متعتى الكبرى فى القراءة .. ويخيل إلى أننى لم أكن لأشبع منها أبدًا ، لقد أصبحت نوعًا من الإدمان إن صح التعبير ، وعندما أعلم أن فلانًا لديه كتاب ذو قيمة ، كنت أفعل المستحيل لاستعارة هذا الكتاب ، ولم تكن الحالة المالية تسمح بشراء ما يلزمنى من كتب ثقافية خارجية ، لكننا كنا نتبادل الكتب كأصدقاء ، أو نشترك فى شراء واحد منها ، أو شراء مجلة من المجلات القيمة كالهلال مثلًا ، كما كنا نحرص على قراءة مجلدات الرسالة القديمة ، ونشتريها من مكتبة « فك الأزمة » الشهيرة فى طنطا ، ولم أكن أتضايق من الكتب الصفراء مثل بعض الزملاء ، بل كنت أحرص أشد الحرص على قراءة البعض منها .

كان للكلمة المطبوعة مفعول السحر فى نفسى ، لم تكن ملكة التمييز قد اكتملت بعد لدى ، لذا كنت أقرأ أى شيء ، كما كانت لدى المقدرة على حفظ الكثير من النصوص ، وقد بدأت كتابة الشعر- تقليدًا- فى وقت مبكر جدًا ، أى فى آخر المرحلة الابتدائية .. هكذا بدأت رحلة العلم .. ورحلة الكلمة ... الرحلة الطويلة التى تبدأ .. لكنها لا تنتهى أبدا ..

❀❀❀

[٤] منعطفات



في المدرسة الابتدائية بسنباط ، أنشئت جمعية أدبية للطلاب ، وكان لهذه الجمعية رئيس ووكيل وسكرتير ومراقب ، وتعقد اجتماعها الأسبوعى بعد دروس يوم السبت ، إذ كانت الراحة الأسبوعية يوم الأحد ، وكل اجتماع يحضره « رئيس شرف » هو فى الغالب « أنجلى أفندى » ، وتبدأ الجلسة بأخذ الغياب ، وكلما نادى الرئيس اسم العضو ، يقف ذلك العضو ويردد بيتًا من الشعر ، بدلًا من أن يقول « أفندم » ، ثم يتلى محضر الاجتماع السابق ، ثم تبدأ أعمال الاجتماع ، وهى عبارة عن « مباراة أدبية » بين اثنين من الطلبة ، وغالبًا ما يكون موضوع المنافسة بين مهنتين من المهن ، أو حرفتين من الحرف ، فمثلًا تكون المباراة بين المحامى والطبيب ، أو بين الصانع والتاجر ، أو بين الفلاح والجندى ، وهكذا ، يقف أحد الطرفين ، ويذكر محاسن مهنته ، وأثرها الاجتماعى ، وما تقدمه للوطن من أعمال بناءة تنهض به ، وترفع من مستواه ، ثم ينحى باللائمة على مثالب المهنة الأخرى ، فإذا كان صاحبها تاجرًا هاجم السوق السوداء ، والغش التجارى ، وإخفاء السلع ، والقسوة على الفقراء والمساكين ، والجشع السائد ، وبعد أن ينتهى الطرفان من إلقاء كلمتيهما ، تؤخذ الأصوات ، ومن يحصل على الأغلبية يكون هو الفائز ، ومن ثم يُهنَّأ بعاصفة من التصفيق الحاد ، ثم ينفض الاجتماع كى يعقد فى الأسبوع القادم .

وكان « المراقب » يسجل أسماء الغائبين ، وأسماء الذين يتكلمون أو يثرثرون أثناء عقد الاجتماع ، ثم يصدر الرئيس على الفئتين حكمه فى نهاية الجلسة بغرامة مليمين أو ثلاثة ، والحصيلة السنوية فى نهاية العام يستفاد منها فى إقامة « حفلة شاى » يسعد بها الجميع- طلبة ومعلمون- قبل أداء الامتحان الأخير ..

ولم يكن طالب الابتدائى بقادر على أن يدبج الخطبة المطلوبة التى تحقق له الفوز ، ولذلك كنا نلجأ إلى بعض المدرسين ، وأشهرهم الأستاذ « عبد العاطى زيان » ، فقد كان خريجًا متفوقًا من مدرسة المعلمين ، لكنه كان ضعيف البصر مما سبب له عقبة كبرى فى الالتحاق بوظيفة مدرس حكومى ، لأن شروط اللياقة الطبية آنذاك كانت قاسية جدًا ، ولهذا جاء ليعمل « مدرس تربية رياضية ! ! ! » بمدرستنا ، رغم ضعف صحته وبصره ، وبراتب شهرى ضئيل « أربعة جنيهات) ، كان الأستاذ عبد العاطى إنشائيًا مبرزًا ، يحفظ الكثير من شواهد الشعر ، وتميل موضوعاته إلى السجع ، فيقول مثلًا مهاجمًا التجار :

« يوم تأتى جهنم وتقول ، فى صوت جهورى مهول ، أين تجار الأقمشة وقد أخفوها ، وفى السوق السوداء باعوها ...»

ولهذا كنا نلجأ إليه ليكتب لنا موضوعات المنافسة الأدبية ولا مانع لديه من أن كتب لكلا الطرفين المتنافسين ، وبعض الطلبة كان يذهب إلى أحد أقربائه المقتدرين ليعد له خطبة عصماء ، وكان كل طرف حريصًا على كسب أصوات الطلبة ، وكان طريقة الإلقاء ، وقوة الصوت ، والحركات المصاحبة ،

والانفعال الشديد ، من علامات النجاح ، ووصل الأمر فى بعض الأحيان إلى إثارة العصبيات الإقليمية ، فأبناء سنباط مثلًا يتكتلون ضد أبناء شرشابة ، وقد صل الأمر إلى التهديد والاشتباكات ، بل إلى شراء الأصوات ، وخاصة أصوات ذوى النفوذ والتأثير بين الطلبة ، كما إن المناصب داخل الجمعية كانت تلعب دورها فى إنجاح بعض الطلبة ، فإذا كان المراقب ، الذى يسجل أسماء الطلبة الذين تفرض عليهم الغرامات أو العقوبات ، أحد طرفى المنافسة ، حظى بأغلبية الأصوات ، لأنه يستطيع فى المستقبل أن ينتقم ممن حرموه من أصواتهم ، وخاصة أن الأصوات تؤخذ برفع اليد ، فيعرف المؤيدين والمعارضين ، ألم تكن هذه الصورة متطابقة تمامًا مع ما يجرى على الساحة الحزبية والسياسية ؟

الواقع أن جمعيتنا الأدبية كانت مجالًا خصبًا للتدريب على الخطابة ، وحفظ مأثور الشعر ، وتربية ملكة التمييز بين المواهب ، وإبداء الرأى ، رغم الظروف والعقبات .

وكان مدرس « الرسم » أديب أفندى رجل ذكى ، يختار اللوحات الجميلة ، ويضعها فى مدخل المدرسة ، أو فى صالة العرض ، ولم يكن يعطينا موضوعات جافة للرسم ، بل كان يحكى لنا قصة من القصص ، أو أسطورة من الأساطير ، ويطلب منا أن نرسم مشهدًا متخيلًا نابعًا مما سمعناه وانفعلنا به ، وقد يدرب الطلبة على مشهد تمثيلى معين ، ويختار ثلاثة أو أربعة منهم ، ثم يوقفهم جامدين ويطلب منا رسم هذه الصورة الحية ..

أما مدرس العلوم فقد كان يأخذنا إلى الحديقة الصغيرة فى المدرسة ، ويعطى لكل طالب مساحة فيها قد لا تزيد على نصف المتر ، ويساعدنا فى زراعة شتلات الزهور والورود ، ثم نتابعها يومًا بعد يوم حتى تتفتح ونسعد بألوانها الزاهية ، كما كان لمدرس العلوم جهاز تقطير بدائى نجرى عليه بأنفسنا- وبمساعدته- تجربة تقطير الأزهار ، ويأخذ كل منا كمية صغير فى قنينة من سائل الروائح الزكية .

والأمر الذى يدعو إلى الدهشة أن مدرسى هذه المدرسة لم يكن فيهم واحد حاصل على شهادة عليا ، ليسانس أو بكالوريوس ، كان أغلبهم يحمل البكالوريا « الثانوية العامة » أو ما هو فى مستواها ، بل بعضهم كان أقل من ذلك ، فمدرس الصف الأول الإبتدائى « زكى أفندى » لم يكن معه سوى الإبتدائية الأزهرية ، ومع ذلك فقد كان كفؤًا فى عمله ، ونال شهادة « صلاحية التدريس » لخبرته الطويلة ، ونتائجه الطيبة . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت هناك نشاطات وتجارب تربوية تدعو إلى التقدير والإعجاب ..

وقد كان لنا زميل من قرية « ميت البز » القريبة من سنباط ، وغالبًا ما يأتى متأخرًا فى الصباح ، وكان الأستاذ يطلق عليه « نئوم الضحى » ، ويأمره بأن يقف إلى السبورة ، أثناء شرح الدرس ، وكل خمس دقائق يطوف ويقل له « صَحَّ النومُ » ثم يلقفه بالعصا . . وهكذا حتى تنتهى الحصة .. وكان أن هرب أحمد من المدرسة واختفى تمامًا .. وذات يوم فى الصباح وجدنا أباه ممسكًا به من قفاه ، ودخل به إلى فناء المدرسة ، ودعا جميع الطلبة بأعلى صوته ليحتشدوا من حوله ، كان « أحمد » حافيًا منتفش الشعر ، يلبس جلبابًا ممزقًا قذرًا ، وقال الأب : « انظروا لهذا الشكل القبيح .. لقد هرب من المدرسة وطلب منى أن أجعله فلاحًا .. قولوا جميعًا بصوت واحد قوى : « إخص عليك يا بغل »

ودوّى صوت الطلبة هادرًا « إخص عليك يا بغل .. إخص عليك يا بغل » والأب يحرك خيزرانة مع إيقاع الهتاف كما يحرك رأسه المغطى بعمامة بيضاء نظيفة ، وأحمد يبكى بكاء مرًا .. وساد الصمت بعد أن توقفت حركة صاحب العصا (المايسترو) ..

ثم جذب الرجل سلة صغيرة وأخرج منها البدلة والطربوش والحذاء ، وأمر ولده بأن يلبسها ،

وحضر الناظر وبعض المدرسين ، وربت الناظر على كتفه فى حنان وقال : « لماذا تفعل ذلك يا أحمد ؟ أنت ولد شاطر ..»

فازداد بكاء أحمد قال : « إنهم يضربوننى ..»

ورد الناظر : « لا ..لا .. لن يضربك أحد بعد اليوم ..»

وقصد أحمد معنا صفه برأس منكسة ، وعيون محتقنة ، واستمر فى دراسته بعد ذلك حتى نهاية المرحلة ، ونال شهادة الابتدائية من الدور الأول ، ولا أعرف مصيره بعد ذلك ..لكنه كان إذا تصادم مع طالب أو تشاجر معه كان يقول له « اخص عليك يا بغل »

ويبدو أن « أنجلى أفندى » كان يعانى من بعض الضوائق المالية ، إذ إن مرتبات المدرسين آنذاك لم تكن كافية ، وفوجئنا به ذات يوم يستدعينا أنا وعبد الأحد وخالى مالك ونوفل صاحب القصص المثيرة .. وقال لنا : « أنتم أولاد مؤدبون مهذبون ، ولهذا اخترتكم لكى تسكنوا فى بيتى فى غرفة خالية ..»

كان لكلامه هذا واقع الصاعقة علينا ، إنها كارثة كبرى ، كيف نعيش فى بيت واحد مع « أنجلى أفندى » ؟ إننا لا نطيقه فى المدرسة ، ونرتعش فرقًا منه ونحن فى مسكننا المستأجر البعيد عنه ، ولا نفلت من مراقبته ومداهماته المباغتة ، فهل بالإمكان أن يرافقنا كظلنا فى البيت والمدرسة ؟ إنه أمر غير محتمل .. وأدرك الأستاذ ما نحن فيه من حيرة ورعب وتردد فقال بأدب جم : « حسنًا .. فكروا فى الأمر وأخطرونى ..»

لو أنه أمرنا بالتنفيذ لنفذنا الانتقال على الفور ، لكنه كان مهذبًا أو محرجًا ، وخرجنا نضرب كفًا بكف ، كيف نتخلص من هذه المصيبة التى حلت بنا ؟ وأقسم البعض ألا يذهبوا إلى بيته حتى ولو أدى ذلك إلى ترك المدرسة ، وقال آخرون الموت ولا هذا ، وقرر طرف ثالث أن نلغى السكن نهائيًا فى سنباط ونروح ونجئ يوميًا بين المدرسة وشرشابة .

وجاء الفرج من الله ، إذ استدعى « أنجلى أفندى » أحد زملاء السكن الكبار وقال : « خلاص .. لقد ألغيت المشروع »

وتنفسنا الصعداء ، لم تكن طريقتنا فى الحياة اليومية تتفق مع طبيعة « أنجلى أفندى » لقد كنا نمرح ونمزح ونغنى ، بل ونقيم حلقات الذكر ، ونستقبل أعدادًا هائلة من أصدقائنا فى سنباط ، وننعم بسهرات ليلية ممتعة على الرغم من القيود الصارمة التى يفرضها علينا « أنجلى أفندى » ؛ إذ كنا نختار الأوقات المناسبة التى لا يباغتنا فيها .. كانت حياتنا باختصار فوضى فى فوضى ، فالفراش منتثر هنا وهناك ، وبقايا الطعام ملقاة بإهمال فى جانب من جوانب الغرفة ، والأقلام والأوراق والكتب مبعثرة دون نظام ، ونفايات أعواد قصب السكر مكومة خلف الباب ، كل واحد ينتظر من يحملها للخارج .. وقد تبقى هكذا يومين أو ثلاثة ، وقد زارنا أبى ذات مرة ، ونظر إلى وضعنا فى اشمئزاز وألم وقال : « إن حياتكم قذرة ..»

وقام بنفسه رحمه الله لينظف الغرفة وينظمها ، لكننا هببنا جميعًا واقفين ، نتسابق إلى إصلاح الوضع ، وقد تم ذلك فى دقائق ، وأخذ رحمه الله يحدثنا عن النظام والنظافة وأهميتهما فى حياتنا العامة والخاصة ، ولم يفارق الألم ملامحه طوال الوقت ، وقد أنف أن يشرب من الزير الذى نشرب منه ، وتمتم فى حسرة : « كان الله فى عونكم »

وأخرج من جيبه كمية من العملة ذات الخمس مليمات (نصف قرش) ووزع على الحاضرين قطعة لكل واحد، ثم استدرك قائلًا: «كل شيء فى أوله صعب ومتعب .. وعليكم بالصبر .. وفقكم الله ..»

ثم ودعنا وانصرف، كان يسير دون أن يلتفت إلينا، وخيل إلى أن الدموع تترقرق فى عينيه وهو يعطينى يديه لكى أقبلها عند رحيله ..

كان طعامنا بسيطًا للغاية، نخرج صباح الاثنين من بيوتنا فى شرشابة، وكل منا يحمل معه كمية من الأرغفة تكفى لأسبوع، مع زجاجة (نصف لتر) من العسل الأسود، وقطعتين أو ثلاثة من الجبن، ولا شيء غير ذلك، وكان المصروف الأسبوعى لى قرشين أو ثلاثة، ولم نكن نغير ملابسنا الداخلية أو الخارجية طوال الأسبوع، وفى صباح كل يوم نجلس مجتمعين ما عدا الزميل «عويس»، فقد كان له وضع خاص، ونتناول طعام الإفطار خبزًا وجبنًا، وقد يكون معنا بعض البصل الأخضر أو الفجل الذى نشتريه برغيف، ثم نذهب إلى المدرسة، وفى الظهر نفعل نفس الشيء إلا إذا اشترينا كمية مشتركة من «الطعمية» يدفع كل واحد فيها مليمين، أما العسل الأسود فنستفيد منه فى العشاء كتحلية، وقد يعض أحدنا الجوع فى أى وقت آخر، فيجرع جرعتين أو ثلاثة من قنينة العسل مباشرة، يتبعها بجرعة ماء، وفى منتصف الأسبوع تحضر إحدى السيدات لنا قدرًا من الأرز ونادرًا ما يكون معه كمية من البطاطس المحمرة، أما اللحم ففى المناسبات فقط، أما زميلنا «عويس» فقد كان له وضع آخر، كان ابن عمدة «عزبة عويس»، وكان ضخم الجثة، متين البنيان، متخلفًا فى دراسته، أنيقًا فى ملبسه، ويلبس الملابس الصوفية الثقيلة فى الشتاء، بينما نرتجف نحن من البرد، كما كان له «لحاف» سميك ثمين، وكان له صندوق خاص يضع فيه البيض والجبن والزبد والقشدة والكعك، ودائمًا يغلق هذا الصندوق المعدنى بالقفل والمفتاح، وإذا ما أراد أن يأكل، وضع رأسه فى صندوقه، وانكب على الطعام دون أن نرى ماذا يأكل، ومن يوم لآخر يرسل له أبوه أحد الخفراء ومعه ما لذ وطاب .. باختصار كان محظوظًا فى الطعام .. لكنه فشل فى الدراسة ولم يكمل المرحلة الأولى . .

وإن أنس لا أنس ذات يوم وقد نفد الزاد كله، فلم يعد لدينا خبز ولا مال، وجلسنا فى الصباح حائرين، وقررنا أن نسافر إلى قريتنا عقب انتهاء الحصة الخامسة فلا حل غير ذلك، وحان وقت الذهاب إلى المدرسة، وخرج معظمنا، وأغلق «عويس» صندوقه بعد أن أكل، وتأكد من إحكام الإغلاق بشد القفل مرتين أو ثلاثة، ثم مضى، وعندما هممت بالخروج جذبنى أحد الزملاء قائلًا بصوت خفيض: «انتظر ..»

وانتظرت إذ لم يزل فى الوقت فسحة، ورأيت زميلى يخرج ثم يدخل مسرعًا إلى الغرفة، وينقض على صندوق «عويس»، كان معه قطعة سلك صغيرة، وأخذ يعبث فى فتحة القفل حتى استجاب وانفتح، كان الصندوق عامرًا بخيرات الله، والتقط زميلى رغيفين وقطعة من الجبن وأخرى من الزبد وبيضتين .. وقال فى عجلة: «هيا لنفطر ..»

قلت: «هذا حرام .. هذه سرقة ..»

رمانى بنظرة شذراء وقد امتلأ فمه بالطعام وقال: «الحرام أن نموت من الجوع وهذا الصندوق ملآن لعينه .. لو كان عويس عنده دم لدعانا لنأكل معه .. لكنه حيوان .. خنزير كتلك الخنازير التى تمرح فى شوارع «حصة سنباط» .. كل يا رجل .. لا تكن حنبليًا ..»

سال لعابى، ودق قلبى من الخوف . أحسست أنى مقدم على ارتكاب جريمة، واندفعت صوب

الباب ، لكن زميلى أمسك بيدى باسمًا وقد أحمر وجهه وتكور جانب فمه وقال : « ورب العزة لتأكل ..»

قدم لى البيضة والخبز المدهون بالجبن والزبد ، ومددت يدى فى ارتجاف .. وأكلت معه ..

كنت أمضى فى طريقى إلى المدرسة وأنا أتلفت يمنة ويسرة ، ويخيل إلى أن الناس جميعًا يعرفون أنى سارق ، وعندما التقيت « بعويس » فى الفسحة لم أستطع أن أنظر فى عينيه وجريت بعيدًا عنه ، حتى الدروس الثلاثة الأولى لم أستطع أن أستوعبها جيدًا ، وعند العودة تلكأت ، لم تكن لدى الشجاعة الكافية لكى أدخل الغرفة وأنظر إلى الصندوق الملعون ، أما زميلى الآخر فلم يكن يعبأ بشىء ، وبلغت المسكن متأخرًا ، ولدى الباب سمعت الضجة والصياح ، لقد اكتشف « عويس » سرقة الطعام ، كان كالوحش الضارى ، أخذ يلوح ويهدد ويتوعد ، وقرر أن يرفع الأمر لأنجلى أفندى أو نقطة البوليس ... وجلست أشهد الضجة صامتًا حزينًا شاحبًا ، واجف القلب أما الشريك الأساسى فى « الجريمة » فقد كان يضحك فى سخرية واستهتار ، بل الأدهى من ذلك أنه قال : « اللصوص هنا .. وأنت أكبر لص فيهم ..»

وانقض عليه زميلى فى شراسة ، وأخذ يكيل له اللكمات والركلات ، وساد الهرج والمرج ، وتدخل باقى الزملاء وفصلوا بينهما ، الحق أن « عويس » رغم ضخامة جسمه ، ومكانة أبيه ، كان جبانًا ، لذا رأيته يتراجع ، ويعود إلى صندوقه ويغلقه والدموع تتساقط من عينيه .. مضيت إليه وأنا أتألم وأربت على كتفه وأقول : « حقك على يا عويس .. أنا الذى ...»

قاطعنى عويس قائلً : « أنت لا تفعلها .. أنت رجل طيب أمين ..»

وقهقه زميلى المعتدى فى سخرية وقال دون خوف : « أنا فتحت الصندوق .. فافعل ما تريد ..». ثم أشار ناحيتى وهو يضحك واستطرد : « وأنت أكلت معى ..»

دارت بى الأرض ، شعرت بضيق ما بعده ضيق ، حتى كدت أتقيأ ، وجلست مكانى جامدًا ، وجاءنى صوت عويس مواسيًا : « أنت بالذات لك أن تأخذ من صندوقى ما تشاء .. أنا تحت أمرك ..» وفى خضم الضجة والشجار ، تسللت خارجًا ، ومضيت فى طريقى إلى شرشابة ، لم يكن باستطاعتى البقاء أكثر من ذلك ، كنت أشعر بلدغات الندم وتأنيب الضمير طوال الكيلو مترات الخمسة، وعندما جلست فى بيتنا القديم ، وقدمت لى خالتى الطعام الشهى الساخن ، لم تكن لدى أدنى رغبة فى الأكل ..

ما أقسى وأمرّ الذكريات التى عايشناها فى تلك الفترة ، إننى أتذكر رفاق الغرفة المستأجرة فى سنباط ، ورفاق الغرفة المجاورة .. وأقارن بين الأمس واليوم ، هؤلاء الأولاد النحاف الذابلون منهم الآن الدكتور محمد مختار أستاذ الأنف والأذن والحنجرة.. وعبد الله على المهندس.. والدكتور عبد الأحد .. ورؤساء لمجالس الإدارات .. ولواءات فى الجيش .. ومفتشون فى وزارة التربية وأطباء وأدباء .. سبحان الله والحمد لله .. وعويس أصبح عمدة العزبة .. وزميلى السارق وكيل هيئة كبرى .. ومدرسة سنباط الابتدائية أحيلت إلى التقاعد ، ثم « أخنى عليها الذى أخنى على لبد » ، كما يقول الشاعر القديم .. وعطا الله أفندى عمّر طويلًا ثم قضى نحبه.. والشيخ أحمد الراعى مدرس اللغة

والدين ، وقد أشرفت على علاجه فى أخريات أيامه عندما أصبحت طبيبًا لقريتنا ، ولم أنس أن أُقبّل يده وهو على فراش الموت كعهدنا القديم .. أما أنجلى أفندى فقد مات مبكرًا ؛ إذ كان يعانى من ارتفاع قديم فى ضغط الدم ..

كان أهلونا يشقون الأرض القاسية بالفئوس والمحاريث ، ويصبرون صبر أيوب وهم يزرعون ويحصدون ويكدحون من مشرق الشمس إلى مغربها ، وكنا مثلهم نقاسى الأهوال كى نحقق الأمل ، ونحصل العلم ، وننال الشهادة ، إنه موكب واحد متماسك يمضى فى ركب الحياة ، ويقتحم صعوباتها ، ويذلل عقباتها فى صبر وأناة دون عجل ..

وفى الأعوام الأولى من التعليم الابتدائى وقبله ، كنت أشارك أسرتى فى أعمال الحقل المعروفة ، كنقل السماد البلدى (التراب) من الحظائر إلى الحقل ، وأساعد فى زراعة القطن والقمح والذرة ، وأدير الطنبور ، وأحصد البرسيم والقمح والذرة ، ونذهب إلى حقول القطن لجمع الأوراق المصابة بالآفات طوال اليوم ، ونظل منحنين الساعات الطوال باحثين عن تلك الإصابات .. وكان طبيعيًا والحال هكذا أن نصاب بالبلهارسيا والانكلستوما وفقر الدم ، ثم نعالج ونصاب مرة أخرى وثالثة .. فالبلهارسيا صديق حميم للفلاح منذ أزمان بعيدة .. وقد وجدت مومياء قدماء المصريين مصابة بها .. كانت البلهارسيا .. والفقر .. والقهر .. والعمل الشاق ، تجعلنا نشق طريقنا بصعوبة بالغة .

وذات يوم قال جدى عبد القادر لأبى بحسم : « الآن .. وقد قطع ابنك خطوات ناجحة فى طريق التعليم ، فإن عليك أن تعفيه من أعمال الزراعة .. وأظنكم لستم فى حاجة إليه الآن ، وقد أخذتم أخاه « أمين » إلى الحقل نهائيًا ..»

ولأخى أمين الذى يصغرنى بعام وشهرين قصة ، فقد كان ذكيًا مجتهدًا ، لكن عمى « أحمد » اشتكى من ثقل عبء الزراعة ، وطلب من أبى أن يساعده بتفرغ أحد ولديه للعمل فى الحقل ، وكان أن وقع الاختيار على أمين لأنه الأصغر ، ويبدو أنه لم يمانع إذ لم يكن يدرك أبعاد هذا التحول الخطير فى تلك الفترة .. وهكذا تقرر مصيرى أنا وأخى فى لحظة عابرة ..

ونفذ أبى أوامر جدى ، ومنعت من الذهاب إلى الحقل ، وأصبح من المألوف أن ألبس الجلباب الأبيض النظيف ، وأمسك بيدى كتابًا أو مجلة أو صحيفة يومية ، أو أهرول إلى الملاعب الرياضية ، وأصبح الأصدقاء غير الأصدقاء ، والهموم غير الهموم ، والآمال غير الآمال ، لكن كيف أنسى أننى كنت ألتهم قدرًا كبيرًا من دخل الأسرة بسبب نفقات تعليمى ، وخاصة عندما ذهبت إلى المرحلة الثانوية فى طنطا ، وإلى جامعة فؤاد الأول فى القاهرة ؟ كنت ألبس البدل المصنوعة من الصوف الإنجليزى ، بينما أفراد الأسرة غالبًا ما يلبسون الدمور والجبردين ، وكنت أسكن فى غرف مجهزة بالماء والكهرباء وهم .. وإنى لأذكر أنه فى بداية كل عام جامعى ، كان أبى يعطينى نصف ثمن محصول القطن دفعة واحدة ، ويطلب منى أن أنفق منه بحساب طوال العام الدراسى ، ولما كنت أبدى رأيى أن أتقاضى مرتبًا شهريًا ثابتًا ، كان يرفض بشدة ، ويقول لى : تصرف كيف شئت ، لست صغيرًا ، وأنا أعرفك ، لن تنفق إلا فيما يلزمك ، وأعطانى الثقة كاملة ، ولم يضع على تصرفاتى أى قيد ، والواقع أننى شعرتُ بثقل المسئولية ، منذ وقت مبكر .. منذ أن أصبحت حرًا .. لذلك كنت أعيش فى المدينة ، وقلبى

معهم هناك فى القرية .. وأفر إليهم كلما حانت فرصة .. أفر إلى الصدر الدافئ الحنون .. إلى أبى وخالتى مباركة وأمى .. وجدتى .. وعمى .. وأخى أمين .. وأخواتى البنات .. وعندما أصل أشعر بالفرحة تغمرهم وكأنهم فى يوم عيد .. إننى أعود إلى الأمن والأمان والدفء العاطفى .. ويشرق وجه أبى بالنور والفرح ، وهو ممسك بيد إناء الشاى فوق النار المتقدة ، كى يعده بيديه ، وكان صمته أبلغ من مئات قصائد الترحيب ، وأهازيج السرور ، وأمى تنهمك تمامًا فى إعداد الأكلات الدسمة الشهية التى تعرف أنى أفضلها .. أما خالتى مباركة فتتحسس ظهرى وكتفى وصدرى ، وتتهمنى بأنى لا آكل جيدًا ، وأنى ضعيف الجسم ذابل العينين .. وتنهال علىّ الولائم من الأحباب والأقرباء ، وأقرأ فى عيونهم الصدق والإخلاص والوفاء ، وفى مسجد القرية الكبير لا يرانى أحد إلا ويصافحنى فى حرارة .. إن الأيام التى كنت أقضيها فى القرية تبدو رائعة جميلة ، أهيم فى صفائها وطهارتها ونشوتها ، وكأنى فى حلم رائع لا أتمنى أن أفيق منه ، ويوم السفر ينتابنى شعور بالاكتئاب والأسى ، حتى لكأنما أنا عضو ينفصل عن جسده ، لكن لا حيلة ، وأسمع « خالتى » تتمتم فى مساء ليلة السفر ، وهى تحكم حولى الغطاء :

صابح مسافر ، وفايت عندكم روحي بحق من أطلعك يا شمس وتروحي
فراق حبيبي دا أصعب من طلوع روحي

وإنى لأعجب أشد العجب من هؤلاء المثقفين الذين ينسون مسقط رأسهم وأهليهم بعد أن يتموا مرحلة التعليم ، ويستقلوا بأنفسهم ، إنه سلوك آثم حسب تصورى ، كيف ينقطعون عن ذويهم وعن مراتع صباهم ، ومطارح لهوهم ؟ أليس فى ذلكم الكثير من الجحود والنكران ؟ إن أبناء الفلاحين الذين أوتوا حظًا من التعليم وارتفاع المستوى عليهم واجبات مقدسة نحو قراهم وسكانها ، ولو آمنوا بذلك وفعلوا شيئًا ، لتغيرت الصورة ، وتطورت الأمور إلى الأفضل .

والواقع أن أخى أمين حمل العبء فى الحقل مبكرًا ، وفى غضون سنوات قليلة أصبح المسئول الأول عن الأسرة.وعن إتمام تعليمى ، وخاصة أن أبى رحمه الله لم يكن يعمل فى الحقل بيديه ، بل كان يحمل فقط مسئولية التوجيه والإشراف ، وبعد أن كبر أمين ترك له التصرف فى معظم الأمور ، وكان أمين كفؤًا فى حمل الأمانة على الوجه الأوفى ..

ولم تزل قريتنا الحبيبة حتى اليوم هى المكان المفضل حيث الاطمئنان والراحة والهدوء ، ولم يزل أهلوها هم محط الحب والصدق والوفاء .. حتى أولادى الذين نشأوا فى ظل تلك المشاعر الغامرة ، قد ساروا على نفس الدرب ، ونعموا بالمتعة التى تملأ روحى بالسعادة والرضى ..

كان للوالد رحمة الله أسلوبٌ خاصٌ فى التربية ، لم يقرأه فى كتب الفلسفة أو علم النفس ، هذا الأسلوب يتضح فى تعامله معى ، وفى علاقته بأخى الأصغر أمين بعد أن نضج ، وفى باقى الإخوة ، كان أساس تعامله الثقة ، ولم تكن ثقة عمياء ، إذ إنه كان يحاسبنا برفق عندما يرى أننا قد وقعنا فى خطأ ، ولم يكن جبارًا أو متعنتًا عند اختلافنا فى الرأى معه ، كان يكتفى بشرح وجهة نظره بإيجاز ، ثم تبين عدم صحة ما نراه ، ولا ينتظر .. بل ينصرف ، ولا يعتب إذا خالفناه ، وإذا خيبت النتائج ظننا لم يبد الشماتة أو الثورة ، بل يعلق تعليقًا بسيطًا ساخرًا : « إن كلام الفقير لا يُسمع » .. ونضحك وينتهى الأمر ، ومن العجيب أننى كنت أقع فى بعض المشاكل المحيرة المقلقة ، وأظل الليالى الطوال أفكر وأبحث

عن حل ، ولكن دون جدوى ، وسرعان ما كان يلاحظ ذلك من خلال تصرفاتى وشرودى وتعبيرات وجهى ، فيسألنى ، وآخذ فى شرح الأمر له ، وكان لا يطيل التفكير ، بل يبتسم ويقول وهو مشغول بعمل شيء آخر : « يا سلام ! ! ! هل هذه مشكلة ...تستطيع أن تفعل كذا وكذا »، ثم ينصرف إلى شأنه ..

وأجلس لأفكر فيما قاله ، يا سبحان الله ، ليس هناك حل سوى ما قال أبى ، كيف غاب عنى ذلك ؟ لم تتح لأبى فرصة التعليم ، لكنه كان ذا فطرة صادقة ، وخبرة عميقة بالحياة ، وكان صبورًا لدرجة مذهلة حتى على آلام المرض ، وعلى السير على الأقدام ساعات ، ولم يكن يتناول فى اليوم سوى وجبتين إحداهما فى الصباح عبارة عن كوب الشاى المركز وكعكة صغير خالية من الدسم ، وبعد صلاة العصر يتناول الوجبة الرئيسية الكاملة ، ويحمد الله ، على ذلك ..

وكان أيضًا يتوضأ فى اليوم مرتين يصلى بهما الأوقات الخمسة ، فهو على وضوء طوال النهار ، ينام مبكرًا ويستيقظ مبكرًا ، ولا يستمع فى الراديو إلا للبرامج الدينية وتلاوة القرآن والشعر الشعبى ، كما كان يحفظ الكثير من الأشعار التى ذكرت فى السيرة الشعبية كسيرة « أبو زيد الهلالى » و « عزيزة ويونس » وغيرهما ، كما كانت لديه هواية ترديد المواويل المختارة ، وما زلت أحفظ له موالين لقَّننّى إياهما منذ صغرى الأول :

السيسبان اختشى والورد قال دا ميـن
« أم العنيبة »[1] قالت افتحى يا امه دا الغريب مسكين
مسكين .. ومسكين .. وما فى عيشته راحه
قلبى وقلب الجميل مشبوك فى تفاحه
تفاحتك يا الحبيب مشبوك فيها جلجل[2]
يفوت عليها الطير والحمام والبلبل
إللى انشبك بالمحبة ربنا غاته
واللى انشبك بالفراق اشحططت ولاياته

الثانى يقول فيه :

يا عينى روحى لحمّال الهموم وشوفيه
شوفيه يا عين مات ولّا الروح لسّه فيه
يا ما قالت العين حبيبى ربنا يشفيه
ويطلع السوق ويخطر مثل عاداته
جمل المحامل برك ، شمتت الأعادى فيه

كان يدندن بمثل هذه المواويل وغيرها ، وكنت أستمع إليه فى شغف عندما نكون وحدنا فى حقلنا القريب وقت الأصيل ، وكانت تأخذه النشوة أكثر وأكثر وهو يرفع صوته ويردد أغنية شهيرة لا أتذكرها كاملة :

---

(١) شجرة العنب (٢) جرس

أمـانـة عـلـيـك وز الـعـراق يـالـلـى طـايـر
يـالـلـى عـلـى الـغـربـة تـكـون صـبـور
تـرعـى مـراعـى الـنـيـل سـبـعـيـن لـيـلـه
روّح بـلادك فـى هـنـا وسـرور ..... الـخ

وكان إذا اضطجع استعدادًا للنوم ، يطلب منى أن أقرأ سورة « يس » أو « الكهف » ، وعندما أتلكأ فى آية من الآيات لا يحرجنى بكلمة ، بل ينتظر حتى أتم قراءتى ، كما كان حريصًا على أن يصحبنى دائمًا فى أسفاره وخاصة إلى القاهرة وطنطا ، ويأخذنى إلى فروع أسرتنا فى قرية « حنون » وقرية « شنراق » ، وإلى أقرباء لنا فى قرى أخرى ، بل كان يكلفنى منذ السابعة من عمرى بحمل رسائل شفوية إلى بعضهم ، فكنت أذهب وأركب القطار ، وأسافر مسافات بعيدة وحدى ، إنها الثقة لتى كان يشعرنى بها دائمًا منذ صغرى وأحيانًا يرسل معى مبالغ كبيرة نوعًا من المال كى أوصلها لمن يريد .

مرتين رأيته يبكى بحرارة ..

المرة الأولى : يوم أن رآنى فوق منضدة العمليات لإجراء جراحة عاجلة مفاجئة .. والمرة الثانية : يوم رأى فى يدى الأغلال الحديدية فى سجن « قره ميدان » ..

ويوم أن وافته المنية ، أثر مرض بالقلب ، وقد تجاوز السبعين ، بكيت الحب والصفاء والتضحية الإيثار .. بكيت عمرًا رائعًا ، وحلمًا نادرًا .. مضى .. وكتبت مقالة فى إحدى الصحف اليومية .. وكلما قرأتها حتى اليوم .. أبكى .. لكن لا شفاعة فى الموت .. رحمه الله ..

***

[٥] ثورة الفلاحين الأولى



ذكرت أن قريتنا تضم عددًا كبيرًا من المعدمين، والزراعة هي مصدر الرزق، وكان هؤلاء المعدمون يعملون كأجراء في القرية، أو كعمال تراحيل في الوسايا والإقطاعيات القريبة أو البعيدة، أو يستأجرون مساحات صغيرة من الأغنياء يقومون على فلاحتها، وفي نهاية العام يستولى المالك على محصول القطن كله، ويحفظه لديه حتى يبيعه، ثم يأخذ إيجار أرضه، وإن تبقى شيء للزارع المعدم، سلمه له، أو أخذه مقدمًا للعام القادم، وغالبًا ما يعود الفلاح صفر اليدين، وينتظر المحاصيل الأخرى كالذرة أو القمح أو الشعير، أو يبيع واحدة من العجول الوليدة، كي يدبر بها شأنه. وكانت هناك طريقة مجحفة حقًا يتبعها الملاك أو وكلاؤهم، وهي أن يكتبوا عقد الإيجار بينهم وبين المستأجر، ويتركون خانة القيمة الإيجارية خالية، ثم يأخذون توقيع الفلاحين أو أختامهم «على بياض»، كما يحتفظ الملاك بصورتي العقد عندهم، كي يسجلوا عليها القيمة الإيجارية حسبما يريدون، وفي الوقت الذي يشاءون، وهم دائمًا يبالغون بصورة كبيرة في تقدير الإيجار السنوي للأرض.

وقد عاني الفلاحون الكثير من العناء والتعاسة من هذا الأسلوب الخبيث الجائر، وكانت الأراضي المستأجرة في غالبيتها تخص أثرياء من خارج القرية، مثل وقف «السيدتين سعاد وحكمت هانم جنيد» وأراضي «الخواجات» وغيرهم، بالإضافة إلى أراضي أثرياء البلدة أنفسهم، وكان الملاك من خارج القرية يعتمدون في تنفيذ مخططهم على عملائهم ووكلائهم من أهل القرية نفسها، وغالبًا ما يكون الوكيل شخصية مرموقة قوية، ويكون المحاسبون والحراس من ذوي القسوة والجشع. ولم يكن الفلاح المسكين بقادر أن يواجه التيار الجارف، والتكتل الطامع، وهو لا يملك من أمر دنياه شيئًا.. وأصبح هذا الظلم مثار الضيق والجدل لسنوات طويلة، لم يكن الفلاح ليرد على هذه التصرفات اللا إنسانية بغير الدموع والضراعة إلى الله سبحانه وتعالى، وبالصبر الذي يبدو وكأن لا نهاية له.. إن السلطة الإدارية بالقرية، وكذلك أصدقاءها وحلفاءها، لا يمكن قهرهم أو الاعتراض- مجرد الاعتراض- على مشيئتهم، وفشلت كل المساعي الحميدة التي يقوم بها الرجال الطيبون لوضع حد لهذه المشكلة...

وكان رد الملاك بسيطًا: «من لا يعجبه هذا الأسلوب في التعامل فليترك الأرض»...

لكن كيف يترك الفلاح الأرض؟ وماذا يفعل طوال العام؟ ومن أين يجد العلف والأكل لمواشيه ولأولاده؟ إنه على الأقل سوف يجد التبن والبرسيم والأوراق الخضراء لبهائمه التي تدر له اللبن، وسوف يجد الحبوب التي يطحنها ليصنع منها رغيف الخبز، فيملأ المعدات الخاوية، وهي الحد الأدنى الضروري لحياته وحياة مواشيه، أما إن يكون جيبه خاويًا من المال، فتلك قضية أخرى يمكن احتمالها في أغلب الأوقات.

وتمادى الملاك فى استبدادهم ، وأصبح الحد الأدنى للإنسان وبهائمه أيضًا مهددًا ، إن الوضع يسير من سيء إلى أسوأ ، والحياة نفسها أصبحت فى خطر ، ألا يكفى أنه لا يستطيع الإنفاق على عياله ، ولا يمكنه أن يدبر أمر العلاج ، أو ينفق على أحد أولاده إذا فكر فى تعليمه ، وأصبح الأمر بالغ الصعوبة ..

كنت طفلًا صغيرًا ، أجلس صامتًا وسط الفلاحين عند « البوابة » فى الناحية الشرقية من القرية ، ورأيت الفلاحين يتحدثون فى هذا الأمر بألم وحيرة ، حتى أولئك الذين لا يستأجرون أرضًا من الأثرياء شعروا بمأساة إخوانهم ، ووجد الجميع أنه أمر لا يمكن السكوت عليه ، بعد أن حفيت أقدامهم من الذهاب إلى السلطات ورفع الشكاوى العديدة إليهم .. وأصبحت تتردد بينهم كلمات يائسة : « الموت أحسن .. ليس هناك شيء لنبكى عليه .. ليكن ما يكون .. لو كنا يدًا واحدة لما ركبوا علينا هكذا .. نحن نستحق ما يحدث لنا ..» كلمات كثيرة ، وعبارات غاضبة كانت تتناثر هنا وهناك ..

لكن هل كان أصحاب المصلحة والنفوذ نائمين؟ إن لهم عيونًا فى كل مكان ، ونجم عن هذا التمرد السلبى ، طرد عدد كبير من المستأجرين من الأراضى التى يزرعونها ، وسيق بعضهم إلى « الدوار » ومراكز « الشرطة » الأخرى ، وعوملوا معاملة سيئة ، وأعطوا درسًا لن ينسوه .. لكن الأمور سارت على غير هوى الملاك ، فقد ازداد الحنق والسخط ، ووصلت الأمور إلى نقطة حرجة ، وبات جليًا أن انفجارًا ما لابد أن يحدث ..

فى الصباح الباكر من أحد أيام الصيف ، أثناء الإجازة ، حدث هرج ومرج ، إن أمرًا خطيرًا قد وقع ، لقد اكتشف الخفراء أن مساحة كبيرة من الأرض قد دمرت الزراعة فيها تمامًا ، لقد تم تقطيع أعواد الذرة ، وهى لم تخرج ثمرتها من الكيزان بعد ، معنى ذلك ضياع المحصول ، وعدم الاستفادة من الأرض خلال ذلك الموسم ، وكانت البداية فى الأراضى التى أخذت من المستأجرين ، وقامت الدنيا وقعدت ، وقبض على عدد كبير من الفلاحين ، لم تكن لدى الشرطة أغلال حديدية كافية ، ولهذا ربطوهم بالحبال ، وساقوهم إلى المركز ، وحاولوا انتزاع الاعترافات منهم ففشلوا ، وفى نفس الليلة ، أتى الرجال المجهولون على مساحات أخرى مزروعة بالذرة تخص الملاك ، وهجم العسكر على القرية يضربون الناس ، ويعتقلون المزيد من الفلاحين دون تفرقة . وفى الليلة الثالثة تكرر نفس العمل ، لكن الأمر الخطير أنهم عاقبوا فى هذه المرة الوكلاء والعملاء فقضوا تمامًا على زراعتهم ، وواصلت السلطة عملية القبض والتنكيل ، وأرسلوا « الهجانة » أو راكبى الجمال من سلاح الحدود ، وحاصروا القرية ، ووضعوا الدوريات فى كل مكان وطريق ، كى يحرسوا باقى الأرض الزراعية التى تخص الكبار .. ومن الغريب والمحير أن عملية الانتقام لم تتوقف رغم هذه الاحتياطات الشديدة ..

وجن جنون السادة ، وأخذوا يعقدون الاجتماعات ، ويتبادلون الرأى ، وسافر بعضهم إلى طنطا لمقابلة مدير المديرية « سعادة الباشا » ، وقصد البعض الآخر القاهرة ليتصل بمن يعرف من الشخصيات الوزارية والحزبية أو وزارة الداخلية ، لكن الأمور ظلت تسوء طوال الأسبوع ، وأصبح من المشاهد المألوفة أن يذهب الناس أثناء النهار بحميرهم ليحملوا الذرة المقطوع قبل أن يذبل ، ولكى يطعموه طازجًا لبهائمهم ، وكانت النسوة يرمقن هذا المشهد فى الشوارع والحارات بابتسامة شامتة ، بل إن إحداهن

زغردت عدة مرات ولم تستطع أن تخفى شعورها ، ولم يعد لقريتنا حديث سوى هذه الثورة التى اقتلعت كبرياء الأثرياء مع اقتلاع مزروعاتهم ، كانت الشماتة تسود الجميع ، وترى الحفاة الممزقى الثياب يرفعون رءوسهم فى تشف وارتياح ، ولست أدرى بالضبط كيف هدأت الأمور بعد ، كل ما أتذكره أن الحكومة أفرجت عن جميع المقبوض عليهم ، إذ لم يعترفوا بشىء ، فضلًا عن أن « العمليات » استمرت وهم مقبوض عليهم ، ويوم أن أفرج عن هؤلاء الفلاحين ، خرجت أفواج هائلة من النساء والرجال والشباب فى تظاهرات متلاحقة بعد المغرب ، وهم يهتفون الهتاف التقليدى الذى يرددونه عادة عندما يخرج أحد المسجونين وهو :

سـالـمـة يـا سـلامـه — رحنا .. وجينا .. بالسلامة
يا « جنيد » يا بوز النملة — مين قال لك تعمل دى العملة
يا « خواجا » يا بوز النملة — من قال لك تعمل دى العملة

كانت الهتافات تهز البلدة ، وخاصة هتاف « يحيا العدل » .. « الله أكبر على الظالم »

كانت الدموع تترقرق فى العيون ، وكانت الزغاريد تنطلق فى آفاق القرية ، كما كانت شعلات الجاز الصغير تتناثر وسط الظلمات بالمئات ، وكنا نحن الأطفال نجرى ونمرح فى سعادة ، وطوال تلك الأيام التى لا تنساها القرية ، رويت حكايات عديدة متنوعة ، فمن قائل أن فلانًا كان يحمل فوق رأسه مقطفًا مليئًا بالذخيرة الحية ، وأن فلانًا وفلانًا كان يحملان بندقيتين ، كل واحدة « بروحين » أى ماسورتين ، وأن رجالًا بعينهم كانوا يضربون بالسيوف يمنة ويسرة فيقطعون أعواد الذرة فى دقائق قليلة ، وقيل أيضًا أن العسكر كثيرًا ما كانوا يرون الفلاحين وهم يزحفون نحو الحقول تحت جنح الليل ، وخافوا أن يصطدموا بهم أو يقعوا معهم فى معركة غير ذات جدوى ، بل أشيع أن أحد الضباط أنه قال : « وماذا يفعل الفلاحون .. لم يعد فى قلوب الأغنياء رحمة .. »

وامتلأت القرية بحكايات تروى عن إطلاق الرصاص على بعض كبار الملاك ، وإفلاتهم من الموت بأعجوبة ، ولأول مرة ينكمش الكبار فى بيوتهم ، ولا يغادرونها ، انتظارًا لهدوء العاصفة ، وانجلاء الغمة ، ولقد فهمت من أبى أن الأرض قد أعيدت لمستأجريها ، وأن بعض المتمردين قد عينوا خفراء لدى العمدة ، ففرحوا بالمنصب والمرتب .

وكان من المعروف أن عقد الإيجار سنوى ، ومن حق المالك أن يسترد أرضه فى نهاية العقد ، واستطاع الملاك خلال أعوام قليلة ، وبهدوء تام ، أن يتخلصوا تدريجيًا من عدد المناوئين ، وأن يستميلوا آخرين ، ويغدقوا عليهم بالمنح أو الخدمات المختلفة ، ومن ثم عادت الأمور إلى سيرتها الأولى .

لعل هذه الثورة الصغيرة فى قرية شرشابة هى التمرد الأول من المعدمين المستأجرين ضد كبار الملاك فى تاريخ مصر ، ولم ترق فى هذه الثورة قطرة دم واحدة ، وقد حدثت فى بعض الإقطاعيات تمردات مشابهة فى « عزب » البدراوى باشا وغيره ، وسقط فيها بعض القتلى ، وقمعت بشدة وعنف ، لكنها حدثت فى أواخر الأربعينيات ، من القرن العشرين ؛ أى بعد قريتنا بما يقرب من ثمانى أو عشر سنوات .

كان جدى إبراهيم قد مات منذ زمن ، أما جدى « عبد القادر » فقد كان حيًا يرزق ، وكنت أفهم من أحاديثه حول هذا الموضوع مع أبى ، أنه يعرف القائمين على أمر هذا التمرد ، ويذكر أسماء بعينها ،

لكنه لم يتعاون مع العمدة أو الإدارة أو أقاربه الذين تعرضوا لخسائر كبيرة ، كان موقفه حياديًا من الناحية العملية ، لكنه كان متعاطفًا شعوريًا مع المظلومين ، فأحد الثوار هو ابن لبنت عمه ، والعمدة وأحد كبار الملاك المحليين وشقيقه لأولاد عمه ، لهذا آثر الصمت والاعتكاف ، وكان يعتقد رحمه الله أن التصدى للحكومة وأعوانها أمر بالغ الصعوبة ، وأن دهاء الملاك وألاعيبهم سوف تضع حدًا لهذا الأمر فى النهاية ، وقد حدث .. حدث ذلك فعلًا .. لكنه خلف فى القرية آثارًا لا تمحى ، لقد ظل هذا التمرد عالقًا بأذهاننا نحن الصغار ، ونتذكره من آن لآخر بغير قليل من الاعتزاز والفخر ، كانت تستهوينا البطولة والتصدى لعلية القوم ، وظلت هذه النزعة ترافقنا فى صبانا وشبابنا طوال مراحل التعليم المختلفة ، بل وكان لها تأثير كبير فى اختيار مسيرتنا السياسية ، وكثيرًا ما كنا نخطب على المنابر بالمساجد وفى الاحتفالات العامة ، إبان العهد الملكى ، ونهاجم الإقطاع والرأسمالية والاستبداد ، وكنا نسبب العديد من المشاكل والحرج لأنفسنا ولأهلينا ، لكننا لم نتوقف ، كما كان هذا التمرد نواة لتكتل معين من الفلاحين ، ظل متميزًا بسلوكيات وردود أفعال خاصة ، حيال ما يجرى فى القرية من أحداث وصراعات وانتخابات ، ولم يستطع بعد ذلك أصحاب السلطة والنفوذ أن يعاملوهم معاملة السادة للعبيد ، بل إن بعض أفراد هذا التكتل أو التجمع ، سببوا قلقًا دائمًا ، وصداعًا مزمنًا ، للمستغلين والمستبدين ، فكانوا يحرصون على مراضاتهم ومجاملتهم والتودد إليهم ، بل ويرضخون لمطالبهم فى كثير من الأحيان ..

ما أكثر الأحداث التى تجرى فى قريتنا ، والتى لها دلالات عميقة ! ! ! وكانت القرية قادرة على تسجيل الكثير من هذه الأحداث فى أغانٍ شعبية ترددها الصبايا فى الأفراح ، وأثناء العمل فى الحقول والبيوت ، وفى ليالى الشتاء الطويل وقت السمر ، فعندما تفشت إصابة القطن بالآفات ، وأتت على المحصول أو كادت ، كنت تسمع الكثير من الأغنيات التى تذكر المأساة ، وتذكر أسماء بعض المشرفين على حملات « المقاومة » لهذه الدودة اللعينة التى ملأت الطرقات والحقول آنذاك ، وجردت شجيرات القطن من أوراقها وأزهارها ، وإذا حدثت معركة بين أسرتين ، أو سقط « قتيل » متميز ، خرجت الأغانى الملحمية تسرد بالتفصيل ما جرى وتزيد عليه ، ثم الصراع الدائم والعنيف على منصب « عمدة القرية » كانت تقال فيه القصائد الطوال ، والأغنيات المؤثرة ، كانت الأغنية بحق هى « الإعلام » الشعبى فى تلك البقعة الصغيرة ، بل إن بعض الحوادث الشهيرة فى المديرية أو القرى المجاورة هى الأخرى كانت تحظى بنصيبها من تلك الفنون .. ولعله من الأمور المؤلمة المثيرة فى تلك الفترة (المرحلة الابتدائية) ذلك الحدث الذى ظننته بسيطًا وعاديًا فى البداية ..

كان فى حيّنا امرأة على أبواب الشيخوخة تعيش فى بيتها وحيدة لا أنيس لها ، بعد أن توفى زوجها منذ زمن بعيد ، وفوجئت القرية ذات صباح بأنها قد تزوجت من صاحب دكان بقالة فى « كفر » صغير مجاور لقريتنا ، ولم يلفت الموضوع نظرى فى البداية ، لكنى وجدت الدهشة تعقد ألسنة الناس ، وأخذوا يتهامسون عن هذه « الفضيحة » ، ثم أخذ الهمس يعلو حتى أصبح احتجاجًا وضيقًا وغضبًا .. سألت أمى : « أية فضيحة .. الناس يتزوجون فى أى وقت ..»

قال أمى هامسة : « طبعًا يا ولدى فضيحة .. إنها امرأة كبيرة فى السن .. وهذا عيب ..»

ابتسم أبى وقال فى سخرية : « ماذا تقولين له ؟ أليس هذا حقها الشرعى .. يا ناس حرام عليكم ..»

قالت أمى مستنكرة : « شرعى ؟ فيه أصول واحترام .. ماذا تريد الحاجة فاطمة من الزواج ؟ والشيخ سيد هو الآخر رجل مسن ..»

كان أبى يدافع عن المرأة لأنها وحيدة ، ومن حقها الشرعى أن تتزوج وتعيش مع رجل يحميها ويؤنس وحشتها ، وهو أمر لا غبار عليه ، وخاصة أنها لم تتزوج شابًا يصغرها فى السن ، أما أمى فكانت ترى ضرورة احترام التقاليد المرعية ، والآداب العامة ، إذ لم يجر العرف على زواج امرأة فى سنها قد تخطت سن اليأس ، وكانت أمى ترى أيضًا أن الشيخ سيد قد تزوجها بدافع المصلحة لأنها تدخر مبلغًا لا بأس به من المال ، وهو يهدف أساسًا إلى تنمية تجارته ، وزيادة رأس ماله وأرباحه ، وليس هناك أى إغراء آخر لعقد مثل هذا الزواج ، ويبدو أن غالبية أهل القرية كانت على رأى أمى رحمها الله .. وما هى إلا أيام قليلة حتى انطلقت الأغنيات الشعبية :

الطرطورية بتقول لكم	آه يا عُزَّاب كلوا بعضكم
أدينى اجوزت قبلكم	وادلّع يا شيخ سيد
يا حاجة يا أم حلق فضة	هاتى لعريسك يتوضا
(..............................)	وادلع يا شيخ سيد

وكانت هذه الأغانى تزيد الإثارة والافتراءات والأكاذيب ، حتى الأطفال أخذوا يرددونها ، ويتعمدون رفع أصواتهم بها أمام بيت المسكينة ، التى لم تعد يراها أحد خارج بيتها ، وكان الزوج لا يأتى إلى بيتها إلا فى وقت متأخر نوعًا بعد صلاة العشاء ، ويغادره عند الفجر ، كانا- رحمهما الله- محاصرين بالأغانى والانتقادات اللاذعة ، والنظرات المسمومة ، والاستنكار الشديد ، ولو أمكننى جمع الأغانى التى قيلت آنذاك لملأت مجلدًا ضخمًا .

ولم يستمر هذا الزواج فترة طويلة ، فقد تم الطلاق فجأة كما حدث الزواج فجأة ، ولم ينس الناس القصة إلا بعد فترة ليست بالقصيرة ، وعادت المسكينة إلى وحدتها وألمها مرة أخرى ، لكنى سمعت من أحد جيرانها أنها قالت والدموع على خديها : « يا بلد ظالمة .. منكم لله »

فى المدينة تحدث أمور كثيرة لا تلفت النظر ، ولا يهتم بها أحد ، وتعتبر فى حكم التصرفات العادية ، أما القرية فإن الأمر يختلف ، إذ ليس هناك سر يخفى ، ولا حادثة تهمل ، كل ما يجرى مجال للتعليق والنقد والمؤاخذة ، ويا ويل من يأتى عملًا يجافى العرف أو يخرج على التقاليد ، حتى ولو كان فى نطاق الحلال أو الشرعية ..

وعندما ماتت المسكينة كان المشيعون يرددون : « سامحها الله وغفر لها »

ولم يعلقوا بشىء على أنها لفظت أنفاسها وحيدة دون أن يتشهد عليها أحد ، أو يلثمّها كما جرى العرف ، ولم يكتشف موتها إلا فى الصباح حينما دقت عليها الباب إحدى قريباتها ..

❁❁❁

[٦] الحب فى قريتنا



قريتنا تخاف الله، ويحرص أبناؤها على أداء الصلاة والصوم والزكاة، والقادرون منهم يتسابقون إلى أداء فريضة الحج، لكنها لا تخلو من المنحرفين وهم قلة إذا ما قورنوا بالعدد الكلى للسكان، والانحراف القليل فيها له مظاهر عدة، منها تعاطى المخدرات، والسرقة، وهناك اثنان أو ثلاثة يحترفون شهادة الزور، أى أن أى واحد يستطيع أن يستأجرهم فى أية قضية من القضايا، حتى أصبحوا معروفين فى المحكمة الأهلية والشرعية، ونادرًا ما ترتكب جرائم القتل والنصب والتحايل، والذين يرتكبون هذا الإثم أو ذاك يتصفون بقدر غير قليل من الوقاحة وقلة الحياء، وأهل القرية ينظرون إليهم نظرة اشمئزاز وكراهية، فلا يتعاملون معهم إلا عند الضرورة، ويتحاشونهم حتى ينجوا من أذاهم.

والحب فى قريتنا متهم.. لأن مدلوله فيها النزوات والجنس والخطيئة.. والإنسان الذى يريد أن ينأى بنفسه عن موطن الشبهات والتهم، يجب أن يسقط كلمة الحب من قاموسه، ويضع مكانها كلمة «الزواج»... حتى الزواج فى بعض الظروف والملابسات قد يكون مدعاة للنقد واللوم وكأنه جريمة.

«محمد ط. ب» شاب مستور، حباه الله بزوجة جميلة، أنجب منها البنين والبنات، فضلًا عن أن أباها رجل محترم واسع الرزق، يمتلك بضعة أفدنة، وذات يوم وقع محمد فى شراك الحب.. ذاب عشقًا فى أرملة سمراء فاتنة، كان كالمسلوب الإرادة، أهمل أم عياله وانصرف كلية إلى «هنداوية».. وأخذ الهمس يدور، واعترى القلق أم محمد، كانت امرأة قوية الشخصية، صارمة، حذرت ابنها مرارًا وتكرارًا دون جدوى، لم أكن أصدق وأنا طفل أن يبكى رجل، ويمشى فى طريقه إلى الحقل ذاهلًا، ويجلس تحت الشجرة مكتئبًا حزينًا، هل يمكن أن يحدث ذلك من أجل امرأة؟ ولم يكن هناك من تفسير لحالة «محمد» سوى أنه واقع تحت تأثير السحر الذى دبرته له هنداوية، كانت زوجة عمى رحمها الله من أسرة محمد، وتجلس كل يوم لتروى العديد من التفاصيل عن هيامه وانسياقه لسلطان الحبيبة.. ورأيتهم يأخذون محمد لرجل مشهود له بالكفاءة فى التعاويذ والرقى وتحضير الجان.. اسمه «الحزوبى».. كان الحزوبى واسع العينين، أبيض الوجه، قليل الكلام، متزن الحركات.. إذا جلست على مقربة منه كان يتلبسنى خوف شديد حتى بعد أن بلغت الخامسة عشرة.. ويجلس الحزوبى عادة فى غرفة مظلمة، ويطلق البخور.. ويتمتم بكلمات مبهمة متلاحقة، أو يكتب على الورق بحبر غريب دموى الشكل كلمات خالية من الهمزات والنقط تصعب قراءتها، ويسقى محمد محاليل لا أعرف كنهها، ويعلق فى عنقه أو تحت ملابسه «حجابًا» من جلد سميك.. ومحمد يجلس قلق النظرات، يتلفت يمنة ويسرة، وما إن يعود إلى بيته حتى يتعشى وينام... وفى وقت متأخر من الليل يتسلل إلى بيت هنداوية..

واختفى محمد فجأة ليوم كامل، ظنوا أنه هجر البلد بعد أن بحثوا عنه لدى أصدقائه وفى

الحقول، وتجسسوا عليه لدى هنداوية، وكادت أمه تجن.. إن المعشوقة ليست من مركزه أو في مستواه، وصهر محمد رجل مرموق وقصة الحب أساءت لكلتا الأسرتين، لدرجة أن الصهر أتى ذات يوم مصرًا على اصطحاب ابنته وأولادها احتجاجًا واستنكارًا لما يجرى، لولا أن تدخل الوسطاء الطيبون..

لم يكن لقريتنا حديث غير محمد وهنداوية.. اعتبروا ما يحدث انحرافًا وخطأً جسيمًا وتصرفًا يغضب الله، وعند عودتي ذات يوم من مكتب تحفيظ القرآن، رأيت حشدًا كبيرًا من الخلق، نساءً ورجالًا وأطفالًا، وكان الضجيج الممتزج بالصياح، والثرثرات العالية تصم الآذان، تخيلت أن جريمة قتل قد ارتكبت، وتسللت عبر الزحام، متتبعًا خط التجمع.. ووجدتني في بيت هنداوية الذي لا يوجد فيه موضع لقدم.. كان محمد يقف فارعًا، وقد لفت أمه شالًا أسود حول عنقه، وهي تهز وتجره في عنف وحسرة، وتصب عليه اللعنات والشتائم المقزعة.. ورأس محمد يهتز مع جذب الشال الذي يطوقه، ونظراته الزائغة الحائرة المبللة تثير الأسى.. وإلى جواره هنداوية ممسكة يمينه، متشبثة به.. وهي تصرخ قائلة: «محمد زوجي على سنة الله ورسوله.. زوجي يا ناس يا شر..»

كانا قد تزوجا سرًا، ووضعت خطة الاختفاء لديها بإحكام، لكن هل يخفى على القرية شيء، وسمعت أم محمد تطلق يمينًا لا أفهم معناه: «عليّ الطلاق من ذراعي لن أخرج بدونك..»

كان المشهد مسيئًا محزنًا، ولم يكن بإمكاني أن أتعمق مشاعر الحاضرين آنذاك، لكن غالبية النسوة الموجودات كن يكلن السخط واللعنات على هنداوية الفاجرة.. قليلة الحياء.. قليلة الدم، والتي تريد أن تخطف الرجل من امرأته وعياله. .وتعليقات كثيرة يقذف بها هنا وهناك، تتحدث عن بنت الأصول التي أهملها زوجها، وذهب إلى امرأة تافهة حقيرة.. وبرغم جمال هنداوية الذي أتملاه بنفسي كنت أسمع إحدى النسوة تقول: شكلها مثل القرد والعياذ بالله.. لكن قلبي كان مع هنداوية.. أحسست بالشفقة عليها. . لم يكن لدى طفل مثلي أسباب جوهرية مفهومة لهذا التعاطف، وكدت أبكي من أجلها، وكان لها طفلة صغيرة في مثل سني تقريبًا من زوجها الراحل، كانت صورة طبق الأصل من أمها.. كانت تصرخ وتتأوه في خضم الزحام دون أن يلتفت إليها أحد..

ثم جاء الرجال- ومعهم أبوه وخاله- وسحبوا محمد إلى الخارج، وذهبوا به إلى بيته، وأدخلوه وأغلقوا الباب... وبقيت هنداوية مع ابنتها هي الأخرى لا يؤنسهما أحد..

وعلمت فيما بعد أنهم أجبروا محمد على طلاق هنداوية[1] .

وعاشت المسكينة سنوات طويلة بلا زواج.. حتى وافاها الأجل المحتوم.. هذا بعض ما كان يحيق بالرجال إذا فكر أحدهم في الزواج من امرأة ثانية، لكنني على النقيض من ذلك عندما حدثت قصة أخرى رأيت للناس مواقف سلبية غريبة، مع أنه كان الأولى بهم أن يكونوا أكثر حنقًا وثورة..

كان (ح) رجلًا من أعيان القرية موفور الصحة والقوة، تزوج من امرأة على جانب كبير من الروعة والجمال، وكانت من المدينة، ولا يعرف أحد أن قدميه ساقتاه إلى شارع «المومسات» في طنطا، وغرق حتى قمة رأسه في حب داعرة يطلق عليها «روكة»... وتدهور وضعه الاجتماعي والاقتصادي من جراء هذا «الحب الحرام»، إذ انحرف إلى المخدرات والمسكرات، واتخذ من المدينة مقرًا شبه دائم،

---

(١) انظر قصة «الأرملة الساحرة» مجلة الكواكب، وضمن مجموعات القصص القصيرة.

وأهمل زوجه وابنه ومصالحه ، بل الأدهى من ذلك ، أنه باع أكثر من ثلاثة أرباع أملاكه الزراعية ، وصمدت زوجته للمحنة فى بطولة نادرة ، لم تتمرد أو تهجر بيتها ، بل ظلت وفية لزوجها وولدها الذى تشرف على تعليمه وتدبير شئونه .. لم تكن تتكلم فى الموضوع معه أو مع غيره ، ولم يستطع أحد من أهل القرية أن يوجه إليه فى يوم من الأيام نقدًا مباشرًا ، أو حتى نصيحة أخوية ، كان ذا بطش وعنجهية ولا يقبل مجرد الملاحظة العابرة ، وألجم الجبن والخوف الأفواه .. وبقى (ح) على هذا الوضع لسنوات .. حتى أوشك على الإفلاس ، لكنه لم يكن ليرتدع لولا أن حدث أمر ..

لقد ذهب إلى « روكة » ذات يوم ، فأغلقوا الباب فى وجهه ، وأنكروا وجودها ، فدفع الباب بقوة ودخل ، كانت تجلس مع ضحية أخرى أكثر مالًا وشبابًا .. وسدد إليها نظرات اللوم والعتاب .. فقالت ببساطة أذهلته : « لم أعد أريدك .. لا أطيقك .. يا أخى أرحنى من وجهك .. ما هذا ؟ أليس عندك كرامة .. أعوذ بالله ..»

وخرج يجر ساقيه جرًا ، ذهب إلى زوجه ، أمرها بأن تتزين وتلبس أفضل ما عندها ، ففعلت ، ثم أخذها وسافرا إلى طنطا ، كانت تمضى خلفه لا تدرى أين يذهب بها ، ودق أحد الأبواب ، وخرجت امرأة وما إن رأته حتى قالت فى ضيق : « أوه .. هل عدت ثانية ؟ قلت ألف مرة لا أريد أن أرى وجهك ..»

قال فى توتر : « هذه آخر مرة .. فقط أتيت لترى هذه المرأة ..»

قالت وهى تضحك فى ميوعة : « عاشقة جديدة ؟ لقد أحسنت الاختيار يا ملعون ..»

وتدخلت زوجته قائلة : « كيف تسمح لها بأن ..»

قاطعها قائلًا : « هذه زوجتى .. أردت فقط أن أثبت لك أنها أحلى وأشرف منك ألف مرة .. أنت لا شىء بالنسبة لها ..»، ثم بصق عليها .. وانصرف ..

قالت زوجته : « ماذا يجرى ..»

هز رأسه وجبينه يتصبب عرقًا : « هذه روكة ..»

وتاب (ح) بعدها ، وذهب إلى بيت الله الحرام ليؤدى فريضة الحج ، واستقامت حياته ، وأصبحت بين البيت والمسجد والتجارة ، وقراءة القرآن ، وعاش لزوجته وولده كالأب الحنون ، بل كالخادم ، وقد ربطتنى به صداقة وطيدة فى أخريات أيامه ، وأشرفت على علاجه عندما أصيب بداء عضال من الأمراض الخبيثة .. رحمه الله ..

وما أطرف قصص الحب فى قريتنا ، قصة ذلك الدرويش الذى كان قد أخذ العهد على شيخنا المداح ، ومصدر الطرافة أنه أحد المتصوفين ، وكان هو الآخر متزوجًا ، وشاع أمر تعلقه بالحبيبة بين الناس ، وذات مساء ، وكنا نجلس لنشاهد حلقة الذكر ونستمع إلى المدائح النبوية ، وجدنا الشيخ المداح يتخذ له طريقًا بين الجالسين ، ثم يقصد ناحية بعينها فى حلقة الذاكرين ، ويمسك بطوق درويشة « المتهم » ثم يطلب منه أن يغادر الصف .. لكن الدرويش هزّ رأسه فى خضوع وهو يتمتم « حاضر .. حاضر » ، وأخذ الشيخ يرغى ويزيد بعبارات لم أفهم منها معنى واحدًا ، وعيون الناس كلها مصوبة نحو بؤرة الاهتمام ، وساد الصمت .. لكن الدرويش لم يغادر مكانه فى الصف ، وظل يذكر ويتطوح مع الذاكرين ، حتى أخذته « الجلالة » كما يقولون ، وانفعل أيما انفعال ، واستمر يردد اسم الجلالة بصوت عالٍ هستيرى يخالطه البكاء « يا الله .. يا الله .. يا الله » ، واقترب منه الشيخ « البقاش » وهو الذى ينوب عادة عن الشيخ المداح فى قيادة حركة الذاكرين ، والابتداء والانتهاء عند كل اسم من الأسماء

الإلهية ، وهتف به : « وحّد .. وحّد ربك .. واستغفر الله »

وعاد العاشق إلى الركب بعدها ، وكنا نسمعه قبل أذان الفجر كل ليلة يطوف شوارع القرية تحت جنح الظلام ، ويقول بصوت ندى :

يا نائمًا كيف المنام يطيبُ　　　الموت حق والفراق صعيبُ

ثم يستطرد : « الصلاة يا مؤمنون الصلاة .. الصلاة خير من النوم .. يا نايم .. قم وحّد الدايم ..»

وسرعان ما انطمرت القصة فى طى النسيان ..

لكى تبقى القرية متمسكة بالحشمة والخشية من الله فى كل ما يتعلق بالعاطفة التى تشب بين الرجل والمرأة ، كانت موجودة لكن كان لها آدابها وتقاليدها التى لا تخرج عنها ، وكان الحبيب يهادى حبيبته خفية ، كأن يرسل إليها زجاجة من العطر ، أو غطاء جميلًا للرأس ، وكانت هى الأخرى تبادله نفس المشاعر فترسل إليه كمية من الفواكه الشهية ، أو منديلًا رجاليًا ، أو وجبة دسمة ، تبعث بها دون أن يشعر أهلوها وذووها ، وكان انفراد الحبيب بحبيبته أمرًا بالغ الصعوبة بل متعذرًا ، وغالبًا ما تكون مثل هذه التصرفات بدايات أو مقدمات للزواج ، وليست للعبث أو للاستغلال ، ويا ويل الفتاة التى يكتشف أمرها عندما تهادى من اختاره قلبها ، كانت تحبس فى البيت ، وقد تعاقب بالعصى أو الكرباج ، وقد يصل الأمر للقتل ، وخاصة إذا لحقت الشبهة بعذراء من أسرة كريمة ذات وضع اجتماعى متميز ، ولهذا فإن التشدد فى مثل هذه الأمور أمر يقبله المجتمع القروى ويدعو إليه بإيمان وقوة ، ولا تجد المخطئة أو المخطئ تعاطفًا معهما من أية ناحية من النواحى ، فلا يمكن أن تتدخل الأم أو الأخت لحماية من تقع فى هذه المحظورات .. إنه « العيب » الذى لا عيب بعده .. لقد مر على هذه الصورة الآن ما يقرب من خمسة وأربعين عامًا .. فهل بقيت قريتنا كالعهد بها ؟

البنات اليوم فى قريتنا يسرن سافرات مبرزات مفاتنهن ، وعدد كبير منهن يعملن كمدرسات فى مدارس القرية الكثيرة ، وفى الوحدة المجمعة ، وفى القرى والمدن المجاورة ، والسيارات تزحم الشوارع ، والشبان والشابات يتقابلون ويتناقشون ويسيرون جنبًا إلى جنب ، ويتراسلون ، وينظمون شئون الحب والزواج ، ولهن حرية الاختيار ، فلا يكاد يفرض على أى طرف الزواج من شخصية بعينها إلا فى القليل النادر ، لكن لم يزل هناك عدد كبير من النسوة يرتدين الزى الشرعى ، ويتسمن بالحشمة والوقار ، لا عن خوف ، بل عن عقيدة وإيمان ..

لقد حدث انقلاب كبير فى قريتنا بعد شيوع الراديو والتليفزيون وانتشار التعليم على أوسع نطاق .. واقتضت ظروف الحياة أن يتفرق أفراد الأسرة إلى أماكن شتى فى طلب العلم والرزق وبسبب الزواج ، ومن ثم ولد مجتمع جديد له قيمه ومواصفاته الخاصة ، التى نتجت عن التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ..

كما تغير نظام الطبقات .. فصعد أقوام كانوا فى الحضيض ، وهبطت أسر طالما تعالت وأمسكت بزمام الأمور ، وفرضت مشيئتها على المستضعفين والفقراء ..

ومات كبار الملاك ، وتوزع الميراث على الأبناء والأحفاد ، وتحولت الملكيات الكبيرة إلى مساحات صغيرة ، بل إن بعض الورثة قد باعوا أملاكهم للفلاحين بنصف الثمن ، ورحلوا إلى المدينة .. ومات الشيخ المداح حيث شيع جثمانه فى موكب مهيب لا مثيل له ... وتولى أحد أبنائه الطيبين « الشيخ عبد الحكم » الخلافة من بعده ، إلى جوار عمله كموظف حكومى ، ولم يزل محافظًا على أن يأتى إلى

القرية مساء كل جمعة ، ليلتقى بالبقية الباقية من دراويش أبيه وبالأعضاء المنتسبين الجدد فى حلقات الذكر ، حيث يفوح أريج الإيمان والطاعة والحب والصفاء ..

ومات حضرة العمدة صاحب الحول والطول والبأس ! ! ! مات وخيّم السكون على « الدوار » بعد أن أقيم فى القرية « نقطة للشرطة » بها ضابط وعدد من رجال الشرطة ، ولم يعد هناك تنافس رهيب على منصب « العمودية » ، وهرب الأجراء من شظف العيش وقسوة العمل فى الحقل ، إلى آفاق الدنيا البعيدة ، حيث ركبوا الطائرات بحثًا عن موارد أفضل وأيسر للرزق ، وكثرت الحرف المتعلقة بالعمران والسيارات وغيرها ، واختفى « النورج » الذى كان يستخدم فى تخليص حبوب القمح من سنابلها ، وكذلك « الطنبور » ، وحلت الآلات الزراعية الحديثة محل الوسائل العتيقة ، وقل- إلى حد كبير- عدد العاملين فى الحقول ، حتى اضمحلت المحاصيل ، وارتفع أجر العامل الزراعى بصورة جنونية ، فبعد أن كان أجر العامل ثلاثة قروش فى اليوم أصبح أربعة جنيهات مضافًا إليها الطعام والشراء أثناء العمل . . . ولم يعد لتلاميذ المدارس من عمل أثناء الصيف سوى المناقشات السياسية ، والسمر فى الليالى الطوال ، وقصص الحب والغرام ، والانتماء لنادٍ من الأندية الرياضية ، والاستماع للمطربين الجدد- وبعضهم أجانب- والبحث عن أصباغ جديدة للشعر والملابس .

ليست هذه قريتنا التى عرفناها .. لكن هناك بقية من الجيل القديم تقرأ على وجوههم ذكريات الأيام الخوالى وما كان فيها من صفاء وبساطة وقناعة .. وليس فيهم من يعانى من أمراض الضغط والسكر أو الانهيار العصبى ..

وسبحان مقلب القلوب والأبصار .

❁❁❁

[٧] إلى المدينة



انتهت المرحلة الابتدائية بهمومها ومشاقها، وكان ترتيبى الخامس على جميع طلبة منطقة وسط الدلتا، وقد أدينا الامتحان فى مدينة طنطا، كانت شهادة الابتدائية لها قيمة كبيرة فى ذلك الوقت، فالإنسان الذى يحمل الابتدائية يستطيع التحدث بالإنجليزية لحد ما، ويتقن العمليات الحسابية، وكذلك القراءة والكتابة، وبمساعدة أحد كبار الشخصيات يستطيع أن يحصل على وظيفة قد تدر عليه أربعة أو خمسة جنيهات شهريًا.

لكن الآمال أصبحت أكبر من ذلك، مع النمو فى الفكر والجسم والوعى، وانطلقت الزغاريد فى بيتنا الريفى الصغير، وأعدت أكواب «الشربات» للمهنئين، وتجلت السعادة فى وجهى أبى وأمى وخالتى مباركة وجميع من بالبيت، وبدأ التفكير فى الالتحاق بالمرحلة الثانوية، حيث لم يكن للمرحلة الإعدادية وجود آنذاك، وكانت دراسة المرحلة الثانوية خمس سنوات وهى فترة ليست بالقصيرة، وتحتاج لمصروفات الملابس والسكن وبعض الكتب والمواصلات الدورية، وكان واضحًا أنها مشكلة، لكن أبى قال فى ثقة وإيمان: «لا تحمل همًا .. الله معنا .. وسوف أتولى شأنك كله .. حتى ولو بعت كل ما أملك ..»

وكان أقرب مدرسة لبلدتنا هى مدرسة «كشك الثانوية» بمدينة «زفتى»، وكم كان غريبًا أن ترفض المدرسة منحى المجانية مع أنى متفوق ومستوفٍ لكل الشروط، غير أنهم اكتشفوا أن أبى يمتلك عددًا قليلًا جدًا من الأفدنة، ولم يكن هناك مفر من دفع الرسوم والقسط الأول، واستأجرت مع بعض الأصدقاء غرفة صغيرة فى شارع «أبو طاقية»، كنت أدفع نصبى فى الإيجار بضعة قروش، وكنت أنام على «كنبة» أو أريكة خشبية عليها حصير صغير، وفى داخل «الكنبة» خزانة لوضع الخبز والجبن، رصيدنا الأبدى من الطعام، لكننا كنا فى نهاية الأسبوع نركب قطار «الدلتا» حتى قرية سنباط، ثم نكمل الرحلة إلى قريتنا مشيًا على الأقدام، وكأن مشوار سنباط- شرشابة أصبح من قدرنا ..

وفى الإجازة الأسبوعية نأكل ما لذ وطاب من الطعام الدسم حتى نعوض أيام القحط فى معظم الأسبوع، وكان أمام المدرسة، وخاصة فى أوقات البرد القارس، رجل يصنع «سندوتشات» الفول والطعمية الساخنة اللذيذة، وكلما وقع بصرى على القدر النحاسى تحت موقد الجاز، يتحلب ريقى .. لكن المصروفات لا تكفى، وكنت آخذ نصف سندوتش بنصف قرش مرتين أسبوعيًا، ثم أتجنب النظر إلى القدر النحاسى فى باقى الأيام، لكنى كنت أشاهد المقتدرين يأكلون حتى يتخموا، فأتمنى أن أكون مثلهم، وسبحان مقسم الأرزاق والحظوظ!

كانت مدينة زفتى فى منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، مدينة صغيرة أقرب إلى القرية منها إلى المدينة، وكان الفلاحون من القرى المجاورة التابعة لمركز زفتى يزحمونها كل يوم بحميرهم الكثيرة

التى تزحم الشوارع المتربة ، وكثيرًا ما كان الفلاح يترك حماره فى مبنى خاص بالحمير ، يطلق عليه « الوكالة » مقابل أجر زهيد ، وأخوف ما يخافه الفلاح فى المدينة ، أن تأخذ السلطة منه حماره إذا كان يبدو عليه العرج أو الضعف أو به بعض القروح ، طبقًا لأوامر « جمعية الرفق بالحيوان » ، لأن الحمار إذا أخذ ، فسيقضى أيامًا تحت الرعاية الصحية ، ثم يرغم الفلاح على دفع مبلغ من المال نظير ذلك ، ولذلك كان الفلاحون يرتجفون خوفًا من أخذ الحمار إلى « الشفاخانة » كما يسمونها ، وأظن أن معنى الكلمة « مستشفى » باللغة التركية ، وكان أبى يعلق على ذلك ساخرًا : « ولماذا لا يأخذون الفلاح نفسه إلى « الشفاخانة » ؛ إن حالته الصحية أسوأ من حالة حماره ..»

وتقع مدينة « زفتى » على شاطئ فرع النيل ، فى مقابل مدينة « ميت غمر » التى تقع على الشاطئ الآخر ، ويصلهما كوبرى (جسر) ضخم متين ، تمر عليه السيارات والقطارات والمشاة والحيوانات ، ولكل طريقه الخاص به ، والجلوس على شاطئ فرع النيل متعة كبيرة فى هذا المكان ، حيث توجد بعض البيوت القليلة الجميلة ، وناد لكبار الموظفين ، وبعض السفن والقوارب ، وقد كنت أرتاح لمجرد الجلوس وإطالة النظر إلى الماء الجارى ، وهو يتدفق فى وقار وهدوء وقوة ، وقد حدث بعد ذلك أن أحد زملاء أخى رسب فى إحدى السنوات الدراسية ، فجاء أبوه وأشبعه سبًا وتأنيبًا وضربًا ، ولم يستطع الولد أن يتحمل أكثر من ذلك ، فجرى صوب الكوبرى ، وأبوه يجرى وراءه ، وفى منتصف الكوبرى ألقى الولد بنفسه فى الماء .. كانت مأساة .. لم يسرع أحد لإنقاذه فى الوقت المناسب .. لقد غاص إلى الأعماق البعيدة .. وأبوه يبكى ويمزق ملابسه ..

ولقد كان لزفتى كما قلت تاريخ معروف فى مصر ، فقد اشتعلت فيها الثورة فى عام ١٩١٩ عندما اصطدم الشعب وسعد زغلول باشا بالإنجليز ، وحدثت معركة صغيرة حول هذه المدينة الصغيرة الثائرة ، وأعلنت زفتى استقلالها ، كما أعلنت عن إقامة جمهورية فيها أطلق عليها « جمهورية زفتى » ، وكان يرأسها المرحوم « يوسف الجندى » ، واستطاع الإنجليز أن يقضوا على الثورة ، وأن يخضعوا أهل المدينة ، وظل يوسف الجندى وأسرته من بعده مكروهين من الملك وحاشيته ومن الإنجليز حتى وقت طويل .. وقد وصف المؤرخ الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى هذه الواقعة فى كتابه « تاريخ الحركة الوطنية فى مصر » .

أما مدينة « ميت غمر » فقد شاع ذكرها بسبب الحريق المشهور الذى التهمها عن آخرها ، والذى كتب فيه شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة رائعة يقول فى مطلعها :

سائل الليل عنهمو والنهارا ... كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم ... وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار ... يتداعى ، وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أخنى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها ... ومر الغيث أن يسيل انهمارا

. . . . . الخ.

وعلى أثر هذا الحريق المدمر ، قامت جهود شعبية وحكومية كبيرة ، لإعادة بناء المدينة (عام ١٩٠٤) ، وقد أقيمت على طراز أحدث ، مما جعلها تفوق زفتى جمالًا وعمرانًا وحركة .

وفى هذه الأيام الأولى لى فى زفتى ، حدث أمر هام لم أكن أعلم أنه سوف يكون بعيد الأثر فى حياتى كلها .. فقد جاء يوم الهجرة النبوية ، وأشار على أحد الزملاء الذين يكبروننى سِنًا وعلمًا وقال : « هناك احتفال سيقام الليلة بمناسبة الهجرة النبوية فى ميت غمر .. وسيقيم هذا الحفل الإخوان المسلمون .. ويستحسن أن تحضروا معنا .. »

لم أكن أعرف طبيعة مثل هذه الاحتفالات ، وكنت فى شوق لأن أرى أى شىء جديد لا أراه فى القرية ، وذهبت .. كنت أستمع إلى شاعرهم الذى سيطر على لبى وهو يحكى فى شعره قصة الهجرة ، وعظمة الرسول ، ووفاء أبى بكر الصديق ، واستمعت إلى الخطباء ، لقد تحدثوا عن الإسلام وصموده وتضحياته ، ثم انتقلوا إلى واقع الحياة التى نعيشها ، وربطوا بين مجد الإسلام وانتصاراته وتضحيات رجاله ، ثم قارنوا بين وضع المسلمين الحالى وما هم فيه من ضعف وهوان واستعمار ..

إنه أسلوب جديد فى الخطابة والاحتفال بالنسبة لى .. وتفتح قلبى وعقلى لما أسمع .. ومما لفت نظرى أيضًا الهتافات التى يرددونها .. كان المألوف فى ذلك الوقت أن نهتف بحياة الزعماء والأشخاص البارزين والحزب ورجاله .. لكننى أسمع الليلة هتافًا من نوع آخر..: الله أكبر ولله الحمد...

الله غايتنا .. والرسول زعيمنا .. والقرآن دستورنا .. والجهاد سبيلنا ..،الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا .. لا إله إلا الله .. عليها نحيا ..،عليها نموت ..،عليها نلقى الله .. هكذا كانت الهتافات ...

وسمعت نقدًا لاذعًا لرئيس الوزراء والوزراء والساسة بصفة عامة .. كان الأمر جديدًا بالنسبة لى تمامًا فى شكله ومضمونه .. وكنت مندهشًا وأنا أرى أعضاء شعبة الإخوان المسلمين يتلاقون فى شوق ومحبة وسعادة ، وأرى على وجوههم النظيفة الإشراق والإيمان والثقة ، بل صوت مؤذنهم وهو يؤذن لصلاة العشاء كان ذا وقع أخاذ ساحر .. يهز القلوب ، ويسمو بالأرواح ..

قال لنا صديقنا الأكبر « الحسينى موسى » : « هل سعدتم بهذا الحفل .. »

قلت فى حماسة : « جدًا .. جدًا .. أريد أن اذهب معك كل مرة »

لم أقض فى زفتى ومدرسة « كشك الثانوية » سوى فترة لا تتجاوز الشهرين ، وشعرت بضيق ما بعده ضيق ، لقد انسلخت عن رفاقى وأقاربى القدامى الذين ذهبوا إلى طنطا ، وشعرت بالغربة أيضًا .. غربة نفسية ، وخيل إليّ أن زفتى ضيقة ومملة .. وكم رقص قلبى من الفرح حينما عرض عليّ خالى وزميلى « إبراهيم » التحويل إلى طنطا .. ووافق أبى على ذلك .. لكن المشكلة أن الصف الأول الثانوى ليس فيه مكان شاغر فى أية مدرسة بطنطا .. وتفتق ذهن خالى إبراهيم عن حيلة ، وقد كان طالبًا فى مدرسة الزراعة الثانوية بطنطا ، إذ عرض على أن أتحول إلى مدرسته ، سوف يمنحوننى المجانية ، فضلًا عن أن الصف الأول والثانى فى الزراعة دراستهما ثانوية ، ويمكن التحويل فى العام التالى إلى أى مدرسة ثانوية صرِفة ..

وتم الأمر بسرعة وسهولة ، وودعت زفتى ..

وابتسم أبى فى سعادة وقال : « كنت أعلم أنك تحب طنطا ..»

ثم أحاطنى بيمناه القوية ، وشدنى إليه فى حب وقال : « طنطا عظيمة .. وفيها شيخ العرب السيد البدوى .. لكن تجنب الأخطاء التى وقع فيها عمك « عبد الفتاح » .. ويكفى ما حدث ..»

شعرت بالألفة والارتياح فى مدرسة الزراعة ، كان معظم الطلبة كبارًا فى السن ، كما كانت قدراتهم العلمية والأدبية ضعيفة ، مما جعلنى أتألق وأتفوق وأصبح معروفًا جدًا لدى الطلبة والمدرسين والناظر ، حتى العلوم الزراعية الإضافية تفوقت فيها ، وما زلت أذكر صوت مذياع المدرسة فى الصباح ، وهو يصدح بالموسيقا والقرآن الكريم والأغانى والأناشيد العذبة ، وأذكر زميلنا القصير السمين والطربوش فوق رأسه ، وهو يقف عند سارية العلم ، ويهتف بصوت أجش :

« عاش فاروق الأول ملك مصر والسودان وملحقاتها ..»

« مصر والسودان لنا ، وانجلترا إن أمكنا »

« النيل لا يتجزأ .. شعب واحد .. وطن واحد »

ودخلت معامل العلوم لأول مرة ، وأخذت أتعلم كيف أجرى التجارب ، واستعمل الميزان الحساس ، وأتفحص الخواص الكيميائية والطبيعية لبعض المواد ... كما كنا نذهب إلى بعض المزارع الحكومية لندرس المزروعات وبعض المحاصيل فى الهواء الطلق ، وكنا نغنى ونمرح فى السيارة التى تسرع بنا صوب الحقول ..

وذهبنا ذات يوم لحضور مباراة لكرة القدم بين مدرستنا الزراعية والمعهد الدينى بطنطا .. وكانت مباراة حامية الوطيس جرت على أرض نادى فؤاد الأول الرياضى (نادى طنطا حاليًا) ، وكانت المباريات التى تقام بين المدارس والأزهر دائمًا مباريات حساسة حرجة ، تتسم بالكثير من التعصب والتوتر ، وأثناء اللعب تبودلت بعض العبارات التى لا تليق ، والتى بدأها طلبة الزراعة ، كأن يقولون :

أفقعها « هِدًّا » يا أستاذ لعلها تأتى « بجُوْنٍ »
قبقابٌ يغنى عن الجزمة مَنْتُفْلى يُغنى عن الجزمة
يا « مجاور » عمتك دابت م السلطة والفول النابت

واحتدم الخلاف ، وتبودلت الشتائم ، وجاء أحد أصدقائى الأزهريين الأخ « مصطفى عبد الحافظ » ، وهمس فى أذنى محذرًا ، ونصحنى بأن أخرج من النادى قبل انتهاء المباراة بعشر دقائق ، فقد تحدث مجزرة .. وفعلًا عملت بنصيحته ، وقبيل انتهاء المباراة ، أسرعنا بالانصراف أنا وبعض الأصدقاء ، ووقفنا لدى باب النادى بعيدًا نترقب ما سوف يحدث ، وما إن انتهت المباراة حتى اشتعلت المعركة بين جمهور المتفرجين ، وشملت اللاعبين أيضًا ، وأسفرت عن عدد كبير من الإصابات ، حيث سالت الدماء ، وتمزقت الملابس وكان أمرًا مؤسفًا ..

فى مدينة طنطا ، سكنت مع خالى إبراهيم ومالك ، فى غرفة مشتركة ، لم يكن من الصعب فى تلك الفترة أن نجد مسكنًا ، وأذكر ونحن نبحث عن السكن أن هناك عشرات الأماكن الخالية ، وبالطبع كان مقرُّنا فى أحياء طنطا القديمة ، مثل « كفرة على أغا » وكفرة « الحمرة » وغيرهما ونذهب صباح كل جمعة للحمام العمومى وندفع نصف قرش لنستمتع بالماء الساخن ، وننظف أجسادنا تمامًا ، بحيث

تكفى لمدة أسبوع فى الشتاء ، وكانت المدرسة تصرف لنا وجبة غذائية يوميًا من الأرز واللحم والخضار تعتبر الأساس الغذائى لحياتنا اليومية ، كما كنا نذهب مرتين أسبوعيًا للسينما ، وأصبحت السينما إدمانًا بالنسبة لنا ، أما المسرح فلم يكن له وجود فى طنطا ..،حتى يومنا هذا ..

أما المكتبة العامة فقد كانت مكانًا مفضلًا لى عصر كل يوم ، كنت آخذ كتب كبار الأدباء وأقرؤها بشغف زائد ، وأسجل فى كراستى الصغيرة بعض المقتطفات الهامة ، وهناك مجموعة « أصدقاء المكتبة » حيث نلتقى هناك معظم الأيام ، ونتبادل الآراء حول بعض الكتب الهامة ، لكن رواد المكتبة بصفة عامة لم يكونوا كثيرين ، مع أن المكان نظيف ، والجو هادئ ، وعلى عربات الكارو التى تتمركز أساسًا حول ضريح « السيد البدوى » تستطيع أن تشترى الكتب القديمة أو المستعملة بقرش أو قرشين .

وذات أصيل خرجت إلى شاطئ ترعة القاصد لأذاكر فى الهواء الطلق ، شعرت بآلام شديدة فى بطنى من الجهة اليمنى ، فاقتعدت كومة عالية من التراب ، وبقيت مكانى أذاكر دروسى ، ومر بى رجل من أهل قريتنا ، فقمت لأصافحه ، وأدرك الرجل بفراسته ما أعانيه من آلام ، ونصحنى بالعودة إلى البيت وشرب « كمّون مغلى » .. وفى المساء كانت الآلام فوق الطاقة ، فأخذنى خالى إبراهيم إلى طبيب قريب له فى بيته ، وقام بفحصى ثم سقانى جرعة دواء ، بعد أن شربت قلت له : « ما بى ؟ »

- « شىء بسيط .. لا تخف ..»

قلت : أخاف أن يكون عندى التهاب الزائدة الدودية .

التفت إلى وقال فى دهشة : « من أخبرك بذلك ؟ »

- « لا أحد ..»

قال فى شىء من التردد : « إذا زاد التعب ، فلتحضر إلى مرة ثانية ..»

وانصرف ، وركبنا « الحنطور » ، وأخذ الحصان الذى يجر العربة ، يدق الأرض بحوافره الصلبة ، وأنا أتأوه .. وعند الفجر وضعت يدى مكان الألم فوجدته يكاد يكون متورمًا ومؤلمًا جدًا ، ثم تقيأت .. وأرسلنا أحد الزملاء إلى الطبيب فى الصباح الباكر ليخبره بتطورات الحالة ، فأمر بنقلى على الفور إلى المستشفى ، لم يكن معنا أحد يرعانا ، فلجأنا إلى « ابن العمدة » ، وكانت له تجربة سابقة فى عملية الزائدة الدودية ، فأخذنى إلى مستشفى الأمريكان ، لم يكن معنا مال يكفى لدفع عربون مستشفى خاص ، وقام أحد الزملاء بالاتصال بالقرية عن طريق الهاتف كى يحضروا أبى .. وعرف رجل من أقربائنا الوضع الذى نحن فيه ، فحضر معنا إلى المستشفى ، ودفع عشرة جنيهات تحت الحساب ..

وأجريت الجراحة بعد وصول أبى مباشرة ، كانت هذه أول مرة فى حياتى أتعرض لمبضع الجراح ، تحت تأثير التخدير النصفى ، وكانت هذه العملية تعتبر خطيرة فى تلك الفترة ، إذ لم تكن المضادات الحيوية قد استعملت بعد ، وحضرت أسرتنا بعد ذلك عن بكرة أبيها .. النساء والأطفال والرجال ، كما حضر رهط من الجيران والأقارب . وشفيت بحمد الله ..

فى أمسيات المستشفى الساكنة ، كان يأتى أحد المبشرين ، ويعرض لنا صورًا ملونة عن سيدنا عيسى عليه السلام ، ويشرح لنا ، لماذا أرسل الله ابنه إلى الناس رسولًا نبيًا ، وأذكر أنه من ضمن ما قال : كان هناك صاحب مزرعة ، يعيش بعيدًا عنها ، ولما تمرد عليه الفلاحون وعصوا أمره ، أرسل إليهم

الرسل، كى يلتزموا بالأصول، وينفذوا الاتفاقات المبرمة، ويسيروا السيرة الحسنة، ويدفعوا ما عليهم من مال، ويقوموا بالواجبات، وبعد أن يئس من هدايتهم، أرسل إليهم ابنه، فقتلوه .. ثم ندموا بعد ذلك ندمًا شديدًا، وتعاهدوا على الاستقامة والطاعة ... الخ.

ثم أخذ يشبه لنا صاحب المزرعة، بالرب الخالق، والفلاحين بعباد الله، وابن صاحب المزرعة بالسيد المسيح، أما الرسل السابقون فهو أنبياء الله .. وكنا كمسلمين نعترض هذه المقولات ونرد عليها بما نعرف من عقيدتنا ..

وعقب شفائى مباشرة، تم تحويلى من مدرسة الزراعة إلى مدرسة طنطا الثانوية الجديدة فى الصف الثانى.

وذات يوم كنت أقف فى فناء المدرسة لأشهد مباريات كرة لقدم التى أقيمت خصيصًا لاختيار الطلبة أصحاب المواهب الظاهرة، لينضموا لفريق المدرسة الرسمى، كنت مجرد متفرج، وكانت الفوضى تضرب أطنابها فى الملعب، بحيث لم يستطع أحد أن يسجل هدفًا، وفجأة رأيت الكرة تقترب منى، وبحركة سريعة تلقفتها، ثم قلبتها للخلف فى ركلة قوية، لتسجل أول هدف فى الشبكة .. وصفر المدرب بصفارته فى انبهار .. ثم اقترب منى قائلًا: «لماذا لا تلعب معنا ..»

قلت- «لأنى مريض و ....»

قال- «أنت خامة طيبة .. فهمت ذلك من طريقة استقبالك للكرة وتسديدك لها فى المرمى .. لا شك أنك تلعب منذ زمن طويل ..»

وبعد تجربتين، تم اختيارى عضوًا فى الفريق الرسمى، ذلك الفريق الذى ظل يوالى انتصاراته فى بطولة القطر حتى وصل للدور النهائى، وفازت مدرسة الإبراهيمية الثانوية بالكأس، وكان ترتيب مدرستنا الثانى، وكان يلعب ضمن فريق الإبراهيمية عدد من نجوم مصر فى كرة القدم أذكر منهم طارق سليم ..

تعتبر مدينة طنطا من أهم عواصم الأقاليم فى مصر، فإذا كانت القاهرة الأولى والإسكندرية الثانية، فإنّ طنطا تأتى فى المرتبة الثالثة، وهى عاصمة محافظة الغربية، وتقع وسط إقليم زراعى خصب، كما أنها ملتقى شبكات المواصلات فى الوجه البحرى، ولها شهرة فى السياحة الدينية، وذلك لوجود ضريح السيد البدوى فيها، بالإضافة إلى عدد من الأضرحة الأخرى الهامة، كضريح سيدى «عز الرجال»، وضريح «الشيخة صباح» وغيرهما، وفى مولد السيد البدوى وعادة يكون فى شهر أكتوبر من كل عام، يحتشد مئات الألوف فى هذه المدينة، ويربو عدد المحتفلين، دائمًا، على المليون أو المليون والنصف فى ربع القرن الماضى، ومن ثم تجد الشوارع مزدحمة، وكذلك المساجد والمحلات التجارية، والبيوت المخصصة للإيجار، بالإضافة إلى الساحات الواسعة التى تنصب فيها الخيام الكبيرة، التى يخصص فيها جزء للرجال وآخر للحريم، كما يشترك فى هذه الاحتفالات جميع فرق الطرق الصوفية كالشاذلية والأحمدية والنقشبندية والرفاعية وغيرهم، وفى الساحة الكبيرة- كما فى مسجد الضريح- تتخذ كل طائفة مكانًا لها، ويمارسون طقوسهم الخاصة فى الذكر والإنشاد والقراءة،

فلا تكاد تجد موضعًا لقدم ، والضجيج يعلو حتى يصم الآذان ، وترى المجاذيب ومختلف الدراويش ، يصيحون ويصرخون من وَلَهٍ وعشق ، ويتطوحون يمنة ويسرة وأمامًا وخلفًا ، وبعضهم يرتدى الملابس المرقعة بألوان زاهية مختلفة ، وكذلك ترى ألوانًا متعددة للعمائم ، والمسابح الطويلة تتدلى من أعناقهم ، وقد تقف بعض النسوة خلف الرجال ويتطوحن هنّ الأخريات ، وكان الأزهر الشريف فى طنطا يغلق أبوابه إبان المولد ، أما طلبة المدارس فكانوا يذهبون كل مساء للتفرج أحيانًا ، وللمشاركة فى طقوس المولد أحيانًا أخرى ، ولقد كتبت- وأنا سجين فى أسيوط- قصيدة طويلة حول هذا المولد ، نشرتها فى مجلة « الأدب » التى كان يرأس تحريرها المرحوم الأستاذ أمين « الخولى » ، ثم نشرتها بعد ذلك فى ديوانى « أغانى الغرباء » ، وقد جاء فى مطلع هذه القصيدة :

بالباب اصطف مجاذيبُ ... وجوار القبر محاسيبُ
ألوان الطيف جلابيبُ ... وجموع تهتف من حُرَقِ

الله الله يا بدوي

وقد راعيت أن تكون موسيقا القصيدة ووزنها مرتبطة ، باللحن الشائع الذى يردده الناس عن السيد البدوى والذى يقول « الله الله يا بدوى جا باليسرى » ولعل « اليسرى » يُقصد بها الأسرى ، إذ المعروف أن « البدوى » اشترك فى الحروب الصليبية مع عدد من المتصوفين ، وخاضوا معارك ضارية ضد العدو ، وأطلقوا سراح بعض الأسرى المسلمين .

وفى ساحات مولد البدوى تجد أنشطة شعبية متباينة ، تجد اللعب السحرية والسيرك والمسارح الخاصة بالرقص والغناء والكوميديا القصيرة ، كما تجد ألعاب الفتوة والمهارة ، وألعاب الحظ والقمار ، وغُرزًا للتدخين ، وملاهى عابثة ، ولذا يختلط الحابل بالنابل ، والصالح والطالح ، والنساء والرجال ، والفلاحون وأصحاب الحرف ، والتجار والصناع ..

ويأتى يوم « زفة الخليفة » وهو موكب مشهود يستغرق الساعات الطوال ، ويبدأ بعد صلاة الجمعة آخر الموسم ، ويسير الموكب فى الشوارع الرئيسية ، وينتظم فيه طوائف الصوفية ، واحدة بعد أخرى ، ثم أصحاب الحرف كالسروجية والحدادين والنجارين والنحاسين وغيرهم ، وترفع الأعلام والبيارق والشعارات الخاصة بكل طائفة ، وتدق الطبول والمزامير وبعض الآلات الموسيقية ، وتردد الأناشيد فى هذا الموكب الطويل ، ثم يظهر « الخليفة » خليفة السيد البدوي- راكبًا حصانه ، لابسًا تاج الخلافة ، مغمضًا عينيه ، تحوطه التجلة والوقار ، وما إن يهل بطلعته على المشاهدين والمشاهدات حتى تنطلق الزغاريد ،وتعلو صيحات الفرح والاستبشار ، وتتماوج التكبيرات والتهليلات ، فى مشهد مثير رائع ، يفوق فى روعته مواكب القادة والزعماء وهم يحضرون المناسبات الهامة ، وفى الليل تطلق الصواريخ الملونة فى أنحاء طنطا وسط فرحة الأطفال والشباب وصياحهم ، وبعد أن ينتهى « المولد » ، تحمل الجمال الأمتعة والخيام ومختلف الأدوات ، وتولى وجهها شطر البلدان التى وفدت منها على أمل العودة فى العام القادم ، بعد أن يكون الزائرون قد طافوا حول الضريح طواف الوداع ! ! وتسترخى طنطا بضعة أيام تحاول فيها تعويض ليالى السهر والزحام ، وتنظف الشوارع ، ويجهز التجار ميزانياتهم ، ولا تنسى إدارة المسجد أن تحصى المبالغ الكبيرة من « النذور » التى وضعت فى صندوق السيد البدوى ، والتى يتم

توزيعها وفق لائحة محددة أقرتها وزارة الأوقاف ..

والمعاهد الأزهرية أو الدينية فى طنطا ، يطلق عليها « المعهد الأحمدى » ، وقد لعب هذا المعهد دورًا بارزًا هامًا فى حياة الإقليم الثقافية والاجتماعية ، وتخرج منه العديد من العلماء والشعراء ورجال الفكر والسياسة ، كما كان له تأثير كبير فى الحياة السياسية بالمدينة ..

وفى طنطا العديد من المصانع والمحالج والنشاطات الصناعية الأخرى ، كما تعتبر المدينة سوقًا رائجة للتجارة ..

لقد أغرمت بهذه المدينة غرامًا ملك عليّ حواسى ، فقد وجدت فيها العلم والثقافة والمتعة والذكريات الحلوة ، ووجدت فيها القديم والجديد ، والماضى والحاضر ، وعلى الرغم من رفضى للكثير من الطقوس التى يؤديها الجهلة والعوام فى ضريح السيد البدوى ، من طواف وتقبيل للأعتاب والأبواب والنوافذ ، ومن دعوات واستغاثات عجيبة ، لا يصح أن توجه إلا لبارئ السماوات والأرض ، على الرغم من كل هذا فقد كنت آنس بالذهاب إلى المسجد الكبير ، وقراءة القرآن فيه ، والصلاة فى أوقاتها ، وأحيانًا أنتحى جانبًا لأذاكر دروسى فى جوه الهادئ ، وأضوائه الكافية ، وأنا جالس على البسط الثمينة الفاخرة ، بل ما زلت حتى يومنا هذا أقضى الفترة ما بين الظهر والعصر إبان شهر رمضان بجوار المنبر ، أتلو القرآن ، وأستمع للدروس الدينية ، وهو مكان يعرفه الإخوة والأصدقاء ، نلتقى عنده كل عام ، بعد أن نعود من الخارج ..

كانت المحاضرات الثقافية فى المرحلة الثانوية قليلة جدًا فى أندية طنطا ، ولم يكن هناك مجال للنشاطات الثقافية سوى مقار الأحزاب السياسية ، وكان من الواضح أن مقار الإخوان المسلمين فى طنطا ، سواء شعبة قسم أول أو شعبة قسم ثان أو المكتب الإدارى العام ، هى أثرى وأقوى هذه المراكز فى العطاء الفكرى والثقافى الموجه ، كان الإخوان يضعون برنامجًا حافلًا للمحاضرات المختلفة ، التى تضم الفكر والأدب والتاريخ والسياسة والاقتصاد والتوعية الصحية ، وكانوا يربطون بين هذه الموضوعات كلها برباط الإسلام ، إذ إنه الأساس فى كل شيء ، كما كانوا يقيمون مهرجانات للشعر والمسرح الإسلامى والألعاب الرياضية ، كما كانوا يضعون بعض الكتب والمجلات والنشرات تحت تصرف الرواد ، وأغلبهم أعضاء فى الجماعة ، ولم يكن برنامج المحاضرات خاصًا بطنطا وحدها ، فقد كان الدعاة يخرجون أفواجًا إلى الشعب الإخوانية والمساجد ، فى القرى القريبة والنائية ، التى تتبع محافظة الغربية ، وكان المرشد العام الإمام الشهيد حسن البنا يأتى بنفسه فى زيارات متتابعة ، وكذلك الوكيل والسكرتير العام وأعضاء مكتب الإرشاد وعدد من الدعاة البارزين ، بل إننا فى نادى الإخوان بطنطا استمعنا ذات مرة إلى من يخطب باللغة الإنجليزية وإلى جواره مترجم باللغة العربية ، والواقع أننى فى هذه اللقاءات والاحتفالات سمعت ألوانًا من الشعر السياسى والدينى لها نكهة خاصة ، وكانت تتميز بالقوة والجزالة والحماسة ، ويغلب عليها الطابع الخطابى الذى يؤثر فينا نحن الشباب تأثيرًا عميقًا ، كما كانت المسرحيات التاريخية أو السياسية التى تقدم فى مناسبات قليلة ، على نفس النحو من الإثارة والنغمة الخطابية والحماسية ، ولعل هذا كان مناسبًا للفترة التاريخية ، وللموضوعات المطروحة على الساحة ، وللجمهور المتلقين آنذاك .

كنت أغشى مجتمعات الإخوان ، وأنهل من ثقافتهم وعلمهم ، وأتعلم الكثير منهم على الرغم من عدم انضمامى رسميًا لهم . فكيف كان ذلك ؟ كنت من أسرة تعتنق مبادئ الوفد فى تعصب شديد ، وتعتبر الانشقاق عليه أمرًا خطيرًا بل فسادًا ومروقًا ، ولم يكن يُتصور أن يفعل أحد ذلك ، وعندما بدأ اتصالى بالإخوان ، كنت أجد ميلًا جارفًا لمبادئهم وأفكارهم وسلوكهم ، لكن المشكلة كانت فى الكبرياء والتعصب .. كانوا وهم يدعون لمنهجهم يهاجمون الوفد وتاريخه ، وكنت أرى أن ذلك يجرح كبريائى فأتضايق ، وأنفر منهم ، لكننى أعود على دورهم وصحفهم وكتبهم لأرتشف منها ، لكن هذا الحاجز النفسى الصلب تحطم فجأة بإرادة الله ، عندما رأيت أفواج المتطوعين من الإخوان المسلمين ، تجوب شوارع طنطا وهم يرددون هتافاتهم قبل سفرهم للجهاد فى أرض فلسطين ، وعندما رأيت الصدام المروع بينهم وبين حكام تلك الفترة ، وكانت أول قصيدة نشرتها فى مجلة « الإخوان المسلمين » فى عام ١٩٤٨ بعنوان « النور بين أيادينا » .. وكانت عن فلسطين ..

وذات يوم كنا نجلس فى الصف فى مدرسة طنطا الثانوية .. ودخل علينا أستاذ اللغة العربية « عبد الستار عجور » ، وكان رجلًا قويًا فى مادته وفى خلقه ، نبيلًا فى تعامله وحدبه علينا ، ووجدت الأسى والألم يكسوان وجهه ، وحيانا بتحية الصبا ح، ثم رمى بأوراقه فوق المنضدة ، ووقف صامتًا بضع لحظات ، ثم أخذ يتحدث بصوت متهدج ، وعيناه مبللتان بالدموع ، ومن جملة ما قال فى هذا اليوم الذى لا أنساه :

« يا أبنائى .. لقد مات اليوم رجل عظيم .. لقد خسر العالم الإسلامى والعربى .. وخسرت مصر بموته خسارة فادحة .. رجل وهب حياته وكل ما يملك لله . وضحى بنفسه فى سبيل عقيدته .. عرفته طالبًا فى كلية دار العلوم .. كان مثال الطهارة والإخلاص والصدق والوفاء .. وكان متميزًا بأخلاقه وسلوكه بين أقرانه .. لم أره على معصية قط .. أحبه الأساتذة وزملاء الدراسة وكل من عرفه .. ولو قيس الرجال بالمقياس الصحيح لكان « حسن البنا .. وأعظم من يعيش على رقعة العالم الإسلامى كله ..»

واستطرد أستاذنا يتحدث عن الفساد الذى حل ، والظلم الذى طم ، وعن الذين يعبثون بالسلاح ، ويردون القيم النبيلة ، ويتصدون للشرفاء والمصلحين ، ويمكنون للاستعمار والطغيان ، وعن ضيعة الحق والعدل ، وفساد الحاكم والمحكوم ، وعن .. وعن .. وعن .. حتى دق الجرس ..

فتمتم فى حسرة وقال : « إن اغتيال حسن البنا وصمة فى جبين الأمة ، وفى جبين العصر السيء الذى نعيش فيه .. ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ صدق الله العظيم ..»

وجفف الأستاذ دموعه ، وحمل أوراقه ومضى ..

كنا نجلس نستمع إليه طوال الحصة ، وكأن على رءوسنا الطير .. وتكلم فى أمور شتى لا أتذكرها الآن .. وخرجت لأبحث عن الصحف ، رأيت فى « المصرى » الصحفية الواسعة الانتشار آنذاك بالخط الأسود العريض:

« مصرع الشيخ حسن البنا » ...

وأخذت أقرأ التفاصيل .. وفى الشارع كان الناس يتحدثون عن أمور أخرى كثيرة لم تتناولها

الصحف .. تحدثوا عن آلاف الإخوان خلف الأسوار ، وعن المجاهدين الذين سحبوهم فى السلاسل والحبال من ميدان المعركة فى فلسطين ، وزجوا بهم فى المعتقلات ، وعن تصرفات مريبة للملك وحاشيته ، وعن الحزب الحاكم ، وعن الأوامر التى صدرت بإطفاء الأنوار فى شارع الملك ، وعن منع الأطباء من إسعاف « الجريح » الأعزل ، وعن الظلم الذى استشرى ، والفساد الذى ساد ، وفى هذا اليوم الأسود الحزين تصرفت كعضو فى جماعة الإخوان المسلمين .. وبكيت يومها بحرارة .. تحطم الحاجز النفسى تمامًا ..

وأذكر أننى فى هذه الأيام قلت فى نفسى :

« ليتنى جلست مع حسن البنا أو صافحته ! ! إننى لم أره إلا وهو يخطب ، وأنا محصور بين الجموع الحاشدة ..وظننت آنذاك أننى قد فاتنى أمر هام لا يعوض .. لكن ما الحيلة وقد لقى ربه شهيدًا وانتهى الأمر ..

وصحوت من نومى ذات ليلة وأنا فى دهشة أمرى .. لقد رأيته فى المنام .. كنا ثلاثة .. ووجدته يصافحنى ويبتسم لى .. لقد غمرتنى السعادة بعد أن أفقت من نومى .. ولم أتشتت أو أجد صعوبة فى تفسير الحلم الذى رأيته .. لقد قلت بينى وبين نفسى « إنها البيعة ..»

وتذكرت حديث رسول الله « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، وحمدت الله ..

وانخرطت فى سلك الأخوان المسلمين ، فى أقسى الأيام وأشدها حلوكة وخطرًا ، ولم أعبأ بشىء ، وصرحت بما آمنت به ، وخلعت رداء الحزبية القديمة إلى الأبد ..

وحينما علم أبى بما حدث ، لم يتضايق أو يعتب على ، لكنه سألنى مجرد سؤال عما سمعه ، فشرحت له وجهة نظرى ، والأسباب القوية التى جعلتنى أتخذ قرارى ، والهدف من ورائه ، كان يستمع بإمعان ، وقال فى النهاية :

- « افعل ما تراه صالحًا .. لكن لا تورط نفسك فى مشاكل نحن فى غنى عنها .. ولتهتم بمستقبلك ».

وكان فى قريتنا ثلاثة من الزملاء ينتمون إلى الجماعة ، كما كان أحد أخوالى (ابن عم والدتي) الحاج محمد محمد الشافعى ، هو أول من اعتنق المبدأ فى قريتنا ، وكان رحمه الله رجلًا شجاع الرأى ، صريحًا فى كلامه ، لا يدارى ولا يحابى ، ولا يتهيب أن ينتقد أقرب المقربين إليه عندما يراه ينحرف ، وكان مؤمنًا أعمق الإيمان بمبدئه ، وعلى علاقة وثيقة بالإمام الشهيد رحمه الله ، فكان يذهب لزيارته فى القاهرة ، أو يلتقى به فى زياراته للمركز والشعب القرية ، بل إنه باع بعض مواشيه ليساهم فى شركة المعاملات الإسلامية التى أقامها الإخوان كتجربة فى المجال الاقتصادى ، كما كان حريصًا على اقتناء مطبوعات الإخوان ومجلتهم الأسبوعية التى ترسل إليه تباعًا عن طريق البريد ، وكنت أنا الذى يتسلمها من « البوسطجى » أو رجل البريد ، ثم آخذها إليه ، فيقول لى أقرأها أولًا ثم أحضرها إلىّ ، وكان رحمه الله شديد النقد للتصرفات التى تصدر عن بعض الصوفية ، ويهاجمهم بعنف ، ويدعو إلى تدمير الأضرحة ، مما أكسبه عداوات وخصومات عديدة ، كادت تودى به لولا نفوذ عائلته الكبير ، وتولى إخوته أعلى المناصب فى الحكومة ، وفى حزب الوفد بالذات .

والغريب- رغم صغر سني- كنت آنس إليه ، وأقضى معظم وقتى معه على الرغم من فارق السن الكبير بينى وبينه ، فقد كان فى عمر أبى تقريبًا ، ولم أكن أشعر معه إلا بشعور الزميل نحو زميله ، أو الصديق نحو صديقه ، وذلك بسبب بساطته ورقته فى التعامل معى ومع باقى الصحبة ، كما كانت له صولات وجولات مع المفسدين والمستغلين من أهل القرية ، فكان يكتب الشكاوى ضد تجار الأفيون والحشيش ، ويرفع الدعاوى القضائية ضد من يتجرون فى السوق السوداء ويستولون على مواد التموين ، ويهاجم المتعاملين بالربا مهما قوى نفوذهم ..

ولقد ذهب رحمه الله إلى الحج فى أوائل الأربعينيات من القرن العشرين ، ثم خطر فى نفسه خاطر ، لماذا لا يبقى فى السعودية ليدرس الفقه والتاريخ الإسلامى والحديث واللغة ؟ إنه يحفظ القرآن ، ويلم بالقليل من هذه العلوم ، ولديه من الأملاك والمال ما يكفيه ويكفى زوجه وأولاده الستة ، ومن ثم فلا عذر بعد ذلك ، وبعد انتهاء موسم الحج فوجئ إخوانه من أهل القرية باختفائه ، وهكذا بقى هناك يدرس على أساس المذهب الوهابى (السلفي) ، وبالطبع فإن هذا الموضوع أثار ضجة كبرى فى أوساط القرية عامة وأسرته خاصة ، ولوحظ أن زوجته كانت غاضبة أشد الغضب ، وبعد فترة اتخذت بعض الإجراءات من جانب أشقائه أصحاب النفوذ لإعادته ، وفعلًا تم ذلك بعد فترة أعتقد أنها تقرب من عام أو أكثر ..

ولقد عاش رحمه الله- رغم نشاطه- فى منأى عن الاضطهاد السياسى ، ولم يقع فى قبضة الشرطة إلا فى عام ١٩٦٥ ، حيث قضى فى المعتقل ما يقرب من شهرين ، ولعل اعتقاله كان السبب فى إعفاء شقيقه اللواء محمود الشافعى من منصبه كمدير لمصلحة الأمن العام بالقاهرة ، على الرغم من صلته الوثيقة بأشقاء جمال عبد الناصر ..

وعندما تم اعتقالى فى عام ١٩٥٥ كان أبى يقابله ويقول له : «أهكذا تفعلها يا حاج محمد ؟ تبقى أنت وأولادك ، ويذهب نجيب إلى السجن .. يا راجل حرام عليك ..»

فكان يضحك ويقول لأبى :

- «ليتهم أخذونى معه .. هذا شرف له ..»

وعندما اعتقلنا معًا فى عام ١٩٦٥ أفرج عنه بعد شهرين ، وبقيت أنا فترة طويلة ، فكان أبى يقبله ويقول له : «لقد فعلتها يا حاج محمد .. أوصلته إلى هناك .. ثم عدت أنت ..» فيضحك ولا يعلق بشىء ..

كان أبي- كمعظم الآباء- حساسًا جدًا لكل ما يصيبنى من أذى ، ويقضى الليالى الطوال ساهرًا حزينًا ، فإذا ما أصبح الصباح ، شد الرحال إلى هذه البلد أو تلك باحثًا عن صاحب سلطة أو نفوذ كى يوسطه فى الإفراج عنى ، ويذهب إلى كبار الضباط ، وإلى رؤساء تحرير الصحف ، أو أقارب الحكام ، وذهب ذات يوم إلى صديقى د . محمد البغدادى شقيق عبد اللطيف البغدادى عضو مجلس قيادة الثورة ، وأخذ يشرح له كيف أنه لا يتصور مطلقًا أن يكون هناك سبب وجيه لاعتقالى ، فرد عليه قائلًا :

- «لا أستطيع أن أفعل شيئًا .. ابنك مدان ..»

المهم أن خالى الحاج محمد كان رجلًا صالحًا بكل معنى الكلمة ، على الرغم من أن أهالى القرية

كانوا يتهمونه بالاندفاع وعدم التبصر بسبب شجاعته وصراحته، كان هو يرى فى تصرفاته مقتضى الصدق والأمانة والإخلاص، وكانوا يرون أنه يفتقد الحكمة والمجاملة، ويعتقدون أنه يجر على نفسه المشاكل والمتاعب والعداوات، بينما لا يشك هو لحظة فى أن ما يفعله أمر يوجبه الدين، ويقتضيه الشرف، فكيف يسكت عن تجارة السموم وعن الغش والاستغلال والتعامل بالربا؟

والشيء الغريب هو أنه لم يستطع أن يجند واحدًا من أبنائه فى صفوف دعوة الإخوان، وإن ظلوا على إخلاصهم لأبيهم وتعاطفهم معه حتى آخر أيام حياته التى ختمت فى عام ١٩٨٢..

❁❁❁

[٨] شعبنا المريض



جاء عقد الخمسينيات من القرن العشرين ، وحتى تلك الفترة لم يكن فى قريتنا عيادة أوطبيب خاص ليعالج المرضى ، ولهذا فإن المرضى- وما أكثرهم!- كانوا يعانون الأمرين ، وكانت تغلب على العلاج وسائل الخرافات والشعوذة والوصفات الشعبية ، كان أحد أقربائى الشباب يعانى من روماتيزم فى القلب وتورم بالجسم ، فأخذوه إلى « الزار » فى قرية قريبة منا ، وكما ذهب على حماره شاحبًا ناحلًا هزيلًا عاد على نفس الصورة ، بل ازداد إرهاقًا ولهاثًا ، ثم أخذوه مرة أخرى إلى محضر الجان والأرواح « الششتاوى شابوت » ، وكان رجلًا طويلًا ، أصفر الوجه ، متقرح الجفنين ، يرتدى عمامة بيضاء متسخة ، ويسكن فى بيت كالقبو المظلم ، يوحى بالخوف والغرابة ، فأطلق البخور ، وتمتم بكلمات غير مفهومة ، وكتب وريقات صغيرة ، وأوصى بدهان قدمى المريض بدم بعض الحيوانات ، ولم يشعر مريضنا بالشفاء ، وحاول الأهل بعد ذلك أن يسقوه خلاصة بعض الأعشاب دون جدوى ..

ثم كان لابد مما ليس منه بد ، حملوه فى رحلة شاقة على حماره إلى مدينة زفتى حيث فحصه الطبيب ، ووصف له بعض الأدوية الخاصة بعلاج هبوط القلب ، وأمر بأن يبقى المريض إلى جواره ليأخذ إبرًا يومية ، فاستأجروا غرفة صغيرة ، وظلوا بها حتى النهاية .. نعم فقد فوجئنا ذات يوم قبل طلوع الشمس بصراخ وعويل ، وكان صوت أم المريض مميزًا وهى تصرخ بصوت يمزق نياط القلوب : « ولدى .. ولدى .. ولدى » ، وهكذا عرفنا أن « سليمان » قد مات .. مات بعد أن ترك عروسه الشابة الجميلة دون أن تزف إليه .. وحدث فى هذا اليوم ، أن أصرت النسوة على أن يحضرن العروس ، لكى تدخل غرفة الميت ، وتنام إلى جواره بعض الوقت .. وحدث خلاف شديد حول هذا الأمر ، فقد أفتى بعض رجال العلم أن هذا التصرف حرام ولا يجوز ، وأصرت العجائز أن تفعل العروس ما أمرن به .. ورأيتها تدخل دامعة العينين .. لم أستطع متابعتها .. فقد اقشعر بدنى ، وأخذتنى نوبة شديدة من البكاء .. كنت آنذاك فى التاسعة من عمرى ، وكان للموت فى نفسى رهبة لا مثيل لها ، وكنت أرى أغلب الذين يمرضون يموتون ، ولم نكن نرى الطبيب إلا لمامًا ، وفى حالات نادرة جدًا ... ومرة أخرى أخذنا عمى « أحمد » إلى عيادة طبيب فى طنطا ، كان يعانى من البواسير ، وفى العيادة الخاصة أجريت له العملية ، وخرج منها دون أن يفيق ، وبعد وقت قصير أخذ يهذى ويزبد ويبكى دون وعى ، وبعد ساعة جاء الطبيب ، ثم أخبرنا أن العملية تمت بنجاح ، وأنه يمكننا أن نأخذه إلى القرية .. وجاءت سيارة ، ومضينا به إلى حيث شاطئ النهر ، آخر مسار السيارة ، ثم ركبنا القارب الصغير إلى الشاطئ الآخر ، ثم جيء بحمارنا فوضعناه عليه بطريقة خاصة حتى لا تؤلمه العملية .. وبقى فى البيت أسبوعين شفى بعدهما تمامًا .

وأذكر أن جدتى أخذت تصرخ ذات ليلة من آلام الضرس الحادة ، وفى الصباح جاء حلاق القرية ، وبدون تخدير أو رحمة انتزع الضرس التالف ، وهى تتلوى وتصرخ من الألم ، وتنزف بشدة ، وسارت الأمور بعد ذلك سيرها الطبيعى ، فقد كان حلاق القرية يجرى الجراحات الصغيرة ، وعمليات الختان ، بل ويشخص بعض الأمراض ويصف لها العلاج الذى يروق له ، وما أكثر الذين قضى نحبهم بعد أخذهم حقنة من الحقن ، وكنا نقول دائمًا « الأعمار بيد الله ، هذا قضاء الله وقدره » .

وذات يوم حدثت مشاجرة عنيفة فى قريتنا ، وأصيب أحد أقربائنا بفأس فى رأسه ، فارتمى ينزف وهو مغمى عليه ، ونشط حضرة العمدة فى طلب الإسعاف والنيابة ، وبقينا ننتظر فترة طويلة ، كانت النسوة قد أجلسن المصاب على الأرض فى الهواء الطلق ، ووضعن رجليه فى طشت ماء ، أما حلاق القرية فقد وقف خلفه ، يضع أكداسًا من القطن الطبى على رأسه النازف ، ومن آن لآخر يفتح المصاب عينيه للحظات ثم يغيب عن الوعى وظل هكذا إلى أن فاضت روحه إلى بارئها .. والغريب فى الأمر أن المتهم قد برئت ساحته بعد ذلك ، وكان الفضل يرجع فى ذلك إلى « المحامى الشاطر » الذى تقاضى مبلغًا كبيرًا من المال ، فاستطاع أن يستغل الشهود ، وأن يوقعهم فى بعض التناقضات الدقيقة التى لا يدركون مداها ..

وأذكر أيضًا أن أبى أصيب ذات مرة بالملاريا ، وكانت الحمى تهز جسده هزًّا عنيفًا ، ويظل هكذا حتى تنتهى النوبة ، كنا فى شهر رمضان ، ومع ذلك رفض أن يفطر ، وأثناء النوبة ، وأبى راقد مغمض العينين ، تتكوم فوقه الألحفة والبطاطين ، وجسده يرتعش بعنف ، جاءت « خالتى مباركة » أثناء ذلك ، وفى يدها سطل من الماء البارد ، ثم قذفت بالماء على وجه أبى ، فانتفض انتفاضة غريبة ، وفتح عينيه فى دهشة ، وصدره يعلو ويهبط ، وعندما تساءل فى استنكار عن هذا التصرف ، قالت له : إن هذا هو العلاج ، وأنه سوف يشفى بإذن الله ..

وجاء وقت كان لابد أن أعالج فيه من البلهارسيا والانكلستوما ، فالمدرسة الثانوية لا تقبل الطلبة الجدد إلا بعد الفحص الطبى ، والتأكد من خلوه من الطفيليات ، كان علينا أن نذهب إلى مدينة « ميت عمر » ، وهناك تُجرى لنا الفحوص الضرورية للتأكد من التشخيص ، وبقينا طوال شهر كامل نروح ونجىء يومًا بعد يوم ، لأخذ حقن « الطرطير المقيئ » ، وقبلها « شربة الزيت » المضادة للإسكارس والأنكلستوما ، وهى جرعة شديدة المرارة ، سيئة المذاق لا يطيقها الإنسان ، ومع ذلك فلا مناص من أخذها ، وإلا فالعصا والكرباج والباشتومرجى الواقف إلى جوار الطبيب مهددًا متوعدًا ، وما أكثر الذين كانوا يسقطون منا إعياءً وضعفًا بعد أخذ حقنة « الطرطير » ، وكان الطبيب الأنيق الحسن المظهر ينصحنا دائمًا فى دروسه اليومية ، بالاهتمام بالغذاء الجيد المليء بالبروتينات والفيتامينات ، وكنا نحن ننظر إليه فى بلاهة ، ولا نفهم كلمة مما يقول ، وفى أيدينا « صرة » صغيرة من القماش بها طعامنا المفضل من الخبز والجبن .

وذات يوم نادى « المنادى » فى قريتنا ، بأن الحكومة عازمة على إنشاء وحدة مجمعة بها عيادة وطبيب بالقرية ، وأن على الفلاحين أن يتبرعوا لهذا المشروع الكبير ، وهدد الذين لا يتبرعون بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، وتسابق أهل الخير للتبرع بقروشهم القليلة ، واستعمل العمدة سلطاته فى إرغام

الكثيرين على دفع ما يجب عليهم ، ولقد رأيت الخفير ذات يوم يسوق أحد المرضى إلى الدوار لأنه رفض دفع التبرع ، وكان يردد وهم يجرونه : « لن أعيش حتى أرى المستشفى .. يوم الحكومة بسنة .. يا ناس حرام عليكم » .

وبقينا سنوات طويلة نحلم بالمستشفى ، والعمدة لا يكف عن استقطاع التبرعات قسرًا ، ولا تقضى حوائج الفلاحين ومصالحهم إلا إذا دفعوا للمستشفى ، وبعد سنوات وفد إلى قريتنا « ناظر مدرسة » من مدينة قريبة ، وتبنى موضوع المستشفى ، وأخذ يرسل الشكاوى تباعًا ، ويجمع توقيعات الفلاحين وبصماتهم ، ويسافر إلى ذوى الشأن حاثًا لهم ليساهموا بجهودهم ، وكان كل مرشح لحزب من الأحزاب يعد بإنهاء هذا الموضوع بعد نجاحه فى الانتخابات ، فإذا ما نجح نسى وعوده ، وهكذا ظلت المستشفى حلمًا حتى تحقق فى عقد الخمسينيات من القرن العشرين ، أى ما يقرب من خمس عشرة سنة ، كان يوم الافتتاح يومًا مشهودًا لا تنساه القرية[1] ..

وبمرور الوقت تضاءل دور المشعوذين والدجالين ، وانكمش دور حلاق القرية ، وقلت الوصفات الشعبية ، وكثر عدد العيادات الخاصة بالتدريج ، وأصبح غالبية أهالى القرية يذهبون إلى الأطباء ، ويسافرون إلى المدن القريبة ، بعد أن تيسرت وسائل المواصلات ، وأصبح فى القرية سيارات أجرة كثيرة ، كما أصبحت الحافلات الكبيرة تمر بقريتنا وتربطها فى مواعيد ثابتة بأغلب القرى والمدن المجاورة ، وسبحان مغير الأحوال !

كانت « خالتى مباركة » تعتقد أن السبب الرئيسى لأى مرض من الأمراض هو « الحسد » .. فإذا أصاب أحدنا رمد فى عينيه ، أو مغص فى بطنه ، أو حمى مباغتة ، فإن البحث على الفور يدور حول الأشخاص المشهورين بالحسد فى القرية ، إنهم أساس البلاء كله ، وهناك أشخاص نعرفهم بأسمائهم- رجالًا ونساء- يتوقع الشر منهم إذا تواجدوا فى المنزل ، ويقولون عنه « عينه صفراء » ، ولذلك فإن أول إجراء كانت تتخذه خالتى هو « التعاويذ والرقى » ، ووضع بعض البذور أو المساحيق- مع الملح- على النار المشتعلة ، وما إن يطقطق الملح فى النار ، وينطلق الدخان ، حتى نؤمر بالخطو ذهابًا وإيابًا على النار ، وبعد هذه الإجراءات تلجأ الجدة أو الأم إلى بعض العلاجات الشائعة ، ففى حالة التهاب العيون ، يأخذون كمية من لبن المرضع ويضعونها فى محارة خاصة ، ثم يحكون المحارة بحجر معين لا أذكر اسمه ، وبعدها يقطرون من هذا اللبن فى العيون المريضة ، وكان علاج التهاب اللوزتين عن طريق ابتلاع بيضة ساخنة بعد تقشيرها ، أما الالتهاب الحنجرى مع بحة الصوت ، فلا وسيلة سوى الذهاب إلى « جزار بن جزار » ، ليمرر السكين ظاهريًا ويرفق على عنق الطفل وهو يقول : « جزار بن جزَار أذبحك يا ذئبة » ، ظنًا منهم أن هذه البحة سببها وجود ذئبة تسكن الزور ، وكان علاج المغص وآلام لبطن والإمساك هو « شربة ملح إنجليزى » ، أو خلاصة بعض البذور التى تغلى فى الماء كبذور « الخلة » وغيرها ، وكانت هناك مساحيق بيضاء تعجن بلبن المرضع ، وتكحل بها العين المريضة ، ويطلق عليها

---

(١) يمكن الإلمام بأوضاع الوحدات الصحية في القرية من خلال قصة «الذين يحترقون» وقصة «الربيع العاصف» للمؤلف .

« شُشم الديك » وتشترى من محلات البقالة ، وكان مسحوق البن هو الإسعاف الفورى للجروح حتى يتجلط الدم ، ويتوقف النزيف ، أما علاج القراع فيتم عن طريقة وضع طاقية من القار (الزفت) الساخن على رأس الضحية ، ويا له من عذاب!! وكان لهذه الأساليب من العلاج آثار وخيمة مدمرة فى كثير من الأحيان ، كما كان « الأفيون » يستعمل فى علاج الصداع المزمن الشديد ، وبعض الآلام الأخرى ، وكثيرًا ما يتعود عليه المريض حتى يصبح مدمنًا ، وتحل به كارثة إدمان المخدرات التى يصعب الإقلاع عنها ، والتى تدمر حياته الاقتصادية والاجتماعية ، وإنى لأذكر مريضًا ، كان يشكو من المغص الكلوى بصفة متقطعة ، فأعطاه « حلاق القرية » حقنة من سائل الأفيون ، وظل يكرر ذلك حتى أصبح المسكين ضحية الإدمان ، فباع أرضه ومواشيه ، وظل يتسول حتى ساءت صحته ، وانتهت حياته على أسوأ صورة .

وكان للعقم وسائل غريبة تستخدم لعلاجه ، فالمرأة العقيم تذهب لمحترفى الرقى والتعاويذ ، أو تخطو فوق جمجمة ميت ، أو تكتب لها كتابات معينة ، ثم تذاب الورقة فى الماء وتشربها ، أو تتعرض لأمر مخيف مرعب ، يبعث القشعريرة والهلع فى جسدها ، أو تتناول أنواعًا معينة من الأعشاب والأطعمة ، وأحيانًا توصف لها بعض التحاليل الشاذة .

أما الذين يصابون بلوثة عقلية ، أو مرض نفسى شديد ، فتوضع القيود فى أرجلهم ، والأغلال فى أيديهم ، ويوضعون فى غرف مغلقة حتى لا يراهم أحد ، لأن مثل تلك الأمراض فى القرية تعتبر عارًا كبيرًا ، وعورة يجب أن تستر ، والبعض كانوا يؤخذون إلى مستشفى الأمراض العقلية فى « الخانكة » وقلما يعودون منها ، ولا يعرف أحد مصيرهم بعد ذلك .

وكانت حفلات « الزار » ملتقى للعديد من المرضى والمريضات ، بعد أن ييأس أهل المرض من الشفاء ، وفى الزار تدق الطبول ، ويُترنم بالأغنيات الجميلة المثيرة التى تحرك المشاعر والأعضاء ، ويُعزف بالناى ، وترى حلبة الرقص يسودها الهرج والمرج ، تختلط الأصوات والشهقات والصرخات ، وقد يستبد الهياج بإحدى الحاضرات فتجد من يمسك بها ويسندها ، حتى لا تصاب بأذى ، وبعض رواد الزار كانوا يجدون قدرًا لا بأس به من الراحة النفسية والتسلية والمتعة ، فيتخففون من كآبتهم ووساوسهم ، ويشعرون بشىء من الأمل والنشاط ، ولم تستطع خطب الوعاظ فى المساجد ، ونصائح العقلاء من أهل القرية ، أن تضع حدًا للزار ، وكان لنا زميل فى المدرسة الابتدائية ، يعتبر والده أشهر صاحب زار فى المنطقة ، وكثيرًا ما كنا نمزح معه ، ونطلب منه أن يسمعنا بعض أغانى الزار الجذابة ، فكان يفعل ، وكنا نطرب لعذوبة صوته ، وغرابة كلماته ، وكنا نرد من خلفه عابثين :

شيخ محضر يا شيخ محضر　　اللى عليه عفريت يحضر

ولم يكن يدور بخلدنا أن زميلنا هذا ، سوف يترك الدراسة ، ويتفرغ للزار بعد وفاة أبيه .. إن نظرية أصحاب الزار فى تفسير الأمراض ، هى تلبّس جسم المريض بروح شريرة ، وهى التى تسبب الأعراض والخلل البدنى والنفسى ، ولا يمكن لهذه الروح أن تغادر الجسد إلا بهذه الطقوس المثيرة من رقص وغناء وموسيقا ، والواقع أن الزار نوع غريب من الفنون والطرب ، يهز النفوس ، ويخفف عنها بعض ما يلم بها من ضيق وقتامة وقلق ، ومن الملاحظ أن بعض النسوة ذوات الأخلاق الجانحة يلجأن إلى الزار كوسيلة

للمتعة والعبث وارتكاب ألوان الحماقات ، ولا يمكن أن يتم هذا الاختلاط بين الجنسين دون أن يحدث خروج على الآداب والحياء ، وخاصة أن نسبة كثيرة من رواد هذا الفن لا تشكو من أية أمراض أو أعراض .

لكن هل بقيت تلك الصورة على ما هى عليه ؟

لقد حل اليوم الراديو والتلفزيون مكان الزار ، وانتشرت المعرفة والوعى ، وتوارت الكثير من السوءات الاجتماعية ، وإن حل محلها سوءات أخرى ، وانتشرت المستشفيات ، مع انتشار التعليم والوعى ، لقد تغيرت صورة المجتمع تمامًا ..

لم أزل أذكر وأنا فى طفولتى الباكرة أن أمرًا غريبًا حدث فى القرية ، والدليل على ذلك أن قومًا غرباء أتوا ، ونصبوا خيامهم فى المنطقة الشرقية على الأطراف ، أى بين المبانى والحقول ، وكان الناس يطلقون على هذه الخيام « الكردون » ، وكان خفراء القرية يحيطون بالكردون من كل جانب ، ومن آن لآخر أراهم يحملون فلاحًا مسجى فى فراشه ، ثم يدخلونه ، وأرى عددًا من التومرجية ، يجرى هنا وهناك ، كما أرى الطبيب يهرول هو الآخر نحو الخيمة التى يدخلون فيها المريض ، وقد لاحظت أن عددًا من أهالى القرية قد ارتدوا ملابس التمرجية وانضموا لسكان « الكردون » ، وكان الأهالى يتوجسون خيفة ، ويبدون تشاؤمًا بالغًا إزاء الخيام ومن فيها ، فكنت تسمع من يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله .. لقد أدخلوا فلانًا الكردون .. ربنا ينجى ويسلّم .. » ، أما نحن الأطفال فقد كنا نطوف حول الكردون ، ونبعث بنظراتنا الفضولية داخله كى نراهم وهم يروحن ويجيئون ، ويأكلون وينظفون المكان ، وكان الدكتور المسئول يبدو كإمبراطور بينهم ، فحينما يظهر ، نراهم يجرون هنا وهناك ، وتنطلق الأوامر ، ويصاب الجميع بالتوتر ، وكنا نضحك ونحن نرى رجل قريتنا « عبد الشكور » الذى انضم إلى جماعة المخيم ، وقد خلع جلبابه الشعبى ، ولبس قميصًا وسروالًا من الدمور الأبيض الكالح ، كان منظره فى أعيننا شاذًا وغريبًا ، وكان الحديث عن « عبد الشكور » فى كل بيت من بيوت القرية ، فقد أصبح ذا سلطة وبأس ، وأصبح فى مقدوره أن يتجسس على البيوت ، ويستطلع الأخبار ، ويكشف سر المرضى المختفين فى بيوتهم ، فيبادر الطبيب بإرسال من يدهمون البيت فجأة ، ويخرجون المريض عنوة وقهرًا ، وسط صياح النسوة وبكائهن وندبهن ، فقد كان يظن أن كل من يدخل هذا الكردون لا يخرج منه إلا جثة هامدة ، وكان يقال عنه ما يقال عن السجن « داخله مفقود ، والخارج منه مولود » .

ومن الواضح أن هذه الإجراءات كلها تتعلق بوباء خطير انتشر فى تلك الآونة ، وكان الضحايا بالعشرات ، ومن ثم لجأت السلطات الصحية لاتخاذ الإجراءات المناسبة ، من رقابة وعزل للمرضى وما إلى ذلك ، ولم يكن الأهالى على وعى كامل بتلك الإجراءات ، ولم يحاول أحد أن يشرح لهم مدى خطورة الوباء ، وأهمية الإجراءات التى تتخذ بصدده ، كان الناس يظنون أن ذلك الوباء عقاب من الله ، بسبب ما استشرى من فساد وظلم ، وأن أية قوة فى الأرض ، لن تستطيع أن تحد من الوباء أو تقضى عليه ، وإذا أنزل الله بلاء فلا كاشف له إلا هو ، ورأى الناس أن العزل لم يحم المرضى من الموت ، لم يكونوا يفهمون أن العزل أساسًا لحماية الأصحاء من العدوى ، ولهذا كرهوا « الكردون » ، وكرهوا مستشفى الحميات ، بل وكرهوا رجال الصحة ، واعتبروا أن وجودهم فى القرية شر مستطير وأخذوا

يدعون الله أن يخلصهم منهم ، ونشط رجال الحلقات الصوفية فى إقامة الأذكار ، وقراءة الأدعية والأوراد ، آملين من الله أن يكشف الغمة ، ويزيل الكرب ، وظل « عبد الشكور » مكروهًا من أهالى القرية فترة طويلة ، واعتبروه خائنًا لبلده ، فهو الذى يبلغ عن المرضى ، ويأخذهم إلى حيث النهاية المحتومة ، فيودعون الحياة وليس إلى جوارهم حبيب أو قريب ، أليست هذه- من وجهة نظرهم- وحشية وظلمًا وخيانة ، ولذلك كنت ترى الأطفال وهم يسيرون فى الشوارع ويرددون فى نغم رتيب :

لحمة ضانى كل يا دكتور لمّ العضم يا عبد الشكور

وهم يقصدون من وراء ذلك رمى عبد الشكور بالحطة والدناءة ، والرضى بفتات الموائد ، وبقروش قليلة ، نظير خضوعه للغرباء ، ومدهم بالمعلومات والأسرار المشينة ! !

ويقال أن أحد الجزارين بالقرية رفض أن يبيع اللحم لعبد الشكور قائلًا : « أنا لا أتعامل مع أهل الكردون »

فرد عليه عبد الشكور فى حنق : « لقد أتوا لخدمتكم يا بهائم ..»

- « إنهم مجرد حانوتية ..»

ولم يوافق الجزار على بيع اللحم إلا عندما هدده العمدة ..

وأذكر أيضًا أنهم دقوا بيتنا القديم ذات يوم ، وأخذونى أنا وأخى الأصغر أمين إلى مكان قريب من الكردون فى أحد البيوت ، وخلعوا ملابسنا تمامًا بعد أن حلقوا لنا رءوسنا .. ثم صبوا علينا ماء باردًا- فى عز الشتاء- مضافًا إليه بعض الأدوية ذات الرائحة المميزة ، ولم يعيدوا إلينا ملابسنا إلا بعد أن وضعوها فى المبخرة ، وهى جهاز تعقيم حسبما أظن ، وسرعان ما لبسناها وانصرفنا عائدين إلى منازلنا ، ونحن نرتجف من البرد والرعب ..

ربما كان هذا الوباء هو التيفوس .. لقد كنت فى سن الرابعة أو الخامسة على ما أعتقد وكان أخى أمين يصغرنى بعام واحد .. ولذا لا أستطيع تحديد ماهية ذلك الوباء بالضبط ..

لكن فى عام ١٩٤٧ كنا على دراية تامة بما حدث آنذاك ، كنا فى المرحلة الثانوية ، وكان الوباء الذى انتشر هو « الكوليرا » ، والتى يقال أنها جاءت من المنطقة المجاورة لمعسكر القوات البريطانية فى « القرين » ، ،تفشى وباء الكوليرا بصورة رهيبة ، وكانت قريتنا مسرحًا لضحايا كثر ، كانوا يأخذون المرضى إلى البندر ، وأغلبهم لا يرجع إلا ميتًا ، ويندلع الصراخ من هذا البيت أو ذاك ، وفرق التطعيم ضد المرض تجوب الشوارع ، والوحدات المتنقلة ترش المبيدات وتنظف الأماكن ، لتقضى على الذباب والقاذورات ، وارتفع سعر الليمون آنذاك ، نظرًا لأن عصير الليمون له القدرة على قتل الميكروب ، ومن ثم ترى الناس يعصرونه على المأكولات والمشروبات ، ويمسحون به أيديهم بعد المصافحة ، أو الخروج من دورة المياه ، كما كانوا يتزاحمون على مراكز التطعيم التى اشترك فيها عدد غير قليل من المتطوعين من أهالى القرية ، أولئك الذين تدربوا على إعطاء الحقن ، كما كان أئمة المساجد والوعاظ يوصون الناس بالنظافة ، وعدم مغادرة القرية إلى أماكن أخرى ، ويرددون حديث رسول الله : « إذا كان الطاعون (الوباء » بأرض فلا تدخلوها ، وإن كنتم بها فلا تخرجوا منها أو كما قال » .

الواقع أن صورة القرية فى هذه المرة ، تختلف تمام الاختلاف عن صورتها أيام الوباء السابق ، لقد

أصبحوا أكثر وعيًا وفهمًا ونضجًا ، وشاركوا بأنفسهم فى مكافحة الوباء ، وكثيرون منهم كانوا يتخذون الإجراءات الوقائية ، ويشترون محلول السليمانى الذى يستخدمونه فى تطهير أيديهم وبعض الأطعمة والمواد الأخرى ، وامتنعوا تمامًا عن شراء البلح الذى كان يظن أنه وسيلة نقل المرض من القرية الشهيرة بزراعة البلح ، بل إن بعض الناس كانوا يرفضون أن يصافحوا أحدًا حتى لا تنتقل إليهم العدوى .

وأذكر أننا كنا فى مدينة طنطا حينما صدر الأمر بمنع السفر من بلد لآخر ، فأردنا العودة إلى القرية ، فلم نجد وسيلة من وسائل المواصلات ، فكان أن اضطررنا إلى العودة مشيًا على الأقدام ما يقرب من عشرين كيلو مترًا ، وأثناء الطريق كنا نفاجأ ببعض فرق المكافحة ، وهى تسألنا هل أخذنا الطعم الواقى أم لا ، وكان كل فرد معه بطاقة عليها صورته ، مثبوت فيه جرعات التطعيم وتاريخها ، ومن لا يحمل مثل هذه البطاقة لا يمكن أن يفلت من أخذ الحقنة .

ولقد أخذ منى الهلع كل مأخذ حينما دخلت دورة المياه ذات مرة ، ووجدنى أعانى من إسهال بسيط ، وخرجت مذعورًا لأروى لهم ما حدث ، وعلى الرغم من الارتباك الذى ساد البيت إلا أن أبى قال متماسكًا : « لقد أخذت الحقنتين .. فلا يعقل أن تصاب بالمرض بعد التطعيم .. هذه واحدة والثانية أن الكوليرا تأتى بقىء شديد ، وإسهال أشد .. وأنت لم تسهل غير مرة واحدة .. اعتمد على الله يا رجل .. اذهب واشرب كوبًا من عصير الليمون ..» ومر الأمر بسلام .

كانت الصحف اليومية آنذاك تتخذ من الكوليرا موضوع الساعة ، وتذكر أرقام الإصابات فى كل محافظة من المحافظات ، وتسجل أيضًا عدد الوفيات ، وتكتب تحقيقات صحيفة عن واقع الوباء ، وآراء الأطباء ، وتبرز الإرشادات الواجب اتخاذها ، كما كانت الإذاعة تفعل نفس الشىء ، وبعد أن تناقصت الإصابات ، وخفت حدة الوباء ، خففت الحكومة إجراءات الانتقال ، وغيرها من الإجراءات المتعلقة بالغذاء والماء والمطاعم ، لكنها حذرت من حدوث موجة جديدة من الوباء بعد أشهر قليلة ، وأخذت تعد الإجراءات الواجبة عند حدوثه .

لقد تذكرت ما جرى فى عام ١٩٤٧ ، ثم تذكرت ما حدث فى عام ١٩٨٣ ، لقد حاولت السلطات الصحية إخفاء الأمر ، ووضعت عليه تعتيمًا إعلاميًا ، وأطلقت على الكوليرا اسم « أمراض الصيف » ، ووقع الناس فى حيص بيص ، وعلى الرغم من أن الصحافة ألحت إلى الموضوع ، وعتبت على وزارة الصحة ، إلا أن الوزير – سامحه الله – رد بشجاعة ، مؤكدًا تصريحات المسئولين السابقة بأنها أمراض الصيف ، ولم يذكر كلمة واحدة عن الكوليرا ، على الرغم من معرفة الجميع الحقيقة التى لا مراء فيها .. أيمكن أن يكون الناس فى الأربعينيات من القرن العشرين ، أنضج فكرًا ، وأصدق قولًا ، وأكثر صراحة من جيل الثمانينيات ؟ إنها كارثة ، حتى لو كان السبب الحرص على السياحة ودخلنا الكبير منها ، إن قانون منظمة الصحة العالمية ، يلزم أية دولة بالإبلاغ عن أية أمراض معدية تظهر فيها ، حماية لصحة المجتمع العالمى ، ولاتخاذ الإجراءات المحلية والدولية المناسبة ، ولكى تساهم المنظمة بخبراتها وقدراتها فى التخلص من ذلك الوباء ، وخاصة أن نسبة نجاح التطعيمات اليوم بالنسبة للكوليرا أصبحت محدودة ، بل لا يعول عليها كثيرًا ، والإجراء الأساسى الوقائى هو ما يقوم به الجمهور من خطوات

وقائية فى المنزل والمؤسسة والسوق والشارع ، فهل يستطيع الشعب أن يؤدى دوره بكفاءة واقتدار ، وهو لا يعلم حقيقة الوباء الذى يتعرض له ؟ إنها لمصيبة .. لو كنت مكان هذا الوزير الطبيب لأعلنت الحقيقة صراحة ، وإلا فالاستقالة أشرف .. ورحم الله « أيام زمان ...»

ولقد حفل الشعراء والكتاب بموضوع الكوليرا ، وقرأت عنها بعض الأشعار ، فالشعراء هم أسرع الناس استجابة لما يجد من أحداث ، وكان للكوليرا أسماء شعبية ، وأسماء فى اللغة الفصحى ، وأذكر أن المرحوم الجارم قال فيها قديمًا :

سمعت بأن فى مصر   وباء اسمه « الهيضا »
ومن يك عنده مغص   فقد أضحى من المرضى

ومع أن شاعرنا أبرز أعراض « المغص »- وهو نادر- إلا أن الأعراض الطبية البارزة هى الإسهال المميز والقىء ، والجفاف الشديد الذى يصيب المريض ، نتيجة لفقدان السوائل ومعها الأملاح الهامة بالجسم ، بسبب الإسهال والقىء ..

وعقب هذا الوباء بعام اندلعت حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ..

❁❁❁

[٩] ذكريات شباب



كان مسكننا فى « كفرة على أغا » بطنطا ، وهو حى شعبى عتيق ، به بعض البنايات الحديثة ، وكان الشاب « غازى » هو فتوة الحى دون منازع ، كان قوى البنية ، مفتول العضلات ، ذا نظرات حادة ، سريع رد الفعل ، ويده تسبق لسانه ، على الرغم من أنه شاب متعلم ؛ إذ كان فى نهاية المرحلة الثانوية ، ويقال أنه يفرض بعض الإتاوات على صغار الحرفيين وأصحاب الحوانيت الصغيرة ، والمهم أنه يصادق الفتيات الجميلات بالمنطقة ولا يستطيع أحد أن يقترب منهن بدون إذنه ، ومن ثم فإن هواة قصص الحب والغرام ، عليهم أن يبحثوا لهم عن « حبيبة القلب » خارج دائرة غازى ، والحقيقة أنه « فتوة » من نوع ملفت للنظر ، فأبوه مستور الحال ، وموظف ذو دخل لا بأس به ، والأسرة بصفة عامة طيبة ، وأخته بارعة الجمال ، وتذهب إلى مدرستها الثانوية كل يوم ، مرفوعة الرأس كملكة ، وكان أبناء شرشابة يشكلون عددًا كبيرًا ، لكننا لم نكن نصطدم بأحد ، وكان علينا أن نرضى بالأمر بالواقع ، ولا ننازع غازى عرشه .

لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، كان زميلنا أحمد مشاغبًا لحد كبير ، وهو الآخر يتمتع بقوة جسدية فائقة ، ويشغل حيزًا كبيرًا من تفكيره بالنساء أو الفتيات الجميلات بمعنى أصح ، ولم يكن يكترث بواجباته الدراسية على الرغم من كبر سنه ، فضلًا عن أنه من أبناء الأثرياء فى القرية ، ولديه ما يكفيه وزيادة من المأكل والملبس والمال ، كان أحمد يغازل إحدى فتيات الحى فرآه « غازى » ، ولم يفكر طويلًا إذ انقض على « أحمد » كالوحش المفترس ، ووقفنا فى البداية مشدوهين ، لكن أحمد تلقفه بين ذراعيه القويتين ، ثم رفعه إلى أعلى وقذف به وسط الأوحال ، وعاد لينحنى فوقه ، ويجره من طوقه ، ثم يوقفه ، ويهوى على وجهه بالصفعات ، ويتناوله بالركلات ، واحتشد الناس من كل صوب ليشهدوا المعركة التى بدت وكأنها من طرف واحد ، وذهلنا إذ رأينا غازى يبتسم فى مرارة ، ثم يمد يده مصافحًا لأحمد ويقول له : « مبروك .. أنا تحت أمرك » .

وهكذا أصبح أحمد « فتوة الكفرة » ، وأتى الحاضرون يصافحونه ، وكأنهم يبايعونه، وجلس أحمد من يومها على عرشه ، واستمر هكذا لبضع سنوا ت، حتى تزوج إحدى قريباته واستقام أمره ، وطوال تلك الفترة ، كان صاحبنا أحمد يمشى فى الحى فى عنجهية وكبرياء ، وكانت له غزوات نسائية مشينة لم نسمع بها من قبل ، وأصبح ذكره على كل لسان ، ورغم ذلك يلقى الاحترام أينما رحل ، وحيثما حل ، لكنه لم يستغل مكانته فى شىء آخر ، فلم يفرض الإتاوات ، أو يعتدى على الأبرياء ، أو يسمع للوشايات ، كانت نظراته المخيفة المتوعدة تكفى لإسكات أى صوت للمعارضة أو النقد ، ولقد كانت هذه « الفتونة » كارثة حاقت به ، إذ توقف تمامًا عن النجاح فى مراحله الدراسية ، وترك المدرسة بعد أن كبر دون أن ينال شهادة الثقافة العامة (الرابعة الثانوية) ، واستطاع أن يحصل على وظيفة متواضعة فى

إحدى الشركات التابعة للقطاع العام ، وظل يتدرج فيها حتى أصبح ذا مرتب كبير ، لكن الأبناء كثروا وكبروا ، وانشغل تمامًا بشئون الحياة ، ومال إلى المهادنة والهدوء والدأب حتى يستطيع أن يتحمل عبء أسرته الكبيرة ، ولكنى أراه لمامًا .. فأرى الشيب قد خط رأسه وشاربه .. والتجاعيد تكسو وجهه ، والابتسامة الطيبة ترتسم على فمه ، لقد ذهب العبث والغرور والغطرسة ، ولا ظل لنظرات التهديد والوعيد ، ودائمًا يبدى الندم على السنوات التى ضاعت هباءً ، وفرصة التعليم التى فرت منه أيام الغفلة ، لكنه يحرص أشد الحرص على أن يدفع أولاده دفعًا للنجاح فى دراستهم ، كى يعوضوا ما فقده هو فى شبابه العابث ..

لا شك أن مرحلة الثانوى كانت مرحلة حرجة بالنسبة للشباب القادمين من القرية ، لم تكن هناك رقابة منزلية أو توجيه ، فهم غرباء ، ولذلك نسمع كل يوم عن قصة من قصص الانحراف ، أو حادثة من حوادث المروق والفساد ، فيقال إن زميلنا فلانًا قد تسلل إلى بيت مشبوه ، وأنفق مصروفه الشهرى لدى مومس ، وعاد ليقترض من هنا وهناك كى يأكل ، أو أن زميلًا آخر قد أحب إحدى بنات الحى ، ويذهب معها إلى السينما ، ويستعير ملابس مناسبة لكى يتنزه معها ، ويبذل المستحيل ليحصل على مال ينفقه عليها ، وزميل ثالث يلعب القمار ، ورابع يرتاد غرز الحشيش والمخدرات ، وبعضهم انضم لفريق اللصوص كى يجد ثمن السجائر التى يدخنها ، وكنا نكاد نستلقى على ظهورنا من الضحك ، عندما يجىء ذكر واحد يحب شرب القهوة بجنون ، ويمشى فى شوارع طنطا باحثًا عن مأتم ، كى يدخل ليقدم واجب العزاء ، ويشرب القهوة مجانًا ، وقد يذهب البعض إلى مقام السيد البدوى حيث الطعام الذى يقدمه أهل الخير ، من لحم وثريد ، فيأكلون ويشبعون ، ولم تكن هذه الأمور أو غيرها تثير لدينا ألمًا عميقًا ، فقد كانت شائعة نراها أو نسمع عنها كل يوم ، والواقع أن حياة الطلبة القرويين فى المدينة ، حياة صعبة ، فيها الكثير من المتاعب ، لكنها كانت تمضى هينة ، لكثرة ما تعودنا عليها أو ألفناها ، فأصبحت تلك الأمور ملازمة لنا كظلنا ..

وإن أنس لا أنس تلك الفتاة الجميلة التى كانت تسكن على مقربة منا عندما انتقلنا إلى السكن فى شارع « سلامة حجازى » ، كانت صغيرة كالوردة الندية ، لا يتجاوز عمرها السادسة عشرة ، لم أسمع صوتها مرة واحدة ، كنت أراها فقط ، وأشعر بحب عميق نحوها ، وأحرص أشد الحرص على رؤيتها دون كلام ، كانت ترمقنى بنظرة عابرة ، وأختلس أنا إليها النظرات المحرومة ، وبقيت العلاقة هكذا .. أنا أحلم .. وأتخيل وأتخيل .. ويدور بينى وبينها حوار وأنا نائم على سريرى ، أو سابح فى أحلام اليقظة ، وأضع الخطط ، وأتخذ القرارات ، وأقول لنفسى لابد أن أفاتحها الأمر ، وأحكى لها عن مشاعرى نحوها ، ونذهب معًا لكى نتمشى على شاطئ الترعة ، أو نتسكع فى شوارع طنطا ، أو ندخل السينما .. وأظل هكذا أفكر ، فإذا ما أصبح الصباح ، وقصدت مدرستى ، وشاهدتها فى الطريق ، دق قلبى ، وذابت شجاعتى وتبخر كل شىء .. وكأن لم أسهر وأتعذب .. كان يكفى أن ترمينى بنظرتها ، فيضيع كل شىء ، كان فى عينيها صفاء غريب ، وعلى وجهها نضرة وحيوية تشى بالفتنة الآسرة ، واستطاعت أن تملأ خيالى ... جلست لأكتب فيها شعرًا :

قلت والريم تجاهى قد رنا ۰ أى معنى ذلك الريم عنى

أعــتــابًــا أم هــيــامًــا أم ضــنــى ذاك ســـر لأم تُـــرد أن يـــعـــلـــنـــا
فــكــفـــانـــى أن أرى وجـــه المنـــى وكــفــى الــقــلــب لــقــاهــا .. والــســنــا

* * *

أى غــاز قــد غــزانــى يــا شــبــابــي أى رامٍ قــد رمــى خــلــف الــنــقــابِ
خــفــى الــرامــى بــطــيــات الحجــابِ فــتــهــاويــت .. وقــد طــال عــذابــي
بــجــراحــى ودمــوعــى وخــضــابــي .... الــخ

كان زملائى يسمعون هذا الشعر ويعلق أحدهم قائلًا : « من هذه يا نمس ؟ »

ويعلق آخر قائلًا فى سخرية : « هذا شارع فقر : ليس فيه واحدة تملأ العين »

وثالث يعلق : « الشعراء يقولون أى كلام .. أوهام وأحلام وتخريف ..»

ولم أكن أعلق بشيء .. كنت أكتم ما بقلبى ، وأتجول فى عالمى الخاص الذى لا نهاية له ، عالم الأحلام .. والورود .. والسماء الزرقاء الصافية .. والفجر الفضى .. ونجوى الشعر والعواطف الجياشة .. وأظل أحلم حتى أفيق على صوت الواقع والدروس والمدرسة وكرة القدم وأخبار السياسة ، والطعام والشراب ..

وجاء يوم لا يمكن أن أنساه .. كنا نتحدث عن الحب والبنات ، ويحكى كل تجربته ، وعندما جاء ذكر فتاتى ، قهقهوا حتى كادوا يستلقوا على أقفيتهم وخاصة عندما قلت : « أخلاقها ممتازة » ، وعلمت ويا لهول ما علمت ، لقد فهمت أنها على علاقة آثمة بزميل لنا لا يسكن معنا اسمه (م .) ، لم أصدق فى بداية الأمر ، ورميتهم بالنذالة والكذب والافتراء والبذاءة إلى آخر ذلك القاموس من الصفات الحادة ، لكنهم أخذونى إلى « المتهم » الذى حاول أن ينكر فى البداية ، وسرعان ما انفجر ضاحكًا وأخذ يروى تفاصيل علاقاته معها ، وأنا استمع إليه فى ذهول ، وعندما رأيتها فى اليوم التالى وجدت فتاة أخرى تمامًا .. سددت إليها نظرات صارمة عاتبة دون أن أنطق ، ورأيتها تنظر ، ثم تهرب نظراتها .. لم أعد أرى الصفاء والنضارة ، وبدت لى ملامحها منفرة تثير الحنق ، وخيل إليّ أن أحمر الشفاه مقزز سمج .. كل شيء تغير فيها ، دون أن يحدث بيننا نقاش أو مواجهة .. شعرت بأشد الندم إزاء الساعات والليالى الطوال التى قضيتها مفكرًا فيها ، وأسفت على الشعر الذى كنت أسطره بروحى فى حماس بالغ ، ونشوة عارمة ..

وذات مساء قلت لهم : « يجب أن نرحل عن هذا المكان »

– « لماذا ؟ »

– « إنه مكان ردىء .. ضيق .. وجيرانه سيئون ..»

ولما رفضوا الانتقال ، حملت سريرى وحاجاتى ، وانفصلت عنهم ، دون أن يعلم أحد بالسبب الرئيسى لنفورى من المسكن والشارع بأسره

كانت تجربة مرة عانيت منها كثيرًا ، ولم تتكشف لى أبعادها إلا بعد أن رحلت بشهور ، أدركت أنها تجربة طائشة لا معنى لها ولا هدف ، كانت فتاة غير متعلمة ، ولم أفكر فى هدف عاطفتى نحوها ، فلم يكن خاطر الزواج على بال ، إذن ما معنى هذا العبث ؟ أكان مجرد إشباع عاطفتى فى هذه الظروف

التى تتسم بالقحط والوحدة والقلق النفسى والانفعالات ؟ هل كان ذلك بتأثير ما نشاهده من أفلام ، وما نقرؤه من روايات عاطفية ، وما نسمعه من قصص الزملاء والأصدقاء؟ لا أدرى .. المهم أننى كرهت الموضوع برمته ، بل كنت أتحاشى مجرد المرور فى هذا الشارع ، ودفنت أساى فى الدروس والقراءات الخاصة والشعر ، وكم كان يؤلمنى أن يأتى أحد الأصدقاء ويقول لى : « أعلم أنك تجيد الشعر والإنشاء ، ألا تتكرم بإعطائى رسالة جميلة- شعرًا أو نثرًا- كى أبعث بها لحبيبة القلب؟ إنها خدمة لأخيك المسكين ..»

كان قصيرًا أنيقًا ، منسق الشعر ، ويلبس حذاءًا ذا كعب عال كى يبدو طويل القامة بعض الشىء ، وكان يحرص على تنميق شاربه ، ويروى الكثير عن مغامراته ، ويقدم لنا كدليل بعض الصور الفوتوغرافية لحبيبته ، وأحيانًا يقدم لنا خطابًا منها ، مكتوبًا على ورقة منزوعة من كراسة المدرسة ، وكنت أعجز عن فهم هؤلاء الزملاء كيف يستطيعون الوصول لهذه الدرجة من العلاقة ؟ بل كيف يستطيع بعضهم أن يتمادى حتى يرتكب ما لا يصح .. وأقارن بينى وبينهم فتدور رأسى ، وأعجز عن التفسير الصحيح ..

وفكرت فى تلك الفترة أن أزيد من اهتماماتى الأدبية ، وأن أحاول جمع ما كتبته من أشعار فى المناسبات الوطنية والدينية والعاطفية كى أصدر ديوانًا صغيرًا ، والواقع أن هذا الموضوع قد ملك على تفكيرى تمامًا ، على الرغم من أننى لم أكن أمتلك أى مبلغ فائض من المال كى أطبع ذلك الديوان على نفقتى الخاصة ، لكنى كنت أردد دائمًا « مع العزيمة تهون الصعاب » .. وقد تم ما حلمت به ..

❁❁❁

[١٠] بعض من عرفت



الذى لا شك فيه أن الوازع الدينى كان يحكم تصرفاتنا فى هذه السن الباكرة ، ونبدو كما لو أن هناك قيودًا خفية تحد من حركتنا الجانحة ، وتمنعنا من الزيغ والانحراف ، وكنا منذ الصغر نشعر بغم واكتئاب إذا تكاسلنا عن الصلاة ، أو ارتكبنا مخالفة تتنافى مع الآداب الدينية ، إن ضميرنا الدينى يلهبنا بسياطه دون رحمة ، ولعل الدروس الدينية التى كنا نتلقاها فى المدرسة كانت أقل تأثيرًا فى سلوكنا مما نحصله من آداب ومعلومات دينية خارج المدرسة للأسف الشديد ، ومناهج التربية الإسلامية فى المدارس قاصرة فى عمومها ، وتؤدى بطريقة جافة لا إثارة فيها ، اللهم إلا سير عظماء المسلمين التى كانت تهز مشاعرنا ، وتجعلنا نمتلئ فخرًا ، ونتمنى أن نكون على شاكلة أجدادنا العظماء .

وكان أكثر ما يؤثر فينا فئة من الخطباء الأفذاذ فى بعض المساجد والمحافل السياسية والدينية ، نقصدهم عن طواعية ، فنسمع منهم موضوعات شائقة تربط الدين بالدنيا ، وتمضى بنا فى ركب الحياة ومشاكلها وهمومها ، وتعالج القضايا الحساسة فى المجتمع على ضوء التعاليم الأساسية والدينية ، وترسم منهجًا للسلوك العام ، يشبع الروح والعقل ، كما كان فى مدرستنا الثانوية « الأستاذ تحفة » وهو رجل طلق اللسان ، حلو الأسلوب ، دفاق العاطفة ، يهيم بنا فى آفاق عليا من الأمجاد الإسلامية ، وأحداث التاريخ الباهرة ، وخاصة فى مناسبات الهجرة والمولد النبوى وغيرهما ، وكنا ننتظر كلمته على أحر من الجمر ، فإذا ما تكلم ، أصاخت الأسماع ، وحملقت العيون ، ثم تلتهب الأكف بالتصفيق ، وتنشق الحناجر بالهتاف والتكبير والتهليل ، وكانت الصحف والمجلات التى تحفل بالموضوعات ذات المنحى الدينى تجذبنى إليها جذبًا ، وكذلك المؤلفات الجيدة ، والبحوث المعاصرة التى تتناول قضايا السياسة والمجتمع والاقتصاد والعلم فى ضوء القيم الدينية ، والواقع أن الناظر فى صحافة تلك الفترة يجد أنماطًا ثلاثة من الأداء الفكرى :

فهناك الصحافة الدينية ذات الطابع المميز ، والتى تمزج بين الأصالة والمعاصرة ، وفيها زاد لا ينفد من الآراء والأحكام والأحاديث النبوية والبحوث الفقهية ..

وهناك الصحافة العصرية ، بصورها الخليعة ، وآرائها الجريئة ، والتطرق إلى موضوعات حساسة تبعث على الخجل وقلة الحياء ، وفيها أيضًا تصوير لحياة غربية صرفة ، ودعوة للأخذ بأساليب الانطلاق والتحلل دون وازع من ضمير أو دين ، ومثل تلك المطبوعات لا تتورع عن مهاجمة المتدينين ، ورميهم بالتحجر والجمود والرجعية والتعصب ، لا فى المقالات والأخبار فحسب ، بل فى القصص والشعر والكاريكاتير ، وكان لها جمهورها العريض المخدوع ، كما كان لها دعم داخلى وخارجى لا يعلم الله إلا مدى خطورته .

وهناك الصحافة المنافقة ، التى تحاول إرضاء أذواق هؤلاء وأولئك ، فهى تحتفى بالحفلات الفنية والسياسية والسلوك العصرى ، وفى نفس الوقت تفرد بعض مساحاتها للفكر الدينى .

وكان لنجوم الفن فى هذه الأيام مكانة لا تعلو عليها مكانة ، كانت أخبارهم وتصريحاتهم ومذكراتهم وصورهم ، تشغل حيزًا أكبر من الساسة والأمراء والفلاسفة وكبار الكتاب ، وأصبح رجل الشارع يعرف عن كوكب الشرق وعبد الوهاب وفريد الأطرش ويوسف وهبى وليلى مراد وأنور وجدى ، أكثر بكثير مما يعرف عن العقاد وشوقى وطه حسين والمازنى والرافعى ومحمد فريد وجدى والمراغى وغيرهم .

وقد يتصادف أن يموت مفكر كبير ، فلا تجد فى جنازته إلا القليلين ، بينما تسد الطرقات وتزدحم الشرفات إذا شيعت جنازة فنان من الفنانين ، فلم يكن غريبًا أن نلجأ إلى شراء بعض المجلات القديمة التى صدرت فى الثلاثينيات من القرن العشرين ، لنستمتع بما فيها من أدب وفكر ، حتى الآداب المترجمة كانت تحرص على تحقيق الربح والتسلية ، ومن ثم كان أغلب المترجم يدور حول الموضوعات العاطفية والجرائم الشهيرة ، والقصص الرومانتيكى المثير ، وقليل من أدب الشوامخ ، وهذا ما حدا بوزارة المعارف إلى إنشاء مشروع « الألف كتاب » كى تترجم من خلاله ، ما يسد الفراغ من أدب ناضج ،وفلسفة مفيدة ، وفنون مستحدثة ، وعلم جديد ، كى تثرى حياتنا الفكرية والأدبية ، حتى السينما هى الأخرى كانت تغص بالأفلام الأجنبية المستوردة التى تحفل بالجنس والإثارة فى غالبيتها ، ويظل عرضها مستمرًا لأيام طويلة ، والناس يتزاحمون عليها من كل فج ..

وامتلأت الساحة الفكرية بتيارات متصارعة شرقية وغربية ، وشيوعية ورأسمالية ، ودينية وإلحادية ، وعاش شباب جيلنا فى هذا الطوفان الهادر من التناقض والقلق ، حتى عميت السبل ، واختلطت الأمور ، وأصبح من العسير أن يعرف الخطأ من الصواب ، والصالح من الطالح ، والمفيد من الضار ، وغرق فى هذا الخضم من غرق ، ولم ينجح إلا من عصم ربك .

ومن المؤسف أن عددًا من كبار الكتاب قد أوقع فى هوة الخلافات الحزبية والمذهبية ، وكذلك الحزازات الشخصية ، فأضاعوا الكثير من هيبتهم وثمرة جهودهم ، وفقدوا الكثير من التأثير والتوجيه لأبناء مجتمعهم ، فأصبح منهم من يناصر « القصر الملكى » ، ويترنم شعرًا ونثرًا بأمجاده وعظمته ، متجاهلًا ما ينخر فيه من فساد ومظالم وموبقات ، وفى نفس الوقت يتصدى بالهجوم والنيل من خصوم القصر مهما كانت سلامة نواياهم ، وشرف مقصدهم ، وعدالة قضيتهم ، وهناك من ناصر حزبًا على آخر ، وأغلق عينيه عن انحرافات حزبه أو خيانته ، وانصرف بكل همه يهدم أمجاد الحزب الآخر إن صح التعبير ، حتى علماء الأزهر لم يسلموا هم الآخرون من الانضواء تحت لواء حزب من الأحزاب ، بل إن بعضهم للأسف سار فى ركاب القصر ، وبعضهم الآخر عادى القصر ، وأدانه علانية فى شجاعة تبهر العقول .

ومن البديهى أن يختلف الناس فى زوايا الرؤية والتحليل والأحكام ووجهة النظر الفكرية أو السياسية ، لكن لابد أن يكون هناك قدر من الاتفاق حول القضايا الجوهرية المصيرية مهما كان الأمر ، فلا يصح أن يقال مثلًا : « إن الاحتلال على يد الوفد خير من الاستقلال على يد عدلى باشا » أو أن يعلن أن « الملك الصالح فاروق من نسل بيت النبوة ..» أو « لقد تزوجت بريطانيا من مصر زواجًا كاثوليكيا » ، أو أن « العقاد عميل لبريطانيا ..،طه حسين كافر ..،السعديون برادع الإنجليز .. والإخوان المسلمون رجعيون ..» الخ تلك العبارات والشعارات التى تفيض بها الصحف والمطبوعات فى تلك الفترة ..

لقد غلب الهوى على الموضوعية ، والمطامع الشخصية على المصلحة العامة ، والحقد الشخصى على سلامة الأحكام عند تقييم الرجال الأفاضل ، وأصبحت الحزبية للأسف دينًا جديدًا تراق فى سبيله الدماء ، ويرفع السلاح ، وتجند الأقلام ، ويُضحى بالغالى والنفيس ، وكاد الجميع أن ينسوا العدو الرابض على أرضهم ، والعدو الذى يزحف شرقًا على فلسطين ، لولا فئة من المخلصين الواعين لم يقعوا فى ذلك الشرك اللعين ، واعتصموا بالأمانة والصدق ، ودعوا بإلحاح إلى تحرير الإنسان والأرض ، والعودة إلى قيم الحياة الفاضلة ..

وأذكر أننى فى هذه الفترة كنت أحب مجلة « الرسالة » ، سواء ما كان يصدر منها آنذاك أو مجلداتها القديمة ، وكنت أحرص على قراءة باب الشعر فيها بالذات لأنه كان يضم نخبة من شعراء العالم العربى ، ممن عرفوا بعمق الفكر وجمال الأداء ، وعلى صفحات الرسالة عرفت الزيات والرافعى وزكى مبارك ودرينى خشبة والزهاوى وأنور المعداوى ، وعدد كبير من الكتاب عرفوا بالصدق والأصالة والموضوعية فى معظم أعمالهم .

كما حرصت على اقتناء مجلة « الهلال » ، وفيها عرفت أحمد أمين والعقاد والمازنى وطه حسين وتوفيق دياب وفكرى أباظة والشاعر محمود عماد وعلى الجارم فى قصصه التاريخى والعريان ومهدى علام وغيرهم .

كانت كتابات توفيق الحكيم تستهوينى بشدة ، فهو دائمًا صاحب فكرة ما ، ويحرص على تبسيطها وبلورتها بأسلوبه السهل الممتنع كما يقولون ، وكان ذكيًا فى حواره ، يستطيع أن يفتح آفاقًا عديدة أمام القارئ ، وكانت قصصه القصيرة مبتكرة فى موضوعاتها ، غنية بصورها الملفتة للنظر ، لكنه فى رواياته كان يستطرد كثيرًا فى السرد ، ويتدخل مباشرة فى عدد كبير من الأحداث ، وكان أيضًا يمعن فى تصوير بعض الأحداث والتفاصيل التى تخدش الحياء ، ومع ذلك فقد استفدت منه كثيرًا ، حتى أن آراءه الفلسفية أو النقدية فى كتابه « التعادلية » وفى كتابه « فن الأدب » تناول قضايا حيوية من وجهة نظره تبدو شيقة وجادة ومثيرة للجدل .

وشغفت بعمق العقاد ودراساته التحليلية ، ومعلوماته الوافية ، وإطلاعه الواسع ، وقدرته الفذة على إبداء الرأى ، حول ما يتعرض له من قضايا ، كان ينتقد فلاسفة الغرب ومفكريه انطلاقًا من فهم عميق ، وقدرة فائقة ، وكان جديد الفكرة ، جديد الرأى ، يأنف من أن يتبنى رأى أحد ، كان بحق عملاقًا فى فنه ، واثقًا بنفسه لأبعد حدود الثقة ، ولا يستطيع أحد أن ينكر مواقفه المشهودة ضد قوى « الزحف الأحمر » فى مصر وغيرها ، فى وقت استطاعت فيه الماركسية والماركسيون أن يتخذوا لهم مواقع حصينة فى ساحة الفن والصحافة والسياسة والتنظيمات الحزبية الحكومية ، فلم يكل العقاد أو يمل ، بل ظل مثابرًا فى مهاجمتهم ، وتعرية مقاصدهم ، ولم يتوقف عن دراساته الإسلامية التى ظلت تصدر تباعًا حتى فى أحرج الأوقات ، وأشدها حساسية .

وكانت نقطة الضعف فيه- وجلّ من لا يخطئ- هى انتماؤه الحزبى السابق ، وعندما حدث الصدام بين حزبه وبين الوفد ، لم يتوان عن إشهار سيفه فى وجه خصوم حزبه ، ولما تدهورت الأوضاع بين القصر الملكى وحزب السعديين والدستوريين من جانب ، وبين الإخوان المسلمين من جانب آخر ، ورأيناه يعلن حربه دون هوادة ، ويتصيد أمورًا غريبة لا تمت إلى الحقيقة والواقع والصدق التاريخى

بصلة ، كتلك المقالة التى كتبها عن الإمام الشهيد حسن البنا يجرحه فيها ، ويفترض فى نسبه افتراضات مستحيلة لا أساس لها من الصحة إطلاقًا ، وهذا ليس رأيى وحدى ، بل رأى كاتبين كبيرين من كتاب اليسار هما محمود أمين العالم والدكتور عبد العظيم أنيس ، إذ إنهما- رغم عدائهما للإخوان- قد فضحا أفكار العقاد المخترعة من الوهم حول الإمام الشهيد ، واتخذوا هذا الإسفاف والزعم الباطل حجة عليه ، وهناك آخرون غيرهما ردوا أباطيل العقاد حول نسب الإمام الشهيد - رحمه الله ، ولم يكن يحدث هذا من مفكر كبير مثل العقاد لولا تعصبه الحزبى ، وولائه غير المشروط لزعماء الحزب ، كانت هذه هى نقطة الضعف الأساسية فى العقاد .

وهناك أمر آخر لا يمكن إغفاله وهو غضبه الشديد على كل من يوجه إليه نقدًا ، والمتصفح لكتاباته النقدية ، يجد نماذج محزنة تؤكد ما نرمى إليه ، ولقد أتيحت لى فرصة الذهاب إلى ندوة العقاد الأسبوعية فى بيته- أيام الجمع- ورأيت بنفسى طبيعة الرجل ورد فعله بالنسبة للأحداث ، وسمعته يتحدث عن الرافعى رحمه الله بأسلوب سيئ ، وينعته بصفات لا يصح أن تصدر عنه ، كما سمعته يتحدث عن الدكتور زكى نجيب محمود ومعتقده الفلسفى وأفكاره ، وقال كلامًا شديد اللهجة ، من الواجب ألا يقال ، ثم تكلم عن صحافيين وأدباء بنفس الطريقة ، ولم يكن أحد من تلامذته الجالسين يرد له قولًا .

وكان من أشد المعجبين به من تلامذته المرحوم الدكتور عبد الحى دياب ، وعبد الحى صديق قديم ، وكان أيامها طالبًا بدار العلوم ، ولا حديث له غير العقاد وآراء العقاد ، وحياة العقاد ، وجاء مجموعة من الأدباء الشبان يشكون عبد الحى للعقاد ، لأنه يتطاول عليهم ، وينسب الكثير من الآراء والأفكار لأستاذه العقاد ، إنه يضرب بسيفه ، ويهاجم بآرائه ، ولا يرحم أحدًا ، فابتسم العقاد وسأل عبد الحى : « هل قلت هذا يا عبد الحى ؟ »

ولما تلعثم عبد الحى ، قهقه العقاد وقال مرددًا بيتًا من الشعر القديم :

وكُلٌّ يدّعى وصلًا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

ويبقى- رغم كل ذلك- جهد العقاد الكبير فى مجال الدراسات الإسلامية وشخصيات التاريخ الإسلامى الفذة ، لقد ترك موسوعة لا يباريه فيها أحد ، وكان له طريقته وأسلوبه الخاص فى الدراسة ، وعلى الرغم من انتقاد البعض لمنهجه فى الكتابة الإسلامية ، إلا أنه يظل علمًا بارزًا على مدار التاريخ فى هذا الجانب ، الذى أشرق بنور الإسلام ، وترجم عن مبادئه وأيامه ، وأبانَ عن سر عظمته وانتصاراته ..

باختصار .. لقد تركت كتابات العقاد فينا أثرًا لا يمحى ، وتعلمنا منها الكثير ، وتحفظنا إزاء بعض الآراء التى لم ترتكن إلى دليل قوى ، وبرهان أكيد ، وهذا الأثر الذى تركه فينا العقاد ، قد استطاع أن يغزو آفاقًا أخرى غيرنا ، من رجال الفكر والتاريخ فى أوربا عندما قرءوا ترجمة بعض أعماله ، كما أنه- رحمه الله- سدد سهامًا قاتلة للأدعياء من رجال التبشير والاستشراق ، أولئك الذين عاشوا يحاربون الإسلام ويناوئونه .

وأحببت كتابات محمود تيمور ، كان رحمه الله ، يكتب الرواية والقصة القصيرة ، والمسرحية وأدب الرحلات ، كما كانت له كتابات نقدية قليلة ، ولقد أتيح لى أن أجالسه وأحاوره فى السنوات الأخيرة من عمره ، فرأيت فيه رجلًا مهذبًا نبيلًا متواضعًا ، متفرغًا تمامًا للأدب ، وكان يحرص أشد الحرص على نقاء العبارة ، وجمال الأسلوب ، ويستفيد من التراث بذكاء واقتدار ، ومن يقرأ مسرحيته

« اليوم خمر » عن امرئ القيس ، يجد فيها الحوار القوى ، والأسلوب العربى الأصيل الجزل الذى يشع الجو التاريخى لزمن المسرحية ، وكان رحمه الله يعيش الأحداث بقلب متفتح ، وفكر ثاقب ، وأذكر أنه بعد حريق القاهرة الشهير فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ كتب قصة قصيرة فى مجلة الهلال الشهرية بعنوان « الديك » يسجل فيها هذا الحدث البارز تسجيل فنان حصيف .. فماذا فعل معاصرو تيمور الكتاب المشهورون ، وماذا فعل هو ؟ المعاصرون كتبوا شعرًا وقصصًا قصيرة وروايات تصور الحدث المباشر .

أما تيمور فى قصته القصيرة « الديك » فقد لجأ إلى طريقة أخرى .. لقد صور شابًا كسيحًا مريضًا ، يجلس على إحدى نواصى شارع فؤاد بالقاهرة يتلقى الصدقات التى يجود بها المارة ، لكن عين ذلك التعس كانت دائمًا تنظر إلى الديك المشوى الموضوع فى فاترينة زجاجية فى مدخل أحد المطاعم الشهيرة .. وريقه يتحلب منذ زمن طويل .. وما إن اندلعت المظاهرات ، وشبت الحرائق فى شارع فؤاد ، وأخذ الدهماء يستولون على البضائع الثمينة وخزائن الأموال ، حتى زحف الكسيح المسكين صوب المطعم ، وتناول الديك المشوى وارتمى فوقه .. كانت المظاهرات تزحف كالطوفان ، وكانت الأقدام تدوسه وتركله .. وما إن هدأت العاصفة العاتية ، حتى جاءوا وحاولوا تحرى شأن ذلك الكسيح ، وجدوا روحه وقد فارقت جسده .. ووجدوا الديك من تحته هيكلًا عظميًا .. هكذا كان تيمور الفنان الرقيق الحساس ..

وفى مجالات السياسة كنا نقرأ لكتاب عرفوا بالحماسة والعاطفة الوطنية المشتعلة أذكر منهم أحمد أبو الفتح وأحمد حسين وسيد قطب وفؤاد سراج الدين وصالح عشماوى ومحمد الغزالى وغيرهم .

ومن الدوريات الشهيرة التى كنا نتابعها بانتظام تقريبًا ، سلسلة « اقرأ » لدار المعارف ، و « كتب للجميع » و « قصص للجميع » و « كتابى » و « كتاب الهلال » و « روايات الهلال » ومجلة « المختار » الأمريكية المترجمة ، والكتاب الفضى والكتاب الذهبى وغيرهما .

كما كنت حريصًا على اقتناء مجلة « لواء الإسلام » و « الإخوان المسلمون » و « الرسالة » و « نور الإسلام » و « الهلال » وغيرهما ، كما كنا نتسابق فى حفظ الأشعار القديمة والحديثة على السواء .

وكان للروائى الكبير محمد عبدالحليم عبدالله نكهة خاصة فى قصصه الرومانسى المؤثر ، وتصويره للعواطف الإنسانية ، والمآسى المؤلمة ، كما كان صديقه المرحوم على أحمد باكثير يتميز بخطه الإسلامى ، وفكره السياسى المبلور ، وتعبيره الواعي- من خلال مسرحياته وقصصه- عن قضايا إسلامية معاصرة ، ومشاكل اجتماعية شائعة ، ويستلهم التاريخ فى الكثير من نقصصه ومسرحه ..

وأحببت فى عبد القادر المازنى خفة روحه ، ورشاقة أسلوبه ، وصوره الساخرة الناقدة ، وكشفه عن خبايا النفس وأسرارها ، كما كان صادقًا شجاعًا فى أدبه الذاتى ، وسيرته الشخصية ، لولا هنات تؤخذ عليه فى أدبه السياسى ..

وكرهت أدب سلامة موسى ، فهو رغم علمه ، ودعوته للأخذ بالأساليب الحديثة والمنهج العلمى ، لم يكن موفقًا ، وخاصة عندما دعا للعامية ، ونفر من الدين ، وتجاهل قيم الحضارة الإسلامية ، بل شكك فيها ، ولقد قرأت له الكثير ، وفهمت أنه يدعو إلى الانسلاخ من قيمنا وتقاليدنا العريقة ، واتباع الأسلوب الغربى فى السلوك والأداء والعلاقات الاجتماعية والفردية ، وكان خصامى الأبدى معه بعد

واقعة شهيرة فى كلية العلوم جامعة القاهرة ، إذ أجريت مسابقة للخطابة بين طلبة هذه الكلية ، وكان هو رئيس لجنة التحكيم ، ورأينا وجهه يكفهر ويشحب كلما وقف خطيب متسابق ، وبدأ خطبته باسم الله الرحمن الرحيم ، واستشهد ببعض الآيات القرآنية ، أو الأحاديث النبوية ، ثم يضع قلمه على الورقة ويضع « صفرًا » ، فإذا جاء الخطيب ودخل فى الموضوع مباشرة دون أن يسمى وضع ١٠ درجات .. وهاج الطلبة وماجو بعد إعلان النتيجة ، أما هو فلم يسكن ، بل وقف يعلق على المسابقة ويقول :

« حسبتنى وأنا أحضر لكلية العلوم أننى سوف أسمع خطبًا تنهج النهج العلمى ، وتبعد عن الميتافيزيقا والغيبيات .. فإذا بى للأسف أجد نفسى فى كلية لاهوت ..»

واحتدت المناقشة ، وكاد يحدث تشابك بالأيدى ، لولا أن الطلبة أصحاب الحق المهضوم أنفسهم تحلقوا حوله ، وحموه من غضبة الجمهور ، فانصرف سالمًا وهو يسب ويسخط ويلعن .

ومن الأمور المثيرة للدهشة ، أن سلامة موسى فى أخريات أيامه- عام ١٩٥٦ على ما أذكر- أدلى بتصريح مضمونه ، أنه يتخلى عن الدعوة إلى استخدام اللغة العامية فى الكتابة وذلك فى سبيل القومية العربية .. هكذا قال ..

وعلى الرغم من الكثير الذى كتب عن هذا الرجل فى حياته وبعد مماته ، وخاصة بالنسبة للمجلات التى ساهم فيها ، ودعوته إلى المنهج العلمى ، وترويجه لنظرية النشوء والارتقاء ، وإلحاحه على اتخاذ العصرية أسلوبًا فى الحياة الحديثة ، على النمط الأوربى ، واستمساكه بالفرعونية ودعوته الدائبة لها ، وقيام بعض الكتاب والأدباء بالسير على نسقه ، حتى أن نجيب محفوظ فى بداية حياته الأدبية ، كتب رواياته الأولى عن العصور الفرعونية ، أقول على الرغم من كل هذا ، فماذا بقى لسلامة موسى ؟ لقد قامت محاولات لإعادة نشر تراثه ، لكنه لم يلق القبول ،وأنشئت مكتبة باسمه تخليدًا لذكراه ، من صنع أسرته ، لكن دون جدوى .. لقد كان فقاعة كبيرة روج لها المغرضون وأعداء الإسلام ، وسرعان ما انفجرت وذابت دون دوى ..

أما خالد محمد خالد فقد خالفته وأحببته ، فعندما أصدر كتابه « من هنا نبدأ » ، ورد عليه الشيخ محمد الغزالى بكتابه « من هنا نعلم » ، كنت حريصًا على تحرى الحقيقة ، كان خالد يستمتع بقدرة فائقة فى اختيار الكلمات الوثابة الموحية المشعة ، والأسلوب الحماسى المجلجل ، والشعارات والاقتباسات الرنانة ، ترى ذلك فى اختيار عنوان الكتاب ، وفى عنوان كل فصل ، وفى المقتطفات التى توضع فى بداية كل فصل ، حتى النقط وعلامات الاستفهام والتعجب ، كان يتأكد منها عند الطبع ، واستطاعت كتبه التالية « هذا .. أو الطوفان » و« لكيلا تحرثوا فى البحر » أن تجذب الاهتمام ، وتجعله من الكتاب المرموقين ، وكانت تربطنى به صلة صداقة لم يستطع خلاف الرأى الشديد أى يقضى عليها ، كان رجلًا صريحًا ، لكنه كان قلقًا متوترًا . رغم ثقافته الدينية ، وكانت له مواقف مشهودة حينما قال لعبد الناصر فى اجتماع المؤتمر القومى ، على شاشة التليفزيون والإذاعة وأمام الحشد الكبير ، دون خوف :

« يا سيادة الرئيس .. لا علاج لمشكلة الحرية إلا بالمزيد من الحرية » ويومها قال له عبد الناصر : إن الحكومة قد أفرجت عن كتبه المصادرة ، وأنها تركت له الحبل على الغارب .. وخاصة عندما قيل إنه إسلامى الاتجاه .. ثم شيوعى .. ثم .. ثم .. وظل خالد يتحول تدريجيًا .. وجدناه يكتب بين « يدى

عمر » ويكتب عن أبى بكر الصديق ، وعن عمر بن عبد العزيز .. ثم يفاجئ قراءه بمقالة شهيرة نشرت فى جريدة الأخبار ، يعترف فيها بعد قرن من الزمان بخطئه حينما كتب « من هنا نبدأ » وما تبعه من مؤلفات تهاجم الدين ومنهج الحكم فيه وخلطه بالسياسة وما إلى ذلك ، كما اعترف بما ذكره محمد الغزالى من قبل من أنه كان متأثرًا بآراء المستشرقين والمبشرين وأعداء الإسلام .. اعترف بشجاعة ، بل إنه بكى فى أحد مواقف الاعتذار والاعتراف فى التليفزيون .. وكان شجاعًا فى اعترافه بالحق ، كما كان شجاعًا بالأمس فى تمرده .. وأنا لم أكف عن القراءة له سواء فى ثورته الجانحة أو عودته إلى الحق ، لم يمنعنى خلاف الرأى أن أتابع ما يكتب وأجالسه وأناقشه ، والواقع أننى كنت أتوقع من شخصية كشخصية خالد أن تنزل يومًا إلى الصواب ، وكنت أتساءل بينى وبين نفسى طوال ربع قرن لماذا تأخر عن العودة ؟ ، حتى فوجئت بمقالته وأنا فى دولة الإمارات تنشر فى الأخبار القاهرية ، فحمدت الله ، ودعوت له بالتوفيق وطول البقاء .

وقرأت الكثير والكثير لطه حسين ، إنه أولًا وقبل كل شيء أديب وفنان أكثر من أى شيء آخر ، أديب حتى فى تأريخه وفى بحوثه وفى نقده ، وله أسلوب أديب متميز بين كتاب العربية لا يشاركه فيه أحد ..

وقبل أن نخوض فى الحكم عليه ، يجب أن تعرف أنه تراجع عن الكثير من آرائه التى أغضبت العلماء والغيورين على الإسلام ، تراجع فى خطاب رسمى لمدير الجامعة آنذاك أحمد لطفى السيد باشا ، وحج بيت الله الحرام ، وكتب مؤلفات جديدة تجب ما قبلها مثلما رأينا فى « مرآة الإسلام » ، و « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » وغيرها .. لكن الذى لا مراء فيه هو أنه أساء إلى الأزهر وإلى الفكر الإسلامى بالآراء المنحرفة التى تبناها ردحًا من الزمن ، وكذلك بترديده لأفكار بعض المستشرقين المغرضين ، وخاصة أن الأوساط الغربية قد روجت لمثل تلك الأفكار ، بل إنها تركت بصمات واضحة فى الفكر العربى المعاصر نفسه .

ولعل الكثيرين ممن تلقفتهم الحضارة الغربية ببريقها ، أو ممن ساء رأيهم فى الدين ، فانحازوا إلى الشيوعية أو الوجودية ، لعل الكثيرين من هؤلاء قد تربوا على فكر طه حسين القديم ، وتحليله لأحداث التاريخ الإسلامى ، وإبرازه لجوانب مثيرة ومحزنة فى علاقات الأشخاص الأوائل فى فجر الدعوة الإسلامية ..

لكن يبقى طه حسين المتحرر ، المدافع عن المعذبين فى الأرض ، والمتغنى بتضحيات عمار وياسر وسمية ، والحامل لمرآة الإسلام وعظمته ، والمترنم بذكريات البيت العتيق ، ومسيرة المد الإسلامى فى صباحه وظهره وحتى اليوم ...

بل إن طه حسين نفسه أنكر ألوانًا من نقده لمعاصريه ، وزعم أنه كانت أيام الشباب واندفاعه ، وكان حديثه الصحفى يتناول واقعة نقده المرير لشوقى وحافظ ، وأسفه العميق على ما بدر منه .

لقد أدى طه حسين دورًا لا شك فيه ، وخلف مدرسة أدبية متميزة ، وكان همزة وصل بين ثقافات أجنبية وثقافتنا العربية ، وكانت نقطة الضعف فيه هى عداؤه القديم للأزهر ورجاله ، ولفقيه المكتب الذى كان يحفظه القرآن الكريم ، فتمادى فى سوء الظن ، وحاول أن يثأر لنفسه ، ويثبت أن ذلك

الأعمى الضعيف ، الذى رسب فى الامتحان ، أقوى من الأزهر ومن شيوخه ، بل أقوى مما يتصورون .. وكانت تجربة ..

ولا يشك أحد أن طه حسين فى بدايات عمره ، ليس هو طه حسين فى سنى حياته الأخيرة ، أى بعد أن تولى وزارة المعارف وأعلن كلمته الشهيرة « التعليم حق للجميع كالماء والهواء » .

وللأستاذ أحمد أمين جهد كبير فى الكتابة عن الإسلام وتاريخه الاجتماعى والسياسى والثقافى ، وعلى الرغم من استفادته من الترجمات والدراسات الاستشراقية والمؤلفات المتنوعة فى عصره وقبل عصره ، إلا أنه قدم سجلًا حافلًا ، غير أن نظرته لفلسفة الحكم فى الإسلام لم تكن سليمة ، وخلط السيىء بالحسن ، ولم يتحر الدقة فى أحكامه على العصور المختلفة ، وما جد فيها من عوامل خارجية وداخلية ، كان ناقلًا أكثر منه محللًا ، ولهذا فإن من يقرأ له يجب أن يكون على حذر بالغ ، ولا تهوله ضخامة جهده المبذول ، وموضوعاته الكثيرة التى تبدو مترابطة ، والمؤرخ كما نعلم إما إن يكون متذوقًا ومستوعبًا ومحللًا لأحداث التاريخ ، وإما إن يكون مجرد ناقل أو جامع للآراء ، وهذا النوع الأخير قد يستسهل أمر إصدار الأحكام السريعة .. وهو أمر فى غاية الخطورة ، وأرجو ألا أكون مخطئًا إذا قلت إن الأستاذ الكبير أحمد أمين من ذلك الطراز الثانى ..

❁❁❁

[١١] ذكريات سياسية



كان الطالب (ب. ب. غ) هو سكرتير اللجنة الوفدية للطلبة بمحافظة الغربية، وكان يمشى فى مدرستنا الثانوية منتفخ الأوداج، يتكلم من أطراف أنفه، ويتعالى على خلق الله، رغم وضعه العلمى العادى، وملابسه المنفرة، وطربوشه العتيق، وذات يوم أمره أحد مدرسى اللغة الإنجليزية بالعودة إلى فصله، فلم يمتثل للأمر، وحدثت مشادة كانت نتيجتها للأسف الشديد أن ضرب الطالب أستاذه بالكتب التى كانت معه، وهنا ثارت ثائرة الأستاذ، وذهب على الفور، وهدد بالاستقالة إذا لم يفصل ذلك الطالب، وفوجئنا؛ إذ رأينا المدرسين عن بكرة أبيهم يمتنعون عن إلقاء الدروس، ليس هذا فحسب، بل قدموا استقالاتهم تضامنًا مع زميلهم، كانوا يعرفون مكانة الطالب فى التنظيم الحزبى، والحزب لا يمكن أن يضحى بواحد من أتباعه المخلصين، وكان الطالب هو الآخر واثقًا من ذلك حتى أنه قال: «ولا الملك فاروق نفسه يستطيع أن يصدر قرارًا بفصلى»، وظلت المدرسة بلا عمل طوال، ذلك اليوم واليوم التالى، وأبدى الناظر نجيب بك دميان استياءه لما حدث، وأبلغ المنطقة تضامنه مع المدرسين.

وكان وزير المعارف فى ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين باشا (١٩٥١)، وكان فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية، وحاول الطالب أن يكتل طلبة المدرسة حوله، كى يقوموا بمظاهرة احتجاج ضد المدرس والمدرسة، ولكن لم يستجب له أحد، وعلمنا فيما بعد أن وزير المعارف، غضب أشد الغضب من تصرفات الطالب، وخاطب سكرتير حزب الوفد فؤاد باشا بشأن ذلك التصرف الذى ينبو عن الذوق والأخلاق وصمم على فصل الطالب، واقتنع فؤاد باشا، وصدر قرار بفصل الطالب (ب. ب. غ) لمدة عامين، وعاد كسيرًا حزينًا إلى قريته، ليتلقى أقسى درس فى حياته.

وكم كان عظيمًا حينما رحب الطلبة- وفديين وغير وفديين- بهذا الإجراء، فالطالب كان أسوأ ممثل لحزبه، فى كثير من التصرفات، وكانت عنجهيته مثارًا لكراهيتنا له، والواقع أن زعامات الطلبة فى المدرسة، لم تكن على نسق واحد، فزعماء أحزاب الأقلية، مثلًا لم يكن لهم شعبية كافية لحمايتهم، ولهذا كانوا يتحاشون الصدام، ويلجئون إلى وسائل أخرى للنيل من خصومهم، فإذا كانت الوزارة الحاكمة هى وزارتهم، وشوا بالمعارضين لدى البوليس المخصوص أو القلم السياسى (المباحث)، وأوعزوا إليهم بمطاردتهم، أو حجزهم لأيام فى أقسام الشرطة، أو تأديبهم بوسائل الحكومة المختلفة، وكان زعماء الطلبة من الإخوان المسلمين أفضل القيادات فى عموم الأمر، إذ كان هؤلاء الأفراد المسئولين حريصين أشد الحرص على اكتساب النفوس إلى دعوتهم، وإقناعهم بالانضمام أو الانتساب لجماعتهم، كما إن أغلب هؤلاء الشباب يحرصون على أداء الصلوات فى مسجد المدرسة، ويلقون الدروس الدينية، ويتحاشون ارتكاب ما ينفر من سلوك وأقوال وأفعال، وفى أغلب الأحيان، كان يشرف عليهم ويوجههم بعض المدرسين المنتمين إلى الجماعة، ولذلك كانوا يحظون بالاحترام والثقة،

لكن الأمر لم يكن يسلم من بعض المشاغبات والصدامات التى تحيط بها ظروف معينة ، كأن يُجرّوا إلى معركة ، أو يُدفعوا دفعًا للشجار مع من يحاول الاعتداء عليهم ، أو أن بعض أفراد الجماعة غير المسئولين يتصرفون تصرفات شخصية تؤدى إلى العراك ، وجمهور الطلبة قد لا يعرف المسئول وغير المسئول ، وكثيرًا ما يحدث خلاف حول أهمية حدث من الأحداث الجارية بالنسبة للطلبة ، فيرى البعض أن هذه مناسبة للتظاهرات والاحتجاج ، بينما يرى البعض الآخر عكس ذلك ، ومن المعروف أن طلبة الإخوان المسلمين لا يتحركون إلا وفق خطة وأوامر ، وهكذا يصبح خلاف الرأى حول مناسبة من المناسبات مدعاة للجدل الذى قد يتطور إلى معركة ، ومع ذلك فلم يحدث فى مدرستنا طوال سنى دراستى فيها صدامٌ عنيف ، أو إراقة للدماء والحمد لله ، ويوم أن اغتيل محمود فهمى النقراشى باشا ، ثم تبعه مقتل الإمام الشهيد حسن البنا ، اهتزت أوساط الطلبة اهتزازًا عنيفًا ، كانت الشماتة تبدو فى أعين الوفديين عندما اغتيل خصمهم النقراشى باشا ، وكانوا مرتاحين بعد الانتقام من حسن البنا ، واعتقال الإخوان المسلمين بالجملة ، وتقديمهم للمحاكمة ، لماذا ؟ لأن الطرفين خصومهم ، وسوف يؤدى ذلك- حسبما يعتقدون- إلى إضعاف هذا وذاك ، وسيتأزم الموقف أكثر ، وتضطرب الأمور ، وخاصة أن الغليان الشعبى قد بلغ مداه ، وبالطبع سوف يفكر القصر الملكى فى وسيلة ، لتهدئة الموقف ، ونزع فتيل الخطر حتى لا يزداد السخط على الملك وحاشيته ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بإسقاط وزارة السعديين التى تولاها إبراهيم عبد الهادى باشا ، ومن ثم يصبح الجو مهيئًا لمجىء حكومة الوفد التى حرمت من الحكم فترات طويلة ، ولهذا أخذت المعارضة لحكومة السعديين وللملك تنتعش وتقوى يومًا بعد يوم ، وأخذوا يتحدثون عن الإمام الشهيد ، وعن هؤلاء المعتقلين المظلومين ، وعن القهر والاستبداد ، وبعد فترة ليست بالطويلة ، جاءت وزارة حيادية لإجراء انتخابات حرة ، ونال الوفد الأغلبية الساحقة ، بمساعدة المعارضين ، وخاصة الإخوان المسلمين .

وفى هذه الفترة رويت عشرات القصص عن تعذيب المسجونين السياسيين والمعتقلين ، وأصبح الرعب مرادفًا لكلمة « البوليس السياسى » ، وذكرت حكايات عن « العسكرى الأسود » الذى لعب دورًا بارزًا فى محاولة انتهاك الأعراض ، واستخدام وسائل القهر والتعذيب الرهيبة ، وأشارت أصابع الاتهام إلى شخصيات كبيرة فى خدمة القصر والحكومة ، وكان الناس يتحدثون عن ذلك فى مجالسهم الخاصة ، ثم تجرأت الصحف أخيرًا ، وأخذت تنشر الأقاويل هنا وهناك ، بل حاولت إحدى الصحف البحث عن العسكرى الأسود وكشف سره ، وذهبت إلى قريته ، وعلمت الكثير عن شخصيته الشاذة ، وسمعته السيئة ، وألمحت إلى ، هناك قوى خفية تحاول حمايته ، ومنع يد العدالة من أن تطوله .

كنت سعيدًا بنجاح الوفد فى الانتخابات ، فقد كانت الانتخابات حرة بالفعل ، وكانت أحلام الحرية تداعب خيالنا ، لسوف يفرجون عن المعتقلين ، ويحاكمون الأشرار ، ويظهر الحق ، وسينجاب ظلام الكبت والقهر ، وسيذهب حكم الأقلية المستبدة إلى الأبد ، هكذا ظننا ، وفى ظل الحرية المرتقبة لن يكون هناك تكميم للأفواه ، سنتكلم ونكتب كما يحلو لنا ، وستفتح الأبواب من جديد للدعاة كى يصولوا ويجولوا ، وستنتعش الآمال من جديد بالنسبة لقضية فلسطين التى كانت- هى وقضية الجلاء عن مصر- قضية الشباب الأولى فى تلك الفترة ، لقد خيبت الهدنة آمالهم ، وكان قاسيًا على النفس أن يُساق المجاهدون الأبطال من ميدان القتال إلى معتقل « الهاكستب » ، على الرغم من قصص البطولة التى كانت تروى عنهم ، وعلى الرغم من شهادة قيادات الجيش لهم ، وشهادة مفتى فلسطين وقادتها ، وقد أشيع فى ذلك الوقت أن الملك فاروق عندما ذهب لزيارة جيشنا المجاهد فى فلسطين ، فوجئ بأعداد

كبيرة من متطوعى الإخوان المسلمين ، كما وجدهم على كفاءة عالية من القدرة القتالية والتضحية ، فداخله خوف كبير ، وأوعز إليه مستشاروه وكذلك السفير البريطانى ، بأن هؤلاء المجاهدين من الإخوان سوف يشكلون خطرًا كبيرًا إذا ما عادوا إلى بلادهم بعد انتهاء حرب فلسطين ، واستتباب أمر إسرائيل ، لأن هؤلاء الإخوان المدربين المسلحين ، يستطيعون أن يغيروا نظام الحكم فى البلد ، وقد حدث اجتماع فى قاعدة « فاير » البريطانية حضره السفراء الثلاثة لبريطانيا وفرنسا وأمريكا ، وكان نتيجة هذا الاجتماع هو تقديم النصيحة للحكومة المصرية وللملك فاروق بالذات بحل جماعة الإخوان المسلمين تحسبًا لمخاطر أكيدة ، وقد أزيح الستار فيما بعد ، أى بعد ربع قرن عن وثيقة بريطانية تحمل هذا المعنى .

واضطربت سياسة الملك إزاء هذه الجماعة ، فقد أوعز بالتصدى لهم والقضاء عليهم ومحاربتهم فى أرزاقهم وأعمالهم ونشاطهم ، ولما لم يفلح هذا السلاح لجأ إلى محاولة مهادنتهم ، ثم عاد لمحاربتهم وهكذا ، وللأسف فإن الملك كان يستثمر الخلافات السياسية الطاحنة ، وضيق الأحزاب بالإخوان الذين يزداد أتباعهم يومًا بعد يوم ، وحاول أن يصب البترول على نار الخلافات ، حتى يضعف هذه الجهة وتلك ، وبذلك يظل مسيطرًا على الموقف .

كانت أيامًا مليئة بالأحداث والاضطرابات والفتن ، وكانت الأمور تتطور بصورة سريعة ومعقدة .. وكانت جريدة الاشتراكية (مصر الفتاة سابقًا) تنشر مقالات ملتهبة لأحمد حسين مثل مقالته الشهيرة « رعاياك يا مولاى » ، ومقالات سيد قطب وغيره ، كما نشط الشيوعيون فى إصدار منشوراتهم السرية التى يطبعونها على ماكينات الرونيو ، والمخطوطات المختلفة والأخبار العديدة ، وتجرأت الصحف ونشرت الكثير صراحة أو رمزًا على فساد البيت الملكى وقصص المغامرات والمقامرات والمؤامرات والأسلحة الفاسدة وغيرها ، حتى أصبح الجو معبأ بالحنق والتمرد ، وكان فشل الجيش المصرى فى أداء مهمته فى فلسطين نقطة سوداء فى جبين ذلك العهد الفاسد ، كما كان له أعمق الآثار فى مجريات الأحداث بعد ذلك .

حينما جاءت وزارة الوفد ، كان من المتوقع أن يعود الإخوان المسلمون إلى نشاطهم العلنى والقانونى مباشرة ، لكن فوجئت الجماعة بما يسمى « بقانون الجمعيات » ، وكان المقصود به ، وضع القيود والعقبات فى طريق عودة الإخوان المسلمين ، فما كان من الجماعة إلا أن قامت بمظاهرة سلمية ضخمة ، فاجأت مجلس النواب (البرلمان) وهو يستعد لمناقشة مشروع القانون ، وأعلنوا رفضهم لهذه الإجراءات التى تحد من حرية الشعب وحركته ، فى وقت يحتل فيه الاستعمار الأرض ، وتنمو الصهيونية المنتصرة على الحدود ، ويداوى الشعب جراحه من وطأة حكم السعديين الجائر ، ولم تستطع وزارة الوفد فى بداية عهدها أن تصمد لهذا التيار الجارف والعادل من المعارضة الشعبية ، ومن ثم أغمضت العين عن ذلك القانون ..

وجاء المستشار حسن الهضيبى مرشدًا عامًا للإخوان المسلمين فى المكان الذى شغر بوفاة مؤسسها الأول الإمام الشهيد حسن البنا ، ولم يكن الهضيبى معروفًا لدى جماهير الإخوان ، فكان الأمر بمثابة مفاجأة كبرى للجميع ، سواء الإخوان أو غير الإخوان ، إذ ليس من المألوف أن يتولى التنظيم الدينى أو السياسى رجل ليس للجماهير سابق معرفة به ، وهذا الأمر أثار تساؤلات عدة داخل مصر وخارجها ، إذ كان للإخوان تنظيمات فى بعض البلدان العربية والإسلامية .

ومما خفف من وقع التساؤل والحيرة أن مكتب الإرشاد- أعلى سلطة فى الإخوان المسلمين- وكذلك الهيئة التأسيسية ، وهى بمثابة اللجنة المركزية ، قد صوتتا إلى جانب اختيار الهضيبى مرشدًا عامًا

للإخوان ، وهما أقرب لإدراك الأمور ، وفهم مجريات الأحداث ،وهكذا استتب الأمر للهضيبى ، على الرغم من أصوات معارضة قليلة العدد فى مكتب الإرشاد ، وفى الهيئة التأسيسية ، وفى النظام الخاص الذى أطلق عليه الجهاز السرى ..

لقد مضى عهد بالنسبة للإخوان

وأتى عهد جديد ...

مضى عهد الإمام الداعية المنشئ المنظم العبقرى الملهم ، ذلك الذى كان يستحوذ على عقول المستمعين ووجدانهم ، وينفذ إلى نفوسهم بعاطفته الجياشة ، وصدق يقينه ، وروعة أسلوبه ، وسرعة حركته ، ووضوح رؤيته .

وأتى عهد الرجل القانونى الذى يؤثر الصمت على الكلام ، ويقابل الثورة الملتهبة بالهدوء والرزانة ، ويجابه أعتى المواقف وأخطرها بإيمانه الفذ ، وكلماته القليلة ، وموقفه الصلب الذى لا يتزحزح عنه ، وفى أول خطبة له بدار الوثبة المباركة فى شارع « الظاهر » بالعباسية ، جلسنا وكأن على رءوسنا الطير ، كان هادئًا بطيئًا وهو يوصينا بقراءة القرآن وفهمه ، وبالصبر والصلاة ، وبأن نكون قدوة حسنة لإخوتنا ولغيرنا .. وأكد فى كلمته القصيرة أهمية العمل .. فالدعوات لا تقوم إلا بالعمل الجاد .

كنا شبابًا ، وكنا نريد أن نستمع إلى خطبة عاصفة تشعل القلوب ، وتحرك المشاعر ، وتدفعنا إلى خوض المخاطر ، وتشحننا بمعانى التضحية والفداء حتى نتسابق إلى الموت دون خوف ، كنا نريد أن نكتسح الطغاة ، وندمر الجبابرة الظالمين .. لكأنما أراد الرجل أن يشير إلى مرحلة جديدة تختلف طبيعتها عن المرحلة الأولى ، وأن هذه الحقبة تحتاج إلى التخطيط الحكيم ، والهدف الواضح ، والعمل الدائب وتجنب الأخطاء التى قد تجر إلى مشاكل عويصة ، وإلى عقبات كأداء تعترض مسيرة الدعوة .. وبمرور الأيام أحببناه ووثقنا به ..

ولم نكن نعلم أنه جاء ليحمل أعتى الأعباء وأثقلها .. وليصارع أقوى الأحداث وأشرسها .. وليصمد لما هو أقسى وأبشع من الموت نفسه .. لقد كانت الجماعة تضم عددًا كبيرًا من ألمع الخطباء والشعراء والكتاب والصحفيين الذين تربوا على يدى الإمام الشهيد ، ولم تكن فى حاجة إلى المزيد من هؤلاء ، كانت فى حاجة إلى العلماء المتخصصين ، وإلى الباحثين المتعمقين ، وإلى ممارسات عملية دقيقة ، بعد أن اتسعت الدائرة ، وتعمقت التجربة ، وصبغ تاريخ المسيرة بالدم الأحمر ، والتفتت إليها قوى الاستعمار والشيوعية والصهيونية الشرسة ، وقعدت لها قوى الغدر الداخلى بالمرصاد ... وكان حسن الهضيبى صاحب التاريخ الناصع ، والطهارة الملائكية ، والإيمان العميق ، والرؤية الصادقة ، كان هو رجل الأقدار ، ولقد كان صموده فيما بعد قصة مثيرة لا مثيل لها فى تاريخ الدعوة الحديث ، فالأحداث الجسام التى تعرض لها سنوات طويلة سواء فى ساحات السجون ، أو فى بيته قد أكدت أصالة معدنه ، وصدق نظرته ، وقوة إرادته ، هذا إذا أردنا أن ننفى عن العمل السياسى ، والدعوة إلى الله ، خبث الميكافيلية ، وعبث الغدر والمداراة ، وألاعيب الحكم والسيطرة وأقذارهما ، كان ملاكًا يواجه جوقة من الشياطين ، وكان إنسانًا يصارع حفنة من الذئاب والوحوش المفترسة ، كان الأمانة فى مجابهة الخيانة ، والصدق فى تصديه للكذب ، والتجرد فى صراعه مع الأنانية ، والصفاء فى تحديه للبذاءة والقذارة ، والحب فى منازلته للكراهية ، والتضحية فى عراكه مع النفعية ، والتسامى فى نضاله مع السفالة والسقوط .. حتى حينما دب الخلاف الفقهى بين أتباعه خلف الأسوار ، وانشق عنه جماعة التكفير والهجرة ، أعلن صيحته العلمية الصادقة المدعمة بالأدلة والبراهين ، وقال فى كتابه الشهير نحن

« دعاة لا قضاة » ، ورفض التطرف ، ورفض فكرة تكفير المجتمع وهجرته .. رفضها ممن ؟ من بعض أبنائه فى الدعوة ، لم يدخر وسعًا فى تبصيرهم وتوجيههم ، رغم ظلام السجن وآلامه ومآسيه .. ذلكم هو حسن الهضيبى الذى لم يأت بعد من يكتب تاريخه الصحيح الكتابة الأمينة ، بعيدًا عن مهاترات الصحف وأخبارها المبتورة ونصوصها المفتعلة ، وادعاءاتها الكاذبة ، وبعيدًا عن الإعلام المتحيز الموجه ، الذى لفق الأدلة ، وزعم الأباطيل ، وملأ الدنيا بالتحليل المبتذل ، والروايات الملفقة ..

لقد قطعنا استطرادنا المتأنى ، وقفزنا بالأحداث إلى بعيد ، لكن ذكرى الرجل جرتنا إلى أمور كانت مثار جدل كبير ، ومن ثم لم يكن هناك مفر من الولوج فيها بقدر قليل ..

وهل التاريخ إلا تجارب ؟

لكن لا يستطيع إنسان أن يكتب السطر الأخير فى أحداث معاصرة ، والليالى كما يقولون حبالى ، ويلدن كل عجيب ...

***

الجزء الثاني

المقدمة



إن الأحكام التى يطلقها الدارسون على الأفراد والجماعات وأنظمة الحكم المختلفة، ليست بالسهولة التى يتصورها البعض، والناس فيما يعشقون مذاهب، ومن الصعب أن نخلص المؤرخين من عقائدهم وأهوائهم وأمزجتهم الشخصية مهما حاولوا الالتزام بالموضوعية والحياد، أو ادعوا ذلك، والمشكلة الرئيسية أن طبيعة الإنسان لا يمكن أن تتسم بالخير المحصن أو الشر المحصن، بل تحتوى على نسب متباينة من هذا وذاك، ومن هنا تأتى الخلافات فى الرأى والتحليل والتقييم.

والذين عاصروا ثورة يوليو ١٩٥٢، انقسموا إلى مؤيد ومعارض، بالإضافة إلى فئة ثالثة آمنت أنه لا جدوى من اتخاذ موقف محدد، فبعدوا عن الساحة، والتزموا الصمت، إما بعدا عن المشاكل، أو يأسًا من الإصلاح، أو رضوخًا لبطش القوة والسلطان.

ويخطئ من يظن أن خفايا الأمور فى مصر كانت متضحة بصورة كافية بين عامة الناس، لأن المعروف أن « النظم الشمولية » أو الدكتاتورية لها قناعاتها الخاصة بقضية الحرية والرأى والمعارضة، ولا يصح أن يعرف الناس إلا ما يريده الحاكم، ولا يتحدثون إلا فى إطار ما يراه الحاكم صوابًا، ولابد لهم أن يعادوا ما يعاديه، ويصادقوا من يصادقه، والويل كل الويل لمن تراوده نفسه إبداء رأى مخالف، أو اتخاذ موقف خاص، وحجة النظم الدكتاتورية فى ذلك أنها تريد النهوض بمستوى الشعب، وتحقيق الرخاء والعدالة الاجتماعية، والقضاء على الطبقات الطفيلية والمستغلة، والتخلص من الاستعمار والرجعية، وتقوية الجيش، وتحقيق الخطة المناسبة للتنمية

والازدهار، ولا بأس بعد ذلك من أن تكمم الأفواه، وتُملأ السجون، وتصادر الأموال، وتقنن السلطات والقوانين الاستثنائية باسم الشعب.. وباسم المصلحة العامة.. وغرور الدكتاتورية يدفعها دائمًا للقول بأنها هى الأصلح والأمثل والأدرى بمصلحة الجماهير، وأن أسلوبها هو الأسلوب الوحيد القادر على التغيير والتحرير والتقدم.

وعلى الرغم من مرور ثلاثة وثلاثين عامًا على قيام الانقلاب العسكرى المصرى، إلا أن الحوار لم يزل يدور حول تقييم الدور الحقيقى لتلك الحركة التاريخية التى تركت بصماتها على الحياة والناس، ليس فى مصر وحدها، ولكن فى معظم أنحاء العالم العربى، وفى مناطق أخرى من العالم الإسلامى والعالم الثالث...

لكن تبقى التجربة الشخصية.. بكل صدقها وانفعالاتها وتفاعلاتها.. يبقى الفرد الذى يحاول أن يكون له وجهة نظر.. أو بمعنى آخر المثقف العادى الذى لا يحتل مكان زعامة، ولا يحمل راية قيادة، وإنما ينشد أن يستمتع بحياة حرة كريمة، يمارس فيها وجوده قولًا وعملًا، إنه يريد بتجربته أن تنمو، ولفكره أن يناقش، ويحلم بأن يعيش فى إطار قيم تشريعية محترمة، وممارسات سياسية حرة، فى ظل المبادئ والتجارب التاريخية الشريفة.. ويبحث له عن انتماء أصيل يحقق ذاته، ويُعلى من قيمته كإنسان..

القضية إذن بكل تفاصيلها قضية « إنسان ما » عانى وقاسى.. قضية صاحب « وجهة نظر ».. أين مكانه؟ وما مصيره؟ وكيف يكون الحكم عليه؟ وفى ظل أى قوانين يحاسب؟ وما مدى التناسب بين حجم الخطأ « إن كان خطأ » وحجم العقوبة؟.

المأساة هى فرض « وجهة النظر الواحدة » فرضًا على كل الناس، فكيف يكون مآل أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب إزاء هذا الوضع؟ إن الذين كرهوا الإسلام خافوا من عدله لما ارتكبوه من مظالم، وهلعوا من مساواته لما نالوه من تمايز، وارتعدوا من حريته بسبب ما مارسوه من إذلال وعبودية لخلق الله، وارتعبوا من دستوره الإلهى الخالد لكثرة ما صنعوا من قوانين استثنائية وإجراءات طوارئ وقمع وتشفٍ، ويستوى فى هذه المشاعر الخبيثة طواغيت الأمس واليوم.. لكننا دائمًا - كشعوب - ندفع الثمن غاليا، جزاء استسلامنا وخنوعنا أمام منطق البطش والإرهاب..

ولقد حاولت فى هذا القسم من الكتاب أن أتعرض لقضية الإخوان المسلمين والثورة المصرية، من خلال ما عايشته بنفسى، دون أن أتحرج فى ذكر مآخذ أو مثالب هنا وهناك، وليس من رأى كمن سمع، لكن هذا الجزء لا يشتمل على كل شىء فالرواية لم تتم فصولًا، فلقد انتهيت فى هذه الصفحات إلى أواخر اكتوبر عام ١٩٥٥،

ولم يزل أمامى الكثير مما يجب التعرض له من ذلك التاريخ حتى عام ١٩٦٥ حيث بدأت أحداث الصدام الثانى المروع بين الإخوان والثورة.. وما تلا ذلك من أحداث جسام، أرجوا أن أتعرض لأهم ملامحه فى القسم الثالث إن شاء الله...

إن تجربة العمل الإسلامى يجب أن توضع أمام الأجيال بأساليب شتى، ومن مواقع مختلفة، فليؤرخ القادة، وليكتب أفراد الجماهير فى القاعدة، وليسجل العدو والصديق، فإن تلك المصادر سوف تثرى البحث الجاد، وتصل بنا إلى الحقيقة «لكن حذار!» ، من ثم ؛ لأننا أدرى بما تفعله الصحف والإذاعات والتلفاز والمنشورات التى تسيطر عليها قوى السلطات الدكتاتورية فى أية بقعة من بقاع العالم ...

والله أسأل أن يهدينا إلى الصواب، وأن يجنبنا الزلل، وأن يعفو عما بدر منا من هفوات، وأن يأخذ بأيدينا إلى طريق الخير والسعادة والنور ؛ طريق الإسلام الصحيح.. وبالله التوفيق.. والسلام.

الدكتور نجيب الكيلانى

دبى فى ١٠/١١/١٩٨٤م
الموافق ١٦/٢/١٤٠٥هـ

❁❁❁

[١] المدينة الجامعية



كان اسمها عندما دخلتها لأول مره عام ١٩٥١ « مدينة فاروق الأول الجامعية بالأورمان » ولقد لعب هذا المبنى الصغير دورًا بارزًا فى الحياة السياسية، كما أثر إلى حد كبير فى حياتي الخاصة، فقد كانت هذه « المدينة » مأوى لعدد لا بأس به من زعماء الأحزاب - الطلبة -، كما اختلط فيها أبناء وجه بحرى والصعيد، فى مختلف الكليات بجامعة « فؤاد الأول » - جامعة القاهرة الآن - وقد حرصت الأحزاب المختلفة فى مصر على أن يكون لها ممثلون فى هذه المدينة، ولذلك فإن الصراع الفكرى والسياسى كان على أشده، وكانت الاجتماعات السرية وشبه السرية تُعقد فى مكان ما بالمدينة، وتتخذ فيها القرارات التنفيذية للمظاهرات والاضرابات، إبان تلك الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والعرب عمومًا، كما كان فيها فى وقت من الأوقات معسكر لتدريب الفدائيين الذين يتصدون تباعًا للإنجليز فى منطقة القنال.

كانت المدينة الجامعية مكونة من عمارتين « جديدة وقديمة »، وكل مبنى من خمسة طوابق، والحجرة يسكن فيها طالب أو طالبان حسب المرحلة الدراسية، وفى الغرفة سرير ومكتب وأباجورة ودولاب للملابس، وحمام به الماء البارد والساخن، وملحق بالمبنيين مطعم كبير على أحدث طراز، ومغسلة، وملاعب للجامعة، ومكاتب للإدارة، وحرس جامعى على مستوى طيب، وعمال معظمهم من أهل النوبة يجيدون الخدمة، ويحسنون التعامل بأدب.

وكان مدير هذه المدينة رجل مهذب من رجال السلك الدبلوماسي القدماء، ومن المحبوبين فى القصر الملكى هو « رمسيس بك شافعى »، ويبدو من ملامحه أنه تركى الأصل تقريبًا، وخلفه بعد فترة رجل طيب القلب طيب الأخلاق هو الأستاذ « عاكف »، ومن المشرفين أيضًا على هذه المدينة الممثل المشهور الآن الأستاذ فؤاد المهندس، الذى عرف آنذاك بالمرح، وصداقته الوطيدة للكثيرين من طلبة المدينة.

وكان كل طالب يدفع اشتراكًا شهريا قدره « خمسة جنيهات مصرية » مقابل الإقامة والطعام والشراب، وما لا شك فيه أن الحياة فى المدينة الجامعية كانت حياة مريحة مرفهة، تختلف تمامًا عما كنت أعانيه فى المرحلة الابتدائية والثانوية، فوجبة الإفطار تتكون من البيض المقلى والفول المدمس ونوع من الجبن والزيتون والشاى واللبن الزبادى ووجبة الغداء تتكون من اللحوم والخضروات المطبوخة والأرز والسلاطة والفواكه، وأشياء أخرى، وكذلك وجبة العشاء.

ولقد كتبت إحدى الصحف آنذاك مقالًا نقديا نددت فيه بالبذخ والترف الذى يوجد فى المدينة الجامعية، ثم قارنت بين ذلك وما يحدث بالنسبة للطلبة الغرباء الآخرين الذين يسكنون حى « بين

السرايات » المجاور للمدينة، وما يعانونه من فقر وجدب وازدحام فى المساكن الضيقة القذرة، وكان عنوان التحقيق الصحفى المكتوب « قصر الرخام.. وموائد الدجاج والحمام »، وضمنت التحقيق صورًا متناقضة لما يحدث فى المدينة، وفى حى بين السرايات، ويومها تظاهر طلبة المدينة الجامعية، واحتجوا على الصحيفة، وذهبوا - وكنت معهم - إلى جريدة « المصرى » حيث استقبلنا يومها المرحوم الأستاذ زكريا الحجاوى - الأديب المعروف وأحد محرريها - وقال له زميلنا « محمد الفوال »: « أن ما ينفق علينا فى المدينة الجماعية ليس من أموالكم، ولكنه من أموال الشعب الكادح الذى يشقى ويعرق من أجل المحظوظين من رجال الحكم والإقطاع والسراى.. وكان الأحرى بكم أن تطلبوا لإخواننا الغرباء فى « بين السرايات » مزيدًا من المبانى والخدمات، بدلًا من أن توحوا إلى المسئولين بإحالتنا إلى طائفة أخرى من المتسولين ..».

وقد اعتذرت الجريدة في اليوم التالي، ومرت الأزمة بسلام.. لكن إلى حين.. والواقع أن الإغداق على المدينة الجامعية كان فعلًا أمرًا ملفتا للنظر، لدرجة أن البعض فسر ذلك « الكرم » الزائد بأنه رشوة من الملك لطلبة الجامعة.

ومن الطلبة المشهورين فى المدينة الجامعية آنذاك الأستاذ/ حسن دوح زعيم الإخوان المسلمين وأحمد الخطيب زعيم الوفديين وزميله الشربينى « لا أذكر بقية اسمه »، والدكتور إبراهيم الصياد أستاذ بكلية الطب جامعة الأزهر حاليا، ود. سعيد الرازقى أستاذ بالقصر العينى، والدكتور إبراهيم الأحمدى - بطل كمال الأجسام - وأستاذ بطب الأزهر حاليا، والسيد الشوربجى من رجال القانون وكاتب تمثيليات ومسرحيات، وكان يصدر وهو بالمدينة صحيفة أو مجلة دورية اسمها « السويس » لأنه كان من السويس، وكانت حافلة بالموضوعات السياسية والنقد اللاذع، وكان منهم أيضًا الدكتور محمد البغدادى - شقيق عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد عبد اللطيف البغدادى، ومحمد أبو شلوع طالب الحقوق، وفتحى البوذ، وهو من تنظيمات الإخوان الرئيسية، ومحمد نصاير طالب الحقوق الذى اتهم فيما بعد بأنه كان ينوى اغتيال عبد الناصر بالحزام الناسف، وحكم عليه بالإعدام فى محكمة الشعب، ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، حيث قضى بضع سنوات فى الواحات سجينا، وأفرج عنه بعدها، وهو يعمل حاليا بمدينة الزقازيق، وغير هؤلاء كثيرون ممن لعبوا أدوارًا بارزة فى مجال الطب والقانون والسياسة والعلوم والفنون.

ولا يمكننا أن نمر دون أن نذكر بكل تقدير وإعجاب البطل « حسن دوح » طالب الحقوق الذى يعد بحق من نجوم الخطابة السياسية فى أيامنا، وكانت كلماته القوية المعبرة تصل إلى قلوب الجميع، وكان يرتدى دائمًا زيا شبه عسكرى، فقد كان منهمكًا فى معسكرات تدريب الفدائيين، ويقضى أيامه متنقلًا بين القاهرة وقناة السويس، حيث يقود كتيبة الجامعة التى تقوم بعمليات مؤثرة ضد الإنجليز فى قاعدة قناة السويس، كان رجل قول وعمل، ويكاد يكون متفرغًا تمامًا للعمل الفدائى، وهذا ما جعله يحظى باحترام الجميع، ويستقبله مدير الجامعة وعمداؤها وأساتذتها بكل تقدير واحترام، ويوم أن ذهب إلى مجلس قيادة الثورة استقبله عبد الناصر بترحاب شديد وقبّل وجهه بحرارة، وعندما تراجع حسن دوح للخلف قال له جمال عبد الناصر: « لا.. لابد أن أقبلك من الناحية الأخرى »، لكن الأمور لم تمض على

ذلك النحو من المودة، فقد ألقى حسن دوح خطبة الجمعة فى مسجد « شريف » بالروضة فى عام ١٩٥٤ بعد ذلك، وتناول بالنقد الصريح بعض الإجراءات غير الدستورية للحكومة، فقبض عليه قبل حادث المنشية، ثم حوكم بعد الحادث أمام محكمة الشعب، وصدر ضده حكم بالأشغال الشاقة، وقضى فى السجن سنوات طويلة، وعندما خرج بعفو من عبد الناصر، عمل بالصحافة فى دار أخبار اليوم، وفى الاجتماع الدورى للصحيفة استقبله مصطفى أمين بترحاب وقال: « أيها الصحفيون أن بينكم اليوم رجلًا، كانت الصحف فى يوم من الأيام تكتب عنه، وتضع صورته فى صفحاتها الأولى.. وقد انضم إليكم ليبدأ رحلة الصحافة من أول درجات السلم.. إنه رجل يستحق التقدير والاحترام.. ذلك هو حسن دوح ..».

لقد كان لحسن دوح تاريخ عطر فى حركة الجهاد، ومناوئة الاستعمار، والتصدى للقصر الملكى وهو فى عنفوانه، جاهد بالكلمة وبالسلاح، وكانت فيه كل مؤهلات القيادة الناجحة، رأيته عندما تعرض عليه مشكلة، سرعان ما يستوعبها، ثم يصدر الرأى الحاسم فيها ببساطة غريبة، وترى فيه الرأى الصادق الذى لا رأى بعده.. إنه السهل الممتنع كما يقولون..

أذكر خطابه الشهير فى ميدان الأوبرا وعند مسجد « الكخيا » بالقاهرة، يوم تشييع جنازة الشهيد « عمر شاهين » الطالب بكلية الآداب، الذى استشهد فى معركة « التل الكبير » مع رفيقه الشهيد « أحمد المنسى » الطالب بكلية الطب، وهم مشتبكون فى معركة ضارية مع قوات الاحتلال، كما أسر سبعة آخرون من الطلبة.. أقول أذكر خطاب حسن دوح فى يوم الجنازة التى شاركت فيها جميع أحزاب مصر آنذاك يوم ١٩٥٢/١/١٢ أى قبل الثورة المصرية بشهور قليلة، لقد قال:

« لقد تقاعست قوات الحكومة عن حماية ظهر الفدائيين، عند انسحابهم، بعد أن أتموا عمليتهم بنجاح، وهكذا صمد الأخوان الشهيدان حتى يحموا انسحاب إخوانهم، إن القصر المتواطىء مع الحكومة، قد جامل الاحتلال، وأنا أقول فى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخنا أنه سوف يأتى يوم ينهار هذا القصر على من فيه، وعلى من يحميه ..».

وهنا ضج عشرات الألوف المحتشدون بالهتافات الصاخبة الحانقة..

وأذكر أيضًا حسن دوح فى إبان تلك الفترة العصيبة، عندما حاول البعض إثارة الفتنة الطائفية فى الجامعة، لقد وقف يومها وأعلن فى حماس: « إننى كاليهود أؤمن بموسى ... وكالنصارى أؤمن بعيسى ... وأنا مسلم لأنى أؤمن بمحمد ».

وكانت هذه الكلمات بردًا وسلامًا على قلوب الجميع، حتى أن بعض الإخوة المسيحيين انضموا إلى كتائب الفدائيين فى حماس منقطع النظير.

وعندما سقطت حكومة الوفد - حكومة الأغلبية - بعد حريق القاهرة الشهير، جاء « على ماهر باشا » إلى المدينة الجامعية، ووقف يتناقش مع حسن دوح حول ضرورة إلغاء معسكر تدريب الفدائيين بالمدينة الجامعية، قال له حسن دوح: « لماذا يا باشا؟ »

- « لأن فى خطتنا أن نقيم معسكرات للفدائيين فى كل أنحاء مصر ...».

قال حسن ببساطة مذهلة : « إذن فليكن هذا المعسكر واحدًا منها ..».

فسكت الباشا ولم ينطق بكلمة واحدة.. كان ذلك أمام الطلبة الذين احتشدوا من حوله.

واعتزل حسن دوح السياسة أو كاد، بعد خروجه من السجن وعمله بالصحافة، ثم سافر للعمل بالكويت، وهناك نازعته نفسه العودة إلى الكتابة، فتولى مسئولية رئيسية فى مجلة « الإصلاح » التى تصدرها جمعية الإصلاح الاجتماعى فى الكويت، وهى جمعية إسلامية، تعتنق المفهوم الشامل للإسلام، ثم ترك الكويت، وترأس مجلس إدارة إحدى شركات الاستثمار الأجنبى فى مصر، وعاد لممارسة نشاطه الصحفى بقدر قليل فى الأخبار القاهرية، كما افتتح مكتبا للمحاماة، وصدرت له فى تلك الحقبة كتب عن معركة القنال وغيرها، لكن حسن دوح الكاتب، لم يصل إلى هامة حسن دوح الخطيب المفوّه، والمجاهد الكبير، ومازلت أقول بأن حسن دوح صفحة ناصعة من تاريخ مصر المكافحة.. مصر الطاهرة.. مصر التضحية والفداء... مصر الإسلام فمتى يأخذ هذا الرجل حقه من التكريم والتقدير؟.

وحسن دوح لديه الكثير من الأحداث والأسرار المثيرة، فلماذا لا يمسك بالقلم ويسجل تجربته الفَذّة كشهادة لمعاصر شريف، قدم أقصى ما يستطيع لدينه ووطنه.. وليس حسن دوح القادم من قرية « تفنيس المطاعنة » بالصعيد هو الوحيد الذى تجاهله قومه.. فهناك الآلاف من الرجال الأبطال الذين طوى ذكرهم النسيان.. أذكر أننى كنت فى معتقل « أبو زعبل » الجديد، وكان معى رجل صعيدى اسمه « عويس »، أراه هادئًا صامتا يرطب لسانه بقراءة القرآن وذكر الله، وكنت أظنه فلاحًا قحًا من أقاصى الصعيد، وعندما تعرفت عليه فهمت أنه مدرس ابتدائى.. وذات يوم من أيام المعتقل الطويلة القاسية كنت أجلس معه خلف باب « الغرفة »، وهو باب من قضبان حديدية صلبة، ونستطيع من خلال تلك القضبان مشاهدة المارين أمام الغرفة، بل ونصافحهم ونحادثهم.. وذات يوم مر بالباب من الخارج المعتقل حسن دوح « عام ١٩٦٥ »، وفجأة وثب عويس من جوارى وهب واقفًا وصاح: « « حسن » أخى حسن ...».

والتفت حسن نحو مصدر النداء، وسرعان ما اندفع نحونا والفرحة تغمر وجهه، ثم يمد يديه من خلال القضبان، وهو يهتف: « عويس.. أخى عويس.. كيف حالك؟ ».

ودهشت لحرارة العاطفة الجياشة بينهما، وأخذت أرقب المشهد بانبهار شديد.. ما الذى ربط بين « عويس » مدرس الابتدائى، الذى عاش فى قرية « الخيام » النائية، بحسن دوح زعيم الطلبة فى جامعة القاهرة، والمجاهد فى فلسطين والقنال..

ولم يكد يمر يوم أو يومان حتى التقيت بحسن، وعلى التو أخذت أسأله عن علاقته بالمدرس الصعيدى « عويس »، فابتسم حسن، وأخذ يروى لى كيف أن عويس كان من المتطوعين فى فلسطين، وأنه أظهر بطولات فذة هناك، وتولى القيادة للمتطوعين فى بعض المواقع، ثم قال حسن: « إذا استطعت أن ترى بطن « عويس » فسترى عليها سطورًا خالدة ...» نعم..

لقد قاد عويس معركة صعبة فى حربه مع اليهود فى فلسطين عام ١٩٤٨، كان معه بضعة أنفار، وأصابت بطنه رصاصات عديدة.. حتى بدت بقع الجروح القديمة متناثرة متقاربة.. كيف عاش عويس بعدها؟.

وروى لى أصدقاء عويس حكايات عديدة عنه فى أقاصى الصعيد، كيف كان يقاوم جرائم الثأر، ويفصل بين المتشابكين، ويعرض نفسه للأخطار، وكيف ساهم فى محو الأمية، وإرشاد الفلاحين، وكيف درَّب مجموعة من الفلاحين أيام العدوان الثلاثى ١٩٥٦.. وكيف! وكيف! ويبدو أن هذه المؤهلات كلها، كانت السبب فى اعتقاله مرات عديدة بعد ذلك ، بل ، وقبل ذلك..

لقد خرجت بنا الذكريات عن المدينة الجامعية..

أقول كانت المدينة الجامعية مأوى للعديد من التيارات السياسية والفكرية.. كان فيها الإخوان المسلمون، والوفديون، والشيوعيون، وكان فيها تنظيمات مسيحية وفيها طلبة لا ينتمون لأية فئة، وفيها العاشقون للفن والتمثيل والشعر، وكان من المناظر المألوفة أن ترى « قسيسا » يدخل بزيه الرسمى على المدينة، ويقصد بعض الغرف، ويعقد الاجتماعات، ويلقى الدروس، كما تستطيع أن ترى شخصية بارزة من المركز العام للإخوان المسلمين، أو أحد رجالات حزب الوفد المرموقين، أما أحزاب الأقلية الأخرى كالسعيديين والدستوريين والكتلة الوفدية والحزب الوطنى وحزب مصر الفتاة «الحزب الاشتراكى » الذى يرأسه أحمد حسين، فلم يكن لهم صوت مسموع، وإن كان لبعضهم صحافة، تُقرأ على نطاق ضيق، باستثناء صحيفة الاشتراكية الثورية التى يصدرها أحمد حسين رحمه الله..

وكان بالمدينة الجامعية ساحة تؤدى فيها شعائر صلاة الجمعة، وهى ساحة بالمبنى القديم، وعادة يكون الخطيب طالبًا أو عضوًا من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، ويكون مضمون الخطبة سياسيًا، سواء إبان حكم الملك فاروق أو بعد قيام الثورة، وكان لمثل هذه الخطب دلالات هامة، تترك آثارها على أفكار الطلبة وتحركاتهم السياسية بالجامعة.

وأذكر أننى كلفت ذات يوم بإلقاء خطبة الجمعة، وفكرت طويلًا فى الموضوع الذى سوف أتناوله فى خطبتى، وكان جمال عبد الناصر قد قال فى إحدى خطبه « إن عجلة الثورة ستسير، وستحطم فى طريقها كل من يعترضها ..».

وقال أيضًا مهددا المعارضة السياسية:

- « إننا على استعداد لأن نضحى بربع الشعب حتى يستطيع ثلاثة أرباعهُ أن يعيشوا فى سلام ..».

وكانت هذه العبارات هى موضوع الخطبة حيث تناولت « شرعية المعارضة » وحرية التعبير، وأهمية تبادل الآراء حول مصير الأمة ومستقبلها والسياسات التى تطبق فيها، وأن هذا أمر يكفله شرع الله، ونصوص الدستور والقوانين الوضعية، وأن إلغاء دستور ١٩٢٣ لا يعنى إلغاء هذه الحقوق المقدسة، التى لا يمكن أن نكون بدونها دولة مسلمة.. أو دولة متحضرة، وأن إهدار هذه القيم يلحق بالشعب وبالثورة أفدح الكوارث، ويفتح الباب أمام صراعات عنيفة قد تراق فيها الدماء، وأخذت أتمثل ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواقف التاريخية عن الشورى وحرية الرأى، كما استشهدت بأبيات من الشعر لأمير الشعراء أحمد شوقى « .. والأمر شورى والحقوق قضاء ..»

وفى نهاية الخطبة قلت ما معناه:

« نحن لا نعترض مسيرة النهضة والبناء والإصلاح وسنفتح عيوننا جيدا على كل ما تقدمه الثورة من أقوال وقرارات، أو تقوم به من ممارسات، وسوف نعترضها حتما عندما تحيد عن الحق، أو تغتال

الحقوق المقدسة للإنسان فى حرية التعبير والشورى، فكيف يُستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ ».

وقلت أيضًا: « إن مقولة التضحية بربع الشعب مقولة مردودة على صاحبها، ونحن لا نقبلها، لأن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم حرام.. والزعم بأن القضاء على بعض وإراقة دمائهم من أجل الحفاظ على بقية الشعب مقولة فاسدة أيضًا، لا تصدر إلا عن تطلعات دكتاتورية جائرة، ولا تستند إلى قانون أو منطق سليم، وهى إفراز النفوس المستعلية. التى تضيق بالنقد البناء، وتتوهم أنها وحدها القادرة على اتخاذ القرار السليم، وهى نتيجة للسلطة المطلقة التى تغرى بالقسوة والتصرفات الهوجاء ..».

وأذكر أنه بعد أيام قليلة عقد فى قاعة الاجتماعات بالجامعة مؤتمر كبير حضره جمال عبد الناصر « ولم يكن بعد قد أصبح رئيسا للجمهورية » ومعه عدد من ضباط الثورة، ولم يحضر الرئيس محمد نجيب هذا المؤتمر، ووقف جمال عبد الناصر ليلقى كلمته وسط هتافات عارمة تطالب بالحرية، والعودة إلى الحياة النيابية...

وبان الضيق على وجه جمال عبد الناصر وهو يخطب، عندما قاطعة الطلبة هاتفين: « استفتوا الشعب ... استفتوا الشعب »

كانت الهتافات كالرعد القاصف، وكان يرددها جميع الطلبة من كل الأحزاب دون استثناء، ورأيت جمال عبد الناصر – وكان يرتدى الزى العسكرى – يخلع « الكاب » من فوق رأسه، ثم ينظر إلى الشرفات العالية فى القاعة، تلك التى كانت تكتظ بآلاف الطلبة، ويصرخ بأعلى صوته فى تحدٍ: « لستم أنتم الشعب... الشعب هو آباؤكم وإخوانكم الذين يحملون الفئوس الآن، وينحنون تحت حرارة الشمس يزرعون الأرض... الشعب هو عمال المصانع الذين يكدحون ويعرقون... الشعب هم إخوتكم فى القوات المسلحة الذين يضحون بأنفسهم عند الحدود ..».

وساد الصمت.. وتوقفت الهتافات الداوية، وأخذ جمال عبد الناصر يتحدث عن المبادئ الستة الشهيرة التى كانت الثورة قد أعلنتها وعلى رأسها قانون الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية..

وكان المفروض فى هذا اليوم أن يلقى الأستاذ مصطفى البساطى كلمة الجامعة، لكن الأوامر صدرت بمنعه من الكلام، وما إن انصرف جمال عبد الناصر ومن معه، حتى عقد مؤتمر آخر أمام قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، حيث ألقى مصطفى البساطى الطالب بالجامعة كلمته، وقد تناول فيها بعض النقاط الهامة التى يراها الطلبة واتخادهم أساسية فى حياتنا السياسية، وهى فى مجملها تتحدث عن الضوابط الدستورية والقانونية لمسيرة الأمة، والعودة إلى المؤسسات الشرعية كضمان لحرية الشعب، وكبح جماح الإرهاب البوليسى الذى أخذ يهدد حياة الناس وأرزاقهم، ويكمم أفواههم، ويلجأ إلى أساليب العنف والقهر.. كما أشار المتكلم إلى الخطأ الفادح الذى وقع فيه منظمو الحفل وهو منع مندوب اتحاد الطلبة من إلقاء كلمته. وكان هذا المؤتمر فى الواقع بداية سيئة للعلاقة بين طلبة الجامعة والثورة، وأخذت جميع الأحزاب تتشكك فى نوايا الثوار وخاصة ما يتعلق منها بالحريات العامة..

وأستطيع أن أعود قليلًا إلى الوراء، وأروى بإيجاز أحداث مؤتمر آخر عُقد فى الجامعة نفسها فى بدايات الثورة.. كان الأمر مختلفا تمام الاختلاف.. كيف؟

لقد جاء موعد الاحتفال بذكرى شهداء الجامعة، وكان كما قلت قبل هذا المؤتمر بشهور.. وأرسل

جمال عبد الناصر إلى مدير الجامعة يخبره بأنه سوف يحضر المؤتمر ويحتفل مع الطلبة بذكرى شهدائهم، ويلقى كلمة فيه..

كيف سارت أحداث ذلك المؤتمر.. أو ذلك الحفل؟

لم يكن للثورة حتى ذلك الوقت تنظيم أو منظمة فى الجامعة، وكانت جميع التنظيمات السياسية بالجامعة « باستثناء الإخوان المسلمين »، تقف من الثورة موقفا مضادًا، فالوفديون لم ينالوا بغيتهم فى إعادة البرلمان المنحل، أو إجراء انتخابات جديدة، والسعديون والدستوريون كانوا محط الهجوم والازدراء من الثورة، وخاصة بعد أن حوكم قتلة الإمام حسن البنا، وقدم إبراهيم عبد الهادى باشا زعيم السعديين ورئيس الحكومة التى اغتيل فيها مرشد الإخوان، قُدِّم للمحاكمة، والشيوعيون لم يجدوا من الثورة سوى المطاردة والاعتقال فى البداية، والحزب الوطنى ليس له ثقل يذكر فى الجامعة وكذلك حزب مصر الاشتراكى، ومن ثم كان من البديهى أن يعتمد رجال الثورة على القاعدة الإخوانية فى الجامعة، إذ إن العلاقة بين الإخوان والثورة كانت طيبة فى ذلك الوقت، على الرغم من امتناع الإخوان عن الاشتراك فى الوزارة، ولهذا فإن الاحتفال بيوم الشهداء كان ذا صبغة إخوانية تقريبًا، وقد أقيم الاحتفال أمام باب صالة الاحتفالات فى الساحة الواسعة بالجامعة، وأحاطت جموع الشباب من الإخوان المسلمين بالمنصة التى يشغلها جمال عبد الناصر ورفاقه، ومعهم مندوبو الإخوان فى الحفل، وكان الشباب يتحلقون حول المنصة وقد تشابكت أيديهم، فى صفوف دائرية لا يمكن اختراقها، إذ كان من المتوقع أن تحاول الأحزاب أن تندس وتشوه جمال اليوم، وقد يلجئون إلى السخرية أو التعدى على رجال الثورة.. وبُدئَ الحفل بآيات الذكر الحكيم، ثم رددت مجموعة الأناشيد الإخوانية الحماسية منها نشيد:

فى سبيل الله قمنا   نبتغى رفع اللواء

ونشيد السجون أيضًا الذى يقول:

فى سبيل الله أدخلنا السجون   والمخرجون من الديار بلا ذنوب يُسجنون

ثم تحدث مندوب الإخوان المسلمين عن ذكرى الشهداء، ومكانة الشهيد عند الله، ودعا ضباط الثورة إلى الإسراع فى اتخاذ الإسلام منهجًا للحياة والحكم، والعمل على « أسلمة » المؤسسات والأجهزة المختلفة، والعمل الفورى على إجلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس، بالأسلوب الذى ثبتت فعاليته، والذى نفذه شباب الجامعة المؤمنون، والتصدى للصهيونية المعادية على أرض فلسطين، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وإقرار قيم الحرية دون إبطاء، وذلك وفاء لهؤلاء الشهداء الذين بذلوا دماءهم فى سبيل الله.

وعندما بدأ « جمال عبد الناصر » فى إلقاء كلمته، فوجىء الجميع بضوضاء وضجة عالية تصدر من جهة كلية الحقوق التى تبعد عن منصة الحفل بما يقرب من مائة متر أو أقل، فماذا حدث؟ لقد احتشد المعارضون أمام كلية الحقوق، ووضعوا مكبرا للصوت، وأخذوا يهتفون هتافات صاخبة، تعنى فى مضمونها الاعتراض على أسلوب الثوار فى الحكم، وتطالب بالانتخابات الحرة، وهكذا تعذر على جمال عبد الناصر أن يواصل كلمته، وكان لابد من التصرف بطريقة تحفظ للحفل استمراريته ووقاره، فتقدمت مجموعة من الطلبة صوب المنصة المقامة أمام كلية الحقوق، لإسكات الميكروفون وكان من

البديهى ألا يمر الأمر ببساطة، فقد حدث الصدام، واستعملت الأيدى فى معركة قصيرة، تم فيها السيطرة على الموقف، والاستيلاء على الميكروفون، وساد الهدوء مرة أخرى، عندئذ وقف « جمال عبد الناصر » مرة أخرى ليواصل خطابهُ وهو فى غاية من التوتر والغضب بسبب المقاطعة السابقة له من قبل المعارضين من الوفديين وغيرهم، وصاح قائلًا وموجها حديثُ نحو هؤلاء المعارضين:

« .. أين كنتم أيام كان إخوانكم هؤلاء « يقصد الإخوان المسلمين » يحاربون ويستشهدون فى القنال؟ أين كنتم أيام كان إخوانكم هؤلاء يجاهدون ويتصدون للصهيونية فى فلسطين؟ وأية انتخابات تريدون؟ لقد أجلسكم الشعب فعلًا على كرسى الوزارة مرات عديدة، فماذا فعلتم؟ لقد كنتم أداة طيعة فى يد الملك والاستعمار ...».

ألا شتان بين هذا المؤتمر وذاك!! شتان بين اليوم والبارحة!! إن هؤلاء الذين وقفوا محيطين بعبد الناصر ورفاقُه إحاطة السوار بالمعصم ليحموه من بطش المعارضة، سيقوا بعد ذلك إلى المحاكمات الرهيبة كما يعلم الجميع..

وتعرض الإخوان المسلمون لنقد لاذع بسبب موقفهم يوم الاحتفال بذكرى الشهداء، واعتبرهم المعارضون مخطئين فى مساندتهم لرجال الثورة، وفى اشتباكهم بالأيدى مع اصحاب الرأى الآخر، ولم يُوجه هذا النقد من المعارضين وحدهم. فقد قال لنا الأستاذ الدكتور محمد سليمان أستاذ الطب الشرعى بكلية طب القصر العينى، حينما اجتمع بنا فى مدرج « على باشا إبراهيم »:

« إنه لأمر مؤسف أن تشتبكوا بالأيدى مع أصحاب الرأى الآخر.. خير لكم أن تكتسبوا قلوب الناس بالمحبة والتفاهم لا بالضرب والقسوة ..» وكان الدكتور محمد سليمان عضوًا بارزا قديمًا من الإخوان المسلمين.. كما علمت أيضًا من أحد الإخوان الثقاة الذين التقوا بالأستاذ حسن الهضيبى مرشد عام الإخوان المسلمين رحمه الله أنه اعترض على ذلك التصرف، وأوصى بالبحث عمن تسببوا فيه حتى يحاسبوا، وعندما حوكم رجال العهد السابق، وصدر حكم بالإعدام على « إبراهيم عبد الهادى باشا » - ولم ينفذ الحكم - كان المرشد العام متضايقًا، وقال: إن مثل هذه المحاكمات الاستثنائية خطر بالنسبة للأمة ومستقبلها، وقد يأتى يوم تتصرف معنا الثورة مثلما تتصرف الآن مع أعدائها من رجال العهد البائد، ولا تعجبوا عندما تروا مرشدكم العام يقدم للمحاكمة بنفس الأسلوب وبنفس الطريقة.. ولم يكن هذا غريبًا من الهضيبى رجل القانون المسلم والمستشار القديم الذى يعرف قيمة القانون واحترامه، ولهذا رفض الرجل منذ البداية كما سبق وشرحت فى الجزء الأول من هذا الكتاب فكرة السلطات الاستثنائية وإلغاء الدستور، وعاب على الشيخ محمد الغزالى مقالته الشهيرة التى كان يستعدى فيها الثورة على الفاسدين من رجال العهد البائد، وكانت تلك المقالة بعنوان « إضرب والحديد ساخن ».

والواقع أن عددًا من شباب الإخوان المتحمسين، كانوا يذكرون للأحزاب القديمة سياستهم الجائرة، وزجهم بالناس فى السجون، وقتلهم الأبرياء، واضطهادهم لأصحاب الرأى والمعارضين، ولم يكن أمامهم دليل أكثر من سوق المجاهدين فى فلسطين وفى القنال إلى المعتقلات فى عهد النقراشى باشا وإبراهيم عبد الهادى باشا، وكان هؤلاء الشباب المتحمسون يرون أن رجال العهد البائد لابد أن

يحاسبوا حسابًا عسيرا، وإلا استوى الظالم والمظلوم، والمحسن والمسىء، وكانت الفكرة فى حد ذاتها تبدو منطقية، لكن العقلاء كانوا مؤمنين بأن العقاب لابد وأن يتم بالطريقة القانونية الصحيحة، وأن يعطى المتهمُون الفرصة للدفاع عن أنفسهم، فى ظل ضمانات عادلة كافية، وكان على رأس القائلين بذلك المرحوم الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام الثانى للإخوان المسلمين، وظل هذا رأيه حتى وافاه الأجل المحتوم، وأذكر أنه فى المعتقل بعد أحداث عام ١٩٦٥، وقضية الشهيد سيد قطب الشهيرة، رأى بعض الإخوان يشتطون فى عدائهم لجمال عبد الناصر، ويتهمونه بالكفر، ويعلنون أن العنف والقوة وحدهما هما السبيل لردعه، فما كان من الهضيبى رحمه الله إلا أن أخرج كتابه الشهير بعنوان « دعاة لا قضاة » أوضح فيه رأيه مدعما بالدليل من الكتاب والسنة، وانشق عدد من هؤلاء الإخوان عنه، وكونوا فيما بعد ما يسمى بقضية « التكفير والهجرة » وإن لم يكن اسم تنظيمهم كذلك، أطلقوا على أنفسهم « جماعة المسلمين »، لكن الصحافة فيما بعد أعطتهم اسم التكفير والهجرة استنادًا إلى بعض التعاليم التى يؤمنون بها..

كانت المدينة الجامعية كما قلت مركزا لصراعات الرأى والفكر، بما يحتدم فيها من تيارات سياسية وفلسفية متناقضة، على الرغم من أن لائحة المدينة الخاصة تشترط على من يقيم فيها عدم الاشتغال بالسياسة، وكان الصراع السياسى فيها معروفًا لدى الجميع، وقد أدركت جهات الأمن والمخابرات ذلك، فدست فيها عيونها، وحاولت تباعًا أن تفسح المجال لشباب جدد موالين لها.

وعلى الرغم من اندماجى الشديد فى العمل السياسى إلا إننى كنت شديد الحرص على متابعة دراستى بانتظام، فلابد من الحضور يوميا بالكلية سواء بالنسبة للدروس العملية أو النظرية، وقد ينتهى المؤتمر السياسى فى الثانية عشرة ، مثلًا ، ظهرًا، ثم ترانى جالسًا على مكتبى بعد نصف ساعة لأستذكر دروسى وأراجعها، كنت أدرك عظم المسئولية الملقاة على عاتقى بالنسبة لى ولأسرتى ولدينى، وأى تقصير ولو بسيط كان يورثنى الندم والألم وتأنيب الضمير، فلم يكن غريبا أن أنجح كل عام بتفوق والحمد لله، وبقى شأنى هكذا حتى وقعت ذات يوم فى قبضة البوليس السياسى « المباحث العامة »، وهذا ما سوف أتناوله بالتفصيل إن شاء الله فى مكان آخر.

ولاحظت فى المدينة الجامعية ملاحظة غريبة : إن بعض شباب الإخوان المسلمين المرموقين قد ابتعدوا عن الساحة، واعتكفوا بعيدًا عنا، ولم يعودوا يواظبون على حضور الاجتماعات أو المشاركة فى الرأى، وعندما استفسرت عن الموضوع أدركت أنهم « موقوفون » عن العمل فى صفوفنا لأجل غير مسمى، وفهمت أيضًا أن هناك اختلافًا وقع بينهم وبين المرشد العام ومكتب الإرشاد، وكان أغلب هؤلاء الأعضاء منتظمين فيما يسمى « بالنظام الخاص » وهو ما أطلقت عليه أجهزة الإعلام « الجهاز السرى » وقد حدثت بعض الأمور الملفتة للنظر بالنسبة لهذا الجهاز فمثلًا:

١- إعفاء رئيسه « عبد الرحمن السندى » من منصبه.

٢- تعيين المهندس « سيد فايز » مكانه.

٣- اغتيال المهندس « سيد فايز » بإرسال طرد حلوى إلى منزله، ووفاته وبعض أفراد أسرته فى ظروف غامضة.

٤- تعيين « يوسف طلعت » رئيسا له..

٥- اعتراض المرحوم الهضيبى مرشد الإخوان على وجود هذا الجهاز أصلًا.

٦- حدث أن اعتصم أعضاء الجهاز القديم « وكان رئيسه السندى » فى المركز العام، وكانت لهم مطالب معينة، وقد كان من رأى الأستاذ الهضيبى ألا ينشر شيء عن هذا الموضوع حفاظًا على كيان الجماعة، وحتى تتبين الأسباب الرئيسية وراء ما حدث، ولكن الحكومة وجدتها فرصة ذهبية، فأمرت الصحف بنشر أنباء ذلك الاعتصام فى الصفحات الأولى للجرائد اليومية.

٧- كانت هناك صلة قديمة وثيقة بين بعض رئاسات وأعضاء هذا الجهاز وجمال عبد الناصر، قبل وبعد الثورة.

٨- عند اعتقال أعضاء الإخوان فيما بعد، ولم يشمل الاعتقال عددًا من الأعضاء البارزين فى التنظيم مثل عبدالرحمن السندى وغيره.

وقد كثر الحديث حول هذا التنظيم الخاص، وتناولت الصحف نواياه الإرهابية، والواقع أن أفراد هذا الجهاز كانوا طليعة الجهاد فى فلسطين والقناة، وتصدوا للإنجليز واليهود، وكان تدربهم على حمل السلاح بادئ ذى بدء لهذه الغاية: مقاومة الإنجليز واليهود، وكان بعض ضباط الثورة ومجلسه ممن يدربونهم ويعطونهم السلاح، ويشتركون معهم فى المعارك التى دارت فى منطقة القنال وفلسطين، ومن هؤلاء الضباط كمال الدين حسين وكمال رفعت ، بل وجمال عبد الناصر نفسه، ويتضح ذلك بأدلة لا تقبل الشك، عند الاطلاع على تحقيقات قضايا السلاح أمام محكمة الشعب، كما يمكن النظر فى مذكرات المرحوم حسن العشماوى « الإخوان والثورة ». وكانت كميات من هذه الأسلحة يحتفظ بها فى عزبة « حسن العشماوى » بمعرفة جمال عبد الناصر.

المهم أن رسالة التنظيم أساسًا هى مقاومة الاستعمار والصهيونية، ولكن الأحداث قد أوجدت لهذا التنظيم مهمة ثانوية أخرى هى الحفاظ على أمن الجماعة والتصدى لمن يناوئونها، وقد ثبت أن هذه الممارسات حدثت دون علم المرشد العام وأعضاء مكتب الإرشاد، وخاصة فى الأوقات العصيبة التى كان تنقطع فيها الصلة بين القيادة وجماهير الجماعة، ولنضرب لذلك مثلًا:

١- معاقبة النقراشي بالقتل حدثت أثناء اعتقال الإخوان وقيادتهم فى جبل الطور والهاكستب.

٢- قضية الاعتداء على حامد جودة والأوكار حدثت فى نفس الظروف.

٣- حادثة مصرع الخازندار لم يثبت أن القيادة لها أدنى علم بها.

٤- حادثة المنشية أو محاولة الاعتداء على جمال عبد الناصر، ثبت بالدليل القاطع أمام محكمة الشعب أن الهضيبى وأعضاء مكتب الإرشاد لم يكونوا على علم بذلك.

إن الأيام العصيبة، والإجراءات الظالمة الجائرة، بالنسبة للشعوب تفرز تصرفات وأحداثا هى من صنع اللحظة، ومع ذلك فإنها قد تجعل مسار التاريخ يتحول إلى جهة لم يكن يتصورها أحد ومما لا شك فيه أن هذه القضية - أعنى قضية « النظام الخاص » - تحتاج إلى مجال آخر، وإلى دراسة وتحليل مستفيضين، لكنى حاولت فى هذه العجالة أن أبرز أهم النقاط الجديرة بالبحث والدراسة.

تغيرت الأوضاع لحد ما فى المدينة الجامعية، وصارت نوعية الطعام أقل جودة مما كانت عليه،

وافتتحت أبواب المطعم لطلبة الجامعة فى وجبة الغداء بمبلغ زهيد، وكان لهذا الازدحام وقت الظهر أثره فى تدنى الخدمات، وحدث ذات يوم أن ثار طلبة المدينة الأصليون، ووضعوا كمية من الأطعمة المختلفة فوق «عربة يد» وساروا فى مظاهرة من المدينة إلى إدارة الجامعة كى يرفعوا شكواهم لمديرها.. وعلى الرغم من ذلك فإن الأمور لم تتحسن..

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المدينة الجامعية بنظامها وإمكاناتها قد أتاحت لنا فرصة ذهبية للتحصيل والتفوق أيضًا، فقد كان بها نسبة كبيرة من أوائل الدفعات فى مختلف الكليات والمراحل.

وفى يوم الخميس من كل أسبوع يخرج عدد كبير من الطلبة للفسحة أو زيارة أقاربهم وأصدقائهم فى القاهرة، أو يقضون السهرة فى سينما أو مسرح، وبعضهم قد يسافر إلى مدينته أو قريته لقضاء ليلة أو ليلتين بين أفراد أسرته، وكان الوضع الأخلاقى فى المدينة الجامعية بشكل عام لا بأس به، ونادرًا ما تحدث سرقة أو مشاجرة، أو خلاف بين زميلين فى غرفة واحدة، ويبدو أن السبب الرئيسى فى ارتفاع المستوى الأخلاقى هو غلبة أصحاب المبادىء على غيرهم من الطلبة، فالهوية العقائدية - مسلمين ومسيحيين - والالتزام السياسي. والحفاظ على الشعائر الدينية، وكون الجميع غرباء عن القاهرة، جاءوا بهدف العلم، فضلًا عن أن الرسوب المتكرر قد يتسبب فى فصل الطالب من المدينة، كل هذه الاعتبارات كانت سببًا فى سيادة جو الهدوء والنظام والالتزام فى هذه المدينة الصغيرة..

لقد كان «الدكتور مورو باشا» مديرًا للجامعة قبل الثورة وبعدها، وكان رجلًا وطنيا مخلصًا، حفظ للجامعة حريتها واحترامها، وخاصة فى الأيام العاصفة التى سبقت قيام الثورة، وشجع حركة المقاومة ضد الإنجليز، ولم يحفل بتهديدات الملك، وتبرع بالكثير من الجهد والمال فى هذا المجال..

وبعد الثورة بفترة شغل منصب مدير الجامعة العالم الفذ، والأديب البارز الدكتور أحمد زكى، الذى ارتبط اسمه فيما بعد باسم «مجلة العربى» الشهيرة، وكان الدكتور أحمد زكى مستقلًا، ولا أعرف أنه انتمى لحزب من الأحزاب، كما كان عضوا فى المجمع اللغوى، ومن جملة ما قاله عنه المرحوم عباس العقاد «إننى أتصور الدكتور أحمد زكى وهو يكتب ممسكًا بقلم ومسطرة»، إيماءً إلى دقته فى التعبير، وتحديده لأفكاره، وترجمته لما يفرزه من علم ومعرفة على نسق فريق واضح..

وكانت الفترة التى تولى فيها إدارة الجامعة فترة من نوع خاص، فالرجل يريد للجامعة أن تظل حصنا للحرية والرأى الصادق، والثورة تريدها أن تكون مؤسسة ثورية ملتزمة بمبادئ الجيش وأهدافه، ولا يصح أن يكون بالجامعة مكان لأستاذ معارض، وعاش الرجل هذه الفترة الحرجة، وهو تحت معاناة نفسية لا يعلمها إلا الله، لكنه ظل وفيا لمبادئه وأفكاره، متجنبا الصدام مع كبار مسئولى الدولة، حتى تحقق له الارتياح التام بترك العواصف والأنواء التى ليس أهلًا أو ندًا لها، فلم يكن من طبيعته أن يخوض المعارك العنيفة الدامية، أن يقتحم ساحات النار والأشواك، إنه يعرف العلم والدراسة المتأنية، ويؤمن بالتدرج والتوعية دونما عنف أو ضجيج.. لم يكن المكان مكانه، ولا الزمان زمانه، ولم يجد ضالته بعد ذلك إلا فى تلك المجلة الثقافية الرائدة فى الكويت، مجلة العربى، حيث استطاع أن يسير بسفينتها ببراعة منقطعة النظير، على شواطىء البلدان العربية، دون أن تعوقها رياح اليسار أو اليمين، بل ظل أمينا على قيم الحرية والثقافة الأصيلة، والإبداع الرائع، يؤدى ذلك كله فى براعة واقتدار وحكمة، وهكذا حظى

باحترام الجميع، وحب الجميع، مما جعل « العربى » تصبح أول مجلة عربية فى أمتنا الشاسعة وفى غيرها..

لقد قضيت فى المدينة أربع سنوات كانت كالحلم الجميل... شعرت أنها قلب الأم الحنون التى تضم فتاها الريفى القادم من القرية النائية. يكاد يبهره البريق، ويذهله زحام المدينة الصاخبة..

وفى المدينة العزيزة لقيت أعز الأصدقاء وأحبهم إلى قلبى... وقرأت فى السياسة والأدب والطب... وفيها عاصرت أعتى الأحداث وأخطرها..

كانت حياتى فيها حياة مثيرة جديدة بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى..

وخلال تلك السنوات الأربع الخصبة التقيت خارجها بوجه حبيب.. وجه ظل يضىء لى طوال رحلة حياتى الشاقة.. التقيت بأم أولادى..

ترى، أيمكن فى صفحات معدودة أن أسجل تلك الذكريات الحلوة، فى هذه المدينة الجميلة؟

لا أعتقد..

لكن ماذا أفعل، والأحداث كثيرة، والوقت قصير، والعمر يمضى. والتجربة لابد وأن تُسجل أهم سطورها؟

سلام على تلك الأيام... وسلام على تلك البقعة الحبيبة..

وسلام على أيام الشباب النابضة بالقوة والإيمان والثقة والحب.. العامرة بالذكريات والآمال والآلام والمفاجآت..

❁❁❁

[٢] مأساة الأقلام



سبحان مغير الأحوال! بعد قيام الثورة بفترة وجيزة، واعتقال قادة العهد السابق، وطرد الملك فاروق والاستجابة المبدئية من الشعب بالتأييد الكبير للحكام الجدد، بعد ذلك تغيرت الصورة بسرعة عجيبة، «الأخبار» و«أخبار اليوم» أخذت تنشر القصص والصور والتحقيقات والأسرار المسيئة للملك والقصر والأسرة الحاكمة، ونحت نحوها بعض الصحف الأخرى مثل صحافة روز اليوسف ودار الهلال وغيرها، وتحفظت قليلًا جريدة الأهرام والمصرى، كما صدر طوفان من الكتب للصحفيين والأدباء القدامى تندد بما مضى، وساهمت الإذاعة والسينما بنصيب موفور فى هذا المجال. لكن طه حسين والعقاد والحكيم وغيرهم من كبار الكتاب لم يشاركوا فى هذا الاندفاع الجارف، بل تناولو بعض القضايا الإنسانية العامة، وكانت كتاباتهم تتسم فى البداية بالحذر، وبالتلميح دون التصريح..

أنا لا أقول إن الصحافة فى العهد الملكى كانت كلها تسبح باسم الملك، أبدًا.. فقد كان هناك عدد لا بأس به من الكتاب المتحررين والملتزمين، هاجموا القصر بأسلوب أو بآخر، وكانت النتيجة أن اعتقلوا وحوكموا وسجنوا، وتعرضت بعض الصحف والكتب للمصادرة والعقاب، وما أكثر الشعراء والمحللين السياسيين الذين انتقدوا السراى بعنف، وتعرضوا لشتى ألوان الاضطهاد، وفى المنتديات والمجتمعات الخاصة المحدودة! كانت تصرفات الملك والأحزاب، تتعرض لنقد لاذع دون مواربة، بل إن طلبة الجامعة «جامعة فؤاد – أو القاهرة حاليًا» هتفوا بسقوط الملك، وهو فى عنفوانه، وطالبوا بتطهير الجيش من الفساد، وتخليص الحكم من الاستغلال والرشوة والظلم، ولم تغفل السراى عن هؤلاء جميعًا، بل وضعتهم تحت طائلة العقاب بصور شتى، بل إنها دبرت اغتيال البعض منهم أمثال حسن البنا والضابط «طه»، كان ذلك إبان الحكم الملكى، ومعظم الصحفيين آنذاك لم يتكاسلوا عن تقديم فروض الطاعة والولاء فى شتى المناسبات، وهذه الفئة الأخيرة تحاول اليوم أن تتصدر كوكبة المنددين بالحكم الملكى.

ومما لا شك فيه أن مقالات أحمد حسين وسيد قطب وإحسان عبد القدوس وأبو الفتح وعدد من كتاب الوفد المخلصين، وخاصة فى فترات اضطهاد الوفد واستبعاده عن ساحة الحكم، وطه حسين «وخاصة فى كتابه «المعذبون فى الأرض»» بطريق رمزى أو غير مباشر، بل إن أحد شيوخ الأزهر، وأظنه الشيخ عبد المجيد سليم قد طرد من منصبه الحساس بسبب تصريح صحفى عرض فيه بالملك نفسه وهو فى «كابرى»، وكانت معاداة الإخوان والشيوعيين للملك لا يختلف عليها اثنان، ولا عبرة بما يقال حول استدعاء الأستاذ الهضيبى مرشد عام الإخوان المسلمين لمقابلة الملك قبل الثورة، وتصريحه الذى جاء فيه «زيارة كريمة لملك كريم»، فقد كانت هذه الكلمات الرسمية لمندوب الصحافة لا تعنى شيئًا

بالمرة، فهى أقل ما يقال علنًا، وعلى المستوى الرسمى فى تلك الفترة، بعد العداء والدماء التى صبغت العلاقة بين الملك والإخوان، أى بعد سجنهم وإرهابهم واضطهادهم وقتل مرشدهم العام، فالهضيبى لم يفعل مثلما فعل غيره، من أولئك الين قبّلوا يد الملك، أو نعتوه بالملك الصالح، والعادل، وأنه من أهل البيت.. وأنه وأنه...

وعلى الرغم من التأييد الشعبى الكاسح فى البداية، إلا أن الأمر أخذ يتناقص تدريجيًا، حينما اكتشفت الأحزاب أن الضربة قد وجهت إليهم ، وللأحزاب فى القرى والمدن اتباع ومصالح وبدأت بعض الصحف فى انتقاد الثورة، ومهاجمة بعض سياساتها وتصرفاتها، عندئذ جاء دور الرقابة على الصحف، وإصدار صحف تخص الثورة مثل مجلة التحرير وجريدة « الجمهورية »، وقد تجرأت « روز اليوسف » على الثورة بالنقد، فقبض على إحسان عبد القدوس، كما فعلت « المصرى » نفس الشىء، فحوكم أصحابها ثم توقفت عن الصدور.. وأخفقت الصحف الحزبية الأخرى الصغيرة، مثل جريدة « الأساس » وجريدة « صوت الأمة » وغيرهما..

وكانت الصحف وكتابات الإخوان المسلمين ترتكز فى سياستها على نقطتين:

الأولى: الإلحاح فى دعوة مجلس قيادة الثورة للأخذ بالمنهج الإسلامى.

الثانية: تأييد الثورة ومؤازرتها فى شتى المجالات، لكن بقدر غير قليل من التحفظ فى بعض الأمور المختلف عليها..

لكن ذلك التأييد لم يستمر طويلًا، فبعد أن كبحت الثورة جماح الأحزاب، وقلمت أظافرهم، وفرقت بالتهديد والوعيد أتباعهم، لم يبق أمامها إلا جماعة الإخوان، عندئذ بدأت الأقلام الحكومية والمعادية تشن الهجمات على الإخوان، وتحاول الوقيعة بين أعضاء الجماعة، وتلفق التهم والأخبار ضدهم، وعندما يتساءل القادة الإخوانيون عن سر ذلك، يتبرأ منه جمال عبد الناصر، ويزعم أن الصحافة حرة، وأن كل فرد له الحق فى أن يعبر عن رأيه تحت مسئوليته الخاصة، وهكذا ظلت العلاقة بينهما تسوء حتى صدر قرار الحل الأول للإخوان المسلمين فى بداية عام ١٩٥٤.. وهكذا تأكد الجميع أنه لم يعد هناك لقاء فى المستقبل بين الإخوان والثورة.. وبدأت سطور مأساة دامية لم يعرف لها التاريخ المصرى مثيلًا فى أشد مراحله قتامة وظلمًا..

نعود ونقول إن هناك أقلامًا اختفت.. وأقلامًا جديدة ظهرت.. وأقلامًا تأقلمت بسرعة وظلت لها شهرتها القديمة، بعد أن خلعت عن جسدها وفكرها الرداء القديم ولبست رداء الثورية..

وأصبح الذين كانوا يترنمون بأمجاد العهد الملكى ومنجزاته السياسية والاقتصادية، من ألد أعدائه وكارهيه، أما الأقلام الأصيلة التى عانت وتعرضت لكثير من الاضطهاد فإن غالبيتها قد تنوسيت، إما لخلاف فى الرأى مع القيادات الجديدة، أو لأن طوفان النفاق قد غمر الأسواق والساحات، أو لأن الثوار قد أتوا بأصدقاء وأقرباء أطلق عليهم أهل الثقة..

وجاءت حركات التطهير لتخفض وترفع، وقد يكتسح طوفانها أبرياء لا ذنب لهم ولا وزر، سوى الحزازات الشخصية، أو الانتماءات الفكرية المخالفة، أو الشائعات التى لا ترحم، وأخذ معظم كبار رجال الصناعة والتجارة والزراعة باتهامات كثيرة لا تفرق بين الجانى والبرىء وأصبحت اليد العليا للسلطة البوليسية والمخابرات، ولم يعد للقانون مكان أصيل فى خضم السلطات الاستثنائية الواسعة، وتبدل الأمن إلى خوف، والحرية إلى إلزام، وأصبح الولاء الأعمى هو العصمة لمن يريد أن يعيش ويربى أبناءه، وسيطر

الشك، ولوثت الحقائق لمجرد أنها قديمة، وزيف التاريخ لمجرد أنه زمن ما قبل الثورة، فثورة ١٩١٩ لم يكن لها مضمون اجتماعى كما يزعمون، فسعد زغلول ومصطفى النحاس وحسن البنا أعداء للعدالة والحرية والتقدمية، والفكر الدينى الصحيح رجعية وتأخر، والليبرالية استعمار وحماقة وإمبريالية، والنقد جريمة بل خيانة، وحقوق الأمن والأمان الفردى خرافة، وفسر هذا كله بأنه من أجل الشعب، وصالح الديمقراطية، وحماية للقاعدة العريضة من أبناء الأمة.

وتحول الفنانون إلى زمارين وطبالين يترنمون بالثورية وبطولة القائد وعظمته ووفائه وعدالته، وأصبحت الأقلام المسبحة بمجد الثورة وزعيمها هى الجديرة بالتقدير والاحترام، مما جعل الكثيرين يبحثون عن الإذاعات الأجنبية ليستمعوا فيها إلى حقيقة الأخبار، وتحولت المسرحيات والقصص والأشعار والأخبار إلى مظاهرات تأييد صاخبة، حتى أطلق عليها البعض من باب السخرية « الأدب الهاتف » إشارة إلى ضياع « الأدب الهادف »..

وكان من نتيجة السياسات الخارجية الخرقاء، إن تمزقت علاقاتنا الدولية والعربية والإسلامية، ووجدنا أنفسنا بين عشية وضحاها لا ملجأ لنا إلا الارتماء فى أحضان الروس ومن يلوذ بهم، وفتحت الأبواب على مصارعها للثقافة الماركسية بكل ألوانها، واعتلى الشيوعيون قمم الفكر والصحافة والفن والتنظيمات، ثم ظهر « الميثاق » بعباراته البراقة إنجيلًا جديدًا لأجيال سممت أفكارها وسيق الذين آمنوا أو أخلصوا إلى أعواد المشانق، أو زنازين السجون والمعتقلات، وضربت إسرائيل ضربتها القاسية فى عامى ١٩٥٦ و١٩٦٧، وانهار الكثير من قيمنا الروحية العريقة، ووقعنا فى قبضة الحيرة والديون، والإفلاس وغرقنا فى مستنقع « اليمن »، و« الكونغو » و« الانقلابات العسكرية » للدول الصديقة والشقيقة، وفقدنا جزءً كبيرًا من أرض الوطن « سيناء »، وتراجعت القضية الفلسطينية إلى الوراء، واحتل اليهود الضفة الغربية وغزة، وتفشت الأحقاد والعداوات والرشوة والفساد، وكان لزامًا على كل مخلص أن يهتف من أعماقه « تحيا الثورة »

- « يحيا الزعيم » و« الموت للخونة »، و« لا حرية لأعداء الشعب ».. « اقتل.. اقتل يا جمال.. لا محاكمة ولا اعتقال ».. وتسيطر الأوهام.. ويتحدثون عن الانتصارات والأمجاد.. والأجيال الجديدة تترنم بالأناشيد، وحب الزعيم، فى أكبر عملية « لغسل المخ » فى تاريخ شعبنا المسلم..

لا يستطيع منصف اليوم - حتى أقلام الثورة نفسها - أن يزعم بأنها كانت فترة حرية وديمقراطية، وأستطيع أن أحيل القارئ إلى مذكرات قائد الثورة الأول محمد نجيب، ومذكرات كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادى وحسن التهامى وغيرهم من رجالات الثورة أنفسهم، بل مذكرات أنور السادات نفسه، وهو خليفة عبد الناصر، وكذلك كتابات الصحفيين الذين تألقوا إبان عهد عبد الناصر « باستثناء محمد حسنين هيكل »، قد كتبوا بعد وفاته ما يؤكد وجهة نظرنا، بل إن المحاكم فى عهد السادات قد قدمت حيثيات مثيرة، وأحكامًا قاطعة، بالجناية الكبرى التى جنتها الثورة على حرية الرأى، وتطور الفكر، وازدهار الفنون والآداب..

لقد عاشت الأقلام الحرة فى مأساة مؤلمة، حتى الذين نافقوا وكتبوا ما لا يؤمنون به، كانوا وجهًا آخر للمأساة، ولا شك أن قوانين الصحافة الجائرة وما تعرض له القضاء ونقابة الصحفيين والمحامون والمعلمون وغيرهم من عقاب وإرهاب و« تطهير »، كان دلالة واضحة على الجور والفساد، وضرب الدكتور السنهورى فى « مجلس الدولة » - حصن العدالة، أصبحت مثلًا يروى، ولم يعد للشعب سلاح بتَّار يشهره فى وجه ذلك الفساد الضارى سوى « النكتة ».

واعتقد أن « النكتة » المصرية هى السجل الحقيقى لرأى الشعب فى تلك الفترة الخطيرة، ولو قدر لمؤرخ أن يجمع هذه النكات ويحللها لوجد أنها هى التعبير الصادق، والمترجم الأمين، والمعيار الصحيح لرأى الغالبية العظمى من الناس، هذا إذا قارناها بالاستفتاءات الزائفة التى كانت تبلغ ٩٩,٩٩٩٩٪، أو بالأغانى « الرائعة » التى يترنم بها كبار المغنين، أو بالكتب الأنيقة التى برع بعض الكتاب فى تأليفها وزخرفتها بالصور والألوان، أو بالتسجيلات التليفزيونية والإذاعية والسينمائية التى تبرز تأييد الجماهير وهديرها الصاخب إبان الاحتفالات الدورية والمؤتمرات الصاخبة..

لقد ضاع الكثير من الحقائق العظيمة فى خضم هذا الطوفان الهائل من الزيف ، تلك كانت صورة « العهد الزاهر » الذى خلصنا من طغيان فاروق ومظالمه!!

دعوت على عمرو فمات فسرني بليت بأقوام، بكيت على عمرو

لكن ما الذى أذكره وأنا فى طفولتى، وفى ريعان الشباب قبل أن تقوم الثورة؟ فى القرية كنا نوقر الملك، ونعتبره رمز السلطة والعظمة والقوة، ولا ننظر إليه من خلال الأحزاب وصراعاتها، وكنا نسمع عنه حكايات كثيرة كالأساطير، تظهر ذكاءه وعدله وحبه لشعبه، كما كنا نردد الأناشيد التى يلقنونها فى الكتاتيب والمدرسة الابتدائية، وبعد أن كبرنا وقرأنا وسمعنا، أخذت عقولنا تستوعب حقائق جديدة عن فساد القصر ومظالمه وألاعيبه، كما أخذنا نعرف لأول مرة شيئًا عن « الملوك الصغار » أعنى الإقطاعيين والباشاوات وأصحاب النفوذ، والعائلات ذات البطش والسلطان. وعن قيام الحكومة بحماية كثير من الظلمة والمجرمين، وبعد انضمامى لجماعة الإخوان المسلمين، لم يكن من الصعب أن أدرك أن الجماعة تتناول بالنقد اللاذع تصرفات الملك والأحزاب، وعرفت الكثير من مباذله ومفاسده، وأصبح من الأمور المسلم بها بين صفوفنا أن الملك والأحزاب والإقطاع والإنجليز رباعية مقيتة لا يصح السكوت عنها..

وأذكر أننا كنا نذهب إلى مساجد القرية، ونخطب فى الناس مبرزين تلك المظالم والمفاسد، وندعوهم إلى الخلاص من ذلك الظلم، ونؤكد أنه لا وسيلة لنا إلا بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وكنا نحمل حملات شعواء على أصحاب الإقطاعيات الزراعية ومغالاتهم فى إيجارات الأراضى، واستغلالهم للفلاحين، وقد وصل الأمر بأحد الإقطاعيين إلى قتل أحد الإخوان فى شعبة من الشعب الإخوانية الكثيرة المنتشرة فى أنحاء البلاد، بسبب تصدى ذلك الضحية لمظالم وتعديات صاحب الأرض، وهى قضية معروفة عرضت آنذاك أمام القضاء.. ولا شك أن مقالات أحمد حسين وسيد قطب فى عصر ما قبل الثورة كانت من أبرز ما كتب فى هذا المجال، وهناك عدد آخر من الكتاب قد أدوا واجبهم فى مجابهة الاستعمار والإقطاع والفساد، وقد أصدر الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى مجلة يسارية اسمها « الغد » صدر منها أعداد قليلة قامت هى الأخرى بنفس المهمة، كما استطاع بعض كتاب الرواية والقصة القصيرة أن يضمنوا كتاباتهم الكثير من هذه الأمور، ولعل كتاب طه حسين « المعذبون فى الأرض »، ورواية « الأرض » للشرقاوى، وبعض كتابات نجيب محفوظ ويوسف السباعى والخميسى والوردانى وغيرهم حملت قدرًا متنوعًا من هذه القضايا..

وكان الأمر أكثر وضوحًا فى السينما، حيث استطاعت الشاشة أن تعرض الكثير من مباذل الطبقة « الراقية »، وأحزان الطبقات المطحونة ، والفلاحين خاصة، لكنها كعمل تجارى تملكه نخبة قادرة ذات مصالح، لم تتمكن من الأداء المكتمل لإبراز جوانب الفساد المتراكم المنتشر هنا وهناك..

لكن الأمر الذى لابد من تسجيله بكل احترام وتقدير وهو أن نخبة من أعلام الفكر الدينى منذ جمال الدين الأفغانى وحتى قيام الثورة، قد أدركت عظم المسئولية الإسلامية الملقاة على عاتقها، فكانت أصواتا حرة أمينة سواء فى ثورة عرابى أو ثورة ١٩١٩ أو إلغاء الدستور فى عهد صدقى، وإبان حرب فلسطين، وفى فترات الكبت والإرهاب، استطاع هؤلاء العلماء الأفاضل أن يعلوا صوت الحق، من فوق المنابر، وفى قاعات الدرس، وفى الأندية والمحافل المختلفة، وصاروا قادة فى مجال حرية الرأى والدعوة إلى الإصلاح الشامل، ولم يتقاعس عن ركبهم إلا فئة قليلة، كان لها طبيعتها الرسمية أو النفسية، فانخرطت فى مخططات السراى والأحزاب، ضمانا للسلامة وأملًا فى الكسب، وتطلعا إلى المناصب الكبيرة، ومع ذلك فإن الأزهر الشريف قد لعب دورًا بارزًا وحاسمًا فى عهد ما قبل الثورة، وهو دور تاريخى إيجابى لا يمكن أن يغفله أى مؤرخ حصيف، وهل ينكر أحد أن القيم الدينية التى رسخها علماء الدين، والمفكرون الإسلاميون، هى التى حمت بلادنا من الغرق فى محيط الشيوعية الواسع، والضياع فى متاهات الفكر الغربى الملحد، والسقوط فى براثن العلمانية مثل تركيا؟

إن مصر اليوم والأمس هى مركز الإشعاع الإسلامى فى العالم دون ريب، وإن مصنفات علمائها ومفكريها الإسلاميين هى الزاد الذى يتغذى عليه أبناء الأمة الإسلامية فى كل أنحاء الأرض، وإن حركتها الإسلامية الكبرى فى الثلث الأوسط من القرن العشرين، والتى أشعل شرارتها الإمام الشهيد حسن البنا، لم تزل نبراسًا لكل العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية، تلك الحركة بأحداثها وتراثها ورجالاتها ومعاركها الدائمة تجربة تاريخية هامة، ما زالت تشد الانتباه، وتغرى بالمتابعة، وقد حظيت باهتمام المؤرخين والدارسين فى كل مكان، حتى فى روسيا وأمريكا وأوربا الغربية والشرقية ، لكن هل تعى مصر مسئوليتها العظيمة تلك؟

أقول مرة أخرى إن قبضة الثورة الحديدية، قد غلّت الفكر، وأورثته الكثير من العلل والأرزاء، وأفرزت الكثير أيضًا من الأقلام الهزيلة الهازلة المريضة، وعوقت الانطلاقة الفكرية الرائدة التى ساهم فيها رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وحسن البنا وغيرهم، وفتحت الباب أمام تيارات فكرية شيوعية وغربية، كان هدفها الأول والأخير، زلزلة عقيدة الأمة، والنيل من تراثها وأصالتها، فقد كان من الواضح أن القوى المضادة أو المعادية للإسلام لا تستطيع أن تبلغ مآربها إلا عن ذلك الطريق، ولهذا صنعت نجومًا جديدة فى الفن والفكر، وأبرزت شخصيات فى عالم السياسة والاقتصاد والتعليم والتخطيط، تنفر بشدة من كل ما هو إسلامى، وأوجدوا تناقضا مفتعلًا بين العروبة والإسلام، وأشعلوا - باسم القومية - معركة وهمية، لكى يجدوا الفرصة لضرب الرباط الوثيق الذى يربط شعوبنا العربية والإسلامية، ثم تأخذنا الدهشة بعد ذلك حينما نرى شاه إيران يعترف بإسرائيل، وتقيم تركيا المسلمة علاقات معها، وتنشب المعارك بين العربى والعربى، والمسلم والمسلم، وينقسم أبناء الأمة إلى رجعيين وتقدميين، وأعداء وأصدقاء، ويصبح من أهم عناصر خطب « الرئيس » سب إخوانه من الرؤساء المسلمين والعرب.. ثم تتبارى الصحف فى متابعة السباب والشتائم والافتراءات، وتتفنن المخابرات فى صنع المؤامرات، وتبرع الأجهزة الخفية الأخرى فى ترتيب الانقلابات، ويغرق عالمنا الإسلامى التعس فى أحزان وخلافات ومخاوف لا حصر لها، بدلا من أن ننصرف إلى البناء والتصنيع والتعمير، نحاول أن نبحث عن وسائل لتحمينا من غدر الصديق، ومكائد القريب..

إن صورة الواقع الإسلامى العربى المحزن تعبر بصدق عن تلك الجريمة البشعة التى جعلت من العروبة والإسلام نِدّين متناقضين، والتى جعلت من القومية أوعية تصب فيها الشعارات المذهبية

المستوردة من الشرق أو الغرب، بحجة أن القومية والعروبة ذات مضمون ، وأن هذا المضمون هو الحرية والوحدة، والاشتراكية.. من قال أن عروبتنا كانت خاوية البناء، فارغة الوعاء؟ الضالون المضلون هم الذين سكبوا فى الوعاء من ماء الحياة، حينما حاربوا الإسلام وحاربوا الله ورسوله.. وشوهوا تاريخ أمجادهم.. هم الذين نسوا انتماءهم فأخذوا يجدون فى البحث عن انتماءات ومضامين من خارج تراثهم وعقيدتهم وأرضهم وتاريخهم وأنفسهم..

أى ضلال وأى عمى؟

إن التقدمية والتنمية والتصنيع والتخطيط الناجح ليس من شروطها أن تتخلى عن انتمائك الإسلامى.. فالعالم كله انتماءات متباينة.. فالصين غير روسيا غير أمريكا غير اليابان غير ألمانيا الغربية أو الشرقية فى مجال الانتماء.. والأخذ بالعلم الحديث والتكنولوجيا أمر مفروض ولا خيار لنا فيه.. ومفهومنا للدين لا يقف عقبة فى طريق نهضتنا ، بل إنه يساعد على بناء النفوس الطاهرة القادرة على صنع التقدم والحضارة..

لكن القضية الأساسية كانت.. وما زالت.. هى الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ وذلك فى نظر المتسلطين لا يتم إلا بالقضاء على كل صوت حر ينادى بالعدالة والحرية والصدق والأمانة..

تلك هى القضية..

القضية التى صنعت « مأساة الأقلام ».

القضية التى أعادت « عصر العبيد ».

أليست مأساة حقيقية؟

❁❁❁

[٣] أشواق قلب



حينما جئت للقاهرة بعد الحصول على الثانوية العامة، لم يكن يشغل ذهنى سوى أمرين هامين أولهما: المرحلة الدراسية الشاقة القادمة فى كلية الطب، وثانيهما: البحث عن المحافل والأندية الأدبية للتزود منها، إذ كنت شغوفًا بذلك أيما شغف، وفى اليوم الأول من وصولى « قلعة الكبش » - حيث نزلت مع عمى عبد الفتاح وزوجه - تساءلت عن مكان كلية طب القصر العينى، كانت الفرحة تشرق فى عينى عمى وزوجه، وقالت « أم عبده » وهى فى غاية السعادة: « سوف تكون طبيبا.. يالفرحتى.. إذا خرجت من هنا فانزل من شارع « الدحديرة » وبعده تمشى فى شارع قدرى باشا قاصدًا ميدان « السيدة زينب »، وإلى جوار « المقام » تجد شارعًا آخر ينتهى بك إلى ضريح « سيدى أبو الريش »، وبعدها تتجه يمينا وتظل فى مشيك لا يمين ولا يسار حتى تجد القصر العينى أمامك ..».

كان البناء أصفر عتيقًا، أحسست بالرهبة وأنا أقف أمامه، وانتابنى قدر لا بأس به من الخوف والقلق، وأخذت أعتب على نفسى لماذا أتيت بنفسى لكلية الطب؟ أما كان الأحرى بى أن أتجه إلى الدراسات الأدبية التى أتعشقها فى كلية الآداب؟ لكن فات الأوان، وأصبح التراجع عن كلية الطب أمرًا صعبًا، بل ومحرجًا فى نفس الوقت، إذ ماذا يقول أبي؟ وماذا سيكون رد الفعل لدى الأقرباء والمعارف فى القرية؟ وأدركت فى تلك اللحظات أننى مسير تمامًا لا مخير، وأن الملابسات والظروف تدفعنى دفعًا لأن أمضى قدمًا..

كنا فى شهر سبتمبر ١٩٥١، والتقيت بعدد من الزملاء الجدد، وكان يشغلنى موضوع السكن، وأخذت أبحث عن سكن مشترك، لكن أحدهم أشار عليّ بتقديم طلب التحاق بالمدينة الجامعية، لم أكن أعرف عنها شيئًا، وأخذت أبحث عمن يزودنى بتوصية، لأنها لا تقبل إلا عددًا قليلًا من الطلبة كل عام، وبشروط خاصة، كما إن المدينة لم يسبق لها أن قبلت أحدًا من طلبة « الطب » لبعد الكلية عن مقر الجامعة، لكنهم فكروا فى هذا العام أن يفتحوا الباب أمام قبول طلبة الطب، بحكم دراستهم العلمية التى تحتاج إلى مزيد من التفرغ والجد، وكم كانت دهشتى عندما وجدت نفسى بعد أيام من المقبولين، وكان أغلبنا من الطلبة الفقراء الذين يتلهفون على الدراسة والانتهاء منها فى أقصر مدة ممكنة، لكن دراسة الطب تستغرق ستة أعوام ونصف، يتبعها التدريب أو « سنة الامتياز » كما يسمونها، ومعنى ذلك أن أمامى سبعة أعوام ونصف حتى أقف على بداية الطريق..

وفى الأيام الأولى كنت كالتائه.. فقاعة المحاضرات بكلية العلوم تكتظ بالمئات من الطلبة ، لأن السنة الإعدادية نأخذها فى مقر الجامعة بكلية العلوم، وبعدها ننتقل إلى كلية طب القصر العينى نفسها، وكنا نأتى إلى المحاضرات فى الصباح الباكر، وبعدها نذهب إلى « المعامل » أو المختبرات للدروس العملية،

وكانت المحاضرات باللغة الإنجليزية، وفى البداية وجدت بعض الصعوبة فى متابعة الأساتذة، كانت اللغة الإنجليزية مليئة بالمصطلحات والتعبيرات والرموز العلمية المربكة سواء فى الكيمياء أو الفيزياء أو الحيوان أو النبات، وكان كتاب الحيوان ضخمًا يبعث على الشك فى استيعابه، وكانت كتب الفيزياء والكيمياء متعددة، وتحتاج إلى شرح.. إن الانتقال فجأة من الدراسة باللغة العربية إلى الإنجليزية يورث الطالب الكثير من الارتباك وصعوبة الفهم، وكان علينا أن نتعلم تشريح « الضفدعة » و« الأرنب » والصرصور.. وهى كلها تبعث على التقزز والضيق، لكن لا مفر، ولابد أن أمسك الضفدعة بعد تخديرها، وأثبتها بالدبابيس، وهى ملقاة على ظهرها فى حوض شمعى خاص، ثم أحضر أدوات التشريح وأبدأ فى تشريحها بدقة لمعرفة أجهزة جسمها، ولحفظ أسماء العضلات والعظام والأعصاب والأوردة الدموية وغيرها، وكان تشريح الصرصور أشدها قذارة وتقززا.. لكن ليس لنا فى الأمر حيلة..

كنا نعود فى المساء ونجلس معا لنستذكر ما تلقيناه فى الصباح، يساعد بعضنا بعضا، وفى هذا الخضم من الانشغال والمذاكرة، والمواظبة يوميا على الحضور، نسيت الكثير من الأحلام والأوهام، لقد وجدت أن الضيق والتبرم ليسا هما الحل، وليس أمامى من وسيلة سوى التكيف مع الوضع الجديد والبحث الدائب عن طريقة عملية للتغلب على المشاكل والعقبات، إن الصمود هو الحل، وهو الذى يقود إلى إنجاز الواجبات، والوفاء بالمسئوليات، عندئذ ينزاح كابوس الضيق والتبرم..

وفى هذا الأثناء اندلعت المظاهرات فى الجامعة تطالب بإلغاء اتفاقية عام ١٩٣٦ بيننا وبين الإنجليز، وجلائهم عن وادى النيل، كانت المظاهرات عنيفة صاخبة، وقد اتفقت جميع الأحزاب على المطالبة بإلغاء الاتفاقية، وأمام هذا الضغط الشعبى الهائل الذى اشتركت فيه الجامعات والمدارس والهيئات، خرجت مظاهرة حاشدة كبرى من ميدان «الإسماعيلية» - التحرير حاليا - اشترك فيها زعماء الأحزاب وقادة الفكر والرأى، بل وبعض الأمراء، رأيت فيها النحاس باشا وزعيم الحزب الوطنى وحسن الهضيبى مرشد الإخوان المسلمين، والفنانة أم كلثوم.. وكثيرون آخرون، كما شاركت الصحف على اختلاف مشاربها فى الدعوة إلى إلغاء تلك الاتفاقية، وأخيرًا استجابت حكومة الوفد وأعلن النحاس باشا فى « البرلمان » قولته المشهورة: « من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغاء معاهدة ١٩٣٦» وكان يوجه حديثه المذاع على الهواء إلى نواب الشعب فى البرلمان وسرد النحاس باشا فى خطابه الشهير المبررات والحيثيات القانونية، ونصوصًا من القانون الدولى، وضرب أمثلة مشابهة فى السياسة الدولية، حتى يدلل على صحة الخطوة التى أقدم عليها بإلغاء الاتفاقية..

والواقع أن هذه الفترة من تاريخ مصر، حظيت باتحاد شعبى كامل، لا مثيل له إلا فى ثورة ١٩١٩، ولو استمرت الأمور على هذا النحو، لتغير تاريخ مصر إلى الأحسن، وبأسلوب ديموقراطى هادئ، لا عنف فيه ولا دماء، لكن إرادة الله فوق كل إرادة، لقد تلكأ الإنجليز فى موضوع الجلاء عن قاعدة قناة السويس، وأثاروا الإحن والخلافات، ودسوا بين الأحزاب، وأوغروا صدر الملك، وكان أن هبت وحدات الفدائيين من الإخوان المسلمين، تحمل السلاح، وتتصدى للإنجليز فى قاعدتهم، مما أشعل الموقف، وألهب الشعور، ودفع بعض ضباط الجيش للاشتراك فى المقاومة، وتهريب السلاح للفدائيين، والقيام ببعض العمليات الخاصة.

فى أواخر ١٩٥١ وبدايات ١٩٥٢، احتدمت المظاهرات والاحتجاجات، مما دعا المسئولين لإغلاق جامعة فؤاد الأول « القاهرة » لأجل غير مسمى، ووجدت أن فترة الإغلاق قد تطول، فحملت كتبى، وغادرت المدينة قاصدًا قريتى شرشابه، تحت إلحاح من أبى، ووجدت فى القرية فرصة كى أركز فى مذاكرتى، وأحاول استيعاب الدروس بصورة كاملة، وأحسست بغير قليل من الرضا، حينما وجدت نفسى فى وضع مطمئن بعض الشىء..

فى هذا الأثناء وُلد لفاروق ولى العهد الأمير أحمد فؤاد، وبعد أربعين يومًا من ولادته. حدث حريق القاهرة الشهير يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢، وقبل الحريق بيومين حدثت معركة التل الكبير بين فدائيى الجامعة والإنجليز، تلك المعركة التى استشهد فيها الراحلان عمر شاهين - طالب الآداب - وأحمد المنسى - طالب الطب .. كما أسر عدد من طلبة الجامعة والمجاهدين، ثم جاءت وزارة الهلالى باشا حيث تم الإفراج عن الأسرى واستقبلوا بحفاوة بالغة فى قاعة الاحتفالات بالجامعة، ويومها قال زعيم الطلبة الأستاذ حسن دوح فى خطابه الملتهب: « .... نحن نقول للحكومة، لقد أفرج الإنجليز عن الأسرى.. فلتستحى ولتفرجى عن المسجونين السياسيين ...».

وكان هناك عدد من هؤلاء المسجونين السياسيين فى قضايا تتعلق بالإنجليز واغتيال النقراشى باشا وعثمان أمين باشا والخازندار وقضية سيارة الجيب والأوكار والاعتداء على حامد جودة رئيس مجلس النواب السابق، وكان أغلب هؤلاء المسجونين من الأخوان المسلمين، لكن الحكومات - رغم الإلحاح الشديد - لم تستجب لذلك، ولم يفرج عن هؤلاء إلا بعد قيام الثورة بشهور..

فتحت الجامعة أبوابها، وعدنا إلى الدراسة من جديد، وكانت نهاية العام الدراسى قد اقتربت، إذ كنا فى أواخر شهر فبراير، والأحداث سريعة متلاحقة، وكان الأساتذة يحاولون الانتهاء من المقررات بأسرع ما يمكن، وكنا نلهث وراءهم حتى يمكننا هضم ما يلقونه من دروس، وبدا الأمر بالنسبة لامتحانات آخر العام غامضًا وسط هذه الظروف، لكن الله أدركنا بحل لم يكن يخطر لنا على بال، لقد عرض بعض الأساتذة الجامعيين فى كلية العلوم بأن يقوموا بإعطائنا دروسًا بالمجان لمجموعة الإخوان فى المدينة الجامعية والذين يدرسون علوم السنة الإعدادية بكلية الطب، وكان ذلك الحل هو الذى أنقذنا فعلًا... كنا مجموعة من ١٨ طالبًا، وفينا اثنان أو ثلاثة من الإخوة المسيحيين، وهكذا أمكننا دراسة المنهج فى جلسات متكررة مطولة، وكتبنا ملخصات له، وبهذا نجحنا آخر العام.. وكان هذا أمرًا مبهجًا لى جدًا..

فى هذه الأيام التى استحوذ فيها العلم والسياسة على ألبابنا، هل كان فى مقدورى أن أفكر فى شىء آخر؟

أليس من الطبيعى أن يفكر شاب فى العشرين من عمره فى عواطفه نحو الجنس الآخر؟ الجامعة مختلطة.. والزميلات بين صفوفنا.. وقصص الحب تروى عن هذه وذاك.. والشارع يكتظ بالغاديات الرائحات، ووسائل النقل والمواصلات يتزاحم فيها النساء والرجال، والسينما أساسًا تعتمد على قصص الحب والغرام، وأفلام الجنس والإثارة الوافدة من الغرب تحظى بالإقبال الشديد، والأدباء الجدد يكتبون الروايات الغرامية سواء أكانت رومانسية أو واقعية أو وجودية، والدعوات الملحدة من شيوعية وغيرها،

تفلسف التحلل، وتشحن الغرائز، والصور شبه العارية تتصدر المجلات والصحف وإعلانات السينما، والفضائح الاجتماعية فى مختلف الأوساط تزكم الأنوف، وقصة أخت الملك التى تزوجت شابا على غير الإسلام، يتناقلها الناس فى كل مكان.. كان هذا هو المجتمع..

أكان فى الإمكان ألا يفكر شاب فى المرأة؟

لكنه الحب كان مرتبطا فى ذهنى بأشياء كثيرة تتنافى مع ما أؤمن به من قيم دينية.. كنت أتهيب ألف مرة قبل أن أخاطب فتاة، وأشعر أنى مقدم على عمل شاق مخيف، إن جسدى يرتجف، ولسانى يتلعثم، وإذا بدرت منى كلمة، أو صدرت عنى حركة، أعود فألوم نفسى، واشتد فى الملام، ويخالجنى إحساس بالإثم، قلت ذات يوم لأحد الإخوة: « هل الحب حرام؟ ».

ابتسم فى ذكاء وقال: « لقد سأل أحدهم أستاذنا الإمام الشهيد رحمه الله نفس السؤال ..».

قلت فى لهفة: « وماذا كانت الإجابة ...»

هز كتفيه، ثم طوقنى بذراعه وجذبنى إليه قائلًا: « قال: الحب الحلال حلال.. والحب الحرام حرام ..»

لم يكن من الصعب أن أدرك معنى الكلام، فالحب الحلال كما أعلم لا يمكن أن يجتمع فيه رجل وامرأة وحدهما؛ لأن الشيطان سيكون ثالثهما، والحب لا يعنى الخطيئة واختلاس اللذة، والحب الحلال طريقه ونتيجته الزواج لكن أين نحن من الزواج الآن؟ إننا نجد بالكاد ما ننفقه على تعليمنا وطعامنا وكسائنا...

ولم يكن لنا خيار.. وهكذا عشنا نحلم بالمرأة..

ذات يوم رأيتها..

كانت لم تزل صغيرة بريئة.. لكنها ذات ذكاء حاد أراه فى بريق عينيها.. وشعلة من الحركة والنشاط.. أدركت أنها تبش لمجيئى، وتبالغ فى إكرامها لى، وتستمع إلىّ بشغف وأنا أتحدث مع أبيها العالم الجليل عن السياسة والجامعة والفكر، وكان رحمه الله حجة فى فقه الإمام الشافعى، وكثيرًا ما وضح لى الكثير من الأحكام والقضايا، لقد عاش طول حياته بعيدًا عن السياسة، كان سيء الرأى فى تصرفات الثوار، كما كان ينتقد بعض تصرفات العهد الملكى، لكنه كان دائمًا ينذرنا بأن الأمور لا تسير فى مسارها الصحيح، وأننا – حتما – مقبلون على كارثة إن لم تكن كوارث، وكانت كلمته الشهيرة « بكره يخربها، ويقعد على تلها ...»، ويوم حدثت الهزيمة النكراء عام ١٩٦٧.. تذكرت كلماته، كثيرًا ما كنت أعارض، وأحكى له عن بعض المنجزات التى تمت، وأؤكد له أن الأمور تتحسن، فكان يبتسم فى مرارة ويقول: « غدًا تقولون الله يرحمك يا محمود.. كان كلامك صحيحًا ..».

الواقع أننى كنت أرتاح لمجلسه، وأسعد بحديثه، وكنت أعرض عليه بعض كتاباتى الإسلامية، وأسمع توجيهاته ورأيه فيها باهتمام، وكان يزودنى ببعض النصوص أو الكتب التى تتعرض لذات الموضوع، وكان لثقته بى يجعلنى أنوب عنه فى إلقاء خطب الجمعة فى المسجد الذى يخطب فيه إذا ما سافر فى إجازة، وأصبحت جلساتى معه من أحب الأوقات إلى نفسى، وكان يعاملنى كواحد من أبنائه، ويسر إلىّ ببعض خصوصياته دون حرج، وكنت أعرض عليه بعض ما يصادفنى من مشاكل،

الواقع أننى كنت أنظر إليه كوالد فى المدينة الكبيرة الصاخبة، أجد لديه الأمن والاطمئنان والصدر الحنون، وقد عهدته طيب القلب، متحرر الفكر، واثق الفكرة، وكثيرًا ما أثبتت الأيام صحة رؤيته.

ويوم أن قررت الاختفاء من مطاردة الشرطة فى عام ١٩٥٤ بعد أن ألقيت كلمة الطلبة فى المؤتمر الكبير الذى عقد فى كلية الطب. إبان أزمة محمد نجيب وجمال عبد الناصر، والحل الأول للإخوان المسلمين فى أوائل ذلك العام، أقول عندما قررت الاختفاء لم أجد مكانا إلا فى بيته، وعلى الرغم من أنه ينأى بنفسه دائمًا عن المشاكل السياسية وصراعاتها - كإمام وخطيب فى تلك الظروف الحرجة - إلا أنه أفسح لى مكانًا إلى جواره، وخصص لى غرفة، وشدد فى التنبيه على أفراد أسرته ألا يذيعوا سر وجودى بينهم حتى تمر الأزمة..

وبقيت معه، حتى عاد محمد نجيب إلى رئاسته للدولة، وتم الإفراج عن الإخوان المسلمين، وهدأت الأمور مؤقتا، ثم عدت إلى ممارسة دراساتى بالجامعة وأنا فى غاية التقدير والامتنان له..

ومن حسن الحظ أنه كان صديقًا حميما لعمى عبد الفتاح، وكانا يقضيان أوقاتا كثيرة معا، ومسكنهما متقاربان.. وكانت أوقات فراغى أقضيها هنا وهناك.. وكثيرًا ما كنت أجرهما للحديث فى السياسة، وخاصة أن عمى من موظفى وزارة الحربية والبحرية، وكانت آراؤهما بعامل السن تتسم بالهدوء والروية والحكمة، ولم يكونا ميالين للحماسة والشطط أو الاندفاع..

وكنت أراها دائمًا..

إن كل شيء فيها يوحى بالثقة والمحبة والبراءة..

كانت تكبر جسديا وعقليا.. وتنتقل من مرحلة دراسية إلى أخرى.. وعندما نالت الإعدادية قال أبوها الشيخ: «أريدها أن تكون ربة بيت فاضلة.. لا أريدها مهندسة أو طبيبة.. ولهذا أعتقد أنه من المناسب أن تلتحق بالثانوية الفنية.. هناك ستتعلم الاقتصاد المنزلى والطهى والتطريز والحياكة والديكور.. أليس هذا أفضل؟ ».

وجاءت اللحظات الحاسمة..

لقد طرق الخطّاب الباب..

قال الشيخ رحمه الله: «إنها ما زالت صغيرة ...».

وقالت هى: « لن أتزوج قبل أن أتم تعليمى ».

وابتسم أبوها قائلًا: « يقولون البنت سر أمها.. وأنا أقول إنك سر أبيك.. بارك الله فيك يا ابنتى.. يجب أن تنالى الشهادة أولًا.. من يدري؟ قد تحتاجين إليها فى يوم من الأيام ..».

وقاومت الفتاة الكثير من الإغراءات المادية والمعنوية، لم تكترث لما يقدمه الخاطب من صداق أو مؤهلات عالية، قلتُ لها ذات يوم وأنا أرتجف وأتلعثم: « أريدك لى ...».

وخفق قلبى، ولكنها قالت: « وأبي؟ هل يعرف؟ »

- « لم نتكلم فى ذلك.. لكن قلبى يحدثنى بأنه ...».

ثم صمت.. وانشغلت بالنظر على قرطها الجديد فى سعادة..

كنا نسير فى الطريق العام فى يوم عيد ميلادها فى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر، وكنت على

موعد لأشترى لها هدية.. وقدمت لها القرط الذهبى الصغير.. وكانت دموع الفرح فى عينيها ونحن نقف فى ميدان سيدى « زين العابدين ».

لم يكن الأمر على هذه الصورة من السهولة واليسر، لقد كان للأسرة رأى قديم فى أن أتزوج إحدى قريباتى، والتخلى عن ذلك أمر محفوف بمخاطر شديدة، فالأمور فى القرية وبين الأقرباء تمضى على نحو خاص، وعدم إتمام زيجة متفق عليها - حتى ولو كان هذا الاتفاق فى سن الطفولة - قد تدمر العلاقات الأسرية، وتورث الأحقاد والضغائن، وهو أمر لم يغب عن ذهنى قط، لقد ظل يشغلنى سنوات طويلة، وخاصة أنه كان شائعًا بين المعارف والأقارب..

أين المخرج من هذا كله.. قيود سياسية.. مسئوليات علمية.. أوضاع اجتماعية.. ضوابط أخلاقية ودينية.. آمال عراض.. إمكانات متواضعة..

عندما عدت إلى المدينة الجامعية فى المساء قلت لزميلى وأخى سمير خلاف: « ألم تفكر فى الزواج؟ »

قهقه بصوت عال، ونحن وحدنا فى الغرفة، وقال: « هل السنارة غمزت؟ »

- « أنا لا أمزح ..»

- « وأين نحن من الزواج؟ هل تترك لنا كلية الطب فرصة للتفكير فى ذلك؟ » اقتربت منه وقلت له: « أنظر إلىّ.. ودع الشاى الذى تعده ..»

رفع إلىّ عينين مستغربتين وقال: « ماذا بك؟ »

- « تكلم بصراحة.. أليست لك قريبة تنوى الزواج منها فى قريتكم « حنّون » » احمر وجهه خجلًا وقال: « كيف عرفت؟ أنت تعرف تصورات الأهل وتصرفاتهم فى مثل هذه الأمور المحرجة.. أمى تريد أن تزوجنى من ابنة أخيها.. تصور ..».

ثم ذهب إلى مكتبه وأخرج صورة فوتوغرافية وقدمها لى، نظرت إليها، فوجدت طفلة تجلس على مقعد خشبى، وسمير يقف إلى جوارها فارع الطول، ووجدتنى أضحك على الرغم منى للمفارقة العجيبة، وقلت: « أهذه هى العروس؟ »

قال فى ألم: « نعم.. وأنا أكبرها بثمانية عشر عامًا.. تصور ..»

وبعد فترة صمت قال سمير: « أمى تقول من الأفضل أن تربيها على يديك ..»

ودخل علينا زميل آخر هو « عبد الرحمن حسن »، وكان عبد الرحمن مرحًا ساخرًا، لا يفكر عادة إلا فيما يزيد دخله، كان أشد فقرًا منا، وكثيرًا ما كان يعوزه المال، فيذهب إلى قريته فى محافظة الشرقية، ويفتح عيادة مؤقتة - على الرغم من أنه لم يتخرج بعد - ثم يظل يعمل لمدة أسبوعين، ويعود ومعه ثلاثون أو أربعون جنيها، تكفيه لبضعة شهور.

سألنا عما نتحدث فيه، وعندما أخبرناه قال: « أنتم مجانين.. فكروا فى لقمة العيش أولًا.. وعندما يحين وقت الزواج بعد التخرج إن شاء الله، فلتبحثوا لكم عن صيد ثمين، وإلا أدمنتم الفقر حتى تموتوا.. الفقر من أخطر الأمراض « المزمنة ».. قالها باللغة الإنجليزية ..».

قلت لعبد الرحمن: « هل هذه هى أفكار « الوطنى الصغير »؟ ».

وللوطن الصغير هذه قصة، فقد كان لعبد الرحمن رغبة جامحة فى العمل بالصحافة، وكان وهو بالمرحلة الثانوية يكتب مجلة بيديه، ويتلوها أو يمررها على أصدقائه، وكان مكتوبًا عليها « يحررها الوطنى الصغير عبد الرحمن حسن »، وظل عبد الرحمن على حبه للصحافة، فكان يكتب بعض التعليقات والمقالات القصيرة فى روز اليوسف، وألف كتابا عن « تحديد النسل » وهو طالب.. قال عبد الرحمن فى جد: « نحن فى عصر لا يعترف بالمواهب والكفاءات وحدهما.. لابد أن يكون هناك من يمهد لك الطريق، ويأخذ بيدك.. من له ظهر لا يُضرب على بطنه.. فكروا أولًا فى البحث عن مكان لائق فى زحام هذه الحياة المقرفة.. جنازة ولا جوازة ..»

وعاد يقول: « حتى الزواج بالأمر.. لتسقط التقاليد الزائفة.. الثورة قامت فى الجيش، وفى دواوين الحكومة.. لكنها لم تستطع أن تصل إلى الأسرة.. اتركوا هذا الكلام الفارغ، وتعالوا نذاكر « الفارماكولوجيا » »..

وسادت فترة صمت قال عبد الرحمن بعدها: « هل سمعتم بالخبر؟ » رد سمير: « أى خبر؟ »

- « تعرفون قصة زميلنا منير وزميلتنا زينب ..»

قلت نعم: « لقد تزوجا منذ عام ...»

قال عبد الرحمن: « وأنجبت طفلًا.. واشترت لمنير سيارة.. إنها ثرية جدًا.. إنها ليست جميلة.. ومنير يبدو كنجم سينمائى.. وعاشا فى بحبوحة من العيش.. المهم أن زينب ماتت اليوم فى حادث سيارة.. وورثها منير وولده ..»

قلنا: لا حول ولا قوة إلا بالله...

وعدنا من حيث بدأنا، ورأينا أنه من الأفضل ألا نشغل تفكيرنا حاليا بمسائل الزواج.. وخاصة الزواج بالقائمة، ذلك الذى تفرضه عجائز البيوت، وزعماء العشائر فى قرانا النائية، وبعض الأمور إذا تعذر حلها فليس هناك مناص من « تجميدها » بعض الوقت، لكن عبد الرحمن يرفض نظرية التجميد تلك، ويعتبرها هروبًا ومزيدًا من التعقيد، ولا حل فى رأيه سوى الحسم، إما إن تقول لا أو تقول نعم:

قال سمير بمرارة: « من الصعب أن يقول الإنسان لأمه « لا » ».

علق عبد الرحمن: « ستقولها يومًا ما.. إن لم يكن اليوم، فسيكون غدًا.. أنا شخصيا قلتها.. لم أجد صعوبة تذكر، كنت مؤمنا وواثقا بما أقول.. ولدى الأسباب القوية.. سوف أبحث عن زميلة لى وأتزوجها.. طبيب وطبيبة.. أمر طبيعى جدًا ...».

قبل الفجر بساعات ثلاث، اقترحت أن نطوى الكتب وننام، لأن زميلنا إبراهيم سوف يأتى قبيل الفجر ليوقظنا للصلاة، ولن يفلح التناوم فى صرفه وإلحاحه علينا..

وقد كان..

إن العواطف نحو الجنس الآخر قضية شائكة.. وتحتاج لوقفة قصيرة لابد منها.. ومن المفيد للدعاة أن يتمعنوا فى هذه الأمور العاطفية، ويحددوا موقفهم منها بطريقة واضحة حاسمة، لأن التجارب العاطفية - حسبما رأيت - تترك ظلالًا على سمعتهم، وتؤثر إلى حد كبير فى مدى استجابة الناس

لدعوتهم وأفكارهم، وخاصة فى مجتمع كمجتمعنا، حيث إن الناس ينظرون بشك وريب إلى ما هو عاطفى، أعنى تلك العلاقة بين الرجل والمرأة، فهى دائمًا فى ظل الناس علاقة مشبوهة، وتسىء إلى سمعة الطرفين مهما كانت طبيعتها، ومهما كان الحرص والتحفظ، عندئذ يتحول الداعية فى نظر الناس - إن ظلمًا أو حقا - إلى رجل غير موثوق فى كلامه، ولا يصح أن يكون قدوة، وبالطبع فإن ذلك يؤثر على وضعه كشخص متميز كما يؤثر على مستقبل دعوته فى الوسط الذى يعيش فيه، فضلًا عن أن العلاقات النسائية البريئة، قد تتضاءل طهارتها يومًا بعد يوم، وقد يخالطها شىء من الخطأ أو الممارسات التى يأباها الدين الحنيف، وقد رأيت بنفسى كيف أن الخصوم السياسيين من الأحزاب الأخرى يلجئون إلى نشر الإشاعات والتشنيع، بابتكار القصص الغرامية، أو اختراع العلاقات الآثمة، ثم يلصقونها زورًا وبهتانًا ببعض الدعاة الكبار أو المؤثرين، وربما يستغلون حادثًا عارضًا جرى فعلًا، ثم يضيفون إليه الكثير من الحواشى والتفاصيل الزائفة، كى يهدموا شخصية من الشخصيات الفعالة.

ما أريد أن أقوله هو أن الداعية - فى مجال العقيدة الدينية بالذات يجب أن يكون على حذر تام من هذه الناحية، ولى فى ذلك تجربة قديمة لا أنساها، قد يكون من الخير أن أذكرها، حتى يعى شبابنا الدرس جيدًا، وتكون خطاهم بين مجتمعهم محسوبة وبحذر، حتى لا تتعثر أقدامهم، ويعانوا من النقد الجارح، والمؤاخذات اللاذعة.

كان ذلك قبل قيام الثورة بعام، وعلى وجه التحديد فى العطلة الصيفية التى تفصل بين السنة الإعدادية والسنة الأولى بكلية الطب، وعادة ما كنت أقضى أجازتى الصيفية فى القراءة وممارسة الألعاب الرياضية، وإعطاء بعض الدروس الخصوصية للطلبة الذين لم يحالفهم الحظ فى امتحان الدور الأول بالمرحلة الابتدائية، أو الثانوية على حد سواء، كما كنت أشارك فى إلقاء بعض الدروس التى تمزج بين الدين والسياسة كتوعية للمواطنين والزملاء، وجذبًا لهم إلى صفوف جماعة الإخوان المسلمين.. وجاء أبى ذات مساء وانتحى بى جانبًا وقال: « تعرف أن « الحاج عبد المجيد » صديقى »

- « أعرف.. لكنه رجل مخيف، ويسخر ماله ورجاله فى تأديب كل من لا يروق له.. ونفوذه فى كل مكان ..».

ابتسم أبى قائلًا: « تصرفاته له أو عليه.. والمحاسب هو الله.. وعلاقتى به قديمة، وفى حدود ما أمر الله. أما مظالمه فالله وحده يعلم بها، ولا دخل لى فى شىء منها ..»

- « ما علينا ..»

قال أبى وهو ينظر إلىّ فى أمل: « لقد طلب منى خدمة ..»

- « هل لى صلة بها؟ »

- « أنت الذى تستطيع القيام بها ..».

الحقيقة أن كلمات أبى شدت انتباهى، ما الذى يربطنى بالحاج عبد المجيد حتى يفكر فى طلب شىء منى، وهو الذى يستطيع أن يشترى كل شىء بماله.. يشترى الرجال والشرطة والبهائم والسلاح والحشيش والأراضى الزراعية والنساء؟ لم تستمر حيرتى طويلًا فقد بادر أبى قائلًا: « يريدك أن تعطى درسًا خصوصيًا لابنته « أنصاف » .»

كان الخبر مفاجأة تامة بالنسبة لى، لأنه لم يخطر لى على بال من قبل، وكانت أنصاف تصغرنى بعام أو عامين، أى أنها مكتملة الأنوثة، وعلى جانب من الجمال، وكانت فى السنة التى قبل الثانوية العامة، وهى تتلقى علومها فى مدرسة تدرس بالإنجليزية.. مدرسة أجنبية خاصة - أى بالمصروفات - وتقع هذه المدرسة فى عاصمة الإقليم، ومنذ أن دخلت أنصاف القسم الداخلى بالمرحلة الثانوية بهذه المدرسة ولم تعد تسير فى الشارع سافرة، أو تختلط بالناس، اللهم إلا عند سفرها من القرية إلى المدرسة، وعند عودتها فى عطلة نهاية الأسبوع أو غيرها من العطلات.. وهذا على النقيض مما كان يحدث وهى فى المرحلة الابتدائية، إذ كانت تختلط بالصبية وكأنها ولد مثلهم، وتتعارك وتحمل العصا، وتشترك فى المعارك الصبيانية التى تجرى عادة بين التلامذة فى مثل هذه السن، وفكرت فيما عرضه أبى مليا، كنت ميالًا لتنفيذ المهمة بعاطفتى، ربما اشباعًا لغرورى، وإظهارًا لتميزى على زملائى، إذ كنت الوحيد الذى وقع عليه الاختيار، وربما إثباتا لوجودى وأهميتى، وربما رغبة فى اقتحام المجهول، والخوض فى تجربة جديدة مثيرة، لكنى فى نفس الوقت كنت أتهيب الإقدام على ذلك، إذ ماذا سيكون «رد الفعل» عند إخوانى، وعند أولئك الذين يستمعون إلى توجيهاتى ودروسى فى الدين والأخلاق، من وقت لآخر؟.

الحق أننى وقعت فى حيرة شديدة.. ثم لماذا يفعل الحاج عبد المجيد ذلك وهو الرجل المتصلب، المحافظ جدا، والذى لا يتهاون قيد شعرة فى أمر يتعلق بالنساء؟ لقد كانت أنصاف كبرى أولاده، ولكم تمنى أن تكون ولدًا، لكن هذا لم يكن بيده، فلم يرزق بالذكور إلا بعد ثمانية عشر عامًا.. لكنه رغم أميته، آثر أن يرسل ابنته الكبرى لتلقى التعليم فى أحسن مدرسة داخلية بالإقليم آنذاك..

قلت لأبى: «أنت تعلم أن كلام الناس كثير ..».

قال لى: «ما لنا وللناس؟ المهم أنت.. ما أخلاقك؟ وكيف ستتصرف؟ هذه مهمة لمدة شهر ونصف أو شهرين.. ثم يذهب كل لحال سبيله ..».

ووجدتنى أقول بحماسة: «بشرط ألا أتقاضى منهم أجرًا ..».

قال بهدوء: «لسنا فى حاجة إلى أموالهم.. إنها مجرد خدمة لرجل يتعشم فينا خيرًا، ولا يصح أن نرفض رجاءه ...».

وفى الليلة الموعودة، ذهبت إلى البيت العتيق، المبنى بالطوب الأحمر، تحت جنح الظلام، كان الوقت صيفا - كما قلت - والنخلات العالية، تقف عملاقة فى فناء المنزل، واستقبلنى الحاج بعوده القصير الممتلئ، وابتسامته الواثقة، وقادنى إلى الداخل، لنشرب الشاى، وبعد تقديم واجبات الضيافة اصطحبنى إلى غرفة واسعة النوافذ تطل على الفناء المسوّر، كانت أنصاف تقف خافضة الرأس، مرسلة الشعر، تلبس رداءً وردى اللون، ولم يزد الرجل على أن قال: «صافحى أخاك يا بنت ..».

كانت أعصابى متوترة، وكانت هى تبدو هادئة وادعة خجول لا تكاد ترفع إلىّ طرفًا، أين أنصاف الطفلة المشاكسة المتعاركة؟ وسرعان ما انصرف الرجل، وجلس فى الصالة أمام باب الغرفة المفتوح، كانت الكتب مرصوصة على الطاولة الرخامية إلى جوار لمبة جاز كبيرة، وفى محاولة لتبديد الحرج والتوتر قلت وأنا أتصنع الهدوء: «بماذا نبدأ؟».

قالت وهى تبتسم وصوتها خفيض لا يكاد يسمع: «كما تشاء ...»

- « لابد أن تختارى ..».

قالت وهى تسحب كتابًا: « الفرنساوى ..».

عندما خرجت من بيتهم حوالى العاشرة مساءً، كان النسيم عليلًا، وقليل من العرق يندى وجهى « يا إلهى » يا لها من تجربة؟ ولم أستطع أن أصرف خيالها عن بالى إلا بعد أن أغمضت عينى، وكنت فى حيرة من أمرى، ما هذا الذى يحدث؟ ولماذا يشتط بى التفكير؟ أخذت أبدو كغريق تتقاذفه الأمواج دون إرادة، وخف الحرج والتوتر ليلة بعد ليلة، وأخذنا نتحدث بطلاقة، ونضحك أحيانا، وقطعنا شوطًا لا بأس به فى مختلف المواد.. وما هى إلا أيام قلائل حتى انتشر الخبر فى القرية، إن زملائى يتغامزون، ويلقون التعليقات الساخرة، وأخذ بعض الإخوة يوجه النقد بصراحة وحدة، كما أشيع أن خطبتى لإنصاف على وشك الإعلان، مما أغضب أمى إغضابًا شديدًا، إذ خافت على مصير قريبتنا التى ينوون تزويجى منها، وساد الهرج والمرج..

تصدت لى زوجة جدى « مباركة » التى تفرغت من قديم لتربيتى وخدمتى وقالت صائحة فى غضب: « أتترك قريبتك.. بنت الأصول.. وتذهب إلى ..».

قلت فى ضيق: « كفى يا جدتى.. كله كلام فارغ أنت تعرفين أن بينى وبين الزواج مسافة طويلة ..»

- « لكن الناس يا ولدى يقولون ..»

- « وما ذنبي؟ ».

وتدخلت أمى قائلة فى غيظ: « إنها مؤامرة للإيقاع بك، ومن تدبير نسوة أعرفهن ..»

- « يا أمى لم يخطر لى شىء من هذا على بال ..»

- « وهل ننتظر حتى تحل الكارثة؟ لقد أرسلت أمها بعض الهدايا إلينا فرفضتها وأرجعتها إليهم.. إنى أعرف هذا الأسلوب ..».

ووجدتنى أقول وقد شعرت بالحرج: « ولم هذا يا أمي؟ »

- « ماذا كنت تظن؟ »

- « أعنى.. المجاملة.. و ..».

قاطعتنى قائلة: « لا مجاملة بيننا وبينهم.. منذ متى ونحن نتبادل الهدايا؟ ».

لم أعد أستطيع أن أخرج كعادتى إلى الصحاب، وتوقفت تمامًا عن برنامج الدروس التى كنت ألقيها على الزملاء والفلاحين، وشعرت أننى آتى تصرفا لا يليق، كان قلبى يحدثنى أننى أذنب، على الرغم من عدم وجود أسباب ملموسة أو مادية لذلك، لكن اللوم الداخلى الذى أعانى منه أشعرنى بالإثم، وبينما أنا على هذا الوضع من القلق والعذاب، جاءنى أحد الإخوة وقال: « عليك أن تذهب غدًا لمدينة « زفتى » ...»

- «لماذا؟»

- « لمقابلة المسئول هناك ...».

كانت كلمة المسئول مفهومة لدينا جيدًا، وهى تعنى أنه أحد المكلفين بالمركز فى مكتب الإخوان

المسلمين الرئيسى، وعندما ذهبت كان فى انتظارى الأخ محمد الوكيل «وهو الدكتور محمد الوكيل الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة حاليا». وكان محمد إنسانًا طيبا، يريحك النظر إلى وجهه الذى تعلوه زبيبة الصلاة، ثم أخذ يحدثنا - كمجموعة - كيف أن الدعاة يجب أن يخلصوا وجههم لله، دون النظر إلى أى مغنم دنيوى، وأن الدعاة الحقيقيين قوم متميزون بعلمهم وأخلاقهم وسلوكهم ومبادرتهم بالخير، والتزامهم بأوامر الله ونواهيه، وأفاض فى هذه المعانى حتى جاء وقت الظهر، ثم صلينا جماعة فى مقر الشعبة، وبعدها دعانى لتناول الغداء، وما إن انتهينا من الطعام حتى انفرد بى جانبا وأخذ يحدثنى: «أنا أعرفك» لقد تقدم إلى بشكوى أحد إخوانكم بالشعبة فى قريتكم بأنك تعطى دروسًا خصوصية لفتاة.. وأن هذا التصرف قد أثار القيل والقال، وأثر على مسيرة الأمور عندكم.. قلت أنا أعرفك من قديم، ولا يراودنى أدنى شك فى إيمانك.. ولهذا دافعت عنك.. وكلنا قد يقع فى مواقف محرجة تمليها ظروف معينة، ولا ينجينا إلا ثقتنا بالله وبأنفسنا.. ورسولنا يقول « ﷺ »: من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.. ومجال الخدمات الإنسانية واسع ومتعدد الجوانب. وليس قاصرًا على درس خصوصى لفتاة.. والحمد لله.. انتهت العطلة الصيفية أو كادت.. ويمكنك منذ اليوم وقف هذه الدروس.. لمصلحتك ومصلحة دعوتك..

حاولت أن أدافع عن نفسى، وأشرح له الموقف، لكنه كان يقابلنى بابتسامته المعهودة، وكلماته الحانية، مؤكدًا لى تقديره التام للموقف، وتفهمه الكامل لظروفى، وأشار إلى أن هناك كثيرين غيرى نساءً ورجالًا يستطيعون القيام بهذه المهمة عنى، ولأنصرف أنا إلى البرنامج الموضوع للدعاة فهذا أهم من وجهة نظره..

وافقت عن طيب خاطر..

ثم أخذ محمد يسألنى عن الأوضاع فى القرية، وموقف العمدة والأحزاب منا، ومدى استجابة الفلاحين لنا، وهل تصلنا المجلة والمطبوعات بانتظام؟ وما الأنشطة الاجتماعية التى نخدم بها القرية؟ وهل تصادفنا مشاكل أم لا؟ ثم وعدنى بزيارة قريبة فى مقر شعبتنا..

وقبل أن أغادر مكانى دخل أحد الإخوة من قريتنا، وكان منفعلًا وقال: «أنا الذى تقدمت بالشكوى.. فعلتها لا لشىء إلا غيرة على دعوتنا والحفاظ على هيبتها وكرامتها، بعد أن تحدثنا ألسنة السوء..» وأعفانى «محمد» من الرد أو التعليق حينما أردف قائلًا: «لا تهول فى الأمر.. ليست شكوى.. المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.. إنها مجرد نصيحة أخوية جاءت على مستوى أخ أكبر لكم.. هذا كل ما فى الأمر.. وقد حلت المشكلة تمامًا.. ولتستأنفوا برنامجكم كالمعتاد، وكأن شيئا لم يحدث.. مفهوم؟». وذهب كل منا لحال سبيله..

وكانت تجربة... وما أكثر ما يعترى سنى الشباب من تجارب... لكنى من حين لآخر كنت أحاسب نفسى.. لقد كتبت آنذاك أبياتا من الشعر العاطفى.. فيها رومانسية الجيل.. وأحلامه اليائسة، وذكرياته الباكية.. وآماله المحلقة فى السماء.. وأتذكر الآن كيف أن «النظرة الأولى» كانت تطول.. وتطول.. وتتبعها نظرة ثانية وثالثة.. وعاشرة.. وأتذكر كيف أن أيام الانقطاع الأولى عن الدروس قد أورثتنى الأرق والكآبة.. كان مثلى كمثل الذى أدمن على فعل شىء ثم منع عنه فجأة.. ألا نعرف

أعراض وقف الإدمان؟ لقد كانت ليالينا بريئة خالية من العبث تمامًا.. لم تخرج عن النظرات والكلمات النظيفة.. لكن يكذب من يدعى أن نفسه لا تحدثه بشيء وهو يجلس منفردًا مع امرأة، حتى ولو كان بينهما منضدة رخامية سميكة ضخمة.. والعفة صراع شديد، والحرمان نار تتلظى، ومقاومة الأمواج والتيارات الكاسحة معاناة ومشقة.. تلك هى الحقيقة.. ومن يقل غير ذلك فهو مدع ولم يذق مرارة التجربة، ولذلك فقد رسخت فى ذهنى عقيدة لا تتزعزع، ألا وهى الزواج المبكر متى توفرت أبسط الإمكانات لذلك..

وسافرت «انصاف» بعد انتهاء دراستها الثانوية إلى الخارج، وعاشت سنوات طويلة فى أوروبا تدرس الصيدلة، وانقطعت أخبارها عن أهلها أو كادت، وفى هذا الأثناء وقع أبوها فى صراع مع إحدى أسر القرية، حيث أريقت الدماء، وأزعج الرصاص الغادر سكون الليل. وأخيرًا عادت متزوجة، معها الزوج والأطفال، وتذهب كل يوم للعمل فى صيدليتهم الخاصة مع زوجها.. لكنى لم أرها منذ ذلك التاريخ..

أجل، لم يكن لدى وقت للتفكير فيها بعد أن ساقتنى الأقدار إلى أم أولادى، فملأت حياتى بالحب، وأثرت دنياى بالبهجة، ووجدت لدى الزواج منها الاستقرار بعد القلق، والوحدة بعد الشتات، والأنس بعد الوحشة، ووجدت فيها سندًا أتكئ عليه فى المحنة. وقلبا يخفق إلى جوارى فى الشدة والرخاء ويدا تدفعنى إلى الأمام، وتسمو بى إلى أعلى، ووجدتها تبكى لألمى، وتسعد لسعادتى، بل وتقذف بنفسها فى مواطن الخطر يوم أن غيبتنى السجون فى ظلامها الدامس، وذهبت إلى رئيس الجمهورية نفسه تسائله عن السبب فى هذا العناء كله..

ولهذا قصة طويلة سوف يرد ذكرها فيما بعد..

أقول إن ذلك هو الحب الحقيقى... ألم يجعل الله لنا من أنفسنا أزواجًا لنسكن إليها؟

الحب الحقيقى هو عودة جزء من النفس إلى النفس حتى تتكامل وتؤدى وظيفتها المقدسة.. والحب الحقيقى هو المودة والرحمة بين الزوجين كما جاء فى القرآن الكريم.. لكن هل نحن جميعًا ندرك تلك الحقيقة إبان اشتعال الشباب وعنفوانه؟

وليس أمام دعاة الشباب فى مثل هذه المآزق إلا واحد من اثنين لا ثالث لهما: **أولهما**: اتخاذ الأساليب والطرق الوقائية للبعد عن المزالق. **وثانيهما**: الزواج إذا توفر الحد الأدنى من متطلباته..

وغير هذين السبيلين يكون الخطر والخطأ، قلا أو كثرا.. والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين..

❁❁❁

[٤] اللواء محمد نجيب يتصدر الحركة



قبل أن نتناول مأساة اللواء محمد نجيب الذى قبل أن يتصدر حركة الجيش فى يومها الأول «٢٣ يوليو ١٩٥٢»، أريد أن أشير إلى قضية هامة، ألا وهى قضية «التغيير» المنشود قبل حركة الجيش. كان فى مصر إجماع كبير على ضرورة التغيير، وحينما أقول «إجماع كبير» أقصد أن غالبية الشعب وتنظيماته السياسية لم تكن على رضى أووفاق مع الملك، فالوفديون ساخطون خارج الحكم، وشبه راضين داخل الحكم، لكنهم كانوا يرغبون فى التغيير نظرًا لأن الملك لا يترك لهم الفرصة كى يستمروا فى الحكم بعد أن يكتسحوا الانتخابات الحرة، ولهذا فهم لم يحكموا منذ صدور الدستور فى عام ١٩٢٣ وحتى قيام الثورة إلا أقل من سبع سنوات، مع أنهم حزب الأغلبية التى لا يستطيع منصف أن يشكك فيها، وحتى عندما كان يحكم الوفديون كان الملك يسبب لهم الكثير من المنغصات والمضايقات، ويفرض عليهم بعض الأمور والسياسات التى تخرج عن برامجهم، ويوقعهم فى إحراج شديد.

وكان الوفديون يتحايلون على البقاء فى الحكم بأساليب شتى، كانت تعرضهم للنقد الشعبى، وتهجم الأحزاب الأخرى عليهم، ورميهم بالخيانة، والتنكر للمبادىء والوعود التى بذلوها، بل واتهموا النحاس بأنه ذنب للسراى وخاصة بعد حادث ٤ فبراير الشهير، الذى تولى بعده النحاس الحكم، وقالت المعارضة يومها: «لا، لقد جاءت حكومة الوفد على أسنة الرماح البريطانية» إذ إن الإنجليز يومها وجهوا إلى الملك إنذارًا وطلبوا منه أن يكلف النحاس باشا بتشكيل الوزارة، ومع ذلك فإن الوفد فى قرارة نفسه كان ينقم على الملك، ويلعبان معًا لعبة «القط والفأر» ويتبادلان الابتسامات رغم ما فى القلوب من كراهة متبادلة، وشك مقيم، وكثيرًا ما استعمل الملك حقه الدستورى فى حل البرلمان ذى الأغلبية الوفدية، وأسقط حكوماته، وكان بعض الكتاب الوفديين يجاهرون بالسخط على أسلوب الملك، ويلمحون إلى أنه وراء محنة الحرية والدستور، وكثيرًا ما كانوا يقدمون للمحاكمة.

وكانت هناك فئة لها مصالحها المضمونة فى ظل الحكم الملكى، وبينهم عدد كبير من رجالات أحزاب الأقلية ورجال المال والأعمال، وأصدقاء الاستعمار، وأصحاب المصالح والمغانم والسلطات المستقرة.

أما الإخوان المسلمون - كما سبق وأشرنا - فقد كانوا يصرون على التغيير، تشير إلى ذلك خطبهم وبرامجهم ومطالبهم الدستورية، والإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التى ينادون بها، وإعلان الحكم الإسلامى، وجعل الشورى والحرية حقيقة واقعة، كما كانوا ينقمون على الملك وأسرته وأعوانه أسلوبهم فى الحياة الخاصة والعامة، وكان شائعًا فى أوساطهم أنه لابد أن يعزل، هذا على الرغم

من اتباع الصمت والمهادنة فى بعض الأوقات الحرجة، وإيهامه بأنهم لا يشكلون خطرًا عليه أو على نظام الحكم، حتى يتجنبوا بذلك الصدام الرهيب الذى يمكن أن يحدث، والذى حدث فعلًا بعد ذلك..

ومما لا شك فيه، أن الملك كان يعتمد اعتمادًا رئيسيا على تأييد الجيش له، وإخلاص قيادته لسياسته وأفكاره. كما كان يعتمد فى الوقت نفسه على حماية التقليديين - الإنجليز -، وكذلك على أنصاره فى السراى وخارج السراى، وأجهزة الأمن والمخابرات، تلك التى ظلت على ولائها له حتى النهاية..

لكن الجيش الذى أفرز عرابى وأمثاله من قبل، استطاع أن يوجد فئة واعية من الرجال تدرك أبعاد الحكم الملكى وأخطاره، وتدرك أيضًا أن قيادتها فى الجيش على ولاء تام لولى نعمتها وحلفائه، ولم يكن عزيز المصرى باشا وتلامذته إلا مثلًا لهذا التحرك المضاد للسراى وأعوانها، وهذا هو بداية تكوين الخلايا السرية فى الجيش قبل حرب فلسطين، فقد جاء فى مذكرات بعض ضباط مجلس قيادة الثورة أن أول من أسس تشكيلًا سريا للضباط فى الجيش كان هو الصاغ «محمود لبيب» وكيل جماعة الإخوان المسلمين فى فترة من الفترات فى الأربعينيات من القرن العشرين، وهذا خبر متواتر ومعروف لدى الجماعة من قديم، ثم جاءت حرب فلسطين وفترة التصدى للقوات البريطانية فى القناة، وحمل الإخوان عبء هذه الأعمال الفدائية التطوعية فى غالبيتها، ومن ثم تكونت كوادر قادرة على مستوى الجماعة ومستوى الجيش، لعبت دورها بعد ذلك عند قيام الثورة..

نستطيع على ضوء تلك المقدمة أن نبلور صور التغيير المنتظر فى ثلاثة خطوط رئيسية:

** **الخط الأول**: ويمثله بعض رجال الجيش المنظمين، ويرغب فى التغيير عن طريق استعمال القوة أو الثورة أو الانقلاب.

** **الخط الثاني**: ويمثله الوفد ومن على شاكلته، وهؤلاء يميلون إلى تغيير سلمى ديموقراطى، يتمثل فى احترام الدستور، وتقليص سلطات الملك، وإعطاء الصلاحيات لرئيس الوزراء المنتخب والذى يمثل الأغلبية.

** **الخط الثالث**: وهو خط متميز يريد التغيير بالأسلوب الهادئ الديموقراطى، لكن تحت حماية القوة التى يمكن استعمالها عند اللزوم، أو عندما يحاول الملك أو الإنجليز أو غيرهم أن يجهضوا حركة التغيير السلمى، أو ينحرفوا بالمسار الإصلاحى المنشود، هذه الفئة يمثلها الإخوان المسلمون، ولعل هذا هو السر فيما كان يحدث عندهم من تطورات لا تخفى على أعين الفاحضين المنصفين الواعين نذكر منها:

١- تغلغلهم فى الأوساط الشعبية، وإنشاء «الشُعب» فى المدن والقرى والكفور، داعين إلى عدم الفصل بين الدين والدولة، وإلى تحقيق العدالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق الحريات.

٢- تغلغلهم فى أوساط العمال والموظفين، وتأكيد نفوذهم فى النقابات المهنية وغير المهنية، وتحقيقهم للأغلبية فى بعضها عن طريق الانتخابات، أو الحصول على مقاعد بنسبة كبيرة فى نقابات المعلمين والأطباء والعمال وغيرهم، مما جعل إحدى صحف الحكومة بعد الصدام مع الثورة تقول: «الإخوان يشكلون أجهزة أخطر من الجهاز السرى» قاصدة بذلك تغلغلهم فى النقابات.

٣- تغلغلهم فى المؤسسات التعليمية وخاصة الجامعات، حيث كانت الانتخابات تجرى كل عام،

بواقع مندوبين اثنين منتخبين عن كل سنة أو صف من صفوف الكليات، وقد استطاع الإخوان أن يحققوا أغلبية مطلقة فى جميع الجامعات ما بين ٨٠-٩٠٪، ولم تستطع تحالفات الأحزاب فى الجامعة، وبعض القوى الدينية المضادة، فيما سمى « بالجبهة الوطنية » أن تهزم الإخوان فى الانتخابات التى كانت تجرى قبيل الثورة أو بعدها.

٤- التفكير فى دخول الانتخابات النيابية، واعتراض الإنجليز على ذلك، وتقديم النحاس باشا النصيحة للإمام الشهيد حسن البنا كى لا يتقدم للترشيح، وتأجيل ذلك لما بعد؛ أى عندما تأتى الظروف المناسبة.

٥- إنشاء فرق الكشافة والجوالة الإخوانية الكبيرة العدد، ووضع نظام خاص لها يختلف فى تدريباته ونظمه ولوائحه عن النظام العالمى، والتأكيد فيه على التربية الروحية والبدنية والعقلية، والاهتمام بالتعارف والارتباط خارج المخيمات بين الأفراد، وبعض التدريبات العسكرية.

٦- إنشاء « النظام الخاص »، وهو ما أطلق عليه بعد ذلك « الجهاز السرى » للاشتراك فى معركة فلسطين وقناة السويس، وحماية الجماعة ومؤسساتها وأفرادها القياديين عند الضرورة.

٧- إصدار الصحف والمجلات العلنية، وذلك بقصد نشر الدعوة، وتقديم البحوث الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية، وفتح المجال أمام ما يمكن أن يسمى « بالأدب الإسلامى »، وتأليف المسرحيات والأناشيد، ووضع برامج للدراسة والقراءة الحرة، والتوصية بالاطلاع على كتب وأفكار أدباء ومفكرين بعينهم، دون التقيد بكتاب الجماعة، فكثيرًا ما كانت تقرأ كتب العقاد والرافعى ومحب الدين الخطيب وغيرهم.

٨- تشجيع المنافسات الرياضية والانضباط، وتأدية الشعائر والعبادات والرحلات والزيارات والبعثات الدراسية فى أوربا وأمريكا وغيرها، وعقد الصلات مع المنظمات الإسلامية فى العالم العربية والإسلامى، وما زالت آثار ذلك باقية حتى كتابة هذه السطور، وبصورة أوسع وأكبر.

٩- إنشاء مؤسسات اقتصادية مساهمة، على أسس إسلامية.

١٠- إنشاء مدارس ومساجد على النمط الإسلامى الصحيح، وتشجيع إنشاء المستوصفات ودور النشر والإعلام والإعلان.

١١- تشجيع أفراد الجماعة على الالتحاق بالشرطة والقوات المسلحة والكليات العلمية كالطب والهندسة والعلوم والصيدلة والزراعة وغيرها.

١٢-إعداد برامج خاصة لتربية الأطفال، وتوعية النساء، وكانت مدرسة « الجمعة » للأطفال من المدارس الشهيرة.

١٣- دراسة النظم الإدارية، والمواقع الجغرافية فى القاهرة خاصة، وفى مصر عامة، وتقسيم البلاد إلى مناطق ومكاتب وشعب، وفق هيكل تنظيمى فريد، وطرق اتصال سهلة وسريعة وناجحة.

١٤- تجنب الصدام مع الجمعيات الإسلامية الأخرى، بل وتقوية صلة المودة والمحبة معها.

١٥- عدم القيام بالتصرفات الفردية التى قد تسبب للجماعة فى عمومها مشاكل لا حصر لها، والالتزام برأى الجماعة وقيادتها فى الأمور الأساسية والسياسية العليا، والتصرف بحكمة وروية فى الأمور المحلية الثانوية.

١٦- عدم الهتاف بأسماء الأشخاص أو الزعامات مهما كانت.

١٧- التفقه في الدين بكل فروعه ما أمكن، ليستوى فى ذلك الجميع، وحفظ القرآن الكريم أو قدر منه، والأحاديث النبوية الصحيحة، والتفسير، وترك الخلافات المذهبية جانبًا، والتخلق بأخلاق النبوة حتى يصبح الفرد الداعية قدوة حسنة.

.... الخ

وقد أفاضت بعض المؤلفات فى هذه الجوانب، وإنما قصدت بإيجاز معظمها الوصول إلى النتيجة الهامة ألا وهى:

«إن الإخوان المسلمين كانوا يريدون التغيير، ويعدون له، بل وبدءوا فيه، وأنجزوا الكثير، وكان هذا التغيير، كما هو واضح من منهجهم وتصرفاتهم - تتخذ الأسلوب الديموقراطى السليم، ويتخذ من القوة رصيدًا لحماية ذلك التحرك السلمى كما قلنا».

ولعل هذا هو السبب فى اختيار رجل القانون الضليع الأستاذ حسن الهضيبى - رحمه الله - مرشدًا للإخوان، بل يمكن القول بأن تردد الهضيبى فى الموافقة على قيام الضباط بحركتهم المسلحة كان نابعًا من تلك الخطة الإخوانية، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أيضًا محاولة الهضيبى لتصفية «النظام الخاص» وعزل رؤسائه، واختيار قيادة جديدة لتذويب ذلك التنظيم، مما أثار ثائرة أعضائه القدامى، فحاولوا عزل المرشد والقيام بانقلاب ضده.. انقلاب داخلى فى مقر المركز العام للإخوان المسلمين بحى الحلمية بالقاهرة، وفشلهم فى تنفيذ ما أرادوه، وفصلهم فصلًا تامًا من الجماعة، والغريب أن الثورة وصحافتها استغلت الحادث أسوأ استغلال، كما قامت الثورة بتقريب المنشقين إليها، والإغداق عليهم، وعدم اعتقالهم فيما بعد، وقال الهضيبى قولته المشهورة «لا أريد جهازًا سريًا.. لا أريد عصابة.. أريد الإخوان المسلمين أن يكونوا تنظيمًا واحدًا.. وفى النور..».

إن تلك العلانية، وهذه البرامج، التى استمرت لسنوات، والخطوات الديموقراطية فى مختلف المجالات، وتصفية الجيوب المتميزة أو المسلحة، بعد أن أدت دورها المرحلى فى فلسطين والقنال، والمؤسسات الديموقراطية المختلفة، ثم إصرار الهضيبى على عودة الديمقراطية بعد قيام الثورة، واختلافه الشديد مع جمال عبد الناصر لهذا السبب الرئيسى، مضافًا إلى ذلك مطالبة حكومة الثورة باتباع النهج الإسلامى.. كل هذه الأمور تؤكد ما أشرنا إليه من برنامج الإخوان فى ديموقراطية التغيير، وهذا ما تؤكده نصوص الخطب التى أوردها حسن البنا، وخطاباته للناس ولرؤساء الدول، وما تشهد به أيضًا صحف العصر وما فيها من تصريحات للهضيبى والقيادات الإخوانية وصحفهم وكتبهم.

نعود - بعد هذه المقدمة الطويلة - إلى اللواء «محمد نجيب»:

ولد محمد نجيب من أبوين مصريين فى السودان عام ١٩٠١، ونال البكالوريا من مدرسة الخرطوم، ثم دخل الكلية الحربية. وتخرج منها ثم التحق بالجيش، واشترك فى الحرب العالمية الثانية، وفى حرب فلسطين لعب دورًا بارزًا - على المستوى الفردى والمستوى القيادى - وأصيب فيها إصابات بليغة، ومن أشهر معاركه فيها معركة التبة ٨٦، وعرف بحسن الخلق، والصبر والدأب، وتعلم عددًا من اللغات الأجنبية «خمس لغات»، وأخذ دبلومات عليا فى القانون والاقتصاد، وكان كثير الاطلاع، كما كان خطيبًا مفوهًا، ومعلمًا فذًا، نظيف السمعة والتاريخ، اختاره، الضباط رئيسًا لناديهم، وأسقطوا

مرشح الملك، واعترض الملك على تعيينه وزيرًا للحربية، وكان على وشك فصله من القوات المسلحة لولا أن قامت الثورة.

لم تغره السلطة حينما جاءت إليه، ولم يوجه انتقامًا شخصيًا لأحد ممن ناوءوه أو حاربوه. وكان طيب القلب سرعان ما يعفو ويصفح مهما وُجهت إليه من إساءات، ووقف كالطود الشامخ فى مواجهة الأحداث ليلة قيام الضباط بالثورة.. لم يكن أحد يعرف هؤلاء الضباط، لكن محمد نجيب كان ملء السمع والبصر، على الأقل بالنسبة للمثقفين والمهتمين بمستقبل الأمة ومصيرها..

إن شجاعة محمد نجيب ونزاهته كانت مضرب الأمثال قبل وبعد الثورة، لقد دُعى إلى مجلس القيادة ليلة الثورة لتولى مسئوليته التاريخية، ولم يتردد فى الحضور رغم المخاطر الكبيرة التى يواجهها، لم تكن حركة الجيش قد تمت لها السيطرة بعدُ على الأغلبية العظمى من وحدات الجيش، لقد كانت هناك وحدات كثيرة فى قلب القاهرة لم تعلن عن انضمامها بعد، وكانت قوات الفرقة الأولى مشاة فى سيناء، وهى أكبر تشكيل فى الجيش وقتئذ، لا تدرى شيئًا عن الحركة، أما قوات الإسكندرية فلم تكن قد سمعت بعد أية أنباء عن هذه الحركة، وكانت الخطورة كامنة فى الإسكندرية، حيث مقر الملك فى « قصر المنتزه »، والحكومة فى « بولكلى »، والفريق محمد حيدر باشا القائد العام للقوات المسلحة فى معسكر مصطفى كامل، وحيث توجد أكثر القوات ولاءً للملك كما كان مفترضًا، وهى قوات الحرس الملكى، والسلاح البحرى، وخفر السواحل، وقد ثبت أن البيان الأول للثورة الذى صدر باسم اللواء محمد نجيب من دار الإذاعة كان هو العامل الحاسم فى انضمام جميع قوات الجيش غير المشتركة فى الحركة إلى القوات الثائرة، وخاصة أن نجيب كان هو الشخص المعروف بنزاهته وشجاعته وتصديه للملك قبل الثورة، وعلى المستوى الجماهيرى والعسكرى بوجه خاص، ولم تكن الأوساط الشعبية أو المثقفون يعرفون مجرد اسم جمال عبد الناصر.

إن مجرد إذاعة البيان الأول باسم اللواء محمد نجيب فى الساعة السابعة والنصف صباحًا من دار الإذاعة، معناه أن الرجل حمل على عاتقه مسئولية الحركة بأكملها تاريخيًا أمام حكم التاريخ، وجنائيًا أمام الملك وحكومته، وأصبح هو الرمز المجسد لها، ينتصر إذا دان لها النصر، وإذا فشلت فسيكون عليه تحمل وزرها وعواقبها.

ولقد نال محمد نجيب شعبية ساحقة لم ينلها أحد قبله فى تاريخ مصر الحديث إلا سعد زغلول، وكان مجرد ظهوره فى المؤتمرات العامة كفيلًا بأن ينتزع الهتافات الحارة، والتصفيق الحاد، كما كان محل ثقة رجال الفكر والسياسة والأحزاب القديمة، وكانت مكانته بين أبناء القوات المسلحة قمة عالية لا يدانيها أحد..

وبين مواكب النصر والتأييد التى غمرت محمد نجيب وكلماته وشعاراته، لم يلحظ الرجل الطيب الأيدى التى تعبث فى الخفاء، ولم يتعرف فى البداية على النفوس الدنيئة التى حقدت عليه لشعبيته، وانتصاره على الأطماع الشخصية، والطموحات الساقطة، ورويدًا رويدا أخذ الرجل يكتشف مهازل لا حصر لها:

١ - تكوين مراكز القوى والشلل منذ البداية.

٢- إنشاء خلايا سرية جديدة فى الجيش تدين بالولاء لجمال عبد الناصر.
٣- تلفيق التُهم، واستئجار الشهود لإلصاق مؤامرات وهمية ببعض الضباط الأحرار المخلصين.
٤- الاستيلاء على بعض القصور والشقق الفاخرة، وبعض محتويات القصور الملكية.
٥- أحد القادة يذهب مخمورًا فى المساء ليطارد أميرة من أميرات البيت المالك، والأميرة تستنجد بمحمد نجيب قائلة: « إنه يتصور نفسه ملكًا جديدًا ».
٦- زوجة أحد ضباط القيادة تتصرف وكأنها « الكل فى الكل » وتقول: « الجيش فى يمينى والبوليس فى يسارى »، وتستغل وضع زوجها أبشع استغلال.
٧- ضابط آخر يطارد « ناهد رشاد » زوجة طبيب الملك السابق الخاص.
٨- عبد الناصر يوعز إلى أعوانه المخلصين، حتى ينفرد بالسلطة، ويوعز أيضًا إلى مصطفى أمين كى ينشر صور ضباط مجلس قيادة الثورة، وإلى جوارهم صورة كبيرة له، توحى بأنه « كل شىء »، وغضب عدد كبير من الضباط الزملاء من ذلك.
٩- محمد نجيب يكتشف أن جمال عبد الناصر، على حد تعبير نجيب نفسه: « .. قوة عبد الناصر فى شخصيته، وشخصيته من النوع الذى يتكيف ويتغير حسب الظروف، فهو مرة مع الشيوعيين ومرة مع الإخوان المسلمين، وعشرات المرات ضد الجميع ومع نفسه ..».
١٠- ازدواجية الحكم بين الوزراء وبين ضباط القيادة وتضارب الآراء.
١١- تعطيل صلاحيات محمد نجيب عن طريق قرارات الأغلبية التى يتخذها مجلس قيادة الثورة بتدبير من جمال عبد الناصر.
١٢- نجيب يقول إن السيطرة الآن أصبحت « لأصحاب الجلالة الضباط ومواكب المنافقين ..» ويقول أيضًا: « وبدأت أشعر أننى لا أمارس سلطاتى كما يجب ..».
١٣- فى البداية، وعند الحاجة الماسة إلى وجود محمد نجيب كقائد للمسيرة الشعبية، وقف جمال عبد الناصر فى بنى مر يقول: « باسم أبناء هذا الإقليم أرحب بك من كل قلبى، وأعلن باسم الفلاحين، أننا آمنا بك، فقد حررتنا من الفزع والخوف، وآمنا بك مصلحًا لمصر، ونذيرًا لأعدائها.. سيدى القائد.. باسم الفلاحين أقول سر، ونحن معك جنودك ..».

وفى النهاية يرمى نجيب بأبشع التهم ومعاملته للأحزاب والرجعية، وباستلابه لمغانم الثورة وانتصاراتها ثم عزله.

١٤- رفض جمال وصحبه الأسلوب الديموقراطى، وأصروا على أن يحكموا هم بأنفسهم وتصدى بعض الضباط لجمال أمثال خالد محيى الدين وثروت عكاشه وعبد المنعم أمين وأبو المكارم عبد الحى وغيرهم..
١٥- نجيب يقول: « فى البداية عاملتهم على أنهم أولادى، ثم أصبحوا أفظع من زبانية جهنم »، وقلت لهم: أفضل أن يلتف حبل المشنقة حول عنقى ولا أصدق على إعدام إبراهيم عبد الهادى.
١٦- عبد الناصر يعقد اجتماعات مجلس قيادة الثورة برئاسته، بعيدًا وفى خفية عن الرئيس محمد نجيب...الخ.

الواقع أن اللواء محمد نجيب، الرجل الطيب القلب، الحسن النية، ذا الخبرة والأمانة والأصالة والروية، وجد نفسه وسط عصابة لا ترعوى ولا ترحم، ولهذا فكر فى الاستقالة التى رفضت بشدة فى

البداية، لم يكن نجيب يحب تكوين الخلايا وتجنيد المخابرات، لأنه كان يؤمن أن ذلك الأسلوب سلاح ذو حدين، وقد يؤدى إلى قلاقل ومصادمات فى الجيش، والظروف لا تسمح بذلك وخاصة أن قوات الاحتلال تجثم على أرض مصر، واليهود يتربصون، والدولة تعانى من مشاكل لا حصر لها عقب الانقلاب، ومراكز القوى المتصارعة تشغل الساحة، فلم يكن نجيب ليفكر فى إضافة عنصر جديد من عناصر الارتباك والقلق والصراع.

وبدأ جمال عبد الناصر يقاوم شعبية « محمد نجيب » بشتى السبل والوسائل، ولم يكن هناك مفر من احتدام الخلاف، واشتداد الصراع حتى أصبح التعاون بين الرجلين ضربًا من المحال.

وفى يوم ٢٣ فبراير ١٩٥٤ قدم محمد نجيب استقالته إلى مجلس قيادة الثورة، وكان من رأى الجميع قبولها، بينما عارض فى ذلك خالد محيى الدين، وطلب قبول استقالته هو الآخر، ولكن المجلس طلب إليه إرجاء ذلك إلى أن تمر الأزمة.

وفى صباح يوم ٢٥ فبراير صدرت صحف القاهرة، وفى صدر صفحاتها بيان مجلس قيادة الثورة الذى يعلن قبول استقالة محمد نجيب، ويعين جمال عبد الناصر رئيسًا للوزراء، وتضمن البيان هجومًا شديدًا، وافتراءات سافرة كاذبة ضد محمد نجيب، وأذكر أن إحدى الصحف وضعت صورة كبيرة لجمال عبد الناصر، وكتبت عنوانًا بارزًا بخط كبير فى الصفحة الأولى يقول: « قائد الثورة يتولى رئاسة الوزراء ..».

لقد أعد جمال العدة لهذه الضربة المبكرة، لكن الله مخلف الظنون، نعم لقد رتب كل شيء بمهارة وذكاء، فقد أصدر قرارًا - لم يوافق عليه محمد نجيب - بحل جماعة الإخوان المسلمين، القوة الشعبية الوحيدة القادرة على حماية ظهر محمد نجيب لتأييدها السابق له، وارتياحها لأفكاره، وحرصه على الديموقراطية، كما تخلص من الكثيرين الذى يؤمنون بقيادة نجيب وحكمته، وبعث رسله هنا وهناك ليشوهوا سمعة اللواء نجيب النظيفة، ووقف صلاح سالم يكيل التهم والسباب له، وقائد البوليس الحربى قدم إلى الجامعة، وإلى المدينة الجامعية بالذات، وأخذ يذم ويقدح فى عرض محمد نجيب، ونحن الطلبة نتجمهر حوله، ونكذبه ونحرجه، ونرد عليه افتراءاته، فما كان منه إلا أن غضب، وهاج وماج، وهددنا بالضرب والاعتقال، ومعه قوات كثيرة، فانصرفنا عنه إلى غرفاتنا، ونحن أشد ما نكون احتقارًا وازدراءً له..

المهم كان تأثير البيان على عكس ما أراد مجلس الثورة، فقد تفجر الموقف فى سلاح الفرسان، وفى وحدات أخرى كثيرة، وفى وحدات الإسكندرية، وفى صفوف الشعب الذى خرجت جموعه الحاشدة يوم ٢٨ فبراير.

إننى أذكر هذا اليوم جيدًا، فقد صدرت أوامر سرية من قادة الإخوان الذين لم يعتقلوا - وبالذات من المرحوم الشهيد عبد القادر عودة وكيل الإخوان المسلمين - بأن نخرج فى مظاهرة سلمية ضخمة من جامعة القاهرة، ثم نمضى فى الطريق حتى قصر عابدين نطالب فيها بإعادة قائد الثورة محمد نجيب إلى مكانه، والإفراج عن المعتقلين من الإخوان المسلمين وغيرهم، وتحكيم القرآن، وإعادة الديموقراطية الصحيحة، وعودة الجيش إلى ثكناته..

وكانت الهتافات التى نرددها فى هذا اليوم - وكنت واحدًا ممن يرددونها - كالآتى:

الحرية.. الحرية، يا أعداء الإنسانية
يا أعداء الإسلامية
يا أعداء الروحانية
إسلامية.. إسلامية.. لا شرقية ولا غربية.
يسقط حكم البكباشية..
نحن معك يا نجيب..
يسقط جمال عبد الناصر
يسقط صلاح سالم الكذاب.

وشملت المظاهرة جميع الأحزاب والطوائف، كما كان لإخواننا السودانيين قطاع خاص فى المظاهرة، وكان عددهم كبيرًا، وكانوا يرددون نفس هتافاتنا إلا أنهم كانوا يضيفون هتافات أخرى:

السودان يكره المنافقين يا صلاح.
السودان يكره المنافقين يا باقورى « هكذا ..»

وانضمت إلى المظاهرة بعض المدارس الثانوية مثل مدرسة السعيدية وغيرها، وكنا ونحن نتجه إلى كوبرى قصل النيل، نرى الناس فى الشرفات، وفى المؤسسات الحكومية والبيوت يلوحون لنا سعداء، على وجوههم وفى هتافاتهم التأييد المطلق، بل إن أحدهم فى شرفة عالية، كاد يقذف بنفسه فوقنا تحمسًا وتأييدًا.

وما إن وصلنا إلى كوبرى قصر النيل، حتى انهمر علينا الرصاص كالمطر، ورأينا الجنود يخرجون من أسفل الكوبرى على الشاطئين، ويسارعون بعمل ما يشبه الكماشة عند مخرج الكوبرى ناحية ميدان الإسماعيلية « التحرير حاليًا »، وكنت محمولًا فوق الأكتاف أردد الهتافات، وما إن رأيت وسمعت الرصاص حتى تململت وقلت لإخوانى: « أنزلونى بسرعة ..» .

وسار الهرج والمرج، واندفعت الجموع هنا وهناك دون نظام، لم نكن نظن أن الأمر سوف يصل لهذا الحد من الصدام الدموى، لم يكن معنا أى شىء ندافع به عن أنفسنا حتى ولا الطوب.. وسقط بعض الشهداء أذكر منهم اسمين هما الطالب « السحرتى » والطالب « عجينة ».. وهذه ألقابهم.. كما سقط العديد من الجرحى، وقبض على أعداد أخرى لا أعرف عددهم..

كان الاتفاق أن تمضى المسيرة - كما قلت - إلى ميدان عابدين، وبرغم ما حدث فقد استطاع أغلبنا الوصول إلى هناك، كانت هناك حشود قادمة من كليات الأزهر وعين شمس والمدارس المختلفة والعمال والموظفين.. وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا محمد نجيب يقف فى شرفة عابدين ومعه آخرون.. كان بعضنا يلوح بالمناديل البيضاء الملطخة بالدماء ويقولون: « الدماء يا نجيب.. الإرهاب يا نجيب.. الحرية يا نجيب ..» وحدثت فى الصفوف ثورة وصخبًا بسبب إطلاق الرصاص على طلبة جامعة القاهرة والمدارس الثانوية.. وكان من الصعب السيطرة على هذا الضجيج الهائل.. ولم يجد محمد نجيب مناصًا من أن يستدعى مُدبر هذه المسيرة التاريخية ألا وهو الأستاذ عبد القادر عودة وكيل الإخوان المسلمين الذى استثنى كما قلت من الاعتقال لسبب أو لآخر، وصعد عبد القادر عودة إلى

الشرفة، وما إن أشار إلى الجموع الهادرة حتى ساد الصمت التام..

إن جمال عبد الناصر لم ينس هذه الواقعة لعبد القادر عودة، فبعد هذه الواقعة بشهور سيق «عودة» إلى المحاكمات أمام محكمة الشعب برئاسة جمال سالم، ولفقت له التهم الكثيرة، ثم تم إعدامه وهو يردد:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا على أى جنب كان فى الله مصرعي

ثم تمتم بالدعاء قائلًا: «اللهم اجعل دمى لعنة عليهم ...».

أقول هذا الكلام لمن زعموا أن الإخوان وقفوا على الحياد فى أزمة محمد نجيب والثورة لأول مرة، فكيف يقف الإخوان على الحياد وهم الذين قادوا التحرك الشعبى الكبير ونفذوه بإصرار ودفعوا الثمن غاليًا؟ ثم هل نسى هؤلاء أن قيادات الإخوان فى تلك الفترة كانوا معتقلين بأمر عبد الناصر، وأن السجون والمعتقلات كانت مكتظة بهم، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن عاد محمد نجيب بفترة؟

يقول أحد ضباط الثورة جمال حماد: «وكاد حادث قبول استقالة محمد نجيب يؤدى إلى حرب أهلية فى البلاد، فقد صدرت الأوامر من بعض ضباط الصف الثانى بمحاصرة سلاح الفرسان بكوبرى «القبة» بوحدات من المدفعية المضادة للدبابات، وحلّقت بعض الطائرات من فوقه لإرهاب ضباطه».

واضطر مجلس قيادة الثورة، إلى إصدار بيان قصير قال فيه بالحرف:

«حفاظًا على وحدة الأمة، يعلن مجلس قيادة الثورة عودة الرئيس اللواء محمد نجيب رئيسًا للجمهورية، وقد وافق سيادته على ذلك ..».

وفى اجتماع مجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ مارس، الذى استمر خمس ساعات متصلة، أعلن صلاح سالم على الشعب القرارات الشهيرة التى كانت تنص على ما يلى:

١- يُسمح بقيام الأحزاب.

٢- مجلس الثورة لا يؤلف حزبًا.

٣- لا حرمان من الحقوق السياسية لأى مواطن.

٤- تُنتخب الجمعية التأسيسية انتخابًا حرًا مباشرًا بدون تعيين، ويكون لها السيادة والسلطة الكاملة.

٥- حل مجلس الثورة فى ٢٤ يوليو المقبل، باعتبار الثورة قد انتهت، وتسلم البلاد لممثلى الأمة.

٦- تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها.

وأحدثت هذه القرارات دويًا هائلًا فى الحياة السياسية لمصر، وتوقع البعض بزوغ فجر الديموقراطية، وخاصة بعد أن تم الإفراج عن الإخوان المسلمين، وإلغاء قرار حل الجماعة، وذهب جمال عبد الناصر ورفاقه، ومعهم محمد نجيب إلى منزل المرشد العام للإخوان المسلمين بحى الروضة للتصالح، والاعتذار عما بدر منهم من أكاذيب وافتراءات فى حق المرشد والجماعة، كما قام الهضيبى بتهدئة الخواطر بين جمال عبد الناصر ورئيس الجمهورية محمد نجيب، وكنا يومها نحتشد حول منزل الهضيبى بأعداد غفيرة نشهد تلك اللحظات التاريخية.

لكن العالمين ببواطن الأمور كانوا يتحسبون وقوع أحداث خطيرة؛ إذ كان بالإمكان فى هذا الوقت الإطاحة بالنزعة الدكتاتورية ورجالها، ولم يكن مرشحًا للقيام بهذه المهمة إلا الجيش والإخوان المسلمون كقوة شعبية غالبة منظمة، لكن الفرصة أفلتت بسبب: طيبة قلب نجيب وسماحته وصدق نواياه.

لانشغال الإخوان بتضميد جراحهم بعد الخروج من المعتقلات، ولم شملهم، ورغبتهم الأكيدة فى اتخاذ الأسلوب الديموقراطى السلمى. للوعود البراقة، والقرارات التى أصدرها مجلس الثورة. لتجنيب البلاد الفتن والدماء. للتصالح الذى تم بين الجهات المتصارعة فى الجيش. ولتشتت الأحزاب الأخرى وضعفها وتمزقها وخوفها.

نقول كانت المؤامرة تدبر فى الخفاء لوأد الديموقراطية، ولكى يتراجع مجلس قيادة الثورة، عن قراراته الخطيرة، وفى يوم ٢٨ مارس ١٩٥٤ أضرب عمال اتحاد النقل المشترك الذى يسيطر على مواصلات القاهرة، واعتصم العمال، وتم استدعاء إدارات النقابات الأخرى، لتتخذ قراراتها بالإضراب والاعتصام، وفقا للتنسيق مع هيئة التحرير التى يتزعمها طعيمة والطحاوى، وأخذت دار الإذاعة المصرية، فى إذاعة قرارات النقابات حتى من قبل اتخاذها فعلًا، وانتقل الاضطراب من القاهرة إلى خارجها طوعًا أو كرهًا، حتى شلت حركة المواصلات فى البلاد تمامًا، وذهب المضربون إلى مجلس الدولة واقتحموه وضربوا الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى، فكانت وصمة عار فى جبين الثورة، لاعتدائها على سدنة القانون، وحماة الدستور.

وانتشر رجال الأمن والمخابرات يحطمون كل معارضة، ويقمعون أى فكر بناء، وقبض على عدد من رجال الصحافة والسياسة وساد الرعب والإرهاب وحددت إقامة عدد من الضباط المؤثرين، وإزاء هذا الموقف قرر محمد نجيب أن الأمور بينه وبين أعضاء مجلس الثورة، قد وصلت إلى نقطة اللاعودة، لكن عبد الناصر وزملاءه أصروا على بقائه رئيسًا للجمهورية، ورئيسًا لمجلس الثورة، حتى لا تحدث انتكاسة كانتكاسة أواخر فبراير سنة ١٩٥٤، وخلت الساحة لمجلس قيادة الثورة بعد هذا الإضراب، فأخذت فى الانتقام من كل القوى السياسية المعارضة كما قلنا، كما أخذت تعد السجون والمعتقلات مرة أخرى استعدادًا للزج بالإخوان المسلمين فيها باعتبارهم القوة الوحيدة المناوئة، التى تهدد سلطانهم، وتقف لتجبرهم وسطوتهم، كما أجريت تنظيمات وتعديلات كثيرة، فى صفوف رجال الأمن والجيش، والإعلام استعدادًا لليوم المرتقب.

كنا فى الإخوان المسلمين نعرف ذلك، وندرك أننا مقدمون على كارثة، وكانت الأحداث تمضى بسرعة رهيبة، ولعب الطامعون فى الداخل، والحاقدون فى الخارج أدوارهم الرخيصة فى التحريض والاستعداد، ولم يكن أمامنا حل سوى التنبيه إلى ما قد يحدث فى اجتماعاتنا وصحفنا ولقاءاتنا مع بعض المنتمين لمجلس الثورة، وكان واضحًا أن عبد الناصر يريد أن ينفرد بالحكم، وأن يتخذ أى وسيلة للوصول إلى هدفه، وأحاط نفسه بنخبة من الخبراء فى الدعاية والإعلام، وفى التصدى للمناوئين والمعارضين، حتى قيل أنه استقدم بعض المتخصصين من أوربا وأمريكا وروسيا فى هذه المجالات كلها، كى يدربوا كوادره لليوم الموعود.

كان نجيب يميل إلى المهادنة والتفاهم والصبر، وهذا ما أفقده الكثير من قوته كرجل ذى شعبية كبيرة، وكان الهضيبى ملتزمًا بالأسلوب الديموقراطى فى حركته، وكانت تحركات الإخوان أبطأ مما يجب، ربما للأسباب التى ذكرناها بعد خروجهم من المعتقلات، وربما استنادًا إلى شعبيتهم الكبيرة، واتفاقهم فى الرأى والتحليل مع محمد نجيب. وربما لتأفف جميع الأحزاب من حركات التطهير

والتمزيق التى قادها عبد الناصر ضدهم.

كانت الأحداث تجرى بسرعة كما قلنا، وحدثت مقدمات لا تخفى على العين الراصدة، لقد بدأت الحكومة فى اعتقال بعض العناصر الإخوانية الفعالة، وافتعلت حادث « مسجد شريف » بالروضة، وتم اعتقال خطيب الجمعة فى ذلك اليوم زعيم الطلبة الأستاذ حسن دوح وبضعة أنفار معه، كما افتعلت الحكومة أيضًا حادثًا مشابها فى « مسجد عزيز فهمى » بطنطا، واعتقل فيه أيضًا خطيب الجمعة الأستاذ فتحى عرس، واعتقل عدد من أعضاء الجهاز الخاص الذين لم يستجيبوا لإغراءات أو تهديد الحكومة، مثل سيد الريس، وحدث نفس الشىء فى كثير من الشعب والمساجد بأنحاء البلاد، كل ذلك قبل حادث المنشية الشهير بالإسكندرية، وعلم الهضيبى بعد عودته من رحلته إلى سوريا ولبنان أن النية متجهة لاعتقاله، فاختفى عن الأنظار فى مكان غير معروف، واتضح فيما بعد أنه فى الإسكندرية، وقد حاول بعض أفراد الجماعة، وخاصة ممن هم على صلة قديمة وطيبة بعبد الناصر، وقف الصدام المرتقب دون جدوى..

ثم كان ذلك الحادث الغامض المشبوه، حادث المنشية، الذى أطلق فيه الرصاص على جمال عبد الناصر ونجا من الإصابة، عندئذ اندلعت أبشع حرب عرفها الناس حتى ذلك التاريخ ضد جماعة الإخوان المسلمين، مما لم يكن له مثيل فى بشاعته وفظاعته فى تاريخ الأمة الإسلامية والعربية الحديث..

لقد اغتنم جمال عبد الناصر هذا الحادث الذى جرى يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤ لتصفية حركة الإخوان على يد زبانية السجن الحربى، وعلى يد محكمة الشعب التى تشكلت برئاسة جمال سالم، وكانت خاتمة المأساة بالنسبة لمحمد نجيب يوم الأحد ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ حين دخل عليه عبد الحكيم عامر، ومعه قائد الجناح حسن إبراهيم، وذلك فى مكتب نجيب بقصر عابدين، وطلبا إليه الخروج معهما ليصحباه إلى منزله للاعتكاف فيه أسبوعًا أو أسبوعين، إلى أن ينتهى التحقيق الذى ظهر فيه اسم الرئيس نجيب متورطًا - كما يزعمون - مع الإخوان المسلمين فى محاولة اغتيال جمال عبد الناصر، وقال محمد نجيب: « إن ما تقولانه يشير إلى أن لى علاقة بمحاولة اغتيال عبد الناصر، وأنتما تعرفان أنه ليس من طبعى الاغتيال ..».

رد عليه عبد الحكيم عامر قائلًا: « ولهذا جئنا نرجوك أن تعتكف فى منزلك حتى لا يستغل أولاد الحرام الموقف، ويثيروا فتنة، نحن أعرف الناس ببراءتك منها، ودلالة على مدى احترامنا لك، فقد جئت خصيصًا لتوصيلك إلى منزلك محاطًا بالإجلال والاحترام ». وأمام إلحاح عبد الحكيم، وبعد أن أقسم له بشرفه العسكرى، خرج الرئيس محمد نجيب من مكتبه، ودخل إلى السيارة المنتظرة، التى سارت به وبمرافقيه، لا إلى منزله بالزيتون ولكن إلى قصر السيدة زينب الوكيل « حرم النحاس باشا » بالمرج، الذى ظل به تحت الإقامة الجبرية، حتى صرحوا له بالخروج تحت الحراسة عام ١٩٦٠، وبعد أن تولى أنور السادات الحكم، رفعت عنه الحراسة، وعاد ليزاول حياته الخاصة.

وحدث رد فعل عنيف فى مصر والسودان على وجه الخصوص.. وحضر وفد من السودان على مستوى عالٍ ليتوسط فى موضوع نجيب، فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن قال سنكتفى بعزله وعدم محاكمته، وهو يعلم علم اليقين أن الرجل برىء تمامًا من أية تهمة، وعندئذ تراجعت قضية « وحدة

وادى النيل » أى الوحدة بين مصر والسودان، تراجعت إلى الوراء كثيرًا، بل إن حزب الأغلبية الذى ظل سنوات طويلة يدعو إلى اتحاد مصر والسودان، والذى يتزعمه الأزهرى رحمه الله، تحول إلى الدعوة إلى استقلال السودان عن مصر، وإنشاء جمهورية منفصلة، وقال الكثيرون من السودانيين: لا يمكن أن نسلم رقابنا لضباط الثورة فى مصر كى يذيقونا الأمرين، ومن ثم لا يمكن لأى مؤرخ منصف أن ينكر أن الضربة التى وجهت إلى محمد نجيب الذى يحبه السودانيون حبًا شديدًا، كانت سببًا مباشرًا وأساسيًا فى انفصال السودان عن مصر، لقد ظلت مصر طوال العهد الملكى محافظة على تلك الرابطة السودانية المصرية، وكان النحاس يردد « تقطع يدى، ولا يقطع السودان عن مصر »، ولم يكن هناك فرق بين سودانى ومصرى فى ممارسة الحياة التجارية والتعليمية والثقافية فى القاهرة، لكن ذلك ذهب أدراج الرياح.. من أجل أن ينفرد جمال عبد الناصر بالسلطة.. وبعد سنوات ذهب ليبحث عن الوحدة بعيدًا عن السودان..

وفى خضم أيام الرعب والإرهاب وأكاذيب الصحافة والإعلام، انكمش الناس فى مصر، وحاول كل فرد أن ينجو بجلده، وأصبحت الحرية حلمًا من الأحلام، وأصبح الأمل ألا يتعرض المواطن لشك أو مؤاخذه تودى به إلى غياهب السجون.. وربما الموت..

وأصبح الشعار السائد « وأنا مالى ».. « لنربى أولادنا ».. « ولا يهمنا إلا لقمة العيش ».. ويستطيع الناظر فى صحافة تلك الفترة أن يرى الأعاجيب والأكاذيب التى لا حصر لها، ويقرأ لكتاب كبار.. وصغار.. مقالات لا تصدر إلا عن عبيد.. أو حاقدين.. أو عملاء.. وتشوه كل شىء.. حتى الصفحات النيرة المشرقة فى تاريخ مصر تلوثت.. تلوثت سمعة علماء الدين.. قاضى محكمة الشعب يطلب من أحد المتهمين أن يقرأ فاتحة الكتاب « بالمقلوب ».. كلمات قذرة بذيئة توجه للمتهمين.. الإخوان عملاء لإسرائيل التى كانوا يحاربونها بالأمس.. الإخوان عملاء للإنجليز الذين كانوا يقاتلونهم فى القنال ومعهم بعض الضباط الأحرار.. قيادات الجماعة منغمسة فى الإثم والفجور.. وأخذ محمد حسنين هيكل « قلم النكبة والنكسة والديكتاتورية » يدبج المقالات المقنعة الكاذبة.. ويؤلف الأدلة، ويزيف البراهين.. وأخذ يسمى حياة الدكتاتورية والعبودية « بالحكم الشمولى ».. ويضع شعارات « الرجعية » و« الثورة المضادة ».. و« لا حرية لأعداء الشعب ».. حتى نجوم « ساعة لقلبك » بالإذاعة أخذوا يؤلفون البرامج والنكت المضحكة حتى يضحكوا الشعب على حساب المجاهدين المؤمنين.. وشاعر العامية بيرم التونسى هو الآخر يكتب فى مجلة التحرير قصيدة يقول فيها:

كفاية يا مصر لو يبقى الهضيبي وأعـوانـه عـلـى عـرش الإمـارة
وتسلم مصر من عيلة الدخاخني إلى عيلة الخواتكى أو شراره

ويظل ينظم شعرًا يقول فيه عن حال مصر لو حكمت بالشريعة، إذ إن الحدود لن تقام، وسوف يكون « الحشيش ملو السيجارة » - على حد تعبيره، ولن تقطع يد اللص، ولا الزانى يرموه بالحجارة..

بالإضافة إلى آلاف الرسوم الكاريكاتيرية، والمقالات الآثمة التى تتناول أعراض الناس، دون أن يسمح لأحد بالرد.

أقول.. ذهب نجيب إلى منفاه.. وأخذ الهضيبى وإخوانه إلى السجن.. وانكمشت الأحزاب

القديمة، فلم يعد أحد يسمع لها صوتا، وتوارى المخلصون من الضباط، وبعض الضباط الأحرار الذين شاركوا فى الثورة، وكانوا ينتمون إلى الإخوان المسلمين، إما سجنوا وإما هجروا مصر، ومن الذين سجنوا. حسين حموده. فؤاد جاسر. جمال ربيع. سعيد بلبع. نجيب عطيه. عز الدين صادق. أحمد رمزى. معروف الحضرى « بطل فلسطين ». عمر أمين .. الخ.

ومن ضباط الشرطة، ذوى التاريخ الحافل سجن أيضًا: صلاح شادى. كمال عبد الرازق. جمال إسماعيل. عباس أبو كرم...الخ. وممن غادروا مصر: عبدالمنعم أمين « المشهور بعبد المنعم عبد الرؤوف ». أبو المكارم عبد الحى. وعبد المنعم أمين من الشخصيات ذات التاريخ الحافل، فقد شارك مع أنور السادات فى قضية تهريب عزيز المصرى باشا، وكان من أوائل الضباط الذين سبقوا عبد الناصر فى إقامة تشكيلات بالجيش على أسس عقائدية سليمة، وشارك بجهد كبير فى أحداث الثورة بصورة رئيسية، ثم حاول عبد الناصر التخلص منه، فهرب من سجنه، وسافر إلى الأردن حيث عمل نائبًا لرئيس الحرس الوطنى هناك، وطارده عبد الناصر، فذهب إلى بيروت، ولم يكف عبد الناصر عن مطاردته، فأخرجوه من بيروت حيث قصد تركيا، وعاش هناك ثلاثة أعوام يشتغل بائعًا جوالًا، وأبى أن يتحالف مع أية جهة غير مصرية لمحاربة عبد الناصر، ورضى بحياة الفقر والنكد، حتى عاد إلى بيروت مرة أخرى بعد أن سمحوا له بتوسط أهل الخير، وظل بها حتى مات عبد الناصر، وجاء السادات، وعفا عنه، إذ كان قد صدر ضده حكم بالإعدام غيابيًا أيام عبد الناصر، وعاد إلى مصر فى أخريات حياته، حتى توفاه الله بعد سنوات قليلة.. والغريب فى الأمر أن عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قد ظلا على ولائهما لزوجه التى مُنعت من السفر إلى خارج مصر هى وابنتاها.. وكان يصرف لهما معاش شهرى، وتم تزويج البنتين بضابطين من القوات المسلحة بإشراف عبد الحكيم عامر وحضوره الزفاف، وذلك تقديرًا للدور الريادى والرئيسى الذى لعبه عبد المنعم أمين فى إنجاح الثورة.. وماتت زوجة عبد المنعم قبل العفو عنه، ماتت إثر نوبة من مرض السكر الذى كانت تعانى منه. فى بيتها الكائن على ناصية شارع قدرى باشا بالسيدة زينب.. ولقد كانت زوجتى زميلة للبنتين فى المدرسة، وكانت على اتصال دائم بهما وبأمهما..

وذات يوم أذكره جيدًا.. جاءت زوجتى محتقنة العينين باكية.. وعلمت منها أنها ذهبت لزيارتهن، فوجدت الباب مغلقًا بالقفل.. وسألت الجيران عن السيدة « أم عزة » زوجة عبد المنعم، وعلمت بوفاتها.. فلم تتمالك دموعها... وكان عبد المنعم رحمه الله قد تزوج فى بيروت، وأنجب عددًا آخر من البنات.. بالحديد والنار، خلا الجو لعبد الناصر.. وأصبح حاكم مصر بلا منازع.. وامتلأت ساحات الحكم بالمنافقين والمادحين، وفلاسفة التبرير والتأييد والتأليه.. وفسد الفكر.. وفسد الفن.. وضاعت الحرية.. وكأنى به يقول: « أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من تحتي؟ ».

إنها العبارة التى وردت على لسان فرعون فى القرآن الكريم.. وسرعان ما اختفى اسم محمد نجيب من الصحف والمجلات، وعدلت كتب التاريخ فى مدارس الدولة، وتحول المؤرخون إلى الحديث عن « القائد الحقيقى » للثورة جمال عبد الناصر!!، وحذف اسم محمد نجيب من الكتب، بل أكثر من ذلك حذفت أسماء بعض الضباط البارزين الذين شغلوا الصحف والإذاعة لفترة طويلة، يروى الأستاذ حلمى سلام رئيس تحرير جريدة الجمهورية سابقًا، أن صلاح سالم اتصل به فى عام ١٩٥٨ وقال: « تصور

يا حلمى.. لقد حذفوا اسمى من معاهدة الجلاء التى وقعت عليها فى عام ١٩٥٤.. حذفوه وأنا حى.. ولم يمض على توقيعها إلا أربع سنوات، فماذا سيفعلون بى بعد أن أموت؟ لقد جاءت ابنتى من المدرسة وقالت لى: لقد قلت لى يا أبى أنك ممن وقعوا على اتفاقية الجلاء، وها هو كتاب المدرسة وليس فيه اسمك ..».

يقول حلمى سلام: «وكان صلاح منفعلًا وثائرًا.. لكنى طمأنته، وقلت له إن التاريخ سوف يعيد لك حقك.. وفعلًا بعد شهور صدر كتاب «فى أعقاب الثورة المصرية» لمؤلفه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، وكان فى تسجيل لمعاهدة الجلاء ومثبت به توقيع صلاح سالم، فبادرت بالاتصال به تليفونيًا، وأخبرته بالأمر، وكانت سعادته عند سماعه النبأ فوق التصور ..».

وتناول العبث ثورة ١٩١٩ العظيمة، وتاريخ أبطال الثورة وقادتها الأفذاذ، بحجة خلوها من المضمون الاجتماعى، وتجاهلها لحقوق الفلاحين.

وفسدت الحياة الاجتماعية والأسرية بصورة غريبة، وإنى لأذكر هذه الواقعة بكل أسف، فقد كان لى صديق من القيادات العمالية فى نقابة السكك الحديدية، هو الأخ «على الشربينى»، وكان له ابن متزوج اسمه مصطفى تربطنى به هو الآخر علاقة حميمة، وذات يوم اكتشفت أن هناك قطيعة تامة بين الأب «على» وابنه «مصطفى»، وبطبيعة الحال حاولت القيام بمساعى الصلح بينهما، لكنى فشلت مرارًا وتكرارًا، وذلك لأنى لم أستطع معرفة سبب القطيعة، وذات يوم ألححت على الأب إلحاحًا شديدًا، كى يشرح لى سبب ما حدث، وبعد محاولات وضغوط قال الأب فى غضب وعيناه تدمعان: «هذا الكلب كاد يسلم عنقى لحبل المشنقة ..».

صحت فى دهشة: «كيف؟»

- «كتب فيَّ تقريرًا سريًا للمخابرات يتهمنى فيه بعداء النظام، وباستغلال نفوذى، وأنت تعلم أنى نقابى، ومكلف بمسئوليات سياسية هامة.. ولولا أنهم فى التحقيق أعطونى الفرصة للدفاع، وللتدليل على كذب الاتهام، واستدعاء الشهود لكنت قد انتهيت.. وكانت حجتى أن ابنى فعل ذلك لأننى تزوجت غير أمه.. أنا أعرف أن الحكومة قد أفسدت الشباب بتكليفهم بكتابة التقارير السرية، وإعطائهم أهمية تفوق الحقيقة.. واستطاعوا أن يسخروهم أبشع تسخير.. حتى ضد آبائهم وأسرهم.. تصور ..».

لم أكن أتصور أن الأمر يصل إلى هذا الحد من الانحراف، وكانت الحكمة تقتضى أن أنصرف عن هذا الموضوع كلية، لكننى استطعت بلباقة أن أتناقش مع الابن مصطفى، وأشرح له أصول العلاقة المقدسة بين الآباء والأبناء، وحقوق الأب نحو ابنه، وكيف أن خلافات الرأى السياسية لا يصح أن تدفع الابن لكى يلقى بأبيه فى محاكمة أو سجن..

وعلى نفس الصورة فسدت العلاقات فى دواوين الحكومة، وبين الأصدقاء والجيران، وتدخلت الأهواء الشخصية فى الأمر، وانتشرت الشكاوى الكيدية، فصاحب البيت إذا تضايق من ساكن اتهمه بأنه من الإخوان المسلمين، وأنه يعقد اجتماعات فى بيته، والزيجة الفاشلة، تدفع الخطيبة إلى أن تتهم خطيبها بأنه من الجماعة المنحلة، والنكتة السياسية تلقى بقائلها وراء الشمس، وإظهار الغضب أو السخط، على غلاء الأسعار، أو اختفاء سلعة من السلع، أو إبداء الحنق لزحمة المواصلات، أو تأخير

المعاملات فى المصالح الحكومية، كان ذلك كله كفيلًا بأن يلصق التهم بالناس، مما جعلهم يتدربون على الصمت والكتمان، وإظهار خلاف ما يبطنون: وأذكر أننى كتبت العديد من القصائد حتى الآن وهى أغانى الغرباء، وعصر الشهداء، وكيف ألقاك؟ ومن القصائد التى وردت فى هذا المجال قصيدة بديوان أغانى الغرباء جاء فيها:

أبى مـا بـالـنـا نـمـضـي — وروح الـحـق مـقـهـورة
يُـقـال الـنـاس أحـرار — ودنـيـا الـنـاس مـهـدورة
وأحـلامـى وآمـالـي — بـسـجـن الـلـيـل مـأسـورة
أريـد الـفـجـر بـسّـامًـا — وأعـشـق يـا أبـى نـوره
قـطـيـع نـحـن يـا أبـتـى — ولا فـرقٌ سـوى الـصـورة
سـيـاط الـقـهـر تـدفـعـنـا — لـوادى الـعـسـف والـنـقـم

وفى نفس القصيدة يجيب الأب ابنته حينما تساءلت عن أخيها المسجون فيقول الأب:

أخـوك الـحـر يـا لـيـلـى — أراد الـنـاس أحـرارا
ويـمـقـت شـيـمـة الـعـبـدان — والإذعـان إن سـارا
ويـكـره شـيـعـة الـطـغـيـان — أن تـبـقـى لـنـا جـارا
أقـامـوا فـى طـرائـقـنـا — وحـول الـفـكـر أسـوارا
هـم الـذؤبـان يـا لـيـلـى — أثـاروا الـبـغـى والـعـارا
فـأقـسـم أن سـيـقـهـرهـم — وكـان الـبـر بـالـقـسـم

ولكى أتحايل على نشر تلك القصيدة الطويلة، أعطيتها اسم «سجين الجزائر» حتى لا تعترض الرقابة على أرض الجزائر إبان ثورة البطولة التى انتزعت الاستقلال فيما بعد.

كما استطعت أن أكتب عددًا من القصص والروايات مختبئًا وراء التاريخ، أو فى فترات زمنية لا تومىء بالشك نحوى، سواء فى الفترة التى كنت فيها داخل السجن أو خارجه، كنت أريد أن أعبر عما يختلج فى نفسى، وأعكس رؤى الأحداث الرهيبة التى تسود البلاد، ولم أجد وسيلة سوى ذلك، وكان يكفينى أنَّ الدلالات العامة للعمل الأدبى يمكن أن تنسحب على أى عصر من العصور إذا توافرت جوانب معينة لا تخفى على القارىء، أما الكتابات الصريحة، فكنت لا أستطيع نشرها، بل أتداولها مع الأصدقاء الموثوق فيهم سرًا، ومع ذلك فإنه لا يغنى حذر عن قدر، فقد وقع ديوان شعرى المخطوط ذات يوم فى يد ضابط السجن أثناء التفتيش المفاجئ، وكانت مشكلة، إذ أصر الضابط على استدعاء المباحث العامة، وتقديمى لمحاكمة جديدة من داخل السجن فى الوقت الذى كنت أمضى فيه عقوبة عشر سنوات، لكن الله سلم، فقد كان المدير فى سجن أسيوط رجلًا طيبًا ألوفًا مهذبًا آنذاك هو صدقى محمود على ما أذكر، فقد أقنع الضابط «زكى» الذى أمسك بالمخطوط بأن يتسامح وقال له: «يكفى ما هو فيه من نكد وضياع مستقبل.. ألا ترى أن عقوبة السنوات العشر أكثر من اللازم؟».

أحكم عبد الناصر قبضته، وشعرت آنذاك أن السواد يعم كل شىء، وكاد اليأس يتحكم فى النفوس تمامًا، ولم نعد نرى أملًا فى الخلاص أو التغيير، وما قرأت فى تاريخ مصر عن فترات حالكة مثل

تلك الفترة، حتى أيام الحملة الفرنسية والاستعمار الإنجليزى وإبراهيم عبد الهادى.. لكنى قرأت ذات يوم رسالة من الأستاذ أمين الخولى « شيخ الأمناء، وزوج الدكتورة بنت الشاطئ » جاء فيها « ... الفلك دوار، ولم يدق فيه مسمار ...».

فى مصر يعجب رواد السينما بما نسميه « الشجيع »، وهو بطل المسلسلات السينمائية قبل عصر التليفزيون، وكان بطل المسلسل أو « الشجيع » كما يسميه العامة، يأتى بأعمال تكاد تكون خارقة، ويهزم المهاجمين، وينجو من المآزق الخطيرة، ويوجه اللكمات القاتلة، ويتسلق البنايات، ويثب فوق الأسطح، ويفوز فى النهاية بحبيبته، وكان رواد « الترسو » أقل درجات السينما، يحرصون على متابعة تلك المسلسلات السينمائية، وأغلبهم من المتسولين وجامعى أعقاب السجائر واللصوص والعاطلين والتلاميذ الصغار.

كانوا يرون « الشجيع » على الشاشة، ويرون « الفتوات » فى الأحياء الشعبية، لكنهم لأول مرة يرون « الشجيع » على مسرح السياسة.. ذلك « الشجيع » الذى يسب رؤساء الدول، ويطرد الوزراء، ويقبض على الكبار ويحاكمهم ويضعهم فى السجن، ويسخر من الملوك والباشاوات والأغنياء، ويطرد السفراء خلال أربع وعشرين ساعة، ويدبر الانقلابات، ويمد أصدقاءه بالسلاح، ويسحق معارضيه دون رحمة..

وكانت جماهير « الشجيع » لا تتعمق قضية، ولا تعرف أبعاد حدث من الأحداث، وهكذا بدأت شعبية عبد الناصر فى الشارع، بعد أن أحاط نفسه بقوة عنيفة من رجال الأمن والمخابرات، وكان عبد الناصر شكلًا فارع الطول، قوى الصوت، يجيد الخطابة بالعامية والفصحى، دائم التوتر، دائم الصخب، قلما يضحك فى الاجتماعات العامة..

أصبحت القوة التى يمثلها، والرعب الذى يبثه أعوانه، والإعلام الواسع الذى يتغنى باسمه، أصبحت هذه كلها - ولو إلى حين - قادرة على أن تصنع له مجدًا ومكانة، لا يمكن أن يتحققا إلا فى دولة من دول العالم النامى.. لقد كان خديعة كبرى رغم كل شىء.. ترى ماذا كان يحدث لو بقى نجيب، وسادت الديموقراطية كما حدث فى اليابان والهند وإسرائيل.. أكان يمكن أن يتحول المسار؟ الله أعلم..

***

[٥] الحل الأول أوائل عام ١٩٥٤



حينما قامت الثورة أشيع أن الإخوان هم الشريك الأول فيها، حتى أن الملك فاروق عندما ذهب إلى منفاه فى إيطاليا بعد أن طرد يوم ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢، وتنازل لولى عهده الأمير أحمد فؤاد عن الملك، كتب مذكراته بعد شهور، وذكر فيها أن الثورة قام بها الإخوان المسلمون، وبتمويل من الشيوعيين « هكذا!! »، وكان استنتاج فاروق الساذج مدعاة للسخرية، وعلقت عليه الصحف آنذاك، ورد سكرتير عام الإخوان المسلمين عبد الحكيم عابدين رحمه الله على مزاعمه، وكذلك بعض المنتمين إلى مجلس الثورة، ومما لا شك فيه أن الإخوان أيدوا الثورة منذ انطلاقها، وكان فيها عدد من الضباط الإخوان كما ذكرنا، منضمين إلى تنظيم الضباط الأحرار، صحيح أن الثورة لاقت تأييدًا شعبيًا كبيرًا منذ قيامها، لكن تنظيم الإخوان وكوادرهم المنتشرة فى كل مكان من أنحاء البلاد، وفى المؤسسات المختلفة بما فيها الشرطة والجيش، قد جعل لتأييدهم ثقلًا من نوع معين، ثقلًا فعالًا، يختلف تمام الاختلاف عن التأييد الشعبى غير المنظم، والذى لا يملك قوة تأثير منظمة، تستطيع أن تتدخل فى الوقت المناسب، كما كان اللواء محمد نجيب الرجل المحبوب المتزن على رأس الثورة فى ذلك الوقت، وهو ذو تاريخ ناصع.

وكانت الثورة فى بدايتها فى حاجة ماسة إلى هذا الدعم الإخوانى المنظم، وهذا ما جعلهم يطلبون من المرشد العام ترشيح ثلاثة وزراء فى وزارة الثورة ممثلين للإخوان المسلمين، ولم يتم هذا المشروع، لأن الإخوان رفضوا أن يشاركوا ويتحملوا العبء والمسئولية الرسمية دون شروط مسبقة واضحة محددة، وهذا ما جعل جمال عبد الناصر يصرح فيما بعد، بعد أن اتخذ العدة، ونوى الغدر « إن الثورة لا تقبل وصاية عليها من أحد » وكان يقصد بذلك « الأحد » الإخوان المسلمين، وكان يقصد بكلمة « وصاية » الشروط التى قدمها الإخوان فيما يتعلق بالحريات العامة والدستور، وتحمل العسكر لمسئولية الحكم..

وبإيجاز شديد، فإن العلاقة بدأت تسوء بين الطرفين، وبدأ العد التنازلى كما يقولون، وجدت أمور، وجرت أحداث لا يتسع المجال للإفاضة فيها، وفى يوم من الأيام فى أوائل عام ١٩٥٤ عقد مؤتمر بجامعة القاهرة، ومن الطريف أننا وجدنا فى هذا الاجتماع شابا ملتحيا يلبس شالًا أخضر وعمامة، وينطق العربية بصعوبة.. كان ذلك الشاب هو « نواب صفوى » الإيرانى الجنسية، وزعيم منظمة « فدائيان إسلام » الإيرانية الشهيرة، وكان هذا الرجل على عداء سافر ومعروف بشاه إيران محمد رضا بهلوى آخر أباطرة تلك الأسرة، التى قضت عليها الثورة الإيرانية بقيادة الخومينى.. كان « نواب صفوى » متوسط الطول، متوقد الحماس، وأخذ يهتف معنا بقوة وحرارة « الله أكبر ولله الحمد »، وقد لعب نواب صفوى دورًا بارزًا فى ثورة « آية الله الكاشانى »، وفى الحركة التى قادها « مصدق » رئيس وزراء إيران لتأميم البترول، والخروج على إرادة الغرب، وقد اتهم « نواب صفوى » فى محاولة اغتيال

الشاه التى جرح فيها، وفى الترتيب لقتل « رازمارا » وفى عدد آخر من القضايا السياسية التى شغلت إيران والعالم آنذاك. وكان « نواب » قد استقبل فى مصر استقبالاً حافلًا، وحضر بعض الاحتفالات الشعبية الكبيرة التى خطب فيها عبد الناصر.. لكن الأمر تغير بعد هذا اليوم.. يوم المؤتمر.. فبينما كان المؤتمر منعقدًا، إذ بسيارة « جيب » تقتحم الجموع فى ساحة جامعة القاهرة، وفيها عدد من الشباب الذين جمعتهم الثورة فى منظمة الشباب، ومن شباب « المؤتمر الإسلامى » الذى أنشأه عبد الناصر حديثًا برئاسة أنور السادات، وكان يتزعم هذه المجموعة من الشباب شاب أذكر أن اسمه « يعقوب »، ومن الغريب أن هذه المجموعة كانت مسلحة بالمسدسات والعصى والكرابيج، وانهالوا على الموجودين ضربًا.. كنت أقف على مقربة من المنصة، نحرسها فى دائرة ونحن متشابكو الأيدى.. وقفنا مذهولين بعض الوقت، لكن سرعان ما اندثر أثر المفاجأة، وهجمنا عليهم وجردناهم من السلاح والعصى والكرابيج وأمسكنا بهم، ولم يكن الأمر سهلًا، فقد أصيب البعض منا بجروح، وكان أحد الإخوان يقف وأثر السوط على وجهه الدامى، ولست أدرى ماذا حدث؟ فقد انقلبت سيارة الجيب، واشتعلت فيها النيران، وتم تسليم المعتدين للشرطة.. كنا حتى ذلك الوقت حسنى النية، لكننا وجدنا الشرطة تتدخل لصالح المعتدين، ووجدنا عددًا كبيرًا من رجال الأمن والمخابرات، واختلط الحابل بالنابل، وسمعت أحد الإخوان يهتف « يسقط الطحاوى المجرم » وكان الطحاوى هو ضابط من الضباط الأحرار، ويتزعم هذه المنظمة « منظمة الشباب » الجديدة.. ورأيت « نواب صفوى » هو الآخر يهتف بلهجته العربية المميزة « يسقط الطحاوى المجرم » وكانت « الحاء » مقلوبة إلى « هاء » فى هتافاته..

وانفض المؤتمر فى جو عاصف، وبدأت حملة اعتقالات سريعة فى نفس اليوم لأعداد هائلة من قيادات الإخوان فى المركز العام ومن الشباب الجامعى أيضًا، وكم كانت دهشتنا عندما خرجت الصحف فى اليوم التالى تندد بالإخوان المسلمين، وبأنهم لم يطيقوا أن يسمعوا صوتًا آخر للثورة فى الجامعة « يقصد منظمة الشباب ». وبأن الإخوان اعتدوا بالضرب على شباب الثورة، وأشارت الصحف إلى أن الهضيبى اتصل بالإنجليز من خلف ظهر الثورة، ودللوا على ذلك بمحادثات « الهضيبى إيفانز » التى سبق وتحدثنا عنها، وقلنا أنها كانت بالاتفاق مع مجلس الثورة، وأن محضر الجلسات قدم إليه، وأثنوا يومها على الهضيبى، وكانت الصحف تنشر أخبار تلك المحادثات أولا بأول، ولم يكن الهضيبى يطيل فى أحاديثه للصحف آنذاك، كان يعلق بجملة صغيرة.. المهم أن حكومة الثورة استغلت ذلك كله، واتهمت الإخوان فى وطنيتهم وشرفهم، ولفقت لهم التهم جزافًا وهكذا صدرت صحف ذلك اليوم تحمل قرار حل الإخوان المسلمين الأول فى عهد الثورة.. وامتلأت الصفحات الأولى بصورة قيادات الإخوان المقبوض عليهم، وامتلأت المعتقلات بالآلاف، وهرب من هرب، وتوتر الموقف، واندلعت المظاهرات، مما أدى إلى مزيد من الاعتقالات، وأفرج عن قتلة حسن البنا، وعن الذين عذبوا وقتلوا الإخوان قبل ذلك، نكاية فيهم، ووقفت الأحزاب الأخرى تتفرج شامتة، وكانت غالبية الشعب تتوقع الهزيمة للحكومة، والإفراج عن الإخوان، وكان نفس الاعتقاد يساورنى، وخاصة بعد أن عزل نجيب فى المرة الأولى فى بدايات سنة ١٩٥٤، ثم تحرك الجيش، وخرجت الجماهير فى مظاهرات صاخبة، تندد بجمال عبد الناصر والمجلس، وفاضت أنهار الصحف بالاتهامات البذيئة ضد الإخوان، وزعموا أن الحكومة ضبطت كميات كبيرة من السلاح، لكن الهضيبى كتب رسالة تاريخية أرجو الرجوع إليها، فى جريدة « المصرى » آنذاك، لأن الرسالة هربت من ا لمعتقل إلى جريدة المصرى وحدها، ونشرتها كاملة، وهى من الهضيبى إلى جمال عبد الناصر، وفيها رد حاسم مفحم على ادعاء جمال

عبد الناصر واتهاماته، ثم ختم الهضيبي رسالته بآية قرآنية جاء فيها: ﴿.. فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وكان لهذه الرسالة عند نشرها وقع المفاجأة الصاعقة على المفترين، إذ تناقلها الناس، واستبد بها الحنق والضيق، ورأوا أن الثورة قد اختطت طريق الغدر والكذب والتلفيق..

وكاد تطور الأحداث المتلاحقة يسبب انهيارًا كاملًا، لولا براعة جمال عبد الناصر فى المناورة إذ أعاد نجيب إلى منصبه، وألغى قرار حل الإخوان، وأفرج عن الغالبية العظمى منهم، وعلى رأسهم المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبى، ومجلس الإرشاد ومعظم أعضاء الجمعية التأسيسية، وأبقى فى المعتقل على عدد من أفراد النظام الخاص، ولم يكتف عبد الناصر بذلك، وإنما ذهب بنفسه إلى الهضيبى فى بيته بالروضة – كما سبق وقلت – للمصالحة..

وكانت هناك قضية تسمى قضية « الجبهة الوطنية » قبل ذلك بقليل أو أثناء ذلك، وقد اتهم إحسان عبد القدوس، وجعلوه المتهم الأول، ووضع فى السجن الحربى لأكثر من شهرين، بسبب نقده اللاذع فى مجلته الشهرية « روز اليوسف » لسلوكيات بعض أعضاء مجلس الثورة، وتصرفاتهم اللاديموقراطية، وقال عن المجلس تحت عنوان كبير « الجمعية السرية التى تحكم مصر »، وكان ذلك بعد يومين من إعلان الثورة حرية الصحافة التى لم تستمر إلا ثمانى وأربعين ساعة، فاستغل إحسان الفرصة، وأصدر عددًا من مجلته تكلم فيه بحدة وصراحة.

وفى نفس الوقت قبض على عدد من الطلبة اشتركوا فى مظاهرة كبيرة فى جامعة « عين شمس » تندد بإهدار الحريات، وعندما قبض عليهم، ومن قلب المظاهرة وجدوا أنهم ينتمون إلى أحزاب مختلفة، فمنهم الإخوانى ومنهم الوفدى ومنهم المستقل.. لأن الاعتقال كان عشوائيا، والمظاهرة شاملة لكافة التيارات، وتقارير « عيونهم » لم تكن دقيقة.. المهم أنهم فى « المباحث العامة » أطلقوا عليهم اسم « الجبهة » وحاولو بشتى الطرق أن يجدوا صلة بين ما كتبه إحسان عبد القدوس وبين هذه المظاهرة، ففشلوا.. فكانت النتيجة أن أفرجوا عن إحسان.. وأمسكوا بهؤلاء الطلبة، وقدموهم لمحكمة عسكرية برئاسة الدجوى كما أتذكر.. وكان من هؤلاء الطلبة المرحوم محمود عجوة الطالب بكلية الهندسة، وهو أصلًا من الإخوان، والطالب « ... برهام » والطالب « .... القاضى » وغيرهم، وكنت قد التقيت بهم بعد ذلك فى السجن..

وكان السبب فى ضم المرحوم المهندس محمود عجوة إلى هذه المجموعة، أنه كان ممنوعًا من دخول كلية الهندسة أثناء الدراسة، وكان محمود جسورًا لا يعبأ بشىء، فأصر على الدخول، وعندما منعه الضابط، حمل الضابط على كتفه وجرى به داخل الكلية، وجاء شرطى لينقذ الضابط، فأمسك محمود بإبهام ذلك الشرطى وضغط عليه فسبب له خلعًا بسيطًا.. ولم يصب الضابط بسوء، وما إن عاد محمود إلى بيته حتى قبض عليه، ووجدوها فرصة لضمه إلى قضية الجبهة، بل وجعلوه المتهم الأول بدلًا من إحسان عبد القدوس، وسارت القضية فى مسارها المعروف، ولكنهم لم يجدوا أدلة على تكوين جبهة ولا مؤامرة ولا شىء.. فماذا يفعلون؟ اختاروا شخصية ضعيفة من المتهمين، ووعدوه بالإفراج عنه وجعله « شاهد ملك »، إذا نفذ ما يطلب منه فوافق، وكانت النتيجة أن ذلك المتهم أدلى باعترافات لا أساس لها، وقرر أن هناك جبهة، وأنهم كانوا ينوون كذا .. وكذا.. وبعد أن خرج ذلك المتهم أفشى السر، فاستغل أقارب المتهمين ذلك، ورتبوا تسجيل اعترافاته.. ثم سُلِّم الاعتراف للمحامى، فعرضه على رئيس المحكمة.. فأمر برفع الجلسة.. وفى الجلسة التالية قال رئيس المحكمة: « شريط التسجيل فقد ..».

فقال المحامى: « عندى نسخة أخرى.. وأريد أن نسمعها الآن فى جلسة سرية حتى لا تضيع هى الأخرى.. وأرجو إثبات ذلك فى محضر الجلسة ...».

قال القاضى المحترم: « ليس لدينا جهاز لتشغيل التسجيل ..»

- « رد المحامى معى جهاز التسجيل ..».

وهكذا ظلت المناورة حتى أعلن القاضى رفضه لذلك، وحكم على المتهم محمود عجوة بالسجن خمس سنوات قضاها كاملة، وهناك من حكم عليه ثلاث سنوات أو سنة واحدة، قضوها فى سجن مصر « قرة ميدان ».

أردت أن أروى تلك القصة البسيطة لكى أوضح كيف كانت تعد الاتهامات، وتلفق القضايا، ويزج بأصحاب الرأى المعارض فى السجون، وذلك سوف يتضح بصورة أكبر وأبشع فى « الحل الثانى » للإخوان فى عهد الثورة..

إذن تم « الصلح » الظاهرى بين الإخوان والثورة، وعادت صحف الإخوان للصدور من جديد، وانعقدت مؤتمراتهم الدورية، واجتماعاتهم وأنشطتهم المعروفة، لكن الصورة كانت متغيرة تمامًا، كان الإخوان يتوقعون ضربة ثانية، وتأكد ذلك من أخبار المتصلين بهم ممن هم على دراية بمجريات الأمور فى الحكومة، وتحير الإخوان كثيرًا فى الطريقة التى يواجهون بها الكارثة، هل يقابلون العنف بالعنف، والإرهاب بالإرهاب، أم يخلدون إلى الأسلوب الديموقراطى مهما كانت التضحيات؟ كان الهضيبى يميل للرأى الثانى ومعه أعضاء مكتب الإرشاد ومعظم أعضاء الهيئة التأسيسية، لكن جماهير الشباب كانوا يرون المواجهة الفورية مخافة فوات الفرصة، وكانوا لا يرون أن ا لثورة ستسير فى طريق الديموقراطية. وأن رجالها يأبون إلا الانفراد بالحكم، وأن التراخى يعنى مزيدًا من التمكن لهم، وقهر المعارضين، وخاصة بعد أن انتهت الأحزاب الأخرى بصورة فعلية.. لكن حسنى النية كانوا يستبعدون أن تشتط الحكومة فى غلوائها وعدائها، وتوقع البلاد فى مستنقع الانتقام والتنكيل والإرهاب.. فلا يمكن أن يفعل ذلك إنسان عاقل محب لوطنه..

ويبدوا أن الحكومة قد تضايقت من تصرف الضيف « نواب صفوى »، فتركت العنان للصحف كى تهاجمه، ثم اختفت أخباره فجأة، وسمعنا أنه طرد من مصر، وسمعنا أيضًا أن الحكومة قد سلمته لشاه إيران.. ولم تكد تمر بضعة شهور حتى سمعنا نبأ محاكمته فى إيران وإصدار حكم بالإعدام ضده.. ويومها كتب الصحفى المعروف « ناصر النشاشيبى » فى جريدة مصرية أظنها « الأخبار » مقالة فى إحدى يومياته يقول فيها: « عاش رخيصًا، ومات رخيصًا ..».

تألمت لهذه الكلمات.. لو كان « نواب صفوى » رخيصا، لما وضع روحه على كفه، ولما واجه الاستعمار وأذنابه فى أوج قوتهما، ولما قضى زهرة شبابه يواجه الموت هنا وهناك، كان فى إمكانه أن يعيش معززًا مكرمًا، ويتسنم أعلى المناصب لو سار فى ركب النفاق الرخيص.. لقد شعرت أن ناصر النشاشيبى يمسك بقلم رخيص، يكيل فيه السباب للأبطال والمجاهدين الذين لعبوا أعظم الأدوار على تراب وطنه، ووطننا فلسطين..

فى هذه الأيام أدركت أن السياسة بمفهومها المعاصر لا دين لها ولا ضمير.. أدركت أن كتاب « الأمير » للمجحوم « ميكافيلى » قد قنن الغدر والكذب والخداع وأطلق عليها مصطلح « سياسة »..

كانت السياسة بمفهومها ذاك، يختلف تمام الاختلاف عن السياسة التى جعلها الرسول ﷺ نسيجًا فى بنية الإسلام الشامل لكل نواحى الحياة..

وهذه هى القضية الرئيسية..

القضية بين قوم يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة كما يقول ميكافيلى وبين قوم نظفاء يؤمنون أن نبل الوسيلة من نبل الغاية.. وأنهما معًا يشكلان كائنًا عضويًا لا انفصام فيه ولا تناقض..

ويمكن أن نترجم ذلك إلى واقع فنقول إن عبد الناصر كان سياسيا بالمفهوم العصرى الميكافيلى.. وكان الهضيبى رحمه الله لا يمكن إلا أن يكون سياسيًا بالمفهوم الإسلامى الصريح الواضح..

من هنا عاب بعض المفكرين المعاصرين على الإخوان « سذاجتهم » وتباطؤهم حتى انقضت عليهم جحافل الغدر والخيانة دون رحمة..

وقال آخرون.. لماذا ندخل الدين فى السياسة؟ وما السياسة؟ أليست حكم الناس بالعدل، وتحديد حقوقهم وواجباتهم، وتوصيف العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ومعرفة وضع الفرد بالنسبة للمجتمع، وتحقيق التنمية والرخاء والحرية للجميع دون تفرقة من لون أو طبقة أو عقيدة؟ أليست السياسة إذن دساتير وقوانين؟ وماذا يكون الإسلام إذا فُرّغ من هذا المحتوي؟

وفئة ثالثة قالت إن الهضيبى دون مستوى حسن البنا بكثير.. ونسوا أن حسن البنا مرحلة والهضيبى مرحلة.. وإن لكل مرحلة ظروفها وملابساتها ورجالها..

إننى هنا لست فى موقف الدفاع عن هذا أو ذاك، أو فى موقف البحث عن مبررات لما حدث من انتكاسات وكوارث، ولكنى فى موقف العرض والتحليل من وجهة نظر الذى عايش الأحداث واكتوى بنارها، إن الحدث التاريخى أمر مضى ولا يمكن تغييره أو علاجه، لكن يمكن تقييمه، كى يستفاد منه مستقبلًا، لكن يا ويل المؤرخين الذين ينظرون إلى الحدث التاريخى مستعينين بوعيهم المعاصر، وما توفر لهم اليوم من إمكانات وأدوات.. إن مثلهم كمثل الذى يعقب على جيوش الخلافة العثمانية ويقول لماذا لم يستعمل الخليفة السلاح النووى أو طائرات الأواكس ضد أوروبا الحاقدة، التى احتشدت لترث تركة « الرجل المريض »..

إن الذين شاركوا فى صنع الأحداث التاريخية كثيرًا ما كانوا يقفون على أعتاب المجهول، ومن الصعب عليهم أن يلموا بكل العوامل التى تحرك الأحداث، أو يعرفوا كنه المستقبل، هم بشر يخطئون ويصيبون، تحكمهم مسئوليات وتقديرات ومبادئ، لا نستطيع إزاءها الحكم عليهم بالخطأ أو الضلال، والمنتصرون دائمًا يجدون ألف مادح، والمنهزمون يجدون ألف قادح، ولدى المنتصرين إمكانات هائلة، تجعلهم قادرين على تغطية أخطائهم، واختلاق أسرار عبقريتهم وعظمتهم.. ومن ثم يصنعون أصنام التاريخ حسب أمزجتهم وأهوائهم.. لكن إلى حين..

لقد ذهبت عروش.. وعهود.. وفلسفات.. وحكام.. وإلا فأين « فلسفة الثورة »؟ وأين « الميثاق »؟ وأين « بيان ٣٠ مارس » من برنامج الحكم فى مصر الآن؟ وأين « الكتاب الأحمر » لماوتسى تونج فى الصين، الذى كان يقرأه الطلبة فى المدارس، والعمال فى المصانع.. وسائقو الحافلات العامة.. وفرق كرة القدم والسلة والطاولة؟ وأين مقتطفات ستالين وخروشوف وأتاتورك وهتلر وموسوليني؟ أشياء كثيرة تأتى فى موجات مجنونة وتمضى.. وفلسفات تسيطر وتهيمن وتريق الدماء.. وتذهب.. لكن الشىء الذى يبقى ولا يزول هو « كتاب الله ».. نعم.. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ..﴾.

من يصدق أن المؤسسات الشرعية فى مصر الآن اعترضت على تكوين « حزب الناصريين »؟ من

يصدق أن قضاتها قد أصدروا أحكامًا بإدانة « عبد الناصر وحكمه »؟

وهل هذه الأحكام القضائية النزيهة الحرة أقل قيمة من كتب التاريخ التى ألفتها لجان رسمية بتكليف من الحكومة، فى وقت من الأوقات؟

لقد مرت بى أوقات ظننت فيها أن كل شىء قد انتهى.. لقد سيطر الظلم، واندثر العدل، وتغيرت القيم والأخلاق، واستبد بالناس اليأس، ثم استسلموا.. استسلموا للمصير التعس.. وأصبح همهم الأكبر، أن يعيشوا.. وأن يجدوا لقمة العيش..

لكنى كنت أعود لنفسى وأقول: « مستحيل.. مستحيل أن يستمر الوضع هكذا .».

والعمر مهما طال قصير... واللهفة فى قلوب الشباب عارمة..

ونحن نريد للآمال أن تتحقق الآن.. وليس غدا..

هكذا خلقنا الله ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ..﴾

نعم.. إن الإنسان كان - وما زال - عجولاً..

بعد أن تم الإفراج عن معظم الإخوان المسلمين، عقب إلغاء قرار الحل الأول، رأى البعض أن يهاجروا خارج مصر، وفعلوا، ورأى آخرون أن يتركوا العمل السياسى أو الدينى كلية، ويعتزلوا.. وفعلوا.. وانشقت قلة قليلة احتجاجًا على سياسة الجماعة التى تركت الحكومة تعبث بمصيرها.. وفعلوا.. وظلت الغالبية العظمى مصرة على السير فى طريق الإسلام رغم المخاطر التى تعترض الطريق، وبرغم النذر السوداء التى تتبدى فى الأفق..

❁❁❁

[٦] زيارة وداع إلى القدس



في بدايات صيف ١٩٥٤ أعلنت كلية الطب عن رحلة لفريق الجوالة إلى عدد من الدول العربية هي لبنان وسوريا والأردن وفلسطين «الضفة الغربية التى لم تكن قد احتلت بعد». وكانت لهفتى على الاشتراك فى هذه الرحلة عارمة، حيث لم يسبق لى عبور الحدود المصرية إلى أى بلد آخر، فكيف لا أخرج وأنا سأجد نفسى فجأة فى بيروت ودمشق وعمان والقدس وغيرهما من المدن العربية العريقة؟ كانت وسائل المعرفة والاتصال بالدول العربية فى تلك الفترة صعبة ومحدودة، ولا تتاح فرصة السفر إلا لبعض الأثرياء ورجال الأعمال والدبلوماسيين وغيرهم، ممن تمكنهم ظروف أعمالهم واستعدادتهم المادية، للقيام بمثل تلك الرحلات، وكانت معلوماتى عن الدول العربية لا تخرج عن كتب الجغرافيا الموجزة فى المرحلة الثانوية، وأخبار الصحف والمجلات، وبعض البرامج الإذاعية، ومؤلفات بعض الأدباء من شعراء وقصاصين وكتاب فى مختلف الفنون.

وكنا نعرف الكثير عن قصائد شوقى فى المناسبات التاريخية والقومية التى تخص البلدان العربية، ونعرف عددًا من زعماء التحرر الوطنى، والمعارك الشهيرة بين العرب والاستعمار، ومع ذلك فقد كانت روح الإخاء العربى – على الصعيد الشعبى – قوية للغاية، لم تكن ألاعيب السياسة وصراع التكتلات والمذاهب والتيارات قد أفسدت الإخاء العربى، وكان الوئام سائدًا بين مختلف الطوائف الدينية، والعقائد المختلفة، لم يكن الإخاء العربى مجال مناورات ومساومات وصراعات فردية للحكام..

عرضت الأمر على أبى، وكنت فى نهاية السنة الثانية لكلية الطب، وكنت أشك فى موافقته بسبب الصعوبات المالية التى يعانى بها، وكم كانت سعادتى عندما قال: «سأدبر لك المبلغ الذى يكفى.. وآمل أن تنجح فى هذه السنة الصعبة ..».

كان الامتحان يشمل مقررات عامين «الأولى والثانية»، ومعروف أن علوم التشريح والفسيولوجيا وهى ضمن المقررات تحتاج إلى جهد جهيد، يضاف إلى ذلك المعاناة السياسية التى حفل بها ذلك العام المتميز بتحولاته وأحداثه، ووفقنى الله ونجحت فى الامتحان، فلم يبخل الوالد عليّ بالاشتراك المطلوب للرحلة، ولا بالمصروفات الإضافية الأخرى.

كنا فى النصف الثانى من شهر يوليو سنة ١٩٥٤، ولبسنا الملابس الخاصة بالجوالة، وهى بسيطة للغاية، وحملنا بعض الملابس الداخلية والغيارات، ورحلنا بالحافلة إلى الإسكندرية، ثم صعدنا إلى إحدى البواخر اليونانية المتجهة إلى ميناء «ليماسول» فى قبرص، وكانت أماكننا على ظهر الباخرة، والبحر من حولنا، والسماء من فوقنا وكنت سعيدًا بهذا الجو الخلاب، ويبدو كل شىء أمامى وكأنه حلم جميل، كنت مبهورًا بما أرى وأسمع.. فالمسافرون من شتى الجنسيات.. والفتيان والفتيات يغنون

ويرقصون ويمرحون، والموسيقى تعزف، وأنا أرقب ذلك متحفظا فى دهشة ودقة، فإذا جاء وقت الصلاة أعتلى أحد افراد الفريق مكانًا عاليا بارزًا وأذن للصلاة، ثم نتراص فى صفوف لنصلى، والمسافرون ينظرون إلينا فى استغراب، ويبدو أن هذا المشهد لم يتيسر لهم من قبل.. وكان واضحًا أننا نحاول قدر الإمكان التقليل من النفقات، ولهذا كانت إقامتنا على ظهر السفينة، وكان طعامنا معنا، حتى لا نتورط فى شراء غذاء بأثمان غالية.. ومع ذلك فكل شيء كان يمضى رائعًا جذابا مثيرًا.. وأخذنا نختلط بالمسافرين ونتحدث معهم بالإنجليزية أحيانا، وبقليل من الفرنسية أحيانا أخرى، ونحفظ بعض الكلمات اليونانية، وفى المساء أقيم حفل راقص على ظهر السفينة، وجاء زعيم الجوالة ونبه علينا بعدم الاشتراك فيه، لأن فيه خروجًا على القيم الدينية التى نؤمن بها، واستجبنا بنفس راضية ما عدا ثلاثة معنا. لم يكونوا من نوعيتنا، هؤلاء رقصوا وغنوا حتى الفجر..

وبدت لنا من بعيد شواطئ قبرص، كانت تتجلى فى غبش الفجر غامضة جميلة منعشة، ورقصت قلوبنا من البحر.. هذه أول بقعة غير مصرية تقع عليها أعيننا، ونزلنا إلى شاطيء مدينة « ليماسول » فى التاسعة صباحًا.. وسمح لنا بجولة فى أنحائها، وللأسف فقد كان اليوم يوم أحد، والمحلات التجارية مغلقة، ومع ذلك سرنا فى شوارع المدينة التى لا يسير فى شوارعها إلا أعداد قليلة جدا من الناس، وبينما كنا نسير معا ونتحدث بالعربية، فوجئنا بصوت ينبعث من باب مفتوح ويتكلم بلهجة عربية صحيحة: « تفضلوا يا أهلًا بضيوفنا من مصر ..».

كنا خمسة من الزملاء، ووقفنا مسمرين ننظر إلى داخل البيت، وسرعان ما خرجت امرأة قبرصية « يونانية » ومعها رجل هو زوجها كما علمنا فيما بعد، وتبعهم بعض الأولاد، وصافحونا بحرارة.. وتحدثوا معنا فى مودة بالغة، وعلمنا من المرأة أنها عاشت وزوجها فى الاسكندرية حوالى عشرين عامًا، وأنه كان لديهم مطعم فى أحد الأحياء، وأنهم سعدوا أيما سعادة أثناء تلك الفترة، ولم يشعروا قط أنهم غرباء فى يوم من الأيام، وجلسنا فى الصالة نحتسى الشاى ونتحدث، لفترة ليست بطويلة، وأرشدونا إلى بعض الأماكن السياحية والحدائق، وأماكن تغيير العملة، حيث إن الجنيه المصرى حتى ذلك الوقت كان لا يزال قويا، ويعامل معاملة العملة الصعبة، وودعناهم شاكرين، ثم اشترينا بعض البطاقات المصورة وأسقطناها فى صندوق البريد فى الطريق إلى الأهل والأصدقاء فى مصر، ثم زرنا قلعة رومانية قديمة، وهى - كما قال مرشدنا السياحى - كانت سجنا يدفع فيه بالمجرمين والمعارضين السياسيين من فتحة فى مكان عالٍ، حيث يهوى السجين فى مكان سحيق، فتدق عنقه، أو تتحطم عظامه، وإذا كتب الله له النجاة، فيظل فى هذا الجب يأكل أقل الطعام والشراب، حتى تنتهى حياته، أو يسوق الله إليه من يخرجه من هذا العذاب.. كان الإنجليز يعسكرون فى مناطق مختلفة من قبرص، قلت لشاب قبرصى: « ولماذا لا تثورون عليهم وتطردونهم من بلادكم »!!

قال فى يأس: « إنهم يمتلكون الدبابات والطائرات.. ونحن كما ترى .....».

لم تكن لدينا فكرة - أية فكرة عن وضع قبرص فى تلك الفترة، اللهم إلا ما يسمى « بمنظمة أيوكا » التى يقودها ضابط يونانى متعصب ليونانيته ودينه ولعل اسمه « جريفاس » وكان يمارس العمل السرى هو وجماعته ضد المسلمين الأتراك الذين يمتلكون حيزًا كبيرًا من الجزيرة، ويريدون الانفصال فى

جمهورية مستقلة أو ينضمون إلى تركيا، إذن القسم اليونانى يريد حكم الجزيرة كلها أو الانتساب لليونان، والقسم التركى يريد أن يستقل أو يلحق بتركيا، وكل جزء يتلقى المساعدات من الجانب الذى يؤيده، وعلى الرغم من خروج الإنجليز فيما بعد، واستقلال الجزيرة تحت قيادة رجل الدين «الأسقف مكاريوس»، ثم قيام انقلاب عسكرى ضده، ثم عودته مرة أخرى، ووفاته.. وانتخاب «كبريانو» رئيسًا للجمهورية، والصدام المسلح بين اليونان وتركيا، وتهدئته، على الرغم من ذلك كله فما زالت مشكلة قبرص قائمة..

فى الساعة الأخيرة من نهار ذلك اليوم، عدنا إلى الباخرة من جديد لنواصل رحلتنا إلى بيروت، كان رفاق لنا ينتظرون فى الميناء، وكانت مهمتنا ميسرة، وما هى إلا ساعات قلائل حتى كنا فى الحافلات تنقلنا إلى معسكر للشباب المسلم على قمم أحد الجبال فى لبنان فى منطقة «عالية»، وهناك التقينا ببعض الإخوة اللبنانيين الذين يلتزمون بنفس النهج الفكرى أو العقائدى الذى نؤمن به، وكان على رأسهم المهندس الشيخ محمد عمر الداعوق رئيس جماعة عباد الرحمن، وكان رجلًا مرحًا ذا لحية قصيرة تبدو عليه سيما الشباب والحماسة، ولم يزل هذا الرجل يعيش فى دولة الإمارات العربية المتحدة حتى كتابة هذه السطور، بعد أن غادر لبنان من زمن بعيد، وهو وجه مألوف على شاشة التليفزيون، وصوت مشهور فى إذاعات الإمارات، حيث يؤدى رسالته فى الوعظ والإرشاد ونشر الدعوة، وهو الآن فى حوالى السبعين من عمره، وما زالت ابتسامته تضىء وجهه الباش، ولم تغادره روح الشباب والحماسة..

كانت «المعسكرات الكشفية» التى نقيم بها فى لبنان زهيدة التكاليف، مما وفر علينا الكثير، فاستطعنا أن نزور معظم الأماكن السياحية هناك كالمغارات والمتاحف وجبل الأرز والأحياء التجارية، ونشترى بعض الهدايا التذكارية البسيطة وكان الجنيه المصرى فى ذلك الوقت يوازى ١١,٥ ليرة لبنانية، كما يساوى ١٢,٥ ليرة سورية وكان مسموحًا بتداوله علانية بعكس ما نحن فيه الآن.

كانت لبنان مفتوحة تمامًا على مصراعيها لكل وافد، وحركة التجارة والسياحة على أشدها، والتقيت ببعض الأسر المصرية التى تقضى الصيف فى مدن الجبل هناك مثل بحمدون وسوق الغرب وغيرها، إنهم بقايا الأثرياء المصريين بعد قيام الثورة، كما التقينا ببعض اللاجئين السياسيين الذين هربوا بجلدهم من عنف الممارسات الثورية فى القاهرة..

ولقد قمت بتأليف نشيد شعبى يردد الإخوة مقطعًا منه، كلما غنيت مقطعًا جديدًا، وكانت معانى هذا النشيد أو الأغنية متأثرة بما حدث لنا فى مصر مع رجال الثورة، إذ شرحت فى هذا النشيد مواقفنا الجهادية فى فلسطين والقنال، وانحيت باللائحة على خداع الثورة وتلفيقها الأكاذيب ضدنا، وإنى لأذكر أن آخر مقطع فى تلك الأغنية الشعبية كان:

يــا نــاقــتــى ســيــري ... وان أمــكــنــك طــيــري
عــلــى حــد تــعــبــيــري ... احــنــا جــنــود الــلــه

وكان زملاء الرحلة يستعيدونها مرات ومرات كل يوم، وتردد فى كل حفل ترفيهى نقيمه فى كل مكان..

وفى معسكراتنا بالجبل، كنا نعد طعامنا بأنفسنا، ونتناوب الحراسة أثناء الليل حول الخيام، وأذكر أننى كنت متعبًا ذات يوم، وأيقظونى فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل لأقوم بنوبة الحراسة الخاصة بى، وكان النوم يغالبنى بشدة، ومع ذلك فقد حملت عصاى الكشفية، وطفت حول المعسكر مرتين أو ثلاث، ثم جلست على صخرة وسط الليل الدامس لأستريح قليلًا، ونظرت على مقربة منى فوجدت ما يشبه البحر.. وعجبت ما الذى أتى بالبحر هنا قرب قمة الجبل؟ لقد أتينا المعسكر ليلًا ولم أتبين موقعه جيدًا.. وقلت فى نفسى ربما نكون فعلًا فى مكان منخفض قريب من البحر.. وأخذت أدقق البصر فى امتداد البحر الشاسع حتى غلبنى النوم وأنا فى مكانى، وعند صلاة الفجر وجدونى نائمًا.. حملونى برفق ووضعونى فى بطانية كبيرة، ورموا بى وسط المخيم، وجمعوا الفريق كله، ليتفرجوا على إهمالى « وخيبتى »، وقرروا بعض العقوبات ضدى، ومنها أن أواصل المناوبة فترة أخرى، وألا أجلس مطلقا، بل أظل دائرًا حول المعسكر، وألا أتناول طعام الإفطار.. وقد كان.. وظللت أطوف حول المعسكر حتى بعد أن أشرقت الشمس.. وذهبت لأرى البحر.. لم أجد سوى كتلة من الضباب تغمر الوادى..

وبعد أيام ذهبنا لزيارة الجامعة الأمريكية، وكان من الضرورى أن نقصد كلية الطب بالذات باعتبار أن ذلك أنه يهمنا بالدرجة الأولى، حتى نعرف الفرق بين كليتنا فى القاهرة والكلية الأمريكية للطب فى لبنان.. ولاحظت الآن:

* عدد الطلبة قليل إذا ما قورن بعدد الطلبة فى القاهرة.

* الأجهزة العلمية التى تجرى بها تجارب علم وظائف الأعضاء وغيره متوفرة، بحيث يخص كل خمسة طلبة تقريبا جهاز خاص بهم، بينما نحن فى القصر العينى لدينا جهاز واحد يحتشد حوله الطلبة على دفعات، ويقوم الأستاذ بإجراء التجارب بنفسه، هذا بالنسبة للأجهزة الكبيرة الباهظة الثمن.

* العلاقات بين الطلبة والأساتذة أفضل.

* سيادة الجو العلمى أكثر من غيره، فلم نلحظ آنذاك صراعات سياسية عنيفة، وإن كانت توجد تيارات فكرية ومذهبية تتماوج فى غير قليل من الهدوء.

والحقيقة أننا كنا ننتهز أية فرصة لنعرب فيها عن هويتنا الدينية والسياسية، حتى يعرف عنا الآخرون الصورة الصحيحة بعد أن تسابقت أجهزة الإعلام المصرية والعربية تبعا لها فى إلصاق التهم والنقائص بنا، وكم كانت دهشتى عندما قال لى أحدالطلبة المسلمين الفلسطينيين بكلية الطب: « إننا هنا لا نهتم بالدين.. بل لدينا فكرة أن نقوم « بصلاة قومية » ».

قلت فى استغراب: « وماذا تعنى بالصلاة القومية؟ »

- « هى صلاة مشتركة يؤديها المسلم والمسيحى واليهودى معًا ..»

- « لا أفهمك ..»

- « القصد منها إسقاط الفوارق الدينية، وأن نعيش كإخوة فى الإنسانية ..»

- « وهل المعتقد الدينى يمنع الإخاء الإنساني؟ أرأيت شيئًا لهذا فى تاريخك كمسلم؟ وهل رأيت اليهود فى بلدك يدينون بذلك الإخاء مع إخواننا الفلسطينيين؟ ثم ماذا تقولون فى هذه الصلاة القومية ..»

هز كتفيه فى حيرة وقال: « دعوات لله.. ليس فيها صفة دينية معينة.. وشكر.. ومحبة ..»

قلت له وأنا أرمقه فى غيظ: « إننى أرى فى ثنايا حديثك سموم الماسونية ..»

- « وما عيب الماسونية ..»

- « يكفى أنها بضاعة يهودية ..»

دارت رأسى لما أسمع، إن عوامل الهدم تلعب دورها فى عقول أجيالنا الجديدة، يريد الأعداء بفلسفاتهم وأفكارهم أن يقطعوا الصلة بين القلوب التى جمعها الله فى ظل دينه، وأن يجتثوا جذورنا من تراثنا، وأن يلهونا بالشعارات البراقة، بعد أن قهرونا - جيوشًا وشعوبًا - بالسلاح الحديث.. إن ما يحدث اليوم فى مصر والدول العربية الأخرى ينذر بحقبة زمنية فاسدة، قد تقضى علينا قضاء مبرما إذا لم يتداركنا الله برحمته، لم أكن أعرف فى تلك الأيام شيئًا ذا قيمة عن البعث وعن فيلسوفه « ميشيل عفلق »، الذى ساهم بعد ذلك فى تدبير انقلابات، وإقامة حكومات، وإشعال حروب وفتن، ولم أكن أعلم أن فلسفة هذا الرجل الخطير، إن صح أن تسمى فلسفة - سوف تجرى الدماء أنهارًا، وتعيث فى الأرض العربية فسادًا، وما تصورت قط أن يتمكن هذا الرجل من أن يحرك عقولًا وجيوشًا وأحزابًا وأقلامًا وصحفًا.. ولم أكن أتصور أن مخططه السياسى وحزبه، سوف يتفجران إلى أجنحة ويمين ويسار ووسط، بل الذى لم أتخيله أن يظل حيا حتى الآن، ينتقل من بلد إلى بلد، ويعيش عيشة الملوك، ويحظى بتكريم عظام المفكرين والفلاسفة، وإذا لم يكن وجوده وليد مؤامرة عالمية كبرى لما أصبح سوى زعيم عصابة، أو مهرب مخدرات، أو نصابًا عالميًا فى سوق المال والتجارة، لكن لله فى خلقه شئون..

وخرجت فى ذلك اليوم من الجامعة الأمريكية ضيق النفس، حزين الفؤاد، تراودنى هواجس مؤلمة لا تبشر بخير..

عندما جلسنا فى المساء فى مخيمنا بالجبل، وبعد حفلة السمر، شرحت للإخوان قصة طالب الطب والصلاة القومية، كانوا فى دهشة مما أقول، قال أحدهم: « فى لبنان تروج أية سلعة ..»

وقال آخر: « اليهود فى كل مكان ...»

ورد ثالث: « بيروت لا تعرف الله.. إنهم لا يؤمنون بغير الليرة ..»

أما الأخ الرابع فقد علق: « ومع ذلك فإن لبنان هى الملجأ الوحيد فى الدول العربية للهاربين واللاجئين السياسيين.. هى البلد الحر الوحيد.. الذى لا يسألك من أنت؟ ولا ما عقيدتك ..».

وقف أحد الإخوة اللبنانيين وأشار بيده كى نصمت: « لم تعرفوا لبنان كما يجب.. إنها كيان هش.. التعصب على أشده.. الكتائبيون والحكومة تهتم بالشمال المسيحى، وتهمل الجنوب الإسلامى.. أما رأيتم بأنفسكم الفرق بين الاثنين.. المناصب فى الحكومة والجيش موزعة توزيعًا طائفيًا معقدًا.. ولابد أن نرضى وإلا اشتعلت النيران.. إن الأمر أخطر مما يتصورون.. نحن نعيش الخطر كل لحظة.. ورجال السياسة فى بلادنا كالحواة ..»

وأخذ يشرح لنا طبيعة الوضع فى لبنان، وعجز الجميع عن إيجاد حل حاسم، ومن ثم كان الاتفاق أن تبقى الأمور على ما هى عليه، ومن يحاول الإصلاح أو التغيير فسوف يعانى الأمرين، وقد يقتل،

أو تقع البلاد فى أتون من الفتن الدامية.. والدول العربية مرتاحة لذلك تماما: إن الأموال تصب هنا: والصفقات تعقد هنا، وسماسرة السياسة أكثر من سماسرة التجارة، وكل شيء هنا يباع ويشترى، ولبنان الآن ترث الكثير من تركات الثورات والفساد فى العالم العربى، إن وجودها هكذا أمر مطلوب ومرغوب فيه.. قل ما شئت وادفع.. لكن لا تفكر فى تغيير النظام.. تستطيع أن تشترى الضياع والقصور والنساء، لا قيود على شيء، إلا العمل على تغيير النظام.. استمعوا إلى الإذاعة.. واقرءوا الصحف.. وجوسوا خلال أندية الليل.. وأسواق التجارة.. والمحافل السياسية.. والشرطة.. و.. و.. الخ، هذه هى لبنان..

كان من الملاحظات الطريفة أننا لم ندع إلى أية مأدبة فى لبنان، كنا نشترى كل شيء، لكنَّ الضيافة الحقيقية الصادقة فى الضفة الغربية بالدرجة الأولى، ثم فى الأردن، ثم فى سوريا.. كان لهذا الموضوع الشكلى انعكاسًا للصورة الاجتماعية والسلوكية فى كل بلد من هذه البلدان الصديقة.. ولا أريد أن أزيد فى التعليق على هذه الظاهرة وأبعادها المختلفة.. فهى لقطة صغيرة لكنها معبرة.. فى أحد الأيام ركبنا الحافلة متجهين إلى دمشق..

ودمشق لها فى النفوس مكانة تاريخية عميقة، ورحم الله شاعرنا الذى قال:

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببنى العباس بغدادُ

ولقد كان لهذه المدينة العريقة صفة عجيبة، فعلى الرغم من وجود الطوائف المختلفة مسلمين ومسيحيين، إلا أن حركة التحرير والاستقلال فيها، قد وحدت الجميع تحت لواء واحد، فكانت دمشق مضرب الأمثال فى الوحدة الوطنية، وبعد أن ظهرت الأحزاب فى العصر الحديث بادئ ذى بدء لم تستطع أن توجد الشحناء والبغض بين مختلف الطوائف، وما إن ظهرت التيارات اليسارية، وزرعت إسرائيل فى قلب الأمة العربية، حتى دبت الخلافات الطائفية، وتوالت الانقلابات العسكرية، واشتدت الصراعات الحزبية.

ذهبنا إلى دمشق واستقبلنا عدد كبير من شباب الإخوان المسلمين السوريين، حتى أن عددًا من المرشحين نجح فى المجلس النيابى لأول مرة، ولم تكن الأغلبية لهم، لأن أغلب المنضمين إلى الجماعة فى تلك الفترة كانوا من شباب العلماء والجامعات والمدارس ومن المثقفين، وكانت العشائرية والطائفية تتحكم حتى تلك الفترة فى اختيار النواب، مثلما كان يحدث فى مصر وغيرها..

واستطاع شباب الإخوان فى سوريا أن يساعدونا كثيرًا فى زيارة المدن والأقاليم المختلفة، وكذلك المناطق الأثرية، والمؤسسات العلمية والاجتماعية، وأوجه النهضة فى مختلف الجوانب، وكانوا يمدوننا بما نحتاج إليه من صحف وكتب ومعلومات وبيانات، فما قيمة الرحلات إذا لم يستفد منها الإنسان علمًا وثقافة وتعارفًا؟ الحق أننا شعرنا بأننا بين أهلينا وذوينا، فكانت فترة مفيدة وممتعة معًا..

لقد تخطت دعوة الإخوان الحدود المصرية، وأصبح لها تجمعات فى سوريا ولبنان والعراق والأردن وفى الجزء الباقى من فلسطين «الضفة الغربية وقطاع غزة». وكنا نرى نفس الشعارات، وأساليب الدعوة، واتجاهات الرأى، وتحليل المواقف، كانت المقاييس الإسلامية التى آمن بها الجميع تؤدى بالضرورة إلى رأى عام شبه موحد، بالنسبة للقضايا الرئيسية والكبيرة، وكان يرأس الإخوان المسلمين فى

تلك الفترة المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى السباعى، وهو أستاذ جامعى وعميد كلية الشريعة والقانون، وكان رجلًا سمح الوجه، عميق الوفاق، واسع الصدر، بادى الأناة والصبر، وقد عقد فى بيته - ونحن فى سوريا - مؤتمر لرؤساء الإخوان فى الدول العربية برئاسة المرشد العام للإخوان الأستاذ حسن الهضيبى، حضره الأستاذ الصواف رئيس جماعة الأخوة الإسلامية فى العراق، والأستاذ محمد عمر الداعوق عن عباد الرحمن بلبنان، والأستاذ الدكتور مصطفى السباعى عن سوريا، ورئيس الإخوان فى الأردن الأستاذ، محمد خليفة، ورئيس الإخوان فى فلسطين، ولا أذكر هل حضره الأستاذ الدكتور حسن الترابى من السودان أم لا، بالإضافة إلى عدد من الإخوة الآخرين فى هذه البلدان، ومنهم بعض أعضاء مكتب الإرشاد فى القاهرة، والأستاذ سعيد رمضان وغيره، وبعد هذا المؤتمر، عقد مؤتمر مفتوح فى بيت السباعى وكنت ممن شهدوا هذا المؤتمر، قدم المرشد العام تقريرًا شاملًا عن الأوضاع العامة، وتحرك الجماعة المقبل، والتيارات العاصفة التى تواجهها، وأكد على الالتزام بالسلوك الإسلامى الصحيح فى مواجهة التحديات الصعبة..

وأثناء وجودنا فى سوريا، قرأنا فى الصحف عن توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا، وكان لها رد فعل كبير فى الأوساط السياسية العربية، ولقد كتبت فى تلك الفترة مقالة حول الاتفاقية الجديدة التى وقعت بالأحرف الأولى، وكانت أهم نقاط الاعتراض التى وردت فى مقالى هى:

١- عدم عرض الاتفاقية على استفتاء شعبى.

٢- عودة القوات البريطانية إلى قاعدة قناة السويس عند أى تهديد خارجى تتعرض له المنطقة.

٣- بقاء الخبراء والفنيين وفق نظام وعدد معين فى القاعدة.

٤- دفع تعويض للمنشآت الإنجليزية، وهو مبلغ كبير بالمقارنة إلى تفاهة المنشآت الموجودة فى القاعدة.

٥- تضمين الاتفاقية - بطريق غير مباشر ومباشر - الارتباط أو التحالف مع بريطانيا من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية.

ونشرت هذه المقالة بتوقيع « نجيب المصرى » فى إحدى الصحف الصباحية السورية، وكانت هذه المقالة مجرد رأى شخصى لا يلزم أحدًا، لكن من الصدف الطيبة أن الأستاذ المرشد أصدر بيانات حول الاتفاقية، واعتراض الإخوان على بعض بنودها، ونشر البيان فى الصفحة الأولى لإحدى الصحف، وأرسل إلى القاهرة، حيث منعت الحكومة نشرهُ، فتم طبعه فى منشورات، ثم وزع سرًا بين جماهير الشعب المصرى، وصدر بعد ذلك منشور مفصل يتناول بنود الاتفاقية بالتفصيل من ناحية المضمون والشكل.. كانت زيارة الأستاذ الهضيبى لسوريا فى تلك الأيام من صيف ١٩٥٤ زيارة تاريخية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لقد استقبل استقبالًا رسميًا حافلًا يليق بمكانته، كما استقبله كبار الساسة وقادة الجيش ورجال الفكر والصحافة، ورتبوا له زيارة رسمية للقوات المسلحة السورية، وفى خط المواجهة بالذات، لم يكن من نصيبى أن أحضر هذه اللقاءات والاحتفالات والزيارات، لكن الأستاذ الداعوق رئيس جماعة عباد الرحمن بلبنان كان قد صور لقطات معبرة سينمائيًا من هذه الزيارة، وعرضها علينا فى دمشق..

وكانت هناك بعض الآراء ترى أن عودة المرشد العام لمصر محفوفة بالمخاطر، وأنه من الأفضل البقاء بالخارج حتى تنجلى الأمور، لكن المرشد رفض ذلك بشدة، وأصر على السفر ومواجهة المصير المحتوم، آملًا أن وجوده فى مصر، قد يقود إلى نوع من التفاهم مع الحكومة، والتهدئة للمتحفزين المتوجسين من الإخوان، لكن بعض الإخوة قرر البقاء فى سوريا تحسبا للأخطار التى بدت نذرها فى الأفق، وكان منهم الأخ الدكتور عصام الشربينى وسعيد رمضان وكامل الشريف وغيرهم.. ولم يسافر المرشد إلا بعد أن سافرنا نحن فى شهر أغسطس من هذا العام..

كان شعورنا ونحن فى دمشق أننا لم نخرج من القاهرة، وتجولنا فى أنحاء سوريا، وفى مختلف مدنها ومحافظاتها اللاذقية.. حلب.. حماة.. حمص.. دير الزور.. ومشينا على شواطىء بردى ونهر العاصى، وفى كثير من القرى الصغيرة، وركبنا القطار والحافلات، وقلت لهم ونحن فى جولاتنا: « أين تقع « معرة النعمان »؟ »

قال أحد الإخوة السوريين المرافقين لنا: « ليس أكثر من ثمانين كيلو مترا ..»

قلت: « أريد أن أزورها »

رد زعيم الرهط وهو الأخ الدكتور محمود الشاوى: « ليس لدينا وقت كاف لذلك.. وماذا تريد منها؟ »

- « أريد أن أرى قبر أبى العلاء المعرى ..»

رد فى غضب: « دعك من هذه الأوهام الشعرية.. إنه قبر ككل القبور ..»

- « لكن من فيه ليس ككل الناس ..»

- « كفى فلسفة.. لن نذهب ..»

فى مثل هذه الرحلات لابد من الضبط والربط كما يقولون، ونظام الجوالة يقوم على النظام والطاعة، وزعيم الرهط يعرف الوقت المتاح، والإمكانات المتوفرة، ولهذا السبب لم ألح فى الطلب رغم رغبتى الشديدة فى زيارة « معرة النعمان »..

عندما ذهبنا إلى الحافلة كى نعود إلى مقرنا، وجدت الزميل الأخ محمود الشاوى يضحك فى مرح ويقول للسائق: « اتجه بنا إلى معرة النعمان.. الأمر لله ..»

كنا نشق طريقنا صوب الشمال، والقرى والمراعى والمزروعات من حولنا، لم نكن نشعر بالتعب أو الضيق، كانت الرغبة فى المعرفة، وحماسة الشباب، وزيارة أكبر ما يمكن من الأماكن والمعالم، تملؤنا بالعزم والشوق..

وقفت أمام قبر أبى العلاء العتيق، وأخذت ألف وأدور باحثا عن البيت الشعرى المشهور الذى طلب فيلسوف المعرة أن ينقش على قبره وهو:

« هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد »

لم أجد لهذا الشعر أثرا، ولما تساءلت قال لى أحد الإخوة: « إنه موجود فى أحد متاحف أوربا ..»، هكذا قال..

ولم أجد بالضريح سوى مكتبة صغيرة، بها عدد من المجلدات، ولما تفحصتها، وجدتها مطبوعات مصرية لبعض كتب التراث..

لم يكن أبو العلاء المعرى شخصية عادية، أو مجرد شاعر مجيد، كان الأول من شعراء العربية الذين مزجوا الشعر بالفلسفة، دون أن يجنى على جمال الشعر وروعته، وكان سيء الظن بالناس والحياة، ينظر إلى الوجود نظرة تشاؤمية حادة، كما كانت تؤرقه مأساة الموت، واضطراب الفلسفات، وانحراف العلماء، وشطط الحكام، ومع ذلك فقد كان يسخر من ماديات الحياة ومغرياتها، لذا نراه يقول لحبيبته التى يحلم بها:

لغيرى زكاة من جمالٍ فإن تكن زكاة جمالٍ فاذكرى ابن سبيل

فإذا كان غيره يطمع فى الإبل «الجمال»، فإنه يطلب جائزة الحسن والجمال، وشتان بين من يرغب فى ذاك ويتعشق هذا..

وكثيرًا ما كان أبو العلاء يحمل على العلماء المنافقين، الذين يقولون ما لا يفعلون، فهم يحرمون الخمر فى الصباح، ويذمونها، ويدللون على تحريمها، فإذا جاء المساء، أووا إلى أوكارهم يعبون الخمر عبا، ويدفعون فيها كل ما يملكون..

يُحرم فيكم الصهباء صبحًا	ويشربها على عمدٍ مساءَ
يقول لكم غدوت بلا كساء	وفى لذاتها رهن الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنه ينهي	فمن جهتين لا جهة أساءَ

وعلى الرغم من كل ما قيل عن أبى العلاء المعرى فى يأسه وتشاؤمه وآرائه الفلسفية الجانحة، فإنه ابن حقيقى للثقافة الإسلامية التى انتقت وتلاقت مع الثقافات العالمية المتزامنة معها، فهو حين يتحدث عن الحب يذكر كلمة «الزكاة»، وحين ينتقد العلماء المنحرفين، لا يخرج عن إطار الآية الكريمة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾، حتى حديثه عن الموت لا يخرج عن دائرة ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ﴾.

صاح، هذى قبورنا تملأ الرحب	فأين القبور من عهد عادِ؟!
خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض	إلا من هذه الأجسادِ
وقبيح بنا وإن قدم العهد	هوان الآباء والأجدادِ
سر إن اسطعت فى الهواء رويدًا	لا اختيالًا على رفات العبادَ
رب لحدٍ قد صار لحدًا مرارًا	ضاحكٍ من تزاحم الأضدادِ
ودفينٍ على بقايا دفين	فى طويل الأزمان والآبادِ

هل تخرج معانى تلك الأبيات عن التصور الإسلامى لنهاية الوجود؟

إن تراث أبى العلاء المعرى فى عمومه لا يخرج عن دائرة الفهم الإسلامى وتراثه العظيم، حتى رحلته الخيالية فى رسالة الغفران، متأثرة إلى أبعد مدى بحصيلته الثقافية الإسلامية، أما ما جاء فى شعره من هفوات فهى أمر يرتبط ببعض التوترات والاضطرابات النفسية التى تعصف به فى لحظة من لحظات الضعف أو التمرد أو التشكك، ولا يستطيع ناقد أو مؤرخ أن يتجاهل «الحالة النفسية» التى يعانى منها هذا الشاعر العملاق..

قال زعيم الرهط: «ألهذا قطعنا تلك المسافة الطويلة؟ سامحك الله ..»

قلت له: «لكنك لا تعلم مدى الإشباع الوجدانى الذى يبهجنى ..»

قال وهو يضحك في صفاء: « كلام فارغ.. يبدو لى أن الصورة الخيالية الضخمة التى كانت تملأ رأسك قد أصيبت بخيبة أمل.. وتبخرت تمامًا ..»

وعدنا ثانية إلى الحافلة..

لكنى لم أنس أبا العلاء، لقد عزمت أن أقرأ ما أستطيع من تراثه، وما كتبه المؤرخون والنقاد عنه، وبالذات ما كتبه طه حسين، وأمكننى بالطبع أن أنجز الكثير - فيما بعد - مما عقدت العزم عليه، وسجلت نبذة عن رأيى فيه فى كتابى « إقبال الشاعر الثائر »، وقمت بالمقارنة بين العملاقين الكبيرين، فى مجال المضمون الفلسفى لشعر كل منهما، والأثر الذى تركاه، وكنت بالطبع معجبًا أيما إعجاب بإيمان الفيلسوف الشاعر محمد إقبال، وصفائه وإيجابيته وروعة أفكاره..

كانت الصحافة فى سوريا دون مستوى الصحافة فى مصر بكثير، فهى قليلة الصفحات، فقيرة المادة، ضعيفة الإمكانات، وكذلك كانت الحركة الأدبية اللهم إلا ميدان الشعر حيث كانت سوريا - وما زالت - تزخر بعدد من الشعراء الكبار، وكانت شهرتهم قد تخطت الحدود إلى آفاق العالم العربى الواسع، أما القصة القصيرة والرواية والمسرحية والفنون التشكيلية فلم تكن على مستوى الشعر هناك، وكانت الأبحاث الفكرية تحتل مكانة طيبة، وفى مقدمتها المؤلفات الإسلامية، لكن الشعارات السياسية بدأت تعلو وتحتل منصة عالية، وخاصة بعد انقلاب حسنى الزعيم - أول انقلاب عسكرى فى الخمسينيات من القرن العشرين، فى الدول العربية - ثم انقلاب الحناوى والشيشكلى..

وقد كان للجامعة السورية قصب السبق فى تدريس الطب والعلوم باللغة العربية، وهو أمر يتفق مع طبيعة الحماسة السورية لكل ما هو عربى آنذاك..

وبدا واضحًا أن سوريا تعانى من صعوبات اقتصادية، وقد انعكس ذلك على خطط الإنشاءات والتنمية، وبطء مسيرتهما، وبدأ الوعى يتنامى بهذه المشكلة التى يتعلق بها مستقبل البلاد، كما إن وقوفها فى خط مواجهة مع العدو الإسرائيلى جعلها فى وضع المترقب المتوتر دائمًا، ولا شك أن ذلك كله لا يمكن أن يمر بسهولة، فمن البديهى أن يكون له صداه على التحركات السياسية، والعلاقات الاجتماعية، والأوضاع الاقتصادية، إذن فقد كان الشعب السورى يتطلع إلى تحسين أوضاعه الاقتصادية، ويأمل فى حرية حقيقية بعيدة عن الانقلابات والإرهاب والتوترات الدائمة، كما يعتقد أن ارتباطه بأشقائه العرب، قد يخفف مما يعانيه من قلق وتوتر، وسوف يساعد كثيرًا فى مداواة جراحه الاقتصادية والعسكرية والسياسية، ولهذا جاءت شعارات البعث « حرية - وحدة - اشتراكية » كحل مطروح لمشاكل سوريا.. ووجد بعض الاستجابة لدى عدد من المثقفين، ومع ذلك فقد ظل عدد البعثيين قليلًا، حتى أن عبد الناصر أعلن فى أحد خطبه وهو يهاجم « أمين الحافظ » الرئيس السورى فيما بعد، أن البعثيين لا يمثلون سوريا، وأن عددهم قليل، فرد عليه أمين الحافظ ببيت من الشعر العربى القديم يقول:

تعيّرنا أنا قليل عديدنا   فقلت لها إن الكرام قليلُ

لكن الانقلابات العسكرية، تغير الموازين، فهى لا تعتمد على النسبة العددية للمؤيدين أو المعارضين، ولكنها ترتبط أولًا وأخيرًا « بالضربة الناجحة » التى تحقق النصر السريع، ومن ينجح فى الانقلاب يصبح بين عشية وضحاها مالكا لكل الإمكانات التى توجد فى وطنه..

كانت الفترة التى قضيناها فى سوريا فترة جميلة بحق، ونعمنا فيها بالكرم السورى، وبالإخوة الأعزاء، والمشاهد المؤثرة، وكانت ثقتنا كبيرة جدًا آنذاك فى مستقبل الحركة الإسلامية فى سوريا، لم نكن وحدنا نؤمن بذلك، فقد كان كثيرون من المراقبين السياسيين يرون نفس الرأى..

ومن الشخصيات التى التقينا بها فى سوريا الدكتور مصطفى السباعى والشيخ على طنطاوى والشاعر الداعية عمر بهاء الأميرى، والشيخ محمد المجذوب، والشيخ محمد المبارك، والدكتور الزرقا، وعصام العطار، ومعروف الدواليبى.. وغيرهم من المفكرين ومن الشباب الواعد الناهض.

وأحسست أن فى سوريا والعراق والأردن رصيدًا طيبا للحركة الإسلامية، ومن ثم فإن محاولة ضربها فى مصر، أو محاولة القضاء عليها، لن يكتب السطور الأخيرة فى قصة هذه الجماعة، وقد صدق ظنى لحد ما، فما إن وقع الصدام الكبير بين عبد الناصر والإخوان فى أواخر أكتوبر من نفس العام، وكيلت التهم جزافًا للأبرياء، وسيقوا إلى سجون العذاب والدماء والموت، حتى اندلعت المظاهرات خارج مصر، وتوالت الاحتجاجات، مما أثار حفيظة الحاكمين فى مصر، فأرسلوا خطابات الاحتجاج هنا وهناك، وبعثوا الرسل كى تشرح للحكومات العربية، مدى خطورة هذه الجماعة على النظم الحاكمة، وأمن بلدانهم، ونصحوهم باتخاذ إجراءات مشابهة لما حدث فى مصر، تجنبًا لمخاطر وفتن لا يعلم إلا الله مداها، وقدموا لهم بعض الاعترافات الملفقة، والأدلة المبتدعة، حتى يبذروا بذور الشك فى نفوسهم، وساعد على ذلك ما كان ينشره الإعلام العالمى المنحاز ضد الإسلام من أخبار وقصص ومؤامرات وهمية، وما تبثه إسرائيل فى كل مكان عن خطورة المد الإسلامى ومضاعفاته القاتلة، وما تروجه روسيا من سموم الدعاية الآثمة، وكذلك أقلام الشيوعيين المحليين فى العالم العربى، هؤلاء الذين استطاعوا بأساليبهم الملتوية أن يحتلوا أماكن فى الصحافة والنشر والحركة الفنية بصفة عامة، بل وفى التنظيمات السياسية الجديدة، التى كانت تولد بين يوم وليلة..

كان أعداء الإخوان ينشرون المقالات والكتب ومختلف الأدبيات علانية وفى كل مكان، حتى على منابر المساجد، والاحتفالات العامة، وخطب الرئيس عبد الناصر التى تستمر لساعات، وفى نفس الوقت لم يكن لدى المتهمين أدنى فرصة للرد أو الدفاع، كانت معركة شرسة من جانب واحد قوى.. يملك كل الإمكانات، ويستخدم كل الأساليب التى لديه، دون وازع من ضمير.

ومع ذلك فإن الحلفاء الإسلاميين خارج مصر، أو المهاجرين المصريين، استطاعوا أن يعلنوا حقيقة الموقف، ويعقدوا مؤتمرات وندوات، داخل العالم الإسلامى، وفى أوروبا وأمريكا، وكان هذا هو جهد المقل، والأمر لله..

نعود مرة أخرى إلى رحلتنا فى سوريا... كان علينا أن نأخذ طريقنا إلى « عمان ».. ثم الضفة الغربية وبخاصة القدس.. أو كما يطلقون عليها « القدس العربية ».. فقد كانت هناك « قدس أخرى » تحت الحكم الإسرائيلى يسمونها « أورشليم ».

كانت عمان فى تلك الفترة عاصمة صغيرة هادئة، ذات طابع خاص، يختلط فيها لابسو الزى الإفرنجى بالذين يرتدون الزى العربى المميز. ويحيط بها بعض الجبال الشهيرة، وفيها عدد من المعالم الرئيسية، كما كان بها عدد كبير من الإخوة الفلسطينيين.. وأول ما يلفت النظر فى الأردن ذلك الكرم

العربى الأصيل الذى لم نر له مثيلًا - كما قلت - فى جولاتنا السابقة، كنا نستقبل بحفاوة بالغة، بل وفى إطار احتفالات رسمية يخطب فيها الخطباء، ويترنم الشعراء، كانت روح الأخوة العربية الإسلامية تتجلى فى قوة ووضوح كبيرين، وكنا حريصين أشد الحرص على أن نلتزم بالجدية والوقار، نعم فنحن كشباب كثيرًا ما نمرح، أو نتبادل بعض التعليقات الضاحكة والملح والطرائف، لكننا وجدنا أن الأمر يختلف فى عمان والضفة الغربية، كانت النظرة إلينا - كشباب مسلم ملتزم - نظرة تقدير واحترام، وكان واجبًا علينا أن نراعى العرف والتقاليد المرعية، وخاصة أن مخيمات بعض اللاجئين كانت على مقربة منا، وهى صورة محزنة للضعف العربى، وعتاب مر لمن يقولون إننا مسلمون..

وقضينا ليلتنا الأولى فى « مدرسة الرشيد » كما أذكر، وكانت خالية من الطلبة أثناء عطلة الصيف، فاتخذناها مكانًا للنوم والراحة، إذ كنا نفترش الأرض، وننعم بالسعادة والاطمئنان، وكان إخوتنا فى الأردن يفدون إلينا مرحبين ومعتذرين عن تواضع المكان الذى نزلنا فيه، لكننا كنا نؤكد لهم أن هذه طبيعة حياة « الجوالة » التى تخرج فى رحلة، وأن العيش المرفه، والسرر الوثيرة، والحياة الناعمة، لا تناسب « الجوال » ولا المسلم الحق الذى يضع نصب عينيه العمل من أجل خلاص المظلومين والمقهورين والمستضعفين من بنى عقيدته، فالأمر بالنسبة لنا يعتبر أمرًا عاديًا لا حرج فيه، وقمنا بزيارة العديد من المدن والقرى الأردنية شمالًا وجنوبًا وشرقًا، وكذلك بعض المناطق الأثرية الشهيرة، والجبال والأودية، وخاصة وادى الأردن المعروف، وبعض مخيمات اللاجئين.

وبعد أيام قليلة سارعنا بالذهاب إلى « القدس » الشريف..

المدينة المقدسة تبدو هادئة حزينة، والبيوت تعروها سمة العراقة والقدم، تمامًا كالفقير المعتز بنفسه، والسور الضخم الذى يفصل بين القدس القديمة « العربية » والقدس الجديدة « اليهودية »، يعتليه عدد قليل من الجنود العرب، يروحون ويجيئون فى تكاسل وملل، وقد اغبرت ملابسهم، وندى العرق جباههم، وحركة المارة بطيئة، وهم قليلو العدد، والسوق المركزى القديم المغطى، يتسم بشىء من الحركة والضوضاء القليلة حيث تباع المفارش والمنسوجات المطرزة والمصنوعات الصدفية والمعدنية وغيرها، وتصادف أن وجدنا اشتباكًا محدودًا بين عدد من الشباب، لم تتبادل فيه سوى التهديدات الكلامية، وكنا كعادتنا، رغم ذلك نضحك أو نتبادل طُرْفة من الطرائف، وكان مرافقنا الفلسطينى طالبا فى كلية هندسة القاهرة، قدم لقضاء أجازة الصيف فى مدينته، كان يسير أمامنا رصينا صامتا، على وجهه سمات الجد والرزانة، واضعًا إحدى يديه فى جيب سرواله، ثم التفت إلينا فى جد وهو يسير، وقال فى اقتضاب: « من المنتقد جدا أن تضحكوا على هذه الصورة فى الشارع، إن مدينتنا لم تتعود على ذلك، وتراه عيبا.. ألا ترون؟ الناس كأنهم فى مأتم طويل ..».

أدركت على التو ما يعنيه، إن المأساة التى يعيشها الشعب هنا، قلما تدفع الابتسامة لتظهر على الشفاه، ونحن لسنا أقل ألمًا ممن يعانون تحت سماء المدينة، لكن عاداتنا فى التعبير قد تختلف بعض الشىء، لكننا على الفور التزمنا بنصيحته، ورأينا أنه على حق، فإن المدينة تقع تحت نيران العدو مباشرة، واليهود لا يخفون أنهم سوف يجتاحونها فى يوم من الأيام، بل ويعتبرونها عاصمة إسرائيل المقدسة رغم أنف العالم كله.

وذهبنا لزيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، أية مشاعر تجتاح الإنسان المؤمن وهو يخطو داخل فناء المسجد العريق، حيث يفوح عطر التاريخ، وأيام المجد العظيمة، إنه القبلة الأولى للرسول الأعظم محمد بن عبد الله « ﷺ » وللمسلمين، وإليه كان مسراه، وما أكثر ما شهد هذا المسجد من أحداث تاريخية كبرى، إبان الحروب الصليبية وحروب الاستعمار الحديث! الضجة التاريخية الكبرى تخفت الآن، لكن شيخ المسجد العجوز ذا اللحية البيضاء، ما زال يبتسم ويأمل، ويحدثنا عن الذكريات وأيام الجهاد المرير، والدم المراق، والزمان الذى يتغير، والموازين التى تميل، والمستقبل الغامض، وانفراط عقد العرب، وضعفهم وهوانهم.. وأرانا آثار الطلقات النارية فى قبة الصخرة.. ولم تفارقه الابتسامة الوقورة..

ثم ذهبنا إلى « كنيسة القيامة » ذات الكنوز الأثرية الضخمة، وأخذ القساوسة يحدثونا عن الماضى الزاهر، والحاضر المؤلم، والمستقبل المجهول، وأشاروا إلى الثقوب التى أحدثتها طلقات الرصاص فى النوافذ المغلقة دائمًا، والتى لا يسمح اليهود لهم بفتحها أبدًا، ونظرنا من خلال الثقوب.. ورأينا جزءً من شوارع القدس الجديدة « اليهودية »، كانت شوارع نظيفة مرصوفة والفتيان والفتيات يسيرون متشابكى الأذرع والأيدى يمرحون، ويعبثون، والجنود متربصون هناك بأحدث الأسلحة، وعيونهم على القدس العربية..

وفى « بيت لحم » كانت زيارتنا لكنيسة « المهد » حيث ولد عيسى عليه السلام، الراهبة تجلس فى صمت وخشوع، ولا تكلم أحدًا، وهذا باب خشبى قديم يقولون إنه الباب الخاص ببيت يوسف النجار، وتماثيل عدة لمن كتبوا الإنجيل، ولعيسى وحوارييه وللعذراء، وقبل أن نأخذ الصور التذكارية أخذ أحد القساوسة يحدثنا عن الخطر اليهودى المحدق، وعن الذكريات الكئيبة التى تبعث الألم فى النفوس. وكيف أن اليهود لا يؤمن جانبهم، وأنهم لا يحترمون الأديان، ولا مقدسات الشعوب الأخرى. وتيسرت لنا زيارة مدينة « الخليل »، وصلينا فى مسجدها الشهير، وشاهدنا المقابر التاريخية، كما استقبلنا رئيس بلديتها « الشيخ محمد الجعبرى » آنذاك، وتناولنا على مائدته العامرة طعام الغذاء، ووقف بيننا خطيبًا، وإلى جواره عدد من رجال الحرس يطلقون الرصاص، كأنما يؤكدون وجودهم واستعدادهم لليوم المرتقب، وأذكر أن الشيخ قال فى خطبته: « لن نغادر هذه المدينة إلا جثثًا هامدة إذا ما تعرضت لغزو إسرائيلى آخر »، لكن الحظ لم يحقق أمله، فقد غادروها فى عام ١٩٦٧ فيما بعد بسلام إلى المملكة الأردنية، وتسلم إحدى الحقائب الوزارية فيها.. لكن الرجل- والحق يقال - كان كريمًا فى حفاوته بنا، بليغًا فى خطابه الوطنى، جهورى الصوت، واثق النبرات، لدرجة أنه أسال منا الدموع.. وكنت لأول مرة أتناول الطعام على الطريقة العربية التقليدية، ولم أدر كيف أبدأ، لكن أحد الضباط كان معنا، ثم رأيناه يشمر عن ساعده، ويدس يده فى الأرز واللحم، ويقول: « هكذا تفعلون .....»

وانطلقنا إلى منطقة « باتير » و« سور باهر »، ووقفنا خلف الأسلاك الشائكة، التى تفصل بين العرب واليهود، وأخذنا نرقب جموع العساكر اليهود على الجانب الآخر فى كامل العدة والسلاح، وفى الجانب العربى لم نر إلا بضعة أنفار يرتدون الملابس العسكرية المتواضعة ويحملون السلاح القديم، وكان واضحًا أن أى هجوم صهيونى غادر مفاجىء لن تواجهه مقاومة تذكر، قلت هامسًا لأحد الإخوة فى مداعبة: « استطيع أن أسبب مشكلة بين اليهود والعالم العربى ..»

قال وهو يرمقنى فى دهشة: « كيف؟ »

- « أطلق رصاصة واحدة صوب اليهود.. فتقوم المعركة ..»

نظر إلى ساخرًا وقال: « يعملونها الصغار.. ويقع فيها الكبار ..» وأخذ يضحك فى مرارة..

وقيل لنا إن مؤتمر الشعوب الإسلامية - ومقره القدس - سيقيم لنا حفلة عشاء، فذهبنا إلى هناك فى المساء، كان المقر بيتا عتيقًا يبدو أنه بنى منذ مئات السنين، وكان ضيق الحجرات والأبواب والنوافذ، وأرض مكونة من قطع حجرية ملساء تشبه الرخام، وليست برخام، كانت المائدة متواضعة، بها كثير من الفواكه، وقليل من الطعام، ويجلس فى الصدارة الأستاذ سعيد رمضان عضو الإخوان المسلمين البارز، وكذلك الأستاذ كامل الشريف المجاهد المعروف فى فلسطين والقنال، ووزير الأوقاف الأردنى بعد سنوات، و« نجيب جويفل » وهو من شباب الإخوان المعروفين، وقد دار حوله كثير من الجدل، وكان هؤلاء وغيرهم قد غادروا مصر بعد أن أيقنوا من سوء نوايا الحكام، وتوقعوا أن الضربة سوف توجه إلى الجماعة إن عاجلًا أو آجلًا، فتركوا مصر لكى تكون لديهم حرية الحركة، ولعلهم يستطيعون أن يؤدوا واجبًا ولو إعلاميًا إذا ما حاقت المحنة بالإخوان.

وقد رافقونا فى كثير من الجولات فى أنحاء الضفة الغربية بالذات، وشرحوا لنا الكثير عن الأوضاع الفلسطينية والعربية بوجه عام، وكانوا مجمعين على أن مطامع اليهود لن تقف عند حد، وأنهم لابد وأن يستأنفوا سياستهم العدوانية فى التوسع والتهام الأرض العربية قطعة قطعة، ولم تكن منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات قد ظهرت بعد، كما كانت الأوضاع شديدة التوتر فى مصر، وهى القاعدة العربية الكبرى، ودولة المواجهة الأولى.

وعلى شاطىء « البحر الميت » انتحى بى نجيب جويفل جانبا، ولم يكن بيننا صلة مباشرة سابقة، كنت أسمع عنه، وأراه أحيانا فى المركز العام، لكنه لم يكن يعرفنى، لكن الأيام التى قضيناها فى الضفة الغربية والأردن، أتاحت فرصة للتعارف السريع.

وعندما أصبحنا وحيدين، أخذ يسألنى عن الأوضاع فى مصر، وأخذت أفيض فى الشرح، وهو يناقش ويستفسر، ولعله ظن - وبعض الظن إثم - أننى قد أكون واحدًا من أعضاء النظام الخاص، والدليل على ذلك، أنه أخذ يلمح بأنه لا أمل فى التفاهم مع عبد الناصر، وأنه أصبح عقبة فى طريقة الدعوة، وأنه يتخذ أبشع الأساليب وأظلمها فى التصدى للجماعة، دون وازع من ضمير، أو قانون، ويريد أن ينفرد بحكم استبدادى مطلق، ويرى فى الإخوان القوة الوحيدة التى تحاول تحجيمه، أو تعديل مسار طموحاته الخطرة، وقال نجيب جويفل بصوت خفيض هادئ: « يجب التخلص منه بأى شكل ..»

وصمت.. لم أعلق بكلمة واحدة.. كنت أظنه ممن يملكون صنع القرار فى الجماعة، وإن ثبت العكس بعد ذلك، وخاصة بعد أن أشيع عنه أنه يتعاون مع السلطة فى مصر، ويلعب على الحبلين.. والله وحده يعلم الحقيقة.

استطعنا خلال تلك الأيام القليلة، أن نلم بالكثير عن الأوضاع العربية الفلسطينية، وأن نجمع الكثير من المعلومات، وكثير من تلك المعلومات قد زرع فى قلوبنا الألم ولا أقول اليأس، إن الصراعات الدامية تنتشر هنا وهناك، والانقلابات ومحاولات الانقلابات نسمع أو نقرأ عنها، والصراعات الفكرية أيضًا بين الأحزاب والجماعات تشتعل فى كل مكان، وقوات الاحتلال ما زالت رابضة فى كثير من البلدان

العربية، وإسرائيل تنمو وتقوى، ونحن ننكمش، ويكاد الغموض يلف كل شيء..

الصدام في الداخل.. والصدام في الخارج وعلامات السياسية تختلف من كاتب لآخر، ومن مكان لمكان، وعلاقات النهضة الحديثة تهتم بالقشور دون اللباب، والشعارات تزحم الآفاق، كلام كثير وفعل قليل..

وعدنا مرة أخرى إلى بيروت، كي نتخذ طريقنا بحرًا إلى مصر، واستغرقت رحلة العودة من ميناء بيروت إلى القناة أقل من يوم.. ولم أحمل معي سوى الذكريات وهدايا قليلة للأهل والأصدقاء.

كنت مضطربًا بعض الشيء، فإن ما تكتبه الصحف خارج مصر، غير ما تنشره الصحف المصرية، إن أمورًا هامة لابد وأن تحدث على الساحة السياسية في مصر، وخاصة بعد أن وقع الثوار والإنجليز على اتفاقية الجلاء.. نعم الجلاء « الناقص » حسب نصوص الاتفاقية، والذى كانت نتيجة غير كاملة لدماء الشهداء والأبرار في منطقة القنال، والذين كانت غالبيتهم العظمى من الإخوان.. وبات واضحًا أن جمال سوف يتفرغ للقضاء على مناوئيه - في السلطة - حسب تصوره.. وهم الإخوان، وكانت كل الأحداث والشواهد تؤكد ذلك.

❁❁❁

[٧] الحادث



حينما تضطرب الأمور، وتحدث التجاوزات من قبل السلطة التنفيذية، ويسود الخوف والانتقام، تنبثق تصرفات وممارسات خطيرة، تعصف بأمن الشعب واستقراره، ويسود الارتباك كل شيء.. السياسة.. الاقتصاد.. الأخلاق، وإذا داس الحاكم على كرامة الدستور، وبالتالى كرامة الشعب، فقد يدفع ذلك المحكومين أن ينفثوا عن اعتراضهم ورفضهم فى سلوكيات عنيفة..

أذكر أننى كنت فى قريتنا فى أواخر شهر أكتوبر عام ١٩٥٤، كان الوقت مساءً، وكنت مضطجعا على سريرى ذى العمدان العالية، وأستمع إلى صوت الراديو، حيث كان جمال عبد الناصر يلقى خطابًا فى ميدان المنشية بالإسكندرية، وبينما كان يتحدث سمعت طلقات رصاص خافتة لكنها كانت واضحة، وتوقف جمال عن الخطابة.. وساد هرج ومرج، وسمعت أصواتًا متداخلة، فأيقنت أن شيئًا مفاجئًا خطيرًا قد حدث، وبعد فترة وجيزة سمعت جمال عبد الناصر يصرخ منفعلًا: «مكانكم أيها الرجال.. إن يقتلوا جمال عبد الناصر، فكلكم جمال عبد الناصر.. لقد خلقت فيكم الحرية.. وخلقت فيكم الكرامة» إلى آخر تلك العبارات العاصفة الملتهبة المليئة بالانفعال والغضب، وانتهى الخطاب بأسرع ما يمكن، وعادت الإذاعة لتعلن على الملأ أخبارًا مؤداها أن الإخوان المسلمين قد دبروا مؤامرة لاغتيال جمال عبد الناصر، وأنه قد تم القبض على المعتدى واسمه محمود عبد اللطيف، وأنه عامل من إمبابه، وأن الحكومة اتخذت التدابير العاجلة والحاسمة لدرء الفتنة، وأخذ المعتدين بالشدة والعقاب. لقد صدمنى ما سمعت.. وشعرت بالقلق البالغ والحيرة.. هذه بداية صعبة لمرحلة تاريخية عصيبة.. كل الأحداث والأخبار تدل على ذلك..

وصدق ما توقعته، فقد جاءت صحف اليوم التالى حافلة بالهجوم الشديد على جماعة الإخوان المسلمين ومرشدها العام وكوادرها، وأسلوبها الإرهابى، وتسابق الكتاب والشعراء والصحفيون فى الذم والطعن وتلفيق الأخبار، ونسخت الحسنات، بل تحولت إلى سيئات، وأخذ المحللون يفسرون تلك الحسنات تفسيرًا جديدًا، يتفق وموجة الحقد والغضب التى تكتسح الجماعة وتاريخها، فهم عملاء لإسرائيل وأمريكا والاستعمار، وحربهم فى القناة - كما يزعم الزاعمون - إما ستار لإخفاء مطامعهم، أو قام به شباب شرفاء وادعت الجماعة أنهم من أبنائها، ونفس الشىء قيل عن معاركهم الشريفة فى حرب فلسطين، وعن الأنشطة الاجتماعية والثقافية والنقابية التى ساهموا فيها، وتناولوا شرف القيادات الإخوانية باتهامات بذيئة لا يتصورها عقل، بل اندفعوا فى افتراءاتهم واتهاماتهم حتى نالوا من الشيخ حسن البنا نفسه، ورموه بكل رذيلة ونقيصة، ونسوا أو تناسوا ما قاله عبد الناصر على قبره، من تمجيد وتشريف، ونسوا محاكمة قاتلى البنا، وحكم القضاء العادل، واستطاعوا أن يجندوا عددًا من المنشقين كى يكتبوا فى الصحف استقالاتهم من الجماعة، ويتهموها بالانحراف والإرهاب..

وسادت موجة من الرعب لا مثيل لها فى تاريخ مصر، حيث سيق الألوف إلى المعتقلات، وبدأت ممارسات القتل والتعذيب فى السجن الحربى وغيره، وأخذت الصحف تنشر صور المتهمين حليقى الرءوس، وبطريقة يحاول فيها صانعوا «الرتوش» إبرازهم فى أشكال مخيفة قبيحة، وتشكلت على الفور «محكمة الشعب» برئاسة جمال سالم قائد الجناح. وأعلن عن مكافآت كبيرة لمن يرشد عن الهاربين، وفيهم الأستاذ الهضيبى المرشد العام، ورئيس الجهاز الخاص يوسف طلعت، وكان الهضيبى مختفيًا منذ فترة، أى بعد عودته من رحلته فى سوريا والدول العربية، وتحدثت الصحف بأسلوب مثير عن مؤامرات مزعومة مثل نسف دور السينما والمسرح والكبارى والإذاعة ومحطات الكهرباء والماء، وعقدت الأحاديث والندوات فى وسائل الإعلام، وكلها تنال من رجالات الدعوة الإسلامية فى مصر، كما ساد الخوف الناس، وأصبحوا يترددون فى الذهاب للصلاة فى المساجد، ويخافون من إطلاق اللحى، وينكرون قرابتهم لمن يتهمون بالانتماء للإخوان، واستعدوا عليهم الدول العربية والإسلامية، وأصبحت الدولة وأجهزتها الإعلامية والأمنية السياسية والعسكرية مسخرة تمامًا لهذه المهمة، وهى القضاء التام على الإخوان المسلمين وتاريخهم وفكرهم بأى أسلوب أو طريقة، وكان لابد من انتزاع الاعترافات العاجلة، إن صدقا وإن كذبًا، بالعنف والتعذيب دون سواهما، وصاحب ذلك حركات تطهير وعزل فى مختلف مؤسسات الدولة ودواوينها دون رحمة، وأصبح البيت الذى يعتقل فيه أحد الإخوان كالمكان الموبوء، يخاف الناس أن يقتربوا منه، ولا يفكر أحد فى القيام بواجب المواساة والعزاء، وأحرق الناس ما لديهم من كتب تمت من قريب أو بعيد بالفكر الإسلامى قديمة وحديثة، كما قامت أجهزة الأمن بتمشيط المكتبات ودور النشر والصحف، للتخلص من كل المطبوعات التى لها أدنى صلة بالفكر الإخوانى الإسلامى، وقام «علوى حافظ» الضابط المدلل آنذاك، بإحراق المركز العام للإخوان المسلمين بالحلمية، وانطلقت الأقلام الحاقدة والداعرة والمأجورة لتبث السموم والإشاعات الكاذبة بين الناس.. كانت محنة.. ليس مثلها محنة.. واستطاع رجال الأمن مداهمة الهضيبى فى مسكن له بالإسكندرية، وسبق ذلك اعتقال وكيل الجماعة الأستاذ عبد القادر عودة صاحب المسيرة السلمية الشهيرة يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٤، ويوسف طلعت، وعدد من المتهمين الأوائل هنداوى دوير وإبراهيم الطيب ومحمد فرغلى وغيرهم.. وكان الأمر الواضح المثير، هو عدم معرفة قيادات الإخوان المسئولة بهذا الحادث وظروفه.. وشاع بين الناس، أن الحادث مجرد تمثيلية رخيصة، بل قبضت سلطات الأمن فيما بعد على مجموعة من الناس كانوا يتحدثون عن الحادث كتمثيلية محبوكة وقد تم تقديمهم للمحاكمة، وهذا القول لا يخرج عما ذكره الأستاذ حسن التهامى - صديق عبد الناصر - فيما بعد، حينما قرر أن الحادث كان مدبرًا من عبد الناصر، بالتعاون مع بعض الأجانب، ويرى حسن التهامى أن الهدف من تدبير ذلك الحادث، كان مقصودًا به عدة أشياء أهمها:

١- إيجاد شعبية لعبد الناصر بعد أن تدنت شعبيته لحد خطير بين الشعب والجيش بعد أحداث محمد نجيب.

٢- إجهاض أية تحركات معارضة يقوم بها الإخوان فيما بعد، والقضاء عليهم قضاء تامًا.

٣- الانفراد بالسلطة بعد التخلص من الخصم الوحيد القادر على المنافسة.

٤- بث الرعب بين الشعب، والقضاء على جيوب المعارضة الأخرى داخل الجيش وخارجه.

٥- إسكات أصوات الداعين إلى الحرية والديموقراطية والإسلامية.

٦- إخلاء الساحة من كل معارضى النظام الشمولى «الحكم المطلق»، وإتاحة الفرصة لقيام الحزب

الواحد، ومنظمات شبابية تابعة وخاضعة للنظام الشمولى الموجه.

٧- إطفاء المصابيح المنيرة فى تاريخنا المعاصر، ورميهم بالسلبيات والقصور، حتى ينفرد عبد الناصر بالزعامة وقيادة حركة التنمية والاستقلال والتحديث.

٨- وقف النمو الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الرصين، واللجوء إلى أسلوب القفزات والقرارات الارتجالية، والمظاهر البطولية، وأحلام المجد، والسيطرة.

وكان لابد - لكى يتم ذلك - أن يبدأ النظام فى مغازلة الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين، والتشنيع على العهود السابقة والملاك ورجال الصناعة والمال السابقين، إن عدلًا أو ظلمًا.

كان حادث المنشية مختلفًا تمام الاختلاف عما سبقه من حوادث..

اغتيال النقراشى، كان قضية واضحة لا غموض فيها.. واستشهاد حسن البنا، كل الناس عرفوا أن السلطة هى المسئولة عنه.

أما حادث « المنشية » فقد كان على النقيض من ذلك، ولا يمكن أن يحدث أمر خطير كهذا دون معرفة المرشد العام، ونستطيع أن نقرأ ملفات التحقيق مع المرشد العام، فسوف نجد أنه لا يدرى عن هذا الموضوع شيئًا، وقد أكدت أقوال الشهود تلك الحقيقة الناصعة. ترى هل كان الموضوع، كما يقول حسن التهامى أحد ضباط الثورة - من تدبير الحكومة ومن أشاروا عليها؟

هل هو تمثيلية كما أشيع بين الناس، أم كان تصرفا فرديا بحتًا؟

وعدنا إلى الجامعة بعد هذه الأحداث العاصفة.. لقد قبض على معظم القيادات الشبابية الإخوانية.. وانفرط العقد.. وأخذنا نتابع ما يكتب فى الصحف.. كان كثيرون من الناس يصدقون ما يقال، وكان أعداء الجماعة فى سعادة غامرة، وكان الوفديون يقولون لنا: « لقد حذرناكم من التعاون مع الثورة، وها أنتم تجنون ثمار الخطأ الأكبر الذى وقعتم فيه »، وكان الشيوعيون - رغم اعتقال بعضهم ومطاردتهم - يعتقدون أن ما جرى سيكون فى صالحهم، وسيعطيهم فرصة أكبر للانطلاق والنشاط.. وقيل فى الأوساط الشعبية « إن العاقل فى هذا الزمان، من يلزم بيته، ويهتم بأكل عيشه، وتربية أولاده، ويبعد عن السياسة ..».. وحاصرنا أهلونا بالرقابة والنصائح، وألحوا علينا فى أن ننأى بأنفسنا عن هذه الفتن الدامية التى لا يعلم مداها إلا الله..

لكننا فوجئنا بمشكلة إنسانية محيرة... إن الذين اعتقلوا وسجنوا قد قطعت موارد رزقهم، وأصبحت عائلاتهم عرضة للتشرد وأخذنا فى الجامعة نفكر فى الأمر، وكان الرأى أن نجمع بعض التبرعات لهذه الأسر، ونرسلها إليهم سرًا، وبدأنا فعلًا بذلك العمل الإنسانى، واستمر الأمر لعدة شهور.. حدثنى الأستاذ المحقق الكبير « محمود شاكر » - الحائز على جائزة الملك فيصل، ومحقق تفسير الطبرى - حدثنى قائلًا: « لقد جاءنى ذو الفقار صبرى ذات يوم، وأنت تعلم أن بينى وبينه صلة نسب، فوجدنى ثائرًا حانقًا، وسألنى: ماذا جري؟ »

قلت له: « إن أخاك على صبرى يمسك « بالكرباج » ويضرب المتهمين.. قد يكون هذا أمر محتملًا بعض الشيء.. لكن ما ذنب آلاف الأسر التى حرم أربابها المعتقلون من مرتباتهم الشهرية؟ هل أجرم الأطفال والنساء؟ ».

وأخذت أشرح له وجهة نظرى فى هذه القضية الإنسانية.. وانصرف ذو الفقار صبرى صامتًا، لكنه عاد إلىّ فى صبيحة اليوم التالى وقال لى: « أبشر.. لقد وافق جمال عبد الناصر على صرف مرتبات المعتقلين ».

وتم ذلك فعلًا، لكن الذين حكم عليهم بالسجن أو فصلوا، قطعت مرتباتهم، كذلك كان هناك عدد كبير من المعتقلين والمسجونين لم يكونوا موظفين أصلًا، بل كانوا يكتسبون أرزاقهم من التجارة أو الزراعة أو الحرف الصغيرة، وهؤلاء أصبحت أسرهم بدون مورد رزق..

وهكذا تم إنشاء ما يسمى « بالتنظيم المالى » لمساعدة أسر الإخوان واستمر الأمر بضعة شهور، وفى الثلث الثانى من عام ١٩٥٥ تم اكتشاف هذا التنظيم، وتم اعتقال أفراده، وسيقوا إلى المحاكمة أمام دائرة محكمة الشعب التى يترأسها اللواء صلاح حتاتة، وكانت المحاكمات سرية، ومعظم المتهمين فى هذه القضية كانوا يدفعون اشتراكًا قدره خمسة قروش أو عشرة أو خمسة وعشرون، وصدرت أحكام ضد الغالبية منهم فيما عرف بقضية « الجهاز السرى التمويلى »، وخاصة دفعة شهر مارس ودفعة شهر يوليو فى عام ١٩٥٥، ومن الطريف أن ضمن من اعتقلوا فى هذا الجهاز المتهم « عبد الغفار النقراشى »، وهو قريب النقراشى باشا حيث كان يوصل بعض المبالغ من حلوان إلى أسرة فى السويس على ما أذكر.. وقد حاول المحققون مناقشة هذه القضية مع المتهمين فى السجن الحربى، فقد قال أحمد صالح أحد كبار رجال الأمن المهمين فى تلك الفترة: « إن تصرفاتكم هذه خاطئة.. من يدري؟ قد تستغلون الأموال التى تجمعونها فى شراء السلاح ..»

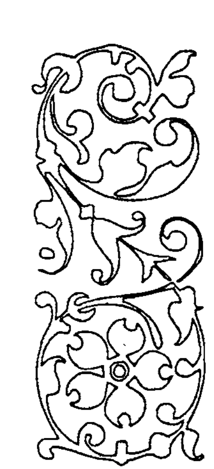
فرد عليه أحد قيادات الجهاز التمويلى وهو سليمان حجر « الدكتور سليمان حجر الأستاذ بكلية التربية الرياضية حاليا » وقال: « أنا لم أفعل سوى ما يمليه علىّ ضميرى.. وهذه - كما قلت - مسألة إنسانية.. وقد ثبت فى التحقيق الذى أجرى معى.. أنا وإخوانى.. أن المصرف الوحيد لهذه الأموال كان بيوت المحتاجين من أسر المعتقلين والمسجونين.. ونحن إذا لم نفعل ذلك نكون آثمين.. فهل يدخل الجنة من بات شبعان وجاره جائع؟ ثم إنه سيأتى يوم يقوم عامة الشعب من غير الإخوان بهذا العمل الإنسانى.. وقد ثبت لكم أن هناك مسيحيين قد شاركوا فيه.. وفعل نفس الشىء أفراد لا تربطهم بالإخوان المسلمين كتنظيم أية صلة.. فإما إن تسد الحكومة هذه الثغرة.. وإما إن نسدها نحن ..»

ومع ذلك فقد حكم على سليمان حجر بالأشغال الشاقة.. والواقع أن قضية مساعدة الأسر المحتاجة لم تتوقف فى أى يوم من الأيام، وأذكر أننا ونحن فى سجن أسيوط عام ١٩٥٧، إننا علمنا من أحد الزوار أن هناك أسرة، قد سجن عائلها وتعانى من شظف العيش والمشقة، فما كان منا - نحن المسجونين - إلا أن فتحنا باب التبرع، رغم ضعف إمكاناتنا الشديد - وجمعنا لهذه الأسرة ما تيسر من أموال، وأرسلنا المبلغ بطريق سرى إلى تلك الأسرة..

ولقد حاولت جهات الأمن « المباحث العامة بالذات » فرض رقابة شديدة على الأسر المحتاجة، لعلهم يمسكون بمن يأتى إليهم بالمعونة، ونجحوا فى رقابتهم إلى حد بعيد، إذ أمسكوا بالعديد من القضايا التى تتعلق بهذا الموضوع، وأصبح شائعًا بين الناس أن من يقدم المعونة لأسرة من الإخوان، سوف يقذف به وراء الشمس كما يقولون.. ولهذا السبب حدثت مآسى تقشعر لهولها الأبدان من جراء ذلك الحصار الرهيب.. لقد كانت الجهات الأمنية تعتقد أن ذلك الحصار كفيل بأن يلقن الأسر الإخوانية درسًا لن ينسوه أبدًا.. وستواجه هذه الأسر فى المستقبل عائليها بالرفض التام لأى نشاط دينى أو سياسى..

لكن هل نجح المخطط الجهنمى الذى أشرف عبد الناصر عليه بنفسه.. والذى وضعته نخبة من الخبراء العالميين والمصريين؟

❁❁❁



مضى عام دراسى، ونقلت فى آخر العام إلى السنة الرابعة بكلية الطب، وسافرت إلى قريتنا. بعيدًا عن عواصف الأحداث فى القاهرة، لم يكن أمامى شىء أفعله سوى القراءة الحرة، والسهر مع الأصدقاء، والحديث عن مأساة الإخوان، ونجاح الحكومة فى ضربتها القوية الغاشمة ضددهم، ومطاردتها لفلولهم هنا وهناك، ولم تكن الأصوات المحتجة فى العالم الخارجى بقادرة على أن تغير من مسار الأحداث، أو تخفف من غلواء الحكومة وبطشها.

ولم تنته مهمة دوائر « محكمة الشعب »، فقد ظلت تؤدى مهمتها سرًا، وخاصة فيما سمى « بجهاز مارس ١٩٥٥ »، وفى أواخر يوليو ١٩٥٥ جاءنى صديق من أهل القرية، يعمل فى التجارة، وشكا لى من مرض « الصدفية »، وهو مرض جلدى، مجهول السبب، لا يستجيب للعلاج، وبعد دراسة الأمر رأيت أن آخذه إلى قسم الأمراض الجلدية والتناسلية بالقصر العينى بالقاهرة، وسافرت معه، وبعد أيام قليلة استطعت أن أحصل له على موافقة بتلقى علاجه داخل هذا المستشفى الجامعى العريق، وانتهزت الفرصة - بعد إدخاله - وتوجهت إلى المدينة الجامعية، لأتقدم بالطلب السنوى للالتحاق بها العام الدراسى القادم، كما هى العادة فى كل سنة.. ووجدت السكرتير ينظر إلى بنظرات قلقلة مريبة.. ثم سألنى عن أخى وزميلى فى الدراسة إبراهيم الصياد، فأخبرته أننى لم أره منذ نهاية العام، لكنه تلفت يمنة ويسرة، وقال بصوت هامس: « لقد اعتقلوه ...»

صحت فى دهشة: « لماذا؟ »

هز كتفيه، وصمت..

كان يبدو على السكرتير الخوف، بل الذعر، وعجبت! هل ما زالت الاعتقالات مستمرة حتى الآن؟ ومتى تهدأ الأحوال، وتنكشف الغمة؟ إنه لأمر يدعو إلى القلق فعلًا، وانصرفت خارجًا من المدينة الجامعية، انتابنى إحساس عميق بعدم الاطمئنان، وذهبت لزيارة بعض الأصدقاء، وفى كل مكان ذهبت إليه، كنت أسمع أخبار الاعتقالات المستمرة، وأخبار تعذيب المعتقلين، ووفاة بعضهم، والتعليق على أحكام الإعدام التى صدرت وتم تنفيذها على ستة أفراد، ولم ينج من الإعدام سوى المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبى، وهو الوحيد الذى خفف عنه الحكم فى البداية إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، ثم خفف الحكم أيضًا على المتهم سيد الريس، وبعض ضباط البحرية، وعدد آخر من قيادات الإخوان..

ورأيت أن أعود إلى القرية كى أخلد إلى الراحة، وأحاول التخفيف عن نفسى مما ألم بى من توجس وقلق، كنت أحمل معى بعض المطبوعات التى صدرت عن الثورة وفيها كلمات للمشير عامر، وخطب

للرئيس، واتهامات للإخوان، كما كان معى بعض الرسائل التى كتبها حسن البنا قديمًا، واتجهت صوب طنطا فى القطار، ثم ركبت سيارة أجرة إلى زفتى، وهناك وجدت بعض الأصدقاء والجيران، وركبنا معا سيارة «أبو الدهب» أحد أبناء قريتنا.. ووصلنا إلى القرية بسلامة الله.. وسارت السيارة فى أحد شوارعها الرئيسية، وما كدنا نتوغل ما يقرب من مائة متر، حتى وجدت فى مواجهتنا سيارة شرطة.. ونزل منها ضابط الشرطة، الذى كنا نطلق عليه «قنديل بك»، وهو ضابط نعرفه من قديم أيام أن كان ملازمًا بنقطة شرطة سنباط، وكان له ابن اسمه «على» آنذاك، ووجدت قنديل بك يشير بيده إلى «أبو الدهب» فأوقف سيارته انصياعًا للأمر، ودق قلبى.. شعرت أن الأمر يخصنى.. ورميت بما معى من كتب داخل السيارة، وقلت لهم: «اخفوا هذه الكتب ...»

وأطل قنديل بك برأسه من نافذة السيارة وقال:

- «أين نجيب الكيلاني؟»

صحت دون وعى: «أنا ..»

قال: «تعال معنا ..»

قلت: «خير.. هل فيه شىء؟»

قال بألم: «بسيطة ..»

ونزلت مهرولًا، وأخذنى إلى سيارة الشرطة، وجلست إلى جواره، بينه وبين السائق، كان إحساسى المبدئى، إننى فى مصيدة.. حاولت أن أتكلم، فلم تطاوعنى الكلمات، لم أجد شيئًا أقوله.. وأمسك الرجل كشكولًا لى، يبدو أنه قد أخذه من بيتنا وهو يقوم بالتفتيش.. كان بالكشكول بضعة فصول من قصة كنت أحاول كتابتها عن القرية والفلاحين والعمدة الظالم وما إلى ذلك، ووجدت قنديل بك يتصفح الكشكول، ويتنهد قائلًا: «هؤلاء الفلاحون أهلونا.. نحن منهم يا ابنى.. لكنهم يعانون الكثير.. أدركت أنه يواسينى، وذلك بالتعرض للموضوع الذى كتبت فيه ولم يتم، ثم قال فجأة: »

- «هل تعرف عبد المنعم سليم؟»

ودق قلبى مرة أخرى، قلت: «نعم أعرفه.. كان زميلى فى المدينة الجامعية، وهو طالب بكلية الآداب.. وأظنه تخرج هذا العام ..»

ثم أخذ يسألنى مرة أخرى: «هل تعرف إبراهيم الصياد ؟؟»

- «نعم .. زميلى فى الكلية والمدينة ..»

- «وهل تعرف . . . .؟؟»

وأخذ يذكر لى بعض الأسماء التى لا أعرفها ، ولما أجبت هذه المرة بالنفى ، نظر إلىّ فى شك ، توهمًا منه أننى أهرب من المواجهة ، فأقسمت إننى لا أقول سوى الحقيقة ، لم أكن أعرف أين سيأخذوننى ، بل إن قنديل بك أوهمنى - وله العذر - أننا ذاهبون إلى مركز زفتى ، لكنى وجدت السيارة تتجه صوب مدينة طنطا ، وفعلًا وجدت نفسى فى مقر المباحث العامة بطنطا ، وأجرى قنديل بك معى تحقيقًا سريعًا ، وكان حوله مجموعة من المخبرين الذين وقفوا على أهبة للعدوان ، ولكنه والحق

يقال لم يعطهم الفرصة لذلك ، وقال فى مرارة : « فى القاهرة سوف تقول كل شىء يا بنى . .»

ولم يغب عنى معنى كلماته ، كنت أعلم أن وسائل العنف والإرهاب التى يتفننون فى إستخدامها لإرغام المعتقلين على الإعتراف بأى شىء يريدونه ، كفيلة بإفقاد الإنسان صبره وطاقة تحمله ، إذن سوف يرحلوننى إلى القاهرة .. الوداع يا شرشابه .. ويا طنطا .. بل وداعًا أيتها الحرية !! وحاولت أن أعزى نفسى قائلًا : « وأين هى الحرية ؟! إننا نعيش فى سجن كبير .. والأعمار بيد الله .. وليس من المكتوب هروب .. كلمات حفظتها عن جدتى التى لا شك أنها تبكى الآن مع أمى .. واستسلمت ..

ونقلونى إلى قسم أول طنطا .. ووضعونى فى « التخشيبة » كما يسمونها ، مع المحجوزين من اللصوص ومعتادى الإجرام وغيرهم ، والتخشيبة عبارة عن حجرة رديئة قذرة ، وفى ركن من أركانها « بالوعة » للتبول ، والمحتجزين متكومون هنا وهناك ، بعضهم نائم وبعضهم جالس ..

ونظرت حولى لأول مرة بإمعان ، رأيت اثنين من المحتجزين ينظرون إلى فى تعاطف ومحبة ، كأن أعينهما تقول كلامًا كثيرًا ، وأشار أحدهما إلىّ بأن آتى وأجلس إلى جواره ، وفرش لى على الاسفلت جلبابه الإضافى وقال بعد هنيهة : « لماذا قبضوا عليك ؟؟ »

– « بتهمة الإخوان المسلمين . .»

ابتسم وقال : « ونحن كذلك .. أنا أحمد سلام .. وهذا أخى محمود جبريل . .»

– « انتما أيضا من الإخوان ؟! »

– « نعم . .»

يجب أن أكون حريصًا ، ولا أتكلم بشىء يؤخذ علىّ ، فمن أدرانى أنهما من الإخوان المسلمين ؟ قد يكون فى الأمر خديعة ، فرجال الأمن يفعلون ذلك عادة ، ووجدت رجلًا قريبًا منا يحاول استراق السمع باهتمام بالغ ، وهمس أحمد سلام فى أذنى قائلًا ؟ « إنه شرطى .. ويزعم أنه معاقب بالحبس لمدة ليلة .. لكننى اعتقد أنه عين علينا .. خذ حذرك منه . .»

وقطع حديثنا أحد المحتجزين وهو يصرخ محتجا ويقول : « يا ظلمة .. يا كفرة .. افرجوا عنا . .»

وربت أحمد بيده على كتفى وقال : « لا تهتم .. دعه وشأنه . .»

كان المكان يبدو مقبضا كئيبًا ، وكنت أرزح تحت ألم نفسى خانق ، على الرغم من إحساسى بقدر من الراحة بعد أن اكتشفت أن معى اثنين من الإخوان ، وعلى الرغم من أننى لم أكن أعرفهما من قبل ، إلا اننى شعرت كأننا أصدقاء مخلصين منذ سنوات طويلة ..

قلت فى قلق بالغ : « هل سنبقى هنا طويلًا ؟ »

قال أحمد : « نحن هنا منذ يومين . .»

– « يا إلهى .. إن هذا لا يطاق .»

وعاد أحمد يقول : « هنا أفضل من السجن الحربى بكثير . .»

التفت إليه وقلت : « هل سننقل إلى السجن الحربى ؟ لماذا ؟ »

لم يجب أحمد ، حتى هذه اللحظة كنت آمل فى الخلاص ، لكن التفكير الرصين ، والتحقيق الذى أجرى معى ، وما فيه من أسئلة وأسماء ووقائع ، كلها تؤكد أن الأمر معقد وأن التفكير فى الإفراج

العاجل سذاجة ، لأن ذلك لا يتفق مع سابق التجارب مع الآخرين ، ولا مع المنطق السائد ..

ودق باب الحجز ، وسمعت صوتًا ينادى باسمى ، فهرولت مندفعًا صوب الباب المغلق ، كان الصوت صوت خالى « مالك » ، الطالب بكلية تجارة الاسكندرية وهو يكبرنى بأربع سنوات ، وفهمت أنهم علموا بنبأ اعتقالى ، وأن جدى أرسله للاطمئنان عليّ ، وليؤكد لى أنهم لن يتركونى ، وفهمت أيضًا أننى سوف أنقل غدًا إلى القاهرة للتحقيق .. وانصرف دون أن أراه .. لم أسمع سوى صوته .. إنها تجربة مؤلمة ، أتعرض لها لأول مرة ، وكادت الدموع تطفر من عينى ، لكننى تماسكت .. ثم عدت إلى موضعى الأول جوار أحمد ..

قال أحمد : « يجب أن تنام قليلًا ، حتى تقوى على السفر وعلى التحقيق . . »

قلت فى قرف : « وكيف أنام ؟ الفكر مشغول ، ولا يوجد مكان مناسب . . »

قال وهو يميل بجسده النحيل جوار محمود جبريل : « نم يا رجل ، واترك الأمر لله . . »

واضطجعت على الجلباب الذى قدمه لى من قبل، ووضعت حذائى تحت رأسى، وحاولت النوم.. وسمعت أحد اللصوص يقول لزميله بصوت مرتفع: « يعنى لو حكموا بالشريعة.. يكون فيه عدل.. ولا أحد يسرق.. ولا يسجن ..»

لم يكن لدى أدنى رغبة فى التعليق.. كان إحساسى هو أننى سقطت من سماء الأحلام الجميلة إلى الأرض القاسية الملطخة بالأوحال والأقذار.. ما أقسى الفرق بين الحلم والواقع، إن عالم الأحلام الواسع الملىء بالآمال والحرية والجمال والحب، قد تحول إلى حجرة متسخة ضيقة مظلمة، تفوح منها الروائح الكريهة.. أنحن بشر أم حيوانات؟

هل أمامنا شىء سوى الصبر؟

وانبعث غطيط أحمد سلام رتيبا.. ومثله محمود جبريل.. وعلمت أن محمود جبريل يعيش برئة واحدة، فقد أجريت له منذ فترة جراحة لاستئصال إحدى رئتيه لأنها كانت مصابة إصابة بليغة بالتدرن.. فكيف يقوى المسكين على تحمل متاعب الاعتقال؟ ومن رأى بلوى الناس هانت عليه بلواه..

رحت فى إغفاءة قصيرة، رغم كل شىء، وفتح الباب فى الفجر، وأخذونى وحدى، بعد أن وضعوا الأغلال الحديدية « الكلبشات » فى يدى، وسمعت أحمد ومحمود يهتفان فى صوت واحد معا: « ربنا معك.. شد حيلك ..»

وما إن غادرت القسم، حتى وضعوا حلقة فى يدى، وأخرى فى يد شرطى كبير السن، وأصبحنا مقيدين معًا، ومشى إلى جوارنا شرطى آخر يحمل السلاح، وضابط شاب.. وقصدنا إلى محطة طنطا، حيث حجزوا لنا صالونًا خاصًا درجة أولى فى القطار.. لأول مرة أركب درجة أولى فى القطار..

رأيت وجهى فى المرآة المثبتة فى الصالون.. كنت أبدو شاحب الوجه غائر العينين، وأنا أرتدى قميصى الرخيص النصف كم، وكان معى سبعة وعشرون قرشًا..

جلست صامتًا.. وبعد أن تحرك القطار صوب القاهرة، أخذ الضابط يتصفح « جريدة الصباح ».. كانت صورة الرئيس وهو يبتسم تغطى حيزًا كبيرًا من الصفحة الأولى.. لم يكن لدى رغبة فى قراءة شىء.. ولا فى أكل شىء.. وما جدوى القراءة والطعام.. إن الحياة – كما تبدو لى الآن – لا تساوى

قلامة ظفر.. أمس يوم ٧ أغسطس.. واليوم ٨ أغسطس ١٩٥٥.. ولا يمكن أن أنسى هذا اليوم أبدًا..

ترك الضابط الصالون، ومال عليّ الشرطى العجوز الطيب المقيد معى فى حديد واحد وقال: « ما هى تهمتك؟ » « ألا تعرف؟ »

- « أنا لا أسأل عن شىء.. أؤدى « مأموريتى » دون سؤال ..»

قلت: « إخوان مسلمون »

قال: « لا إله إلا الله.. محمد رسول الله. ألم ينتهوا بعد من هذا الموضوع؟ »

حينما نزلنا من القطار، وجدنا فى مواجهتنا رجل متين البنيان يقول: « معكم نجيب الكيلانى »

قال الضابط: « نعم ..»

- « هيا.. السيارة بالخارج ..»

كانت محطة السكة الحديدية بالقاهرة تموج بأفواج من البشر، ونحن نجد السير خارجين، ووجدتنى وجهًا لوجه مع زميل الدراسة الدكتور « حمدى العيشى » أستاذ التشريح حاليًا بجامعة المنصورة، ولما حاول مصافحتى، مددت له يمناى ومعها يد الشرطى والحديد ظاهر، قال حمدى فى دهشة: « ماذا جري؟ »

قلت: « الإخوان ..»

- « كان الله فى عونك ..»

ودفعنى الضابط برفق دون أن يلحظ أحد، فودعت حمدى مسرعًا، ولدى الباب كان باب السيارة الخلفى مفتوحًا، فصعدت مع الشرطيين، وركب الضابط إلى جوار السائق وزميله، كانت السيارة مغطاة، وأخيرًا وصلنا إلى وزارة الداخلية، فوقفت فى إحدى الطرقات فى انتظار الأوامر.. ووجدت إلى جوارى فتى صعيديا اسمه محمود.. أخذ يتجاذب معى أطراف الأحاديث، ويحدثنى عن قصة اعتقاله، وخروج أهل القرية جميعا لوداعه، وعن الكلية التى يتعلم فيها، وعن أشياء كثيرة لا أذكر منها شيئًا، وبرز إلينا أحد رجال المباحث العامة، واقترب منى وقال: « أأنت نجيب؟ »

قلت فى هدوء: « نعم ..»

فمد يده مصافحًا وهو يقول: « أهلًا بوزير صحة الإخوان ..»

وضغط على يدى بشدة، نظرت إلى وجهه، كان الغضب والتوعد يتطايران من عينيه، قلت: « لا وزير ولا حاجة.. أنا مجرد طالب ..»

وقال مهددًا: « سوف نرى، عندما تصل إلى السجن الحربى ..»

وبعد إجراءات لا ندرى عنها شيئًا أخذونى إلى السيارة من جديد، كانت مؤخرة السيارة مفتوحة هذه المرة، والشوارع مكتظة بالبشر والسيارات والباعة الجائلين، وأنا ألقى على الجميع نظرة وداع.. أحسست بحرمان من كل شىء.. حتى المبانى والأشجار.. والحيوانات.. وبدا لى أن الدنيا كانت جميلة، وأننى لم أفكر بعمق من قبل فى جمالها وسر ما فيها من كائنات..

ثم بلغنا منطقة العباسية.. والمعسكرات.. والبوابة رقم ٦ الشهيرة، كان الشرطى المقيد معى ينظر حوله فى انبهار، وسمعته يقول: « الظاهر أن مصيبتك ثقيلة.. كان الله فى عونك.. سوف أقرأ لك

الفاتحة وأدعو الله أن ينجيك من هذا الكرب ..»

ووجدتني أقول وقد اغرورقت عيناى: « لا تنسنى أبدا بدعواتك ..»

قال وهو يجفف عينيه: « بأمر الله ..»

لم أعرف حتى الآن اسم ذلك الشرطى، لكن وجهه الأسمر، وشاربه الأبيض، وملامحه الريفية الدقيقة، ونظراته الطيبة الرطبة القلقة، ونبراته المرتعشة، لم تزل كلها منطبعة فى ذهنى حتى اليوم..

وأخيرًا، وقفت السيارة أمام « البوابة السوداء »، وكان مكتوبًا أعلى البوابة كلمات واضحة: « المنطقة المركزية.. السجون الحربية ..»

وما إن فتح الباب، حتى جاء صوت جندى قريب، فى يده كرباج: « أدخل يا روح امك ...»

لكأنى فى حلم.. هل ما أراه الآن حقيقة أم خيال؟ إننى أحاول أن أهرب من الواقع المحزن، لكنى أرى بعينى وأسمع بأذنى، والسياط تهوى علينا وتؤلمنا، فكيف يكون هذا حلمًا؟

لا مناص من الاستسلام والصبر..

ورأيت ضابطا شابا، يقف عارى الرأس، واضعًا يديه فى جيبى سرواله، وقال فى عنجهية ظاهرة، وكأنه قد أفاق من النوم لتوه: « خذوهم إلى سجن ٤ »

وصاح الجندى على الفور: « انتباه.. قفوا فى الطابور ..»

لم نكن سوى اثنين.. أنا وأخى الصعيدى محمود.. وقف محمود أمامى، ووقفت خلفه، ثم نادى الجندى: « للأمام.. معتادًا.. مارش ..»

ومشينا.. لليمين مل.. لليسار مل.. سريعًا مارش.. لليمين در.. كان رأسى يدور.. والأشياء التى أراها كأنى رأيتها من قبل.. هذا المبنى.. هذه الساحة الرملية.. أقسم كأنى رأيتها من قبل.. متي؟ متي؟ لا أدرى.. لكن.. آه.. تذكرت إنها تلك الرؤيا الغريبة.. ذات ليلة.. رأيت نفسى فى مكان شبيه بهذا المكان، وكان هناك من يطاردنى فى عنف وقسوة.. وأنا أجرى وألهث.. وأصعد الدرج.. وأهبط الدرج.. ثم أعود للجرى، ومن خلفى قوم لا يرحمون.. وأفقت من نومى ليلتها وأنا فى غاية الإرهاق والضيق.. وتلفت حولى فى غرفتى، وكم كنت سعيدًا عندما تبين لى أننى كنت أحلم.. وحمدت الله.. لكنى اليوم أرى السجن الحربى شبيها إلى حد كبير بالمكان الذى عانيت فيه من المطاردة فى تلك الرؤيا المزعجة.. أيمكن أن يتطابق الأمر لهذا الحد بين الحلم والواقع.. أنه لأمر محير، لكنه حدث.. ووصلنا إلى باب سجن ٤، وبكلمة السر انفتح الباب.. وأطل علينا وجه الجاويش عبد المقصود الذى عرفنا اسمه فيما بعد..

كانت الزنازين متراصة على هيئة أضلاع مربع.. وفى أحد الأضلاع الباب الرئيسى، وإلى جواره مكتب الجاويش، ثم مكتب الكاتب، وفى وسط الساحة بعض صنابير المياه، وحوض وعدد من « الكابينيهات » لقضاء الحاجة.. وكان السجن من دورين، وهناك درج لصعود الدور الثانى، حيث توجد بقية الزنازين بطبيعة الحال.

وأخذونا إلى حجرة الكاتب، وجاء الجاويش عبد المقصود ومعه العسكرى شعبان.

قال عبد المقصود: « الأمانات ..»

لم نفهم شيئًا، لكن الله أنجدنا برجل طيب، يلبس جلبابا أبيض، وعلى وجهه ابتسامة حلوة، ونظراته توحى بالثقة والإيمان وقال: «إذا كان معكم أموال.. أو مجوهرات.. أو ساعات فقدموها لحضرة الجاويش عبد المقصود ..»

قلت فى نفسى ترى من يكون هذا الملاك الطاهر الذى هبط علينا؟ لكن الشكوك تراودنى. إن ابتسامة هذا «الملاك» قد تخفى وراءها سما زعافا، نحن الآن فى سجن، ولا يصح التسرع فى إعطاء الثقة لأحد..

لم يكن معى سوى الساعة، وسبعة وعشرون قرشًا، قذف بها عبد المقصود فى صندوق الأمانات وهو يقول فى تأفف «مفلس.. فقير ..»، ثم التفت إلى زميلى الصعيدى وسأله عما معه فقال: «خمسة وعشرون جنيها ..»

ودهشت إذ رأيت عبد المقصود يعد النقود بسرعة، ثم يسحب الكرباج، ويهوى على جسد محمود قائلًا: «عشرة فقط يا ثور ..»

- «لكنها خمسة وعشرون ..»

وعاد عبد المقصود إلى ضربه بعنف، وأنا أقف ذاهلًا مأخوذًا.. وتدخل الرجل الطيب، ونظر إلى زميلى نظرة ذات معنى، وقال: «الجاويش عبد المقصود لا يكذب.. اسكت ..»

لقد كان واضحًا أن محمود هو الصادق فيما يقول، لكن الأمر لا يحتاج إلى توضيح. إنهم يسرقون المعتقلين، وهذا «الملاك» الطيب، لا مانع لديه من ذلك، أهو شريكهم، أم أنه يهدف إلى شىء آخر؟ وعاد الجاويش يشوى جسد محمود بالسوط.. ومحمود يتأوه، وسمعت الجاويش يقول: «أنت من الإخوان أم بتاع نسوان؟»

لم ينطق محمود فى البداية، إنه صعيدى، ومن الصعب أن يقبل على نفسه أن يقول أنه زير نساء، أليس مسلمًا؟ ثم، أيعترف بأنه من الإخوان، حتى يكون ذلك بداية لعذاب لا يعرف إلا الله مداه؟ وتشبث محمود بالصمت، واستمر الجاويش فى ضربه بعنف حتى رشحت الدماء من ملابسه، ولما اشتد به الألم صرخ: «ما تراه ..»

- «لن أكف عن ضربك إلا إذا اعترفت بأنك ..»

هتف محمود فى ارتجاف: «بتاع نسوان ..»

ثم طلب منا أن نخلع ملابسنا للتفتيش.. أنقف عرايا؟ لقد جمدنا فى أماكننا لا ندرى ماذا نفعل، فلم يمهلنا عبد المقصود، لقد أخذ يضرب بالسوط على رءوسنا ووجوهنا، ونحن كالمخدرين.. وقال الرجل الطيب: «سوف يخلعون.. هذه هى الأوامر يا إخوان ..»

كان مشهدنا بشعًا يا للعار!! أنقف هكذا كما ولدتنا أمهاتنا؟ ولماذا؟ أدركنا أن المعتقل هنا فى السجن الحربى ليس له الحق أن يسأل، بل عليه أن يطيع إذا صدر له أمر، ويجيب إذا سئل، بل ولا يصح أن يجيب بالصدق، بل أن يكون جوابه طبقا لما يريدون.. وإلا فالضرب حتى الموت، وليس هناك احتمال آخر..

لقد ذابت الأحلام، وأشرقت شمس الواقع المر الأليم، كنا نظن أن السجن بطولة وشرف ورجولة،

وأن صاحب الرأى له مكانة يجلها الناس، حتى الأعداء، لكننا الآن نرى الاحتقار والإساءة، دون وازع من خلق أو ضمير، وكأن اختلاف الرأى جريمة بشعة، بل خيانة أو جنون أو شذوذ، إن كل ما قرأته من مذكرات ومؤلفات عن الحرية والأحرار والبطولة يبدو أنها كانت هراء، إن ما يمارسونه معنا يدفع الإنسان دفعًا للتفكير فى كل شىء من جديد، هل الحرية هراء؟ هل المبادىء مجرد شعارات وحبر على ورق وخطب طنانة؟ وهل يستطيع الإنسان فى هذا الجو البشع أن يحب وطنًا، أو يقدس مبدأ، أو يضحى من أجل قيمة، أو يتغنى بالحرية؟ كانت لحظات رهيبة، تهز النفس هزا عنيفا، وتربك الفكر أيما إرباك..

وأشار الجاويش عبد المقصود، بيده، وقد جلس فوق كرسى خشبى خلف مكتب رث، وقال: « خذهم يا دكتور لغرفة الحلاقة ..»

وسار الرجل الطيب « الدكتور » أمامنا، ونحن خلفه، وصاح الجاويش مرة أخرى: « خطوة تنظيم.. معتادًا مارش ..»

وقال الدكتور بصوت هامس: « افعلوا ما يأمركم به ..»

كانت الأوامر أن تحلق الرءوس تمامًا، بماكينة « زيرو ».. تمامًا مثلما كنا نشاهد المتهمين فى التليفزيون، وعلى صفحات الجرائد..

قال الدكتور وهو يحلق لنا: « أنا أخوكم الدكتور مصطفى أبو العينين ..»

هتفت فى دهشة: « معتقل؟ »

- « نعم.. معتقل مثلكم.. أنا هنا منذ عشرة شهور.. وعلاقتى بالجاويش طيبة.. وأنا حريص على ذلك، لعلى أستطيع أن أروّضه.. إنهم هنا كالوحوش.. ولا مفر من أن نعايشهم ونحاول مصادقتهم، لعلنا نجعلهم يخففون بعض الشىء من قسوتهم.. ثم ترنم ببيت من الشعر يقول:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له، ما من صداقته بُد

ثم استطرد الدكتور مصطفى أبو العينين قائلًا: « إنى أعرف جميع القضايا التى يحققون فيها الآن.. ويسعدنى أن أساعدكم، وأوضح لكم الأمور.. وبصفة عامة الإنكار هنا لا يجدى.. فإذا كان هناك من اعترف بشىء عن واحد منكم، فلابد من الاعتراف به.. الإنكار معناه الضرب حتى الموت.. أنصحكم أن تختصرون الطريق، وتوفروا على أنفسكم المتاعب.. السجن الحربى لا يعرف الرحمة، والعساكر هنا ليست إلا آلات تنفذ ما يطلب منها ..»

عادت تراودنى الشكوك مرة أخرى حول شخصية الدكتور، إننى لم أعرفه من قبل، وازدادت شكوكى حينما قال: « هنا قضية التبرعات، وفيها سليمان حجر، ومحيى الدين عطية، وغيرهما وهنا قضية الهاربين وفيها الأستاذ أحمد البس، ومحمد يوسف هواش، وعبد الكريم عطية وغيرهم، وهنا قضية جهاز « عبد المنعيم سليم ....» .. و ...»

ودق قلبى، لم أعد أسمع شيئًا، تذكرت علاقتى ولقائى مع عبد المنعم.. وبدا الارتباك على وجهى وفى حركاتى، وقال الدكتور فى ذكاء: « هل تعرف عبد المنعم سليم؟ »

قلت بانفعال: « لا.. لا.. كيف أعرفه ..»

– « إذا كان هو يعرفك، فلا مفر ..»

– « ماذا تعنى ..»

– « الإنكار لن يجدى ..»

– « لكنى لم أفعل شيئًا أحاسب عليه ..»

– « هذا من وجهة نظرك أنت ..»

قلت فى نفسى ما دام الدكتور ملما بهذه المعلومات كلها، فيجب الحذر، وأخيرًا أخذونى إلى غرفة خالية، جلست وحدى أفكر فى هذه المصيبة التى بدت نذرها، وبعد نصف ساعة تقريبًا، سمعت من يهتف باسمى بصوت خفيض، وينقر نقرات خفيفة على باب الزنزانة، ونهضت من مكانى مسرعًا، ونظرت من خلال العين الزجاجية المثبتة فى الباب الخشبى السميك، وكم كانت دهشتى عندما رأيت أخى وصديقى « محمود بسيونى عميرة » الذى يسكن معنا فى المدينة الجامعية.. لم أكن أعرف أنه قد قبض عليه هو الآخر، وهتفت مستنجدًا: « ما الحكاية يا محمود؟ »

كان يتكلم معى دون أن يلتفت إلى الباب المغلق، وكان يمسح الأرض بقطعة خيش قديمة مبللة بالماء، وسمعته يقول: « لماذا لم تخبر الدكتور مصطفى بموضوعك؟ كان فى إمكانه أن يساعدك ..»

– « إنه يدعونا لكى نعترف ..»

– « هل لك علاقة بعبد المنعم سليم ..»

ووجدتنى أقول فجأة دون تفكير: « نعم ..»

بدا الألم على وجهه وقال: « إذن لا مفر من الموافقة على ما قاله فى حقك ..»

– « ماذا قال؟ »

– « لا أدرى.. لكن الذى أعرفه أنه تعرض لضغوط شديدة.. وأنه أوضح كل شىء.. وحضورك هنا يعنى أنه ذكر العلاقة التى تربطكما.. وليس من الحكمة أن تنكر شيئًا.. ومع ذلك فسوف أحاول الاتصال به لأعرف ما يخصك فى اعترافاته ..»

ازدادت همومى وشجونى، وشعرت كأن رأسى يوشك على الانفجار، وتلفت حولى باحثًا عن مخرج، الغرفة ضيقة والنافذة ذات القضبان الحديدية المتقاطعة تقترب من السقف، والباب مغلق، والمستقبل يبدو كئيبا غامضًا، هأنذا فى مصيدة جديدة أكاد أختنق فيها.. آه.. متى يعود محمود بسيونى عميرة بالخبر اليقين، من عبد المنعم سليم؟ وجاءنى صوت أم كلثوم من الإذاعة الداخلية للسجن يقول:

أنا وحبيبى يا ليل غايبين عن الوجدان
يطلع علينا القمر ويغيب.. كأنه ما كان

وأنا غارق فى هواجسى وأحزانى وجزعى، قلت لنفسى:

« أين الإيمان؟ أين الصبر؟ » أكنت تظن أن الأمر مجرد رحلة ممتعة سلسلة؟ ألا تؤمن بأنه لابد من التضحيات، وأن الخير والشر فى صراع دائمًا؟ ألم تقرأ: ﴿.. أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ إن الأزمة لا شك عنيفة ومباغتة، لكن لابد من الصمود والتحمل مهما كان الأمر،

والموت لا بد أن يأتي اليوم أو غدًا، ففيم الخوف والأسى والحسرة؟ وتذكرت أن الظهر قد وجب.. وفكرت كيف أصلي؟ ولأول مرة أتذكر التيمم.. ولم أضيع وقتا.. تيممت ثم رجحت مكان القبلة.. وأخذت أصلى والدموع تنسكب من عينى.. وجلست أسبح الله بعد الصلاة.. لكن حركة مباغتة عنيفة، وعبث بالباب أيقظانى من شرودى، وفتح الباب..

وقذف العسكرى باثنين من الرجال إلى الداخل، ثم أغلق الباب مرة أخرى على الفور.. نظرت إليهما وكأنى عثرت على كنز.. وقمت أحتضنهما وأبكى.. أحدهما كان الأخ «أحمد حامد» من الشرقية.. والثانى أكبر سنا.. يبدو عليه الهزال والكبر، ولا أتذكر اسمه الآن.. شعرت بالأنس بعد الوحشة.. كان أحمد حامد متين البنيان، قصير القامة، تبدو عليه سمات الشجاعة والثقة وعدم الاكتراث بشىء، رأى الدموع فى عينى فقال: «المؤمن الحق قوى بربه ..»

قلت - «أجل ..»

قال - «وقضاء الله نافذ، ولن تغيره الدموع ..»

قلت - «صدقت ..»

- «والله أقوى منهم ..»

- «انهم لا يعرفون الله»

- «لكننا نعرفه، ونستعين به ..»

واقترح علينا أحمد أن نقرأ ما نحفظه من القرآن، وأن نقرأ المأثورات - وهو يحفظها جيدًا - وأن نقضى وقت الفراغ فى الذكر والتسبيح، لأن هذا أجدى من التحسر والبكاء والاستماع لوسوسة الشيطان..

عندما دخلت سجن ٤ لأول مرة، كان السجن موحش الصمت كالقبر، حتى حسبت أنه لا يوجد به أحد سوى العسكر والدكتور مصطفى، لكننى منذ لحظات سمعت صفارة عالية، وصوتا يقول: «افتحوا الزنازين ..»

كان صوت الجاويش عبد المقصود بالطبع..

وفى دقيقة كانت الأبواب مفتوحة، والسجن مكتظ بمئات المعتقلين، وأخذت أجول بنظراتى هنا وهناك، لقد وقعت عينى على عدد غير قليل من الإخوان الذين أعرفهم، ورأيت رجلًا يقف عاريًا وسط الساحة، وجسده كله كدمات.. حتى لا يستطيع أن يميز أى إنسان ملامحه.. وقال عبد المقصود فى عنجهية: «انظروا إلى «الصباغ».. حضرة الناظر المحترم.. لقد رفض أن يتكلم.. والنتيجة كما ترون.. والمصيبة أنه اعترف بكل شيء فى النهاية.. وبماذا اعترف؟ كان يجمع تبرعات.. شيء مضحك.. هل هذا يستحق الإنكار؟ لو كان يدبر مؤامرة لاغتيال الرئيس.. لكان الإنكار معقولًا ..»

اسمعونى جيدًا... «ثم لوح بسوطه».. ليس فيكم من يستعصى عليّ.. أنا عبد المقصود.. الكل يعرفنى..

والآن قفوا طابورًا لتتسلموا «التعيين»

وفهمت فيما بعد أن التعيين يعنى «وجبة الغداء»، وحمل كل واحد طبقًا، وذهبنا لأخذ

« العدس » والخبز.. لم يكن لدى أدنى شهية للطعام، أما الأخ أحمد حامد فقد سمى باسم الله، وأخذ يلتهم الخبز والعدس فى شهية ويقول: « كل يا رجل.. إن لم تأكل اليوم فستأكل غدًا ..»

وأردف زميلنا الثالث قائلًا وهو يبتسم ابتسامة خفيفة: « اللى ياكل على ضرسه.. ينفع نفسه ..»

وأكلت بضع لقيمات، وكأنى أمضغ قشا لا طعم له، لقد بقيت مكتئبا أشد الاكتئاب، ويبدو أن انتظارى لأخبار عبد المنعم جعلتنى أبدو قلقا حائرًا، وقبيل العصر سمعت صوت أخى محمود بسيونى عميرة.. ونقراته الخفيفة على الباب.. هرولت إلى خلف الباب المغلق، وهتفت فى تلهف وعجلة: « ماذا قال عبد المنعم؟ »

- « قال إنك قد بايعته ..»

- « ماذا؟ »

- « قلت البيعة.. هل حدثت؟ »

لم أجب..

وعاد محمود يقول: « وسوف يسألونك عن السلاح.. مجرد سؤال تقليدى.. فهم متأكدون أنه ليس لديك أى سلاح ..»

وانزلق محمود فوق بلاط السجن مسرعًا قبل أن يره أحد.. ووقفت صامتا شاحبًا، ويبدو أن الأخوين قد سمعا كل شيء.. فقد قال أحمد حامد: « أنت لست إذن من الجهاز التمويلي؟ »

- « نعم ....»

تنهد ولم يعلق، ولم يكن خافيا أن مشكلتى عويصة، لأن هذا النوع من القضايا تلصق به عادة شكوك واتهامات خطيرة. ولا يمكن مقارنته بالجهاز التمويلى أو جمع التبرعات، وشعرت بثقل المسئولية الملقاة على عاتقى، انتهى الأمر ولا يمكن استدراك ما فات، إننى أبدو كالمحاصر من كل جانب، لكن هل الأمر على هذا النحو من السوء واليأس؟ لم يزل أمامى ثغرة صغيرة جدًا.. إننى لم أرتكب فعلًا يمكن أن أحاسب عليه، ووجدتنى أشد ضيقا من ذى قبل، وأنا أقلب الأمور بينى وبين نفسى، فعزمت على أن استنير برأى الأخوين معى، فأوضحت لهم موقفى وطريقة دفاعى عن نفسى، قال أحمد حامد بهدوء: « فى مثل هذه المحاكم ينظر إلى الشروع فى العمل، أو حتى مجرد التفكير فيه جريمة كاملة، والأدهى من ذلك أن المسألة عندهم ليست مسألة قانون ولوائح، بل يقال إن الأحكام تكون عادة موضوعة وجاهزة حتى قبل المحاكمة.. وأرى أن تترك الأمر كلية لله.. فليس لنا فى الأمر حيلة ..»

قلت لأحمد: « ألا تعتقد أن وجود محامٍ للدفاع عنى قد يفيد؟ »

رد بحسم: « إنهم لا يسمحون بذلك ..»

- « هذا حقى ..»

- « ليس لك أية حقوق هنا.. وهل من حقهم تلك السياط التى بأيديهم.. نحن فى قبضة قوة غاشمة قاهرة لا ترحم.. تعرفون أن للمجرمين فى أية دولة حقوق فى الدفاع عن أنفسهم.. أين هذه الحقوق هنا بالنسبة للمتهمين.. بل ما جريمة المعتقلين الذين لم توجه إليهم أية اتهامات منذ ما يقرب من عام؟ يجب أن تفيقوا وتفهموا من هم ومن نحن ومن شعبنا المقهور ..»

لم يعد أمامى سوى الاستسلام لقضاء الله وقدره، إنه ابتلاء ولا أمل سوى أن أصبر حتى يتغمدنى الله برحمته..

أم كلثوم تغنى بصوت عالٍ مسموع، والشمس تميل نحو المغيب. وأنا أنتظر الاستدعاء للتحقيق، كم من الوقت سأنتظر الاستدعاء للتحقيق، كم من الوقت سأنتظر؟ الله أعلم، وكلما سمعت العسكر ينادون الأسماء، أرهف السمع جيدًا، حتى لا يفوتنى سماع اسمى إذا ما رددوه، لأن من لا يرد على الفور يلق العذاب ألوانا..

عند المغرب فتحوا الأبواب للذهاب إلى دورة المياه، كان علينا أن نندفع مسرعين إلى المراحيض، فالسياط تلهب ظهورنا ورءوسنا ووجوهنا، والمدة المسموح بها فى المرحاض لا تزيد عن دقيقتين، كيف يتم الغوط فى هذه الفترة الوجيزة؟ إن من يتخلف عن الخروج بعد الدقيقتين عليه أن يتلقى عددًا لا بأس به من الكرابيج حتى يجرى، ولا يهم إن كان قد أدى مهمته أم لا، ومن الضرورى أن نتعود على ذلك كما يقول المعتقلون القدماء، وجاء وقت العشاء، فذهبنا وكل واحد معه طبقه، والعسكر يوزعون ضربات السياط هنا وهناك، كان العشاء فاصوليا مطبوخة.. يجب أن يمسك المعتقل بالطبق جيدًا، لأنه لو سقط منه فستكون كارثة.. حدث أن الأخ محمد خليل الطويل - طالب بكلية طب عين شمس - كان يجرى ذات مرة وبيده طبق العدس، فسقط الطبق وانقلب ما فيه على الأرض، فوقف حائرًا لا يدرى ماذا يفعل، وأتى العسكرى مسرعًا، وهوى بالسوط على رأسه قائلًا: « اجلس.. والحس العدس بلسانك.. كالكلب ..»

تباطأ محمد قليلًا، لكن توالى السياط جعله يقعى على ركبتيه ورجليه، ثم ينكس رأسه ويلعق العدس ممزوجًا بالتراب.. حتى أصبحت الأرض نظيفة تمامًا.. ثم وقفت، وقال العسكرى وهو يضحك: « شبعت؟ »

قال محمد وهو يؤدى التحية العسكرية - حسب الأوامر - ويضرب قدميه الحافيتين أحدهما بالآخر: « الحمد لله يا افندم ..»

كان مشهدًا مؤلمًا، إنهم يتفننون فى الإيذاء والإيلام، أيمكن أن يحدث هذا فى القرن العشرين.. وفى بلد مسلم؟! ومحمد الطويل نال للعلم حكمًا بالبراءة مع الإفراج فورًا.. لكن « فورًا » هذه لم تتحقق إلا بعد زمن طويل حينما أفرج عنه مع باقى المعتقلين فى عام ١٩٥٦، بعد إغلاق محكمة الشعب.

وبقيت أنتظر سماع اسمى ثلاثة أيام أخرى..

وقبل أن أخرج للتحقيق، فتح الباب ذات مساء، ودفع باثنين آخرين من المعتقلين الجدد، ونظرت إلى وجهيهما.. وكم كانت دهشتى إنهما أحمد سلام ومحمود جبريل، اللذان كانا معى فى التخشيبة « الحجز » الليلة الأولى بمدينة طنطا.. والغريب أننى هتفت فى فرح: « أحمد .. محمود؟ »

فهتفا معًا: « نجيب؟ »

- « شرفتم الديار ..»

وابتسمنا لأول مرة.. أصبحنا خمسة.. إن أفواج المعتقلين الجدد لا تنقطع، وعلمت من الإخوة أن

هناك معتقلين فى سجن القاهرة، وفى القلعة، بالإضافة إلى المساجين فى سجون طرة وأبو زعبل والقاهرة وبنى سويف والمنيا وأسيوط وقنا والواحات الخارجة..

لم أكن أستطيع النوم مخافة أن ينادوا اسمى فلا أسمع، لكن النوم غلاب، فأحيانًا كنت أغفو وأنا جالس، على الرغم منى، وحاولنا أن نقسم النوم بيننا، بحيث ينام الجميع، ويبقى أحدنا مستيقظًا، لكن الخطة لم تنجح النجاح المرتقب، فكان المعتقل المستيقظ يغلبه النوم فى بعض الأحيان، وأذكر أن الباب فتح علينا ذات ليلة والعسكرى يصيح فى غضب سائلًا عن بعض المعتقلين.. لقد سألنى عن اسمى.. أقسم أننى لم أستطع النطق به.. لكأنما نسيت من أنا.. كنت كالتائه، بين اليقظة والمنام، لكنى واقف أؤدى التحية العسكرية.. وافقنا تمامًا على لذع السياط.. واستطعت أخيرًا أن أنطق باسمى.. وخرج العسكرى غاضبًا ثم أغلق باب الزنزانة مرة أخرى..

كانت فترة انتظار التحقيق قاسية على نفسى، بل علينا جميعًا.. لقد أصبحت أتمنى أن ينتهى الأمر مهما كانت النتيجة.. لم أعد أبالى بأى شىء.. حتى الموت أصبح فى نظرى أمرًا لا يخيف.. كانت فترة الانتظار أيامًا قليلة..

لكن عذابها بدا طويلًا مرهقًا فوق الطاقة والاحتمال.. وهل أمامنا من وسيلة سوى أن نضرع إلى الله؟

نحن نذهب إلى دورة المياه مرتين يوميا.. مرة فى الثالثة صباحًا، حيث نتلقى الوجبة الأولى من السياط، والشتائم المقذعة التى تتناول المعتقل وأباه وأمه ودينه، ونذهب خمسة خمسة إلى المراحيض.. ولا يستغرق الأمر دقيقتين، ثم نعود إلى الغرف لكى نتيمم ونصلى.. وقبيل السابعة نخرج لنأخذ طعام الفطور.. ونعود بسرعة البرق.. وفوق رءوسنا السياط.. ويا ويل من يُضبط وهو يتكلم مع أخ له فى الطابور.. أذكر أننى رأيت بالقرب منى صديقًا قديمًا فابتسمت له، وحييته بهزة من رأسى من بعيد.. ومن سوء الحظ أن رآنى العسكرى « محمد عبد الحليم ».. لا أريد أن أشرح ما جرى.. يكفى أن أقول أن الصفعات المتلاحقة قد أفقدتنى السمع فى أذنى اليسرى لمدة عشرة أيام تقريبًا.. بسبب انثقاب فى طبلة الأذن..

ومر علينا فى هذا الأثناء « طبيب السجن الحربى ».. لقد فتحوا علينا الزنزانة.. فانتصبنا واقفين انتباه.. وأدينا التحية العسكرية، ونحن نهتف بأعلى صوت « تمام يا افندم » كان الطبيب أنيقًا.. بض الوجه.. متناسق السمات، واضعًا يده فى جيب سرواله العسكرى، وألقى علينا نظرة عابرة وهو يقول « اجلس يا بنى انت وهو ..».. كان محرمًا علينا أن نطلب من الطبيب شيئًا.. أو نشكو من أى مرض.. العسكر وحدهم فى بعض الظروف، ولضرورات لا تعرفها قد يبلغون عن معتقل يوشك على الموت.. ومن ثم ينقلونه إلى « الشفاخانة ».. وهى كلمة تعنى المستشفى جوازًا.. ونحن فى الفلاحين نطلقها على المستشفى البيطرى الذى يعالج الحمير..

والواقع أننى كثيرًا ما فكرت فى موقف هؤلاء الأطباء الذين يرون بأعينهم التعذيب المبرح والقتل ولا يفعلون شيئًا.. لقد حدث هذا فى معظم السجون سواء أثناء التحقيق، أو بعد صدور الأحكام، يستوى فى ذلك الأطباء المدنيون والعسكريون، وأطباء الشرطة، وقد أجد الفرصة لسرد بعض الوقائع فى

حينها، وأذكر أن واقعة مشابهة حدثت فى جنوب أفريقيا، وكانت النتيجة أن نقابة الأطباء التى ينتمى إليها الأطباء المتواطئون قد شطبت أسماءهم وقدمتهم للمحاكمة.. أما فى مصر فلم أسمع عن توجيه الاتهام لأى طبيب من هذا النوع.. ومن عجيب الصدف أننى التقيت ببعض أطبائنا العاملين سابقًا فى السجن الحربى والسجون المدنية إبان فترة عملى فى دولة الإمارات.. وعشنا أصدقاء.. ولسنوات طويلة.. وكنا نتسلى بالذكريات المحزنة..

لكن ما قصتى مع أخى عبد المنعم سليم؟ أو بمعنى أصح ماذا كانت القضية؟ بعد الضربة العنيفة التى وجهها عبد الناصر لجماعة الإخوان، والتصرفات البشعة التى قاسى منها المعتقلون والسجناء وأسلوب المحاكمة بعدة شهور.. قابلنى عبد المنعم سليم وقال: « طبعا تعرف ما يجرى ..»

- « أجل ..»

- « ونحن لا نحرك ساكنًا ..»

- « على الأقل نواصل المسيرة.. ومن المستحيل أن نتخلى عن مبادئنا.. ويجب أن نستمر فى دراستنا، وتوثيق العلاقة بيننا، فليس هذا نهاية المطاف ..»

كان يتكلم بجدية وإصرار، والصرامة والأسى يبدوان على وجهه، وتحدثنا عن الرقابة الشديدة، والمطاردة المستمرة، وعيون الشرطة التى فى كل مكان، والواقع إننى كنت فى هذه الفترة منهمكًا فى الدراسة، إلى حد كبير، ولم يكن لى نشاط يذكر اللهم إلا دفع الاشتراكات الشهرية التى ترسل لأسر المعتقلين والمسجونين، وتبادل الأخبار، وصلات الصداقة العادية بيننا..

وبدا واضحًا أن عبدالمنعم يريد العودة للنشاط السياسى القديم.. لقد ترددت فى بداية الأمر.. لكنى شعرت أن التقاعس يأس، والتردد جبن، ووجدتنى أوافقه على فكرته.. كان ذلك أثناء النصف الأول من عام ١٩٥٥.. وذات مساء أخذنى عبد المنعم إلى غرفته، وبعد أن جلسنا قليلًا.. وتحدثنا حول بعض الأمور العارضة، وجدته يخرج مصحفًا. ثم يضعه أمامنا.. ويقول « أقسم ..»

دهشت فى البداية.. كان الأمر مفاجأة تامة بالنسبة لى..

ووضعت يدى على المصحف قائلًا: « أقسم بالله العظيم أن ألتزم بكتاب الله، وأن أضحى فى سبيل الإسلام بكل ما أملك، فى المنشط والمكره.. والله على ما أقول شهيد ..»

ووجدت تحت المصحف مسدسًا..

كان جسدى يرتجف.. لم أكن مهيئًا لهذا الأمر.. جاء دون توقع منى.. وانصرفت ليلتها، والأفكار تعصف برأسى.. لم أستطع النوم حقيقة.. وخفت حدة انفعالى بعد ذلك يومًا بعد يوم..

كانت نهاية العام الدراسى قد اقترتب.. وانشغلنا فى الامتحانات، ونال عبد المنعم ليسانس كلية الآداب « قسم الجغرافيا » بتفوق.. وانصرف كل منا لحال سبيله.. هو إلى محافظة الشرقية.. وأنا إلى محافظة الغربية.. ولم يكن لنا نشاط يذكر قبل الافتراق اللهم إلا تبادل بعض الكتب والمنشورات والأخبار.. وحمدت الله على أن انتهى الموضوع عند هذا الحد، وانحل التنظيم الذى حاول عبد المنعم إنشاءه من تلقاء نفسه، وتخففت من عبء التوتر الذى ظل يلاحقنى حتى انصرف كل منا إلى حال سبيله.. كانت قناعتى الوحيدة فى تلك الفترة وما بعدها أن أظل محافظا على انتمائى الإسلامى سلوكًا

وثقافة ودعوة، لكننى كنت مؤمنا أن مقابلة عنف الحكومة بعنف منا مآله الفشل والدمار، وسوف يؤدى إلى مزيد من الكوارث.. ولم يكن لدى أدنى تردد أو شك فيما انتويته.. ونسيت الموضوع..

حتى كان يوم ١٩٥٥/٨/٧ حينما فوجئت بمصطفى بك قنديل يلقى القبض عليّ.. كان الأمر حقيقة مدعاة للدهشة بالنسبة لى.. فمن سوف يصدقنى عندما أقول أن الرباط التنظيمى قد انتهى مع عبد المنعم منذ شهور.. منذ أن افترقنا؟ وتساءلت بينى وبين نفسى. من الذى حرك هذا الحدث الذى انتهى بالنسبة لى على الأقل؟ ولم أعرف الإجابة على هذا السؤال إلا بعد التحقيق، إذ وشى أحد المندسين بعبد المنعم، فجاء سيل الاعترافات، وتضخيم الموضوع، واعتبار هذا التجمع الذى انتهى تنظيما سريا، يهدف إلى قلب نظام الحكم بالقوة والعنف..

وحانت ليلة التحقيق.. سمعت اسمى يجلجل ليلًا فى ساحة السجن.. فصحت بأعلى صوت وأنا أدق باب الزنزانة بقبضتى المتشنجة « أفندم ».. واقتادنى العسكرى إلى الفناء الواسع.. كان الصمت يرين على المكان.. وعيناى زائغتان لا تريان شيئًا على وجه التحقيق.. كل ما أمامى يبدو كأشباح الرؤى.. « سريعًا مارش »، قالها العسكرى، فجريت.. بين السجون الحربية الأربعة..

لم أكن أشعر بأدنى ألم للسياط التى تهوى على جسدى من الخلف.. وبينما كنت أجرى ذاهلًا، انطلقت صرخة فى العتمة مع ضربة شديدة على السلاح: « قف.. من أنت » .. كلمة السر ..»

توقفت.. وسمعت العسكرى من خلفى يقول ساخرًا: « أمين.. يا روح أمك ..»، وتضاحكا.. ثم أمرنى العسكرى بالجرى سريعًا مرة أخرى..

وأخيرًا وصلت إلى الساحة الرهيبة..

لا أريد أن أطيل فى وصف المكان والناس والإجراءات، حسبى أن أشير إلى الأجساد العارية التى مزقتها السياط، والتى تنزف دمًا، وإلى أصوات الاستغاثة والبكاء والدموع والضراعات والاسترحام.. وإلى المربوطين فى « العرائس الخشبية »، وإلى المغشى عليهم فوق الرمال الصفراء المخضبة، وإلى الأسئلة التى يلقيها المحققون والأجوبة التى يخرجها المتهمون..

كان مشهدًا رهيبًا.. اهتز له جسدى وقلبى.. أين المخرج من هذه الكارثة؟ وهل كل الناس هنا مثلي؟ ومن الأمور المضحكة أن يفكر الإنسان فى أمر يبدو غير ذى قيمة فى هذه اللحظات.. مثلًا.. قلت لنفسى لو كتبت لى الحياة، فإنى أعاهد الله أن أنقل هذه الصورة بقلمى للأجيال التى تعاصرنى، والتى سوف تأتى من بعدى.. كان مجرد التفكير فى هذه اللحظات بالذات، وفى مثل تلك الموضوعات يبدو عبثًا.. لماذا؟ لأن المأساة التى أوجد فى قلبها أكبر من أى وصف، ولأن الجلادين هم الآن أقوى وأرسخ بصورة تدعو إلى اليأس من التخلص منهم، بل التغلب عليهم، ثم من أدرانى أننى سوف أفلت من هذا الجحيم؟ لو نجوت.. فسيكون ميلادًا جديدًا، بل عمرًا زائدًا كتبه الله لى.. واتجهت بتفكيرى إلى من ليس لى غيره فى هذه اللحظات الرهيبة.. إلى الله، علمتنى زوجة جدى من قديم أن أقرأ آية « الكرسى » فى الأزمات والخطوب الداهمة، وأخذت أردد الكلمات الطاهرة.. فينداح صداها إلى قلبى وروحى.. ربما تساءلت: لماذا يترك الله سبحانه وتعالى هؤلاء القوم يفعلون ما يفعلون؟ لكنى استغفرت الله، واستعذت به من الشيطان الرجيم.. وتساءلت مرة أخري: لماذا لم أعش كما يعيش الناس

بعيدًا عن هموم العمل السياسى والعقائدي؟ إن عشرات.. بل مئات الأسئلة تداهم الإنسان فى هذه الأوقات العصيبة الحرجة، ويحاول الإنسان جاهدًا أن يهرب من إلحاح السؤال، حتى لا يقع فى مظنة الندم، وشبهة اليأس، وضعف الإيمان، ولا أدرى أطال الوقت أم قصر فى تلك الساحة الدامية الرهيبة، كنت أقف ووجهى للحائط وذراعى إلى أعلى، ولا أدرى متى يهوى السوط على جسدى..

وساقنى العسكرى إلى مكتب جانبى، وأمام المكتب أخذ يكيل لى الضربات، ليدلل أمام المحقق على اجتهاده وقيامه بالواجب نحوى.. لست أدرى شيئًا عن الساعة فى هذا الوقت.. أكانت الحادية عشرة مساءً.. أو الواحدة بعد منتصف الليل.. أو أقل أو أكثر.. لا أدرى.. لا قيمة للزمان والمكان.. كان الموقف الرهيب وانعكاساته النفسية هو كل شيء..

لم أستطع أن أتفرس فى وجه المحقق.. كانت هناك إضاءة قوية جدًا موجهة إليّ بحيث يصعب أن أفتح عينى جيدا، وكان المحقق خلف اللمبة الكهربائية المضاءة بقوة..

قال المحقق بهدوء للعسكرى: « كفى.. اتركه ..»

ثم استدار نحوى متسائلًا وهو يكتب: اسمك.. عمرك.. عملك.. بلدك.. هل دخلت الحرس الوطنى وتدربت على الطوابير وحمل السلاح؟ هل اشتركت فى معسكرات الفدائيين فى القنال أو فلسطين؟ هل انضممت لفريق الجوالة بكلية الطب؟ هل كان فى بلدكم شعبة للإخوان المسلمين؟ وهل نشاطك كان فى الشعبة أو فى جامعة القاهرة أم فى المدينة الجامعية؟

قال لى المحقق: « متى دخلت الإخوان المسلمين؟ »

قلت دون وعى: « بعد محنة ١٩٤٨»

وكم كانت دهشتى عندما رأيت يد المحقق التى كانت تجرى على الورق بالقلم تتوقف عن الحركة، ثم يدق على المكتب بيده فى غضب ويقول: « محنة؟ ماذا تقصد بكلمة محنة؟ أتقتلون النقراشى باشا ثم تأتى الحكومة لتؤاخذكم بما أجرمتم، فتسمون ذلك محنة؟ أتحاولون اغتيال الرئيس عبد الناصر، ثم تأتى الحكومة لتؤدبكم فتقولون عن ذلك محنة؟ أتنسفون وتقتلون وتدمرون.. ثم تقدمون للمحاكمة فتعتبرون ذلك محنة؟ »

قلت فى ألم: « آسف.. لم أقصد ذلك بالضبط ..»

- « ماذا تقصد يا حضرة الأخ؟ »

- «أقصد أننى دخلت تنظيمات الإخوان فى عام ١٩٥٠...»

قال فى غضب: «إن فلتة اللسان هى التى تبين عما فى نفوسكم.. أنت تستحق خمسين كرباجًا ..» ولم يكد يكمل عبارته، حتى انهالت السياط على رأسى العارى الحليق، لكنه أشار بيده على الفور إلى العسكرى كى يكف عن الضرب.. يبدو أن هناك « منعكسًا عصبيا » بين الرأس والعينين.. فقد شعرت أن قطرات تنسكب من عينى، على الرغم من أننى لم أكن أبكى..

وعاد المحقق إلى القلم: وقال: « هيه؟ ولماذا دخلت الإخوان؟ »

- « كنا نبحث عن طريق نخدم به الوطن.. وكانت الأحزاب كما تعلم.. قاطعنى قائلًا: « أنتم ألعن من الأحزاب ..»

ولست أدرى لماذا توقف عن الأسئلة ذات الصلة بالقضية، ثم وجه إلىّ سؤالًا لا أتوقعه إذ قال: « هل الجلباب الذى تلبسه جلبابك »

دهشت، لأن الجلباب فعلًا ليس جلبابى، فقد اتسخ السروال والقميص النصف كم، وتبرع لى أحمد سلام زميلى فى الزنزانة بواحدة من جلابيبه، وكان أحمد أطول منى قامة، ولهذا كان الجلباب طويل الأكمام، ويلامس الأرض عند الأقدام..

قلت: « لا ..»

– « من أين أتيت به؟ »

– « أعطاه لى أحد المعتقلين ..»

قال فى غضب: « يا أولاد الـ.. ألا تكفوا عن الأخوة فى الله؟ ...»

قالها بأسلوب عامى غاضب فيه الكثير من التهكم..

ثم انتقل بعد ذلك إلى صلب الموضوع.. ما هى صلتك بعبد المنعم سليم؟ وهل أخذ عليك البيعة أم لا؟ كان معنى إقرارى بالبيعة الإدانة التامة، ثم الحكم بالسجن.. لهذا رأيت من الأفضل أن أنكر الواقعة.. خرج من خلف مكتبه وواجهنى لأول مرة، حيث رأيت وجهه جيدًا، وقال لى وهو يجذبنى من كمى الطويل المدلى: « لن يفيدك الإنكار.. وسوف نواجهك بعبد المنعم.. بل لن نحتاج إلى ذلك.. أنا واثق أنك ستعترف.. انظر خلفك.. إخوانك هناك اعترفوا بكل شىء.. منهم من ظل معاندًا يومًا.. أو يومين أو ثلاثة.. أو أسبوعين.. لكنهم يعترفون فى النهاية ..»

وبرز إلىّ رجل أشعث الشعر كالشيطان، وأخرج من حقيبة جلدية فى يده مسدسًا.. لم أعرف الرجل.. وجه المسدس صوب بطنى.. وقال: «أستطيع أن أقضى عليك فى لمحة.. أنتم لا قيمة لكم بالمرة ..»

لست أدرى لماذا وقفت جامدًا دون أن يبدو على الخوف من المسدس، ربما كان السبب هو أننى لم ألحظ ملامح الجد على وجهه أو فى نبراته، لكنى استدركت على الفور، معنى عدم خوفى معنى خطير.. يجب أن أتظاهر على الأقل بالخوف، وسرعان ما تراجعت للخلف.. وأظهرت قدرًا من الانزعاج المفتعل.. ثم رأيته يعيد المسدس إلى الحقيبة.. بعد أن قال المحقق: «أعتقد أنه سوف يتكلم يا حمزه بك ..»

وعرفت أنه حمزة البسيونى، قائد السجن الحربى، الذى طبقت شهرته الآفاق فى العنف والتعذيب.. قال المحقق: « حسنا.. ماذا قلت فى القسم.. قسم البيعة ..»

– « اقسم بالله العظيم أن أئتمر بما أمر الإسلام، وأن أنتهى عما نهى عنه، والله على ما أقول شهيد ..»

أردف المحقق قائلًا: « وأن تحمى الدعوة بالدم.. فى المنشط.. وفى المكره.. قل.. أكمل ..»

– « لن أزيد عما قلته حرفًا ..»

– « هل كان لك قسم خاص بك ..»

– « هذا ما أقسمت عليه ..»

لم يكترث بما قلته، ولكنه أخذ يضيف كلامًا كثيرًا من عنده، وأنا واقف صامت لا أدرى ماذا يكتب.. ثم عاد يقول: « والمسدس؟ »

- « لم يكن هناك مسدس .. »

- « عبد المنعم يؤكد .. »

- « ربما نسى .. »

وأخذ المحقق يكتب كلامًا كثيرًا، لم أستطع أن ألتقط منه حرفًا لشدة الضوء الموجه إليّ..

وأخيرًا قال المحقق بصوت جلى واضح: « أنت متهم بالاشتراك فى تنظيم سرى مسلح بهدف قلب نظام الحكم بالقوة والعنف، فما قولك؟ »

قلت: « أبدًا.. لم يحدث تفكير فى شىء من هذا »

لم يلتفت إلى قولى، وسمعته يتكلم بصوت واضح وهو يكتب ما يقول: « أنا آسف.. أنا كنت مضللًا.. وأنا أعترف بأنى أخطأت، و ..» وكلام آخر لا أذكره، وما إن انتهى من الكتابة، حتى هب واقفًا وفى يده الأوراق، واقترب منى، ووضع الأوراق أمامى، ثم أعطانى القلم، وأخذ يشير إلى الأماكن التى يجب أن أوقع فيها باسمى.. كانت يدى ترتجف، ولم أستطع إمساك القلم جيدًا، وبدت الحروف مهزوزة.. ولم أقرأ كلمة واحدة مما وقعت باسمى عليه.. كان كل همى أن أنصرف.. لقد بدت لى الزنزانة بالقياس إلى ما أراه فى هذه المجزرة جنة..

عدت إلى الزنزانة عند الفجر.. وشعرت ببرودة الجو وأنا أسير صوب سجن ٤ على الرغم من أننا فى شهر أغسطس.. رأيت إخوانى يقظين فى انتظارى.. وألقيت بجسدى المنهك على أرض الزنزانة فى الظلام.. أحسست بأيديهم تلامس جسدى ورأسى وأقدامى وذراعى..

قال أحدهم: « هل انتهى التحقيق؟ »

- « الحمد لله .. »

- « هل ضربوك كثيرًا .. »

- « ليس كثيرًا.. ولم أكن أشعر بأى ألم .. »

قال محمود جبريل: « الماء بالملح يشفى الجروح .. »

قلت فى مرارة: « وجراح النفس.. كيف تشفي؟ »

ثم انفجرت باكيا.. كنت أحاول أن أكتم شهقاتي

وأيديهم تربت على جسدى برقة.. وعلى الضوء المتسرب من النافذة « والشراعة » رأيت الدموع تنسكب فى صمت من عيونهم « إلا أحمد حامد » فقد بقى صارمًا صامدًا، وقال دون أن يبدو أى أثر للانفعال على صوته: « هيا.. تيمموا لكى نؤدى صلاة الفجر .. »

بعد أيام نقلونى إلى مكان جديد، إذ صعدت إلى الدور الأعلى، فى زنزانة رقم ٤٧، حيث التقيت بالإخوة الدكتور إبراهيم الصياد والدكتور محمد عامر « وكانا طالبين فى كلية الطب »، والحاج فتحى عبدالبديع الصادى، وقد اعتقل عند عودته على الباخرة من الحج، والأستاذ عز العرب فؤاد حافظ،

والأخ حسن على جاد، وأخ آخر لا أذكره..

وقيل لنا أنه سوف يسمح لنا بالخروج صباح كل يوم للطابور.. فسعدنا أيما سعادة.. سوف نجرى وننشط، ونخرج من هذا المكان الضيق ولو لساعة نشم فيها الهواء، ونمارس رياضة الجرى.

قال إبراهيم الصياد فى شك:

« أخاف أن تتحول هذه المنحة إلى نقمة ..»

قال واحد من الإخوة: « لقد انتهت التحقيقات، ولم تبق إلا المحاكمة، فماذا يريدون منا بعد ذلك؟ » قال حسن جاد: « قالوا: يا قرد حيسخطوك.. قال يعنى هيعملونى غزال؟ »

وضحكنا رغم الألم والمرارة.

لقد أجدنا الطوابير أكثر من العسكر، كنا نمشى صفين، « معتادًا مارش » فى البداية، ثم « سريعًا مارش » بعد ذلك.. وكنا سعداء بذلك أيما سعادة.. لكن للأسف لا وجود للاستقرار فى هذه البقعة المحاصرة الحبيسة من أرض مصر.. لقد بدأ طابور الرياضة - كما توقع إبراهيم الصياد - يتحول إلى طابور للتعذيب.. لقد تناثر العسكر بقيادة الجاويش « أمين » المعروف بقسوته ودهائه وحقده، حاملين السياط.. وأخذوا يهوون بسياطهم على أجساد المعتقلين الذين يجرون حسبما اتفق، ويا ويل من يتخلف فى الطابور.. كان الطابور يضم المعتقلين جميعا، المرضى والأصحاء، والشباب وكبار السن، فكنت ترى الأعمى والأعرج والمصاب بالشلل النصفى، وكنت ترى الشباب فى ميعة الصبى. ووجوههم تشرق بالإيمان والرضى، وكثيرًا ما يسقط المرضى وكبار السن، فلا ترحمهم السياط.. على الرغم من عجزهم البين، ولهاثهم، إنهم يرقدون مستسلمين على جانبى الطريق.. وحاولنا أثناء الجرى أن نحمى العجزة والمرضى، فكان كل شاب يجرى خلف واحد منهم ليتحمل عنه الضرب، واستطاع الدكتور مصطفى أبو العينين، أن يقنع الجاويش عبد المقصود بأن يقسم المعتقلين إلى طابورين، طابور للشباب، وآخر للمتعبين والمسنين وذوى العاهات، وأطلق على هذا الطابور الأخير طابور « الشفاخانة »، حيث سمح لهم بأن يمشوا فى الطابور الهوينى دون جرى، أما الطابور الأول « طابور القادرين » فقد ظل تحت رحمة السياط والقسوة.. ولم يدم الحال طويلًا، فقد ازداد عددالمنضمين لطابور « الشفاخانة » بصورة ملفتة للنظر، وجاء قائد السجن الحربى - البكباشى حمزة البسيونى - ذات يوم كى يفتش على المعتقلين.. ثم نظر بعنجهية إلى طابور الشفاخانة، وقال: « من هؤلاء يا أمين؟ »

فجرى أمين بالخطوة السريعة نحو حمزة بك، ودق الأرض بقدمه، وأدى التحية العسكرية وقال: « طابور الشفاخانة يا افندم ..»

رد حمزة على الفور: « مفيش حاجة اسمها شفاخانة.. كلهم طابور واحد ..»

وسرعان ما نفذ أمين الأوامر، إذ ضم الطابورين معًا، وكم كان مؤلمًا للنفس أن ترى من جديد المرضى والمسنين، وهم يلبسون المعاطف أو الجلابيب، ويجرون بصعوبة حتى يسقطوا إعياء وعجزًا والسياط من فوقهم..

كان حسن على جاد مراقب الصحة بمدينة بنها، والذى يقيم معنا فى الزنزانة، يعانى من أزمات

الربو، وأمكننا بعد جهد جهيد أن نلحقه بطابور الشفاخانة بمساعدة المعتقل الدكتور مصطفى أبو العينين، وكان حسن رجلًا مرحًا خفيف الظل، فإذا ما وجهنا إليه نقدا أو عتابا لأمر من الأمور، نظر إلينا من علٍ وقال فى كبرياء: « كيف تعاملوننى هذه المعاملة؟ أنسيتم أننى من طابور الشفاخانة؟ »

وكأن الشفاخانة فئة متميزة، وطبقة من طبقات المجتمع العليا، وكنا نضحك من قلوبنا، ونحن نسمع حسن يشمخ بأنفه، ويردد بافتخار أنه من الشفاخانة، ويوم أن أمر حمزة البسيونى بإزالة الفوارق بين الطبقات، وأصبحت الشفاخانة مثل عامة المعتقلين، عاد حسن إلى الزنزانة يلهث، والعرق يتصبب من جبينه الأسمر، كان يتألم ويتأوه، لأنه تلقى عددًا من السياط بسبب بطئه فى الجرى، وأخذنا ننظر إليه ونحن نكتم الضحك، احترامًا لمشاعره ومعاناته، لكنه نظر إلينا، وأدرك ما يعتمل فى نفوسنا، فانفجر ضاحكًا وهو يقول: « لقد مرغوا شرف الشفاخانة فى التراب.. ارحموا عزيز قوم ذل يا إخوان ..»

وأخذنا نضحك فى براءة.. وقال إبراهيم الصياد فى جد: « ألم أقل لكم؟ إن هؤلاء الجلادين إذا أرادوا أن يتكرموا علينا بشىء مفيد، فلابد وأنهم يهدفون فى النهاية إلى اتخاذه أداة للنكد والإساءة ..»

قال الزميل الطيب الطاهر الأخ الدكتور محمد عامر: « مهما كان الأمر.. فإن الجرى مفيد لمرضى السكر والجهاز الهضمى.. والسمنة.. بل ومفيد أيضًا لمرضى الشلل النصفى ..»

رد عليه الصياد فى غضب: « اعمل معروفًا واسكت يا محمد ..»

جلسنا نستريح، ورائحة العرق تملأ الزنزانة، وفجأة سمعت حسن على جاد يقول دون مقدمات: « هل تتصورون أن السجين الحربى أفضل ألف مرة من مستشفى الأمراض العقلية؟ »

صرخ الدكتور الصياد فى غضب: « كف عن هذا الكلام الفارغ يا شيخ حسن ..»

ورأيت العيون تحاصر حسن على جاد، وكعادته قال فى مرح: « لماذا تنظرون إلىّ هكذا؟ إن أخانا نجيب الكيلانى هو الوحيد الذى لا يعرف.. أنتم تعرفون، ومن حقه هو الآخر أن يلم بالحقيقة ..»

ثم طوقنى بذراعه الأيمن وقال: « يا أخ نجيب أنا من خريجى مستشفى الأمراض العقلية ..»

وهاج الحاضرون وماجوا، لقد نصحوه بعدم الحديث فى هذا الموضوع كلية، فهو أمر لا يشرف، لكن حسن لم يقتنع بهذا الأمر، وخاصة أنه لم يكن مجنونًا فى يوم من الأيام، فالأمر حدث لظروف خاصة، فقد كان رئيسه فى العمل يضطهده اضطهادًا شديدًا، وخاصة عندما علم أنه من الإخوان المسلمين، كان حسن يرفض النفاق والإهمال والكذب، ويبرأ من الرشوة والخديعة والاستغلال، لكنه يرى بنفسه كيف أن القسم الذى يعمل فيه، يضرب عرض الحائط بالقوانين الصحية، نظير رشاوى تافهة من المال، يدفعها أصحاب المحلات التجارية، وموزعو التغذية، كأصحاب المطاعم والجزارين وغيرهم، وكان يرفع الشكاوى تلو الشكاوى للجهات المسئولة، وفى كل مرة يتواطئون ضده، ويجعلون من شكواه بلاغًا كاذبًا وإزعاجًا للسلطات.. ولم يكتفوا بذلك بل لفقوا له التهم، وتسببوا له فى العقوبات والجزاءات المختلفة، والخصم من مرتبه الضئيل.

وعندما حضر مفتش من الوزارة بالقاهرة لينظر فى أمر حسن.. جن جنونه.. إن البرىء متهم.. والمتهم برىء.. لقد انقلبت الموازين.. أى فساد فى هذه الدنيا الغريبة.. وحسن رجل صعيدى لا يعرف اللف ولا الدوران، حاول أن يقنع المفتش بالحقيقة، فلم يصدقه، لأنه مصر على عدم التصديق.. أو قل

متواطىء.. فما كان من حسن على جاد إلا أن خلع حذاءه القديم، وانهال به على رأس المفتش.. ورأس مدير القسم.. وكل المتواطئين في مكتب الصحة.. وظل حسن يضرب ويضرب دون وعى حتى أحاطت به الشرطة، ووضعت الأغلال فى يديه.. لكنه استمر يضرب بقدميه ويديه المقيدتين.. فلم يجدوا مناصًا من أن يحقنوه بمادة مخدرة.. ثم أخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية «تحت الاختبار».. حيث بقى فيها فترة قصيرة، كان كل علاجه المهدئات وتحصيل قسط وافر من النوم والغذاء.. وخرج حسن بعد براءته من الجنون.. ولم يكد ينقضى عليه بضعة أيام فى العمل، حتى ساقوه إلى المعتقل.. يقول حسن: «فى مستشفى الأمراض العقلية يضربوننا ضربًا مبرحًا.. الممرضون هناك لا يقلون قسوة عن عساكر السجن الحربى وجلاديه.. بعض النزلاء بالمستشفى يموتون من الضرب.. وليس هناك من يصدق أنك عاقل.. أبدًا.. لا يقتنعون.. شيء رهيب أن يعتبرك الناس مجنونًا.. ولذا فهنا أفضل لى من هناك.. صدقونى ..»

وعلى مدار الأيام كان حسن يأنس لى ويروى الكثير عن حياته، وبخصوص قضيته قال: «لا أعرف لى قضية.. لقد أخذوا يضربوننى فى مكاتب التحقيق ويسألوننى عن منشورات سوريا.. وما شأنى أنا بسوريا؟ أنا لا أفهم شيئًا ..»

كان المسكين لا يتصور ما يريده المحقق منه، فالمحقق يسأله عن منشورات هربت من سوريا إلى مصر تهاجم الحكومة، وحسن يظن أن أى شيء يتعلق بسوريا لابد وأن يكون فى سوريا، ويقول حسن: «أخذت أجرى وأدور.. والسياط تلهب جسدى العارى.. انظر إلى ظهرى.. هكذا.. كانت الدماء تسيل منى.. وأنا أجرى وأقول «أنا مريض بالصدر يا هوه.. ارحمونى» ولا فائدة.. وأخيرًا قلت لهم سأعترف.. نعم رأيت منشورات سوريا. قالوا لى وماذا فيها؟ لم أكن أعرف بالطبع.. ضربونى مرة أخرى.. اتهمونى بتصنع البلاهة والغباء.. وأوحى لى الله بفكرة.. قلت لهم لقد تذكرت.. كانت المنشورات تشتم فى الحكومة.. قالوا: وفى الرئيس؟ قلت: نعم وفى الرئيس..

ولم أكن أعلم أن هذا سوف يفتح للعذاب أبوابًا يصعب إغلاقها سألونى: من الذى أتى لك بالمنشورات؟ وفى أى مكان تسلمتها منه؟ وأين ذهبت بها؟ وأين هي؟ يا إلهي!! ووجدتنى غارقًا فى بحر لا قرار له تحيط به الوحوش من كل جانب.. هذه هى اللحظات الرهيبة التى يجب أن يصاب فيها الإنسان بالجنون.. ولكنى لا أستطيع أن أجن.. ويبدو أنهم اقتنعوا أخيرًا ببراءتى حينما قلت لهم: «عندى اقتراح.. اكتبوا ما تشاءون وسوف أوقع لكم بكامل إرادتى على المحضر.. ولتعدمونى بعدها.. فإن حياتى لا تساوى شيئًا ..».

واستدوا إخوانى فى بنها، فأقروا جميعًا أننى لم أر المنشورات. ولا أعرف عنها شيئًا.. تلك قصتى.. أعنى قضيتى.. ومع ذلك فإن الاتهام الموجه لى ما زال الاشتراك فى مؤامرة لقلب نظام الحكم.. بكم سنة سجنًا تظن أنهم سوف يكمون عليّ؟»

قلت له: «إعدام.. أو على الأقل الأشغال الشاقة المؤبدة ..»

ومن الطريف أن حسن قدم للمحاكمة فعلًا، ونال البراءة، لكن بقى فى المعتقل حوالى عامين.. أى خرج فى عام ١٩٥٦ بعد صدور الدستور الأول، لكنى التقيت به مرة أخرى فى عام ١٩٦٥ فى المعتقل

أثناء قضية الشهيد قطب الشهيرة.. ولم يحاكم هذه المرة، وإن بقى فى المعتقل أكثر من عامين.. كان قد تقدم به العمر، واشتد بياض شعره، وأصبح مرض الربو أشد من ذى قبل.. لشد ما أحببت هذا الرجل، وأحببت أحاديثه الجميلة، وتعليقاته الساخرة الذكية، وبراءة الطفولة فى عينيه الصافيتين..

والأخ عز العرب فؤاد حافظ، خريج كلية الحقوق، هو الآخر من المقيمين فى مدينة بنها، وكان طاقة من النشاط والحركة، لا يكف عن الحوار والنقاش، سألته عما قاله حسن على جاد، فأيد كل ما قال، وعز العرب الداكن السواد، له شخصية خاصة جذابة، ولقد علمت أن الإخوان كلفوه بالاندماج مع الشيوعيين حتى يعرف تحركاتهم وأخبارهم، وخاصة ما يتعلق منها بالعداء للحركة الإسلامية، وكان لزامًا على عز العرب أن يدرس الماركسية جيدًا، حتى يمكنه أن يتعايش مع الشيوعيين، وينال مكانة مرموقة بينهم، ولعل ذلك هو السبب فى شغفه بالحوار والجدل وكثرة الكلام، ومع ذلك فلم أكن أمل حديثه مهما طال، ونال عز العرب مكانة بارزة فى مجتمع بنها بعد خروجه عام ١٩٥٦ مع المعتقلين، فكان يخطب الجمعة فى أشهر مساجدها، وكان المحافظ هناك حريصًا على الصلاة معه، كما صدرت لعز العرب بعض المؤلفات فى الاقتصاد والقانون والدراسات الإسلامية، لكنى لم ألتق به إلا فى الاعتقال الثانى عام ١٩٦٥..

كان عز العرب يريد أن يعرف أى شىء.. أو كل شىء يحدث، فلا يكاد يسمع صراخًا فى الدور الأرضى حتى يهرع إلى البا ب، ويحاول أن يتنصت أو يتسمع الأنباء، وكان فى ذلك مخاطرة كبيرة، قد تجر علينا الوبال، فكنا نشده شدًا لكى نجلسه بالقوة، وخاصة إبراهيم الصياد الذى يقول: «سوف تتسبب لنا فى كارثة يا عز..» لكن عز كان يؤكد لإبراهيم إنه حريص أشد الحرص، ويتحوط لكل شى..

وحدث ذات مرة أن كنا جالسين فى أمان الله «وباب الزنزانة مفتوح للتهوية» فسمعنا صوت استغاثة.. إنه أمر مألوف أن يعذبوا أحد المعتقلين لسبب من الأسباب.. فليس فى الأمر جديد.. لكن عز العرب هب واقفا. واندفع صوب الباب.. ومد رأسه إلى الخارج فى محاولة ليرى ويسمع ما يحدث.. وصاح الصياد: «تعال يا عز واجلس..»

- «لا تخف يا إبراهيم.. قلت لك ألف مرة أنا حريص.. لا توص حريصا..»

ولم يكد يتم عبارته، حتى سمعنا صوت العسكرى محمد عبد الحليم ينادى: «الولد اللى هناك.. تعالى هنا..»

كان العسكرى مختبئًا خلف ملابس مغسولة فوق السور، ولم يره عز العرب، وسرعان ما جرى عز للداخل، وجلس لكن العسكرى عاد يصيح: «الواد أبو وش أسود اللى فى زنزانة ٤٧.. تعالى يا ابن الـ..» ونظرنا إلى عز العرب فى ألم.. لابد مما ليس منه بد.. قال عز فى استسلام: «يجب أن أذهب إليه حتى لا يأتى ويضربنا جميعا..»

ومشى مسرعًا، ونحن نشعر بألم عميق.. وسمعنا الصفعات تنهال على وجه عز.. ثم السياط وهى تهوى عليه.. وبعد فترة وجيزة جاء.. وجلس بيننا صامتا ونحن صامتون.. لكنه قال بعد لحظات وهو يتحسس أذنيه: «ياه.. أذناى ساختنتان..»

ضرب الصياد على فخذيه وهو جالس بيدين متشنجتين وقال: « ألم نحذرك يا عز؟ »
وكم كانت دهشتنا عندما قال عز: « لم أكن حريصًا هذه المرة.. سوف أتلافى ذلك مستقبلًا ..»
وضحكنا، بينما قال الصياد فى غضب: « أتنوى أن تفعلها مرة أخري؟ »
- « نعم.. وسأكون حذرًا ..»

وتسلم الحاج فتحى عبد البديع الصادى طرد ملابس أرسله إليه أخوه حكمدار الشرطة، وكان فتحى سكرتيرًا لمعهد « أبوكبير » الدينى بالشرقية، وبينما هو يفك الملابس وجد اسم وحيدته الصغيرة « سلوى » مكتوبًا بالحبر، وبخط يدها الذى يعرفه، على قطعة من الملابس الداخلية، ودقق فتحى النظر إلى الكلمة المكتوبة، ثم انهمرت دموعه، وأخذ يبكى فى مرارة، واضعًا اسم وحيدته على عينيه..

قال عز العرب: « اذكر الله يا حاج فتحى ..»

ورأيت الدموع تترقرق فى عين حسن على جاد.. أما أنا فقد سارعت بمسح دموعى قبل أن يرانى أحد »

لكن إبراهيم الصياد كان ينظر فى سقف الزنزانة » إلى بعيد.. أين؟ لا أعرف..

***

[٩] المحاكمة



أردت أن أستعرض إجراءات المحاكمة، بعد أن تناولت بشىء من الإيجاز طريقة التحقيقات المبدئية، وأسلوب انتزاع الاعترافات، وكان أملنا أن نجد فى المحاكمة ما يعوضنا عن الأسلوب غير الإنسانى فى التحقيق، ومن الضرورى أن نعطى صورة لتلك المحاكمات للحقيقة والتاريخ، ومن واجبنا أن نفعل ذلك، حتى تعرف الأجيال الجديدة الأرض التى تتحرك عليها فى مسيرتها، والمؤثرات المختلفة فى الأحداث الكبار، وقوى الدفع والجذب التى يتعرض لها الناس فى كل موقع، إن التجربة تلد الخطأ والصواب، ومن البديهى أن العقلاء المخلصين يستطيعون استخلاص العبرة مما يمرون به من تجارب، فالماضى والحاضر والمستقبل لا تطابق بينهم، ونحن نحرص دائمًا على أن يكون حاضرنا أفضل من ماضينا، ومستقبلنا أحسن من حاضرنا، وإلا كان الجمود والتخلف والهزيمة، ولا يمكن أن يتم ذلك على وجه صحيح إلا بالوعى والصدق والعمل الدائب من أجل التغيير، وتلك هى معادلة التاريخ التى يمكننا أن نمضى حسب منطقها، سنة الله فى الأرض ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

واستعدادًا لمبدأ المحاكمات «ونحن الدفعة الثالثة بعد دفعة أكتوبر ١٩٥٤ ومارس ١٩٥٥» جمعونا فى طوابير، وتسلم كل واحد منا «الادعاء» المقام ضده، وقرأت الادعاء، فكان مفاده أننى اشتركت فى نظام سرى مسلح يعمل على قلب نظام الحكم بالقوة والعنف، مخالفًا بذلك قوانين البلاد، وقرار حل جماعة الإخوان المسلمين.

ثم أعادوا توزيعنا فى زنزانات أخرى، طبقا لنظام لا نعرفه، ووجدت نفسى فى غرفة فى الدور الثانى فيها الفلاح عبد العزيز نوفل من قرية «ميت أول الليت هاشم» قرب مدينة المحلة الكبرى المدينة الصناعية الشهيرة، وفيها حسن عبد الهادى وهو مشرف فى مصنع للزجاج يملكه عمه، وهو فى نفس الوقت صهره، ورجلان متقدمان فى السن من قرية من قرى بنى سويف أحدهما الحاج محمد كحيل وهما فلاحان، والأخ ناجى سلامه «دبلوم صناعى» وآخرون لا أتذكرهم حاليا..

كان الفلاح عبد العزيز نوفل يعمل خفيرًا فى إحدى العزب، وكان يجمع بعض القروش القليلة من صغار الطلبة، ويرسلها لأسرة أحد المسجونين الفقراء من الإخوان المسلمين، واتضح أن المبلغ الذى يجمعه فى حدود ثلاثة جنيهات تقريبًا، وكان عبد العزيز نبيلًا صادق الفطرة، إذ قرر أن يتحمل العبء وحده، فقال فى التحقيق: «أنا الذى أدفع الجنيهات الثلاثة ..»

– «لكن هذا مبلغ كبير.. ولا شك أنك تتزعم شبكة لجمع الاشتراكات ..»

– «أنا رجل جاهل مسكين، ولا أعرف ما تتحدثون عنه. كان الأمر مجرد صدقة أدفعها عن طيب

خاطر لجار لنا ..»

– « ألم تكن من الإخوان المسلمين ..»

– « كلنا مسلمون يا بك ..»

– « من كان رئيسك فى التنظيم؟ »

– « لا رئيس ولا يحزنون ..»

وتعرض عبد العزيز لضرب شديد لعله يضيف شيئًا إلى اعترافاته، لكنه أصر على موقفه، وطلبوا منه أن ينتزع شعر شاربه الكث بيده، تحت ضرب السياط، ولم يجد مناصًا من أن يفعل، يقول عبد العزيز: « لقد ساعدنى الله.. لم أشعر بألم يذكر.. وأخذت أنتزع الشعر بهدوء حتى أديت المهمة.. لكنى لم أغير كلامى ..»

وكان عبد العزيز قوى الجسم، فارع الطول، متين البنيان، يوحى لمن يراه بالنموذج الكامل للبطل الشعبى فى أعماق الريف، ويحفظ بعض الأوراد، وقليلًا من القرآن الكريم، وبعض أشعار السير الشعبية، كان كثيرًا ما يردد موالا شهيرًا يقول فيه:

« انهض يا على... انهض عمر... عمر انحظر... فى أرض واسمها صالحجر »

وعلى الرغم من أننى لا أعرف سندا تاريخيا لمجىء الإمام على بن أبى طالب، أو عمر بن الخطاب إلى صالحجر تلك البلدة الموجودة فى دلتا مصر، إلا أننى كنت أطرب لصوته القوى الجياش بالعاطفة، وخاصة عندما ينفعل وتجتاحه الحماسة، وتبتلُّ عيناه بالدموع.. وبعد أيام نما شاربه من جديد.. وابيض وجهه الأسمر لطول إقامته بالزنزانة.. وكان أنموذجا فذا فى الصبر والإيمان والاطمئنان لقضاء الله.. مرة واحدة وجدته شاردًا يفكر.. وطال شروده، ثم انفجر باكيا.. وجاء صوت الحاج محمد كحيل: « اذكر الله يا عبد العزيز ..»

وسرعان ما جفف دموعه بطرف كمه الواسع، وعاد يبتسم وهو يقول: « الشيطان شاطر.. لقد تذكرت الأطفال وأمهم.. لكن.. استغفر الله.. لهم رب يرعاهم ويرعانا ..»

أما مشرف مصنع الزجاج بشبرا الأخ حسن عبد الهادى، فقد كان خفيف الظل، لديه رصيد هائل من القصص والحكايات والأخبار، وهى موهبة يحسد عليها، لأنه كان يستطيع بحسن أسلوبه، وطرافة قصصه، أن يحلق بك فى عالم مثير أخاذ، فتكاد تنسى كل ما حولك، وإذا انصرفنا عنه، يضع « رأسه فى عبّه » كما يقولون، ويستغرق فى الصمت..

لقد اعتقل حسن عبد الهادى لأنه كان يحمل قصيدة من الشعر كتبها أحد الشعراء الإسلاميين، يرسم فيها صورة محزنة لما يجرى فى مصر، ولما يتعرض له الإخوان المسلمون من عذاب واضطهاد، كان حسن يحفظ القصيدة عن ظهر قلب، وفيها الكثير من الأوصاف الجارحة لعبد الناصر وسلوكه، وفى التحقيق طلبوا منه أن يقف فوق كرسى وأن يترنم بالقصيدة فى صوت جهورى.. بشرط.. كل حرف بكرباج.. يا إلهي!! لكن لا حيلة.. ولم يكن حسن يلقى أبياتا ثلاثة فقط، حتى سقط من فوق الكرسى فى شبه إغماءة لكثرة ما ناله من سياط العسكر، والضباط يضحكون.. ويصفقون ويقولون « برافو.. أعد يا بو على أعد.. إيه الجمال ده.. يا رجل يا فصيح ..» أما الرجل الثانى من محافظة بنى سويف فكان يبدو عليه الوقار.. وقار عمدة القرية صاحب الحول والطول، وكثيرًا ما عانى فى طوابير الجرى السريع بسبب البدانة التى يتسم بها، ويعانى منها، وخاصة أن المتخلفين فى طوابير الجرى، كانوا

يتعرضون لهجوم الكلاب الشرسة.. كان بالسجن الحربى عدد من الكلاب المدربة أذكر أشهرها « توسكا » الكلبة المدللة، و« لكى » الكلب المحظوظ، وكانت هذه الكلاب تهاجم المعتقل عندما ترى العسكرى يهوى عليه بالسوط، بل وتستجيب لدعوة الجاويش إذا أشار إلى أحد المعتقلين.. وأخونا من بنى سويف - كما قلت - تعرض مرارًا لشراسة الكلاب، وقد نهشته فى مؤخرته، فمزقت ثيابه، وأحدثت جروحًا غائرة فى جسده، احتاجت لفترة طويلة للعلاج..

ما إن تحددت أيام المحاكمة، حتى ساقونا أفواجًا مرة أخرى إلى مكاتب التحقيق، وذلك فى إجراء شكلى لقراءة المحاضر التى وقعنا عليها عند التحقيق، والإقرار بأن كل ما جاء فيها صحيح، عندما ذهبت، وجدت ممثل الادعاء البكباشى سعد الدين خليل، وقائد السجن الحربى حمزه البسيونى، وعدد كبير من ضباط « المباحث العامة » والمخبرين.. وقد حاول بعض الإخوان إنكار ما جاء فى المحضر، فكان أن جروهم أمامنا، وظلوا يوقعون بهم العقاب المرير، حتى تراجعوا، ووافقوا على ما جاء فى المحضر، ووقعوا بذلك.. وكان واضحًا أنه لا مجال للإنكار أو التغيير، أو الاحتجاج بالتعذيب فيما ورد من اعترافعات تؤدى لا محالة إلى السجن..

وقبيل الذهاب إلى المحكمة، أعادوا على مسامعنا التحذير تلو التحذير، من ذكر أى شىء عن التعذيب، وأدخلوا فى روعنا أن الأحكام معدّة سلفًا، وأن الإنكار لن يجدى، وخير لنا أن نقر بما جاء فى محاضر التحقيق حتى تنتهى المحاكمة بسرعة. لأن الحكومة مشغولة بما هو أهم..

كانت قضية « العنف » - كما سموها - لعبد المنعم سليم وإخوانه من أوائل القضايا التى نظرت..

فى الليلة السابقة للمحاكمة، نزلنا إلى ساحة سجن ٤، وجلسنا على الركبتين فوق الحصا والظلط.. رافعين الأيدى إلى أعلى.. وبقينا هكذا لبضع ساعات.. والعسكر يتسلون بضربنا بالسياط على دفعات قليلة.. مجرد تذكير حتى لا يصدر منا غدا أى تصرف لا يرضون عنه فى محاكمة الغد..

وفى الصباح وقفت مجموعتنا أمام السجن الحربى « الكبير » المجاور لسجن ٤، ووجوهنا إلى الحائط، وأخذ الأومباشى يقرأ الأسماء، ليتمم علينا، وعندما جاء اسم الزميل محمد الفاتح عمر، نطقها الأومباشى « الفانخ » أى أبدل التاء بالنون، والحاء بالخاء، فصحح له محمد الاسم، وكرر الأومباشى نطق الاسم خطأ، فعاد محمد وصححه للمرة الثانية.. فما كان من الأومباشى إلا أن أمسك بالسوط وهوى به ثلاث مرات على رأس محمد الفاتح، ثم عاد يساله مرة أخيرة: « محمد الفانخ يا ولد؟ »

- « نعم « الفانخ » يا افندم ..»

- « أعرفكم.. إنكم تغيرون أسماءكم ..»

وكتمنا الضحك على الرغم من قسوة الموقف، وبقينا طوال فترة السجن، ننادى محمد الفاتح باسمه الجديد، وهو يضحك.

أخذتنا السيارات المغلقة إلى مكان قريب، قيل أنه الكلية الحربية، وسط معسكرات العباسية، وجلسنا فرادى على مقاعد أسمنتية باردة، وأمام كل واحد منا جندى مصوب مدفعه بصفة دائمة نحو رءوسنا.. وطال الانتظار، وكان كل من يحاكم يخرج، ويجلس فى نفس مكانه السابق..

شعرت برغبة شديدة فى الذهاب إلى المرحاض، استأذنت من الجندى، فقام بدوره وهو فى مكانه بالاستئذان من رئيسه الذى يمر من وقت لآخر، وذهب رئيسه إلى من هو أعلى رتبة منه، وهكذا حتى صدرت الموافقة.. وسرت أمام الجندى والمدفع الرشاش فى ظهرى.. عندما وصلت إلى المرحاض قيل لى لابد أن تبقى الباب مفتوحًا، هكذا الأوامر، وتلفت الجندى يمنة ويسرة، ثم قال لى هامسًا: « من أنتم؟ »

قلت - «ألا تعرف؟»

- «جئت فى مهمة للحراسة ولا أعرف شيئًا ..»

- «نحن إخوان مسلمون.. أتوا بنا من السجن الحربى للمحكمة ..»

- «أوه.. هكذا.. أما يزال هناك إخوان؟»

ثم عاد إلى وضعه الرسمى من جديد.. وعدت إلى مكانى الأول..

ورغب عدد آخر من الإخوة فى الذهاب إلى دورة المياه، بعد أن طال وقت الانتظار، ولم تحدث ممانعة فى البداية، لكن بعد أن كثر العدد صاح أحد الضباط فى غضب: «لن يذهب أحد بعد ذلك إلى دورة الماء.. من أراد أن يفعل شيئًا فليفعل وهو جالس ..»

وضحك الضباط والعسكر، أما نحن فقد بقينا صامتين دون حركة.. ولم يصبنا الدور فى المحاكمة أول يوم، لكن أمرا غير عادى قد حدث، لقد رأينا أحد المحامين، وهو اللواء عباس زغلول، يدخل المحكمة، للدفاع عن بعض المتهمين، وهم من أسرة عمارة، وخاصة فتحى وفؤاد، لقد فكرنا أن نوكل محامين للدفاع عنا، لكن رئيس دائرة محكمة الشعب التى تحاكمنا وهو اللواء صلاح الدين حتاتة، رفض ذلك بشدة، وقال قولته المشهورة: «نحن هنا فى المحكمة مثل مجالس العرب.. لا محامين ولا دياولو.. الشعب قال لنا خلصونا من هؤلاء الناس المجرمين ونحن نقوم بهذا الواجب ..»

لكن الإخوة من أبناء عمارة، وهم إخوة أعزاء، وعلى خلق طيب كان لهم إخوة وأقارب من كبار ضباط الجيش، وعلمنا أنهم توسطوا لهم كى توافق المحكمة على أن يقوم اللواء زغلول المحامى بالدفاع عنهم، وكان من ضمن ما جاء فى دفاع اللواء زغلول عن الأخ المتهم «فؤاد عمارة» الآتى:

«حضرات القضاة.. إن المتهم فؤاد عمارة صغير السن.. طالب فى إعدادى كلية الهندسة.. وقد خدعه وضلله المتهم عبد المنعم سليم.. انظروا يا سيدى الرئيس إلى وجه عبد المنعم سليم.. ألا ترون أنه وجه إرهابى ضليع مخيف.. أقسم يا سيادة الرئيس لو أن عبد المنعم سليم دخل على بسحنته تلك. لبايعته على الفور ..»

ولم يحكم على فؤاد إلا بخمس سنوات سجن مع إيقاف التنفيذ، فيما بعد، وخرج مع المعتقلين، وكذلك فتحى عمارة الذى نال البراءة، وخرج معه..

لنعد إلى ما كنا فيه.. ذهبنا للمحكمة مرة أخرى، وجلسنا فى مكان المتهمين، عبد المنعم سليم، وإبراهيم الصياد، والمرحوم محمد يحيى شتية طالب الحقوق، وفؤاد عمارة، وأنا.. من غريب الصدف أن إبراهيم الصياد من قرية تجاور قرية رئيس المحكمة اللواء صلاح الدين حتاتة، وكان واضحًا أن الرئيس حتاتة يعرف إبراهيم، وابتدأت محاكمة إبراهيم، وكان الحوار يدور أساسًا حول نقطة أثارها رئيس المحكمة، مؤداها أن الطب تخصص، وأن على المتهم أن يهتم بذلك، أما العمل بالسياسة والدعوة الدينية فليس من اختصاصه، ورفض إبراهيم هذا المنطق، وقال إن الدعوة الإسلامية أمانة فى عنق كل مسلم، سواء أكان طبيبًا أم عالمًا دينيًا، وطلب منه القاضى الأدلة، فقام إبراهيم بشرح وجهة نظره والتدليل عليها، لكن السيد اللواء ظل مصرًا على موقفه، وأكد أن الدعوة من واجب رجال الأزهر وحدهم كجهة اختصاص.. وعلى الرغم من أن هذه كانت نقطة هامشية بالنسبة لقضية التنظيم المطروحة، إلا أنها أخذت وقتًا طويلًا..

وبعد أن انتهت محاكمة إبراهيم نادوا اسمى فوقفت..

كان ثلاثتهم يجلسون على المنصة اللواء حتاتة فى الوسط رئيسًا، وضابط كبير من البحرية، وآخر من المشاة على ما أذكر، كعضوية يسار ويمين، وقال حتاتة دون اكتراث: «مذنب أم غير مذنب؟»

قلت: «غير مذنب.»

التفت إلى البكباشى سعد الدين خليل المدعى أو ممثل الاتهام وقال له: «المدعى عاوز يقول حاجة؟»

وقف المدعى، ووضع يديه على طاولة أمامه، وقال: «المتهم اعترف بكل شىء.. ولا داعى للتفصيل.. ولهذا أطالب بالعقوبة المناسبة ..»

التفت حتاتة صوبى وقال: «هل لديك شىء تقوله ..»

قلت: «ما دام لم يسمح لنا بمحام، فأرجو من هيئة المحكمة الموقرة أن تفسح لى صدرها ..»

- «قل وخلصنا ..»

قلت وأنا أرتجف وأكتم انفعالى: «سيدى الرئيس.. إن الادعاء المقام ضدى يرمينى بتهمة خطيرة، وهى الاشتراك فى جهاز سرى مسلح لقلب نظام الحكم بالقوة.. وتعلمون سيادتكم أن مثل هذا القول لكى تثبت صحته لابد من توافر أشياء أساسية ثلاثة:

أولها: وجود السلاح، **ثانيها**: وجود خطة ولو مبدئية للتنفيذ، **ثالثها**: صفة السرية»

فهل وجدتم عندى سلاحًا؟ هل فى التحقيق معى ما يفيد - ولو من بعيد - بإعداد خطة لعمل انقلاب؟ وهل كان هناك أحد يجهل أننا ننتمى لجماعة الإخوان المسلمين؟ إن نشاطنا نشاط ثقافى بحت، أو هذا ما كنا نقصده أو مارسناه فترة قصيرة من الزمن، ولا يعتبر النشاط الثقافى سرًا من الأسرار.. نعمله فى الجامعة.. وفى الشارع.. وفى البيت.. فى أى مكان..

علق الرئيس قائلًا: «يا سلام.. تعمله علنا؟»

- «نعم.. لأنه لا خطر منه، ولم يصدر قانون بمنعه ..»

- «يبدو أنك «عنتيل» ..»

وعدت لاستطرد فى شرح وجهة نظرى. لكنى لاحظت أن اللواء حتاتة قد انصرف عنى، وأخذ يتكلم مع عضو اليمين، فتوقفت عن الحديث.. ولما أدرك ذلك قال فى شىء من الغضب: «هيه.. واصل حديثك ..»

وتكرر الموقف مرة أخرى، فقال بحدة: «قلت لك تكلم.. ولا شأن لك بى ..»

وحاولت أن أثبت أن اتفاقى مع عبد المنعم قد انتهى بعد أن افترقنا، وأصبح ماضيًا، إلى جانب كونه مجرد علاقة أخوية ثقافية:

وعاد اللواء حتاتة للمدعى العام يسأله: «أتضيف شيئًا ..»

ابتسم المدعى وقال: «لا شىء.. الاعتراف موجود، وموقع عليه من المتهم.. ولا أطالب إلا بالعقوبة المناسبة ..»

وعدنا فى المساء إلى سجن ٤، شعرت أن جزءًا كبيرًا من العبء النفسى الذى أرزح تحت آلامه قد انزاح، ولم يبق سوى إصدار الأحكام.. لكن ذلك لن يتم إلا بعد الانتهاء من محاكمة ما لا يقل عن ثلثمائة شخص..

وكانت المحاكمات تجرى بصورة هادئة، ولم تكن تستغرق بالنسبة لكل متهم سوى دقائق فى

أغلب الأحيان، وأنكر بعض الإخوان ما نُسب إليهم فى محاضر التحقيق، لكن المحكمة كانت ترد إنكارهم عليهم نظرًا لأنهم قد وقعوا بمحض «إرادتهم» على أقوالهم، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يشير صراحة إلى التعذيب، طبقًا للأوامر الصارمة، ولجأ المنكرون إلى حيلة يعرفها القضاة العسكريون فى هذه المحكمة، كأن يقول المتهم: «لقد كنت متعبا جدًا.. ولهذا قمت بالتوقيع دون أن أعى تمامًا وكان حتاتة ومن معه يتسمون فى استخفاف، ثم يعلق القاضى «المحترم» ساخرًا: «ولماذا التعب؟» إنكم تأكلون وتشربون بالمجان.. وليس وراءكم أى عمل.. وكما يقول المثل، أكل ومرعى، وقلة صنعة، ...»

وفى الواقع لم يكن هناك أدنى فائدة من الإنكار أو الدفاع عن النفس بالمنطق والبرهان، فكل شىء يتم من جانب واحد، والقضاة هم الخصم والحكم، فضلًا عن أن وجودهم وجود شكلى، فالأحكام كما أكدوا لنا أكثر من مرة جاهزة، ومهمة المحكمة أن تقوم بالدور المنوط بها، طبقا للسيناريو والإخراج الذى أعدهما رجال المباحث العامة..

وفى يوم من الأيام - أثناء المحاكمات - سمعنا ضجة كبرى فى معتقل ٤، سبابًا وصراخًا وحركة غير عادية، وغلقت الأبواب، فأخذنا نصيخُ السمع لما يجرى، كنا فى الدور الأعلى، وبدأت حركة تعذيب هائلة مثيرة، والإخوة المعتدى عليهم يصرخون ويتألمون ويستغيثون.. ولا مغيث.. وتساءلنا فى حيرة.. ماذا جد من أمور؟ هل قبضوا على تنظيم جديد؟ هل أصيب الرئيس - لا سمح الله - بمكروه؟! إن الأمر يبدو خطيرًا، واستمر التعذيب من الساعة الرابعة عصرًا «مساءً» حتى العاشرة مساءً. وأخذنا نلتقط كلمة من هنا وهناك.. كنا نسمع كلمات قصارًا.. نحاول تحليلها.. وربطها.. محاولين فى صعوبة أن نشكل تصورًا مبدئيًا لما يجرى.. واتخذ الموضوع أبعادًا خطيرة، حينما حاولوا الإساءة إلى المتهمين بأسلوب رخيص تشمئز منه النفس، وذلك بمحاولة الاعتداء عليهم جنسيًا، وكنا نسمع - فى تقزز - الكلمات البذيئة، والرفض الدامى من المعتدى عليهم.. وسمعنا أيضًا عبارات مثل:

«كيف تتبجحون أمام المحكمة؟»

«أتظنون أنفسكم رجالًا؟»

«إننا نعرف كيف نؤدبكم، ونقطع ألسنتكم للأبد يا أولاد الـ..»

وعلق أحد الإخوة المعتقلين قائلًا: «واضح أن صدامًا حدث بين المتهمين وهيئة المحكمة..»

واستطعنا أن نميز أسماء بعض الإخوة الذين علقوا من أيديهم وأرجلهم فى ساحة السجن، عراة تمامًا.. أحمد حامد قرقر «رحمه الله»، محمد أنور رياض، ومحمد الطويل، ومحمد شفيق.. وغيرهم.. كانوا تسعة عشر..

وحوالى الساعة العاشرة مساءً سمعنا الصفارات المجنونة، ودعونا جميعًا للنزول إلى الساحة الكبيرة خارج سجن ٤، ووجدنا عددًا هائلًا من العسكر بعضهم يحمل الرشاشات، والبعض الآخر يحمل السياط، وشاهدنا فئة ثالثة تحمل السكاكين أو العصى.. كنا نهبط الدرج ونجرى والضرب يعتورنا من كل جانب، وجو الرعب البشع يسود المكان، فكرنا بسرعة، ظننا أنها النهاية بالنسبة لنا جميعا.. يبدو أنهم قد قرروا التخلص منا.. علق أحد الإخوان «يا إلهى.. هل هذا يوم الحشر؟» ووقفنا أخيرا على هيئة مربع.. وكل ضلع من أضلاع هذا المربع يتكون من عدد من الصفوف المتلاصقة المتزاحمة.. وران علينا صمت كالموت.. وسمعنا صوت نعرفه جيدًا: «الولد اللى هناك ده.. أنت تعال.. لماذا تتحرك.. خمسون كرباجًا..» كان صاحب الصوت البكباشى حمزة البسيونى، وفى لحظة، كانت السياط تهوى على الأخ المسكين، حتى تكوم على الأرض، ثم دار حمزة بنظراته الشرسة مرة أخرى، وأشار إلى معتقل

ثانٍ.. وثالث.. ورابع.. وتكرر نفس الشيء.. ثم ساد الصمت من جديد..

كان حمزة البسيونى يقف منتفش الشعر كالديك، ووجهه الأبيض المشرب بالحمرة يبدو فى بحر الأضواء الكهربائية كتمثال شمعى رخيص، ليس فيه أدنى شعور بالإنسانية.. وقال بصوت أجش كريه: « اسمعونى جيدًا ..»

« أنا هنا أفعل ما أشاء، لا يحاسبنى أحد ..»

« اسألوا إخوانكم القدامى.. لقد دفنت عددًا منهم فى رمال صحراء العباسية هنا.. أنا أحكم وأنفذ ..»

ثم أشار بيده إلى وسط المربع فى الساحة وقال: « انظروا إلى هذه الحيوانات ..»

ونظرنا.. يا ربى.. كان الرجال التسع عشرة عرايا تمامًا.. والقيود الحديدية فى أيديهم من الخلف.. والدماء تنزف من أجسادهم ورءوسهم ووجوههم.. كأنهم قد كفّنوا أحياء بشيلان حمراء.. ستة منهم كانوا ملقين على الأرض لا يستطيعون الحركة.. والباقون ظلوا وقوفا كالتماثيل المرمرية الحمراء.. لأول مرة أراهم على الرغم من أننى أقف فى الطابور منذ ما يقرب من عشر دقائق.. وعاد حمزة البسيونى يقول: « نعم هم حيوانات.. فالإنسان لا يقف هكذا.. أنا قلت ألف مرة دافعوا عن أنفسكم فى المحكمة.. لكن بأدب.. هؤلاء البهائم أساءوا الأدب فى المحكمة اليوم.. ولهذا كان لابد من تلقينهم الدرس الذى يستحقون حتى يتأدبوا.. أنا هنا القانون.. أنا أفعل ما أشاء.. ولن يستطيع أحد أن يفلت من يدى ..»

تذكرت فى هذه اللحظات مئات الألوف التى تشق حناجرها من الهتاف للزعيم القائد وهو يتحدث عن الحرية والكرامة، وعن شعاره العظيم « ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد ».. تمنيت فى هذه الساعة أن أهتف « يحيا العدل » لكن كلمة واحدة الآن معناها الموت.. وما أسهل أن يكتبوا أمام اسمى « فرار أو هروب »..

ومضى حمزة خارجًا من وسط الساحة شامخ الرأس متألها، وسمعته يقول للضابط النوبتجى بصوت عالٍ: « فليبقوا هكذا حتى الفجر.. ومن يتحرك منهم أدنى حركة يضرب خمسين كرباجًا فورًا ..»

لم نبق حتى الفجر كما قال، فقد أعادونا إلى الزنازين حوالى الواحدة بعد منتصف الليل، كانت أرجلنا شبه متصلبة لطول الوقوف، وأغمى على عدد من المعتقلين لكنهم كانوا يفيقون بالسياط..

حينما عدنا إلى الزنازين فى هذه الليلة الليلاء تنهدت فى حزن، والدموع تتساقط من عينى وقلت: « الحمد لله.. لقد نجونا من الموت بأعجوبة ..»

لكننا حتى هذه اللحظة لم نكن نعرف تفصيل ما جرى فى المحكمة، وفى الأيام القليلة التالية تجمع لدينا كل ما حدث فى المحكمة فى ذلك اليوم المشهور.

لقد دأب اللواء صلاح الدين حتاتة على السخرية والاستهزاء من المتهمين بصورة منفرة لا تطاق، واستشاط بعض الإخوان غضبًا وقرروا الرد على بذاءته بأسلوب مناسب، مهما كلفهم الأمر من تضحيات..

سألت أحمد حامد قرقر عما جرى، فقال: « سألنى القاضى عن سبب ممارستى لنشاطى الدينى،

مع أن الحكومة قد أصدرت قرارًا بحل الإخوان المسلمين، فكان جوابى أننا لا نعترف بقرار الحل، إننا لم نأت بقرار لنلغى بقرار.. هاج القاضى وماج.. وسب ولعن.. فأفهمته أن هذا لا يليق برجل مثله فى مكانة القضاء المقدس.. ولم يكن ليقبل أن أوجه إليه النصح والإرشاد.. فصحت فى وجهه: لو بقيت قطرة دم منا لظلّت تهتف « الله أكبر ولله الحمد » ..»

وسألت محمد أنور رياض فقال: « لقد فوجئت باللواء حتاتة يقول لى فى بجاحة شكلك مثل شكل الخولات.. اشتعل جسدى من الغضب.. قلت له فى تحد: احترم الكرسى الذى تقعد عليه يا سيادة القاضى ..»

بإيجاز كان الحوار فى المحكمة يدور حول بطلان قرار الحل، وحق الشعب فى التعبير عن رأيه، والالتزام بالإسلام شرعة ومنهاجًا، وبطلان السلطات الاستثنائية، والمحاكم العسكرية، وضرورة التقيد بالقوانين الصحيحة، والإجراءات الجنائية السليمة، وكفالة كل الحقوق الإنسانية التى يجب أن يتمتع بها المتهم، كما قام بعض المتهمين بخلع ملابسهم أمام القاضى وإظهار آثار التعذيب كالسياط والحرق بالنار وخلع الأظافر وغيرها.. وذهل المتهمون إذ رأوا القاضى يعلق بعبارات سمجة ساخرة..

إن هناك لحظات نادرة قد يرى الإنسان فيها أن الموت أفضل من الحياة.. لقد يئس الذين آمنوا من عدالة المحكمة تمامًا، ورأوا أن يقذفوا فى وجهها بالحقيقة دون خوف.. ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا.﴾.

لقد كان السكوت والاستسلام سمة عامة فى هذا المكان الموحش الرهيب، لكن فئة من الرجال المؤمنين أبوا إلا أن يصفعوا وجه الطغاة بالحقيقة والصدق، وذرفنا الدموع من أجلهم.. والغريب أن هؤلاء الإخوة حظوا باحترام الجلادين أنفسهم، فقد وقع أمامى حادث صغير لا أنساه.. كنا نجلس على الأرض طابورًا فى انتظار التوزيع الجديد، وجاء الجاويش أمين رائد التعذيب الأول فى السجن الحربى، ولما رأى « المرحوم أحمد حامد قرقر » جالسًا معنا، اقترب منه، وصافحه بحرارة وقال: « أنت رجل يا قرقر.. لا يوجد فى مصر كلها عشرة مثلك.. أنت بطل ..» ثم نادى بأعلى صوته قائلًا: « يا عسكرى.. هات شاى لقرقر ..»

واحمر وجه أحمد حامد قرقر خجلًا لما سمعه من إطراء، وأخذ يردد: « العفو.. العفو.. لا بطل ولا حاجة.. المسألة بسيطة ..»

كانت جراح « قرقر » قد التأمت، وعادت الحيوية والنشاط إليه، وأصبح الدرس الذى لقنه لسيادة القاضى المشهور على كل لسان فى المعتقل، سواء العسكر أو الضباط أو قدامى المعتقلين والمحدثين منهم، وكان أحمد حامد قرقر موظفًا، وفى نفس الوقت طالبًا فى كلية التجارة، كما كان متزوجًا، وله طفل واحد ولد قبل دخوله المعتقل بشهور اسمه « مورو »، ولعله سماه بهذا الاسم تقديرًا لما بذله الدكتور عبد الوهاب مورو باشا مدير جامعة القاهرة من جهود رائدة، فى مساعدة الفدائيين الجامعيين إبان معركة القنال، وتأصيله لمعانى الحرية والتضحية أثناء ولايته بالجامعة..

وحكم على « أحمد حامد قرقر » فيما بعد بالأشغال الشاقة عشر سنوات، ثم نقل إلى « ليمان طره » مع عدد من إخوانه، حيث قتل بعد ذلك بحوالى عامين داخل السجن فى حادث طره الشهير الذى دبرته حكومة الرئيس ضد المسجونين من الإخوان وراح ضحيته واحد وعشرون سجينًا، وقد

صدرت بعض المؤلفات عن هذا الحادث البشع.. وأخذنا ننتظر صدور الأحكام..

وفى أحد الأيام ساقونا جميعًا إلى المحكمة.. كانوا يطلقون علينا «جهاز يوليو سنة ١٩٥٥» وكان الأمر بسيطًا وسريعًا رغم خطورته..

كنا ندخل واحدًا واحدًا.. وينادى على الاسم.. ثم ينطق اللواء حتاتة بالحكم فى لحظات.. ونودى عليّ، وقلت: «أفندم ..»

وأديت التحية، وأنا أقف «انتباه» حليق الرأس.

وقال رئيس المحكمة: «حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم نجيب الكيلانى عبد اللطيف بالسجن عشر سنوات مع التنفيذ».

أديت التحية، وقلت: «متشكر»، ودرت لليمين طبقا للنظم العسكرية، ثم خطوت إلى الخارج..

قلت لأخى إبراهيم الصياد، وكان قد حكم عليه هو الآخر بالسجن عشر سنوات: «الحمد لله.. سوف نخرج من جحيم السجن الحربى، ونذهب إلى السجون المدنية.. إننى أعتبر الخروج من هنا شبه إفراج ..»

كز إبراهيم على أسنانه فى أسى وحزن وقال: «سوف نبدأ رحلة عناء جديدة.. ستظل الحكومة تلاحقنا حتى الموت.. هذا قضاء الله، ولابد من الرضى به ..»

أما عبد المنعم سليم فقد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة..

وعند عودتى من المحكمة، وبينما كنا نقف طوابير أمام مكاتب التحقيق، جاء أحد ضباط السجن الحربى وهتف باسمى، وردد العسكر اسمى وراءه، فصحت فى دهشة: «افندم ..»، فأخذونا إليه، نظر إلى ثم سألنى عن الحكم الذى صدر ضدى فقلت «عشر سنوات سجن»، فقال: «مع إيقاف التنفيذ؟» قلت: «لا.. بل تنفيذ ..» فلوى شفتيه، وهز رأسه وقال: «مع السلامة»، ولم يكن لذلك من معنى سوى أن أحد الأقارب كان قد كلفه بالسؤال عنى..

بعد الأحكام انتقلنا إلى السجن الحربى الكبير فى جناح خاص، وتم تجميع المحكوم عليهم فى الزنازين المتجاورة استعدادا لترحيلهم إلى السجون المدنية، وقضينا بضعة أيام ننتظر الترحيل، وخلال تلك الفترة التقيت بالإخوة الاساتذة يوسف القرضاوى وعبد الودود شلبى ومحمد الوكيل والأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل وقورى اليهودى.. والبشير الإبراهيمى الجزائرى المبتور اليد..

ومما يجدر الإشارة إليه أن الأستاذ المرشد حسن الهضيبى كان فى بداية هذه الفترة رهين محبسه فى السجن الحربى رقم ٢، وكان يحلو للجلادين أن يمارسوا طقوس التعذيب إلى جوار نافذة زنزانته إمعانًا فى إقلاقه وإيذائه.. لكنهم نقلوه بعدها إلى سجن مصر..

إن المدة التى قضيتها فى السجون الحربية كانت أقل من ثلاثة شهور، لقد دخلت هذا المكان فى الثامن من شهر أغسطس عام ١٩٥٥، وتم ترحيلى منه فى أواخر شهر أكتوبر من نفس العام حسبما أعتقد، وإن كنت لا أتذكر تاريخ الترحيل بالضبط.. هذه الفترة العصيبة كانت حدثًا ضخمًا فى حياتى.. لقد أفقت على عالم جديد.. ورأيت الناس بصورة أخرى.. وكان لابد أن أعيد النظر فى كل شىء.. لم أكن أتخيل أن هناك نوعيات من البشر أشد حماقة وقسوة وشراسة من وحوش الغاب.. إن أشياء كثيرة عن البراءة وحسن النية تنزوى أو تضمر فى داخلى.. وأخذت أتساءل: لماذا هذا العناء؟ وهل للعدالة صور متعددة؟ لمن الملك؟ ومع من الحق؟ ولماذا يطغى الطغاة، ويقسو الجلادون؟ لماذا لا نتحاور بدلًا من أن نتحارب؟ ولماذا لا نتفاهم بدلًا من أن نقتل أو نسيل الدماء؟ ولماذا ينجرف الناس لتيار

الهوى، ويميلون مع القوة، ويرهبون السلطان ويلغون إرادتهم وذواتهم؟ ولماذا الغرور والجشع وسوء الظن؟ ولماذا التمادى فى الانتقام، والقسوة فى العقاب؟ علامات استفهام كثيرة كانت تموج فى رأسى.. ولم أجد لها جوابا شافيًا.. كان لابد من التفكير الطويل، والدراسة، والتأنى، وإعادة النظر فى كل شىء مرة أخرى.. وليس هناك داع للعجلة.. فأمامى عشر سنوات سأقضيها - إذا أراد الله - فى غياهب السجون.. عندئذ ستكون أمامى فرصة كافية جدًا للتفكير العميق، والدراسة المستفيضة..

وصدرت أحكام محكمة الشعب.. وأعيد تنظيم إسكاننا فى السجن الحربى، المحكوم عليهم فى أماكن خاصة، والبراءة فى مكان آخر، أما من أخذوا أحكامًا مع وقف التنفيذ، فقد كانوا فى جهة ثالثة.

وذات يوم نادوا أسماء المحكوم عليهم، وتراصت صفوفهم، وفهمنا أننا على وشك الرحيل.. إلى أين؟ لا ندرى.. وجاءوا بسيارات كبيرة مغلقة.. وتم وضعنا فيها.. وكل سجين مربوط مع شرطى فى قيد واحد.. ودارت بنا السيارات من طرق خارج مدينة القاهرة، كنا نعبر القبور أو المدافن الواسعة.. ومدينة الموتى تبدو كمستعمرة شاحبة متربة، يكتنفها الحزن والأسى.. وانتابنا صمت عميق.. النظرات الشاردة، والضوء الخافت يتسلل داخل السيارات بصعوبة، والجد والصرامة تبدوان على وجوه العسكر، وكأنما قد عافت النفوس الكلام.. وشق الصمت صوت أحد الإخوة فجأة:

« الله أكبر ولله الحمد ..»

الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والجهاد سبيلنا..

والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا..

واشتعلت السيارات المتتابعة بالهتاف الصاخب، وتوترت أعصاب الحراس، وأخذ كبار الضباط يحثون السائقين على الإسراع فى سيرهم، بعد أن فشل تهديهم لنا بالسلاح..

كانت الهتافات مجرد تنفيث عن القهر والكبت والعذاب الطويل.

إن الأيدى مقيدة، والنفوس ثائرة، والظلم تمادى دون رادع، وكان الهتاف « أضعف الإيمان ».

وأمام بوابة سجن القاهرة « قرة ميدان » توقفت السيارات..

كانت الساحة أمام السجن ممتلئة برجال الأمن والشرطة.. ولم يسمح لأحد من عامة الناس أن يتواجد أمام البوابة رغم أن الوقت ضحى، وظلت الهتافات تدوى حتى ابتلعنا جوف السجن الكبير..

وهكذا بدأنا مرحلة جديدة..

***

الجزء الثالث



[١] فى «قرة ميدان»

كان سجن مصر - أو قرة ميدان - كما كانوا يسمونه ، أول سجن مدنى ، أصل إليه مع الدفعة الجديدة من الإخوان ، وكان بالباب الضخم الأسود منفذ يدلف منه الداخلون ، فالباب الكبير لا يفتح فى العادة ، ولكن يفتح هذا المنفذ فقط ، ويضطر الداخل أن ينحنى حتى يمر منه ، لأنه دون قامة الإنسان ، ولا يتسع لدخول أكثر من واحد ، كنا نمضى فى طابور طويل واحدًا واحدًا ، ثم تجمعنا فى الساحة الصغيرة ، وبعدها أغلقوا الباب..

قال أحد الإخوة ساخرًا وسط الجو المتوتر الكئيب: «أيها الداخلون ودعوا آمالكم ..»

ترقرقت الدموع فى عيون البعض ، ولم تنطفىء تلك الابتسامة التى ترتسم على الوجوه الشاحبة رغم ما يجثم على الصدور من آلام ، وصاح الملازم رجائى فى شىء من الحزم والضيق: «لا أريد أن أسمع صوتًا.. فيه هنا نظام ..»

وأخذوا يسجلون أسماء «الوارد» وهو المصطلح الذى يطلقونه على الوافدين الجدد إلى السجن ، ثم سحبوا منا جميع الملابس الخاصة ، والنقود والأوراق والحقائب والكتب وغيرها ، ووضعوها - كما قالوا - فى «الأمانات».. وسلموا كل واحد بدلة زرقاء من الدمور ، وقميصًا كالحًا يميل إلى اللون الأبيض ، وكانت رائحة هذه الملابس تدعو إلى الاشمئزاز ، فضلًا عن أنها ممزقة ، ولا تتفق مع طول وحجم المسجون ، فقد تكون واسعة متهدلة ، وقد تكون ضيقة يصعب إدخال الجسم فيها ، وليس هناك مجال للاعتراض أو الاستبدال ، ثم سيق الجميع إلى عنبر «ج» بالدور الأرضى ، كان العنبر من أربعة طوابق ، وكانت أبواب الزنازين التى وضعنا فيها عبارة عن قضبان حديدية متقاطعة ، بحيث نُرى فى داخلها مكشوفين ، كما أننا نرى الذين يتحركون فى الصالة من سجّانة ومذنبين يتولون غسل الأرض وتنظيفها ، وتسلم كل مسجون منا «بطانية» وبرشًا مجدولًا من سعف النخيل ، ثم حشرنا بطريقة عجيبة فى هذه الزنازين الضيقة ، كل ثمانية فى واحدة ، وعند النوم لم نستطع أن نجد أمكنة كافية ، كان على كل فرد أن ينام على جنبه ، فلا يُسمح بالاستلقاء على الظهر ، وبات من الضرورى أن نرقد «خِلْف خِلاف».. بمعنى أن يكون قدماك إلى جوار رأس من يليك ، وبرغم هذا التنظيم ، فقد بقى واحد منا دون مكان ، ولم يكن هناك مفر من أن يجلس القرفصاء فى ركن من أركان الزنزانة ، وينام على هذا الوضع ، ولكى نتشارك فى حل هذه المشكلة قررنا أن ينام كل واحد منا وهو فى وضع القرفصاء لمدة ساعة ونصف ، ولدى الباب وضع دلو «جردل» للشرب وآخر للتبول ، ولم نجد مكانًا

للأحذية فاضطررنا إلى وضعها فى فتحات الباب بين القضبان، وكانت بقية زنازين الدور الأرضى مشغولة بإخوة مسجونين سبقونا إلى هذا المكان منذ بضعة شهور فيما سمى بقضية «مارس سنة ١٩٥٥»، أما الأدوار الثلاثة الأخرى فكان بها معتقلون مضى عليهم أكثر من عام، لكنهم كانوا يلبسون ملابسهم العادية، ولهم غذاء أفضل من غذائنا، وكثيرًا ما كانوا يتنازلون عن جزء من غذائهم لنا نحن المسجونين، لأن غذاءنا كان رديئًا للغاية، ففى الصباح نأخذ رغيفًا واحدًا صغيرًا وقطعة من الجبن «القريش» لا تكفى ربع الرغيف، وفى الظهر ثلاث ملاعق من الفول المدمس أوالعدس مع رغيف، وفى المساء رغيفًا أيضًا ونوعًا من الخضار المطبوخ المجهول الهوية لا يزيد عن ثلاث ملاعق فى داخله قطعة من اللحم لا تؤكل، لأنها تشبه إلى حد كبير فى قوامها نعل الحذاء!! وكان علينا أن نصبر على هذا الوضع، كما كان الجوع يجعلنا نأكل أى شىء وبسرعة، لكننا كنا نفكر فى حل جذرى لهذه المشكلة المحزنة.

مضت الليلة الأولى قاسية رهيبة، ترى هل يمكننا تحمل هذه الحياة لسنوات؟ كيف؟ وبأية طريقة سوف نقضى أربعًا وعشرين ساعة كل يوم، وليس معنا كتاب أو صحيفة وبدون عمل أيضًا، ونحن نجلس متلاصقين فى هذا الجحر الكئيب؟ وتمر ذكريات الماضى كالأطياف.. كنا فى نعمة لم نكن ندرك عظمتها وروعتها، مجرد المشى فى الشارع كان شيئًا رائعًا، تصفح جريدة - رغم ما فيها من زيف - متعة، قراءة كتاب حياة.. اختيار الطعام الذى يروق لك. شىء هام تكمل به حريتك فى الرفض والقبول.. هناك أشياء صغيرة، قد تبدو فى الحياة تافهة لا معنى لها، لكنها تبدو الآن ذات دلالات ورموز كبيرة..

قال أحد الاخوة: «نحن اليوم فى مقام الصبر».

رد عليه آخر فى ثقة: «وفى مقام الشكر أيضًا..»

قلت معلقًا وأنا أبتسم: «الحمد لله الذى لا يُحمد على مكروه سواه..».

وبعد أن أدينا صلاة العشاء جماعة فى الليلة الأولى، ألقينا بأجسادنا المنهكة على الأبراش الجافية، ودون وسائد، كان الجو باردًا فى المساء، وكانت الملابس والأغطية قليلة، لكن أنفاسنا وازدحامنا، أعطيانا بعض الدفء، ونمت ولم أفق إلا على صوتٍ نَدِيّ أخّاذ لأحد المسجونين وهو يقدم بعض التسبيحات والأدعية تمهيدًا لأذان الفجر.. كان يقول:

لا تظلمنّ إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم شيمته تُفضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك، وعين الله لم تنم

وشعرت بدموعى تنسكب تحت جنح الظلام والصمت، كنت أشعر بحرقة الظلم القاهر، وأشعر أن الانتقام الذى حاق بنا فوق ما يتصوره عقل، لم يكن هناك مبرر لما اتخذوه ضدنا من إجراءات عنيفة، ولا لما نعامل به من إهمال غريب، ولم نستطع الوضوء، لأن كمية الماء المتوفرة لدينا تكفى بالكاد للشرب، ولهذا أشار علينا أحد الإخوة بالاستعاضة بالتيمم عن الوضوء، وكانت أصوات الأئمة المصلين تنبعث فى عرض العنبر داخل جميع الزنازين فى خضوع وخشوع، وكانت كلمة «آمين» أثناء قنوت الصلاة تتردد عالية قوية في إلحاح، وما إن انتهنا من الصلاة حتى بدأنا الختم وقراءة المأثورات بصوت جماعي، حتي يشترك الذين لا يحفظون الأوراد مع الذين يحفظون، والمأثورات مجموعة من الأدعية والتسبيحات والآيات أو ذكر الله، جمعها - المرحوم الشهيد - الإمام حسن البنا فى كتاب

صغير مختارًا أصح الروايات فيما ورد عن رسول الله ، وقد انتشرت هذه المأثورات بين الإخوان منذ سنوات طويلة ، والواقع أن المأثورات من خير ما ورد فى هذا الباب ، إذ إنها ملتزمة بشروط العقيدة الصحيحة ، وبعد الانتهاء من المأثورات تناولنا طعام الإفطار وهو عبارة عن رغيف وقطعة صغيرة من الجبن « القريش » كما أسلفنا ، ولجأ بعضنا إلى النوم مرة أخرى ، بينما أخذ البعض الآخر يتلو القرآن بصوت خفيض ، ولم يكن قد سمح لنا بالمصاحف بعد ، ولهذا كنا نستمع إلى حفظة القرآن منا ، وفى السابعة حضر سجانة النهار ، وخرج خفر الليل ، وساد العنبر قدر من الضجيج مبعثه أولئك المساجين الذين أحضروا لتنظيف صالة العنبر ودورات المياه فيه ، وهم من المحكوم عليهم فى قضايا أخرى غير سياسية ، كان جاويش العنبر « إبراهيم » رجلًا هادئًا رزينًا طيبًا ، ويختلف أشد الاختلاف عن شياطين السجن الحربى من العسكر المجندين قساة القلوب ، وأصبح من الواضح أن المعاملة فى « قرة ميدان » - أو سجن مصر - معاملة معقولة ، وتختلف تمام الاختلاف عن المعاملة الشاذة فى السجن الحربى ، والجاويش إبراهيم رجل قليل الكلام ، لا يجيب على الكثير من أسئلتنا حرصًا منه ، ولكى لا يقيم علاقات مع أحد ، وبذلك يدرأ عن نفسه الشبهات ، وإذا تكلم فإنه يدعو لنا بالنجاة ، وينصحنا بالطاعة ، وعدم مخالفة الأوامر ، لأن وضعنا شائك ودقيق ، ويختلف عن وضع باقى فئات المسجونين ، ويذكرنا دائمًا بأن الحياة فى السجن لها طابعها الخاص ، وأن التمرد أو عصيان الأوامر يعنى كارثة كبرى ، وهو حريص على مصلحتنا ، لأننا كما يقول « ناس طيبون.. وبتوع ربنا » ، وكان لكلماته صدى حسن فى نفوسنا ، وقد سمح لبعض إخواننا من السجناء القدامى الذين سبقونا إلى هذا السجن ، بالاتصال بنا من خلال باب الزنزانة المغلق ، فشرحوا لنا الوضع فى السجن ، والنظام المعمول به ، وأرشدونا إلى ما يجب عمله ، كما قدموا لنا بعض المعونات الطبية البسيطة كأقراص الاسبرين ، وأدوية المغص أو الإسهال ، وقطرات العيون والأنف والأذن وغيرها.

وبعد نصف ساعة سمح لنا بالذهاب إلى دورة المياه ، كان عددنا كبيرًا لا يتناسب مع عدد المراحيض - وأظنها ثلاثة أو أربعة - ولهذا تكدسنا فى داخل الدورة ننتظر الدور ، وكانت مهمتنا التخلص مما تحويه جرادل البول وغسلها بالماء ، ثم ملء جرادل الشرب ، ودخول المرحاض لدقائق ، ثم الاغتسال والوضوء ، والعودة بعد ذلك إلى الزنزانة ، ثم عاد السجان إبراهيم لإغلاق الأبواب علينا من جديد بعد حوالى الساعة ، وبعد فترة قصيرة رأينا المعتقلين - سكان الأدوار الثلاثة العليا فى عنبر « ج » - يهبطون الدرج فى صفوف منتظمة ، لقد كانوا خارجين لطابور الصباح اليومى ، حيث يتمشّون فى ساحة السجن بين العنابر ، أو يجلسون فى الشمس ، وأثناء مرور المعتقلين علينا وهم يخرجون إلى الساحة تعرفنا على الكثيرين من إخواننا القدامى ، وتبادلنا التحيات بحرارة وصدق ، لم نستطع أن نتعانق أو نتصافح فقد كان السجانة يضربون نطاقًا حولهم ، ويمنعونهم من الاقتراب من أبواب زنازيننا حتى لا يعلو الضجيج ، أو تعم الفوضى ، وخاصة أن بعض الضباط يرقبون الموقف عن كثب ، لقد شعرت بالارتياح وأنا أرى أخوة لنا يحيوننا ويبتسمون لنا فى ود ، وهم فى حالة نفسية وصحية لا بأس بها ، إننا لم نزل معًا ، ولم تزل قلوبنا تنبض بالحب وبالمعنى الكبير العظيم الذى اجتمعنا من أجله ، إن هذا التجمع الضخم يبعث فينا الدفء والحيوية والأمل ، وكانت الكلمة الشائعة التى نسمعها من الإخوة المعتقلين المارين:

« شدوا حيلكم.. ربنا معكم ..»

والمعتقل لم يصدر ضده حكم ، ولهذا فسوف يخرج من السجن إن عاجلًا أو آجلًا ، أما نحن

المسجونين ، فقد صدرت ضدنا أحكام بالسجن ، والمفروض ألا نخرج إلا بعد انقضاء مدة الحكم ، ولهذا كان المعتقلون يعطفون علينا ، ويسبغون علينا كلمات العزاء والتشجيع ، ومع ذلك فإن نظرة إدارة السجن إلى المعتقلين أو المسجونين سواء ، فكلهم إخوان ، ولا فرق بينهم إلا فى الأحكام الصادرة ضد المدانين فى دوائر محكمة الشعب ، وفى الملابس وبعض الميزات الغذائية لهم.

ولفت نظرى بين المعتقلين رجل طيب يصفق بيديه كما يفعل الرجل الشعبى الأصيل ويرحب بنا فى حرارة ، ويلقى بكلمات تعبر عن الحب والتقدير بالنسبة لنا ، ولم يحاول السجانة أو حتى الضابط أن يمنعه من ذلك ، وحاولت أن أتذكر من هذا الرجل ، لكن حيرتى لم تطل فقد قال أحد الإخوان: « هذا هو الحاج إبراهيم كروم ».

- « ومن يكون الحاج إبراهيم كروم؟ ».

تساءلت ، وعلمت أن للرجل قصة طريفة يعرفها معظم إخوان القاهرة ، فالحاج إبراهيم كروم كان من الرجال القساة الأشقياء ، وكان « فتوة » شهيرًا لحى من أحياء القاهرة العريقة ، استطاع أن يفرض سطوته على قطاع عريض من الناس ، بل وتخطى سلطانه حدود الحى الذى يحكمه إن صح التعبير ، وعلى الرغم من أنه كان يفرض الإتاوات ، ويطيح بالأقوياء ، ويؤدب المناوئين له ، ويريق الدماء ، ويحرق ويدمر ، إلا أن الشرطة كانت تعمل له ألف حساب وتتجنب الاصطدام به وبرجاله ، ويعتبرون العلاقة الطيبة به من وسائل الاستقرار واستتباب الأمن ، كما إن رجالات الأحزاب فى الحى كانوا يجاملونه ويتقربون إليه ، من أجل الانتخابات فى عهد ما قبل الثورة ، ويتسابقون لإنقاذه إذا وقع فى ورطة مع الحكومة ، حتى يكتسبوا رضاه أو تأييده.

وعندما اتسع المد الإخوانى ، وأصبح لحسن البنا تأثير كبير فى الشارع المصرى ، استدعاه أحد رجال الأحزاب ، وعقد معه صفقة ، مؤداها أن يُدفع له مبلغ كبير من المال ، وأن يحموه من بطش السلطة ، وذلك إذا استطاع أن يذهب إلى المركز العام للإخوان المسلمين فى أحد أيام « الثلاثاء » ، أثناء إلقاء المرشد العام درسه الأسبوعى - درس الثلاثاء الشهير - على جموع الإخوان فى ميدان الحلمية ، وأن يعتدى على البنا ، ويفسد الاجتماع ، وكان هذا أمرًا عاديًا بالنسبة لإبراهيم كروم ، فوافق على الصفقة فورًا ، وفى اليوم المعهود أخذ رجاله وسلاحه وقصد إلى « ميدان الحلمية » ، كانت الحشود تجلس على الأرض فى هدوء عجيب ، وكأن على رءوسهم الطير ، وكان الإمام الشهيد يتحدث عن مبادئ الإسلام وأمجاده ، بأسلوبه المؤثر الساحر « إن من البيان لسحرا » ، ولم يكن يقطع هذا المشهد الرائع إلا الهتافات والشعارات المعروفة لدى الإخوان « الله أكبر ولله الحمد.. الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا ..».

وتعلقت عينا إبراهيم كروم بالرجل الطيب الذى يتحدث ، وانجذبت أذناه وقلبه وروحه إلى كلماته ، ونسى تمامًا ما جاء من أجله ، ولم يعد يهتم بلكزات عصابته وهم يذكرونه بالمهمة التى قدموا من أجلها ، وفى لحظة من اللحظات لا يدرى كنهها ، وجد إبراهيم كروم نفسه يهتف مع الهاتفين ، ويردد الشعارات كما يرددها الآلاف ، وما إن انتهى المرشد من حديثه ، حتى اندفع إليه إبراهيم فى حماسة وحب ، ثم احتضنه وأخذ يقبل رأسه ولحيته ، ويحاول تقبيل يديه ، وانفرط دون تحفظ يشرح خطوط المؤامرة التى جاء لتنفيذها ، وكان هذا بداية علاقة وثيقة بقيت حتى استشهد الإمام ، وتاب إبراهيم وودع حياة الدماء والعدوان والخمر والمخدرات والنساء ، وبدأ عهدًا جديدًا من الطاعة والصفاء ، فكان يبدأ يومه فى المسجد بصلاة الفجر ، وينهيه فى المركز العام مستمعًا إلى الأحاديث الطيبة ، بعد أن

أصبح أثيرًا لدى الإمام رحمه الله ، وانصرف أيضًا الحاج إبراهيم - بعد أن حج بيت الله الحرام - إلى التجارة الحلال ، فكثرت أمواله ، واستقام سلوكه ، وأصبح من المشهود لهم بحسن العبادة ، وكرم الأخلاق ، والعطف على الفقراء.. واشتقت للتعرف عليه ، كان - رحمه الله - يعانى من انزلاق غضروفى على ما يبدو ، ولم يجد العلاج المناسب فى المعتقل ، ولهذا كان يعرج فى مشيته البطيئة ، على الرغم من فتوته وبناء جسده القوى.

وتمنينا أن نخرج إلى طابور الصباح مثل باقى الإخوان ، لكننا فهمنا أننا فى فترة « العزل » وسوف يسمح لنا بذلك بعد فترة ، ولهذا كانت الفترة التى نقضيها فى الزنزانة يوميًا - وهى ما يقرب من ثلاث وعشرين ساعة - ثقيلة مملة على نفوسنا ، لكننا كنا نلجأ إلى مناقشة بعض الأمور الدينية أو الأدبية أو السياسية ، كما كنا نستمع إلى بعض الدروس المتخصصة من الإخوة ذوى التخصصات ، فالطبيب يحدثنا عن الأمراض والوقاية منها وعلاجها ، وميكانيكى السيارات يشرح لنا تركيب ماكينة السيارة والخلل الذى تتعرض له ، والمحامى يحدثنا عن القانون ، ويعقد مقارنات بين القوانين الوضعية والسماوية ، والمفسر للقرآن يتناول بضع آيات بالشرح ، والمحدث يساعدنا على حفظ بعض الأحاديث النبوية الصحيحة ، والذى جاهد ضد الانجليز فى معركة القنال الشعبية ، أو حارب اليهود فى فلسطين يحكى لنا الكثير عن ذكرياته ومعاركه ، وهكذا كان الوقت يمر علينا بسرعة..

وفى المساء يحلو السمر والذكريات الشجية ، وكان الذى يتحدثون عن أطفالهم يثيرون فى نفوسنا الكثير من التعاطف والألم ، وأصحاب الأعمال الخاصة والحرف يذكرون ما أصابهم من خسائر وتعطيل وغرامات تخرب البيوت ، وطلبة الجامعة والمدارس الثانوية وما فى مستواها يذكرون بالحسرة السنوات التى تمر من عمرهم دون استفادة دراسية ، وخاصة أن القوانين الثورية الجديدة لا تسمح للمعتقلين والمسجونين السياسيين بدخول الامتحانات على النقيض تمامًا مما كان يحدث إبان العهد الملكى ، ومعظم الطلبة المحجوزين من الأسر الفقيرة المكافحة التى بذلت الكثير فى سبيل تلقى العلم ، غير أنه من الجدير بالملاحظة أن أصحاب الأعمال الخاصة قد عانوا الكثير من المتاعب الأسرية والنفسية.

وجاء اليوم الذى سمح لنا فيه بالخروج فى طابور الصباح ، كنا نفتح أعيننا بصعوبة فى ضوء الشمس ، ومع ذلك كنا سعداء كالأطفال بالشمس والهواء والمشاهد الجديدة فى ساحة السجن ، وتبادلنا التحيات والمصافحة بحرارة مع الإخوة القدامى ، كان فيهم مجموعة كبيرة من الشخصيات المعروفة ، أساتذة جامعة وأطباء وعلماء فى مختلف الفروع ، كما شاهدت مجموعة صغيرة من الشيوعيين بينهم الأديب القصصى الدكتور يوسف إدريس ، ورأيت المتهم الأول فى قضية « الجبهة الوطنية » لأول مرة وهو المرحوم المهندس محمود عجوة ، وكان هو المسئول عن مكتبة السجن ، ومحمود شاب طيب القلب يتمتع بقوة بدنية خارقة ، وبشجاعة يحسد عليها ، وقضية « الجبهة الوطنية » قضية مضحكة ، فقد قبض على مجموعة متنافرة من الطلبة - أغلبهم من جامعة عين شمس - لاشتراكهم كما قيل فى بعض المظاهرات أو التحريض عليها ، ولم يستطع المحققون أن يكتشفوا أدنى رباط بين أفراد هذه المجموعة ، إذ وجدوا فيهم الإخوانى والوفدى والشيوعى واللامنتمى ، كما بدا واضحًا أنه لا يوجد ما يمكن أن يطلق عليه تهمة ، فما كان من أحد كبار رجال الأمن إلا أن استدرج أحد المتهمين ، وبذل له الوعد والوعيد ، كى يدلى بأقوال تجعل منها مؤامرة يقوم بها هؤلاء الشباب ، والغريب أن إحسان عبد القدوس الصحفى الشهير كان قد قبض عليه قبل ذلك ، وحاول المحققون أن يجعلوا منه المتهم الأول لهذه الجبهة بسبب مقالاته الجريئة فى صحف « روز اليوسف » لكن تم العدول

عن ذلك ، وأفرج عن إحسان عبد القدوس ، واختير المهندس محمود عجوة « طالب هندسة آنذاك » لكى يكون المتهم الأول ، وكان السبب فى وضع هذه التهمة فى رقبته ، أنه أثناء دخوله كلية الهندسة التى تحاصرها الشرطة تعرض له أحد الضباط ومنعه من الدخول ، وكان محمود شابًا انفعاليًا صريحًا ، فاختطف الضابط وحمله على كتفه ، وجرى إلى داخل كلية هندسة عين شمس ، ولما امسك به أحد جنود الشرطة ضغط محمود على أصبع الجندى فكسره.. وأخيرًا وصل إلى الداخل ، وبعدها ترك الضابط حرًا ثم ذهب إلى المدرج لحضور المحاضرات ، وفى المساء قبض عليه فى بيته بشارع الشيخ قمر.. وهكذا سيق إلى المحاكمة ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات.. وكما سبق وشرحنا ، فقد تطوع الزميل « الشاهد مَلِك » بالاستجابة لأوامر رجل الأمن الكبير ، وأدلى بتفاصيل مؤامرة من نسج الخيال ،ونتج عن ذلك الحكم على محمود عجوة ، وعدد من زملائه ، وتراوحت الأحكام بين ١ - ٥ سنوات ، وبالطبع برئت ساحة « الشاهد مَلِك » ، الذى أفشى السر أثناء المحاكمة ، واستطاع بعض أقارب المتهمين تسجيل ذلك الاعتراف الذى أدلى به الشاهد المأجور على شريط ، ثم أخذوه إلى محكمة « الدجوى » عن طريق المحامى الموكل بالدفاع عن عجوة وزملائه ، ثم زعم أنه فقد ، فعاد المحامى فى الجلسة التالية ومعه نسخة أخرى من الشريط ، فحاول رئيس المحكمة التأجيل مرة أخرى لإحضار جهاز لسماع التسجيل ، لكن المحامى كان حريصًا هذه المرة فأخرج من حقيبته مسجلًا حتى يسمع الشريط ، ومع ذلك لم تنفع هذه المحاولة فى تبرئة ساحة المتهمين من المؤامرة الملفقة..

وقضى المرحوم محمود عجوة خمس سنوات كاملة فى سجن مصر أمينا للمكتبة ، وبعد أن أفرج عنه أكمل دراسته فى هندسة عين شمس ، ولما أخذوه إلى التجنيد ، كتب ضد نفسه شكوى قائلًا إنه من الإخوان المسلمين أساسًا وأن فى وجوده بالجيش خطرًا على الدولة ، فسرحوه فورًا ، حيث تم تعيينه مهندسًا للكهرباء فى الإسكندرية ، وقد استطاع أثناء وجوده فى الإسكندرية الهرب إلى ليبيا ، لكنه عاد مرة أخرى إلى الإسكندرية والتحق بنفس عمله بعد أن احتسب مدة الهرب أجازة مرضية ، ولما سألته عن سبب عودته من ليبيا ، وهو الذى كان يحلم بالهروب من مصر ، وكان ذلك عندما التقينا مرة أخرى فى الاعتقال الثانى عام ١٩٦٥ بعد قضية الشهيد الأستاذ سيد قطب الشهيرة قال لى محمود عجوة رحمه الله: « أنت السبب فى ذلك ».

صحت فى دهشة: « أنا؟ كيف؟ »

- « هل نسيت أننى عندما عرضت عليك فكرة الهرب لأول مرة وكنت تزورنى فى الإسكندرية.. هل نسيت أنك رفضت الفكرة ، وأخذت تحدثنى عن حب الوطن ، وضرورة البقاء فيه ، والعمل من أجل رفعته وتحريره من قبضة الظلم ، حتى تتحقق الحرية والتقدم وتسود مبادئ الإسلام ، وذلك لأن مصر تعتبر أهم وأخطر بقعة فى العالم الإسلامى.. وأن... وأن ...»

قلت شاردًا: « نعم أتذكر ....».

قال محمود فى سخرية: « وعندما وصلت إلى ليبيا ، شعرت بالعزلة والضيق والضياع.. وأخذت أفكر فى كلامك.. وبعد أيام من التفكير المضطرب المقلق ، عدت مرة أخرى عبر الحدود إلى الاسكندرية.. وليتنى ما عدت.. إذ لم تكد تمر بضعة شهور حتى حدثت الأزمة من جديد ، وساقونى إلى المعتقل من جديد.. والكارثة أنهم وضعوا عصابة على عينى وأوسعونى ضربًا دون سبب حتى كدت أموت.. والغريب أننى استطعت أن أميز - أثناء الضرب - صوت أحد الضباط وهو من أصدقائى القدامى اسمه « س.ح » ، والأغرب من ذلك أنه كان منتسبًا للإخوان أثناء مرحلة دراسته الثانوية.. ليتنى

ما تذكرت كلماتك وأنا فى ليبيا.. إذن لكنت حرًا الآن ».

قلت له: « هذه أقدار ...».

قال: « أعلم.. ولسوف أهرب مرة أخرى إذ كتب لى الخروج من المعتقل ، ولن أعود أبدًا أبدًا مهما كان الأمر ، حتى ولو حملت قصعة على رأسى.. إن أى شيء أهون من ضياع الحرية ...».

وقد نفذ محمود عجوة وعده بعد ذلك ، فما إن خرج من المعتقل ، حتى اخترق الحدود - لا أدرى كيف - إلى الأردن ، ثم قضى فترة فى الكويت بجواز سفر غير مصرى ، ثم استقر به المقام فى المملكة العربية السعودية ، حيث تزوج فتاة سورية من أسرة طيبة كانت تراسله من قديم ، وكانت هذه الفتاة على علاقة بزوجتى من خلال معسكرات الطالبات المشتركة بين طالبات مصر وسوريا أثناء الوحدة ، ولما قدمت هذه الفتاة - واسمها فاطمة غريب - إلى مصر فى إحدى زياراتها التالية للعلاج زارت زوجتى - قبل زواجنا - وأثناء الزيارة ذكرت عنوان شاب تراسله من قديم ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت أنه نفس عنوان « محمود عجوة » ، وان الاسم اسمه ، وذهبنا معًا لزيارته.. أقول إن محمود تزوج هذه الفتاة فى السعودية ، وعلى الرغم من استقرار حياة محمود وسعادته هناك إلا أن الله اختار زوجه فاطمة إلى جواره أثناء عملية جراحية ، بعد أن تركت له بنتًا ، ثم أصيب محمود بمرض فى الكبد ، تدهورت صحته على أثره ، وسافر إلى لندن للعلاج ، لكنه عاد دون نتيجة ولقى ربه.. ولا أدرى شيئًا حتى الآن عن طفلته..

رحم الله محمودًا ، فقد كان رجلًا صادق النية ، قوى العزيمة ، مؤمنًا بمبادئه أعمق الإيمان ، وقد قضينا معًا سنوات طيبة من أزهى سنوات العمر جهادًا وصدقًا وعطاءً.

ومن الشخصيات البارزة فى وسط المعتقلين الدكتور توفيق الشاوى أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق ، وهو رجل ذو ماض مشرف ، وجهاد متصل ، وقد كان له مع جمال عبد الناصر صداقات عديدة ، من أبرزها ما حدث فى ذلك الاجتماع الشهير بين الرئيس وأساتذة الجامعة ، حيث دافع الدكتور توفيق الشاوى دفاعًا مستميتًا عن الحريات العامة والالتزام بالدستور والقوانين ، وناصره فى ذلك الاجتماع عدد من الأساتذة الفضلاء ، وفى الأيام التالية صدر القرار الخاص بفصل حوالى أربعين أستاذًا وأستاذًا مساعدًا من الجامعة على ما أذكر ، وكان الدكتور الشاوى على رأسهم ، كما كان الدكتور الشاوى من أوائل المعتقلين فى حل الإخوان المسلمين الأول فى عهد الثورة « يناير سنة ١٩٥٤» ، وبعد أن خرج من المعتقل ، كتب فى جريدة المصرى سلسلة من المقالات بعنوان « حقوقك إذا اعتُقِلْت » كان لها صدى واسع بين المثقفين ورجال السياسة بصفة خاصة ، مما أحنق عليه عبد الناصر أشد الحنق ، ثم أعيد اعتقاله - وكذلك إخوته الدكتور محمود والمهندس عمر وإبراهيم - بعد حادث المنشية ، وقدم الدكتور توفيق للمحاكمة ، فصدر ضده حكم مع إيقاف التنفيذ ، لكنه لم يفرج عنه بعد الحكم ، بل وضع مع المعتقلين ، ولما أفرج عنه فى عام ١٩٥٦ سافر إلى الجزائر ، والسبب فى ذلك أنه كان على صلة وثيقة بكبار أعضاء جبهة التحرير الجزائرية ، فعمل مستشارًا لهم ، وظل على رأس عمله حتى دب الخلاف بين القادة وكان الدكتور توفيق حريصًا على لم الشمل بينهم ، وخاصة أنه يحمل إعزازًا وتقديرًا خاصًا لبعضهم مثل خيضر وآية أحمد اللذين أبعدا ، فترك الجزائر وعمل مستشارًا لفترة مع الملك الحسن ، ثم استقر به المقام أخيرًا فى المملكة العربية السعودية مستشارًا للمرحوم الملك فيصل حتى وفاته ، وقد تجنس بالجنسية السعودية ، وطوال تلك الفترة أصدر عددًا من الدراسات السياسية والاقتصادية والعلمية ، وكانت دراساته الاقتصادية هى اللبنات الأولى فى إقامة البنوك الإسلامية

المعاصرة وعلى رأسها بنك فيصل الإسلامى ، كما اهتم بالتعليم الحديث وأسلحته ، فأنشأ مدارس « المنارات » الشهيرة فى شتى أنحاء المملكة العربية السعودية وهى مدارس خاصة ، ولها مناهج إسلامية متميزة متطورة ، أنتجت نخبة من التلامذة الممتازين ، كما انتشرت هذه المدارس بمناهجها فى بعض الدول الافريقية والأسيوية. وساهم كذلك فى إنشاء مدارس بأوروبا وأمريكا على نفس النمط ، حتى مدارس اللغات الأجنبية الخاصة في السعودية وغيرها التزمت نفس المنهج ، ولهذا اختير أمينًا عامًا للاتحاد العالمى للمدارس الإسلامية ، كما أصدر كتابًا هامًا عن الميكافيلية فى السياسة العربية تحت اسم مستعار وهو « محمد صادق ».. وغير ذلك من الدراسات الحيوية المعاصرة ، وما زال يعمل بجد ونشاط على الرغم من أنه فى العقد السابع من عمره المديد إن شاء الله ، ويجب أن نشير هنا إلى أن الدكتور الشاوى كان على علاقة وطيدة بالكثيرين من فقهاء القانون كالسنهورى رحمه الله ، ومن رجالات الفكر والسياسة لا على مستوى مصر وحدها ، ولكن على مستوى العالم العربى والإسلامى..

ولكم عانى الدكتور توفيق إبان الفترة التى قضاها فى السجن الحربى بعد حادث المنشية ، فقد كان يضرب ويهان ويمسح بلاط السجن « بالخيشة » ، أما أخوه محمود الطبيب فقد حكم عليه بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة قضى فترة طويلة منها فى ليمان طرة ، وكان يقطع الصخر بالجبل ، كما حضر حادث إطلاق الرصاص على المسجونين من الإخوان فى نفس السجن، والذى راح ضحيته واحد وعشرون أخًا بالإضافة إلى العشرات الذين أصيبوا بجراح ، ولم يحكم على الأخوين الآخرين إلا بالاعتقال. كذلك كان من المعتقلين فى سجن مصر الدكتور محمود أبو السعود وهو من علماء الاقتصاد الإسلامى البارزين ، والشيخ مصطفى العالم ، وقد استوطن الأول بعد ذلك أمريكا وأوروبا ، أما الثانى فقد عاش بقية حياته فى السعودية ، وهناك غيرهما كثيرون لا ترد أسماؤهم إلى ذهنى الآن.

لم تحدث منغصات تذكر خلال الفترة القصيرة التى قضيناها فى « قرة ميدان » اللهم إلا تلك الليلة التى أصر فيها إخواننا القدامى من المسجونين بالاحتفال بنا على طريقتهم ، فقد أخذوا يرددون وهم فى زنازينهم بعض الأناشيد الإخوانية التى تتناول موضوع الجهاد فى سبيل الله ، والتضحية فى سبيل المبدأ ، والتنديد بالظلم والدكتاتورية ، وكان لهذه الأناشيد وقع طيب فى نفوسنا ، لكننا فوجئنا بباب العنبر يُفتح ويدخل منه الضابط « النوبتجى » ، وحوله كوكبة من حرس الليل « خفر الليل » ، ثم يخرجون بعض الإخوان من زنازينهم ، ويعتدون عليهم بالضرب وبالعبارات النابية..

كما كنا نفاجأ من وقت لآخر بحملات تفتيشية يقودها أحد الضباط ، ومن الطريف أنه كانت هناك « كلمة سر » يعرفها المسجونين جميعًا ، فعندما تهجم فرقة التفتيش يصيح أحد المسجونين بصوت عالٍ « خَشَب » ، فيسرع الجميع بإخفاء ما معهم من ممنوعات ، وهى أشياء تبدو تافهة مثل القلم - الورق - شفرة الحلاقة - عملة مالية.. الخ لأن حيازة مثل هذه الأشياء تعنى العقوبة المقررة فى لائحة السجون المدنية وهى تتراوح بين عزل المسجون فى التأديب ، والجلد على « العروسة » ، وعزل المسجون فى التأديب تعنى أنه لن يصرف له غير وجبتين أى رغيفين فى اليوم وقليل من العدس أو الفول وبطانية وبرسن ، ولا يسمح له بلبس الحذاء ، والجَلد يكون بحكم يصدره مدير السجن ، ثم يرفع إلى مدير مصلحة السجون لاعتماده ، ويظل المسجون حبيس السجن الانفرادى حتى يأتى الرد مهما طالت المدة.. ولقد حدث التفتيش الأول ، وكانت مشكلتى الكبرى هى أننى كتبت قصيدة شعرية عن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمرود الذى كان يحكم « بابل » ، ثم تعرضت لرمى نبى الله فى النار ، وكان واضحًا أن القصيدة ذات مرامٍ وأهداف سياسية ودينية ترتبط بالواقع الذى نعايشه.. فماذا أفعل؟

لو عثروا على هذه القصيدة بين طيات ملابسى لكان ذلك بمثابة كارثة ، فسوف يرسلونها إلى المباحث العامة ، وسيقومون بدراستها وتحليلها ، ولا أعرف بالضبط ما سوف ينزل بعد ذلك عليّ من مآس.. وتلفت حولى ، هل أقذف بها من النافذة الصغيرة ذات القضبان المتقاطعة؟ إنه ليعز عليّ أن أفقدها للأبد ، وأخيرًا اكتشفت أن مقبض دلو البول به تجويف صغير ، فأسرعت بحشر الوقات فيه ، وعندما دخل السجانة زنزانتنا للتفتيش كان أول شيء فعلوه هو حمل « الجرادل » إلى الخارج حيث وضعوها فى دورة المياه ، والحمد لله مر التفتيش بسلام ولم يعثروا لدينا على شيء ممنوع.. وبعد أن انتهى التفتيش ، وانجابت الغمة ، وفتحوا لنا الأبواب كى نذهب إلى دورة المياه ، أسرعت لأفحص مقابض الجرادل الكثيرة المتراصة ، كانت « الدورة » مكتظة بالإخوان ، ولم أعثر على القصيدة ، وحزنت لذلك حزنًا شديدًا.. إنها أول ترجمة لمشاعرى بعد تلك الشهور القاسية من العناء ، وعدت إلى الزنزانة كسيف البال ، وأخذ الإخوة يواسوننى بكلمات فيها الكثير من المزاح ، وبعد ساعة جاء أحد الإخوة من المسجونين القدامى ووجه حديثه إلى: « هل هذه لك؟ ».

نظرت إلى يده المطبقة قليلًا ، كان حذرًا حتى لا يراه السجان ، وفهمت على الفور إنها قصيدتى ، وعلمت أنه وجدها ملقاة على أرض دورة المياه وسط البلل وتحت الأقدام ، ولما رآها شعرًا رجح أنها ربما تكون لى ، فأنا المعروف بينهم بكتابة الشعر ، وفرحت أيما فرح بهذه الأبيات التى كتبتها بحرارة لتعبر عن أحوالنا ووضعنا ، وعلى الرغم من أن القصيدة الطويلة كانت تتحدث عن ظلم النمروذ لخليل الله إبراهيم عليه السلام ، إلا أننى كنت أضع نصب عينى وأنا أكتبها قصة الإخوان والثورة ، والقسوة البالغة ، والظلم الفادح الذى وقع علينا بأمر جمال عبد الناصر ، ولم أكن فى هذه المرحلة الأولى من سجنى أرى من الحكمة أن أكتب صراحة عن ظلم الحاكم ، فكنت أتستر وراء الرموز التاريخية وغير التاريخية ، لأن التصريح آنذاك معناه الموت لى ، أو على الأقل مزيد من التعذيب وزيادة سنوات الحكم الصادر ضدى ، ووضع اسمى فى أشد القوائم سوادًا ، ومعناه أيضًا ألا أخرج من السجن أبدًا حتى ولو انتهت مدة السجن القانونية التى أصدروها ضدى ، ولم تنشر هذه القصيدة فى الدواوين التى صدرت لى بعد ذلك ، ولكنى أتذكر منها بضعة أبيات ، منها أبيات عن سيدنا إبراهيم وهو ملقى فى النار أقول فيها:

يا خليل الله بالحب انثني ... كل جَوْرٍ ، وانطوى كل عتيدْ
إن من ألقاك للناس هدي ... هو حاميك من البأس الشديد
فليدبر ظالم ما يشتهي ... وليكد بالشرّ فيهم من يكيد

كما قلت فى نهاية القصة القصيدة وأنا أتصور « بابل » عاصمة القهر آنذاك:

أبعثُ الطَرْفَ إلى « بابلهم » ... عاد لى الطرف برسم الطَلَلِ
عين فأبكى من بغى أو من طغي ... عَلَّلَ الظلم بشتى العِلَلِ
إنما الناس على أيامنا ... هم كما كانوا بعصر الجَمَلِ

أقول كان التعبير الأدبى بصراحة عن مظالم الحكم باهظ التكاليف ، قليل الجدوى ، فما نكتبه لن ينشر فى الصحف خارج السجن ، أو يصدر فى مطبوعات ، لأن حرية التعبير كانت مفتقدة تمامًا ، وأقصد بها حرية الأقلام المعارضة ، ولقد بقيت فترة طويلة حتى بعد خروجى من السجن أتخذ نفس الأسلوب فى التستر وراء الرموز التاريخية ، ولهذا فإن كتاباتى التاريخية لم تكن هروبًا إلى الماضى ،

أو عجزًا عن مواجهة قضايا العصر ، ولكنها كانت تعبيرًا عن أزمة وواقع ، وكانت إسقاطًا لانحرافات العهد الذى نعيشه ، ولقد تقدمت خطوة أخرى حينما تناولت قضايا ومشاكل معاصرة فى قصص يستطيع القارىء المتعمق أن يعرف ما وراءها من رموز وقضايا خطيرة وإنى لأذكر أننى ذات مرة كتبت قصة قصيرة لمجلة الرسالة فى أوائل الستينيات من القرن العشرين ، وكان عنوانها « البحث عن منى » وكان موضوع القصة رجلًا عجوزًا متسولًا ضعيف البصر ، تقوده طفلته الصغيرة الجميلة « منى » وهو يتسول رزقه فى الشوارع ، وذات مرة أرسل الشحاذ ابنته لتشترى له رغيفًا وطعمية ، وفى فترة غيابها انتزعه الشرطى من مكانه ، وساقه إلى قسم الشرطة بتهمة التسول ، ولم يستجب الشرطى لضراعات العجوز كى يصبر قليلًا حتى تعود الطفلة.. وهكذا ذهب العجوز إلى السجن.. وضاعت منى.. وخرج العجوز بعد الشهر الذى حكم عليه به من السجن ليبحث عن طفلته.. كان يلح فى البحث دون جدوى.. ويذرف الدموع.. لكن كان واثقًا دائمًا أنه سوف يجد منى حبيبة قلبه ، والمتسولون فى العادة يحكم عليهم بالقائمة.. كأن يصدر الحكم على عشرين أو ثلاثين منهم دفعة واحدة.. والسجن يكون لفترة قصيرة.. وإذا عاد للتسول تزداد العقوبة قليلًا كل مرة.. إن مشكلة المتسولين مشكلة غريبة فعلًا..

أقول عندما سلمت هذه القصة للأستاذ الشاعر الدكتور عبده بدوى لنشرها ، قال لى بعد أن قرأها: « هذه قصة خطيرة.. ونشرها فى مجلة حكومية أخطر.. سوف أقنع الأستاذ أحمد حسن الزيات بنشرها.. وربما يسلّم ..»

كان واضحًا أن الصغيرة الجميلة المسكينة « منى » ما هى إلا رمز للعدالة الضائعة.. وهناك قصة قصيرة أخرى نشرتها فى جريدة « المساء » إسمها « القافلة » تنحو نفس المنحى ، وعشرات القصص القصيرة الأخرى ، وعدد من الروايات أذكر منها رواية « ليل وقضبان » والتى صدرت فى طبعتها الأولى تحت اسم ليل العبيد ، وقد أخرجها أشرف فهمى للسينما ونالت جائزة مهرجان طشقند الدولى الأولى ، وعلى الرغم من أن أحداث الرواية تصور مدير السجن وجبروته ، إلا أنها ترمز بصورة واضحة إلى انطباق صفات المدير على أى حاكم جائر.. وقد استطاع أشرف فهمى أن يبرز ذلك بصورة واضحة مقنعة فى آخر الفيلم السينمائى « ليل وقضبان ».

لكننى لم أستطع اللجوء دائمًا إلى هذه الحيل الفنية ، فعندما كتبت دراستى الإسلامية عن « الطريق إلى اتحاد إسلامى » كان الأمر مشكلة مؤكدة ، خاصة أن الوقت الذى كتبت فيه هذه الدراسة كان مشحونًا بالدعوة إلى القومية العربية ، ولهذا صادرت الرقابة كتابى ، ولم يكن بالقاهرة منه سوى عدد محدود من النسخ لأنه كان صادرًا عن « دار النور » بطرابلس ليبيا « ١٩٦١ ».. كما صادرت الرقابة قبل ذلك كتابًا للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة عنوانه « الوحدة الإسلامية ».

ومن حسن الحظ أن مساءلتى حول هذا الموضوع أمام المباحث العامة كانت مساءلة سريعة ، ولم يجر علىّ مشاكل تذكر ، وحدث نفس الشىء بالنسبة لكتابى « الإسلامية والمذاهب الأدبية » ، لكن الأخطر من ذلك حينما تجرأت وكتبت نقدًا للميثاق من وجهة نظر إسلامية ، فى مجلة الاعتصام التى تصدرها الجمعية الشرعية ، كما كتب الدكتور محمود فايد دراسة شاملة حول الميثاق أيضًا فى نفس العدد ، ونتج عن ذلك وقف صدور المجلة لفترة ، على الرغم من أن النقد الذى كتبناه كان هادئًا ومتزنًا ، ويستشهد بفقرات من الميثاق نفسه لتأييد وجهة نظرنا ، وأذكر أيضًا أننى كتبت وأنا فى السجن قصيدة بعنوان « خواطر سجين فى عيد الأم » ، ونشرتها مجلة الرسالة الجديدة التى كان يرأس تحريرها المرحوم الأستاذ يوسف السباعى ، لكنهم غيروا العنوان وكتبوه « الأم ».

ولقد بدأت هذه القصيدة بالمقطوعة التالية:

خَبَت في غمرة الآلام والبؤس تراتيمي
وجفّت نضرة الأحلام من عصفٍ وتحطيم
فلا كأسي بمترعةٍ، ولا رنّت تقاسيمي
أساقي الليل أوهامي وأحزاني وتسليمي

وقلت موجهًا الخطاب لأمي رحمها الله:

تعالي عانقي شوقي، فقد طالت بنا الغُربة
وما زال الزمان الجَهْمُ يشعل بيننا حربَه
وهل سيضيع يا أماه عبدٌ قاصدٌ ربَّه؟

إلى أن قلت في آخر القصيدة:

ليالٍ كنت يا أماه أهواها وتهواني
وأمرح في مفاتنها بأفراحي وأشجاني
وعقلي الطفلُ يا أماه وشّاها بألوانِ
مضت.. لم يبق لي منها سوى الذكرى.. وسجاني

وكانوا يقرءون هذه القصيدة الطويلة لأمي فتبكي بكاء مرًا، وتجلس في الفجر فوق سطح منزلنا الريفي بالقرية، وتضرع إلى الله بدموعها كي يفرج عني. وكان واضحًا أن نشر مثل هذه القصص أو القصائد في المجلات أو الصحف حتى وأنا سجين كان بسبب النظر إليها نظرتهم إلى نص أدبي مجرد لا شأن له بالسياسة لكنني مع ذلك كنت في سجني أكتب الكثير من الأدب المعارض الصارخ، ولا أنشره في الخارج، بل كنت أكتفي بقراءته بين زملائي المسجونين، وقد حدثت لي مشكلة عويصة بسبب ذلك، عندما وقع مخطوط شعري لي في يد أحد الضباط ولعلي أتعرض لهذه الحادثة في حينها.

❁❁❁

[٢] على أسيوط



فى الإمكان أن أسمى الفترة القصيرة التى قضيناها فى سجن مصر فترة استجمام لحد ما ، إذ لا يوجد فيه سياط وزبانية وتحقيق ودماء ، على الرغم من رداءة الطعام ، وعدم مغادرة الزنازين إلا فى الأيام الأخيرة ، ولقد فوجئت بالسجان يهتف باسمي ذات صباح فأصابنى القلق والتوجس ، إن استدعاء السجين أو المعتقل مرتبط فى الذهن دائمًا بما لا تحمد عقباه ، والسجين السياسى يتوقع الشر والأذى دائمًا ، إن سوء النية المزمن بين السلطة والمعارضة حقيقة أصلية فى مشاعر الطرفين ، وخاصة الطرف الأضعف المظلوم الذى لا يملك بيده قوة مادية أو قانونية لحماية نفسه أو حقوقه ، ففى هذا الزمن لا حقوق لصاحب الرأى المعارض ، فهو متهم دائمًا بالخيانة والغدر والعقوق والتمرد ، ولعل السبب فى ذلك أن السلطة كانت تلجأ دائمًا إلى أحط الوسائل وأشنعها وأقساها للانتقام من أصحاب الرأى المخالف ، وهذه أعراض عامة لكل أنماط الحكم الديكتاتورى أو الفردى ، لأنه قائم أساسًا على القهر والتوجس وعدم الثقة بالآخرين ، وقائم أيضًا على غرور السلطة بقوتها وتوجهاتها الجائرة.

أقول الحقيقة.. لقد دق قلبى من الخوف ، وبدا الشحوب على وجهى ، وأدرك أخى السودانى « الدكتور أبو بكر عثمان » ذلك ، فقال: « سلّم الأمر لله.. خير إن شاء الله ».

قلت فى أسي: « ماذا أفعل لو أعادونى إلى السجن الحربى مرة أخرى لاستكمال تحقيق من التحقيقات؟ .. »

قال بهدوء وهو يبتسم ، وكانت ابتسامته النقية دائمة: « لا أعتقد.. ومع ذلك ، فالأمر لله ما شاء يفعل .. »

لم يكن فى إمكانى أن أنفى عن نفسى القلق الذى يساورنى ، ومضيت مع الجاويش إبراهيم مستسلمًا ، فتح باب العنبر « ج » بمفتاحه الضخم ، وقطعنا الفناء الواسع ، ووقفت حافى القدمين أمام الضابط الذى بدا مجاملًا رقيقًا.. سمعته يقول: « آسف يا ابنى.. البقية فى حياتك .. »

فهتفت وقد ازدادت ضربات قلبى عنفًا حتى كدت أسقط: « من؟ ».

قال: « جدك الحاج عبد القادر الشافعى.. توفى أول أمس.. وأرسلوا إليك برقية فى السجن .. ».

خفضت رأسى قائلًا: « حياتك الباقية .. »

وانسكبت دموعى بهدوء.. لم يزل لدى بقية من الدموع.. رحمك الله يا جدى الحبيب.. كان عطوفًا وكريمًا.. علمنى كيف أن العطف والكرم من قيم الحياة الرفيعة.. وكان محترمًا.. وعلمنى كيف أن التزين بالاحترام ثقة ورجولة.. وكان كثير القراءة للقرآن ، ويشجعنى كلما حفظت سورة أو ختمت ختمة.. علمنى حب القرآن.. وكان حكمًا عدلًا يلجأ إليه المتخاصمون والمتنازعون ، وكان حكمه

العادل يشيع الحب ويمحو الكراهية ، ويقارب بين النفوس المتباعدة..

أفقت على يد الجاويش إبراهيم وهو يربت على كتفي: « تعال إلى العنبر ..».

وعدت وأنا لا أكاد أرى ما أمامى ، وقال الجاويش: « لقد ارتاح.. كلنا سنموت.. نحن كالمسافرين فى قطار.. ولكل واحد محطة ينزل فيها.. وفى آخر الخط يفرغ القطار ..».

عندما وصلت إلى الزنزانة سمعت إخوانى يقدمون لى كلمات العزاء الرقيقة ، حتى الزنازين المجاورة تناهت إلى منها كلمات المواساة ، لا شك أن أحد السجانة قد أخبرهم.. وجلست فى ركن الزنزانة محتقن العينين.. كان الحيز الضيق الذى نحشر فيها ملفعًا بالصمت ، واستعاذ أحد الإخوة بالله من الشيطان الرجيم وبسمل ثم أخذ يتلو سورة ياسين بصوت مؤثر..

وحان الوقت الذى يسمح فيه لأهلنا بزيارتنا حسب اللائحة ، وتقاطر الأهالى من أحياء القاهرة لزيارة ذويهم المسجونين ، فكلفت أحدهم بأن يطلب من أخيه أن يرسل خطابًا لأبى يشرح له فيه إجراءات الزيارة الخاصة.. والزيارة الخاصة تحدث مرتين فى العام تقريبًا ، وفيها يجلس السجين مع اثنين من أهله لمدة ربع ساعة فى الزيارة الواحدة ، أما الزيارة العامة فتحدث كل شهر ، ويكون بين السجين وأهله حاجز سلكى لا يسمح بالتلامس ، وهى فى حدود عشر دقائق.. وقد تسلم أبى الخطاب بالفعل ، وسرعان ما اتخذ العدة لزيارتى فى سجن القاهرة ، ولم أكن أتصور أن يحدث الأمر فى غضون أيام قليلة ، وعندما سمعت اسمى فى كشف الزيارة فى أحد الأيام أصابنى الارتباك ، كانت لحيتى طويلة كثة ، وكنت مشفقًا أن يرانى أبى لأول مرة على هذه الصورة ، فأسرعت إلى أحد الإخوة كى يحاول تهذيبها أو حلقها ، لكن الأدوات المطلوبة لذلك لم تكن متوفرة.. وابتسم الدكتور أبو بكر عثمان قائلًا: « اللحية سنة فلماذا تريد التخلص منها؟ ».

وذهبت إلى غرفة الزيارة.. فترة طويلة مضت دون أن أرى أبي!! ترى ماذا ستكون مشاعره فى هذا اللقاء الأول؟ ماذا سيفعل عندما يرانى فى بدلة السجن الزرقاء ، وتلك اللحية الكثة الطويلة السوداء؟ وهل سيعقد مقارنة بين هذا الرداء الأزرق ورداء الأطباء الأبيض؟ دعوت فى نفسى الله قائلًا: « يا رب هوّن عليه مصيبته »

كنت أفكر فى أبى أكثر مما أفكر فى نفسى ، إن لدى من اليقين والرضى بقضاء الله وقدره ما يكفينى ، ولقد قطعت شوطًا فى التجربة المرة الأليمة حتى اعتدتها ، وأصبحت أمرًا مسلمًا به ، والأمور تسير بصورة شبه طبيعية ، أما أبى فإن الأمر قد يختلف عندما يرى ولده الأكبر الذى كان يعول عليه كثيرًا ، وقد فقد مكانه فى كلية طب القصر العينى ، وأصبح فى عداد المسجونين..

دخلت غرفة الضابط الذى سيحضر للإشراف على الزيارة ولمراقبتنا أساسًا ، كان أبى يجلس مرتديًا جلبابه الصوفى الأزرق وعمامته ، وكان إلى جواره خالى الحاج محمد عبد القادر الشافعى فى زى مشابه ، لم يلفت نظرهما دخولى ، فهما لم يتعودا على هيئتى الجديدة: ملابس السجن الزرقاء المصنوعة من قماش الدمور الرخيص المصبوغ الكالح ، وطاقية السجن المميزة ، ثم اللحية الكثة الطويلة ، وألقيت السلام واقتربت منهما مصافحًا ، أسرعت بتقبيل يد أبى ومعانقته فى حرارة ، وهو ذاهل لا يكاد يصدق عينيه ، كان ينظر إلى فى دهشة وحيرة ، وصافحت خالى وتعانقنا أيضا ، ثم جلست بينهما بعد أن حييت الضابط المسئول وشكرته ، وجلسنا صامتين لفترة قصيرة ، كان انفعالى عنيفًا والدموع

تخنقنى لكنى كنت أتكلف الابتسام..

قال أبى مستغربًا: « لماذا تلبس هذا الزي؟ »

- « ذلك نظام السجن يا أبى.. فلابد أن يلبسه كل محكوم عليه ..»

قال وقد اتسعت عيناه وفغر فاه: « وهل حكموا عليك؟ »

- « أجل.. عشر سنوات سجن مع الشغل.. ألا تعرف؟ »

لم يتمالك أبى أعصابه ، وتدفقت الدموع من عينيه رغمًا عنه ، وتأرجحت مقلتاه فى حيرة بالغة ، وتمتم: « عشر سنوات؟ كيف؟ ولماذا؟ هذا غير معقول؟ هل قتلت أحدًا؟ »

قلت بصوت خافت: « حوكمنا محاكمة سرية.. لم تستغرق المحاكمة أكثر من عشر دقائق.. والتهمة كما تعلم الانضمام للإخوان المسلمين ..»

قال وقد بدا الاحتقان على وجهه القمحى: « ولماذا لم تخبرنى كى أوكّل لك محاميًا؟ »

قلت بإيجاز: « رفضوا ..»

رد وهو يضغط على أسنانه فى غضب: « حكم قراقوش؟ »

قلت هامسًا: « ألعن من حكم قراقوش.. لقد عذبونا بدون رحمة.. الحمد لله أن نجونا ..»

وهنا تدخل الضابط قائلًا: « بم تهمسون؟ ارفعوا أصواتكم حتى أسمع.. هكذا الأوامر »

وكان الضابط يبتسم - مع ذلك - فى رقة ووداعة.

وسمعت أبى يردد فى دهشة « عشر سنين.. يا للمصيبة!! لماذا؟ عشر سنين؟ هل أنا فى حلم أم فى علم.. عشر سنين؟ الله يجازى الظَّلَمَة!! »

قال خالى الذى ظل صامتًا يرقب الموقف بحسرة: « كنت أعرف ذلك.. لقد أخبرنى صهرى شقيق زوجتى محمود بك.. لكنى لم أشأ أن أزعجك يا شيخ كيلانى ..»

ومحمود بك هو اللواء محمود الشافعى الذى ترك الخدمة فى عام ١٩٦٥ وهو فى وظيفة مدير مصلحة الأمن العام بالقاهرة ،وذلك بسبب اعتقال شقيقه الأكبر الحاج محمد فى قضية سيد قطب ، وكان رئيسًا سابقًا لشعبة الإخوان المسلمين بقريتنا « شرشابة » ، ثم أفرج عنه بعد حوالى شهرين من الاعتقال ، وكان هذا الاعتقال سببًا كافيًا لإحالة شقيقه اللواء محمود إلى التقاعد على الرغم من صداقته الوطيدة مع الليثى عبد الناصر شقيق الرئيس ، وكانت هذه الإحالة سببًا فى إصابته بنوبة قلبية ظل يعانى منها حتى اختاره الله إلى جواره ، فقد كان ضابطًا مشهودًا له بالكفاءة والنزاهة والخبرة الواسعة ، ولم يكن يتصور قط أن يرمى خارج الخدمة بسبب اعتقال شقيق له لمجرد التحفظ ، ودون أن توجه إليه أى تهمة.

أدركت أن أبى يبذل جهودًا خارقة حتى لا ينهار ، كانت معرفته المفاجئة للحكم على بمثابة صدمة شديدة زلزلت كيانه ، وندمت على تسرعى فى إبلاغه بذلك ، ولهذا أردت أن أخفف وقع الصدمة فقلت بثقة: « تأكد يا أبى أن هذا الحكم ليس له معنى أو قيمة.. الأحكام السياسية دائمًا قد تلغى فى أى وقت ، إنها مرهونة بالوضع العام ، وبالحالات السياسية المتقلبة التى لا تستقر على حال ، إنها أشبه ما تكون بالاعتقال.. فلا تهتم بهذا الأمر ، إننا وديعة بين يدى الله ، والحكم حكمه ، والأمر أمره ..»

قال أبى: « عشر سنوات؟ لم أكن أتصور أن يصل الأمر إلى هذا الحد!! أليس فى قلوبهم رحمة؟ »

وأخذت أسأل عن أمى وإخوتى وأقربائى وأصدقائى ، فرد بإيجاز: « كلهم بخير.. كن فى نفسك أنت ..»

وأردت أن أخفف عنه قليلا فقلت: « سوف يسمحون لنا بالمذاكرة وأداء الامتحان ..»

- « أى امتحان يا ولدي؟.. هل هناك امتحان أشد مما أنت فيه؟ »

- « إنى راض وصابر ومحتسب.. ولم أرتكب وزرًا أعاقب عليه ..»

وقف الضابط فجأة وقال بحزم: « وقت الزيارة انتهى.. مع السلامة ..»

وخرج أبي وخالي ، كانا يتطوحان فى مشيتهما وَهَنًا وحزَنًا ، أخذت أرقبهما بعين دامعة ، وقلبى يتفطر أسى ، لقد اقترب أبى من سن الخمسين ، وكان ينتظر مرور عامين آخرين حتى يسعد بتخرجي طبيبًا ، ثم يذهب ليؤدى فريضة الحج ، ويحمد الله على نجاحه فى إتمام تعليمى ، لكنى لاحظت أن هذه الشهور القليلة التى مضت منذ اعتقالى قد أورثته شيبًا مبكرًا ، بل وأحنت ظهره ، وعمقت من تجاعيد وجهه وجبهته ، وكلما تذكرت دموع أبى الصامتة المتدفقة أشعر كأن سكينًا تنفذ إلى قلبى ، إننى حتى اليوم لا أستطيع أن أنسى هذا المشهد ، وعندما أكتب شعرًا أو قصصًا تعود إلى عقلى وقلبى صورة تلك الأيام المؤلمة ، ومن أوائل القصائد التى كتبتها بعد هذه الزيارة قصيدة « فى الوادى الرهيب » التى نشرت بعد ذلك فى مجلة « الأدب » ، ثم نشرت فى ديوان « أغانى الغرباء » وفيها قلت على لسان أختى:

أبى ما بالنا نمضى ، وروحُ الحق مقهورة
وأحلامى وآمالى بسجن الليل مأسورة
يقال الناس أحرارٌ ، ودنيا الناس مهدورة
أريد الفجر بسّامًا ، وأعشق يا أبى نُورة
قطيعٌ نحنُ يا أبتى ، ولا فرقٌ سوى الصورة
سياط الدهر تدفعنا لوادى العسف والنقم

وفى آخر القصيدة الطويلة تقول الابنة:

أجل سيعود يا أبتى ، ويحمى ركبه القَدَرُ
أجل ورفاقه معه ، فجيش الحق منتصرُ
فهم زحفوا ، وهم وثبوا ، وذاك الليل معتكرُ
وكم لاقوا بعتمته من البلوى وكم صبروا
لقد عاشوا لغايتهم ، فللرحمن ما بذروا
أجل سيعود يا ليلى وتخمد جمرة الألم

وفى قصتى القصيرة « القافلة » التى نشرت فى جريدة « المساء » فيما بعد ، كما صدرت فى مجموعة « عند الرحيل » وضعت صورة صادقة مؤثرة لأب ذهب لزيارة ولده السجين فى « الليمان » ، وقد ألح عليه الحب والشوق العارم ، وأخذ يتكلم.. ثم يهذى طوال رحلة العودة فى القطار حتى اختل عقله أو كاد ، وهى صورة مأساوية دامية ، أثنى عليها الناقد الكبير المرحوم الأستاذ أنور المعداوى حينما قرأها.

إن صورة الأب والأم فى شعرى ورواياتى ذات طبيعة خاصة ، والعجيب أن أحد النقاد لفت نظرى إلى ذلك ، وأشار إلى أننى أضفى على صورتها قداسة من نوع مميز ، مع أن هناك أمهاتٍ وآباء يتسمون بصفات مغايرة..

عدت إلى زنزانتي بعد الزيارة مرهقًا مكدورًا ، وكأني كنت أسابق الريح في رحلة شاقة طويلة ، كان العرق يندي جسدي رغم برودة الجو ، ولم أجد شيئًا أقوله لإخواني ، فقد كنت عازفًا تمامًا عن الكلام ، وتجسدت مأساتي الأسرية بعد هذه الزيارة بصورة مؤلمة ، إذ يبدو أن أبي كان ينظر إلى كأمل للأسرة ، وقد انطفأ الأمل فجأة ، وخلف وراءه الآلام والأحزان ، لم أكن أدرك ذلك من قبل على نحو واقعي ، فشبابنا قد أمدنا بطاقة قادرة على الصمود في وجه المحنة ، وتجمعنا في صعيد واحد ، قد بعث فينا الثقة والقوة ، وانهماكنا في العمل الإسلامي قد كشف لنا عن عدم ثبات الأوضاع والمواقع السياسية ، وخاصة أننا في زمن كثرت فيه الانقلابات في أنحاء العالم العربي والإسلامي والعالم الثالث بصفة عامة ، كما كثرت فيه تدخلات القوى العظمى في مصائر الدول الصغيرة أو الضعيفة أو الفقيرة ، ولهذا كنا ننتظر فرج الله في أي وقت من الأوقات ، ومن يدري؟ فقد تشعر الحكومة بخطئها الفادح ذات يوم ، فتفتح لنا أبواب السجون ونعود إلى عالم الحرية من جديد ، ومن العجيب إنه في هذا الوقت بالذات كانت تتناثر الشائعات عن تفكير رسمي للإفراج عن المعتقلين والمسجونين ، وخاصة بعد أن تم الإفراج عن المرشد العام المرحوم الأستاذ حسن الهضيبي بعفو صحي كما سمعنا.. لكن الأهل ليس لديهم ذلك التصور الذي نعيش في رحابه ، والمسجون دائمًا لا يفقد الأمل ، بل يظل يحلم بيوم الحرية كلما أشرقت الشمس أو غربت ، وفي الصباح نسمع عن كل رؤيا جديدة شاهدها أحد الإخوة في منامه ، ويكون التفسير في جميع الحالات هو أن الفرج قريب ، وأن ساعة النصر لا شك آتية ، وأن المحنة تعقبها منحة ، وأن مع العسر يسرا ، وهكذا فإن أي مسجون - سياسي أم غير سياسي - ينتظر دائمًا يوم الفرج القريب..

كان السجن في بدايته رومانسيًا إن صح التعبير ، ولم نكن نشعر بثقله وكوارثه النفسية ، فهو بمثابة تجربة جديدة مثيرة ، وهو مدرسة للصبر والصمود والتكوين العقلي والنفسي ، وهو خلوة للعبادة حيث انهمكنا في قراءة القرآن والصوم والصلاة وتلاوة الأوراد ، بالإضافة إلى أنه منحة تفرغ للتعمق في الفكر والفقه والتفسير ومختلف العلوم ، وكانت طاقاتنا الحبيسة - لا شك - تتمرد من آن لآخر ، لكن حلقات الحوار والفكر الديني كانت كفيلة بإطفاء جذوة التمرد.

إن القضية التي نؤمن بها تمدنا بقوة هائلة لا تتزعزع ، وتفجر فينا آمالا تتأبى على الفناء ، وتفتح أمامنا آفاقًا رحبة تمتد إلى آخر المدى ، عندئذ يهون العذاب ، وترخص الدنيا بكل زخارفها ومباهجها ومغرياتها ، وتتوارى الشهوات المادية خلف ستار كثيف من الزهد والقناعة والرضى بقضاء الله ، فالعقيدة القوية هي العصمة من الندم والضعف واليأس ، والثقة بالله تزيل هواجس التردد ، وبواعث الملل ، وعندما يوسوس الشيطان ، أو تهجم الذكريات المثيرة للشجن ، يقف الإنسان بين يدى الله ليصلي ، ويستغرق في صلاته وخشوعه ، ليس في السجن عجلة أو ارتباط بمواعيد أو تكاليف معيشية ، ومن ثم فإن مناجاة الله تتم على الوجه الأفضل ، وقراءة القرآن تبدو وكأن لها مذاقًا خاصًا رائعًا ، وفي الحياة الجماعية دفء صادق ، وعاطفة مغذية ، وتبادل الخبرات والمعارف يفيض بالثراء ، وينمي الفكر ، ويضيف إلى الشخصية الكثير من الصفات ، والأمر الهام هو المنهج السلوكي الصحيح ، فالقدوة موجودة ، والسجين صاحب العقيدة يتحرج من إتيان فعل شائن ، أو تصرف خارج ، ولهذا فإن فترات السجن المتعاقبة قد نفت الكثير من الممارسات الجانحة ، وعمقت في النفس معنى الترابط والالتزام والصدق ، ويا ويل السجين السياسي إن اهتزت عقيدته ، أو ندم على ماضيه ، أو داخله الشك في صحة ما التزم به في سابق الأيام ، عندئذ تنقلب حاله ، وتتبدل سلوكياته ، ويصبح أسيرًا للغضب واليأس

والتمرد ، فيكثر شجاره ، وتتبدى أنانيته ، وتتتابه العلل النفسية الماحقة التى لا حصر لها ، وهناك فرق شاسع بين السجين العادى الذى أدين فى جريمة سرقة أو مخدرات أو قتل أو نصب أو هتك عرض ، وبين السجين السياسى الذى يحمل رسالة نحو دينه أو مجتمعه ، بل إن السجناء السياسيين « كما يسمونهم » يختلفون من فئة لأخرى ، فالشيوعيون يختلفون عن الإخوان ، والجواسيس يختلفون أيضًا فى نوعياتهم ، والمتآمرون أو الانقلابيون أشكال وألوان ، لكن الذى لا شك فيه هو أن العقيدة الدينية الراسخة هى التى تتميز عما عداها بقوة التأثير ، وبالطبع فإن هذا لا ينفى وجود قلة من الشيوعيين أو أصحاب المذاهب السياسية الأخرى استطاعت أن تثبت وتقاوم لفترات طويلة.

أقول كانت الفترة المبكرة فى السجن ذات صورة رومانسية شائقة جذابة ، ولماذا لا يسعد السجين وهو يرى نفسه مجاهدًا فى سبيل الله ، وضحية من ضحايا الغدر والظلم ، وداعية من دعاة العدل والحرية وتطبيق شريعة الله فى الأرض؟! إن كل ما يعانى منه ذلك السجين إنما هو جهاد فى سبيل الله ، ومن ثم فهو يستعذب الحرمان والتعذيب ، ويرضى بالقليل من القوت ، ويلبس التافه من الثياب ، ويغض الطرف عن زنزانته الضيقة المزدحمة ، وعن قعوده الساعات الطويلة رهين محبسه ، وماذا يضيره إذا كان يعبد ربه؟ أما أهله فهم وديعة عند الله ، وهو الرزاق ذو القوة المتين. فالسجين صاحب التوجه الإسلامى يجد التفسير المريح دائمًا لكل ما يحل به من مضايقات وكوارث ، ويعتبره حسبة عند الله تعالى ، وعند الله لا تضيع الحقوق ، ولا يهدر الجزاء الأوفى ، وإذا أحب الله عبدًا ابتلاه ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

ولنا أن نتساءل: إلى متى تدوم هذه الفترة الرومانسية الجميلة؟ لا اريد أن استعجل الأحداث ، فإن قصة السجن طويلة ، امتدت بالبعض منا إلى أكثر من عشرينا عامًا ، ومن الطبيعى أن تحدث مداخلات ، وتجدّ مؤثرات ، وتبرز عوامل ، فيبدأ الحوار ، ثم يحتد ، وقد يتحول إلى شجار وخلاف ، وقد ينتهى إلى شقاق ، عندئذ تحل الكوارث ، والواقع أن هذا أمر طبيعى لا غرابة فيه ، ما دامت قوة التحمل أو الصبر تختلف من شخص إلى آخر ، وما دامت وجهات النظر تتأبى على التماثل ، وما دامت ردود الأفعال تصطبغ بصبغة الأهواء والثقافات والتجارب والأطماع ، وما دامت هناك أيد خفية تعمل فى الظلام لبث الفرقة ، وتمزيق الوحدة ، والتشكيك فى سلامة المقصد ، بما تدسه من وثائق مزيفة ، وأخبار كاذبة ، وبما تقدمه من وعود براقة ، وجوائز ثمينة ، إنها فتنة قاسية لا ينجو منها إلا من عصم ربك.

انتهت أخيرًا فترة الحجر علينا ، وسمح لنا بأن نخرج فى طابور الصباح لننعم بالشمس والهواء فى فناء السجن ، وقد كنا سعداء بذلك غاية السعادة ، إن أى ترفيه ولو بسيط يجعل السجين فرحًا نشطًا ، وقد يتخيل أن وراءه فرجًا قريبًا ، ترى هل تعود للسجين روح الطفولة والبراءة مرة أخرى ، فيطرب قلبه للأشياء الصغيرة ، ويصدق الهواجس والأوهام ، وينفى عن نفسه الخواطر السوداء المزعجة؟

كنت أنظر إلى وجوه الإخوة المتناثرين فى فناء السجن ساعة الصباح والشمس مشرقة بسخاء ، فأرى على الوجوه رضى وتسليمًا وسعادة لا زيف فيها ، وكنت أسمع ضحكاتهم التى تنبعث من القلب دون تكلف ، وكان بيننا بضعة أفراد أوتوا موهبة سرد القصص والحكايات ، أو ذكر الطرائف والنكت ، وكان لديهم قدرة فائقة على جذب انتباهنا ، والاندماج الكامل فيما يقولون ، وكان طبيعيًا أن نتحلق حولهم ، ونستمع إليهم فى شغف بالغ ، لكن الشىء الملفت للنظر أن إخواننا الذين كان لهم شرف الجهاد على أرض فلسطين ، أو فى منطقة قنال السويس ، كانوا عازفين عن الحديث عن ذكرياتهم وتجربتهم الخصبة ، فإذا ما سئلوا صمتوا أو أجابوا باقتضاب.

وعلى الرغم من التشدد فى معاملتنا إلا أنه كان بسجن مصر عدد من المتهمين فى قضية التجسس لحساب إسرائيل ويسمح لهم بطعام من خارج السجن على نفقتهم الخاصة، وتقدم لهم كافة التسهيلات الممكنة الخاصة بالملابس والكتب والمراسلات والأدوية وغيرها، وكم كان غريبًا أن يظل المعتقلون من الإخوان «الذين لم يقدموا للمحاكمة» دون السماح لهم بالزيارات أو كتابة رسائل لذويهم، مع أنهم قد مضى عليهم فى المعتقل أكثر من عام.

والحقيقة أن مشكلة الزيارة بالنسبة للمعتقلين، وبالنسبة للمسجونين قبل صدور الأحكام عليهم، كانت تحتل أهمية كبيرة، فالانقطاع التام عن الأهل يبعث دائمًا على القلق، ويعطل الكثير من المصالح، فمثلًا قد يكون لأحد المعتقلين ديون عند بعض الناس، ويريد تحصيلها حتى تستطيع الأسرة أن تنفق على نفسها، أو يكون المعتقل صاحب أعمال أو تجارات أو مقاولات، ويريد أن يعطى أوامره فيما يختص بهذا أو ذاك، لكن منع الزيارة، وتحريم إرسال الخطابات، يكون سببًا فى تعطيل ذلك كله، بل وفى حدوث خسائر مالية كبيرة، ولم يكن المعتقل يقف عاجزًا إزاء هذا الوضع الظالم، فكان يُهَرِّبُ الخطابات، عن طريق العسكر، ويدفع لمن يقوم بهذه المهمة خمسة أو عشرة جنيهات، ونظرًا لأن المعتقل - وكذلك السجين - لا يملك مالًا فى يده، فكان ينص فى رسالته لأهله أن يعطوا حامل الرسالة مبلغ «كذا» جنيهًا حسب الاتفاق، وبالطبع فإن الأهل يبادرون بدفع المبلغ المطلوب للعسكرى بعد قراءة الرسالة، فهم يعتقدون أن معتقلهم لا شك محتاج لذلك، ثم إن هناك بعض المسجونين العاديين الذين يخرجون للعلاج فى المستشفيات الخارجية، وهناك المسجونون الذين يرحلون من سجن لآخر، وهناك أيضًا بعض المحجوزين الذين يؤخذون للمحاكم لتكملة محاكمتهم فى جرائم مختلفة، كل هؤلاء يمكن أن يحملوا معهم رسائل من المعتقلين ويرسلوها إلى أهليهم بأسلوب أو بآخر، بقى أن نعلم أن تهريب الخطابات يعتبر - بنص لائحة السجون - جريمة يعاقب عليها القانون، وقد يصل الحكم فيها إلى ستة شهور سجنًا، بالإضافة إلى ما يجره تهريب الخطابات من تكدير وعقوبات داخلية، تشمل الضرب والإهانة، ومنع الخروج من الزنزانة لفترة، ومضاعفة «مقطوعية العمل» والجلد والتأديب، وسحب الأوراق والأقلام والكتب إذا عثر عليها أثناء التفتيش مع عقوبة أخرى صارمة، وعلى الرغم من ذلك كله، فإن المعتقل كان يجد نفسه مضطرًا لارتكاب هذا «الجرم» لكى يقضى مصالحه الهامة، ويرتب أمور أسرته اقتصاديًا واجتماعيًا، وليبدى رأيه فى مسائل الزواج والطلاق وغيرها، بل إن المسجونين الذين سمح لهم بالزيارة، كانوا ممنوعين من كتابة الرسائل لما يقرب من عامين، وقد حدثت لى مشكلة من هذا القبيل تتعلق بالرسائل فى فترة اعتقالى الثانية عام ١٩٦٥ لعلى أتعرض لها فى حينها.

ولكنى اكتشفت فى سجن القاهرة وسيلة مبسطة وبدائية للزيارة، فقد كانت النوافذ التى تطل على الشارع تهيء الفرصة لسكان الزنازين الغربية كى يطلوا من هذه النوافذ ذات القضبان الحديدية المتقاطعة، ويتكلموا مع أهليهم فى الشارع - خارج السور - بصوت عالٍ يسمعه الجميع، ولم تكن الفرصة تتاح لهؤلاء المحبوسين إلا فى المساء، بعد أن ينصرف مدير السجن والمأمور، لكن سكان زنازين الجهة الشرقية التى تطل نوافذهم على باحة السجن، لم تكن تتاح لهم هذه الفرصة الذهبية.

ومن الطريف أن أخانا المعتقل - تاجر الساعات «بالدقى» - عبد المنعم قنديل، كان يسكن فى إحدى الزنازين الغربية، وفى كل يوم كنا نسمع صوت إمرأة ملتاعة تنادى بصوت باك، وبلهجة غربية، وتقول: «جنديل «قنديل» يا حزين.. يا واكلهم.. وين محمد ولدي؟ ».

فيرد عبد المنعم قائلا: «محمد بخير يا أم محمد ...»

- «عايزة أشوفه يا حزين ..»
- «مش ممكن يا ست أم محمد»
- «ليش؟»
- «لأنه في الناحية الشرقية ...»
- «وكيف أشوفك أنت وما أشوفه هو.. يا حزين يا واكلهم ...»

وأصبح هذا الحوار مادة يومية، وعلمت من عبد المنعم أنها إمرأة مسكينة وحيدة من «النوبة»، وكانت تعيش في القاهرة مع ولدها محمد، الذي يعمل طول اليوم لينفق عليها وعلى نفسه، وكان شابًا طيبًا مستقيمًا بريئًا، واستطاع عبد المنعم أن يرفع من مستواه الاجتماعي لحد ما، وأن يساعده في تحصيل رزقه، وبمرور الأيام انضم إلى الإخوان، وعثر على اسمه في كشف بإحدى الشعب الإخوانية، فتم اعتقاله مع الآخرين.

الطريف أيضًا أن محمد هذا كان في زنزانة تضم نخبة من الإخوان فيهم مدير عام مصلحة المساحة، وبعد أن خرج محمد من المعتقل في عام ١٩٥٦ ببضعة أيام ولى وجهه شطر مصلحة المساحة، وطلب مقابلة المدير، فلم يرق هذا للسكرتير، لكن إصرار محمد جعله يدخل ليستأذن له من المدير، كان المدير رجلًا صالحًا نظيفًا، لكنه بعد خروجه من المعتقل كان يتحرز - حسب أوامر المباحث - من مقابلة الإخوان، فأوعز إلى سكرتيره بأن يصرفه بلباقة تجنبًا لأي مشاكل، وخاصة أن رقابة المباحث مشددة، وعندما أدرك محمد أن المدير يتهرب منه صاح بأعلى صوته: «هو سعادة البك المدير نسي ولا إيه؟ داحنا واكلين عيش السجن سوا.. قل له وحياة العدس والفول يسمح لي بالمقابلة.. دانا كنت باغسل له هدومه، وأنفض له فرشه من التراب ...»

وهرول السكرتير العام يخبره بما سمع، فما كان من المدير إلا أن هب واقفًا وهتف: «أدخله ...»

ودخل محمد في أدب وهو يبتسم ويقول: «أيوه كده.. دي الوقتي إحنا إخوان بصحيح ..»

- «خير يا محمد ...»
- «لا قهوة ولا شاي؟»
- «اعذرني يا محمد أنا مشغول.. هذا ليس بيتي.. وكنت سأقابلك بوسيلة أخرى».

قال محمد بصلابة: «نفذ وعدك ..»

- «أي وعد؟»
- «قلت لي في المعتقل إنك إذا خرجت فستوظفني عندك ..»
- «لا تذكر كلمة الزفت «المعتقل» دي هنا ...»
- «خلاص.. الوظيفة.. عايز أستلمها حالا ..».

قال المدير العام لسكرتيره: «ابحث له عن وظيفة عامل.. بس تكون بعيدة عن الإدارة.. واكتب رسالة للداخلية لأخذ موافقة الأمن.. مع السلامة ..».

هتف محمد وقد أشرق وجهه بالفرحة: «عشت يا بك.. والله لو اعتقلونا تاني لأشيلك على راسي ..».

وقال البك في غضب:

- «أعوذ بالله.. فأل الله ولا فالك يا شيخ.. توكل على الله يا محمد ..».

ومن الصدفة الغريبة أنه فى عام ١٩٦٥ أعيد اعتقال الإخوان وكان من بينهم سيادة المدير العام، وقد بدا متقدمًا فى السن عليلا، ضعيف البصر بعد أن أجريت له فى عينيه عملية المياه البيضاء «الكاتاركت».. كما اعتقل محمد أيضًا.. وكان فى سجن آخر، لكنه كان يسأل كل يوم عن «سعادة البك» هل وصل أم لا، ولم يتم لقاؤهما إلا فى شهور الاعتقال الأخيرة.. وكان محمد يضحك فى براءة ويقول: «الأيام تفرقنا والمعتقل يجمعنا يا سعادة البك.. وراك وراك.. هتروح منى فين؟ حق الحكومة كانت تعتقل السكرتير كمان.. لكن ليه.. أنا هنا فى خدمتك.. وربنا يديم المعروف ..».

كانت الأيام تمر علينا فى سجن القاهرة بطيئة مملة، ونحن نتساءل: هل نظل على هذا الوضع عشر سنوات؟ لم نكن نعلم تمامًا ما يراد بنا، لقد اقترب عام ١٩٥٥ من نهايته، وما زالت المحاكمات جارية فى جلسات سرية، ولا يكتب عنها أى شىء فى صحف الدولة، وما زال المعتقلون الذين لم توجه إليهم أية تهمة فى نطاق الأسر المفروض، وما زال الأفق السياسى ملبدًا بالغيوم منذ عام ١٩٥٤.

لم نكن وحدنا فى السجن، كان هناك بعض الشيوعيين، وعدد من الإخوة المسيحيين الذين خطفوا البطريرك، ويقولون أنهم من تنظيم سرى إسمه «حزب الأمة القبطى»، وعلى رأسهم المسجون إبراهيم هلال، وكان هناك – كما قلنا – بعض الجواسيس وفئات سياسية أخرى، وبعض ضباط الجيش الذين أدينوا فى انقلابات سابقة فاشلة، لكنهم كانوا يرتدون ملابسهم المدنية، ويقيمون فى المستشفى أذكر منهم الدمنهورى والصاوى والمصرى وغيرهم.

وذات يوم فوجئنا بحركة غير عادية وإجراءات وحصر للمسجونين السياسيين وحدهم، وترددت فى أروقة العنبر «ج» كلمة «الترحيل».. وفهمنا معناها بالطبع، فهى تدل على أن عددًا من المحبوسين السياسيين سوف ينقل إلى سجن آخر، وأين هذا السجن؟ لا يدرى أحد، وقيل أيضًا أن الترحيل سيتم غدًا، فأسرعنا ببث رسالة عبر نوافذ السجن إلى الخارج، وما إن حط المساء حتى تزاحم الأهالى خارج السور متساءلين عن المكان الذى سنقصده.. لكننا لم نكن نعرف، وفى الصباح الباكر جمعونا فى فناء السجن بعد أن وضعوا أختام «الترحيل» السوداء على سواعدنا، ثم قسمونا إلى مجموعتين مجموعة يتم ترحيلها إلى سجن «بنى سويف» والثانية إلى سجن «أسيوط» وهما بالوجه القبلى من مصر، وكان نصيبى أن أكون فى الفئة الثانية «المصدّرة» إلى أسيوط عاصمة الصعيد..

خرجنا فى طابور طويل، وكل واحد يحمل «بقجة» قماشية بها أشياؤه التافهة التى كانت موضوعة فى أمانات السجن، وحشرونا فى سيارات «بيك أب» صغيرة وعلى الرغم من أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد، إلا أننا وجدنا حشدًا هائلا من أهالى السجناء الذين يعيشون فى القاهرة، أغلبهم من النسوة اللابسات السواد، وكان الضجيج يصم الآذان، والنسوة يصحن: «مع السلامة يا حبايب ..»

«مع السلامة يا مظاليم ...»

«ربنا يكتب لكم فى كل خطوة سلامة ..»

نظرت إلى النسوة الغارقات فى البؤس والسواد، وصك سمعى الصيحات المتحشرجة الباكية، كانت وجوههن الشاحبة الحزينة تضىء رغم الظلام، وأيديهن تلوح لنا بعصبية فى حركات رتيبة، كأنها تتابع لحنًا جنائزيًا ينتفض أسىً ولوعة.. لكن الشىء الذى يدعو إلى الدهشة، أن بعض الزغاريد انطلقت فجأة.. ثم تعالت من النسوة صيحات «الله أكبر».

وتدفقت دموعى ، حاولت أن أحبسها دون جدوى ، لم تكن أمى معهن ولا إحدى أخواتى ، لكنى شعرت أن كلهن أمى.. كلهن أخواتى.. ووجدتنى أردد أنا الآخر « الله أكبر ....» وكذلك الإخوة الذين معى.. وأسرع الحراس بالهجوم على النساء لتفريقهن.. ولكن دون جدوى.. لقد بقين فى أماكنهن المحيطة بقافلة السيارات دون أن يتزحزحن بوصة واحدة..

وتحرك الموكب ، والنفير يعلو صوته ويتردد صداه فى هذا الحى القاهرى النائم ، ومئذنة مسجد السيدة عائشة - رضى الله عنها - تمتد فى قلب الأفق مضيئة صامدة.. لم يأخذونا إلى محطة القاهرة الرئيسية للسكك الحديدية حسبما توقعنا ، بل ساقونا إلى محطة الجيزة.. كانت هناك عربات خاصة لشحن المسجونين ، وهى عربات مخصصة لنقل الحيوانات أساسًا ، وكانت هتافاتنا - ونحن ننتقل من السيارات إلى القطار ترج المكان رجًا ، كانت الشمس قد أشرقت وغمر ضوءها المكان ، وتوقف الناس على أرصفة القطارات ينظرون إلينا فى دهشة وذهول ، كان كل واحد منا مربوطًا بالأغلال الحديدية « الكلبشات » مع عسكرى شرطة ، بحيث تكون اليد اليمنى للسجين مقيدة مع اليد اليسرى للعسكرى ، ولهذا فإن السجين لا يمكن أن يتحرك إلا مع الشرطى.

وتحرك بنا القطار أخيرًا ، وما زال الواقفون على الأرصفة ينظرون إلينا فى ألم وإشفاق ، وما زالت هتافاتنا بالتكبير.. وبسقوط الطاغية.. وبسقوط الظلم ، تدوى بقوة..

كان قائد القوة التى تقوم بترحيلنا على ما أذكر هو البكباشى شوقى المنيسى ، وهو كما يبدو رجل طيب متحفظ ، ولعله قريب للشهيد أحمد المنيسى الذى استشهد فى معركة التل الكبير ضمن فدائيى الإخوان المسلمين فى يناير عام ١٩٥٢ ، ولعله أيضًا قريب ضابط الشرطة المعروف فى الإخوان المسلمين أيضًا شوقى المنيسى.. المهم أن البكباشى دخل إلى العربة التى كنت فيها ، واتجه إلى بالقول فى عصبية: « كفى هتافا ..»

قلت له: « لن نكف!! إننا نعبر عن رأينا ...»

قال فى ضيق: « إذا لم تكف فسأضربك باللانكستر « مدفع رشاش كان معه » ..»

- « لن نسكت ..»

حاول أن يخفف من لهجته الحادة ، فقال: « من أجل مصلحتكم يجب أن تهدءوا.. أنتم تعرفون أن الحكومة لا ترحم.. فلماذا تصرون على إحراجنا؟ ..»

رددت فى سخرية: « إن هتافات المأجورين تدوى فى أنحاء مصر وخاصة عندما يخطب الرئيس.. فلا أقل من أن نهتف فى قطار ..»

قال وقد احتقن وجهه: « يا ابنى.. عندما تكونون مثلهم فافعلوا كما يفعلون.. هذا فيه الكفاية »

وتركنا وانصرف ، فودعناه بنفس الهتافات السابقة ، لكنه لم يلتفت.. وصمتنا عندما أرهقنا الهتاف ، وبحّت أصواتنا ، وقررنا ألا نردد شعاراتنا إلا عند وقوف القطار فى المحطات ، وفى إحدى المحطات وجدنا باعة « القصب » والساندوتشات ، فانتهزنا الفرصة واشترينا بعضًا منها ، فالطريق طويل ويحتاج إلى ساعات طويلة ، لكن لم يكن معنا أموال سائلة ، فكيف نتصرف؟ كنا نستعمل « علب السجائر » كعملة متداولة ، وعندما بدأنا دفع ثمن الأشياء بهذه الطريقة رفض الباعة الجائلون ، وأصروا على أن يكون ما أخذناه منهم مجرد هدية ، أو ضيافة صعيدية عربية ، لكننا ظللنا نلح وهم يرفضون حتى تحرك القطار ، فلم يكن هناك بد من ،ن نلقى بالثمن - علب السجائر - على الأرض ومضى القطار مسرعًا ، ونحن نرقب المشهد ، والإخوة الصعايدة ينظرون إلينا فى تألم ، وتكاد الدموع تطفر من

أعينهم ، وعلب السجائر ملقاة على الرصيف لم تمتد إليها يد بعد ، وبقى الأمر على هذا الحال ، حتى غيبتنا سرعة القطار عنهم ، إنه مشهد نبيل لا يمكن أن أنساه ما حييت..

نزلت الفئة الأولى منا فى محطة بنى سويف ، وكان فيهم أخي الدكتور إبراهيم الصياد ، ومضى بنا القطار متجهًا جنوبًا صوب أسيوط ، وابتسم أحد الإخوة ولعله الأخ المرحوم رجب الخميس ، وأخذ يردد أغنية شعبية مطلعها:

« يا سايح الجطر ودينى على أسيوط... على أسيوط »

وأخذنا نشاركه الغناء..

وصلنا إلى أسيوط بعد العصر..

كان فى استقبالنا المحافظ ومدير الأمن والحكمدار و« نخبة » من رجال المباحث العامة ورهط من المخبرين..

لأول مرة فى حياتى أرى أسيوط..

أين شرشابة قريتى النائية الآن من أسيوط؟

وهل سيتكبد أبى المشاق فى قطع هذه المسافة الطويلة لزيارتي؟

قال أخونا أبو بكر عثمان « السودانى الجنسية »: « مشيناها خطى كتبت علينا ..»

فاكملت له البيتين وأنا ساهم أفكر..

مشينا فى صمت وهدوء ، وفتحت لنا « الكوة » الصغيرة فى باب السجن الكبير ، دخلنا واحدًا واحدًا.. وجلسنا القرفصاء فى ساحة السجن بنظام ، كانت الشمس تغرب ، والجو أخذ يبرد ، وملابسنا خفيفة متآكلة.. ونظرنا فإذا بعنبر للسجناء فى الناحية الشرقية ، وآخر فى الناحية الغربية ، بالإضافة إلى سجن النساء الذى يقبع إلى جوار مبنى الإدارة.

كبار الرتب العسكرية كانت تحيط بنا ، كنا نعرفهم من أزيائهم والرموز النحاسية المثبتة على أكتافهم.. ولا تكتمل وجاهة رجل الشرطة إلا إذا انتفخ وبدا متعجرفًا متكبرًا ، هذا ما لاحظته فى ذلك الوقت ، رجل واحد.. واحد فقط.. بدا عليه قدر من الحزن الظاهر لا يمكن إخفاؤه.. وقلت فى نفسى لعلها طبيعته.. فالناس ليسوا جميعًا على نمط واحد.. اتضح فيما بعد أنه رجل عظيم.. ومن منا يستطيع أن ينسى ضابط الشرطة.. الصعيدى.. المسلم الشجاع.. « مصطفى أبو دومة »؟.

قال أحد ضباط الشرطة من كبار الواقفين حولنا للبكباشى شوقى المنيسى قائد قوة الترحيل: « لسوف تبقى معنا فى أسيوط الليلة.. فيه فيلم عظيم جدًا فى السينما ..»

وبدا على المنيسى أنه غير مكترث لما يقول ، وقال فى شىء من التبرم: « خير لنا أن نعود الليلة.. لقد انتهت مهمتنا ..»

رد عبد العظيم بك سليم مدير السجن ، وكان يضع على عينيه نظارة سوداء أنيقة: « اطمئن يا بك.. ألا تراهم يجلسون كالفراخ فى القفص؟ »

وضحك ضحكة ساخرة آلمتنا ، لكننا لم نكن فى حالة تسمح لنا بالرد على التعليقات الجارحة التى تنطلق هنا وهناك ، بعد أن تم إغلاق باب السجن ، وأحاط بنا السجانة من كل جانب ، تنهدت فى ألم وتطلعت إلى نوافذ الزنازين ، ودققت النظر ، لقد رأيت وجوهًا سمراء تزدحم فى كل نافذة.. إن النزلاء جميعًا يرقبوننا ، أليس هذا غريبًا؟ فالسجن يستقبل « الإيراد » كل يوم ، وهو أمر طبيعى لا يثير أدنى دهشة ، لكننا علمنا فيما بعد أن ضابط السجن ، وخاصة اليوزباشى محمود أبو كريشة والملازم أول

زكى ، قد حذروا النزلاء منا ، وأفهموهم أننا ألعن من الشياطين ، وأننا سوف نسبب لهم العديد من الكوارث والمتاعب إذا قامت بيننا وبينهم أى علاقة ، المهم أنهم شحنوا النزلاء ضدنا بطريقة مثيرة ، حتى بدا أنهم يتوجسون منا خيفة.. هذا ما علمناه فيما بعد..

وما إن انتهى الحصر والتسجيل ، حتى أخذونا إلى العنبر الشرقى فى الدور الرابع أو الأخير ، ووزعوا كل مجموعة منا تتراوح بين ٨-١٠ سجناء فى غرفة من الغرف الكبيرة ، مع المسجونين العاديين ، وأعطوا كل نزيل « برشًا » وقطعة من البطانية ، أو بطانية رقيقة مهترئة.. ألقينا على النزلاء القدامى السلام ، ثم افترش كل واحد برشه ، وجلسنا متجاورين صامتين ، كانت عيون المسجونين من مواطنينا الصعايدة تنظر إلينا فى حذر ، ولم نجد لديهم الترحيب أو حسن الاستقبال المعهود ، ولم نعر الأمر أدنى اهتمام ، فإن قابل الأيام سوف يعقد بيننا الصلات الحميمة ، بعد أن نتعرف عليهم ، ويثقوا فينا.. كان يجلس على يمينى أخى السودانى الدكتور أبو بكر عثمان ، الذى لا تفارقه الابتسامة أيضًا كان يتميز بنحافة جسمه ، وقصر عوده ، وكان أبو بكر فى دهشة من أمره ، فقد صدر ضده حكم بالسجن خمس سنوات لأنه كان يجمع التبرعات لمساعدة أسر المسجونين من الإخوان المسلمين ، لكنه فوجئ فى الترحيل بأن السجن عشر سنوات.

كان ليل أسيوط شديد البرودة ، وكانت البطانية التى أغطى بها جسدى قصيرة بحيث لا تصل إلى قدمى ، وحاولت أن أنام دون جدوى وذلك بسبب البرد ، وقلة الطعام ، ورأيت أخى أبو بكر هو الآخر يرتجف ، قلت له: « ما نفعل؟ »

- « لا حل سوى أن ننام تحت البطانيتين معنا ..»

ونمنا القرفصاء ، ركبنا عند صدورنا ، ككرتين كبيرتين من المطاط ، وحاولنا أن ننام ، كنا نغفو فترة قصيرة ، ثم نصحو من جديد على لسعات البرد ، وظل الأمر على هذا النحو حتى أذن الفجر ، ونهضنا لنتوضأ؛ لم يستخدم أى منا سوى سطل واحد فى عملية الوضوء ، فقد كان « جردل » الماء لا يكفى هذه المجموعة الكبيرة ، وأدينا الصلاة جماعة لكننا لاحظنا أن إخواننا الصعايدة لم ينضموا إلينا فى الصلاة ، بل أدوا الفريضة فرادى.

واكتشفنا فى الصباح أن هناك مجموعة أخرى من قدامى الإخوان المسلمين الذين حوكموا فى بداية المحنة أواخر عام ١٩٥٤ ، موجودة فى السجن منذ شهور ، وتعرفنا عليهم فى الصباح ، كان فيهم الضابط نجيب عطية والمهندس إبراهيم الخضرى والمحاسب عثمان شميس ، وطالب الهندسة سيد القشاط الموهبة الفذة فى لعب الشطرنج ، والذى يعيش حاليًا فى ألمانيا الغربية ، ويقوم بدور طيب فى نشر الإسلام هناك وغيرهم كثيرون ، وكان من فريقنا أيضًا الأخ الفنان فؤاد شاكر الذى كان طالبًا فى الجامعة ، وأصبح فيما بعد مذيعًا تليفزيونيًا ناجحًا ، وقدم برامج دينية ناجحة ، وكان معنا أيضًا خريج الفلسفة الأخ الفاضل المرحوم محمد أنور حسنين ، ومحمود أبو بكر موسى الشهير بحاتم ، والأخ المهذب حسين عبد المعطى والمرحوم رجب الخميسى ، والأخ حسين عاشور رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامى حاليًا ، والأخ المرحوم يحى أبو شيته زميلى فى القضية ، وعدد كبير من طلبة الجامعات والثانوى والأزهر وبعض الإخوة الفلسطينيين.

والحقيقة أننا عانينا كثيرًا أثناء وجودنا فى سكن مشترك مع إخوتنا المسجونين غير السياسيين من أهل الصعيد ، وذلك بسبب الشكوك التى بذرها بيننا وبينهم بعض ضباط السجن ، وبسبب اختلاف العادات والتقاليد والمستوى الثقافى وأساليب الوقاية الصحية ، ومع ذلك فإننا استطعنا بمرور الوقت أن

نخفف الكثير من الشكوك ، وبدأ النزيل الصعيدى محمد عبد العال يجلس فى المساء ، ويترنم ببعض المواويل أو الحكايات الشعرية الشعبية ، التى تتحدث عن أبطال محليين من وجهة نظرهم ، وخاصة أولئك الذين اعتصموا بالجبل ، وتصدوا للحكومة ، وأرهقوها فى الصراع لسنوات طويلة ، وكان الموال المحبب لمحمد بعد العال هو الذى يروى قصة « الخُط » المجرم الصعيدى الشهير ، والذى ألفت حوله الأفلام السينمائية والمسلسلات ، وكان محمد ينفعل وهو يعالج الفترات العصيبة فى حياة « الخُط » ، وكنا نحن نستمع إليه فى لهفة ، وذات مساء بعد أن انتهى محمد عبد العال من موال الخُط سمعنا سجينًا آخر هو « محمد الجمل » ينتفض واقفًا ويصيح قائلًا: « خُطّ إيه.. وزفت إيه!! دا كان حرامى وخطاف وابن « ...» كفاية وجع راس يا محمد يا عبد العال.. داهية لا ترجعه مطرح ما راح ..»

وثار جدل صاخب حول « الخُط » ، كاد يصل لحد التشابك بالأيدى ، لولا أن تدخلنا بالتهدئة ، والانتقال إلى أحاديث أخرى شتى.

وكان محمد عبد العال له بعض الأغانى الشعبية المبتكرة التى تؤدى بين اثنين ، وبنظام خاص متفق عليه ، فمثلا يبدأ محمد عبد العال قائلا بنغمة جميلة:

وأفوت ع « الهريدى » يا حاجة يا حاجة
وأفوت ع « الهريدى »

ويأتى المشارك الثانى ويأخذ الشطرة الوسطى فيرد قائلا:

يا حاجّة يا حاجّة ونزور الهادى نبينا
يا حاجة يا حاجة

ويرد محمد عبد العال بعد أن يلتقط الشطرة الوسطى ويقول:

ونزور الهادى نبينا أبو عيون كحيلة
ونزور الهادى نبينا

وموضوع الأغنية كما هو واضح يتعلق بمناسبة الحج المقدسة التى تحظى بعدد هائل من الأغانى الشعبية فى كل أنحاء العالم العربى والإسلامى ، وذات مساء قلت لمحمد عبد العال أننى سوف أشاركه الغناء هذه الليلة ، فابتسم الإخوة الصعايدة واعتدلوا فى جلستهم ذلك المساء ، وبدأنا المباراة بلغة عشاق كرة القدم ، وكان موضوع الغناء يدور حول الرسول « ﷺ » والمناسبات الدينية الغالبية ، وهكذا قضينا ليلة ظريفة مسلية ، وحظى محمد عبد العال بتصفيق وهتاف إخوانه الصعايدة ، إذ إنه من الصعب عليهم أن يقروا بتفوق أحد عليهم فى هذا الفن ، وإلا تحول الأمر إلى معركة حقيقية فالمسألة مسألة كرامة وشرف ، والصعيدى لا يتنازل عن ثأره.. والحقيقة أن كلمات محمد عبد العال كانت سلسة وشعبية أصيلة ، أما أنا فكنت أحيانًا أجدنى مضطرًا - أثناء الارتجال - إلى استعمال بعض الكلمات الفصيحة ، وذلك بالنسبة لهم يعتبر ضعفًا أو تكلفًا..

وكانت الأشعار التى تقال عن أبى زيد الهلالى والزير سالم وغيرهما من أبطال السير الشعبية تحتل مساحة شاسعة من الأغانى ، وأغلبها محفوظ عن ظهر قلب من تلك السير ، وكان بعض إخواننا فى الغرف الأخرى يعانون من ذلك أشد المعاناة ، للتكرار وطول ساعات الغناء فى تلك الليالى الباردة ، ولذلك فقد عبر أحد إخواننا عن ضيقه وسخريته بأغنية من الشعر الشعبى يقول فيها:

« أبو زيد » يقول « لدياب » يا للا نصالح مراتي

وهمه راجعين يا سادة يا كرام وقعوا فى البتاتي

و« البتية » هى الجردل الذى يتبول فيه السجين ليلا ، حيث لا توجد دورات مياه فى الزنازين أثناء إغلاقها فى الليل غير ذلك ، ويقول أخونا عبد الرءوف أيضًا مواصلًا أغانيه:

أبو زيد يقول لدياب يا للا نصيد غزال فى البراري

وهمه راجعين يا سادة يا كرام وقعوا فى المجاري

إلخ..

وهذه - كما هو ظاهر - من أغانى الربابة ، ونظرًا لعدم توفر الآلات الموسيقية ، فقد كان عبد الرؤوف يترنم بأغانيه ، والجوقة تضرب على الأوانى المشكلة من الصفيح والزنك ، وعن طريق الفم أيضًا..

وكنا نسمع من إخواننا الصعايدة الكثير من الحكايات وأنواع الجرائم التى أدينوا فيها ، وهى تشتمل على جوانب عدة من الطرافة والإثارة.

قضينا فى « التخزين » فترة شهر تقريبًا ، لم يكن يسمح لنا فيها بالعمل أو الخروج ، وهذه فترة إلزامية يوضع فيها السجين تحت الرقابة والملاحظة حتى يثبت خلوه من أى مرض من الأمراض المعدية ، وإن كنا لم نلتق بالطبيب خلالها ، وبعد هذه الفترة أخذنا إلى مدير السجن لإجراء ما يسمونه بعملية « التصنيع » ، ويقصد به العرض على المدير نفسه ، كى يوجه للسجين بعض الأسئلة ، ثم يختار له المهنة المناسبة التى يعمل بها فى السجن ، ومن شروط العرض على المدير أن نخلع الأحذية.. وكان سيادته يسأل كل واحد منا عن عمره وعمله فى الخارج ، ثم يقيسه بنظراته ، وبعد ذلك يكتب المهنة ، فى كشف أمامه أو العمل الذى سوف يقوم به السجين.

عندما جاء دورى سألنى عن إسمى وعمرى ، ثم قال: « ما هو عملك بالخارج؟ »

- « طالب بكلية الطب المرحلة النهائية ..»

قال فى شىء من السخرية: « نعملك إيه هنا؟ صبى صيدلى..؟ ولا مساعد دكتور؟ ..»

وقبل أن أرد عليه كتب وهو يقول: « ترزى ..»

وانصرفت وجاء بعدى من يلينى..

بعضنا تم تعيينه فى « ورشة النسيج » ، وأغلبنا أصبحوا « ترزية » ، ولم يسمحوا لأحد منا أن يعمل فى المخبز أو المطبخ أو المغسلة أو المكوجية وكذلك منعنا من ممارسة أعمال المكاتب ، خوفًا من أن نكتشف بعض المكاتبات أو الأسرار ، أو نجرى اتصالات بالخارج.

كان العمل فى ورشة النسيج بالغ القسوة ، إذ يمتد من الساعة السابعة صباحًا حتى الرابعة عصرًا ، وعلى كل مسجون فى الورشة أن ينجز كمية من العمل محددة يسمونها « المقطوعية » ، ولابد من إتمامها ، ومن يعجز عن ذلك يرسل إلى التأديب وتزاد عليه « المقطوعية » ، وقد يجلد ، وكان النسيج فى سجن أسيوط منصبًا على صناعة البطاطين التى تورد لمصلحة السجون ، وطريقة النسج تعتمد على استخدام « الأنوال » اليدوية ، والواقع أن تشغيل النول يحتاج إلى بذل جهد كبير ، إذ يستعمل السجين يديه ، ورجليه وعقله وعينيه بصورة دائمة ، ولهذا فإن العاملين فى هذا المجال يصابون بالنحول والضعف والأمراض بعد فترة من الزمن ، فضلًا عن أن الزغب الذى يلوث جو المنسج يتراكم على الوجوه والشعور وأهداب العيون ، كما يتسلل مع التنفس إلى الرئتين مما يسبب نزلات شعبية ، أو أزمات ربوية عند الكثيرين من السجناء ، وقد قاسى إخواننا العاملون فى النسيج آلامًا مرهقة ، ولم نجد حيلة لهم كى

يفلتوا من هذا العقاب اليومى الرهيب.

أما العمل فى الترزية فهو أمر ميسور لحد ما ، ونحن كترزية لا نؤدى عملنا على ماكينات خياطة كما يتوهم البعض ، ولكن العمل يدوى ، أى بالإبرة والخيط ، فتأتى إلينا سترات السجناء وسراويلهم مفصلة جاهزة للخياطة ، ويمكننا أن ننتهى من كل بدلة خلال ساعتين ، فإذا ما علمنا أن نصيب كل سجين ترزى بدلتان أو ثلاثة أمكننا تقدير ساعات العمل ، وكان هناك بعض الصعايدة الفقراء المودعين تحت التحقيق أو الذين فى التخزين على استعداد لأن يخيطوا البدلة بسيجارتين فقط ، ولهذا كنت أخيط بدلة واحدة ، وأستأجير من يخيط لى الباقى ، وأدفع له أجره بالسجائر ، كنت أراه عملًا مملًا لا قيمة له ، وأفضل أن أقرأ فى كتاب أو أكتب شيئًا ، على أن أقضى الوقت فى هذا العمل الميكانيكى الذى يخلو من أى إبداع أو فائدة.

وكان أخى وزميلى فى الزنزانة الدكتور أبو بكر عثمان ترزيًا هو الآخر ، وكان يضحك ويقول: « عندما تتخرج من كلية الطب إن شاء الله بعد عمر طويل ، يمكنك أن تكتب على لافتة العيادة الخاصة « طبيب.. وجراح.. ومولّد.. وترزى.. وخِلافُه » ..»

ولم يكن أمامنا سوى أن نبتسم ونصبر ، ونتلقى هذه الأمور بالضحك والمرح. كان أغلبنا كما قلت « ترزية » طبقًا لتصنيف سيادة المدير ، ولم تكن ورشة الخياطة تتسع لعددنا الكبير ، ولهذا رأى المدير أن نقوم بعملنا فى الزنزانات التى نسكنها ، وكان هذا أفضل بالنسبة لنا.

الذى شغلنا فى تلك الفترة هو وضع نظام مناسب لحياتنا فى السجن تلك التى قد تمتد لسنوات لا يعلم إلا الله مداها ، ولهذا وضعنا أمام أعيننا بعض القضايا التى تحتاج إلى دراسة وأهمها:

أولا: انفصالنا فى دور خاص بنا من أدوار العنبر.

ثانيا: تحويل إحدى الزنازين إلى مكتبة نجمع فيها ما تيسر لنا من كتب ، والطلب من أهلينا تزويدنا ببعض الكتب المسموح بها ، فى شتى المجالات الثقافية ، واختيار واحد منا ليكون أمينًا للمكتبة ، كى يتول الإشراف والإعارة.

ثالثا – اختيار مسئولين عنا – بطريق الانتخاب المباشر – من بيننا ، حتى يتولوا الاتصال بالإدارة ، وحل مشاكلنا معها ، وتنظيم باقى أمور حياتنا والفصل فيما ينشب من خلافات.

رابعًا – تنظيم الإخوان فى أسر دراسية تعنى بالدراسات الدينية كالفقه والتفسير والسيرة والحديث ، والدراسات الاجتماعية والنفسية والسياسية المعاصرة ، وحفظ القرآن ، وتنسيق المواقف ، وتعلم اللغات الأجنبية..

خامسًا – وضع نظام مالى أو اقتصادى ، يعتمد على حصر الميزانية التى لدينا والتى تتوفر مما يرسله ذوونا شهريًا من مصاريف لنا ، حيث إن البعض منا ليس لديه مصدر مالى ، والبعض الآخر لا تصله المصروفات بطريقة منتظمة ، ولهذا فإنه كان من الضرورى إقامة نظام يكفل لكل سجين إخوانى الحد الأدنى من الطعام الإضافى أو الدواء أو الملابس الداخلية وغيرها.

سادسًا – تطوير مقصف السجن بطريقة توفر لنا بعض الأطعمة التى يمكن شراؤها بأموالنا الخاصة ، نظرًا لفقر الوجبات الغذائية الرسمية من حيث النوع ومن حيث الكمية.

سابعًا – التفاهم مع الإدارة حول إدخال النور الكهربائى فى الزنازين ، حتى ولو كان على حسابنا الخاص.

ثامنًا – تنظيم الزيارات ، والسماح لنا بكتابة الرسائل للأهل.

تاسعًا – الطلب إلى الإدارة بالسماح لنا بممارسة بعض الهوايات النافعة كالعمل فى التجارة بطريقة حرة ، أو تعلم الموسيقى ، وتشجيع الألعاب الرياضية ، والفن المسرحى ، والرسم والنحت وغير ذلك من الفنون حسب الرغبات.

عاشرًا – العمل على تحسين الوضع الوقائى والعلاجى فى السجن ، مع السماح لنا بفترة فسحة صباحًا وعصرًا..

وكانت المعركة الأولى التى خضناها تتعلق بانفصالنا في دور خاص بنا ، لأن ذلك يكتسب أولوية خاصة ، وعلى أساسه يمكن أن نسير فى تنفيذ المطالب الأخرى الحيوية ، واستخدمنا كل الوسائل الممكنة فى هذا المجال ، على الرغم من تعنت الإدارة ورفضها المتكرر ، ويبدو أنها كانت تنتظر الأوامر من المباحث العامة ، التي لها حق الإشراف علينا ، وإصدار الأوامر بخصوص التعامل معنا ، دون غيرنا من فئات المسجونين الأخرى ، وقد نما إلى علمنا أن المباحث وافقت على هذا الفصل أخيرًا ، حتى لا يكون اختلاطنا بالمسجونين العاديين وسيلة للتأثير عليهم ، وضمهم إلى صفوف الإخوان المسلمين ، قياسًا على ما سبق فى المحن السابقة أيام النقراشى باشا وإبراهيم عبد الهادى باشا ، وهكذا تم تسكيننا فى الدور الثانى « فوق الأرضى » من العنبر نفسه ، ولم يكن هذا الدور مكونًا من غرف كبيرة كالدور الرابع ، ولكنه عبارة عن زنازين صغيرة يسكن فيها ثلاثة أو خمسة ، لأن الأعداد الزوجية غير مسموح بها فى السكن لأسباب تتعلق بالحماية من الشذوذ الجنسى الذى يشيع بين المسجونين..

كان معى فى زنزانتى الأخ الدكتور أبو بكر عثمان والأخ الدكتور يحى عبد الرحمن ، وشعرنا بالارتياح الكبير ، وخاصة بعد أن أنشئت مكتبة فى إحدى الزنازين ، وأصبح أمينها الأخ المرحوم محمد أنور حسانين بموافقة مدير السجن ، وأصبح فحص أى كتاب يرد إلى السجن من الأمور الأساسية المتفق عليها.

كانت زنزانتى تجاور الزنزانتين الوحيدتين المخصصتين للمحكوم عليهم بالإعدام ، وزنزانة الإعدام لها تصميم خاص ، بالنسبة للحيطان والمقتنيات الداخلية والأثاث والباب؛ وذلك حتى لا يحاول السجين الانتحار ، وأمام الزنزانة يجلس السجان بصفة دائمة ليلًا ونهارًا ، وهذا السجان ليس وراءه عمل سوى مراقبة المحكوم عليه بالإعدام ، وهو غير السجانة المشرفين على الدور ، وكان هناك محكوم واحد فى إحدى الزنزانتين إسمه « مليكة » ، وهو شاب مسيحى قتل أباه ، ويرتدى البدلة الحمراء المخصصة لمن يصدر ضده حكم بالإعدام ، وهو فى انتظار التنفيذ أو قبول طلب النقض وإعادة المحاكمة ، كان مليكة شابًا صغيرًا فى أوائل العشرينيات من عمره نحيلًا وسيمًا ، يجلس معظم الوقت لدى الباب مع السجانة ، ويشاركهم الطعام ، وفى المساء كنت أسمعه يردد بعض الأغانى الحزينة ، ويظل على هذا المنوال حتى بعد منتصف الليل ، ولم يفقد مليكة الأمل أبدًا فى تخفيف الحكم ، وخاصة بعد أن تم قبول النقض من الناحية الشكلية ، وسرعان ما خلع الملابس الحمراء ، وارتدى الزى الأبيض الكالح الخاص بمن هم رهن المحاكمة ، ولم تطل فرحته ، فقد تم تأييد الحكم السابق ، وعاد إلى الرداء الأحمر ، وزنزانة الإعدام مرة أخرى ، لكنه رغم انتهاء الأمر على هذا النحو المؤلم ، إلا أنه – وهذا أمر غريب – لم يفقد الأمل.

إن الإنسان نادرًا ما ييأس يأسًا تامًا ، وهذا من رحمة الله ، وعادة تحاول الأفلام السينمائية أن تنقذ المحكوم عليه فى آخر لحظة ، وقبل أن يحرك « الجلاد » – أو كما يسمونه عشماوى – يده للتنفيذ ، وظل « مليكة » يأكل مع العسكر ، ويغنى فى المساء أغنياته الحزينة ، حتى كان يوم تهامس فيه المسجونون

بخبر عن مليكة وهو أن التنفيذ سيتم صباح الغد « فبراير ١٩٥٦ » ، وبعد فسحة العصر كان السجناء يعودون إلى زنازينهم ، وكنت أرقبهم وهم يصعدون الدرج ، فإذا ما مروا « بمليكة » الذى لا يعرف شيئًا عن الموضوع نظروا إليه فى حسرة وألم ، لم يكونوا يفكرون فى هذا الوقت فى الجريمة التى اقترفها ، ولكنهم يشعرون شعورًا معينًا نحو إنسان سيموت غدًا.. فى الصباح لم يفتحوا أبواب الزنازين فى المواعيد المقررة ، ونظرنا من النافذة ، وجدنا عددًا من كبار الضباط يعبرون الفناء ، ومعهم المدير العام ومدير السجن وقسيس وعرف البعض « عشماوى » الذى قدم خصيصًا لهذا الموضوع.. وبعد دقائق سمعناهم يصعدون الدرج للطابق الثانى لأخذ مليكة الذى لم يكن يدرى شيئًا.. قال السجانون فيما بعد أن مليكة عندما رآهم بعد أن فتحوا باب زنزانته ساد وجهه شحوب شديد كشحوب الموتى ، لم يستطع الحركة.. عاونوه على السير.. كان يهبط الدرج متهافتًا متهالكًا.. رأيناه من النافذة يسير مذهولًا.. أخذ يصيح واختفى صياحه بعد فترة.. بقينا متشبثين بقضبان النافذة.. وبعد فترة رأينا اثنين من العسكر يحملون « نقالة » ، وعليها جثة مغطاة تمامًا ببطانية تشبه جلد الفئران.. انتهى مليكة.. بعد دقائق كان صوت المفاتيح وهى تدور فى « كالونات » الزنازين يصل إلى أسماعنا بوضوح.. وعادت الحركة الدائبة فى السجن إلى طبيعتها مرة أخرى.. مثل أى يوم.. قال السجان الذى كان يحرس مليكة أمام زنزانته: « قدّس الله روحه ».

فى هذا اليوم لم يكن لدى أدنى رغبة للطعام: وكتبت بضعة أبيات من الشعر عن الإنسان والموت والحياة ، ولا أدرى أين ذهبت ، لعلها ضاعت أثناء حملات التفتيش المتتالية التى كنا نفاجأ بها من يوم لآخر..

وظلت زنزانة مليكة خالية لعدد قليل من الشهور ، ثم فوجئنا برجل جديد حكم عليه بالإعدام ، الشىء الغريب أننا لم نكن نتعاطف مع هذا الرجل بالذات ، كانت تهمته أنه تربص لأخته وقتلها ، من أجل أن يرث ربع فدان منها.. ستة قراريط من الأرض.. كان رجلًا يبدو بليدًا فى تصرفاته وكلماته وحركاته ، وكان مجرد النظر إلى وجهه يضايقنا ، ربما لارتباطه بجريمة تشمئز منها النفوس ، وكان جاهلًا متخلفًا فى كل شىء ، ولم يكن يكترث لهندامه الأحمر ، ولذا كثيرًا ما يسقط السروال الأحمر قليلا ، وكشف عن جزء من مقعدته ، وهو لا يبالى ، فإذا ما لفت أحد نظره إلى ذلك كى يعدل من هندامه لا يلتفت أو يكترث.. عندما ساقوه إلى تنفيذ حكم الإعدام ، وأخذ واعظ السجون يلقنه الشهادتين قال: « بتعدمونى علشان مرة « أى إمرأة »؟ »

- « إنها روح يا مسلم ...»
- « أنا قتلت عشرين واحدًا وما أصابنى شىء.. تقوموا فى النهاية تقتلونى علشان مرة؟ »

قال له المدير فى ضيق: « خلاص.. هنعدمك عشان واحد من العشرين اللى قتلتهم ..»

كانت مشاكلنا مع الإدارة لا تنتهى فهم يريدون تطبيق لائحة السجون بحذافيرها ، ونحن نجد فى بنود اللائحة الكثير من الظلم والفساد ، وكثيرًا ما حاولوا إفهامنا أن للسجون نظامها الراسخ منذ عشرات السنين ، وأنه من المستحيل أن يتغير شىء ، ومن المعارك الطريفة التى خضناها مع الإدارة معركة « الحمّام ».. فالمفروض أن كل مجموعة من السجناء يخلعون كافة ملابسهم فى باحة أمام الحمام ، ثم يدخلون عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، ويحشرون هكذا بالعشرات فى مكان واحد ، تحت المياه الساخنة

التي تنصب من صنابير في سقف الحمام، وكان هذا المنظر يبدو قبيحًا مقززًا، ولهذا ارتدينا «مايوهات» صغيرة صنعناها بأنفسنا من أقمشة ملابس سجن قديمة، كي نستر عوراتنا أثناء الاستحمام، ورفضت إدارة السجن لبس «المايوهات» بحجة أن الطبيب يقف ليتأكد من خلو السجين من بعض الأمراض المعدية، وخاصة التناسلية، وأصر النزلاء الإخوان على ارتدائها، وقالوا أن الطبيب يمكن أن يقوم بفحصه في أي وقت، لكل فرد على حدة، وبعد مداولات بين الإدارة قرروا إرغامنا على تنفيذ اللائحة وأوامر السجن.

قال أحد العلماء السجناء للمدير: «إن تصرفكم هذا يخالف الشرع والآداب الإسلامية»

قال المدير في سخرية: «ما سمعنا بهذا من قبل.. أنتم رجال»

وأردف الضابط زكي أمين: «كنا نستحم عراة في كلية الشرطة، فلماذا تعترضون على ذلك؟ أنتم رجال..»

رد العالم قائلًا: «يقول رسول الله ﷺ ما معناه «لعن الله الناظر والمنظور»..»

واستمر يدلي بعدد من النصوص والأدلة.

وأخيرًا قال المدير: «أوامر السجن لابد أن تُنفّذ..»

وانصرف بعد أن غمز بإحدى عينيه..

كنا نقف بدون ملابس اللهم إلا «المايوه» الصغير.. وانقض علينا السجانون بالعصي والأخشاب، وقامت بيننا وبينهم معركة على باب الحمام الكبير، ثم انطلقت الصفارات وساقونا إلى الزنازين.. وحرمنا من الاستحمام ذلك الأسبوع، وفي الأسبوع التالي، أنزلونا مرة أخرى للاستحمام.. قلنا لهم سوف نلبس المايوهات.. ولم نجد هذه المرة اعتراضًا.. وسعدنا بهذا الانتصار الصغير الذي بدا لنا كبيرًا جدًا.. ومن المؤسف أنه بعد أسبوعين حاول السجناء العاديون من مواطنينا الصعايدة أن يقلدونا فيما فعلنا، لكن إدارة السجن رفضت بشدة، ولقنتهم درسًا قاسيًا، إذ انهالوا عليهم ضربًا، وفرضوا عليهم طابورًا شاقًا من الجري السريع لأكثر من ساعتين، حتى أرهقوهم فاستسلموا لأوامر السجن، وظلوا يستحمون عراة.. ولم يكن في الإمكان أن نتدخل صراحة في هذا الأمر، وإلا اعتبره السجن تمردًا شاملًا، وفي هذه الحالة يستطيعون إطلاق الرصاص علينا جميعًا، واكتفينا بتقديم النصيحة – في إطار الآداب الإسلامية – كي يسمحوا للسجناء بما سمحوا به لنا، ولكن دون جدوى، وقال أحد الضباط: «بالله عليكم لا تفسدوا علينا الآخرين.. ثم إن ظروفهم، وطبيعة حياتهم، تختلف تمامًا عنكم..»

كانت ليالي الشتاء باردة طويلة، وكانت أطول مما في جعبتنا من أحاديث، وفكرنا أن نستغل هذه الساعات في القراءة، لكن كيف؟ إن الزنزانة غارقة في ظلام دامس، ويمنع منعًا باتًا إضاءة أي نوع من النار أو النور داخلها، واهتدينا إلى حيلة بدائية قررنا تنفيذها رغم المخاطر، إن كمية قليلة من زيت الطعام بها فتيل من القطن أو الخيوط السميكة تستطيع أن توفر لنا شعلة صغيرة تشبه الشمعة ونستطيع أن نقرأ في ضوئها، وقمنا بتنفيذ المشروع، وهو لا يحتاج إلا إلى غطاء علبة ورنيش «طلاء الأحذية» صغيرة، نملؤها ببضع سنتيمترات مكعبة من الزيت.. ثم نشعل الفتيل.. ولكي لا يرانا خفر الليل في الفناء الخارجي، كان لابد أن نسد النافذة تمامًا بعدد من ستراتنا الزرقاء حتى لا يظهر النور، ومع ذلك فقد سمعنا حارس الليل يصرخ في الفناء: «اطفي النور يا دور ٢».

آه.. إذن لا فائدة، إذا تجاهلنا الأوامر، فإن ذلك سوف يجر علينا «التأديب» والجلد، لهذا أطفأنا النور واستجبنا للأمر، وكان رأيي أن يقوم الإخوة المسئولون عنا بالتفاهم مع العسكر حول هذا

الموضوع ، ولا بأس من أن ندفع لهم مبلغًا شهريًا من المال ، حتى يغمضوا أعينهم عن هذه المخالفة ، وقد نجحت الخطة ، واستطعنا بذلك أن نستفيد من الساعات الطويلة المهدورة التى تشكل جزءا من أعمارنا ، وقد اندمجت فى هذه الفترة فى قراءة تفسير ابن كثير ، وهو من أكثر التفاسير رواجًا بين الإخوان المسلمين فى تلك الفترة ، لقد حفظت الكثير من القرآن الكريم ، وكنت أعيد قراءته من وقت لآخر ، هذا حسن ، لكنه لابد أن أركز بعد ذلك فى فهم الآيات ومعانيها وأحكامها ، فالقرآن لا شك هو المدرسة الحقيقية للمسلم ، وهو النصوص التى نريد أن نطبقها فى واقع الحياة ، ولا يمكن أن يكتسب المؤمن صفة الداعية الحقيقى إلا إذا عرف تفسير القرآن ، فهو المؤهل الأساسى له.. كنت أقرأ التفسير ليلا ونهارًا بنهم وشغف ، وكنت أقلق لمجرد التفكير فى أنه ربما تواجهنى عقبة ، أو أصاب بمرض ، أو أودع الحياة قبل أن أنتهى من التفسير ، لقد بدا ذلك فى هذه الفترة أمرًا بالغ الأهمية أكثر من أى شىء آخر فى الحياة.. والحمد لله فقد استطعت أن أنجز ذلك فى حوالى ستة شهور.. وكنت فى غاية السعادة.

وخلال انهماكى فى قراءة التفسير ، كنت أناقش بعض إخوانى من العلماء فى بعض الأمور التى تحتاج إلى إيضاح ، فكانوا يبدون رأيهم ، أو يوجهوننى إلى تفاسير أخرى تفيض فى هذا الجانب أو ذاك..

ثم ظهرت تصريحات للمسئولين فى وزارة الداخلية نشرتها الصحف ، وهى تؤكد حق السجين فى أداء الامتحان بالجامعات أو المدارس ، ولقد فرحنا لهذا الأمر فرحًا شديدًا ، لأن ذلك كان سائدًا فى السجون قبل الثورة ، ثم توقف بعد قيامها ، وبادرت بتسطير رسالة إلى مدير عام مصلحة السجون أطلب فيها السماح لى بأداء الجزء الأول من امتحان بكالوريوس الطب فى نهاية العام ، وانتظرنا وأخيرًا جاء الرد إلى المدير ، وكان فيه:

« نرجو تفهيم المسجون « ......» أن القرار الخاص بالامتحانات لا ينطبق عليه ..»

لقد ذابت فرحتنا وتبخرت ، وواضح أن السجين السياسى لن يسمح له بالامتحان.. وعلق أحد الضباط قائلا: « هل يعقل أن يأخذوا هذه الأعداد الكبيرة من الإخوان إلى لجان الامتحان؟ أنتم تحتاجون إلى فرقة كاملة من الجيش كى تحرسكم »

لقد كان السجين فى عصر ما قبل الثورة يعامل معاملة « أ » أما السجين العادى فيعامل معاملة « ب » ، ومعاملة « أ » فيها الكثير من الميزات التى تتعلق بالغذاء الجيد ، والمكان المريح ، والزى المناسب ، وغير ذلك ، وعندما جاءت الثورة قالوا أنهم سيجعلون من جميع السجناء فئة واحدة هى فئة « أ » ، والحقيقة أننا فوجئنا بأن الجميع فئة « ب » ، لقد ضاعت كل الميزات الخاصة بالسجناء السياسيين بما فيها السماح بأداء الامتحانات ، وهكذا فرضوا علينا التخلف والتوقف تمامًا فى مجال المراحل الدراسية المتتابعة.. ألا يحق لنا أن نهتف من أعماقنا عاشت الثورة.. ثورة الشعب.. ثورة العلم والحرية..؟

***

[٣] ليالى السجن القاتمة



الرعاية الصحية فى السجون رديئة، ولست أعرف سببًا وجيهًا لذلك، فإذا كان الهدف من وراء الإهمال الصحى هو مزيد من تعذيب السجين أو تأديبه، فهو أمر فى غاية الغرابة، لأن عقوبة الحجز والطعام الردئ، والحرمان الجنسى الشرعى، والعمل المرهق، والإذلال اليومى وغير ذلك يكفى، ولقد حدث ذات ليلة أن سمعنا فى الدور الأرضى «حيث يسكن من هم رهن التحقيق والمحاكمة، ولم تصدر ضدهم أحكام بعد» دقًا عنيفًا على باب الزنزانة رقم «..»، وجاء السجان خفر الليل بخطى بطيئة مسموعة جيدًا، لأن وقع حذائه الثقيل على البلاط يسرى أثناء الليل بوضوح، وقال بصوت جاف:

- «إيه الحكاية يا ولد؟»
- «مريض يا شاويش.. واحد مريض جدًا ..»
- «طيب.. ناموا للصبح ..»
- «الرجل تعبان وممكن يموت ..»
- «فى ستين داهية ..»

وانصرف السجان، لكن لغط المسجونين لم يتوقف، وكأنما سد السجان أذنًا بطين وأخرى بعجين كما يقولون، وبعد دقائق عاد المسجونون للدق على الباب مرة أخرى بمزيد من العنف، وأخذوا يتوسلون للسجان كى يبلغ الإدارة أو الطبيب بالأمر، لأن المريض على وشك الموت، وحتى يكفوا عن الدق، قال السجان: «خلاص.. بلّغنا الإدارة»

المعروف أن السجان لا يستطيع فتح باب الزنازين أثناء الليل، لسبب بسيط وهو أنه لا يحمل مفتاحًا، بل إن السجان نفسه داخل العنبر لا يستطيع الخروج، لأن العنبر مغلق أيضًا، وفى الحالات الطارئة الشديدة يقوم السجان خفير الليل بإخطار زميله فى فناء السجن؛ فيذهب الأخير إلى الضابط الخفر «النوبتجى» ويبلغه بالواقعة، ويقوم الضابط بعد ذلك بإعلام المأمور أو المدير فى بيته.. المهم أن باب أى زنزانة لا يفتح فى الليل إلا بأمر قائد السجن وبحضوره فى الحالات الخطيرة..

وبعد ما يقرب من نصف ساعة سمعنا صراخًا وعويلًا، وجاء صوت من أسفل يعلن فى مرارة: «المسجون مات يا كفرة يا مجرمين ..»

وحدثت ضجة هائلة فى الأدوار الأربعة عقب إعلان هذا النبأ المحزن، وأخذت كل الأيدى تدق الأبواب الصلدة فى غضب وسخط هائل، وظل الأمر على هذا النحو حتى سمعنا الصفارات والنداءات المميزة التى تعنى أن مدير السجن قد أتى أخيرًا.. وانقطع الدق على الأبواب وساد الصمت، وأخذنا نتسمع لما يجرى، فهمنا أن الطبيب حضر وكذلك المدير وعدد من الضباط، سمعنا أحد المسجونين الصعايدة ينوح قائلًا: «الرجل مات يا بيه.. دا لو كان بهيمة كان يصعب علينا ..»

رد اللواء و« الشاعر » عطوة حنفى مدير السجن قائلًا فى رقة مبالغ فيها: « يا بنى دا عمره لغاية كده.. قسمة ونصيب يا حبيبى.. لا الدكتور ولا ألف دكتور يقدر يمد فى عمره دقيقة.. لازم تكونوا مؤمنين بقضاء الله وقدره.. ياللا يا بنى انت وهو شيلوه لبرة عشان ننقله إلى المستشفى.. الله يرحمه ويرحمنا جميعًا ..»

صاح أحد الإخوان المسلمين فى الدور الثانى قائلًا: « لكن هذا ظلم وإهمال ...»

قال المدير فى غضب ممزوج بالسخرية: « خليك فى حالك إنت وهوه.. مالكوش دعوة بغيركم ولا عايزين تشعللوها نار؟ أنا عارفكم كويس.. الصعايدة رجال ومؤمنون بالله ..»

انتهى الأمر بسرعة ، وعاد الهدوء إلى العنبر بعد نقل المتوفى ، وإغلاق باب الزنزانة وخروج الطبيب وبقية الحاشية ، وفى الصباح علمنا من رفاق المتوفى أنه كان مريضًا منذ أيام ، وكان يشكو من حمى وهذيان وآلام بالبطن وصداع ، وأنه ذهب إلى الطبيب أكثر من مرة ، ولم يكن يقوم بفحصه بل يكتفى بالنظر إليه ، ثم يصرف له قرصين من الأسبرين وجرعة واحدة من مزيج معين يضعها له الممرض السجان فى فمه.

ولقد جرت العادة أن يجرى تشريح مبسط لأى سجين يموت فى السجن ، وقد علمنا فى اليوم التالى أنه تم تشريح جثة السجين ، وأن الجثة ما زالت فى المشرحة ، ولم تسلم بعد لأهل السجين ، واقترح علينا الأخ الدكتور أبو بكر عثمان « السودانى الجنسية » ، أن نحاول فحص الجثة بأية طريقة ، وكان لنا صديق سجان طيب القلب ، أخبرناه أننا طلبة فى كلية الطب ، وأن التشريح مادة أساسية عندنا ، وطلبنا منه فقط أن نلقى نظرة على الجثة ونطلع على طريقة تشريحها حتى نتعلم درسًا عمليًا ، وتردد السجان فى البداية ، لكن علبتين من السجائر كانتا كفيلتين بإنهاء تردده ، واشترط علينا أن نذهب تحت إشرافه إلى حجرة المشرحة فى وقت الظهيرة ، حيث يكون المدير قد ذهب إلى مسكنه للغذاء ، والضباط ذهبوا للاستراحة الخاصة بهم ، وكذلك باقى السجانة ، وذهبت أنا وأبو بكر وزميلنا الثالث الدكتور يحى عبد الرحمن ، ودلفنا إلى الغرفة وأغلقنا الباب ، ومعنا السجان الذى لم يطق النظر إلى الجثة ، فانصرف مؤكدًا علينا أن ننتهى بسرعة من هذه المعاينة « المقرفة » على حد قوله..

كان هناك شق طولى مخيط فى البطن يمتد من أسفل الصدر إلى قرب منطقة العانة ، ومد أبو بكر يده وأمسك بطرف الخيط ثم شده برفق فانفتح الشق وتبدت أمامنا الأحشاء الداخلية ، وأخذنا نفحص المعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة والكبد وغير ذلك ، وأخيرًا اكتشف الدكتور أبو بكر ثقبًا فى الأمعاء ومظاهر التهابات فى الغشاء البريتونى وربما بعض الأنزفة ، وكان الاحتمال الأكبر أن المتوفى أصيب بالتيفوئيد ، ولم يتيسر له الغذاء أو الدواء النوعى ، وكان الإهمال سببًا فى حدوث هذه المضاعفات المميتة.. وأخيرًا جاء العسكرى وقال: « أسرعوا حتى لا يأتى أحد الضباط ونقع فى مصيبة ..»

وخلع أبو بكر طاقيته الزرقاء ، واستخرج منها إبرة الخياطة « فقد كان يعمل فى السجن ترزيًا مثلى » ، وأعاد خياطة الشق مرة أخرى كما كان ، ثم أسرعنا بالعودة إلى الزنزانة. وكان لابد أن نغسل أيدينا جيدًا ، ونعقمها بالمطهرات مخافة العدوى ، وخاصة أننا كنا نعمل دونما قفازات.. ومع اتخاذ الاحتياطات إلا أننى بقيت يومين أشعر بالغثيان وفقدان الشهية ، وكان مجرد النظر إلى الطعام يثير المزيد من التقزز فى نفسى ، وأذكر أننى كتبت خلال تلك الفترة قصيدة وأذكر أيضًا أن مطلعها كان:

أيها النائم هل نلت السلاما بعد أن ذقت الأسى عاما فعاما

ويبدو أن مجهولا قد أبلغ النيابة العامة فى أسيوط بأن المتوفى فلان قد عانى من الإهمال فى السجن، ولم يخف أحد لنجدته أو علاجه أثناء مرضه. وفى يوم من الأيام وجدنا حركة غير عادية فى الدور الأرضى، بل إن المدير قد أتى بنفسه والتقى على انفراد بسكان زنزانة الفقيد، كما قام الضباط والسجانة بالمرور على بقية الزنازين الأرضية والتفاهم مع أصحابها، وكان واضحًا أن هناك شكوى، وأن النيابة العامة قادمة للتحقيق أو التحرى عن الحالة، ونجحت التمثيلية..

خاف المسجونون أن يدلوا بالحقيقة، وأجابوا على الأسئلة التى وجهت إليهم طبقًا لتعليمات المدير والسادة الضباط، وكان التركيز فى التحقيق مع من كانوا مع المتوفى فى الزنزانة، ولم يكن صعبًا على الطبيب أن يستكمل ملف المريض وعلاجه بالطريقة المثلى.. و.. حفظت الشكوى..

والمعروف أن النيابة تقوم بالمرور دوريًا على السجون حتى بدون شكوى، لكن الشىء الملفت للنظر أن النيابة لم تفكر مرة واحدة فى المرور على الدور الذى يسكن فيه الإخوان المسلمون المسجونون.

لكن هل هذا الإهمال الصحى موجود دائمًا؟

هناك أولًا بعض أهالى المسجونين المرضى الذين يذهبون إلى طبيب السجن فى عيادته الخاصة، ويتم التفاهم معه حول دفع تكاليف العلاج والدواء الذى يشترى من الخارج للسجين، عندئذ ينقل السجين المريض إلى مستشفى السجن، ويتم علاجه على النحو الكامل، وقد تجرى له إحدى العمليات الجراحية المسموح بها إذا لزم الأمر، وهناك ثانيًا التوصية من شخصية ذات حيثية، عندئذ تقدم الرعاية التامة للسجين المريض، وهناك ثالثًا الشكوى التى يبعث بها أهل السجين إلى وزارة الداخلية أو مدير مصلحة السجون، فتقوم الإدارة العامة فى القاهرة بطلب تقرير صحى عن السجين المريض الذى أرسلت من أجله الشكوى، ولابد أن يكون التقرير الرسمى مطمئنًا، وقد تشير الإدارة بإحالة المسجون للعلاج فى إحدى مستشفيات المدينة تحت الحراسة إذا لزم الأمر، وبهذه المناسبة أشير إلى قصة أخينا محمد البكرى السجين فى بنى سويف، إذ قاسى كثيرًا من آلام وانسكاب وتورم فى إحدى ركبتيه، ولما عجز عن الحصول على دواء ناجع، أرسل شكوى لجمعية «الرفق بالحيوان».. طالبًا منهم أن يعتبروه حيوانًا، وأن يساعدوه فى العلاج كما يعالجون الحيوانات، وأثارت هذه الشكوى ضجة عندما أحيلت من جمعية الرفق بالحيوان إلى الداخلية؛ ثم إلى مصلحة السجون، وصدر الأمر بترحيله من سجن بنى سويف إلى سجن القاهرة كى يعالج فى القصر العينى. ولا أنكر أن هناك بعض أطباء السجون الذين كانوا على جانب كبير من النزاهة والعدالة والإنسانية، وأخص بالذكر منهم الجراح الدكتور إبراهيم زكى الذى كان يعمل فى مستشفى سجن القاهرة، هذا الرجل كان جديرًا بشرف المهنة.

وإزاء ذلك كان علينا أن نعتمد على أنفسنا كلية فى تنظيم الرعاية الصحية والعلاج بسجن أسيوط، واستطعنا توفير الأدوية الضرورية، وشدّدنا على الالتزام بالقواعد الصحية الوقائية، واستطعنا التنسيق مع طبيب جديد حل محل الطبيب القديم فى إجراء الجراحات البسيطة بالمستشفى، واكتسبنا - كطلبة طب - خبرة لا بأس بها، كما تفاهمنا مع الإدارة حول الاهتمام بالمقصف الذى نشترى منه بنقودنا، وزيادة عدد الأصناف التى تباع فيه، مع التركيز على أنواع الأغذية الضرورية للصحة، لأن طعام السجن كما ألمحنا كان رديئًا من حيث النوعية، وقليلًا من حيث الكمية، وإنى لأذكر كيف أن كمية الأرغفة «ثلاثة فى اليوم لكل سجين» لم تكن تكفينى، وبحثت عن وسيلة لشراء الخبز من الخارج دون جدوى، وفى أحد الأيام أخبرنى أحد السجناء الصعايدة أنه بإمكانى أن أشترى خبزًا بالسجائر من المسجونين العاملين فى مخبز السجن، إذ كانوا يبيعون ١٢ رغيفًا بعلبة سجائر، ولكن أحد الإخوة

أصدر فتوى بأن هذا حرام، لأنه خبز مسروق من خبز المساجين المساكين، وأن عمال المخبز يقتنصون من كل رغيف جزءًا يسيرًا حتى يستطيعوا فى النهاية أن يزيدوا عدد الأرغفة، ويبيعوا الكميات الزائدة، ويعطوا الحراس كمية منها، وقد يرمون عددًا كبيرًا فى أماكن النفايات التى تجمع كل يوم..

ومن الطريف أن معركة فقهية اشتعلت حول هذا الموضوع، وكان رأيى أننا فى حالة اضطرار، وأننا نعانى من فقر التغذية، ومعرضون للأمراض المعدية، والسجن يرفض شراء الخبز لنا من خارج السجن، وأمام سطوة الجوع ذهبت إلى الفرن، ودفعت علبة سجائر، وعدت باثنى عشر رغيفًا.. وعندما صعدت الدرج ومعى صف الأرغفة سألنى أحدهم:

- « ما هذا؟ »

قلت: « خبز حرام ..»

- « أعوذ بالله.. أتقبلها على نفسك؟ »

- « كى لا أموت جوعًا ..»

وفى الزنزانة رفض الإخوة مشاركتى فى أكل الخبز الذى اشتريته، كان خبزًا طازجًا لذيذًا، وكنت آكل منه بنهم دون ادام، ولأول مرة أشعر بالشبع الحقيقى، وتمنيت لو أن معى بضع حبات من الزيتون الأسود، أو قطعة من الجبن أو حتى بصلة.. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة..

والحقيقة أن مشكلة « الرغيف » ظلت تؤرقنا، وظللنا دون جدوى نبحث عن حل، صحيح إن بعض المسجونين أو السجانين كانوا يهدوننا أحيانًا عددًا من الأرغفة الإضافية، لكنها كانت قليلة لا تغطى العجز الكبير الذى نعانى منه، ولكن المشكلة حلت مع الزمن.. كيف؟ بالطريقة التى نفذتها من قبل.. لقد تحمل كل واحد وزره وأخذت الغالبية تشترى الخبز بالسجائر، ومع ذلك فقد بقى عدد من الإخوة مصرًا على موقفه من أنه خبز حرام لا يصح شراؤه.. وليغفر الله لمن استسلم لشهوة بطنه.. والحقيقة أننا كنا نشترى من « كيروسين » السجن وزيت السجن وقماش السجن لنصنع لأنفسنا ملابس إضافية كافية مناسبة، وكنا نستعمل الكيروسين مع قطع القماش البالية ونشعل منهما نارًا لتسخين الطعام أو عمل الشاى أو القهوة، على الرغم من أنه أمر غير مسموح به، كما كنا نستعمل الزيت فى إشعال فتيل للإضاءة، ولإضافته على الفول أو الجبن.. وكنا نشترى الشاى المهرب من السوق السوداء فى السجن، ولم أجد سببًا وجيهًا للسماح شرعًا بشراء الكيروسين والزيت والقماش، وتحريم ذلك بالنسبة للخبز، علمًا بإصابة البعض منا بمرض السل، أذكر منهم « عزت غريب » الذى كان يعالج مع الشهيد « سيد قطب » والزميل « إبراهيم الصياد » فى المصحة. مرة أخرى أقول.. ليغفر لنا الله.. فإن الجوع كافر كما يقولون.

ولقد كان فى سجن أسيوط سجين شهير إسمه « على إسماعيل » محكوم عليه فى قضية مخدرات، ولعب هذا الرجل دورًا بارزًا فى إحضار الممنوعات إلينا بعد دفع ثمنها، كان تعاونه معنا صادقًا وأمينًا.. وله قصة مثيرة فيها الكثير من الطرافة والعبرة.. أذكرها كنوع من الترفيه أو التسلية.

لقد سجن « على إسماعيل » فى قضية مخدرات قبل ذلك، ثم خرج منها بعد قضاء المدة المحكوم عليه بها، لكن كان سوء حظه يترصده، فقد توقع ضابط المباحث أن على إسماعيل - كحشاش قديم - لابد وأن يحتفل بمناسبة خروجه من السجن، والاحتفال فى مثل هذه الحالة معروف، وينصب

أساسًا على « الجوزة » و« رصّ التعميرة » ، وداهم الضابط منزل « على » بعد إذن النيابة وأمسك به وفتشه وأخرج الحشيش من جيبه ، وسيق مرة أخرى إلى السجن ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات مع الشغل ، ولذا كان على يشعر بحقد هائل نحو هذا الضابط واسمه « أحمد مكى » ، لكن ماذا يفعل « على » العاجز المقهور السجين؟

كان « على » ينتظر آذان المغرب ، فإذا ما صاح المؤذن « الله أكبر الله أكبر » تبعه على الفور صوت « على إسماعيل » وهو يردد:

« الله أكبر فيك يا أحمد يا مكى »

« أذان فى كل مكان يا أحمد يا مكي

ربنا ينتقم منك »

« ويخرب بيتك.. زى ما خربت بيوتنا يا أحمد يا مكى »

وظل « على إسماعيل » يفعل ذلك دون انقطاع طوال العام الأول من السجن وجزءًا من العام الثانى ، وأصبح ذلك مألوفًا كل مغرب شمس.. وفى أحد الأيام قرأنا فى جريدة الأهرام المهربة إلينا عن حادثة وقعت فى « أسيوط » إذ قام الضابط أحمد مكى بحملة تفتيشية على الجزارين وقبض على عدد منهم يبيعون اللحم بأكثر من التسعيرة ، وهاج الجزارون وماجوا فى السوق ، وهاجموا أحمد مكى بالسكاكين وهو فى وسط عسكره ، ثم نقل إلى المستشفى فى حالة سيئة بين الموت والحياة ، وانتشر الخبر فى أنحاء السجن بسرعة ، ووقف على إسماعيل فى فناء السجن فى حالة من الفرح لا مثيل لها ، كان محتقن الوجه ، تعروه دهشة من نوع غريب ، والمساجين يأتون إليه أفواجًا للتهنئة ، لقد استجيبت دعوة على إسماعيل ، واعتبره النزلاء رجلًا خطيرًا ، بل وصالحًا أيضًا ، أليس مستجاب الدعوة؟ وساد حوله جو من المرح والضحك.. ثم مات الضابط أحمد مكى فى اليوم التالى متأثرًا بجراحه.. كان معنا فى السجن آنذاك الزميل الأخ فؤاد شاكر مذيع التليفزيون ومقدم البرامج الدينية فيما بعد ، وأخذنا معًا نعلق حول الموضوع ، واقترحنا أن نتقدم لعلى إسماعيل برجاء أن يحول دعواته من أحمد مكى الذى انتهى أمره إلى دعوات ضد الرئيس.. كان الأمر فى حقيقته نوعًا من المزاح ، وإن كان يعبر عن مكنون ضمائرنا نحو من ظلمنا.. وقررنا أن نعطى على إسماعيل عددًا من علب السجائر ثمنًا لذلك.. وعرضنا عليه الأمر فصمت برهة ثم قال: « يا إخوان اعذرونى.. دى مصيبة كبيرة لا أقدر عليها ..»

وأخذ يشرح لنا وجهة نظره التى تتركز فى أنه لو فعل ذلك لاعتبرته الحكومة من الإخوان وهذه كارثة كبرى ، وأفهمنا أن تهمة المخدرات أمرها سهل ، وعقوبتها محتملة ، لكن تهمة الإخوان قد تقذف به إلى الليمان ولا يخرج منه أبدًا ، وطبعًا هناك أمر آخر لم يفصح عنه على إسماعيل وهو أن الرئيس صعيدى مثله ، وعصبية الصعايدة تراعى هذا الجانب مراعاة شديدة ، وأمام إصرارنا وإلحاحنا نزل على إسماعيل على رغبتنا.. وانتظرنا موعد أذان المغرب ، وما إن انطلق صوت المؤذن ، حتى سمعنا صوت يقول:

« الله أكبر فيك يا اللى فى بالي

أذان فى كل مكان يا اللى فى بالى »

« ربنا ينتقم منك ، ويخرب بيتك زى ما خربت بيوت المظاليم يا اللى فى بالى ...»

وضج السجن كله بالضحك العالى والتعليقات المرحة.. وأخذ بعض الإخوان فى الدور الثانى يعتبون عليه عدم الالتزام ببنود الاتفاق ، واتهموه بالخوف والجبن مما لا يتفق وطبيعة الرجل الصعيدى ،

وفى اليوم التالى بعد أن فتحت الزنازين التقينا مع على إسماعيل وأخذنا نصب عليه أقسى ألوان التقريع والملام، وأخذ على يشرح لنا الأمر من وجهة نظره.

أخبرنا أن الصعيدى شهم وذو أنفة، لكنه إذا سجن لا يفكر فى مقاومة السلطة داخل السجن، بل يرضخ لإهاناتها دون اعتراض، ولا يعتبر عدوان الحكومة عليه وهو سجين أمرًا يتنافى مع كرامته، كما أنه رجل متخصص فى المخدرات، ويعتبر السياسة أمرًا لا يخصه ولا يتناسب مع شخصيته، لأنه لم يحلم فى يوم من الأيام أن يدخل الانتخابات، ومن المستحيل أن يكون موظفًا، وبلور فكرته فى جملة واحدة: « أنا راجل صاحب مزاج وبس... وإن شاء الله تخرب مالطة » ثم عاد يطرح علينا حلًا وسطًا وهو أن نختار اسمًا آخر من الأسماء التى آذتنا بحيث لا يكون عضوا فى مجلس الثورة، وهو على استعداد لأن يدعو عليه، واقترح عليه أحد الإخوان اسم الضابط « أحمد صالح داود »

- « توفى عام ١٩٨٦ »، الذى عرف بشدة الإيذاء أثناء التحقيقات التى تجرى مع الإخوان فى السجن الحربى أو سجن القلعة أو مقر المباحث العامة، ووافق على الفور، ونفذ وعده لمدة ثلاث ليال فقط.. ثم صمت..

الحقيقة أن « على » هذا كان خفيف الظل، يذكرنى بشخصية « زوربا اليونانى » فى الرواية الأدبية الشهيرة، كان طوله الفارع ونظرته وطريقته فى الكلام، وأخذه الحياة دون اهتمام، ثم خروجه من ورشة النسيج التى يعمل فيها إلى ما بعد العصر، ثم وقوفه يرقص وسط حلقة كبيرة من السجناء.. كل ذلك كان يذكرنى بشخصية « زوربا اليونانى » وكنت أسمى رقصته تلك برقصة « النول »، فقد كان يحرك ذراعيه ورجليه ورأسه حركات تشبه حركته وهو ينسج، وهو عمل شاق مرهق كما قلنا.. يظل يرقص ونحن نصفق له على « الواحدة » حتى تنطلق صفارات العسكر، ونتجه صوب باب العنبر، بسبب اقتراب موعد « التمام » النهائى، و« التمام » يعنى حصر المسجونين فى زنازينهم، ثم إغلاق الأبواب عليهم حتى الصباح.

ولقد كانت علاقاتنا بالمسجونين طيبة، وكونا معهم علاقات وطيدة رغم فصلنا عنهم فى السكن، وكانت هذه العلاقة ضرورية من وجوه عدة، أولها معنى الإخوة الإسلامية الإنسانية، وثانيها التعاون فى الحصول على بعض ما نريد من ضروريات لا توفرها لائحة السجون، وثالثها أهمية التعريف بقضيتنا والمبادئ التى ندعو إليها، بالإضافة إلى تبادل المصالح، فقد كانوا مثلا يحتاجون إلى بعض الأدوية المتوفرة لدينا، كما كان بعضهم يقوم بتقديم بعض الخدمات لنا مقابل أجر زهيد، وكانوا أيضًا يساعدوننا فى تهريب بعض الخطابات التى نبعث بها للأهل، لأن التفتيش بالنسبة لمن يخرج منهم من السجن للمحاكمة أو العلاج يكون تفتيشًا هينًا أما نحن فكنا نخضع دائمًا داخل السجن أو عند الزيارة أو الخروج للعلاج لتفتيش دقيق جدًا.. ومع ذلك فقد حدث ذات يوم أن قام أحد الضباط بتحريض الصعايدة « الأسايطة » ضدنا لتأديبنا، وفى هذه الأزمة انحاز لنا السجناء « السوهاجية » الذين يجيدون اللعب بالعصا، كما إن عددًا قليلا من الأسايطة لفت نظرنا إلى المؤامرة، ولم يحدث احتكاك والحمد لله، فقد انكشفت المؤامرة، وتأذى منها العقلاء من رجال أسيوط، وأعلن المسجونون السوهاجية وقوفهم إلى جوارنا، وهكذا مرت الأزمة - كما قلت - بسلام، وقررنا أن نزيد من توطيد علاقاتنا مع السجناء العاديين، كما أصبح أيضًا من الضرورى أن نتعلم اللعب بالعصا، من يدرى فقد نحتاج إليه فى وقت من الأوقات، والحقيقة أن تعلم ضرب العصا فن جميل، يحتاج إلى ذكاء ومهارة، وكانت حلقات اللعب بالعصا تنصب كثيرًا فى فناء السجن، ونحتشد حول المتبارزين لنسعد بهذا الفن،

ونحاول تعلمه ، كان اللاعب يستطيع أن يغطى جسده كله ورأسه بعصاه ، بحركاته الماهرة السريعة ، وبعد أسابيع استطاع البعض منا أن يدخل الحلبة ، كنا مبتدئين ، وكان إخواننا الصعايدة يعرفون ذلك ، ويلعبون معنا برفق ، حتى وصلنا مرحلة لا بأس بها من المعرفة لأسرار هذا الفن... والبراعة فى استعمال لعبة العصا قريبة الشبه بلعبة « الشيش »..

واستطعنا إقناع الإدارة بإنشاء ملعب للكرة الطائرة ، وتكون منا فريق قوى ذاع صيته خارج السجن ، حتى إن الجامعة الشعبية بأسيوط أرسلت فريقًا لينازلنا فى مباريات عدة ، كانت مسلية وجميلة ، كما وافقت الجامعة الشعبية أيضًا على أن ترسل إلى السجن بعض مدرسى الموسيقى لنتعلم منهم النوتة الموسيقية والعزف على الآلات ، وسمح لنا بشراء عدد من هذه الآلات ، واخترت أنا آلة « الكمان » لأتدرب عليها ، وقد نجح فى فن الموسيقى عدد من الإخوان على رأسهم الأخ عبد الرحمن الجناينى الذى حقق درجة من الإتقان جعلته يستطيع العزف « سماعيًا » ، وكانت الآلات المتوفرة لدينا آنذاك الكمان – العود – الماندلين – الهرمونيكا – الناى – الطبلة – ...الخ. واستطعنا تكوين فرقة كانت تعزف فى حفلات السجن وفى المناسبات ، أما بالنسبة لى فقد كان تقدمى فى الموسيقى بطيئًا ، وعندما عزفت لحن « النهر الخالد » أمام بعض الإخوة ، علق الأخ حسين عاشور « رئيس تحرير المختار الإسلامى فيما بعد » قائلًا: « ليس هذا النهر الخالد.. إنه « الترعة البولاقية » ....»

لكنى مع ذلك كنت مرتاحًا لأنى عرفت على الأقل ما الموسيقا.

أما أخونا فؤاد شاكر فقد تفرغ « للرسم »؛ واستطاع أن يقدم عددًا من اللوحات الرمزية الجميلة ذات المعانى العميقة ، وأذكر أن بعض لوحاته كانت تتخذ آية من القرآن أو جزءًا من آية عنوانًا لها ، كما رسم لوحة رمزية جميلة تحت اسم الإمام الغزالى ، وقد استطاع أخونا الأستاذ « على عثمان » فى سجن بنى سويف أن يحقق إنجازًا فنيًا ضخمًا ، حينما أعد لأول مرة فى تاريخ السجون معرضًا للوحاته التى استوحاها من حياة السجون ، وقد أشادت الصحف المصرية فى تلك الفترة بنجاح على عثمان ، واعتبروه موهبة ممتازة ، علقت الجمهورية على نجاحه تعليقًا هامًا ، لكنها أضافت قائلة: « ... تذكر أيها الفنان هؤلاء الذين وضعوا فى يدك القنبلة... والمسدس... وقالوا لك اقتل شعبك... اقتل أهلك.. اقتل وطنك ..» ونسيت الجريدة أن على عثمان المسكين لا يعرف شيئًا عن هذا كله ، ولم تلمس يده طول حياته قنبلة أو مسدسًا ، وإنما كانت التهمة الموجهة إليه هى أنه جمع بعض القروش كإعانات لأسر المسجونين ، وكان يمكن أن يصل على عثمان لدرجة كبيرة من التفوق لولا أنه هجر الصحافة ، وقنع بوظيفة فى وزارة التربية والتعليم بالكويت تدر عليه دخلًا ممتازًا ، وكان يعمل فى مجال إخراج الكتب..

وهناك فئة من الإخوان انصرفوا إلى هوايات أخرى لتمضية وقت السجن ، كهواية فن « الأركيت » والنحت ، والنجارة ، وتأليف الكتب ، وفنون الأدب المختلفة كالشعر والمسرح والقصة ، وقد نبغ فى هذا المجال أخونا الدكتور عبد الفتاح الحسينى « فى القصة والمسرحية » ، لكنه تفرغ فيما بعد لعلم الطبيعة النووية الذى أصبح أستاذًا وعالمًا فذًا فيه فى بريطانيا ، كما نبغ فى القصة أيضًا الأخ المهندس أنور رياض والأخ على جمال الدين ، وفى الدراسات محمود هاشم ، وغيرهم كثيرون وفكرت مع مرور الأيام أن أنشىء مجلة حائط يكتب فيها الإخوان ويعبرون عن أفكارهم وآرائهم ، وأن تفسح صدرها للحوار البناء الهادف ، وكان من الضرورى أن نتجنب الاصطدام بالإدارة بالنسبة لهذا الموضوع

الحساس ، ولذلك كانت موافقتهم مشروطة بعدم التعرض للحكومة بالنقد. وتم تنفيذ الفكرة وأطلقنا على هذه المجلة « الشروق » ، وكانت هذه المجلة رغم تواضعها منفسًا لنا جميعًا ، نكتب فيها عن السياسة العالمية ، والفكر الإسلامى والآداب والفنون المختلفة ، وكانت تثور خلافات ، وتدور مناقشات حول بعض القضايا الحيوية ، وتفتح أمامنا الطريق للاستزادة من المعرفة حول بعض الموضوعات التى يصطخب حولها الجدل ، ولقد استمرت هذه المجلة لفترة طويلة من الزمن ، ولم تكن ترفع من مكانها إلا إذا كانت هناك جولة تفتيشية من رئاسة السجون فى القاهرة ، ولقد قمنا بعمل مسابقات فى فن القصة ، وفى الألعاب الرياضية ، والعزف على الآلات الموسيقية ، وانخرطت فئة أخرى من الإخوان فى استكمال حفظ القرآن والاستغراق فى العبادة ودراسة الفقه والتفسير والتاريخ الإسلامى ، وكان هناك اهتمام بالغ بمؤلفات الإمام أحمد بن تيمية ، وحرصت طائفة أخرى على الاستزادة من علم الاقتصاد ومذاهبه الغربية وحاول البعض عمل دراسات مقارنة بينه وبين الاقتصاد الإسلامى ، وفى هذه الفترة سمح لنا أيضًا بمشاهدة بعض الأفلام السينمائية ، أذكر منها فيلم عن مصطفى كامل ، كما سمح بالنشاط المسرحى ، وبعض الحفلات ، وخاصة مناسبة المولد النبوى ، واشتركت فى بعضها كممثل ، ولعلى أشرت فيما سبق إلى المسرحية الشعرية التى نشرها الشاعر محمود زيتون عن ميلاد الرسول ، حيث مثلت فيها دور « أمية بن أبى الصلت » ، وقد أعجب المسجونون والإدارة بهذه المسرحية إخراجًا وتمثيلًا ، وفى عيد الثورة أقام السجن احتفالًا قدمنا فيه لقطة من مسرحية « قراقوش » أعدها الأخ فؤاد شاكر والمهندس عبد الفتاح الحسينى ، وسببت لنا مشكلة عويصة مع المباحث العامة « أمن الدولة » فى أسيوط ، حيث وشى بنا البعض عندهم ، وترتب على ذلك حرماننا من كثير من الميزات التى حصلنا عليها ، لكن لفترة قصيرة من الزمن ، وفى أثناء الأزمات التى نتعرض لها كنا نلاحظ أن الضابطين محمود أبو كريشة « وشهرته فى السجن محمود المطيعى » وزكى أمين كانا يقسوان علينا ، بينما الضابط المهذب النبيل مصطفى أبو دومة يحاول أن يخفف عنا ، ويوجهنا إلى ما يجب عمله ، ويحذرنا مما يدبر لنا فى الخفاء ، وقد علمنا فيما بعد أنه من أوائل طلبة كلية الشرطة الذين انضموا إلى الإخوان المسلمين فى وقت مبكر ، مع إخوانه صلاح شادى وكمال عبد الرازق وعباس أبو كرم وغيرهم.

لقد بدا لنا أن السجن ستطول أيامه ، وأن علينا أن نهيء لأنفسنا وضعًا نفسيًا يجعلنا نصبر ونحتسب ، وأن نضرع دائمًا إلى الله ، فهو مفرج الكروب ، وبيده وحده مقاليد الأمور ، ومع ذلك فقد ثار الجدل حول موضوع « الجهاز الخاص » أو « الجهاز السرى » كما أطلقت عليه الصحف ، وكان بعض الإخوة يرى أن هذا التشكيل خطأ كبير ، وأنه جر علينا الكثير من الكوارث ، ويكفى أن جمال عبد الناصر ، وعددًا من ضباط مجلس الثورة تتلمذوا على يدى عدد من أقطاب هذا الجهاز منهم أنور السادات وخالد محيى الدين وحسين الشافعى وعبد اللطيف البغدادى وغيرهم كما ورد فى مذكراتهم بعد ذلك. وكان البعض الآخر يعتقد أن هذا الجهاز كان ضرورة فى وجود الإنجليز والملك الطاغية والعدوان المستمر على الجماعة ، وظل الخلاف حول وجهتى النظر لفترة طويلة ، بل يبدو أنه ما زال مستمرًا حتى يومنا هذا ، وقد ظهرت بعض الجماعات الإسلامية - فيما بعد - التى تعتنق فكرة تنمية القوى المادية فى مواجهة أعداء الإسلامية تحت شعار ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ...﴾ ، ولقد تناولت هذا الموضوع الكثير من الكتب والنشرات.

وبرغم مرارة السجن إلا أننا تكيفنا - إلى حد كبير - على الوضع القائم ، ولم يكن ينغص علينا إلا بعض الخلافات الفكرية ، وتصدى الإدارة لنا من وقت لآخر بأسلوب فيه الكثير من القسوة والمهانة

والحرمان ، وإن لم يكن يرقى إلى أسلوب السجن الحربى البغيض ، ذلك الفصل الأسود فى سجل مصر الحديثة ، والذى سيظل حدثًا رهيبًا لا يقل بشاعة عن أحداث محاكم التفتيش فى أوروبا ، وجنون القائمين بالثورة الفرنسية الشهيرة.

ولقد كان السجن – بما فيه من فراغ ، وبما يحاك فيه من دسائس – مجالا لاستعراض تاريخ الجماعة ، وتقييم التصرفات التى صدرت عن بعض قياداتها ، وتحليل الأحداث المتلاحقة ، وما صاحبها من صواب أو خطأ ، كان الموضوع يلمس برفق فى البداية وفى شيء من التحرج ، وبمرور الوقت ، أصبحت نبرة الحوار عالية ، ولم تكن المباحث العامة وأذنابها ، بمنأى عن تحريك الفتن ، وإثارة الحزازات بيننا ، وكان أغلب مجموعتنا فى سجن أسيوط من صغار السن ، أى من شباب الجامعات والمرحلة الثانوية ، وهم بالطبع فى مرحلة حساسة وحرجة من مراحل العمر ، ولذا كان الحوار يتسم بالحرارة والصخب فى كثير من الأحيان ، والواقع أننى كنت أشعر بحزن عميق إزاء ما يجرى بيننا من خلاف ، فتصورى السابق أننا كمسلمين مجاهدين يجب أن نلتزم خطًا سليما فى التفكير والحوار ، وألا يكون خلاف الرأى مدعاة للشقاق ، لكن علمت فيما بعد أن الخلاف من طبائع الناس ، وأن اختلاف مستويات الثقافة والتجربة والخبرة تؤثر تأثيرًا بعيد المدى ، أضف إلى ذلك الضيق الذى يشعر به الإنسان فى زنازين السجن الموحشة ، وإلى الكبت الذى يغالبه الشباب فى هذه الأيام الحرجة ، وأوشكت الفتن أن تطل برأسها لولا لطف الله. فقد دأب « مازن بك » رئيس المباحث العامة بأسيوط على زيارة السجن من آن لآخر ، واستدعاء أفراد بعينهم ليختلى بهم ، ويتناقش معهم ، وهم ثلاثة أفراد ، وكان هذا التصرف يبعث فى نفوسنا الشك والريبة ، على الرغم من أن الثلاثة كانوا يسردون علينا تفاصيل المحادثات ، لكن الهمس يدور ، والشكوك تتصاعد ، وكان أحد هؤلاء الإخوة هو المسئول عن الاتصال بالإدارة ، ونتيجة لذلك أصر بعض الإخوان على إجراء انتخابات جديدة لاختيار مسئول آخر ، وهذه الفكرة زادت من البلبلة والخلاف والاضطرابات ، كانت فترة عصيبة ، وكاد يحدث الانقسام ، وانتهى الرأى لاختيار قيادة جماعية من خمسة أعضاء ، حتى لا ينفرد مسئول واحد باتخاذ القرار ، وفعلا تم تنفيذ ذلك ، وكان المسئول السابق واحدًا من الخمسة المنتخبين..

لكن هل استقرت الأمور ، وساد الهدوء والاطمئنان؟

❁❁❁

[٤] عقبات فى الطريق



كانت لدى حساسية مفرطة لتلك الخلافات التى دبت بيننا ، لأنها شيء لم نتعوده على هذا النحو ، وبذلك الحجم فى سالف الأيام ، لقد كانت الجماعة تنطلق فى الماضى دون معوقات تذكر ، صحيح أن بعض المشاكل كانت تحدث بين القيادات فى القاهرة ، وكان يتناثر رذاذها أحيانًا فى الصحف المعادية ، فتضخم الأحداث ، وتبالغ فى الوقائع ، لكن تصريحًا واحدًا من المركز العام ، أو نشرة دورية ، أو بيانًا مقتضبًا كان كافيًا لإسكات الإشاعات والفتن ، أما اليوم ، ونحن نقاسى أهوال السجن فقد كان الأمر شديدًا بالنسبة لنا ، وخاصة أنها المرة الأولى التى نعانى فيها بأنفسنا وليس القيادات الكبيرة فى القاهرة.

وازداد اضطراب أمورنا إداريًا وتنظيميًا فى السجن وخاصة بعد تشكيل القيادة الجماعية «اللجنة الخماسية» ، وتغير المسئول رقم ١، وأدركت إدارة السجن هذا التغير عندما رأوا وجهًا جديدًا يعبر عن مطالبنا ، وبدأ التساؤل يكثر ويلح ، وخاصة أن المسئول الأول كان وثيق الصلة بهم ولبقًا فى الحديث معهم ، ومن ثم بدءوا يعاملوننا بشيء من الجفوة ، وبدا كأنهم كانوا مرتاحين لوجود المسئول القديم ، وأنهم من مؤيديه ، ونتيجة لذلك فقد أصبح التعامل مع إدارة السجن فيه الكثير من العنت والمراوغة ، وكثرت حملات التفتيش و«التكدير» كما يسمونها فى السجن ، التكدير يعنى - كما ألمحنا من قبل - سحب معظم الميزات التى حصلنا عليها مثل الكتب وفترة الرياضة وتحسين الطعام ، وفتح المقصف ، والسماح بالأقلام والأوراق ، وكتابة الرسائل للأهل بعد مراجعتها ، واللجوء إلى الضرب والتأديب لأوهى الأسباب ، وتساءل البعض: لماذا لا نعيد المسئول الأول بكامل صلاحياته حتى تحل الأزمة الخانقة مع الإدارة؟ إن هدفنا الأول فى السجن هو أن نعيش فى هدوء واستقرار ، ومن ثم فإن الأمر لا يحتاج لأكثر من اختيار فرد يعبر عن مطالبنا لدى الإدارة أيًا كان هذا الفرد ، لكن هذا التصور لم يلق قبولاً لدى غالبية الإخوان ، وأصروا على اختيار الشخص المناسب مهما كانت التضحيات والمنغصات ، لأنها مسالة مبدأ لا يصح التفريط فيه ، وتوترت الأمور عندما انسحب المسئول القديم من اللجنة الخماسية ، وأجريت انتخابات جديدة ، وأصبح أخونا السودانى الدكتور أبو بكر عثمان خليل هو المسئول الأول ، وكان أبو بكر رجلًا صلبًا فى الحق لا يخشى فى الله لومة لائم ، ويتعامل مع الإدارة بإباء وعزة ، وقد عُرف أبو بكر باستقامة الخلق ، وقراءة القرآن ، وإتقان العبادة ، والبراعة فى ممارسة عمله الطبى ، كما كان متزوجًا وله طفل واحد ، ويعيش مع أبيه فى القاهرة بحى «معروف» بشارع «مكسر الخشّاب» منذ أكثر من ١٦ عامًا ، قضاها بعيدًا عن السودان ، كما كان يدرس الطب معى بكلية طب القصر العينى جامعة القاهرة لكنه كان يسبقنى فى الدراسة بعامين ، ونعيش معًا فى زنزانة واحدة.

إن التعامل مع إدارة السجن يحتاج إلى مواصفات معينة كاللباقة والدهاء والاستجابة لأوامرهم بصرف النظر عن معقوليتها ، واكتساب قلوبهم بالكلمات الحلوة التى لا تخلو من المجاملة أو قل الرضوخ

أحيانًا ، كما تحتاج الإدارة إلى من يجنبهم مشاكل المسجونين التى تستدعى حضور المباحث العامة ، والسياسيون فى السجن لهم الكثير من المشاكل المتعلقة بهذه الناحية ، وبناء على ما سبق فإن « أبو بكر عثمان » كان الرجل الذى لا يروقهم التعامل معه ، وذات مرة جاءنى أحد المسجونين وقال: « إن فلانًا « المسئول السابق » كان يؤدى واجبه بكفاءة واقتدار ، وهو على علاقة وطيدة بالإدارة ووضعه كضابط سابق فى الجيش يجعله أكثر فهمًا بطبيعة تفكيرهم ، ولهذا أرى أن تنحيه عن المسئولية أمر ضار ولن يعود علينا بالفائدة.. والأفضل أن نلح عليه فى العودة إلى المسئولية ..»

قلت دون تحفظ: « إن له تصرفات تثير الريبة »

قال: « ماذا تعني؟ »

– « مقابلاته لرجال المباحث العامة »

– « أنت تتهمه.. إنه يحاول تلطيف الجو ، حتى يجنبنا الأذى ..»

– « ألست معى فى أنه أمر محير؟ نحن نريد مسئولًا نثق فيه تمام الثقة ، وخاصة فى أيام حرجة كهذه ..»

لم أكن أعلم أن حديثى هذا سوف يثير مشكلة كبرى عندما نقل إلى المسئول السابق ، لقد ظن أني أتهمه بالعمالة ، وكان أن أصيب بنوبة تشنج نقل على أثرها إلى المستشفى ، ولم أكن أعلم سبب نقله إلى المستشفى فى البداية ، لقد نسيت الأمر برمته ، وبعد أيام ثلاثة أتى أحد أصدقائه وأفهمنى إننى السبب فيما حصل له ، وعليّ أن أبادر بزيارته فى مستشفى السجن وأعتذر له ، ووقعت فى حيرة ، كنت أشعر بحرج شديد ، ويبدو أننى تعجلت فى التعبير عن ظنونى دون بينة مقنعة ، فهل مجرد لقائه مع رجالات المباحث العامة يكفى للشبهة أو الإدانة؟ ومن منا يستطيع رفض المثول أمامهم إذا استدعته المباحث لمناقشة أى أمر؟ إزاء ذلك أسرعت بالذهاب لزيارته بالمستشفى ، وما إن رآنى حتى هب من سريره معانقًا وهو يبكى بمرارة.. وشعرت بالخجل والحزن فى نفس الوقت ، وقلت: «آسف.. لم أكن أقصد الإساءة إليك ..»

قال وهو يجفف دموعه: « هذا يكفى ...»

أردفت: « نحن فى ظروف صعبة ..»

– « أعلم.. أعلم.. هيا سوف أخرج من المستشفى الآن ..»

وعشت أيامًا وليالى أقاسى من مرارة الندم ، لماذا أقدمت على ذلك الاتهام؟ أما كان الأحرى بى أن أتجنب مثل هذه الأمور الحساسة والخوض فيها؟ وآلمنى أكثر أن الأمر كله يتنافى مع الخلق الإسلامى الأصيل ، فلا اتهام بدون دليل أو بينة ، قد يكون هذا الاتهام شائعًا ، ويردده المسجونون ، لكن هذا ليس مبررًا لما فعلته ، ثم إن الخلاف فى بعض الأمور الفرعية ، ومنها أساليب الإدارة ، لا يعتبر خلافًا فى أصول العقيدة أو حقائق الدين.

أعود مرة أخرى إلى مشكلة « اختيار المسئول » ، فقد وفد إلينا من القاهرة الأخ الدكتور محمود الجندى « رحمه الله » ، وكان إنسانًا صادقًا بارًا مؤمنًا حق الإيمان ، يعامل الناس جميعًا بحب حقيقى ، وأخوة صافية ، ولا يفكر فى اتهام أحد ، ويرفض الدس والوقيعة ، ويتسامح مع كل من يسيئون إليه ، بل وينسى الإساءة ، كما كان صابرًا محتسبًا ، وثيق الصلة بربه ، لا يتزعزع إيمانه أو يضعف ، إن أصابته ضراء صبر ، وإن أصابته سراء شكر ، نادرًا ما يغضب أو يثور ، ولو حدث ذلك فإنه يكون بأسلوب هين ، ودون غلو أو انفعال ظاهر ، ويفتح قلبه الكبير للجميع.. سواء المؤيد أو المعارض.. فالجميع لديه

سواء.. وهكذا كان محمود الجندى طول حياته، وقد تصادف بعد سنوات أن كنا زملاء عمل فى الإمارات العربية فى « دبى »، وكان يعمل جراحًا بالمستشفى فيها، ولم يطرأ على شخصيته أدنى تغيير، بل ازداد إيمانًا وتقوى، وظل على هذا النحو إلى أن وافته المنية فجأة وهو نائم صائم فى الخامسة مساءً من اليوم الثانى من شهر رمضان قبل المغرب، وكان قد أدى عمله، وأجرى عمليات الجراحة كعادته مثل كل يوم، وكانت وفاته يوم ٢/٦/ ١٩٨٤، رحمه الله رحمة واسعة، وأثابه عن جهاده ونقائه خير الجزاء.

أعود فأقول أن الإخوان أجمعوا على أن يكون الدكتور محمود الجندى هو المسئول الأول، فقبلها على مضض، ولأسبق الأحداث، فقد حدث بعد ذلك مفاجأة أذهلت الجميع، إذ أصدرت المباحث العامة أمرًا بنقل محمود الجندى وعددٍ من إخوانه إلى سجن الواحات الخارجة فى الصحراء، وقبلها نقل الدكتور أبو بكر عثمان إلى سجن قنا فى الجنوب ومعه ما يقرب من عشرة أغلبهم ممن شاركوا فى تحمل المسئولية، ولاقوا فى سجن « قنا » الكثير من التعذيب والعناء..

وعاد المسئول الأول القديم لتسلم مقاليد الأمور بعد هذه التجربة المحزنة المريرة، ولم تعد المسئولية فى السجن شيئًا يؤبه له، ولم يعدالإخوان يفكرون بجدية فيمن ينتخبون لهذه الغاية، لأن الذى سوف يُنتخب ولا يكون على هوى الإدارة، سرعان ما يرحل إلى سجن ناء، وهو ما يسمونه بلغة السجن « التغريب » وكان ذلك يحدث بأمر المباحث العامة، التى تمدها إدارة السجن بأى تغيير فى المسئولين أو أى حدث يحدث منا تجاه هذه الإدارة..

نعود إلى الوراء مرة أخرى..

كان سجن أسيوط بعيدًا عن ديارنا، ولهذا لم أسعد بزيارة أهلى لى إلا بعد عام تقريبًا، حيث حضرت أمى لأول مرة، وحضر أبى، كان لقاء مشحونًا بالانفعال، إنهما يقفان خلف شبكة الأسلاك الدقيقة، وينسى أبى ويمد يده ليصافحنى، فتمنعه الشبكة، وأمى تنحدر دموعها فى صمت مزلزل.. وأنا أحاول التماسك، كنت أبتسم، وأتكلم كثيرًا، مؤكدًا لهم أنى فى أسعد حال، وهم يستمعون فى حسرة وألم، لقد قضوا الليل كله مسافرين من القرية حتى أسيوط، ووصلوا فجرًا، وجلسوا على « بوفيه المحطة » ينتظرون الصباح، ويسألون عن مكان السجن، وقالت أمى: « لقد تعبنا كثيرًا »

وفهمت أن هناك أحداثًا غير طبيعية تجرى فى القاهرة الليلة الفائتة، وأن الأنوار قطعت، وأن العسكر يتحركون هنا وهناك، ولكنى لم أفهم شيئًا مما تقوله أمى، ولهذا لم أكترث كثيرًا بتلك الأخبار، لكن الأمر الذى هزنى هزًّا عنيفًا هو ذبول وجه أمى ونحولها.. أنى لم أرها منذ أول أغسطس ١٩٥٥ ونحن الآن فى أواخر أكتوبر ١٩٥٦.... لشد ما تغيرت!! ما أكثر الهموم والأحزان التى داهمتها بسببى حتى لأكاد أشعر بالذنب.. ولا أستطيع سوى أن أقول لها: « الله معك » وانتهزت الفرصة لأفتح أمامهم أبواب الأمل، وأمنيهم بفرج الله القريب.. وحدثنى أبى باختصار عن الجهود المتواصلة التى يبذلها كى يساعد على إخراجى من هذه المحنة، وذكر لى عددًا من الشخصيات التى ذهب إليها، والهدايا التى يحملها إليهم، والنفقات الباهظة التى بذلها عن طيب خاطر، وعن بعض الأراضى الزراعية التى باعها كى يواصل جهوده بحثًا عن مخرج لى، وكنت أشعر بمزيد من الألم وأنا أستمع إليه، وحاولت إقناعه كى يكف عن هذه المجهودات التى لا طائل من ورائها ،مؤكدًا له أن الأمر

كله بيد الله ، وأن فرجه قريب.. لكنه لم يرض بالسكوت.. إنه أب..

انتهت الزيارة.. ولوحت بيدى مودعًا.. وما إن وليت وجهى شطر فناء السجن حتى تساقطت دموعى.. لكننى أسرعت بتجفيفها ، فلا يصح أن يرانى أحد وأنا أبكى..

ونمت فى هذه الليلة فى وقت مبكر.. أردت الهروب إلى النوم.. إن وجهيْ أمى وأبى لا يفارقان خيالى ، لكن ماذا أفعل أمام هذه الحواجز الرهيبة التى صنعها الطغاة؟ وعند منتصف الليل أيقظنى الإخوة الذين انتقلت حديثًا للسكن معهم فى زنزانتهم وهم محمود هاشم أبو بكر « الشهير بحاتم » ، وحسين عبد المعطى ، ورجب الخميسى رحمه الله.. أقول أيقظونى ، وكان صوت الميكروفون يجلجل بصوت المذيع.. ويحدث ضجة هائلة..

قلت: « ماذا جري؟ »

قالوا: « الحرب »

قلت فى دهشة: « أى حرب؟ »

وفهمت أن اليهود والإنجليز والفرنسيون قد هجموا على مصر بسبب تأميم قناة السويس ، كان الحدث كبيرًا ومباغتًا ، لم نكن نقرأ الصحف إلا نادرًا ، كما لم نكن على علم بمجريات الأمور ، صحيح أننى ناقشت موضوع تأميم القناة منذ ما يقرب من شهر مع الأخ « سيد الريس » المحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة « وكان الحكم قد خفف عليه من الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة » ، وهو فى تلك الفترة سجين بسجن الواحات الخارجة مع قيادات الإخوان هناك ، وقد قدم للعلاج بأسيوط لفترة قصيرة ، أقول ناقشت معه هذا الموضوع – التأميم – وما يمكن أن يترتب عليه من آثار ، ووصلنا فى نهاية النقاش إلى ضرورة قيام حرب بسبب ذلك ، ولكن ما قيمة رأينا؟ نحن مجرد مسجونين ، وتحليلنا للموقف السياسى بين أربعة جدران.. وهو مجرد « دردشة » أو ثرثرة لتمضية الوقت.. لكن ما توقعناه حصل.. وقامت الحرب.. ومع ذلك فإن الدهشة ألجمتنى.. لم أكن أتصور أن تقوم حرب على الرغم من التحليل المنطقى الذى تناولناه.. هكذا كان شعورى.. إنه متناقض لكنه حدث.. والآن ما الذى يخبئه المستقبل؟

كانت الزنزانة خافتة الضوء ، لأن المصباح الكهربائى منطفىء ، وانعكاسات الأضواء الخارجية هى التى تتسلل عبر الفتحة الممتدة فوق الباب المغلق ، وجميع السجناء من الإخوان قد استيقظوا من نومهم ، وأصبحت أصواتهم مسموعة ، والزنازين تتناقش ، وتستفسر ، وحرس الليل لا يستطيعون إيضاح أى شىء ، فهم مجرد عساكر ليس لديهم الحد الأدنى من المعلومات السياسية أو العسكرية ، ثم إن الأمر كله مفاجأة – كما قلنا – أذهلت الجميع ، حاولت أن اضطجع مرة أخرى.. صاح أخونا رجب الخميسى فى غضب: « استيقظوا.. لقد احتُلَّتْ بلدنا ..»

كنت أشعر بجوع شديد ، والبرد قارس ، والحيرة مضنية ، قمت من مكانى ، وأنا متلفع بالبطانية ، وحاولت أن أبحث عن لقمة من الخبز الجاف وبعض الملح ، وعاد رجب ينظر إلى فى ضيق ويقول: « لا تمس الخبز.. إنه للإفطار ..»

قلت بهدوء: « سأفطر الآن ..»

– « لكن الساعة الواحدة صباحًا ..»

ولما وجدنى أمضغ اللقيمات الجافة قال: « إننى أعجب ، كيف يكون لديك شهية للأكل فى هذه الساعات الرهيبة ..»

قلت محاولًا تبديد جو الكآبة والتوتر: « حتى نقوى على مجابهة العدو »

كانت عواطف شتى تتنازعني ، إن الأمر يبدو مغامرة شائكة ، أيعود الإنجليز - ومعهم الإسرائيليون والفرنسيون - لاحتلال مصر مرة أخري؟ لو حدث ذلك لا قدر الله فستكون كارثة ، فتاريخنا مع الإنجليز والتصدى لهم فى منطقة القنال معروف ، وجهادنا فى فلسطين ضد الصهيونية أمر شائع يعرفه الجميع ، بل إن اتفاقية الهدنة فى « رودس » أشارت إلى خطورة الإخوان ، وطلبت من مصر « الملك » قص أجنحتهم حتى تستمر الهدنة ، والفرنسيون لا يرحمون من يجابههم فى مستعمراتهم ، وما أمر الجزائر منا ببعيد ، فالأمر بالطبع ليس فى صالح الوطن ، ولا فى صالح الإخوان بداهة ، ومن هنا جاء تفكير بعض الإخوان فى الأيام التالية فى إرسال برقية للحكومة يعرضون فيها استعدادهم للتطوع فورًا للحرب ، والخروج من السجن إلى ميدان القتال مباشرة ، فالأمر لم يعد أمر معارضة وحكومة ، ولكنه أصبح أسمى من ذلك وأكبر ، لأن التصدى للعدوان الأجنبى ليس بالأمر الجديد على الإخوان ، والجهاد فى هذا الوقت دفاع عن العقيدة والشرف والحرية واستقلال البلاد.

ولنعد إلى تلك الليلة الليلاء التى لم ننم فيها بعد أن علمنا بالخبر ، فما إن أشرق الصباح حتى بدأت فى كتابة قصيدة ، كانت هذه القصيدة مثل دقات طبول الحرب فى إقاعاتها.. أذكر منها:

لتأت جحافل تزخر كجيش الليل أو أخطر
فجيش الحق لا يُدحر ونور الله لا يقهر
لذا أقسمت أن أثأر

كان عنوان القصيدة « القسم » ، وأسرعت بإعداد مادة لعدد خاص من صحيفة الحائط « الشروق » التى كنت أصدرها ، وتفاهمت مع بعض الإخوة بعد الفجر كى يشاركوا فى كتابة موضوعات حول موضوع تأميم قناة السويس وعن العدوان الجديد ومطامعه.

لقد ملأ الحدث الضخم كل فراغ حياتنا ، فما إن فتحت أبواب الزنازين فى السابعة والنصف صباحًا ، حتى تجمهر الإخوان فى دور ٢ ، وحمي وطيس المناقشات ، وتلهفت الأسماع لكل جديد من الأخبار ، وشغلنا العدوان عن كل ما عداه من أمور ، ولقد لاحظت أن إدارة السجن تعاملنا بقدر كبير من الرقة والسماحة ، ويتناقشون معنا فى أخوة ، ويحاولون أن يستشفوا ما وراء كلامنا من دلائل ، لقد كانوا يتوقعون أن تبدو فى تصرفاتنا وتعليقاتنا علامات الشماتة ، والواقع أن ذلك الشعور لا يتناسب مع أصحاب عقيدة بذلوا فى سبيلها الدماء الغالية طوال السنين السابقة ، وأنا لا أنكر أن البعض منا كان ينحو باللائمة على سياسة الحكومة التى تتسم بالعنف والبطش وتكميم الأفواه ، ويعلن أن الشعب المقهور المستعبد تقل كفاءته فى ميدان القتال ، وأن الشعوب الحرة وحدها هى القادرة على ضرب المعتدين ، وإفشال مخططات الغادرين ، وما من شك فإن استعداد الجيش للتصدى لهذا الهجوم المحتمل لم يكن على المستوى اللائق من حيث الإعداد والتدريب والسلاح ، وقد هزمنا فعلًا من الناحية العسكرية ، لكننا كسبنا المعركة سياسيًا ، وخاصة بعد أن أصدرت أمريكا أمرها بانسحاب الدول الثلاث فى موعد أقصاه تاريخ محدد ، ولم يكن للإنذار الروسى أية قيمة كما يزعم البعض ، وبالطبع فإن الانسحاب من سينا وبورسعيد كان نصرًا سياسيًا كبيرًا لعبد الناصر ، ولم يستطع أن يستثمر هذا النجاح استثمارًا شاملًا إلا فى قليل من النواحي.

ولعبت المقاومة الشعبية فى منطقة القنال ، وفى بورسعيد بالذات دورًا مشرفًا فى هذه المعركة ، وقد

أشرت إلى ذلك فى الجزء الأخير من روايتى « الطريق الطويل » ، وكان تدخل أمريكا لصالحنا له أسباب معروفة آنذاك ، إذ إن التخطيط للحرب تم دون علمها ، كما أنها كانت تنوى أن ترث بريطانيا فى نفوذها بمصر ، ولهذا انتهزت الوضع الحرج الذى سقط فيه المعتدون ، والرفض العالمى للعدوان ، وطالبت بالانسحاب الفورى فى وقت قصير.

لم تفعل أمريكا - أيزنهاور - ذلك لوجه الله ، ولكن لمصالحها ونفوذها ، ومن أجل بترول الدول العربية ، ولتثبت أنها - وحدها - القادرة على حماية مصر وليس الاتحاد السوفيتى أو سلاحه.

ومن الأمانة أن نشير إلى أن بعض الإخوة رفضوا التوقيع على طلبات التطوع للحرب ، وكانت لديهم أسباب لذلك ، فقد رأوا أنه لا جدوى من ذلك ، لأن الحكومة نفسها لن تسمح به ، حيث إنه يعنى إعادة الثقة فى الإخوان المسلمين أصحاب المعارك الماضية مع الاستعمار ، ويعنى التصالح ، ويعنى الإفراج عن المسجونين ، إذ ليس من المعقول أن يخرجوا ليحاربوا ، ثم يعودوا للسجن مرة أخرى ، وكان من المستبعد أن تثق الحكومة أو تتصالح أو تفرج عن مسجونى الإخوان فى تلك الفترة ، فكراهيتها لهم لا تحدها حدود ، ثم إن عدد المسجونين لن يؤثر فى نتيجة المعركة لأنه لا يتجاوز الألف بعد الإفراج عن المعتقلين ، وقد رأى البعض أيضًا أن طلب التطوع يعنى ضمنيًا شيئًا من التزلف مما يمس الكبرياء ، أو يتجاهل العنف الرهيب الذى عاملتهم به الحكومة منذ الأزمة وحتى اليوم ، إن اليأس من عدول الحكومة عن خطتها القاسية تجاه الإخوان قد جعل عددًا منهم لا يكترث لهذا الأمر ويعتبره « لعب عيال » لا جدوى من ورائه ، ولا قيمة له ، بل اعتبروه نوعًا من المساومة كى يكون بداية لحل الأزمة مع الحكومة ، والخروج من السجن ، وهو أمر يأنف منه كبرياء البعض ، ومتى كان الجهاد الحق متعلقًا بمطالب دنيوية؟

وبالنسبة لى فقد كنت أحاول أن أتجنب تلك الصراعات ، وكان أمر المعركة متروكًا للحكومة التى تتولى قيادة العمل الوطنى ، فإن دعتنا للجهاد لبينا النداء ، وإن أغفلت ذلك صبرنا واحتسبنا فنحن مجرد مسجونين ، ولهذا كنت أراقب الموقف وأنتظر ، وكان جل همى كما قلت أن أصدر الأعداد المتلاحقة من مجلة الحائط ، أعبر فيها عن رفض العدوان والتصدى له بكل قوة ، وضرورة قيام الشعبِ كله ببذل أقصى ما يستطيع من جهد وطاقات لإفشال مخطط العدو ، والقضية الوطنية ليست ملكًا للحكومة وحدها ، ولكنها قضية الأمة كلها دون استثناء ، وتذكرت فى هذه الآونة هذا الرهط من الصحابة الذين أرادوا السير مع المسلمين للجهاد ، ولم يكن لديهم من المال أو الإمكانات ليذهبوا إلى الميدان ، حيث قال لهم الرسول « ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ » عندئذ رجعوا إلى دورهم ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ حسبما ورد فى القرآن الكريم. إن قرار مشاركتنا فى المعركة لا نملكه نحن ، ولكن يملكه من وضعونا فى السجون ، ألا وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى.. وكان مسئولنا الإدارى يرى فتح باب الحوار مع المسئولين من خلال إبداء الرغبة فى التطوع للقتال..

إن الوقت الذى يتعرض فيه الوطن للأخطار ، لا يحتمل جدلًا طويلًا ، ولا تصفية حسابات قديمة ، وليس هناك سوى موقف واحد أصيل ، يدركه أولئك الرجال المؤمنون الذين يعرفون واجبهم المقدس حيال العقيدة والعرض والشرف والحرية ، ذلك الموقف يتركز فى كلمات الله ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ ، وليس بعد قول الله قول لقائل ، ذلك المنطق يتسق مع الماضى الجليل لهذه الجماعة المسلمة التى كان من شعاراتها « الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » و« .. الجهاد سبيلنا » ، أما مجرد الشماتة فى مثل هذه الأوقات فهى مرض ، بل مروق عن وجهة الحق التى

ارتضاها الله لعباده المؤمنين الصادقين ، فالخلاص من العدو الخارجى الكافر الظالم أولا ، ثم تصفية الحسابات القديمة المحلية ثانيًا ، وقد يكون الحاكم قد أخل بشروط العقد المفترض بينه وبين أمته ، وخاصة فى مجال الشورى والعدالة والحرية ، لكن هذا الإخلال لا يصح أن يكون سببًا للتقاعس عن ملاقاة العدو ودحره ، وهذا ما حدث بالفعل خارج السجن ، فقد سارعت جموع غفيرة من الإخوان الذين لم يعتقلوا أو الذين خرجوا من المعتقل منذ فترة وجيزة ، وانتقلوا إلى أرض المعركة فى منطقة القنال ، وأظهروا بطولات فائقة ، لفتت أنظار المخلصين الصادقين من المؤرخين المعاصرين ، ونشر القليل منها فى الصحف المصرية السيارة ، دون الإشارة إلى أنهم من الإخوان..

قلت فيما سبق ، إن المعركة على الصعيد العسكرى كانت مأساة ، وليس أدل على ذلك من أن قوات الدول الثلاث إسرائيل وبريطانيا وفرنسا ، قد اخترقت الحدود ، واجتاحت صحراء سينا الشاسعة ، ووصلت إلى الضفة الشرقية للقنال فى أيام معدودة ، وحاولت احتلال الضفة الغربية للقنال أيضًا ، وأنزلت بعض المظليين والقوات فى بعض المواقع ، وخاصة مطار الجميل وبورسعيد وغيرها ، ولكن المقاومة الشعبية تصدت لها باستماتة حتى بردت قواها ، وأفشلت مخططاتها ، إلى أن توقف القتال باتفاق دولى ، بعد أن سقطت بورسعيد فى أيديهم.

وأخيرًا انسحبت القوات الغازية ، واتخذت إسرائيل بعض المواقع الصغيرة للوصول إلى البحر الأحمر فى أوقات السلم ، وظل هذا الأمر خافيًا على الشعب المصرى حتى حرب ١٩٦٧ ، وإن كان معروفًا وشائعًا على مستوى العالم.

وكان انسحاب القوات انتصارًا سياسيًا كبيرًا لمصر ولعبد الناصر شخصيًا ، بل وللعرب أيضًا ، وأصبح يوم ٢٣ ديسمبر عيدًا للنصر يحتفل به كل عام ، وكان عمى عبد الفتاح رحمه الله يعمل فى العريش إبان نشوب الحرب ، وكان يروى لى الكثير عن الأيام الرهيبة لتلك المعركة ، والانسحاب غير المنظم لجيشنا فى سيناء ، وكيف أنه قطع المسافة من العريش إلى شاطئ القنال سيرًا على قدميه ، وكيف أنه كان يتوسل لراكبى السيارات من العسكر كى يحملوه معهم دون جدوى ، وفى أيام عيد النصر التى كان يحتفل بها كل عام ، كان يبتسم فى مرارة ويقول: « أى نصر يا بني؟ لقد ذقنا الويل ، وكان القتلى يزحمون الطريق..

وظللت أجرى حافيًا أيامًا وليالى حتى تقطعت أنفاسى ..»

فكنت أرد عليه فى حماس وأقول: « المهم المحصلة النهائية يا عمى.. ربما نكون قد اندحرنا على أرض سيناء ، لكن العدو رحل ، والبلاد تحررت ، وأصبحت القنال لنا ، فهل يوجد احتلال الآن؟ »

كان يهز رأسه فى حيرة ويقول: « هذا من فضل الله.. ربما تكون على حق.. المهم النتيجة النهائية ..»

والواقع أن تصور عمى للنصر يكمن فى سحق العدو ، وعقابه بما يتلاءم مع جرمه ، بل واختراق حدود إسرائيل ، والدخول إلى الأرض المقدسة فلسطين ، وتحريرها من قبضة الغاصبين.. كان ذلك هو النصر الذى يحلم به عمى ، ويعتبره النصر الحقيقى الذى يجب الاحتفال به.

وبعد هذه المعركة ، أخذ نجم عبد الناصر فى الصعود على المستوى المحلى والعالمى ، وصدرت مئات الكتب وآلاف القصائد والتمثيليات والأغانى الرائعة تؤرخ للنصر العظيم ، والبطل الذى هزم الدول الثلاثة ، وأسقط حكومتى انجلترا وفرنسا لفشلهما فى تحقيق الهدف المرجو من العدوان ، وببساطة فإن الإعلام المصرى أمكنه أن يستثمر ما حدث ببراعة فائقة.

وقبعنا نحن فى السجون نلوك عذاب الليالى الطويلة ، والقهر المتصل ، والإهمال المتعمد ، وما أصدق قول الشاعر القديم:

الناس من يلقى خيرا قائلون له   ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهَبَلُ

وهكذا كيل للقائد ما يشتهى من مديح وثناء ، وصُبّ على أعدائه مختلف التهم والإهانات ، وأصبحت المعارضة البريئة خيانة ، والرأى الآخر جريمة ، وما جدوى المعارضة أو الرأى إذا كان النصر حليف الزعيم؟ وكان واضحًا أن قضية المسجونين من الإخوان لم يعد هناك مبرر لفتح ملفها أو إثارتها ، حتى أعضاء الأمة ، عندما تشجع بضعة أنفار منهم وأثاروا هذه القضية ، كان رد وزير الداخلية زكريا محيى الدين قاطعًا وحاسمًا على النواب إذ قال: « هؤلاء ارتكبوا جرائم ، وحوكموا بموجب قوانين جنائية معينة ، وبالتالى فليس لدينا ما يسمى بالسجناء السياسيين ..»

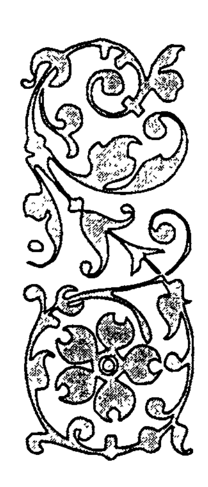
ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تم فصل النواب الذين قدموا الاستجواب فى المجلس ، وعلى رأسهم النائب أبو الفضل الجيزاوى ، الذى سيسجل له التاريخ هذا الموقف العظيم ، بل قيل أنه تم اعتقاله فيما بعد..

وهكذا بدأنا نجنى ثمار النصر إهمالا واحتقارًا وعذابًا

أما قصائدى عن المعركة والانتصار على العدو فقد ظلت تراثًا أخفيه تحت « البرش » الذى أنام عليه ، لعل يومًا ما يأتى ، وأنشر فيه هذه الخفقات التى اختلجت فى قلبى ، وانسكبت مع مداد قلمى..

❁❁❁

[٥] فى التأديب



التأديب فى السجون وسيلة من وسائل العقاب داخل السجن، وله لائحة خاصة، لكن سلطات السجون - بالنسبة للسياسى - كثيرًا ما تتخطى هذه اللائحة، بل تتجاوزها إلى عقاب أشد وأنكى، وحتى بالنسبة للسجين العادى فإن عقوبة التأديب تتخذ مسارًا فيه إضافات من الضرب والإيذاء التى لا توجد أصلًا فى اللائحة المذكورة، فإذا ما ارتكب السجين خطأ ما، فقد تكون العقوبة بالجلد، وفى هذه الحالة لابد أن يرسل محضر التحقيق إلى الإدارة العامة للسجون بالقاهرة للتصديق عليه، وقد تكون العقوبة ست جلدات أو أكثر طبقًا للخطأ الذى يقترفه السجين.

والسوط الذى يستعمل فى الجلد له فروع أربعة حسبما أتذكر، ويؤدى بطريقة « قانونية » معينة، يقوم بها سجان خاص مدرب، فيربط السجين أولًا فى « العروسة » وهى تصميم خشبى وذات فتحة توضع فيها رأس السجين واقفًا، ولها يدان أفقيتان تربط فيهما يمنى السجين ويسراه، كما أن بها بروزان أسفلها تُثبّتُ فيها الأقدام، بحيث لا يستطيع السجين الإفلات عند ضربه على ظهره، وكل جلدة لابد أن تترك آثارها الدامية على ظهر السجين وهو المكان القانونى الذى يضرب عليه، ويكون تنفيذ العقوبة عادة أمام حشد من السجناء لكى يتعظوا ويعتبروا، وقد تكون جريمة السجين تافهة كأن يحوز مثلًا نصف شفرة حلاقة أو بعض الممنوعات الأخرى التى لا يسمح بحيازتها، وقد يكون الجلد بسبب التعدى على سجان أو على سجين آخر، وبالإضافة إلى الجلد يوضع السجين فى مكان خاص يسمى « زنازين التأديب » لفترة قد تمتد إلى عشرة أيام أو أسبوعين أو أكثر، وقد لا تكون العقوبة جلدًا، بل حبسًا فى التأديب فقط.

والسجين الذى يوضع فى التأديب يحرم من الاتصال بالآخرين منعًا باتًا طوال تلك الفترة، ولا يخرج من زنزانة التأديب إلا فى الصباح لدقائق كى يملأ دلو الماء، ويرمى بما تجمع من البول فى الدلو الثانى، ويقضى حاجته ثم يعود إلى زنزانته، ونفس الشىء وقت العصر، ويظل السجين محبوسًا حبسًا انفراديًا طوال اليوم، ولا يفتح الباب إلا عند إعطائه الغذاء اليومى، والغذاء اليومى بالنسبة للسجين الموضوع فى التأديب وجبتان فقط؛ أى رغيفان وقطعة جبن وكمية ضئيلة من الفول أو العدس، ولا يسمح له بشراء أى طعام من المقصف، وتمنع عنه الكتب والملابس الداخلية والحذاء والزيارات الأسرية، فلا يكون معه غير « برش » من السعف وبطانية، وهناك نوع من التأديب خاص بالذين لا ينجزون كمية العمل الموكولة إليهم، فإذا كان عليه أن يخيط أربع بذلات ولم يحقق ذلك، تكون العقوبة بوضعه فى التأديب لمدة معينة، بالإضافة إلى مضاعفة كمية العمل، وإذا كان من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، فتكون كمية الصخر التى يقطعها من الجبل مضاعفة، وفى الجبل يكون لهم زى

خاص أحمر « أقل إحمرارًا من الزى الذى يلبسه المحكوم عليه بالإعدام » ، ولهذا السبب يجمعونهم فى مكان خاص للعمل ويسمونهم فرقة « الحمراء ».

هذا ما يحدث طبقًا للائحة السجون المدنية ، أما بالنسبة للسجين السياسى ، فكما قلنا ، ليست هناك قواعد ولا لوائح ولا قوانين للضرب والإيذاء ، وليست هناك محاضر تكتب وأحكام تأديبية تصدر وتعتمد من الإدارة العامة لمصلحة السجون ، فكل القواعد والقوانين تنتهك بالنسبة للسجين السياسى من حيث المدة وطريقة العقوبة وغير ذلك ، ونادرًا ما تطبق لائحة التأديب « القانونية » على السياسيين.

فى أحد الأيام جاءنى فى زنزانتى متهم « تحت التحقيق » من إخواننا الصعايدة ، وكان مقبوضًا عليه بتهمة القتل أخذًا بالثأر ، وكان يشكو من آلام شديدة فى الظهر ، جاء يطلب المشورة الطبية منى كطالب طب ، فقمت بفحصه وأخذت أدلك له ظهره ببعض أنواع المراهم ، كما أعطيته جرعة من الدواء المتوفر لدينا لعلاج الروماتزم العضلى ، ومن سوء الحظ أن وقت التمام كان قد أزف ، فلم يجده السجان فى زنزانته التى تقع فى الدور الأسفل تحتنا « دور واحد » ، فما كان من السجان إلا أن أتى ، وانتزع المتهم من بين يدى وأخذ يقذفنى بأبشع أنواع السباب ، فلم أجد مناصًا من أن أتصدى له بمجرد الكلمات ، وكانت كلماتى لا تخرج عن رفضى لهذا الأسلوب البذىء ، وضرورة التزامه بالأدب واللياقة ، واحتد الكلام ، وعلت الأصوات ، ثم أغلق السجان الزنزانة فى غضب شديد ، وهو يضغط على أسنانه مغتاظًا ، ويرمينى بنظرات متوعدة حاقدة ، فوجئت - أنا وزملائى - بباب الزنزانة يفتح ، ثم يأتى أربعة من العسكر الأشداء ، وينتزعونى من بين يدى زملائى ، ثم يهبطون بى السلم ، ويعبرون باب العنبر إلى ساحة السجن الواسعة خلف « ورش النسيج » فى الناحية الغربية ، وهناك وجدت دائرة من العسكر يقفون أمام الضابط « م.م » الذى أومأ برأسه إليهم دون أن يخرج يديه من جيبى السروال ويقول: « علموه الأدب »

وانقض علىّ العسكر من كل جانب ، صفعًا وركلًا وضربًا بالأيدى والخيزران فإذا ما أفلت من واحد ، تلقفنى ثان ، وهكذا دواليك ، حتى دارت بى الأرض وسقطت مكوّمًا منهوك القوى لا أستطيع أن أبدى أدنى مقاومة ، كنت يومها مصابًا بما يشبه الأنفلونزا ، وحرارتى مرتفعة ، ولاحظت أن إخوانى فى عنبر ٢، يراقبون المشهد المؤلم فى ثورة تجلت فى أصواتهم التى تصيح عبر النوافذ ذات القضبان الحديدية المتقاطعة ، وفى أيديهم التى تلوح مهددة محتجة. ثم قال الضابط دون اكتراث: « خذوه إلى التأديب »

كان التأديب فى العنبر الغربى بالدور الأرضى ، وكان إخوانى يسكنون فى العنبر الشرقى « الدور الثانى » ، وبين العنبرين ورشة النسيج وباحة السجن الواسعة ، وهكذا وجدت نفسى وحيدًا منعزلًا فى زنزانة صغيرة ، ليس بها أى شىء من متاع الدنيا.. الأرض الباردة السوداء المكسوة بطبقة من الزفت المحبب ، والنافذة الصغيرة ، والباب المغلق ، نظرت حولى بعينى المتعبتين ، ثم ألقيت بظهرى المنهك على الحائط الأجرب ، دون أن أستطيع تجميع شتات أفكارى ، لكن السجان جاء بعد فترة ، ومعه أحد مسجونى الخدمات الذى رمى إلى ببرش وبطانية ، ثم وضع دلوًا به كمية من الماء وآخر فارغًا للتبول.. ثم أغلقوا الباب ، دون أن يتركوا لى شيئًا من الطعام..

كنت فى حالة نفسية سيئة ، لقد حط الظلام ، ومعه البرد القارس ، وجسدى يرتجف من الحمى والغضب ، وعندما سمعت أذان المغرب أخذت أردده فى شىء من الهدوء والتماسك ، ثم تحاملت على نفسى وتيممت ، وأخذت فى الصلاة باستغراق وعمق ، شعرت آنذاك أن الله معى ، وأن هناك أيديًا

خفية تمسح على وجهى ورأسى وآلامى ، وبعد أن انتهيت من الصلاة كنت أفضل حالاً مما سبق ، وبدأت فى قراءة « المأثورات » ، وبعض سور القرآن الكريم.. كنت أجلس فى رحاب الله مع الصمت والظلام والتأمل ، وتذكرت كلمات للإمام تقى الدين أحمد بن تيمية قالها فى سجنه: «إن حبسى خلوة، وقتلى شهادة، وإخراجى من بلدى سياحة، والمحبوس من احتبس قلبه عن ربه، والأسير من أسره هواه »

إن الله سبحانه وتعالى يمد الإنسان بالصبر والإيمان فى مواقف الحرج والشدة ، متى صدقت العبودية له ، والاعتصام به ، والتوكل عليه ، قد يأتى البلاء ، لكنه سرعان ما ينجلى ، وقد تهاجم الأحزان؛ لكنها بعد فترة ترحل ، وقد تشتد الأزمة ، لكن المولى يأتى بالفرج ، والمؤمن الحق هو الذى يرضى بقضاء الله وقدره ، ويصبر على الابتلاء ، وكأنه أراد سبحانه وتعالى ألا تسير الحياة على نمط واحد ، حتى يرى الإنسان شتى المواقف والمنغصات ، فيكتسب الخبرات ويعى الدروس ، ويستعد لما تأتى به الأقدار من أحداث ، إن حالة الأسى لن تدوم ، والمؤمن يثاب على كل ما يلقاه فى سبيل دعوته ، حتى الشوكة يشاكها له بها أجر ، وقد يكون ما يلقاه الإنسان من عنت بابًا للعفو والمغفرة ومحو الذنوب ، وما أكثر ما نذنب فى هذه الحياة..

كان البرد شديدًا كما قلت ، وأخذت أسعل بشدة ، حتى إن ذلك السعال أزعج جيرانى فى زنازين التأديب الأخرى ، وقد كان جارى فلاحًا مسيحيًا من أسيوط إسمه « جرجس » ، قال لى ونحن فى دورة المياه فى الصباح همسًا حتى لا يسمعنا السجان: « لقد كان سعالك يمزق قلبى »

ابتسمت له فى ود وشكرته بنظرات عينى التى تشى عما بداخلى وعاد يقول: « لابد أن يبعث لك « الجماعة » بدواء ..»

قلت: « كيف؟ إن الحصار من حولى شديد » . وصمتنا عندما جاء العسكرى ، وعدت مسرعًا إلى زنزانتى ، وفى هذا اليوم تسلمت وجبتىّ الطعام المختصر حسب لائحة التأديب ، وقلت للسجان: « كم يومًا سأقضيها فى التأديب؟ »

- « ستعرف ذلك عندما تُعرض على مدير السجن »
- « ومتى يتم ذلك؟ »
- « ومن أدراني؟ »

ثم أغلق الباب ، كان اليوم طويلا بلا نهاية ، لو أخذوا نصف طعامى وأعطونى كتابًا لحَلّ جزء كبير من المشكلة التى أعانى منها ، لكن هذا مستحيل ، وبقيت طوال اليوم الأول فى قلق وأرق؛ وكم كانت دهشتى عندما رأيت سجينًا صعيديًا يطل على بوجهه من النافذة فى الخارج بعد العصر ، ثم يقذف إلى بقطعة من الحلوى ، وعلبة مغلقة صغيرة من سمك « التونا ».. « السلام عليكم.. أنا فرغلى.. الحاج فرغلى.. عمدة « بنى حسين » »

قالها ، ثم اختفى.. أعنى أسقط نفسه من علٍ ، وسمعت صدى سقوطه بالخارج كان الأمر مفاجأة بالنسبة لى ، إننى لا أعرف الحاج فرغلى إلا معرفةٍ عابرة ، كنت أراه لكنى لم أحفظ اسمه ، ولا أعرف شيئًا عن القرية التى أتى منها ، ولا التهمة التى أُدين بسببها ، لا أنكر أننى التهمت قطعة « الحلوى الطحينية » بعد دقيقتين ، كان طعمها لذيذًا ، وانحنيت على دلو الماء لأعب منه ، لم يكن لدى كوب ، ولا وسيلة للشرب غير ذلك ، لكنى بعد أن شربت فكرت فى علبة « التونا » كيف أفتحها ، ولابد أن أفتحها وآكلها الليلة ، قبل أن يأتى السجان فى الصباح ويضبطنى متلبسًا بحيازتها ، ومعنى ذلك عقوبة

جديدة ، إضافة إلى العقوبة التى لم يصدرها المدير بعد ، ولم يكن أمامى سوى الانتظار حتى يحط الليل ، ويسود الظلام ، وبعد أن صليت العشاء ، أمسكت بعلبة « التونة »؛ وأخذت أحكّها بشدة فى أرض الزنزانة السوداء المحببة ، وطال بى الوقت وبذل الجهد حتى تفصد جبينى عرقًا ، وبعد ساعة أو أكثر تآكلت الحواف المعدنية لعلبة « التونا » ثم سقط غطاؤها ، ونفذت إلى خياشيمى رائحتها الشهية ، وسالت كمية من الزيت على الأرض وعلى يدى ، لكننى أسرعت وأفرغتها فى « القروانة » المصنوعة من الزنك أو الألومنيوم ، ولم يكن لدى خبز ، لهذا أخذت أتناولها كما هى بشهية لا مثيل لها... حلوى.. ثم « تونة » فى ليلة واحدة؟ وفي « التأديب »؟ إنه فضل كبير من الله.

شعرت بالدفء أكثر ، وأنا أجلس متلفعًا « بالبطانية » جالسًا فوق البرش الخشن ، وحمدت الله.. لكن السعال يشتد ، وأسمع « جرجس » يهتف بى ليلًا: « سلامتك يا دكتور » وأنا أرد قائلًا: « تسلم يا جرجس »؛ ويمتد ليل الشتاء البارد ، وأنا أجوب الماضى البعيد بخيالى وفكرى ، وأتذكر تفاصيل حياتى التى تبدو كشريط سينمائى طويل.. القرية.. الأهل.. سكان قريتنا الطيبين البسطاء ، ثم المدينة وأيام الغربة.. والصراعات السياسية والمعارك الطاحنة.. الثورة.. الإخوان.. السجن الحربى.. ونظرات الذئاب من رجال الأمن والسياط والدماء.. والموت.. والمحاكمات والمصير الذى لا يعلمه إلا الله.. وأشعر برغبة عارمة فى القراءة.. أجل القراءة ذلك العالم السحرى الرائع.. إن منعى من القراءة فى حد ذاته عقوبة قاسية.. ولو أنهم سمحوا لى بمصحف لكفانى ذلك.. أفكار كثيرة تدور فى رأسى ، وأبيات من الشعر تتزاحم.. وتريد أن تخرج إلى الوجود كائنات على الورق.. والسعال يهزنى هزًا عنيفًا ، وكأنه مديّ تمزق حنجرتى وصدرى والشعب الهوائية.. وأظل شاردًا فى دنيا الذكريات والأفكار والمشاريع المستقبلية والآمال ، رغم الظلام الدامس ، والدلائل السيئة التى لا تبشر بخير ، وبرغم سياسة السحق والتكميم والتكدير المستمر ، والإهانات البالغة التى نقاسى أهوالها ، وتذكرت حكمة قديمة لا أدرى أين قرأتها ، إنها تقول: « علمتنى الحياة أن أستخرج من المر حلاوة ».. نعم حلاوة.. ربما تذكرتها بسبب « الحلوى الطحينية » التى أتى بها الحاج « فرغلى ».. لكن لماذا الحاج فرغلى بالذات؟ لا أستطيع الإجابة ، عليّ أن آكل أولا.. وفى العمر - إن شاء الله - متسع لمعرفة ذلك فيما بعد..

جاء يوم الجمعة وأنا ما زلت فى التأديب ، وسمح لى السجان بالاختلاط ببعض السجناء من أبناء الصعيد لمدة ساعة ، كانوا كرماء معى ، فقد قدموا لى فى زنزانتهم كوبًا من الشاى الساخن ، وحاولوا مساعدتى فى حلق اللحية دون جدوى ، فقد كانت شفرة الحلاقة غير حادة بالمرة ، وبعد أن أتموا الحلاقة ، وجدت الشعر كما هو تقريبًا.. لكننى شعرت أن وجهى يلتهب..

قبيل المغرب ، بعد أن أغلق السجان نهائيًا باب الزنزانة ، سمعت صوت الأخ الضابط السابق السجين نجيب عطية ينادى من النافذة ، ولكى أستطيع أن أطل عليه ، أحضرت دلو الماء ، ووضعت قدمى على أطرافه حتى أستطيع الوصول إلى النافذة ورؤيته وقال لى: « لقد أحضرت لك قنينة دواء سعال « بنيلين » ، وبعض الطعام.. اعذرنا.. نحن لا نستطيع الاتصال بك باستمرار نظرًا لأن عنبرنا الآن موضوع تحت « التكدير » ، فقد حدث صدام بين إخوانك والضابط زكى ، واختطفوا منه المسدس.. وكادت تحدث كارثة لولا لطف الله.. إنه أخطأ بإحضاره المسدس معه ، وقد اقتنع المدير بذلك.. لكن كان لابد من اتخاذ بعض العقوبات والتكدير ضدنا.. وكان ما حدث لك أحد الأسباب التى أدت إلى سوء التفاهم بين الإخوان والإدارة ..»

وودعنى ومضى ، وأثناء نزولى من فوق « دلو الماء » اختل توازنى ، فتدحرج دلو الماء ، وانسكب

كله على أرض الزنزانة ، وأصبت بالذهول وأنا أرى تلك الكارثة ، وأسرعت بالتقاط « البرش » و« البطانية » قبل أن يطولهما البلل ، وإلا تعذر على النوم فى ذلك الليل القارس.. ووضعت تلك الأمتعة البسيطة فوق الدلو الفارغ ، ثم أخذت أغترف الماء المسكوب بيدى وأضعه فى دلو البول ، لا أدرى كم بقيت من الوقت أمارس هذا العمل فى سرعة وحماسة ، ثم انتزعت « طاقيتى الزرقاء » من فوق رأسى ، وأخذت أكمل تجفيف الأرض بها ، وأعصرها من آن لآخر ، كنت أسعل بشدة ، والعرق يندى جبينى وأشعر به يبلل جسدى ، وبعد فترة طويلة استطعت أن أفرش البرش ، وألتف بالبطانية ، وأستعد للنوم.. لكنى تذكرت الطعام ، فقد كانت معدتى – بعد ذلك الجهد المضنى – يعتصرها الجوع ، وقلما يشبع الإنسان فى السجن ، فالتهمته التهامًا.. وفى اليوم التالى أرسلت إلى إخوانى أطلب أن يبعثوا إلى بحذاء وجورب من الصوف مهما دفعوا مقابل ذلك من ثمن للسجان ، وقد نجحوا فى تحقيق هذه الرغبة ، ثم جاء اليوم الذى سيأخذوننى فيه إلى المدير لإصدار العقوبة.. كنت واقفًا أمام باب المدير ، ومعى سجان آخر من الإدارة غير سجان التأديب.

قال لى السجان: « اخلع نعليك ..»

قلت: – « لماذا؟ »

– « لأنه لا يدخل مسجون على المدير إلا حافى القدمين ».

كان حذائى من القماش الرخيص ، وأخذت أشرح للسجان قصة سيدنا موسى حينما قال له ربه ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ، وقلت للسجان ليس المأمور إلهًا ، ولست أنا موسى ، ولسنا فى الوادى المقدس.. بل فى سجن لعين ، فقال السجان فى غضب: « لا نسمع منكم إلا الفلسفة.. وتَعْصُون الأوامر دائمًا ».

ومر بنا فى هذا الوقت الأخ اليوزباشى « مصطفى أبو دومة » مأمور السجن ، وهو كما قلت من الرعيل الأول من ضباط الإخوان فى الشرطة ، وأدرك على الفور أن هناك خلافًا على نحو ما بينى وبين السجان ، فسأل السجان عن الأمر فرد: « يا سعادة البك لا يريد أن يخلع حذاءه عند دخوله إلى المدير »

فقال مصطفى دون أن ينظر إلى ، وهو مستمر فى سيره إلى مكتبه: « وهل لائحة السجون تقول ذلك؟ »

وفهمت على الفور أن لى حقًا لابد أن أتمسك به ، ورفضت خلع الحذاء مهما كان الأمر..

ودخلت على المدير « اللواء عطوة حنفى » وكان ينظر فى أوراق أمامه ، كنت ثابت الخطى ، رغم شحوب وجهى ، وحشرجة صدرى الذى يسمع صوت أزيزه أثناء تنفسى بالنسبة للقريب منى ، وألقى علىّ نظرة عجلى ثم أصدر حكمه دون تحقيق أو حتى مناقشة وقال: « خمسة أيام فى التأديب .. امش »

فدفعنى السجان فى غلظة إلى الخارج كما هى العادة المتبعة فى وجود المسئولين الكبار.. كنت أحسب أن مدة العقوبة قد انتهت ، فقد قضيت خمسة أيام فى التأديب ، وهذا هو اليوم السادس ، لكن للأسف فإن العسكرى – عندما قلت له ذلك – أخبرنى بأن تنفيذ التأديب يبدأ بعد تقرير المدير ، وما قبل ذلك – مهما كانت المدة – لا يوضع فى الحسبان..

وعدت إلى الخندق الضيق وحدى مع الألم والضيق ، لكن النجدة كانت تأتينى دائمًا عندما ألوذ بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ، وأحاول أثناء عبادتى أن أنسى الدنيا من حولى ، فتشرق روحى بلون من الفرح عجيب لا يمكن وصفه فى كلمات ، إنها تحلق فى سماء عالية شفافة فيها زرقة مريحة تهدئ من اللوعة والأشجان ، حتى لكأن ذكر الله معراج يصعد بالروح إلى آفاق طاهرة نقية

لا يشعر بها حزن ولا أسى ولا شجون.. حتى عندما كنت أناجي ربى ، والدموع تبلل أهدابى ، أشعر بتلك النشوة العجيبة.. فرح ودموع.. كيف يلتقيان؟ إنها سر من أسرار الخلق ، وكم فى النفس الإنسانية من أسرار!!

وفى نهاية أيام التأديب حملت فراشى البسيط ، ووليت وجهى شطر العنبر الشرقى الذى يقيم فيه الإخوان ، وفى الدور الثانى ، وجدت الأذرع المفتوحة ، والعيون الباسمة الفرحة ، والكلمات الحلوة ، وتجمع الأحباب من حولى ، وكأنى عائد من سفر طويل.. طويل.. أصبحوا هم أحبابى وأهلى وعشيرتى وكل دنياى.. ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ..﴾ ها هو أخى أنور حسانين.. ومحمود هاشم « الشهير بحاتم » ، وحسين عاشور ، والحاج عبد العزيز عبد الجواد ، وفؤاد شاكر ، وحسين عبد المعطى ، ورجب الخميسى ، وأبو بكر عثمان ، ويحيى عبد الرحمن و.. و.. و.. وغيرهم كثيرون.. وقال لى بعضهم على طريقة السينما المصرية لمن يخرج من السجن: « كفّارة يا معلم.. تعيش وتاخد غيرها ..»

ويضحكون.. وأضحك.. وآثار دموع تتألف فى العيون الطيبة الصابرة.. جلست فى ركنى المعهود ، وشردت ببصرى إلى بعيد ، وقلت: « إلى متى هذا العناء؟ » قال الأخ أنور حسانين « رحمه الله »: « عندما ينتهى صراع الحق والباطل ، وينتصر الخير على الشر ..»

- « أيمكن أن يتحقق ذلك؟ »

- « لا يستطيع الإجابة على ذلك غيره ..» وأشار بسبابته إلى السماء.

حاول أحد الإخوة التحول إلى جو المرح ، وقال مقلدًا الممثل الشهير يوسف وهبى: « هيه.. ما الدنيا إلا مسرح كبير ..»

وأسكتونى بكوب ساخن من الشاى ، ومر السجان صاحب المشكلة ، والذى وشى بى إلى الضابط ، وأضاف إلى ما حدث الكثير من أكاذيبه وأباطيله ، وقال وهو يرمقنى بنظرات لا تعرف الحياء: « حمدًا لله على السلامة.. حقك يا دكتور.. النظام نظام ..»

لم أجد مبررًا أو جدوى من أن أرد عليه ، أو أبادله الحديث ، حقيقة لقد كرهته ، إن العسكر فى الحقيقة لا يخلون من أناس طيبين ، يقدرون ظروف السجين ، ويدركون أبعاد مأساته ، ويتصرفون مع السجناء كآدميين لهم حقوق ، ولا يضخمون الخلافات ، أو يختلقون أسبابًا للإيذاء ، لكن السجان « عبد اللاه » كان عنيفًا قاسيًا ، ميت العواطف والمشاعر على الأقل - حسبما نرى - فى تعامله مع المسجونين ، لقد كرهته ، لأنه يجعل الإدارة الظالمة فوق مبادئ الرحمة والمبادىء والسماحة التى أوصى بها رسول الله ﷺ ، وكنت متحمسًا للعمل على نقله من عنبرنا بأسلوب أو بآخر ، ولم يهدأ بالى إلا بعد أن تم ذلك.. وعلى الرغم من مشاكلنا ، وحساسية وضعنا ، إلا أن السجانين الذين يتناوبون فى عنبرنا يفرحون بذلك ، لأنهم يستفيدون منا ماديًا.. لشد ما كانت شهيتى للقراءة مفتوحة.. وللكتابة أيضًا.. إن « الحبس الانفرادى » شديد القسوة ، وخاصة إذا حرمت من كل وسائل قضاء الوقت ، لكنه بالنسبة لى كان فترة هامة ، تعلمت منها كيف أعتكف عند الضرورة ، وأتفرغ لعمل جاد ، أو إنجاز دراسة ما ، أو لمجرد الذكر والعبادة ، وخاصة فى عقد الأربعينيات والخمسينيات من عمرى.

إن الاعتكاف أو الخلوة تعتبر ضرورة فى كثير من الأوقات للعديد من الأسباب..

❁❁❁

[٦] مع أصدقائى المذنبين



لم نكن نعيش فى السجن كإخوان مسلمين منعزلين عن باقى السجناء ، فالعزلة فى هذا المجتمع الصغير غير ممكنة ، وغير مفيدة فى نفس الوقت ، فضلًا عن أنها تتنافى مع أبسط قواعد الدعوة التى ندعو الناس إليها ، والواقع أن الاختلاط بالسجناء الآخرين له حدوده وتقاليده ، كما إن له نظامه وترتيباته . ولقد تخبطت سياسة الحكومة إزاء هذا الموضوع ففى المعتقلات كنا معزولين دائمًا ، فلا يسمح لنا بالاختلاط بأحد ، كانت التعليمات للعسكر مشددة بألا يعقدوا معنا أية صلات أو صداقات حتى لا نجرهم إلى مساعدتنا فى نقل رسائل للأهل ، أو نأخذ عنهم أخبارًا ، أو نخفف من عدائهم لنا ، وهم الذين يحملون السياط ، وينفذون عمليات التعذيب أثناء التحقيق ، وفى غير أوقات التحقيق أيضًا ، فإذا أراد أحدنا الحديث مع أحد منهم تجهم وجهه وأسرع برفع سوطه ، أو انصرف عنه دون أن ينطق .

ولقد بلور ذلك المعنى أحد العسكر - وكان من بلديات أحد الإخوة - هذا المعنى بقوله: « أنا لا أرى.. لا أسمع.. لا أتكلم » ، لكننا بعد أن انتقلنا من المعتقلات إلى السجون المدنية ، تغير الوضع ، وأصبح السجانون والمسجونون - على حد سواء - يتعاملون معنا فى معظم الأحيان ، ونستثنى من ذلك فترات « التكدير » والصدام..

فى هذه السجون المدنية تخبطت سياسة الحكومة ، مرة تأمر بتسكيننا مع هؤلاء المساجين العاديين ، ومرة أخرى تسمح لنا بدور مخصص ، ثم تعود مرة أخرى فتأمر بتسكيننا معهم ، والحقيقة أن هذه السياسة أو تلك لم تكن بمانعة من التعامل والتفاهم والتعاون مع هؤلاء السجناء؛ لكننا كنا نفضل أن يحدد لنا مكان معين نستطيع أن نطبق فيه القواعد والشروط الصحية ، وأن نحافظ فيه على بعض خصوصياتنا ، فنحن لنا برامج فى القراءة وتنظيم الأسر ، ومساعدة بعضنا البعض عند الحاجة فى مجال المصروفات وإعداد الطعام والعبادات وغير ذلك من الأمور الأخرى التى لا يمكن أن تتم فى سكن مختلط ، لقد دفعنا مثلا من جيوبنا الخاصة ثمن إدخال النور الكهربائى إلى الزنزانات الخاصة بنا ، وبعدها بفترة أدخلت الحكومة النور فى زنازين الأخرين دون أن تكلفهم شيئًا ، وكنا نطلب الفرق الصحية لتطهير العنبر بالمبيدات الحشرية ، كما كنا نستخدم بعض المطهرات والستائر أثناء الاستحمام أو دخول دورة المياه ، بينما السجناء الآخرون لا يهتمون بمثل هذه الأمور ، رغم محاولة إقناعهم بها.

لقد كُلّف الإخوة بعمل اتصالات مع بعض العسكر والمساجين العاديين وذلك لشراء - أو بعبارة أدق - لتهريب بعض ما نحتاجه من الممنوعات كالشاى والسكر والزيت ، وشفرات الحلاقة وبعض الملابس ، وبعض الأطعمة التى لا يسمح بتواجدها فى المقصف ، وهناك أيضًا تهريب الرسائل ، لأن الرسائل التى سمح لنا بها فى الفترة الأخيرة كانت لا تتجاوز نصف صفحة ، ولابد أن يقرأها الضابط

المختص ويعتمدها ، ولا يكتب فى الرسالة سوى التحيات والتسليمات ، لكن الرسائل المهربة كانت شاملة ، بحيث نكتب فيها كل ما نريد عن إدارة الأمور المالية أو الاقتصادية ، وإبداء المشورة فى كثير من القضايا الأسرية ، كما يمكن أن نضمنها عند الضرورة أخبارنا ومدى ما نتعرض له من تكدير وعقاب ومظالم حتى يعلم أهلونا حقيقة أوضاعنا ، وقد نحرض الأهل على إرسال شكاوى بخصوص الإهمال فى علاج المرضى منا ، وغير ذلك من الأمور الحياتية المختلفة.

كما إن اتصالنا بالمسجونين أحيانًا ما كان ينقل إلينا بعض ما تنويه الإدارة من مضايقات لنا كالتفتيش المفاجىء ، أو تدبير بعض الفتن ، أو الإيقاع بنا فى مشاكل لاختلاق أسباب للإهانة والتكدير ، ومن الطبيعى أن تلعب الإدارة معنا نفس اللعبة كأن تدس بيننا بعض عملائها من المسجونين الذين تعتقد أننا نثق بهم ، كى ينقلوا إليها أخبارنا. لكن بمرور الزمن ، وطول مدة الحبس ، توطدت العلاقة بيننا وبين عدد كبير من المساجين ، وخاصة أولئك القدامى الذين يستطيعون تقديم الخدمات لنا ، وإن كان كل خدمة لها ثمنها ، كما توطدت العلاقة بين بعضنا وبين عدد من العسكر والضباط ، وكلما مرت الشهور تحسنت الأحوال ، لكن يا ويل من يُمسك به متلبسًا من المسجونين وهو يسلم لمندوبينا بعض الاحتياجات الضرورية الممنوعة ، إن أبسط عقوبة له هى الضرب والحجز فى التأديب ، ثم منعه منعًا باتًا من الاتصال المباشر بنا.

كان بسجن أسيوط سجين يبدو أبْلَهَ ، ويتصرف كما يتصرف الأطفال ، وقد قرر الأطباء أن يعامل برقة كما يعامل الطفل ، وكان هذا المسجون ولنسمه « س » يقلد الأطفال فى حركاته وكلامه وتعبيرات وجهه ونظرات عينيه ، ولهذا كان يسرح ويمرح فى فناء السجن كيفما يشاء ، والغريب أن هذا السجين الصعيدى كان من أهم الشخصيات التى تقوم بتهريب احتياجاتنا ، كنت أجلس معه أثناء التعامل ، فأراه رجلًا عاديًا ترتسم على وجهه سيما الجد والصرامة والرجولة ، ويقوم بإجراء العمليات الحسابية بدقة وذكاء ، لكن إذا ما رأى أحد الضباط قادمًا ظهرت على الفور أمارات البلاهة والغباء فى وجهه ، ولم يكن أمره مكشوفًا إلا لنا ، ولعدد محدود من العسكر الذين يتصل بهم لتسهيل مهمة الأشياء المهربة ، وإيصالها إليه ، ثم إلينا ، أو إلى مسجونين آخرين ، ولقد كنت شديد الإعجاب بذكاء هذا الرجل ، وتمثيله دور الأبله بمهارة وثقة وإتقان.. ومن الشخصيات الأخرى السجين العائد « ذو السوابق العديدة » محمود.. كان محمود لصًا محترفًا ، دخل السجن بسبب السرقة أكثر من عشرين مرة ، لقيته أول مرة وأنا واقف خلف الباب الحديدى للعنبر الذى نسكن فيه ، فى انتظار قدوم السجان كى يفتح لى وأخرج إلى فناء السجن.. وجدت محمود يقترب منى ويقول: « هل صحيح يا أستاذ كنتم تريدون الحكم بالشريعة؟ .»

بدا لى السؤال تحصيل حاصل ، ولم يغب عنى أنه يريد أن يتحدث معى لشىء فى نفسه ، ومع ذلك قلت فى اقتضاب: « نعم صحيح ..»

اقترب منى أكثر ، وقال بصوت واضح قوى: « يا سبحان الله ، وهل هناك أحسن من حكم الله؟ »

ثم أخذ يشرح لى كيف أن انحرافه إنما كان بسبب الظلم ، وأنه لم يلجأ للسرقة إلا بعد أن أعيته الحيل فى إيجاد عمل شريف ، أو الحصول على رزقه من طريق حلال ، مما جعله يفقد الثقة فى الناس.

« الناس وحوش يا أستاذ، لم أر فى قلوبهم رحمة ولا إيمان »

« أنت نفسك رأيت كيف عاملوكم لأنكم طالبتم بالشريعة.. بالعدل.. لو كان فيه عدل ما أكل الناس بعضهم البعض »

« السجانة يعاملوننا كحيوانات.. هؤلاء بقر فى صورة بشر يا أستاذ »

كل ذلك وأنا أنظر إلى وجهه الشاحب النحيل المغبر ، وإلى يديه المعروقتين اللتين تتشابكان بقضبان الباب ، وإلى إحدى عينيه المعتمة ، وعوده الضامر ، ووجدتنى أقاطعه قائلًا: « هل تعرف القراءة؟ »

رد بسرعة:

- « طبعًا يا أستاذ.. ليس عندى شِهادة ، لكننى أجيد القراءة والكتابة.. وأحفظ عددًا من سور القرآن ..»

وأراد أن يثبت ما يقول ، فأخذ يقرأ عددًا من السور الصغيرة ، وأنا أستمع إليه ، ثم قلت: « وما تهمتك؟ »

- « سرقة.. سرقة بالإكراه.. كل من فى السجن يعرفنى.. أنا محمود ..»

- « وهل يسرق من يحفظ جزءًا من القرآن؟ »

- « الجوع كافر يا أستاذ.. السرقة أو الموت ، والله لا يرضى أن أموت جوعًا.. أنا فى رقبتى خمسة من البشر ..»

وفجأة أمسك بيدى فى ضراعة وقال: « أرجوك.. أريد مصحفًا أقرأ فيه ثم أعيده إليك.. من يدري؟ لعل الله يهدينى على يديك!! قل لى.. ما اسم حضرتك؟ »

واستطاع بذكائه وإلحاحه أن يجعلنى أعود إلى زنزانتى وأحضر له مصحفًا صغير الحجم ، وما إن سلمته المصحف حتى أشرق وجهه بالفرحة. ثم رفعه إلى فمه وأخذ يقبله فى حرارة ، وسرعان ما فتحه وأخذ يقرأ فى سورة « يس » ليثبت لى أنه يجيد القراءة.. وبعد قراءة بضع آيات ، أغلق المصحف وقال: « ألا أجد عندك « بصلة ».. واحدة فقط »

وضحكت ، لكننى عدت مرة أخرى إلى الزنزانة ، وأحضرت له ثلاث بصلات ، وقطعة من « الحلوى الطحينية » ، ثم اختفى.. بعد أن فتح السجان باب العنبر الذى أخذ المسجونون يتدافعون منه إلى الفناء ، وفى صباح اليوم التالى وجدت السجان يهتف باسمِى عاليًا ، فأسرعت خارج الزنزانة لأتبين ما الأمر ، ونظرت إلى الدور الأرضى ، فوجدت السجان ممسكًا بملابس « محمود » من أعلى الكتف ، ويدفعه أمامه فى غلظة ، ويكيل له الصفعات ، وما إن رآنى السجان حتى أخذ يحتج ويعتب على فى عنف وغضب شديد ، وما إن نزلت إلى الدور الأرضى ، حتى بدأت فى تهدئة السجان الثائر ، فأفهمنى أنه من الخطأ أن أعطى « المصحف » لهذا المذنب اللص « النجس » - على حد تعبيره - لأنه استغل المصحف فى السرقة ، كيف؟ جلس محمود يقرأ فى المصحف بصوت منغم عالٍ بجوار المقصف ، وأثناء القراءة ، كان يغافل البائع ويمد يده ليسرق علبة سجائر ، أو علبة الطعام المحفوظ ، حتى تنبه البائع وأمسك به متلبسًا.. وأعطانى السجان المصحف مؤكدًا على ألا أقع فى هذا الخطأ مرة أخرى ، وألا أتعامل مع مثل هؤلاء اللصوص الأوباش ، ولم يترك محمود إلا بعد أن لقنه درسًا قاسيًا ، حتى احمرّ قفاه ووجهه من الصفع وأقسم أنه لو رآه فى عنبرنا مرة أخرى لجلده ، ثم جره جرًا إلى خارج العنبر.. وأخذت أتابعه بألم وعطف رغم خطئه ، ولكن محمود لم يجرؤ على الاقتراب من عنبرنا بعد ذلك ، غير أنه كان يلتقى بى أثناء « الفسحة » فى فناء السجن عصر كل يوم ، كان يفهم فى السياسة ، وله نظرات فى الظلم الاجتماعى والفساد والطمع الذى تفشى ، وكانت له تحليلاته وتبريراته التى تتفق ومنطقه ، لكنه كان يؤكد فى كل مرة - لا أدرى صدقًا أم كذبًا - أن الحكومة لو طبقت « الشريعة » لما كان هناك مجرم ولا لص ولا محتال.

وتعرضت ذات مرة للإصابة بإنفلونزا حادة والتهاب بالشعب الهوائية مما جعلنى ألزم فراشى - أعنى « برشى » فى زنزانتى لبضعة أيام ، لم أستطع خلالها النزول إلى فناء السجن ، وذات يوم فوجئت بمحمود يدخل عليّ الزنزانة وهو يتلفت فى خوف يمنة ويسرة ، ثم جثا إلى جوارى على ركبتيه ، وأمسك بيدى فى حنان ، والدموع تترقرق فى عينيه ، بل همّ بتقبيلها لولا أنى انتزعتها منه بسرعة.. كان يقول: « سلامتك ألف سلامة.. كان لابد أن أزورك وأطمئن عليك حتى ولو جلدونى ..»

لكنه مع ذلك كان قلقًا مضطربًا فى جلسته ، ومن آن لآخر يمد بصره عبر الباب مخافة أن يضبطه السجان ، ولهذا أردت أن أحميه من شر العقاب ، فشكرته وأشرت عليه بأن يمضى فى حذر وخفية كى يصل آمنًا إلى « عنبره » فى الناحية الأخرى ، ولم أنس أن أزوده ببعض الأطعمة وبرغيف وسيجارة.. وبصلة كبيرة.. وأخذ ما أعطيته وهو يقول بإخلاص: « والله ما أتيت إلا لأطمئن عليك ..»

وفر محمود هاربًا فى لمح البصر ، فتنهدت فى ارتياح ، لكنى علمت بعد ما يقرب من ربع ساعة أن السجان أمسك به ، وأشبعه ضربًا ، وأخذ منه الطعام ، ورماه فى المكان المخصص للنفايات.

إن أمثال محمود لا يزورهم أحد فى السجن ، وليست لديهم أية مبالغ من المال ليشتروا شيئًا من المقصف ، إنهم يعيشون على الغذاء المحدود الذى يصرفه لهم السجن ، لكن قد يجلس إلى جوارهم مساجين آخرون يستمتعون بأشهى وألذ الأطعمة المهربة ، ولا يفكر هؤلاء فى أن يجودوا على محمود وأمثاله بشىء منها ، فكل سجين غالبًا لا يفكر إلا فى نفسه..

واستمرت علاقتى بمحمود فترة طويلة رغم المنغصات ومضايقات السجان القاسى ، كنت أشعر نحوه بتعاطف حقيقى رغم جرائمه العديدة ، ولم يحاول مرة أن يسرق منى شيئًا ، أو يخدعنى ، كان يكاشفنى بما يدور فى نفسه ، وكان يطلب منى أن أساعده فى البحث عن عمل شريف عندما نخرج من السجن ، ويقسم أيمانًا مغلظة أنه لو تم ذلك فسوف يحيا حياة شريفة مستقيمة ، وسيصبح منا ، ويطالب بتطبيق الشريعة معنا ، حتى ولو سجنوه بسبب ذلك ، لأن السجن فى مثل هذا الحال - كما يقول - شرف أى شرف..

وذات يوم سمعت « محمود » يهتف باسمى وهو فى الدور الأرضى ، وأطللت عليه ، فوجدته حزينًا دامع العينين ، يحمل برشه وبطانيته تحت إبطه ، ورفع إلى وجهه الشاحب قائلًا:

- « مع السلامة ..»

- « ترحيل إلى سجن طرة.. لقد حكم على بالسجن ست سنوات أشغال شاقة.. فى الجبل.. وسأسافر غدًا ..»

كان السجان يقف إلى جواره هذه المرة.. إنها المرة الوحيدة التى يسمح له فيها بذلك ، لأنها رغبة أخيرة.. « من يدرى.. فقد تتلاقى الوجوه فى يوم من الأيام إن كانت بقية من عمر ..»

قالها والسجان يجذبه ناحية باب العنبر ، وأخذ محمود يتوارى بعيدًا ، ينقل خطاه الواهنة إلى المجهول.. كادت الدمعة تطفر من عينى.. ست سنوات أشغال شاقة؟ ومن أجل السرقة؟ وقال أحد الإخوة الخبراء:

- « إن اللص كلما كرر جريمة السرقة ، تزداد العقوبة كل مرة.. تبدأ بشهور.. وبعد « السوابق » الكثيرة.. تتحول عقوبة السجن إلى عقوبة أشغال شاقة فى الليمان.. إن أمثال هؤلاء الناس معتادى الإجرام يعيشون فى السجون أكثر مما يعيشون خارجها.. وهكذا تصبح الحياة فى السجن هى القاعدة ، والعيش خارج السجن هو الاستثناء وهل نسيت أن بعض السجناء كان يرفض الإفراج عنه ، ويتشبث

بالبقاء فى السجن ، حتى ولو افتعل جريمة جديدة قبل أن يخرج كأن يتطوع بالإبلاغ عن نفسه بأنه يحوز بعض المخدرات؟ مثل هؤلاء لا يعرفون الاستقرار إلا فى السجن فالغذاء مكفول ، وإن كان فى حده الأدنى ، والمأوى متوفر وإن كان زنزانة ضيقة ، والفراش موجود وإن كان « برشًا وبطانية » والملابس لا إشكال فيها فهى رخيصة وتافهمة ومتوفرة بالمجان.. ومجتمع السجن هو المجتمع الذى ألفه وعرفه.. أما الطموحات والآمال فلم يعد لها جدوى أو قيمة اللهم إلا فى حالات نادرة.. عند من يهيمون فى أحلام اليقظة ..»

كان لى طوال فترات السجن أصدقاء كثيرون متنوعون ، منهم من تخصص فى النصب والاحتيال ، أو التزوير وتزييف العملة ، أو القتل ، أو تجارة وحيازة المخدرات ، أو الاختلاس ، لكن جرائم القتل والثأر كانت تشكل نسبة كبيرة فى سجن أسيوط ، أما فى سجن القاهرة فكانت الجرائم الغالبة من نوعية أخرى تتعلق بالسرقة والانحرافات المالية والأخلاقية وغيرها ، وكانت هناك جرائم غامضة يجد الإنسان نفسه حائرًا حيالها ، وأذكر من هذه الجرائم جريمة رجل يدعى « الشيخ عبد المجيد » وقد وردت شخصية مستوحاة منه فى روايتى « ليل وقضبان » التى أخرجت فيلمًا سينمائيًا..

كان الشيخ عبد المجيد محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وبعد أن قضى سنوات فى « ليمان طرة » يكسر الحجر فى الجبل ، وتقدمت به السن ، تم ترحيله إلى السجن المركزى فى محافظته وهو سجن أسيوط ، حيث يعيش فى هذا السجن الأخير دون عمل ، ويظل ينتظر انتهاء المدة كى يفرج عنه ، ومن العجيب أن « عبد المجيد » كان يعرف الكثير من الأحكام الفقهية ، وحفظ القرآن فى صغره ، ويستطيع أن يجادل فى بعض الأحكام ، ويدلى بالأسانيد والنصوص ، لكنه كان يصاب من آن لآخر بنوبات من الخرف أو قل الجنون ، فيخلط فى الكلام ، ويخرج من موضوع إلى آخر ، ويتحدث عن أشياء خرافية ، ويحكى تفاصيل غريبة لا تُصدق ، ففى بعض الأحيان تراه يتحدث بمنتهى الرزانة والمنطقية ، وفى أحيان أخرى ينقلب الحال إلى النقيض ، وفى حالاته الطبيعية كانت هناك عبارة تقلب حاله قلبًا فى لحظات ، هذه العبارة هى « نبيهة بنت حسن عرفات » حاولت كثيرًا أن أتقصى أخبار « نبيهة » هذه ، من تكون؟ وما علاقتها به؟ لكنى لم أجد الجواب الشافى ، كان الشيخ عبد المجيد يحب الجلوس معنا أثناء « الفسحة » فى العصر ، ونتبادل معًا شتى الأحاديث.. وكلما حاولت أن أسأله عن « نبيهة » سرعان ما يحتقن وجهه ، وتجحظ عيناه ، وينطلق فى حديث ثائر ، يصحبه الزبد والرذاذ ، فنندم على أننا قد نكأنا جراحه.. كان يقول: « نبيهة بنت حسن عرفات » وباء أصفر.. إنها جاسوسة يهودية.. إنها تزعجنى طول الليل ، تبعث إلى موجات صوتية وإشعاعات.. أى والله إشعاعات فلا أستطيع النوم.. تريدنى أن أجن أو أموت.. الخيانة هى.. لا تستحق إلا الإعدام.. الحكومة جاهلة ولا تعرف عنها شيئًا.. انظروا كيف أسد أذنيّ حتى لا أسمع صوتها..

وننظر فنجد إنه قد وضع على أذنيه أغطية من الصفيح مبطنة بقطعة من القطن « غالبًا ما تكون أغطية لعلب الفرنيش أو الورنيش التى كانت تستعمل قديمًا لتلميع الأحذية » ثم يلف عليها شالا أبيض حول الرأس والأذنين.

كان عبد المجيد مسليًا ومحدثًا لبقًا ، لديه الكثير من القصص والتجارب ، ويعرف الكثير عن تقاليد وطباع أخوتنا فى الصعيد « الوجه القبلى » ، وعلى الرغم من حيرتنا حيال جريمته إلا أن الحكم عليه

بالأشغال الشاقة يعنى أنه قاتل ، وقد قيل أنه قتل « نبيهة » زوجة أخيه ، وقيل أيضًا إنه لم يقتل نبيهة ولكنه قتل أخاه ، وأشياء أخرى قيلت ، لكن الحقيقة ظلت ضائعة ، ولعل ملف القضية هو الذى يكشف وجه الصدق ، وأين هو ملف القضية؟ لكن يبقى عبد المجيد الذكى والمحدث اللبق و.. المجنون فى كثير من الأحيان ، والمؤكد أن وضعه العقلى – رغم كل ذلك – ليس فى حالة طبيعية ، قد يكون ذلك بسبب ملابسات الجريمة التى اقترفها ، وظل شبحها يطارده ، وقد يكون بسبب المدة الطويلة التى قضاها فى ليمان طرة وفى سجن أسيوط الله وحده يعلم..

وهناك العم « عبد الرحيم » زميل الشيخ عبد المجيد فى زنزانته ، إنه أيضًا رجل متقدم فى السن ، قضى فترة الليمان ، ثم أحيل إلى سجنه المركزى ، وأعتقد إنه كان متهمًا بالقتل ، وهو فى أثناء وجودى بسجن أسيوط فى الستين من عمره تقريبًا ، وقد أفرج عنه بعد قضاء سنوات طويلة لأنه كان محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، لكن الغريب والمذهل أن عبد الرحيم عاد إلى السجن مرة أخرى بعد أربعة أو خمسة أشهر ، بتهمة قتل جديدة.. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

كان عبد الرحيم صديقنا هو الآخر ، لكنه يختلف كثيرًا عن الشيخ عبد المجيد المتوتر المضطرب أو المشوش الذهن عندما تنتابه الأزمة ، عبد الرحيم مبتسم دائمًا ، يجيد لعبة العصا ، ساخر من الحياة لا يعبأ بالسن ولا بالمرض ولا حتى الموت ، لا يتهيب المستقبل ، ولا يتبرم من الحاضر ، قلما تجده مهمومًا أو مكروبًا ، لكن رجل فى مثل سنه وتجربته المريرة كيف يجرؤ على القتل مرة أخري؟

كان عبد الرحيم سعيدًا عندما تقابلنا معه بعد إعادته إلى السجن ، لم تفارقه سخريته وابتسامته ، لكأن الجريمة التى ارتكبها أمر عادى لا يثير استغرابًا ، لقد تحجر قلبه ، من جراء الأحقاد وليالى السجن وأيامه القاسية كما هو واضح ، لكن ألم تردعه شيبته وشيخوخته؟ لقد قال فى معرض الدفاع عن تصرفه ذلك: « فى المرة الأولى اتهمونى ظلمًا ، كان أخى الأصغر هو القاتل ، لكنهم ألقوا بالتهمة على ، وأجمع الشهود على ذلك ، وكان بيننا وبين أسرة القتيل ثارات قديمة ، أتدرون لماذا اتهمونى أنا؟ ليضربوا عصفورين بحجر.. أدخل أنا الليمان.. ثم ينفردون بأخى الأصغر القاتل.. وقد قتلوه فعلًا وأنا سجين.. بل فى العام الأول من سجنى.. لقد ترملت زوجته وتيتم عياله.. وكذلك زوجتى وأولادى رغم أنى حى أرزق.. لكنى فى السجن.. عندما خرجت كان لابد أن آخذ بثأرى.. فهم حبسونى ظلمًا.. وآخذ بثأر أخى.. هذا هو قانوننا هنا.. وإذا لم أفعل ذلك فسيركبنى العار أبد الآبدين ..»

قلت له: « سيثأرون من أولادك »

– « فليفعلوا إن استطاعوا ..»

– « ولن تجف الدماء أبدا يا عم عبد الرحيم ..»

هز رأسه وهو ما زال يبتسم وقال فى سخرية: « أعرف.. وهى لم تجف أبدًا فى يوم من الأيام.. هذا قانون يا ولدى ..»

– « إن « قانون الله » أعظم »

وضع يده على كتفى وقال:

– « وقانون الله يقول ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ ويقول ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ لكن الحكومة لا تعرف قانون الله.. تقتلُ إنسانًا فيحكم عليك بالسجن سنة.. خمس سنوات.. عشرة.. وربما براءة.. ثم تخرج ويراك أهل القتيل فتغلى الدماء فى عروقهم ..»

ثم قطع حديثه فجأة وقال:

- « انظر.. عينى محمرّة.. أليس عندك قطرة أو مرهم للعين ..»
- « القطرة موجودة.. لكن يؤلمنى أنك لا تخرج من السجن هذه المرة حيًا ..»

قهقه مرة أخرى فى سخرية وقال: « هيا واحضر القطرة.. عينى تدمع باستمرار، والموت لابد قادم.. والأعمار بيد الله يا ولدى.. يكفى أن أهل بلدى كانوا ينظرون إلى باحترام وأنا عائد إلى السجن للمرة الثانية.. وزغردت النساء.. كانت زوجتى هى الأخرى تزغرد.. وبناتها كذلك.. لكن أقول لك الحق.. كانت الدموع تنسكب من عيونهن ..»

الحقيقة أن مشكلة « الثأر » فى الصعيد ما زالت مشكلة عويصة، وعلى الرغم من أنها تؤرق ذلك المجتمع، وتكبده أفدح الخسائر إلا أنها ما زالت متغلغلة فيه، وأغلب المساجين - كما قلنا - فى الصعيد بسبب مصيبة الأخذ بالثأر، رغم التوعية والأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية ورغم الدراسات الاجتماعية العديدة التى أجريت عنها، إلا أن الشىء الهام والملفت للنظر أن الذين انضموا إلى « الإخوان المسلمين » من إخوتنا الصعايدة قد تأثروا بتعاليم الإسلام وأحكامه وآدابه، وأمكنهم التخلص من هذه التقاليد وبذلوا جهودًا دائبة فى مكافحتها وحققوا قدرًا لا بأس به من النجاح، وقد استطاع الإمام الشهيد حسن البنا فى الأربعينيات من القرن العشرين، أن ينجح فى إتمام الصلح بين عدد من العائلات الكبيرة فى الصعيد أثناء جولاته العديدة لنشر دعوته، وقد أشار عدد من المؤرخين المعاصرين لجهوده فى ذلك المجال حتى إن المؤرخين اليساريين أنفسهم أثبتوا شيئًا من هذا فى كتاباتهم، أذكر منهم الأستاذ الدكتور مكى، كما سجل ذلك أيضًا الأستاذ محمود عبدالحليم فى ثلاثيته عن تاريخ الإخوان، والأستاذ أنس الحجاجى وهما من الإخوان وغيرهما كثيرون..

لا أستطيع أن أتناول بالتفصيل أصدقائى المذنبين، فهم كثيرون، وبعضهم كان يزورنى فى السجن بعد خروجه، وإنما أردت أن أشير إلى بعض النماذج هنا، كما أشرت إلى نماذج أخرى من أجزاء هذا الكتاب، فضلًا عما ذكرته فى كتابى « المجتمع المريض »، وما ورد فى بعض رواياتى وقصصى الكثيرة التى تعرضت للسجن أو السجناء فى مختلف الجوانب، وما أكثر ما تعرضت للسجون والسجناء فى كتاباتى القصصية!

❁❁❁

[٧] نساء مجاهدات



كانت المحنة التى عانى منها رجال الإخوان المسلمين فى السجون والمعتقلات محنة قاسية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر الحديثة ، ولقد كان لهذه المحنة مضاعفات وآثار عميقة لا يمكن محوها ، لكن الجانب الذى أهمله الكتاب والمؤرخون لتلك الفترة « ١٩٥٤-١٩٦٥» هو الدور الذى أدته نساء الإخوان سواء أكن زوجات أو أمهات أو أخوات أو بنات ، وهو دور مشرف لم يكشف عنه النقاب بصورة تفصيلية حتى الآن ، ربما لزهد الإخوان فى تسليط الأضواء على هذا الجانب؛ أو بسبب أن ذلك أمر واجب ، وسلوك طبيعى لا يعتبر غريبًا بالنسبة للبيئة أو الأسرة المسلمة ، أو لأن معظم هؤلاء السيدات يعتبرن ذلك قربة لله ، ومشاركة للرجال فى صبرهم ومعاناتهم ، ولقد كان جهاد النساء مؤثرًا وعميقًا - كما قلت - لكنه بدأ منذ وقت مبكر ، أى قبل أن يحدث الصدام ، وتتعقد الأمور ، وتسيل الدماء على أرض السجون والمعتقلات فى الزنازين السوداء .

كانت النسوة لهن تنظيم خاص فى المركز العام للإخوان المسلمين ، وكانت لهن محاضراتهن ونشاطهن فى المؤسسات التعليمية وعلى المستوى الاجتماعى الشامل ، وكانت نسبة المصاهرة بين أسر الإخوان المسلمين نسبة عالية ، وغالبية هذه الزيجات اتسمت بالنجاح والتوفيق ، وانعكس ذلك على الأجيال الجديدة التى تسلمت الراية فى السنوات اللاحقة ، لكن صمود هؤلاء النسوة قد تجلى بصورة أقوى وأوضح إبان الأزمات والمحن ، لقد صبرن واحتسبن سنوات طويلة ، وعانين شظف العيش ، لقلة الموارد ، وانقطاع الرواتب الخاصة بالمحكوم عليهم من رجالهن ، أو انهيار المؤسسات التجارية والمالية للعاملين فى القطاع الخاص « غير الحكومى » منهم ، بالإضافة إلى أن الحكومة كانت تقف حجر عثرة فى طريق الأسر حتى تجعلهن بسبب « لقمة » العيش يخضعن أو يتمردن على رجالهن الذين حرموهم متعة الحياة وهناءها واستقرارها ، ولقد سبق وأشرنا إلى موقف الحكومة من أولئك المقطوعين الذين كانوا يجمعون الإعانات والمساعدات للأسر التى سُجن عائلها ، فقد اعتقلت هؤلاء المتبرعين بأعداد كبيرة ، وقدمتهم للمحاكمة تحت اسم « قضية الجهاز السرى التمويلى » ، وكان ذلك عام ١٩٥٥، كانت أسر المسجونين تعيش فى مأزق حقيقى ، لدرجة أن أحد الإخوة المسجونين فى سجن أسيوط عاد باكى العينين من إحدى زيارات أهله له ، ولم يفصح عن سبب بكائه إلا لإخوته فى الزنزانة ، وعلمنا أن أبناءه وبناته على وشك الانقطاع عن التعليم ، والبحث عن عمل يدر عليهم دخلًا يكفى لتحقيق الحد الأدنى للمعيشة ، وكانت هذه الأسرة تعيش فى منطقة منعزلة لا يعرف عنها الإخوان شيئًا فى الخارج ، وآلمنا هذا الوضع ، فاقترح أحد الإخوة المسجونين وأظنه المذيع التليفزيونى « فؤاد شاكر » أن نجمع تبرعات - مهما كانت ضئيلة - من داخل السجن ، وبصورة عاجلة ، ونرسلها إلى هذه الأسرة ، رغم ضعف الإمكانات المادية المتاحة لنا ، وقد أقبلنا على تنفيذ ذلك بحماس منقطع النظير ، ومن لم يكن لديه مال

تبرع ببعض قطع ملابسه الداخلية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أجرينا اتصالات سريعة ببعض الإخوة الأخيار المطلقى السراح كى يتدبروا هذا الأمر العاجل.

وهناك بعض السيدات من ربات البيوت واللائى لم يسبق لهن العمل فى وظيفة من الوظائف ، فقد كن يركزن على رسالتهن الأسرية فى تربية أولادهن ، ورعاية أزواجهن ، لكن إزاء هذه الظروف القاسية ، وبسبب محاصرة الحكومة لعملية جمع التبرعات ، ومراقبة الأسر والعائلات مراقبة صارمة ، ولم يكن هناك بد من أن تخرج الكثيرات لسوق العمل المناسب ، حتى يحصلن على الرزق الحلال بالأسلوب الحلال ، ويواصلن رسالة الأب السجين فى مجال تعليم الأولاد ورعايتهم بل وتزويجهم فى كثير من الأحيان ، وبعض هؤلاء النسوة المحتاجات اشتغلن فى التجارة البسيطة بيعًا وشراءً ، ومنهن من تكبدت المشاق فى الحصول على « ماكينة » خياطة ، لتخيط للغير ، وأخريات عملن فى مجالات متعددة ، صابرات محتسبات ، وقد يكون الأمر هينًا إذا كان لبضعة شهور ، أما إن يمتد أحيانًا لسنوات.. طويلة فهو أمر يبدو فوق الطاقة ، لكن هل كانت هناك حلول بديلة لهذه الحلول؟

ويجب ألا ننسى أن هناك أسرًا أخرى كانت لديها الإمكانات أو الرصيد الكافى للإنفاق على الأسرة دون حاجة إلى معونة من أحد ، ودون الاضطرار للبحث عن وظيفة ، فضلًا عن إخوة السجين وأهله كثيرًا ما كانوا يعولون زوجته وأبناءه ، قيامًا بالواجب ، وصلة للأرحام.

لكن تظل غيبة « الأب السجين » ، أو الأخ الأكبر العائل ، أمرًا ذا أبعاد اجتماعية ونفسية كبيرة لا يمكن التهوين من شأنها ، وقد رأيت أحد الإخوة من الآباء مكتئبًا حزينًا لأن ابنته وافقت على الزواج من شخص لا يناسبها ، وأنها اختصرت آمالها العريضة فى تلقى العلم ، واكتفت بالثانوية العامة ، وشغلت وظيفة صغيرة ولم تدخل كلية الطب كما كانت تحلم من قبل ، وكان واضحًا أن الفتاة المسكينة رأت بعينها ولمست مدى ما تعانيه أمها من ضيق ذات اليد ، فأرادت أن تخفف العبء وتلوذ بكنف رجل ، لعلها فى المستقبل تستطيع أن تستدرك ما فاتها من فرص.

ولقد عانت بعض الزوجات والأبناء من اضطرابات نفسية مرضية اقتضت مشورة الأطباء ، وأخذ علاجات لفترات ليست بالقصيرة ، والأبناء فى غيبة الأب قد يشعرون بما يشبه اليتم ، ويشعرون بأن هناك شيئًا ناقصًا فى حياتهم ، وخاصة عندما يعقدون المقارنات بينهم وبين زملائهم.

لقد أصيبت زوجة أخينا « غ » بمرض نفسى شديد قلب حياتها رأسًا على عقب ، بحيث لم تعد قادرة على متابعة رسالتها نحو منزلها وأبنائها ، وكان قرار الطبيب المختص المعالج أن وجود زوجها بالقرب منها أمر ضرورى لنجاح العلاج ، وأخذنا نتدارس الوضع الحرج ، وما المخرج الممكن؟ وأخيرًا – بعد تفكير وجهود مضنية – أمكننا تدبير ترحيل الأخ « غ » من سجن الصعيد إلى سجن القاهرة لعلاجه من انزلاق غضروفى فى الظهر ، وارتفاع فى ضغط العين « جلوكوما » ، وفى سجن القاهرة « قره ميدان » ، أشار الأخصائى بإحالته إلى المستشفى الجامعى « بالقصر العينى » ، وعندما يكون السجين بالقسم الداخلى يوضع عادة فى غرفة خاصة ، ويوضع على بابها حراسة مشددة ليلًا ونهارًا ، بالإضافة إلى المرور الدورى لرجال المباحث لمراقبة أحواله واتصالاته ، وبقى هذا الأخ فى القصر العينى ما يقرب من عام ، لقد استطاع أن « يروّض » الحراس بأسلوب أو بآخر ، وبالتالى أصبح من اليسير عليه أن يقضى فترات طويلة مع زوجه وأولاده ، وسرعان ما شفيت من مرضها النفسى ، وعادت إلى حالتها الطبيعية ، بل إنه خلال شهر رمضان كان يذهب إلى بيته فى وقت أذان المغرب متخفيًا ، ويعيش بين أسرته حياة طبيعية لساعتين أو ثلاثة ، بل إن بعض الحراس الطيبين كانوا يتركونه فى منزله حتى الفجر ، تكرمًا منهم

وعطفًا، وتقديرًا لظروفه، ومهما كانت قسوة الشرطة فى مثل هذه الظروف العصيبة، والأوامر المشددة، إلا أنك قد تجد بعض الأفراد من ذوى القلوب الرحيمة، وخاصة بين أولئك العسكر الذين لم يعملوا فى السجون أو المعتقلات من قبل، ولم يمارسوا التعذيب كغيرهم، لكن الأمور لم تمض على هذا النحو الهين اللين، فقد داهم رجال المباحث بيته ذات ليلة، وأمسكوا به متلبسًا، ولابد أن نفسًا حاقدة قد وشت به قال الضابط له: «أنت متهم بالهروب؟»

قال «غ»: «ليس للحارس ذنب، لقد غافلته ..»

- «سوف يلقى جزاءه.. وأنت أيضًا ..»

- «لا يهمنى نفسى.. لكن الحارس لم ..»

قاطعه الضابط قائلًا فى خشونة: «كفى.. نحن نعرف ما يجب عمله.. ستحاكم بتهمة الهروب، وستعاد إلى سجنك الأصلى.. لقد أتيت إلى بيتك مرات عديدة.. ولقد عرفنا ذلك ..»

قال السجين: «وهذا يدل على أننى لم أنو الهرب أبدًا، ولو كان فى نيتى ذلك لفعلته منذ البداية.. لقد كنت مضطرًا لعلاج زوجتى المسكينة التى لا ذنب لها ..»

جذبه الضابط من طوقه، ووضع الأغلال فى يديه قائلًا: «وتنجب أطفالًا؟ يا لك من متبجح!!»

- «هذا حق شرعى.. وإنسانى ..»

- «سنرى.. هيا ..»

إن الحاجة تفتق الحل، والظلم الفادح الذى يقع على الإنسان، وما يتبعه من مضاعفات وكوارث، قد يدفع الإنسان دفعًا للتصرف الذى يخفف من البلاء، أو يحل بعض المشاكل، ولهذا رضخت الحكومة - فى فترة من الفترات - للأمر الواقع، وأفسحت المجال للقاء الأزواج والزوجات فى «سجن الواحات الخارجة فقط»، أما باقى السجون فقد تعذر ذلك تمامًا، وخاصة أن سجن الواحات كان يقع فى قلب الصحراء، ويستغرق القطار وقتًا طويلًا للوصول إلى هناك، وقد يتوقف القطار ليوم أو أكثر أثناء الطريق من أسيوط إلى الواحات، بسبب العواصف الرملية، التى تطمر القضبان الحديدية، وكان على الزائرين أو الزائرات، وبعضهم يأتى من غزة أو الإسكندرية أو القاهرة أن يقضوا أيضًا ليلة أو ليلتين حتى يحين موعد رجوع القطار إلى أسيوط، وكان سجن الواحات الخارجة عبارة عن مخيم كبير، يقيم السجناء فى خيام نصبوها بأنفسهم، ويحيط بالسجن أسلاك شائكة، وحراس مسلحون، لكن هذا المجتمع الصغير كان بعيدًا عن توقع المنغصات، ويستحيل فيه الهرب، وإلى أين يذهب السجين إذا هرب؟ إنه يموت فى هذه الصحراء الشاسعة ظمأ أو بسبب ضربة الشمس أو الجوع، ومن ثم أعدت خيام خاصة لاستضافة الزوار إذا قضوا ليلة أو ليلتين هناك، لكن هذا السجن لم يستمر إلا حوالى أربع سنوات، وأعيد السجناء بعدها إلى السجون المغلقة الكئيبة كسجن «قنا» أو أسيوط أو غيرهما من سجون الجمهورية.

وما أكثر ما عانت النساء فى هذه الأعوام المظلمة!!!

ومع هذه الظروف القاسية لم تسجل حالات طلاق إلا فى النادر جدًا جدًا، ولظروف وأسباب قهرية، وهذا أمر ملفت للنظر، وخاصة أن عددًا من سجناء الإخوان قد قضى فى السجن ما يقرب من ثمانية عشر عامًا متصلة نذكر منهم الأستاذ المرحوم عمر التلمسانى والأستاذ محمد حامد أبو النصر والأستاذ صلاح شادى وغيرهم، بل إن الأخ الشهيد كمال السنانيرى قد عقد قرانه على شقيقة الشهيد سيد قطب وهو سجين بالمان طرة، وظلت تنتظره حتى خرج «زواج مع وقف التنفيذ»..

اقول إن هناك حالات طلاق نادرة جدًا حدثت ، ويجب أن يذكر ذلك من باب الأمانة ، والحقيقة التى يجب أن نسجلها بأمانة أيضًا ، أن الإخوان الذين حكم عليهم بالسجن بأحكام طويلة قد خيروا زوجاتهم بين البقاء فى عصمتهم أو حرية طلب الطلاق ، لكن النساء تمسكن بأزواجهن ، وقررن أن يتحملن عبء الجهاد والمسئولية مع الرجال سواء بسواء.

كان الأخ « م » قد عقد قرانه ، لكن الزفاف لم يتم ، فقد قبض عليه بعد عقد القران مباشرة ، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا ، وتم ترحيله إلى أحد سجون الصعيد لقضاء المدة المحكوم بها عليه ، وبعد ثلاث سنوات ونصف تقريبًا نقل إلى سجن القاهرة ، وكانت هناك معرفة سابقة بين أصهار « م » ومدير سجن القاهرة المرحوم اللواء محمود صاحب ، وذات يوم جاء المدير بنفسه ، ثم أخذ « م » معه إلى مكتبه ، وحينما عاد بعد حوالى نصف ساعة إلى زنزانته لاحظنا أنه يعانى من أزمة نفسية ظاهرة ، على الرغم من أنه التزم الصمت ، وعلمنا بعد فترة قصيرة أن المدير قد فاتحه فى أمر طلاق زوجته التى لم يدخل بها بعد ، كان الأمر مفاجأة بالنسبة لأخينا « م » ، فقد كان يعتقد أن الصلة الوثيقة القديمة كفيلة باستمرار الرباط بين الأسرتين ، فضلًا عن أن السجين السياسى قد يطلق سراحه فى أى وقت ، ومن جانب آخر قد يبقى فى السجن بعد انتهاء فترة الحكم ، بحجة صدور أمر جديد باعتقاله لخطورته على الأمن ، لكن الذى حدث هو أن أهل الزوجة يريدون الطلاق ، لم يمانع « م » من ناحية المبدأ ، لكنه طلب أن يسمع ذلك بنفسه من زوجه التى لم يدخل بها كما قلنا ، إننا كبشر لابد وأن نتألم من مثل هذا الموقف ، والألم النفسى لا يعنى الانهيار ، إنه ألم صامت مع التماسك والتصبر ، أليس ذلك ضربًا من ضروب الابتلاء؟

وتم الطلاق!!

العجيب فى الأمر أن « م » صدر له أمر بالإفراج بعد حوالى ثمانية أشهر من هذه الواقعة ، وما إن ترك السجن حتى بحث عن زوجة جديدة وخطبها على الفور ، وكم كانت دهشته عندما جاءته زوجه الأولى تسبقها عبراتها وندمها وأسفها ، وتتوسل إليه أن يعيدها إلى عصمته ، لكنه لم يجد رغبة لديه فقد فات الأوان ، وبعد أن تزوج « م » ، بقيت طليقته أعوامًا دون زواج ، ثم تزوجت من رجل متقدم فى السن ، لم يمهله الموت طويلًا ، وحينما التقيت مع « م » فى اعتقالنا الثانى عام ١٩٦٥ فيما عرف بقضية المرحوم « سيد قطب » ، أرانى صورة فوتوغرافية لأبنائه الثلاثة ، وقضى معنا هذه المرة فى المعتقل حوالى العام والنصف ثم أفرج عنه.

أعود مرة أخرى لأشير إلى الموقف الصامد المذهل لنساء الإخوان فى هذه الفترة العصيبة ، والذى يصعب أن نجد له مثيلًا فى أى مكان فى العالم الآن ، وخاصة ذلك العصر الذى سيطرت عليه الماديات والشهوات والمصالح ، وطفح بشتى أنواع الأنانية والأثرة ، وبالإضافة لهذا الدور البطولى للنساء فقد لعبن أدوارًا هامة - غير المهام الأسرية - فى الحركة الإسلامية واستمراريتها ، وخاصة أن الحكومة فى هذه الفترة كانت تتهيب اعتقالهن أو محاكمتهن ، لكن الأمر تغير فى أزمة ١٩٦٥ الطاحنة فيما بعد ، إذ تجرأت الحكومة الناصرية هذه المرة ، واعتقلت عددًا كبيرًا من النساء ، وقدمت البعض منهن - وليس كلهن - للمحاكمة ، من أمثال السيدة زينب الغزالى ومن آل قطب وغيرهما ، وكان ذلك التصرف فى عام ١٩٦٥ حدثًا غريبًا شاذًا بالنسبة للمجتمع المصرى المسلم ، لأنه يحدث لأول مرة ، وتعامل النسوة بقسوة وجرأة عجيبة ، ثم تكرر الأمر مرة أخرى. وإن كان بصورة أخف كثيرًا جدًا - فى عهد السادات ، حينما صدر أمر باعتقال « وليس محاكمة » عدد من النسوة منهن صحفيات وداعيات

وصاحبات وجهات نظر سياسية ، فيهن صاحبات اتجاه إسلامى ، وفيهن أيضًا من كن يعملن فى تنظيمات اليسار..

ولقد عمد بعض رجالات المباحث - للأسف الشديد - إلى أسلوب دنىء ، فى محاولات مستميتة لتحطيم الكيان الأسرى فى بعض البيوتات الإخوانية ، إذ حاولوا تحريض بعض الزوجات على طلب الطلاق ، وحاولوا اختراع الأكاذيب والمفتريات كى يلصقوها بأزواجهم الأبرياء ، كما حاولوا أن يعثوا اليأس فى نفوس زوجات أخريات ، مؤكدين لهن أن أزواجهم لن يخرجوا من السجن مطلقًا ، وأنهم سوف يبقون فيه إلى أن يموتوا ، ثم ألم يقل جمال عبد الناصر نفسه فى إحدى خطبه « عام ١٩٦٥ » وقد سمعناها من خلال الميكروفون بصوته هو ، ونحن فى المعتقل « اللى يلعب بديله « بذيله » من الإخوان المسلمين لن نخرجه من المعتقل أبدًا »؟ ورغم بذاءة الكلمة - فالذيل للكلاب والحيوانات وليس للإنسان - إلا أن مدلولها كان خطيرًا ، إذ يكفى أن يكتب مخبر تافه تقريرًا عن إنسان يشير إلى أنه « خطر على الأمن العام » دون ذكر أية أخطاء محددة ، ومن ثم يلقى به فى المعتقل ، ولا يخرج منه أبدًا..

فى هذا الجو العنيف المخيف كان يعيش أبناء الإخوان وزوجاتهم وذووهم ، ومع كل تلك التهديدات والمؤامرات والحروب النفسية ، والجو القاتم المرعب الذى يخيم على سماء البلاد ، مع كل ذلك ، فقد بقيت « الأسرة الإخوانية » صابرة متماسكة ، لم يروعها تهديد ، أو يحطمها يأس ، أو ينلها وعد أو وعيد ، وبقى الرباط المقدس الوثيق ، والعواطف السامية الشريفة ، والوفاء الفذ ، بقيت هذه المعانى النبيلة ، والقيم الرفيعة ، تغذى القلوب والأرواح بالأمل ، وتستعذب المعاناة المريرة ، وترضى بالقليل من الزاد واللباس ، إيمانًا واحتسابًا لوجه الله الكريم..

لقد كانت الخسائر المادية والصحية فادحة ، وكانت دموع النساء المظلومات ، والأطفال الأبرياء تبلل الوسائد ، وتتألق فى ظلمات الليالى الطويلة ، واستبد الحرمان ومرارة انتظار الفرج ، لكن بقى الإيمان يغمر القلوب.. وبقى الحب ذلك الرصيد الهائل الذى لا تضارعه أعظم كنوز الأرض ، ولا يضاهيه السلطان وما حوله من هالات وأضواء وهتافات وبريق.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

صدق الله العظيم.

اللهم لا شماتة فى أحد.

إن أحد أركان حكم عبد الناصر ، عندما قبض عليه فيما سمى بثورة التصحيح ، وصدر ضده حكم بالسجن ، لم تكد تمر إلا فترة قصيرة حتى طلبت زوجته الطلاق ، فقد أحبت حارسه الخاص الضابط الشاب ، وتركت أولادها ، وجرت وراء حبيبها الجديد..

مرة أخرى.. اللهم لا شماتة فى أحد..

لقد كان الله رحيمًا بالإخوان وأسرهم إبان الأزمات المتتالية المستعرة، وهذه فى حد ذاتها نعمة كبرى، وذلك فضل من الله ونعمة، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

ولقد تجرأ بعض النسوة فى عام ١٩٥٧، وسرن فى مظاهرة صامتة إلى قصر «القبة» لمقابلة عبد الناصر نفسه، وتقديم تظلم إليه بسبب بقاء ذويهم فى السجون، وكانت من بينهن والدة الأخ الأستاذ «عبد المحسن عبد الحى» حيث جاءت لزيارة ابنها فى سجن أسيوط، وشرحت له تفاصيل المقابلة، وقالت إن الرئيس قال لهن فى النهاية: «سنخرجهم من السجن.. لكن علموهم الأدب!!»

لكن هل أفرج عنا. ثم هل تعلمنا «الأدب» ؟!.

❁❁❁

[٨] عودة إلى الجهاز السرى



موضوع «التنظيم الخاص» أو «الجهاز السرى» كما سماه البعض، موضوع هام شغل الأقلام والأذهان بين صفوف الإخوان خاصة، وبين المؤرخين والسياسيين ورجال الأمن، والمحللين الأجانب شرقًا وغربًا، أولئك الذين تخصصوا فى دراسة الحركة الإسلامية المعاصرة، وما صاحبها من أحداث وتحولات..

فلم يكن غريبًا أن يهتم الإخوان فى السجون بهذه النقطة اهتمامًا بارزًا، لأن هذه النقطة كانت بابًا للهجوم على الجماعة، وسببًا من أسباب اتهامها باللجوء إلى العنف، وأيًا كان الأمر، فإن هذه القضية - كما سبق وشرحت فى القسم الثانى من هذا الكتاب - لا يمكن النظر فيها، والحكم عليها بعيدًا عن ظروف العصر وأحداثه وملابساته، أو بعيدًا عن طرفى الصراع وأسلوب كل منهما فى التعامل والتحاور، وعن الأهداف العامة التى كان كل فريق يتطلع إليها.

ومن الأمور المعروفة أن الحكومات التى تصادمت مع الإخوان، وكذلك التجمعات والهيئات والأحزاب المضادة اتخذت من موضوع الجهاز السرى مطعنًا كبيرًا، ومدخلًا أساسيًا للهجوم المستمر المتكرر الشديد ضد الجماعة وتاريخها، ولقد ساهمت أجهزة الإعلام المعادية للإخوان مساهمة كبيرة وشاسعة، وأطلقت لخيالها وأكاذيبها وافتراءاتها العنان، حتى أوهموا الناس أن حركة الإخوان تعنى الإرهاب والعنف والدماء، ومن يرجع إلى الصحافة المصرية فى الفترة التى تمتد من أواخر أكتوبر عام ١٩٥٤ إلى الشهور الأولى من عام ١٩٥٥، ثم الفترة من أغسطس عام ١٩٦٥ إلى النصف الأول من عام ١٩٦٦ بالذات، يجد مساحات مهولة قد خصصت لهذا الموضوع، ولقد اشتركت فى هذه الحملة الضخمة أو المضخمة عشرات، بل مئات الأقلام ابتداءً من محمد حسنين هيكل إلى صغار الصحفيين من كتاب الأعمدة والتعليقات و«الريبورتاج» وجامعى الأخبار، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الإذاعة والتليفزيون قد ساهما إلى حد كبير فى هذه الحملة الشرسة دون هوادة، وكيف لا يفعلون ذلك ورئيس الدولة نفسه فى ذلك الحين، كان يتكلم باستفاضة وغضب فى خطبه الطويلة عن ذلك الموضوع، حتى قبل أن تصدر الأحكام فيه، وهو يعلم طبيعة الاعترافات التى انتزعت تحت التعذيب والإجراءات القمعية، والمحاكمات السرية التى لم يكفل للمتهم فيها أدنى حقوق الدفاع عن النفس، وتنأى عن المعقول فى إطار الواقع والمقبول، وليس هناك دليل على صدق ما نقول إلا العودة - كما قلنا - إلى صحف ومجلات مطبوعات تلك الفترة، فهى الشاهد الأكيد الذى سيبقى مسطورًا أبد الدهر، ومن العجيب أن «صلاح نصر» مدير المخابرات العامة فى ذلك العصر، كتب فى مذكراته، وبخط يده فيما بعد أن قضية الإخوان يجب أن يعاد فيها النظر، وقال إنه رفض أن يتولى قضية «الشهيد سيد قطب» حينما طلب منه عبد الناصر ذلك، وكانت حجته فى الرفض أنه لم يجد قضية

أو جريمة بالمعنى الصحيح ، وأن عبد الناصر رد عليه قائلًا: « هو احنا كل ما نكلفك بحاجة تقول لأ ! ».
كما إن الصحفى اللامع « محمد حسنين هيكل » الذى كال الاتهامات والافتراءات للإخوان إبان المحن القاسية ، عاد يقول فى كتابه عن حرب السويس إن أجهزة الأمن قد بالغت كثيرًا فى اتهاماتهم للإخوان ، واستشهد فى هذا المجال « فى إحدى وثائق الكتاب » بتقرير كتبته مباحث الإسكندرية وأشارت فيه إلى أن أجهزة الأمن كان فيها أناس مغرضون وكارهون للإخوان ، استطاعوا أن يعطوا صورة غير صحيحة للإخوان ، كى يوقعوا بينهم وبين السلطة ، وينتقموا منهم.

أيًا كان الأمر ، فقد كان « الجهاز الخاص » هو الفرصة الذهبية للذين أرادوا الكيد للإخوان والانتقام منهم ، على الرغم من أن أحداث العنف التى نسبت إليهم كانت محدودة للغاية ، بحيث لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة « طبقًا لما ذكره فهمى هويدى فى جريدة الأهرام » ، وأن ظروف هذه الأحداث وملابساتها لم تؤخذ فى الاعتبار أو الحسبان.

وفى البداية يجب أن نقرر أن أسلوب الدعوة إلى الله يجب أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهو ما درج عليه الإخوان ومرشدهم الأول الشهيد حسن البنا ، وهو مثبوت أيضًا فى رسائله وكتاباته العديدة التى بين أيدينا حتى اليوم ، وعندما قتل النقراشى باشا أصدر حسن البنا بيانًا فى الصحف استنكر فيه الحادث ، وكان فى البيان ما نصه « ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين » ، ولم يثبت فى التحقيقات التى أجريت أثناء وبعد ذلك أن له أدنى علاقة بالحادث ، ونفس المعنى أعلنه المرحوم الأستاذ حسن الهضيبى ، وأكده فى التحقيقات والمحاكمة التى أجريت فى عام ١٩٥٤، ثم فى الكتاب الذى صدر عنه فى الستينات ، من القرن العشرين ، بعنوان « دعاة لا قضاة » ، ثم جاء المرحوم الأستاذ عمر التلمسانى المرشد الثالث للإخوان وأكد فى تصريحاته وخطبه وكتاباته على نفس المعنى ، وهو أن أسلوب الدعوة هو هو لم يتغير « بالحكمة والموعظة الحسنة » ، بل كان رحمه الله يطوف بالجامعات « وخاصة فى أسيوط والصعيد بصفة عامة » ويحاضر الشباب ويحذرهم من اللجوء إلى العنف ، ويوصيهم بنشر الدعوة بالأسلوب العلمى الصحيح ، ثم جاء المرشد العام الرابع الأستاذ محمد حامد أبو النصر ، والتزم نفس الخط فى بياناته الرسمية ، وحينما دخل الإسلاميون انتخابات مجلس الشعب فى مصر ، وطرحوا شعار « الإسلام هو الحل » أكدوا على أن أسلوب الدعوة هو تقديم النصيحة ، وإبداء الرأى الحر ، انطلاقًا من تعاليم الإسلام ، كما أكدوا رفضهم واستنكارهم لأساليب العنف والصدامات الدامية ، وأدانوا الأحداث الدامية التى حدثت فى الفترة الأخيرة دون مواربة أو غموض.

أعود مرة أخرى فأقول إن « الإخوان المسلمين » فى السجون إبان عهد عبد الناصر ، قد فتحوا ملف « الجهاز الخاص » وناقشوا الموضوع بصراحة ووضوح ، بل شكلوا لجنة لتقصى الحقائق ، ومساءلة أعضاء الجهاز المحكوم عليهم ، وكان من جراء ذلك أن حدثت خلافات عميقة ، فقد رأى البعض أن إنشاء مثل هذا الجهاز منذ البداية كان خطأ ، وأعطى فرصة للمسئول عنه كى يتصرف من تلقاء نفسه ، مما أوقعه وأوقع الجماعة فى مآزق شديدة ، وأعطى الفرصة لأعداء الحركة الإسلامية كى يثيروا غبار الشبهات حول تاريخها وجهادها وتأثيرها العميق فى المجتمع المصرى والعربى والإسلامى ، واتهامها بالخروج عن الأسلوب الأمثل للدعوة إلى الله ، هذا على الرغم من قلة عدد الأخطاء التى وقعت ، أما البعض الآخر ، فلم ينكر أن الدعوة إلى الله لابد وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، لكنهم أشاروا إلى أن عنف السلطة فى العهد الملكى ، وما تلاه من عهود ، كان - أى عنف السلطة - يؤدى إلى ردود أفعال وتصرفات مشابهة ، وخاصة عندما تغيب الحرية ، وتكمم الأفواه ، وتلقى التهم جزافًا ، ولا يعطى

للمتهم الفرصة كى يرد أو يوضح أو يدافع عن نفسه ، فضلًا عن أن ظروف إنشاء أو تشكيل « الجهاز الخاص » بدأ فى فترة العهدالملكى والاستعمار الانجليزى ، واجتياح الصهيونية لفلسطين ، وعبث الأحزاب والحكومات ، وتفشى الفساد والانحلال والانحراف ، وما زال العقلاء والمفكرون والعلماء فى مصر حتى اليوم يشيرون إلى أن عنف السلطة وإجراءاتها اللاقانونية ، وممارسات التعذيب هى التى أوجدت التطرف والعنف ، وقد أفسحت الصحف - حتى الحكومية منها - مجالًا لنشر هذه الآراء فى أكثر من مناسبة ، ولم يعد خافيًا على أحد مدى التهور والإجحاف والتعذيب الذى حاق بالموقوفين من الإخوان فى مختلف العهود.

ومعظم الأحداث العنيفة التى اتهم بها الإخوان كانت فى عهد ما قبل الثورة ، أما ما جرى بعد ذلك فإن أبرزها « حادث المنشية » بالإسكندرية الذى اتهم فيه « محمود عبد اللطيف » وآخرون ، وهو حادث حوله جدل كبير ، كما سبق وذكرت فى القسم الثانى ، وأما حادث اغتيال « السادات » ، ثم الحوادث الأخرى التى جرت فى عهد مبارك فلم يثبت أن للإخوان بها أدنى صلة ، وهو أمر معروف لا يحتاج لشرح.

والواضح - من خلال لجنة التقصى التى شكلها الإخوان - أن عبد الرحمن السندى ، غفر الله له ولنا ، كان رئيسًا للنظام الخاص ، وأن مسئولية ما جرى كانت تقع على عاتقه ، كما ثبت أنه تصرف - من تلقاء نفسه - فى المواقف التى ألصقت بالإخوان كجماعة كقضية الخازندار والنقراشى ، وهما أشهر قضيتين فى عهد فاروق ، ولقد عاش عبد الرحمن السندى حتى جاء الهضيبى ، وأراد تصفية « الجهاز الخاص » وكان أن عزل « السندى » ، وولى مكانه « المهندس المرحوم سيد فايز » ليقوم بمهمة تصفية هذا الجهاز ودمجه مع التنظيم العام ، وتجنبًا للأخطاء التى جرت ، وسد باب الفتنة والقرارات الفردية ، ودرءًا للشبهات والاتهامات التى استغلها الكتاب والمحللون والمؤرخون أسوأ استغلال ، ولم تكن تصفية هذا التنظيم بالأمر السهل فقد تمرد « عبد الرحمن السندى » ، وحاول عزل الهضيبى بأسلوب القوة والقهر ، وقد نشرت الصحف هذه الواقعة فى حينها ، وخاصة أن عبد الرحمن السندى بعد فصله من الجماعة ، وضع يده فى يد عبد الناصر ، ولم يصدر الأمر باعتقاله كباقى قيادات الإخوان بعد حادث المنشية ، وظل حرًا طليقًا حتى وافاه الأجل المحتوم ، وأنا شخصيًا لم أر عبد الرحمن السندى فى حياتى إلا مرة واحدة ، أثناء وجودى فى سجن القاهرة عام ١٩٥٨، حين أتى لزيارة الأخ الأستاذ على صديق ، فقد عملا معًا سنوات طويلة ، وكان على صديق محكومًا عليه مثلنا ، وكان عبد الرحمن يقف قبالة سجن القاهرة مستندًا إلى جدار ، ونحن نطل عليه من نافذة بمستشفى السجن ، ولم يدر بينه وبين « على صديق » إلا حوار مقتضب تبودلت فيه التحيات والتمنيات ، ثم نزل على ليستقبله فى زيارة خاصة.

خلاصة الأمر أن الغالبية العظمى من الإخوان المسجونين أدانوا العنف ، ولم يقروا أية تنظيمات سرية بعيدة عن أعين القيادة ورقابتها ، ورأوا أن مثل هذه التنظيمات أو الأجهزة تضر أكثر مما تنفع ، وأن القوة الحقيقية تكمن فى عظمة المبادئ ، ورسوخ العقيدة ، والقدرة على الإقناع بالكلمة والموقف والقدوة ، ولقد كانت تجربة الإخوان الفذة على الصعيد الاجتماعى ، وعلى أرض الجهاد فى فلسطين والقنال ، وفى التصدى لانحرافات السلطة ، وتبنى قضايا الجماهير وفق المقاييس الإسلامية ، والاهتمام بتربية الأجيال الجديدة على مثل الإسلام وأعلامه ، ونجاحهم الفردى والجماعى فى مختلف القطاعات وحقول العمل والإنتاج ، والالتزام الأخلاقى دينيًا ودنيويًا ، أقول كانت تجربة الإخوان تلك هى الإنجاز الكبير الذى ترك بصماته حتى اليوم على توجهات أجيالنا المعاصرة ، وكان من أهم أسباب الحفاظ على

شخصيتنا وانتمائنا الإسلامى ، على الرغم من محاولات المسخ والهدم والتشويه التى تعرضت لها بلدان العالم العربى والإسلامى فى العقود الأخيرة من هذا القرن.

وقد يظن ظان أن المد الإسلامى قد انحسر من جراء ما تعرض له من هجمات ، وبسبب الحملات الإعلامية المغرضة الشرسة ، والممارسات القمعية من السلطة فى العهود المتتالية ، لكن الواقع المعاش قد أثبت عكس ذلك ، فما زال المد الإسلامى يتسع ويقوى ، ويثبت وجوده وفعاليته وإيجابياته فى شتى المجالات ، ولو أعطيت الفرصة العادلة لهذا التحرك لتغير وجه الحياة ، وفى اعتقادى أن محاربة التيار الإسلامى المعتدل المتزن سياسة خاطئة ، وإهدار للوقت والجهد ، وتضييع للفائدة ، لأن حاجتنا إلى ضمائر حية ، وأخلاق فاضلة ، وإيمان صادق ، وعلم حديث ، أكثر من حاجتنا إلى استيراد أنظمة وبرامج وقروض وتحالفات مع القوى الكبرى ، فالاعتماد على الذات ، ومشاركة الأمم فى تقرير مصائرها ، والوعى بالعصر الذى نعيشه وبمتطلباته ، هو الطريق الصحيح للخروج من الأزمة الخانقة التى تشل حركة التقدم والازدهار فى عالمنا الإسلامى..

أقول لقد تحدد موقف الإخوان بصورة واضحة قاطعة فى رفض أسلوب العنف والتطرف ، واتخاذ أسلوب « الحكمة والموعظة الحسنة » لدعوة الناس إلى حياة أفضل وأطهر ، ولعل ذلك كان السبب فى ظهور انشقاقات محدودة عن صفوف الجماعة ، نذكر منها بالذات جماعة « شكرى مصطفى » الذى كان أحد المعتقلين الإخوان فى عام ١٩٦٥، ثم انشق وكوّن ما سمى بعد ذلك بجماعة « التكفير والهجرة ».

ثم ظهرت بعد ذلك جماعات صغيرة محدودة العدد ، رفضت الاعتدال ، ورأت أن تجابه السلطة عنفًا بعنف ، وأن تغير « المنكر » بيدها ، ما دامت الآذان قد صمت ، وما دامت السلطة قد فرضت القيود على حرية الرأى وتشكيل الأحزاب ، ووضعت لذلك قوانين صارمة تتنافى مع الحرية الصحيحة ، وصنعت قانونًا عجيبًا للانتخابات ، بالإضافة إلى ما يصاحب ذلك عادة من تزييف وتزوير فى النتائج وتدخل فى مسار العمل السياسى والاجتماعى لجعله ينحرف إلى اتجاهات بعينها ، وحتى بعد أن نجح عدد لا يستهان به – تحت تلك الظروف الصعبة – لم تزل السلطة ترفض السماح للإخوان بتشكيل جماعة تتولى مسئولياتها فى خدمة المجتمع فى النور ، وفى ظل الالتزام بالقوانين المرعية ، وما زالت السلطة تماطل وتسوف فى تطبيق « الشريعة الإسلامية » على الرغم من مطالبة الشعب الملحة بذلك ، بل إن الصحافة التى تمثل التيار الإسلامى لم تزل تعانى من الرفض والعراقيل العديدة التى توضع فى طريقها ، ولا شك أن هذه الأساليب الجائرة هى التى تمهد الطريق لظهور تيارات تتسم بالعنف والشدة ، وهو ما لا يريده الإخوان ، ولا يفكرون فيه ، لا عن ضعف وخور ، ولكن عن عقيدة وسلامة اعتقاد ، وثقة بالمبدأ وبالنفس..

مما لا شك فيه أن قضية « التنظيم الخاص » أثارت العديد من التساؤلات والمناقشات ، وكانت سببًا فى حدوث خلافات بين الإخوة فى السجون وخارج السجون ، لكنها حسمت فى النهاية ، ووضعت فى إطارها الصحيح ، فكان ما كان من إعلان الجماعة على لسان قياداتها بالالتزام بالحكمة والموعظة الحسنة.

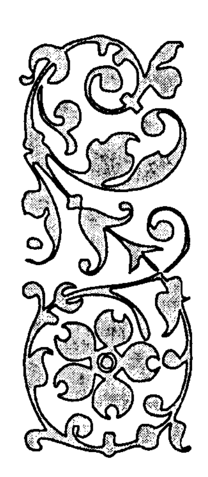
بقى أن أذكر القارىء بأن جمال عبد الناصر وثمانية من أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا – كما قلت فى مكان آخر – جزءًا من هذا « الجهاز الخاص » أو « التنظيم السرى » أو الجهاز السرى كما يحلو للبعض أن يسميه ، وظل الجهاز السرى الخاص يعمل بعد ضربة الإخوان فى عام ١٩٤٨، وكان

عبد الناصر هو المسئول المباشر ، لكنه طور الجهاز وفتح بابه على مصراعيه لنوعيات مختلفة من الضباط ، لا صلة لها بالعمل الإسلامى ، وكان هو وحده الذى يمسك بخيوط هذا التنظيم والذى لم يبلغ المائة ، إلى أن قامت الثورة ، وبقية القصة معروفة ولا تحتاج إلى مزيد من التفصيل ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتبه المرحوم حسن العشماوى «الإخوان والثورة» وقد كان عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين ، وإلى ما كتبه الأستاذ صلاح شادى المسئول عن الجناح العسكرى للإخوان ، ثم إلى ما كتبه الأستاذ أحمد عادل كمال ، أحد قادة ذلك التنظيم وقد سجل تاريخه بأمانة وصدق ، وغير هؤلاء كثيرون ، فقد عاشوا التجربة بأنفسهم ، وشرحوا أهم ما يتعلق بجوانب هذه القضية الحساسة ، التى أخذت أكثر مما تستحق من اهتمام ، وسودت بسببها عشرات الآلاف من الصفحات ، على الرغم من محدودية عدد الحوادث التى جرت ، وعلى الرغم - من جانب آخر - مما قدمه الكثيرون من تضحيات وجهاد على أرض المعركة مع الصهيونية والاستعمار ، وعلى الرغم أيضا من مشاركة ضباط الثورة أنفسهم - وعلى رأسهم جمال عبد الناصر - فى تشكيل ذلك النظام ، والإفادة منه فى الحركة التاريخية التى تركت بصماتها وآثارها العميقة - إن سلبًا أو إيجابًا - على تاريخنا المعاصر.

إننى ما قصدت بالعودة إلى هذا الموضوع مرة أخرى إلا لكى نأخذ العبرة ، ونفهم حقيقة الظروف والملابسات ، ونصدر أحكامنا فى روية واتزان ، بعيدًا عن الأهواء ، ثم ننظر بعد ذلك إلى الأمام ، حتى نستطيع أن نمضى على وعى وبصيرة فى مرحلتنا الجديدة ، وأمامنا الغايات النبيلة ، والأهداف السامية ، التى نتطلع إليها ، وحتى تصبح كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى.



[٩] حادث خطير



إن طبيعة الحياة فى السجون متقلبة، يكتنفها الخوف، وتعصف بها المفاجآت، فمهما صفت السماء، وبدت الأمور مستقرة، فإن ذلك لا يعدو أن يكون خدعة أو إجراء مؤقتًا، وسرعان ما يحدث التوتر، وتقع الواقعة، فيتعرض النزلاء لشتى أنواع العقوبات كالضرب، أو الحرمان من الخروج إلى الفناء، والحرمان من مختلف الأشياء التى سبق السماح بها، مثل الأكل الإضافى الذى نشتريه من المقصف، والكتب والأقلام والمراسلات والزيارات والملابس الداخلية والرياضة والهوايات.. كل هذه الأشياء تمنع، وتصبح فى مستوى الممنوعات الأخرى كالمخدرات وشفرات الحلاقة وحيازة العملة، يضاف إلى ذلك قطع الكهرباء عن الزنازين، لا يملكون غير السترة الزرقاء وسروالها، والبرش، وبطانية واحدة، وجردلًا لماء الشرب وآخر لقضاء الحاجة، ولا تمنح الفرصة لأحد كى يستحم فى الأسبوع مرة، ويصبح الغذاء قاصرًا على ثلاثة أرغفة وقطعة صغيرة من الجبن أو ملعقة من العسل الأسود، وكمية قليلة من العدس أو الفول المدمس، وبعض الخضار المطبوخ المجهول الهوية فى المساء، مع حلق شعر الرأس والشارب واللحية إن وجدت..

إن «التكدير» - كما يسمونه - أمر وثيق الصلة بحياة «السجين السياسى»، حتى ينشغل بالأمور الصغيرة من أكل وشرب ورياضة، ولكى يظل متوترًا مترقبًا لما سيجد من أحداث مرهقة نفسيًا وجسديًا.

لكننا بمرور الوقت تعودنا على هذه المنغصات والمضايقات، وأصبحنا نتوقعها فى أى وقت من الأوقات، ولم يكن أمامنا سوى الرضى بقضاء الله وقدره، والانكباب على القرآن حفظًا وقراءة ودراسة، والانشغال بالصلاة والصوم ومختلف أنواع الذكر والعبادة، حتى تنجلى الغمة وتعود الأمور إلى مجراها العادى مرة أخرى.

وكان من المعروف أن لكل تكدير سببًا لا يصعب علينا التوصل إليه، قد يكون هذا السبب هو الاحتكاك أوالاختلاف فى الرأى مع ضابط من ضباط السجن أو سجان عادى، إن لإدارة السجن دائمًا أسلوبها الجاف فى التعامل مع السجناء، وهذا الأسلوب كثيرًا ما يجر إلى الصدامات معنا، مع أنه يعتبر أمرًا مألوفًا مع السجناء العاديين «غير السياسيين»، لأنهم يتقبلون المعاملة الجافة أو اللا إنسانية دون تذمر يذكر، لكن الأمر يختلف عند السجناء السياسيين الذين يأنفون من الإهانات والمعاملات التى لا تليق.

ومع ذلك فقد حدث ذات يوم لنا تكدير «غير مبرر»، لم نفهم له أى سبب، لقد أغلقوا أبواب الزنازين فى الصباح، ولم يسمحوا لنا بالذهاب إلى دورة المياه، أو الخروج إلى الفناء فى طابور الصباح، بل انقضوا على الزنازين وجردوها من كل شيء حتى الطعام الإضافى والملابس الداخلية والكتب وغيرها، وكنا نتساءل: «لماذا؟» لكننا لم نجد الجواب.. وبقينا نعانى آلام الحيرة والقلق إلى أن استطعنا

الاتصال بوكيل السجن النقيب مصطفى أبو دومة، وهو من الإخوان السابقين فى تنظيم الشرطة قبل الحل الرسمى للجماعة كما سبق وقلت، وصدمنا بأخبار مزعجة غاية الإزعاج جعلتنا نتوقف ونفكر ونعيد النظر فى مواقفنا كلها من جديد.

فماذا جرى؟

قيل لنا أنه حدث صدام بين الإخوان المسلمين فى «ليمان طرة» وبين إدارة السجن، ونتيجة لهذا الصدام الداخلى صدرت الأوامر لإدارة سجن طرة وللكتيبة التى تحرس السجن خارج الأسوار بإطلاق الرصاص على السجناء من الإخوان، واستمرت المعركة بين المسلحين من الجنود والعزل من الإخوان بضع ساعات، بقيادة وإشراف كبار مسئولى وزارة الداخلية والمباحث العامة «أمن الدولة»، وكان زكريا محيى الدين هو وزير الداخلية فى تلك الفترة «يونيو ١٩٥٧»، وما إن انتهت المعركة حتى كان حصادها واحدًا وعشرين قتيلًا من الإخوان المسلمين وأكثر من عشرين جريحًا، وبعدها أذاعت الحكومة بيانًا مقتضبًا نشر فى الصحف جاء فيه «أنه حدث احتكاك بين بعض المسجونين فى ليمان طرة وبين الحراس، ونتج عنه بضع إصابات فى كلا الجانبين.» هذا كل ما نشر فى الصحف المصرية، كما نقلت وكالة «تاس» السوفيتية نفس الخبر الرسمى الذى نشرته الحكومة المصرية، لكن إذاعة بغداد فى تلك الفترة روت المأساة كاملة، وكذلك بعض الصحف العربية الحرة أو المعادية لمصر، كما صدرت فيما بعد كتب خارج مصر تروى القضية تفصيليًا، وتسجل أسماء الشهداء وأعمارهم والوظائف التى كانوا يشغلونها، ونلاحظ فى البيان الرسمى الذى أذاعته الحكومة المصرية آنذاك أنه:

أولًا: حاول إيهام الناس بأنه صدام بسيط بين السجناء دون تخصيص، وبين الحراس.

ثانيًا: لم يذكر البيان أسباب ذلك الصدام.

ثالثًا: لم يذكر البيان أن هناك قتلى من طرف واحد وأنهم واحد وعشرون شهيدًا.

رابعًا: لم يشر البيان من قريب أو بعيد إلى الإخوان المسلمين أو أنهم هم الضحايا وبالتالى لم يذكر أسماء القتلى أو الجرحى.

وهذا يعطى فكرة عن مدى مصداقية البيانات الرسمية فى تلك الفترة، كما يعطى صورة محزنة عن الصحافة القومية الخاضعة للسلطة، والمؤتمرة بأمرها دون وازع من ضمير.

وقد قيل الكثير عن هذه المذبحة المروعة، لكنى بعد شهر تقريبًا من حدوثها تم ترحيلى من سجن أسيوط إلى سجن القناطر الخيرية، وفى القناطر الخيرية التقيت بسجناء ليمان طرة الذين نجوا من الحادث، ونقلوا بعده مباشرة من طرة إلى القناطر، وكان بينهم المصابون أيضًا الذين شفوا من أثر الجراح التى لحقت بهم نتيجة إطلاق الرصاص أو الضرب بالعصى الغليظة، وكان من بين الناجين الأخ الأستاذ حسن دوح زعيم الطلبة وأحد قادة معركة القناة ضد الانجليز ومعركة فلسطين، كما كان بينهم الأخ المهندس مجدى زهدى نجل المستشار إسماعيل زهدى، والشيخ حسن أيوب الداعية الكبير والذى قضى سنوات فى الكويت والمملكة العربية السعودية بعد خروجه من السجن، والأستاذ أحمد البس أحد قيادات الإخوان البارزين، والشيخ عبد الرزاق أمان الدين، والأستاذ عبد المنعم محمد سليم، والأستاذ محيى الدين عطية محمد رئيس تحرير مجلة «المسلم المعاصر» حاليًا، والأستاذ الدكتور سليمان حجر الأستاذ حاليًا بكلية التربية الرياضية بالقاهرة، وضابط الجيش السابق عبد الكريم عطية وغيرهم كثيرون، كما كان بينهم أربعة من الشيوعيين الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة فى إحدى قضايا الإخوان، لأنهم كانوا قد انضموا إلى الإخوان كى يتجسسوا عليهم، فوقعوا فى كمين مع

الإخوان ، وسيقوا إلى المحاكمة حيث صدرت ضدهم أحكام باعتبارهم من التنظيم الإخوانى ، لكنهم كانوا يعيشون فى السجن منعزلين عن الإخوان ، ويعلنون تمسكهم بالمبادئ الشيوعية.

فى سجن القناطر علمت قصة ما جرى ، فقد بدأ الصدام عندما كان بضعة أفراد من الإخوان فى استقبال أهليهم الذين جاءوا لزيارتهم فى السجن ، وأثناء الزيارة تحرش بعض الضباط بالمسجونين الإخوان أمام ذويهم ، مما اضطر الإخوان للرد على كلماتهم البذيئة ، وتحول الكلام إلى اعتداء وضرب وتشابك بالأيدى وأنهيت الزيارة بصورة سيئة.

وفى هذه الأيام كان الإخوان المسجونون قد تقدموا بطلب لإدارة السجن جاء فيه أنهم قضوا فى الجبل يقطعون الصخر لسبعة وعشرين شهرًا ، والمسجون غير السياسى عندما يصل لهذا الحد يعفى من الخروج للجبل ، ويوكل إليه أعمال أخرى داخل السجن ، تكون أخف وطأة مثل العمل فى الخياطة أو المطبخ أو النجارة أو غيرها من الحرف الأخرى ، لكن إدارة السجن لم تهتم بالطلب؛ مما جعل الإخوان يهربون خطابات فردية إلى النائب العام يطلبون منه التحقيق فى الأمر ، ويشعرونه بأنهم فى خطر ، وأن الإدارة تتحرش بهم ، وتوشك أن تقضى عليهم ، وفعلًا وصلت هذه الخطابات للنيابة.. وقبل أن تتحرك النيابة حدثت مشكلة الزيارة وما تبعها من إهانات ، وفى اليوم التالى طلبت الإدارة من الإخوان الخروج إلى الجبل كالمعتاد ، وكان الجو متوترًا ولا يوحى بالثقة والأمان ، بل نما إلى علم الإخوان أن الحكومة قد بيتت أمرًا خطيرًا ، وأنه من المحتمل أن يطلق عليهم الرصاص أثناء تواجدهم بالعمل فى الجبل ، وسوف تدّعى الإدارة أنهم قد تمردوا.. والتمرد خارج السجن «فى الجبل» معناه إطلاق الرصاص فورًا ، وهنا تردد الإخوان فى الاستجابة للخروج إلى الجبل ، وطلبوا من إدارة السجن أن تحضر النيابة للتحقيق ، وهذا من حق أى سجين ، لكن الإدارة رفضت ، فاعتصم سجناء الإخوان بالزنازين ، وتم إغلاقها عليهم ، وبعد فترة جاءت فرقة من الضباط والسجانة ، وأخذوا يفتحون الزنازين واحدة واحدة ، وكلما فتحوا غرفة انهالوا على من فيها بالضرب والإهانة ، وقيدوهم بالسلاسل ، كى يخرجوهم إلى الجبل عنوة ، وتنبه أحد الإخوة إلى خيوط المؤامرة ، فاختطف مفتاح الزنازين من السجان ، وفتح أبواب جميع الزنازين بسرعة ، وساعده فى ذلك من خرج من الزنازين الأولى ، وتراص الإخوان أمام زنازينهم طالبين النيابة ، ورافضين للدخول بعد أن ثبت سوء نية الإدارة ، وحدث شىء من الهرج والمرج داخل العنبر الكبير ، فى الدور الذى يسكنه الإخوان ، وفى هذا الوقت طلب مدير الليمان عددًا من الإخوان للتفاهم ، وكان من بينهم الأستاذ حسن دوح ، كما كان الشهيد سيد قطب مقيمًا فى مستشفى السجن فى تلك الفترة ، بعيدًا عن عنبر الإخوان.. ونزل حسن وإخوانه للتفاهم مع الإدارة ، لكنهم فوجئوا بأن الضباط وضعوهم فى زنازين التأديب ، وقد كان هذا نافعًا لهم كما سيتضح فيما بعد.. وبعد دقائق ذهل الإخوان المتراصون أمام الزنازين ؛ إذ بدأ العسكر فى إطلاق الرصاص فجأة ، وأخذ المصابون يتساقطون وسط الدهشة والذهول ، ولم يجد سجناء الإخوان مناصًا من الدخول مرة أخرى إلى الزنازين للاحتماء فى داخلها من وابل الرصاص ، بل وأغلقوا أبواب الزنازين ، وهى أبواب قوية سميكة ، وزادوا من قوة إغلاقها بأجسادهم ، لكن الرصاص المنهمر لم يكف ، كان العسكر يوجهون رشاشاتهم من النوافذ ، ومن نظارات الأبواب السميكة ، بل أطلقوا الرصاص على الأبواب نفسها حينما اكتشفوا أن السجناء يحكمونها بأجسادهم.. حتى إن ظهور بعض الإخوة تلقت دفعات من الرصاص عبر الأبواب حتى أصبحت هذه الظهور كالغربال عند من عاش منهم بعد ذلك ، وانبعثت التأوهات والاستغاثات.. وانتصر العسكر.. ولفظ عدد من أبرياء الإخوان آخر أنفاسهم.. وجاءت

أرواحهم إلى الله الذى لا يظلم عنده أحد.. وسيق الذين امنوا فى أغلال السلطة إلى ساحات التعذيب مرة أخرى.. قالوا للعالم الكبير « قل أنا عائشة ..».. لم ينج الجرحى من التعذيب.. حضرت النيابة أخيرًا للتحقيق.. وليتها لم تحضر.. قال المستشار إسماعيل زهدى لابنه السجين الذى أصيب إصابة بالغة فى الحادث: « لقد أثبت التحقيق أن الحكومة مدانة تمامًا، لكن صدر الأمر من الجهات العليا بحفظ التحقيق » وحفظ التحقيق.. واستمر التعذيب فى سجن القناطر أيضًا بواسطة « الشلقامى » - حضرة الصول - وعدد من العسكر الذين أصيب بعضهم بانهيار عصبى لهول ما رأوا..

عندما كان الرصاص يزغرد فى أروقة الليمان، كان النسوة من أهالى المسجونين اللائى حضرن للزيارة يصرخن ويستغثن.. ولا مجيب.. ودفنت جثث الضحايا بإشراف الحكومة، دون أن يسمح لأهليهم بإلقاء النظرة الأخيرة.. مات أحمد حامد قرقر صاحب الشجاعة والصمود المبهر أثناء المحاكمة.. ومات العزب صوان عامل بشركة المحلة الكبرى وبطل حمل الأثقال.. ومات خيرى عيطة بن العالم الفاضل، وفهمى نصر.. وغيرهم.. مع ذلك نجد اليوم زبانية عبد الناصر الأحياء يتحدثون فى مذكراتهم وكتاباتهم عن طهارة الثورة التى لم تلوث يديها بالدماء، وعن معاملتها الكريمة الرقيقة للثورة المضادة والمعارضة..

وقيل يومها فى تفسير هذا الحادث المروع الغريب، أن جمال عبد الناصر أراد أن يلقن الإخوان درسًا جديدًا، بسبب مشاركة إخوان المملكة الأردنية الهاشمية فى إفشال الانقلاب الذى قام به الضابط أبو نوار ضد الملك حسين.. وقيل أيضًا أن زكريا محيى الدين كان يشرف بنفسه على المعركة العجيبة داخل سجن طرة، وما أكثر ما قيل من أشياء لم تتضمنها بالطبع وثائق الكاتب الهمام محمد حسنين هيكل الذى اكتفى بالإشارة إلى الظلم الذى حاق بالإخوان ونسبه إلى الجهات الأمنية، ولم يقدم سوى وثيقة يتيمة كتبتها مباحث الإسكندرية، وسجلها فى كتابه عن حرب السويس، ونسى الكاتب الهمام مقالاته وتشهيره بالأبرياء المضطهدين من الإخوان على صفحات جريدة الأهرام الغراء فى تلك الحقبة السوداء من تاريخ مصر العزيزة..

نعود مرة أخرى إلى سجن أسيوط، فقد بلغتنا أنباء مذبحة طرة، ونصحنا الضابط مصطفى أبو دومة بالركون إلى الهدوء والروية داخل السجن، لأن الظروف ليست فى صالحنا، وأن الحكومة على استعداد لتكرار مأساة طرة فى أى وقت من الأوقات، وفى أى مكان من الأمكنة التى يتواجد فيها الإخوان المسلمون، ولقد كان وقع الحادث علينا أليمًا، كما كان له أسوأ الصدى فى نفوس أهلينا، وعلى الرغم من ذيوع الخبر، وانتشاره فى كل الأنحاء إلا أن أحدًا لم يجرؤ على مناقشته علانية، بل إن البعض كان يعبر بخلاف ما يعتمل فى داخله، فيمتدح الحكومة، وهو يلعنها بينه وبين نفسه، وأهل القتلى انطووا على ذواتهم يجترون أحزانهم المريرة دون أن يفكر أحد فى رفع قضية ضد الحكومة، لقد كانت الحكومة فى أوجها، والقومية العربية تتألق، ألم يهزم عبد الناصر جيوش العدوان الثلاثى منذ بضعة شهور، ويسكت المعارضة - كما يبدو - إلى الأبد، ويضرب بيد من حديد على كل من يفكر فى نقد أو حتى مجرد التعرض لنظامه بالنصيحة البريئة؟

لعل هذه الفترة كانت من أسوأ الفترات التى مرت بنا داخل السجون، فقد كان واضحًا أن الأمور قد بلغت منتهاها من التبجح وعدم الاكتراث، فماذا بعد أن يسمح الحاكم بقتل سجناء الرأى علانية وبالرصاص داخل السجون؟ إن هذا التصرف ذروة البطش والجبروت وسوء النية والحقد، ولقد كان من المتوقع أن يحدث عكس ذلك، فماذا تريد الحكومة بعد أن كسرت شوكة المعارضة فى الداخل،

ونجحت - ولو مرحليًا - ضد الغزو الخارجي؟ كان يفترض أن تمنح الشعب مزيدًا من الحرية أو الديمقراطية، وأن تلتزم بالقوانين الرسمية، والشرائع الأخلاقية، فى دولة إسلامية، وإذا كانت الحكومة قد تجاوزت الحدود فى تعاملها مع الإخوان أثناء الصدام فى عام ١٩٥٤، فربما كان ذلك من جراء الحادث المريب، والتوتر السائد، ورغبة الحكم فى حماية نفسه، وتدعيم أسسه، أما اليوم وقد انتهت الجولة لصالح الحكم الشمولى المطلق، فلا مبرر لمزيد من سفك الدماء، وإزهاق الأرواح.. لكن ما قد حدث جاء بعكس المنطقى والمعقول، ولعله ناجم عن الغرور الذى انبثق بعد انسحاب القوى الغازية، أو نابع من الحقد القديم الذى يكنه عبد الناصر للرجال الذين بايعهم من قبل على المصحف..

كاذب.. كاذب من يزعم أن عبد الناصر لم يكن يدرى شيئًا عما يحدث، لأن أمرًا خطيرًا كهذا الذى حدث فى ليمان طرة لا يمكن أن يتم على مستوى إدارة السجن ومديره، والمعروف أن المساجين السياسيين يتبعون أساسًا مباحث أمن الدولة «المباحث العامة آنذاك»، ولا يمكن أن يصدر أمر إطلاق الرصاص عليهم بدون المباحث العامة، والمباحث لا تستطيع أن تبت وحدها فى أمر بالغ الخطورة كهذا الأمر، بل إن وزير الداخلية زكريا محيى الدين لا يجرؤ على فعل ذلك إلا بأمر «سيادة الرئيس»، فهل فى هذا التقرير شك أى شك؟ قد يحدث الأمر كحالة فردية طارئة.. أما إن يحدث بالنسبة لمئات من السجناء، وفى داخل العنبر فلا يصدق أن يتم دون أمر من رئيس الجمهورية شخصيًا.. لقد قامت الدنيا وقعدت عندما قتل «شهدى عطية» أحد زعماء الشيوعيين فى السجن فى بداية الستينات، من القرن العشرين، واحتج الاتحاد السوفيتى وسكرتير عام الحزب، وحدثت أزمة دبلوماسية، لكن ضحايا الإخوان المسلمين سقطوا شهداء دون احتجاج رسمى أو غير رسمى من أحد، ومر الأمر وكأنه لا يعدوا أن يكون حدثًا عابرًا لا قيمة له، ولا يصح أن يخلف وراءه أية تساؤلات، وهل كان فى مصر عندئذ من يجرؤ على الاحتجاج أو مجرد التساؤل؟ إن الدكتاتورية لا تحب أن تسمع كلمة «لماذا؟» أو كلمة «لا»، حتى مجلس الوزراء كما يقول العلامة الأستاذ فتحي رضوان زعيم الحزب الوطنى، وأحد وزراء عبد الناصر، يقول كان الوزراء يجلسون فى الاجتماع الأسبوعى ليسجلوا أوامر عبد الناصر لينفذوها دون نقاش.. كانوا مجموعة من السكرتارية.. ومر الحادث المؤسف.. حادث مذبحة طرة مرور الكرام.. ولم يترك غير الحسرة والدموع لعدد من الأسر الصغيرة المحدودة فى مصر الصبور..

أكاد أقول إن أحلام النجاة من قبضة الطغيان قد تبددت فى تلك الفترة العصيبة، لكننا كنا نقاوم اليأس والإحباط بتوجهنا إلى الله، ولجوئنا إلى رحابه، كنت أقول لنفسى إن العمر قصير، وإن نهاية الحياة لابد ستأتى إن عاجلًا أو آجلًا، فلماذا نجزع أو نيأس؟ ستمر الأيام، وينقضى العمر بالنسبة لنا جميعًا.. حكامًا ومحكومين.. سجناء وسجانين.. ظالمين ومظلومين.. وعند مالك الملك يشرق صبح العدالة الأبدى، وينال كل ذى حق حقه، وتشمل رحمة الله جراح المعذبين والمحرومين، ويؤخذ بناصية كل جبار عنيد.. أليس ذلك اليوم هو يوم الجزاء؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ صدق الله العظيم..

أليس غريبًا أن تكون مصر ذات الملايين من السكان، وعشرات، بل مئات الآلاف من المفكرين والعلماء وأصحاب الماضى العريق، أقول أليس غريبًا أن تصمت مصر هذا الصمت الرهيب طوال تلك السنوات الكئيبة؟

وركنت إلى زنزانتى أقرأ وأكتب.. لعلى أعبر عما يجيش فى صدرى، وأخفف عما ألم بى من هم وكمد، والقراءة بالذات عالم رحب فسيح يهيم فيها العاشق فينسى كل ما حوله، ويجوب الآفاق،

وينتقل من المشرق إلى المغرب ، ويخالط العديد من الأفكار والأجناس والشخصيات ، إنها رحمة من الله لمن يعيشون خلف القضبان ، والحرمان منها يعتبر أقصى عقوبة لمن يقرءون.. شيئان لا غنى لنا عنهما ذكر الله والقراءة.. أما متع الحياة الأخرى ، فقد حرمنا منها ولا حيلة لنا فى ذلك حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولًا..

يا لها من أيام!! كنا ونحن جياع - وما أكثر ما نجوع ! - نقبل على خبز السجن والملح والبصل وكأنما نقبل على الحمام المحشو ، وكنا نأكل بشهية غريبة تغمرنا السعادة.. وكانت أجسامنا النحيلة نشطة.. خفيفة الحركة.. وقلما نعانى من أى مرض من الأمراض.. والآن من ينجينا من أكداس الشحم ، وفقدان الشهية ، وتصلب الشرايين ، وعسر الهضم ، وعذاب الأرق؟

فى أحد الأيام جاءنى الأخ الكريم زينهم حسن على من إخوان « إمبابة » ، وقدم إلى مجلة أدبية مصورة وقال: « خذ يا عم.. اقرأ ..»

كانت مجلة « الرسالة الجديدة » ، ولعلها أول مجلة أتحصل عليها منذ سجنت حتى تلك اللحظة ، وتصفحتها فوجدت فيها العديد من القصص والقصائد والمقالات النقدية ، وأحاديث متنوعة مع بعض مشاهير الأدباء فى تلك الفترة.. لكن الذى لفت نظرى أكثر ، هو ذلك الإعلان الكبير المنشور داخل المجلة عن المسابقة الأدبية الكبرى التى تجريها وزارة التربية والتعليم كل عام ، وترصد لها جوائز ضخمة.. وكانت المسابقة تنقسم إلى أبواب عديدة منها القصة القصيرة والرواية والنقد والدراسات الاجتماعية وأدب الرحلات ، وعشرات الموضوعات الأخرى كالتراجم والسّير والشعر وتاريخ الأدب.. الخ.

شعرت بنشوة غريبة..

وأغمضت عينى.. كنت أحلم..

لم يكن أخى زينهم حسن على يعرف أن هذه المجلة التى أخذها من زواره القادمين من القاهرة ، سوف تنحو بحياتى منحى جديدًا ، وتضعنى على أعتاب مسيرة جديدة ، ورحلة طويلة.. إلى آخر العمر..

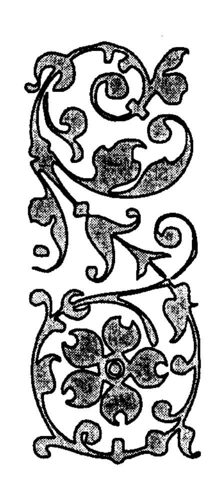
لم أنم جيدًا فى تلك الليلة ، وكنت فى نفس الوقت عازفًا عن الكلام مع الإخوة فى الزنزانة.. ليس فى رأسى بعد أن صليت وتعشيت وألقيت بجسدى على البرش سوى إعلان المسابقة وشروطها وآخر موعد لها ، هل أستطيع خلال شهر واحد أن أعد نفسى لهذه المسابقة؟ وهل فى الإمكان قبول اشتراكى فيها أصلًا؟ وكيف أخرج مواد المسابقة من السجن إلى وزارة التربية والتعليم؟

قلت فى نفسى المهم أن أبدأ خطوة خطوة

وعلى الله « التساهيل ..»

❁❁❁

[١٠] شعاع من نور



كان لدى من الحماسة والطاقة ما يكفى لإنجاز هذه المهمة الطارئة بأسرع وأفضل ما يمكن ، قررت أن أتقدم للمسابقة الأدبية بكتابين ، الكتاب الأول جاهز بكامله ، وقد كتبته عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال ، فقد أعجبت بفلسفته أشد الإعجاب ، كما شدنى إليه شعره السلس العميق المترجم إلى اللغة العربية ، واقتنعت أن فكر هذا الرجل وآراءه تتفق تمامًا مع الصيغة العامة التى تتبناها جماعة الإخوان المسلمين ، أو بمعنى آخر كان فهمه للإسلام فهمًا مستنيرًا شاملًا موثقًا ، أما الكتاب الذى انتويت إعداده فهو رواية تحت عنوان « الطريق الطويل » تتعرض للأوضاع العامة فى مصر إبان الحرب العالمية الثانية ، وكان من الضرورى أن تمتد أحداث القصة حتى معركة السويس طبقًا لشروط المسابقة.

وفى اليوم التالى مباشرة ابتدأت فى كتابة الصفحات الأولى من الرواية التى تجرى أحداثها أساسًا فى قرية مصرية ، وقد استطعت بحمد الله إنجاز الرواية فى فترة لا تزيد عن ثلاثة أسابيع ، وهو رقم قياسى فى تصورى ، ولعل ذلك كان راجعًا للاستعداد النفسى ووفرة الأحداث ، وعمق التجارب التى تتصل بهذا الموضوع ، وانتعاش الأمل بعد أن أظلمت الآفاق ، وكاد اليأس يستحكم.

وكان من الضرورى أن أعد نسختين من كل موضوع ، وأن أرسل المادة إلى وزارة التربية مسجلة قبل انتهاء الموعد ، ومن شروط المسابقة أن يكتب المتسابق على مؤلفاته اسمًا مستعارًا ورقمًا سريًا ، ثم يرفق بها خطاب مغلق به الاسم الحقيقى للمتسابق وعنوانه ، وقد تعاون معى بعض الإخوة فى نسخ الأصل وأذكر على رأسهم الأخ محمود الصواف العامل بشركة المحلة الكبرى للغزل والنسيج والمحكوم عليه معنا بالسجن عشر سنوات ، وكان محمود ذا خط جميل.

وساعدنا الزميل والضابط السابق بالجيش نجيب عطية ، عن طريق باشكاتب السجن الأستاذ محمود أبو الروس ، ولم يتكلف التسجيل أكثر من نصف جنيه ، وشعرت بعد ذلك بالارتياح الكبير ، ولم يعد أمامى سوى أن أنتظر النتيجة ، وهى فترة لا تقل عن بضعة شهور بالطبع ، وذلك لضخامة المسابقة وكثرة موضوعاتها المتنوعة.

لقد عشت فترة الكتابة وأنا متفرغ لها تمامًا ، حتى فى أوقات الراحة ، كنت أعيش فى جو الرواية ، وقد تخطر لى فكرة أو حدث أو حوار ، فأترك طعامى ، وأنسلُّ من بين إخوانى كى أسجلها على ورقة صغيرة قبل أن تهرب.. إن الفكرة بقوتها وحرارتها تظل متوهجة إذا سجلت فى حينها ، أما إذا أرجئت لوقت آخر ، فقد تفقد الكثير من عمقها وجمالها.. وفى حياتى الأدبية ضاعت منى أفكار كثيرة ؛ لأنى تكاسلت عن تسجيلها فى حينها ، وفى حالات كثيرة كانت المبادرة بتسجيل الأفكار بداية نجاح فى الإبداع ، وإنى لأذكر ، وأنا أكتب رواية « اليوم الموعود » بعد ذلك فى عام ١٩٦٠ ، كنت قد انتهيت من كتابة الفصل الثالث ، وتوقفت لأبحث عن حدث أو شخصية تكون لها القدرة على بث مزيد من

الحرارة والتشويق أو الإثارة فى الرواية.. وفى أثناء عودتى من كلية طب القصر العينى ذات يوم، وثبت إلى ذهنى شخصية « ياقوتة » الغجرية، وكانت رواية اليوم الموعود رواية تاريخية عن الحروب الصليبية، وأسر الملك لويس الفرنسى فى « دار ابن لقمان » بالمنصورة، وكنت ملتزمًا لحد كبير بالأحداث التاريخية، لكن « ياقوتة » كانت شخصية « موضوعة » تمثل واحدة من بنات الشعب المصرى، وفى « الترام » سارعت بتسجيل ما تخيلته عن هذه الشخصية المثيرة، وما إن وصلت إلى البيت حتى أخذت فى الكتابة، واكتشفت بعد الانتهاء من الرواية بعد فترة، أن شخصية هذه الغجرية قد أعطت الرواية نكهة خاصة، وكانت سببًا من أسباب نجاحها..

وبينما كنت أقرأ تفسير ابن كثير للقرآن الكريم، جذبتنى قصة هاروت وماروت التى وردت فى سورة البقرة، وخاصة عندما أغوتهما إمرأة من « بابل » القديمة تسمى « أناهيد »، كانت القصة تحفل بطبيعة الإنسان وغرائزه، وقضية العدالة وقداستها، ومداخل الانحراف عند من يمسكون بأمن المجتمع واستقراره، وفكرت فى أن أكتب مسرحية تدور أحداثها حول هذا الموضوع، وفعلًا أتممت كتابة الفصول الثلاثة للمسرحية، ووضعت لها عنوان « حسناء بابل »، ومن سوء الحظ أن هذه المسرحية استولى عليها العسكر فى إحدى حملات التفتيش ولم أستطع العثور عليها بعد ذلك.

ولقد قمت بجمع شعرى فى تلك الفترة فى كراسة واحدة، وأطلقت على هذه المجموعة من الشعر « أغانى الغرباء »، وفى حملة أخرى من حملات التفتيش استولى عليها الضابط « زكى »، وكأنه عثر على كنز ثمين، وبعد أن قرأها أحالها إلى مدير السجن مطالبًا بتقديمى مرة ثانية للمحاكمة نظرا لما يتضمنه الديوان من هجوم على الحكومة وأسلوبها، وكان من حسن الحظ هذه المرة أن مدير السجن الجديد « صدقى محمود » كان رجلًا مهذبًا، وتعاطف مع موقفى، وساعدنى فى ذلك أيضًا ضابط شاب آخر هو الملازم أول عبد المنعم، وحلاً للإشكال تقرر إحراق الشعر، والاكتفاء بذلك، فأبديت اعتراضى الشديد، وتم إبلاغه للمدير عن طريق عبد المنعم الذى جاءنى بعد يومين وقال: « هذا هو الشعر.. خذه.. ولا تطلع عليه أحدًا.. وأخرجه من السجن بأية وسيلة.. لأننا أخبرنا الضابط زكى أنه تم حرقه..»

كان موقفًا نبيلًا لا شك، ولم تكد تمر فترة وجيزة حتى جاء أحد الأقرباء لزيارتى من وراء الأسلاك، فأخبرته بأنى سوف أرسل إليه كراسة الشعر بعد الزيارة، وعليه أن يحتفظ بها حتى نخرج من هذا الجب.. ربما بعد عام أو أعوام.. الله أعلم.. وكان هذا القريب هو الأستاذ حلمى الشافعى الذى كان يعمل وقتها مدرسًا فى الصعيد.. لكن الضابط زكى ظل على اعتقاده بأن الشعر قد أحرق، وكثيرًا ما كان يأتى إلى فى تشفٍ ويواسينى فى الشعر المحروق، وهو لا يعلم حقيقة ما جرى. وقد شاء الله أن تصدر هذه المجموعة من الشعر فى بيروت بعد سنوات أى فى أوائل السبعينات، من القرن العشرين، كما أعيد طبعه فى مؤسسة الرسالة ببيروت أيضًا.

هذه الفترة كان السيد الوالد رحمه الله يبذل قصارى جهده فى نقلى من سجن أسيوط إلى سجن القاهرة حتى أكون على مقربة منهم، بحيث تسهل الزيارة ومختلف المعاملات الأخرى، وقد نجح الوالد فى ذلك أخيرًا بتوفيق الله، لكن الخطاب الذى جاء بأمر ترحيلى أشار إلى أنى سأذهب إلى سجن القناطر الخيرية وليس سجن القاهرة، وكنا نعلم أن إخواننا الذين كانوا فى « ليمان طرة » قد نقلوا بعد

الحادث إلى سجن القناطر الخيرية ، وأنهم يعيشون تحت ظروف عقابية وتكديرية شديدة ، فأشفقت من الذهاب إلى القناطر الخيرية لدرجة أننى فضلت البقاء فى سجن أسيوط ، لكن لم يكن لى فى الأمر حيلة ، لقد صدر القرار وانتهى الأمر ، ولابد من التنفيذ ، فأرسلت رسالة إلى الوالد أخبره فيها بمكانى الجديد ، وأصر إخوانى على إقامة حفل « وداع » لى بعد أن أخذوا إذنًا من الإدارة ، على أن يكون الحفل داخل العنبر ، فى مكان رحب لحد ما بالدور الثانى عند بسطة الدرج..

كان وداعًا حارًا أسال دموعى ، وكانت الكلمات تحتبس فى حلقى ، وكان بين المودعين الأستاذ أحمد شريت عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين ، الذى قدم من الواحات للعلاج فى أسيوط ، وكان رحمه الله رجلًا شهمًا من رجالات الصعيد المرموقين ، والدعاة المخلصين ، ومنهم أيضًا المرحوم الأستاذ الشاعر الداعية « أحمد نار » وقد حضر أيضًا للعلاج من الواحات لاشتباه وجود ورم خبيث بالأمعاء؛ وعلى الرغم من وجود بعض الخلافات فى الرأى حيال بعض الموضوعات الفكرية والتنظيمية ، إلا أن الجميع جلسوا على صعيد واحد ، فى مودة صادقة ، وكانت الكلمات التى قيلت فى هذا الصباح معبرة عن صدق العزيمة ، والالتزام بالمبادئ ، والتواصى بالصبر ، وأخذ العبرة مما يجرى ، أما كلمتى الأخيرة فقد كانت تركز على الاعتصام بالرابطة العَقَدَية فى ظل الإخاء والحب والتفاهم ، على ألا يكون الخلاف فى الرأى مدعاة للقطيعة.. ودعوت أصحاب الآراء المتصادمة إلى التصالح فورًا والآن ، وكان مشهدًا رائعًا حينما تعانق الإخوة وتصافوا.. فكان ذلك إيذانًا ببداية جديدة..

وفى فجر يوم صيفى لعله فى شهر أغسطس عام ١٩٥٧، خرجت من سجن أسيوط والدموع تخنقنى ، كان الإخوان خلف أبواب الزنازين المغلقة يبعثون بتحياتهم ، وأنا عاجز عن الرؤية أو النطق لشدة الانفعال ، وهبطت الدرج تسبقنى عبراتى ، وقال لى السجان وهو يضع الأغلال « الكلبشات » فى يدى: « هكذا الدنيا.. لقاء وفراق.. هنا سجن وهناك سجن.. لكن على الأقل سترى الدنيا ولو لساعات ..»

كانت حراستى مكونة من ضابط وصول واثنين من العسكر ، ومضى الضابط الشاب أمامنا حتى وصلنا إلى أحد صالونات الدرجة الأولى بالقطار ، إنها المرة الأولى فى حياتى التى أجلس فى الدرجة الأولى ، واستأذنت من الضابط أن أشترى الصحف والمجلات فوافق على الفور ، كنت جائعًا لمثل هذه الوجبة الثقافية ، وأخذ الضابط يسألنى عن عملى ، وقضيتى والحكم الصادر ضدى ، وأخيرًا نظر إلى الصول وأمره بأن يفك الأغلال ، فكانت لفتة طيبة منه..

وجاء أحد الركاب واستسمح الضابط فى أن يعطيه مكانًا بالصالون لعدم وجود أماكن أخرى شاغرة بالقطار ، فتردد الضابط قليلا فى البداية ، ثم سمح له ، وجلس الوافد الجديد صامتًا ، يتصفح الجريدة ، لكنه انتهز فرصة خروجهم وسألنى: « ما هى حكايتك »

- « سجين.. ألا ترى السترة الزرقاء؟ »
- « يبدو أنك متعلم ، فلماذا سجنت؟ »

قلت باقتضاب: « من الإخوان المسلمين ..»

وبدت عليه الدهشة وقال: « ألم يزل فى السجون إخوان؟ »

قلت له: « طبعًا.. ألا تعلم؟ »

فمط شفتيه وسكت..

هذا الحوار الموجز أصابنى بألم نفسى شديد ، حتى أمثال هذا الرجل من المثقفين لا يعرفون عنا

شيئًا؟ هل العيب فى الصحف التى لم تعد تشير إلى قضيتنا من قريب أو بعيد ، أم العيب فى الأخلاقيات الجديدة التى جعلت كل فرد ينطوى على خصوصياته ، ويبعد عما قد يجلب له المتاعب؟

كانت تنتظرنا فى محطة السكة الحديد بالقاهرة سيارة « جيب » تابعة لوزارة الداخلية ، ومن القطار إلى السيارة مباشرة ، ومضت « الجيب » في طريقها إلى سجن القناطر ، كنا فى وقت الغروب الحزين ، والسجن صامت صمت القبور ، واستقبلنا أحد ضباط السجن وبعد التسليم والتسلم وعمل التسجيلات الدفترية ، أخذت إلى الداخل بعد أن شكرت حراسى الكرام المرهقين من طول السفر..

كان الصول شلقامى يجلس خلف مكتب حقير ، ونظراته الجامدة مسددة نحوى ، وقال: « مرحبًا.. شعرك طويل.. لابد من حلاقته غدًا ..»

أعوذ بالله ، أهذه هى البداية؟ إن شعرى لا يزيد عن سنتيمترين ، لم يزعجنى ذلك كثيرًا ، فقد تعودت على مثل هذه التفاهات ، والأمر لله ما شاء يفعل.. وقال لى الشلقامى: « هنا سجناء طرة.. وهؤلاء لهم معاملة خاصة.. إنهم شياطين.. والاتصال بهم ممنوع منعًا باتًا.. طبعًا سمعت عن حادث « طرة ».. مفهوم؟ » لم أجب بشىء ، هذا هو أسلوبهم المقيت الذى قلما يتغير..

وسلمنى الشلقامى « برشًا » من السعف وبطانية ، ثم أخذنى إلى الزنزانة المجاورة لمكتبه ، وما إن فتحها حتى وجدت فيها إخوة لى أعرفهم من قديم: على محمد عبد المنعم ، وعبد الوهاب السقا ، وسمير الغندور.. كانوا معنا فى سجن أسيوط قبل ذلك ، ثم تم ترحيلهم إلى هنا منذ زمن ليس بالطويل.. وكان الترحيب والعناق.. وشعرت بالارتياح.. لأنى لن أكون وحدى فى حبس انفرادى..

وقال الشلقامى وهو يغلق علينا الزنزانة: « اشرحوا لأخيكم التعليمات ..»

وانفجرنا من الضحك ، والدموع تملأ عيوننا..

وأخذت استفسر عن إخوان طرة المتواجدين فى الزنازين المجاورة لنا بنفس الطابق ، وأخبرنى الإخوة أن الشلقامى يمنع الاتصال بهم ، وقال على عبد المنعم: « الشلقامى هذا كالوحش ، ونحن نحاول ترويضه بشتى الطرق ، ونقدم إليه الهدايا والمنح التى يأتى بها زوارنا ، ونشترى له السجائر والبولوبيف ، وذلك حتى يسمح لنا بإرسال بعض أقراص الأسبرين وأدوية المغص وغيرها إلى إخواننا القادمين من ليمان طرة عقب الحادث المؤلم.. والأمر يحتاج منا إلى الكثير من اللباقة والكياسة حتى نستطيع أن نقدم أية خدمة ممكنة لهم ، ونحاول جاهدين أن نجعل الشلقامى وعساكره يقللون من الإهانات والضرب بالنسبة لهم ..»

قلت: « هل معاملتنا تختلف عن معاملتهم؟ .»

قال على: « بالطبع.. لأننا لم نكن ممن حضروا الحادث.. ويبدو أن هناك أوامر بمعاملتنا بصورة طبيعية ..»

عندما فتحت الأبواب فى الصباح ، نبه علينا الشلقامى ألا نخرج أثناء خروج الآخرين ، ورأيت إخوان طرة يجرون فى طابور طويل ، حاملين جرادل الماء والبول ، متجهين إلى دورة المياه ، كانوا شاحبى الوجوه ، حليقى الرءوس ، متسخى الثياب ، يختلسون النظرات إلينا عبر بابنا المفتوح ، وسمعت بعضهم يقول بصوت هامس: « حمدًا لله على السلامة يا نجيب ..»

قلت: « كيف عرفوا بمجيئي؟ »

قال على: « كلهم يعرفون.. نحن ننتهز فرصة غياب الشلقامى ، ونتصل بهم خفية ، ونبعث إليهم بما تيسر من أخبار ودواء ..»

وانتشرت فى هذه الفترة « الانفلونزا الأسيوية » فى مصر ، فكان هذا سببًا وجيهًا لمنع الزيارات عن المسجونين ، وفى هذه الفترة لم نكن نعرف شيئًا عما يجرى فى الخارج ، حتى عنابر السجن الأخرى لم يكن يسمح لقاطنيها بالاقتراب منا ، والأعجب من ذلك أننا نشغل الطابق الثانى ، وهناك ثلاثة طوابق أخرى اثنان فوقنا ، وواحد تحتنا ، ومع ذلك لم يكن يجرؤ أحد من سكان هذه الأدوار على الحديث أو التعامل معنا ، وكان الطابقان العلويان مخصصين لكبار السن والمرضى والعجزة أو أصحاب العاهات ، وكان الطابق الأسفل مخصصًا للعاملين فى النظافة. ولقد سمحت الإدارة لأفراد زنزانتنا بالخروج صباحًا حوالى الساعة التاسعة كل يوم للشمس فى فناء السجن لمدة ساعة تحت إشراف أحد السجانة ، والحقيقة أن الإدارة أخذت تخفف الضغط تدريجيًا على إخوان طرة ، فقل الضرب ، كما خفت حدته ، وسمح لهم بالاستحمام ، ونتيجة للإكراميات التى نغرق الشلقامى بها ، كان يسمح لنا باستضافة واحد أو اثنين منهم لربع ساعة مثلا ، ولم يعد يعارض مدهم بالأدوية..

فى أحد الأيام أرسلت الإدارة فى طلبى ، واستدعاء السجين للإدارة فى مثل هذه الأوقات العصيبة أمر مخيف كما سبق وأشرت ، هذه الأوضاع السائدة الفاسدة تجعلنا دائمًا نفكر فى الجوانب السوداء من المفاجآت ، ونظل دائمًا نشفق من المجهول..

قال الضابط سامى وهو يهم لمصافحتى على غير العادة: « مبروك يا نجيب ..»

- « خير يا سعادة البك؟ »

- « لقد فزت بالجائزة ..»

لم أكن أصدق ، دارت بى الأرض ، نظرت إلى الورقة التى قدمها لى كى أوقع عليها بالعلم ، إنها من مصلحة السجون بالقاهرة ، ومضمونها أننى فزت بالجائزة فى مسابقة التراجم والسير ، والتى تقدمت فيها بكتابى عن « إقبال » ، وفزت أيضًا بالجائزة عن روايتى « الطريق الطويل ».. لقد انهمر الخير على دفعة واحدة.. ومجموع الجائزتين مبلغ كبير من المال ، كيف تم الأمر بهذه الصورة التى لا تصدق؟ هل أنا فى حلم أم فى يقظة؟ شعرت أن شعاعًا من النور ينبثق فى حياتنا المظلمة.. كانت الكلمات والسطور تتداخل على الورقة وأنا أقرأ.. ترى ماذا سيقول أبى وأمى وأصدقائى وهم يقرءون الخبر فى الصحف.. إن فرحتهم ستكون ممزوجة بالأسى.. لا أستطيع أن أصف هذه اللحظات المثيرة العجيبة ، قد يبدو الأمر معقول التأثير فى الظروف العادية ، لكنه بالنسبة لسجين محكوم عليه بالسجن عشر سنوات ، ويعيش فى جو رهيب من المعاناة والمكابدة ، وليس له ماض أدبى يذكر.. عندئذ فإن الأمر يختلف.. إن روحى تحلق إلى بعيد.. إلى آفاق أرحب وأوسع.. ولم لا؟ ألا نتحدى اليأس والألم والفناء؟ اعتذر الضابط عن إعطائى نسخة من الخطاب ، وقال أنه سيضعها فى ملفى بالسجن ، لكنه سألنى كيف تتسلم هذا المبلغ الكبير من المال؟

قلت: « أحيله إلى أهلى »

قال: « وإذا رفضت الإدارة؟ »

قلت: « فليوضع فى أماناتى بالسجن ..»

وطرت إلى إخوانى لأزف إليهم النبأ..

وانقضوا على عناقًا وتقبيلًا.. وضربًا أيضًا.. لحظة من العمر لا تنسى..

قال الأخ عبد الوهاب السقا وهو يضيق عينيه فى حصافة وعمق وتفكير: « قد يكون فوزك فاتحة خير كبير »

- « كيف؟ »
- « قد يفكرون فى الإفراج عنك .. »
- « لا أظن.. فى السجون العديد من المفكرين والأدباء.. يكفينى هذه المكافأة من الله ، والعجيب أن المباحث العامة قد سمحت بذلك الفوز.. إنه أمر ملفت للنظر ولا شك ، ويحتاج لمزيد من التفكير والتحليل ..»

لم يكن الفرح من أجل الجائزة المالية.. بل فرح من نوع آخر لا يقدر بثمن ولا مال ، إنه تأكيد الذات ، والقدرة على النجاح رغم العوائق والسدود ، والإصرار على الإيمان والأمل ، وفى الصحراء الجرداء قد تثب نبتة خضراء ، وفى الأرض الخراب قد تتجلى زهرة حلوة العبير ، لأن الإنسان لا يموت ما دام معتصمًا بالإيمان والأمل..

وفى اليوم التالى قابلنى الضابط سامى فى فناء السجن أثناء فترة الفسحة ، ودعانى لأن ألعب معه مباراة « راكت » فى ملعب صغير من أطراف الفناء ، إنه تصرف يدعو للعجب ، وأخذت ألعب معه بتحفظ رغم أنى أجيد اللعبة ، ومن آن لآخر أوجه الكرة بطريقة فنية يعجز عن ملاقاتها ، وكان يعلق باسمًا ، ممتاز فى الأدب وفى الرياضة أيضًا..

وفى نفس الأسبوع سمح لإخوان طرة لأول مرة بالنزول إلى طابور الفسحة كما سمح لنا بالاختلاط بهم ، وكان يومًا سعيدًا بالنسبة للجميع ، ولعبنا كرة السلة وجرينا وعرضنا أجسادنا لشمس أكتوبر ، وأصبحت الحياة فى سجن القناطر أكثر راحة وألفة..

وطلبت من الضابط سامى أن يستأذن الإدارة فى أن أكتب رسالة إلى الأديب الراحل الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، لعله يرشدنى إلى الطريقة التى أطبع بها قصتى وأنشرها ، ولم أجد ممانعة فى ذلك ، فكتبت الرسالة ، لكن الرد لم يكن إيجابيًا ، حيث أخبرنى أن دور النشر مؤسسات تجارية ويهمها الربح بالدرجة الأولى ، وإنهم ينشرون لكبار الكتاب ، ويترددون كثيرًا فى النشر للناشئين الأدباء ، لكننى لم أيأس ، وأخذت أفكر فى طريقة أخرى لنشر كتبى..

فى هذه الفترة جاءنى كاتب السجن خفية ، وأخبرنى أن الأخ الصديق دكتور عبد الأحد جمال الدين « رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة حاليًا » ، قد جاء على رأس مجموعة من طلبة حقوق عين شمس لزيارة السجن ، وكان عبد الأحد وقتها يعمل فى هيئة التدريس بالكلية ، وقد رتب هذه الزيارة ليرانى ، وخاصة أنه مسافر إلى إيطاليا فى بعثة دراسية قريبًا ، لكن الإدارة لم توافق على زيارته لى ، فأرسل إلى بطاقة صغيرة مع هذا الكاتب..

ولم تكد تمر فترة أسابيع قليلة على تغيير المعاملة إلى الأحسن ، حتى انفجرت الأمراض النفسية بين مسجونى ليمان طرة السابقين كالوباء.. نعم كالوباء.. إن الحادث الرهيب وما تركه من أثر ، وكذلك المعاملة القاسية التى تعرضوا لها عقب الحادث قد أفرزت حالات من الانهيار العصبى والهستيريا والاكتئاب وغيرها من الأمراض النفسية ، وقد تفاقمت حالات البعض ووصلت إلى درجة خطيرة تكاد تكون جنونًا.. كان عدد هؤلاء المرضى أربعة أو خمسة..

وكان الدكتور مصطفى النحاس طبيب السجن آنذاك ، وطبيب الرئيس عبد الناصر فيما بعد ، أقول كان رحمه الله طبيبًا على خلق كريم ، فقد تفهم الوضع وأوصى بأن يوضع المرضى النفسيون تحت الإشراف الطبى الدائم فى مستشفى سجن القناطر ، وتم اختيارى لكى أكون مرافقًا لهم بالمستشفى ، لكونى طالب طب سابق فى المرحلة النهائية من الدراسة ، والحقيقة أن هذه الفترة كانت عصيبة بالنسبة

لى ، كان هؤلاء المرضى يشكلون مأساة أخرى مجسدة لمظاهر القهر والعنف والوحشية التى تعرضوا لها ، فالسجين « معوض » مثلًا ، كان يجلس صامتًا طول اليوم ، قلما يأكل أو يشرب ، وفجأة يقف عند نافذة فى المستشفى ، ويؤذن للصلاة بصوت عالٍ ، وقد يكون الوقت منتصف الليل أو الساعة العاشرة صباحًا ، وبعد أن ينتهى من الأذان ، يصيح: « لن تمنعنى من الأذان يا عبد العال « وهو ضابط بالسجن » سأقوم بالأذان غصبًا عنك »

ولقد تعرض معوض لضرب مبرح لأنه أذن للصلاة أثناء التكدير وهو فى زنزانته ، ولقد أتت « زينب » زوجة معوض لزيارته لكنه لم يتعرف عليها ، ورفض التحدث معها ، ومن المؤسف أن معوض بعد ذلك أصيب بنزيف دموى فى المثانة دون أن يشعر به أحد ، وظل ينزف فى مستشفى آخر حتى مات رحمه الله.

لا أريد أن استطرد فى شرح مآسى هذه المجموعة من المرضى ، ويكفى أن نقول لن هذه الظاهرة المحزنة ، كانت دلالاتها خطيرة على ما يحدث خلف القضبان من مآسى تجل عن الوصف..

وفى أحد الأيام جاءنى لأول مرة مدير السجن اللواء « عباس قطب الغايش » ، حسبته فى البداية يقوم بمرور عابر فى نواحى السجن ، وأخذ العسكر يجرون هنا وهناك ويصدرون النداءات العالية « انتباه » ، وينفخون فى صفاراتهم بشدة تتناسب مع قدوم شخصية كبيرة ، وكانت التعليمات قد صدرت لنا كمسجونين أن ننظف الزنازين ، ونرتب فراشنا ، ونلبس الطواقى الزرقاء ، ونجلس فى هدوء ونظام ، فإذا ما دخل علينا المدير وقفنا « انتباه » ، وإذا تكرم المدير وسألنا عن أحوالنا قلنا: « كل شىء تمام يا افندم »

وإذا استفسر عن مطالبنا قلنا: « ليس لنا أى مطالب يا افندم »

لم يمر المدير كما توقعنا ، لكن قصد الزنزانة التى أقيم فيها ، فانتفضنا واقفين حسب الأوامر ، وأخذ يجوس خلالنا بنظراته الفاحصة ، وأشار الضابط نحوى ، عندئذ ابتسم سعادة المدير اللواء وقال لى: « سيأتى لزيارتك اليوم مندوب من مجلة « المصور » ليجرى حديثًا صحفيًا معك.. طبعًا ستعطيه الانطباع الطيب عن المعاملة فى السجون.. ولولا هذه المعاملة الكريمة لما اشتركت فى المسابقة وفزت بها.. إن الصحف فى الخارج تتحدث عنك باحترام.. ويبدو أنك رجل طيب.. مؤدب.. سننقلك الآن إلى المستشفى ، لأن المكان أنسب هناك »

– « متشكر يا افندم ..»

وانصرف المدير – كما جاء – محاطًا بكل مظاهر الاحترام الرسمى ، ثم أخذنى الضابط سامى إلى مكتبة السجن ، وطلب منى أن أختار مجموعة من الكتب لا تزيد عن عشرة من أمهات الكتب ، وصعدت إلى المستشفى ، فوجدتهم قد أخلوا الصالة الشرقية من المرضى تمامًا ، وهى تتسع لأكثر من خمسة عشر سريرًا ، واختاروا لى سريرًا بفرش جديد نظيف ، ووضعوا إلى جواره باقة من الزهور التى قطفت حديثًا من حديقة السجن ، ثم أشار الضابط بأن أضع صف الكتب على « الكوميدينو » المجاور للسرير ، ثم صعدت إلى السرير وجلست أنتظر..

وبعد ما يقرب من ربع ساعة ، جاء صحفى ومعه مصور ، يسبقهما الضابط سامى ، وأجال الصحفى العجوز بصره فى أنحاء المكان وابتسم ، كان قصيرًا تبدو على وجهه إمارات الطيبة والوقار ، وصافحنى فى ود بالغ ، وجذب أحد المقاعد وجلس ، وأخذ يسألنى عن صحتى وأحوالى ، وانتهز فرصة ذهاب الضابط لبعض الوقت وسألنى عن السبب فى الحكم على بالسجن ، ولما أخبرته هز رأسه وتنهد

وقال: « أدعوا الله أن يفرج كربتك » ، ثم أخذ يسألني عن المسابقة وقصة فوزى بها ، وعن قراءاتى ، واهتماماتى الأدبية ، والموضوعات التى أنتوى الكتابة فيها مستقبلًا ، وغير ذلك من الأمور الأخرى المتعلقة بالفن والأدب بصفة عامة ، ثم أمر المصور بالتقاط بعض الصور لى من زوايا مختلفة ، وجاء الضابط سامى وهو يسألنى: « ماذا تكتب الآن؟ » فقلت له بأدب: « إننى أنتظر موافقة الإدارة بالسماح لى بالأوراق والأقلام حتى أبدأ » فنظر الصحفى وكان اسمه الأستاذ حسنى الحسينى « دار الهلال » إلى الضابط سامى متسائلًا: « لماذا لا تسمحون له بالأقلام والأوراق؟ » فأجاب بسرعة: « سوف نسمح له فى الحال » ، فأخرج الصحفى قلمًا ثمينًا من جيبه وقال لى: « هل تقبل هذا هدية مني؟ »

كانت مجاملة رقيقة منه ملأت قلبى بالامتنان ، ومددت يدى لأتناول القلم الهدية لكن يد الضابط سامى كانت أسبق منى ، إذ أخذ القلم وأكد للصحفى إنه سوف يسلمه لى فيما بعد عن طريق المدير ، حسب النظام واللوائح..

قضى معى الصحفى أكثر من نصف ساعة ، ثم صافحنى مودعًا ، وعلى وجهه تبدو علامات الانفعال الصادق ، والمشاركة العاطفية العميقة ، وبعد دقائق ، أعيدت الكتب إلى المكتبة ، وحملت باقة الزهور بعيدًا ، وأخذت أنا إلى العنبر فى زنزانتى المعهودة..

وبعدها بأيام زارنى الأستاذ « عبد الحميد العتريس » موظف العلاقات العامة بمصلحة السجون ، وأحد المشرفين على مجلة السجون ، وأجرى معى تحقيقًا صحفيًا رائعًا كان من أجمل ما كتب فى هذا الموضوع ، وقدم للتحقيق بعبارات قوية شيقة مؤثرة.

وصدرت بعد ذلك مجلة المصور ، وفيها صفحة عن حكايتى ، وكان العنوان الرئيسى: هل وجدت قصة أغرب من هذه القصة؟ لكنها كتبت عن قضيتى إننى حاولت إثارة طلبة الجامعة ضد الثورة فى عام ١٩٥٥ ، فكان أن قدمت للمحاكمة وصدر ضدى حكم بالسجن عشر سنوات مع الشغل ، مع أن التهمة لم تكن كذلك ، ويبدو أن الإدارة هى التى ألزمت المجلة بذلك ، وعلى كل فإن بعض وكالات الأنباء قد نقلت خبرًا صغيرًا عنى ، فتلقفته إذاعة إسرائيل ، وقدمت حديثًا إذاعيًا عنى ، أشارت فيه إلى أن عبد الناصر يلقى بالأدباء والمفكرين خلف الأسوار ، ويعاملهم أسوأ معاملة ، وضربت بى مثلًا لذلك ، وتحدثت باستفاضة ، وأذيع الحديث مرتين فى أسبوع واحد ، وسمعه الكثيرون حتى إن مدير سجن القاهرة اللواء محمود صاحب فاتحنى فى الأمر بعد أن انتقلت إلى سجن القاهرة ، فقلت له: « وما ذنبى فى ذلك؟ لو علمت إسرائيل أن قصة « الطريق الطويل » التى فزت فيها تتعرض للصهيونية ومخازيها وعنصريتها لما أعادوا هذا الحديث.. إنهم يستغلون كل خبر ويستثمرونه لصالحهم ، وهذا أمر معروف ... »

وتمر الأعوام تلو الأعوام ، وأنشر الجديد والمزيد من الكتب بعد خروجى من السجن ، وتضعنى إسرائيل ضمن « القائمة السوداء » التى يمنع كتب أصحابها من الدخول أو التداول فى إسرائيل ، وكنت فى هذه الفترة أعمل طبيبًا بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ومن أهم الكتب التى أغضبت إسرائيل كتاب « دم لفطير صهيون » وكتاب « عمر يظهر فى القدس » وكتاب « أرض الأنبياء » وغيرها من الكتب..

فى سجن القناطر تحسنت الأحوال كثيرًا ، وسمح لنا بالذهاب إلى المكتبة واستعارة الكتب ، كما سمح لنا بالأوراق والأقلام ، وبدأت أمارس حياتى الأدبية كالمعتاد قراءة وكتابة ، وكتبت عددًا من الصفحات فى رواية جديدة بعنوان « فى الظلام » ، ولقد كنت فى هذه الفترة أفكر فى أن أنسب مكان

لى حاليًا هو « سجن القاهرة » ، لأن على رأسه رجل مثقف ، وإنسان كبير القلب ، هو اللواء محمود صاحب ، فضلًا عن أن سجن القاهرة آنذاك ، كان يفسح الطريق أمام المواهب ، ويعامل السجناء بطريقة إنسانية ، ووسائل الاتصالات والزيارات متيسرة لحد كبير ، كما أنه لم يكن سجنًا للسياسيين تقريبًا ، ولهذا فكرت فى العمل جديًا للانتقال إلى سجن القاهرة بحجة العلاج ، وتكرم طبيب السجن بكتابة تقرير طبى أكد فيه على ضرورة نقلى إلى سجن القاهرة للعلاج ، ثم العودة بعد الشفاء مرة أخرى للقناطر ، وإن كان أمر العودة هذا لم يتحقق كما سنرى ، إذ بقيت فى سجن القاهرة حتى قرار الإفراج عنى..

كان معنا فى سجن القناطر مجموعات شتى من السجناء ، ومن ضمنهم مجموعة اتهمت بالتجسس بينهم « الخواجة وليم » وهو صحفى لبنانى متقدم فى السن ، كان يلتقى بنا كل يوم ليخفف من بؤسه وشقائه ، ويتحدث معنا فى شتى الموضوعات ، وكثيرًا ما كان يردد باللغة الإنجليزية « إنها حياة بائسة » ، وكان كلما مر « الخواجة وليم » أمام مشرحة السجن يصاب بالذعر ، ويقول: « لشد ما أخاف أن أموت فى السجن ويشرحون جثتى هنا ..» فكنت أقول له ضاحكًا: « يا خواجة.. وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟ » فيلوح بيده فى غضب ، ويستنكر ذلك ويهرول بعيدًا عن المشرحة.. ومن عجائب الصدف أن يموت وليم فى السجن ، وتنقل جثته كالمعتاد إلى المشرحة للتشريح..

كان الضابط « ع.س » من أخطر الضباط فى سجن القناطر ، فإلى جانب أنه شارك فى أحداث ليمان طرة ، فقد انتقل مع المسجونين بعد الحادث إلى سجن القناطر ، وكان هو المشرف الفعلى على التعامل مع السجناء ، كما لعب دورًا خطيرًا فى الدس والوقيعة بين الإخوان ، وإثارة الشكوك الكبيرة فى صفوفهم ، وظل يمارس هذا الدور فى سجن طرة والواحات والقناطر ، ثم فى عام ١٩٦٥، ١٩٦٦ فى سجن أبى زعبل ، ثم أصيب فجأة بداء عضال أودى بحياته ، لكنك إذا تعاملت معه تجده يبدو رقيقًا باسمًا مهذبًا ناعم الملمس.. وأخيرًا تم ترحيلى إلى سجن القاهرة ، فودعت سجن القناطر وسط حفاوة بالغة من الإخوان.. كانت الابتسامات تعلو الوجوه ، لكن قطرات الدموع تبلل الأهداب.. ويبدو أنهم فى سجن القاهرة كانوا على علم بحضورى إليهم ، فما إن دخلت السجن « وكان معى زميلان آخران » حتى قال الضابط المناوب بعد الظهر ، وهو يتفحصنا: « من فيكم نجيب الكيلاني؟ »

فهززت رأسى مبتسمًا ، فأقبل نحوى فرحًا ، وصافحنى بحرارة.. كان هذا الضابط هو مأمور السجن ، واسمه « سمير قلادة » ، رجل مسيحى نبيل.. وكان هذا اللقاء مع سمير قلادة بداية صداقة طويلة جدًا.. امتدت حتى يومنا هذا ، إنه الآن على التقاعد برتبة لواء ، ويعيش فى مدينة طنطا معنا ، ولقد ارتبط بوالدى وبأسرتنا ، بل بقرية « شرشابة » بلدنا ارتباطًا قويًا ، وكان يزورنا فيها كثيرًا هو وأسرته ، ولقد قدم لى هذا الرجل الكثير من الخدمات الجليلة ، بل إنه عرض نفسه لخطر كبير عندما سمح لى ذات مساء بالاتصال بأحد المعارف عن طريق تليفون السجن.

كانوا يطلقون على سجن القاهرة « اللوكاندة » أى الفندق ، لما فيه من تسهيلات ومعاملة حسنة ، وذلك راجع بالطبع إلى منهج المرحوم اللواء محمود صاحب فى الإدارة ، وهناك التقيت مرة أخرى بالأخ المهندس المرحوم « محمود عجوة » المتهم الأول فى قضية الجبهة الوطنية ، وقد أشرت إلى ذلك من قبل ، كما التقيت بعدد آخر من الإخوة الذين قدموا من سجون أخرى لإجراء عمليات جراحية ، وبعدد من ضباط المدفعية الذين سبق تقديمهم للمحاكمة بتهمة محاولة الانقلاب ضد عبد الناصر فهم المصرى والصاوى والدمنهورى وغيرهم كما سبق وأشرت.

واستدعانى اللواء صاحب فى اليوم التالى ، ورحب بى ، وطلب منى المساهمة فى تحرير مجلة « السجون » التى يتولى الإشراف عليها ، ولما سألنى إن كان لى أية طلبات كى يحققها لى ، فقلت فى إيجاز: أولًا: زنزانة خاصة بى ، ثانيًا: مكتب خشبى صغير ومقعد ، ثالثًا: أن أستقر فى سجن القاهرة ، ولا أذهب إلى سجن القناطر أو أى سجن آخر.. فوعدنى الرجل خيرًا.. وانصرفت..

وكنت أذهب إلى مكتبة السجن وقتما أشاء باستثناء فترة المساء من الخامسة عصرًا وحتى السابعة صباح اليوم التالى ، وفترة الظهيرة بين الواحدة والنصف ظهرًا حتى الرابعة ، وكان أخى محمود عجوة هو أمين المكتبة ، ووضع تحت تصرفى كل ما أريد من كتب وصحف ومجلات ، كما إن مدير السجن أصدر أمرًا بأن يسمح لى بزيارة فى يوم يحضر فيه أحد من أهلى ، وأن تكون الزيارة شخصية وليست « سلكية » أى بدون حواجز وقد تصادف وجاء والدى ووالدتى فى يوم عيد الأم لزيارتى ، وكان زحام الزيارة شديدًا ، مما جعل المدير يأمر بأن تكون زيارتى فى المستشفى ، وهناك استقبلت الوالدين ، ووجدتهما فى حالة أفضل كثيرًا من ذى قبل ، وفوجئت أثناء جلوسى معهما بصحفى من مجلة التحرير يحاول التقاط صورة لى ، فأصرت والدتى على أن تغطى وجهها بالشال الأسود الرقيق وكانت ، الصورة التى نشرت فى المجلة على هذا النحو من الذكريات الطريفة..

ألا شتان بين سجن القاهرة الآن ١٩٥٨ وسجن القاهرة عام ١٩٥٥ حينما نقلنا إليه من السجن الحربى المشئوم..

وشمرت عن ساعد الجد.. كان لابد أن أعمل أغلب الليل والنهار فى القراءة والكتابة ، وأن أسابق الزمن ، ومن خلال المعاملة الطيبة فى تلك الفترة ، كنت أعتبر نفسى بلا قيود ، أشعر أن نفسى حرة ، وأننى أنطلق بروحى أينما وكيفما أشاء ، ومن الأمور التى أثرت فى نفسى أننى وجدت أحد السجانة يضع صورة لى قصها من إحدى المجلات فى حافظة نقوده معتزًا بها ، كما إن بعض السجون وضعت صورتى على باب مكتبة السجن كما روى ذلك ضابط منقول من سجن « شبين الكوم » وزارنى فى السجن أيضًا « الأستاذ فهمى عمر » الإذاعى الشهير لتسجيل حديث فى برنامجه « مجلة الهواء » ، وأجرت صحفية من دار أخبار اليوم تحقيقًا صحفيًا معى ، كما تعرضت الأهرام والجمهورية والاكتواليتية التى تصدر بالفرنسية نبذة عن حياتى وأدبى.

شعرت أن المسئولية أصبحت ثقيلة ، وأخذت أستعد للمسابقة الجديدة التى تجريها سنويًا وزارة التربية والتعليم ، كما اشتركت فى مسابقة نادى القصة ومسابقة الشبان المسلمين وغيرها من المسابقات ، وكنت مهتمًا بمسابقة وزارة التربية بصفة خاصة ، وأعددت لها ثلاثة كتب:

- الأول عن أمير الشعراء شوقى.
- الثانى دراسة إجتماعية نفسية عن السجون تحت عنوان « المجتمع المريض » ، مدعمًا بالصور والإحصاءات والوقائع ، ومن أهم موضوعات هذا الكتاب فصل بعنوان « مجتمع له قيمه الخاصة » وفصل آخر بعنوان « الفنون فى السجون ».
- والثالث رواية سياسية بعنوان « فى الظلام » أخرجت مسلسلًا إذاعيًا فيما بعد.

لقد كانت فرحتى غامرة حينما فزت بجوائز الكتب الثلاثة فى وزارة التربية والتعليم لعام آخر كما فزت بجائزة مجلة الشبان المسلمين عن القصة القصيرة ، وإحدى جوائز نادى القصة ، لقد كان التوفيق

كبيرًا، وخاصة أن كتاب « المجتمع المريض » قد استحق الفوز فى فرع دقيق اشترك فى مسابقته بعض الدكاترة من الأساتذة المتخصصين وعدد من الكتاب المرموقين فى مصر..

نعود مرة أخرى إلى مشكلة نشر الكتب الفائزة التى كانت تشغلنى كثيرًا، والواقع أن هناك عددًا من الشخصيات التى أسهمت بجهد كبير فى هذا الموضوع، على رأسهم شقيقة الشهيد الأستاذ سيد قطب التى تولت التنسيق والتعاقد مع مكتبة مصر بالفجالة « السحار وشركاه » كما ساهم فى ذلك المرحوم اللواء محمود صاحب والضابط سمير قلادة وغيرهم.

وأشار على بعض الإخوة بأن أحاول الخروج إلى القصر العينى لعلاج ركبتى التى أصيبت منذ فترة، وحدث كسر فى شوكة عظمة الساق، لكنه حدث ضمور فى عضلات الفخذ، وما زالت آلام الركبة تزعجنى، وفعلًا اتصلت بالدكتور إبراهيم زكى جراح مستشفى السجن، فأبدى تعاطفًا كبيرًا، وكتب تقريرًا لإدارة السجون المركزية يطلب فيه عرضى على أخصائى عظام بالقصر العينى، وتمت الموافقة على التقرير..

عندما ذهبت إلى القصر العينى، وقفت جياش العواطف، ففيه كنت أتلقى دراساتى الطبية.. المبانى التى عشت فيها سنوات من عمرى، الأساتذة الكبار الذين نسى أغلبهم اسمى ورسمى، زملاء الدراسة وقد تخرجوا وأصبحوا أطباء امتياز ونوّابًا فى مختلف الأقسام، إنهم يقابلوننى بالأحضان والقبلات، وتبدو أمارات الألم الشديد على وجوههم وهم يرون يديّ فى الأغلال، والملابس الزرقاء فوق جسدى، وأنا أبتسم متكلفًا فى مرارة، ويتسابقون لخدمتى، رغم وجود رجال المباحث العامة فى أزياء مدنية يتابعون خطواتى ولقاءاتى، ويسجلون بعض الأسماء وخاصة من يأتى من الأهل أو الأصدقاء لرؤيتى.

كان على أن أذهب للقصر العينى مرتين أسبوعيًا، وكان ذلك فرصة لتدبير أمورى، وإنجاز نشر الكتاب الأول « الطريق الطويل »، وجاءت شقيقة الشهيد سيد قطب ووقفت على مقربة منى بزيها الشرعى المميز، كنت خائفًا عليها من رجال الأمن، وكان هناك رسول يذهب ويجىء بيننا وهى إحدى قريباتى وأرسلت إلى عقد « مكتبة مصر » فقمت بالتوقيع عليه، وأخذت العقد وانصرفت بسرعة دون أن أتكلم معها شخصيًا كلمة واحدة، إن أخاها الشهيد كان سجينًا آنذاك فى سجن طرة، وكان رجال الأمن يكنون له - رحمه الله - أسوأ المشاعر..

وفى أحد الأيام استدعانى اللواء محمود صاحب مدير السجن، وأخبرنى أن وزير الثقافة والإرشاد الأستاذ الكبير فتحى رضوان قد اتصل به تليفونيًا، وأعلمه بأن وزارة الثقافة ستقوم بنشر كتاب « الطريق الطويل » على نفقتها، مقابل مكافأة مجزية وسوف تطبع منه عشرة آلاف نسخة، وهذا رقم كبير فى ذلك الوقت « ١٩٥٨ »، وبدا الأمر مفاجأة سارة جدًا بالنسبة لى، لكنى فكرت كيف أتصرف حيال العقد الذى وقعته منذ فترة مع مكتبة مصر.. وشرحت الأمر للمدير، فوعد بأن يتفاهم معهم، لكنى لم أطق صبرًا، وتفاهمت مع صديقى الضابط سمير قلادة.. ففكر قليلًا، ثم قال: « ما رأيك فى أن تتفاهم بنفسك مع مكتبة مصر؟ »

قلت: « كيف؟ »

قال: « بالتليفون؟ »

أدركت أنها مجازفة خطيرة قد تضره لو انكشف أمرها، وخاصة أنى سجين سياسى ولست سجينًا عاديًا، وأثناء القيلولة، انفتح باب زنزانتى، وأخذنى سمير إلى مكتبه، واتصلت بالمكتبة، وأبدى

الناشر « الأستاذ غريب » عدم ممانعته فى ذلك ، لكنه اشترط على أن تتولى مطبعته طبع الكتاب لحساب وزارة الثقافة والإرشاد ، حيث إن الوزارة لابد وأن تكلف إحدى المطابع وهم أولى بذلك ، عندئذ يلغى العقد الموقع منى.. وعندما أبديت تشككى فى قدرتى على فعل ذلك قال الناشر: « كيف وخالك الأستاذ عبد الرافع الشافعي هو مراقب عام الوزارة؟ »

نعم .. تذكرت... وأجريت اتصالاً سريعًا بالأهل ، ونجح مسعانا ، ولم يكد يمر شهران حتى صدر الكتاب فى طبعة أنيقة ، بمقدمة كتبها الوزير باسم وزارة الثقافة والإرشاد ، ويوم أن تسلمت النسخ الهدايا لأول مرة ، كنت هائمًا فى دنيا من السعادة لا مثيل لها ، وجاءنى مندوب من الوزارة يحمل عقدًا وشيكا بمائتى جنيه..

كان نشر الطريق الطويل خطوة هامة فى حياتى الأدبية.. كان بداية خير.. وسوف نرى فيما بعد مدى النجاح الكبير الذى حققه هذا الكتاب..

وذات مساء ، بعد ذلك بأيام ، قالوا لى فى السجن: « استعد سوف نأخذك الليلة إلى مقر نادى القصة لاستلام جائزتك من السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم ..»

لم أكن أصدق ما أسمع..

أيمكن أن تسمح الحكومة لى بهذا كله؟ إن الأمر غريب غاية الغرابة!!

وهل سأرى القاهرة فى المساء ، وأقف تحت الأضواء بعد غيبة عن الحياة دامت أكثر من ثلاث سنوات؟

وماذا ألبس وليس لى فى السجن ثياب مدنية؟ أم إنى سأذهب مرتديًا بدلة السجن الزرقاء..

قال لى الضابط سمير قلادة: « اطمئن.. سوف ندبر الأمر.. سعادة اللواء الباشا مهتم شخصيًا وسيحضرون لك بدلة.. وحلاقًا.. وستخضع لكشف الهيئة قبل ذهابك إلى نادى القصة وجمعية الأدباء.. سيكون هناك الوزير وصحفيون.. ونخبة من كبار الأدباء فيهم الحكيم وطه حسين وغيرهما ...»

شعرت بالارتباك والحيرة..

يا ألطاف الله ماذا يجري؟ إنه شيء كالحلم بالنسبة لفتى قروى مثلى..

❁❁❁

[١١] اليقظة في حلم جميل



كنت كمن يعيش حلمًا زاهيًا جميلًا، لم يخطر ببالي قط أن تمضي الأمور على هذا النحو المذهل، ولا تصورت أن تتوالى الأحداث بهذه السهولة واليسر، لكني كنت أرفع وجهي المندى بقطرات الدمع إلى السماء وأحمد الله، وكل ذرة في كياني تسبح بحمده. لقد رأيت بنفسي كيف يولد الأمل من قلب اليأس، وينبثق النور من بحر الظلمات الرهيب، وتتجلى إرادة الحق لتملأ القلوب بالإيمان والثقة والرضى..

احضروا لي بدلة خواجة أجنبي متهم بتهريب العملة الصعبة، وعندما لبستها بدت وكأنها أعدت خصيصًا لي، واستعاروا لي حذاء ورباط عنق وقميصًا قيمًا، وأخذوني إلى المدير الذي ابتسم وقاسني بنظراته الودود وقال: «لا يبدو عليك أي أثر من آثار سنوات السجن.. لكن شعرك قصير.. لا بأس.. ضع منديلًا في جيب الجاكتة بصورة هرمية.. ابتسم أفضل من ذلك.. أريد ابتسامة حقيقية.. إذهب عشرة على عشرة ..».

جاء المساء وقلبي يدق رهبة وإشفاقًا..

جلست أنتظر في زنزانتي.. إن الموعد في الساعة الثامنة مساءً.. والدقائق تمر بطيئة.. أريد أن أنتهي من هذا الأمر المربك بأسرع ما يمكن.. لماذا القلق والتوجس؟ وحان الموعد..

وأخذوني من الزنزانة إلى مكاتب السجن، كان في انتظاري الصاغ «الرائد» صلاح طه مدير العلاقات العامة بمصلحة السجون آنذاك، وكان هناك ضابط من المباحث العامة واثنان من المخبرين يتميزان بالقامة الطويلة والعضلات المفتولة، وجمود الملامح، وأنا بينهم كدمية شاحبة مضطربة..

ثلاث سيارات كنت في واحدة منها مع المخبرين والصاغ صلاح طه، أخذت أنظر إلى القاهرة في المساء، الأضواء تتلألأ بألوانها المختلفة الجذابة، والرجال والنساء والأطفال في الشوارع، والحافلات والسيارات تنساب في هدوء ويسر، لم تكن حمى الزحام والضجيج قد غشيت المدينة في ذلك الزمان.. الحياة تبدو ذات نكهة غريبة لم أتبينها في سنوات العمر التي مضت.. لها حلاوتها وإغراؤها وسحرها..

قال لي الصاغ صلاح طه: «أنت رجل أديب.. وعاقل وتدرك أبعاد الأمور، ولا يصح أن توقعنا في أي حرج».

قلت ببراءة: «مستحيل أن يحدث ذلك.. ماذا تعني؟»

قال وهو يتنحنح: «لا تذكر لأحد أنك من مساجين الإخوان المسلمين.. لدينا تعليمات بذلك.. هل فهمت؟»

- «بالطبع.. اطمئن ..»

واستطرد: « يكفى أن الحكومة سمحت لك بالكتابة ، والاشتراك فى المسابقات ، وطبعت لك بعض مؤلفاتك.. وها هى الليلة تفتح أبواب السجن ليلًا - وهذا لم يحدث قط من قبل - لتخرج وتشترك فى مهرجان أدبى لتتسلم الجوائز.. وتلتقى مع كبار المفكرين.. ومع وزير هام من أعضاء مجلس قيادة الثورة « كمال الدين حسين » ..»

- « إنى مدرك لكل ما تقول ، ولن يحدث إلا كل خير.. وليس من المعقول أن أفسد كل هذا بكلمة واحدة ...»

كنت أمعن التفكير فيما يقوله مرافقى الضابط الذى أصبح فيما بعد مديرًا عامًا لمصلحة السجون ، إن طبيعة الموقف أبعد ما تكون عن الصدام مع السجن ونظامه ، ومع منطق السلطة وتصوراتها ، وفى ظنى أن الأمر لا يحتاج إلى تحد أو إعلان ، فسيعرف الجميع الحقيقة بأسلوبهم الخاص ، وجميع الصحف والمجلات التى كتبت عنى تعرف هويتى العقائدية ، وإن كانوا لا يشيرون إليها فيما يكتبون ، وكذلك النقاد الذين كتبوا عن روايتى « الطريق الطويل » ركزوا على فنية القصة ومضمونها ، ولم يلتفتوا إلى الكاتب وظروفه الخاصة.. بل إن إحدى الصحف ذكرت - كذبًا - أننى دخلت السجن منذ سنوات ، ولم أكن أعرف القراءة والكتابة ، وتعلمتها فى السجن ، وأصبحت أديبًا ، لم أتضايق من مثل هذه الأخبار المضحكة ، فنحن نعرف أن بعض الصحف تحتفى بالطريف والغريب من الأخبار ، وإذا لم تجد أيًا منهما انتحلته انتحالًا.. لكن مثل هذه الترهات تذهب أدراج الرياح ، وتذوب تحت شمس الحقيقة التى لا تعرف الكذب أو المجاملة ، فسيان قيل أننى صاحب قضية ، أو إننى ارتكبت جريمة من الجرائم العادية ، لأن الناس دائمًا تعرف الحقيقة مهما استترت وراء الحجب.

دخلت نادى القصة بمقر نادى الأدباء « ٦٨ شارع القصر العينى » ، بجوارى المخبران ، وأمامى الضابط المكلف بحراستى من قبل مصلحة السجون ، فى زيه المدنى ، كان النادى غارقًا فى الأضواء ، مكتظًا بشباب الأدباء ، ويبدو أن بعض المخبرين الآخرين كانوا فى انتظارنا ، ولم يتركنى الضابط حرًا وسط هذه الجمهرة وإنما أخذنى إلى سكرتارية المرحوم الأستاذ يوسف السباعى ، حيث يجلس الأديب الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، والسكرتير « حسين رزق » ، كما استقبلنى الأستاذ يوسف السباعى بابتسامة حلوة وترحاب ، واقترب منى شاب لا أعرفه ، وقدم نفسه إلى قائلًا: « أنا صلاح المراكبى » صحفى ، وشد على يدى فى حب ، كما قرأت فى عينيه الكثير ، ولم يعترض مرافقى ، ولقد أصبح صلاح فيما بعد مديرًا لتحرير جريدة « الجمهورية » عندما كان الأستاذ حلمى سلام مسئولًا عنها ، وبعد سنوات ذهب صلاح إلى السعودية وأشرف على تحرير إحدى المجلات ، لكن هذا اللقاء كان بداية لصداقة وطيدة امتدت حتى اليوم.. وصلاح كان واحدًا من شباب الإخوان..

وحضر وزير التربية والتعليم السيد كمال الدين حسين وسط عاصفة من التصفيق ، ثم قام بتسليمنا الجوائز ، وقد أبدى اهتمامًا ملحوظًا بى عندما جاء دورى ، وسمعت منه بعض كلمات المجاملة الطيبة ، وبعد انتهاء مراسم الاحتفال انتقلنا إلى صالة واسعة يجلس فيها كبار الأدباء رأيت منهم - على ما أذكر - الدكتور طه حسين ، والأستاذ توفيق الحكيم والأساتذة أنيس منصور وعباس خضر وغيرهم ، وجاءت جلستى إلى جوار الأستاذ أنيس منصور ، الذى أخذ يفيض على بعذب حديثه ، وينتقل من حكاية إلى أخرى ، ويسرد الطرائف والذكريات العديدة عن أسفاره دون تحفظ ، فلا بأس أن يروى عن مغامرة عاطفية لأحد أصدقائه فى إحدى العواصم الأوروبية ، وهكذا أشعرنى بإسقاط الكلفة بينى وبينه ، لدرجة أنه أنسانى مرارة السجن ، وخيل إلى أننى صديق يجلس معه فى مكتبه بأخبار اليوم ، وقطع علينا

الحديث قدوم الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله الروائى المعروف ، وطلب أن أصحبه لمصافحة الدكتور طه حسين ليتعرف على ، وذهبنا إليه ، وهمس الأستاذ عبد الحليم فى أذنه فهب واقفًا مادًا يده ، وبعد أن حيانى وهنأنى قال: « لماذا سجنت يا نجيب؟ »

وتلفت حولى ، كان ضابطى يقف إلى جوارى ، هذا هو المأزق ، لكنى اعتصمت بالصمت ، ويبدو أنه ظن أنى لم أسمع سؤاله ، فأعاده مرة أخرى ، فقلت فى شىء من الارتباك الواضح: « أبدًا.. أعنى.. حاجة بسيطة ..»

وأصر قائلًا: « ما هي؟ »

وأنقذنى الأستاذ عبد الحليم من ورطتى ، فمال على أذنه هامسًا ، وبعدها رأيته يهز رأسه ويهمس « هيه » ، ثم أردف ذلك بكلمات للتشجيع وأمل فى أن يحقق الله لى الفرج ، وعدت إلى مكانى لأشرب الشاى وأتناول بعض قطع الحلوى والفطائر ، ولكنى كنت فى عزوف تام عن أى طعام ، بسبب ما أعانيه فى هذه اللحظات من توتر شديد ، وتحدثت مع الأستاذ عباس خضر ، ومع الأستاذ يوسف السباعى ، الذى كتب فى اليوم التالى مقالة جيدة عن المسابقة ، عنى وعن الأستاذ صبحى الجيار الذى فاز معنا وبقى ملازمًا لفراشه بضعة وعشرين عامًا لعدم قدرته على الحركة ، وكانت المقالة بعنوان « السجين.. والمريض » ، وقد أعاد نشرها بعد ذلك فى أحد كتبه.

قبل أن ينتهى الاحتفال جاءت صحفية أعتقد أن اسمها « سلوى حبيب » وطلبت من الأستاذ عبد الحليم أن يسمح لى بالذهاب إلى الصحفيين فى غرفة خاصة احتشدوا فيها كى يجروا معى تحقيقًا صحفيًا مشتركًا ، ولم يعترض الضابط ، وذهبت إلى الحجرة ، كان فيها أكثر من عشرة صحفيين ، وتواترت أسئلتهم عن أفكارى الأدبية ، والقصص أو المؤلفات التى أنجزتها ، والمشاريع التى أعتزم تنفيذها فى المستقبل ، والمهنة التى أنتويها ، وبدت عليهم الدهشة عندما علموا أننى طالب فى المرحلة النهائية بكلية الطب ، وما إن انتهى هذا المؤتمر الصحفى الصغير حتى يممت وجهى شطر القاعة السابقة ، لكن الصحفية سلوى جرت خلفى وقالت: « سؤال أخير ..»

قال الأستاذ عبد الحليم وهو يمسك بيدى وكأنى أحد أبنائه: « ما هو؟ »

- « لماذا سجنوك؟ »

- « أظن أن هذا لا يهم ..»

قالت: - « بل مهم جدًا ..»

وبعد إلحاح منها ، ورفض منه ، قال لها فجأة ، ودون توقع: « إخوان مسلمين.. هل استرحت؟ »

ومضى بى مسرعًا ، والضابط يبتسم ، وقال رحمه الله: « لن تستطيعى أن تكتبى حرفًا واحدًا عن ذلك ..»

كان العرق يتقاطر على وجهى رغم أن الجو يميل إلى البرودة ، وكان قلبى يدق فى انفعال ، لم أزل أعيش فى حلم غريب ، والناس من حولى كأنهم أشباح تتحرك فى الضباب.. أقول الحق.. تمنيت أن ينتهى هذا المشهد بأسرع وقت ممكن ، فقد تعبت أعصابى ، وشعرت بالإرهاق ، وجاء صوت الضابط يقول بنبرات خفيضة: « يجب أن نعود الآن »

- « تحت أمرك ..»

وصافحتهم..

كان صلاح المراكبى على مقربة منى طوال الوقت..

وبقى معنا الأستاذ عبد الحليم عبد الله حتى الباب ، كما كان معى الأستاذ محمد حسن عبد الله الذى كان طالبًا آنذاك بكلية دار العلوم ، ونال جائزة القصة الأولى والميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين ، وهي نفس الجائزة التى نلتها أنا فى العام التالى « ١٩٥٩ ».

وهنأنى الأستاذ عبد الحليم بصدور الطريق الطويل ، ودعا لى بحرارة أن يفك الله أسرى ، وأن تكون فترة السجن بالنسبة لى تجربة مفيدة..

وحينما ركبت السيارة متجهًا إلى السجن ، كان هناك عدد من رجال الأمن لا يقلون عن خمسة ، وعندما وقفت أمام السجن من جديد ، أطلت عينا السجان من خلال كوة صغيرة ، ثم فتح.. وتنهد الضابط فى ارتياح.. ثم جاء الضابط النوبتجي وتسلمنى ، وأخذنى إلى العنبر.. كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً.. وسمعت عشرات النداءات من الإخوان.. كانت الأبواب مغلقة ، لكنها عبارة عن قضبان ، تستطيع من خلالها أن ترى وتصافح وتتكلم ، وفى الدور أكثر من ستين زنزانة.. ومن الواجب أن أمر عليهم بسرعة.. إنهم متلهفون لسماع الأخبار.. وبعضهم يلمس البدلة التى ألبسها.. بدلة الخواجة.. ويقولون: « ربنا يجعلنا من بركاتك يا عم ..»

« كيف الدنيا هناك؟

حسبنا إنك ستنال الحرية الليلة..

ماذا يقول الناس عنا؟

هل ما زال أحد يذكرنا؟ »

وأنا كالأصم فى الزفة ، وكيف أستطيع أن أجيب على أسئلة كهذه؟ بل كيف أجيب على عشرات الأسئلة فى وقت واحد؟

جاء السجان وفتح باب الزنزانة ، وما إن دخلت حتى درت بنظراتى فى أنحاء هذا العالم الضيق.. لقد عدنا من جديد إلى المقر ، والمكتب الخشبى الكالح ، والمقعد المتهالك ، وأرغفة جافة ، وقطعة من الجبن « القريش » ، وجردل الماء والبول ، وأقلام وأوراق ، وخلعت البدلة الأنيقة ، ولبست سترة السجن الزرقاء.. ومن الغريب أننى شعرت بجوع شديد.. أقبلت على الخبز والجبنة بشهية عجيبة.. تذكرت أطباق الحلوى والفطائر.. أكانت حماقة منى حينما عزفت عنها؟ وشربت كأسين من ماء الجردل « الدلو » وحمدت الله.. وألقيت بجسدى المنهك على الفراش ، كنت فى حاجة ماسة إلى النوم ، ولكى أستطيع أن أستيقظ فى الفجر فلابد أن أنام فورًا ، لكنى كنت أشعر أن رأسى يلتهب ، والنوم يعاندنى ، فأخذت أتقلب على الفراش دون جدوى ، ولكنى فى النهاية استسلمت لنوم عميق لا أدرى متى..

وفى اليوم التالى نشرت الأهرام صورة كبيرة تظهرنى وأنا أتسلم الجائزة من السيد كمال الدين حسين ، فى الصفحة الأخيرة ، وتحتها كتبت الجريدة شيئًا عن المناسبة ، وأنهت تعليقها حسبما أتذكر « وغدًا يعود الكيلانى إلى المجتمع أديبًا لامعًا ...» ، كما نشرت الصحف والمجلات الأسبوعية شيئًا من هذا القبيل ، وتنبأ بعض الإخوة بأن هذه المظاهر كلها مقدمة للإفراج عنى ، لأن الحكومة إذا كانت لا تعتزم ذلك فعلًا ، لما سمحت بنشر أى تعليق أو صورة لى ، لكن الحقيقة المؤكدة هى أننى لم أزل فى السجن ، وإن تحسنت المعاملة لدرجة لا تصدق فى مثل هذه الظروف..

❁❁❁

[١٢] الشيوعيون يكرموننى فى السجن ثم يقدمون شكوى فى حقى

أصبحت فى سجن القاهرة « قره ميدان » شخصية بارزة معروفة لدى الجميع ، فالضابط والسجانون يكنون لى الاحترام الوفير ، وزعماء المسجونين على اختلاف جرائمهم يتقربون إلىّ ويقيمون معى علاقات وطيدة ، وإذ كنت من الشخصيات المرموقة فى السجن فإن ذلك يلزمك ببعض الواجبات التى لا فكاك منها ، فسوف يأتى الكثيرون إليك فى زنزانتك ليزوروك ، ولابد أن تقدم لهم الشاى وبعض المأكولات كتحية ، ومنهم من يطلب معونة مالية أو ملابس داخلية قديمة أو حذاء ، وبعضهم يطمع فى علبة سجائر ، وهذه الواجبات لا تؤدى للمسجونين فقط ولكن للسجانين أيضًا ، إن خفر الليل لا يحلو لهم السهر إلا أمام زنزانتى ، كى أقدم لهم البيض المسلوق أو « معلبة بولوبيف » وما إلى ذلك ، وكان على أن أرضخ لهذا الوضع وإلا ساءت سمعتى داخل السجن ، لأنهم يحصون على الجوائز التى أحصل عليها ، وليس فى السجن أسرار ، فكل شيء معروف.

وكان عدد من المسجونين الشيوعيين يقيمون فى عنبر آخر مجاور لنا ، وكنا على علاقة معتدلة أو شبه عادية معهم أثناء التقائنا فى الفسحة اليومية ، مع اتخاذ كافة الاحتياطات والحذر الواجب ، وذلك ناتج عن تلك الصراعات الناشبة بيننا وبينهم على الساحة السياسية منذ سنوات طويلة ، لكن المصائب يجمعن المصابين ، وليس هناك مانع من قيام علاقات إنسانية متوازنة مهما كان خلاف الرأى والمبادئ.

وذات يوم جاءنى أحدهم ، وأخبرنى بأنهم يدعوننى على مأدبة غذاء أقيمت على شرفى بمناسبة الجائزة وصدور كتاب الطريق الطويل ، والحقيقة أننى وافقت على ذلك لأول وهلة ، لكنى اشترطت أن يأخذوا إذنًا بذلك من الإدارة فى السجن حتى لا نقع فى حرج ، لكن بعض الإخوان - عندما طرحت عليهم الفكرة - رفضوها بشدة ، ودار حول الموضوع جدل تشعب ، لكن بعض الإخوة الذين نكن لهم الاحترام ، رأوا أنه لا مانع من ذلك..

وفى اليوم المحدد ذهبت إلى عنبر الشيوعيين بعد الظهر ، ودخلت إلى غرفة فسيحة نظيفة ، يبدو أنها رتبت بطريقة جيدة استعدادًا لهذه المناسبة ، كان الطعام مما يتوفر عادة فى مقصف السجن « الكانتين » ، علب من السمك المحفوظ والحلوى الطحينية والجبن والبيض وغيره ، وما إن انتهى الطعام ، حتى أقاموا ما يشبه الندوة حول رواية « الطريق الطويل » ، وكان من بينهم الدكتور شريف حتاتة ، وهو طبيب وشيوعى قديم محكوم عليه بالسجن عشر سنوات ، وكان فيهم أحمد الزقم وهو شاعر درس فى كلية دار العلوم ، وكان يكتب بعض القصائد فى مجلة السجون ، ومحمود يوسف وهو طالب بكلية الحقوق ومهتم بالأدب وعدد آخر لا أذكر أسماءهم بعد مرور تلك السنوات الطويلة..

وكان مما لفت نظرى أنهم أثنوا ثناء عاطرًا على الرواية ، وأضفوا عليها الكثير من الصفات التى لم أكن أتوقعها منهم ، وكان مجمل قولهم أن الرواية قد احتفت بالقرية وأحوال الفلاحين التعساء فى فترة الحرب العالمية الثانية ، وأنها صرخة فى وجه الظلم الإقطاعى ، والفساد الاجتماعى ، ثم قال أحدهم: « إن هذه الرواية تمثل مذهب الواقعية الاشتراكية » ، واندهشت لهذا التعليق.. لقد كنا آنذاك فى عام ١٩٥٨ ، ولم تكن شعارات الاشتراكية التى نادى بها عبد الناصر قد رُفعت بعد ، وأنا فى الحقيقة لم يخطر ببالى قط وأنا أكتب هذه الرواية شىء من هذا التصور المذهبى الذى يشيرون إليه ، وهم يعلمون تمام العلم وجهة نظرى فى أشياء كثيرة ، نظرًا للمناقشات التى كانت تحتدم بينى وبينهم قبل ذلك داخل سجن القاهرة ، وبعد قليل قلت لهم: « لا تحاولوا أن تضعوا أدبى فى هذا القالب أو ذاك ، إننى أردت فقط أن أكون أمينًا فى التعبير عن حياة شعبنا فى هذه البيئة.. إن « عبد الدايم » ، « أحد شخصيات القصة » فلاح بسيط ، يجاهد فى حياته فى صبر وإيمان وصلابة ، ويضرع إلى الله.. ويلتزم بقيم الخير والدين والعدل.. إنه فلاح مؤمن فى قرية مصرية لا يعرف المذاهب الأدبية ولا الشعارات والمظاهرات ، على النقيض من رواية « الأم » لمكسيم جوركى الكاتب الروسى المعروف.. حينما جعل من امرأة من أعماق الريف تحمل علمًا ، وتقود مظاهرة ، وتتحدى السلطة.. إننى هنا أكتب عن فلاح آخر.. فى وطن آخر.. ذى طبيعة خاصة ».

وطال بنا الحديث وتشعب عن الأدب المعاصر ، والتيارات الصاخبة فيه ، وأعلام الأدب فى تلك الفترة ، وتقييم الأدباء ودورهم ، والثورة وعلاقاتها بالأدب والأدباء ، وأحلام المستقبل أو الصورة المتوقعة لأدب الغد.

وانتهت الزيارة وشكرتهم على هذه المبادرة الطيبة ، آملًا أن أدعوهم لوجبة عندى ، وإن كانت الظروف لم تسمح بذلك لأسباب عدة..

بعد أيام فوجئت بمدير مستشفى السجن يمنعنى من الذهاب إلى القصر العينى لتكملة علاجى فى قسم العظام ، وكان هذا التصرف غريبًا من وجهة نظرى ، فأنا لم أنته من العلاج الطبيعى الذى أخضع له ، ولم أرتكب مخالفة تغضب المباحث العامة ، فكتبت عريضة أتظلم فيها من هذا الإجراء الجائر ، ورفع الأمر للديوان العام لمصلحة السجون التى أمرت بتشكيل لجنة طبية من ثلاثة أطباء « أحدهم طبيب شرعى » لفحصى وتقرير ما يجب عمله..

عقد إجتماع لجنة « القومسيون » الطبى ، وقاموا بالفحص بدقة ، واطلعوا على « الأشعات السينية » ، ثم خرجت لأترك لهم فرصة المداولة ، وبعد نصف ساعة استدعونى للمناقشة ، وزعموا أن العلاج الذى سبق يكفى ، ولم أجد فى قولهم عدالة أو اقتناعًا ، وبعد نقاش حار مستفيض استقر الرأى على إحالتى مرة أخرى على القصر العينى لتحديد مدة العلاج المتبقية حسب تقرير أخصائى العظام ، وكتبوا رسالة بهذا المعنى أرفقوها بأوراقى ، وسلموها لضابط الحراسة الذى ينقلنا من السجن إلى القصر العينى ، وهناك نظر الطبيب المختص إلى الرسالة باحتقار وكتب بسرعة « سوف نخطركم عند انتهاء العلاج » ، وحاولت أن أشرح له أن مثل هذا الرد لن يرضيهم ، لكن رفض إجراء أى تعديل قائلًا: « هذا شغلنا ، ونحن لا نتلقى الأوامر من أحد » والحق أننى أكبرت هذا الرجل ، وأخذت أقارن ما فعله الآن ، وما كان يفعله زملاء أطباء منذ سنوات قليلة فى السجن الحربى ، حيث كانوا يشهدون المذابح المروعة ،

وصنوف التعذيب ، دون أن يجرؤا على الاعتراض ، أو حتى إثبات إصابات التعذيب فى ملف المعتقل.. أما كان يجب على نقابة الأطباء - على الأقل - أن تحقق معهم؟

وفشلت مؤامرة منعى من الذهاب إلى العلاج.. أما كيف عرفت أنها مؤامرة ، فقد همس الدكتور إبراهيم زكى - جراح السجن - فى أذنى قائلًا: « إن الشيوعيين هنا قد كتبوا شكوى ضدك ، ذكروا فيها أنك لست مريضًا ، وأنك تخرج للاتصال بالإخوان فى الخارج ، وتحمل معك بعض الرسائل ، وطالب الشيوعيون أيضًا بأن يسمح لهم بالكتابة فى الصحف والمجلات والاشتراك فى المسابقات » وعجبت لهذا السلوك الغريب ، فكيف يكرموننى بالأمس ، ثم يكيدون لى فى الخفاء ، ومن قال أن الحكومة سمحت لى بالكتابة فى الصحف والمجلات أو وافقت على اشتراكى فى المسابقات الأدبية الكبرى؟ إن ما حدث فى الحقيقة خلاف ذلك تمامًا ، فقد اشتركت فى المسابقات الأولى سرًا ، وهربت المادة الأدبية دون علم من الإدارة ، لأنى لو اتبعت الطريق الرسمى ، فسوف يأخذون ما أكتب إلى الإدارة العامة للسجون ، التى ستحيلها بدورها على إدارة المباحث العامة ، والتى لن تتصرف فى أمر هام كهذا إلا بعد أخذ رأى الوزير شخصيًا ، وبذلك يكون قد فات الموعد المضروب للمسابقة ، حيث إن تلك الإجراءات تحتاج لشهور طويلة ، وتنتهى فى الغالب بالرفض ، أما وإن اشتراكى فى المسابقة قد مضى خفية ، وأعلنت النتيجة ، فقد بدا واضحًا أن المسئولين نظروا إلى ذلك دون اكتراث ، بل أغمضوا الطرف عنه كلية ، وخاصة أن أمور الأمن العام أصبحت شبه مستقرة ، ولا شك أن اللواء صاحب مدير سجن القاهرة قد لعب دورًا فى إقناعهم بالسماح لى بالخروج لتسلم الجائزة ، وأكد لهم أكثر من مرة حسن سيرى وسلوكى ، وأنه يضمننى شخصيًا ، حيث لا أشكل - فيما أكتب - أية خطورة على الأمن..

واستمر ذهابى إلى القصر العينى رغم أنف الأصدقاء الأعداء الشيوعيين ، ولم أفكر فى عتابهم أو مؤاخذتهم ، فهم رجال سياسة ، ويعتقدون أن لهم الحق كل الحق فى أن يتخذوا أحط الوسائل وأقذرها للوصول إلى أهدافهم الشريرة ، وتسألنى: هل قاطعتهم بعد ذلك؟ فأقول لا.. لقد مضيت فى طريقى وكأن لم يحدث شيء ، أتبادل معهم الكتب ، وأدير معهم الحوار حول الأدب والنقد والسياسة ، وحول الإسلامية والماركسية دون حرج ، والغريب أن بعضهم ظل على علاقة محددة بى بعد الخروج من السجن ، وخاصة بعض العاملين منهم فى مؤسسات الدولة الصحفية والمؤلفين.

لكنهم كانوا ينتهزون الفرصة ، ليعطلوا أعمالى فى الصحف التى يعملون بها ، أو فى المؤسسات الحكومية التى يحتلون فيها بعض المناصب القيادية ، وكمثال لذلك ، فقد كانت مؤسسة السينما « مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى » تنتج بعض القصص الهامة كأفلام للعرض ، وحدث أن طلب الأستاذ الكبير نجيب محفوظ بعض رواياتى لإخراجها للسينما ، ولقد وقع الاختيار على رواية « اليوم الموعود » التى تتناول حقبة هامة من تاريخنا الإسلامى والعربى وهى فترة الحروب الصليبية ، وكانت هذه الرواية قد نالت جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، فى مسابقة كبرى أعلن عنها فى عيد المنصورة ، وقام عبد الناصر بنفسه بتسليم الجوائز فى عام ١٩٦٠ ، وكان من الفائزين أيضًا الأستاذ على أحمد باكثير عليه رحمة الله. المهم أن مؤسسة السينما قررت إنتاج هذه الرواية التاريخية فى أفلام الدرجة الأولى بالألوان ، وكانت ميزانية الإنتاج مليون جنيه حسب اقتراح الفنيين ، ومضى المشروع فى طريقه ، تم كتابة العقد والتوقيع عليه منى ومن المسئول عن المؤسسة.. وطال الانتظار.. وذات يوم كنت أمر بمسجد « الكخيا » الشهير بميدان « الأوبرا » بالقاهرة ، والتقيت بأحد الأصدقاء الشيوعيين الذى

أخبرني بكل تشفٍ ، أنه أوقف العمل في الإنتاج ، قلت: « لماذا؟ »
وضع يديه في جيب معطفه الصوفي الثمين وقال: « لأن البطولة في الرواية بطولة فردية ..»
– « هذا غير صحيح يا أستاذ « ب.ش » ، فالشعب كله يخوض معركته ضد الصليبيين ، ولست أدرى من أين أتيت بهذا الفهم؟ »
ثارت الدماء في رأسي حينما سمعته يقول بعنجهية: « ذلك رأيي ، وأنا صاحب الكلمة ..»
قلت بهدوء ظاهري: « لا يهم.. سواء تم إنتاجها أو لم يتم ..»
واستأذنت منصرفًا

وجاء بعضهم ومنع نشر تحقيق صحفي كبير عني في جريدة الجمهورية بعد خروجي من السجن ، وقد قام بإجراء هذا التحقيق المرحوم الأديب وحيد النقاش ، شقيق الناقد المعروف الصديق رجاء النقاش ، بل استصدر بعضهم قرارًا بعد خروجي من السجن ، بعدم استضافتي في أي برنامج من برامج الإذاعة ، حيث تعمل شقيقة زوجتي السيدة نفيسة شاهين مذيعة هناك ، وبعد ذلك بفترة أمكن التغلب تلقائيًا على بعض هذه الحواجز وليس كلها..

وفي ندوة نجيب محفوظ الأدبية ، ومقهى الأدباء في ميدان الدقي ، كان يجتمع الأدباء ، وكنت أذهب إلى هذين المكانين وغيرهما بعد خروجي من السجن ، وكنت أجلس بين الكتاب الشيوعيين وأتسامر معهم دون حرج أو حساسية ، وعلى الرغم من حرصي الشديد إلا أنني كنت أتعامل معهم من خلال معتقداتي الإسلامية بوضوح تام ، وكانوا يعرفون ذلك جيدًا ، ويصرون على مناقشتي في بعض الأمور العَقَدية ، وأشرح لهم بعض الحقائق حول تصوراتهم الخاطئة بالنسبة للإسلام ، ومن الملفت للنظر أن عددًا منهم كان يكثر من الاطلاع بعمق على بعض الفترات الحاسمة ، والمواقف المشهودة في التاريخ الإسلامي ، ويفسرها بطريقتين ، متسلحًا بالكثير من النصوص وآراء بعض المستشرقين ، مثال ذلك موضوع « الناسخ والمنسوخ » وموضوع « الأحكام الشرعية » ، وعددًا من المسائل الاقتصادية في المعاملات الإسلامية وغيرها ، وكانت جوانب الخطأ والخبث في تحليلاتهم لا تخفى علي ، حتى أصبحت خبيرًا في محاوراتهم..
لقد سبقت الأحداث ، لكن ما الحيلة.. والشيء بالشيء يذكر؟

نعود مرة أخرى إلى السجن ، فقد التقيت في سجن القاهرة بعديد من الشخصيات التي لا تنسى ، ومن بين هذه الشخصيات المنوم المغنطيسي الشهير « س » أو مستر « إكس » ، ولقد اشتهر هذا الرجل ، وأصبح مادة صحفية حتى إن إحدى كبريات الصحف الكبرى قد أفسحت له صدرها كي يكتب مذكراته ، وقد كان مستر « إكس » هذا صديقًا حميمًا لرئيس تحرير الجريدة ، وقد رأى في صاحبنا المنوم المغنطيسي مادة للإثارة ، واستغلال العامة والبسطاء ، ومن ذاع صيته ، وأصبح معروفًا في كل مكان ، كما أصبح يقصده أصحاب المشاكل والحاجات ليقدم لهم الحلول ، وكان لقب الدكتور يسبق اسمه دائمًا ، حتى ظن القراء أنه دكتور فعلًا ، ولست أعرف السر وراء انكشاف أمره فجأة ، وتقديمه للمحاكمة ، واتهامه بانتحال صفة طبيب ، وقيامه بعمليات نصب وتحايل وإغراء ، ويبدو أن موضوع التصدي له قد صدر من جهة لها وزنها في السلطة والله أعلم..

المهم أن سيادة المنوم المغنطيسي قدم للمحاكم ، وأدين في بعض التهم الموجهة إليه ، وحكم عليه

بالسجن عامين على ما أذكر ، وأتوا به إلى سجن القاهرة ، وكان اللواء مدير السجن يعطف عليه ، ولاحظت أن مستر « إكس » يتقرب منى يومًا بعد يوم ، ويحرص على مجالستى كلما ذهبت إلى مكتبة السجن ، وأخيرًا أفصح عن طلبه الذى ظل يخفيه.. لقد طلب شيئًا عجيبًا ، فأخبرنى أن لديه بعض القصص والوقائع التى عرضت له فى حياته « المغنطيسية » ، لكنه لا يستطيع أن يصوغها فى أسلوب أدبى راق ، وأنه يستحلفنى بالله أن أساعده فى ذلك من باب الإخوة الإنسانية والعطف على مأساته حيث إنه كان بالأمس يربح الآلاف من الجنيهات شهريًا ، وهو الآن فى حالة من الفقر يرثى لها.. كنت فى حيرة.. وجلست أستمع إليه ، وهو يروى خرافات غريبة لا تصدق ، فإذا ما استفسرت منه عن شيء أجاب بعبارات لا تقنع الأطفال.. فأخذت أشرح له طبيعة التنويم المغنطيسى ، والمجالات التى يمكن أن يتحرك فيها ، والفوائد التى يمكن أن نجنيها منه ، فرد فى ذكاء: « هل تستطيع أن تكتب لى هذه الأمور كلها حتى أستفيد منها؟ فعلًا هذا هو العلم الصحيح ..»

وحمدت الله على أن الله قد هداه على يدى ، وقدمت له فى اليوم التالى ما أراد ، وكم كانت دهشتى حينما قرأت بعد فترة نفس الأفكار بنصها منشورة باسمه فى إحدى المجلات ، وعندما قابلنى بعدها كان سعيدًا غاية السعادة ، أما أنا فقد كنت أشعر بالارتباك والخجل ، وكأنى أنا السارق لا هو..

ومرة أخرى أخذ يسألنى عن الإيحاء فى العلاج النفسى ، ودور التنويم المغنطيسى فى ذلك ، وأكد لى أنه لن يستغل ذلك مطلقًا فى النشر ، إنه فقط يريد أن يصل إلى الحقائق العلمية ، وتكررت المأساة مرة أخرى ، وعندما عاتبته على ذلك قال: « ألا تريد أن تتصدق على قلمك؟ »

قلت: - « ليس بهذه الطريقة »

قال: - « الرئيس نفسه لديه من يكتب له الخطب والتصريحات الصحفية.. وأنا أحق بالعطف من أى رئيس.. أنا الآن مسكين محتاج ..»

❁❁❁

[١٣] ضباط وأطباء وطلبة... في السجن



في أحد الأيام من عام ١٩٥٨ أتى ضابط عنبر « ج » الذى نقيم به فى سجن القاهرة ، وأخبرنى أن شخصية مهمة سوف تقيم معنا ، أى فى الطابق الخاص بالإخوان المسلمين الذين قدموا من مختلف سجون الجمهورية للعلاج ، وفهمت منه أنه هذه الشخصية ضابط من ضباط الصف الثانى للثورة ، وأنه قد حكم عليه بالسجن لمدة عامين أو ثلاثة ، كما أخبرنى أن معه مهندس بدرجة مدير عام حكم عليه أيضًا فى نفس القضية ، كنت مندهشًا لما أسمع ، وسألت ضابط العنبر: « أهى محاولة لقلب نظام الحكم؟ »

قال دون إكتراث: « لا.. إنها قضية تبديد أو اختلاس أو نحو ذلك »

لقد رفض الضابط الكبير المحكوم عليه أن يعيش وسط المسجونين العاديين ، فقد قضى بينهم ليلة كانت أتعس ليلة فى حياته كما يقول ، لدرجة أنه كان يفضل الموت على البقاء وسطهم لما طبعوا عليه من إهمال واستهتار وقذارة وفوضى ، وأخيرًا تداولت فى الأمر مع إخوانى لأنها المرة الأولى أن يأتى سجين من غير الإخوان ليقيم معهم هنا ، ورأينا أنه - من وجهة النظر الإنسانية البحتة - لا مانع من ذلك ، ومن ثم أخلينا له زنزانة صغيرة ، وقدم الضابط السجين مع زميله المهندس المدير العام بعد نصف ساعة ، كان يخطو فى اعتداد وغضب ، ولم يكن شعره حليقًا كباقى السجناء ، واستقبلناه بابتسامات وترحيبات مجاملة لابد منها ، وقدمنا له قدحًا من الشاى ، كان يلتفت يمنة ويسرة ، ويراقب تحركات الإخوان وأحاديثهم فى اهتمام ، ثم قال: « من هؤلاء؟ إنهم يختلفون تمامًا عن باقى المسجونين » وبعد أن أجبنا على أسئلته قال وقد بدا الارتياح على وجهه: « إن الصورة تختلف تمامًا عما كنت أعرفه طوال السنوات السابقة ..». لم نعلق كثيرًا على قوله ، فعاد يقول: « هل بينكم محام من الإخوان؟ »

- « نعم معنا محامون.. وأطباء.. ومهندسون وعمال وطلبة.. من كل الأصناف ..»

ثم قدمت له أخانا المحامى الأستاذ حسن دوح ، فكان سعيدًا بذلك... وعرفنا فيما بعد أن الضابط السجين كان مسئولًا عن « لجنة الجرد » بالقصور الملكية ، وأنه اتهم بالاستيلاء على بعض الأشياء الثمينة لنفسه ، كما باع البعض الآخر بأثمان زهيدة أو رمزية ، فقد باع سجادة أعجمية فاخرة بمبلغ ستة وثلاثين جنيهًا فقط لإحدى الراقصات المعروفات..

قد عرض الضابط السجين الملف كاملًا على الأخ حسن دوح ، فوجد الملف متخمًا بالعديد من المخالفات ، وكان رأى حسن أنه لا أمل فى إعادة نظر القضية ، وظل هذا الضابط السجين فى عنبرنا ، لم يكن لديه أى عمل سوى الحديث عن ذكرياته فى الثورة ، وعن علاقاته بجمال عبد الناصر وعن قائد البوليس الحربى ، وعن المكيدة التى دبرت له ، كى يتخلصوا من شخصيته القوية ، وتحديه للمفاسد

والمهازل التى كانت تحدث ، وكيف طرد وكيل النيابة الذى جاء للتحقيق معه فى البداية ، وطلب قائد البوليس الحربى وكال له السباب عبر التليفون ، كما كان يؤكد دائمًا أنه برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، حتى إننا مللنا السماع لهذه القصة التى لا تتغير ، والتى يرويها بمنتهى الحماسة والقوة والثقة ، مع أن ملف القضية الذى يحمله معه يؤكد عكس ذلك تمامًا..

وعندما كنت أرى الدموع تترقرق فى عينيه أرق لحاله وأواسيه بشتى الطرق ، فأنا ضعيف أمام الدموع ، وما ظنك برجل كان ملء السمع والبصر ، وتنظر إليه أسرته كمثال ناجح ذى نفوذ ومكانة ، وفجأة يجد نفسه نزيل السجن مع العديد من المنحرفين والمجرمين ، ويرتدى تلك البدلة الزرقاء الكالحة ، ويأتمر بأمر السجان الذى لا يزيد عن كونه واحدًا من عشرات أو مئات الجنود الذين كانوا يلبون إشارته.. « ارحموا عزيز قوم ذل ».

وهناك ضابط سجين آخر برتبة نقيب ، كان يعمل بشرطة الآداب ، وقد عرف عنه العنف ، ومطاردة المنحرفين والبيوت السرية دون هوادة ، حتى إن رؤساءه كانوا يكنون لنشاطه كل تقدير واحترام ، ولم يكن يتورع عن مداهمة البيوت المشبوهة حتى ولو كان بها بعض الشخصيات المرموقة.. كما كانت أخبار غزواته الموفقة تنشر فى الصحف ، وشعر تجار « الرقيق الأبيض » بالحيرة حياله ، وأخذوا يدرسون وضعه بدقة ، ويعقدون معه الصلات ، ويدعونه – بحق الصداقة – إلى الحفلات ذات المستوى الرفيع ، وأدركوا بخبثهم أنه فقير ، وبدءوا فى مغازلته بالهدايا ، وتقرب بعض النسوة إلى زوجته دون أن تعرف حقيقتهم ، بدافع الجوار أحيانًا ، وبالصدفة أحيانًا أخرى ، واكتشفوا أن لعاب حضرة النقيب يسيل خاصة أمام بريق الذهب والساعات الأنيقة والبدل المستوردة..

وبعد أن تعمقت الصلة معهم ، اتخذت العلاقة مسارًا أوضح ، قالوا له أن العديد من المسئولين ينالون جعلًا أو راتبًا شهريًا كى يغمضوا أعينهم قليلًا ، فتجار المخدرات يدفعون ، وتجار الرقيق الأبيض يدفعون ، ومخازن التموين الغذائى أيضًا.. وهم على استعداد لدفع المبلغ الذى يريد ، ولن يحرموه من ضبط بعض القضايا التافهة الراتبة ، بحيث لا تكون الإدانة فيها ثابتة.. وهكذا أوقعوه فى قضية رشوة ليتخلصوا منه. عندما حكم على هذا النقيب المتهم بالسجن ثلاث سنوات ، كان منهارًا انهيارًا تامًا ، والدموع تتساقط من عينيه بغزارة ، ولا يستطيع تناول الطعام أو النوم قلت له: « وما نتيجة ذلك كله؟ »

أخذ يدق رأسه بقبضته فى عصبية ويقول: « أنا انتهيت ..»

فى مثل هذه الأحوال – مهما كانت الجريمة – لابد من المواساة والتخفيف ، قلت له: « تستطيع بعد خروجك أن تجد العمل المناسب فى الشركات أو الأعمال الحرة.. الوظيفة الحكومية قيد ، وليس فيها غير المظاهر الكاذبة والراتب الضئيل ، ولابد أن وزارة الداخلية سوف تساعدك ».

قال فى مرارة: « أنا لا أفكر فى ذلك »

– « فيم تفكر إذن؟ »

– « زوجتى.. زوجتى.. هل ستقبل الانتظار والعيش معى بعد ذلك؟ »

قلت فى دهشة: « إن كانت وفية مخلصة فستقف إلى جوارك حتى النهاية ، وهذا أمر يطمئن ، وإن كانت غير ذلك فلا تستحق البكاء عليها ..»

على الرغم من أن كلامى كان منطقيًا معقولاً ، إلا أنه كان فى حالة اضطراب نفسى شديد ، ويريد التشبث بزوجته مهما كان الأمر ، كان يحبها بجنون ، وعلمت أنها جميلة وغنية ومثقفة ، واستطعت بعد جهد جهيد أن أبعث فى نفسه قدرًا من الأمل.. وبمرور الأيام ألف الواقع المر ، وتكيف على الجو القائم فى السجن ، لكنه كان كثير الشرود ، يعود إلى الحديث معى عن زوجته كل يوم ، حتى جاء اليوم الذى كانت ترتعد فرائصه منه ، لقد طلبت زوجته الطلاق ، وهو حقها القانونى ، لكنه ثار وفار ، ورفض الموافقة على الطلاق ، فلجأت إلى القضاء كى تحرر نفسها من الحياة معه ، كان - وهو ضابط شرطة سابق - يعلم أن المحكمة ستحكم لصالحها ، لكنه كان يريد مضايقتها بتطويل الإجراءات ، ثم لجأ إلى الادعاء بأنها أخذت كذا وكذا ، وأنه يطلب استرداد هذه الأشياء ، وكثيرًا ما حاولت إقناعه بإسدال الستار على هذه القضية ، والموافقة على الطلاق ، لكن دون جدوى ، لقد تحول حبه العميق إلى كراهية بشعة ، لدرجة أنه كان يهدد بقتلها عندما يخرج من السجن ، وكنت أحاول بلباقة أن أشعره بأنه هو الذى أخطأ بقبوله الرشوة ، وأن القانون أعطاها الحق فى طلب الانفصال ، لكنه عمى عن إدراك الحقائق الجلية فى عنفوان غضبه وحقده ، وعدت أؤكد له: « ألم أقل لك أن امرأة كهذه لا تستحق الاستمساك بها؟ وكيف تصر على العيش مع إمرأة ترفضك على هذه الصورة ، وفى تلك المحنة؟ »

وكان يقول فى تعاسة: « الرشوة فى كل مكان.. لكن التعساء وسيئى الحظ هم الذين يقبض عليهم متلبسين.. الكبار والصغار يرتشون.. وأبوها من المرتشين الكبار.. وهى نفسها لم تكن تهتم بمصدر الأموال التى أشترى بها الهدايا لها ، هى تعلم أن مرتبى أصغر من ذلك بكثير.. كانت تعلم كل شىء.. إنها ملعونة.. لو كانت الرشوة سببًا للطلاق لكان فى البلد ملايين المطلقات الآن ..»

قلت له ذات صباح: « لماذا لا تؤدى الصلاة؟ .»

قال فى استهتار: « وما الفائدة؟ »

- « ستؤدى فرضًا ، وترضى ربك ، فقد يغفر لك ، وتشعر بالرضى والاطمئنان ..»

أدار وجهه بعيدًا عنى وقال: « لا أمل فى شىء.. العالم غابة.. والناس وحوش ..»

- « قد يكون الأمر كذلك.. لكن الاستمساك بحبل الله هو الأمل.. وبابه دائمًا مفتوح.. وهو الغفار والرحيم.. وأنت فى حاجة إلى الغفران وإلى الرحمة.. تلك هى الحقيقة.. وهى البداية الصحيحة لحياة جديدة.. ثم ماذا كنت فاعلًا لو أنك مكاني؟ تهمتى تافهة.. والادعاء تافه.. والحكم عشر سنوات سجنًا.. أتسمع؟ عشر سنوات سجنًا ..»

طأطأ رأسه وقال: « ليتنى مثلك!! »

- « كيف؟ »

- « أنت يمكنك أن تعتز وتفتخر بالتهمة الموجهة إليك.. أنت صاحب مبدأ.. أما أنا ..»

لم أجد ما أجيب به ، كان يدرك أبعاد الموقف جيدًا ، لكن عواطفه الثائرة ، تدفعه إلى العناد ، وكبرياءه العمياء ، تحرضه على التمادى فى الانتقام ، وكنت أدعو له بينى وبين نفسى أن يهديه الله إلى الصواب.. لكأن الله قد استجاب لدعائى ، إذ سمعته يقول وقد هدأت أعصابه: « حسنًا.. إن ما أريده

منك هو أن تعلمنى الوضوء والصلاة ..»

وشعرت بفرح غامر، لكنى تعجبت كيف لمسلم فى مثل هذه السن لا يعرف كيف يتوضأ أو يصلي؟ ألم يتعلم شيئًا من ذلك فى بيته أو فى المدرسة؟

ليس هذا فحسب، بل لاحظت أيضًا أنه لا يهتم بقراءة أى كتاب، ولا يفكر فى تصفح الجرائد اليومية أو المجلات، ولا يفهم فى الأمور العامة أو السياسة إلا الذى كان يلقن له من خلال رئاسته أثناء الخدمة، لكنى لاحظت أيضًا أنه «معلم» فى حبك الحيل والخداع والإغراء، وسبحان من جعل فى كل قلب ما يشغله، لقد تبين لى أن مثل هذا الصنف من الناس يعيش حياته الوظيفية من خلال التعليمات الرسمية الصادرة إليه، وليس لديه رصيد من الفكر كى يناقش أو يبدى رأيه، أو يطور العمل الحساس الذى يشارك فى أدائه..

أما الضابط الثالث فقد كانت حكايته طريفة، وجريمته أعجب، لقد كان ضابطًا فى الحرس الملكى، ومقربًا من الحاشية فى القصر، وعندما قامت الثورة صدر قرار بإحالته إلى التقاعد وهو برتبة صاغ «رائد»، لكنه قدم التماسات عديدة لمجلس قيادة الثورة، وأكد لهم أنه لم يشترك فى أى عمل يتنافى مع الكرامة والشرف أثناء خدمته فى القصر الملكى، وبعد أخذ ورد وافقوا على إلحاقه بوظيفة مرموقة فى إحدى المؤسسات الصحفية بمرتب مجزٍ، وبقى فيه حتى ارتكب جريمته.. وقصته كما رواها لى بنفسه هى أنه اشترى من شقيقته ثلاثة أفدنة ودفع لها الثمن، وعندما أراد استلام الأرض لزراعتها. اعترضه أخوه الأكبر – وهو من أعيان القرية – وأخبره أنه اشترى هذه الأرض نفسها قبله وسجلها فعلًا باسمه.. فجن جنون الضابط، وأنذر أخاه بأن هذا التلاعب والتزوير لن يؤدى إلا إلى الكوارث التى ستدمر الأسرة، وفى النهاية عرض الأمر على القضاء الذى حكم لصالح أخيه، فما كان من الضابط السابق إلا أن قام باختطاف ابن أخيه، وأخفاه فى مكان سرى، وقرر أنه لن يسلم الطفل لأخيه إلا إذا دفع ثمن الأرض أو سلمه الأفدنة الثلاثة، وبعد مفاوضات ووساطات وافق الأخ الأكبر على دفع مبلغ كبير من المال، وعند إتمام الاتفاق انقضت الشرطة وأمسكت بالضابط السابق متلبسًا.. ثم قدم للمحاكمة حيث حكم عليه بالسجن خمس سنوات تقريبًا..

كان يقول لى: «أنا لست قاطع طريق.. ولا زعيم عصابة.. لقد فشلت فى أخذ حقى بالحسنى، فاضطررت لأخذه بطريقة أخرى.. لم أكن أعلم أن أخى قد تواطأ مع النيابة والشرطة للإيقاع بى.. ويوم أن قبض على بكيت.. لكن أخى الأكبر لم يرحم صلة الرحم ولا الدموع.. هل كان من المعقول أن ألحق الأذى بابن أخي؟ إنه مثل ابنى تمامًا.. لكن العدالة كما يقولون معصوبة العينين.. أقسم لك أنى مظلوم.. مظلوم وجلال الله ..»

وفى السجن كل الناس «مظاليم»، ويصعب على أى إنسان أن يعرف الحقيقة، ولهذا فإن السجان لا يصدق أحدًا من المسجونين، ويرمى وراء ظهره بكل القصص والحكايات التى يسمعها، ولا يكترث للدموع التى يذرفها المظلومون.. فالسجن عالم من الشك والريبة والغموض.. وصدق الشاعر الذى يقول:

لا يدخل السجن إنسان فتسأله ما بال سجنك إلا قال مظلومُ

وهكذا يخيل للرائى أن السجن ليس فيه سوى المظلومين ، وأن خارج السجن هو العالم الواسع الذى يعج بالظلمة من البشر..

أما القضية التى هزت مشاعرنا ، فقد كانت قضية طالب الطب « ع » ، وقد اهتمت بها الصحف فى تلك الفترة ، ونشرتها بالتفصيل ، وكنا نتابع مراحل هذه القضية جلسة بعد جلسة ، فقد كان لطالب الطب « ع » صديق عزيز يدرس معه فى الكلية ، وكثيرًا ما كان « ع » يذهب إليه فى منزله ليذاكر معه حيث يسكن هو وأمه وحيدين بعد أن مات والده ، ولم يكن أحد يتصور أن « ع » يمكنه أن يقع فى حب أم صديقه ، لكن هذا ما حدث بالفعل ، وتسلل ذات يوم إلى بيت صديقه فى غيبته ، وأخذ يطارح الأم الغرام ، فصدته بعنف ووجهت إليه أشد اللوم ، لكنه لم يرتدع ، فهددته بالكشف عن نذالته أمام أهله وأمام ابنها ، غير أنه استمر فى تذلله وإبداء حبه ، وعدم القدرة على العيش بدونها ، ولما يئس منها أخرج مسدسه وأفرغ فى السيدة المسكينة عددًا من الرصاصات القاتلة ، وبالطبع قبض عليه وقدم للمحاكمة..

كان وقع الحادث أليمًا بالنسبة لأبيه الأستاذ الجامعى والذى يحظى بالاحترام والتقدير ، كما كان أشد إيلامًا بالنسبة لأمه ، التى ماتت بعد فترة وجيزة. وفى نهاية المطاف حكم على « ع » بالسجن خمسة عشر عامًا « أشغال شاقة » ، عندئذ سقط مغشيًا عليه فى قفص الاتهام ، وعندما حاول مصورو الصحف التقاط صورة له ، تصدى لهم أحد أشقائه وكان يعمل ضابطًا بالمخابرات العامة ، وانتزع منهم آلات التصوير وأتلف الأفلام على مرأى ومسمع من هيئة المحكمة والنظارة ، واحتجت الصحف فى اليوم التالى ، المهم أن المتهم نقل على الفور إلى مستشفى سجن القاهرة لعلاجه من أثر الصدمة قبل ترحيله إلى « ليمان طرة » ليقطع الصخر فى الجبل ، ولم نستطع أن نمنع أنفسنا من الهرولة إلى المستشفى لنشاهد هذا الشاب العجيب التصرفات.. كان كما هو متوقع منهارًا يبكى ، ولا يستطيع أن يتصور أن مستقبله قد دمر ، وأنه سوف يقضى خمسة عشر عامًا بين القتلة والسفاحين فى محاجر ليمان طرة ، وأخذ كالعادة يزعم أنه مظلوم وأنه لم يكن يقصد قتلها.. وأنها هى التى أغوته وحطمت حياته.. وأخيرًا اتهم القاضى بالظلم والتحيز ، وكان متواجدًا معنا الأخ الصديق السجين عبد الوهاب السقا ، فسدد إلى « ع » الراقد على السرير نظرات احتقار ، وقال له فى حدة: « فعلًا القاضى قد يكون متحيزًا.. لكن لصالحك »

- « كيف؟ »

- « لأنك تستحق الإعدام .. »

فأسرعنا بإبعاد عبد الوهاب بعيدًا عنه وهو يزمجر ويتحدث عن بشاعة الجرم ، ويستغرب تلك الأحكام المخففة التى تصدر فى مثل هذه القضايا الواضحة مع توفر الدليل والاعتراف والقصد الجنائى ، والحقيقة أن القاضى يطبق القانون مستندًا - فى تكييف القضية - على ما يراه من أدلة ووقائع ، وللمحامين حيل عديدة فى النيل من تصور الادعاء ، وبيانات الشهود ، وتلقين المتهم بعض الأقوال التى تخفف من الحكم المتوقع..

الحقيقة أننى التقيت ساعات طوالًا مع المسجون « ع » ، وكنت أشفق عليه من الحديث والتلميح

عن القضية ، ولم أستطع أن أكتشف أمورًا تساعدنى على اكتشاف بواعث الجريمة ، لكنه بالتأكيد مندفع وعاطفى فى تصرفاته ، ويحاول دائمًا أن يعلق أو يدلى بوجهة نظر فى الموضوعات ، قبل أن تكتمل الصورة بأبعادها المختلفة في ذهنه... وبعد بضعة أسابيع رحل عنا إلى « ليمان طرة ».. ولم نعد نسمع عنه شيئًا ، وذات يوم بعد أن أفرج عنى من السجن ، كنت أتصفح جريدة الأهرام ، فقرأت فى صفحة داخلية خبرًا صغيرًا داخل مربع جاء فيه: أن طالب الطب السجين « ع » قد ألقى بنفسه من الدور الرابع فى أحد مبانى سجن طرة وأسلم الروح على الفور.

أما والده الأستاذ الدكتور الجامعى ، فقد علمت أنه بينما كان يلقى إحدى محاضراته فى المدرج الكبير ، سقط ميتًا إثر نوبة قلبية مباغتة.. وهكذا أسدل الستار على واحدة من المآسى العديدة التى تحدث فى مجتمعنا كل يوم ، ولا تخلف وراءها سوى الحسرة والألم..

وننتقل بالحديث من طالب الطب ، إلى اثنين من شباب الأطباء ، كانت لهما أيضًا قضية مثيرة ، تناولتها الصحف فى حينها ، فقد كانا على علاقة آثمة بإحدى الممرضات كانت تعمل معهما فى عيادتهما ، وعندما اكتشفت الحمل فكرًا فى إجراء « كحت وتفريغ » - « إجهاض » لها كى يتخلصا من الجنين ، لكنها أصيبت بالنزيف أثناء العملية الجراحية ، مما اقتضى إجراء نقل دم بأسرع ما يمكن ، واستعانا بأحد الأطباء المتخصصين ، لكن الممرضة أسلمت الروح بعد أن اتهمتهما ، فأبلغ الطبيب المختص عنهما وسيقا إلى المحاكمة التى حكمت عليهما بالسجن عامين لواحد وثلاثة أعوام للآخر ، مع فصلهما من الخدمة ، كما سحبت النقابة العامة للأطباء منهما تصريح مزاولة المهنة..

وأمام مكتبة السجن التقيت برجل وقور أشيب الشعر ، يلبس ملابسه المدنية الأنيقة ، ويضع الطربوش على رأسه ، وكنت أشعر بالعطف والألم لهذا الرجل المسن الوقور ، ولم أجرؤ على سؤاله عن الاتهام الموجه إليه ، والذى يحاكم بسببه آنذاك ، وذات مرة كنت أتصفح مجلة « البوليس » ووقعت عينى على صورة كبيرة بالألوان لنفس الرجل العجوز ، وتحتل الصورة نصف الصفحة طوليًا ، ومكتوب إلى جواره عنوان بارز يقول: « إمبراطور النصب فى الشرق » لم أصدق ما أرى.. أيمكن أن يكون هذا الوجه الطيب البرىء الذى يشبه وجه جدى فى طيبته وصلاحه أيمكن أن يكون وجه نصاب كبير؟ وأخذت ألتهم كلمات التحقيق الصحفى التهامًا.. وسائل غريبة.. لا من حيث النوع أو المبالغ الضخمة فحسب ، بل من حيث عدد الجرائم أيضًا..

وفى مرة أخرى أشار الأخ الصديق محمود عجوة إلى رجل يجلس فى الشمس مع زمرة من المسجونين المتقدمين فى السن وقال: « انظر إلى هذا الرجل.. وقل ماذا تلاحظ عليه »

نظرت ، وقلت: « لا شىء.. إنه مثل من يجلسون معه ، لا فرق بينه وبينهم ..»

قال: - « إنه مدير عام بإحدى الوزارات الهامة ، اختلس عشرين ألفًا من الجنيهات « وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت » ، وحكم عليه بالسجن أربع سنوات.. أكان هذا الرجل يومًا مديرًا عامًا ، يجلس على مكتب أنيق ، ويتحلق حوله الموظفون وطاقم السكرتارية والسعادة وكبار الزوار؟ أكاد لا أصدق.. لقد مسخه السجن مسخًا شديدًا ، وها هو يلبس رداء متسخًا كالحًا أزرق اللون ، يتفق تمامًا مع ذقنه غير الحليق ، ووجهه المتهدل ، وعينيه ذات الزوايا الحمراء الملتهبة ، ثم جاء السجان وأخذ يدفعهم باحتقار

وإهمال كى يذهبوا إلى «العنبر».. يا إلهى اللعنة على المال الحرام الذى يستعبد الإنسان، ويسقط هيبته، ويدمر مظهره ومخبره..». وأمام المكتبة أيضًا كان يعقد مؤتمر لكبار اللصوص المسجونين كل صباح، يناقشون فيه أهم القضايا الجديدة التى ضبطتها الشرطة، وأسباب فشل عملية السرقة أو السطو، ويستخلصون العبر من هذه الحوادث اليومية التى ترد إلى السجن، وكنت تشعر وأنت تستمع إلى أحاديثهم وأفكارهم أنك أمام مجموعة من المختصين والخبراء المحترفين حتى لكأن اللصوصية نشاط وطنى اجتماعى له أحكامه وتقاليده ومبرراته، ولا تسمع منهم كلمة حرام أو حلال، ويبدو أنهم ينظرون إلى اللصوصية كمهنة تحتاج إلى موهبة وفن، وليست انحرافًا خطيرًا يبعث على التقزز والتستر.

أما تجارة المخدرات داخل السجن فهى على أشدها، فأصحاب المزاج يجدون ألف حيلة وحيلة للحصول على الأفيون والحشيش، بل والخمر أيضًا، والتجار - أو المعلم الكبير - معروف لجميع المسجونين، بل وللسجانة أيضًا، والدليل على ذلك أنهم يفاجئون مروجى المخدرات داخل السجن من آن لآخر، وكثيرًا ما يكون المروّج على علم مسبق بالحملة، ولقد أشرت إلى هذه الظاهرة بشىء من التفصيل فى كتاب لى عن السجون بعنوان «المجتمع المريض»، وكان المتهمون فى قضايا المخدرات - كما سبق وأشرت - يلتقون بى كثيرًا، لأننى كنت أكتب بعض القصص عن هذه السموم فى مجلة السجون، وأتعرض لحياتهم وسلوكهم بشىء من الدقة، مما جعل أحد زعمائهم يقول عنى: «هذا المسجون يعرف الكثير عنا، ولو بحثنا وراءه لتبين لنا أنه «صاحب مزاج ...» وحاولوا دعوتى على مأدبة غداء فى يوم عيد، وبعد الأكل همس أحدهم فى أذنى قائلًا: «الصنف موجود»، وانفجرت ضاحكًا.. وأكدت لهم أننى لم أجرب هذه الأشياء طول حياتى، وأن ما أكتبه عنهم إنما أستمد حقائقه من الدراسات الطبية عن المخدرات فى علوم الفاركولوجيا والطب الشرعى.. وعلى الرغم من الأيمان المغلظة التى كنت أقسم بها على صدق كلامى، إلا أننى كنت أقرأ الشك فى عيونهم..»

❁❁❁

[١٤] مهرجان الحرية المؤقتة:



لا أنسى ما حييت ذلك المفكر الهمام الكبير الأستاذ «أمين الخولى»، وهو واحد من الأساتذة المجددين فى الجامعة، وأصحاب الرأى الحر، والبحث العميق، ورئيس جمعية الأمناء، وكان يصدر فى هذه الفترة مجلة «الأدب»، وقد أفسح الرجل رحمه الله مكانًا لى فى هذه المجلة أكتب فيه الشعر أو القصة وأنا سجين، بل أرسل إلى خطابًا مؤثرًا ما زلت أحتفظ به، بدأه بقوله «تحية إليك فى معقلك»، وكلمة المعقل - وليس المعتقل - تحمل الكثير، ثم استطرد قائلًا: «إن الفلك دوّار، ولم يدق فيه مسمار».

الحقيقة أننى شعرت بالارتياح لرسالته العميقة الشجاعة، لأن من يغامر فى تلك الفترة ويتصل أو يراسل سجينًا يعرض نفسه فيها لمشاكل لا حصر لها، ولقد حرصت بعد خروجى من السجن على الاتصال بهذا المربى الأصيل، وبحرمه السيدة الدكتورة بنت الشاطئ، وما أكثر ما ذهبت إليه فى بيته بمصر الجديدة؛ كما كان حريصًا على أن يدعونى إلى الحفل السنوى الذى تقيمه مجلة «الأدب» كل عام.

ولقد تعرض الرجل لأزمة صحية شديدة، إذ أصيب بورم فى المصران الغليظ، وأجريت له عملية جراحية كبيرة، وأشهد أن الرجل فى محنته المرضية كان مؤمنًا قويًا باسمًا دائمًا، لا يرهب الموت، ولا ترتعد فرائصه أمام مرض خطير كهذا، وقد شفى بعد ذلك، لكنى أعتقد أن وفاته بعد ذلك ربما تكون بسبب هذا المرض نفسه.

وكان على فى تلك الفترة أن أخطط بصورة أدق وأوسع لحياتى فى السجن ما دام الأمل فى الإفراج لم يتحقق، ولهذا أعددت عددًا من المشروعات الأدبية منها ما يتعلق بالكتابة، ومنها ما يتعلق بدراسة بعض العلوم الإنسانية والموضوعات الإسلامية التى أرانى فى حاجة إلى الاستزادة منها، والمسئولية تكبر وتثقل كلما حققت خطوة فى طريق النجاح، وكلما ازدادت مؤلفاتك انتشارًا، وخاصة أن النقاد - وهم لا يرحمون - بدءوا النظر الدقيق فيما أكتب.. إن النجاح يؤدى إلى مزيد من القلق، والمضى قدمًا يحتاج إلى عرق وسهر وصبر وأناة..

كان الأخ السجين البكباشى حسين حمودة أحد ضباط الإخوان الذين ساهموا بجهد مشكور يوم قيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، وقد شرح هو بنفسه دوره وعلاقاته وتاريخه مع الثورة فى كتاب صدر عن دار الزهراء بالقاهرة مؤخرًا، ونظرًا لاستمساكه بوجهة النظر الإخوانية فقد غضب ضباط القيادة منه، وأدخلوه فى زمرة المقدمين للمحاكمة من الإخوان المسلمين، وحكم عليه بالأشغال الشاقة هو والبكباشى فؤاد جاسر، والصاغ جمال ربيع وغيرهم، وعاش حسين حمودة فى سجن الواحات بالصحراء مع إخوانه بضع سنين، ثم نقل فى عام ١٩٥٨ إلى سجن القاهرة معنا، وذات يوم استدعى حسين حمودة وكان الوقت بعد العصر، ثم حان موعد التمام، وأغلقت الزنازين، وانصرف سجانة النهار، وجاء بعدهم خفر الليل.. لكن حسين حمودة لم يعد.. وأخذنا نضرب أخماسًا فى أسداس،

ترى أين ذهب؟ هل أخذوه إلى إحدى المستشفيات؟ لكنه والحمد لله لم يكن مريضًا ، هل رحلوه إلى سجن آخر؟ ليس هناك ما يدعو إلى ذلك ، الحقيقة أن ذهاب حسين هكذا فجأة أثار العديد من التساؤلات المقلقة.

وفى حوالى العاشرة والنصف صباحًا وجدنا حسين حمودة يدخل علينا عنبر « ج » مرتديًا أفخر ثيابه ، إذن قد خلع لباس السجن ، وارتدى بدلة مدنية ، فتجمهر الإخوان حوله وهم يتساءلون: « ماذا جرى؟ »

وأخذ يشرح كيف جاء أحد ضباط الداخلية الكبار مساء أمس ومعه عدد من الحرس ، وكيف ساروا به فى شوارع المدينة ، ثم أدخلوه أحد الأمكنة ، وهناك وجد وزير الداخلية زكريا محيى الدين جالسًا فى انتظاره ، وتعانق الإخوة الأعداء ، وأعادا ذكريات الصداقة القديمة والكفاح الطويل ، كان حسين مبهورًا لا يكاد يصدق ما يجرى ، وقال له زكريا محيى الدين حسب روايته: « لم يكن فى إمكاننا كثورة أن نواصل مسيرتنا وننفذ خططنا وأنتم تعارضوننا وتتصدون لنا ، ومن ثم لم يكن هناك مناص من حجزكم فى السجن فترة حتى لا ننشغل بمعارك ثانوية.. والآن قد استقرت الأمور ، وأستطيع أن أقول لك ، مبروك ، لقد أمر الرئيس بالإفراج عنك.. وتستطيع الآن أن تذهب إلى بيتك ..»

كنا نستمع إلى حسين فى ذهول ، لم يتركنا حسين لكى نناقش ونستنتج ونستقرأ الأحداث المفاجئة ، فاستطرد قائلًا: « وقد أخبرنى الوزير أن الإفراجات عنكم ستتوالى تباعًا ..»

الإفراج بالنسبة للسجين السياسى حلم ، وهو لا يأتى عادة إلا وسط دراما مثيرة ، فقد يخرج السجين السياسى غدًا ، وقد يبقى سنوات طوالًا ، وقد لا يخرج أبدًا ، إذ إن العبرة ليست بالحكم الصادر فى حقه ، ولكن الأمر يتوقف على الوضع السياسى العام ، وتطور الأحداث ومدى المعارضة وما فيها من لين أو شدة ، ولهذا فإن الإفراج عن حسين حمودة على هذا النحو قد هزنا هزًا من الأعماق.

ولم تكد تمر أيام قليلة حتى أفرج عن معظم ضباط البحرية الذين كانوا مسجونين معنا على ذمة قضيتنا ، وكذلك أطلق سراح عدد من الضباط الآخرين منهم جمال ربيع ونجيب عطية وفؤاد جاسر ، ثم توالت الإفراجات بأعداد قليلة فى سجن أسيوط ، وسجن بنى سويف ، ثم توقفت فجأة ، ولم تدم الفرحة طويلًا ، وأخذت الشكوك تراودنا من جديد ، إن ما جرى من إفراجات ليست له صفة الإفراج العام ، أو العفو الشامل ، لكنها جاءت كعينات منتخبة محدودة..

فى هذا الأثناء استدعانى الصديق الضابط سمير قلادة لأتسلم من المكاتب طردًا من الكتب كنت قد أوصيت أهلى بشرائها ، وحينما كنت جالسًا فى مكتب الإدارة كان يتواجد به حوالى أربعة ضباط ، وفجأة سمعت أحدهم يقول لى: « ما رأيك فى الثورة؟ »

ارتج الأمر على ، ولم أدر بماذا أجيب ، فابتسمت فى اضطراب وقلت: « أهو تحقيق يا « زايد » بك؟ »

قال: « لا والله.. وإنما أردت أن أستمع إلى رأى مفكر مثلك ..»

كان من الصعب أن أراوغ أو أصمت ، كما كان من غير اللائق أن أثنى على الثورة على طول الخط ، فسوف يدركون أنى أخدعهم ، وكان من الخطر أيضًا أن أشن على الثورة هجومًا يورطنى فيما هو أكبر وأنا ما زلت سجينًا ، عندئذ فكرت وتمالكت أعصابى وقلت بمنتهى الوضوح: « من الخطأ أن أصدر رأيًا واحدًا شاملًا على الثورة ..»

قال : والضباط من حولنا يتابعون الحوار – وهو يبتسم: « كيف ذلك؟ »

قلت: « إن الحكم الصحيح على الثورة لابد وأن يكون مجزءًا.. أو يتناول كل قضية على حدة.. ودعنى أشرح لك الأمر بضرب الأمثلة.. إخراج الإنجليز من مصر عمل عظيم.. وكذلك تأميم قناة السويس، وخطوات التصنيع، أما موضوع الحريات العامة والمحاكم الاستثنائية، وبقاؤنا فى السجن، والمعاملة التى عوملنا بها.. فهذه أمور سيئة لا يقرها عدل.. ذلك هو حكمى على تقييم الثورة.. أشياء طيبة، وأشياء أخرى على النقيض.. ولا أستطيع أن أقول غير ذلك.. ولا مجال للتفصيل.. وكل لبيب بالإشارة يفهم ». وتبادل السادة الضباط النظرات، وعلق الضابط زايد قائلًا: « كلام منطقى معقول، ولا خلاف عليه ..» ، قال ضابط آخر: « لقد كنا نتوقع أنك ستكون من أوائل المفرج عنهم ..»

فقلت وأنا أهم بالخروج: « الأمر لله ما شاء يفعل ..»

والواقع أن خروج البعض منا فتح شهيتنا للرغبة فى الحرية، وكثرت الأقاويل والتحليلات السياسية، فهناك من قال أن الثورة تحاول إرضاء الضباط المحبوسين فى البداية، وتجعل لهم الأسبقية فى الإفراج، وهناك من قال أن المجموعة التى خرجت لم تصطدم بالإدارة أو توجه انتقادات جارحة للحكومة أثناء فترة السجن، وهناك من أشار أيضًا إلى احتمال وجود « واسطة » من شخصيات كبيرة بالنسبة للبعض، وتعبنا من كثرة الكلام والتحليلات.. فآثرنا العودة إلى ما كنا فيه قبل حركة الإفراج المحدودة التى مرت بسرعة..

وجاء أبى متلهفًا لزيارتى وليسألنى عن مصيرى، قلت باسمًا: ما المسئول بأعلم من السائل، وقد وعد خالى اللواء منذ شهور بأننى سأكون من أوائل المفرج عنهم بإذن الله، ولكن وعده لم يتحقق، وبان الضيق والغضب على وجه أبى الذى ازدادت تجاعيد وجهه عمقًا وعددًا، ولم يعلق بكلمة، كنت أقرأ كل ما يريد قوله على وجهه الطيب وعينيه الحائرتين.

وخرجت ذات يوم إلى القصر العينى لمتابعة العلاج بقسم العظام، وفى هذا اليوم جاء لأول مرة جدى محمود وهو عم والدتى، وكان رجلًا متقدمًا فى السن، كما جاء أبى أيضًا للزيارة ومعه أخى الصديق الأستاذ مصطفى عبد الحافظ. وكان طالبًا آنذاك فى كلية اللغة العربية، ويرتدى زيه الأزهرى المميز، وأثناء جلسة العلاج، وكانوا جميعًا يجلسون إلى جوارى قدم ضابط الحراسة وسألنى: « هل أنت فلان؟ ». قلت: « نعم »

قال: « أنت مطلوب للسجن حالًا »

ودق قلبى.. آه يا قلبى المعنّى!! دائمًا تعيش بين الخوف والرجاء، واليأس والأمل، مضطربًا هائمًا كطائر يعلو ويعلو حتى يعانق السحاب، ويهبط ويهبط حتى يصطدم بصلابة الأرض وقسوتها..

قال لى الضابط مسرعًا: « هيا حتى أوصلك ثم أعود لباقى إخوانك المسجونين ..»

وحينما أراد الضابط أن يعلق الأغلال « الكلبشات » على يدى كما هو متبع، انحشرت فيها قطعة من جلدى فانسكبت قطرات من دماء، تأوهت دون وعى، فقال الضابط فى ارتباك: « آسف.. يبدو أننى تعجلت.. هل تحتاج إلى ضماد؟ »

قلت: « لا داعى فالإصابة سطحية ..»

كنت شاردًا طوال الطريق، لم يكن يعلق ببصرى شىء من المشاهد العديدة التى تتوالى على مع أنى كنت أركب سيارة مكشوفة ويجلس إلى جوارى شرطى حراسة واحد، يبدو على وجهه أن الأمر لا يعنيه فى شىء.

تطلعت إلى باب السجن من بعيد، كان يقف أمامه ضابط طويل القامة، كبير المقام، وما إن

اقتربت حتى تبينت أنه القائمقام إبراهيم عزت، وعندما رآنى ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، فوثبت من فوق السيارة، فإذا به يستقبلنى فاتحًا ذراعيه ويقول: « مبروك يا بنى.. لقد صدر أمر بالإفراج عنك ..» احتضننى الرجل الطيب، ذو الوجه الأبيض، والابتسامة الحلوة، والشيب الوقور، وطبع قبلته الأبوية على جبينى، لقد امتلأت عيناى بالدموع، وعجزت تمامًا عن النطق، كنت أتحرك كالآلة، أخذنى نائب المدير إلى مكتب المدير، حيث يتواجد معظم الضباط، وتسابقوا فى تقديم التحية إلى، وكان المدير يقف على مقربة من مكتبه، ولاحظت وجود رجل غريب يرتدى الزى المدنى يجلس مكان المدير، وكان يشهد الترحيب والتهانى بكثير من الاهتمام، قلت فى نفسى لعله ضيف طارئ، ولم أركز كثيرًا على ملامح وجهه، ودهشت إذ سمعت هذا الضيف يقول مبتسمًا: « ما دمتم تحبونه هذا الحب الشديد، فسوف نبقيه معكم ولا داعى إذن للإفراج عنه ..»... وضحكوا.. وشاركتهم الضحك.. ونظرت إلى وجه الرجل الضيف.. من هو؟ لقد رأيت هذا الوجه من قبل.. أين؟ أين؟ ولم تطل حيرتى فقد قال المدير: « أحمد بك صالح داود ...»

وانتبهت تمامًا.. إنه هو.. الرجل الذى كان له دور كبير فى عنف التحقيقات التى جرت فى السجن الحربى، كان اسمه يبعث الرعب فى النفوس، ها هو يجلس أمامى مبتسمًا هادئًا وكأن لم يحدث شيء.. وتمالكت أعصابى قال: « هل تعرفني؟ »

- « بالطبع ...»
- « لم تنس بعد ..»

لم تكن حالتى النفسية تسمح بالبحث وراء الكلمات التى يتفوه بها، ولا النظرات الثاقبة التى يسددها إلى، وعاد يقول وهو يعبث بشيء فى يده لا أذكر ما هو: « البلد ليست بلد جمال عبد الناصر وحده.. ولكنها بلدكم أيضًا ..»

كنت أقف « انتباه » كأحد العساكر الجدد فى معسكر للتدريب، ورددت باقتضاب: « نعم ..»

فاستطرد: « والرئيس لا يحب أن يحبس أو يعتقل الكفاءات الممتازة ..»

- « نعم »
- « ولهذا أمر بالإفراج عنك ..»
- « متشكر يا فندم ..»
- « ويجب أن تنسى ما مضى، وتبدأ حياة جديدة.. أنت لم تخسر الكثير، بل استفدت خبرات ودروسًا ..» . وأضاف وهو يبتسم: « وجوائز أدبية ضخمة.. وأصبح لك اسم معروف فى عالم الأدب.. ولقد كان ملفك بين يدى خلال الأيام الماضية.. وكل السجون التى عشت فيها تشهد لك بحسن الخلق ..»

واختتم حديثه بقوله: « وأنا مكلف بأن أحل لك أى مشكلة تعترضك فى الخارج.. لكن لا تنس أنك ستخرج إفراجًا صحيًا.. أتعرف معنى الإفراج الصحي؟ معناه أن نعيدك إلى السجن إذا ما صدر منك أى تصرف خاطيء، بحجة أن صحتك قد تحسنت.. وهكذا ستظل معلقًا بكلمة منا.. تذكر أنه ليس عفوًا شاملًا، ولكنه إفراج صحى ..». وأعطونى إذنًا بالانصراف..

خرجت من مكتب المدير، وخطواتى مرتبكة، والعرق يسيل على وجهى رغم أننا فى الثلث الأخير من شهر نوفمبر، وفى فناء السجن لحق بى الضابط سمير قلادة الصديق المخلص وقال: « أنا كنت أول من قدم البشرى لوالدك.. إنه - وعدد من أهلك - بباب السجن، وقد سألنى عما يجرى،

وأخبرته أنه سيتم الإفراج عنك فى خلال يومين أو ثلاثة ، وأخبرته أن يحضر لك بدلة وحذاء والذى منه ..». كان سعيدًا جدًا لنبأ الإفراج عنى ، وأخذ على عهدًا أن أقبل دعوته لتناول الغداء فى منزل أسرته بمصر الجديدة بعد خروجى ، فرحبت على الفور ، وصحبنى حتى باب العنبر ، كان السجناء غير السياسيين يلتقون فى الطريق ، ويقدمون التهانى ، وعندما صعدت إلى الطابق الثانى بعنبر « ج » تزاحم الإخوان من حولى مهنيئن ، ولم أستطع كبح مشاعرى فانهمرت من عينى الدموع..

قال أحد الإخوة: « لماذا البكاء؟ »

- « كنت أتمنى أن نخرج جميعًا ..»

- « أنت اليوم.. وغدًا غيرك.. كلها آجال ..»

جلست فى غرفتى صامتًا استعيد ما تشتت من مشاعرى وأفكارى ، وأطل السجان الأسمر بوجهه الباسم على من الباب قائلا: « لا تنس الحلاوة.. نحن حلاوتنا كبيرة جدًا.. أكلنا معك عيش السجن.. أم أنك لن تهتم بنا عندما تلبس الملابس المدنية وتصير دكتورًا؟ »

- « من عينى يا شاويش محمد »

وعلمت أن أربعة من الإخوة سيخرجون معى فى نفس اللحظة وهم سمير فهمى الغندور طالب الطب البيطرى ابن الأميرالاى فهمى الغندور المفتش العام بوزارة الداخلية ، وعبد الرحمن شفيق الطالب بكلية العلوم ابن العلامة المتخصص فى اللغة والأدب وشارح بعض الدواوين الشعرية الهامة ، والأخ عبد الوهاب السقا ، وأخ رابع لا أتذكره الآن...

فى اليوم التالى قدمت إلى السجن « لجنة طبية » مشكلة من عدد من الأطباء لفحصنا طبيًا ، وتقرير الإفراج الصحى ، وكان الموضوع مجرد إجراء شكلى ليس إلا ، وجلست أمام اللجنة ، وأخذوا يوجهون إلى بعض الأسئلة وهم يكتبون دون أن ينتظروا إجاباتى ، أخبرتهم أنى مصاب بالتهاب عظمى مفصلى فى الركبتين ، وبواسير نازفة ، وضعف فى كفاءة الكبد وغير ذلك من الأعراض أو العلامات التى كنت أعانى منها فعلًا... وفى نفس اليوم جاء أبى لزيارتى ، ومعه بدلة جديدة وملابس داخلية وحذاء ، وكانت السعادة تغمر وجهه الطيب ، وقال جدى العجوز محمود: « لقد تصادف الإفراج عنك فى أول زيارة أزورك فيها.. وهذا من فضل الله ..»

وفى اليوم الثالث بقى أبى منذ الصباح أمام السجن ، كان يصلى ويأكل وهو جالس على مقهى شعبى صغير مقابل السجن العتيد ، وكان سمير قلادة يذهب من وقت لآخر إليه ليجامله ببعض القهوة أو الشاى.

حانت لحظة الخروج مساءً بعد صلاة العشاء ، وودعت أعز الأحباب داخل السجن وأنا أبكى من جديد ، كنت أشعر أن فرحتى ناقصة ، وأننى لن أستطيع مهما فعلت أن أمحو صورة هؤلاء الأحباب - بأرديتهم الزرقاء ووجوههم النحيلة الشاحبة داخل الزنازين - من ذاكرتى ، لقد ترسخت مشاهد السجن فى روحى وعقلى ، حتى إننى بعد ذلك لا أكاد أكتب رواية إلا وفيها شىء من ذلك إلا النادر. عندما خطوت إلى الخارج ، كان هناك حشد كبير من الرجال والنسوة والأطفال ، وانطلقت الزغاريد ، وامتدت الأيدى ، واختلطت الكلمات ، لم أكن أستطيع أن أفرق بين أهلى وغيرهم من أهالى الإخوان الآخرين.. وبحثت عن أبى ، وأشاروا إلى مكان قريب.. كان يفترش عباءته الصوفية ، ويصلى لله شكرًا.. كانت عمامته البيضاء تشع فى الضوء الخافت ، وجبهته ساجدة على أرض الله ، وانتظرنا لحظات حتى انتهى أبى من صلاته ، ثم قدم نحوى ، واحتضننى بيدين واهنتين ، وكان التعبير عن فرحته

بالدموع التى تسيل صامتة على وجهه المغضن.. إننى أبكى الآن وأنا أسجل هذه الكلمات.... و...

واقتضت الرسميات أن توضع الأغلال فى أيدينا ، لكى ننتقل إلى وزارة الداخلية ، ودخل موكب السيارات إلى الساحة الكبيرة ، وصحبنا الضابط إلى المكاتب الداخلية ، كان أحمد بك صالح داود يجلس فى مكتبه الصامد وأمامه عدد من التعهدات التى يجب أن أوقع عليها ، وهذه التعهدات تشمل عدم الاشتغال بالسياسة حيث إننا معزولون سياسيًا ، وعدم الاتصال بأعضاء الإخوان المسلمين الذى سبق اعتقالهم أو سجنهم أو قيامهم بأنشطة قديمة ، وضرورة إبلاغ المباحث العامة عن أى سفر من مقر الإقامة أو إليها قبل أن يبدأ السفر بوقت كاف ، وعدم تغيير السكن أو عنوان العمل إلا بعد الاتصال بمكتب المباحث المختص.. وخرجنا من المباحث العامة بميدان « لاظوغلى ».. شعرت أننى أتنفس هواء جديدًا لأول مرة.. الهواء هو الهواء.. لكن هكذا خيل إلى.. وذهبنا إلى بيت خالى الأستاذ عبد الرافع الشافعى بمصر الجديدة حيث احتشد الأهل والأقارب والمعارف الموجودين فى القاهرة والقادمون من القرية.. وبعد التهانى والتبريكات وقف خالى ، رحمه الله ، وسمى بسم الله ، وأثنى على ثم قال: « نحن لا نحتفل بخروجك من السجن ، ولكننا نحتفل بتخرجك من جامعة.. وسوف تكون السنوات التى قضيتها داخل الأسوار وأنت تعانى وتتألم ستكون مصدرًا لعطاء وفير ، وخبرات فذة ، وستؤثر على أفكارك ومسيرتك فى الحياة أعمق تأثير.. وسيكون ذلك كله خيرًا إن شاء الله.. وأنت ضربت أروع المثل فى صبرك ، وفى محاولاتك العديدة للتغلب على الصعاب والعقبات ..»

هذا بعض ما تذكرته من كلماته المؤثرة ، ثم مدت الموائد ، وتناولنا طعام العشاء ، وبعد انقضاء السهرة كان على أن أذهب لأنام ، فغدا أمامنا سفر ليس بالقصير على قريتنا التى تبعد عن القاهرة أكثر من تسعين كيلو مترًا.. لكننى تسللت فى نفس الليلة مع أحد أقربائى وزرت العالم الوقور الجليل الشيخ محمود شاهين والد زوجتى فيما بعد.

فى اليوم التالى وصلنا إلى القرية بعد العصر أو قبيل المغرب بقليل ، وعند القنطرة الغربية التى تؤدى إلى داخل قريتنا شرشابه رأيت حشدًا هائلًا من أهل البلدة.. كانت السيارات تشق طريقها بصعوبة.. إنه مشهد لم أره طول حياتى بعد ذلك.. لم أكن زعيمًا من الزعماء ، ولا عضوًا فى البرلمان ، ولا حتى موظفًا ذا شأن.. مجرد طالب فى كلية الطب.. وابن رجل فقير يشتغل بالزراعة.. وتلك هى القرية.. حب.. وتلاحم ، إخلاص ووفاء ، فطرة صادقة ترفض الظلم ، وعندما يدخل الفرح بيتًا تفرح القرية كلها ، وعندما يلامس الحزن قلوب أسرة من الأسر ، تحزن القرية كلها.. الهتافات تشق عنان السماء.. وزغاريد النسوة تملأ سماء القرية.. عندها عاهدت الله بينى وبين نفسى أن أعيش خادمًا لهذه القرية الأمينة الآمنة ، وعندما تخرجت طبيبًا فيما بعد قررت أن يكون عملى فى هذه القرية ، وأن أقدم خدماتى دون مقابل ليلًا ونهارًا.. مما أرهقنى وأرهق الذين أتوا للعمل كأطباء بعدى ، وقد سجلت بعضًا من ذلك فى رواية « الذين يحترقون ». وقد أعدّت الوالدة رحمها الله مجموعة من الأغانى الشعبية بهذه المناسبة ، وكانت الفلاحات يرددنها وهن يطفن شوارع القرية فى تلك الليلة المشهودة ، على الرغم من وجود عدد كبير من الشرطة السرية فيها..

كان خروجى بالنسبة لأهل القرية يعتبر أمرًا غريبًا غاية الغرابة ، فلم يحدث فى تاريخها قط أن خرج سجين دون أن يكمل المدة القانونية للسجن ، وهم فى تلك الأيام لا يعرفون الفرق بين السجين السياسى وغير السياسى ، ولهذا نظروا إلى خروجى نظرتهم إلى شىء غير مألوف.. وأرجعوه فى النهاية إلى لطف الله وقدرته وعظمته..

وبقيت حتى منتصف الليل واقفًا على قدمى أستقبل الفلاحين فى « الدوار الكبير » وكل واحد يصر على معانقتى وتقبيلى حتى تسلخت أجزاء من بشرة وجهى ، لكننى كنت سعيدًا بهذا الحب الذى لا يقدر بذهب الدنيا كلها ، وفى اليوم التالى قدم أهالى القرى المجاورة كفر السنادية ، كفر حسين ، ميت المخلص ، كفر الجزيرة ، ميت ميمون ، شنراق ، السنطة ، سنباط وكفر العرب.. وبقيت على هذا الحال أسبوعًا. وبعد عشرة أيام تقريبًا أخبرت أبى بأنى لابد أن أعود للقاهرة كى أستكمل دراستى فى كلية الطب القصر العينى ، وأواصل المسيرة من جديد ، فدعا لى بالتوفيق ، وأشار على بأن أذهب إلى عمى عبد الفتاح كى يدبر لى مسكنًا ، لأن المدينة الجامعية لن تقبلنى مقيمًا بها بعد ما حدث ، وأوصانى - رحمه الله - بأن أتفرغ للدراسة تفرغًا تامًا ، حتى أعوض السنوات التى قضيتها داخل السجن ، وهكذا عدت إلى القاهرة ، بعد أن أبلغت « مباحث طنطا » بأننى سأسافر حسب التعهد المأخوذ علينا..

حينما وصلت إلى مبنى الكلية ، تدفق الحنين القديم إلى قلبى ، لقد أصبحت جزءًا من كيانى وحياتى وتاريخى ، وتذكرت المؤامرات السياسية الصاخبة ، وأيام النضال ضد الملك والإنجليز ، ثم الصراع مع الثورة من أجل الحريات ، وصحف الحائط التى كانت تلتهب بالمقالات العنيفة ، والشعر الثائر.. لكن الكلية تبدو اليوم هادئة كالشيخ الوقور الذى يحمل على كاهله عبء السنين الثقال..

ودخلت مكتب المسجل « كامل افندى » ، نظر إلى طويلا وقال: « أنت ...»

- « نعم أنا هو... وهذه هى وثائق الإفراج الصحى ...»

أشرق وجهه بالفرحة ونهض من فوق مقعده ، وصافحنى بحرارة قائلًا: « ألف مبروك ». وقدم لى الشاى ، ثم أخرج سجلاته القديمة ، وأطال فيها النظر ، وظل صامتًا بعض الوقت ، فمددت رأسى بالقرب من السجل.. كان اسمى مكتوبًا ، لكن مشطوب بالقلم الأحمر ، وفى خانة الملاحظات قرأت: « فُصل لأسباب سياسية »

قال الرجل بألم: « تعرف أنها أوامر ...»

- « والحل يا كامل أفندي؟ .»

- « الحل فى وزارة الداخلية ..»

قابلنى المرحوم الأستاذ إبراهيم نوار رئيس تحرير جريدة الجمهورية وعرض على وظيفة كبيرة بدار التحرير مقابل مرتب مجزٍ ، فقلت دون تردد: « أنا لا أفكر إلا فى شىء واحد وهو العودة إلى الكلية ...»

ذهبت إلى خالى ضابط الشرطة الكبير وعرضت عليه الأمر ، وبعد بضعة أيام أخبرنى أن إعادة قيدى أمر مقرر ، لكنه يستغرق بعض الوقت ، وسوف يصدر أمر للكلية بالسماح لك بالحضور حتى تنتهى الإجراءات..

دخلت أحد أقسام الجراحة كالغريب.. لم أجد أحدًا من الوجوه القديمة ، لقد تخرجوا وأصبحوا أطباء ، وتحلق الطلبة حول أحد المرضى ، ثم جاء الأستاذ ليناقش الحالة.. الكلمات التى أسمعها من الأستاذ تبدو كطلاسم.. لقد أنستنى هموم السجن ولياليه الطويلة معظم ما تعلمته.. لا بأس.. فلأعتصم بالصبر.. وبالإرادة.. ولأبدأ من جديد.. وعلى بركة الله.

دبى فى ٢٩ ربيع الأول ١٤٠٧هـ

١١-١٢-١٩٨٧م

الدكتور نجيب الكيلانى

❁❁❁

الجزء الرابع



[١] حياة جديدة

كنت بعد أن صدر أمر الإفراج عنى كالمبهور ، فحياة السجن شديدة الاختلاف عن خارجه رغم ما فى الحياة من منغصات وأعباء ومسئوليات ، وكان يسيطر على ذهنى وأنا أخطو خطواتى الأولى فى حياتى الجديدة عدة أمور هامة منها العودة إلى كلية الطب جامعة القاهرة (القصر العيني) بعد أن فصلونى منها ، وهناك أيضًا المضى قدمًا فى مجال الأدب وخاصة القصة والشعر والدراسات التى تبلور أفكارى وآرائى فى الحياة ، ثم هناك قضية الزواج التى يجب أن تحسم فى أسرع وقت ، فقد بلغت مرحلة من العمر تقتضى أن أكوّن أسرة تحقق لى ما أصبو إليه من استقرار وسعادة على الرغم من أنى لم أتخرج من الكلية بعد ، هذا ولا أستطيع أن أنسى القيود السياسية المفروضة على ولباقة التعامل معها بشىء من الحكمة والكياسة وإلا تعرضت لمتاعب كثيرة . أهمها أن يعيدونى إلى السجن مرة أخرى . كما كان على أن أدبر حياتى المعيشية واعتمد على الله وعلى جهودى الخاصة فى توفير الدخل الذى يكفل لى حياة مناسبة ، ويكفى ما تكبده أبى - رحمه الله - من نفقات وآلام نفسية طوال فترة سجنى ، فضلًا عن أنه يتحمل مسئولية باقى أفراد الأسرة .

أشاروا عليّ أن أذهب إلى الإسكندرية ، ونحن فى بداية فصل الشتاء . لقضاء فترة استجمام لدى خالى الأستاذ عبد المالك الشافعي ، ولم أمانع ، كانت الإسكندرية فى هذا الوقت هادئة جيدة الطقس الذى يميل إلى البرودة ، وكان الأقارب يذهبون إلى أعمالهم فى الصباح ويتركوننى ، فأخرج إلى شوارع المدينة وشواطئها وحدى ، مستخدمًا الترام فى تنقلاتى ، أتطلع صامتًا إلى المبانى والناس فى الشوارع ، وكأنى استطلع عالمًا جديدًا غريبًا عنى ، يشدنى إليه ما فيه من بساطة وسلاسة ، كما كنت حريصًا على قراءة الصحف والمجلات التى حرمت منها طويلًا بشغف وتعمق ، وتبين لى من خلال قراءاتى ومشاهداتى أن الدنيا تغيرت كثيرًا خلال الأعوام القليلة التى قضيتها سجينًا ، كما لاحظت أن الإسكندرية على الرغم من جمالها قد أصبحت أقل مستوى ونظافة وجمالًا بالمقارنة إلى حالها قبيل الثورة المصرية ، كما بدا الناس أكثر عزوفًا عن الحديث فى السياسة وأحوالها اللهم إلا فى المؤسسات الحكومية التى تتبع التنظيم السياسى للحكومة وهو التنظيم الوحيد المسموح به ، لكن الإنسان لا يعدم أن يجد هنا أو هناك فردًا أو أفرادًا يبكون جمال الزمان الغابر ، وينحون باللائمة على الثورة وأيامها القائمة فى صوت خافت ، وتوجس بيّن ، وأصبحت الشعارات تملأ الشوارع والصحف وأجهزة الإعلام ، وبدا أن الفن والأدب أصبحا يخضعان للسلطة وتوجيهاتها ، وغدت خطب الرئيس مادة رئيسية فى برامج

الإذاعة التى تعيد إذاعتها مرارًا وتكرارًا ، ولم يعد لرجل الشارع المصرى مجال للتنفيس عن آرائه الحقيقية سوى « النكتة » حتى جاء اليوم الذى أصبح جهاز الأمن فيه يتابع ما يتردد من « نكت » ، وكثيرًا ما يسوق قائليها إلى التحقيق والحبس ، وكانت النكتة بمضمونها تضارع مقالًا كاملًا يحتل مساحة كبيرة من الصحيفة أو المجلة ، أما « النكت » الرسمية فى صحافة الحكومة فكثيرًا ما كانت تتضمن هجومًا على أعداء الثورة والرجعية والاستعمار ، أو تروج لسياسة الحكومة ومشاريعها ، وكان على أن أكون حذرًا جدًا إزاء هذه الصور الخفية للمعارضة .

وقبل سفرى إلى الإسكندرية كان على أن أذهب إلى أحد رجال الأمن المسئولين لأستأذن منه فى السفر ، وأسجل العنوان الذى سوف أذهب إليه ، كما كان على أن أذهب عقب وصولى إلى الإسكندرية . إلى المباحث العامة هناك لأخطرهم بمجيئى والفترة التى سأقضيها فى الاستجمام . وفعلًا ذهبت فى اليوم التالى إلى مقر المباحث بناءً على موعد حددوه لى ، وقضيت بعض الوقت فى أمور روتينية ، وأسئلة عن شعورى بعد الإفراج ، وخطواتى المقبلة ، والمدة التى سأقضيها فى الإسكندرية وما إلى ذلك .

وقد لاحظ علىّ الأقرباء أننى أطيل الصمت ، وأكثر من الشرود ، ولا أشارك فى المناقشات العادية أثناء السهر بالقدر الكافى ، بل إنى علمت فيما بعد أنهم لهذا السبب كانوا معتقدين أن السجن قد أثر فى تفكيرى وسلوكى وعقلى ، ويبدو حقيقة أننى كنت أعانى من قيود ومحاذير وهمية ، ترسبت فى أعماقى أثناء السجن ، ولم أستطع أن أتخلص منها بسرعة ، وخاصة أننى قضيت عامى الأخير فى السجن – كما سبق وقلت – فى الحبس الانفرادى ، مستغرقًا فى كتاباتى وقراءاتى ، ولم يكن معى بالزنزانة من يشغلنى عن ذلك ، فضلًا عن الحرص المبالغ فيه الذى التزمت به بعد الأهوال التى رأيناها .

وأخيرًا عدت إلى قريتى (شرشابة » وقضيت بضعة أيام مع الأهل ، ثم عزمت على الرحيل إلى القاهرة لاستئناف دراستى وأعمالى هناك . وكانت أمى رحمها الله متشبثة بى ، وتقول : « لم أشبع منك بعد » ، كما كانت زوجة جدى العجوز التى أصيبت بالشلل متمسكة ببقائى بحجة أنها قد تلقى الله فى أى وقت ، وقد لا ترانى مرة أخرى ، أما أبى فقد قال : « مصلحتك أهم ، سافر على بركة الله » كانت القاهرة . رغم ما عانيته من أهوال . لها مذاقها الشهى ، القاهرة بكل ما فيها من علم وثقافة وأجواء روحية خلابة وذكريات حلوة ، وآمال كبيرة ، ولم أكن أستطيع العيش وحدى فى هذه الفترة ، ولهذا آثرت أن أسكن مع شقيقتى وزوجها المرحوم محمد السعدنى الذى كان يعمل مدربًا فى الحرس الوطنى ، واتخذنا مسكنًا مشتركًا فى حى شبرا شارع « كنيسة الراهبات » ، وقد قاما على خدمتى خير قيام ، ولم أشعر معها بآلام الوحدة أو الغربة ، وعدت إلى الكلية طالبًا منتظمًا ، وبدأت فى مجموعة تدرس أمراض العيون على يد الأستاذ الشهير الدكتور « عبد المنعم لبيب » ، كان أستاذًا دقيقًا فى عمله ، ماهرًا فى علمه ، وكان يسجل الحاضرين بدقة ، ويشرك الطلبة فى الفحص والدراسة ، لكنى بقيت ملتزمًا الصمت فى الأسابيع الأولى ، لأن علومى القديمة . بمرور الزمن فى السجن لم يبق منها إلا القليل ، فكان علىّ أولًا أن أراجع ما مضى من تعليم فى المراحل السابقة ، ويبدو أن الأستاذ أدرك ذلك ، فقال لى ذات يوم وهو يسجل اسمى فى الحضور « إنك تعيش معنا كضيف ، لماذا لا تشارك فى المناقشة » وابتسمت دون أن أجيب ، فلم يكن المجال يسمح بشرح ظروفى ، لكنى حرصت فى قابل الأيام أن أقرأ الدرس قبل أن أذهب فى الصباح إلى الحلقة العلمية ، وهكذا بدأت فى الاشتراك فى المناقشات العلمية ، وذات يوم نشرت الأهرام فى صفحتها الأخيرة خبرًا عنى وصورة تحت عنوان

« طالب طب يكتب بحثًا عن فيلسوف » . وفى هذا اليوم كان الأستاذ يسجل أسماءنا كالعادة ، وعندما جاء دورى قال : « أهو أنت ؟ » ونظر نحوى بشىء من المودّة والتقدير ، وفى فترة دراسة العيون أيضًا ، كنت أهرول ذات مرة إلى الحلقة الدراسية . ووجدت زميلى السابق فى السجن الأستاذ يوسف هارون يعترض طريقى قائلًا : « هل قرأت الأهرام اليوم ؟ لقد أعلنت نتيجة مسابقة القصة القصيرة ونلت أنت الجائزة الأولى والميدالية الذهبية ، وستتسلم الجائزة من الرئيس » وكان يوسف هارون ما يزال على ذمة السجن ، وتحت العلاج ، وحوله الحراس .

والواقع أن هذه الأخبار السارة قد فتحت شهيتى لمزيد من الكتابة ، وأدخلت السرور إلى نفسى ، وجعلتنى أمضى فى طريقى بثقة وأمل ، كما جعلتنى معروفًا فى أوساط الطلبة وهم جيل غير جيلى الذى سبق وتخرج قبلى بأكثر من ثلاث سنوات .

ورعانى عدد من الأدباء وكبار الصحفيين للكتابة معهم ، وهذا شىء هام ، فما أقل ما يحدث ذلك عبر التزاحم الشديد لناشئة الأدباء فى ذلك الوقت على أبواب الصحف والمجلات والإذاعة ، الحقيقة أنى وجدت الطريق ممهدًا ، فوجدت الفرصة سانحة لاتخذ مكانى وسط شباب الأدباء حتى أصبحت أكثر شهرة من كثير من قدامى الكتّاب الذين هم فى سن أبى والحمد لله . ويبدو أن العناية الإلهية شاءت أن تعوضنى عما فاتنى من فرص أثناء سجنى ، كما كانت أدعى لبعض الندوات فى الإذاعة ، ولبعض التحقيقات الصحفية ، بل إن الاستفتاء الذى أجرته مجلة آخر ساعة فى أواخر عام ١٩٥٨ على ما أذكر عن أشهر أدباء العام أسفر عن فوز الأستاذ توفيق الحكيم بالأغلبية العظمى ، لكن المجلة ذكرت فى عددها الصادر بهذا الخصوص أن بعض من اشتركوا فى الاستفتاء ذكروا اسمى .

لقد تركت العمل بالسياسة فى هذه الفترة ، لكن هل تركتها فعلًا ؟

لقد كنت « معزولًا سياسيًا بأمر السلطة ، أى لا يحق لى الاشتراك فى أى عمل سياسى أو الانضمام حتى لحزب الحكومة ، وقد كنت مرتاحًا جدًا لذلك ، إذ يصعب على نفسى أن أصفق وأهلل لأولئك الذين أذاقونى وأذاقوا إخوانى الأهوال ، ومع ذلك فقد كنت فى قرارة نفسى أجدنى مقتنعًا وملتزمًا بالنهج الإسلامى ، ولم يقف الأمر عند هذا الاقتناع الداخلى ، بل تعداه إلى كتاباتى المتنوعة ، فلم يكن غريبًا فى ذلك الوقت أن أفكر فى خط حديث لأدبنا المعاصر ، وهو « الأدب الإسلامى » وأصدرت فى ذلك الموضوع أول دراسة لى بهذا الخصوص تحت عنوان « الإسلامية والمذاهب الأدبية » ونشرته فى دار النور بطرابلس ليبيا لدى الصديق الأخ محمد نشنوش ، ثم فكرت أيضًا فى الوحدة الإسلامية ، فى وقت كان الجميع يتحدثون فيه عن القومية العربية وأصدرت فى نفس دار النشر المذكورة كتابًا تحت عنوان « الطريق إلى اتحاد إسلامى » ، وقد صودر هذا الكتاب فى القاهرة ولم يسمح بتداوله ، وسبب لى العديد من المشاكل ، هذا بالإضافة إلى بعض القصص والمقالات فى الداخل والخارج ، وكنت أسأل نفسى من وقت لآخر : لماذا أجر نفسى إلى المشاكل التى لا يعلم إلا الله عواقبها؟ » ولكنى أدركت أننى أقدم على الموضوعات الإسلامية بحماسة بالغة ، ودون تقدير للعواقب ، وكأن هناك قوة خفية تدفعنى دفعًا إلى ذلك .. فأقول إنها إرادة الله .. وأقول قد يثاب المؤمن رغم أنفه ، وكثيرًا ما كنت ألجأ إلى كتابة القصة التاريخية (قصيرة أو طويلة) وأودعها ما أؤمن به من أفكار وآراء ، وكان أحد أصدقائى يقول لى : « لن تتغيروا .. يموت الزمّار وأصبعه يلعب » كناية عن التشبث بالمبادئ التى تربينا عليها .

ولقد كان من الأمور المحرمة علينا أن نلتقى بأحد من الإخوان المسلمين القدامى أو نجالسهم

أو نتزاور معهم ، وهذه من الناحية العملية قضية شاقة وشائكة ، لأن معظم صداقاتى كانت معهم ، وتعاملى فى شتى أنحاء الحياة كان معهم ، وخاصة ما يتعلق بالمصالح والبيع والشراء ، انطلاقًا من الثقة والمحبة التى تجمع بيننا ، لم يكن الأمر سهلًا فى الحقيقة بالنسبة لى ، فأنا أريد ناشرًا لكتبى الجديدة ممن تتحقق فيهم صفة « الإسلامية » فهم أحرص على حقوقى ، وأسرع فى تنفيذ رغباتى ، ولقد نشرت كتابى الأول « الطريق الطويل » لدى مكتبة مصر (السحار) وهى دار محايدة ، وكان للمرحوم سيد قطب ولنجيب محفوظ علاقات وطيدة بهم ، ونشرت كتابى الثانى فى الشركة العربية للطباعة والنشر ، وصاحبها لبنانى اسمه حسن إيرانى وكتابًا ثالث فى دار القلم لصاحبها محمد المعلم ، ولم أتوجه إلى دار إسلامية إلا فى وقت متأخر نوعًا ، فنشرت فى دار العروبة (التراث حاليًا) وصاحبها إسماعيل عبيد ، ومكتبة وهبة وصاحبها الحاج وهبة ، ثم نشرت فى دار النور (ليبيا) كما سبق وأشرت ، وكان المكان الأثير الذى أجلس فيه كثيرًا فى أيام الخميس هو مكتبة العروبة (التراث) فى شارع الجمهورية (إبراهيم باشا سابقًا) وبمحض الصدفة علمت أن أحد رجال الأمن السريين يتابعنى فيها ، فقد سقطت مفكرة ذلك الرجل (المخبر) فى منزل أخى وصديقى الفنان الرسام على عثمان ، فالتقطها خفية ، وأخذ يقرأ ما فيها ، فعثر على تقارير عنى ، وعن تحركاتى من بينها زياراتى المتكررة للمكتبة ، ولقد كان لذلك علاقة فى حادثة وقعت بعد ذلك ، فقد أمسكت الحكومة بمنشور يوزع سرًا بعنوان « فرعون مصر الصغير » ، وكان المنشور يهاجم عبد الناصر وسياسته ، وينحى باللائمة عليه فى تعامله الجائر وقوته البالغة على جماعة الإخوان المسلمين ، وظن رجال الأمن أن الذى يروج لهذا المنشور هو صديقى المرحوم أسعد سيد أحمد الذى يعمل بمكتبة دار العروبة ، كما توهموا أن كاتب المنشور هو أنا .. لكنهم لم يكونوا متأكدين من هذه المعلومات ، ومع ذلك فقد قبض على الأخ أسعد سيد أحمد وأرسل إلى معتقل القناطر الخيرية للتحقيق ، أما أنا فظل رجال الأمن يطاردوننى فى مقر عملى حيث كنت حينذاك « طبيب امتياز » بمستشفى « أم المصريين » بالجيزة (١٩٦١) ، وكانوا يجالسوننى ويناقشوننى فى سكن الأطباء ، حتى إنى هرعت إلى خالى اللواء محمود الشافعى وهو ضابط كبير بالداخلية ، فشرحت له شكواى من المخبرين . فطمأننى ، ثم جاءنى أحد زملائى فى العمل وهو الدكتور إبراهيم عبد الله ، وقال لى أنه قدم شهادة طيبة لصالحى حيث إن أحد المخبرين من أقربائه ، ونصحنى بالحيطة والحذر ، وعدم الالتقاء بالإخوان القدامى لأنى تحت المراقبة الدائمة ، وكانت الدهشة تبدو على وجهى . وأنا أستمع إليه ، فإن آخر ما كنت أفكر فيه أن يستغلوا زملائى المحترمين فى جمع المعلومات عنى ، وأحد المخبرين قال لى : « أنصحك أن تبعد عن ابن ال .. الملعون أحمد سيد أحمد ، لأنه سيسبب لك المشاكل » ولم أستطع أن أجيب إلا بكلمات قليلة مؤداها أننى لا ألتقى به إلا فى إطار المصالح فهو يشارك فى نشر بعض كتبى ، ويقوم بالترويج لها وتوزيعها ، ثم آخذ حسابى وأنصرف ، وليس فى علاقتى به غير ذلك ..

واستطاع أسعد سيد أحمد أن يقنع المحققين بأن هذا المنشور لم يطبع فى مصر . وأنه مهرب من الخارج ، من لبنان على الأرجح ، واستشهد فى ذلك بطريقة الطباعة ووضع نقطتين تحت الياء فى كلمة « فى » ومثيلاتها ، وغير ذلك من الأمور الفنية الأخرى ، كما أكد لهم بالتالى ألّا صلة لى بهذا المنشور وأننى لم أكتب حرفًا واحدًا منه ، ومع ذلك لم يفرج عن أسعد سيد أحمد إلا بعد ثلاثة أشهر .

وقبل ذلك بفترة كنت أقطع الجسر الذى يفصل بين ميدان باب الحديد وشارع شبرا بالقاهرة ، متجهًا إلى منزلى سيرًا على الأقدام ، فلاحظت وجود شاب أسمر اللون يلاحقنى أينما ذهبت ، ويتوقف

إذا توقفت عند أحد المتاجر . وظل يقترب منى حيث واجهته قائلًا : « ماذا تريد ؟ » .

– « ألا تعرفنى ؟ » .

قالها فى شىء من السخرية ، ولما أخبرته أننى لم يسبق لى التعرف عليه أفصح عن هويته قائلًا : « أنا من المباحث العامة ، فى مكتب محيى الدين بك شفيق » أصابنى شىء من الضيق ، لكنى تماسكت ، ومضيت فى طريقى وهو يسير إلى جوارى .

قال لى : « تعلم أن كل حركاتك وسكناتك محسوبة » .

قلت : « أنا لا أفعل ما يمكن أن تؤاخذونى عليه » .

نظر إلى نظرة ذات معنى وقال : « إنّك خرجت من السجن بدون ثمن » .

لم أفهم ، وأدرك هو ذلك فقال : « المفروض أن ترشد عن أية تحركات مشبوهة للإخوان » .

قلت على الفور : « لقد أخذتم عليّ إقرارًا ألا أتصل بأحد منهم » .

عاد ينظر إليّ بخبث ويقول : « نستطيع أن نعيدك إلى السجن فى أى وقت ، هل نسيت أننا أفرجنا عنك إفراجًا صحيًا ، وفى الإمكان إلغاء الإفراج بحجة أنك شفيت من المرض ، ثم تعود إلى السجن لتكمل باقى السنوات العشر المحكوم بها عليك ؟ » .

لم يكن هناك جدوى من الحوار معه فى هذا الموضوع ، فهو يعلم جيدًا من ملفى لديه أننى لم ولن أكون أداة طيعة لخدمة أهدافهم الخبيثة ، ربما يكون لى بعض الأفكار الخاصة بى فى هذه القضية أو تلك ، لكنها لا تتداول إلا مع إخوانى ، فاختلاف الرأى لا يفسد للود قضية ، وهو درس تعلمناه من رسولنا الكريم ﷺ ، ومن صحابته الأجلاء ، لكن لا دخل للحكومة فى مثل هذه الأمور ، والغريب أن بعض إخواننا كانوا ينظرون إلى الاختلاف فى الرأى على أنه مروق وخروج على النظام .. المهم أن رجل الأمن أخذ يلقى بالتهديد تلو التهديد وأنا فى حيرة من أمرى ، ولا أدرى ماذا أفعل له ، وعدت إلى بيتى مكتئبًا ضائق النفس ، إذ أدركت أن الحرية التى خيل إلى أنى حصلت عليها يشوبها الكثير من النقص والمنغصات ، وأن الحياة على هذا النحو ستكون شقية مقلقة ، وفى العادة كنت أبث همومى لخالى ضابط الشرطة الكبير ، فكان يطمئننى برقته المعهودة دون أن يفصح لى عما سيفعل ولم تكد تمضى على هذه المقابلة الحافلة بالتهديد ثلاثة أيام حتى استدعيت إلى المباحث العامة بوزارة الداخلية لمقابلة محيى بك شفيق الضابط المعروف هناك . ولم أكد أجلس أمام مكتبه على المقعد حتى انبعث صوت من خلفى يقول : « دكتور نجيب .. لقد رأيتك فى مسجد السيدة زينب » .

التفتت إليه فوجدته يقف أمام خزانة الملفات ، إنه الصول « سليمان » على ما أذكر ، وكان يرتدى زيًا مدنيًا ، فقلت : « وماذا فى ذلك ؟ » .

فرد فى صوت يتصنع الحنكة والدهاء والمعرفة : « فيها الكثير » ! ! لقد كنت تجتمع مع بعض الإخوان المسلمين المعروفين بمشاغباتهم » وفاجأنى صوت محيى بك وهو يتصفح بعض الأوراق أمامه وقال : « دعه يا سليمان يفعل ما يشاء .. يبدو أنه نسى أنه على ذمة إفراج صحى وأننا نستطيع أن نعيده إلى زنزانة السجن فى أية لحظة » .

استبد بى الغضب والضيق ، لكنى كبتُّ مشاعرى ، إنهم يحاولون استدراجى لكى أقع فى الفخ بأسلوبهم الساذج ، وقلت لسليمان : « متى رأيتنى فى مسجد السيدة زينب ؟ » .

– « منذ أسبوعين » .

– « ماذا تقول إذا علمت أننى لم أدخل هذا المسجد منذ أكثر من ستة شهور » ثم التفت إلى

الضابط الكبير وقلت بثقة : « يا محيى بك ، أنا لست جاهلًا ولا ساذجًا ، وهذا الأسلوب لا يليق بى ، وليس فى حياتى شىء يعاب أو أحاسب عليه سياسيًا ..» .

فابتسم محيى بك وقال : « هل تضايقت ؟ لا .. لا .. نحن نمزح يا رجل .. احضر له الشاى يا سليمان » .

وذات يوم كنت فى مسكنى بشبرا ، وفوجئت بعدد من إخوانى جاءوا لزيارتى ، كان فيهم الأستاذ محمود هاشم (وشهرته حاتم) والأخ محمد نصار والأخ حسين عاشور (رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامى حاليًا) والأستاذ فوزى عبد المنعم وغيرهم ، وجلسنا نحتسى الشاى وقت العصر ، وانزلق بنا الحديث إلى الأحداث السياسية ، وفى هذا الوقت الدقيق دق جرس الباب ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت المخبر (رجل الأمن) يقف أمامى بلحمه ودمه .. يا للمصيبة ! ! ماذا أفعل الآن ؟ إن إخوانى لا يعرفونه ، وسوف يدخل ويستمع إليهم ، وبالطبع سيعتقدون أنه أحد أقربائى ، ووقعت فى حيرة قاتلة ، فأنا لا أستطيع أن أتركه هكذا واقفًا بالباب ، ولم يكن أمامى سوى حل واحد غامرت بالإقدام عليه ، لقد أدخلته عليهم فهبوا مصافحين ، وقبل أن ينزلقوا إلى ما كانوا فيه من أحاديث فى السياسة قلت بصوت عالٍ : « سوف أعرفكم ببعض .. هذا فلان .. وهذا فلان ..» وأخيرًا قلت : « وهذا فلان من المباحث العامة » ألقيت العبارة الأخيرة كالقنبلة .. المخبر أخذ يتصفح الوجوه بنظراته العميقة الكريهة ، أما الإخوة . وكانوا فى حدود ثمانية أفراد . ساد وجوههم القلق والشحوب ، فهذا المخبر يستطيع أن يسوقنا جميعًا إلى التحقيق ، ويفتح علينا بابًا من أبواب الكوارث التى تلاحقنا .

قال الأخ حاتم أبو بكر موسى (محمود هاشم) وهو يدعى الجهل : « ما معنى المباحث العامة » .

قاسه المخبر بنظراته النارية وقال : « صحيح ؟ ألا تعرف المباحث العامة ؟ والنبى إيه « يا رجل ..» وساد الصمت العاصف ، وحاولت جاهدًا أن أتقمص شخصية الرجل الذى يتصرف بتلقائية لا تثير أدنى شك ، وأخذت أفتح الحديث فى موضوعات شتى لا تمت إلى السياسة بصلة ، وطوال الجلسة كنت أرزح تحت عبء ثقيل ، وأنفاسى تتلاحق ، وبعد ساعة انصرف الجميع ، وجلست وحدى أجفف عرقى ، واستعيد هدوئى ، وأدعو الله ألا يكون لهذه الجلسة عاقبة سيئة .

ألم تكن الحياة على هذا النحو مريرة ؟ ألم يكن من الضرورى أن أفكر فى الأمر بطريقة أخرى ؟

❁❁❁

[٢] دنيا الأدب والأدباء



قلت من قبل أننى ولجت باب الأدب عن طريق المسابقات والجوائز، وأصبح لى مكان فى هذا العالم العجيب الملىء بالشخصيات والأفكار والأحداث والتقلبات، ولقد ظهر كتابان لى وأنا سجين؛ الأول رواية «الطريق الطويل» والثانى «عذراء القرية»، وكانت الخطوة التالية أن أعايش هذه المجتمعات، واندمج فيها، لأن المؤلفات وحدها لا تكفى لربط الأديب بالمجتمع الأدبى، ثم إن المؤلفين لا يكتبون فى كتبهم ومقالاتهم كل شىء، فالكتابة مهما كان الأمر عمل له طقوس ومواصفات وآداب فنية واجتماعية وسياسية أيضًا، لكن حديث الأدباء فى المقاهى والمجالس له طبيعة خاصة، إذ يتخفف الكتاب من رسمياتهم ويبدون لحد ما على صورتهم الطبيعية وهم يتحدثون ويأكلون ويشربون ويتفكهون. ويلعبون الشطرنج أو النرد، ويوجهون النقد لهذا أو ذاك، فضلًا عن وجود عدد من الكتاب لم يكتب لهم الشيوع أو الذيوع بعد على الرغم من كفاءتهم ومستواهم الفنى الجيد ومجتمعات الأدباء ليست حرة أو سوية بصفة تامة، إذ لاحظت فيها بعض الأمور:

أولًا: نظام «الشّلل» أو التحزب، وأعنى به مجموعة مترابطة من الأدباء يجمعهم مذهب سياسى معين، قد يظهرونه وقد يخفونه، لكنه غالبًا ما يكون واضحًا بكثرة الحوار والمجالسة، هذه «الشلة» أو تلك لها أدباؤها ونقادها، وهم يشايعون كتابهم ويروجون لهم بالحق أو بالباطل، ويهاجمون من يخالفهم فى الرأى أو الفكر، وعلى الرغم من أن الكتاب من حزب الحكومة الناصرية كانوا أكثر من غيرهم إلا أنهم لم يكونوا فصيلًا واحدًا، فقد كان فيهم الماركسيون والوجوديون والكلاسيكيون، ولن تعدم أن تلمح تيارًا إسلاميًا خفيًا بين الحكوميين لكنهم يبذلون قدر ما يستطيعون من جهد لإخفاء هويتهم.

ثانيًا: الكتاب فى تلك الفترة يحذرون البوح بآرائهم السياسية مخافة القمع سواء فى أحاديثهم أو كتاباتهم، ونادرًا ما تسمع همسة نقد، أو نكتة جارحة لاذعة تتناول النظام، بل إن بين هؤلاء الكتاب بضعة أفراد مجندين لدى المباحث والمخابرات ينقلون إليهم أخطر الأحاديث فى تقارير دورية.

ثالثًا: ارتبطت أفكار معظم الكتاب وإبداعاتهم بسياسة الحكومة وشعاراتها، حتى أولئك الذين يكتبون إبداعات تاريخية، كانوا يوظفونها فيما يعنى التأكيد والتأييد لمبادئ الثورة وزعيمها، ومن وقت لآخر كنا نسمع عن أديب من هذا الاتجاه أو ذاك اختفى فجأة، ثم نعلم أنه قد سيق إلى المعتقل أو السجن بسبب مادة كتبها، أو بسبب انتمائه لإحدى التنظيمات السياسية الممنوعة كما يقال، وقد يطول اختفاؤه، وقد يظهر مرة أخرى دون أن يتحدث عما جرى له، وعند ظهوره نجده أكثر حرصًا، وأهدأ شخصية، يفضل الصمت على الكلام، ويهجر الكتابة، لكنه قد يعود إليها على هيئة كتابات رمزية قد يستعصى علينا حل رموزها.

رابعًا : أصبح الهجوم على الإسلام أسلوبًا سائدًا ، من خلال ربطه بالرجعية والجمود ، أو من خلال نسبة الإرهابيين والمتطرفين إليه ، وتراجع دور الأزهر وعلمائه ، ولم يبق على الساحة فى الغالب إلا نسبة ضئيلة من العلماء التزمت الحياد ، وتجنبت الموضوعات الحساسة ، لكن العلماء الأعلى صوتًا هم من كانوا يدافعون عن سياسة الحكومة ويبررون مواقفها وأفعالها .

خامسًا : استولى النقاد الماركسيون (الذين شاركوا فى إصدار بيان تأييد ومبايعة للثورة والتخلى عن شيوعيتهم) على الساحة الأدبية ، وعلى مناصب هامة فى الصحف والمجلات والمسرح والسينما والنقابات الفنية ، ولم ينج من شرهم إلا اتحاد الكتاب فى معظم انتخاباته .

سادسًا : كان الوجه الثقافى للوطن مشوهًا لكثرة ما وضع فوقه من « مكياج » أو مساحيق وعمليات تجميل (أو تقبيح إن صح التعبير) ، وانعكس ذلك كله على الجيل الجديد الذى أنشأت له الثورة منظمات خاصة ، تسقيه فيها مبادئها وشعاراتها . وأصبحت النماذج والمثل العالمية المستوردة تملأ الساحة ، فتقرأ الكثير عن « تشى جيفارا » و « هوشى منه » و « فيدال كسترو » ، و « ماوتس تونج » و« الشهيد لوممبا » ! ! ، ونادرًا ما تقرأ شيئًا عن قادة الفتح الإسلامى ، أو زعماء التنوير المسلمين ، بل إن حملات ضاربة شنت على كتاب معاصرين لهم وزنهم مثل عباس العقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين وغيرهم . ومع ذلك فقد ظلت الآثار الأدبية التى سبقت الثورة المصرية زادًا للكثير من القراء ، كما كثر عدد طباعاتها ، بينما ركدت مطبوعات الحكومة فى مخازنها حتى أصبح عدم توزيعها مشكلة من المشاكل ، ولم يجد نفعًا عمليات الدعم والترويج التى دفعت الحكومة الكثير فى سبيلها لتوزيع تلك المطبوعات الرسمية .

سابعًا : كانت أدبيات تلك الأيام مكتظة بالتعبيرات الحاقدة ضد الماضى ورموزه وفكره وطبقاته الاجتماعية ، وكان هناك تسابق مجنون بين الكتاب لإدانة كل ما مضى لصالح العهد الثورى الجديد ، فتشوهت فى النفوس وحدة الوطن وأبنائه ، واتصال حاضره بماضيه ، وزادت مشاعر البغضاء والتفرقة .

ثامنًا : لم يصاحب هذه المفارقات الفكرية والمضمونية تجديدًا فى الأشكال الفنية أو الأساليب ، بل إن الأساليب الأدبية قد انحطت لغتها ، وكثرت الكتابة بالعامية فى حوارات القصص القصيرة والروايات والمسرحيات ، وكان للأدب الروسى عامة ، ولمذهب « الواقعية الاشتراكية » خاصة تأثير كبير فى قولبة الأشكال الفنية ، أو دمغها بالتقليد للنماذج المستوردة ، أذكر فى تلك الفترة أن أحد شباب الكتاب قد ترجم مجموعة من القصص البلغارية إلى اللغة العربية ، وألح على أن أكتب لها مقدمة بقلمى ، وقرأت المجموعة فوجدت أن قصصها لا ترقى إلى المستوى الفنى المناسب الذى يدفع إلى ترجمتها ، بل وجدت بعض القصص لا تصلح بالمرة لأن تندرج تحت « فن القصة القصيرة » فماذا أفعل فى هذا المأزق ؟ لقد كتبت المقدمة عن فن الترجمة ، وما يجب ترجمته وما لا يجب ، وضوابط الترجمة والهدف منها ، وأشرت إلى أن بعض قصص المجموعة التى تدور أحداثها فى مزرعة جماعية لا تخرج عن كونها « ريبورتاج صحفى » عن تلك المزارع ، وبعد أن صدرت المجموعة فى كتاب لاحظت أن المترجم قد حذف من المقدمة المقطع الخاص بالمزارع الجماعية ، لكن الأهم من ذلك أننا ونحن نناقش هذه المجموعة فى ندوة « الأستاذ نجيب محفوظ » فى ميدان الأوبرا كازينو بديعة) قال الأستاذ الأديب الناقد المرحوم عباس خضر بالحرف الواحد : «أهم ما فى هذه المجموعة القصصية المترجمة مقدمتها ...» .

تاسعًا : الكثرة الغالبة من الكتابات فى هذه الحقبة اتسمت « بالقلق الفكرى » وعدم وضوح الانتماء ، مضمون الحكومة العالى يروج لدعوى القومية العربية (حرية وحدة اشتراكية) ، ،هناك فئة أقل

تؤمن بالوطنية المصرية وتروج لها على استحياء ، أما أصحاب الاتجاه الإسلامى فكانوا يعيشون تحت حصار قاتل ، ورجالات الأحزاب القديمة لا يقلون حصارًا عن الإسلاميين ، والشيوعيون يلعبون على الحبلين ، فهم عقائديًا ضد القوميات ، لكنهم يسلكون سلوكًا غير ما يعتقدونه لتجنب شر الحكومة ، أو لأنهم آمنوا بفكرها ، أو لمجرد تكتيك مرحلى ، سرعان ما يغيرون جلودهم بعده عندما تحين الفرصة ، ولقد لوحظ فى خلال تلك الفترة العدوان على التاريخ حتى القريب منه ، وأخذ مؤرخو الثورة يكتبون التاريخ وفق مقتضيات الظروف الراهنة ، فيضيفون ويحللون ويحذفون ، ولا حسيب ولا رقيب ..

عاشرًا : انعدم المرجع الدائم ، وأصبحت المراجع التى يلجأ إليها المفكرون والأدباء مراجع متغيرة متناقضة ، وهكذا انطمست هوية الناس أو كادت ، ولم يبق سوى فئة قليلة من الكتاب والمفكرين حافظت على توازنها ، والتزمت بمنهجها ، فكان مصيرها الإهمال أو الطرد أو الملاحقة البوليسية .

لكن أى منتدى أو ندوة أو جمعية أدبية يمكننى أن أذهب إليها ؟ ! لم أقف طويلًا عند هذا التساؤل ، وقلت لنفسى لماذا لا أذهب إلى أكبر عدد ممكن من هذه التجمعات الأدبية لأعرفها عن كثب ، وأستفيد من إيجابياتها إن وجدت ، وأتحاشى سلبياتها عندما أدركها ؟

فى أحد أيام الجمع ، توكلت على الله ، وقلت لنفسى : « لأذهب إلى ندوة نجيب محفوظ التى يطلقون عليها « الحرافيش » » ، والحرافيش كلمة وردت فى تاريخ « الجبرتى » خير من أرخ للحملة الفرنسية على مصر ، والكلمة تعنى الطبقة الدنيا من الناس كالحرفيين والعمال وعامة الفقراء.

كانت الندوة تنعقد كل يوم جمعة ابتداءً من الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا ، فى مكان يطل على ميدان الأوبرا (ميدان إبراهيم باشا) وسط القاهرة ، وتقع الساحة التى نجلس فيها فى الدور الثالث ، وجدرانها من زجاج ، ولا يجلس فيها أحد غير أعضاء الندوة ، وكان هذا المكان يستغل فى المساء « لسمار الليالى » وأصحاب المزاج ، أما فى صباح الجمعة فيخلى المكان تمامًا ، ويكون أول الحاضرين إلى الندوة هو الأستاذ نجيب محفوظ وصديق له هو الأستاذ « هارفى » وهو محام مهذب لا أعرف له إنتاجًا أدبيًا ، وكثيرًا ما كان الأستاذ على أحمد باكثير هو الآخر يأتى مبكرًا ، وهو ممن كانوا يواظبون على حضور هذه الندوة ، وهناك صداقة قديمة وطيدة تربط بينه وبين الأستاذ نجيب محفوظ والأستاذ عبد الحميد جودة السحار والأستاذ المرحوم سيد قطب والأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، حيث كانوا يلتقون فى لجنة النشر للجامعيين وفى مكتبة مصر التى يمتلكها آل السحار بشارع الفجالة، والتى نشرت العديد من مؤلفات هؤلاء الكتاب ، وكان الأستاذ عبد الحميد السحار يأتى إلى الندوة هو الآخر ولكن بصورة غير منتظمة ، ومن الأدباء والصحافيين الذين رأيتهم فى هذه الندوة أيضًا : الأستاذ عباس خضر ، الأستاذ أحمد عباس صالح ، الأستاذ عبد الله الطوخى ، الأستاذ صالح مرسى ، الأستاذ فاروق منيب ، الأستاذة سناء جميل « الممثلة » ، الأستاذ صوفى عبد الله ، الأستاذ نظمى لوقا ، الأستاذ توفيق حنا وغيرهم ، كما كان يأتى إلى الندوة عدد من الكتاب العرب اللاجئين إلى مصر فى بعض الأوقات ، وبعض الزوار الأجانب من أوربا أو روسيا .

دخلت عليهم لأول مرة كانوا يتراصون حول طاولة مستطيلة طويلة ، على يسار الداخل تجد الأستاذ نجيب محفوظ جالسًا فى الطرف المجاور للنافذة ، ووجهه إليك ، وقبالته الأستاذ على أحمد باكثير الذى لا ترى سوى ظهره ، الحقيقة أننى دخلت وهم منهمكون فى المناقشة فلم أشأ أن أقطع عليهم الحديث ، فاخترت طاولة صغيرة مستديرة على مقربة منهم وجلست .. كنت أشعر بالخجل ، وأخذت أستمع إليهم ، وبعدما يقرب من نصف ساعة سمعت أحدهم يشير نحوى ويقول : « لماذا

لا يأتى الأخ ويجلس معنا ؟ » . ابتسمت فى ارتباك ونهضت مسرعًا ، ثم حييتهم وجلست إلى جوار المرحوم باكثير وأنا أعرف نفسى بهم ، وسرعان . حسبما أدركت . ما تذكروا حكايتى عن الجوائز والسجن وما إلى ذلك ، وضحك الأستاذ نجيب محفوظ ضحكته المشهورة وهو يقول « حمدًا لله على السلامة » ، وفهمت أنه يشير إلى خروجى من السجن ، وانتهزت الفرصة وقدمت إليه كتابين من مؤلفاتى هما « الطريق الطويل » ، و « إقبال الشاعر الثائر » فقبل الهدية شاكرًا ، ثم أخذ يبادلنى الحديث عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال ، ويبدو أنه كان مهتمًا به جدًا ، أما الأستاذ على باكثير فقد وضع يده على كتفى وشد عليه بحرارة تغنى عن أى بيان .

وابتسم لى الأستاذ السحار ابتسامة أبوية حانية ثم قال موجهًا الحديث للأستاذ نجيب محفوظ « نحن الذين قررنا طبع روايته « الطريق الطويل » قبل أن تتولاها وزارة الثقافة والإرشاد القومى وهو لم يزل فى السجن .. تصور هربنا له العقد إلى هناك ليوقع عليه، كانت هذه الجلسة الأولى جلسة ودية فيها رقة ومواساة ، وكان الزملاء الشيوعيون ينظرون إلى دون أن يعلقوا ، لكننى عمومًا شعرت بالارتياح ..

كان « مسجد الكخيا » الشهير على مقربة منا . وسمعنا صوت المؤذن يدعو إلى صلاة الجمعة ، فتلفت حولى ، كنت أريد أن أقوم للصلاة ، ولما لم يتحرك أحد ، وقفت فجأة وقلت : « بإذنكم » وكان سبب استئذانى واضحًا ، وعقب قيامى رأيت عددًا قليلًا من الجالسين يتبعنى إلى الخارج .

وبعد أن أديت الصلاة فكرت فى العودة إلى الندوة مرة أخرى ، وعندما دلفت إلى المجلس ابتسم الأستاذ نجيب محفوظ وقال « حرمًا » وابتسم البعض ولم يعلق البعض الآخر بشىء .

أصبحت هذه الندوة عادة أسبوعية أحرص عليها كل جمعة ، كانت ندوة حرة ، تطرح فيها شتى القضايا الفنية والأدبية والفكرية ، ونسمع فيها عن آخر الانتاجات العالمية فى الأدب والمشاهير من الكتاب والنقاد ، لم تكن هناك قيود على الحوار ، كل واحد يعبر عما يريد ، بالأسلوب الذى يريد ، قد يكون التعليق جادًا عميقًا ، وقد يكون ساخرًا ضاحكا ، وقد يكون تأييدًا أو هجومًا ، وقد يشتبك المتحاورون ويختلفون ، ونجيب محفوظ يستمع أكثر مما يتكلم بحيث لا يلحظ أحد أنه رئيس الجلسة ، إنه يعلق كبقية الحاضرين دون أن يظهر أستاذيته أو تفوقه ، متواضع، رقيق الحاشية ، لكن إذا كان الكلام غير منطقى علق بنكتة ظريفة لا تجرح .. وما أكثر المشاغبين والمتحمسين والمتشنجين فى الندوات الأدبية .. والحقيقة أننى معجب بشخصية الرجل ، وكنت أتابع ما يقول بدقة ، وأقرأ ما يصدره من كتب ، أو ما تنشره له الصحف من قصص وآراء وأفكار .

لم أكن لأتغيب عن الندوة إلا لعذر شديد ، وإذا غبت . وهو نادر الحدوث . أتعرض لسين وجيم ، وأصبحت جلستى فى ماجهة الأستاذ نجيب محفوظ مباشرة ، لماذا ؟ لأنه بمرور الوقت كلفنى الأستاذ نجيب محفوظ بقراءة الكتب التى ترد إليه وإلى الندوة من المؤلفين ، كى نناقش واحدًا منها فى الجلسة القادمة .. فكنت أقرأ الكتاب المختار قصصًا أو رواية أو غيرها ، ثم أطرح موجزًا عن الكتاب فى الجلسة ، وأجيب على الاستفسارات التى توجه إلى ، ثم بعد ذلك يبدءون فى مناقشة الكتاب والمؤلف .. بمعنى آخر .. أصبحت « سكرتير الندوة » .. وكان كلما أتى أديب وأهدى كتابه إلى نجيب محفوظ ، أخذه شاكرًا ، ثم سلمه لى كى أعده للحوار .. وبتكرار ذلك فقد أصبح الكتاب يأتون لى أنا الآخر بنسخة هدية .

كانت هذه الندوة تنفسًا لى ، وكنت أجلها جدًا ، وأصطحب بعض أصدقائى معى ، لكنى كنت فى نفس الوقت أذهب إلى ندوات أخرى أهمها نادى القصة واتحاد الكتاب بشارع القصر العينى

(عمارة سيف الدين) المقابلة لشارع المبتديان بالقاهرة ، كما كنت أذهب إلى مقهى الأدباء بالدقى . ورابطة الأدب الحديث ، والجمعية الأدبية المصرية وغيرها ، وإلى دار الأمناء لدى الأستاذ الكبير أمين الخولى وحرمه الأستاذة الدكتورة بنت الشاطئ ، ومع ذلك فقد بقيت ندوة نجيب محفوظ عميقة الأثر فى نفسى رغم ما كان فيها من تيارات متصارعة ، وآذان خبيثة ، وأقلام مستأجرة ، شغفت بكتابة التقارير عن خلق الله المساكين ، والحق أن تقديرى لنجيب محفوظ . رغم اختلاف التوجهات فى بعض الأمور تقدير لا يمحى ، فهو كإنسان حلو المعشر ، رقيق الحاشية ، خفيف الظل ، لا يسىء إلى أحد ، ويحاول ألا يكره أحدًا ..

❁❁❁

[٣] رجال الأمن يعصفون بالندوة



كانت ندوة « نجيب محفوظ » متنفسًا حقيقًا للأدباء والمفكرين، كما كانت غنية بالجديد من الآراء حول الاتجاهات الأدبية المعاصرة، وكثيرًا ما تشعب الحوار حول أدباء فى مختلف أنحاء العالم لهم شهرتهم وآثارهم الهامة، ولم تغفل الندوة ما يجرى من أحداث أدبية وفنية فى مصر وفى العالم العربى، ولم يكن فى استطاعة مجلة من المجلات. مهما كبرت. أن تغطى الموضوعات الكثيرة المتنوعة التى يطرحها المتحاورون فى حرية وشمول، وكثيرًا ما كان يطرح اسم من الأسماء الجديدة ليس لغالبية الحاضرين علم به، فينبرى أحد المتخصصين من ذوى الدراية، فيعطى فكرة كاملة عنه، ويكون هناك مجال للدراسات المقارنة.

فى أحد أيام الجمع اتفقت مع صديقى المدرس الأستاذ لطفى صقر لنذهب معًا إلى الندوة، وكان يحضرها لأول مرة، وقصدنا إلى المكان المعهود، وما إن عبرنا الميدان ووصلنا إلى باب « الكازينو » حتى برز إلينا رجل غريب، أتى من الشرفة المطلة على الميدان وقال: « إلى أين ؟ ».

قلت: « إلى ندوة نجيب محفوظ ».

فأشار إلينا أن نتبعه، لم أكن أفهم السبب، ولم استطرد فى التفكير طويلًا، إذ وجدت نفسى. ومعى صديقى. أمام رجل يضع نظارة سوداء على عينيه، ويجلس خلف طاولة صغيرة عليها فنجان من القهوة، وبيده سيجارة مشتعلة، وإلى جوار الفنجان قداحة ذهبية اللون، وعلبة سجائر، ونظر إلينا فى تمعن وقال: « البطاقة الشخصية »... أخرجت بطاقتى الشخصية، وقدمتها إليه، وقد أدركت أنه بلا شك واحد من رجال الأمن، وكذلك فعل صديقى، وأخذ يتصفح بطاقتى، ثم أمسك بقلم وبدأ ينقل البيانات المدونة عنى.

المعروف أن رجال الأمن فى المباحث العامة بوزارة الداخلية أقسام متخصصة، قسم يتولى السياسيين من الإخوان المسلمين، وقسم آخر للشيوعيين وفصائلهم المختلفة، وقسم للأحزاب القديمة، ورابع لحزب البعث، وخامس لتنظيم « الأمة القبطية » وسادس يتقصى النشاط اليهودى أو الصهيونى، وسابع للفلسطينيين ومنظماتهم وهكذا... أدركت للوهلة الأولى أن رجل الأمن هذا ليس من الضباط المختصين بالإخوان المسلمين، وتبادر إلى ذهنى أنه من القطاع الذى يتولى متابعة الشيوعيين وملاحقتهم، ولقد علمت أن ندوة نجيب محفوظ متهمة بأن أغلبها من الشيوعيين، ومعنى ذلك أن هذا الضابط سوف يضع اسمى بين أسماء الشيوعيين، وهذه كارثة.. لأنهم عندما يفكرون فى اعتقال الإخوان المسلمين فسوف يعتقلوننى على أساس إنى واحد من تنظيماتهم القديمة، وصدر ضدى حكم بالسجن لذلك فى عام ١٩٥٥، وعندما يفكرون فى اعتقال الشيوعيين مستقبلًا فمن المحتمل جدًا أن يعتقلونى معهم أيضًا، وأدركت أن الأمر لا يمكن السكوت عليه فقلت لضابط الأمن: « اسمح لى أن أوضح بعض الأمور... إننى فى الواقع ممن انتموا إلى جماعة الإخوان.. ولم أكن فى أى يوم من الأيام مع أى

تنظيم آخر .. وضباط الأمن عندكم بالداخلية المختصون بالإخوان يعرفوننى جيدًا .. أذكر منهم أحمد بك صالح داود ويحيى بك شفيق والغمراوى بك وغيرهم .. واعتقد أنك فى قسم آخر ، وأظن أن من حقى أن أوضح الأمر لك ، حتى لا تضعنى بين أسماء الشيوعيين وأنا منهم برىء . وإلا فسأكون مطاردًا هنا وهناك ..» ... وضحك الضابط فى سعادة ، ويبدو أنه أعجب بتحليلى للموقف ، وإدراكى ما ينطوى عليه من مفارقات ، ثم استدركت قائلًا : « أما صديقى هذا فلا صلة له على الإطلاق بالسياسة أو التنظيمات ، وهو يحضر اليوم الندوة لأول مرة ..» .

وبعد إتمام الإجراءات ، وتوجيه بعض الأسئلة والإجابة منى عليها ، سمح لنا بالانصراف ، واستفسرت منه عما إذا كنت أستطيع الصعود إلى الندوة ، فرد وهو يتفحصنى بنظراته المنذرة : « عد إلى بيتك ، ليس هناك ندوة بعد اليوم » .

وأثناء انصرافنا تطلعت إلى أعلى ، رأيت وجه الأستاذ نجيب محفوظ يطل من النافذة فى الدور الثالث والأخير من المبنى ، وإلى جواره المرحوم الأستاذ على أحمد باكثير ولوحت بيدى مودعًا .

وكان موضوع إغلاق ندوة نجيب محفوظ فى الأيام التالية حديث المحافل الأدبية ، وخاصة على مقهى الدقى الذى يجتمع فيه بعض الأدباء ، وفى نادى القصة بشارع القصر العينى ، وقيل يومها أن ندوة نجيب محفوظ تضم مجموعة من الشيوعيين القدامى الذين سبق لبعضهم الاعتقال ، والواقع كما سلف وأوضحت أن الندوة كانت تضم أشخاصًا من اتجاهات مختلفة بينهم كتاب وصحفيون وممثلون وفنانون تشكيليون ، وكان بينهم الإسلاميون والشيوعيون والمستقلون والناصريون ، وكان هناك أعضاء طارئون فى الندوة ، يأتون إليها لمامًا ولا تعرف هويتهم ، بل هناك من الأعضاء من كان من ضباط الشرطة العادية ، ومن ثم فإن الحكم على الندوة بأنها ذات صفة شيوعية حكم يجانبه الصواب .

وهكذا أغلق باب هذا المتنفس الذى كان ملاذًا لنا فى النصف الأول من عقد الستينيات ، والذى تميز عطاؤه بالفائدة والجدية وسعة الأفق ، وخاصة أن « عمدة » الجلسة كان نجيب محفوظ النجم اللامع فى عالم الرواية ، وصاحب الإطلاع الواسع على الآداب العالمية والعربية ، وصاحب الرأى المتزن البعيد عن الهوى ، بصرف النظر عن اختلاف الناس حول صواب هذه الآراء أو خطئها[1] .

ولقد شعرت بإحباط شديد من جديد ، لأن دولة ليس فيها أحزاب أو معارضة رسمية مثل مصر ، كان المفكرون والكتاب يجدون ظلًا يلجئون إليه للترفيه والترويح فى ذلك المناخ العصيب الذى يفتقر إلى الحرية والتعبير الصادق عن وجهات النظر لقد كان الحديث عن الحرية فى تلك الأيام أكذوبة كبرى ، رغم كل ما يدعيه أيضًا ذلك العهد ، فلم يكن هناك سبب إنسانى جدى يحرم الناس من حقهم فى الحرية ، ولا معنى للحرية إذا كانت فى إطار التعليمات والسياسات والنظم الذى يضعها الحزب الحاكم ، وأية حرية تلك إذا كان الناس يساقون إلى المعتقلات من أجل « نكتة » ناقدة أو ساخرة ، أو رأى يعبرون به عن ذواتهم ، أو مجرد رواية أحداث حقيقية يتهم قائلها بنشر الإشاعات الكاذبة ؟ كان العنف الثورى الحكومى طاغيًا بصورة مخيفة ، ألجمت الأفواه ، وحطمت الأقلام الحرة ، فآوى الناس إلى الصمت والعزلة ، حتى لا تتعرض كرامتهم للخطر ، وحتى لا يتهموا بالرجعية والخيانة ، وهذه ليست افتراءات نلصقها بهذا العهد ، ولكنها حقائق أكدها رجالات عبد الناصر فيما بعد ، كما أشار

---

(١) كتبنا هذا الكلام قبل أن ينال نجيب محفوظ جائزة نوبل .

إليها مؤرخه الشهير محمد حسنين هيكل فى أكثر من موقع فى كتبه ، بل واستغلها الأستاذ نجيب محفوظ نفسه فى كثير من قصصه القصيرة ورواياته بطريقة رمزية فيها الكثير من الوضوح ، حتى إن نجيب محفوظ نفسه تعرض للاعتقال ، وكان أن تطوع الدكتور ثروت عكاشة بإنقاذه ، وإقناع عبد الناصر بخطأ حبسه ، (ولقد روى نجيب محفوظ نفسه هذه الوقائع فى تصريحاته بعد فوزه بجائزة نوبل) ومما رواه نجيب محفوظ تلك الواقعة الخاصة باعتقاله ، وكذلك ذكر أن عبد الناصر عند زيارته لجريدة الأهرام ومصافحته لنجيب محفوظ ، قال هيكل للرئيس : « إن كتابات نجيب محفوظ تودى فى داهية » . فرد عبد الناصر ضاحكًا : « إللى يروح فى داهية رئيس التحرير » .

وتضاحك الجميع ، ومعروف أن رئيس التحرير للأهرام هو « هيكل » ، وهناك عشرات الأحداث تؤكد إلمام عبد الناصر بالانتهاكات الإنسانية التى تعرض لها أصحاب الرأى والفكر من مختلف الاتجاهات ، ولقد كان معنا فى السجون والمعتقلات الكثير من هؤلاء ، وإن كان العنف الأكبر كان موجهًا لجماعة الإخوان المسلمين بالذات . وإنى أقول بأمانة تامة ، بأنى استفدت كثيرًا من ندوة نجيب محفوظ ، وخاصة أننى فى فترة ما قبل اعتقالى كنت بعيدًا عن الأجواء الأدبية ، وكانت كل علاقاتى بالأدب هو الكتب التى أقرؤها ، ولم تتح لى فرصة اللقاءات المباشرة بالأدباء إلا بعد حصولى على الجوائز الأدبية فى المعتقل . والحكمة ضالة المؤمن ، يستفيد منها أنَّى وجدها ، ولقد أعجبنى فى نجيب محفوظ الحزم الذى أخذ به نفسه ، والانضباط الذى فرضه على حياته ، وإطلاعه الواسع وخاصة ما يتعلق بفن القصة وباللغة العربية ونحوها وصرفها ، وقراءاته المتنوعة فى التراث وفى بعض اللغات الأجنبية ، كما كان دقيقًا فى عمله الفنى ، فهو يحكم صنعته ، ويجيد الإعداد للموضوع الذى يكتب فيه ، ويعمل « أرشيفًا » لأبطال قصصه ، ثم يراجع ما يكتب ، ويحتفى بالأسلوب ، ويحرص على الفصحى حتى فى الحوار ، وكان نجاحه رادًا مفعمًا لدعاة الكتابة بالعامية ، كما أنه أحسن الاستفادة من حياته فى الطفولة والصبا والشباب ، ومن البيئة الاجتماعية والسياسية التى عاش فى ظلها ، وسجل أهم أحداث البلاد فى رواياته ، ففى ثلاثيته مثلًا (وقد كتبها قبل الثورة) يعرض للتيارات السياسية فى مصر وتطورها ، ولا يغفل الأحزاب المصرية التقليدية ولا الشيوعيين ، ولا الإخوان المسلمين وغيرهم ، كما أشار إلى الأمراض الفتاكة التى تهدد أمن وسلامة المجتمع على مختلف المستويات ، وعرّى النفاق والرياء والوصولية والجشع وإن كان لى بعض التحفظات على بعض أفكاره المتضمنة فى قصصه .

ولقد أتيح لى مناقشة مجموعة قصصى القصيرة فى الندوة ، وكذلك رواية اليوم الموعود ، كما قرأ لى نجيب محفوظ عددًا من الروايات الأخرى التى أعجبته ، واختار واحدة منها للسينما وهى رواية ليل وقضبان ، وكان له فضل إخراجها إلى مشاهدى السينما عن طريق مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى (شبه حكومية) ، والتى أعد لها السيناريو والحوار الأستاذ مصطفى محرم ، وأخرجها الفنان أشرف فهمى ، ومثل فيها من النجوم سميرة أحمد ومحمود ياسين ومحمود مرسى ومجدى وهبة وتوفيق الدقن وغيرهم ، وقد فاز الفيلم بالجائزة الأولى فى مهرجان طشقند الدولى فى أوائل السبعينيات من القرن العشرين ، ولأن الفيلم كان ذا رمز سياسى ، فقد اعترضت عليه الرقابة بشدة ، ولكاتب السيناريو الأستاذ مصطفى محرم حديث حول الرقابة وفيلم « ليل وقضبان » نشر فى جريدة الخليج ، أوضح تفاصيل اعتراض الرقابة .

بعد انفضاض ندوة نجيب محفوظ سمعت أنه يجلس فى مقهى « ريش » بالقاهرة ، وفكرت أن أذهب إليه ، وكنت مترددًا ، ولكننى حزمت أمرى وذهبت إلى هناك ، وخيل إلى أن هناك عيونًا ترصد

حركاتنا ، وآذانًا تتابع أحاديثنا رغم خلوها مما يضايق الحكومة ، ولهذا آثرت فى النهاية الانقطاع عن الحضور وأنا حزين .. لم يكن نجيب محفوظ بقادر على أن يترك المقاهى الأدبية ، لأنه لم يكن يستقبل أدباء فى بيته ، ولم تكن له هوايات أخرى سوى الجلوس مع أصدقائه خارج المنزل . وذلك يشكل جانبًا أساسيًا فى حياته ، إنه يشرب القهوة ، ويقرأ الصحف ، ويتحدث مع أصدقائه فى الأدب والفن خاصة ، ويجد فى ذلك متعة كبيرة ، ثم ينصرف إلى بيته للعمل قراءةً أو كتابة ، لقد أخلص لفنه وأعطاه الكثير من الوقت والجهد والإعداد ، ولهذا تجد مستوى متميزًا مقبولًا فى مختلف قصصه ورواياته ، على عكس الكثيرين من الكتاب الذين تتفاوت إجادتهم من عمل لآخر ، كما كان متفرغًا تقريبًا لفنه لا يشغله عنه شاغل ، وأعتقد أن هذا التفرغ لم يتح إلا لعدد قليل من أدبائنا ومفكرينا نذكر منهم الأساتذة توفيق الحكيم وعباس محمود العقاد ومحمود تيمور والدكتور طه حسين .

ولم تنقطع صلتى بنجيب محفوظ إلا بعد أن سافرت للعمل بدولة الإمارات العربية المتحدة فى عام ١٩٦٨، وإن بقيت على إطلاع دائم بمؤلفاته وخاصة مسلسلاته التى ينشرها فى الأهرام، وفى أثناء وجودى بإمارة دبى قرأت له فى مجلة المصور القاهرية تصريحًا يتحدثون فيه عن أجيال القصة المصرية ، فذكر الجيل الأول ومنهم طه حسين والعقاد وتيمور .. إلخ ، ثم الجيل الثانى وذكر منهم نفسه وعبد الحليم عبد الله والسباعى وغيرهم ، ثم الجيل الثالث وأورد أسماء ، ثروت أباظة ويوسف إدريس ومصطفى محمود ، وذكر اسمى بينهم ، ثم الجيل الرابع وهم جيل الشباب الجدد وطرح بعض الأسماء . وعندما حصل على جائزة نوبل كتبت عنه مقالة فى مجلة « المنتدى » التى تصدر فى دبى ، وفى تصريح صحفى له حول أهم الكتابات التى أعجبته عن أدبه ، أشار إلى مقالتى بحماس، وأكد أنها من أحسن ما كتب عنه ، ثم أردف قائلًا : « إن نجيب الكيلانى من التيار الإسلامى ، وهو منظر الأدب الإسلامى الآن » (مجلة المصور ١٣ أكتوبر ١٩٨٩) .

وفى خلال فترة وجودى بالإمارات كتبت عددًا من المقالات النقدية عن بعض رواياته .

والحقيقة أن نجيب محفوظ. دون شك. القمة الباذخة للقصة العربية المعاصرة ، وهو التطور الطبيعى المزدهر لهذا الفن ، بعد أن تلقاه على أيدى من سبقوه ، وبعد أن استطاع أن يستفيد من التراث العالمى القصصى العظيم ، وليس هناك من استطاع مطاولته فى فنه ذاك إبان هذا العصر ، ولقد استطاع نجيب محفوظ بحنكته وذكائه ألا يقع فى إغراء الحداثة المفرطة فى الغموض والرموز والكوابيس والهلوسات غير الهادفة ، وظل متماسكا ومتمسكا فى فنه ، ولم ينس قط أن يحمّل عمله القصصى فكرة من الأفكار ، أو يحرص على موقف من المواقف ، أو بمعنى آخر كان صاحب رسالة وإن اختلفنا أحيانًا فى مضمون الرسالة ، وطبيعة الخطاب ، ولقد تعلمت من نجيب محفوظ فى هذا المضمار أنه فعلًا « وراء كل فن عظيم فكر عظيم » ، وأن الفن لابد وأن يؤدى دورًا إيجابيًا فى الحياة غير الاستمتاع والتذوق الجمالى ، ومن غريب الصدف أن نجيب محفوظ عندما سألوه عن « الأدب الإسلامى » بعد فوزه بجائزة نوبل ، ذكر آراء وأفكارًا تتفق تمامًا مع وجهة نظرى فى ذلك ، تلك التى حرصت على ترديدها وكتاباتها فى مؤلفاتى ومحاضراتى طوال الثلاثين عامًا الماضية ، مع اختلاف طفيف فى بعض الجزئيات والتقويمات[١] .

---

(١) أضيفت إلى هذا الفصل فقرات خاصة بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل .

[٤] اتحاد الكتاب ونادى القصة:



كان اتحاد الكتاب ، وبه نادى القصة ، فى البناية المقابلة لشارع المبتديان (٦٨ شارع قصر العيني) ، وكان يؤمه العديد من شباب الكتاب . شعراء وقصاصين ونقادًا . وموعد اللقاء فيه يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وكان النجم اللامع فيه دون شك هو الأستاذ القاص محمد عبد الحليم عبد الله ، والذى يتواجد مساء كل ثلاثاء فى النادى ، وهو الذى يقوم بافتتاح الأمسية أيًا كان موضوعها ، ويقدم المتحدثين ، وكثيرًا ما يقوم بالتعليق ، وهو الذى يختتم الأمسية فى النهاية ، ففى إحدى الأمسيات مثلًا يختار ثلاثة من كتاب القصة ، يقرأ كل واحد منهم قصة جديدة ، ويعلق عليها أحد الفقهاء المتخصصين ، ويشترك فى المناقشة جمهور الحاضرين كل حسب توجهاته ورأيه .

وقد تكون الأمسية شعرية ، فيتتابع الشعراء لإلقاء قصائدهم ، ويتناوب المعلقون بعدهم للتحليل والنقد ، وقد يكون الشعر عموديًا ، وقد يكون من شعر التفعيلة الحديث ، وقد تركز الأمسية على شخصية من الشخصيات على كتاب من الكتب الأدبية الهامة ، وكمثال على ذلك فقد أقيمت أمسية خاصة بالشاعر أحمد رامى ، وأمسية أخرى عن أدب الرافعى ، وثالثة عن كتاب « فن القصة » للدكتور رشاد رشدى ، ورابعة عن الأدب أو الفن الشعبى ، وقد تجد فى اتحاد الكتاب أفرادًا ممن يداومون على ندوة نجيب محفوظ أو رابطة الأدب الحديث ، أو الكتاب المصريين وغيرهم ، ونظرًا لأن الأستاذ المرحوم يوسف السباعى هو سكرتير عام الاتحاد ونادى القصة ، والدكتور طه حسين هو رئيس الشرف ، فإن الاتحاد . وهو مؤسسة شبه رسمية . كان يحظى بالدعم والحماية من الدولة ، وكان أعضاؤه المسجلون يدفعون اشتراكًا شهريًا ، كما كان للانضمام إلى الاتحاد (أو نادى القصة) أسلوب محدد؛ إذ لابد أن يكون للعضو إنتاج أدبى مقبول ، وأن يزكيه ثلاثة من كبار الأدباء حتى يصبح عضوًا عاملًا ، وهناك من يفوزون بالجائزة الأولى فى مسابقة نادى القصة ، فهؤلاء يقبلون أعضاء فى النادى ، وكان نادى القصة يجرى مسابقات كل عام من أبرزها مسابقة القصة القصيرة ، ومسابقة الرواية ، وتوضع لهذه المسابقات الشروط الخاصة بها ، والمواعيد المحددة لها ، وتمر الأيام وأصبح بعد سنوات قليلة عضوًا فى التحكيم بهذه المسابقات (القصة القصيرة والرواية) .

وهناك قصة طريفة قد يكون من المفيد تسجيلها ، فقد رأيت فيما يرى النائم ذات مرة أننى أجلس فى مدرج مكتظ بالناس ، وكنت أجلس على ما أتذكر فى الصف الثالث ، وأمام الجمهور وضعت منصة كبيرة يجلس عليها أشخاص ذوو حيثية لكن لم أعرف شخصية أحد منهم ، وفجأة صدر أمر من الجالسين فى المنصة أن انتقل من الصف الثالث إلى الصف الأول الذى وجدت نفسى وحيدًا فيه .. وأفقت من نومى وأنا أتذكر الرؤيا جيدًا ، لكن فشلت فى إيجاد تفسير لها فتناسيتها آيسًا من تأويلها .. وذات يوم قرأت فى الأهرام نبأ فوزى بالجائزة الأولى فى مسابقة القصة القصيرة لعام ١٩٥٩، وبالميدالية

الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين .. وأسرعت بالذهاب إلى النادى مساء ، فاستقبلونى بالتهانى والترحاب ، وكان فراش النادى « عم حسين » رحمه الله ، من أشدهم سعادة ، والتف حولى الأصدقاء ، وإن كان بعضهم أبدى سخطه على الفائزين العشرة وخاصة الأول ، لا أدرى لماذا ؟ جلست مع الأستاذ حسين فؤاد سكرتير المرحوم يوسف السباعى فى مكتبه ، وسألته عن تفاصيل النتيجة ، فقام وأحضر نسخ القصة الفائزة ، كان عدد واضعى الدرجات فى اللغة الفرعية واللجنة النهائية ستة من كبار الكتاب بعضهم كتب عشرة على عشرة ممتازة ممتازة ممتازة وآخر كتب تسعة على عشرة ، أما الأستاذ الصديق الأستاذ عبد الحليم عبد الله للأسف فقد كتب : خمسة على عشرة لا بأس ، لكن الثلاثة الأعضاء فى اللجنة النهائية فقد أعطى كل منهم النهاية الكبرى (عشرة على عشرة) ، وبذلك فزت بالجائزة الأولى .. ومن خلال إطلاعى على أوراق المسابقة أدركت أن اللجنة الفرعية كان مجموع درجاتها ٢٤ درجة من ٣٠ أما اللجنة النهائية فقد كانت ٣٠ درجة من ٣٠ درجة معنى ذلك أننى تحولت من الراتبة الثالثة فى اللجنة الفرعية ، إلى الراتبة الأولى فى اللجنة النهائية ، وحكمها هو الفيصل فى المسابقة ، وكان على رأسها الأديب الكبير الأستاذ يحيى حقى . وهنا تذكرت تلك الرؤيا الغامضة الغريبة التى لم أستطع تأويلها منذ أيام ، لقد أصبحت فى غاية الوضوح .. كانت رؤيا صادقة مهما قال علماء النفس ، فإن التجربة أقوى برهان ، وكيف تشك فى ذلك وفى القرآن الكريم الدليل الحاسم الصادق على مختلف أنواع الرؤيا ؟

وتسابقت الصحف والمجلات على نشر قصتى الفائزة ، وأذكر أننى سمحت بنشرها عندما قرأت هذه القصة واسمها « شجاع » فى ندوة نجيب محفوظ لمناقشتها ، استمع الحضور جيدًا ، وكان نجيب محفوظ يضع يده خلف أذنه ، ويوجه صيوانها نحو الصوت كعادته . وأخيرًا أجمع المتحدثون على تميز القصة ، وقال على أحمد باكثير فيما أذكر « إن هذه القصة قدمت أنموذجًا إنسانيًا واقعيًا مؤثرًا ، فى إطار قضية كبرى ، قدمت تقديمًا فنيًا بارعًا » وعلق الأستاذ نجيب محفوظ مؤكدًا على نفس المعنى البارز فى القصة ، أما الأستاذ عباس خضر فقد أفاض فى الشرح والتحليل بما لا يخرج عن خلاصة الرأى العام ، وتطرق إلى دقة الحوار وإيجازه وتوظيفه توظيفًا جيدًا فى إطار القصة القصيرة التى هى مكثفة بطبيعتها ...

ولقد تحمست جدًا للاشتراك فى الأمسية التى أقامها اتحاد الكتاب عن أدب الرافعى ، حيث انقسم المعلقون إلى فريقين متضادين ، أحدهما يثنى ويؤيد الرافعى فى أسلوبه ومنهجه ، والآخر يعارض ويرفض ، ولقد كنت قد كتبت عن الرافعى كتابًا كاملًا أثناء وجودى فى السجن ، تناولت شتى جوانب إنتاجه الأدبى ، وخاصة فى مجال القصة والشعر ، والمقالة بالطبع ، ووجدت عناء كبيرًا فى تصنيف هذا الكتاب ، ولكن المخطوط للأسف الشديد فقد بعد ذلك ولم يكن لدى نسخة منه ، وكان أحد المتحدثين يهاجم شعر الرافعى (وأظنه الأستاذ المرحوم عباس خضر) ، ويرميه بجمود العاطفة فى تعبيره الفنى ، فقمت بعد فترة لأوضح مكانة الرافعى بين أدباء عصره ، ثم ارتباط قصصه بالواقع المؤلم فى ذلك الوقت ، وبالأحداث الكبار ، وركزت على براعته فى تحليل النفس الإنسانية وتحولاتها ، فى وقت لم يكن « علم النفس » قد شاع مثل أيامنا هذه ، وكان ردى على العاطفة فى شعره ، بأن ألقيت بعض أبيات من شعره الرقيق الرومانسى ، وخاصة قصيدته الشهيرة التى بدأها بالبيت التالى :

من للمحب ومن يعينه　　　والحب أهنأه حزينه

أنا ما عرفت سوى قسا وته فقولوا كيف لينه

. . . . الخ، فضجت القاعة بالتصفيق .

وختمت كلماتي بأن الرافعي بأسلوبه المتميز الرصين ، وتشبثه بلغة الآباء والأجداد ، لغة القرآن الكريم ، كان حارسًا يقظًا مثابرًا يسهر على تراث لغتنا ، ويحميها من المخربين والأوغاد من دعاة العامية ، وأعداء الإسلام .

ولقد أثار كتاب الدكتور رشاد رشدى عن « فن القصة القصيرة » عاصفة من النقد والتعليقات ، ولعله كان أهم كتاب صدر فى هذا الباب وقتذاك ، وكان واضحًا أن رشاد رشدى من دعاة « الفن للفن » ، ويركز على « الجمالية » وحدها فى العمل الفنى ، ويرفض أن يكون الفن بوقًا من أبواق الإيديولوجيا أو المذاهب ، وكانت الجلسة فى تلك الأمسية مكتظة بالحاضرين وكبار النقاد والكتاب من مختلف المشارب والأهواء ، لكنه ، أى رشاد رشدى ، بعد أن قدم عرضًا لكتابه وأفكاره ، اصطخب الجدل ، وبرز عدد من المعارضين لفكره ، وأنا لا أخوض فى تفاصيل ذلك ، فقد تعرضت لطرف منه فى بعض كتبي ، ولكنى عندما وقفت لأدلى بدلوى فى المعمعة قلت ما معناه ، إننا لا نتنكر للقيم الجمالية فى الفن لأنها أساسية ، ولكننا نصر ونؤكد على قيام الأدب بدور إيجابى لدى المتلقى ، وبالتالى لدى المجتمع ، وأعلنت بصراحة أن الفنان « متحيز لموقف » ولابد أن يكون كذلك وإلا فقد الكثير من تميزه وهويته وقيمته .

وفى أمسية المرحوم الشاعر أحمد رامى ، وقف أحد النقاد اليساريين ووجه إليه نقدًا لاذعًا بخصوص أشعاره العاطفية ، وخاصة الأغانى العاطفية التى كان يكتبها للسيدة أم كلثوم ، ولامه على قلة شعره الوطنى والنضالى ، إلى غير ذلك من التهم التى يروجها الماركسيون حول من لا يتفقون معهم فى الرأى والمسيرة .. وبدأ الألم على وجه الشاعر الكبير ، وهو يستمع إلى هذا الهجوم الضارى ، وامتقع وجهه ، وكنت على مقربة منه ، والواقع أننى تألمت لألمه ، وخاصة عندما أغرورقت عيناه حينما سمع الناقد يقول إن أغانى رامى عن الهيام والهجران والدموع وعذاب المحبين وأرق العاشقين ، قد علمت الشباب والمراهقين الميوعة ، ودفعتهم إلى ارتكاب جرائم الانتحار من فوق مبنى « مجمع التحرير » . وضحك البعض ..

كانت كلمات قاسية ..

ووقف رامى حزينًا ليذكرنا بشعره العذب ، وقصائده الكثيرة عن الوطن والناس والقيم والمبادئ ، وعن صفحات كثيرة له تشهد بنبوغه وتاريخه الأدبى ، والحقيقة أنه وجد استجابة وترحيبًا حارًا من المشاركين . تجلى فى تصفيقهم له تصفيقًا طويلًا ، كما تجلى فى تعليقات كبار النقاد والأدباء الآخرين الذين أعطوه حقه ، ولم تفتنى هذه الفرصة ، فقد خطوت إلى المنصة ، وقلت : لماذا نحاول أن نقيم الأدباء من خلال وجهة نظر ضعيفة لا عصمة لمنهجها ، وليس هناك دليل مؤكد على صحتها ؛ وماذا يمنع أن يهتم شاعر بالعواطف الإنسانية ويترجم عنها بل وقد يتخصص فيها ؟ لماذا لا ندع البلابل تغرد بالحب والوطن وعواطف الإنسان المختلفة .. لماذا لا ندعها تدعو وتضرع لله ، وتبكى وتضحك ؟ ثم ختمت كلمتى بالثناء على تاريخ شاعرنا الكبير ، وبأبيات من إحدى قصائده التى تترنم بحب الأوطان والإنسان والحياة .

ما أكثر الأمسيات الأدبية الرائعة التي قضيناها فى نادى القصة واتحاد الكتاب ، وما أكثر الأدباء

البارزين الذين استمعنا إليهم وحاورناهم .. كان بعضهم قممًا شامخة ، وتاريخًا عريقًا ، وتجربة أصيلة ، وجهدًا رائدًا ، لقد سعدنا أيما سعادة ونحن ننهل من فيضهم على اختلاف مشاربهم ، وكنا نحبهم ونشعر بالارتواء والشبع ونحن نجالسهم ونراقب حركاتهم وسكناتهم وانفعالاتهم ، لم يخطر ببال أحدنا أن نسيء إليهم ، أو نسخر، غرورًا، منهم ، وكنا نرى أننا أكثر حظًا من غيرنا؛ إذ نراهم ويروننا ، ونحادثهم ويحادثوننا .. إنه لأمر عظيم أن ترى العبقرية مجسدة أمامك ، فتراها بعينيك ، وتسمعها بأذنيك ، وتتمثلها فى فكرك اليقظ .

لقد مرت الأيام ، ومات أغلب هؤلاء ، لكن ما زالت ذكراهم العطرة عالقة بذهنى ، وما زلت أتذكر أحاديثهم ومجالسهم وتعليقاتهم الجادة والضاحكة .. لكم أتمنى أن تعود تلك الليالى الحلوة .. لكن الماضى لا يعود .

والواقع أن تاريخى السياسى لم يكن عقبة فى طريق الانطلاق إلى هذه المجتمعات ، كانوا يعرفون عنى الكثير ، وكانوا يخالفوننى فى الرأى والموقف ، لكننا عشنا كأصدقاء ، يحترم كل منا الآخر ، لكن ذلك لم يمنع البعض من اتخاذ الحيطة والحذر ، فقد تجرى صداقتى لهم بعض الأضرار والشكوك حولهم .. كنت أصافح اليد التى تمتد لمصافحتى أيًا كان صحابها ، وأعذر من يزورّون عنى، وفى كل الأحوال لم أتلبس فكرًا غير فكرى ، أو أحمل شعارًا غير شعاراتى الراسخة ، دون ضجيج أو إعلان .. نعم حاولت أن أبقى مسلمًا .. ففى هذه الفترة العاصفة المتوترة أصدرت فى ليبيا كما قلت كتابين لهما أهميتهما هما « الطريق إلى اتحاد إسلامى » و« الإسلامية والمذاهب الأدبية » ثم مجموعة قصصية اسمها « العالم الضيق » إننى كل عام أو عامين أطل على نادى القصة ، فأرى الوجوه قد تغيرت . . لقد ذهب الكثيرون .. وجاءت أجيال جديدة .. ومصطلحات جديدة ... وموظفون جدد .. وهكذا الدنيا ...

❁❁❁

[٥] لقاء الأدباء مع عبد الناصر



في شهر فبراير ١٩٦٢ انعقد بالقاهرة مؤتمر « كتّاب آسيا وأفريقيا » وقد اختارنى اتحاد الكتاب فى مصر لأكون من الأعضاء المشاركين فى المؤتمر ومعى عدد كبير من الأدباء ، وكنت أعمل كطبيب امتياز بمستشفى أم المصريين آنذاك ، وقد حشد المؤتمر عددًا لا بأس به من المشاهير فى فنون الأدب المختلفة وعلى رأسهم الشاعر التركى الشهير « ناظم حكمت » وأديبنا الكبير نجيب محفوظ وغيرهما من روسيا والهند واليابان والصين والدول الأفريقية وغيرها ، ولقد تحدد يوم يلتقى فيه الأدباء مع الرئيس جمال عبد الناصر فى قاعة العرش بقصر عابدين الخاص بالملك السابق فاروق الأول ، وفى اليوم المحدد حملتنا السيارات الرسمية إلى ساحة عابدين .

وعلى باب القصر كان الضباط يأخذون ما معنا من حقائب يد قبل الدخول ، ويتفحصوننا جيدًا ، ثم احتشدنا فى القاعة الواسعة ، التى ليس فيها سوى « كرسى العرش » وحده ، وليس هناك مكان للجلوس ، وفوق رأس الكرسى كتب بالذهب عبارة أظن أن منطوقها يقول « بالعدل تساس الرعية » أو شيئًا من هذا القبيل ، وتناثرنا فى القاعة ، وجاء الرئيس ومعه عدد من رجال الثورة والوزراء والحرس ، ثم وقف فى الاتجاه المقابل لكرسى العرش ، وألقى بيانًا تاريخيًا بهذه المناسبة أشار فيه إلى أهمية الأدب ، ودوره فى رفع مستوى المجتمعات والتقريب بين الشعوب ، ومناصرة قضايا التحرر ومكافحة الاستعمار وما إلى ذلك ، واستقبله الحضور بعاصفة من التصفيق ، وكانوا جميعًا وقوفًا كما سبق وأشرت ، وكان إلى جوار الرئيس وهو يخطب المرحوم الأستاذ يوسف السباعى سكرتير عام المؤتمر ، ثم سمعناه يقول لنا إن الرئيس سوف يصافحنا فردًا فردًا ، وطلب منا أن نذكر أسماءنا ونحن نصافح الرئيس وأن نقف صفوفًا منتظمة استعدادًا لذلك .

وكان من بين الحضور فى ذلك اليوم أعنى تلك الليلة الصحفيان الكبيران على أمين ومصطفى أمين وإلى جوارهما الأستاذ أنيس منصور ، ولقد عجبنا لهذا الأمر ، ذلك لأن الثلاثة كان الرئيس قد غضب عليهم ونحاهم منذ فترة ، فكان لظهورهما المفاجئ بيننا مدى كبير من الدهشة والتساؤل .

وبدأ عبد الناصر يصافحنا ، كان إلى يمينى المرحوم الأستاذ على أحمد باكثير ، وعلى يسارى الصديق الأستاذ رجاء النقاش ، وعلى مقربة منا الأستاذان على أمين ومصطفى أمين ، ولاحظت من موقعى أن الرئيس صافحهما بفتور وبسرعة ، وعندما جاء الدور على الأستاذ باكثير صافح الرئيس صامتًا دون أن يذكر اسمه له ، أما أنا ورجاء النقاش فقد عرّفناه بأسمائنا ، قلت للأستاذ باكثير : لماذا لم تذكر له اسمك ؟ فلوح بيده دون اكتراث ، ونطق بكلمات قليلة لم أفهمها ، وفى اليوم التالى كتب رجاء النقاش مقالة جميلة فى الصفحة الأولى من جريدة الأخبار بعنوان « رأيت جمال » .

وبعد ذلك انتقلنا إلى قاعة تناول العشاء ، حيث وضع الطعام على « البوفيه » ، وكان كل واحد منا يذهب ويأخذ طبقًا ، ثم يتجه إلى الطعام ليأخذ ما يشاء ، ثم نتناول طعامنا وقوفًا ، كان إلى جوارى

رجل طيب ذو لهجة مغربية ، وكنت أتبادل معه الحديث ، وفجأة رأيت الرئيس يتجه ببصره نحونا ، وكان لا يأكل ، وأشار بأصبعه ، فأصابنى ارتباك شديد ، وبقيت جامدًا فى مكانى ، أما الزميل الذى كان يحادثنى فقد وضع طبق الطعام على « البوفيه » ثم اتجه ناحية الرئيس ، وأنا مشدود البصر إليه ، ووجدته يصافحه ، والرئيس يبتسم فى ود بالغ وبعد دقائق قليلة عاد الرجل ، ثم تناول طبقه من جديد ليواصل الأكل .

قلت له : « ماذا قال لك جمال ؟ » .

قال : « كلمات ترحيب ومجاملة » .

قلت له وأنا أتفحص ملامحه : « من أنت ؟ » .

قال بصوت خفيض متواضع : « مهدى بن بركة » .

- « الزعيم المغربى » ؟

لم يرد ، فقد كان كفاح مهدى بن بركة على كل لسان ، وكانت صوره وتصريحاته تملأ الصحف ، وكان يجد التأييد والرعاية والدعم من رئيس مصر ، وكلنا يعرف بعد ذلك المأساة الدامية التى راح ضحيتها مهدى بن بركة بعد ذلك ، حينما تآمر « الجنرال أوفقير » المغربى مع المخابرات الفرنسية لقتله ، بطريقة شيطانية مقززة ، ويشاء الله بعد ذلك أن يتآمر الجنرال أوفقير على ملك المغرب ، ثم يسقط صريع طموحاته الجنونية ، وهكذا ينطبق عليه « من قتل يقتل ولو بعد حين » . بينما كنا نصافح الرئيس ، سمعت من خلفى فتاتين تقول إحداهما للأخرى : « هل رأيت عينى الرئيس ونظراته ؟ » .

- « فى منتهى القوة .. حاجة تجنن » .

وضحكت أنا والأستاذ باكثير لحوارهما .

وبعد أن التقى الرئيس بمهدى بن بركة ، ودعاه لمقابلته فيما بعد ، شاهدت الشاعرة العراقية « نازك الملائكة » وزوجها الدكتور عبد الهادى يقفان مع الرئيس الذى أخذ يتبادل الحديث مع الشاعرة المبهورة به ، ثم أشار الرئيس بعد ذلك إلى رجل أفريقى يلبس الكثير من عقود الخرز ، والزى المميز ، وتحدث معه وبينهما مترجم ، وهكذا استمر الوضع فى الحديث مع بعض الضيوف .

كنت أشعر بآلام شديدة فى ركبتيّ وساقيّ بسبب الوقوف مدة طويلة ، وكنت أريد أن أجلس بضع دقائق لآخذ قسطًا من الراحة ، وتخف الآلام ، لكن كيف السبيل إلى ذلك وليس هناك مقعد ، هل أجلس على الأرض ؟ ! ونظرت إلى بعيد فوجدت فى آخر الساحة المجاورة جنديًا عملاقًا من الحرس ، وبالقرب منه مقعد صغير ، فتوجهت نحوه وقلت : « هل تسمح لى بالجلوس بضع دقائق ؟ » .

قال برقة : « تفضل ..» .

ومرت بضع دقائق ، شاهدت بعدها الرئيس يغادر الحفل حوله كوكبة من الرجال الكبار فى السلطة ، وأصابنى ارتباك شديد ، ذلك لأن الحرس قد يشك فى وجودى وحدى فى هذا المكان ، فماذا ستكون النتيجة لو حدث هذا الشك ، ونهضت من مقعدى واقفًا بهدوء حتى لا أثير الريبة ، ووقفت وقلبى يدق ، وعندما اقترب الرئيس من موقعى وجدت فتاتين تجريان خلفه ، فوقف وقال لهما : « ماذا تريدان ؟ » .

- « نريد صورة تذكارية معك يا سيدى الرئيس » .

قال : « وأين المصور ؟ » .

ولم يجدوا المصور ، فابتسم الرئيس وقال : « خلاص .. مرة ثانية » .

وانفض السامر ..

قلت للأستاذ باكثير بعد أن عدت إليه : « دمى نشف ، وجف ريقى وأنا أقف وحدى والرئيس قادم » .

قهقه الأستاذ باكثير وقال : « لماذا تضع نفسك موضع الشبهات ؟ أأنت موعود بالمشاكل ؟ » .

– « وعد ومكتوب يا أستاذ .. الحمد لله .. جاءت سليمة » .

وفى إحدى الأمسيات دعينا لطعام العشاء فى السفارة السوفيتية ، وفكرت فى عدم الذهاب ، ولكنى عدت وقررت الذهاب لمجرد حب الاستطلاع ، وهناك رأيت عددًا من شباب الكتاب الشيوعيين الذين أعرفهم فى قمة النشوة والسعادة ، قلت لأحدهم : « ماذا جرى يا عبد الفتاح ؟ » .

قال لى فى حماسة : « اسكت .. سوف أشرب « الفودكا » الروسية الشهيرة أنا والرفاق ، لقد قرأنا عنها فى قصص دستوفسكى وتشيخوف وجوجول ومكسيم جوركى وغيرهم » .

قلت له : « وماذا تكون الفودكا ؟ إنها شراب ملعون كالخمر التى تشربونها هنا » .

– « لا تخض فى أمور لا تعرفها ، ولا تتدخل فيما لا يعنيك .. الفودكا للشيوعى مثل التعميد للمسيحى ..» .

والتقيت فى أحد الاحتفالات الأخرى بأديب الأطفال الشهير « شوجوكويد » ، وكان رجلًا متقدمًا فى السن ، تبدو عليه الدعة والحكمة والوقار ، وكان يحظى باحترام وتقدير جميع أعضاء الوفد اليابانى الذين قدموه إلىّ ، وقالوا أنه كتب للأطفال حتى الآن ما يربو على مائة وست قصص للأطفال من أفضل ما يمكن ، وأن جميع الأطفال فى اليابان يحبونه حبًا جمًا ، وكان الرجل يتكلم الإنجليزية ببساطة ووضوح ، وأخذ يجاذبنى الحديث عن قصص الأطفال فى مصر وأعلامها المشهورين ، ويطرح الأسئلة حول هذا الموضوع ، ثم أخذ يسألنى عن الأساطير الفرعونية ، وهل جمعت فى كتاب باللغة الإنجليزية أم لا ، ثم طلب منى أن أرسل إليه هذا الكتاب إذا وجدته ، وودعته بعد أن أخذنا الصور التذكارية . وأثناء الاجتماعات العامة ، كانت هناك فواصل زمنية قصيرة لمدة ربع أو ثلث ساعة ، نلتقى ونتعارف مع الكتاب الأجانب فى تلك الفسحة ، وذات مرة رأيت الأستاذ رجاء النقاش قادمًا ومعه المرحوم الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ، وثالثهما مستشرق روسى لا أتذكر اسمه الآن وقال رجاء النقاش : « إنهم يرغبون فى ترجمة بعض قصصك للروسية ، فاختر لهم الرواية المناسبة » .

قلت : « أنت تعرف مؤلفاتى ، لدى « اليوم الموعود » و « الطريق الطويل » و « الربيع العاصف » وهناك مجموعات قصص قصيرة ..

قال رجاء : أفضل « الطريق الطويل » .

– « لماذا ؟ » .

– « لأنى أشم فيها رائحة الأرض والفلاحين ، وفيها تصوير صادق لحياتهم » وكان رجاء النقاش قد كتب مقالة نقدية فى مجلة الإذاعة عن هذه الرواية وهى أول رواية كتبتها فى حياتى ، ونلت عليها ، كما قلت من قبل ، جائزة وزارة التربية ، ثم قررتها الوزارة فى عام ١٩٥٩ وعام ١٩٦١ على الصف الثانى الثانوى .

وقد وافق الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى على هذا الاقتراح .

والواقع أننى كنت فى دهشة من هذا الأمر ، فالجميع يعرفون أننى من أصحاب الاتجاه الإسلامى ، وأننى خارج من السجن منذ فترة تناهز العامين ، ولو كان الذين يترجمون الرواية من دول أخرى غير

دول الكتلة الشرقية لما عجبت ، وهذا ما حدث فعلًا عندما طلبوها لترجمتها إلى الإيطالية فيما بعد ، ورجحت أن موضوع « الطريق الطويل » واحتفاءها بمآسى الفلاحين ومشاكلهم والظلم الواقع بهم ، وكذلك تركيز الرواية على آثار الحرب العالمية الثانية على القرية وما خلفته من معاناة ، ربما كان ذلك هو الذى دفع إلى ترجمتها . وفعلًا أحضرت لهم نسخة منها وسلمتها للأخ رجاء النقاش الذى قام بدوره بإعطائها للأديب الروسى الذى سبق وتعرفت عليه ، ولعله من المفيد أن أشير إلى أن هذا الأديب الروسى كان يتكلم الإنجليزية ، ومن ثم كانت الفرصة مهيأة للحوار قال لى : « ما رأيك فى الاتحاد السوفيتى ؟ » . لم أشر فى البداية إلى قضية الدين ، ولكنى قلت له : « إنكم تهدرون الحريات ، وتنتهكون حقوق الإنسان » .

- « هذه دعاية استعمارية إمبريالية ، هل تذكر لى واقعة واحدة » .
- « العالم كله يعرف مأساة الكاتب السوفيتى « بوريس باسترناك » الذى نال جائزة « نوبل » عن روايته « دكتور زيفاجو » ، فأولًا أنتم منعتم نشر روايته فى بلدكم ، وثانيًا لم تسمحوا له بأن يتسلم الجائزة ، وحاولتم إلصاق التهم به ، والحد من حركته وإبداعاته ..» .

نظر إلى وجهى فى تمعن وكان يلبس نظارة طبية بيضاء ، ثم قال : « فى بلدكم ، ماذا تفعلون بأى كاتب معارض يهاجم دولته وزعماءها ؟ » .

فى البداية ، لم أدر بماذا أجيب ، فالموقف شائك ، ربما لو تكلمت بصراحة لكان ذلك مدخلًا إلى المشاكل التى أحاول تجنبها ، فقد تصل كلماتى إلى مسامع السلطة ، ولو سكت لكان ذلك إقرارًا بالإجراءات القمعية التى يتخذها الحكام فى الاتحاد السوفيتى ، ووجدتنى فى النهاية أقول له : « نحاكمه ، ونرمى به وراء الشمس » .

- « نحن لم نحاكم باسترناك ، ولم نضعه فى السجن » .
- « الأمور لا يُنظر إليها على هذا النحو » .
- « كيف ؟ » .
- « يجب أن تكون الحرية مكفولة للجميع عندنا أو عندكم » .
- « أرجو ذلك ..» .

ومن الشخصيات التى لفتت نظرى فى المؤتمر الشاعر التركى « ناظم حكمت » الذى صُنِّف فى جانب اليساريين ، ولم تكن هناك فرصة لحوار عميق معه ، لكننا كنا نستمع إلى أحاديثه الرقيقة ، وكان رجلًا سمحًا طيب المشاعر ، معظم قضايا شعره تنحاز إلى الإنسان المعاصر المقهور ، الذى طحنه الظلم والفقر ، وكان مديد القامة ، طلق الوجه ، مبتسمًا دائمًا ، مقبول المظهر والملاحم ، أنيقًا مهذبًا ، ولم يكن شعره يصرخ بالشعارات الحزبية أو السياسية ، بل نستطيع القول أنه شاعر إنسانى المذاق ، وقد مات فى منفاه منذ سنوات . ولقد تم توزيعنا من خلال لجان المؤتمر ، وكان نصيبى فى « لجنة الترجمة » ومن بين أعلامها فى تلك الفترة الدكتورة سهير القلماوى والأستاذ خلف الله (وهو غير خلف الله الكاتب العلمانى الذى أثار ضجة بكتاباته) ، والأستاذ حلمى مراد صاحب سلسلة « كتابى » الشهيرة المترجمة وغيرهم ، وقد أنجزت هذه اللجنة عددًا من التوصيات الهامة فى مجال الترجمة لا يتسع المقام لسردها ولقد لفت نظرى ما قامت به الدكتورة سهير القلماوى من جهود ، وما قدمته من أفكار ، كانت تتكلم بالإنجليزية فى المؤتمر ، ولكنها فى نفس الوقت إذا سمعت خطأ فى الترجمة الفرنسية بادرت بتصحيحه على الفور باللغة الفرنسية ، وكذلك بالنسبة للغة العربية .

ومن الأمور التى لا أنساها فى هذا المؤتمر صحبتى الدائمة مع الأستاذ نجيب محفوظ ، فكنا نجلس متجاورين طوال جلسات المؤتمر العامة ، ونتناقش ونعلق ، والواقع ، والحق يقال ، أن صحبته ممتعة وثرية ، فهو قليل الكلام ، دقيق الملاحظة ، موجز التعليق ، لا تشعر معه بملل أو حرج ..

لقد مر على هذا المؤتمر ثلاثة عقود من الزمان أو أكثر ، ومع ذلك فإن أحداثه ما زالت محفورة فى ذاكرتى ، فقد جاء فى بدايات حياتى الأدبية ، وكان أول لقاء موسع أحضره فى مجال الأدب ، مع اتجاهات وتيارات عدة ، ضمن وفود أكثر من خمسين دولة أفريقية وأسيوية ، وكان هذا المؤتمر يغلب عليه الطابع اليسارى فى جملته ، وإن اشترك فيه أفراد من الكتاب لهم هويتهم وخصوصيتهم ، والحقيقة أننى لم أشهد بعد ذلك - على كثرة المؤتمرات التى حضرتها - مؤتمرًا على نمطه من حيث الموضوعات والحوار والتوصيات ، ولم نفكر فى عقد مؤتمرات للأدب الإسلامى إلا فى الثمانينيات من القرن العشرين ، مع أننى دعوت إلى ذلك فى بداية عقد الستينات ، والحمد لله أن أمنيتى قد تحققت ..

قبل التخرج من كلية الطب وفى عام ١٩٥٩ أعلن عن مسابقة فى المجلس الأعلى للآداب والفنون ، فى الرواية والمسرحية ، حول الحروب الصليبية ، حملة لويس التاسع ملك فرنسا على دمياط والمنصورة ، إبان حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجه « شجرة الدر » . ثم أسر الملك الصليبى لويس ، ووضعه فى « دار ابن لقمان » بالمنصورة ، وكانت جوائز المسابقة كبيرة ، ووجدت لديّ رغبة شديدة فى الاشتراك بهذه المسابقة ، لكن المشكلة التى كانت تواجهنى هى الامتحان النهائى (درجة بكالوريوس الطب والجراحة) ، وكان قد اقترب موعده ، وأنا أريد أن انتهى من الدراسة بسرعة بعد الفترة الطويلة التى ضاعت بسبب بقائى فى السجن قبل ذلك ، ومع ذلك وجدتنى مدفوعًا دفعًا لا يقاوم للاشتراك فى المسابقة وخرجت إلى المكتبات كى أبحث عن المراجع التاريخية المختلفة التى تمهد لى الطريق للكتابة ، وإذا كان التاريخ علم فإن القصة الأدبية فن ، له أصوله وتقاليده ، ومعنى ذلك أن التاريخ لابد أن يُهضم ويُتمثل حتى تأتى الرواية عملًا فنيًا مقنعًا .. اشتريت الكثير من المراجع التى وجدتها فى المكتبات ، ولكن قد يعجب القارئ عندما يعلم إننى عثرت على كتاب صغير ثمنه قرشان فقط وجدته على سور الأزبكية ، يتكلم عن هذه الحرب من الوجهة العسكرية ، وبه رسوم عن السفن وآلات الحرب فى تلك الفترة التاريخية ، وكان هذا الكتاب من تأليف خبير عسكرى مشهود له بالكفاءة من رجال القوات المسلحة قبل ذلك ، وله العديد من المؤلفات فى هذا المجال .

وأخيرًا توكلت على الله وبدأت كتابة الرواية ، وكنت أقسّم وقتى بين الكتابة فى الرواية ، والمذاكرة استعدادًا لامتحان البكالوريوس ، وبعد أن كنت كتبت ثلاثة فصول ، وثبت إلى ذهنى فكرة وأنا أركب الترام من القصر العينى إلى حى « شبرا » الذى كنت أسكن فيه ، هذه الفكرة هى أن أضع فى الرواية شخصية غجرية تغنى وترقص ، وتستطيع الدخول إلى معسكر الصليبيين، لتنقل الأخبار للمجاهدين ، وهى فى الواقع فتاة مصرية ادعت أنها غجرية لتحقق غايتها ، والمعروف عن الغجر أنهم لا ينتمون لوطن ، بل انتماؤهم الشديد يكون لجنسهم ، وهذا ما يعرفه الفرنجة بالتأكيد ، وكانت هذه الغجرية « ياقوتة » أو « زمردة » على علاقة عاطفية بأحد قادة الشباب المجاهدين ، وكنت وأنا فى الترام أسجل بعض الملاحظات والحوارات الخاصة بهذه الفتاة ، وما إن وصلت إلى مسكنى حتى ألقيت بكتب الطب جانبًا ، وبدأت فى الكتابة تحت وطأة الحماسة القائمة ، ولم أضيع وقتًا ، ومن العجيب أن هذه الشخصية ، قد أعطت للرواية نكهة شهية ، وأمدتها بالكثير من الجاذبية والتشويق ، وتمت كتابة الرواية بحمد الله ، ثم نسختها على آلة الطبع من ثلاث نسخ ، واستطعنا أن نقدمها فى آخر يوم من الموعد

المحدد ، وبعد بضعة شهور كنت ذاهبًا إلى الكلية فى الصباح كالمعتاد ، واشتريت صحيفة الأهرام ، وأخذت أتصفحها واقفًا حتى يأتى الترام ، وفجأة وقعت عيى على نتيجة المسابقة .. الحمد لله ، . لقد فازت (اليوم الموعود) بجائزة أفضل رواية ، وفاز فى المسرحية الأستاذ يعقوب الشارونى والأستاذ على أحمد باكثير ، ثم كانت هناك جوائز تشجيعية أقل قيمة من الناحية المالية للشاعر الكبير محمود غنيم والأستاذ « على شلش » والأستاذ عبد العاطى جلال ، والأستاذ إبراهيم مصباح على ما أتذكر ، ووضعت يدى فى جيبى فلم أجد غير خمسين قرشًا (نصف جنيه) فأخرجتها وأعطيتها لبائع الصحف فى الميدان ، وهو صديق أتعامل معه من قديم ، ولم يكن يعلم السبب ، فأريته الجريدة ففرح وأخذ يعانقنى فى ود ، ولم أركب الترام، بل عدت إلى مسكنى فى شارع « كنيسة الراهبات » ، ودققت الجرس ، ففتحت أمى - رحمها الله - الباب ، وكانت عندى فى زيارة ، ونظرت إلى قائلة : « لماذا رجعت ؟ » ، فرويت لها ما حدث ، فإذا بها تطلق زغرودة عالية ، وأخذت تقبلنى وأقبّل يدها ، ونحمد الله على فضله ، ثم قالت : « أرسل لأبيك برقية حتى يفرح » .

- « سوف يقرأ الناس الخبر فى القرية ، وسيعرف » .
- « الحمد لله .. كنا قد أفلسنا ..» .
- « سوف نقترض على حساب الجائزة » .

وضحكنا ، ثم تركتها مودعًا متجهًا إلى الكلية ، حيث استقبلنى الأصدقاء استقبالًا حافلًا .. كان « المانشيت » . أو العنوان . المكتوب فى الأهرام على ما أذكر .

« أبطال بلدنا ، ودار ابن لقمان ، واليوم الموعود تفوز بالجائزة » .

وكنت قد اخترت لروايتى عنوان « اليوم الموعود » ، وكان لنتيجة هذه المسابقة صدى كبير فى الأوساط الأدبية بالقاهرة ، وكان الناشرون يفضلون نشر الرواية على المسرحية ، ولهذا قدم إلى عدد كبير منهم ، بينما لم يجد الزملاء الفائزون فى المسرحية بهذا الترحيب ، واتفقت مع « دار القلم » وصاحبها الأستاذ محمد المعلم على نشر الطبعة الأولى ، وتسلمت منه مقدمًا مبلغًا من المال قبل أن أتسلم الجائزة ، ووفد إلى بيتى عدد لا بأس به من المعارف يريدون الاقتراض ، ولو حسبت مجموع القروض المطلوبة لوجدتها تفوق الجائزة ، وقدمت للبعض ما استطعت . وكان علينا أن نتسلم الجائزة من الرئيس جمال عبد الناصر فى احتفال كبير يقام فى مدينة المنصورة ، يحضره كبار رجال الدولة والمحافظة والفائزون الثلاثة ، أنا والأستاذ باكثير والأستاذ يعقوب الشارونى (شقيق الأديب المعروف يوسف الشاروني) ، وتسلمنا بطاقات خاصة ، وسافرنا فى قطار إلى المنصورة حيث خرجت جموع حاشدة على جانبى خط السكة الحديد ، لتحية موكب عبد الناصر ، وفى المنصورة نزلت ضيفًا على أسرة الصديق الأديب الحبيب الدكتور محمد حسن عبد الله حيث غمرتنى بكرم الضيافة والمشاعر الطيبة التى لا تنسى .

أقيم الاحتفال الكبير فى ديوان محافظة الدقهلية بالمنصورة ، واصطحبنا الأساتذة يوسف السباعى ، ومهدى علام ، وسعيد العريان إلى المنصة ، ووقف الرئيس يلقى خطابًا هامًا بهذه المناسبة ، ولم يكن انتصار مصر على الصليبيين بالشىء الهين ، أما نحن الثلاثة فقد جلسنا على يسار موقف الرئيس ، وخلف الرئيس تراص أعضاء الوزراتين المركزية والتنفيذية إبان الوحدة مع سوريا ، وكان عددهم كبيرًا ، ولاحظت أن زكريا محيى الدين ، وعبد الحميد السراج (سوريا) يجلسان متجاورين ، لكن السراج وضع ساقًا على ساق ، بحيث أصبح حذاؤه متجهًا صوب زكريا الذى بدا الضيق على

وجهه ، فبادر هو الآخر بوضع ساق على ساق ، وهكذا أصبح الحذاءان متقابلين ، ويكادان يلتصقان ، وثبت الوضع على هذه الصورة ..

وطال خطاب الرئيس ، فقد تشعب إلى قضايا سياسية واقتصادية وفكرية متنوعة ، والجماهير تهدر في حماسة ، مال عليّ الأستاذ على أحمد باكثير وقال : « أشعر بظمأ شديد ، ماذا نفعل ؟ » .

- « لا بد أن نصبر حتى ينتهى خطاب الرئيس ..» .
- « قلت لك يا نجيب لا أستطيع ، أنا مريض ، ولابد أن أذهب إلى دورة المياه » .
- « لن يسمح لنا أحد بالحركة ...» .

ولكنى وجدت حارسًا على مقربة منا فأشرت إليه فأتى ، وهمست فى أذنيه بأن الأستاذ مريض ويريد أن يشرب ، قال الحارس : « دورة المياه أسفلنا ، ويمكن أن آخذه إلى هناك » .

وجاء الفرج ، وخاصة أننا كنا قد استلمنا الجائزة ، ونلنا التكريم المطلوب .. ونزلت أنا والأستاذ باكثير إلى أسفل بصحبة الحارس ، وتركنا يعقوب وحده جالسًا . شربنا فى دورة المياه، وغسلنا وجوهنا وأيدينا ، وبقينا فيها لا نستطيع الخروج حتى انتهى الاحتفال ، فخرجنا ولحقنا بالموكب أثناء نزوله من شرفة ديوان المحافظة ..

وما إن عدت إلى القاهرة بعد ليالى المنصورة الحافلة بالجمال ، حتى تفرغت تمامًا للدراسة ، ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى وصلتنى رسالة من وزارة التربية والتعليم ، تعلمنى فيها بأنها قررت تدريس « اليوم الموعود » على طلبة الصف الثانى الثانوى ، وتطلب منى الحضور لتوقيع العقد واستلام مقدم المبلغ المرصود لذلك ، فكان لهذا النبأ أثر طيب جدًا فى نفسى وفى نفس الأسرة والإخوان ، ووفقنى الله فى أن أجتاز امتحان الجراحة بنجاح ، ولم يبق إلا امتحان الأمراض الباطنية بعد ستة شهور . وبعدها أنال درجة البكالوريوس فى الطب والجراحة ، وعلى الرغم من هذه الظروف الدراسية الصعبة إلا أننى واصلت الكتابة فى عدد من الصحف والمجلات فى الداخل والخارج ، فقد أصبحت الكتابة جزءًا لا يتجزأ من حياتى لا أستطيع تجاهلها ، وكنت أفعل ذلك فى أوقات الراحة ، حينما أشعر برغبة قوية فى التعبير عن فكرة أو رأى ..

فى هذه الفترة أصدرت كلية الطب مجلتها السنوية ، واختارونى أحد المحررين بها ، ومن الطريف أن هذه المجلة، أعنى مندوبها، أتى إلى ندوة نجيب محفوظ ، وأجرى حديثًا قصيرًا معه ، ثم طلب منه أخذ صورة تذكارية لنجيب وأنا ، ونشرت المجلة هذه الصورة ، وكتبت تحتها « النجيبان ...» .

وكانت علاقتى فى هذه الفترة متوطدة مع عدد من الأدباء الكبار الذين تعلمت منهم الكثير ، وهذا حق ، وكان تعلمى من خلال قناعاتى ومعتقداتى التى كنت أحافظ على جوهرها كما أحافظ على حياتى ، بل أكثر ، إن أفكار الأساتذة الكبار لا تلغى شخصية التلميذ ، بل تدعمها وتقويها ، ولا تخرج به عن دائرة قناعاته دائمًا ، بل ربما يكون العكس ، المهم أن يكون التلميذ واعيًا ، مدركًا لأهدافه ، متمثلًا لأفكاره ، مقتنعًا بها ، ويحاول أن يستفيد الكثير مما وراء ذلك ، إن اتجاهات عدة تخرج من تحت عباءة المفكر أو الفيلسوف أو الفنان ، وبعض هذه الاتجاهات قد تخالفه فى كثير مما يؤمن به ، وهذا لا يلغى دور الأستاذ ولا أثره ، ونفس الشىء بالنسبة للأصدقاء الذين أرتبط بهم ، فقد كان فيهم اليسارى واليمينى ، والمسلم والمسيحى ، بل واليهودى ، كانت علاقات إنسانية ، لا تلغى الفروق ، ولا تذيب حدود التباين الفكرى والمعتقدى ، لكنها كانت بالتأكيد ذات فائدة ، ذلك لأن « الآخر » مهما كان لونه وميله يعتبر مصدرًا من مصادر المعرفة ، ولم يزل هذا دأبى حتى كتابة هذه السطور ،

ولا أظننى سأتزحزح عن هذا الموقف فى قابل ما تبقى لى من عمر ..

ومن العجيب أن عددًا من هؤلاء الأصدقاء، بل والأساتذة، قد طرأ على مواقفهم الفكرية بعض التغيير أحيانًا، والبعض الآخر قد تحول تمامًا إلى موقف جديد يختلف تمام الاختلاف عن الموقف القديم، ولذلك كنت أنادى دائمًا بأننا لا يصح أن نحكم حكمًا نهائيًا على صاحب فكر، من خلال موقف واحد له، ربما يتحول عنه فيما بعد ..

نعود مرة أخرى إلى رواية « اليوم الموعود » فقد أرسلت إليّ مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى تطلب الموافقة منى على إنتاجها فيلمًا سينمائيًا بالألوان، وهى مؤسسة « قطاع عام » شبه حكومية، وهى المنتج الوحيد فى تلك الفترة بعد تأميم صناعة السينما فى مصر على يد رجال الثورة، كان ذلك فى عام ١٩٦٣، وتم التعاقد .

ومن الطريف أن أذكر أن أجرى فى هذا الفيلم كان مائة جنيه فقط تصرف على دفعتين، ومرت فترة طويلة من الزمن دون أن يخرج الفيلم إلى النور، وكانت الحجة التى تساق فى تلك الأيام، إنه يحتاج إلى تكلفة تربو على مليون جنيه، لأنه فيلم تاريخى، وفيه معارك، والمبلغ كبير آنذاك، ثم تدخل الشيوعيون الذين يعملون فى المؤسسة، وأجهضوا المحاولة بحجج واهية، كما أخبرنا واحد منهم كان اسمه أبو بكر الشرقاوى، وفى عام ١٩٧٣ بدأت إذاعة الكويت بإنتاجها حلقات إذاعية لمدة شهر يوميًا، بإعداد الأديب عابدين بسيسو، ثم حولت حقى المادى إلى المجهود الحربى فى حرب ١٩٧٣، وبعد ذلك بسنوات تم إنتاجها حلقات تليفزيونية (إنتاج مصرى ليبى مشترك)، وكتبت الصحف والمجلات باستفاضة عن هذا المسلسل الذى يقوم ببطولته الممثل أحمد عبد العزيز، والممثلة إيمان الطوخى، ومعهما أمينة رزق الممثلة الكبيرة، وليلى طاهر وغيرهم من نجوم من تونس والجزائر وسوريا، وقد ذكر أن إنتاج المسلسل سيتكلف ثلاثة ملايين جنيه، وسيشترك فيه خمسة آلاف كومبارس، وقد جرى التصوير فى مواقع المعارك الحربية فى دمياط والمنصورة، ولم يتم عرض المسلسل بعد حتى كتابة هذه السطور .

وفى خلال تلك الفترة أيضًا (١٩٥٩ - ١٩٦٥) قدمت الإذاعة المصرية بعض التمثيليات، منها خماسية عن رواية « فى الظلام » . إن كثيرين من الخبراء يعتقدون أن معظم رواياتى، بل وقصصى القصيرة، صالحة جدًا للسينما والتليفزيون، ومع ذلك فإن عددًا من المعادين لفكرنا يتربصون بنا الدوائر، ويقفون حجر عثرة فى الطريق، ولم ينتج للتليفزيون قبل ذلك إلا مسلسل روايتى « الذين يحترقون » فى ١٣ حلقة، وكان المنتج هذه المرة هو تليفزيون دبى، وقد شاهدها الإخوة فى أنحاء العالم العربى ما عدا مصر، ذلك لأن الرقابة منعت عرضها بحجة أنها توجه نقدًا لاذعًا لبعض أنواع الخدمات (الصحية)، وقامت إحدى عضوات مجلس الشعب فى مصر بهجوم على المسلسل، وعلى المؤلف وعلى المخرج واعتبرته بمثابة « نشر غسيلنا الوسخ » فى الخارج، وشاركها فى ذلك بعض الصحفيين، مع أن الرواية نشرت فى مصر قبل ١٢ عامًا من إنتاجها للتليفزيون .

❁❁❁

[٦] لقاء مع سيد قطب



عرفت سيد قطب أول ما عرفته من خلال مؤلفاته ومقالاته فى الصحف والمجلات، كان يكتب فى جريدة «الاشتراكية» وفى «الرسالة» وفى غيرهما قبل أن ينضم إلى الإخوان المسلمين، وكان على حد تعبير الأستاذ سليمان فياض فى مجلة الهلال مجددًا فى أسلوب العربية، مثلما كان طه حسين مجددًا بطريقة أخرى، وكانت سطوره تصرخ بالقوة والثورة على الأوضاع الفاسدة سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، التقينا معه لقاء الروح والقلب والفكر قبل أن التقى به شخصًا لشخص، وكان فى محاضراته وخطبه واضح العبارة، عميق التأثير، قادرًا على الحوار والإقناع، وكان يفسح صدره لمن يحاوره، واثقًا بفكره وإيمانه، رأيناه فى مدرجات الجامعة متكلمًا فى المناسبات الوطنية والإسلامية، ورأيناه فى الاجتماعات العامة للإخوان المسلمين محللًا ومربيًا، وفى قسم نشر الدعوة بالمركز العام موجهًا حصيفًا، وعندما صدر ضده حكم بالسجن فى عام ١٩٥٤ أودع سجن طرة، ثم أتينا بعده وأودعنا سجن أسيوط، ثم سجن القناطر، ثم سجن القاهرة.

ولقد كانت تربطنى بشقيقه الأستاذ محمد قطب فى تلك الفترة (١٩٥٩ - ١٩٦٥) صلة أخوية وثيقة، فقد كان محل ثقتى واحترامى وتقديرى، ولم أكن أخفى عنه أغلب خصوصياتى، وقبل ذلك جاءت شقيقته الفاضلة عام ١٩٥٨ إلى مستشفى القصر حيث كنت أخرج من السجن للعلاج هناك، وأعود إلى السجن مرة أخرى بعد الظهر، أقول جاءت ومعها «عقد اتفاق» من مكتبة مصر لنشر روايتى الأولى «الطريق الطويل»، وقد وقعت العقد مع هذه الأخت المحجبة والمنقبة دون أن نتبادل سوى كلمات قليلة. وبعد خروجى من السجن فى المرة الأولى بعفو صحى، التحقت بالكلية مرة أخرى، وتزوجت وتخرجت وعملت طبيب امتياز، وذات يوم قدم إلى الأخ محمد نشنوش صاحب «دار النور» للنشر والتوزيع فى طرابلس، وكنت قد نشرت لديه ثلاثة من كتبى، وأبدى رغبة شديدة فى زيارة الأستاذ سيد قطب بالقصر العينى حيث كان مقيمًا هناك للعلاج تحت الحراسة المشددة، واحترت ماذا أفعل، لو أن رجال الأمن أمسكوا بى زائرًا له لكانت كارثة، وخاصة أننى تعهدت عند الإفراج عنى بعدم الاتصال مع أحد من الإخوان وخاصة ذوى المكانة، وذهبت إلى الأستاذ محمد قطب لنتبادل الرأى، فكان أن حدد لى وقتًا بعد الظهر، وهو وقت آمن لزيارة شقيقه ليست فيه مخاطرة تذكر، وأخبرنى بأنه سوف يكون متواجدًا هو الآخر، وفى الوقت المحدد أخذت زوجتى السيدة كريمة شاهين، والأخ الليبى محمد نشنوش، وتوكلنا على الله وذهبنا إلى موعدنا..

كان لدى باب الحجرة والنافذة شرطيان لا يبدو عليهما الاكتراث لشىء، ودخلنا ببساطة، واستقبلنا الأستاذ سيد رحمه الله بابتسامة ودود ومحبة صادقة، وكان شقيقه الأستاذ محمد يقف إلى

جواره ، وجلسنا نتحدث فى شتى الموضوعات ، وكان معظم حديثى ، كما سبق وشرحت فى أحد كتبى السابقة ، عن الأدب الإسلامى ، كان يستمع باهتمام وخاصة عندما ذكرته بأن كتابه فى النقد الأدبى يُفهم منه أنه يميل إلى نظرية « الفن للفن » ، فأوضح لى أن الطبعة الجديدة من هذا الكتاب فيها تعديل ، وسأجد فيها بغيتى ، ثم طلب من شقيقه أن يهدينى نسخة من هذه الطبعة ، وكان إلى جواره بعض مؤلفاتى فى القصة ، فأمسك بها وأخبرنى أنه لم يقرأها بعد ، وسوف يكون ذلك فى وقت قريب إن شاء الله ، ولا أتذكر ماذا كان مضمون حديثه مع الأخ الليبى . ووجدت زوجتى تنظر إليه بألم وتكاد تبكى ، كانت قليلة الخبرة بأمور الصراعات السياسية ومشاكلها ، وكانت فى حوالى العشرين من عمرها ، لم تكمل تعليمها الجامعى بعد ، ووجدتها تقترب منه وتقول له : « أنت مريض ، وفى حاجة إلى الراحة والعلاج ، فلماذا لا تعقد صلحًا مع الحكومة وتخرج؟ ». فابتسم لبراءتها وصدق مشاعرها وقال : « الحكومة فكرت فعلًا فى التفاهم معى ، لكنهم طلبوا أن أسجل رأيى فى الثورة وسياستها ، وطبعًا كانوا يتمنون أن أعلن تأييدى صراحة حتى يفرجوا عنى ، ولكنى قلت لهم إنه من الأليق بهم أن يأخذوا رأى رجل حر ، وليس سجينًا ، إن قلت لكم ما يرضيكم ، فستقولون أننى فعلت ذلك لكى يفرج عنى ، وإن قلت غير ما تريدون فلن يتغير الوضع بالنسبة لى ..» .

وهزت زوجتى رأسها فى حيرة ، لكنى تدخلت واعتذرت له عما قالته ، بحجة أنها ليس لديها بعد دراية بمثل هذه الأمور التى لم تمر بتجربتها ، ثم استأذنا وخرجنا وتركت الليبى معه .

وصدرت الطبعة الجديدة من الكتاب ، وبها التعديل النظرى الهام ، الذى أعطى الأدب الإسلامى مفهومًا موجزًا واضحًا ، وإن بقيت النماذج الاستشهادية كما هى ، ثم صدر بعد ذلك الكتاب الموسع الشامل لشقيقه الأستاذ محمد قطب تحت عنوان « منهج الفن الإسلامى » ، وهو يعتبر بحق من عمّد نظرية الأدب الإسلامى ، وقد اتفق معه شقيقه فى المفهوم الشامل لهذا الأدب ، ولقد كان حماسى لهذا الكتاب كبيرًا على الرغم من أننى كتبت فى مقدمة كتابى « الإسلامية والمذاهب الأدبية » بعض الملاحظات على هذا الكتاب القيم .

وعندما زار « خروشوف » مصر لافتتاح « السد العالى » أُفرج عن الشيوعيين المعتقلين قبل أن يصل الزعيم السوفيتى إلى القاهرة ، وبعد ذلك توسط أهل الخير من كبار الشخصيات فى الدول العربية ، مطالبين بالإفراج عن سيد قطب أسوة بالإفراج عن الشيوعيين ، وخرج سيد قطب من سجنه بعد أن قضى فيه أكثر من ثمانى سنوات ، وعاد إلى بيته لا ليخلد إلى الراحة ، بل ليواصل إكمال كتابه « فى ظلال القرآن » ، وليعقد الندوات فى بيته ، ويسجل أفكاره فى كتب جديدة ، وبدا أعنف وأقوى مما كان ، وكان كتابه « معالم فى الطريق » هو الانفجار الكبير الذى أحدث دويًا هائلًا فى الأوساط الفكرية والثقافية والسياسية فى مصر والعالم العربى ، وكذلك جاء كتاب شقيقه محمد قطب تحت عنوان « جاهلية القرن العشرين » ، وبصرف النظر عما قيل حول هذين الكتابين الخطيرين من انتقادات وتحليلات وآراء ، فإن الأمر الذى لا شك فيه أنهما أثارا دويًا كبيرًا فى نطاق واسع داخل مصر وخارجها ، ونتج عن ذلك إعادة اعتقال الإخوان وسيد قطب فى النصف الثانى من عام ١٩٦٥ وبدأت مأساة جديدة لم تكن فى الحسبان ، واتهم سيد قطب وعدد من الإخوان بتدبير مؤامرة واسعة النطاق

لقلب نظام الحكم ، تلك المؤامرة التى قال عنها صلاح نصر مدير المخابرات العامة الأسبق فى مذكراته أنه لم يجد قضية أصلًا ، واعتذر ، كما قال ، عن تولى أمر قضية سيد قطب ، وأخبر عبد الناصر بأنه لا توجد قضية ، فقال له : « هو كل ما نقول حاجة تعتذر عنها .. خلاص شمس بدران سيتولى الموضوع » . ويمكن الرجوع إلى مذكرات صلاح نصر لمن يريد التوسع فى هذه الناحية الشائكة ..

وقد أراد الله أن أعتقل أنا الآخر فى السادس من سبتمبر عام ١٩٦٥، ولم أكن على ذمة قضية هذه المرة ، بل مجرد معتقل لا تحقيق معه ، وهذا ما سوف نتناوله إن شاء الله فى الجزء التالى من هذا الكتاب ، إذا كان فى العمر بقية ...

***

[٧] فى أسواق الأدب



الواقع أن ريادة المكتبات بالقاهرة بالنسبة لى كان أمرًا مفيدًا لا يقل أهمية عن الذهاب إلى المنتديات الأدبية والفكرية المختلفة ، فهنا أو هناك نلتقى بكبار المؤلفين فى شتى فروع المعرفة والأدب بل والفن بصفة عامة ، وكانت هناك ثلاث مكتبات أذهب إليها على الأقل مرة كل أسبوع ، وهى مكتبة دار العروبة (دار التراث حاليًا) ، ومكتبة وهبة التى كانت تنشر للعديد من المؤلفين ، وخاصة سيد قطب ومحمد قطب وخالد محمد خالد وغيرهم ، ومكتبة الشركة العربية بميدان الأوبرا ، والمكتبات الثلاث فى شارع الجمهورية (إبراهيم باشا سابقًا) .

وكانت الفرصة متاحة لأن أجلس منفردًا مع أحد الكتاب وأتبادل معه الحديث على مهل ، فأتزود مما لديه من علم وتجربة ، وقد يجتمع فى المكتبة اثنان مختلفان فى الرأى فيتحاوران وينفعلان انفعالاً متزنًا رصينًا ، وأنا استمع إليهما فى اهتمام بالغ ، ومثل هذه اللقاءات لا تقل أهميتها عن قراءة كتاب من الكتب ، فلا عجب أن ترى الأستاذ محمد قطب إلى جوار الأستاذ خالد محمد خالد ، وهما آنذاك على طرفى نقيض فى التوجه الفكرى ، وربما تقابل عالمًا كبيرًا من علماء الدين أو اللغة أو أى لون آخر من ألوان المعرفة ، فى مكتبة العروبة والتقيت مع المرحوم الدكتور عبد المنعم النمر ، وظلت تربطنا صلة وطيدة حتى وافاه الأجل ، والتقيت بالعلامة الكبير الأستاذ محمود شاكر ، محقق تفسير الطبرى ، وصاحب مؤلفات هامة فى الفكر واللغة والحائز على جائزة الملك فيصل الكبرى ، والتقيت بالموسيقار زكريا أحمد ، والتقيت أيضًا فى مكتبة الشركة العربية بالأستاذ الكبير محمود تيمور ، والمؤرخ الكبير الدكتور حسين مؤنس ، أما فى نادى القصة فقد التقيت بالأعلام من كتابنا عبد الحليم عبد الله ، يحيى حقى ، أمين يوسف غراب ، د. يوسف إدريس ، يوسف السباعى ، توفيق الحكيم ، وعدد كبير من الشعراء المرموقين آنذاك مثل صلاح عبد الصبور ، فوزى العنتيل ، د. أحمد زكى ، أنس داود ، أمل دنقل ، والشاعر الكبير أحمد رامى ، وكامل أمين ، وأحمد عبد المعطى حجازى ، وآخرين لا تحضرنى أسماؤهم الآن ، بالإضافة إلى شيوخ وشباب النقاد أذكر منهم الدكتور محمد مندور والأستاذ يحيى حقى ، كما التقيت مع عدد كبير من رجال الصحافة ..

أذكر أنه فى أيام الوحدة مع سوريا ، قام المرحوم الأستاذ يوسف السباعى بتنظيم رحلة للأدباء ، والفنانين إلى مدينة غزة قبل احتلالها ، واعتقد أن ذلك كان عام ١٩٦٥ ، وفى اليوم المحدد انطلقت بنا الحافلات شرقًا إلى القنطرة والعريش فى سيناء ، وأخيرًا وصلنا بعد ساعات طويلة إلى مدينة غزة الواقعة على البحر ، ونزلنا فى فندق الأندلس هناك ، وكان هدف الرحلة هو الاطلاع على أوضاع إخواننا اللاجئين الفلسطينيين ، ثم الكتابة عنهم ، والتعبير الفنى عن مأساتهم ، كان معنا من الممثلين يحيى شاهين ، ومن الرسامين بيكار ورخا ، ومن الإذاعيين الأستاذ يوسف الحطاب ، وكان معى طوال الرحلة الأستاذ على أحمد باكثير ، وعدد لا بأس به من الشعراء والكتاب والصحفيين ، وفى نفس الوقت

شاركنا نخبة من كتاب سوريا وفلسطين ، وأذكر أننا التقينا فى هذه الرحلة مع الشاعر الفلسطينى المعروف هارون هاشم رشيد وشقيقه الأستاذ علي ، والأستاذ الناقد الدكتور كامل السوافيرى .

وفى هذه الرحلة رأينا ما يعانيه اللاجئون رأى العين ، مساكنهم الضيقة الواهنة ، كدحهم من أجل الرزق ، ملابسهم الرثة ، الأخطار المحدقة بهم صباح مساء ، وتردى الخدمات الصحية ، وعلى الرغم من صبرهم وصمودهم إلا أنهم يكادون يفقدون الثقة في إخوانهم العرب ، فمنذ حرب ١٩٥٦ والأحوال راكدة ، والقضية لا تتحرك ، قال لنا أحد اللاجئين أنهم يستقبلون وفودًا لا تعد ولا تحصى من العالم العربى والإسلامى ومن خارجهما ، والجميع يطمئنونهم على مستقبل قضيتهم ، لكنهم حتى الآن لا يرون بصيصًا من النور ، إن الكلام كثير ، والفعل قليل ، ومع ذلك فهم يأملون فى أن تتحرك مصر ودول الطوق لنجدتهم فى يوم من الأيام .

وكان بعض أعضاء وفد الأدباء والفنانين يرتجل الكلمات الحماسية ، مؤكدًا أن يوم النصر قريب ، وأن المعركة لابد آتية ، وأذكر أن الفنان الكبير يحيى شاهين قد استثاره ما رآه ، فألقى خطبة عصماء تفيض بالحماسة والقوة ، وكان اللاجئون سعداء جدًا برؤية أعلام الفن والفكر من النساء والرجال على السواء .

قضينا بضعة أيام نتجول فى القطاع ، ونشاهد المستعمرات اليهودية عن قرب دون أن ندنو منها ، وكانت بيننا حوارات شتى ، وكل يسجل فى مذكراته بعض الأفكار ، حتى الرسام بيكار شاهدته وهو يخطط لوحة جميلة بخطوطه المميزة ، وقد لاحظت أن بيكار اهتم جدًا بكتابى عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال ، والذى كان قد صدر تحت عنوان « إقبال الشاعر الثائر » ، وأخذ يوجه إليّ العديد من الأسئلة حول حياة هذا المفكر الإسلامى وفلسفته ، وبالطبع لم ينس أعضاء الوفد أن يذهبوا إلى أسواق غزة الشهيرة ليشتروا منها الأقمشة والبضائع المستوردة ، وكان إخواننا التجار فى غزة من أذكى وأبرع التجار حسبما رأيت .

أثناء عودتنا إلى القاهرة ، وقع حادث عكّر علينا صفو رحلتنا الجميلة ، فبينما نحن فى جمرك القنطرة وأثناء التفتيش الروتينى ، يبدو أن أحد أفراد الوفد كان معه قطعة من « الحشيش » ، وداخله خوف من أن التفتيش قد يمسك بها ، فما كان منه إلا أن رمى بها جانبًا ، فأمسك به المفتش ، ووقعنا فى ورطة محزنة ، إذ إن رجال الجمرك أخذوا يفتشوننا بدقة ، وأمسكوا بالأديب المتهم ، واحترنا ماذا نفعل ، واستطاع المسئولون عن الرحلة أن يتصلوا تليفونيًا بالأستاذ يوسف السباعى فى القاهرة ، وسرعان ما اتخذ الرجل الإجراءات العاجلة للمجىء إلينا فى القنطرة ، ولا أدرى كيف جاء! المهم أننى رأيته مقبلًا نحونا فى اهتمام . واستطاع بخبرته وذكائه أن ينهى هذه الأزمة ، وأن يطلق سراح صديقنا الأديب المتهم ، ويعود بنا إلى القاهرة بسلام ، ولا أريد فى هذه العجالة أن أتعمق هذا الحادث ، ولكنى أتذكر ما علق به الأخ الصديق الأستاذ على أحمد باكثير قائلًا : « والله يا أخى هذه مهزلة ..» ضحكت وقلت : « مهزلة أم مأساة ؟ هل تنوى أن تكتب عنها مسرحية ؟ » ، فلوح بيده ، كعادته ، فى ضيق ، ولم يرد .

كنت – كما سبق وأشرت فى أحد أجزاء هذا الكتاب – قد زرت القدس والضفة الغربية وباقى أرض فلسطين غير المحتلة فى عام ١٩٥٤ أثناء دراستى بكلية الطب . وبهذه الرحلة الأخيرة ، أى بعد حوالى ثمانى سنوات ، زرت قطاع غزة ، مما جعلنى ألمّ عن كثب بأوضاع هذا البلد الحبيب ، وكان حصيلة ذلك من الناحية الأدبية أن كتبت عددًا من الأعمال الأدبية منها :

١- رواية « أرض الأنبياء » .
٢- رواية « عمر يظهر فى القدس » التى ترجمت إلى الإنجليزية وعدد من اللغات الشرقية .
٣- رواية « دم لفطير صهيونى » وهى خاصة باليهود وبعض معتقداتهم المأساوية .
٤- عدد من القصص القصيرة ، بعضها فى مجموعة « عند الرحيل » .
٥- بعض أجزاء فى روايات أخرى لى مثل « الطريق الطويل » و« رمضان العبور » وغيرهما .

وفى أثناء الرحلة وقف الفنان يحيى شاهين يتحدث مع باكثير حول عظمة فيلم « سلّامة » الذى كتب قصته ، والذى مثلته أم كلثوم ، وأبدى يحيى شاهين رغبته فى أن يقوم الأستاذ باكثير بكتابة فيلم جديد عن « الزبير بن العوام » ، فهز الأستاذ باكثير رأسه دون أن يعلق ، ولما انصرف يحيى شاهين قلت للأستاذ باكثير : « هل ستفعل ؟ » فضحك ، ولم يعلق .

وفى أثناء فترة الامتياز وجهت إلى الدعوات من عدد من مدارس الدولة على مدار عامى ١٩٦٠، ١٩٦١ لعقد ندوات عن روايتى اليوم الموعود والطريق الطويل ، ولقد كنت سعيدًا بهذه الندوات لوجودى أمام الأجيال الجديدة الجديدة التى استقبلتنى بمنتهى الحب والحماسة ، أذكر من هذه المدارس :

- مدرسة المتفوقين النموذجية بعين شمس .
- مدرسة المعلمات فى الجيزة .
- مدرسة الأورمان الثانوية بنات .

ولقد كنت مبهورًا بأداء الطلبة والطالبات وهم يستعرضون الرواية أمامى ، وقد كرمنى أحد أساتذة اللغة بأن ألقى فى تكريمى قصيدة عصماء جميلة ، وكنت غارقًا فى خجلى وأنا أستمع لهذا الإجراء ، وفى كل موقف كنت أتحدث عن الرواية والدافع إلى كتابتها ، وركزت على أن اهتمامى مُنصب على المواقف الحاسمة والهامة فى تاريخ حضارتنا الإسلامية والعربية ، وذكرت أن فترة الحروب الصليبية ، ثم الهجمة الاستعمارية فى العصر الحديث ، ومشروع النهضة المعاصرة ، كلها من الأمور التى تشغلنى فى فكرى وفى أدبى ، فى إطار الالتزام الإسلامى الذى أؤمن به .

ومن الأمور الملفتة للنظر فى هذه الندوات ، أن الطلبة والطالبات (الطالبات بالذات) كانوا يسألوننى عن رأيى فى بعض الكتّاب ، وفى بعض الكتب ، وكانت مؤلفات المرحوم الأستاذ إحسان عبد القدوس تحظى بالنصيب الأوفر من الأسئلة ، ولم يسألنى أحد عن نجيب محفوظ أو باكثير أو السحّار مثلًا ، وكان الأمر يبدو محرجًا بالنسبة لى ، إنك تستطيع أن تتحاور مع أديب أو ناقد ، وتبدى رأيك فيما تقرأ ، ذلك أن الطالبات المراهقات فى الواقع يردن الرأى حول قصص الحب والغرام والعاطفة ، ولا يستطيعون أن يفهموا مدلولاتها البعيدة ، أو رموزها الدالة ، فهم لا يعرفون عن قصص إحسان عبد القدوس إلا العشق والهيام ، ودموع الوله ، ونوبات التمرد على العرف والتقاليد ، ولا يدركون شيئًا من مراميها الاجتماعية والسياسية ، وأنا لا أستطيع أن أمنع أحدًا من القراءة لأحد ، أو أصدر حكمًا بحرق كتاب ، ولكنى كنت أقول لهم :

« إن كل فن أو أدب يرقى بعقولكم ومشاعركم وأذواقكم وأخلاقكم هو المناسب لكم ، وكل ما يحرضكم على الفساد والرذيلة والانحراف فهو فن أو أدب فاسد ، يجب أن تتجنبوه ، وأنتم أدرى بأنفسكم ولن تخدعوها » .

لكن الكثير من الشباب لا يؤمن بهذه الأحكام العامة فى الإجابة ، وإنما يريدون إجابات صريحة محددة مباشرة ، ولذلك كنت أسمع من يقول أن قصص الغرام والإثارة تفسد علينا حياتنا وأخلاقنا ،

وقصص إحسان عبد القدوس فيها الكثير من ذلك ، فيرد عليه آخر يعترض على كلامه ، وتكاد تحدث معركة ..

وأذكر أن إحدى الفتيات فى مدرسة المعلمات بالجيزة ، قدمت إليّ بعد انتهاء المحاضرة ، وواجهتنى قائلة : « هناك قصص لإحسان عبد القدوس وغيره تحرضنا على الفساد ، فلماذا لا تأمر الحكومة بمنعها ؟ » .

قلت لها : « إن إحسان عبد القدوس كاتب سياسى قدير ، وله مواقف سياسية جيدة ، أما قصصه فالأمر متروك للقارىء ، وليس للحكومة ، ثم إن إحسان نفسه بدأ يتغير فى كتاباته ، صحيح أنى لا أستسيغ رواياته وقصصه الأولى ، ولكني آمل أن تكون لديكم الحصانة والوعى لقراءة مختلف المؤلفات ، فإذا كانت لديكم الحصانة الأخلاقية والدينية ، فلن يضركم أى إغراء يتضمنه الفن والأدب » .

ولم يفتنى أن أشير إلى أن الروايات التى تقررها وزارة التربية والتعليم على طلبتها فى مختلف المراحل ، تختار بعناية ودقة ، ويجرى عليها التعديل أو الحزف عند الضرورى ، ولهذا فإن هناك أدباء كبارًا ، لم تختر وزارة التربية مؤلفاتهم لتدرسها للطلبة لخروجها على المواصفات التربوية والنفسية .

فاتنى أن أشير إلى أن ندوة نجيب محفوظ قبل إغلاقها ، ناقشت لى كتابين هما : « اليوم الموعود » ومجموعة قصص « موعدنا غدًا » .

وأذكر أن الأستاذين محمد قطب وعباس خضر قد سجلا أحاديث إذاعية فى نقدى ، كما إن نادى خريجى الجامعة المصرية قد أقام حفل تكريم لى ولبعض الإخوة الأدباء ، وكانت ليلة تكريم تجمعنى أنا والأستاذ على أحمد باكثير ، وفى هذه الأمسية تحدث الأستاذ « محمد قطب » عن روايتى « الطريق الطويل » ، وقارن بينها وبين رواية الأستاذ نجيب محفوظ الباكرة « القاهرة الجديدة » ، التى كتبها قبل الثلاثين بزمن ، ودهشت إذ وجدت الأستاذ محمد قطب يفضل الطريق الطويل عليها ، ولم أصدق أذنى ، وكانت معى فى هذه الأمسية الجميلة السيدة زوجتى بعد زواجنا بفترة قصيرة ، كما ألقى أيضًا الأستاذ الدكتور عبد القادر القط كلمة مناسبة عن « اليوم الموعود » .. وقد كان أحد المحكمين فى مسابقتها ، كما شارك فى ندوة إذاعية (البرنامج الثاني) مع الصديق المرحوم الأستاذ الدكتور عبد المحسن طه بدر ، وقد أدار الندوة الإذاعى والشاعر المعروف فاروق شوشة .

❁❁❁

[٨] نصف الدين



حينما التحقت بكلية الطب جامعة القاهرة ، نزلت إلى المدينة الكبيرة العريقة ذات التاريخ التليد ، والمآذن العالية ، والحركة الموّارة فى الفكر والسياسة والتجارة والتعليم ، وكان لى فيها عدد من الأقرباء ، وآثرت أن أنزل ضيفًا على عمى الشيخ عبد الفتاح الذى يعمل كاتبًا بوزارة الدفاع ، وقد سبق وتحدثت عنه فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، فأكرم وفادتى لبضعة أسابيع حتى قبلتنى مدينة « فاروق الأول الجامعية » بالأورمان كمقيم فيها مقابل خمسة جنيهات شهرية للإقامة والطعام والشراب ، وكانت آية فى الجمال والنظافة والإدارة ، وقد ضمت هذه المدينة المجاورة لجامعة القاهرة نخبة من القيادات الطلابية السياسية فى تلك الفترة ، ولم تكن ثورة ١٩٥٢ قد قامت بعد ، والمدينة تضم خليطًا كبيرًا من الطلبة الأغراب ، من جميع الكليات ، وقد عشت فيها أربعة أعوام كانت من أجمل سنوات العمر . وعلمت أن أحد علماء قريتنا الكبار وهو فضيلة الشيخ محمود محمد شاهين ، قد انتقل من قرية « القرشية » التى كان يعمل بها إمامًا وخطيبًا إلى مسجد بالقاهرة ، فاعتزمت أنا وابن أخيه الأستاذ فهمى شاهين زيارته فى مسكنه الكائن بشارع قدرى باشا بحى السيدة زينب ، رضى الله عنها ، وقد كان رحمه الله رجلًا سمحًا واسع الأفق ، حجة فى فقه الإمام الشافعى ، خبيرًا بشئون الحياة ، عميق النظرة ، ذا رأى سياسى واضح لكنه يرفض المشاركة فى الصراعات الحزبية ، وكانت أكبر أبنائه « كريمة » التى تبلغ من العمر آنذاك أحد عشر عامًا ، وعلى الرغم من صغر سنها إلا أنها كانت لمَاحة ذكية ، ذات وجه باسم ، وحيوية واضحة ، وعذوبة فى الكلام ، وجمال فى الملامح ، ولقد دخلت هذه البنت الصغيرة قلبى على الرغم من أنها فى مرحلة الطفولة المتأخرة ، وكانت تستجيب لنصائحى بسرعة ، وتفهم ما أشرحه لها من دروس فى محضر والدها ، كما كان لها سيطرة كاملة على إخوتها وأخواتها الذين يصغرونها سنًا ، فقد بلغ عدد هؤلاء الإخوة سبعة أربعة أولاد وثلاث بنات هى رابعتهم ، ولوحظ أنها متقدمة فى دراستها كما أنها مغرمة بالأنشطة المدرسية المختلفة ، فكانت أبرز طفلة فى فريق التمثيل بالمدرسة ، وهى التى تتولى الإذاعة المدرسية بإشراف مدرساتها ، وتجيد الكثير من المهارات الأخرى ، وترافق أباها إلى المسجد كثيرًا وتقرأ له علوم الدين وأمهات الكتب وتصاحبه فى الزيارات الخاصة ، لأنها كانت الأكبر سنًا وفهمًا لذلك استطاعت أن تتأثر بهذا الأب الحانى ، وتستفيد منه الكثير فى قابل حياتها .

وأخذت الأيام تمضى عامًا بعد عام ، والأحداث تترى ، والصغير يكبر ، ووجه الحياة يتغير ، وأنا دائم الاتصال بالعالم الجليل ، أرتوى من فيض علمه ، وأبادله الحديث حول السياسة التى هى شغلنا الشاغل فى تلك الفترة ، وفى أمور الحياة ، ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وكنت أنا شديد الحماس لها ، ولم أكن أعلم بأنى سوف أكتوى بنارها ، لكنه - رحمه الله - كان شديد القلق والتوتر ، ويوجس خيفة من المستقبل ، وكنت أنا لا أرضى بمثل هذه الآراء ، وأجادله بإلحاح حتى يغير رأيه ، لكنه

كان يبتسم لحماستى ، ويدعو الله أن تكون العاقبة خيرًا ، ولاحظت أنه لا يثق فى أخبار الصحف والإذاعة المصرية ، ويلجأ إلى سماع الإذاعات الأجنبية التى تذيع النشرات باللغة العربية ويحترمها ، على الرغم من أننى كنت أخالفه الرأى ، وأتهم هذه الإذاعات بالعمالة والتآمر والعمل لحساب أعدائنا المستعمرين والطامعين ، وكنت أرى وجهه يحتقن غضبًا حينما يسمع جمال عبد الناصر يشتم الملوك والرؤساء العرب ، ويوجه إليهم عبارات نابية ، ثم يقول عنه : « والله ليخربها ويقعد على تلّها » .

وهى عبارة يرددها المصريون عادة عندما يرون التصرفات الخاطئة الفاسدة ، فهم يعتقدون أن من يفعل ذلك ، سوف يبدء بالخسران ، ويخرب الديار ، ثم يجلس على التل مذمومًا مدحورًا ، وكل الذين لهم صلة بالشيخ الجليل يذكرون ذلك جيدًا ، ويحفظون عبارته عن ظهر قلب .

وعندما اندلعت الفتنة عام ١٩٥٤ كما سبق وأشرت وعقد مؤتمر فى كلية طب القصر العينى اختارنى زملائى أن ألقى الكلمة الرئيسية فى المؤتمر ، وفى خطبتى قمت بشن هجوم شديد على الثورة وجمال عبد الناصر ، ثم ساعدنى زملائى فى الإفلات من باب خلفى للكلية ، بعد أن أجريت بعض التعديلات فى ملابسى ، ووضعت نظارة سوداء على عينيّ .. وقلت لنفسى أين أذهب ؟ إذا ذهبت إلى مسكن عمى عبد الفتاح فقد يأتون إليّ ، وبعد تفكير قررت أن أختفى لدى شيخنا الجليل الشيخ محمود شاهين ، ولكنى كنت محرجًا ، فقد أسبب له المشاكل ، ولكنى توكلّت على الله وذهبت إليه ، وشرحت له الأمر ، وأكدت له أن ذلك لن يستغرق سوى أيام قليلة ، ورحب الرجل بى بشدة ، وأوصانى أن ظل معتكفًا بالغرفة التى سأستقر فيها ، وكانت الصغيرة كريمة تأتى إلى بالطعام والصحف ، كما تفسح الطريق أمام بعض الإخوان المخلصين الذين أثق فيهم ، مثل الأستاذ فهمى شاهين ، والأستاذ محمد صفوت نجم وغيرهم ، ولم يطل وقت الاختفاء ، فقد أعادت الثورة الرئيس اللواء محمد نجيب إلى منصبه ، وأفرجت عن الإخوان المعتقلين وغيرهم من المعارضين من رجال الفكر والصحافة والساسة القدامى ، وهكذا استطعت أن أعود آمنًا إلى المدينة الجامعية ، وإلى الدراسة بكلية الطب .

فى عام ١٩٥٥ أصبح عمر كريمة أربعة عشر عامًا ، وكبر عقلها وأحلامها ، وأصبحت فتاة ناضجة ملتزمة ، وفى شهر أغسطس من هذا العام تم اعتقالى وتقديمى للمحاكمة ، حيث حكم على بالسجن عشر سنوات كما سبق وأشرت .

وفى عام ١٩٥٨ كنت أخرج من السجن بضع ساعات للعلاج فى القصر العينى تحت حراسة مشددة ، وفوجئت بكريمة وأمها وشقيقها الذى يليها فى العمر وابن عمتها الحاج محمد مصطفى خضر ، وكان موظفًا فى إدارة جماعات نشر الرياضة بالقرى يأتون لزيارتى ، حينما رأوا القيود فى يدى بكوا تأثرًا بينما كنت ابتسم فقد تعودت ذلك ، وعندما عدت إلى السجن بعد انتهاء العلاج وجدتنى بصراحة أفكر فيها ، لقد كانت فى السابعة عشر من عمرها ، وكنت أكبرها بحوالى تسع سنوات .

وبعد أن أفرج عنى ألح عليّ موضوع الزواج على الرغم من أنى لم أتخرج من الكلية بعد ، ومما سهل أمر التفكير فى ذلك أنى أصبح لى دخل يكفى أن أبنى حياة زوجية معقولة ، وخاصة بعد أن قررت وزارة التربية تدريس بعض كتبى على طلبة المدارس ، كما إن مؤلفاتى الأخرى وكتاباتى فى الصحف والمجلات كانت توفر دخلًا لا بأس به ، وفعلًا تزوجت قبل تخرجى ببضعة شهور ، واستأجرت شقة فى حى شبرا ، فوق الشقة القديمة .. وواضح أن زوجتى كانت كريمة ...

لا أريد أن استطرد فى التفاصيل التى قد لا تهم القارئ ، وكان زواجى بعد تخرجها من المدرسة الثانوية (وقد التحقت بعد الزواج بمعهد الخدمة الاجتماعية وتخرجت منه) وأدركت أن الله قد أنعم على

بهذه الزوجة الصالحة ، التى تبر أهلها ، وتحفظ زوجها ، وتقرأ القرآن ، وتحب الإطلاع على المؤلفات الأدبية والدينية ، ومغرمة جدًا بمؤلفات الإمام الغزالى ، وخاصة كتابه « إحياء علوم الدين » ، ومنذ أن تزوجنا وهى تراجع مسودة مؤلفاتى من الناحية الإملائية والمطبعية بل اللغوية أيضًا ، ذلك لأن والدها رحمه الله قد أحسن تدريس اللغة لها بصورة جيدة ، وتعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة خصيصًا لنسخ مؤلفاتى عليها ..

وفى العام الأول من الزواج رزقنا الله بابننا البكر حسام الدين ، وفى العام الثانى بابنتنا الطاهرة النقية الوفية « عزة » طبيبة النساء والولادة ، وفى العام الرابع جاء الابن جلال الدين صاحب الخلق القويم ، والصدق والإخلاص ، وهو طبيب متخصص فى أمراض القلب ، أما الأصغر محمود فلم يأت إلا فى العام التاسع من الزواج وقد ولد فى مدينة دبى ، وهو حاصل على ليسانس الحقوق ، وفاتنى أن أذكر أن ولدنا الأول تخرج من كلية العلوم قسم الفيزياء والرياضيات هدانا وهداه الله وهدى إخوته إلى طريق الخير والفلاح. واستطاعت زوجتى فور الزواج أن تدرك بذكائها وشفافيتها مسئولياتها الكبيرة نحو البيت ونحو الأطفال الذين بدأ قدومهم منذ العام الأول للزواج ، ونحوى باعتبار انشغالاتى الكثيرة كطبيب وكأديب ، فاستطاعت أن توفر لى الجو المناسب دون أدنى تكاسل أو مضايقات حتى فى أيام الحمل والولادة .

وفى سنة الامتياز التى كنت أقضيها فى مستشفى أم المصريين بالجيزة جاء ابننا حسام الدين كما قلت ، وزاد راتبى جنيهًا ، كما أخذت علاوة الزوجية ، وأصبح مُجْمَل راتبى من الحكومة ثمانية عشر جنيهًا ونصف ، واضطررنا إلى الانتقال لحى الجيزة بالقرب من المستشفى الذى أعمل به ، وودعنا شبرا وشارع كنيسة الراهبات إلى الأبد ، وفى الجيزة ولدت ابنتى « عزة » وأنا الذى قمت بموضوع الولادة بنفسى حيث لم يسمح الوقت باستدعاء زميلة من الزملاء إذ جاءت الولادة سريعة وسهلة ، وكانت تقف إلى جوارى وتساعدنى الحاجة حماتى رحمها الله ، وكنت قد انتهيت من سنة الامتياز (أو التدريب) ، وقد تسلمت يوم ولادتها مبلغًا يفوق الستين جنيهًا عن راتب شهرين متأخرين لى ، فقبلتها أمها وهى تقول « البنات رزقهن كثير .. مقدمها مقدم خير » .

وكانت الحكومة قد أصدرت قانون تكليف الأطباء للعمل بالريف ، وكان لابد أن اتخذ الوسائل للرحيل عن القاهرة ، والذهاب إلى محافظة الغربية (وعاصمتها طنطا) لأبحث عن القرية التى سأعمل فيها ، ومن الطبيعى أن آخذ زوجتى وابنى وابنتى معى ، إذ لا أستطيع العيش بدونهم ، ولقد تضايقت من هذا النقل فى البداية وطلبت من وزير الصحة الدكتور النبوى المهندس ، رحمه الله ، أن يكلفنى بالعمل فى القاهرة ، ذلك لأن أعمالى الأدبية الكثيرة المتصلة بالصحف والإذاعة ووزارة التربية ، ثم الإشراف على طبع الكتب لدى الناشرين ، كل ذلك يجعلنى فى مسيس الحاجة إلى البقاء فى القاهرة ، لكنه رد عليّ قائلًا : « فى الريف ستتفتح أمامك آفاق واسعة للكتابة .. فلتمكث هناك عامًا على الأقل » .

وصدق حدس الرجل الذى كان يعمل أستاذًا لطب الأطفال فى جامعة القاهرة قبل أن يصبح وزيرًا ، وفى تلك الفترة كان تعاملى فى النشر مع الشركة العربية للطباعة والنشر ، فقد تعاون معي صاحبها حسن إيرانى تعاونًا كبيرًا ، ولم أكن اهتم كثيرًا بالناحية المادية ، إذ كان يهمنى بالدرجة الأولى ألا يتأخر نشر مؤلفاتى ، فتصل فى موعدها إلى القارئ ، وكان حسن إيرانى على دراسة واسعة بأسواق التوزيع بحيث كانت كتبى تصل إلى أقصى المغرب العربى وإلى المشرق أيضًا ، حتى إن بعض المكتبات الكبرى فى الدول العربية تضعها بين قوائمها مثل مكتبة « المثنّى » الشهيرة ببغداد ، وأخبرنى الأستاذ

عبد الحليم عبد الله الروائى المعروف رحمه الله أنه رأى بعض مؤلفاتى فى مكتبات المغرب ، بينما لم ير مؤلفات عدد من كبار الكتاب المصريين هناك .

وكان عليّ أن أرحل إلى محافظة الغربية للعمل هناك ، وسافرت وحدى فى البداية إلى طنطا ، وقصدت « المنطقة الطبية » هناك ، وأشاروا على بأن أختار بلدًا أعمل فيه ، ولما ترددت قيل لى أن مقر عملك سيكون قرية « كنيّشة دمشيت » القريبة من طنطا ، ولكن طرأت فى ذهنى فكرة ، لماذا لا اذهب للعمل فى قريتنا شرشابة ، مسقط رأسى ؟ إن أهلى فيها ، وأهل القرية أغلبهم أحبابى وأصدقائى وأعرفهم جيدًا ، وواجب عليّ أن أقدم خدماتى لهم ، ألم يغدقوا عليّ حبهم واحترامهم من قديم ؟ ألم يتعاطفوا معى فى أيام المحن القاسية حينما ألقى بى فى السجن ، وأبديت رغبتى للمسئولين بالمنطقة الطبية فرحبوا بالفكرة حيث إن بشرشابة وحدة مجمعة كبيرة ، وتحتاج لأكثر من طبيب ، وليس بها سوى طبيب واحد مثقل بالعمل ، وسعدت بموافقتهم على ذلك ، لكننى كنت محرجًا بعض الشيء فقد انتابت علاقتى بالأسرة بعض الفتور بسبب عدم موافقتى على مشروع الزواج من إحدى القريبات حسب رغبتهم ، مما جعلهم يغضبون لحد ما لأنى تزوجت من أخرى ، وما إن وصلت إلى القرية حتى استقبلنى أبى رحمه الله بحفاوة فقبّلت يده شاكرًا ، وكذلك فعلت أمى وباقى أفراد الأسرة ، ولم يكن أمامى سوى أن أعود إلى القاهرة وأحمل أسرتى وأثاث بيتى إلى مقر العمل الجديد ، ونزلت فى البداية فى بيت الأسرة ، ثم انتقلت إلى فيلًا من دورين داخل الوحدة المجمعة حتى أكون فى مقر عملى ، حيث إنى طبيب متفرغ كل الوقت ، وأستدعى لفحص الحالات فى أى وقت من الليل أو النهار .

فى الأيام الأولى لعملى شهدت الوحدة الصحية ما يشبه المظاهرة ، فقد احتشد المئات من الرجال والنساء والأطفال طلبًا للفحص الطبى ، ولمشاهدة ابن قريتهم الطبيب ، الذى يعتبر أول شاب يتولى هذا العمل من بين ظهرانيهم ، لكأنما شعروا أن الوحدة الطبية أصبحت بحق وحدتهم ، والطبيب ابنهم ، وخاصة أن زميلى بالعمل ، والذى يعيش بينهم منذ سنوات كان مهتمًا أكثر بالمرضى الخصوصى (الذين يدفعون أجرًا) ، ولا يجرى العمليات الصغيرة الجراحية المسموح بها مجانًا إلا بعد دفع مبلغ من المال ، ورأونى أفحص المرضى بدقة دون مقابل ، وأذهب إلى البيوت لفحص وزيارة المرضى دون أن أتقاضى مالًا ، وأصرف لهم أدوية الحكومة بالمجان ، لقد رأوا الإجادة فى العمل ، دون أن يدفعوا شيئًا فتشبثوا بى ، وعندما قسمت العمل بينى وبين زميلى ، بحيث أقوم بعمل العيادة يومًا ، فى الوقت الذى يؤدى هو فيه عمل مفتش الصحة (عمل وقائي) ، والعكس فى اليوم التالى ، كما قسمت عدد الأسّرة بالمستشفى مناصفة بينه وبينى ، فأصبح لى سبع أسّرة ، وله مثلها ، ولاحظت بعد ذلك أن المرضى يتكدسون فى اليوم الذى أعمل فيه بالعيادة ، بينما يقل عددهم كثيرًا فى يومه هو ، وكذلك امتلأت الأسرة السبعة الخاصة بى فى القسم الداخلى ، وبقيت الأسّرة الخاصة به فارغة ، لدرجة أننى ابتدأت أن أضع بعض مرضاى فى أسّرته ، وهكذا وفد إليّ المرضى من شتى قرى المنطقة ، من « كفر الجزيرة » و « ميت المخلص » و « كفر حسين » و « كفر السنارية » و « كفر السحمية » و « سنباط » و « ميت ميون » و « شنراق » وغيرها . وعانيت من إرهاق شديدة لكثرة العمل ، وكان عليّ أن استمر فى أداء رسالتى الهامة ، ولم أكن أتصور أن تحدث لى عقبات تشغلنى عن رسالتى .

وكانت الدولة قد أعلنت برنامج « اشتراكية العلاج » وأنشأت آلاف « الوحدات الصحية الريفية » ، بالإضافة إلى الوحدات المجمعة ، ووضعت فى كل وحدة طبيبًا أو أكثر ، واشتراكية العلاج تعنى الرعاية الصحية الكاملة وقائيًا وعلاجيًا للناس ، دون تقاضى أى أجر ، اللهم إلا دفع أربعة قروش

فقط عند قطع تذكرة الفحص ، ويعفى من هذا المبلغ البسيط الفقراء بعد موافقة الأخصائى الاجتماعى بالوحدة ، لكن اشتراكية العلاج كما رسمتها الدولة لم يتم تنفيذها على الوجه الصحيح ، لأن الأطباء العاملين فى هذه الوحدات ، كانوا يعتقدون أن مرتباتهم غير كافية ، وأنهم يعملون فى قلب الريف وسط الغبار والذباب والعزلة ، وما دام الأجر كذلك فإن من حقهم أن يبحثوا عن مصدر للدخل ، فما كان منهم إلا أن لجئوا إلى اختراع « بدعة » الفحص الخصوصى ، ومعناه أن يدفع المريض مبلغًا من المال مقابل الفحص الدقيق ، والعلاج الكافى ، ومعناه أيضًا أن يدفع المريض أجرًا على العملية الجراحية التى تجرى له داخل المستشفى ، وكانت العمليات المسموح بها عمليات صغيرة عددها سبع ، منها عملية الفتق والبواسير والدوالى والختان والأكياس الدهنية والخراريج بالإضافة إلى الإصابات الجراحية ، وهناك أيضًا الولادات الطبيعية ، من هنا نرى أن الطبيب الذى لا يلتزم بقوانين اشتراكية العلاج كما كانوا يسمونها ، يحصل من عمله الخارجى أضعاف اضعاف مرتبه ، وكان أغلب المفتشين الطبيين فى المنطقة الطبية بالعواصم يعلمون ذلك ، ويغضون الطرف عن تلك المخالفات مقابل ما يقدم لهم من مال أو هدايا . لكنى كنت مصرًا على تنفيذ اشتراكية العلاج بدقة ، وكان هذا مصدر المتاعب التى داهمتنى ، إذ فوجئت ذات يوم بقرار نقلى من القرية بعد حوالى شهرين ، فأصبت بالذهول ، وكان زميلى يبتسم فى سخرية ، ربما ظن أنى ساذج ولا أدرك أبعاد السياسة التى أنتهجها ونتيجتها ، وفهمت بسرعة السبب وراء هذا النقل المفاجئ ، بل فهمه أهل القرية ، والعاملون بالوحدة المجمعة ، لقد كان واضحًا أن المدد قد انقطع عن الكبار فى الإدارة بالمنطقة الطبية ، وكان سبب ذلك أننى قضيت على الفحوصات الخاصة والمبالغ التى تدفع فيها ، وكذلك أوقفت دفع أجر العمليات الجراحية ، ومنعت أيضًا تسرب وبيع أدوية الحكومة ، وخاصة حقن البنسلين والاستربتوميسين والفيتامينات وغيرها . وكان نتيجة لذلك أن توقفت الهدايا والأموال والمجاملات التى يقدمها زميلى للرؤساء فى طنطا ..

وما إن علم أهل القرية بما جرى حتى ثاروا ثورة عارمة ، وكتبوا البرقيات والعرائض الاستنكارية للمسئولين فى المحافظة وفى الوزارة ، وساد الهرج والمرج ، وخرج وفد كبير من أهالى القرية ، وعلى رأسهم قادة فرع حزب الحكومة فى القرية (ويلاحظ أننى كنت معزولًا سياسيًا ، ليس لى الحق فى الاشتراك بأى نشاط حزبى ، حكومى أوغير حكومي) ، وذهب الوفد إلى مقابلة المحافظ المرحوم المستشار عمر زعفان وكان خال وصهر عباس رضوان وزير الحكم المحلى ، وأحد ضباط الثورة السابقين ، وكان للموضوع صدى كبير على مستوى المحافظة ، فماذا يفعل رؤسائى فى الإدارة الطبية بطنطا ؟ لقد لجئوا إلى حيلة خسيسة انطلت على السيد المحافظ فى البداية إذ قالوا له : « إن نجيب الكيلانى ، مشاغب قديم ، ومن جماعة الإخوان المسلمين العدو اللدود للثورة ، وأن ماضيه حافل بالمظاهرات والتمرد ، وقد حكم عليه بالسجن عشر سنوات ، وأنه يريد أن يستأنف من جديد حياة التمرد والعصيان ، ونحن لم ننقله إلا للمصلحة العامة ، فكيف يكون هناك طبيبان فى وحدة ، بينما نغلق وحدة صحية أخرى ليس فيها طبيب » . واستدعانى المحافظ فعلًا وذهبت إليه على عجل ..

كنت أجلس فى غرفة الانتظار ، وإذ بالسيد المحافظ يخرج من مكتبه ، ويسدد إليّ نظرات غاضبة ويقول : « أأنت الدكتور نجيب الكيلانى ؟ » .

– « نعم .» .

– « ماذا تريد ؟ ألا تكف عن الشغب والفوضى ؟ لماذا لا تنفذ الأوامر ؟ » .

ابتسمت فى هدوء ، وكان يقف إلى جوارى ، الدكتور الصديق محمود جامع من أشهر رجالات

طنطا ، ومدير التأمين الصحى فيها ، والصديق الحميم للمرحوم أنور السادات فيما بعد ، وقلت للسيد المحافظ بمنتهى الثقة والقوة : « أنت يا سيدى المحافظ مستشار قبل أن تكون محافظًا ، وقد أصدرت حكمًا فى قضية دون أن تسمع كلام الطرف الآخر » . وفوجئ الرجل بردى ، وفكّر فيه ، وخفض رأسه ، ثم تخلى عن نبرته الغاضبة وقال بصوت خفيض : « ولماذا لم تخبرنى بالحقيقة من قبل ؟ » .

- « أرسلت إليك يا سيادة المحافظ برقية كلفتنى خمسة وسبعين قرشًا » .
- « لم أرها ..» .
- « اسأل مدير مكتبك » .

التفت إلى مدير مكتبه وسأله عن البرقية فقال : « نعم وصلت » .

- « ولماذا لم تعرضها علىّ » .
- « سيادتك كنت مشغول » .

التفت إلى المحافظ وقال : « أنا ذاهب فى مهمة عاجلة إلى « المحلة الكبرى » . وهى مدينة صناعية كبيرة مجاورة . واستطرد المحافظ قائلًا : « عليك أن تنفذ أوامر رئاستك أولًا » .

ولم يترك لى فرصة للرد أو التعليق ، ومضى فى طريقه صوب الدرج ، الواقع أننى شعرت بإحباط بالغ ، فماذا أفعل ، وسرت فى الطريق أتوكأ على عصاى إلى جوار صديقى الدكتور محمود جامع ، وقلت له : « لن أتراجع أو أهادن » .

- « ماذا ستفعل ؟ » .
- « انظر .. إن ركبتى اليمنى متورمة ، ولا أستطيع المشى إلّا بصعوبة بالغة ، وسأذهب إلى اللجنة الطبية ، لكى أحصل على إجازة مرضية ، وبعدها يفرجها الله ..» .

أخذت إجازة مرضية لمدة أسبوعين ، وعدت إلى القرية معتزمًا العودة إلى القاهرة مع أسرتى لنقضى هناك هذه الفترة ، وقبل أن أركب القطار إلى القاهرة جلست فى « القهوة العثمانية » بطنطا ، وسطرت خطابًا هامًا لسيادة محافظ الغربية ، وكان خطابًا واضحًا صريحًا قوى اللهجة ، وليكن ما يكون .. جاء فى هذا الخطاب « إنكم يا سيادة المحافظ تديرون الأمور من خلف مكاتبكم ، وكان حريًا بكم أن تخرجوا إلى الشوارع ، وتذهبوا إلى القرى ، وتلبسوا الملابس الزرقاء ، وتعيشوا بين الفلاحين لتعرفوا الحقيقة على وجهها الصحيح .. سوف تكتشفون المآسى والمهازل ، سترون أن عيادات ومستشفيات اشتراكية العلاج .. تباع فيها الخدمات والأدوية .. وأصبحت مؤسسات الحكومة عيادات خاصة .. وضاعت شعارات الاشتراكية التى تنادون بها ، وإذا حاول إنسان مخلص أن يلفت نظركم إلى الحقيقة اعتبرتموه متمردًا ورجعيًا وعدوًا للحكومة والشعب .. لقد أبرأت ذمتى ، وأديت واجبى ، وأنا على استعداد تام لأقدم استقالتى لسيادتكم ، ثم أعود لقريتى لأزرع الأرض مع أهلى الفلاحين ، ولن أتقاضى أجرًا ما حييت من أى مريض ، حتى لو استقلت وفتحت عيادة خاصة » ، وفى الرسالة أشرت إلى أن الحقيقة قد تختفى وراء غبار الظنون والشبهات وزيف الأقاويل .

ولم أرسل هذه الرسالة تلك المرة إلى مكتب المحافظ بالمحافظة ، وإنما أرسلتها على عنوان بيته فى طنطا ، وشعرت بالارتياح بعد أن سجلتها بالبريد ، وأخيرًا أخذت الزوجة والأولاد ، ونزلت القاهرة فى منزل صهرى الشيخ محمود محمد شاهين بحى السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، وتفرغت فى البداية للإشراف على طباعة كتبى الجديدة وبدأت كتابة قصة جديدة عن تجربتى تلك فى الوحدة الصحية ، وسميتها « الذين يحترقون » .

التقيت فى القاهرة بصديقى الأديب الناقد الصحفى رجاء النقاش ، ورويت له قصتى في الريف ، فتحمس لها بشدة ، وبادر على الفور بكتابة مقال فى جريدة الأخبار القاهرية فى الصفحة الأخير تحت عنوان : (قصة واقعية مهداة لمحافظ الغربية ... من المسئول عن حماية هؤلاء الأدباء؟)

وأحدث المقال دويًا واسعًا ، وخاصة فى المنطقة الطبية ، ومحافظة الغربية ، ووزارة الصحة ، وأرسل المحافظ أمرًا عاجلًا باستدعائى من قرية شرشابة ، فأخبروه أننى تركتها وسافرت إلى القاهرة ، ثم التفت إلى من حوله وسألهم : أليس فيكم من يستطيع أن يحضر لى نجيب الكيلانى فى أقصر وقت ممكن ؟ » وكان إلى جواره الأستاذ الصديق إبراهيم الغندور ، وعلى الرغم من أنه من رجال التربية والتعليم ، وموجه اللغة الإنجليزية ، إلا أنه كان منتدبًا للمحافظة للقيام بعمل مدير العلاقات العامة ، فأخبر المحافظ بأنه يعرفنى وأنه سوف ينفذ ما طلبه سيادته على الفور ، وانتهز الفرصة ، وتحدث مع المحافظ حديثًا وديًا ، وأشار فيه إلى أنى رجل مشهود له ، وأن مؤلفاتى مقررة على طلبة المدارس ، وأن .. وأن .. وقدم إلى فى القاهرة الصديق « سعيد سلطان » وهو يعمل مراقب صحة بالوحدة المجمعة ، ومعه رسالة من الأستاذ إبراهيم الغندور لكى أعود لمقابلة المحافظ ، ووعدنى بأنى سوف أنال حقى كاملًا ، ولن أتعرض لأية إساءات أو منغصات بعد ذلك .. وتركت القاهرة وحدى ، وعدت إلى طنطا .

جلست فى انتظار الإذن بالدخول للسيد المحافظ ، وكان للانتظار سبب ، فقد استدعى سيادته مدير المنطقة الطبية ، وكذلك المفتش الطبى المختص بى ، والذى سبب لى المتاعب ، والذى يعتبر السند والصديق لزميلى الطبيب بالوحدة ..

ودخلت على السيد المحافظ ، وعندما رآنى هب واقفًا واستقبلنى بحفاوة لم أكن أتوقعها ، ووجهه يشرق بالسعادة وعلى ثغره ابتسامة عريضة ، وعلى الناحية اليمنى يجلس المدير العام والمفتش الطبى ، وفى الناحية الأخرى يجلس رجل عرفت فيما بعد أنه ضابط فى المباحث العامة (أمن الدولة) ، وصافحنى بحرارة ، وطلب منى الجلوس وبدأنا ...

سأل المحافظ المدير العام : « ما هى مآخذكم على نجيب الكيلانى ؟ » .

– « يوزع الكثير من الأدوية ..» .

– « لمن يوزعها ..»

– « للمرضى » .

قال المحافظ : « إذن لا يأخذها لنفسه » .

– « لم نقل ذلك ..» .

وهنا تدخلت قائلًا : « اسمح لى يا سيادة المحافظ .. إن بعض الأطباء يبيعون الأدوية ، ويضعون ثمنها فى جيوبهم ، والسيد المفتش الطبى الدكتور (س ..» يعرف ذلك » .

بدا الغضب على وجه المفتش الطبى وقال : « لا تقل مثل هذا الاتهام أنا لا أعرف شيئًا » .

– « لديك شكاوى بذلك يا دكتور (س ..) ولم تحقق فيها ..» .

اشتد الغضب بالمفتش ، وانفجر قائلًا : « نجيب الكيلانى سجين سابق .. وقد حكم عليه من قبل بالسجن عشر سنوات » هممت بالرد ، لكن المحافظ أشار إلى بيده أن أصمت ، وانبرى سيادته قائلًا : « يا دكتور (س ..) إن ما قلته الآن يدل على أنك متحيز ضد الدكتور نجيب الكيلانى .. والذى تتحدث عنه كان قضية « رأى سياسى » ، وهى لا تشين نجيب .. إننى لا أسألك عن فكره السياسى ، ولكنى أسألك عنه كطبيب » .

خجل المفتش وتدارك الموقف وقال : « إنه كطبيب ممتاز فى عمله » .
- « عظيم .. وهل يأخذ من الفلاحين أجرًا على الفحص الخصوصى » .
- « لا ... » .
- « هل يبيع الدواء الحكومى للفلاحين ؟ » .
- « لا .. » .
- « إذن ماذا تريدون منه » .
- « إن هناك وحدة طبية بدون طبيب ، ولذلك احتجنا إليه ليعمل بها » .
قال المحافظ : « ولماذا لا تنقلوا الطبيب الآخر » .
- « إنه الأقدم يا سيادة المحافظ » .
- « لكنى علمت أنه قُدم للمحاكمة فى محكمة أمن الدولة ، وصدر ضده حكم بعزله من رئاسة مجلس القرية ، وقطع أجر شهرين من مرتبه ، ووقف ترقيته ..» .
- « أمرك يا سيادة المحافظ ..»
- « ليبق الدكتور نجيب فى بلده ، ولا يتعرض له أحد من عندكم .. وإلا فسوف أنقله عندى فى المحافظة لكى يكون إلى جوارى ليساعدنى برأيه وخبرته » وانصرف المدير العام والمفتش وهما يتصببان عرقًا ، وانتصر الحق أخيرًا ، واستبقانى المحافظ بعد أن ذهبا ، وعرض علىّ العمل معه ، واعترف لى بأنه يعانى من قلة الرجال المخلصين فى محافظته ، وأنه لم يعد يثق إلا فى ثلاثة . أنا أحدهم . وألح على فى ذلك ، فقلت له : « أشكرك يا سيادة المحافظ على ثقتك الغالية ، لكنى عاهدت الله أن أبقى متمسكا بمهنتى الطبية حتى النهاية ، وليست لىَ طموحات فى مناصب سياسية أو إدارية حاليًا ، إننى أشعر بالسعادة القصوى مع مرضاى ، والطب - كما يقولون - مهنة إنسانية بالفعل ، يثيب الله عليها خير الجزاء ...». وصمت السيد المحافظ برهة وقال : « لماذا لا ترشح نفسك فى الانتخابات النيابية القادمة ، وتدخل المجلس ، أنا واثق أنك ستنجح بإذن الله » .

قلت له : « معذرة يا سيادة المحافظ .. فأنا كما تعلم « معزول سياسى » ولا يحق لى الدخول فى الانتخابات العامة ، بسبب الحكم الذى صدر ضدى من محكمة الشعب عام ١٩٥٥» .

قال فى ثقة وحماسة : « سأكلم لك ابن أختى السيد عباس رضوان وزير الحكم المحلى ، إنه يستطيع أن يرفع عنك العزل السياسى ..» .

وصدقت .. وفى الانتخابات التالية قدمت طلبًا للترشيح .. وعلى باب المحافظة نزلت قائمة بأسماء الممنوعين من دخول الانتخابات .. وكان اسمى هو الوحيد فى هذه القائمة ..

ذهبت إلى القاهرة ، وأحضرت أسرتى مرة أخرى ، وعدنا إلى قريتنا الحبيبة مرة أخرى .. وتلقانا الأهالى فى موكب متواضع من الترحيب والفرح والزغاريد .. لقد تحقق نصر لا بأس به فى هذه المواجهة .. والانتصارات الصغيرة تصنع فى النهاية النصر الكبير ..

وتفرغت لكتابة رواية « الذى يحترقون » ، ألجأ إليها فقط فى المساء ، وأسجل بعض الصفحات.. وقد تضمنت هذه الرواية الكثير مما جرى لى فى هذه التجربة ، فكأنها جزء من السيرة الذاتية ..

❁❁❁

[٩] الحريق الكبير



كانت «الوحدة المجمعة» مكونة من القسم الطبى وبه أطباء وممرضون وممرضات وفنيون وكتبة وحراس وتومرجية وفراشون، وبالوحدة المجمعة أيضًا قسم الخدمة الاجتماعية ومسئولياته معروفة، كما أن فيها قسم للإرشاد الزراعى والحيوانى محدود النشاط للغاية، وهناك أيضًا القسم التعليمى حيث الناظر والمدرسون والطلبة والطالبات، وبالإضافة إلى ذلك مجلس القرية المنتخب، والذى يرأسه الطبيب أحيانًا، أو عمدة القرية الحاج إبراهيم الشافعى أحيانًا، أخرى، وقد رأسه ذات مرة بالتعيين الأخصائى الاجتماعى، وكان رؤساء هذه الأقسام كلها يسكنون فى مساكن داخل الوحدة، الأطباء والناظر والأخصائى الاجتماعى الذى يشرف على النشاط الزراعى والاجتماعى معًا، والمعروف أن مجلس القرية هو الممثل للفلاحين، وممثل الحزب الذى يحكم دون منافس. وكانت أغلب مساكن شرشابة من الطوب اللبن فى تلك الفترة، وليس فى القرية محطات للكهرباء أو ضخ الماء آنذاك، والشوارع متربة، وأسطح المنازل تتكدس فوقها أحطاب الذرة الجافة وأعواد القطن، ومخازن الحبوب والطعام، ومعروف أن هذه الأحطاب الجافة تستخدم فى الأفران لخبز الأرغفة، كما تستخدم فى طهى الطعام، وقلة من الناس يستخدمون مواقد الجاز للطهى، لكن الجميع يخبزون فى الأفران البلدى.

كان يوم الخامس والعشرين من يناير عام ١٩٦٣ يومًا عاصفًا باردًا، وكان الناس يرتجفون من شدة البرد، وحدث أن انطلقت شرارات من فرن مشتعل فى وسط القرية فأمسكت بالحطب، وسرعان ما ارتفعت ألسنة اللهب، واتسع نطاق الحريق فوق أسطح المنازل المتلاصقة الواطئة، وأصاب الذعر الناس، وأخذت النسوة فى الصياح والاستغاثة، وهرولوا لإنقاذ أطفالهم وبهائمهم، وكان انشغالهم بذلك مدعاة لامتداد الحريق بسرعة كبيرة لشدة العواصف، ولوحظ أن بعض الحمائم تطير مشتعلة ثم تحط على أحد الأسطح فتشتعل النيران فيه، ولم يكن فى القرية أجهزة لإطفاء الحريق على الرغم من أنها قرية كبيرة، فاتصل العمدة بالمطافئ فى المركز والمحافظة، ولم تصل النجدة إلا بعد أن احترق جزء كبير من البيوت، وعندما وصل رجال الإطفاء، وجدوا أن مياه الترع قليلة بسبب الجفاف أو السدة الشتوية فى هذا الوقت من كل عام، ومع أن نقص الماء كان مشكلة كبرى، إلا أنه ظهرت مشكلة من نوع آخر غريب، وهو أن الفلاحين هجموا على خراطيم المياه، وكل واحد منهم يريد أن يطفئ بيته أولاً، وهكذا نشبت المعارك بين الفلاحين وبعضهم البعض، وبين الفلاحين ورجال الإطفاء من جانب آخر، وأصيب عدد من الناس من جراء ذلك الصدام، لكن عددًا من الفلاحين تعاونوا فى نقل المياه من الطلمبات التى تخرج المياه الجوفية، ومن الترع فى الأوانى المنزلية والجرادل والصفائح المعدنية، وحققوا فى ذلك قدرًا من النجاح، وحاول البعض إطفاء الحريق باستخدام العصى الطويلة والغليظة وعروق الخشب الضخمة

وأفرع الأشجار ، ونثر التراب هنا وهناك ، كانت الجموع تخوض معركة ضارية ضد سطوة النار التى لا ترحم ، وبقى الصراع ساعات طويلة مؤلمة ، والأطفال يصرخون ويبكون ، وكذلك النساء ، حتى الكلاب أخذت تنبح ، واختلطت أصوات الحيوانات الأخرى ، وأسودت الأيدى والوجوه من أثر الهباب والدخان ، وأصبح جو القرية خانقًا لا يكاد يطاق ، وقد نجد امرأة هائمة على وجهها فى الشارع تجرى وتنادى ابنتها الضائعة ، أو ولدها المفقود ، تاركة الحريق والناس ، فليس فى رأسها إلا فلذة كبدها ، وليحترق العالم كله ، ومات فى الحريق أربعة من الرجال والنساء ، ونفقت بهائم وحمير وأغنام وماعز ، ودمر الكثير من أثاث المنازل ، كما احترقت الأسقف ، وهى فى الغالب من الخشب المغطى بالطين ، ودمرت منازل ، وأتت النار على جزء كبير من المحاصيل التى يخزنها الفلاحون فوق الأسطح أو فى مخازن طينية ، والمعروف أن كيزان الذرة تترك مكشوفة فوق البيوت .. وكانت إحدى النائحات تقول « موت وخراب ديار .. الطف يا رب » . وفى أحد الأماكن تجمع عدد كبير من المسنين ، وقفوا يضرعون إلى الله بصوت عالٍ ، والدموع تتساقط من أعينهم ، وبعضهم يردد « إن ما جرى ما هو إلا نتيجة لعصياننا وغضب الله علينا ، ولا نجاة إلا باللجوء إلى الله ، وكان العمدة والخفراء يجرون هنا وهناك ويطلقون الصفافير ، ويصدرون التوجيهات أعنى الأوامر ، وليس هناك سامع أو مجيب وسط الضجيج والدخان والغبار ، وتقول عجوز تزحف على يديها وركبتيها « إذا كانت هذه هى نار الدنيا ، فكيف تكون نار الآخرة ؟ اللهم رحمتك بعبيدك المساكين .. » .

ومضت الساعات قاسية رهيبة ، لم يكن هناك من يستطيع التوقف للتفكير ، إذ لا مجال سوى العمل ، ومكافحة الحريق بكل شىء حتى بالطوب ، وبكل ما تصل إليه اليد ، إذ لا يستطيع أحد أن يقف متفرجًا ، كان الصديق الترزى « منصور السروجى » يكاد يجن وهو يرى الحريق يلتهم منزله ، وحاول مرارًا أن ينقذ ماكينة الخياطة التى يرتزق منها فلم يستطع أن يقتحم النار ، فجرى صوب أحد رجال الإطفاء وأخذ ينتزع منه الخرطوم عنوة ، وتشبث الشرطى بخرطومه ، فجذبه منصور جذبة عنيفة فأفلت من يد الشرطى ، لكنه اصطدم بعين منصور اليسرى ، فرمى بالخرطوم وهو يستنجد بأخيه : « عين أخيك طارت يا ولد يا كامل .. الحقنى » . وقدم كامل حاملًا فأسه ، يريد أن يهوى بها على رأس رجل الإطفاء ، لكن منصور كان قد أفاق ، فاعترض طريق أخيه ، وأمسك به وهو يقول : « لم يكن يقصد إيذائى يا كامل .. له الشكر على كل حال ، لقد جاء لنجدتنا » .

ووقف منصور يتحسس عينه المتورمة الزرقاء ، ونسى أو كاد ماكينة الخياطة التى تحاصرها النيران.

وهدأت العاصفة ، وأخذ الحريق يخمد رويدًا رويدًا ، وساد الصمت وجلس الفلاحون والفلاحات على الأطلال يبكون ، ويرمقون الدخان المجتمع فى السماء بعيون دامعة حزينة ، ومن الصدف العجيبة أن الآفات الزراعية كانت قد فتكت بالكثير من المزروعات والعام الذى سبقه ، والناس يعانون الفقر وضيق الحال ، ويعزون تلف المحاصيل إلى المبيدات الحشرية المغشوشة ، والتى لا تؤثر فى ديدان القطن أو الذرة ، لدرجة أن أحد الفلاحين وضع دودة قطن وغيرها فى مسحوق المبيد ، وكم كانت دهشته عندما شاهد الدودة تتقلب فى المبيد دون أن يصيبها أدنى أذى ، وهكذا اجتمع خراب المحصول مع دمار الحريق ، فيما يشبه المؤامرة للإطاحة بأمن الفلاح ، وتضييع رزقه ، والقضاء على آماله فى الرخاء ...

وقضى أهل القرية أسوأ ليلة عرفوها فى حياتهم ، وتوافد إلى الوحدة المجمعة عدد من الناس ، هتفت بزوجتى وكانت فى الطابق الثانى : « انزلى وقدمى كل ما لديك من طعام للناس ، وخاصة الأطفال » .

ومن فضل الله أن الحريق لم يصل إلى الوحدة المجمعة القائمة فى المنطقة الغربية ، والتى يفصلها عن

القرية ترعة ، لكن بيتنا ، بيت الوالد ، فى الناحية الشرقية من البلد تعرض لدمار الحريق ، ذلك لأن مد الحريق كان يتجه جهة لشرق كالمارد الجبار الذى لا يقدر على مواجهته أحد ، وحاولت زوجتى بأقصى ما تستطيع أن تقدم كل ما لدينا من مخزون لمن قدموا إلى البيت ، وآوت الأطفال الصغار فى الدور الأرضى كى يستطيعوا النوم ويكفوا عن البكاء ..

فى اليوم التالى قدم سيادة المحافظ ترافقه وزيرة الشئون الاجتماعية وقتذاك الدكتور حكمت أبو زيد ، وبالطبع كنت ضمن مستقبليهم ، ومضى ركب الضيوف فى الحقيقة يجوب شوارع القرية ، وينظر بألم إلى الدمار الذى لحق بها ، ولاحظت أن المحافظ يتودّد إليّ بكلمات طيبة ، وخاصة بعد أن علم من الناس ما بذلته من جهد ، وطلبت إرسال المعونات الغذائية وخيام الإيواء والأغطية على الفور ، فأكد لى أن تلك هى مهمته العاجلة والسريعة ، وكانت المعونة الغذائية التى أتت فى نفس اليوم منصبة على الخبز وحده ، فهو أهم شيء ، والناس جائعون ، والبرد شديد ، ونصبت الخيام ، ووقفت فى ساحة تتوسطها ، وأخذت أوزع أرغفة الخبز ، كان الفلاحون يتزاحمون بصورة جنونية « فالجوع كافر » كما يقول أهل القرية ، وكانوا يتصادمون ويتضاربون وكأنهم نسوا تمامًا الوداعة والألفة التى تربط بينهم من قديم ، وكان الأمر يصل فى بعض الأوقات للتشابك بالأيدى ، لكنى كنت أبادر بفض الاشتباك بإعطاء الطرفين عددًا من الأرغفة التى تكفى ، فأنا أعرفهم واحدًا واحدًا ، كما أعرف حجم كل أسرة ، ومعى نخبة من الزملاء يساعدوننى فى ذلك ، كنت ألبس « روبًا سميكًا ، فوق المنامة البيجاما » ، وأضع على رأسى طاقية من الصوف ، لكن الغبار الناجم عن الزحام كان كثيفًا جدًّا حتى كدت أختنق ، وخف الزحام إلى حد كبير ، واستطعنا إرضاء معظم الناس ، وقد أتى إلى الوحدة لتسلم الخبز الأغنياء والفقراء على السواء ، وقد انتهز بعض العاملين بالوحدة الفرصة ليستولوا على كمية كبيرة من الخبز ، فاعترضت ونهرتهم ، وطلبت من والدى رحمه الله ألا يحضر إليّ أحد من عائلتنا الكثيرة العدد . ورجوته أن ينظم المعونة لهم داخليًا ، فأكبر فيّ ذلك ووعدنى بالتنفيذ ، ومع ذلك فقد أتى عدد من فقراء العائلة ، فلم أشأ أن أردهم خائبين ، بل أعطيتهم مثلما أعطيت الآخرين ، وفى مساء هذا اليوم (ثانى أيام الحريق السادس والعشرين من يناير ١٩٦٣) قدم نائب الدائرة المنتخب الأستاذ صلاح سعدة أحد أفراد تنظيم الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة ، وجلس معنا فى المخيم ، وليساهم بجهوده فى عبور هذه الكارثة ، وكان الأستاذ صلاح رجلًا مخلصًا مهذبًا رقيقًا ، ويمت لبعض أسر قريتنا بصلة قرابة . وقد أبعده جمال عبد الناصر عن الصفوف الأولى فى الثورة لخلافه فى الرأى معهم ، وعينه رئيسًا لمجلس إدارة إحدى شركات القطاع العام ، وهو من الشخصيات المحبوبة فى البلد ، ومما ذكره أهل قريتنا أنه أثناء المعركة الانتخابية ، طلب منه أهل القرية . كشرط لانتخابه . طلبًا واحدًا ، وهو إخراجى من السجن ، فأكد لهم أنه لن يكف عن بذل المحاولات للإفراج عنى ، وأقسم لهم على ذلك ، وشرح لهم أن هذا يحتاج إلى قرار من مستوى عالٍ ، وهو واثق أن الله سوف يحقق أمل الإفراج عنى . وشيعت قريتنا شهداء الحريق ، وكان منهم شاب اسمه رشدى صالح ، واستقبلت وزيرة الشئون الاجتماعية زوجته المتشحة بالسواد وكانت المقابلة مشحونة بالعواطف المؤلمة ، وقدمت لها المعونة العاجلة ، وفى الأيام التالية أخذنا نطوف بالمنازل لحصر الخسائر ، حتى تستطيع الحكومة تحديد التعويضات المستحقة على وجه التقريب ، وبعد فترة ليست بالقصيرة ، جاءت التعويضات .. لكنها للأسف كانت مخيبة للآمال ، وكان على الفلاحين أن يرضوا .. وأن يصبروا مثلما صبروا من آلاف السنين ..

[١٠] الحياة الصعبة فى القرية



بطبيعة الحال، فإن الحياة فى قريتنا كانت صعبة، والمشاكل فيها لا تنتهى، ليس بسبب صعوبة العمل وكثرته، ولكن بسبب الأوضاع المتردية أيضًا، وكانت هناك مخلفات كثيرة من جراء الممارسات الخاطئة لمن سبقونى فى العمل، ومع ذلك حاولت جاهدًا أن أرتب الأوضاع، وأزيل الحزازات القديمة على قدر ما أستطيع، فمثلًا كانت هناك معونات أمريكية تسلم لطبيب الوحدة من دقيق وسمن وغير ذلك، ولم أكن أعلم عنها شيئًا أو أهتم بها إلى أن جاءت فرقة للتحقيق مع زميلى، بعد أن قدمت شكوى من الفقراء يتهمونه بأنه يبيع المعونات لحسابه الخاص، ولا يعطيهم شيئًا، وكم كانت دهشة المحقق عندما وجد أن هؤلاء لم يأخذوا المعونة على الرغم من توقيعهم باستلامها، وبإجرائى لبعض التحريات تبين لى صدق هؤلاء المساكين، وكان البعض منهم يمتون لى بصلة قربى، وأصر الفقراء على أقوالهم، وأصر الطبيب ومن معه على الإنكار، ومع أن صحيفة التحقيق لم تُغْلَقْ تمامًا إلا أن اللجنة قررت تسليمى العهدة، على الرغم من عزوفى الشديد عن ذلك، ووضعت المخزن تحت مسئولية أحد الموظفين، وبدأت التوزيع بنفسى بالعدل، وكم كانت دهشتى عندما جاء والدى إلىّ ذات يوم وقال وهو يلوح بيده فى غضب: «أنت نائم .. ولا تدرى شيئًا عما يجرى وراء ظهرك».

– «خيرًا يا أبى ..».

– «باع أمس رجالك عددًا من أجولة الدقيق، وأنت لا تدرى».

– «هل هذا معقول ..».

– «أستطيع أن أصحبك بنفسى للتاجر الذى اشترى منهم».

واستبد بى الضيق، واحترت ماذا أفعل، وأسرعت بجرد المخزن، ولكن اللصوص للأسف لم يتركوا ثغرة، فطلبت منهم المفاتيح، وقمت بنفسى بتوزيع المعونة الأمريكية حتى لم يبق منها شىء، وقررت ألا أترك المعونة فى المخزن مستقبلًا إذا جاءت إلا لفترة قصيرة يتم توزيعها فيها، وأسفت أشد الأسف لأنى وضعت ثقتى فيمن لا يستحقونها، وتعلمت درسًا لا أنساه .. وجاءنى أحد الفلاحين واسمه عبد الحليم أبو باشا وأخبرنى أنه معرض للسجن بسبب زميلى الطبيب، ولما سألته عن السبب قال إن أحد المرضى واسمه أبو الفتح شعبان جاء يشكو من الحمى، فأعطاه الطبيب حقنة مات على أثرها، ثم كتب تقريرًا ذكر فيه أن الوفاة نتجت عن نوبة قلبية مفاجئة، ودفنت الجثة، وبادر عبد الحليم بتقديم شكوى ضد الطبيب متهمًا إياه بالتسبب فى وفاة أبو الفتوح، واستطاع الطبيب أن يفلت، ولم يكتف بذلك بل رفع دعوى ضد عبد الحليم أبو باشا بتهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات، ومطالبًا برد شرف، وضاق الخناق على عبد الحليم الفقير المسكين، وأخذ يعتذر للطبيب دون جدوى، فما كان منه

إلا أن وكّل أحد المحامين للدفاع عنه ، واقترض أجر المحامى ، وأقسم أنه باع قطعًا من أثاث بيته ، وكان قد فعل نفس الشيء قبل ذلك ليدفع للطبيب تكليف عملية البواسير التى يفترض أن تكون بالمجان واستدعيت الممرضة المختصة ، بعد أن مضى عبد الحليم ، وسألتها عن واقعة وفاة أبو الفتوح شعبان ، بعد أن أفهمتها هذه شهادة تسأل عنها أمام الله ، قلت : « أى حقنة أعطيت لأبو الفتوح » .

– « بنسلين ..» .

– « وهل مات على الفور ؟ » .

– « نعم ..» .

– « ومن الذى أمرك بإعطائه الحقنة ؟ » .

– « الدكتور » .

– « ألم يجر الطبيب اختبار حساسية للبنسلين قبل إعطائه ؟ » .

– « كلا .. نحن لا نعمل اختبار حساسية » .

– « وهل سجلتم ذلك فى دفتر استقبال المرضى ؟ » .

– « لا ..» .

– « لماذا ؟ » .

– « لأن الدكتور طلب منى ألا أسجل اسمه ، ولا الدواء الذى أخذه » .

– « شكرًا ..» .

– « ليس لى ذنب ، وأنا لا أستطيع مخالفة زميلك .. كان يمكن أن يضرنى ..» .

عندما جاءنى المتهم عبد الحليم أبو باشا بعد يومين ، أخبرنى أن القضية أوشكت ، وأنه خائف أن يحكم عليه وهو مظلوم ، فأخرجت ورقة ، وكتبت مذكرة أشرت فيها إلى أن البلاغ الذى قدمه عبد الحليم أبو باشا ليس كاذبًا ، واستدللت على ذلك بعدم تسجيل اسم المريض أبو الفتوح فى دفتر الاستقبال ، وكذلك عدم كتابة نوع الحقنة التى أخذها ، وقد ثبت أنه مات بالمستشفى بشهادة جميع أهل القرية ، لكن جرت محاولة معتمدة لطمس معالم القضية ، وما إن قرأ المحامى المذكرة حتى فرح بها جدًا ، وعندما نودى على القضية قدم المذكرة للقاضى ، وكان أن حكم ببراءة المتهم عبد الحليم أبو باشا الذى صاح بأعلى صوته قائلًا « يحيا العدل .. أنا وراك يا ظالم والزمن طويل » يقصد الدكتور ، وتولت لجان التحقيق من المنطقة الطبية التحقق في القضايا والشكاوى المتراكمة ضد زميلى ، وكان شيئًا مربكًا للغاية بالنسبة له . وجاءنى ذات ليلة منهكا حزينًا ، وقال : « أعتذر إليك ، أنا تسببت لك فى كثير من المشاكل ، ولكن الله نصرك .. وأريدك فى هذه الأيام أن تقف إلى جوارى وتنقذنى .. لقد أخطأت ودفعت ثمن خطئى ، فمجلس الدولة أداننى ، وأصدر ضدى جزاءً ، وأوقف ترقيتى .. وأنا عندى طفلة أربيها .. أرجو ألا تتخلى عنى ..» . وكان المحقق قد قدم لإجراء تحقيق حول تقاضى الطبيب مبلغًا من المال نظير عملية جراحية بالمستشفى الحكومى بالوحدة ، وكان المحقق يعرفنى من قبل ، وأذكر أن اسمه محمد وهدان ، فرجوته أن يصفح عن الدكتور الزميل ن فأخبرنى أنه لا يستطيع إلا إذا تنازل الشاكى عن بلاغه ، وأحضرت الشاكى وقلت له : « يا حاج يوسف ..» .

– « نعم يا دكتور » .

– « هل سلمت الدكتور المبلغ بيدك ؟ » .

– « لأ ، بل عن طريق التومرجى » .

- « وإذا أنكر التومرجى » .
- « يبقى كذّاب فى « أصل وشه » ..» .
- « ما أريده منك هو أن تقول الحقيقة يا حاج يوسف » .
- « البلد كلها تدفع للدكتور قبل أن تحضر أنت » .
- « نحن إزاء واقعة محددة يا حاج يوسف .. قل للمحقق أنك لم تسلم له المبلغ شخصيًا » .

وهكذا استطاع المحقق أن ينقذ صاحبنا من هذه القضية ، والحقيقة أن الزميل الطبيب لم يرتكب مخالفات أخرى بعد ذلك ، وطلب منى أن أبلغ المنطقة الطبية بأنى موافق أن يبقى معى فى الوحدة بدلًا من نقله إلى مكان آخر ، حفاظًا على استقراره الأسرى ، فوافقت على الفور ، وأخطرت المنطقة بذلك ، وبعدها ساد الوحدة المجمعة جو من الهدوء والصفاء ، ولقد كانت هناك خلافات بين زميلى وغيره من الموظفين وخاصة الأخصائى الاجتماعى وناظر المدرسة وبعض أعيان البلد ، وقد استطعت بعون الله أن أعقد الصلح بين جميع الجهات المتناحرة لكى تستقر الأوضاع ، ونستطيع أن نقدم الخدمات الكافية لإخوتنا من الفلاحين. وذات يوم تقدمت مريضة كبيرة السن مرقعة الثياب ، ونظرت إلى بطاقتها فوجدت مكتوبًا عليها « بالمجان » ، ولست أدرى لماذا سألتها : « هل دفعت الرسوم » .

- « نعم يا بنى ..» .
- « كيف ؟ مكتوب على البطاقة أنها بالمجان » .
- « والله يا بنى دفعت أربعة قروش صاغ ..» .

وجن جنونى ، تلك سرقة أخرى ، واستدعيت الكاتب رضوان وقلت له : « هل أخذت الرسوم من هذه المريضة ؟ » .

نظر إليها وارتبك وقال : « نعم ..» .

- « فلماذا كتبت على البطاقة « بالمجان » ؟ طبعًا لتضع المبلغ فى جيبك » .

ووجدت رضوان ينحنى على مكتبى ، ويمسك البطاقة ، ثم يشطب على كلمة « بالمجان » ويكتب فوقها « رسوم » ، وطلبت منه أن يخرج ، وأخذت أجمع بطاقات المجان من المرضى المتبقية ، واكتشفت أن رضوان زوّر فى الرسوم فى عشرة بطاقات أخرى ، ومعنى ذلك أنه اختلس أربعين قرشًا ، أى ما يوازى ٢ جنيهًا فى الشهر على الأقل ، وهى أكثر من مرتبه الشهرى ، وتقترب من مرتب الطبيب ، وأصدرت على الفور قرارًا بنقل رضوان إلى المختبر ، واخترت بدلًا منه رجلًا أمينًا من أهل القرية ، وكان مسيحيًا اسمه لبيب » .

وتسبب رضوان فى كارثة من نوع آخر ، فقد خاف أن أحقق معه فى البطاقات القديمة المكتوب عليها « بالمجان » ، فسارع بتمزيقها ، ولم يدرك أنه بذلك قد ارتكب حماقة كبرى ، لأن تمزيق البطاقة ، يعنى عدم حصر الأدوية المسجلة عليها للمريض ، وهى أقراص وشراب وحقن ، ومعنى ذلك ، أن الجرد السنوى سيكون ناقصًا ، ويعنى أننى اختلست الناقص من الأدوية ، وضاقت نفسى ، وفكرت أن أسلمه للشرطة ، لكنى أشفقت عليه وعلى عائلته التى لا ذنب لها ، فماذا سيفعلون إذا فصل من عمله ودخل السجن ، وبادرت بحصر سجلات الصيدلة ، والعودة إلى السجل العام ، واستخرجت بطاقات جديدة « بدل فاقد » وشغلت معى فى هذا العمل المرهق عددًا من الموظفين بالوحدة .. وعندما انتهيت من هذه الأزمة ، أتيت برضوان وقلت له : « ارحل عن هذا البلد ..» .

- « إلى أين ؟ » .

- « فى أية داهية » .

« لقد نزلت بلدكم من سنين ، وأصبحت هى موطنى وأهلها أهلى » . عندئذ قدم أبى رحمه الله وقال : « لتصفح عنه المسامح كريم .. وسأتعهد بأن يكون مخلصًا أمينًا » .

تلك كانت نماذج من المتاعب اليومية التى تجابهنا فى العمل ، وتسبب لنا الاضطرابات التى نحن فى غنى عنها ، ويمكن تجنبها ، لكن الطمع كثيرًا ما يدفع بالإنسان إلى ارتكاب الحماقات .

وفى هذه الأثناء أتى إلينا ناظر المدرسة الأستاذ عبد المنعم عميرة ، وقال إنه وردت إلينا إشارة من المسئولين فى المحافظة تطلب من كبار العاملين بالوحدة أن ينتشروا فى القرية ويدعوا كافة أهل البلد بالانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى حزب الحكومة ، وكان لابد من تنفيذ الأوامر ، وركبنا سيارة ، وأمسك الأستاذ عبد المنعم بمكبر الصوت (الميكروفون) وأخذ ينادى والسيارة تمشى ببطء : « يا أهالى شرشابة .. بادروا بالاشتراك فى الاتحاد الاشتراكى فورًا من أجل مصلحتكم .. أيها الفلاح إذا أردت لابنك مكانًا بالمدرسة ، ووظيفة بعد التخرج ، فلتسرع لملء الاستمارة الخاصة بالانضمام للاتحاد الاشتراكى ، والذى لا يشترك لا يلومنَّ إلا نفسه » .

وأخذ الفلاحون يتدفقون على الوحدة لكى ينفذوا أوامر الحكومة ، وكان ازدحامهم أشد ما يحدث أمام الجمعيات التعاونية التى توزع السلع التموينية الرخيصة المدعّمة من الحكومة ، وسرى بينهم كثير من الأقاويل والشائعات ، مؤداها أن من لا يشترك فى حزب الحكومة الأوحد سيتعرض للنقمة والعقاب ، وسيصبح مستقبل أبنائهم مهددًا بالخطر قلت لأبى : « ألن تنضم للحزب ؟ » .

- « وأنت ؟ » .
- « تعلم أننى معزول سياسيًا » .
- « وأنا سأعزل نفسي سياسيًا » .
- « ألا ترى أنه من الأحوط أن ...» .

قاطعنى قائلًا بحزم وبلهجته الشعبية : « بلاش كلام فارغ .. كلهم حرامية ونصّابين » .

على الرغم من أن القرية استطاعت أن تطفئ الحريق الكبير ، مثلما فعلت فى حريق مشابه منذ ما يقرب من ستة وعشرين عامًا ، ولعله على حد قول البعض انطفأ من نفسه بعد أن أكل كل شىء ، أقول على الرغم من ذلك ، فقد بقى الحريق مشتعلًا فى القلوب ، ولماذا لا يكون الأمر كذلك ، وقد ابتلوا بخسائر متتالية فى المحاصيل بسبب الآفات ، وفى مخزون العام والبهائم والبيوت من جراء الحريق ، والمبالغ التي يدفعونها لأولادهم فى الدروس الخصوصية هى الأخرى تلتهم جزءًا كبيرًا من الدخل ، وارتفاع الأسعار يسبب لهم الضيق المتزايد ، وصغر المساحات الزراعية المتاحة لهم .. إنها ابتلاءات كثيرة تتنزل عليهم من وقت لآخر ، ومع ذلك فهم مضطرون اضطرارًا لأن يطيعوا الأوامر التي تصدر من أعلى ، ويستسلموا لقضاء الله ، وعليهم أيضًا أن يهتفوا بحياة الزعيم والثورة ، كفريضة كُتبت عليهم تضاف إلى الفرائض الخمس التى آمن بها الناس منذ أن بعث نبى الحب والرحمة والعدل والحرية محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

وعلى الرغم من الضيق العارم الذى يثقل على القلوب ، فقد حدثت فتنة بين أعز صديقين يضرب بهما المثل فى القرية ، هما عبد الحميد جاب الله وكامل أبو العطا ، إذ حدث بينهما خلاف حول بعض المسائل المالية ، وتطور الخلاف إلى حرب شعواء ، وسقط القتلى ، وسالت الدماء ، وتعقدت الأمور ، واضطرب الأمن ، ووقف الناس فى حيرة أمام هذا البلاء الجديد ..

[١١] من ذكريات القرية



من المؤلفات التي كتبتها بسرعة فى هذه الفترة كتاب « الإسلامية والمذاهب الأدبية » ويعتبر هذا الكتاب على الرغم من أنه يجمع عددًا من الأفكار والخواطر حول مذهب جديد فى الأدب « الأدب الإسلامى » ، من الكتب الهامة التى فتحت الطريق أمامى لكى أبدأ فى كتابة قصص وأشعار فى إطار التصور الإسلامى الصحيح ، إيمانًا منى بأن أى اتجاه أدبى فى العالم ينبع أساسًا من عقيدة أو فلسفة معينة ، وعلى ضوء عقيدتنا الإسلامية التى تنظم جوانب الحياة المختلفة ، يجب أن يتحرك أدبنا ، وكان هذا بداية حركة فعلية نشأت لأول مرة فى إطار فهم واضح ، وقبل ذلك أثرت فى الفصل الرابع فى كتابى « الطريق إلى اتحاد إسلامى » إلى شىء من هذا القبيل ، ودعوت فى ذلك الفصل إلى إنشاء رابطة أو ناد أو اتحاد لحملة الأقلام الإسلامية ، كما دعوت إلى إنشاء إذاعة عالمية إسلامية ، ولاتحاد أو رابطة لعلماء المسلمين فى العالم ، ومن فضل الله أن هذه الأفكار كلها قد تحققت ، وكانت بداياتها فى المملكة العربية السعودية التى قدمت للمسلمين فى أقطار الأرض كثيرًا من الخدمات الجليلة .

أما رواية « الربيع العاصف » فقد كتبتها قبل ذلك ، أى قبل أن أتخرج وأعمل طبيبًا فى الريف ، على الرغم من أنها تعالج قضية مشابهة للقضية التى طرحتها فى رواية « الذين يحترقون » ، مع اختلاف فى الأهداف والتوجهات .

ومن الأمور التى أحمد الله عليها ، أننى استطعت لأول مرة فى الوحدة أن اكتشف عددًا من حالات مرضى السل الرئوى باستخدام السمّاعة وحدها ، فلم يكن لدينا جهاز للأشعة ، ولا استعدادات لتحليل « بصاق » المشتبه فيهم ، ولهذا أحلت إلى المستشفى الصدرى المركزى الحالات المشكوك فيها ، وقد اتضح أن أغلب الحالات المحولة وُجِد إيجابيًا ، وهكذا وجد هؤلاء الفلاحون . نساءً ورجالًا . الفرصة للعلاج ، كما أنهم أخذوا يتقاضون معونة شهرية مالية ، وتصرف لهم كميات من الغذاء الضرورى لهم بالمجان ، وكان لهذا الحدث وقع طيب فى نفوس أهل القرية بصفة عامة ، والمرضى بصفة خاصة ، وكنت أحمد الله على هذا التوفيق ، ولقد كان ذلك سببًا آخر من أسباب تزاحم المرضى فى عيادتى ، وللثقة ثمنها الغالى الذى ندفعه من عرقنا وسهرنا .

ومن الطريف أن البقال الذى اشترى منه احتياجاتى المنزلية من أرز وسكر وصابون وما إلى ذلك جاءنى وأخبرنى بأنى مدين له ، بما يقرب من أربعين جنيهًا ، وكان يضحك لأنه يرى لأول مرة فى حياته طبيبًا مدينًا ، وكان يعلم أنى أعيش بمرتبى ، ولا أقبل الهدية أو أجر الفحص الخاص ، وعندما علم والدى رحمه الله بذلك أحضر المبلغ المطلوب ودفعه نيابة عنى ، لكن يجب أن أذكر أن حالتى المالية كانت فى عمومها جيدة ، لما يرد إلى من دخل الكتب ، ومع ذلك فقد كانت هناك أزمات مالية طارئة لابد أن

تحدث من وقت لآخر ، ولم يكن ذلك ليسبب لى أى إزعاج ..

أخذنى أبى ذات يوم إلى أرضنا الزراعية التى تبعد عن القرية حوالى كيلو متر ، وكان يحدثنى عن أهمية الأرض ، وأن فيها جذورنا ، وأن علينا أن نحافظ عليها ونخدمها ، فى أى وقت من الأوقات ، لأنها رصيدنا الدائم ، وذكرنى أبى بقصة لم يمض عليها إلا ثلاث سنوات ، أى فى عام ١٩٥٩ ، حينما قدم إلى فى مسكنى بحى شبرا بالقاهرة ، وأخبرنى أنه جاء لأمر هام جدًا ، ولما سألته فى شغف عن ذلك الأمر قال : « أتذكر أنه منذ سنوات طويلة كانت لنا أرض فى حوض « الأربعينية » .

- « نعم أتذكر .. » .

- « وأن هذه الأرض قد سلبها العمدة وإخوته ، حينما حكم لهم فى المحكمة فى قضية غبنا عنها ، وصدر الحكم غيابيًا .. إننا لم ننس هذه الأرض .. » .

- « هذه قصة قديمة مضى عليها عقود من الزمان » .

- « ولو مضى عليها ألف عام .. المهم أنهم يبيعونها الآن ، ولابد أن نشتريها حتى تعود لنا أرضنا .. » .

قلت فى هدوء : « يا أبى .. الأرض لله يورثها من يشاء من عباده .. » .

بدأ الغضب على وجهه وقال : « إننى أعرف ذلك ، هل جئت إليك لتعلمنى ؟ هذه الأرض هى التى علّمتك ، وجعلت منك رجلًا .. » .

اعتذرت لأبى ، ورحبت بفكرته ، وطلب منى أن أحضر المبلغ المطلوب ثمنًا للأرض ، على أن يُكتب عقد الشراء باسمى ، فهرولت مسرعًا إلى الناشر ، وتسلمت منه المبلغ المطلوب ، ولم يبت أبى ليلتها معنا ، بل توجه فورًا عائدًا إلى القرية وهو فى منتهى السعادة ، وتم موضوع الشراء على خير وبالثمن الذى حددوه ، ومنذ ذلك اليوم ، وأبى يذهب كل صباح إلى تلك القطعة الزراعية ، وكأنها الأم العائدة بعد غربة مريرة ، ويتناول فطوره ، ويشرب الشاى هناك ، وبقى على هذه العادة ما يقرب من عامين ، ولم أكن أحس نحو الأرض ذلك الإحساس العميق إلا بعد هذه الواقعة ، واليوم يأخذنى أبى لأسعد برؤية أرضنا وليعيد تلقين الدرس الذى يجب أن أتذكره جيدًا فى حب الأرض الطيبة ..

وأثناء عملى فى القرية جاءتنى رسالة مسجلة بعلم الوصول من ضرائب طنطا تطلب منى دفع مبلغ ثلثمائة وخمسة وسبعين جنيهًا كضرائب عن مؤلفاتى ، وعن الجوائز التى حصلت عليها فى السنوات الماضية ، وكنت فى هذا الوقت أعانى من ضائقة مالية ، ومدينًا للبقال الذى تبرع أبى بالدفع له ، كنت أشعر بالظلم ، فالذى فرض الضرائب لم يراع أننى متزوج وعندى أولاد ، وعليّ مسئوليات ، ذلك لأنهم فى الضرائب زعموا بأن هناك خطابًا آخر قد أرسل إليّ ، ولما لم أرد عليهم وضعوا تقديرًا جزافيًا ، ولم يعد لى الحق فى التظلم ، بعد أن مضت المدة القانونية ، وتم ربط الضريبة ، وجلست ساهمًا مغتاظًا أفكر ، ماذا أفعل فى هذه البلوى التى لم تخطر لى على بال ، والمبلغ يعتبر كبيرًا جدًا فى مثل تلك الأيام ، ودخل أبى عليّ فى مكتبى بالوحدة المجمعة . كما سبق وأشرت . وسألنى عما يكربنى ، ولما علم بالأمر ابتسم وقال لى ما معناه ، أننى أفرح عندما أنال الجوائز ، وعندما تأتى الحكومة لتطالب بحقها أغضب ، ولامنى على ذلك أشد اللوم واقترح أن أذهب إلى مأمورية الضرائب ، واتفق معهم على التسديد بالتقسيط .

أهل الريف يتصفون بالصبر ، وتقبل الصدمات والآلام بروح عجيبة ، ولديهم استسلام مذهل لقضاء الله وقدره ، ولا يعرف اليأس طريقًا إلى قلوبهم ، فهم يحمدون الله على كل حال ، ويفكرون

فيما يجب عمله مستقبلًا ، رأيت ذلك عندما دمرت الآفات الزراعية محاصيلهم ، فكانوا يحزنون ، لكنهم لا يشقون الجيوب ، ولا يلطمون الخدود ، بل ينظرون فى أمل إلى العام القادم أو الذى يليه ، وليسوا أبدًا فى عجلة من أمرهم ، لإيمانهم العميق بأن الله لن يتخلى عنهم مهما كان الأمر ، ورأيت ذلك بعد أن أتى الحريق على كل شيء المأكل والمسكن وأحيانًا الملبس ، فاتجهوا بدعواتهم وقلوبهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وكأنهم يرددون لا ملجأ من الله إلا إليه ، أو كأنهم يقولون ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه . ترى هل لذلك علاقة بقلة عدد الحالات المرضية الوثيقة الصلة بالأمراض والاضطرابات النفسية ؟ أعتقد ذلك ، لأن حالات ارتفاع ضغط الدم أو القرحة أو الداء السكرى ، أو القولون العصبى أو الذبحات الصدرية ، تعتبر قليلة جدًا إذا ما قورنت بخريطة الأمراض فى المدينة .

ومن الطريف أن أذكر أن حالات الانتحار المسجلة فى قريتنا طوال أربعين عامًا مضت لم تزد عن حالتين أحداهما رجل شنق نفسه ، والأخرى امرأة أشعلت الحريق فى جسدها بعد أن سكبت عليه الكيروسين . وكنت فى عملى حريصًا على الجانب الوقائى فى الخدمات الطبية ، وعلى رعاية الأمومة والطفولة ، ولهذا كنت أشرف بدقة على الممرضات الأربع ، وخاصة فيما يتعلق بالتطعيمات ضد الأمراض المعدية ، وإجراء الفحوص الضرورية للأم الحامل ، وعلاجها دوريًا حتى يستمر الحمل ، وينمو الجنين نموًا طبيعيًا ، وهناك فحص كنا نجريه للحامل يتعلق بإصابتها بميكروب « الزهرى » ، وفى حالة ما إذا كان إيجابيًا نعطيها بنسلين زيتى طوال مدة الحمل حفاظًا عليها وعلى الجنين على الرغم من أن الحالة ليست فى طورها الحاد . وكانت قافلة الممرضات تخرج كل يوم للمرور على بيوت الفلاحين للإشراف على عمليات التوليد الطبيعية التى لا تحتاج إلى تدخل جراحى ، وربط الحبل السرى ، وإنعاش الوليد ، وإعطاء الأدوية اللازمة للأم أو لوليدها ، وتزويدها بالتوعية الصحية الضرورية بخصوص الإرضاع ، والاستحمام والملابس ، وما إلى ذلك .

وكانت هؤلاء الممرضات يعانين من الغربة والوحدة ، وكانت بينهن واحدة فقط متزوجة ، تذهب إلى زوجها كل أسبوع ، وثانية مطلقة ، أما الأخريان فلم يتزوجا بعد ، وهما فى سن حرجة ، فلم يكن غريبًا أن تصاب إحدى الفتاتين بنوبات تشنج هستيرية فى المساء أحيانًا ، كما كانت تدب بينهم بعض الخلافات اليومية ، وفى مثل هذه الأمور ، قد يشاع عن وجود علاقات عاطفية بين هذه أو تلك ، وأحد الموظفين ، أو شاب من شباب القرية ، وخاصة تلامذة المدارس والجامعات ، ولم يكن هناك بد من أن يلزمن سكنهن بالمستشفى ، تحت الرقابة الدائمة ، ولا يسمح بالزائرين لهن ، لكن وجود عدد من المدرسات فى مساكن الوحدة ، والتلاقى معهن ، قد خفف الكثير من معاناة الطرفين ، ولم يكن فى القرية إبان تلك الفترة وسائل التسلية أو الترفيه ، فلا تليفزيون ولا سينما أو مسرح ، وكانت التسلية الوحيدة هى الراديو ، وأحيانًا كنا نسمع البنات . ممرضات ومدرسات . يرقصن ويغنين فى مسكنهن تخفيفًا من عزلتهن وغربتهن والفراغ القاتل الذى يئنون تحت وطأته ، وخاصة أنهم لم يتعودوا على قراءة الكتب أو المجلات أو الصحف ، وحتى لو فكروا فى ذلك فإنها غير متوفرة لديهن ، وقد أشرت على الأخصائى الاجتماعى بتكوين مكتبة متواضعة تضم عددًا من المجلات والصحف والكتب ، لكنه اعتذر لعدم وجود ميزانية لديه تكفى لذلك .

❁❁❁

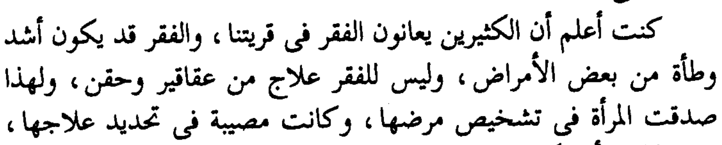
[١٢] العودة إلى المدينة



فى إحدى المرات دخلت عليّ مريضة فى الخمسين من عمرها ، ولما سألتها فى البداية عن الأعراض المرضية التى تشكو منها ، فوجئت بها تقول : « أطلب منك أن تتصدق على بربع جنيه ، رفع الله مراتبك ، أنا لا أجد ثمن الرغيف » .

وأخرجت لها ما طلبت ، وانتظرت أن تتحدث عن مرضها ، وعدت أسألها ، لكنها وقفت وهى تقول فى امتنان : « لا أشكو إلا من الجوع » .

وودعتنى وانصرفت ، وكتمت الممرضة التى تجلس قبالتى لمساعدتى ضحكتها ، وهى تقول : « لقد كان عليها أن تذهب للأخصائى الاجتماعى » .



كنت أعلم أن الكثيرين يعانون الفقر فى قريتنا ، والفقر قد يكون أشد وطأة من بعض الأمراض ، وليس للفقر علاج من عقاقير وحقن ، ولهذا صدقت المرأة فى تشخيص مرضها ، وكانت مصيبة فى تحديد علاجها ، وأهل الريف يعتقدون أن الطبيب لابد وأن يكون غنيًا ، ولا يتصورون غير ذلك ، كنت حزينًا ، ها هم أهل قريتى على طبيعتهم دون زيف ، ومع ذلك يواصلون الحياة فى صبر واستماتة ، وقد يجتمع عليهم الفقر والمرض ، وهل يجدى الدواء بدون غذاء ؟

ومن الطريف أن امرأة أخرى دخلت عليّ ذات يوم وأخذت تشكو من أعراض مرضية عدة ، فى الرأس والظهر والقلب والساقين والمعدة ، ولم أستطع أن أجمع بين هذه الأعراض فى صعيد واحد ، حتى أرجح مرضًا بعينه ، ووجدتها تقول فى غضب وعصبية : « كلما ذهبت إلى طبيب يقول لى أنى سليمة ، وأن مرضى هو الوهم ولا يعطينى أى علاج » .

فحصتها جيدًا صدرها وبطنها وضغطها ، وقست لها أيضًا درجة الحرارة ، وعزمت على إجراء التحليلات اللازمة لها ، وبرقت فى ذهنى فكرة ، من المفروض أن نصدق المريض فى شكواه حتى يثبت العكس ، من يدرى فقد تكون مريضة مثلًا على الرغم من أن الفحص الإكلينيكى (السريري) لم يثبت أى دليل على ذلك ، ووجدتنى أقول لها ، وأنا أطوى جهاز الضغط : « أنت فعلًا مريضة » .

ودهشت عندما رفعت يديها إلى السماء داعية لى بالستر وطول العمر ، ثم قالت : « أنت الوحيد الذى عرف مرضى » .

لا شك أن هذه المرأة تعانى من مشكلات نفسية أو اجتماعية أو غيرها ، ومن المعروف أن الاضطرابات النفسية تنعكس بأعراض عضوية على أى جهاز من أجهزة الجسم المختلفة ، وهذا يسمونه فى الطب « الأمراض النفسعضوية » أو السيكوسوماتيك ، لكننا كنا فى زمن لا يحفل كثيرًا بالأمراض النفسية التى يعتبرونها ترفًا أو « دلعًا » كما يقول البعض ، ولم أترك المريضة تخرج بدون دواء ، بل صرفت لها كمية من أقراص الفيتامينات والحديد ، فأغلب مرضى الريف يعانون من فقر الدم ، لكنى

كتبت لها تحويلًا إلى الأخصائى الاجتماعى ، لعل وقته يسمح بدراسة حالتها ..

وجاءتنى امرأة متزوجة تشكو العقم لأنها متزوجة منذ أكثر من عام ، ولم تنجب ، وفحص المرأة العقيم لابد وأن يسبقه فحص زوجها أولًا لأنه الأسهل ، لكن زوجها كان قد تزوج من قبل وأنجب ، فلابد إذن من التركيز على الزوجة ، وتكون البداية فحصًا دقيقًا ، وأخذا للتاريخ المرضى ، وما إلى ذلك ، لأن الخطوة التالية تحتاج لعمل أشعات إكس بالصبغة ، وتحليل للهرمونات فى بعض الأحيان ، واكتفيت فى المرحلة الأولى لشواهد رأيتها أن أصف لها بعض المضادات الجرثومية الخاصة بحالتها ، مع مساحيق تذاب فى الماء للغسيل ، وطلبت منها العودة بعد شهر ، ونسيت الأمر تمامًا لاستغراقى فى العمل اليومى ، لكنها جاءتنى بعد ثلاثة أشهر ، وكم كانت دهشتى عندما فحصتها ووجدتها حاملًا ولما أخبرتها بذلك أطلقت زغرودة عالية ، وخرجت من غرفة الفحص وهى تواصل زغردتها ، وتساءل الناس عما يجرى ، وظن البعض أن ما حدث يعتبر كرامة من الكرامات التى يأتيها الأولياء حسب زعمهم ، وشاع الخبر فى القرية ، بل وفى القرى المجاورة ، ووجدتنى فى الأسابيع المقبلة محاصرًا بعدد ضخم من العقيمات ، ومن ورائهن جاء الرجال الذين يشكون من العقم أيضًا ، ووقعت فى حيص بيص ، ولم أدر ماذا أفعل ، واستغثت بالمنطقة الطبية كى ترسل أخصائيات فى النساء والولادة ، ولو مرة واحدة أسبوعيًا ، ولكن المنطقة لم تعر الأمر اهتمامًا ، وطلبوا منى أن أحيل الحالات التى تعانى من العقم إلى المستشفى المركزى ، وحاولت بصعوبة أن أقنع الناس بضرورة إجراء التحاليل والفحوص اللازمة لحالات العقم دون جدوى ، وأكدت لهم أن الحالة الأولى التى حملت كانت حالة بسيطة منذ البداية ، استجابت للعلاج المختصر بمحض الصدفة ، ولم ينقذنى من هذا المأزق إلا إجازتى السنوية ، وبعدها يفرجها الله ..

وفى هذا الوقت . أى قبل الإجازة ، حاولت مع عدد من أهل الخير بالقرية أن نوفق بين عائلة جاب الله وعائلة أبو العطا دون جدوى ، ذلك لأن الدماء كانت قد أريقت ، ولأن عبد الحميد جاب الله الطرف الأقوى فى الصراع ، كان يعيش متخفيًا فى المدينة فى أغلب الأوقات حفاظًا على حياته من جنون الثأر ، وقد نجا من عدد من المحاولات لقتله ، وكان الضحايا من الطرف الآخر ، فقد كان عبد الحميد لديه المال والرجال اللذان يمكنانه من البطش بعدوه .

أثناء الإجازة السنوية وصلت رسالة من وزارة الصحة تبدى فيها استعدادها لنقلى إلى القاهرة فى عمل تابع لوزارة النقل والمواصلات أى فى الإدارة الطبية بهيئة السكك الحديدية ، وذهبت لأتقصى الأمر ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت النقل يتم بسرعة لم أتوقعها .

عندما علم أهل قريتى بالأمر حزنوا حزنًا شديدًا ، وأخذوا يرددون أقوالًا لا أنساها : يا فرحة ما تمت . أتتخلى عن أهلك فى هذا الوقت ؟

- هل أغضبناك فى شىء .

- يا فرحة العواذل فينا .

أما أبى فقد قال : « لماذا لا ترفض النقل وتبقى معنا .. يقولون إن « عزّك تلّك » » . قلت له يا أبى : « إن اهتماماتى الأدبية ، ومستقبلى الأدبى يلحان على كى أذهب إلى العاصمة ..» .

- تستطيع يا بنى أن تكتب وأنت هنا .. والكتابة كما أعلم ، تأتى فى أى وقت ، وفى أى مكان » .

لكنى كنت قد عزمت وتوكلت ، ولم يكن هناك مجال للتراجع ، إن أجيالًا جديدة من أهل القرية سيأتون بعدى ، وقد يفعلون مثلما أفعل ، هكذا قلت لنفسى ، ولما أصبح أمر النقل مقررًا ، اتفق العاملون بالوحدة مع أهل القرية لإقامة حفل تكريم يليق بى ، اختلطت فيه التحيات والتكريمات بدموع صادقة

حارة .. ووقف أحد الشباب النابهين وهو الأستاذ عبد الحكم عطية سبالة (والمستشار حاليًا » وارتجل كلمة رائعة ، هزت القلوب والمشاعر ، وكانت آية فى الصدق والبلاغة ، أما زميلى الطبيب فقد أفاض فى الحديث ، ومن ضمن ما قاله : « إن زميلنا الفاضل الدكتور نجيب الكيلانى كان حمامة السلام بيننا جميعًا ..» .

كان الرحيل مشحونًا بالعواطف ، احتشد الناس فى الوحدة ، كانت الدموع تترقرق فى عينى ، وكنت أريد أن تتم مراسم السفر البسيطة المؤثرة بسرعة ، شهقت إحدى الممرضات باكية ، وكذلك فعلت « زكية » الفراشة ، وإبراهيم أفندى حمادة فنى المختبر ، ولبيب المسيحى ، هممت بالدخول إلى السيارة ، لكن يدًا أمسكت بى ، وسمعت من يقول : « ألا تودع أباك وأخاك أمين ؟ » .

وتلفت حولى ، كان أبى يقف على بعد أمتار فى ناحية من ساحة الوحدة ، وإلى جواره يقف أخى ، خطوت بهدوء متوتر صوب أبى ، مد يده ، أمسكتها بيدى الاثنتين ، وقبلتها بحرارة ، وأنا مختنق بالدموع ، حاولت أن أتكلم فلم أستطع ، احتضنى الرجل الطيب البالغ من العمر آنذاك سبعة وخمسين عامًا ، وتمتم : « لا تغب عنا طويلًا » حاولت أن أرد فلم أستطع أيضًا ، وصافحت أخى الذى يصغرنى بعام ويعمل بالزراعة والتجارة ، ثم هرولت إلى السيارة وقلت للسائق : « انطلق بسرعة ، لم أعد أحتمل » وتنفست الصعداء حينما وجدت السيارة تنطلق فى الطريق الزراعى مارةً بسوق القرية ، ثم المزارع الخضراء على الجانبين .

نسيت أن أذكر أن السيد المحافظ كان قد أصيب بنوبة قلبية مفاجئة منذ أسبوعين ، وسافرت أنا وأبى لزيارته فى بيته ، ونظرًا لأن حالته كانت حرجة ، فقد منعت الزيارة ، واكتفينا بتسجيل أسمائنا فى دفتر الزيارات ، ودعونا له بالسلامة ، فأنا لن أستطيع أن أنسى فضل هذا الرجل المنصف ، الذى وقف إلى جوارى عندما اتضحت له الحقيقة ، واتخذ إجراءات حاسمة فى إصلاح الأوضاع المتردية بالمنطقة الطبية ، فاحتفظت له فى قلبى بأطيب الذكريات ، ترى ماذا كان سيفعل الآن لو أنه علم أنى راحل عن القرية ، وعن المحافظة بأكملها ؟ ربما رفض الموافقة على النقل ، لكن الإدارة بالمنطقة الطبية فرحوا جدًا بموافقتى على النقل ، إذ كانوا يتمنون التخلص منى منذ زمن طويل ، ولهذا سارعوا باتخاذ إجراءات الموافقة على النقل ، أملًا فى أن يعودوا إلى عبثهم القديم ، وخاصة أن مرض السيد المحافظ يشكل خطورة على حياته ، وقد مات المحافظ رحمه الله بعد إصابته بالجلطة القلبية بشهر واحد ، وحزن كثير من الناس على وفاته ، وقد قرأت عن وفاته فى الصحف وأنا بالقاهرة .

كنت قد تركت زوجتى وأولادى فى بيت أبى عند رحيلى ، إذ لم يكن لدى مسكن فى القاهرة منذ أن غادرتها إلى شرشابة ، ولم أكن أعلم حينها أن أزمة المساكن ستتفاقم فى العاصمة إلى ذلك الحد المقلق ، وأخذت أبحث عن شقة لائقة فى أحياء القاهرة دون جدوى ، لأن قوانين تخفيض الإيجار ولجان الحكومة لتقدير إيجار الشقة بنسب ضئيلة ، جعل الناس يتوقفون عن استثمار مدخراتهم فى إقامة المبانى التى تدنى عائداتها لأقل من أربعة بالمائة ، ولهذا شحّت المساكن مع التزايد المستمر فى أعداد السكان ، وأصبحت ظاهرة « الخلو » مخيفة ، فلكى تجد شقة إيجارها سبعة جنيهات مثلًا ، لابد وأن تدفع للمالك مبلغًا كبيرًا ألفًا أو ألفين أو أكثر من الجنيهات تحت بند « خلو الرجْل » ، وهو أمر مخالف للقانون ، ويتم سرًّا باحتياطات غريبة ، ولم يكن معى هذا المبلغ وبمرور السنين تضاعف هذا المبلغ مرات ومرات حتى وصل فى بعض الأحيان إلى عشرة أو عشرين ألفًا من الجنيهات ، وكانت قوانين الحكومة « السيئة السمعة » المتعلقة بالمساكن هى السبب الرئيسى لأزمة المساكن الخانقة فى مدن مصر كلها ..

تسلمت عملى فى القسم الطبى بهيئة السكك الحديدية فى شارع الجلاء بالقاهرة ، كنت أذهب إلى العمل فى السابعة صباحًا ، وأعود إلى مسكن صهرى الشيخ محمود بعد الواحدة ظهرًا ، وبعد العصر أذهب إلى المكتبات التى أتعامل معها ، وتنشر لى مؤلفاتى ، أو أذهب إلى نادى القصة أو مقهى الأدباء ، أو بعض الجمعيات الأدبية الأخرى ، حيث أجد الفرصة للقاء شيوخ وشباب الأدب البارزين فى تلك الفترة ، ولم أكن أكف عن البحث لعلى أجد شقة مناسبة ، حتى أصابنى اليأس .

وذات يوم استدعانى رئيسى فى العمل وطلب منى أن أذهب إلى القسم الطبى للسكة الحديد بالمدينة السكنية بأبو زعبل ، حيث يوجد هناك عدد كبير من العمال والموظفين فى الورش الكبيرة الخاصة بالقطارات ، وأخبرنى رئيسى أن الانتداب لمدة أسبوع واحد ، وأننى أستطيع أن أركب الحافلة كل صباح بخمسة قروش ، حيث أصل إلى هناك فى أقل من ساعة ، وتضايقت فى البداية من هذا الانتداب المفاجئ ، لكنى أقنعت نفسى بأن الأمر بسيط ، وأنه مجرد تجربة جديدة قد تكون مفيدة ، وخاصة أننى لم أر هذه المنطقة من قبل ، فتوكلت على الله وذهبت إلى هناك ، ولم أجد شقة فى الاستدلال على المستشفى الصغير هناك ، ووجدت المدينة السكنية مدينة جميلة نظيفة مرصوفة الشوارع ، ووجدت مبانيها قسمين : القسم الأول عمارات متفاوتة المساحات للعمال حسب درجاتهم الوظيفية ، والقسم الثانى « ڤيللات » وهى خاصة بالأطباء والمهندسين وكبار رجال الإدارة والأمن ، وعلى الرغم من أن المدينة فى منطقة صحراوية إلا أن بشوارعها الأشجار الجميلة ، وهناك حديقة ملحقة بكل « ڤيلا » تزرع فيها الفواكه والخضروات ، وبالمدينة أسواق ومدارس وناد رياضى . .

ولاحظت أن هناك مدينة سكنية قديمة بنيت أيام سيطرة الإنجليز على السكك الحديدية ، كما إن هناك بعض « الڤلل » العتيقة التى بنيت على الطراز الإنجليزى تمامًا ..

وتعرفت على جراح المستشفى وهو مديرها أيضًا وتبادلنا الأحاديث الودية ، ثم أخبرنى بعد أن شربنا الشاى معًا ، بأنى سأذهب إلى عيادة العمال داخل الورشة ، وأعود إلى المستشفى بعد أن انتهى منها ، وحذرنى من عدم الاستجابة لإلحاح العمال فى طلب إجازات مرضية ، وكان سيئ الظن بهم ، كما حذرنى من الخوض فى الحديث عن السياسة ، ولقد سعدت عندما فوجئت بعدد قليل من العمال والموظفين كانوا زملائى فى المعتقل والسجن فرحبوا بى أشد الترحيب ، وأشعرونى أننى بين أهلى وعشيرتى .. وعدت مرة أخرى إلى المستشفى فى السيارة الخاصة بها منتظرًا انتهاء العمل ، ثم العودة إلى القاهرة ، وفى فترة الانتظار قدم إلىّ ممرض اسمه محمد إسماعيل وقال لى : « ما رأيك يا دكتور فى هذه المدينة السكنية » .

– « فى منتهى الروعة والجمال » .

فابتسم وقال : « فلماذا لا تنتقل إلينا إذن وتعيش معنا ؟ » .

– « كيف ؟ » .

– « هنا نقص فى عدد الأطباء ، ولو طلبت ذلك لوافقت لك الإدارة فورًا » .

– « صحيح ؟ » .

– « بالتأكيد يا بك ، ثم لا تنس أنك ستسكن فى « ڤيلَّا » لها حديقة ، ولن تدفع إيجارًا إلا خمسة فى المائة من راتبك الأساسى ، والكهرباء والماء تقريبًا بالمجان ، والسلع التموينية متوفرة ، والعرب الساكنون فى القرى المجاورة يأتون إليك كل صباح بما تحتاج إليه من خضروات وفواكه واللبن والجبن والزبد والطيور وكل ما يخطر على بالك ..» .

نظرت إليه بإمعان ، وراقت لى الفكرة من عدة نواح ، أولًا ستُحلّ أزمة السكن ، ثانيًا سيتوفر لى الهدوء واللازم للقراءة والكتابة ، ثالثًا القاهرة ليست بعيدة عنا ، وأستطيع أن أذهب إليها متى شئت وأعود بعد ثلاث أو أربع ساعات ، ثم ألا يجوز أن يكون ذلك هو الاختيار الإلهى الذى لا أعلم عنه شيئًا ؟

واختمرت الفكرة فى ذهنى ، وفى المساء أفضيت بها إلى صهرى الشيخ محمود الذى يعتبر بمثابة الأب الروحى لى ، فتفكر قليلًا ، ثم وافق بحماسة واضحة ، لكن زوجتى بعد أن علمت بالأمر ترددت فى الموافقة ، فأقنعها أبوها ، بعد أن شرح الميزات التى سنجنيها من وراء ذلك ، وخاصة أن القاهرة قد ازدحمت مواصلاتها وشوارعها ، وتلوثت أجواؤها ، وشحت فيها السلع ، وتعقدت الأمور .

عندما عرضت الأمر على رؤسائى بالإدارة الطبية لهيئة السكك الحديدية وافقوا على النقل دون اعتراض ، وأخبرونى بأنى أستطيع أن انتقل فى أى وقت أشاء .

فى غضون أسبوع حملت الشاحنة الكبيرة أثاث بيتى ، وسرت ومعى أسرتى ، وألقينا عصا الترحال فى « ڤيلَّا » أنيقة حديثة بمدينة أبو زعبل السكنية .

❁❁❁

[١٣] ليالى المدينة السكنية



كانت السنوات التى قضيتها فى المدينة السكنية بأبو زعبل من أحلى سنوات العمر ، ففى الشهور الأولى توثقت علاقتى بالعمال والموظفين ، واستطعت أن أتفهم الأوضاع فى هذا الموقع الصناعى الهام ، بل وفى البلدان المجاورة ، وقد ساعدنى على سرعة التأقلم معهم أن عددًا منهم كانوا يتابعون كتاباتى فى الصحف والمجلات ، وأن جيلًا من أبنائهم كانوا يدرسون روايتى المقررة فى المدارس ، فضلًا عن أن زملائى القدامى فى العمل السياسى ممن كانوا منضمين إلى جماعة الإخوان المسلمين ، ثم اعتقلوا وأفرج عنهم ، نشروا كل ما يتعلق بحياتى السياسية والأدبية بين جموع العاملين ، حتى أصبحت فى فترة وجيزة أشهر العاملين هناك ، وقد أحبنى الشباب خاصة فكانوا يحرصون على لقائى فى بيتى ، وفى المستشفى فى المساء ، وفى أماكن تجمعهم المختلفة هنا وهناك ، كنت بعيدًا عن العمل السياسى ، ومتفرغًا تمامًا لمهمتى الطبية ، ولاهتماماتى الأدبية .

وكانت منظمات الشباب والجهاز الطليعى لحزب الحكومة هم عين الثورة التى ترى كل شىء ، وأذنها التى تسمع وتسجل ، ثم يفرغون ذلك فى تقارير دورية ترفع إلى مستوى أعلى ، ولم يكن هذا سرًا ، فقد كان أحدهم وهو مصطفى الشربينى شابًا لطيفًا يحبنى ، وأثق فيه ، وكان يهمس فى أذنى من وقت لآخر ويخبرنى بأنهم كتبوا تقارير سرية طيبة فى حقى ، فكنت أشكره على ذلك ، وكان من أغرب الأمور التى مررت بها فى حياتى قصة غريبة ، أرى أنه لا بأس من سردها لأنها عامرة بالدلالة العميقة على إفساد الشباب والعلاقات الإنسانية والأسرية من خلال التربية السياسية الخاطئة .

لقد لاحظت أن هناك جفوة شديدة بين الشاب مصطفى الشربينى الذى أشرت إليه آنفًا ، وبين أبيه الأستاذ على الشربينى عضو نقابة العمال المهمة ، وأحد أعضاء التنظيم السياسى البارزين ، وحاولت جاهدًا أن أصلح بين الشاب مصطفى وأبيه على ، لكن جهودى باءت بالفشل الذريع ، وفكرت : لِمَ لا أتقصّى أسباب القطيعة والخلاف حتى يمكن السير فى خطوات الصلح على هدى وبصيرة ، لكن الابن وكذلك الأب رفضا الإفصاح عن أى سبب ، فرجحت فى النهاية أن الخلاف ناجم عن زواج الأستاذ على من امرأة غير أم مصطفى ، وأنه منفصل عنهم تمامًا ، فلا يذهب إلى زوجته القديمة ولا يزور أولاده منها ، إلا فى إطار العمل بورش السكك الحديدية ، حيث يمكنه الالتقاء بهم كل يوم ، وهم موظفون هناك .

جاءنى على الشربينى ذات ليلة ليناقشنى فى موضوع يخص العمال بالورشة ، فقد لاحظت أن مئات العمال يأتون للعيادة فى يوم الخميس بالذات ، ويلحون فى طلب الإجازة المرضية يومى الخميس والجمعة ، فكنت أتعجب من هذا الطلب ، فيوم الخميس قد أوشك على الانتهاء ولن يستفيدوا إذا أخذوه إجازة ، ويوم الجمعة لا عمل فيه بطبيعة الحال فهو يوم الإجازة الأسبوعى ، وازدادت دهشتى

عندما علمت أن العمال متضايقون جدًا من تصرفى معهم ، مع أنى كنت أفحصهم بدقة ، وأرفض إجازة المتمارضين ، ولا أحجبها عن المرضى ، وجاءنى على الشربينى لهذا الغرض ، وأخذ يشرح لى القضية قائلًا : « عندنا هنا فى الورش عدد كبير من « عمال اليومية » (الظهورات) ، هؤلاء لم يتم تثبيتهم بعد على درجات وظيفية ، فهم مؤقتون ، ويتقاضون عن كل يوم عمل أجرًا محددًا ، ولهذا ليس لهم أجر على يوم الجمعة ، إلا فى حالة واحدة ، وهى الإجازة المرضية » .

وأفهمنى على الشربينى أن الإدارة والنقابة متفقتان على مساعدة هؤلاء العمال وصرف أجر يوم الجمعة عن طريق احتسابه إجازة مرضية ، وهم لا يأتون بالعمال جميعهم ، بل يقسمونهم على دفعات أسبوعية ، فليس من المعقول أن يكون كل عمال (الظهورات) مرضى فى نفس اليوم ، وفى يوم الخميس بالذات وأخيرًا قال لى على الشربينى : « هل فهمت القضية يا دكتور ؟ » .

- « نعم فهمت ..» .

- « رجائى أن تتعاون معنا فى مساعدة هؤلاء المساكين ..» .

فانتهزت الفرصة على الفور وقلت : « وأنت يا عم على ، لماذا لا تتعاون معى ؟ » .

- « فيم ؟ » .

- « فى الصلح مع ابنك مصطفى ، إنه جزء منك » .

ولم يتمالك على نفسه ، فانهار صارخًا فى غضب وقال : « بئس الابن ، لقد كاد يوصلنى إلى حبل المشنقة » .

وقفت وقلت فى دهشة : « ماذا قلت ؟ » .

- « هذه أسرار ولا يصح البوح بها وإلا رحنا فى داهية ..» .

- « لن أتركك حتى تتكلم ..» .

جمع أوراقه وهب واقفًا ، وقال والدموع فى عينيه : « لقد كتب ضدى تقريرًا رفعه لرجال المخابرات ، ولو لم استطع إثبات براءتى لانتهيت ...» .

وخرج عم على وبقيت مسمرًا فى مكانى ذاهلًا .

هل وصل الأمر بابن يكتب تقريرًا سريًا ضد أبيه ويغرى به السلطة التى لا ترحم ؟ أى ابن هذا ، وأى تربية ترباها ، والغريب أن التقرير ثبت أنه غير صادق !! هزنى هذا الحادث هزًا عنيفًا ، ولم أستطع النوم ، إن العلاقات الأسرية والاجتماعية تتدهور بصورة مريعة إلى الهاوية ، فكيف يكون مستقبل أمة هذا شأنها ، وكيف يستطيع شعب أن يمضى فى طريق التقدم والتنمية والتحرير وهو على هذه الصورة من التفسخ والانحطاط ، وإهدار القيم الإنسانية والأسرية ؟ هل هذا حب للوطن أم تدمير له ، إن كل المعانى النبيلة تنقلب رأسًا على عقب ، والناس يتحولون إلى ذئاب جائعة خائفة ، وكيف تسكن الشجاعة والكرامة والحرية قلوبًا كتلك القلوب السوداء التى تتشرب الحقد والجحود .

ذهبت إلى مكتبى بالورشة فى الصباح الباكر ، وأرسلت الممرض لإحضار الشاب مصطفى الشربينى على الفور ، وجاء مصطفى مبتسمًا كعادته ، وصافحنى فى ود ، قلت له : « اجلس يا مصطفى » .

قلتها بصرامة ، ثم أمرت الممرض أن ينصرف ويغلق الباب . « ماذا فعلت بأبيك يا مصطفى ؟ » .

- « لم أفعل شيئًا ..» .

- « لا تنكر ، فقد باح لى بكل شىء ..» .

انتبه إلى ما أقول ، ونظر إلى فى ارتباك ، وغمغم : « ماذا قال ؟ » .
- « التقرير ..» .
شحب وجه مصطفى وقال متلعثمًا : « هذا واجب وطنى ...» .
هتفت فى غضب لم أستطع أن أداريه : « هذا عقوق ، من قال إن أباك صاحب التاريخ النقابى الطويل يقل عنك وطنية ؟ » هل تسمون خلاف الرأى خيانة ..» .
- « نعم خيانة .. كل أعضاء النقابة لصوص بما فيهم أبى » .
نظرت إليه فى احتقار وقلت : « لولا أن مبادئى تمنعنى لصفعتك على وجهك .. قم واذهب إلى عملك ولا تنس أن تكتب ضدى تقريرًا أنا الآخر .. لا ترنى وجهك بعد اليوم ..» .
وجلست بعد أن خرج فى مقعدى أغلى وأنتفض .. هل وصل الأمر إلى هذا الحد من السوء؟ إن الحكم البوليسى الدكتاتورى سوف يوردنا مورد التهلكة ، ولا أحد يستطيع أن يفعل أى شىء الآن لإعادة الأمور إلى نصابها ، والأيام تمضى بالناس من سىء إلى أسوأ ، والأوامر الصارمة من أعلى ، والطاعة من أسفل ، ولا حسيب ولا رقيب .
استيقظت من نومى بعد العصر فتوضأت وصليت ، وكانت زوجتى تصلى جماعة خلفى ، ثم جلست لأشرب الشاى ، ودق جرس الباب ، وحينما فتحت وجدت مصطفى أمامى بكامل لباسه ، شابكًا يديه على صدره ، خافضًا رأسه ، بدا أمامى ضحية تستحق العطف والرثاء ، ولم لا يكون مريضًا يحتاج إلى علاج ، رق قلبى له فقلت برقة : « تفضل يا مصطفى » .
دخل دون أن ينطق بكلمة ، حتى التحية لم يلقها ، وجلس فى غرفة الضيوف كئيبًا حزينًا بينما ذهبت لأحضر له الشاى وبعض الفاكهة ، ترك الشاى أمامه دون أن يمسه ، ولم تمتد يده إلى الفاكهة ، وظل صامتًا فترة ، لم أشأ أن أخرجه عن صمته .. وبعد دقائق رفع رأسه ، ونظر إلىّ بعينين حزينتين وقال : « سامحنى يا دكتور .. لقد أخطأت فى حق أبى .. وفى حقك أيضًا » .
لم أشأ أن أعلق ، وتركته يمضى فى حديثه : « لقد علمونا فى المنظمة أشياء غريبة ، لا أدرى كيف اقتنعنا بها وصدقناها ، لقد كتبت التقارير عن كثير من العمال ، وكنت أراهم يساقون للتحقيق ، وينالون العقاب ، ثم يعودون إلى الورشة أذلاء .. كنت أسعد لأنى انتقمت منهم ، ولفقت التقارير لخصومى كى يتأدبوا .. كنت أشعر بلذة غريبة حينما أهزمهم .. وظننت أننى أصبحت كبيرًا وذا سلطة .. وأخيرًا أردت أن أنتقم من أبى الذى أهملنا وأهمل أمى دون ذنب .. عاشت معه أيام الفقر ، ولما أثرى وأصبح لديه إمكانات كافية ، تركها وتزوج غيرها .. صغيرة وجميلة .. ونسى المرأة التى عاشت معه الأيام المريرة ، حينما كان عاملًا يتقاضى يوميًا بضعة قروش .. إنها أمى يا دكتور ...» .
قلت : « وهو أبوك » .
- « صدقت .. وبرغم ذلك فأنا مخطئ .. وأريدك أن تصلح بينى وبين أبى لنبدأ من جديد » .
وحمدت الله ، وأخذت مصطفى إلى أبيه معتذرًا تائبًا ينشد العفو ، رفض على بشدة فى البداية ، لكن ثورته هدأت رويدًا رويدًا ، وأخذ يعاتب ابنه ، ويذكره بالماضى ، كيف حنا عليه وعلمه ورباه ، وكيف فتح أمامه باب الرزق . وألحقه بوظيفة مناسبة ، وكيف كان يبكى من أجله عندما يمرض .. وبكى مصطفى لعل الدموع تغسل خطيئة قلبه .. وبكى على .. ثم أمسكت بيد كل منهما وتصافحا .. وقرأا الفاتحة ، وتعاهدا على الحب والصفاء ..
وشعرت براحة غريبة ، وأنا أمضى فى الطريق إلى مسكنى ، ونسمات الليل العليلة . المنعشة تلثم

وجهى المحتقن من شدة الانفعال .. كنت أقول فى نفسى : لسنا فى حاجة إلى ثورة جديدة ولكننا فى حاجة إلى الحب .. نعم الحب .

فى الثامن والعشرين من شهر مارس عام ١٩٦٤ فوجئت بأعراض الوضع تظهر على زوجتى الحامل ، لم يكن لدينا فى مستشفى المدينة السكنية قسم للولادة ، فاستدعيت سائق الإسعاف ، وانطلقت بها إلى القاهرة ومعي ابنى حسام الدين البالغ من العمر ثلاث سنوات ، وابنتى عزة البالغة من العمر عامين تقريبًا ، أو أقل قليلًا آنذاك ووالدتى ، وقصدت عيادة الصديق الدكتور « عبد الفتاح شيبة الحمد » وهو أخصائى نساء وولادة بميدان « لاظوغلى » بالقاهرة وشقيق زوجة الروائى المعروف الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، وكان الدكتور عبد الفتاح زميلًا لنا فى العمل بالقسم الطبى فى القاهرة ، وأخذت الطفلين إلى جدتهما ومعهما أمى ، بعد أن تركت الزوجة فى رعاية الله برعاية الزميل الطبيب الذى قرر أن الوضع يحتاج إلى بعض الوقت .

وعدت إلى العيادة ومعى أم زوجتى ، وفى نفس الليلة وضعت زوجتى مولودها الثالث الذى سميناه جلال الدين ، كان المولود صغيرًا وأقل من الوزن الطبيعى ، يميل لونه إلى السمرة ، لكنه كان نشطًا صحيحًا بحمد الله .. ولقد كان الأصدقاء يسمونه « ترانزستور » لصغر حجمه ، إشارة إلى الراديو الصغير الذى يحمل فى اليد ..

وبعد الولادة عدت فى المساء إلى مسكن صهرى ، الذى ظل ساهرًا ، وكانت والدتى هى الأخرى تنتظر على أحر من الجمر ، ودخلت وألقيت السلام فى وقت متأخر من الليل ، وكنت مرهقًا ، كانت أم زوجتى معها فى العيادة لتشرف على طلباتها ؛ إذ لم يكن هناك ممرضات أو حكيمة ..

لاحظت أن أمى قلقة ، وقد كان يحلو لى مداعبتها ، أحيانًا ، ولما لم أتكلم سألتنى : « هل ولدت كريمة ؟ » .

- « الحمد لله يا أمى » .
- « وهل هى بخير ؟ » .
- « على ما يرام ...» .

ووجدت أمى تتحرك فى مقعدها ومظاهر القلق لا تخطئها العين ، كانت تريد أن تعرف هل المولود ذكر أم أنثى ، شأنها فى ذلك شأن أهل الريف الذين يفضلون إنجاب الذكور ، ولم تستطع الصبر أكثر من ذلك ، فقالت : « ولد أم بنت ؟ » .

قلت وأنا أرغب فى مشاكستها : « ولد .. بنت .. كله خير وفضل من الله ونعمة .. الحمد لله عندنا قبل ذلك الولد والبنت » .

هزت أمى رأسها فى أسىً وقالت : « فهمت .. لقد ولدت بنتًا .. هيه .. الحمد لله ..» .

قلت فى هدوء وأنا أخلع سترتى دون اهتمام ، وأنا أقصد ذلك : « من قال ذلك ..بل وضعت ولدًا .. افرحى يا ست الحبايبب » .

وهبت واقفة وأطلقت زغرودة عالية رغم الوقت المتأخر من الليل ، قلت لها : « سوف توقظين أهل حى السيدة عائشة ..» .

- « هذا يوم الفرحة .. ادع الله أن يسعدوا فى عز أبيهم وأمهم ..»
- « وجدهم وجدتهم سواء فى القاهرة أو شرشابة » .

وابتسم صهرى الشيخ الجليل ، الذى لم يكف عن قراءة القرآن والأدعية وذكر الله طوال الوقت .

ثم قال : « لا تنس العقيقة يا بنى .. إنها سنة نبوية شريفة .. فلتذبح خروفين » .

قالت أمى : « خروف فى شرشابة وآخر فى القاهرة » .

وضحك الشيخ وقال : « ويمكن أن نتبرع بثالث لأهل المدينة السكنية بأبو زعبل » .

ومسحت أمى رحمها الله على رأسى وظهرى وقالت : « كثر عيالك ، فليرزقك الله برزقهم » .

ولم تمكث زوجتى فى العيادة إلا ليلة واحدة ، وعادت إلى بيت أبيها ، وجاء الصغيران حسام الدين وعزة ينظران إلى أخيهما الوليد فى شغف وفضول ، ويلمسانه برقة ، ويستأذنان فى تقبيله ، لكنى نهيتهما عن ذلك ، على أن أسمح لهما بعد أن يكبرا ، وكان جلال الدين الوليد هادئًا جدًا ، ينام كثيرًا بعد أن يرضع ، وأحيانًا يطول نومه عن المعدل فى فراشه دون أن يتحرك ، مما كان يبعث الخوف فى نفس أمه ، فتهزه كى يستيقظ ، وذات مرة كانت ترضعه أثناء الليل ، ونامت ، وعندما استيقظت وجدته راقدًا على أرض الغرفة فوق السجادة دون أدنى حركة ، أصابها الذعر ، لقد سقط الولد من فوق السرير دون أن تشعر به ، وكان عمره حوالى ثلاثة أشهر ، وظل راقدًا دون أن يبكى أو يصرخ ، وأيقظتنى فقمت أفحصه بدقة خوفًا من أن يحدث له ارتجاج فى المخ ، لكنى والحمد لله وجدته سليمًا معافًى . فأكدت على زوجتى ألا ترضعه ثانية إلا وهى جالسة ، ولا تنيمه إلا فى سريره الصغير الذى يحفظه من السقوط ..

وعدنا مرة أخرى إلى المدينة السكنية لنستأنف حياتنا العادية من جديد ، وكان معنا الوالد والوالدة وأختى الصغيرة سميرة ، وكان لوجود الوالدين معنا فترات طويلة بإصرار منى ، ذلك أنى استشعر الأمن والألفة والاطمئنان وهما إلى جوارى وخاصة أن زوجة أخى أمين الذى يصغرنى بعام كانت تثير المشاكل مع أمى وتسبب لها النكد ، وأنا حريص على أن تنعم أمى بالاطمئنان والسعادة ، وما يكاد أبى وأمى يُسافران إلى القرية حتى ألح عليهما فى العودة من جديد ، لكونى كنت أريد أن أعوض أيام الفراق الطويلة المريرة حينما كنت سجينًا ، وكذلك سنوات التعليم التى قضيتها بعيدًا عنهم فى المرحلة الابتدائية والثانوية والجامعية ، وأصبح والدى رحمه الله صديقًا للكثيرين من سكان مدينة أبو زعبل السكنية ، فكانوا يحبونه ويدعونه لزيارتهم ، وكان مكانه المفضل للجلوس هو محل بقالة الأخ الصديق « إسماعيل الهضيبى » ، وكانت أسرة الهضيبى التى ينتمى إليها فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبى المستشار السابق فى القضاء المصرى ، وصاحب التاريخ العريق ، أقول كانت هذه الأسرة الكريمة تقيم فى قرية « عرب الصوالحة » القريبة منا ، وكان شقيق إسماعيل واسمه « الحاج محمد الهضيبى » عمدة القرية « المختار كما يسمى فى بعض الدول العربية) ، ويبدو أن الأمر لم يرق لرجال الأمن ، وذهب أحد المخبرين إلى أبى لينصحه بالابتعاد عن أى إنسان يمت بصلة لعائلة الهضيبى ، ولم يقتنع أبى بهذا الكلام الفارغ الذى لا معنى له وقال للمخبر بلهجته الريفية البسيطة : « جرى إيه يا بنى .. هو إحنا بنعمل مؤامرة .. دول ناس طيبين وباحبهم وبيننا وبين بعض مصالح .. هو الصداقة حرمت ؟ » .

وذهبت إلى رئيس مكتب المباحث العامة فى المدينة السكنية « يحيى بك كامل » ، وكان جارًا لى فى السكن ، كما كان يختارنى دون غيري من الأطباء لعلاج أولاده وزوجته التى لا يراها أحد ، لأنها متمسكة بالتقاليد (فهم من الصعيد) ، وكانت تربطنى بالرجل علاقة لا بأس بها رغم أنى مدرج عنده فى « القائمة السوداء » وأن من واجبه أن يراقبنى كسجين سياسى سابق ، وناقشت موضوع أبى معه ، فأبدى تفهمًا وطلب من المخبرين أن يتركوا أبى وشأنه .

والواقع أن أسرة الهضيبى فى عرب الصوالحة كانوا يبالغون فى احترامى وإكرامى أنا ووالدى، وكانوا ينظرون إلىّ كواحد منهم، وظلت هذه العلاقة الطيبة الخفية فى معظم الأحيان إلى أن رحلت عن تلك الديار.

كان مكتب المباحث العامة (أمن الدولة) فى المدينة السكنية، من المكاتب المهمة لأنه يقع فى منطقة يسكن فيها الهضيبيون، ولأن المنطقة صناعية وبها عدد كبير من العمال، ومن الطريف أن بعض رجال المباحث كانوا يطلقون على هذه المنطقة «منطقة تل أبيب»، وكان رئيس المكتب يحيى كامل أمين شخصية ذكية ونشطة، ولم يتهاون فى أى موضوع له علاقة بالأمن، وعلى الرغم من تاريخى وماضىّ الذى يعرفه هو جيدًا، لأن تحت يده «ملف كامل» عن كل شيء يتعلق بى إلا أننى وجدت نوعًا من الصداقة بيننا دون حساسية تذكر، فكنا نسهر معًا، نحتسى أكواب الشاى (وأنا لا أحب القهوة)، ونتحدث فى كثير من الأمور حتى السياسى منهما، لكنى مهما كان الأمر كنت شديد الحرص جدًا، فلا أنزلق إلى مناطق المحرمات السياسية، لأنه مهما كان الأمر فهو رجل أمن، وإذا سقطت سقطة فمن المحتمل جدًا أن أحاسب عليها حسابًا عسيرًا.

وكان أحيانًا يستدعى بعض من تحوم حولهم الشبهات، ويستجوبهم فى مكتبه، وبعدها أسأله عما حدث، وكان أحيانًا يجيب وأحيانًا يتكتم الأمر، ولم أكن ألح عليه فى شيء، ولا أذكر أنه أفشى لى سرًا من أسرار عمله فى يوم من الأيام، فمثلًا كان يقبض على بعض الإخوان، فاستفسر منه عما جرى، فيضحك لكنه يراوغنى ويمتنع عن الإجابة.

وقد استطاع هذا الرجل أن يكشف عن بعض مظاهر الاستغلال والفساد فى المدينة السكنية، ولما تجمعت لديه كافة الخيوط ضرب ضربته وأمسك بتلابيب المتهمين فأخذوا جزاءهم بصورة أو بأخرى.

وكان الجميع فى المدينة يعملون له ألف حساب وحساب، إذ كانت تصل إليه كافة التحركات والأحاديث التى تدور بين العمال حتى فى مجالسهم الخاصة، ويتخذ ما يراه من إجراءات أغلبها فى إطار التهديد والتوبيخ أو العقوبات المحدودة كأن يحجز المخطئ ويأمر بضربه، ثم يتركه يعود إلى عمله، بعد أن ينبه عليه بألا يحدث أحدًا بما جرى له وإلا ...

أذكر إننى كنت استقبل فى مسكنى بالمدينة السكنية عددًا كبيرًا من أصدقائى الأدباء والصحفيين، فكانوا يبدون إعجابهم بهذا المكان الجميل، وتلك المدينة المريحة، ويقولون إن الفرق شاسع بينها وبين القاهرة، وكنا نتحدث عن الحركة الأدبية وفرسانها، ونناقش كل جديد يصدر عنها، ونناقش المعارك الحامية التى تدور بين أنصار الشعر التقليدى والشعر الحديث، والمعارك التى تدب بين مدارس النقد المختلفة، وكان الاتجاه السائد فى تلك الفترة هو الاتجاه الواقعى الاشتراكى (الواقعية الاشتراكية فى الأدب) يليها الاتجاه الوجودى الذى يتزعمه الفيلسوف والأديب الوجودى سارتر، والذى زار مصر فى النصف الأول من الستينيات، من القرن العشرين، على ما أذكر، وقوبل بحفاوة بالغة، ونهج المسرح نفس النهج فقد كانت قسمة بين المذهبين الغالبين.

جاء لزيارتى الأستاذان الصديقان عاشور عليش (سكرتير تحرير جريدة المساء التى كنت أكتب فيها) والأستاذ محمد المندى (صحفى بنفس الجريدة وكاتب قصة أيضًا)، وقضا فى ضيافتى يومًا وليلة، وقد كان الأستاذ عاشور فى غاية الانبهار بهذا الجو الذى أطلق عليه «جوًا صوفيًا رائعًا» على حد تعبيره، وأجرى معى حديثًا طويلًا عن الأدب نشره على أكثر من نصف صفحة فى جريدته، وقدم له بمقدمة جميلة، أما الأخ لأستاذ محمد المندى فله قصة طريفة قد يكون من المفيد أن تروى، فقد كان

مفتونًا بالأدب وهو يعيش فى صعيد مصر ، ويعمل بهيئة السكك الحديدية ، ثم قرر التفرغ للأدب فاستقال من وظيفته ، وباع أملاكه من الأراضى الزراعية ، والبيت الذى كان يسكن فيه ، وأتى بأسرته (زوجته وابنه مهنا وابنته) إلى القاهرة ، وسكن فى شقة متواضعة ، وأخذ يطبع مؤلفاته على نفقته الخاصة لما لم يجد ناشرًا لها ، فقد كان اسمه جديدًا فى الساحة الأدبية ، وهكذا أوشكت أمواله على النفاد ، وأخذ يجرى هنا وهناك بحثًا عن وظيفة لها صلة بالأدب أو الصحافة ، أو يحاول أن ينشر بعض قصصه ومقالاته نظير مكافأة مالية ، والتقيت بمحمد المندى منذ أن خرجت من السجن وهو على هذه الحالة من السوء والاضطراب ، وكثيرًا ما كان يثور ويسب ويلعن الأوضاع المحزنة للأدب والأدباء ، وفكر أن يجمع أسرته وراءه ، ويمضى معهم فى مظاهرة احتجاج رافعًا لافتة مكتوب عليها « هذا هو حال الأدب فى مصر » ، فكنا نهدئ من ثورته ونحاول قدر الاستطاعة فى التهوين من الأمر ، ومساعدته فى حل مشاكله ، وبعد سنوات من الضيق والعنت أخذه الأخ الأستاذ عاشور ليعمل معه فى جريدة المساء ، وبالصبر والدأب استطاع أن يحصل على عضوية نقابة الصحفيين ، ويثبت على وظيفة فى الجريدة بمرتب معقول ، وأكرمه الله فى ابنه مهنا الذى تخرج من كلية الزراعة جامعة القاهرة ، وسافر للعمل فى الكويت ، وهكذا خلص الأخ المندى من مآسى الفقر والمعاناة .. وكان للمندى صديق شاب اسمه « حسن محسب » لمع اسمه بعد ذلك فى مجال القصة وفى الكتابة للسينما ، وكان من أشهر أفلامه ذلك الفيلم السياسى المبهر (وراء الشمس) الذى عالج فيه قضية الاستبداد والدكتاتورية وطغيان أجهزة المخابرات ، وما يعانيه المخالفون فى الرأى من اضطهاد وتعذيب ، وقد لقى هذا الفيلم رواجًا ملحوظًا ، وتقديرًا كبيرًا (ظهر الفيلم فى فترة حكم الرئيس السادات) ، ومن الأمور الطريفة أن محمد المندى وحسن محسب كانا يكتبان مقالات نقدية مشتركة ، وقد كتبا مقالة عن روايتى « ليل الخطايا » فى مجلة الأدب التى كان يصدرها المرحوم الأستاذ الكبير أمين الخولى (زوج الدكتور بنت الشاطئ) رحمه الله ، وكان التوقيع على المقالة باسم « المندى ومحسّب » .

وكان الأستاذ عاشور عليش من أسرة الشيخ عليش عالم الأزهر الجليل ، وقد عمل بالصحافة فترة طويلة ، وكان كفاءة ممتازة ، ويتميز بروح خفيفة وثابة ، وصدق فى المعاملة والأداء ، وتمكن فى الأسلوب الصحفى الأدبى الجميل ، وتذوق عالٍ للأثر الأدبى ، وظل يعمل بالصحافة فى موقعه حتى بلغ سن التقاعد هو والأخ الأستاذ محمد المندى .

أما رواية « ليل الخطايا » التى أشرت إليها منذ قليل فإن قرائى لا يرونها الآن ، ذلك لأنى منعت إعادة طبعها ، ولهذا لم تطبع إلا مرة واحدة فى « دار الفكر » بدمشق ، والسبب فى منع نشرها ، هو أن هذه الرواية كانت بها جرعة زائدة من تصوير المشاعر والعواطف بين المرأة والرجل ، كما أنها تتعرض لمشكلة الخيانة الزوجية التى أمقتها أشد المقت ، ولقد اندفعت لكتابتها تحت فورة غضب وحماس بالغين ، لأنى عرفت أبطال هذه القصة ، وألممت بالخيانة التى آلمتنى ، فقررت أن أكتبها رواية ، وكأنى أنتقم أو أحاكم هؤلاء الخونة الذين لا يرعون فى الله إلّا ولا ذمة ، ولما هدأت مشاعرى ، قلت لنفسى كان يمكن أن أكتب القصة على نحو آخر لا يثير المشاعر ، وعلى الرغم من إعجاب البعض بهذه القصة التى كتبتها وأنا ما زلت طالبًا بكلية الطب ، بل إن أحد رجال الفكر الإسلامى أثنى عليها ، بحجة أنها تعالج قضية خطيرة ، أقول على الرغم من ذلك فإنى رفضت بشدة جميع العروض التى قدمت لى لإعادة طبعها ، أما طلاب الماجستير والدكتوراه الذين كتبوا أطروحات عن أدبى ، فقد كانوا يصرون على البحث عنها ، ووضعها موضع التحليل والمناقشة ، ويحصلون عليها بعد مشقة .

وهناك رواية أخرى اسمها « أميرة الجبل » كتبتها عن قبائل « الشحوح » التى تعيش على جبال « إمارة رأس الخيمة » بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ونشرت سلسلة فى مجلة قطرية فى السبعينيات ، من القرن العشرين اسمها مجلة « الفجر » ، وهذه القصة لم أنشرها فى كتاب بسبب اعتراض رقابة دولة الإمارات العربية المتحدة ، لأن من شخصيات الرواية شخصية تقليدية لها احترامها وحيثيتها ..

وكانت فترة وجودى بالمدينة السكنية من أزهى الفترات التى مرت بى فيما يتعلق بالإبداع الأدبى ، فقد وضعت عددًا من المؤلفات الهامة فى القصة والرواية ، وكنت أرسل الممرض عبد الفتاح وهو شاب طيب مخلص إلى القاهرة كل أسبوع ، ومعه إنتاجى من القصص القصيرة ليوزعها على الصحف والمجلات التى كنت أكتب فيا بصفة دورية شبه منتظمة .

وفى بيتى بالمدينة السكنية كان يفد الأصدقاء الذين تربطهم بى صلة وثيقة من مختلف أنحاء العالم العربى من سوريا وليبيا وباقى الدول العربية .

فما أجملها من أيام لا تُنسى ! !



[١٤] الأيام تمضى



كان شقيقى الأصغر « محمد » يصغرنى باثنى عشر عامًا تقريبًا ، وحينما أخذونى إلى السجن كان عمره لم يزل صغيرًا وفى نهاية المرحلة الابتدائية ، وكان له مكانة عزيزة فى قلبى ، لذلك كنت أشرف على تعليمه وتوجيهه الوجهة السليمة ، لكن شاء القدر أن أتركه فى عام ١٩٥٥ فحزنت لذلك أشد الحزن ، وقد انشغل أبى بمأساتى ، وذهب الصغير فى هذه الأيام القاسية إلى مدينة زفتى القريبة ليواصل تعليمه هناك دون أن تتوفر له الرعاية الكاملة ، وعندما كتب الله لى الإفراج حولت له إلى مدرسة ثانوية فى القاهرة ليعيش معى وتحت إشرافى ، وعاش محمد سنوات معى ، عرف فيها جميع معارفى وأصدقائى وأعمالى ، فكان نعم العون لى ، ولقد كان لهذا الجو الذى عاش فيه تأثير كبير فى أفكاره وشخصيته وحكمه على الأمور ، وخاصة أننا نعيش فى جو إسلامى بعيد عن الإكراه والضغط النفسى ، ونتحاور فى أخوة حول كل ما نتعرض له من أمور .

وشاء الله ألا يؤهله مجموعه فى الثانوية العامة إلا لدخول كلية « التربية الرياضية » فى الهرم ، ولاحظت عليه شيئًا من الضيق ، فقد كان يريد أن يلتحق بالطب أو الهندسة أو غيرها من كليات القمة كما كانوا يسمونها ، لكنى أقنعته بأن اجتهاده فى أى كلية ، وتفوقه بها سيفتح أمامه المستقبل الباهر ، فالإجادة فى أى فرع من فروع المعرفة يؤهل إلى المجد ، وكان طلبة الكلية فى ذلك الوقت يقيمون داخلها حيث يوفر لهم المسئولون الطعام والشراب والرعاية الكاملة ، ومن حسن الحظ أنه كان بالكلية أصدقاء مخلصون لى ، عاشوا معى سنوات السجن ، منهم الأخ الدكتور الأستاذ سليمان حجر المعروف الآن فى الأوساط الرياضية ونقابتهم .

وتحقق الأمل فيما بعد ، وتفوق محمد فى دراسته ، ونال درجة الماجستير ثم الدكتوراه ، وتدرج فى وظيفته حتى أصبح أستاذًا ورئيس قسم ووكيل كلية ، وهو على أبواب العمادة الآن ، ولقد كان أخى محمد . وما زال . الأخ والصاحب والابن ، ولا أعتقد أن هناك من هو أخلص لى منه ، وهذه نعمة من نعم الله علينا .. فهو إلى جوارى فى شيخوختى ، يسهم بجهوده المتواصلة من أجل راحتى وإسعادى ، ولا أذكر أنه رفض لى طلبًا قط ، لقد تنكر لى بعض الأهل للأسف طمعًا وجشعًا ، لكن أخى الدكتور محمد ظل ثابتًا على العهد ، مقيمًا على الوفاء ، لدرجة أننى أشعر وكأن أبناءه أحمد وأمانى وأسامة وطارق أبنائى ، وكأن زوجته العالمة الفاضلة الأستاذة زينب الشرقاوى ابنة لى لا تقل قربًا إلى نفسى من ابنتى الدكتورة عزة .. ولقد قال أحد الأساتذة الأصدقاء لنا ذات مرة « إننى أحسدكم على أخوتكم التى لا مثيل لها » فقرأت على الفور « سورة الفلق » وقاية من الحسد .

إن موضوع الصداقة الحقة ، وصلة الرحم الحميمة ، يشكلان أهمية قصوى فى حياتى ، وأعتبرهما ضرورة من ضرورات الحياة ، كالطعام والشراب ، بل والماء والهواء .

فى أحد أشهر الصيف انتدبتنى الإدارة الطبية للعمل فى القسم الطبى بالإسكندرية لمدة شهر نظرًا لأن الزميل القائم بالعمل هناك سافر فى إجازة سنوية ، ورحبت بالأمر لأنى قد أجد فرصة للاستمتاع بشاطئ البحر بالإسكندرية إلى جوار العمل ، وفعلًا أخذت زوجتى وأولادى وتركنا المدينة السكنية مؤقتًا ، ورحلنا إلى الثغر الجميل ، واستأجرنا شقة مفروشة ونزلنا بها ، كنت أعالج المرضى من الصباح حتى الواحدة ظهرًا ، ثم اذهب إلى الشاطئ فى حى « كليوباترا » حيث أعطانى الصديق المهندس عبد الفتاح الحسينى مفتاح كبينته وهو العالم الكبير الآن فى أمريكا ، والمتخصص فى الفيزياء النووية ، والذى اكتسب الجنسية الأمريكية ، وكان الدكتور عبد الفتاح زميلًا لنا فى أيام سجن أسيوط المريرة . وفى « كابينة » عبد الفتاح ، كنت أجلس أنا وأسرتى نستمتع بمشهد البحر ، وذات يوم لمحت الأستاذ الكبير محمد قطب قادمًا من بعيد فهرولت للقائه ، ولم يكن شقيقه الشهير سيد قطب قد أُفرج عنه بعد ، وانتقلنا . أنا وهو . إلى مقهى فوقه « الكابينة » ممتد داخل البحر ، وجلسنا نتحدث فى شتى الموضوعات ، ثم أخرج كتابًا بالإنجليزية لأحد المستشرقين الغربيين ، وأخذ يقرأ لى فقرات من بعض الصفحات تشن هجومًا لاذعًا على كتابات وأفكار سيد قطب وشقيقه محمد ، ولم يكن ذلك غريبًا ، فإن نسبة كبيرة من المستشرقين مهمتهم الرئيسية التهجم على الإسلام ورجاله وفكره ، مع أن هناك عددًا قليلًا آخر من المستشرقين يتصف بالإنصاف والعدل .

وأخذ الأستاذ محمد يتردد يوميًا على الكابينة لنجلس معًا ونتحدث فى أمور شتى ، وبينما كنا جالسين ذات يوم رأيت رجلًا أزرق العينين ، أصفر الشعر ، أبيض البشرة يقف فوق درج « الكازينو » وينظر إلىّ بإمعان ولفترة طويلة ، لم أعر الأمر التفاتًا فى البداية ، ولكن استمرار الرجل فى وقوفه ، ورصده لى ونحن جلوس أمام « الكابينة » جعلنى أقف وأدقق النظر فيه بإمعان ، ولما عرفته ابتسمت وهتفت به قائلًا : « أهلًا بك يا زكى بك .. تفضل معنا » .

فلوح بيده محييًا ثم هبط الدرج لينزل إلى الشارع ، ثم يهبط الدرج الآخر الموصل إلى مكان جلوسنا ، وقبل أن يصل إلينا ، قلت للأستاذ محمد قطب ولزوجتى التى تجلس فى الداخل : « احذروا .. وتحفظوا فى الحديث .. هذا رجل من رجال الحكومة ..» .

فمن يكون « زكى بك » هذا ؟

لعلى أشرت إليه عندما تحدثت عن الفترة التى قضيتها فى سجن أسيوط ، فقد كان أحد ضباط السجن ، وهو الذى استولى على ديوان شعرى الأول « أغانى الغرباء » وكاد أن يتسبب فى تقديمى للمحاكمة لما يحتويه الديوان من أشعار تمس الحكم والنظام ..

وجلس زكى بك ، حيث قدمت له مشروبًا باردًا ، وأخذنا نتحدث عن الذكريات المريرة فى سجن أسيوط ونحن نضحك ، وشر البلية ما يضحك ، وظل الأستاذ محمد قطب صامتًا يكتفى بالاستماع ، لكن زكى بك كان يشعر بالخجل الذى يخالطه شىء من الندم ، وخاصة عندما أشرت إلى « أنهم » أضاعوا من عمرنا سنوات ، وعوّقوا مسيرة مستقبلنا ، فأشار بما معناه أننا أحسن وأسعد منهم حالًا .

وبينما أنا منهمك فى العيادة صباح أحد الأيام ، جاء الممرض وقال : « لم يعد هناك مرضى ..» .

حمدت الله وعولت على المسير إلى شاطئ البحر حيث تنتظر زوجتى وأولادى ، لكن الممرض قال : « هناك رجل يريد لقاءك » .

– « مريض ؟ » .

- « لا ..» .
- « أدخله إذن » .

لم أكن أعرفه ، وأخذت أقيسه بنظراتى ، بينما أخذ هو يضيق عينيه ويوسعهما ، ثم تنحنح وجلس ، وعلى فمه طيف ابتسامة ساخرة ، ونظرًا لأنى كنت فى عجلة من أمرى فقد قلت : « أحب أن أتعرف على الأخ » .

- « لست بأخ .. أنا من المباحث (أمن الدولة) ..» .

شيء كالصدمة ينتابنى كلما لقيت واحدًا من هؤلاء المخبرين المحدودى الثقافة ، لكنى سرعان ما أمتص الصدمة لكثرة تعودى عليها ، ذلك أمر لا مفر منه ، ولابد من التعامل معهم بمنتهى الكياسة ، وإلا فإن تقريرًا واحدًا يمكن أن يسبب لى العديد من المشاكل التى أنا فى غنى عنها ، وطرح أسئلة مختلفة ، متى أتيت إلى الإسكندرية ؟ ومتى ستعود إلى القاهرة ، من هم أصدقاؤك هنا ؟ وأين تقيم ؟ وهل تقابلت مع أحد من الإخوان المسلمين ؟ وما أخبارك ، وفى النهاية طلب منى أن أحضر فى السابعة مساءً لمقابلة سيادة المفتش العام لمباحث إسكندرية فى مكتبه ، ولما سألته عن السبب أجاب بأنه لا يعرف . وذهب من حيث أتى ..

واتجهت أنا إلى الشاطئ ..

كنت متضايقًا بعض الشيء على الرغم من أن شيئًا كهذا مُتوقع دائمًا .

فى الموعد المحدد ذهبت لكى أقابل المفتش ، وانتظرت ما يقرب من ساعتين فى غرفة الانتظار المكتظة بالتعساء من أمثالى ، وكلما استعجلت السكرتير كان يقول : « البك مشغول .. دقائق قليلة وتدخل ..»

شعرت بمزيد من الضيق والملل ، وقفت وتسللت خارجًا قابلنى « المخبر » عند الباب قال فى دهشة : « إلى أين ؟ » .

- « عندى عمل فى القسم الطبى ولا يمكننى تأخيره » .
- « لكن ...» .

قاطعته قائلًا : « تستطيع أن تحدد لى موعدًا آخر » .

مشيت فى الشارع والهواء يصافح وجهى المحتقن ، أينما ذهبت فى أى مدينة أو بلد أجدهم هناك ، المخبرون فى كل مكان ، سواء عرفناهم أم لم نعرفهم ، وعلى الرغم من أن ذلك شيء مزعج للغاية ، إلا أننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا سوى الصبر ، نعم الصبر هو الصديق الحميم الذى يلازمنى كظلى ، ولا يتخلف عنى دائمًا ، إننى لا أستغنى عنه ، وإلا انفجرت .. ولذلك جعل الله جزاء الصابرين كبيرًا وقال فى كتابه العزيز ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ .

فى صبيحة اليوم التالى دخل الممرض عليّ فى مكتبى وأخبرنى أن هناك زيارة منزلية لمريض موظف ، وأنه يقيم فى أحد الأحياء الشعبية ، وكانت الزيارات المنزلية مرهقة ، وتستغرق وقتًا ، وقد يكون فى اليوم زيارتان أو أكثر ، هذا بالإضافة إلى عمل العيادة اليومى حيث يكون عدد المرضى كبيرًا ، نسبة كبيرة منهم من المتمارضين ، وأخبرت الممرض أننا سنذهب إلى ذلك المريض فى بيته بعد أن أتم الفحص للمرضى ..

واتخذنا طريقنا إلى بيت المريض ، كان مبنى قديمًا واسعًا ، عالى الحيطان ، متسع الغرف ، ودخلنا الغرفة التى يرقد فيها المريض ، فوجدتها تضاهى أربع غرف أو أكثر من البيوت الحديثة ، كان المريض

غارقًا فى عرقه ، والحمى تشعل جسده ، وقد غطى وجهه بشال رقيق ، وحينما كشف الغطاء عن وجهه ذهلت .. هل ممكن أن يكون هو... وأمسكت « بالأورنيك » المرضى ، أو البطاقة المسجل فيها اسم المريض ، وتأكدت ، وصحت فى فرح : « عبد المنعم الوزّان ؟ كيف حالك ..» .

وفتح عبد المنعم عينيه بصعوبة ، ونظر إلى بإمعان ، وسرعان ما أضاءت الفرحة وجهه ، وجلس فى سريره فاتحًا ذراعية على آخرهما ، وتعانقنا بحرارة ، إنه أحد زملائى بالسجن فى أسيوط ، كان وديعًا طيب القلب ، على الرغم من عوده الفارع ، وجسمه القوى ، وكانت هناك ابتسامة طفولية لا تغادر محياه ، وكان دائمًا يتميز بالشهامة والكرامة وإنكار الذات ، وربما كان هذا الخلق القويم هو السبب فى أخذه من بيننا ، و « تغريبه » إلى سجن آخر بعيدًا عنا .

كان لقاؤنا عامرًا بالمشاعر الحية التى لا يمكن أن يخمدها الزمن ، وعادت الذكريات وتركزت فى لحظة قصيرة من العمر ، وكان إخوة عبد المنعم وأبوه يحيطون بسريره ، ولم يكن أحد منهم يتوقع هذه المفاجأة ، وعلى الفور تحولت من طبيب إلى صديق ، ونسينا المرض لدقائق ، وقدموا ألوان شتى من الفواكه والمشروبات ، وبدا وكأن عبد المنعم قد شفى من مرضه ، قلت لعبد المنعم : « لم أكن أعلم أنك خرجت من السجن ، ولم أكن أعلم أيضًا أنك تعمل فى السكك الحديدية » .

ابتسم كعادته وقال : « خرجت منذ شهرين فقط ، وعدت إلى عملى السابق الذى تركته من سنوات طويلة ، إن أبى وإخوتى جميعًا موظفون بهيئة السكك الحديدية .. وأنا سعيد أنك معنا .. لم أكن أعلم ذلك ..» .

وبدأت الفحص ، كانت درجة حرارته أقل قليلًا من أربعين درجة ، وكان بصدره التهاب شعبى حاد ، وطمأنته ، وكتبت له العلاج ، وأصر على أن أتناول معهم طعام الغذاء فى الغد . لكنى طلبت منه تأجيل ذلك حتى يُشفى ، ويأتى إلىّ بعد الإجازة المرضية التى سمحت له بها ، وكانت لمدة أسبوع .

كانت أمى رحمها الله تقول حكمة شعبية جميلة نصها « مصير الوجوه تتلاقى » . ولذلك كنت كلما ذهبت إلى مكان أجد لى فيه إخوة وأحبابًا ، أغلبهم على شاكلة الأخ عبد المنعم الوزان ، وعندما سافرت فى شهر العسل (بعد الزواج) إلى الصعيد قاصدًا الأقصر (البلد السياحى المعروف) وأسوان ، كنت كلما نزلت بلدًا وجدت فيها إخوة أعزاء ، وكنت أقرأ لافتات الأطباء على عياداتهم الخاصة فأفاجأ بصديق منهم ، وكلما رآنى واحد منهم أخبر الآخرين ، فلا يكاد يمر يوم إلا وأجدنى وسط حشد كبير منهم وأراهم يتسابقون لدعوتى كى أنزل عليهم أو أقبل دعوتهم للغذاء أو العشاء ، ألا يبعث هذا على المتعة والسعادة ؟ ألا يعنى ذلك أن الأخوّة الصادقة المخلصة لا تقدر بالمال ؟

والغريب أن فى الإسكندرية أبناء خئُولة وعمومة ، ولكنى كنت قليل الاتصال بهم ، والمجاملات بينى وبينهم محدودة فى تلك الفترة ، وعلى الجانب الآخر كان إخوة العقيدة دائمى الاتصال بى ، والزيارة لى ، وصدقت الحكمة التى تقول : « رب أخ لك لم تلده أمك » .

وأخيرًا عدت بعد فترة الانتداب من الإسكندرية إلى المدينة السكنية بأبو زعبل ، واستأنفت مسيرة حياتى السابقة من جديد ، واستقبلنى الإخوة والأصدقاء بحفاوة بالغة ، ولم يكد يمضى أسبوعان حتى كلفت بانتداب آخر إلى أين ؟ إلى أسوان أقصى جنوب مصر ، حيث كان يجرى بناء السد العالى على قدم وساق ، ولم يكن يُقبل أى عذر مهما كان لأى موظف يكلف بالعمل فى السد العالى .

قلت لزوجتى :

– « ماذا أفعل ؟ من انتداب إلى انتداب آخر ؟ يا قلبى لا تحزن » .

وردت على الفور قائلة : « سآتى معك » .

– « والأطفال » .

– « سنأخذ معنا حسام الدين ، ونترك عزة وجلال الدين مع أمي حتى نعود » .

واستطردت قائلة : « لم نذهب إلى أسوان منذ شهر العسل ، وأريد أن أستعيد الذكريات الجميلة ، ستكون رحلة ممتعة بإذن الله » .

– « إن مما يحنقنى أن الإدارة الطبية بها عدد كاف من الأطباء ، لكن الانتداب لا يقع إلى عليّ ، لأن الوساطة تتدخل وتفسد العدل والنظام ، أتراني أدخل فى صراع جديد معهم ؟ » .

– « يا رجل .. سنذهب فى رحلة مجانية ، وسنشاهد السد العالى حتى نستطيع فى المستقبل أن نحدث أولادنا وأحفادنا عنه بعد أن نشاهد إنشاءه بأعيننا قبل أن تتدفق فيه مياه النيل .. والسفر فى القطار بالمجان ، والإقامة بالمجان .. فماذا تريد بعد ذلك ؟ » .

وفى اليوم المحدد للسفر ، ذهبنا إلى القاهرة ، وقصدنا المحطة الرئيسية لقطارات السكك الحديدية ، وركبنا قطار الثامنة مساءً ، كان الطريق طويلًا ، والقطار ينطلق بسرعة ، لكنه كان يتوقف مرات عديدة ، لا ندرى لماذا ، وأحيانًا كان يطول توقفه ، وبقيت متيقظًا طوال اليوم ، فأنا لا أستطيع النوم فى وسائل المواصلات مهما امتد زمن السفر ، أما طفلنا حسام الدين فقد نام ، واستيقظ بعد ساعات ، ثم وقف فى صالون الدرجة الأولى الذى نشغله وقال فى ملل : « عايز أروح بيتنا .. »

وأخذ يبكى مصرًا على أن يعود إلى بيته ، ولم يسكت إلا بعد أن أعطيناه قطعة من الشيكولاتة ، وأسمعناه بعض قصص الأطفال الشيقة التى يحبها ، ثم نام مرة أخرى ، ونامت إلى جواره أمه ، وبقيت يقظان حتى أشرقت الشمس على الدنيا ، وبسطت أشعتها على الحقول ، وتدفقت عبر نوافذ القطار ، ولم نصل إلى أسوان إلا حوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا .. أى بعد خمس عشرة ساعة ، وهى مدة طويلة جدًا تزيد عن المدة المقررة بعدد من الساعات .

كنت أشعر بإرهاق شديد للغاية ، واستقبلنى بعض العاملين بالقسم الطبى بأسوان ، وأنزلونى فى بيت إلى جوار المحطة ، الدور الأسفل منه للعيادة ، والدور الأعلى للسكن ، مضطرًا للعودة إليهم على الرغم من التعب الشديد الذى أشعر به .

وما إن انتهيت من عملى حتى طلبت من الممرض أن يأخذ نقودًا ويذهب ليشترى لنا بعض الطعام والمتطلبات المنزلية الأخرى وصعدت إلى الطابق الثانى كانت زوجتى نائمة وإلى جوارها طفلها .

كانت القطارات تشحن بأطنان كبيرة من الأسمنت والمواد الأخرى والمعدات إلى موقع السد العالى يوميًا ، وبعد يومين أو ثلاثة أخذت زوجتى وطفلى لزيارة هذا العمل الضخم الذى يتحدث عنه العالم ، والذى تسبب فى إشعال حرب ضارية بيننا وبين إسرائيل وحلفائها من الإنجليز والفرنسيين ، والواقع أن الإنسان يعجز عن إعطاء الوصف الشافى والدقيق للأعمال الجبارة ، والنشاط المذهل ، والجهد المتواصل الذى يبذل فى بناء السد العالى ، والذى غير وجه الحياة تمامًا فى أسوان المدينة وفيما حولها من جبال وأراض ، فقد رصف العديد من الطرق ، وأنشئت المدن الجديدة ، وأقيمت مصانع أساسية أو تكميلية ، ومئات الحافلات والسيارات والمركبات الميكانيكية تتحرك صاعدة نازلة ، وفى موقع السد نفسه أعداد هائلة من العمال وانفجارات وضجة كبيرة حتى ليصاب الإنسان بالذهول وأمسكت بيد طفلى ، وإلى جوارى زوجتى ، وطلبنا الإذن بالسير داخل أنفاق السد الضخمة الآمنة ، ودخلنا أحد هذه الأنفاق وقلت لزوجتى : « إن هذا المكان الذى نسير فيه سوف تغمره المياه بعد ذلك ،

ولن يمشى فيه أحد حتى مئات ، بل ربما آلاف السنين .. هذه فرصة تاريخية لأقول بأمانة وصدق إننى أخذت بروعة هذا العمل العظيم ، وكنت سعيدًا بأن أقضى فى رحابه ما يقرب من شهر ونصف على دفعتين ، وتعرفت خلال هذه الفترة على عدد من كبار المهندسين المصريين والعاملين فى شركات المقاولات وموظفى العلاقات العامة ، وفى أسوان أيضًا التقيت بعدد من الزملاء القدامى فى كلية الطب ومن الإخوان أذكر منهم الدكتور صلاح راشد وهو شخصية مرموقة فى بلده ومسقط رأسه أسوان ، والدكتور عباس نوير وهو من الكوادر السياسية ، والدكتور فايز نخلة وهو زميل مسيحى متفرغ لعمله الطبى وغيرهم .

فى أحد الأيام بعد انتهاء العمل جاءنى الممرض فى مسكنى وقال : « مطلوب تحنيط اثنتين وثلاثين جثة ..» .

صدمت لما قاله وهتفت : « اثنتان وثلاثون » .

– « نعم ..» .

– « كيف ماتوا ..» .

– « انفجار فى السد العالى أثناء العمل ، إنهم يضعون المتفجرات ليحطموا الصخور ، ولابد أن يكون هناك ضحايا .. وكل جثة لا يسمح بتسفيرها إلى موطنها إلا بعد تحنطيها هذا هو القانون » .

– « ولماذا أنا بالذات ؟ » .

– « لأن طبيب السكك الحديد هو المختص بذلك » .

– « وإذا رفضت ؟ » .

– « ينتدبون الطبيب مفتش صحة بندر أسوان » .

– « حسنًا فليفعلوا ذلك ...» .

قال الممرض فى شيء من الغضب : « هذا رزق ، فكيف ترفضه ؟ » .

– « لم أفهم ..» .

– « إن لك على كل جثة سبعة جنيهات للتحنيط ، وهذا مبلغ كبير جدًا إذا حسبته ، وأنت لن تفعل شيئًا فى عملية التحنيط ، ستكون تحت إشرافك ، وسأقوم أنا بالعمل الفعلى مقابل جنيه واحد لكل جثة ..» .

لا أدرى لماذا شعرت بالحزن والغثيان ، ووجدت لديّ صدودًا عن إتيان هذا العمل ، بل لم أستطع مجرد الاستمرار فى التفكير فيه ، ولم يعد لدى أدنى رغبة فى الحديث عن ذلك ، لذلك قلت للممرض : « دعنى ، ولا تعد لهذا الأمر ، ودبر الأمر مع مفتش صحة البندر » .

ولم تكد تمر ساعة ، حتى دق جرس الباب ، وعندما فتحت وجدت رجلًا أشيب طويل القامة يقف عند قمة الدرج ، ويقول : « مساء الخير يا دكتور ، أنا الدكتور « جورج » . ...» مفتش صحة المركز ، جئت أعاتبك ، كيف تترك حقك ليبتلعه « ابن ال ...» مفتش صحة البندر ؟ إنه ليس من حقه ..» .

– « لكنى لا أريد ذلك يا أخى ..» .

– « أنت لم تزل صغير السن ، ولا تعرف مصلحتك .. يجب أن تنزل فورًا لتأخذ رزقك ..» .

ولم استجب لطلبه ، كانت « رزق » هنا فى غير موضعها ، بل تثير اشمئزازى ، فهبط الدرج غاضبًا متوترًا ، وهو يلقى بكلمات احتجاج وتأنيب ولوم لم أتبين ألفاظها جيدًا ، وعلمت أن هناك صراعًا

وتنافسًا بين مفتش صحة البندر، ومفتش صحة المركز، وأنهما يستشعران نحو بعضهما كراهية شديدة، وأن كلا منهما يحاول أن يكون له حق التحنيط فى حالة غياب طبيب السكة الحديد.

قضينا أيامًا جميلة فى أسوان، وزرنا جزيرة النباتات، و « مدفن أغا خان » الشهير، وسهرنا فى فنادقها الجميلة الحديثة آنذاك مثل فندق « نيوكتاراكت » الحديث والقديم، وذات يوم جاءنى الممرض وقال: « هناك زيارة منزلية لابد من الانتهاء منها الآن ».

- « لماذا ؟ ».

- « لأن المريض يدّعى المرض، وهو سائق قطار، وإعطاؤه إجازة يعنى عدم إرسال ثلاثة آلاف طن أسمنت إلى السد العالى، وناظر المحطة سيأتى إليك بنفسه لهذا الأمر ..».

- « وأين يسكن سائق القطار ؟ ».

- « فى جبل الحكروب » ».

- « ماذا تقول ؟ ».

- « أقول جبل الحكروب ..».

- « وكيف الوصول إليه ».

- « نركب الحافلة حتى سفح الجبل، ثم نترك الحافلة ونركب حمارًا، أو نمشى فى طرق الجبل، حتى نصل إلى المدينة السكنية ..».

- « إذن هيا بنا ».

نزلنا من الحافلة عند الجبل، وبدأنا نصعد الطريق الضيق الملتوى، وأمامنا رجل يرتدى زيًا أزرق يسبقنا بحوالى خمسمائة متر، ولم أجد أثرًا لمبانٍ على الجبل، ولما سألت الممرض عن الوقت الذى سنقضيه فى الوصول أجاب بأنه حوالى نصف الساعة أو أقل قليلًا، وقال إن الرجل الذى يسير أمامنا متجه هو الآخر إلى المساكن الشعبية هناك، كان الجو حارًا، والعرق يسيل، وأنا أجر ساقىّ جرًا، والوقت بعد الظهر، والممرض يحمل الحقيبة التى بها أدوات الفحص، وبعض أدوية الإسعافات الأولية، وأخيرًا ظهرت المساكن على إحدى القمم، وكانت عبارة عن عمارات جديدة بيضاء من أربعة طوابق، وتجولنا بحثًا عن رقم العمارة، ووصلنا بعد أن نال منا التعب، كان الرجل راقدًا فى فراشه، لكنه فى حالة جيدة، ولا تبدو على وجهه علامات ألم أو ضيق، بل كان على فمه ابتسامة خفيفة، وحوله عدد من الأطفال والنسوة، وقبل أن أبدأ الفحص: « إن ناظر المحطة رجل ظالم، دائمًا يضطهدنى، ويكلفنى بأشق الأعمال ويترك زملائى يمرحون ..».

قلت بإيجاز وأنا أجفف عرقى: « مم تشكو ؟ ».

- « صداع، وآلام عامة فى الجسم ».

- « وهل هذا يمنعك من الحضور للعيادة ؟ ».

- « لم أستطع التحرك، ماذا أعمل ؟ ».

- « الزيارة المنزلية كما تعلم للحالات الشديدة والمرضى الملازمين للفراش ».

- « وهل ترانى ألعب الجمباز ؟ إننى ملازم الفراش كما ترى ».

وقمت بفحصه بدقة استغرقت وقتًا لا بأس به، وجدت درجة الحرارة طبيعية، وأرقام ضغط الدم لا غبار عليها، والقلب والصدر سليمان، والحلق والزور لا أثر فيهما للاحتقان أو الالتهاب، ولما تأكدت أنه متمارض، أمسكت بالبطاقة وكتبت عليها « لائق، ويعود لعمله فورًا » كنت أتكلم بما أكتب،

وكتبت له ورقة بهذا المعنى ، وسجلت فى الملاحظات « تخصم مصاريف زيارة الطبيب لحساب هيئة السكك الحديدية » . لكننى للأسف رأيت المتمارض بطرف عينى وهو يخرج لسانه استهزاء للممرض ، وتظاهرت بأنى لم أر شيئًا .

عدت أنا والممرض فى نفس الطريق ، وروادتنى فكرة ، قلت : « أليس هذا هو الرجل الذى كان يسير أمامنا على الجبل » .

رد الممرض ببرود عجيب : « بلى .. إنه هو نفسه » .

- « ولماذا لم تخبرنى ؟ » .

- « وما الفائدة ، ثم إننا أبناء بلد واحد ، ولا يصح أن أعقد الأمور بسببه » .

ثم التفت إلى قائلًا : « ألا تعلم أن تقريرك هذا سيتسبب له فى قطع أجر خمسة أيام من مرتبه ؟ » .

- « أعلم ، لكنه يستحق ..» .

حينما عدت إلى المسكن ، سألتنى زوجتى عن سبب تأخيرى ، فرويت لها ما حدث وأنا أخلع ملابسى ، وارتدى منامتى ، وضحكت عندما سمعتها تقول : « جبل الحكروب اسم رائع لقصة جديدة .. رومانسى جدًا .. « وداعًا يا جبل الحكروب » أليس هذا عنوانًا جميلًا » .

- « الجبل موجود ، ولكن أين القصة » .

- « إذا لم توجد تستطيع أن تخترعها ..» .

- « تعرفين أننى لا أنطلق إلا من الواقع .. حتى ولو كان بسيطًا ..» .

- « الواقع أمامك .. فلتلحق بخيالك ..» .

- « لا أستطيع أن أبدع وأنا جائع ..» .

ضحكت وأخذت تعد المائدة لنأكل ، فقد اقترب وقت صلاة العصر ذكرتنى زوجتى بمنحة التفرغ التى نلتها قبل ذلك ، لكى أكتب رواية عن السد العالى ، فماذا كانت قصة هذه المنحة ؟ وكيف كنت سأكتب قصة دون أن أرى السد الذى هو موضوعها ؟ ولقد وضعت وزارة الثقافة فى مصر لائحة خاصة « بمنحة التفرغ للفنانين والأدباء » ، وشكلت لجنة من كبار الكتاب لفحص الطلبات التى ترد إليها من الأدباء الراغبين فى التفرغ لمدة عام واحد يجدد عند الضرورة ، وتقوم هذه اللجنة بتقدير راتب شهرى مناسب للعضو الذى ستوافق على تفرغه ، ولابد لطالب التفرغ أن يقدم إنتاجه الأدبى السابق الذى يرشحه لذلك ، وكان من أعضاء لجنة التفرغ الأساتذة الكبار : الأستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور طه حسين ، والأستاذ يحى حقى وغيرهم ، وعزمت أن أتقدم بطلبى للتفرغ مرفقًا به مؤلفاتى السابقة ، وعلمت من سكرتير اللجنة وأظنه الأستاذ الشاعر الدكتور عبده بدوى ، أن اللجنة وافقت على منحى التفرغ ثم تراجعت بعد أن قرأت فى البيانات المدونة بطلبى أننى « طبيب مكلف بالعمل لمدة سنتين تتجدد تلقائيًا ورأت اللجنة أنه ما دام الأمر كذلك فإننى لن أستطيع ترك عملى الطبى . ولو مؤقتًا . وأتفرغ للأدب ، وكان المشروع الذى قدمته هو كتابة رواية عن السد العالى ذلك الحدث الكبير فى تاريخ مصر ، وقررت اللجنة إرجاء البت فى الطلب ، وفهمت من الصديق السكرتير أن الذى يستطيع إعادة النظر فى الموضوع هو الدكتور. طه حسين ، أو الأستاذ العقاد ، وكانت وجهة نظرى أن حق التفرغ له أمر بعيد الأثر فى وضعى الأدبى ، وأن اللجنة عليها أن توافق على تفرغى ما دامت مقتنعة . وهذا حقى ، بصرف النظر عما إذا كنت سأنفذ التفرغ أم لا ، وكانت اللجنة قد وافقت على منحة التفرغ للأستاذ الصديق على أحمد باكثير لكتابة مسرحية عن عمر بن الخطاب ، وقد كتبها فى ستة

عشر جزءًا ، صدرت عن مكتبة مصر بالفجالة ، وقد تفرغ لهذا العمل عامين كاملين ، وعزمت على مقابلة من أستطيع من أعضاء لجنة التفرغ لأقنعهم بإعادة النظر فى الموضوع .. وهكذا التقيت بالأستاذ يحيى حقى فوافق ، ثم ذهبت إلى الأستاذ العقاد ، كما سبق وشرحت فى مكان آخر ، وعندما قابلته فى منزله بمصر الجديدة فى يوم جمعة أثناء ندوته الأسبوعية ، قدمت نفسى إليه دون إلقاء قائلًا : « أنا نجيب الكيلانى »

فابتسم وصافحنى قائلًا : « أهلًا يا دكتور » .

أدركت أن الرجل رحمه الله يذكرنى ، بدليل أنه أضاف كلمة دكتور إلى اسمى ، ودخلت فى الموضوع مباشرة ، وشرحت له قضية تفرغى ، فقال إنه تذكر ذلك الموضوع ، ثم صمت برهة وقال بالحرف الواحد : « الذين قرءوا كتبك يثنون عليك ، وأعدك بأن أوافق عند إعادة طرح الموضوع » .

ولم يبق إلا أن أذهب إلى الدكتور طه حسين فأنا لم أقابله منذ أن تسلمت منه الميدالية الذهبية فى عيد العلم (ديسمبر ١٩٥٩) فى حضور رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر ، بمناسبة فوزى بالجائزة الأولى فى مسابقة القصة القصيرة لذلك العام ، لكن الأستاذ ثروت أباظة الكاتب المعروف تكفل بذلك نيابة عنى ، وتمت موافقته هو الآخر وصدر القرار أخيرًا .. القرار الذى أنفذه ، ذلك لأنى وجدت صعوبة لدى الجهات التى أعمل بها ، ولكنى لم أشعر بالضيق لذلك ، فقد كنت دائمًا حريصًا على أن أظل وثيق الصلة بمهنتي الإنسانية ، ولا افترق عنها حتى أبلغ سن التقاعد ، وأن يكون الأدب مجرد هواية جادة وليس احترافًا أو تفرغًا ، على الرغم من أن أصدقاءنا وإخواننا فى المغرب العربى ، كتبوا عن ضرورة تفرغي للأدب لأهمية الاتجاه والمبادئ التى أؤمن بها ، وأدعو إليها ..،استمر انتدابى فى أسوان المدينة التى أحببتها لأكثر من شهر ، كنت أجد الفرصة المواتية لأتنزه فى نهر النيل الجميل ، وأذهب إلى المدن الصناعية الجديدة التى تثلج القلب ، وأزور مواقع السد العالى التى لا أملّ من مشاهدتها ، وأسجل بعض القصص والخواطر عن ذلك ، وفى أحد الأيام جاءنى الممرض يقول : « الدكتور (م ...) وصل من الأقصر ليشاركك فى الفحص الثلاثى » .

كان هناك يوم محدد كل فترة لفحص العمال الذين يعانون أمراضًا مزمنة ، ولابد لهذا الفحص أن يتم بواسطة طبيبين ، ونزلت ورحبت بالدكتور (م ...) ، وتراص العمال فى صف طويل ، وبدأنا فحص النظر ، وكم كان ذهولى عندما رأيت الدكتور يكتب قوة الأبصار عند الرجل الذى نفحصه أنها ٦/ ١٢ ، مع أنى لاحظت أنها ٦/ ٢٤ ، وتوقفت عن العمل وقلت له : « إنك تخطئ يا دكتور (م ...) » .

قال وهو يسدد إلى نظرات ذات معنى : « لقد دفع المبلغ المطلوب » .

هتفت فى دهشة : « ماذا ؟ » .

– « أقول دفع خمسة جنيهات » .

– « لماذا ؟ » .

– « لينجح .. أم تريد أن تقطع رزقه » .

كان الكلام يدور بيننا همسًا :

وضعت القلم ، وخلعت السماعة ، وقلت : « آسف .. لن أشاركك فى الفحص » .

– « لماذا ؟ الأمور تمشي على هذا النحو من قديم ، « ويا بخت من نفّع واستنفع » .. وأستطيع أن أفحص وحدى ، وبعد ذلك أحضر أحد الزملاء فى الأقصر ليوقع معى ..» .

وعدت إلى مكتبى فى العيادة ، وأنا أنتفض من الغيظ ، إن المخالفات ترتكب جهارًا نهارًا ، والرشوة

تُؤخذ دون خوف ، تمامًا مثلما كان يحدث في المنطقة الطبية بطنطا ، وما زال المذياع يتحدث عن الثورة .. والنقاء الثورى ..،عصر الطهارة والعدالة والحرية والاشتراكية ، وانتهى الفحص الثلاثى ، وأخذ (م ..) الأوراق ، ثم جلس معى يشرب الشاى في هدوء غريب ، ويضحك معى ، ثم لاحظت مجىء فتاتين حاسرتين يسلمان علينا ، وعرفنى (م ..) بأنهما أختاه ، وبعد أن اتجه لأخذ القطار الذاهب إلى الأقصر ، قهقه الممرض وقال : « هل صدقت أنهما أختان له ؟ » .

- « نعم ، وماذا فى ذلك ؟ » .

- « يا دكتور أنت رجل طيب ، لا تصلح لهذا الزمان » .

فهمت ما يرمى إليه ، إن الأمر في غاية العجب ، فهناك رجال تحت الشمس يصنعون ما يشبه المعجزة بالسد العالى ، وعلى الجانب الآخر رجال يرتشون ويسرقون ويستغلون نفوذهم ، وعلى امتداد الوادى فقراء لا يجدون القوت ، وعلى قمة السلطة رجال أصبحوا ملوكًا أو كالملوك بما حصلوا عليه من مال حرام ، وسلطة جائرة لا ترحم ، ونفوذ خرافى لا يعترضه أحد ، والغريب أن عامة الناس يعرفون الكثير ، لكنهم لا يستطيعون الشكوى ، أو حتى مجرد الإفصاح عما يقلقهم .

انتهت أيام الانتداب الجميلة ، وحملت أمتعتى ، ومعى ابنى وزوجتى ، وركبنا قطار الصعيد المتجه إلى الشمال .

فى الطريق بدت لنا بعد ساعات محطة قطار مكتوب عليها « بنى مر » قلت لزوجتى : « أنظرى واقرئى اللافتة » .

- « ماذا هناك ؟ » .

- « ألا ترين تلك القرية البعيدة ؟ » .

- « نعم » .

- « إنها بلدة عبد الناصر بن الحاج حسين ، والد الرئيس ..» .

هزت رأسها قائلة : « لقد قطع مشوارًا طويلًا من هنا حتى ...» .

ولم تكمل ، أكانت تريد أن تقول « حتى القاهرة » أم « حتى القمة » ، لا أدرى وسبحان المعطى الوهاب !

وعدنا إلى المدينة السكنية بأبو زعبل .. ذلك الحصن الدافئ المريح ..

عندما جلست فى مكتبى كنت أستشعر السعادة تملأ قلبى ، أخذت ألامس بنظراتى الحانية قطع الأثاث فى المكتب ، والأدوات الطبية الموضوعة أمامى ، وانظر عبر الباب والنافذة إلى الناس الطيبين الذين أحبهم . وراودنى إحساس داخلى بالخوف وتساءلت : هل يمكن أن يحدث ما يعكر الصفو ، وأترك هذا المكان الجميل المريح الذى اختلط بروحى وكيانى ؟

لست أدرى لماذا راودنى هذا الخاطر :

يا إلهى ! ! ! ماذا قد يحدث فى الغد ؟

❁❁❁

[١٥] أدب الحياة والحرية



دائمًا كانت تشغلنى قضية الحرية ، ذلك لأننا شعب ابتلى من قديم السنين بملوك وولاة وحكام قلما يرعون حق الله وحق العباد ، ولقد كانت للتجربة المريرة التى خضتها أكبر الأثر فى تعميق الإحساس بالحرية ، وأهميتها للإنسان حتى يبدع ويجدد ، وللوطن حتى ينمو ويتقدم ويزدهر ، ولهذا فإن الكم الأكبر من قصصى ورواياتى ، بل ومؤلفاتى الأخرى تدور حول هذا المعنى النبيل ، وذلك من خلال التصور الإسلامى الصحيح ، والواقع أننى نشأت فى أسرة من عامة الشعب ، كانت تتميز بروح الحرية والتسامح والتفاهم ، ولم يكن فيها أى نوع من الإكراه أو القهر أو القسوة ، فضلًا عن أننى كنت أهيم فى عالم المفكرين والمصلحين وقادة الرأى من خلال قراءاتى المستمرة عن القادة والمثل العليا التى تحلق فى أجواء عالية تخلب اللب ، وتثرى الروح ، وتبعث على الأمل والتفاؤل والثقة ، ولهذا صدمت فى حياتى صدمة رهيبة حينما رأيت ما رأيت من قوة وإذلال وتعذيب فى السجون ، وفى السجن الحربى بالذات ، ومهما كانت المبررات والأسباب لهذا الظلم الفادح ، فإنه أمر شاذ مدمر ، لن يثمر إلا المآسى والأحزان ، والخيبة والهزيمة النكراء للأمة كلها .

أعجبت بشخصية الداعية الإسلامى والمصلح الكبير « جمال الدين الأفغانى » ، وأخذت أتقصى أفعاله وأقواله وحياته المليئة بالجهاد والعجائب ، وكنت فى تلك الفترة أعزم كتابة رواية عن انعكاسات الحرب العالمية الأولى على مصر (١٩١٤ - ١٩١٨) ، وعن ثورة الشعب وسعد زغلول باشا المعروفة بثورة ١٩ (١٩١٩) ، وتجولت فى كتاب التاريخ الذى كتبه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى ، وفيه تسجيل مفيد وموسع عن هذا الأحداث وغيرها ، حتى أتمثل الخلفية التاريخية سياسيًا واجتماعيًا فى تلك الفترة لأن ذلك ضرورى للقاص أو الروائى الذى يستلهم التاريخ ..

وهكذا بدأت فى كتابة رواية « النداء الخالد » ، وأعنى به نداء الحرية طبعًا ، ولجأت إلى حيلة فنية مقبولة ، إذ جعلت « الشيخ عنبة » وهو أحد أبطال النداء الخالد مغرمًا بشخصية جمال الدين الأفغانى ، حافظًا للكثير من نصوص أقواله وكتاباته ، وكان من عادة الشيخ عنبة ألا يرد على سؤال إلا بقول مأثور لجمال الدين الأفغانى ، ويسبق ذلك بقوله « يقول حبيبى كذا وكذا » ويقصد بالحبيب الأفغانى وهكذا شاعت فى أجواء القصة روح الأفغانى وفكره ، ودعوته الصادقة من أجل تحرير المسلمين من الظلم والاستعمار ، وتحرير الإسلام من الخرافات والخزعبلات ، ولقد كانت هذه القصة من ثمرات الحياة الوادعة المطمئنة فى مساكن أبو زعبل .

ومن الروايات التى كتبتها فى هذه الفترة رواية « الكأس الفارغة » ، ،هى رواية تجرى أحداثها فى منطقة قنال السويس ، والصراع الدائر هناك بين الفدائيين من الإخوان المسلمين وبين القوات البريطانية المستعمرة ، ولقد كان لى فى هؤلاء الفدائيين أصدقاء وإخوة أعزاء بعضهم ضحى بحياته فى سبيل الله ،

وسلمت الرواية بعد الانتهاء من كتابتها للناشر حسن إيرانى صاحب الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع بميدان إبراهيم باشا « الأوبرا سابقًا » ، وسلمها على الفور لمطبعة « النزهة » وأظنها فى « حى شبرا » وفعلًا بُدئ فى الطبع ، وصححت من التجارب (البروفات) أكثر من مائة صفحة ، وفجأة توقفت مطبعة النزهة عن الطبع ، ولما سألت عن السبب قيل أن الحكومة فرضت الحراسة عليها ، واستولت على أموالها ، واحترت ما مصير روايتى ؟ وذهبت إلى البك الحارس الذى عينته الحكومة ، وطلبت منه نصوص الرواية ، فأخبرنى أنه لا يستطيع التصرف فى شيء الآن ، وأخذت أجرى هنا وهناك بضعة شهور دون جدوى ، ويئست من استرداد روايتى « الكأس الفارغة » وعدت بعد جهد جهيد بيد فارغة ، وللأسف الشديد لم يكن لدى نسخة من هذه الرواية ، ولم أستطع الاستدلال بعد ذلك على الحارس أو على أصحاب المطبعة الأصليين ، وضاع الجهد الذى بذلته فى كتابة هذه الرواية التى كنت أعتز بها أيما اعتزاز قالت زوجتى : « لماذا لا تكتبها من جديد ؟ » .

– « يصعب ذلك .. فأنا لا أتذكر إلا إطارها العام ، والشيء الذى أكتبه مرة ، لا أندفع إليه بنفس الحماسة إذا عدت لكتابته مرة أخرى ..» .

وحزنت أشد الحزن ، مثلما حزنت على كتابى « الرافعى فى موكب البعث » الذى أحرقته يد لا تقدر قيمته ، ومثلما حزنت على مسرحية « حسناء بابل » التى كتبتها فى السجن عن « هاروت وماروت » وصادرتها إدارة سجن أسيوط أثناء قيامها بحملة تفتيشية متعنتة ، ولم يكن لدى صور لهذا الإنتاج الأدبى القيم الذى ضاع ، وهناك عدد من قصائد الشعر ومن القصص القصيرة والمقالات لقيت نفس المصير المؤلم ، ولقد سبق وأشرت إلى أن رواية « الظل الأسود » هى الأخرى كانت قد فقدت فى بيروت ولم نعثر عليها إلا بعد خمسة عشر عامًا ، ودفعنا فيها مبلغًا كبيرًا من المال حتى نستردها وقد نجحنا فى ذلك والحمد لله ، ومما تجدر الإشارة إليه أن الطبعات الأولى أو التالية لبعض كتبى قد نفدت ، وكنا نحاول أن نبحث عن نسخة منها لإعادة الطبع فنعجز ، من ذلك كتابى عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال ، وكتابى عن أمير الشعراء شوقى ، وديوان أغانى الغرباء وغيرها من الكتب ، وذلك راجع لإهمال بعض الناشرين ، ولإهمالى أيضًا فى الاحتفاظ بنسخ من مؤلفاتى ، أو بصورة منها ..

كنت حريصًا أثناء عملى بالمدينة السكنية على أن أبتعد عن العمل السياسى حسب قرار الحكومة بالعزل السياسى ، حتى أبعد عن نفسى شبهة العداء والتآمر ضدهم ، وما أيسر إلصاق تهم كهذه بأى معارض سياسى لسبب أو لآخر ، وحدث أن أضرب عمال « الظهورات » فى ورش السكك الحديدية بأبو زعبل ، مطالبين بتثبتهم على درجات وظيفية أسوة بزملائهم ، وامتلأت الورش برجال الأمن ، وحوصر العمال ، وبعثت النيابة العامة برجالها للتحقيق ، وكان بعض العمال يغمى عليهم فينقلونهم إلى المستشفى ، وكان مدير المستشفى رجلًا صارمًا لا يحب المشاكل ، ويعتقد أن حالات الإغماء ما هى إلا افتراء ، وادعاء وكذب ، وعلاجه لذلك كلمة يقولها ويعرفها الناس فى المدينة السكنية : « هات اثنين سنتيمتر يا عبد الفتاح » . وعبد الفتاح هو الممرض ، والاثنان سنتيمتر هما من الكحول ، وعادة يحقنها المدير تحت جلد المريض فى فخذه ، فيشعر بما يشبه النار ترعى فى جسده ، فيطلق صرخة مدوية ، ويقفز من فوق السرير كمن لدغته عقرب ، ويفر هاربًا ، وهكذا عرفه المتمارضون والمدللون من أهل المدينة السكنية رجالًا ونساء ، ولهذا عندما يسمعونه يقول ٢ سم يا عبد الفتاح يفرون هاربين ، وحاولنا إقناع المدير بعدم اللجوء لهذا الأسلوب ، وخاصة أن الحقنة تترك قرحة كبيرة فى الجسم ، ولكن دون جدوى ، ولم يفكر أحد من الأطباء العاملين معنا فى اللجوء لتلك الطريقة ، وعندما حمل بعض المغمى عليهم من العمال

المضربين إلى المستشفى قال البك المدير : « اتركوهم لى .. حقنة اثنين سنتى يا عبد الفتاح » . وهكذا قفز العمال المسّجون فى الفراش ، وأخذوا يهرولون طلبًا للنجاة .

أجرى وكيل النيابة التحقيق مع كل فرد على حدة ، ثم وعدهم بالنظر فى مطلبهم العادل . وأقنعهم بأن الحكومة حريصة على مصالح العمال ، وهى فى طريقها لتدبير الدرجات والميزانية اللازمة لذلك فى أقرب وقت ممكن حسب أوامر الرئيس جمال عبد الناصر ، وانتهى الموضوع على خير ، فقد وافق العمال على العودة إلى أعمالهم مخافة اعتقالهم وطردهم ، وأبدوا ترحيبًا بالوعود الجادة التى سمعوها من المسئولين ، والحقيقة أن مطالبهم قد أجيبت فيما بعد ، لكن طوال هذه المدة حرصت على ألا يكون لى أدنى صلة بتحركات العمال ، وإلا اتهمت بإثارتهم وتحريضهم على الإضراب ، وعندئذ . لا قدَّر الله . ستتجه أصابع الاتهام نحوى ، وينسون الفاعلين الأصليين ، سألنى يحيى بك كامل أمين رئيس المباحث بالمنطقة عن رأيى فى هذا الموضوع ، قلت : « لا تجرنى لمثل هذه الأمور » .

– « أسألك كأخ ، وليس كمعزول سياسى » .

قلت له معتمدًا على الله المنجى : « يجب أن تعطوهم حقهم ، وخاصة أن الثورة تعلن دائمًا أنها فى صف العمال والفلاحين ، فكيف يعيش هؤلاء الناس ويعولون أسرًا ، وهم يتقاضون أجرًا ضئيلًا ، ومستقبلهم غير مؤمّن ؟ إن « الظهورات » يعملون بصفة مؤقتة ، وقد يُسرحون فى أى وقت ، فمن أين يأكلون ؟ » .

– « أنا معك فى هذا الرأى ، وسوف أسجله فى تقريرى » .

وفى عام ١٩٦٤ بعد ولادة ابنى جلال الدين بفترة طلبت زوجتى أن تكمل دراستها فى معهد الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ، ووافقت على الفور نظرًا لأنى كنت قد اتفقت مع والدها الشيخ قبل الزواج أن تتم تعليمها ، وكانت هناك عقبات منها أنها سوف تذهب إلى القاهرة يوميًا بعد الظهر وتعود فى المساء لأن الدراسة مسائية ، ومنها أيضًا الأبناء الثلاثة وضرورة توفير الرعاية الكاملة لهم ، وهناك أيضًا الرعاية التى أحتاجها شخصيًا ، وحاولنا تدبير الأمر بطريقة مقبولة ، وقد وفقنا الله فى ذلك والحمد له أولًا وأخيرًا .. واستطاعت زوجتى بالتفاهم مع أساتذتها أن يعفوها من الحضور يوميًا ، واكتفوا بأن تحضر ثلاثة أيام فى الأسبوع ، وبالنسبة للأطفال فقد كان وجود الوالدين وأختى الصغيرة سميرة ذا نفع كبير ، أما أنا فقد تكفلت بالأمور الخاصة بى ، خلال الأيام الثلاثة ..

أخذت أتصفح الكتب والمحاضرات التى تذاكر فيها زوجتى ، وبينما كنت أقرأ فى محاضرات المجتمع العربى ومقوماته والقومية العربية لاحظت أن مقومات هذا المجتمع هى الجنس والجغرافيا والتاريخ ووحدة الهدف والمصير ، وسألت زوجتى : « وأين الإسلام ؟ أين الدين كمقوم أساسى ، وهل كان للعروبة فى الجزيرة العربية دولة قبل الإسلام ؟ » .

– « هذا ما يدرسونه لنا » .

– « ناقشى أستاذك فى الأمر » .

وفى أحد الأيام عادت زوجتى لتخبرنى أنها ناقشت الأستاذ الدكتور فى مسألة الدين والعروبة ، فتهرب منها بحجة أن ذلك هو المنهج الذى قررته الوزارة ، وإن مثل هذه المسائل متروكة لخبراء المناهج والتربية ، لكنه همس قائلًا : « أنت على حق ولكن لا تتكلمى فى أمر كهذا ، فنحن فى أيام يسهل

تأويل الأمور ، وفهمها على وجه خاطئ ، والعاقل من ابتعد عن مثل تلك الأمور الشائكة » .

وفى أحد الأيام استأذنت زوجتى منى فى أن تأخذ نسخة كتابى « المجتمع المريض » وهى دراسة شيقة ومؤلمة فى نفس الوقت عن المسجونين وقيمهم ، وعن الجريمة والعقاب ، وأساليب الإصلاح ، والعلاقة بين الجريمة والاقتصاد والسياسة ، وكذلك عن الفنون فى السجون ، وما يبدعه هؤلاء التعساء من قصص وأشعار وفنون تشكيلية وغير ذلك . وهى جوانب طريفة لم يتناولها أحد من قبل من كتابنا المعاصرين ، وكان هذا الكتاب قد نال جائزة وزارة التربية والتعليم فى مسابقة الدراسات الاجتماعية والنفسية عام ١٩٥٧ ، وقد تأخر نشره لسنوات .. ووافقت على أن تهدى زوجتى أستاذها نسخة من هذا الكتاب ، وبعد يومين جاءها الأستاذ الدكتور وقال : « لم أنم ليلة أن تسلمت هذا الكتاب يا ابنتى ، وقرأته فى ليلة واحدة ، ذلك لأن أسلوبه شدنى ، وأحداثه استولت على مشاعرى ، إنه أسلوب فريد فى طرح القضايا العلمية والاجتماعية ، يذكرنى بكتابات وطريقة « ديل كارنيجى » الكاتب الأمريكى المعروف ..» .

ثم صمت برهة ونظر إليها بإمعان وقال : « هذا الكتاب لا يكتبه إلا رجل عاش بين المسجونين ، وذاق مرارة السجن ، هل سجن زوجك قبل ذلك » .

قالت : « نعم ، وقضى فى السجن بضع سنوات ، ووضع مؤلفه هذا وهو سجين ، ونال الجائزة عنه قبل أن يفرجوا عنه .. إن ما تقوله هو نفس ما قالته الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) التى كانت عضو بلجنة المسابقة ..» .

- « بلغى زوجك تحياتى واحترامى ، وبلغيه رغبتى الشديدة فى التعرف إليه ..» .

الحقيقة أن كتاب « المجتمع المريض » يحتل مكانة كبيرة فى نفسى ، وأنا أشعر أننى أديت جزءًا من الواجب نحو هؤلاء الذين يكابدون مر الحياة وراء الأسوار ، وألقيت الضوء على قيمهم وفكرهم وسلوكهم ، آملًا أن يكون ذلك بداية للاهتمام بإعادة النظر فى أمر الجريمة والعقاب ، والأسباب التى تدفع إلى الجريمة ، وأساليب العلاج الصحيحة للانحرافات الأخلاقية على أسس من العدالة التى تشرق فى صفحات كتاب الله . وفى السنة النبوية المطهرة ، ولن أطيل الحديث عن ذلك ، فنظرة إلى ذلك الكتاب « المجتمع المريض » سوف تفتح الآفاق أمام الفكرة والنظر والاعتبار .

كان الوضع المالى بالنسبة لى متأرجحًا ، فأحيانًا يكون لدى الكفاية من الرزق الذى يضمن الحياة الرخية المريحة ، وأحيانًا أخرى ألجأ إلى الاقتراض ، على الرغم من أن الراتب الحكومى معقول ، وكان دخلى من الكتابة متقلبًا ، مرة يأتى ومرة لا يأتى ، وخاصة أنه لا جوائز جديدة ، والكتب التى تقررها الوزارة تكون لمدة عام أو عامين ، فلم يكن غريبًا أن أوافق على بيع طبعة جديدة من كتاب جديد بمائة جنيه أو أقل ، وأتقاضى عن القصة القصيرة أو المقالة فى الصحف ما بين ٥ إلى ١٠ إلى ١٥ جنيهًا حسب الأحوال ، وذهبت ذات صيف إلى الإسكندرية مع الأسرة لقضاء ثلاثة أسابيع للراحة والترفيه ، ولكننى قطعت الرحلة بعد أن نفد ما معى من المال ، وعدت إلى القاهرة قاصدًا منزل صهرى كى نقضى معه ليلة ، ثم نرحل إلى المساكن التى أعمل بها ، وبعد صلاة المغرب ، أخبرت زوجتى بأنى سأذهب إلى المكتبات التى أتعامل معها لأعرف أخبارها ثم أعود بعد ساعتين تقريبًا ، وسألتها عما معها من المال فقالت إنها لا تملك سوى ربع جنيه فقط .. أخذته منها ، وقصدت الترام ، وفى مكتبة الشركة العربية جلست مع مديرها الأستاذ صلاح إبراهيم وهو صديق وزميل فى أيام الاعتقال ، وجلسنا نشرب الشاى ، وبعد نصف ساعة تقريبًا دخل علينا حسن إيرانى صاحب المكتبة بوجهه الباش ، وقال لى على

الفور : « أين كتبك الجديدة ؟ » .
– « إننى أكتب رواية ، وسأنتهى منها إن شاء الله أوائل الشهر القادم » .
وفوجئت به يقول : « عظيم ..» .
ثم التفت إلى الأخ صلاح مدير المكتبة وقال له : « ادفع يا صلاح للدكتور نجيب خمسين جنيهًا عربونًا للرواية الجديدة ..» .
وقبل أن أعلق ، وجدته يسألنى : « وكتبك القديمة ؟ » .
– « ماذا عنها ؟ » .
– « ألا تريد أن تخرج طبعات جديدة لها ؟ » .
– « لا بأس » .
– « كم عددها ؟ » .
– « بعضها لم يتم توزيع طبعتها السابقة بالكامل ، والبعض يمكن إعادة طبعه » .
– « كم رواية جاهزة ؟ » .
– « اثنان ..» .
التفت إلى صلاح مرة أخرى وقال له : « ادفع للدكتور مائة جنيه أخرى كعربون للروايتين » .
ثم انصرف ، معتذرًا عن الجلوس معنا ، لانشغاله بأعمال ومواعيد هامة ، وعدت إلى زوجتى ومعى مائة وخمسون جنيهًا ، وهى تضارع مرتب أربعة شهور من أجر الحكومة أو أقل قليلًا .. لكأن الله أراد أن يبعث بالناشر فى هذا الوقت بالذات ، حاملًا لى هذا الرزق دون اتفاق مسبق ، والعجيب أن حياتى مليئة بمثل هذه الوقائع ، مما جعلنى أثق فيما عند الله أكثر من ثقتى بما فى يدى ، وأذكر أننى حينما كنت أعمل فى دولة الإمارات العربية المتحدة قبل بلوغى سن التقاعد ، أن حدث وشرعت فى بناء بيت لى فى مدينة طنطا الشهيرة ، ونفدت كل مدخراتى ، وأمسكت بالقلم والورق أجمع وأطرح وأضرب وأقسم ، وانتهيت إلى نتيجة بأنه لابد من التوقف عن العمل فى المشروع لمدة عام حتى أجد المال اللازم ، وحدثنى الصديق الأستاذ محمد مصطفى عميرة الذى يعمل بالقسم الإدارى بالمستشفى عارضًا على أن أقترض من بعض الإخوان ، وأعطيهم شيكات فى أشهر متتالية للسداد ، ولكن الفكرة لم ترق لى ، كان ذلك يوم اثنين ... ومساء الأربعاء التالى اتصل بى من الكويت الأخ الأستاذ محسن طنطاوى ، وأخبرنى أن بالكويت شركة إنتاج تليفزيونى ، وإذاعى ، وتريد شراء بعض روايات لإنتاجها ، وقد فوضوه فى التفاهم والتعاقد معى ، وتكررت الاتصالات التليفونية فى نفس الليلة حول شروطى والمبلغ المطلوب دفعه مقدمًا ، وفى النهاية اتفقنا على أن يأتى محسن بطائرة الجمعة للتعاقد ودفع المقدم ، وأتى فى الموعد المحدد ، وجلسنا فى بيتنا ، وكتبنا العقود ، وتسلمت الدولارات المتفق عليها ، وقد قامت زوجتى أكرمها الله بكتابة العقود على آلة الطباعة ، فقد كانت بارعة فى الضرب عليها ، وبعد أن تناولنا طعام الغذاء بعد صلاة الجمعة ، قال محسن : « تعلم أنى أعمل بالنشر ، ألا تخصنى بكتاب من تأليفك ؟ » .
– « ليس عندى كتب جديدة » .
قال : « أى شىء بركة منك » .
وفكرت قليلًا ، ثم قلت له أن لدى عددًا من القصص القصيرة المنشورة فى الصحف والمجلات ، فهل أقص لك هذه القصص من مصادرها وترتبها أنت ، وتعدها للطبع ؟ » .
رحب محسن بالفكرة ، وفعلًا أحضرت كومة من المجلات والصحف ، وأخذت أبحث حتى

استطعت أن أجمع له كتاب « فارس هوازن وقصص أخرى » وتم التعاقد بينى وبينه ، وتسلمت مقابل حقوق النشر ، وكان محسن سعيدًا بذلك ، وسافر محسن ..

وفى المساء قلت لزوجتى : « يا سبحان الله .. عوّلت على الأرقام والحسابات ، وهكذا قررت وقف مشروع المبانى ، وأراد الله سبحانه أن يلقننى درسًا عن الرزق ، نعم .. أرسل إلىّ رزقًا بالطائرة رأسًا من الكويت إلى هنا فى دبى .. ماذا تقولين فى ذلك ؟ « أقول الحمد لله » .

- « هل تذكرين قصة ذلك الأعرابى الذى سمع قول الله : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

ماذا قال الأعرابى ؟ قال : « من الذى أغضب الحليم حتى أقسم » .

الحقيقة أن الرزق بيد الله وحده ، لكننا كبشر نخاف ونرتعد عندما نواجه مصاعب مالية .. فماذا تقولين الآن عن هذا العون الربانى ؟ » قالت والبشر يعلو وجهها : « أقول الحمد لله .. ولا تنس حقوق العباد فى مال الله الذى أتاك » .

والحقيقة أن قضية « الرزق » وارتباطها بالمشيئة الإلهية أمر حيوى فى حياتى ، وهل أنسى أننى فى أيام السجن السوداء التى لم أكن أجد فيها شيئًا من المدخرات وهبنى الله الجوائز العديدة التى أمنت متطلباتى فى السجن ، بل وفى الفترة التى تلته ، وساهمت فى حل بعض أزمات الأسرة ، وهل أنسى أيام الحرب العالمية العظمى ، وحياتنا القاسية فى الريف حتى عز القوت والملبس والعلاج ؟ إن حياتى مليئة بالعظات والعبر التى تؤكد دائمًا أن الاعتماد على الله وتقواه والعمل الجاد هم المخرج الصحيح من أية أزمة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ صدق الله العظيم ..

❁❁❁

دعانى الأستاذ الكبير عبد الرحمن الشرقاوى لحضور حفل الافتتاح لمسرحيته الجميلة والتى تحمل اسم « جميلة » وهى عن الفتاة الجزائرية « جميلة بوحريد » التى شاركت فى مقاومة الاستعمار الفرنسى ، وحكم عليها بالإعدام ، وتحدثت عنها كل صحافة العالم ، ونقلت تفاصيل محاكمتها ، وإزاء الضغط الذى مارسه الرأى العام العالمى ، تمَّ إنقاذ هذه الفتاة من حبل المشنقة ، وذهبت أنا وزوجتى لمشاهدة المسرحية الجديدة ، حيث احتشد فى الافتتاح عدد كبير من رجالات المسرح والأدب والصحافة ، واستقبلنا الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى بعوده الفارع ، وبنائه المتين ، وابتسامته الحلوة ، ورحب بنا أيما ترحيب ، وقد أدت الممثلة « محسنة توفيق » دور جميلة تمثيلًا مؤثرًا بارعًا » .

والواقع أن الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى كان شخصية بارزة مثيرة للجدل ، فقد كان يساريًا فى شبابه ، وأصدر مجلة شهيرة اسمها مجلة « الغد » ممثلة للفكر الاشتراكى قبل الثورة ، وكتب فيها قصيدة « من أب مصرى إلى الرئيس ترومان » ، وقد شاع أمر هذه القصيدة واشتهرت ، وقبل ذلك كتب عبد الرحمن رواية « الأرض » من جزءين ، وتعتبر لونًا جديدًا فى القصة فى هذه الأيام ، وقد نقدتُ هذه الرواية رغم إعجابى بها فى نقطتين أساسيتين : الأولى الإفراط فى اللهجة العامية فى الحوار ، والثانية تصوير ما نسميه رجل الدين فى القرية تصويرًا مقززًا ، وغير ذلك من الأمور ، وكتب الشرقاوى دراسته المعروفة عن الرسول « محمد رسول الحرية » ، وقد هوجم بسببه هجومًا شديدًا ، واعترض الأزهر على نشره فى كتاب بعد أن تم نشره فى إحدى الصحف ولعلها جريدة « المصرى » الناطقة بلسان

حزب الوفد آنذاك ، والتى توقفت عن الصدور أيام الثورة ، وكان الهجوم على ذلك الكتاب منصبًا على أنه قدم شخصية الرسول ﷺ كبشر أوتى فكرًا وعقلًا عظيمين ، وموهبة فذة ، وقدرة على الجهاد ، والانتصار للفقراء ، وتحقيق العدل ، ولم يرجع الشرقاوى فى ذلك إلى الوحى والتكليف الإلهى ، ثم سمح بنشر الكتاب بعد أن قامت الثورة المصرية بفترة . وفى سنواته الأخيرة كتب الشرقاوى عددًا من المؤلفات الضخمة عن أئمة الفقه الإسلامى منهم الأئمة الأربعة و « على إمام المتقين » و « ابن تيمية » و « ابن حزم » وغيرهم ، وكالعادة أثارت هذه الكتب جدلًا واسعًا ، وخاصة كتابه عن الإمام على رضى الله عنه ، بل وصل الأمر إلى أن قامت ضده مظاهرات فى بعض الدول العربية مثل « قطر » ، ومن الأقوال الشهيرة التى نسبتها الصحافة إلى الشيخ العلامة والكاتب الإسلامى الكبير محمد الغزالى قوله : بأن الشرقاوى يلجأ إلى « مزبلة التاريخ » ليستقى منها الوقائع ، إشارة إلى أن الشرقاوى لا يقوم بفرز الروايات التاريخية ويحللها ويستبعد الموضوع أو الملفق أو الضعيف منها ، وقد تعرض الشرقاوى لحملة ضارية من الإسلاميين فى مختلف أنحاء العالم العربى والإسلامى ، ومع ذلك فقد كان لى رأى يعتمد على استقراء تاريخ الرجل ، وخلاصة أعماله الإسلامية ، الأخيرة بالذات ، وخلاصة هذا الرأى أنه لا يصح الحكم على مفكر من خلال موقف واحد أو موقفين فى حياته ، وأن الشرقاوى رغم ما وقع فيه من أخطاء تاريخية ، كان حسن القصد حينما كتب عن الأئمة ، فقد قدم صورة مشرقة حية نابضة لحياة هؤلاء الأعلام وفكرهم وجهادهم العظيم ، وذلك يرجح السلبيات التى وردت فى هذه الكتب الأخيرة ، ولم يكن الشرقاوى فى تصورى شيوعيًا ، وقد رويت فى غير هذا المكان كيف أنى التقيت به مصادفة فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة فى موسم الحج ، وأظن أن ذلك كان فى عام ١٩٨١ ، وكانت ترافقه السيدة حرمه ، وكان يلبس جلبابًا أبيض ، ونظارة سميكة ، وكان يتحدث حديث المؤمن الصادق ، ولم يكن يشوب تصرفاته وكلماته شائبة من مراءاة أو ادعاء ، ولم أكن قد رأيته منذ اثنى عشر عامًا بسبب عملى بالإمارات منذ عام ١٩٦٨ ، إننى على يقين من أن الرجل كان طيب القلب ، وكان نصيرًا للحرية ، مدافعًا عن حقوق الفقراء والمظلومين ، ويتضح ذلك جليًا فى جميع كتاباته شعرًا ومسرحًا وقصة قصيرة وروايات ونقدًا ، وساهم الشرقاوى فى إثراء الحياة الفكرية فى مصر وخارج مصر ، وعاش فى خضم معارك الأمة قديمًا وحديثًا ، والرجل الذى كتب مسرحية عن جميلة الجزائرية ، كتب أيضًا عن الإمام الحسين مسرحيتين هما : « الحسين ثائرًا » و « الحسين شهيدًا » ، وقد كتبهما من منظوره الفكرى المعروف ، وجدير بالذكر أن الرقابة كان لها موقف معارض من ظهور المسرحيتين على المسرح ، وودع الشرقاوى الحياة ، بعد أن ترك تراثًا كبيرًا لا يمكن تجاهله ، وساهم بقدر فيما نسميه « الأدب الإسلامى » الآن ، وأعنى بذلك بعض مؤلفاته وليس كلها ، وقبل أن يسلم الروح كتب البيت التالى :

أنـــا ذا أمـــوت ولـــم أقـــل   كـــل الـــذى كـــنـــت أريـــد

رحمه الله وغفر لنا وله .

ولقد دعيت أيضًا لمشاهدة العرض الذى تقيمه فرقة الفنون الشعبية التى كونها الأستاذ زكريا الحجاوى منهمكًا فى جمع التراث الشعبى من أشعار وقصص وأساطير وألحان ، وجمع من مختلف أنحاء البلاد عددًا من المطربين الشعبيين ، ورواة السيرة الشعبية والعازفين ، ومن الشخصيات التى لمعت فى فرقه « أبو دراع » و « أبو طه » ، و « خضرة » ، وقد تميزت بصوت مليء رنان ذى نبرات عذبة ، ومن

أهم الملاحم التى أنشدتها ملحمة « أيوب المصرى » وهى قصة أسطورية لا تتفق تمامًا مع ما ورد عن سيدنا « أيوب » عليه السلام فى القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد كانت الأشعار التى تغنيها خضرة تسيل الدموع ، وتحرك المشاعر ، أما « أبو دراع » فقد ذاع صيته فى وسائل الأعلام وحفلات الأفراح ، واستطاع أن يصل إلى « باريس » فى فرنسا ، وغنى فى إحدى صالاتها المشهورة ، كما اشتهر أيضًا « أبو طه » ، وظهر فى كثير من الأفلام السينمائية ، وكتب الأستاذ زكريا الحجاوى من خلال تلك الأقاصيص الشعبية والأساطير عددًا من المسلسلات الإذاعية منها « أيوب » و « سعد اليتيم » . وغيرها .

كان زكريا الحجاوى فنانًا وهب حياته للفن ، بعد أن كان صحفيًا معروفًا ، وكاتب قصة ، وظل منهمكًا فى عمله الذى ملك عليه فؤاده سنوات طويلة ، حتى انتدب للعمل فى قطر فى مجال الفن الشعبى ، وهناك فى قطر لفظ أنفاسه الأخيرة ، وقد ربطتنى به علاقة طويلة لسنوات عدة ، كنت ألحظ فيه الرقة والوداعة والتضحية ، ولم يكن يشغله غير فنه الذى عشقه وتفانى فيه بصورة كنت أؤاخذه عليها ، وكثيرًا ما كان يقترض منا بعد أن ينفق على فرقته كل ما معه ..

وفى تلك الفترة أيضًا فكرت في أن أنتقل من وزارة النقل والمواصلات إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ، ووافق الأستاذ المرحوم يوسف السباعى ، ولكن هيئة السكك الحديدية رفضت ، وكان الحل أن أستقيل من عملى ، ثم أتقدم للعمل بالمجلس ، ولكنى أفقت .. وفكرت .. وتذكرت العهد الذى قطعته على نفسى ، ألا وهو ألا أترك مهنة الطب أبدًا ، وحمدت الله على أن النقل لم يتم .

وفى هذه الفترة أصيب ولدى البكر بحمى طالت مدتها ، ولم يجد معها أى علاج ، واستعنت بزميلى الدكتور عبد الخالص والى أخصائى الأطفال ، ونقلنا الطفل إلى القاهرة ، وأجرينا له الفحوص اللازمة فى المختبر ، وكنا نشك فى إصابته بمرض التيفود ، ولكن الاختبارات جاءت سلبية ، وكانت تجربة مريرة بالنسبة لى ، فكنت أضعه على السرير ، وهو يشكو من آلامًا فى بطنه ، وأبكى من أجله ، وقرر الأطباء أنه مرض بسبب فيروس ، وأنه سوف يستمر فترة ، ويختفى دون علاج ، فليس هناك مضادات حيوية أو أية عقاقير طبية تقضى على الفيروسات ، وكان علينا أن نصبر ، لكن الطفل المريض كان لا يكف عن الشكوى والآلام ، اسمعه يقول « لماذا لا تعلمنى الصلاة يا بابا » وأقول : « أنت صغير وعمرك ثلاث سنوات ، وعندما تشفى بإذن الله ستصلى معى » .

أقول كانت تجربة مرض الطفل تجربة صعبة ، وعلمتنى شيئًا كان يجب أن أتعلمه ؛ إن الأطباء عادة يعاملون المريض « كحالة » وليس « كإنسان » فقد يكون المريض فى حالة سيئة ، ويعانى من آلامًا رهيبة ، فى الوقت الذى ترى فيه الطبيب يفحصه وهو يبتسم ، أو يضحك ، دون أدنى مشاركة عاطفية للمريض التعس ، وكان وضعى مع المرضى فيه شىء من التعاطف ، ولكن لم يكن بالقدر الكافى ، وبعد أن مرض طفلى ، وعانيت الأمرين من الإشفاق والخوف عليه ، وكانت دموعى تنهمر كلما راودنى خاطر بأن طفلى - لا قدر الله - قد يموت ، بعدها تغيرت مشاعرى تمامًا نحو المرضى ، لدرجة أننى كنت أبكى من أجلهم أحيانًا ، ولا أقصر فى تقديم أقصى ما أستطيعه من عون ، ومن وحى هذا الموقف كتبت قصة قصيرة تحت اسم « المعطف الأبيض » أو « النافذة » ، وأشرت فى آخر القصة إلى أن مرض ابنى كان بمثابة النافذة التى أطللت منها لأرى آلام المعذبين والتعساء من المرضى ، وهى موجودة فى مجموعة قصص « حكايات طبيب » .

وحكايات طبيب تضم مجموعة من القصص الفنية القصيرة عما صادفْته من مآسى خلال العمل

بالمهنة فى الأماكن المختلفة ، وقد أشار بعض النقاد إلى أهمية ذلك الكتاب لتفرده فى موضوعه ، وحرصه على « الصورة الفنية » للقصة ، فهو ليس مجرد سيرة ذاتية سردية ، ولكنه عمل فنى متميز ، وقد بدأت فكرة هذا الكتاب حينما كنت أشارك فى برنامج « عيادة على الهواء » فى إذاعة « الشارقة » بدولة الإمارات العربية المتحدة ، وكان فى بداية البرنامج فقرة بعنوان « مذكرات طبيب » كنت أقرأ فيها قصة ذات دلالة وفائدة بصوتى ، وقد قدمت عشرات القصص ، ولكنى عندما أردت جمعها فى كتاب ، اكتشفت أن الإذاعة قد أضاعت أغلبها ، ولم يبق إلا بضع وعشرون قصة جمعتها فى « حكايات طبيب » .

وفى هذه الفترة أيضًا أدخلت الطفلين حسام الدين وأخته عزة مدرسة حضانة بالمدينة السكنية فى أبو زعبل ، وكانت عزة لم تزل صغيرة ، وذات يوم عاد حسام الدين وترك أخته التى تمشى ببطء ، وكانت زوجتى قد ذهبت مبكرًا ذلك اليوم إلى معهد الخدمة الاجتماعية ، وقلقت على الصغيرة ، فأسرعت بالذهاب إلى الخارج للبحث عنها ، ولكنى والحمد لله وجدتها تقترب من البيت ، وعندما حملتها اكتشفت أن قرطها الذهبى ليس فى أذنيها ، قلت : « أين « الحلق » يا عزة ؟ » .

شحب وجهها ونظرت إلى فى خوف وقالت يتلعثم : « الحرامى خده » .

- « أى حرامى ؟ » .

- « كان يركب عجلة .. أخذه .. وأنا خفت أتكلم ..» .

ضحكت وقلت : « ماذا سأقول لماما عندما تعود فى المساء ، ستتهمنى بالتقصير فى المحافظة عليكم » .

قالت الطفلة ببراءة وقد فهمت ما أقصده : « قل لها الحرامى خده ..» .

كانت مثل هذه الحوادث الصغيرة تسبب لى قدرًا كبيرًا من النكد ، فليس من المعقول أن يترصد لص لابنتى الصغيرة ليسرق قرطها الصغير ، وأنا الذى أسعى جاهدًا لراحة أهل المدينة ليلًا ونهارًا ، ولا أتقاعس عن تلبية أى نداء لمريض مهما كنت أشعر بالتعب أو الرغبة الشديدة فى النوم ، وأمضى فى عز البرد وعز الحر لمراجعة المرضى الذين لا تسمح حالتهم بالانتقال ، وأشارك الجميع فى أفراحهم وأحزانهم حتى خيل إلىّ أنه لا يوجد إنسان يفكر فى إيذائى ، وعلقت زوجتى على أفكارى تلك بقولها : « ليس هناك مجتمع مثالى مائة فى المائة .. لسنا ملائكة ، ويجب أن نتقبل مثل هذه الأمور بهدوء وبساطة » .

وكان كلامها مقنعًا جدًا .

من الأمور التى لا أنساها ، وأنا فى المدينة السكنية ، إننى فوجئت برجل لم أكن أتوقعه ، إنه المفتش الطبى فى مدينة طنطا ، رئيسى وأنا أعمل بالوحدة المجمعة فى قرية شرشابة ، والذى سبب لى العديد من المشاكل ، وهاجمنى بعنف أمام محافظ الغربية رحمه الله ، كان العداء بينى وبينه مستحكمًا ، وظل الصراع دائرًا حتى انتقلت إلى القاهرة وتركت القرية .. ها هو يأتى أخيرًا لزيارتى مبتسمًا ، واستقبلته بكل ترحاب ، وكأن ليس بينى وبينه عداء قديم مرهق ، وأبدى اعتذاره بشجاعة عما بدر منه نحوى ، بدعوى أنه لم يكن يعرفنى حق المعرفة ، وظن فى يوم من الأيام أنى « مشاغب » ويحلو لى إثارة المشاكل ، وأخبرنى أنه لم يقرأ كتبى إلا مؤخرًا ، ولم يتبين حقيقة مواقفى إلا بعد أن رحلت إلى القاهرة ، وأثنى على إخلاصى وعلى المبادئ السامية والإنسانية التى أتمثلها فى سلوكى ، وعزا سبب الجفوة التى نشأت بينى وبينه بسبب وشايات زميلى فى العمل ، وتقبلت اعتذاره قائلًا ببساطة « عفا الله عما

سلف » ، وتناولنا طعام الغذاء معًا ، وكان ثالثنا الأخ فؤاد سلطان الذى يعمل رئيسًا لقسم المالية بالمنطقة الطبية بطنطا ، وكان صديقًا قديمًا لى ، وهو الذى صحب المفتش فى زيارته هذه ، وقام بالدور الرئيسى فى تصفية ما شاب علاقاتنا القديمة ، بعد أن ذهب كل منا إلى حال سبيله ، وكنت أسعد جدًا بأن يعرف خصومى حقيقة الخلاف الذى يدب بينى وبينهم ، ويدركوا أننى لم أكن مخطئًا فى حقهم ، أو متجنيًا عليهم ، وأشعر بطعم السعادة كلما حدث شيء من هذا القبيل ، وقبل أن يودعنى هذا المفتش عائدًا إلى طنطا ، قدمت إليه أحدث كتبى محبة وشكرًا ..

وممن دأبوا على زيارتى فى هذه الفترة الأخ الشاعر المعروف الأستاذ عبد المنعم عواد يوسف ، فقد كان من الشعراء المجيدين المجدين ، كما كان يكتب النقد أحيانًا ، وكان مقره هو مدينة شبيه القناطر التى تبعد عنا مسافة قصيرة ، لكنه كان يعمل مدرسًا بالقاهرة ويسافر يوميًا إليها بقطار « كوبرى الليمون » ، ولقد كنت أعجب بشعر عبد المنعم عواد يوسف الذى حظى بتقدير النقاد ، وقد نال عبد المنعم عددًا من جوائز الشعر ، وألقى عددًا من قصائده فى مهرجانات الشعر ببعض الدول العربية ، وأصدر ديوانه الأول « عناق الشمس » فى وقت مبكر ، وكتب فى كبريات الصحف والمجلات العربية ، وعلى الرغم من تجديده فى الشعر إلا أنه لم يغرق فى الألغاز والغموض والرموز ، بل ظل شعره رقراقًا جميلًا مفهومًا معبرًا تمامًا عن المعانى التى يقصدها ، كما اختص الأطفال بديوان شعر رقيق بعد سنوات ، وشاء الله أن يذهب عبد المنعم وحرمه للعمل كمدرسين بدولة الإمارات بعد ذهابى إلى هناك فى عام ١٩٦٨ بحوالى أربعة أشهر ، حيث امتدت صداقتنا وعلاقتنا الأبدية حوالى ربع قرن فى تلك البلاد الطيبة ، وكان عبد المنعم مستغرقًا فى شعره ، يفكر فيه ، ويحاول أن يبحث دائمًا عن صيغ جديدة ، ويرتاد الأندية والجمعيات الأدبية فى أنحاء القاهرة ، ويلقى قصائده فيها ، ويوثق علاقاته بمعظم الشعراء حتى إنهم أصبحوا جميعًا أصدقاءه جيلًا بعد جيل ، وكان مهتمًا بذلك أيما اهتمام ، ويعرف الكثير عن حياة أصدقائه الشعراء وحوادثهم وطرائفهم ومواقعهم فى الساحة الشعرية ، والواقع أنه كان ضليعًا فى اللغة العربية وآدابها وقواعدها ، ملمًا بالتراث الشعرى العربى القديم ، ناجحًا تمامًا فى تدريس اللغة بأسلوب سهل ميسور ، ومن الغريب أنه ظل مدرسًا طول حياته ، ولم يرق إلى مفتش أو موجّه ، وكان تلامذته الذين يدينون له بالفضل ، يأتون ليتفشوا عليه فى « دبى » فيخجلون من أن يفتشوا على أستاذهم ، فيحيونه ، ويمجدون تاريخه الأدبى العاطر وينصرفون شاكرين ..

وكان عبد المنعم حلو الحديث ، سريع البديهة ، يحب الفكاهة أو النكتة ، إذ إن طفلى الصغير أمسك بعملة معدنية من فئة القرش ، مرسومًا عليها صورة الملك فاروق » سأله طفلى حسام الدين : « من هذا يا عمو ؟ » .

- « هذه صورة الملك فاروق » .

وطفلى بالطبع لم يكن يعرف الملك فاروق فقد ولد بعد خلعه بتسع سنوات ، ولذا سأله . « ومن هو الملك فاروق يا عمو ؟ » .

فكر عبد المنعم قليلًا ، ولم يرد أن يفيض فى الشرح لطفل صغير لن يتفهم الأمر بسهولة ، ولهذا قال عبد المنعم بأسلوب المدرس المتمكن : « إنه جمال عبد الناصر « بتاع » زمان » .

وضحكنا ، ولم يخف علينا ما توحى به النكتة من دلالة ، ومع ذلك فقد كان عبد المنعم من المعجبين بجمال عبد الناصر ، المؤيدين لسياسته ، وكتب فى الثورة شعرًا كثيرًا ، لكن هذا لم يؤثر على العلاقة بيننا ، فقد كان لكلٍ آراؤه وأفكاره ومعتقداته السياسية ، وبقينا طوال حياتنا وحتى اليوم أصدقاء

أوفياء، وقد خفت حدة إعجابه بجمال عبد الناصر، بعد أن مات، وتكشف الكثير عن أخطائه السياسية، وانتهاكه لحقوق الإنسان، ذلك لأن عبد المنعم عواد ظل دائمًا متمسكًا بدينه، يؤدى صلواته، ويحج بيت الله الحرام، ويتغنى بقيم الإسلام الرفيعة الغالية، ويبثها فى الكثير من شعره.

ولقد كنت فى تلك الفترة وثيق الصلة بالأخ الأستاذ حسين عاشور وأسرته، وخاصة والده الفاضل الشيخ أحمد عيسى عاشور العضو البارز فى الجمعية الشرعية بالقاهرة، وصاحب كتاب «الفقه الميسر»، وصاحب مجلة «الاعتصام» التى تصدرها الجمعية، وكان حسين زميلًا لى فى سجن أسيوط، ثم طابعًا وناشرًا للكتب، وكان خفيف الظل، حلو المعشر، حلو الحديث، لا يمل الجلوس معه، كما كان طموحًا، ويحلم بأن تكون له دار نشر كبيرة، وأن يصدر مجلة إسلامية، وقد تحقق له ما أراد بمرور السنين، فأصدر مجلة «المختار الإسلامى»، وكذلك «مطابع المختار الإسلامى»، ومجلة نسائية اسمها «هاجر» ومجلة للأطفال اسمها «زمزم»، ونشر عددًا من الكتب لبعض أعلام الفكر الإسلامى، كما نشر لى رواية «رحلة إلى الله» التى ذاع صيتها، ورواية «رمضان حبيبى» عن حرب ١٩٧٣، التى قررت - بعد تبسيطها - على طلبة المدارس فى مصر، وغيرها من الكتب الأخرى، وكنت أكتب فى مجلة «الاعتصام» التى يديرها والده قصصًا إسلامية قصيرة، كانت محل رضى العاملين فى الجمعية الشرعية والقراء، وقد جمعتها فى كتاب «دموع الأمير»، وقد اشتركت مع الأخ حسين عاشور فى نشر روايتى «عمر يظهر فى القدس» فى طبعتها الأولى، بعد أن أجفل الناشرون من نشرها فى البداية، ثم رحبوا بها بعد أن صدرت أول مرة..

الحديث عن حسين عاشور ووالده الشيخ أحمد، وأخوته الأساتذة حسن والدكتور محمد، وطه ومصطفى وعبد اللطيف حديث يطول، ويكفى أن أقول أنها أسرة مباركة خدمت الإسلام فى مجال الإعلام بصورة تدعو إلى الاعتزاز والفخر، والفضل لله..

❁❁❁

[١٦] كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا



كنت على يقين أن أيام الشقاء قد ذهبت إلى غير رجعة ، وكانت لدى الأسباب القوية لهذا اليقين ، مما جعلنى لا أخشى المستقبل ، وأنطلق إلى الأمام بخطى واسعة ثابتة ، لا تعثر فيها ولا تردد ، والحمد لله فإن عملى الطبى يشهد لى بالكفاءة والإخلاص والالتزام المهنى والأخلاقى ، والعمل السياسى الرسمى لا وجود له ، فالحكومة قد فرضت علينا العزل السياسى ، والحظر الشديد قائم لا يسمح بأى نشاط للإخوان المسلمين ، وكتاباتى الأدبية تتوالى يومًا بعد يوم ، والكتب التى أنشرها تلاقى النجاح ، وقيام وزارة التربية والتعليم بتدريس بعض هذه الكتب للطلبة دليل على خلوها من كل ما يهدد النظام بطريق مباشر ، وصوتى يعلو فى المحافل الأدبية دون أن يؤخذ علىّ أى مأخذ سياسى ، وحتى الكتب التى صودرت سواء « الطريق إلى اتحاد إسلامى » (فى مصر) أو مسرحية « على أسوار دمشق » التى منع تداولها فى سوريا » ، وبعض الكتب لأخرى ، لم يثبت أنها خرجت عن دستور الدولة وقوانينها ، ولم يكن يصدر أى كتاب إلا بعد سماح الرقابة به ، ولو كان فيها شبهة لما صدرت أصلًا ، حتى المنشور الذى هاجم عبد الناصر تحت عنوان « فرعون الصغير » ثبت بالدليل القاطع أننى ليس لى أدنى صلة به ، والتقارير التى يكتبها رجال الأمن الذين يرصدون تحركاتى فى أى مكان أذهب إليه ، لم تستطيع أن تسجل نقطة خروج على النظام ضدى ، فلماذا لا أطمئن ، وأمضى فى طريقى آمنًا ، واثقًا تمام الثقة أننى لن أمس بأذى .

ولهذا عندما التقيت بالأخ الصديق الأستاذ « عبد الله العقيل » بالقاهرة ، وكان يعمل مديرًا للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية ، وعرض علىّ التعاقد مع وزارة الصحة بالكويت للعمل بها ، اعتذرت له شاكرًا ، وأخبرته أن نجاحى الأدبى قد تحقق لحد ما بالقاهرة ، وأن تركى لها سوف يفقدنى الكثير ، وربما نسينى الناس إذا اغتربت عنهم سنوات ، فضلًا عن أن وضعى السياسى لا يبعث على الخوف ، ولو كان لدى ذرة شك فيما أقول لوافقت فورًا على عرض أخى عبد الله العقيل ، وفررت بجلدى ، ولا أدخل تجربة السجن المريرة مرة أخرى ، واتضح فيما بعد أننى نسيت أمرًا هامًا ، ولعلنى لم أستطع أن أتوقعه فى يوم من الأيام ، فهناك أمور كثيرة فى الحياة لا يستطيع الإنسان توقعها إلا بعد التجربة والخبرة ومنازلة الأحداث ، أقول إننى نسيت أمرًا هامًا كان يجب أن أذكره ألا وهو أن النظام الدكتاتورى أو الشمولى يفتقد المنطق السليم ، ويدوس العدالة وحقوق الإنسان إذا شعر بأن وضعه مهدد ، وفى هذه الحالة يتخبط ، ويضرب ضربات عشوائية ، ولا يحترم ضميرًا ، أو يرعى حرمة شيء ، وفى ذلك الوضع لا يفرق بين حق وباطل ، وشر وخير ، وأمانة وخيانة ، ويصبح كل شيء عنده مباحًا ، ولا يفكر فى حلال أو حرام .

وبعض من اختصهم الله بالرؤية الواضحة يمكنهم أن يستشعروا ذلك عن بعد ، لكن حسن النية من

الناس قد تغيب عنهم هذه الرؤية ، وفى لحظة من اللحظات يجدون أنفسهم وقد سقطوا فريسة الطغيان ، وأحيط بهم من كل جانب ، ويحاولون الإفلات دون جدوى ، فتلهبهم سياط الندم والحسرة ، حتى يسقطوا إعياءً ويعتصمون بالصبر ، صبر العاجزين المقهورين الذى ليس لهم أحد ينجدهم إلا الله ..

اكفهر الجو فجأة ، وتلبدت السماء بالغيوم ، وتناقل الناس همسًا بعض الأخبار المزعجة التى تعنى أن كارثة ما قد تحل فى أى وقت من الأوقات ، وذهلت عندما علمت أن بعض الأصدقاء قد اعتقلوا وعلى رأسهم الأستاذ سيد قطب الذى لم يفرج عنه إلا منذ شهور ، ومع ذلك فقد كنت واثقًا . حتى تلك اللحظة . أننى فى أمان ، ولم أقترف « وزرًا سياسيًا » يبعث فى نفسى القلق ، هذا من الناحية العقلية والمنطقية ، لكنى كنت أشعر بقلق داخلى ، وأن قلبى غير مطمئن لما يجرى ، وأن الهواجس تطاردنى فى يقظتى ومنامى ، حتى بعد أن ذهبت إلى « يحيى بك » فى مكتبه بمقر الأمن ، وناقشته فى الأمر ، فأكد لى أن ما يجرى يتعلق ببعض الأفراد الذين أخطأوا فى حق الحكومة ، وأننى وأمثالى لا شأن لنا بهذه الأمور ، وأننى يجب أن أكون مطمئنًا تمامًا ، ولم يكشف لى عن شىء مما يجرى .

حسنًا نحن الآن فى شهر أغسطس عام ١٩٦٥ والحرارة شديدة الوطأة ، وموعد إجازتى السنوية قد أزف ، وعرض على الأخ « أسعد سيد أحمد » الذى كان يعمل فى مكتبة دار العروبة « دار التراث حاليًا » أن أذهب معه إلى مصيف « بلطيم » الذى يتميز بالحشمة والهدوء والجو النقى ، ووافقت على الفور ، وكأنى أفر من همومى الغامضة ، وذهبنا بأسرتينا ، واستأجرنا عشتين قرب الشاطئ .،أخذنا نجلس والأطفال يلعبون فى الماء ، والنسوة يقمن بإعداد الطعام ، ويجلسن فى مكان قريب خاص بهن ، وكان طبيعيًا أن نتناول الأمور الجارية ، ونحاول دراساتها وتحليلها ، ونقرأ الصحف بدقة ، لكن الذى أزعجنا فعلًا ، وبث الخوف فى قلوبنا تسرب أخبار عن اعتقال بعض المصطافين فى بلطيم ، لكننا عزونا ذلك إلى أنهم قد يكونون متورطين فى تنظيم من التنظيمات السرية والله أعلم ، وإلا لماذا يقومون باعتقالهم تحت جنح الظلام ؟

وفى الأيام العشرة الأخيرة من شهر أغسطس نشرت الصحف نعى الزعيم الكبير مصطفى النحاس باشا خليفة سعد زغلول فى رئاسة حزب الوفد الذى حلته الحكومة منذ سنوات ، وكان الرجل يعيش فى بيته بحيّ « جاردن سيتى » بالقاهرة طوال هذه الفترة معزولًا عن الناس ، وإقامته محددة ، ولا يذكر اسمه فى الصحف وكل وسائل الإعلام ، على الرغم من جهوده الوطنية الرائعة ، وتاريخه العاطر ، وانتخابه زعيمًا للأمة بأغلبية ساحقة قبل قيام الثورة ، وفوجئ الناس بأن الحكومة قد أصدرت بيانًا تنعيه فيه ، وتشيد بأعماله الوطنية المجيدة ، لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ تحولت جنازة الزعيم إلى مظاهرة صاخبة تهتف :

- الوداع يا نحّاس .
- جعنا بعدك يا نحاس .
- لا حرية بعدك يا نحاس .. الخ هذه الهتافات .

وعلى الفور تم اعتقال عدد كبير من أعضاء حزب الوفد القدامى ، وسيقوا إلى السجن ، وأخذ الناس يتحدثون عن تلك الجنازة التاريخية وما حدث فيها ، دون أن تشير الصحف إلى شىء من التفاصيل .

وسافر جمال عبد الناصر إلى موسكو لمقابلة زعماء الكرملين ، وأخذنا نتابع الأخبار فى الصحف

والإذاعة ، ونحن على شاطئ « بلطيم » ، وفى أحد الأيام قرأنا خطابًا للرئيس ألقاه فى النادى الثقافى العربى للمبعوثين فى العاصمة السوفيتية ، وهاجم فيه التيار الإسلامى في مصر هجومًا عنيفًا جدًا ، وأخذ يرمى الرجعية بكل نقيصة وخيانة ، وأنهم أعداء الشعب ، ولا حرية لأعداء الشعب ، وأنهم يتآمرون .. وأنهم .. وأنهم ، وشعرنا بالإحباط الشديد ، ونحن نقرأ ذلك الخطاب فى الصحف المصرية .

وكان أخى أسعد سيد أحمد من الكوادر النشطة فى صفوف الإخوان منذ سنوات طويلة ، ومعروف لدى الجميع ، مقرب من القيادة ، وكان يتولى مسئوليات ضخمة ، ومع ذلك فقد خرج من المعتقل بعد عامين من اعتقاله فى عام ١٩٥٤ ، بعد أن صمد فى التحقيقات وكان ذكيًا وذا حجة ، فأفلت منهم ، وعاد لعمله فى صناعة الكتب ، لكنهم كانوا يعودون لاعتقاله فترات قصيرة ؛ شهرين أو ثلاثة مثلًا ، إذا حامت حوله شبهة ، ثم يطلقون سراحه مرة أخرى ، ومن أبرع عمليات أسعد سيد أحمد ، أنه انتسب لحزب مصر الفتاة الذى يتزعمه آنذاك « أحمد حسين » ، بعد المؤامرة التى دبرها شباب ذلك الحزب لاغتيال الشهيد حسن البنا وفشلت ، ورأى الإخوان أن يكون لهم « عين » بهذا الحزب ، ووقع الاختيار على أسعد ، الذى أخذ يتدرج فى كوادر حزب مصر الفتاة ، حتى أصبح السكرتير الخاص للزعيم أحمد حسين ، ولم يُكتشف أمره إلا بعد أن سقطت قائمة بأسماء عدد من الإخوان فيما عرف بقضية « الأوكار » و « سيارة الجيب » والاعتداء على « حامد جودة » رئيس مجلس النواب فى حكومة السعديين والأحرار الدستوريين التى كان يرأسها « محمود فهمي النقراشى باشا » ومن بعده « إبراهيم عبد الهادى باشا » ، ودهش أحمد حسين زعيم مصر الفتاة عندما أبلغوه أن سكرتيره الخاص عضو نشط بجماعة الإخوان ، ومن جهازهم الخاص ، وأخذ يضرب كفًا بكف ، ومع ذلك فقد ظل أحمد حسين محافظًا على صداقة أسعد ، محبًا له حتى وافاه الأجل المحتوم ، وكان أسعد مخلصًا له طوال العمر ، يشرف بنفسه على طباعة مؤلفاته ، ويلبى له جميع احتياجاته .

قلت لأسعد ونحن فى بلطيم بعد قراءة خطاب جمال عبد لناصر فى موسكو : « ما رأيك فى هذا الكلام ؟ » .

قال ببساطة يُحسد عليها وهو يضحك : « أشم فيه رائحة الغدر » .

– « ما معنى ذلك ؟ » .

– « ضربة جديدة عنيفة يوجهها للإخوان » .

– « أى إخوان ؟ لقد اعتقل من شك فيهم ..» .

قهقه وقال : « لا .. الإخوان جميعًا .. قديمًا وحديثًا » .

– « حتى نحن دون أن نفعل شيئًا » .

– « يكفى أنك « كنت » من الإخوان .. هذه « تهمة » لا تُمحى أبد الدهر » .

قلت فى غضب : « أنت متشائم جدًا ..» .

– « ذلك لأنى أعرفهم ..» .

سألته : « بأى حق يعتقلون مثلًا واحدًا مثلى ؟ » .

عاد يضحك ويقول : « عن أى حق تتحدث ؟ » .

أصابنى غم شديد ، ولم أعد أشعر بجمال المصيف ، ولا نسيم البحر ، ولا فرحة الأطفال ، ولم يعد لدى شهية للطعام ولكن بصيصًا من الأمل كان يراودنى ، ذلك لأنه لا يوجد أدنى سبب لاعتقالى هذه المرة . « إيه يا أسعد .. هل الحكاية فوضى ؟ » .

- « فماذا تظنها إذن ؟ » .

ذهب كل منا إلى « عشته » التي يسكنها ، وعولت أن آوى إلى فراشي في وقت مبكر من الليل ، وخاصة أن الأطفال الثلاثة حسام الدين وعزة وجلال الدين قد أكلوا وناموا من شدة التعب في اللعب طوال النهار ، ولاحظت زوجتي أنني متكدر ، ولما سألتني عن سبب ذلك أبحت لها بمكنون صدري ، فانقبضت وبدا عليها الضيق والخوف ، وقالت : « وأين أذهب بهؤلاء الأطفال الثلاثة إذا حدث لا قدر الله و ...» .

قاطعتها قائلًا : « فلنسلم أمرنا لله ، وأنا لا أتصور أن يعتقلوني هذه المرة دون سبب » .

- « ربنا كبير .. » .

وعلى الرغم مما أعانيه من قلق ، فقد وضعت رأسي على الوسادة ، ورحت في سبات عميق ، وبعد الفجر بقليل أيقظتني زوجتي بهدوء وهي ترجف ، وكان طبيعيًا أن نصلي الصبح قبل شروق الشمس ، ووجدتها تقف صامتة مكفهرة ، والدموع في عينيها ، هتفت وأنا أفرك عينيّ : « ماذا حدث ؟ » .

- « لا تنزعج .. لقد جاء رجال الأمن ، واعتقلوا الأستاذ أسعد ، وأخذوه من « عشته » إلى القاهرة منذ ساعة » .

- « ألم يسألوا عني ؟ » .

- « لا .. لقد كانت زوجة أسعد هنا منذ دقائق ، وطلبت مني أن أخبرك بالأمر على الفور ، لكي تتصرف مخافة أن يأتوا إليك أنت الآخر ..» .

- « وهي ، ماذا فعلتْ ؟ » .

- « سترحل فورًا إلى القاهرة هي وابنة أختها ..» .

قلت وأنا ذاهب للوضوء : « يجب أن نعد العدة نحن أيضًا للرحيل إلى القاهرة غدًا إن شاء الله مخافة أن يأتوا ويعتقلوني هنا ، فتعانين من المتاعب مع الأطفال أثناء السفر ، وخير لنا أن يعتقلوني في بيتي بالمدينة السكنية ..» .

ومضى ذلك اليوم كئيبًا حزينًا مر المذاق ، وجلست على الشاطئ شاردًا أتوقع كل لحظة أن يهبط رجال الأمن فيقيدون يديّ ، ويقتادوني إلى المصير المجهول كما فعلوا منذ عشر سنوات في عام ١٩٥٥ ، وتدور الطاحونة من جديد ، ونقاسي ألوان القهر والعذاب ، وكأننا . كما يقول أبي دائمًا . يا بدر لا رحنا ولا جينا .. أي أنه لم يتغير شيء في الحياة ، فالبؤس على حاله ، والمرارة التي في حلوقنا وأرواحنا لم تتغير ..

كنا على عجلة من أمرنا ، ذهبنا في الساعة السابعة صباحًا إلى موقف السيارات المتجهة إلى القاهرة ، والأطفال ما زالوا يغالبون النعاس ، وزوجتي في حالة ارتباك وخوف شديدين ، وأنا أمضي كالمسحور ، أتوقع في كل خطوة مفاجأة غير سارة ، وانطلقت الحافلة ، ولم أكن أشعر بمعنى للحياة ، ما أبعد الفارق بين يوم المجيء ويوم العودة ، وبعد أن وصلنا إلى القاهرة ، استأجرت سيارة لتنقلنا إلى « حي السيدة عائشة » حيث يقيم صهري ، وبعد أن دققت الجرس ، فتحت لي والدة زوجتي ، وما إن رأتنا داخلين حتى أجهشت بالبكاء المر ، وذهلت إذ رأيتها على هذه الحالة المحزنة ، ولما سألتها عن سر بكائها قالت : « إنهم يقبضون على الناس كل ساعة ، خفت أن تكون ممن يأخذونهم إلى المعتقل ،

وارتسمت على ثغرى ابتسامة مصطنعة مرتعشة ، وقلت وأنا أحاول أن أتماسك »
- « هذا لن يحدث لأننى لم ارتكب مخالفة » .
جففت دموعها وهى تردد مرارًا : « الحمد لله ...» .
إلا أننى فى الواقع تشاءمت . وازدادت همومى ، وركبنى قلق متزايد لا يعلم إلا الله مداه ، ثم رأيت صهرى خارجًا من الحمام ، وقد ساد الشحوب وجهه ويقول : « جئت فى وقتك .. الحمد لله .. استرها يا رب .. البلد على فوهة بركان ، ولا ملجأ من الله إلا إليه » .
آلمنى أن أرى تلك الصورة القاتمة ، التى تشابه تمامًا الصورة القابعة فى داخلى ، ووجدتنى أصافح صهرى ، ثم أخذت أشرح كيف أن الذين قُبض عليهم متهمون فى قضية خطيرة كما تقول الأنباء ، وأن وضعى ووضع غيري من قدامى الإخوان المسلمين يختلف عن ذلك تمامًا ، فلسنا موضع اتهام أو شك ، وبالتالى فلم يعد هناك مبرر للخوف من الاعتقال ، وإلا أصبح الأمر مهزلة ، تمتم فى أسى : « مهزلة ! ! ! نحن نعيش فى مهزلة كبرى » .
فى المساء اتجهنا إلى بيتنا فى المدينة السكنية ، لاحظت أن صهرى يودعنى بحرارة ويعانقنى ويحتضنى بقوة ، هذا الرجل يشعر بشىء لا أعرفه ، إنه شفاف القلب ، مستنير البصيرة ، إذا رأى فى منامه رؤيا تحققت حسب تأويله لها ، وكثيرًا ما كان يفسر الرؤيا من القرآن الكريم ، وتساءلت بينى وبين نفسى هل يتوقع هذا الرجل شيئًا لم يرد الإفصاح عنه ؟
بعد أن استقر بنا المقام فى بيتنا بالمدينة السكنية ، فكرت لماذا لا أذهب إلى يحيى بك كامل أمين رئيس مباحث المنطقة ، واستفسر منه عن الوضع حتى يطمئن بالى ، وفعلًا ارتديت ملابسى وذهبت إليه فى مكتبه ، قابلنى مبتسمًا ، وعلى وجهه تبدو علامات الانشغال الشديد ، وطلب لى فنجانًا من الشاي ، كان يجلس خلف المكتب ، واضعًا قبضة يمناه تحت ذقنه ، مسددًا نظراته نحوى ، وقال ضاحكًا :
- « جئت تسأل » .
- « وعندك الإجابة » .
- « حتى الآن لا خوف من شىء » .
- « لكن الاعتقالات على قدم وساق » .
- « هذا بالنسبة لفئة بعينها دأبت على العناد والتآمر ..» .
قلت له : « إننى أعيش كجار لك فى المسكن والعمل ، وتعلم عنى كل شىء » .
- « هذا صحيح ! ! » .
- « هل التقارير عنى مطْمئنة ؟ » .
- « أنا لا أكتب إلا الحقيقة ، ولا أظلم أحدًا ، وأعلم أن الله سيحاسبنى على كل شىء ، وأنا . رغم كونى من رجال الأمن . أخاف الله رب العالمين » .
شعرت بشىء من الارتياح ، وشربت الشاى . وأثناء جلوسى معه حاولت أن أفهم شيئًا محددًا واضحًا عن أبعاد المؤامرة التى يتحدث عنها الناس فى كل مكان ، ولكن الرجل كعادته لم يبح لى بشىء ذى قيمة ، ولم يشر إلى المعتقلات التى يساق إليها الناس سوقًا ، ولا ألوان التعذيب الرهيب الذى يتناقل الناس أخباره همسًا ، وخاصة أن البعض إذا مر بجوار « سجن القلعة » الذى تجرى فيه بعض التحقيقات ، سمع أصوات استغاثة وصراخ مرير ، وهذا السجن تحت إشراف المباحث العامة ، أما

السجن الحربى فقد أصبح تحت إشراف جهة أخرى وهى المخابرات العامة ، وتحت إدارة « شمس بدران » الذى يعرفه جميع الناس فى مصر ، والذى أصبح وزيرًا للحربية فى هزيمة ١٩٦٧ ، ثم لجأ إلى الخارج ليعيش فى لندن بعد موت جمال عبد الناصر ، وانتحار المشير عبد الحكيم عامر قبل ذلك .

قلت ليحيى بك وأنا فى مكتبه : « إذا مر يوم الرابع من سبتمبر (عام ١٩٦٥) بسلام ، فإنى استطيع أن أطمأن » .

- « ولماذا هذا التاريخ بالذات ؟ » .

- « مجرد إحساس ..» .

نظر إلى فى دهاء وقال : « بل نتيجة حسابات دقيقة .. أنا أعرف كيف تفكر » .

ودق جرس التليفون ، فانشغل عنى ثم نسى الموضوع بعدها .

الإنسان فى مثل هذه الأمور كالغريق الذى يتعلق بقشة ، ولهذا وجدت فى كلمات الضابط قدرًا من بعث الأمل فى النفس ، دون أن تزايلنى رواسب الشك المزمن الذى يجثم على القلوب فى هذه الأيام السوداء ، وعدت أحمل البشرى لزوجتى المسكينة التى هزتها الأنباء المزعجة ، وخاصة من الإذاعات الأجنبية .

فى اليوم التالى ذهبت إلى الإدارة لتسلم راتبى الشهرى ، ثم عدت إلى البيت لأن إجازتى السنوية لم تكن قد انتهت ، وعندما جلست على المقعد قلت لزوجتى بالحرف الواحد : « خذى أربعة وأربعين جنيهًا .. حافظى عليها محافظة شديدة .. من يدرى قد يمر عليك ثلاثة أو أربعة أشهر دون أن تحصلى على الراتب » .

قالت فى خوف : « ما معنى ذلك ؟ » .

- « يعنى .. لا قدر الله ، إذا اعتقلونى فسوف يوقف الراتب .. ولن يبدءوا مرة أخرى فى صرفه بتوكيل منى إلا بعد بضعة أشهر ..» .

صاحت فى أسى : « أنت تلعب بى ، لم أعد أحتمل ، مرة تقول إنهم لن يعتقلوك ، ومرة أخرى تزعم أنهم قد يعتقلونك ، ألا ترحمنى من هذا العذاب ..» .

- « إنها إرادة الله ..» .

اتصل بى سكرتير نادى القصة فى القاهرة ، وأخبرنى أنه وقع علىّ الاختيار لكى أكون عضو « لجنة التحكيم » فى مسابقة الرواية التى يجريها النادى كل عام ، وطلب منى الحضور فورًا لاستلام مواد المسابقة ، وكان على أن انتهى بسرعة من قراءة الروايات الخمس التى أنيط بى قراءتها وتقيميها مخافة أن تسبقنى الأحداث ، كما أننى كنت أعد مقدمة جديدة للطبعة الثانية من كتاب « إقبال الشاعر الثائر » فأتممتها على الفور تحسبًا أيضًا لما قد تأتى به الأيام ، كما أنى أعددت أربع نسخ من كتاب « النداء الخالد » وقدمتها لوزارة التربية تمهيدًا لتقريرها على إحدى سنوات المرحلة الثانوية ، وكلفت زوجتى . فى حالة اعتقالى لا قدر الله . أن ترسل كتاب إقبال ومعه المقدمة الجديدة للناشر ، وأن تحمل روايات مسابقة نادى القصة إلى السكرتير بعد أن كتبت التقارير اللازمة لها ، وماذا أفعل غير ذلك « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » ، وهل يجدى الخوف والحسرات والآهات والدموع ؟

التحقت بعملى فى الأول من سبتمبر ١٩٦٥ ، ومارست العمل بالعيادة والمستشفى كالمعتاد ، وألفت الوضع الراهن ، وتأقلمت عليه ، وعلمت أنهم اعتقلوا صديقى الأستاذ محمود صقر ، وهو مدرس من خريجى كلية اللغة العربية ، ومن قرية « منية البندرة » بجوار « القرشية » مركز السنطة ،

ومحمود هذا هو الذى قام بنسخ كتابى « الطريق إلى اتحاد إسلامي) بخطه الجميل ، وكان مهتمًا جدًا بالكتاب ، ويتمعنه وهو يكتب بإعجاب بالغ ، ولم أكن أعلم أن محمود صقر منضم إلى التنظيم الجديد للإخوان المسلمين ، وكذلك كان شقيقه الأستاذ لطفى صقر من أعز الأصدقاء ، وسمعت إشاعة تقول بأن السلطات قد أخطرت أهل محمود بأنه مات فى السجن ، وقد تحققت هذه الإشاعة ، وتركت فى نفسى أثرًا عميقًا ، وأسالت دموعى .. ولم أنس محمود طوال السنوات القادمة ، وحينما كتبت روايتى « رحلة إلى الله » فى عام ١٩٧٤ بعد ذلك ، كانت مأساة محمود هى الحدث البارز فى هذه الرواية التى هزت مشاعر القراء فى كل مكان ، وإن كنت قد حوّرت فى تاريخ الواقعة فجعلتها فى عام ١٩٥٤ بدلًا من عام ١٩٦٥.

ذهبت إلى صلاة الجمعة فى مسجد « الكخيا » الشهير ، وبينما أنا أتجه إلى المسجد وجدت زوجة أخى أسعد سيد أحمد تمر بالقرب منى ، سألتها : « ما مصير أسعد ؟ » .

قالت متعجلة : « لا نعرف عنه أى شىء » .

– « والأخبار ؟ » .

– « مؤسفة ، إنهم يعتقلون الناس جميعًا » .

وانصرفت مسرعة ، وكأنها تخاف من أن يكون هناك من يراقبها أو يتبعها ، ودخلت المسجد ، وقلبى يضرع بالدموع ، ما أكثر الهموم والأثقال التى رانت على هذا القلب المُعانى طوال السنين ، فى الطفولة والشباب على حد سواء ، وشعرت وأنا أجول فى شوارع القاهرة كأنى عابر سبيل يطوف بنظراته على المعالم ، ويتعمق صورها ، وكأنه يراها لآخر مرة ، آه .. الرحلة لم تنته بعد ، وآه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ، والناس يسيرون لا يعبأون بأحد ، كل منطوٍ على ذاته ، يعيش فى عالمه الخاص ، وكأنه يقول مالى والآخرين ؟! أنا وبعدى الطوفان .. وتردد فى رأسى آيات من القرآن الكريم من هنا وهناك ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ ، روحى تتشرب الكلمات القدسية ، وقلبى الواجف تهدأ ضرباته .. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ .. نعم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ ..

كنت جالسًا أنا وزوجتى وأطفالى نتناول طعام الفطور فى صبيحة اليوم السادس من شهر سبتمبر (١٩٦٥) ، وكنت أتحدث مع زوجتى كعادتنا فى هذه الأيام عن الاعتقالات والثورة وجمال عبد الناصر ، والتقطت ابنتى عزة اسم « جمال » الذى كانت تسمع عنه الأغانى فى التليفزيون صباح مساء ، ووجدنا الطفلة تقف وتهز رأسها وجسدها الصغير وتغنى أغنية شائعة فى ذلك الوقت تقول :

وجـمـال وإخـوانـه ألـف سـلام
يـسـلـم لاوطـانـه ألـف سـلام

وضحكنا ، وأجلسناها لتكمل طعامها حتى تذهب إلى الحضانة وقلت : « الطفلة البريئة لا تعرف شيئًا عن حقائق الأمور » .

ودق جرس الباب ، وهرولت إلى الشرفة .

وجدت العربة السوداء واقفة ، وإلى جوارها يحيى بك كامل أمين وأحد مخبريه أطللت عليه قائلًا : « خيرًا يا بك » .

– « انزل .. نريدك خمس دقائق » .

قلت دون تردد : « اعتقال ؟ » .

فلم يرد .

قلت : « سأنزل فورًا » .

وأسرعت بارتداء ملابسى الصيفية ، وطلبت عددًا قليلًا من ملابسى الداخلية ، وزوجتى حتى الآن لا تدرك أبعاد ما يجرى ، لم يكن لها تجربة سابقة فى هذا المجال .

قالت فى اضطراب : « ماذا يحدث ؟ » .

قلت وأنا ابتسم فى مرارة : « تشجعى يا حبيبتى .. لقد جاءوا أخيرًا لاعتقالى » .

صرخت بأعلى صوتها ، ولم تستطيع أن تتمالك مشاعرها ، وأخذت تردد : « حرام ... حرام .. والله العظيم حرام ....» .

طلبت منها بحزم أن تجفف دموعها ، وتكف عن الصراخ ، وأفهمتها أننا يجب أن نكون شجعانًا فى مواجهة الأحداث ، وأن ما تفعله لا يليق بامرأة مؤمنة مثلها .

وهبطت الدرج مسرعًا ، والأطفال يتدحرجون ورائى ، وصافحت يحيى بك ، وفتح لى المخبر الباب ، وما إن دلفت إلى السيارة السوداء ، وأدار السائق المحرك حتى وجدت طفلى الأكبر حسام الدين البالغ من العمر أربع سنوات وبضعة أشهر يجرى ويقف أمام السيارة معترضًا ويقول بأسلوبه البرىء : « أنت رايح فين يا بابا ؟ » .

قلت له وأنا أغالب دموعى : « ادخل البيت يا ولدى » .

ونظرات الصغير تائهة حائرة تُنبئ عن عدم فهم أى شىء ، ومشت السيارة ، ثم استدار بها السائق أمام البيت ، وما إن ابتعدت قليلًا حتى سمعت صياح زوجتى وأطفالى ، أغمضت عينى ، وكان قلبى يهتف داعيًا : « اللهم أنت المنتقم الجبار » .

وران علينا الصمت ، وبعد فترة قصيرة قال يحيى بك : « كان المفروض أن يتم اعتقالك فى الفجر حسب الأوامر ، لكنى رأيت أن أتركك حتى الصباح ، ولكى تتناول إفطارك » .

قلت باقتضاب : « أشكرك » .

- أنا لم أقصر نحوك ، وكان تقريرى عنك طيبًا ، لكن ماذا نفعل ، لقد صدر القرار الجمهورى :

(باعتقال كل من سبق اعتقاله والمشتبه فى أمره) .

وأنت سبق اعتقالك فى أغسطس عام ١٩٥٥.

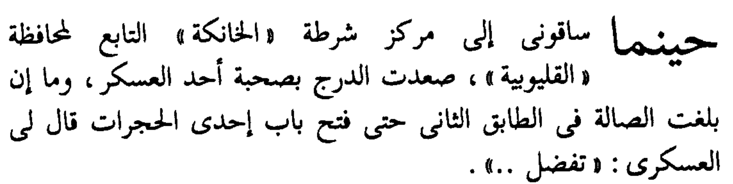
لم يكن هناك جدوى من الكلام ، لقد وقع ما كنا نخشاه ، ولم يعد هناك أمل فى النجاة من قبضة الحاكم ، ومن العبث الحديث عن العدالة والدستور والحريات ، فهذه كلها ترهات وأساطير لا معنى لها ولا قيمة ، ولست راغبًا فى أن أتحدث مع يحيى بك ، فقد تحدثنا كثيرًا وطويلًا قبل ذلك ، وذهب كل شىء أدراج لرياح ، شىء واحد أصبحت مقتنعًا به تمام الاقتناع ، ذلك أن العيش فى بلادنا مستحيل ، وأن الهجرة واجبة ، وإذا لم تتيسر الهجرة بالطريق الرسمى فلا بأس من الهروب ، والتسلل عبر الحدود مهما كان الثمن .. ووجدتنى أردد ما قاله أبى مرة أخرى : « كأننا يا بدر .. لا رحنا ولا جينا » ..

❁❁❁

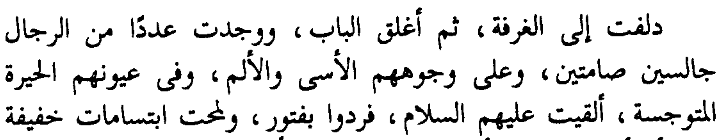
الجزء الخامس

[١] الوداع يادنيا





حينما ساقونى إلى مركز شرطة « الخانكة » التابع لمحافظة « القليوبية » ، صعدت الدرج بصحبة أحد العسكر ، وما إن بلغت الصالة فى الطابق الثانى حتى فتح باب إحدى الحجرات قال لى العسكرى : « تفضل ..» .



دلفت إلى الغرفة ، ثم أغلق الباب ، ووجدت عددًا من الرجال جالسين صامتين ، وعلى وجوههم الأسى والألم ، وفى عيونهم الحيرة المتوجسة ، ألقيت عليهم السلام ، فردوا بفتور ، ولمحت ابتسامات خفيفة رغم الحزن ، لكأنهم حمدوا الله أن أتيت إليهم ، فأغلبهم يعرفني ؛ إما لأنهم كانوا رفاقى فى السجن للمرة الأولى ، أو لأنهم ربما زارونى أكثر من مرة فى المستشفى لأفحصهم وأعالجهم ، والمصائب تخف حدتها عندما يكثر ويتجمع الذين يعانونها .

خلف باب الغرفة المغلق جلس عسكرى على مقعد خشبى يحمل فى يديه مدفعًا رشاشًا موجهًا إلينا نحن الجالسين فى صمت وترقب ، وعينا العسكرى مفتوحتان جيدًا ، وليس فى الغرفة إلا نافذة مغلقة ذات قضبان حديدية ، وطاقة للنور والهواء .

حاولت أن أتكلم مع رفيقنا القديم الأخ محمود سرحان وهو من أبو زعبل البلد ، لكنى لاحظت أنه عازف عن الكلام ويجيب هامسًا ببطء ، ثم يدير وجهه بعيدًا عنى ، وأدرك الشيخ إبراهيم البلّاط حيرتى ، فقال : « يا دكتور ... الكلام هنا ممنوع » .

فعجبت ، ونظرت إلى العسكرى ، وكأنى استفسر منه ، فهز رأسه قائلًا : « هذه هى الأوامر ، ومع ذلك تستطيعون الكلام بصوت خفيض حتى لا يسمعكم المأمور » .

كانوا مجموعة من المعتقلين أتى بهم رجال الأمن إلى هنا وقت الفجر . وهم من البلدان المجاورة ، تمهيدًا لترحيلهم إلى أحد المعتقلات التى لا يعرف أحد عنها شيئًا ، وليس فيهم من يعرف ما الجرم الذى ارتكبه ، ولهذا أخذوا يتساءلون ويوجهون معظم أسئلتهم إلىّ ، وأنا مثلهم لا أعرف السبب ، ومع ذلك فإن الجميع كانوا على يقين من أنه ليس من الضرورى أن يكون هناك سبب مباشر ، فالسلطة تحبس المشبوهين والذين سبق اعتقالهم قبل ذلك ، وقاية من الفتن ، وحفاظًا على هيبة الدولة واستقرارها كما يقال دائمًا ، وليس علينا إلا التسليم والسمع والطاعة ، وهل هناك من يمكنه الاعتراض أو تقديم تظلم ؟ ثم لمن نقدم الشكوى ؟ قال الشيخ إبراهيم البلّاط وهو عالم دينى أزهرى الثقافة :

« أما لهذا العذاب من نهاية ؟ » .

قال محمود سرحان : « عذاب مستمر طول العمر ما بقيت ، وبقى جمال عبد الناصر » .

لم يكن لدى أدنى رغبة فى الطعام ، والوقت يمر ، ومن آن لآخر يدخلون علينا معتقلًا جديدًا أو أكثر ، حتى امتلأت الغرفة بالقادمين ، وشعرت بالإرهاق : فملت برأسى إلى جوار الحائط ، ورحت فى نوم عميق لا أدرى كيف جاءنى ، واستيقظت فى الفجر ، لأرى باب الغرفة مفتوحًا والغرفة نفسها مزدحمة بالجالسين ، وكذلك الصالة الواسعة التى أمامها ، وقلت مستغربًا : « ما هذا ؟ » .

قال محمود سرحان : « لقد اعتقلوا أشخاصًا جدًا لم نعرفهم فى الإخوان من قبل ، ولم يسبق اعتقالهم .. تصور إن فيهم أخى « الحسين » وهو فلاح .. وهناك جزار ... وطبال .. وصاحب عربة كارو مصاب بالجذام .. إنهم لا يكادون يعرفون شيئًا عن السياسة أو الدين اللهم إلا القليل ..» .

وعلق الشيخ البلّاط فى غضب : « الحكومة أصابتها لوثة من الجنون .. إنها بداية النهاية ، لا يتصور عاقل أن يفعلوا ذلك ..» . واقترب منا أحد المعتقلين وقال : « هل سمعتم الخبر ؟ » .

– « ماذا ؟ » .

– « ابن « حجازى بك » مدير المركز اعتقلوه هو الآخر ، وقد وردت إشارة من الداخلية بإيقاف حجازى بك عن العمل .. أخبرنى بذلك أحد العسكر الآن » .

لم يعد هناك شىء مستغرب فى هذه الأيام ، لكنى لاحظت أن المعتلقين هذه المرة يسيطر عليهم خوف شديد ، وذلك بسبب الحملة المعادية فى الصحف ، ومن جراء المظاهرات المضادة للشيوعيين التى يقوم بها الشيوعيون المؤيدون للحكومة ، وكذلك اللافتات المحرضة ، والهتافات الحاقدة التى تقول :

« اقتل ... اقتل يا جمال
لا محاكمة ولا اعتقال »

إن النية متجهة إذن إلى إبادة وقتل الإخوان المسلمين ، أو من يتهمون بأنهم منهم ، لذلك فإن المعتقلين هذه المرة كانوا يتوقعون أيامًا سوداء ، وأحداثًا رهيبة ، ويستطيع أى مراقب أن يقرأ سطور المأساة على وجوههم جميعًا ، وعندما أقول المعتقلين فإننى أقصد بذلك الأفراد الذين لم تُوجّه إليهم أية تهمة على الإطلاق ، فالمعروف أن المتهمين أخذوا إلى أماكن أخرى يجرى فيها التحقق على قدم وساق مثل سجن القلعة والسجن الحربى ، وسجن أبو زعبل الجديد ، ومن لا تثبت إدانته يحال إلى الأماكن التى يوضع فيها المعتقلون الأبرياء أو « المتحفظ عليهم » كما أطلقوا عليهم فيما بعد ...

فى اليوم الثانى من وجودى بمركز شرطة « الخانكة » جاءت زوجتى وأخى الأصغر محمد ، وقفوا فى الشارع قبالة النافذة ونادونى ، فوسع لى الإخوة الطريق كى أطل عليهما ، ولم يكن هناك مجال للحديث سوى أننى بخير ، ولا أطلب شيئًا ، وأنى أوصيهم بالأطفال الثلاثة حسام وعزة وجلال خيرًا ، ثم نصحتهم بالانصراف ، وعدت متألمًا إلى ركنى القصى : أجفف دمعات سقطت على الرغم منى ، فى سجنى الأول كنت شابًا خاليًا من الأطفال والزوجة ، ومسئولياتى محدودة ، وهمومى قليلة ، أما اليوم فالأمر مختلف تمامًا ، إن قلبى يكاد يشق صدرى وينطلق إلى الخارج ويحط حيث يكون أطفالى ليحتضنهم ويحنو عليهم ، والوجوه الثلاثة الصغيرة البريئة تلازم مخيلتى ليل نهار ، وإلى جوارهم أمهم المذهولة المكتئبة ، إننى أتذكر أبى الآن ، وكذلك أمى ، ماذا سيكون وقع الخبر عليهم ؟ أيبدءون رحلة الأحزان من جديد ؟ لقد اقترب أبى من سن الستين ، وتقدمت السن بأمى أيضًا ، ولقد عانيا كثيرًا فى

المرة الأولى ، فكيف يكون وضعهم هذه المرة ؟ وتذكرت أن أبى كان يقول لى كيف يخفف عنى وأنا سجين : « لا تفكر فى شىء .. فكر فى نفسك .. نحن بخير ونستطيع أن نتدبر أمورنا .. كل ما يهمنا هو أنت .. ونحن راضون بقضاء الله ما دمت موجودًا .. وما دام فينا أمل بأن يفرجها الله عنك ..» .

قبيل الفجر جاءت سيارات ، وحراس مدججون بالسلاح ، وعربات نجدة ولاسلكى ، ثم حشرنا فيها ، وانطلقت بنا إلى المجهول ، حتى الذين يقودون السيارات لا يعرفون أين سيتجهون ، إنهم يتلقون الأوامر باللاسلكى ، « انحرفوا يمينًا .. ادخلوا الطريق الثالث .. توقفوا ثم ارجعوا من الطريق الموازى .. إلخ » .

وفى الصباح الباكر وقبل أن تشرق الشمس وقفت بنا السيارات أمام سجن عتيق لم أره قط ، سألنا حارسًا عن اسم هذا السجن فقال : « هذا سجن « أوردى أبو زعيل » ، وهذا غير سجن أبو زعبل القديم المعروف ، وهو أيضًا غير سجن أبو زعبل الجديد الذى يوجد فيه الآن بعض المعتقلين رهن التحقيق ..» .

ثم عبرنا البوابة الضيقة واحدًا واحدًا تحت الحراسة المشددة ، ثم أغلق علينا باب السجن ، ثم جلسنا القرفصاء صفوفًا فى باحة السجن الواسعة ، وأمامنا قائد السجن الضابط « يوسف » وهو رجل طيب ، ونائبه الضابط « كمال دوس » وهو صديق قديم مسيحى الديانة ، وله معى قصة مؤلمة قبل ذلك ، وهناك حضرة « الصول بولص » ، وبينما نحن جلوس اقترب منا « الصول بولص » وفى يده دفتر كبير ثم أخذ يتفحص وجوهنا جيدًا .. ثم التفت نحوى وقال : « أهلًا .. أهلًا .. شرفت يا نجيب يا كيلانى » .

ثم مال نحو الشيخ إبراهيم وقال : « كيف حالك يا شيخ إبراهيم يا بلّاط ؟ » .

واتجه ناحية أخرى وهو يقول :

« جئت مرة ثانية يا صدّيق يا عبد الحميد .. أنت جن مصوّر ..» .

وأخذ يعدد أسماء بعضنا ، وهو يسخر ويمط الكلمات ، وينوع العبارات ، فابتسم قائد السجن وقال : « هل تعرفهم جميعًا يا صول بولص ؟! » .

قهقه وقال : « كلهم « سوابق » يا بك » .

وكلمة « سوابق » تعنى فى السجون « معتادى الإجرام » وسمع « كمال دوس » اسمى ، فهرول نحوى وقال : « أنت ؟ إننى لا أصدق عينيّ ، ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ » .

فابتسمت قائلًا : « نصيبى يا كمال بك » .

وبان الكدر على وجهه ، فأردت أن أخفف عنه الحرج وقلت : « لا تحمل همًا ، ليست هذه أول مرة » .

فمصمص بشفتيه ، وأعطانى ظهره وانصرف ..

خلعنا ملابسنا المدنية ، وتسلمنا ملابس السجن ، وبدأنا فى ارتدائها ، ثم أخذوا أحذيتنا وجواربنا وملابسنا الداخلية أيضًا ، ووضعوها فى المخازن واسم كل واحد منا على ملابسه ، كانت ملابس السجن مهترئة ممزقة ، وخاصة فى الأماكن الحساسة من أجسادنا ، وكان هذا شيئًا مؤلمًا للنفس ، وكان البعض يحاول أن يستر عورته بيديه ، قلت لمن يجلس إلى جوارى : « لقد عرفوا الإنسان بأنه هو الحيوان الناطق .. ثم زعموا بأنه هو الحيوان الضاحك ... وأنا عندى تعريف جديد للإنسان » .

قال : « ما هو ؟ » .

- « الإنسان هو الحيوان الذى يرتدى « كلسونًا » داخليًا يستر عورته ..» .

كان سجن « أوردى أبو زعبل » بناءً عتيقًا يبدو أنه بنى فى أيام حكم الأتراك قديمًا ، وهو مكون أساسًا من ستة عنابر ، يستطيع كل عنبر أن يسع ثمانين فردًا ، لكنهم ملئوا كل عنبر بعدد يفوق المائة .

وتسلم كل واحد منا « برشًا » من سعف النخيل للنوم عليه ، وبطانية قديمة للغطاء ، ووعاء من الزنك لنضع فيه الطعام يسمونه « قروانة » ، كما تسلمنا عددًا من الجرادل (حوالى خمسة عشر دلوًا للشرب) وعندما دخلنا العنبر وجدناه مستطيلاً ، وفى نهايته مرحاضان ، وقاعدة خشبية موضوع فوقها زير لمياه الشرب ..

انهمكنا فى إعداد العنبر وتنظيفه وتنظيمه ، وفرش كل منا برشه ، وكذلك البطانية ، وكانت الأبراش متصلة بحيث تغطى أرضية العنبر المبلّط ، وفى وسط العنبر ممشى يفصل بين جانبيه ، ويمتد هذا الممشى من الباب حتى المراحيض ، وتراص معظم المعتقلين على الجانبين فوق الأبراش ، وهدأت الحركة ، وكان الجميع فى انتظار الماء والطعام .

هنا سوف يستقر بنا المقام لا ندرى إلى متى ، فلم يعد لدينا قدرة على التنبؤ بشىء ، ومع ذلك يسود شعور عام بمستقبل مفزع غامض لا يعرف أحد أية تفاصيل عنه ، وقد يعتقد البعض أن الذى لا يزج باسمه فى قضية أو تحقيق برىء ، ولا يصح أن يقلق على مصيره ، هذا الاعتقاد هراء ، فالكل متهم ، والكل معرض للنقمة والانتقام ، وسوط الجلاد لا يفرق بين سجين وسجين ، إن كل من يدخل إلى السجن ، ويصبح وراء الأسوار يصبح مهدر الدم ، لا وزن له ولا قيمة ، وهو إلى الحيوان الأعجم أقرب ، لكنه للأسف لا يستمتع بحقوق الحيوان ، وليس له جمعية رفق كتلك التى تهتم بالحيوان ...

يجب أن نرضى بما هو مقسوم ، ونحاول أن ننسى الدنيا خارج هذه الأسوار ، ولتكن هذه العنابر بمثابة كهوف ننعزل فيها إجباريًا عن الخلق وداعًا يا دنيا .. هذا هو عالمنا الجديد ..

❁❁❁

[٢] مشاكل وهموم



نزلنا فى عنبر رقم ٦ وكنا التسعين عدًّا ، وكان من الضرورى أن ننام على جنوبنا لضيق المساحة ، وغير مسموح لأحد أن يستلقى على ظهره وهو نائم ، إذ معنى ذلك أن يحرم آخر من مكان ينام فيه ، ولم يكن لنا حق الاعتراض أو الشكوى ، فالمفروض أن نقبل الأوضاع كما هى وإلا تعرضنا للعقاب ، ثم إن عدد المعتقلين أكثر من طاقة الاستيعاب فى المعتقلات المخصصة لنا ، وقد نتحمل الزحام ، لكن واجهتنا عدة مشاكل منها أن بيننا أحد المصابين بمرض الجذام ، وهو عربجي مسكين كان يقيم منذ فترة طويلة فى مستعمرة الجذام ، ويبدو أنهم وجدوا له اسمًا فى إحدى شعب الإخوان المسلمين القديمة ، فاعتقلوه – هو وأخاه – وأتيا بهما إلى المعتقل، وكان الإخوة يخافون من انتقال العدوى إليهم بهذا المرض الخطير ، كما وجدنا مريضين آخرين بالعنبر يعالجان من مرض السل (الدرن الرئوي) ، وهذان يجب أن يستأنفا علاجهما حتى لا يتفشى المرض فيهما ويستعصى ، ومن الطبيعى أن يخاف المعتقلون من انتشار العدوى ، هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الإخوة يعانى من ارتفاع ضغط الدم والذبحة الصدرية والزحار (الدسنتريا) وأمراض الكلى وتليف الكبد ، ولم يكن من المتوقع والأمور متأزمة على هذا النحو أن نطالب بعلاج أحد ، فحاولنا أن نقوم ببعض الإجراءات الوقائية الطفيفة حتى يفرجها الله ، فهو بيده الأمر ، وهو الحافظ .

واقترح بعض الإخوة عليّ – بصفتى طبيبًا – أن أتكلم مع الضابط كمال دوس الذى تربطنى به معرفة سابقة ، لعله يساعد فى نقل المرضى المصابين بالأمراض المعدية على الأقل إلى أماكن للعزل حتى ولو كانت في داخل المعتقل نفسه حفاظًا على بقية الإخوة من الإصابة بالعدوى ، ربما ترددت فى بداية الأمر ، لأنى أعرف أن الأصدقاء – بل والأقارب – قد يتنصلون منها ، وينكرون معرفتهم بنا فى مثل هذه الظروف حتى لا ينالهم أذى ، ومع ذلك فقد جلست إلى جوار باب العنبر انتظارًا لمجيء الضابط للتفتيش ، ولكن مرت أيام دون أن يأتى ، وأخيرًا طلبت من السجان الذى يحضر لنا الطعام وأرغفة الخبز أن يخبر كمال بك بأنى أريد أن أكلمه ، فلم يرد عليّ ، إذ كان المفروض أن يلقى السجان الأوامر علينا ثم ينصرف دون أن يسمح لأحد أن يكلمه ، وإذا تكلم معتقل فلن يرد عليه أحد . ولقد حاولنا الحديث مرة مع (الجاويش حجازي) الذى يسكن معنا فى مدينة أبو زعبل السكنية القريبة من السجن ، فقال بالحرف الواحد « أنا لا أسمع .. لا أبصر .. لا أتكلم » وأعطانا ظهره وانصرف .

ويئست من لقاء الضابط « كمال دوس » . لكنى بعد ثلاثة أيام وجدته يأتى ويفتح الباب ، كنت جالسًا على مقربة منه ، لكنه تظاهر بأنه لا يراني ولا يعرفنى ، فاعتصمت بالصبر ، وبعد وقت قصير قال : « أنا هنا للمحافظة على النظام ، وإحضار الأكل لكم ، ولا شيء غير ذلك .. مفهوم » .

وقفت وقلت مستأذنًا : « لو سمحت يا أفندم » .

- « ألم تسمع كلامى ؟ » .
- « سمعت ، لكن ..» .
- « لكن إيه . . .» .
- « عندنا مريض جذام ، ومريضان بالسل ..» .
- « ربنا يشفى ..» .
- « نعم ، لكن العدوى ..» .

أغلق علينا الباب فى عنف وغلظة مصطنعة وهو يقول : « سوف نرى ..» .

شعرت بالآلام ، ذلك لأن القضية إنسانية بحتة ، فلماذا هذه المعاملة الجافة ؟ ومن حق أى إنسان أن يحمى نفسه من خطر الأمراض ، إن تعريضنا للمرض إجراء قاس لا يصح أن يحدث فى بلد متحضر يؤمن بالله .. وأصابنا قدر من الغم لفشل المسعى ، وسلمنا أمرنا لله ، فهذا ما كنا نتوقعه ، بل إننا نتوقع أكثر من ذلك ، فإن ما حدث منذ عشر سنوات ونحن فى المعتقل يتكرر بنفس الأسلوب ..

وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا « كمال دوس » يأتى بعد يومين وبصحبته حكيمباشى « مستشفى الشرطة » ، وهو رجل متقدم فى السن ، وكان له ابن معنا فى كلية طب القصر العينى منذ سنوات . قال كمال بك : « البك جاء ليتعرف على أوضاعكم الصحية ..» .

تنفسنا الصعداء ، وحمدنا الله ..

وقال كمال : « أظن أن معكم طبيب معتقل .. فليأت إلى هنا ..» .

كنت أجلس فى آخر العنبر ، فقمت وهرولت صوب الباب ، قال كمال بك وكأنه لا يعرفنى : « هل أنت طبيب ؟ » .

قلت وأنا أبتسم : « نعم . . .» .

قال : « فيه إيه عندكم » .

- « مريض بالجذام ، ومريضان بالسل ..» .

قل الحكيمباشى : « أين هم ؟ » .

ودعوت المرضى الثلاثة ، فقام الحكيمباشى بفحصهم بسرعة ، واستخدم السماعة عندما فحص مريضى السل ، ثم هز رأسه بعد أن سجل الأسماء وانصرف ، وأغلق علينا الباب من جديد ، وفى خلال أسبوع واحد ، استدعى المرضى الثلاثة ، ثم نقلوا إلى مكان آخر لا نعلمه ، وبعدها استدعانى كمال وحدى ، كان يقف على مقربة من العنبر فى الباحة الواسعة ، ثم صرف العسكرى ، وبقيت معه وحدى ، تلفت يمنة ويسرة ، ثم قال بصوت خفيض : « أنا لا أنسى فضلك علىّ ، ولا صداقتنا ، لكننى فى وضع شائك ، ولا أستطيع أن أفعل لك شيئًا .. إن عيون رجال الأمن حولنا ، تصور إنهم يجندون العساكر للتجسس علينا ، ولهذا لا أحاول الاتصال بك إلا خفية ، كما أحاول أن أتجنبك ، وأظهر إننى لا أعرفك . . مع إننى مسيحى ، ولا يصح أن يشك أحد فى أمرى لكن تأكد أن قلبى معك ، وأدعو لك من كل قلبى ، فالناس جميعًا فى المنطقة حزنوا من أجلك ، وكلهم مجمعون أنك إنسان طيب ..» .

ثم تذكر شيئًا ، فاستدرك قائلًا : « هل اعتقلوا زوجتك ؟ » .

أصابنى الخوف والاضطراب ، وهتفت : « ولماذا يعتقلونها ؟ هل حدث شيء كهذا ؟ » .

- « لا .. لا .. مجرد سؤال ..» .

ثم قال : « انصرف الآن ، فقد قدم العسكرى ، وسأحاول أن أكلمك كلما حانت الفرصة . . .» .

قلت مسرعًا : « أرجوك .. أرجو أن تطمئننى على زوجتى وأولادى » وعدت إلى العنبر مكتئبًا حزينًا ، لقد داهمتنى الوساوس من أجل زوجتى ، فلو فرضنا أنهم اعتقلوها ، فلماذا ؟ ثم من هناك يعتنى بأمر الأطفال ، وبقيت معتصمًا بالصمت بعد أن عدت إلى العنبر ، وإخوانى يسألوننى عن السبب ، فأبحت لهم بشكوكى حول مصير زوجتى ، فأكدوا أن الحكومة هذه المرة قد اعتقلت عددًا كبيرًا من النساء زوجات المتهمين وقريباتهم أو من حامت حولهن شبهات أى نشاط دينى سياسى ، وذكروا من بينهن السيدة زينب الغزالى وشقيقة الأستاذ سيد قطب ، وأم وأخوات المعتقل صلاح الأنور وغيرهن كثيرات ، وكان هذا التصرف بمثابة حدث جديد لا مثيل له فى تاريخ مصر الحديثة ، وأصبح معتقل سجن القناطر الخيرية أول معتقل نسائى فى بلادنا .. ومع ذلك فقد حدث أن تم اعتقال بعض النساء اليساريات أيام حكم الرئيس السادات بعد ذلك أى بعد مضى حوالى خمسة عشر عامًا ، لكن يظل ما حدث أيام عبد الناصر بالنسبة لإنشاء معتقل خاص بالنساء له الأسبقية التاريخية ، بل إن بعض النسوة أخذن أيضًا إلى السجن الحربى فى هذه الأيام (١٩٦٥) للتحقيق معهن فيما عرف بقضية سيد قطب رحمه الله ، وصدرت ضدهن أحكام بالسجن . الحقيقة أن كلمات كمال دوس عن زوجتى قد زرعت فى نفسى قلقًا بالغًا ، ذلك لأنى مؤمن بأن كل شىء ممكن الحدوث فى هذه الأيام ..

وبالنسبة لمشاكل مرضى ارتفاع ضغط الدم والسكر والذبحة الصدرية والكبد وغيرها لم نستطع أن نفعل شيئًا ، فقد اعتبروها من الأمراض غير المستعجلة .

ومن المشاكل التى واجهتنا فى عنبر ٦ بسجن « أوردى أبو زعبل » مشكلة أحد المدمنين على « الأفيون » ، ولقد صُدم الإخوة بظهور حالة كهذه بينهم ، إذ ليس من المعقول أن يقع أحد الإخوان فريسة للمخدرات ، وهو يعلم أنها محرمة شرعًا ، ودار الجدل حول هذا الموضوع الخطير ، فرأى البعض أن يتركه وشأنه ، ورأى آخرون ألا نقف مكتوفى الأيدى أمام هذه الكارثة التى تؤدى بالمدمن فيموت بسبب الأعراض الانسحابية من إسهال وأمغاص وقىء وأرق وآلام عامة ، وسيولة الأنف والعينين وما إلى ذلك ، وعرفنا من أهل بلد المدمن واسمه (م . غ) أن المسكين كان يعانى مغصًا كُلَويًا مزمن وهو فى بلده ، وكان يأخذ حقن « المورفين » لتخفيف المغص ، وبتكرار هذه الحقن أدمن عليها ، فكان يأخذ المورفين عند أزمة المغص ، وإذا لم يتيسر له ذلك يتعاطى الأفيون بديلًا عنه ..

كان (م . غ) يرقد فوق البرش كالضحية ، وفى عينيه الذابلتين استغاثة وضراعة ، وكان معنا أحد الصيادلة المعتقلين ، واثنان من الأطباء غيرى ، فرأوا أن علاجه يبدأ بإعطائه جرعات متناقصة يوميًا من الأفيون ، ويضاف إلى ذلك علاج الأمراض الانسحابية كالمغص والإسهال والضعف وغيرها ، لكن كيف نوفر له ذلك ؟

ولم يكن لنا حيلة فى الأمر سوى أن نستسلم لقضاء الله وقدره ، إن شاء نجاه من الموت وإن شاء أماته .. ولم نكن نعلم أن هناك ما يدبر فى الخفاء ، فقد حاول زملاؤه فى المصنع الاتصال بأحد السجانة (ح) ليساوموه فى إحضار كمية من المخدر لإنقاذ حياته ، وتم لهم ما أرادوا ، وبدأ المدمن يأخذ كمية قليلة تتناقص يوميًا ، وما إن تماسك وعادت إليه عافيته ، حتى قال : « إننى الآن قادر على الاستغناء عن الأفيون نهائيًا وقد أقسمت ألا أقربه مرة أخرى فى حياتى .. » .

وفى خلال بضعة أسابيع انتهى الإدمان بالنسبة له .

ومن الطريف أيضًا أنه كان معنا فى المعتقل أحد الرجال الأثرياء ، وهو رجل صالح له أيادٍ بيضاء على الجماعة إذ كثيرًا ما تبرع لها بمبالغ كبيرة بلغت عشرات الآلاف ، وكان المسكين واسمه (م . د)

لا يستطيع أن يذهب إلى المرحاض دون أن تكون فى فمه سيجارة يدخنها ، وظل يعانى من الإمساك ثمانية أيام متصلة حتى ساءت حالته ، واستطاع بعض الإخوة أن يهرب له عددًا ، السجائر عن طريق أحد العسكر ، ويوم أن حصل – للأسف – على السيجارة ، ذهب للمرحاض وجلسنا ننتظر النتيجة ، وحينما خرج منه راضيًا كنا نضحك ونقول له : « مبروك يا حاج ..» .

كانت الأيام تمر بطيئة ثقيلة ودخل علينا شهر أكتوبر ١٩٦٥ ونحن نعانى مرارة الانتظار والقلق ، وأتى إلينا فوج من المعتقلين الجدد ، كان أحدهم قادمًا من معتقل أبو زعبل الجديد والقريب منا ، وأخبرنا بأشياءٍ كثيرة لم نكن نعلم عنها شيئًا . منها أن هناك جماعة إسلامية جديدة اسمها « جماعة التبليغ » ، وهى جماعة مهمتها الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وترسيخ عقيدة التوحيد الصحيح فى نفوس الناس ، وذلك عن طريق عقد لقاءات فى المساجد ، وكان لديهم شىء اسمه « الخروج فى سبيل الله » ومعناه أن يأخذ كل فرد متاعه البسيط ، ومعه مجموعة من إخوانه ، ويذهبون إلى القرى والكفور والمدن البعيدة ، ويتحدثون إلى الناس دون الإشارة إلى الأمور السياسية أو الحزبية ، إن مهمتهم الأساسية هى التمكين لدعوة التوحيد ، وشرح « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . وامتد نشاطهم حتى غطى أنحاء القطر المصرى ، وقطاع غزة فى فلسطين ، كما كانت لهم أنشطة فى الدول العربية والإسلامية ، بل وفى دول أوروبا نفسها ، وقد نشأت هذه الجماعة أصلًا فى الهند ، وتكون لها فرع فى مصر ، وقد علمت أن أحد رجال التربية والتعليم وهو الأستاذ عبد العزيز العراقى يرأسه ، وهو خريج – كما علمت – من كلية العلوم ، وأخبرنا الأخ القادم من معتقل أبو زعبل الجديد ، أن من بين أعضاء هذه الجماعة عدد كبير من الشباب صغار السن ، وأن معهم أيضًا مذيع تليفزيونى شهير ناجح هو المرحوم الأستاذ إبراهيم عزت ، الذى استضافنى ذات يوم فى برنامجه التليفزيونى الأدبى « كاتب .. وكتاب » أو « كاتب .. وقصة » على ما أذكر . وقدمنى فى البرنامج بكل حب وترحيب ، وأخذ قصة قصيرة من قصصى وأخرجها تمثيلية فى حوالى ربع أو ثلث ساعة ، وبعدها بدأ معى الحوار عن قصصى .. وأتذكر أنه يوم تسجيل البرنامج أخذنى إلى إحدى غرف مبنى التليفزيون وصلينا العصر معًا ، ثم أخبرنى أنه « خارج فى سبيل الله » إلى مدينة المحلة ، ولم أفهم عند ذاك معنى عبارة « الخروج فى سبيل الله » لكنى فهمتها اليوم من أخينا القادم من معتقل أبو زعبل الجديد ، عندما حدثنا عن هذه الجماعة – جماعة التبليغ – وذكر اسم إبراهيم عزت ، وعلمنا أنه تعرض لتعذيب شديد ، لكنه لم يكن وراءه أية أسرار سياسية أو تنظيمية ، فأمر جماعته واضح ، ولا علاقة لها بالسياسة ..

ولعله من باب استكمال قصة إبراهيم عزت ، أن نقول أنه ظل وفيًا لدعوته ، بعيدًا عن السياسة ، عابدًا زاهدًا بعد أن ترك التليفزيون ، وكان يذهب إلى الحج والعمرة ويطيل الإقامة فى مكة المكرمة ، وفى أحد الأعوام كان يؤم المصلين فى صلاة التراويح (القيام) فى البيت الحرام فى شهر رمضان ، ثم لقى الله ساجدًا . وهكذا مات ذلك الرجل الصالح الذى أحبه كل من عرفه ، ودعا له بالرحمة ..

وعلمنا ونحن أيضًا فى عنبر ٦ أن هناك عددًا كبيرًا من الإخوان الذين سجنوا عشر سنوات وخرجوا فى شهر مارس أو يوليو أو أغسطس عام ١٩٦٥ ، أقول إن هؤلاء أعيد اعتقالهم ، ولم يمض عليهم شهور أو أيام ، وقدموا مرة أخرى للمحاكمات بتهمة غريبة ، وهى إعادة تنظيم جماعة الإخوان المسلمين داخل السجن ، وعرفت قضيتهم بقضية « إخوان العشرات » أى الذين قضوا أحكامًا بالسجن عشر سنوات كاملة ، وكان من بين هؤلاء أخى وصديقى الدكتور رشاد بيومى الذى أكمل دراسته فى كلية العلوم بعد خروجه من السجن ، ونال درجة الدكتوراه وسافر إلى أمريكا ، وأخبرنى رشاد بعد أن

أعيد اعتقاله فى عام ١٩٦٥ وهو لم يزل طالبًا بالكلية ، بأنهم ساقوه إلى التحقيق وسألوه : « ماذا رأيت فى مصر بعد خروجك من السجن ؟ وهل لاحظت التقدم الكبير الذى طرأ على البلاد ؟ » .

فأخبرهم رشاد أنه لم ير شيئًا ، لأنه لم يقض إلا أيامًا قليلة تقل عن الشهر ، ثم أعيد إلى السجن مرة أخرى .

سألوه : « ما رأيك فى ثورة عبد الناصر » .

– « أضاعت مستقبلى ، وآذتنى شر الإيذاء ، وهل كان فى إمكانى أن أرى شيئًا وأنا سجين؟ » .

وكان نتيجة لهذا الكلام أن قاموا بتعذيب رشاد ، وخلعوا أظافر يديه ورجليه دون سبب يذكر ، ونظرت إلى أظافره وقلت له : « إن أظافرك الآن نظيفة وجميلة ، ولم يكد يمر على خلعها إلا شهران أو أكثر قليلًا ..» .

هز رأسه فى أسىً وقال : « الحمد لله ..» .

ولعله من المفيد أن أشير فى هذا المقام إلى قصة حب مثيرة كان بطلها رشاد بيومى عندما كان سجينًا فى المرة الأولى [فى الستينات الأولى أى النصف الأول] ، فقد كان رشاد يشكو من ألم فى المثانة يحتاج إلى جراحة عاجلة ، فنقل إلى مستشفى بإحدى محافظات الصعيد (ورشاد رجل صعيدى من سوهاج ، وأبوه كان موظفًا بالبنك هناك ، ولقد كان رشاد معى أيام سجن أسيوط فى الخمسينات) ودخل رشاد المستشفى للجراحة ، وبقى فيها فترة طويلة .. وكانت هناك طبيبة حديثة التخرج تشارك فى الإشراف على علاجه ، ومن الطبيعى أن يلفت نظرها ذلك السجين المثقف الذى يدرس بالجامعة ، ويتسم بالوقار والثقة بالنفس والاستقامة والثبات على المبدأ ، ودار بينهما حوار .. بل حوارات ، تناولت شتى القضايا فشغلها أمره ، كما آنس فيها روحًا نقية طاهرة ، ولم يقف الحراس الذين يلازمون السجين المريض رشاد ليل نهار حجر عثرة فى تطور العلاقات الإنسانية النظيفة بينهما ، ولم يغادر رشاد المستشفى – بعد الشفاء – إلى سجنه إلا وكانا قد تعاهدا على الزواج بعد الإفراج عنه ، وظن البعض أن ما حدث مجرد مشاعر ودية عابرة ، سرعان ما تخفت حدتها مع الزمن ، لكن تلك العلاقة ظلت راسخة حتى تم الزواج بعد سنوات ، وأثمر البنين والبنات ، واستقرت تلك الأسرة الصغيرة سنوات فى أمريكا ، وسنوات أخرى فى دولة الإمارات العربية المتحدة حيث عمل رشاد أستاذًا فى كلية العلوم بجامعتها لبضع سنوات .

ونعود إلى هموم ومشاكل العنبر رقم ٦، فقد كانت مشكلة المياه من المشاكل العويصة ، وأذكر أننا قضينا ذات مرة ستًا وثلاثين ساعة دون ماء حتى جفت حلوقنا ، وكاد يقتلنا الظمأ ، ناهيك بالأمور الأخرى الحيوية التى تحتاج إلى استعمال الماء ، أما الوضوء وإزالة الجنابة فقد كنا نستعيض عن الماء بالتيمم ، وفى يوم الظمأ ذاك كان أخونا « سيد غياض » الذى يعمل بورش السكك الحديدية ، يستلقى على ظهره ويحلم بمجىء الماء وهو يقظان ويقول : « إننى أرى الماء يجرى فى المواسير (الأنابيب) .. نعم يجرى . سوف يأتى الماء حالًا ويتدفق كما تدفق من الصخرة التى ضربها نبى الله موسى عليه السلام بعصاه ..» ويطول انتظار سيد غياض ، ولا يأتى الماء ، وأخيرًا بعد طول انتظار سمعنا صوت الماء يتدفق من الصنبور .. فهرع الجميع صوب المرحاض ، وتزاحموا بصورة مؤلمة ، كل إنسان يريد أن يرتشف قطرات ، ويبلل وجهه ورأسه ، وكان هناك الزير الوحيد الذى يجب أن نملأه حتى يضمن لنا مددًا دائمًا من الماء بقية اليوم ، لكن الزحام الشديد ، واندفاع الإخوة نحو الماء قد حرمنا من ملء الزير ، وانقطع الماء بعد ساعة ، وليس لدينا رصيد يذكر منه ، وهنا تدارس الإخوة الأمر ، وقرروا اختيار واحد منا يكون

مسئولًا عن تنسيق وتنظيم توزيع المياه ، وأطلقوا عليه « مسئول الزير » ووقع الاختيار عليّ كى أقوم بهذه المهمة الشاقة الحيوية فى عنبر ٦ وفكرت فى الأمر قليلًا ، وتوصلت إلى وضع سياسة ثابتة لهذا الأمر ، ثم وقفت وسط العنبر وطلبت من الإخوة أن يستمعوا إلى ما أقول ، على أن يكون لهم الحق فى مناقشة أفكارى بهذا الصدد .

كانت خطتى تعتمد على الآتى :

أولًا – عندما يأتى الماء ، فستكون الأولوية لملء الزير تمامًا بالماء ، ويمنع منعًا باتًا ذهاب المعتقلين إلى دورة المياه فى ذلك الوقت .

ثانيًا – بعد امتلاء الزير يسمح لممثل عن كل مجموعة بملء دلو الشرب الخاص بهم ، واحدًا بعد آخر .

ثالثًا – بعد امتلاء الدلاء (الجرادل) جميعها ، يُبدأ فى ملء قروانات الطعام الزنك الخالية ، وتوضع كل قروانة مملوءة عند صاحبها .

رابعًا – بعد ذلك يسمح للمعتقلين تباعًا بغسل أيديهم ووجوههم والوضوء كذلك .

خامسًا – وفى نفس الوقت يسمح بالذهاب إلى المرحاض لقضاء الحاجة والاغتسال إن أمكن .

وهكذا استطعنا أن نحسم أمر المياه ، مع الالتزام بالاقتصاد فى استهلاكها سواء أكانت متوفرة أم كميتها قليلة ..

وكان الإخوة يحيوننى مازحين « أهلًا .. مدير عام إدارة الزير » .

وكانت أمور حياتنا تمضى رتيبة فى عنبر ٦ ولا نكاد نعرف أية أخبار عن العنابر الخمسة الأخرى ، ففى الفجر نستيقظ لصلاة الفجر ، ثم نقرأ ورد المأثورات شفاهًا حيث لا يسمح لنا باقتناء الكتب ، والمأثورات (الصغيرة – أو الكبيرة) عبارة عن مجموعة من التسبيحات وذكر الله والدعوات والآيات القرآنية ، جمعها الشهيد الإمام حسن البنا ، وكانت شائعة فى أوساط الإخوان ، ثم نتناول طعام الإفطار ، ونجلس بعد ذلك لقراءة القرآن ، ومن لا يحفظ يستطيع أن يستمع لمن يحفظ ، ثم نصلى الظهر ونتناول طعام الغداء ، ومن أراد أن ينام يأخذ قسطًا من النوم ، ثم تأتى صلاة العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وعقبها نتناول طعام العشاء ، ونجلس للسمر والترويح عن النفس ومدارسة أحوالنا العامة والخاصة ، وقد نناقش أمور السياسة أو الاقتصاد أو المسائل الاجتماعية المختلفة ، كمشاكلنا الأسرية ، والآثار الأليمة الناجمة عن اعتقالنا ، ومصير زوجاتنا وأبنائنا ومعاناتهم المتوقعة .

كنا نجلس ذات مرة ، ونحن مجموعة من الأطباء والمهندسين والمدرسين ومختلف الموظفين ، نناقش مشكلة الإخوان مع الحكومة ، واقترب منا المعتقل « إبراهيم هلال » وهو خريج المدرسة الزراعية المتوسطة ، ويعمل فى المنصورة ، وانبهر بما يدور بيننا من حوار ، وكأنه وجد ضالته المنشودة فهناك سؤال يحيره ، ويريد أن يستمع إلى إجابة شافيه عنه ، ورفع إبراهيم هلال يديه وهو يقول : « سؤال » .

قلت : « تكلم يا إبراهيم » .

[إننى أعرف أنه رجل بسيط محدود الثقافة والخبرة ، يعيش فى عمله عيشة الفلاحين دون تعقيد أو هموم تذكر ، وهو طويل القامة جدًا (فوق المترين) متين البنيان ، أشقر الشعر والوجه ، ملون العينين ..]

قال إبراهيم : « أريد أن أعرف هل ستفرج عنا الحكومة أم لا ؟ ومتى يكون الإفراج إذا كان لنا نصيب فيه؟ » .

رد أحد الإخوة شارحًا الأوضاع السياسية العامة فى مصر، وعلاقاتنا بالدول العربية والأجنبية، وما يترتب على ذلك من نتائج، ولم يرتْحْ إبراهيم للإجابة لأنها لم تتعرض لسؤاله المحدد، وانتظر إبراهيم، وأخذ ينظر إلى المتحدث الثانى، وكان موظفًا كبيرًا فى وزارة المالية، فأخذ يفيض فى شرح الوضع الاقتصادى المتدهور، ونفاد الميزانية الخاصة بالإنفاق على السجون والمعتقلات، وبعد أن أنهى حديثه لم يجد إبراهيم أيضًا الإجابة الصريحة المحددة عن سؤاله، والتفت إلى المتحدث الثالث، وكان ضابطًا سابقًا فى الشرطة قبل طرده منها واعتقاله، كان الضابط السابق يتحدث عن إسرائيل ونواياها العدوانية، ومن الغريب أن هذا الضابط واسمه «عباس أبو كرم» قد أكد أن إسرائيل لا بد وأن تضرب ضربتها العسكرية التالية فى أقل من عامين، بل وأقسم على ذلك، وعباس أبو كرم من مشاهير شباب الإخوان، وكان وثيق الصلة بقيادتهم منذ سنوات طويلة.

ولم يجد إبراهيم هلال هنا أيضًا إجابة محددة على سؤاله «هل سيفرج عنا؟ ومتى؟».

وهكذا دارت أحاديث النخبة المثقفة درسًا وتحليلًا، وإبراهيم هلال المسكين، ينقل بصره من واحد إلى آخر، ويحاول جاهدًا أن يستوعب الحديث، وينتظر كل مرة الإجابة التى يحلم بها دون جدوى.

فى النهاية رفع إبراهيم هلال يده الطويلة، وكفه العريض إلى أعلى وقال: «استمعوا إليّ».

نظروا إليه جميعًا، وصاح إبراهيم: «الفرج آت قريبًا إن شاء الله».

وأخذوا يسألونه عن كيفية حدوث ذلك، ولماذا يعتقد هذا الاعتقاد، كانوا يظنون أنّه سوف يحلل الأوضاع ويصل فى النهاية إلى النتيجة التى يؤمن بها، ولهذا سأله أحدهم: «ولماذا سيفرج عنا يا إبراهيم؟».

هب واقفًا بهامته المديدة وقال بلهجته الشعبية المضحكة: «أصل الحكاية بَظْوَتَتْ».

وضج الجميع بالضحك.

فكلمة «بَظْوتت» تعنى أن كل شىء أصبح فوضى، فلا منطق ولا عقل ولا نظام، وأن هذا الاضطراب والضياع وعدم فهم أى أمر من الأمور، يعنى ألا يوجد أى إنسان يستطيع الجزم بشىء، وفى هذه الحالة فإن الله وحده هو القادر على الإتيان بالفرج ولا أحد سواه.. هذا ما تصوره إبراهيم هلال وعبر عنه بلهجته الشعبية البسيطة، وأخذ إبراهيم هو الآخر يضحك، ويقول لقد صدعتم رأسى بالكلام والفلسفة دون أن أفهم شيئًا، والظاهر أنه لا يوجد أحد يفهم كيف يجيب على سؤالى..

ولقد تنوعت جلساتنا فى عنبر ٦، أحيانًا نجلس لسماع النكت والطرائف، وأحيانًا أخرى نتدارس الفقه أو تفسير القرآن، وبعض الإخوة كان يجلس بيننا ليروى لنا قصة قرأها فى كتاب، أو فيلم سينمائى شاهده قبل ذلك، أو دراسة صدرت لواحد من مشاهير الفكر، وأذكر أننى رويت لهم فى إحدى الليالى ملخصًا لرواية «اليوم الموعود» التى نلت عنها جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وتسلمت الجائزة - كما سبق وأشرت فى الجزء الرابع - من جمال عبد الناصر نفسه، والرواية عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع ملك فرنسا على المنصورة، وقيام الملكة شجرة الدر بالوقوف فى وجهه..

وأذكر أن زميلنا الدكتور (م. سليم) وهو من أطباء رشيد، كان يعانى من حالة نفسية متردية فلم يكن يطيق سماع النكات والقفشات، ويثور ويرمينا بالسفه وعدم إدراك أبعاد المأساة التى نعيشها، فكنا نشفق عليه ونكف مؤقتًا عن السمر، حتى تهدأ ثورته، وينطفئ غضبه.

وكان بيننا من ساعدتهم الظروف بالقيام برحلات إلى خارج مصر، فيجلسون ويحدثوننا عن

مشاهداتهم فى البلاد الأجنبية وما يدور فيها من أفكار وأحداث وقيم ..

في ليلة السابع والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٦٥ وكان قد مضى علينا فى المعتقل حوالى خمسين يومًا ، كنا نجلس فى المساء حوالى الساعة العاشرة ، وإذ بالباب يفتح فجأة ، فنهب واقفين ، ووجدنا أمام العنبر عددًا من العسكر ، وهتف أحدهم فى جفاء وسرعة قائلًا : « ستة منكم ..» .

ظننا أنهم يريدون ستة معتقلين لكى يحضروا الخبز المخصص للعنبر كما يحدث عادة ، حيث يكون الخبز موضوعًا فوق عدد من البطاطين ، فيمسك المعتقلون بأطراف البطانية ، ويحملون الخبز لكى يوزع علينا ..

وخرج ستة رجال ، وأغلق الباب ، لكننا بعد دقائق قليلة سمعنا صراخًا عاليًا واستغاثة ، وجمدنا فى أماكننا لا ندرى ما يجرى فى الخارج . لكن الصراخ يزداد ونسمع ضجة كبرى تحت جنح الليل لا نعرف تفاصيلها . وخيل إلينا أن رجال الأمن ينوون قتلنا ، وسوف يأخذوننا ستة ستة للتخلص منا ، وساد القلق الجميع ، واعتصمنا بالصمت المرعب ، لقد حانت لحظة النهاية ، وليس لنا سوى أن نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول اله ، وأن الموت حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والجنة حق ، والنار حق ..

ولم يكن هناك مجال للدموع أو للتفكير فى الماضى أو المستقبل ، وكيف تنسكب الدموع وقد شلت الأفكار والإرادة ، إنها حالة من الاستسلام المطلق ، وتلاشى الإحساس بالزمان والمكان ..

لم يطل بنا الوقت ، لكنها كانت لحظات قاتلة رهيبة ، وفجأة صمتت أصوات الاستغاثة ، وساد الهدوء المعتقل ، وفتح باب العنبر وارتمى الرجال الستة على الأرض وأغلق الباب ، وجاء صوت أجش من الخارج:

« ممنوع الكلام » .

أخذنا ننظر إلى الرجال الستة ، إنهم أحياء ويتحركون ، بل إن أحدهم يبتسم ، وبقينا نحو ربع ساعة ، ونحن على هذا الوضع ، وسمعنا قهقهة فى الخارج ، وجاءنا صوت الجاويش حجازى يقول : « لقد ذهبوا .. تكلموا كيف شئتم .. إن هذا الذى يحدث « يقطع الخلف » والله العظيم ..

من أين جئتم لنا ؟ أيامكم كلها كرب فى كرب » .

وتجمعنا حول الرجال الستة نستفسر عما جرى ، كل ما عرفناه أنهم ضربوا ضربًا مبرحًا ، آثاره على أجسادهم ووجوههم ، وأن هناك مجموعة أخذت من كل عنبر من العنابر الخمسة الأخرى ووقع عليهم نفس العقاب المجهول السبب ، فليس فى المعتقل أحد متهم فى قضية سيد قطب ، أو أية قضية أخرى من القضايا ، والجميع - كما قالوا - معتقلون تحت التحفظ ، لكنى بقيت أفكر فى الأمر ، فتذكرت أن هذه الليلة هى ذكرى الاعتداء على جمال عبد الناصر فى حادث المنشية منذ عشر سنوات ، ويبدو أن رجال الأمن قد أرادوا الاحتفال بهذه الذكرى الخالدة على طريقتهم الخاصة ، وقد علمنا فيما بعد أن إخواننا فى معتقل أبو زعبل الجديد ، قد أمروا بالنزول فوق الدرج على أيديهم وركبهم كالأغنام وهم معصوبى العيون ، وضربوا جميعًا فى ساحة السجن أمام مدير المباحث ومساعديه ، واتضح فعلًا أن ذلك كان بمناسبة الذكرى ..

وفى اليوم التالى استمر الضرب والتكدير للجميع فى عنبر ٦؛ إذ وقفنا صفًا فى مواجهة الحائط ،

وجاء العسكر من خلفنا بالعصى والكرابيج وأخذوا يضربوننا بقسوة ، ومن يلتفت ليرى ما خلفه أو ليتوقى الضرب يزيدون له فى العقوبة ، وكان معهم « كمال دوس » الذى حاول كما يبدو أن يحمينى من الضرب ، لأنى لم أتلق أية ضربات ، وكان يقف إلى جوارى فى الصف المعتقل إبراهيم هلال ، الذى نال قسطًا وافر من الضرب لطوله الفارع ، بل إنهم أمعنوا فى إيذائه وإيذاء الآخرين حينما حلقوا له ولهم الشوارب ، وكان هذا شيئًا معيبًا ، وحسبت أننى نجوت ، ولكن العسكرى جاء ومعه ماكينة الحلاقة وحلق شاربى أنا الآخر ، وكان « كمال دوس » بعيدًا عنا ، ولعله تعمد ذلك ..

وفى خلال يومين ساد الهدوء المعتقل مرة أخرى ، لكن فى خلال إحدى الليالى أخذ أخونا المعتقل محمود سرحان يصرخ من شدة الألم فى بطنه ، وفشلت كل الجهود فى إسكات الألم ، فلم تجدِ بعض الأقراص المخصصة لذلك ، وكان معنا قليل منها فى القضاء على شكواه ، فقمت وفحصت محمود فحصًا جيدًا ، فتبين لى أنه مصاب بالتهاب حاد فى الزائدة الدودية ، وهذا يحتاج إلى جراحة عاجلة وإلا انفجرت الزائدة ، ومرت الليلة شديدة الوطأة على أخينا محمود وعلينا ، وكان يصرخ ويقول : « ى .. يانا .. يا غُلْبى .. أغيثونى يا ناس .. هموت ..» .

وفى الصباح قررت أن ندق الباب المغلق ، طلبًا للضابط المناوب ، فليس من المعقول أن نترك محمود وهو يقترب من حافة الموت فى هذه الأوضاع التعسة التى لا تمت بصلة لأى رعاية صحية .. وأخذنا ندق الباب .. جاء العسكرى وقال : « ماذا تريدون ؟ » .

– « نريد حضرة الضابط المناوب » .

– « ليه » .

– « واحد بيموت ..» .

– « يموت ولّا يخفى .. فى ستين داهية ..» .

– « حرام ..» .

– « طيب اسكت أنت وهو .. سأبلغ الضابط » .

وبعد ربع ساعة ، فتح الباب ، ووجدنا الضابط كمال دوس يقف فى مواجهة العنبر ، وظل صامتًا بعض الوقت فهرولت إليه قادمًا من آخر العنبر ، ثم قلت وأنا أقف بالداخل قرب الباب : « عندنا يا سعادة البك معتقل مصاب بالتهاب حاد بالزائدة الدودية » .

– « المصران الأعور ؟ » .

– « نعم ..» .

– « متأكد يا دكتور ؟ » .

– « مائة فى المائة » .

– « سأبلغ الداخلية فى القاهرة ، وإذا لم يكن التشخيص صحيحًا فستكون نكبة عليك وعلينا ..» .

– « المعتقل محمود سرحان فى حالة خطرة ..» .

– « سأتصرف .. أغلق الباب يا عسكرى » .

وجلسنا ننتظر ما يقرب من أربع وعشرين ساعة ، ومحمود يئن ويتوجع ويتقيأ ، وشمل العنبر هم ثقيل ، وصمت حزين ، وبعد طول انتظار جاء حكيمباشى مستشفى الشرطة ، ثم أخذ المريض وفحصه ، وأمر بنقله إلى مستشفى سجن طرة ، وعلمنا فيما بعد أن محمود سرحان أجريت له جراحة

عاجلة بمجرد وصوله إلى طرة ، ووجدوا أن الزائدة كانت على وشك الانفجار ، مما جعل الجراح هناك يقول له بعد تماثله للشفاء : « كنت على وشك الموت ، إنهم هكذا دائمًا لا يرسلون الحالات العاجلة إلا فى اللحظات الحرجة » .

وفى أحد الأيام أخذونا مجموعات مجموعات إلى قاعة كبيرة بها مقاعد خشبية ، وسلمونا عددًا من الاستمارات لكى نملأها ، كانت مكونة من عشر ورقات على ما أذكر وفيها بيانات كثيرة عن المعتقل واسمه الرباعى ومؤهلاته وأسماء أقاربه حتى الدرجة الرابعة ووظائفهم ، وتاريخ حياته السياسى وغير ذلك من البيانات ، وكانت الأوراق الأولى خاصة بالمخابرات العامة ، ثم سلمونا مجموعة أخرى من الأوراق على النمط الأول لكى نملأها لمباحث أمن الدولة .

وفى أحد العنابر المجاورة لنا كان هناك معتقل متقدم فى السن . وفى إحدى الليالى اضطجع على « البرش » وهو يبتسم ويقول :

« سوف يفرجون عنى غدًا إن شاء الله » .

وذهل المعتقلون ، لأنه لا يتصل بأحد ، وليس لديه أية مصادر للمعلومات ، فظنوا أنه قد رأى فى منامه رؤيا تشير إلى ذلك ، ولم يأخذوا الأمر مأخذ الجد ، لكن الذى حدث فى اليوم التالى ، أن هذا المعتقل سقط مغشيًا عليه ، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يستطيع أحد إسعافه ، وهكذا أفرج عنه كما توقع ونقل إلى بلده جثة هامدة ، وساد الحزن أنحاء المعتقل ..

وبعد حوالى ثلاثة أشهر من الاعتقال ، قدم إلينا الضابط كمال دوس ، ووجهه ينطلق فرحًا ، وقال بعد أن فتح باب العنبر : « أين الدكتور نجيب ؟ » .

فأسرعت إليه ، وسمعته يقول : « أتيت إليكم ببشرى عظيمة » .

هتفنا بصوت مختلط : « خير يا سعادة البك ..» .

وتخيلنا أنه يزف إلينا بشرى الإفراج عنا ، لأننا لسنا معتقلين على ذمة قضية من القضايا ، ولم نستطع التمادى فى الأحلام إذ سمعناه يقول : « لقد قررت الحكومة صرف رواتب الموظفين الذين لم يوجه إليهم الاتهام ، ومعى الآن توكيلات أرجو أن تكتبوها وتوقعوا عليها ، حتى يستطيع من توكلونه من أقاربكم صرف الرواتب عن الفترة السابقة وعن الشهر الحالى ..» .

وضج عنبر ٦ بالتصفيق والتكبير والشكر ، ثم سلمنى كمال دوس توكيلات المعتقلين لكى أشرف على استكمالها ثم أسلمها له بعد ذلك ، وكان لهذه الواقعة أثر طيب فى نفوس معظم المعتقلين ، ذلك لأن أسرهم سوف يجدون ما ينفقون على أنفسهم ، فيحميهم من ذل الحاجة ويسترهم ، وهذا أمر بالغ الأهمية ، لكن فرحتنا لم تكتمل ، لماذا ؟ لأن بيننا عددًا كبيرًا من أصحاب الأعمال الخاصة ، كالتجار وأصحاب الحرف والمزارعين والمحامين وأطباء العيادات الخاصة والصيادلة وغيرهم ، هؤلاء قد حيل بينهم وبين نشاطهم ، ولا شك أن أسرهم سوف يعانون معاناة شديدة ، بعد انقطاع دخلهم ، وتلك مأساة لن تساهم الحكومة فى حلها ، فماذا ستفعل هذه الأسر التعسة ؟ لو فكر أحد فى معاونتهم لوجهت إليه تهمة جمع الأموال لتمويل الجماعة الإرهابية ، وهذه جريمة فى نظر المسئولين عقوبتها السجن ، إنه حصار جائر حول تلك الأسر المسكينة التى لا حول لها ولا قوة ، فلا عجب أن تتصرف نساء الأسر الكريمة بطريقة مؤلمة فتلجأ إلى أحط الأعمال ، أو إلى الخدمة فى البيوت حتى يوفروا لأنفسهم لقمة العيش ، ونفقات تعليم للأطفال ، ونفقات العلاج وما إلى ذلك .

ولعله من المحزن أن نشير أنه أثناء حرب ١٩٦٧ اعتقل عدد من اليهود والفلسطينيين ، ووضعوا فى

معتقل أبو زعبل الجديد ، وكان مسموحًا لليهود المصريين المعتقلين بأخذ أموال من ذويهم للإنفاق على أنفسهم داخل السجن ، لشراء الطعام والدواء وغير ذلك ، كما سمح أيضًا للمعتقلين المصريين . ولم يكن للفلسطينيين من يرسل إليهم أموالًا ، وفيهم من يدخنون السجائر ، وقد سمح لهم بها ، وفيهم من يحتاجون إلى دواء أو إلى طعام إضافى ، ولم يكن أمام الفلسطينيين وسيلة سوى أن يقدموا بعض الخدمات الصغيرة للمعتقلين اليهود مقابل أجر مالى أو عينى يدفع لهم ، كغسل الملابس مثلًا ، وقد آذى هذا الأمر شعور المعتقلين من الإخوان المسلمين ، وتحدثوا فى الأمر مع ضباط الأمن فى المعتقل ، والتمسوا منهم الموافقة على إحدى الخطتين التاليتين :

١- إما إن يسمح للإخوان المعتقلين بجمع تبرعات لهم من بينهم ، أو تكون المعونة على صورة أشياء عينية .

٢- وإما أن تقوم الحكومة بنفسها بمنح المعتقلين تبرعات أخوية تسد بعض احتياجاتهم .

ولم يوافق رجال الأمن على الخطة الأولى لأنها تعنى قدرًا من التعاطف والترابط بين الإخوان والفلسطينيين وهذا ما لا تريده الحكومة على الإطلاق ، ووعدت المجموعة الأمنية بصرف معونات عاجلة وشهرية للفلسطينيين ، لكن المبلغ كان زهيدًا جدًا لا يفى بأقل القليل من الاحتياجات ، وكانت هذه المعونات الصغيرة جزء من حصيلة أرباح مقصف السجن ، مما جعل الفلسطينيين يعودون للعمل فى خدمة اليهود والمعتقلين مرة أخرى ، وحاول الإخوان أن يقدموا لهم خفية بعض المعونات العينية من خلف ظهر رجال الأمن بالمعتقل .

والواقع أننى شعرت براحة نفسية بالغة عندما تقرر صرف راتبى لأسرتى ، فأنا لم يكن لدى دخل خارجى يذكر يضاف إلى راتبى الذى أعتمد عليه اعتمادًا أساسيًا وخاصة أننى توقفت عن الكتابة فى الصحف والمجلات وعن تأليف الكتب ، وكانت هذه تشكل دخلًا ثانويًا يساعد فى تحمل أعباء المعيشة .

وبعد أن خرجت من المعتقل سألت زوجتى ذات مرة ، كيف قضت الشهور الثلاثة الأولى بعد اعتقالى دون راتب ، فأخبرتنى بأمور عجيبة ، فقد دق جرس الباب فى بيتى بالمدينة السكنية بأبو زعبل ، فأسرعت لترى من الباب ، فوجدت رجلًا يحمل على حماره جوالًا من الأرز ، وكمية من الشاى والسكر والصابون وغير ذلك من المستلزمات الضرورية للمنزل ، وقال هذا الزائر الغريب الذى لم يسبق لها معرفته . « هذه البضاعة دفع الدكتور ثمنها قبل اعتقاله » .

ولم يكد يكمل عبارته حتى سارع بالرحيل قبل أن يذكر اسمه ، وكأنه يولى هاربًا قبل أن تراه عين من عيون المباحث وقد تكرر ذلك مرات .

وأخبرتنى زوجتى أيضًا أنها ذهبت إلى مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى ، وقابلت مديرها الأستاذ سعد الدين وهبة – نقيب الفنانين الآن ، والكاتب المسرحى المعروف – وطلبت منه باقى مكافأة الفيلم السينمائى الذى كانت المؤسسة تستعد لإنتاجه ، وقد وافق على ذلك .

كما أرسلت إذاعة الكويت مكافأة لبضعة أحاديث إذاعية كنت قد أرسلتها إليهم عن طريق صديقى الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد الله ، وكانت هذه المكافأة حوالى خمسين جنيهًا .

وفى فترة اعتقالى لم تبق زوجتى وأولادها وحدها ، فقد ذهبت إلى والدها بحى السيدة عائشة بالقاهرة أيامًا . وخاصة فى الفترة الأولى من الاعتقال وكفلها أبوها رحمه الله كفالة تامة ، وبعد ذلك جاء أبى وأمى وأختى الصغيرة سميرة ليستقروا مع زوجتى فى مسكننا بالمدينة السكنية ، وعاشوا معًا فترة

طويلة ، ولم يسافروا إلا قبيل خروجى من المعتقل بقليل ..

أعود مرة أخرى لأقول أن صرف راتبى لزوجتى أثناء وجودى بالمعتقل قد أزاح عنى همًا ثقيلًا والحمد لله ..

نسيت أن أذكر واقعة حدثت وأنا فى عنبر ٦ من المفيد التعرض لها ، فبعد أن كتبنا الاستمارات الخاصة بالمخابرات وأمن الدولة ، جاء الضابط كمال دوس وفتح الباب ، ونادانى ، فخرجت إليه ، وسار فمشيت إلى جواره ، وهمست « خيرًا » .

قال : « هنا رجل من المسئولين يريد مقابلتك » .

دق قلبى خوفًا ، ماذا يريدون منى ، وأنا لا صلة لى بأية قضية ، صحيح أننى أعرف الأستاذ سيد قطب وشقيقه الأستاذ محمد ، وبعض أفراد أسرته ، لكنها علاقة أخوية عادية ليس لها أية أبعاد سياسية أو تنظيمية ، لكننا فى هذه الأيام لا يعرف أى إنسان هل هو متهم أم برىء أم مدان ، لقد اختلطت الأمور ، وتشوهت الحقائق ، والإنسان يتأرجح كالريشة فى مهب الريح .

وأخذنى كمال دوس إلى حجرة صغيرة تقع خلف عنبر ٦، كنت أسير حافيًا ، أرتدى لباس السجن المعهود بلونه الكالح ، رأسى حليق ، وكذلك شاربى ، والبرودة تسرى فى أطرافى .

وأخيرًا وجدت نفسى أمام شاب طويل قليلًا ، قمحى ، اللون يلبس نظارة شمس سوداء ، ألقيت عليه التحية ، وبقيت واقفًا ، كان يجلس خلف مكتب خشبى متواضع ، وأخذ يوجه إلى بعض الأسئلة العادية عن اسمى وعملى وأنشطتى وهو يقلب فى أوراق أمامه أدركت أنها هى الاستمارات التى ملأناها منذ ساعة ، ثم قال : « ألا تريد أن تقول شيئًا ؟ » .

-« شكرًا يا بك ..» .

هز رأسه وقال : « هل أنت متضايق من اعتقالك ؟ » .

كنت أستطيع أن أجيب بأسلوب دبلوماسى ، وأزعم - كما يفعل البعض - بأنى غير متضايق ، ما دام ذلك لأمن الدولة ومصلحتها ، وأن الإنسان المخلص المضحى من أجل وطنه يجب أن يتحمل بعض المعاناة فى سبيله ، لكنى لم أستطع أن أنافق ، واجتاحتنى موجة مباغتة من الشجاعة وقلت وأنا أتصنع الهدوء ، مع أن ضربات قلبى تتسارع ، وجسدى يرتجف ، وأنا أحاول أن أخفى ذلك كله قلت : « كيف لا أتضايق يا بك ، وأنا لا أعرف مبررًا أو سببًا لاعتقالى هذه المرة .. لم أكن أتوقع شيئًا كهذا بالمرة ... هل يرضيك يا بك .. أن أمشى هكذا حافيًا ، وأنام على البرش ، وأضع رأسى على حجر ، وأحرم من زوجتى وعيالى دون ذنب جنيته ؟ » .

اضطجع إلى الخلف وقال : « هذا إجراء مؤقت .. البلد كانت على وشك أن يلتهمها حريق كبير .. فماذا نفعل ؟ لابد أن نلم بأطراف المؤامرة ونطمئن ..» .

- « إذن اقبضوا على المتهمين » .

- « لا نعرفهم كلهم ، ولهذا لابد من اعتقالكم جميعًا أولًا ..» .

- « من حقى كمواطن أن أكون آمنًا على نفسى ، ورجال الأمن والتحريات يعرفون من المشتبه فى أمرهم .. يجب أن يكون هناك فرز قبل الاعتقال ..» .

- « لا .. لا .. الاعتقال أولًا .. ثم الفرز بهدوء ، ألا يجوز أن يكون بينكم واحد يحاول الاعتداء على الرئيس ..» .

- « هذا احتمال قائم دائمًا ..» .

وبعد فترة قال : « عمومًا سوف نبدأ بالإفراج عمن لم يتورطوا فى المؤامرة بعد أيام قليلة .. بل أفرجنا فعلًا عن أعداد قليلة .. »

ثم سمح لى بالانصراف .. وأخبرنى أن اسمه « هـ. د » . كان كمال دوس ينتظر فى الخارج وعندما خرجت قال كمال فى لهفة : « لقد قضيت وقتًا طويلًا معه نسبيًا .. ماذا كان يقول لك ؟ » .

– « كان يناقشنى فى أمر اعتقالنا .. »

قال كمال : « حذار أن تكون قد وقعت فى الفخ .. كلامهم معسول ويا ويل من تخرج منه كلمة لها معنى .. » .

– « اطمئن .. »

دخلت عنبر ٦ واحتشد حولى الإخوان وكلهم يسألون عن أين ذهبت ، ومع من كنت ، وماذا قال وماذا قلت ، جلست لألتقط أنفاسى اللاهثة ، وأردت أن أخفف التوتر السائد ، وأقلل من أهمية الأمر ، وقلت : « كيف حال الزير ؟ » .

– « زير إيه .. وهباب إيه .. الماء لم يأتِ بعد » .

– « الحمد لله .. خفت أن يأتى الماء فى غيابى فتهدرونه » وأخذ هذا يلكزنى ، وذاك يهزنى ، يحرقهم الفضول لمعرفة أى شيء ، وهكذا المسجونون دائمًا ، يتنسمون الأخبار ، وإذا لم يجدوها اخترعوها ، وكل شائعة أو خبر تعنى فى النهاية .. الإفراج .. ولا شيء غير الإفراج ..

ولم يطل الانتظار ، فقمت بشرح تفاصيل المقابلة ، وبدا على وجوههم الارتياح لسماع ما قلت ، وكان أهم شيء فيه ، هو أن رجل المخابرات « هـ. د » وعد ببدء الإفراج عنا فى أقرب وقت ممكن ، وعلى الرغم من أننا لا نثق عادة فى مثل هذه الوعود ، إلا أننا نميل دائمًا لتصديقها ، ونعيش فى جنة الأمانى والآمال التى تنبض بها قلوبنا ، وخاصة أننا على يقين تام ببراءتنا .

فى اليوم التالى أخبرنى الضابط كمال أنه رأى زوجتى وأطفالى بالحافلة (الأوتوبيس) ، وأنهم بخير ، لكنه لم يستطع أن يخبرها بأننى أقيم معه فى سجن « أوردى أبو زعبل » .

بدأت معرفتى بكمال دوس منذ عام ، ففى صبيحة أحد الأيام كنت أجلس فى مكتبى بالمستشفى ، ودق جرس التليفون وأخبرنى المتحدث بأن هناك حالة « صعق كهربائى » لشاب فى سن المراهقة ، وأن سيارة الإسعاف فى الطريق إلى المستشفى ، ويجب الاستعداد لاستقبال الحالة الخطرة ..

أسرعت بإعداد الإسعافات الأولية اللازمة لمثل هذه الحالات على قدر الاستطاعة ، ووقفت ومعى الممرضات على الباب انتظارًا لقدومه ، وكم كان أسفنا عندما وصل المصاب ميتًا ، كان يرافقه ضابط سجون علمنا بأن اسمه كمال دوس ، وأن الشاب المصعوق بالكهرباء هو ابن أخته ، وقد جاء الشاب مجدى من الصعيد لزيارة خاله الضابط ، وفى صبيحة ذلك اليوم وضع إصبعيه (السبابة والوسطى) فى « فيشة » الكهرباء الخاصة بالغسّالة ، فسرى التيار الكهربائى فى يده اليمنى ثم إلى باقى جسده ، فصرخ صرخة مدوية ثم ارتمى على الأرض ، كان مجدى هذا وحيد أبويه ، وعائلته من الأسر الميسورة الحال ، لم أيأس رغم أن الحالة ميئوس منها ، وبذلت جهدًا خارقًا فى عمل التنفس الصناعى وتدليك القلب ، وإعطاء بعض الحقن اللازمة ، فنحن يجب أن نبذل جهدًا مضاعفًا مع حالتين هما الغريق والمصاب بصعقة كهربائية ، ولكن لم تفلح الجهود التى بذلت فى إنقاذه ، وكان يقف إلى جوارنا الضابط كمال ، ولما تأكد من النتيجة المؤلمة المحزنة ، مزق سترته الرسمية حتى خلعت أزرارها وأخذ يضرب رأسه ووجهه ويصيح حتى انهار تمامًا ، وكنت أواسيه وهو يقول باكيًا : « عندى من الأولاد خمسة ، وهذا وحيد

أبويه ، يا ليت الرب أخذ واحدًا من أولادى ، وترك مجدى المسكين » .

فأخذت أفهمه أنها إرادة الله ، وأنه لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ويجب أن نرضى بما قسمه الله ونصبر ، فليس لنا فى الأمر حيلة ، وأعطيته دواءً مهدئًا للأعصاب ، ثم أحضرت له فنجانًا من القهوة ، وأشعل الممرض له سيجارة كان يجذب أنفاسها بيد مرتعشة ، ثم طلب منى أن أكتب برقية باسم والد مجدى وأكتب فيها « احضروا بسرعة ، مجدى ابنكم فى حالة خطرة » .

الواقع أننى تأثرت جدًا بالحادث ، وبعدها ذهبت إلى كمال فى بيته مواسيًا ، وصحبنى فى العزاء عدد من الأصدقاء ، وظلت العلاقة الودود قائمة بينى وبينه ، وكثيرًا ما تبادلنا الزيارات ، إلى أن حدث اعتقالى هذا الأخير ، والتقيت به فى أوردى أبو زعبل ، وجاء الوقت الذى حاول فيه أن يجاملنى فى حدود الإمكان ، لكن الظروف كانت قاسية وأكبر منه وأكبر منى ، قال لى ذات مرة : « لكم يؤسفنى أن أرى طبيبًا وأديبًا محترمًا مثلك يرتدى هذا الزى المحزن ..» .

قلت بابتسامة راضية : « أنا لا أخجل أو أشمئز من هذا الملبس ، فلن يغير من حقيقتى شيئًا ، ولن يخفض من قدرى أمام نفسى ، لم أرتكب عملًا أندم عليه ، أو خطيئة أستحى منها ، وهذا أمر الله ..» .

❁❁❁

[٣] الليالى الطويلة



قد يظن البعض أن معاناتنا تأتى كلها من تصرفات السلطة الجائرة، وقسوتها البالغة، ولا يتصور الكثيرون أن من بين المعتقلين أنفسهم من يثيرون القلاقل، ويكونون مصدر متاعب ومشاكل وآلام نفسية شديدة.

كان معنا المعتقل (س) وهو شخص محدود الموهبة، قليل الذكاء، انتهازى لا يفكر إلا في نفسه، ولهذا كان سيء السمعة، مكروهًا من الجميع، وخاصة بعد أن عرف عنه أنه يكتب تقارير سرية لرجال الأمن عمن يشك فى إخلاصهم للحكومة، ولم يكن (س) يخجل من الإعلان عن ذلك حماقة منه وجهلًا، ومن المعروف أنه قد حكم عليه فى الاعتقالات الأولى عام ١٩٥٤ بالأشغال الشاقة، وأودع فترة فى سجن الواحات، ثم انشق عن جماعته، وتعاون مع السلطة، وقبض ثمنًا لذلك، وهو العفو عنه، ولم يكن يتوقع على الإطلاق أن تأتى الحكومة مرة أخرى لتعتقله، وتضعه مع غيره من المعتقلين، ذلك لأنه أثبت إخلاصه التام لها، واستجاب لكل مطالبها، ولم تعد له أدنى صلة بالعمل السياسى فى صفوف الجماعة المنحلة، لكنه بعد تفكير فهم أن هذا الاعتقال الأخير لن يطول، وإنما هو مجرد إجراء تحفظى لا أكثر، وسوف يفرج عنه فى وقت قريب، وكان يصرح بذلك دائمًا، وإذا سمع أحدًا يهاجم الحكومة أو سياسة البطش السائدة، تصدى له بجرأة، وحمل عليه حملة شعواء، مما حدا بأحد المعتقلين (ص) أن يقول له بحدة: «مهما فعلت فلن تصدقك الحكومة، وستبقى معتقلًا معنا رغم أنفك، ولم يفرج عنك إلا معنا ..».

وما إن سمع ذلك حتى استشاط غضبًا، وسبّ ولعن، وأقسم أنه سوف يفرج عنه عاجلًا، وهدد كل من يتحدث عن الثورة بسوء بإبلاغ المسئولين عنه حتى يلقى جزاءه الرادع، ومضت الأيام ثقيلة كئيبة فى عنبر ٦ وذات مساء بعد صلاة العشاء، جاء الضابط ومعه عسكرى وسأل عن المعتقل (س) وأخبره بأنه يجب أن يأخذ أشياءه الخاصة ويخرج معه، وظن الجميع أن نبوءة (س) قد تحققت وأنه قد صدر أمر بالإفراج عنه مكافأة له على إخلاصه.

كان (س) يبدو فى قمة الانتعاش والسعادة، وأخذ يبعثر كلمات الشماتة هنا وهناك، ويحذر كل من تسول له نفسه بالإساءة إلى الرئيس، أو التحدث عنه بما لا يليق، وقبل أن يغادر العنبر وهو يضع البقجة تحت إبطه، اتجه صوب المعتقل (ص) وقال له فى تعالٍ: «هل رأيت؟ هأنذا أخرج إفراجًا .. قلت لك إن الحكومة لا تنسى رجالها .. أما أنت فأبشر بالبقاء هنا إلى الأبد ..».

وخرج (س) وجلس سكان العنبر ٦ صامتين، وكل فرد فيه يفكر ويستعيد أحاديثه مع (س)، هل قال شيئًا أمامه يمكن أن يكون موضعًا للحساب والسؤال أمام رجال الأمن؟ والبعض الآخر أخذ يلوم

نفسه لأنه صرح بخبيئة نفسه ومشاعره ضد الثورة التى أذاقته ألوان العذاب ، فلماذا لم يخفِ مشاعره ويعتصم بالصمت داخل المعتقل ، حتى تمر الأزمة ، ويخرج لأهله ؟

بعد مرور أسبوعين قدم إلينا معتقل جديد ، لكننا علمنا أنه اعتقل منذ شهرين ، ثم سيق إلى السجن الحربى للتحقيق معه ، وبعد أن ثبت عدم وجود علاقة بينه وبين القضية الجديدة ، نقلوه من السجن الحربى إلى معتقل أوردى أبو زعبل لينضم للمعتقلين المتحفظ عليهم - كما يسمونهم - وهم الذين ليست لهم صلة بأية قضايا أمنية مطروحة على الساحة فى تلك الفترة العصيبة ، وأخذ هذا القادم الجديد يحدثنا عما يجرى فى السجن الحربى من تحقيقات وتعذيب واعترافات ، ومن هم المتهمون فى القضية الكبرى ، وغير ذلك من أمور ، وتحدث عن الرجل الأول المشرف على التعذيب والتحقيقات فذكر اسم « شمس بدران » المعروف جدًا لكل الناس فى تلك الفترة ، ورديف المشير عبد الحكيم عامر وزير الحربية ، وذات مرة سمعنا هذا المعتقل القادم من السجن الحربى نتحدث عن (س) ، فقال : « أوه .. لقد رأيت (س) فى السجن الحربى » .

لم نصدق ما نسمع ، فقد كنا موقنين أنه تم الإفراج عنه ، وذهب إلى بيته . « يا رجل قل كلامًا غير ذلك ، لقد أفرجوا عنه ..»

ضحك أخونا المعتقل وقال : « عن أى إفراج تتحدثون .. لقد أكل ضربًا بالكرابيج لم يأكله حمار فى مطلع » .

وضحكنا ، ولعل البعض كان شامتًا ، لكن الأمر مثير للغاية ، فكيف تأخذ المباحث رجلها لتعذبه ؟ وأخذ أخونا يروى القصة قائلًا :

- كانت هناك قضية إخفاء الأسلحة التى حوكم فيها البعض عام ١٩٥٤ ، وصدرت ضدهم أحكام .. هذه الأسلحة كان جمال عبد الناصر قد هربها للإخوان قبل قيام الثورة ، وحفظت فى مخزن بعزبة « العشماوى باشا » وكان حسن العشماوى ابن وزير المعارف الأسبق عضوًا بارزًا فى مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين ، وكان ينسق العمل بين الإخوان والضباط قبل الثورة ، كما كان يلتقى مع جمال عبد الناصر كرئيس لتنظيم الضباط .. واحتفظ الإخوان بتلك الأسلحة إلى أن قامت الثورة ، ثم حدث الشقاق الكبير بين الإخوان والثورة .. وحوكم من احتفظوا بهذه الأسلحة .. وانتهى الأمر ... لكن رجال الأمن بعد تلك السنوات الطويلة أدركوا أن كمية الأسلحة المهربة لم تسلم بكاملها للحكومة .. وأن هناك قطعًا من السلاح ما زالت مفقودة ، فقرروا إعادة التحقيق فى القضية عام ١٩٦٥ أى بعد أكثر من عشر سنوات .. ومن الطريف أن المعتقل (س) كان متهمًا فى تلك القضية القديمة الجديدة .. وهكذا نقلوه من أوردى أبو زعبل إلى السجن الحربى للتحقيق معه مرة أخرى ، ومن الطبيعى أن يضرب ويهدد قبل أن يخضعوه للتحقيق الجديد ..»

وأخذ نزلاء عنبر ٦ يضربون كفًا بكف ، وهم مندهشون غاية الاندهاش لما جرى وأخذوا يتساءلون : ترى ماذا كانت مشاعر (س) الذى خرج وهو موقن بالإفراج فإذا به يساق إلى « المحمصة » وهى مكان التعذيب كما يطلق عليه المعتقلون ؟ ؟

اللّهم لا شماتة ..

إن أمثال (س) فى السجون والمعتقلات السياسية كثيرون ، وقد يكون من حق أى إنسان أن يغير رأيه ، بعد أن يظن أنه كان على خطأ فى توجهه السياسى أو تصرفاته ، فالناس يتغيرون ويتحولون لأسباب كثيرة ، بعضها حقيقى نابع من التفكير والاقتناع ، وبعضها ناجم عن الضعف البشرى ،

والبحث عن حياة آمنة مطمئنة ، بعد أن أنهكته التجارب المريرة ، والضغوط القاسية ، وهكذا يتضاءل تمسكه بالمبادئ ، فيتخفف منها ، ويلقى عن كاهله أعباءها ، وما (س) إلا مثل من هذه الأمثلة الأخيرة ، فقد كان فلاحًا مسكينًا رقيق الحال ، ينوء بأعباء الحياة الشاقة ، فباع كل شيء لينجو بنفسه ..

الأيام تمضى ..

والذكريات القاسية تراوح القلوب الصابرة ..

وهناك من يستيقظ فى الليل الطويل ، ثم ينفجر باكيًا ، ماذا جرى ؟ لقد رأى فى منامه أن أحد أطفاله مريض .. وأنه يستغيث به ..

وآخر يرى أن زوجه أتت إليه في الرؤيا تشكو سوء الحال .. إنهم بشر يفكرون فى مصائرهم ومصائر ذويهم الذين يتلقون العلم ، أو الذين كانوا على وشك الزواج ، أو الحوامل اللائى سيضعن حملهن فى غيبة الآباء .. أذكر أن أحد إخواننا الصعايدة (من سوهاج) قال لى : « أعتقد أن زوجتى قد ولدت الآن » .

قلت : « وأنت لن تعرف اسم المولود » .

قال بحماسة : « لا ، لقد أوصيتهم أن يسموه محمود » .

- « وإن جاءت بنتًا يا مصطفى ؟ » .

سكت برهة ، ويبدو أنه لم يعمل حسابًا لذلك ، لكنه بعد تفكير قال : « لابد أنهم سوف يسمونها « سيدة » على اسم المرحومة أمى ..»

ضحكت مداعبًا وقلت : « وإذا ولدت تومين ولدين ؟ »

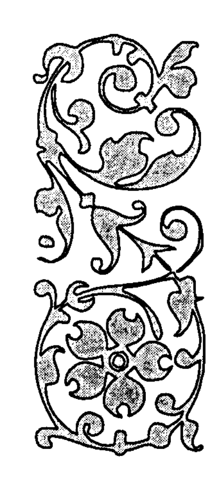
حار مصطفى ولم يدر بماذا يجيب ، فقلت على الفور : « إما أنهم سوف يسمون الأول محمود والثانى محمود أيضًا ، وإما إن يسموا الأول محمود والثانى « سيدة » » .

وشاركنا الحاضرون الضحك ، ذلك لأن النساء فى الصعيد يلتزمن بتوصيات الرجال دون أن يحدن عن ذلك ..

وتمضى الليالى الطويلة الشاقة .. وتمضى .. ونحن ننتظر فرج الله ، الذى لابد أن يأتى فى يوم من الأيام ..



[٤] أبو زعبل الجديد



في أحد أيام شهر نوفمبر ١٩٦٥ فوجئنا بحركة غير عادية فى ساحة السجن، ثم فتحت الأبواب، ووجدنا أحد الضباط ينظر فى قوائم الأسماء، وينادى علينا اسمًا اسمًا، ثم نرص فى صفوف، وتساءلنا ماذا يجرى هنا، ولم يكن أحد من الإداريين بالسجن قادرًا على أن يجيب على تساؤلاتنا، فلا يجب أن يخبرنا أحد بأية معلومات، فمن المفروض أن نظل فى عماية تامة عن كل ما سيجرى لنا، ورأى أحد إخواننا أن هذه القوائم ما هى إلا قوائم الإفراج عنا بعد أن مضى علينا فى السجن بضعة أسابيع، ومما يرجح ذلك أنه ليس بيننا من اتهم بالاشتراك فيما يسمونه المؤامرة الجديدة، كما إن رجل المخابرات الذى التقيت به منذ أيام (هـ. د) قد صرح بأن الحكومة بصدد الإفراج عمن لم تلحق بهم شبهة فى وقت قريب. والحقيقة أن هذا الظن قد أوجد شعورًا عامًا بالتفاؤل، ومع ذلك فقد تراجعت عن تفاؤلى، وخاصة أن أسماء جميع المعتقلين فى أوردى أبو زعبل قد وردت فى القوائم، وليس من المعقول – كما تعودنا – أن يفرج عنا دفعة واحدة، ولهذا قلت لمن حولى من الإخوان: «لا تُفجعوا إذا وجدتم أنفسكم قد نقلتم إلى معتقل آخر ..»

قال أحدهم: «ألا تظن أن هذا إفراج»؟. «كلا ..»

وحشرونا من جديد فى سيارات كبيرة، تحت حراسة مشددة، وانطلقت القافلة الحزينة فى طريق المجهول مرة أخرى، لكن لم يطل بنا المسير، فبعد دقائق من تحركنا وقفت السيارات بنا أمام مبنى جديد أنيق، ولم يكن من الصعب علينا أن نعرف أن هذا هو معتقل أبو زعبل الجديد، وتبخرت أحلام الإفراج أمام الحقيقة المرة الواقعة، وداهمنا غمٌّ شديد حتى لكأننا نُعتقل مرة أخرى، ونزلنا من السيارات وجلسنا القرفصاء، وخرج علينا رجل ضخم الجثة، مكفهر الوجه، يميل إلى السمرة، ويرتدى زى الشرطة وقال: «هل سمعتم عن «الصول» الجوهرى»؟

كنا نسمع عنه الكثير، وخاصة ما يتعلق بقسوته وجفوته، وإمعانه فى تعذيب الإخوان الذين يجرى معهم التحقيق، ولم ننطق .. كانت نظراتنا تعبر عن مشاعرنا الحزينة، ووقف الجوهرى أمامنا وقال: «الشعب لو رآكم لضربكم بالأحذية على رءوسكم .. أنتم خونة وأعداء للشعب ..»

لم ننطق.

واستطرد قائلًا: «على كل واحد منكم أن يخرج من جيبه منديلًا، ثم يعصب به عينيه جيدًا، بحيث لا يرى أى شىء ..»

قال المعتقل الحاج حامد، وهو فراش بإحدى مدارس وزارة التربية: «أنا ليس معى منديل يا أفندم»

صاح الصول الجوهرى بصوت أجش: «اخلع سروالك واعصب به عينيك ..»

ثم أخذونا إلى الساحة الداخلية لمعتقل أبو زعبل الجديد، وأمر الصول كل واحد منا أن يخلع

ملابسه تمامًا ويكومها إلى جواره حتى تتم عملية التفتيش على وجهها الصحيح ، وعندما تلكأ البعض فى فعل ذلك انهالت عليهم السياط ، وهكذا تم بسرعة خلع الملابس ، ووضعها إلى جوار صاحبها ، وأصبحنا جميعًا عراة ، لكن من حسن الحظ أننا معصوبوا الأعين ، ولا يرى أحدنا الآخر ، وبعد أن تمت عملية التفتيش على الوجه المطلوب سمح لنا بالذهاب إلى أماكننا ، ولكن كيف نذهب إليها ونحن معصوبو العيون ؟ ولكن لم تطل بنا الحيرة ، فقد أمسك كل منا بقفا زميله حتى شكلنا سلاسل طويلة من الرجال العرايا الذين يحملون بقجهم فى يدهم الأخرى ، وفى بداية كل سلسلة عسكرى يمسك بيد أول واحد فى الطابور .. وجرى العسكر ، وكنا نجرى معصوبى الأعين وراءه ، ولم نكن نعرف صفات الطريق الذى نجرى فيه ، وبعد لحظات أدركنا أننا نصعد درجات سلم طويل ونحن نلهث ، وفجأة أفلتت يدى من الأخ الذى يقودنى ، ولكنى لم أتوقف ، بل اندفعت جريًا ، وخلفى عدد من الإخوان ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت رأسى تصطدم بحائط ، فتوقفت ، ولم أدر ماذا أفعل ، فتوقفت ، وتوقف من خلفى ، ولم يطل انتظارى ، فقد أتى عسكرى ، وأمسك بيدى ، وقادنى على الدرج ، وبدا السلم طويلًا جدًا ، ولا أدرى أين أصعد ، وفى النهاية وصلنا إلى طريق ضيق على يسارى حائط ، وعلى يمينى سور من القضبان الحديدية يرتفع حوالى مترًا ونصف المتر تقريبًا ، ثم فتح باب ، ودفعت إليه ، ثم أغلق الباب ، عرفت ذلك من خلال صوت المفتاح الحديدى الضخم ، وتحسست المكان بيدى ولكنى شعرت بأن يدًا حانية تشدنى برفق إلى حيث وضعت بقجتى ، وجلست عليها ، وبعد دقائق سمعت صوتًا رقيقًا يقول : « ارفع العصابة من فوق عينيك » .

- « إنهم لم يسمحوا بذلك بعد ..» .

- « اطمئن يا أخى ، لقد ذهبوا » .

تباطأت قليلًا ، فما كان من هذا الأخ إلا أن مد يده وأزال العصابة عن عينيّ ، وفتحت عينى لأجدنى فى عنبر كبير ، به عشرات من الرجال الذين يجلسون صامتين ، ويوجهون نظراتهم نحوى ، لم أكن أجهل أن هؤلاء معتقلون مثلى ، بل إنى أعرف البعض منهم ، ولم أكن وحدى الذى قدم إلى هذا العنبر ، فقد أتى معى ستة ، وبقية المعتقلين الذين كانوا معنا فى أوردى أبو زعبل توزعوا على بقية العنابر فى معتقل أبو زعبل الجديد ، فى الطابق الرابع الذى نزلت به ، كان بهذا العنبر ما يقرب من خمسة وثمانين معتقلًا ، وأنه يضم رجالًا من محافظة سوهاج والقليوبية وبور سعيد والسويس وغيرها .

ولقد كنت معروفًا لدى عدد ضخم من إخوانى منذ سجنى لأول ربما بسبب الجوائز الأدبية التى نلتها وأنا سجين ، وبعض المسلسلات الإذاعية التى أعدت عن قصصى ، وكتابتى فى الصحف والمجلات ، وما إن علم الإخوة بالعنبر باسمى حتى هرعوا إليّ يرحبون بى ويصافحوننى ويعانقوننى .

وكان العنبر نظيفًا ، وبه دورة مياه جيدة فيها مرحاضان لهما أبواب ، بعكس مرحاض أوردى أبو زعبل المكشوف ، كما كان يوجد دش للاستحمام ، لكن الازدحام كان شديدًا يكاد يضيق بعدد المعتقلين ، وكان باب العنبر من القضبان بحيث يرانا ونرى كل من يمر فى الممشى الطويل لممتد أمام العنابر .

واستقر بنا المقام مرة أخرى فى هذا المكان ، لكن الذى آلمنى أشد الألم هو تلك التحقيقات الرهيبة لتى تجرى فى ساحة الدور الأرضى طوال الليل ، وكان التعذيب مستمرًا ، وكذلك الصراخ والعويل والاستغاثة ، مما جعلنى أعانى من الأرق لبضع ليال ، ولم أكن أستطيع النوم إلا ساعتين وقت الظهر ، لكنى تعودت على المأساة بمرور الوقت ، وأمسيت أستطيع النوم مع صدور تلك الأصوات البائسة ، وقد

لاحظت أن الذين يجرى معهم التحقيق يرقدون فى ساحة الدور الأرضى طوال النهار والليل ولا ينامون فى الزنازين الصغيرة الملحقة بذلك الدور ، وقد يظل المتهم مسجّى فى تلك الساحة ليالى وأيامًا قد تمتد من أسبوع إلى شهر ، ويأكل ويشرب حيث هو ، ولا يسمح له بالتحرك إلا عند ذهابه إلى دورة المياه أو إلى المكتب الذى يجرى معه فيه التحقيق ، وكان من بين هؤلاء الدكتور أحمد الملط وهو ذو شهرة واسعة وتاريخ عريق فى جماعة الإخوان ، والأستاذ المذيع التليفزيونى إبراهيم عزت ، وإخوان « العشرات » الذين سبقت الإشارة إليهم ، ومن تثبت إدانته كان يرحّل إلى السجن الحربى لاستكمال التحقيق معه ، وقد تثبت براءة البعض هناك فيعودون إلى معتقل أبو زعبل الجديد مرة أخرى .

ما أقسى ما تمر الأيام .

لقد تشوقت لرؤية أولادى .

ألم يكن من العدل أن يسمح لنا بالزيارة أو حتى المراسلات ؟

وفى هذه الأيام ألقى الرئيس جمال عبد الناصر خطابًا سياسيًا هامًا ، وصدرت الأوامر لقائد المعتقل بأن يذيع الخطاب من خلال ميكروفون المعتقل حتى نسمعه ، كان الرئيس فى هذا الخطاب يحمل بشدة على حلف الرئيس الأمريكى أيزنهاور الذى أطلقوا عليه حلف بغداد .. وأخيرًا أطلقوا عليه الحلف الإسلامى ، وهو مكون من مجموعة من الدول الإسلامية تتكاتف لتجابه الشيوعية والاتحاد السوفيتى ، وصور عبد الناصر الحلف على أنه « خواجة ألبسوه عمامة » ، وكانت الجماهير وهى تستمع إلى الخطاب تهتف وتصفق وتضحك عند سماعها لسخريات الرئيس اللاذعة ..

وفى اليوم التالى لسماع الخطاب ، سألنا رجال الأمن عن رأينا فى هذا الحلف وفى كلام الرئيس ، وطلبوا منا أن نكتب عريضة للرئيس نسجل فيها رفضنا للحلف ، وتأييدنا للرئيس ، ولم نكن ندرى ماذا نفعل ، فإذا تخلينا عن ذلك تعرضنا لمزيد من العذاب والقهر والإذلال ، ولم يكن أمامنا سوى أن نرفض ذلك الحلف المشبوه ، وخاصة أننا دائمًا ضد تلك الأحلاف الاستعمارية من قديم الزمن ، وأخذنا رأى الدكتور « خميس حميدة » وهو وكيل جماعة الإخوان المسلمين السابق ، وكان معتقلًا معنا فقال : « إنها مسألة محيرة ، فقد نؤيد الرئيس فى رفض الحلف الآن ، فيقابل تصرفنا بالرضى ، لكن ماذا نفعل إذا حدث فى المستقبل ووافقت الحكومة على ذلك الحلف ؟ سنكون عرضة للمؤاخذة الشديدة .. إن رأيى هو أن نعلن أننا مع الدولة فى موقفها من الحزب ، ولها أن تتخذ القرار المناسب » .

ولقد كان من الصعب أن نتبع نصيحة الدكتور خميس حميدة ، لأن المطلوب حاليًا هو رفض الحلف وإدانته ..

وتم لهم ما أرادوا ووقعنا على إدانة الحلف ورفضه ، لكن الذى آلمنا هو أن الرئيس شن حملة ضارية على جماعة الإخوان المسلمين ككل ، وأكد أن كل من تطاله شبهة نشاط سوف يبقى فى المعتقل طول حياته ، ونحن نعلم أن الشبهة من السهل أن تأتى من مخبر جاهل أو عدو حاقد ، أو عضو فى حزب الرئيس ، وكلها أمور مقلقة تدعو إلى الحزن والأسف ..

فى إحدى الليالى سمعت اسمى فى الميكرفون فأصابنى ارتباك شديد ، وخاصة أن اسمى جاء بين عدد من أسماء شباب الإخوان القدامى أعضاء الجهاز السرى ، وبعض المتهمين فى قضية السلاح ، وكان معروفًا أن من يسمع اسمه فى الميكروفون عليه أن يجمع حاجاته ، ويستعد للترحيل إلى السجن

الحربى ، فقمت وأنا فى غاية الاضطراب لأرتدى حذائى ، وأربط بقجتى ، ومد أحد الإخوان يده لى بمنديل نظيف ، وقال لى : « اعصب عينيك جيدًا » .

وكان هذا هو المألوف لكل من ينادى على اسمه ، وجلست كالتائه لا أستطيع أن أجمع شتات نفسي ما يقرب من نصف ساعة ، أنتظر الضابط الذى سيفتح الباب وينزل بى إلى الإدارة ، ثم سمعت وقع أقدام الضابط وهو يدق الأرض بحذائه الغليظ ، وقلبى يدق أسرع من خطواته . وأخيرًا وقف أمام الباب ، وكنت أنا واقفًا أنا الآخر فى وضع استعداد واستسلام تام ، لكنه لم يفتح الباب .

قال : « أين نجيب الكيلانى » .

هرولت إليه ، ومعى بقجتى ..

قال : « هل زوجتك اسمها كريمة محمود شاهين ؟ »

- « نعم .. »

- « هذا شيك وصل باسمك من إذاعة الكويت بمبلغ كذا .. ونريد أن توقع على هذا التوكيل لزوجتك كى تصرف الشيك » .

تنفست الصعداء .

هل أنا فى حلم ؟ وهل نجوت فعلًا من الترحيل إلى السجن الحربى ؟ لم أكن أصدق ، لكن الضابط يسلمنى قلمًا ، ويمد لى الأوراق لكى أوقع عليها .. لم أقرأ شيئًا .. كانت يدى ترتجف بشدة ..

قال لى الضابط : « اهدأ حتى يأتى التوقيع سليمًا .. »

وما إن انصرف الضابط ، حتى ضج الإخوة بالضحك ، وأخذوا يهنئوننى بالنجاة ، حتى لكأنى حصلت على قرار إفراج .

شربت جرعة ماء أحضرها لى إخوانى ، واستلقيت على ظهرى حتى أجمع شتات نفسى المبعثرة ، كنت خجلًا أمام نفسى من هذا الاضطراب الزائد الذى يلم بى عند كل حدث مجهول ، لكن ما حيلتى ؟ هكذا خلقنى الله سريع التأثر ، شديد الانفعال ، ولا أتوقع خيرًا أبدًا من هؤلاء الطغاة ، الذين ينظرون إلى الناس دون تفرقة على أنهم متطرفون .. منحرفون .. خونة .. إرهابيون .. أحيانًا كان يبدو لى أن الموت أفضل ألف مرة من هذه الحياة القاسية الرهيبة ، لكنى كنت سرعان ما أهدأ ، وأعتصم بالصبر وأذكر نفسى بكلمات الله :

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ...﴾ .

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ .

لهذا كان عزائى فى آيات القرآن الكريم .

وفى الصلاة .. وفى ذكر الله ..

أراد إخوانى من أهل الصعيد بسوهاج أن يُسرّوا عنى ، وأن يمدونى بأحداث حقيقية قد تصلح كمادة للكتابة ، فقال لى الأستاذ عويس وهو مدرس بمدرسة « الخيام » الابتدائية (والخيام قرية فى محافظة سوهاج) فقال : « هل سمعت عن قضية الحلبة ؟ »

فقلت فى دهشة : « حِلْبة ؟! إنها نبات أخضر يشبه البرسيم ، لكن أية قضية تقصد ؟ » .
وأشار عويس بيده ، فحضر عدد من الشباب الصعايدة ، بينهم رجل فلاح قح ، يصعب عليّ أن أفهم كلمة واحدة من لهجته المغرقة فى المحلية والتى لم أسمع مثلها من قبل ، وطلب عويس منهم أن يرووا قصة قضيتهم التى حدثت فى عام ١٩٥٦ بعد أن أصدر جمال عبد الناصر دستورًا جديدًا للبلاد ، أغلق بموجبه المعتقلات - كما زعموا - وحل محكمة الشعب التى حاكمت الإخوان فى عام ٥٤ - ١٩٥٥ وغيرها من المحاكم الاستثنائية .
واستمعت إلى القصة باهتمام ، وكان عويس يتولى شرح ماغمض عليّ من أقوال إخوانه الصعايدة ، وقضية الحِلْبة تتلخص فى الآتى :
قام بعض الفلاحين بزراعة مساحة كبيرة من الحلبة ، وعند الحصاد كانوا يسجلون أسماء العمال فى كراسة صغيرة ، ويكتبون أمام كل اسم ما أخذه من الأجر المتفق عليه بالقروش ، وكان يتولى أمر الكتابة فى الكراسة طالب بالسنة الأولى فى مدرسة الزراعة المتوسطة ، وفى أثناء سير هذا الطالب بالليل عائدًا من الحقول إلى بيته صادفه كمين من رجال الشرطة يترصدون لصوصًا سرقوا بعض المواشى ، فأمسكت الشرطة بذلك الطالب ووجدت معه الكراسة وأسماء الفلاحين ، كما قرءوا أيضًا عبارة على غلاف الكراسة تقول « يسقط جمال عبد الناصر ، ويعيش الهضيبى » فما كان من الضابط المسئول إلا أن أمسك بالطالب الصغير وأرسله مخفورًا إلى أمن الدولة بسوهاج ، وصدر الأمر بالقبض على الطالب وعلى كل من وردت أسماؤهم فى الكراسة بتهمة تكوين تنظيم سرى ضد الحكومة لقلب نظام الحكم .
وأمام دهشة الناس سيق الفلاحون الذين لا يعرفون القراءة والكتابة إلى القاهرة . ولكن محكمة الشعب كانت قد ألغيت ، والمعتقلات أغلقت ، وهكذا قدموا لنيابة أمن الدولة لمحاكمتهم ، ووضعوا فى سجن القاهرة رهن التحقيق ، واستمر التحقيق ثلاثة أسابيع تبين خلالها أن الفلاحين الفقراء الأميين لا يعرفون شيئًا عن السياسة ولا يعرفون من يكون الهضيبى ولا من الإخوان المسلمين ، الطالب الصغير وحده البالغ من العمر ستة عشر عامًا هو الذى لديه فكرة مبسطة عن الإخوان والهضيبى ، وتبين للمحققين أن الأسماء التى وردت فى الكراسة لأجراء يعملون فى الزراعة وأخذ المحققون يضحكون ثم أصدروا أمرًا بحفظ القضية والإفراج عن الجميع .
من العجيب أنه بعد مرور ما يقرب من تسع سنوات على هذه الواقعة ، جاء رجال وزارة الداخلية ، واعتقلوا أصحاب قضية الحلبة مرة أخرى ، وهم الفلاحون الأميون ومعهم طالب الزراعة الذى أصبح مدرسًا الآن بعد أن تخرج منذ سنوات وحصل على دبلوم الزراعة المتوسطة ، وكانوا مجرد معتقلين ينطبق عليهم قرار « اعتقال كل من سبق اعتقاله والمشتبه فى أمره » .
ومن سوهاج أيضًا تم اعتقال رجل يدعى « عبد الرحيم المهندس » سألته : « ما هى قصتك يا عبد الرحيم » .
عدّل من وضع منظاره الأبيض فوق عينيه وقال : « نحن أصلًا من عائلة « أبو برسيم » .
لم أستطع أن أمسك نفسى من الضحك ، لكنه استطرد فى جدية وقال : « أبو برسيم حوّرت بعد ذلك إلى عائلة « البيرشمى » وهى أسرة معروفة فى المنوفية .. ونحن أصلًا ننتمى إلى عائلة البيرشمى هذه ، لكن جدى الكبير إبراهيم كان مهندسًا ذائع الصيت ، وأرسلته الحكومة إلى الصعيد لكى يحمى شطآن نهر النيل من التآكل ، وأقام هناك (فى المنيا) وأطلق عليه الناس اسم (إبراهيم المهندس) هل تعرف يا سيدى الدكتور النبوى المهندس وزير الصحة ؟ »

- « نعم أعرفه يا عبد الرحيم ، وهو من أساتذتى فى كلية الطب » فابتسم عبد الرحيم ابتسامة عريضة وقال : « هذا الوزير هو ولد عمي .. وهو من أحفاد جدنا الكبير إبراهيم المهندس طيب الله ثراه .. لكن كما تعلم أصبح فى أسرتنا الأغنياء والفقراء .. وأنا يا أخي من الفرع الفقير .. لكننا شرفاء محترمون .. ونحن لسنا فى حاجة إلى ابن عمنا الوزير ولا غيره .. لن أطيل عليك .. أنا لم أتعلم تعليمًا نظاميًا كافيًا ، حفظت القرآن ، وأجدت القراءة والكتابة ، وأخذت أبحث عن وظيفة ... أرسلت عشرات الرسائل إلى جمال عبد الناصر دون جدوى ، ثم جاء اليوم الحاسم .. انتبهت إلى عبد الرحيم وقلت : « متى كان ذلك » ؟ « عندما أرسلت رسالة إلى جمال عبد الناصر وقلت له فيها : إذا لم تأمر لى بوظيفة ، فسوف أهتف بحياة الملك أحمد فؤاد الثانى وليّ عهد الملك المخلوع فاروق الأول ... وعندها قامت الدنيا ولم تقعد ، وجاء العسكر بالسلاح والعربات المصفحة وقبضوا عليّ فى عام ١٩٥٦ بتهمة التآمر على الثورة وزعميها .. ووضعونى فى سجن مصر ، وبدأت نيابة أمن الدولة تحقق معى ... لم يستمر التحقيق أكثر من ستة عشر يومًا .. وعرفوا أن المسألة تهديد أجوف ، وهزار فى هزار . وهكذا أفرجوا عنى .. وعدت إلى بلدتى بعد أن تلقيت درسًا موجعًا فى الأدب .. وقد تعجب كثيرًا جدًا . ..»

- « لماذا أعجب يا عبد الرحيم » ؟ « لقد صدر أمر بتعيينى فى وظيفة حكومية على الفور وأصبحت أقرأ عدادات المياه فى المنازل .. والحمد لله لقد جعلونى موظفًا محترمًا .. ولو لم أهدد بالهتاف بحياة الملك أحمد فؤاد الثانى لما نلت بغيتى ..» .

قلت : « لماذا اعتقلوك هذه المرة يا عبد الرحيم ؟ »

- « أنا شخصيًا لا أعرف .. لقد أخذت ألحّ وأسأل الضابط عن السبب دون جدوى ، وأكدت لهم أننى لم أكن من الإخوان المسلمين فى يوم من الأيام .. وكان الضابط مقتنعًا بكلامى .. وبعد أن تعب من كثرة أسئلتى ومناقشتى .. قال لى فى سخرية : لقد اعتقلناك يا عبد الرحيم « كمالة عدد » ، وهى كما ترى كلمة تعنى الاستهزاء بى ، ولما لاحظ الضابط أسفى وغضبى أخبرنى بأن القرار الجمهورى الصادر يقرر اعتقال كل من سبق اعتقاله أو المشتبه فى أمره . ..»

ولم تكن حادثة « الحلبة » أو حادثة « عبد الرحيم المهندس » هى المثل الوحيد لعشوائية الاعتقالات ، فقد كان هناك مئات الحالات الشبيهة بذلك ، مثال ذلك الرجل الذى طلب ترشيح نفسه ضد الرئيس فى انتخابات رئاسة الجمهورية ، وكنا نطلق عليه فى المعتقل « سيادة الرئيس » ، والمعتقل محمد جبالى الذى اعتقل لمدة يوم واحد فى الخمسينات ، من القرن العشرين ، لمجرد تشابه اسمه مع معتقل هارب ، ثم أفرج عنه بعد معرفة حقيقته ، لكنهم جاءوا واعتقلوه فى عام ١٩٦٥ لأنه سبق اعتقاله خطأ يومًا واحدًا قبل ذلك ، والأخوان شاهين وهما محاميان ، بل والأغرب من ذلك اعتقال رجل من أصدقاء « الخُطّ » مجرم الصعيد واسمه محمد عبد اللطيف ، ومن المضحك أن هذا الرجل كان فى المعتقل الجنائى (معتقل الأشقياء) فى قنا ، وفى الحقيقة أن هذا الرجل كان يبدو طيبًا سمحًا ، ولا يكف عن القراءة فى المصحف ، ويعلل اعتقاله مع الإخوان هذه المرة ، بأنه كان فى شبابه يتردد على شعبة الإخوان فى بلده ليسمع الدروس الدينية التى كانت تعجبه ، وكان يضحك ويقول : « يومان فى معتقل المجرمين بقنا ، ويومان فى معتقل الإخوان المسلمين فى أبو زعبل .. حتى لكأن كتب علينا أن نقضى معظم أيامنا فى المعتقلات ..»

وكان فى المعتقل أيضًا رجل « حشاش » ضليع وهو الذى كان يجلس « مسطولاً » فى إحدى المقاهي ، وسمع في الإذاعة تسجيل حادث الاعتداء على الرئيس جمال عبد الناصر فى المنشية ، فعلق

قائلًا وهو تحت تأثير المخدر : « ست رصاصات وما تجيش واحدة منهم فى قلبه ؟ » وسمعه أحد المخبرين فقبض عليه ، ثم قدم للمحاكمة بتهمة غريبة وهى « تمنّى اغتيال سيادة الرئيس » وحكم عليه من محكمة الشعب فى قضايا ١٩٥٤ بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ ... ويخرج ... وتمر الأيام ثم يعاد اعتقاله مع الإخوان ، مع أنه لم يكن عضوًا بالجماعة فى يوم من الأيام .

وقد يشتد العجب عندما نعلم أن الداخلية اعتقلت عددًا من « العمد » فى قرى سوهاج ، أغلبهم قد تخطّى السبعين من عمره ، وقصة هؤلاء العمد أنه بعد قيام الثورة بأيام ، جاءهم مأمور المركز وجمعهم فى صعيد واحد ، وقال لهم : « إن الثورة التى قامت هى ثورة الإخوان المسلمين ، وعلى كل عمدة فيكم أن ينشئ شعبة للإخوان فى بلده ، ويكون رئيسًا لها ، وهذه هى أوامر الحكومة » .

وتم للمأمور ما أراد ، وتمر سنوات ، ثم يأتى عام ١٩٦٥ أى بعد الثورة بثلاثة عشر عامًا ، ويصدر أمر باعتقال هؤلاء العمد المساكين ، هذا وقد رأينا بعض كبار السن القادمين من أقصى الجنوب ، والذين اعتقلوا لأول مرة فى عام ١٩٦٥ ، وكان أحدهم - وقد اقترب من الثمانين من عمره - يقول : « لماذا لا يتفاهم حسن البنا مع الحكومة حتى يفرجوا عنا ؟ » ولم يكن هذا الرجل يعلم أن حسن البنا مات منذ سنوات طويلة ..

الواقع أن عملية الاعتقال التى اجتاحت مصر فى تلك الأيام كانت عملية طائشة عشوائية على نطاق واسع ، ولم يكن لها ما يبررها ، ولقد كتب صلاح نصر مدير المخابرات فى عهد عبد الناصر فى مذكراته أنه رفض أن يتولى قضية سيد قطب ، معللًا ذلك بأنها ليست قضية ، مما ضايق منه عبد الناصر وقال له : « إحنا كل ما نقول لك امسك حاجة تقول لأ .. خلاص شمس بدران هيمسك القضية » وقال صلاح نصر فى مذكراته أيضًا أنه بعد صدور الحكم بإعدام سيد قطب ، طلب صلاح من الرئيس عدم التصديق على الحكم لأن إعدامه (ومجموعته) حرام .. فتبرم عبد الناصر من كلامه وقال له : كفاية .. مراتى بتقول حرام .. وأنت بتقول حرام .. خلاص .. أنا صدقت على الحكم ، هذا بعض ما جاء فى مذكرات مدير مخابرات عبد الناصر ، وقد حاولت أعبر عنه من الذاكرة ، ومن يرد الرجوع إلى هذه المذكرات فإنه يسهل عليه ذلك ، لأنها صدرت فى كتاب ، بالإضافة إلى أنها نشرت فى مجلة أسبوعية كبيرة فى مصر قبل ذلك ، وهى حسبما أعتقد مجلة المصور ، والواقع أن الاعتقالات شملت عددًا من الإخوان الذى استقالوا من الجماعة منذ سنوات ، وبعضهم كان على خلاف شديد مع قيادتها ، ولم تفرق الحكومة بين من بقوا فى الجماعة ومن تركوها نهائيًا .

وخلال هذه الفترة اعتقلت الحكومة مجموعة من أعضاء حزب الوفد ، كما اعتقل الصحفى الشهير مصطفى أمين وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وكذلك حوكم حسين توفيق الذى اتهم فى قضية مقتل « أمين عثمان باشا » وزير المالية فى حكومة الوفد ، وكانت الثورة قد أفرجت عنه بعد قيامها ، وأسقطت بقية سنوات العقوبة عنه ، وفى هذا الوقت أيضًا اعتقل أصدقاء السيد كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة ، بعد اختلافه فى الرأى مع جمال عبد الناصر ، الذى حدد إقامته فى مكان معين ، وعقب الرسالة التاريخية التى بعث بها كمال الدين حسين والتى يقول فيها لعبد الناصر : « اتق الله ... » .

ومن الطريف أنه كلما جاء معتقل جديد فكنا نقول إنه :

إخوانى - أو وفدى - أو شيوعى - .. إلخ وإذا لم تكن تعرف هوية المعتقل فكنا نقول عنه : « فئات أخرى »

تمثلًا بما كان يطبق فى قانون الانتخابات المصرى الذى يقسم ممثلى الشعب إلى عمال وفلاحين ومثقفين وفئات أخرى .

إننى كثيرًا ما أتذكر كلمات الأخ المعتقل إبراهيم هلال عندما استبدت به الحيرة ، وعجز عن تفسير ما يجرى من أحداث فقال قولته المشهورة بلهجته الشعبية المحببة : « أصل الحكاية بَظْوتت ..»

لقد اختلط الحابل بالنابل ، وتلوثت قيم عظيمة كانت راسخة فى كيان الأمة ، وضاع الأمن والأمان وأصبحت مصر سجنًا كبيرًا . يعيش ساكنوها فى خوف ورعب واضطراب ، سواء من كانوا داخل الأسوار أو خارج الأسوار ، وأصبحت أمنية الشرفاء فى تلك الفترة أن يخرجوا من مصر ، ويبحثوا لأنفسهم عن أرض آمنة ، ينعمون فيها بالحب والسلام والحرية والكرامة ..

كان أخونا « عويس عبد الوهاب » معتقلًا مميزًا فى سلوكه وتصرفاته ، كنت تنظر إلى وجهه فترى فيه وجه المصرى المسلم الأصيل ، وكانت كلماته تدل على إيمان ونبل وصدق ، وباختصار فهو عمومًا الإنسان الذى تحب أن تجلس إليه ، فتشعر بالارتياح والثقة والطمأنينة ، ومع ذلك فلم أكن أعرف عن تاريخه شيئًا سوى أنه مدرس ابتدائى بمدرسة فى قرية « الخيام » بالصعيد .. وذات مرة شاهدت الأخ الأستاذ حسن دوح يمشى أمام العنبر ، وحسن - كما سبق وأشرت - زعيم الجامعة على أيامنا ، ومجاهد كبير فى حرب فلسطين ، وحرب القنال قبل الثورة ، وقدم حسن إلى باب عنبرنا وقال : « أين عويس عبد الوهاب » .

وهبّ عويس واقفًا ، وجرى عند الباب ، ومد يديه من خلال القضبان واحتضن حسن دوح فى شوق وحب . « أهلًا أخويا عويس » .

- « أهلًا أخويا حسن » .

وتساءلت بينى وبين نفسى ما الذى جمع بين عويس القادم من قرية الخيام ، وحسن دوح الذى كان اسمه على كل لسان فى المجتمعات السياسية والثقافية والإسلامية .. ألا يبدو الأمر غريبًا ؟ .

وكنت معجبًا بحسن دوح وتاريخه وخطبه الملتهبة فى المؤتمرات الجامعية الشهيرة ، وكان الناس يرددون بعض مقاطع من خطبه ، كما كانت الصحف تحتفى بأخباره وبياناته السياسية المؤثرة . وأدركت أنه لابد وأن يكون لعويس عبد الوهاب - هذا الرجل البسيط المتواضع - شأن أى شأن ، وكان يصعب عليّ أن أجر عويس إلى الحديث عن نفسه ، ولهذا قررت أن أبحث عن حقيقة عويس بين أهل محافظته وأصدقائه من خارج محافظته .

هذا الفلاح البسيط الذى يعمل بالتدريس كانت له قصة بطولة رائعة فى حرب فلسطين ، لم يكن يرهب الموت ، فاستطاع أن يقوم بعمليات فدائية مذهلة ، وكان آخرها معركة مصيرية خاضها هو وإخوانه . ولو لم تحسم نهاية المعركة لصالح الفدائيين لحدثت « فالوجة » أخرى ، حوصر فيها جزء آخر من الجيش المصرى ، وقد استطاعت مجموعة عويس أن تدمر الموقع ، وتضحى بعدد من الشهداء ، ونال عويس مجموعة طلقات من مدفع رشاش فى بطنه لكنها لم تخترق الجدار الخارجى للبطن ، ولقد رأيت بطن عويس خلسة وهو يغير ملابسه ، فوجدتها تشبه الغربال من أثر الإصابة ، ومن الغريب أن هذه المجموعة من الفدائيين كانت موضوعة فى معسكر الاعتقال طبقًا لأوامر رئيس الحكومة آنذاك محمود فهمى النقراشى باشا ، لكن قائد الجيش المصرى فى فلسطين اتفق معهم على أن يخرجوا من المعتقل بضمانه شخصيًا ، ثم يؤدوا مهمتهم المقدسة ، ويعودوا إلى المعتقل مرة أخرى ، وهكذا بقى عويس جريحًا يعالج حتى شفى ، وانضم إلى رهط المظلومين من المعتقلين ، ولم يكن ذلك الاعتقال إلا تحسبًا لما

قد يقدمون به من تهديد للحكم الملكى ، وهو تهديد محتمل حسبما رأى المستشارون فى السرايا وفى الوزارة .. وفى عام ١٩٥٦ أيام العدوان الثلاثى قام عويس بواجبه ، وأخذ يدرب الشباب على السلاح وحرب العصابات حتى يشتركوا مع رجال المقاومة لطرد القوات الغازية ، من منطقة القنال ..

وعلى مستوى القرية لعب عويس دورًا بارزًا بين العائلات التى يلتهم الثأر شبابها ، وكاد يفقد حياته وهو يحاول إيقاف المعارك الضارية بينهم ، كما كان سباقًا إلى بذل الجهود فى مجال حل المشاكل الاجتماعية التى تعصف بقريته ، بل والقرى المجاورة ..

وذات مساء ونحن فى ذلك العنبر بمعتقل أبو زعبل الجديد ، قدم إلينا وافد جديد . « ما اسم الأخ ؟ » .

– « زهير قداح من مدينة غزة .. أعمل هناك مدرس لغة إنجليزية .. وتخرجت من كلية الآداب جامعة القاهرة » .

– « ولماذا اعتقلوك ؟ » .

– « اعتقلونى أنا ؟ ؟ كيف ذلك ؟ لقد أخبرونى بأنى سأقضى الليلة هنا وسأرحل فى الصباح » .

– « إلى أين سترحل ؟ » .

– « لا أدرى » .

– « وماذا قالوا لك عندما أحضروك من غزة ؟ » .

– « قالوا إنى مطلوب فى الداخلية بالقاهرة لأمر بسيط ثم تعود لغزة .. إن هذا الاستدعاء كثيرًا ما يحدث » .

واضح أن زهير قداح لا يعرف شيئًا صحيحًا عما يجرى ، ولابد أنه أتى فعلًا يؤاخذ عليه من الناحية السياسية ، وكان على أن أتحاور معه لعلى أستنبط الحقيقة ، وعلى ضوء ذلك يمكن توجيه بعض الإرشادات والنصائح له حتى لا يخطئ فى التحقيق الذى سيُجرى معه . قلت له : « هل لك صلة قديمة بالإخوان ؟ » .

– « لا ..» .

– « هل تعرف سيد قطب أو أحدًا من تلامذته ؟ » .

– « لا . . .» .

– « هل تحدثت بسوء عن الرئيس أو الثورة ؟ » .

– « لم يحدث شىء من ذلك قط ..» .

– « حسنًا .. هل تعرف أحدًا من جماعة التبليغ ؟ » .

– « التبليغ ؟ ما تلك الجماعة » ؟ . « هم فئة من الناس ، يخرجون فى سبيل الله ، وينزلون فى المساجد يتحدثون مع الناس عن عقيدة التوحيد وترسيخ الإيمان الصحيح فى القلوب ، ولا يتكلمون فى السياسة أو الحكومة .

صمت زهير برهة ثم قال : « أذكر أن عددًا من الرجال الطيبين الأتقياء قدموا إلينا فى غزة ، وكانوا يتحدثون عن الدعوة إلى الله والإيمان به فى رقة ووداعة ، وليس لهم أدنى اتصال بالسياسة ، ولقد دعوتهم لشرب الشاى فى بيتى ..» .

قلت باهتمام : « هل شربوا الشاى عندك ؟ » .

– « نعم ..» .

قلت بثقة : « تلك هى قضيتك » .

لم يكن زهير مقتنعًا بما أقول ، وكان يصر على أنه ليس معتقلًا ، وأنهم سيأخذونه فى الصباح إلى وزارة الداخلية ، ثم يعود على الفور إلى غزة ليواصل عمله فى التدريس هناك ، لأنه هو الذى سافر من غزة إلى القاهرة بتذكرة فى القطار اشتراها من ماله ، ذهابًا وإيابًا ، وأخذ يذكر لى أنه يلبس بدلته كاملة تحت تلك الملابس المؤقتة التى سلمها له العسكرى عند مجيئه إلى هذا المكان ، قلت له : « إن هذه الأعداد الكبيرة فى هذا المبنى هم معتقلون من الإخوان ، وأنت واحد منهم ، ويجب أن تتأكد من ذلك ، ولا تصدم عندما يفوتك قطار غزة غدًا ، لأنك بالتأكيد ستقضى معنا هنا فترة من الزمن ، قد تطول أسابيع أو شهورًا ..» .

وبدا لى أنه غير مصدق لما أقول ، ونام زهير معنا فى العنبر ، وعند الفجر جاءوا وأخذوه ، وأخذنا ننتظر عودته طول النهار ، لكنه لم يأتِ إلا وقت العشاء ، ودخل العنبر مهرولًا يجمع حاجاته فى سرعة وارتباك ، كى ينتقل إلى عنبر آخر ، وانتهزت الفرصة واقتربت منه ، ثم قلت : « ماذا فعلوا بك ؟ » .

– « ضربونى علقة ساخنة » .

– « لماذا ؟ » .

– « جماعة التبليغ كما قلت لى ، وقد أكدت لهم أنه لا صلة لى بهذه الجماعة ، وإنى عزمتهم على شرب الشاى فى بيتى من باب إكرام الضيف .. ولا شىء غير ذلك ، لقد التزمت فى الإجابة على أسئلتهم بما نصحتنى به ..» .

– « هل تؤمن الآن بأنك معتقل ؟ » .

وخرج زهير قداح إلى عنبر قريب منا فى نفس الدور (الدور الرابع) ، وكنت أراه يرتدى معطفًا سميكًا عندما يخرج من العنبر وعلى وجهه ابتسامة استسلام ورضى بقضاء الله وقدره ، وهو يحمد الله لأنه لم يحبس على ذمة قضية من القضايا المعروضة على الساحة ، وإنما أصبح مجرد معتقل تحت التحفظ .

ومن بين المعتقلين الصعايدة فلاح طيب يهوى الميكانيكا ، وفكر ذات مرة فى أن يصنع بيديه بندقية (غدارة) وهى عبارة عن قطعة سلاح مبسطة ، وبدأ مشروعه بحماسة ، وما إن انتهى من صنعها حتى فكر فى تجربتها ، فوضع فيها بعض الطلقات ، لكن التجربة فشلت فشلًا ذريعًا ، فأمسكوا بها وبه ، وقادوه إلى المحاكمة . وعندما حاول أن يدافع عن نفسه قال لهم بثقة : « هذه ليست بندقية ..» .

– « بل هى بندقية » .

– « إذا كان الأمر كذلك ، فضعوا فيها رصاصة ، ثم أطلقوها علىّ ، فإذا أصابتنى فى مقتل ، فسيكون ذلك جزائى ، وأموت وانتهى الأمر ، وإذا لم تخرج منها الطلقة فأنا برىء » .

وأجريت التجربة ، ونجا أخونا من الاتهام ، لكنهم أحالوه إلى المعتقل .. أيضًا تحت التحفظ ..

وفى المعتقل التقيت بعدد من الشخصيات منهم العلامة الكبير الأستاذ محمود شاكر الحاصل على جائزة الملك فيصل العالمية ، ومحقق كتاب تفسير الطبرى ، كما التقيت بالأستاذ الناشر إسماعيل عبيد صاحب « دار التراث » وقد نشر لى قبل ذلك بعض الكتب ، والأستاذ الناشر وهبة حسن وهبة ، صاحب مكتبة « وهبة » ، وقد نشر عددًا كبيرًا من الكتب للأستاذ سيد قطب ومن أشهرها كتاب « معالم فى الطريق » الذى أثار ضجة كبرى ، كما نشر للأستاذ محمد قطب وخالد محمد خالد وفتحى عثمان ، ولى أيضًا ، وكان قد سبق سجن الحاج وهبة فى عام ١٩٥٥ بسجن بنى سويف لمدة

خمس سنوات . والتقيت بالأستاذ عطية الشيخ رئيس المكتب الإدارى للإخوان بمدينة طنطا وكان يعانى مرض الكبد والبول السكرى ، وقد تقدمت به السن ، رحمه الله ، وهو الذى أخبرنى عن موت الأخ العزيز الصديق محمود أحمد صقر من قرية « منية البندرة » من جراء التعذيب فى شهر أغسطس عام ١٩٦٥ ، وكان الشهيد شقيق صديقى الأستاذ لطفى صقر ، ورأيت فى المعتقل الشيخ كشك صاحب الخطب المؤثرة والدروس الدينية التى طار ذكرها بعد ذلك فى كل مكان ، وسجلت على أشرطة ، وكانت تسوّق فى أنحاء العالم العربى والإسلامى ، وخاصة فى عهد الرئيس السادات وما بعده .

وجاء شهر رمضان المبارك وأنا فى معتقل « أبو زعبل الجديد » وفى أثناء هذا الشهر الفضيل توقفت التحقيقات والتعذيب مؤقتًا ، وبدأت الإدارة تمدنا بطعام أجود نوعًا ما ، كما قدمت لنا كمية من الخضراوات كالفجل والجرجير ، ومن الفواكه كالبرتقال واليوسفى ، وعندما رأينا الفواكه لأول مرة بعد شهور من الحرمان كنا نأكلها بقشرها حتى نستفيد أقصى استفادة من الفيتامينات التى بها ، ومن بين الإكراميات أيضًا فى هذا الشهر أن سمحت الإدارة لأحد المعتقلين أن يرتل كل ليلة ربعًا من القرآن الكريم بصوت جميل مؤثر ، بدون مكبر صوت ، وكنا نستمع إليه فى سعادة ، وفى إحدى الليالى ، بينما كان المقرئ يقرأ ، ونحن نستمع فى خشوع ، صاح أحد الضباط قائلًا : « كفى يا أستاذ .. اختم القراءة .. صدق الله العظيم » .

كان التصرف مفاجئًا ويثير التساؤل ، لكن حيرتن لم تطل ، فقد تناهى إلى سمعنا أصوات استغاثة وضرب مبرح استمر لما يقرب من نصف ساعة ، ترى ماذا جرى ، ثم ساد الصمت والهدوء مرة أخرى وصاح الضابط نفسه قائلًا : « اقرأ يا حاج .. استأنف .. الله يفتح عليك » .

وهكذا بدأنا نستمع من جديد إلى الترتيل .

وفى صبيحة اليوم التالى علمنا أن هناك « إيرادًا جديدًا » والإيراد بمصطلح السجون يعنى دفعة جديدة من المعتقلين أو المسجونين ، ولما استفسرنا عن هويتهم علمنا - كما سبق وأشرت - أنهم أصدقاء عضو الثورة البارز الأستاذ كمال الدين حسين ، وكانوا يسهرون معه ويزورونه كأصدقاء بعد أن حدد جمال عبد الناصر إقامته ، ورأت الحكومة أن تعرف أفكاره الحالية ، وآراءه حول الحكومة وزعيمها ، وكان من المعتاد أن يُقام لمثل هؤلاء المعتقلين حفل استقبال يليق بمقامهم ، وهذا الحفل ليس فيه طقوس سوى الضرب والإهانة وألفاظ السباب البذيئة ..

وكانت صلاة التراويح تقام فى كل العنابر ، ويسمح فيها للإمام برفع صوته ، بعض المجموعات كانت تصلى بجزء كامل من القرآن (ثمانية أرباع) فى كل ركعة ربع ، والبعض الآخر وخاصة المرضى والعجزة وكبار السن يصلون فى وقت أقصر ، وبعدد من الآيات القرآنية أقل ، وهناك من كانوا يصلون التراويح عشرين ركعة ، وهناك من يصليها أقل من ذلك ، فلم يكن الإخوان ينضوون تحت لواء مذهب فقهى معين ، وإنما فيهم الشافعى ، والحنبلى ، والحنفى ، والمالكى ، ولم يحدث أى خلاف قط أثناء تأدية الشعائر ، فالجميع يصلون معًا على أى مذهب . .

وفى هذه الفترة سُمح لنا بالخروج والجلوس ساعة فى شمس الشتاء الجميلة فى الممشى الممتد أمام العنبر ، وكان هذا التصرف من قيادة المعتقل يستحق التقدير والشكر ، وأثناء جلوسنا فى الشمس ذات يوم رأيت مجموعة من المعتقلين يخلعون ملابس السجن ، ويرتدون زيهم الخاص الذى جاءوا به من بيوتهم ، بعضهم يلبس العمامة أو الطاقية أو القبعة ، والبعض الآخر عارى الرأس سألت : « من هؤلاء ؟ وإلى أين هم ذاهبون ؟ » .

أجابنى أحد المارة : « هؤلاء دفعة إفراج » . وشعرنا بالفرح ، كان من بينهم صديقى القديم العالم الأزهرى الشيخ « محمد العوضى سلام » وهو من قرية « كفر حسين » القريبة من قريتنا « شرشابة » ، وقيل أيضًا أن معظم هذه المجموعة المفرج عنها ينتمون إلى بلدة « سنفا » التى عثر فيها على قنبلة أحضرها أحد المجندين إلى القرية ، وكانت هذه القنبلة سببًا فى القبض على خلق كثير من أهل القرية ، ولم يثبت فى التحقيق الذى أجرى أن هذه القنبلة كانت ستستخدم ضد الحكومة أو أحد أفرادها .

عندما رأيت الرجال يجرون فى الممشى المواجه لنا فى الناحية الأخرى فى زيهم المدنى ، قلت من باب المرح : « إذا وصلتم سالمين .. فسلموا لنا على الحبايب » .

ورأيت رجلًا من أهل القليوبية كان يجلس إلى جوارى يشهق باكيًا ، تأثرًا بما قلته عن « الحبايب » . وجاءنى الصديق القديم الشيخ محمد العوضى سلام وقال : « إننى متألم لأننى أخرج بدونك .. لكن لكل إنسان حظ مقسوم .. وستخرج بعدنا قريبًا ، فاعتصم بالصبر وسوف أذهب إن شاء الله للوالد والوالدة والزوجة والأولاد كى أطمئنهم عليك .. ألا تريد شيئًا ؟ » عانقته .. ترقرقت الدموع فى عينى .. لم أستطع أن أنطق بكلمة .. طافت برأسى الذكريات القديمة ، والشيخ محمد هذا يعتلى المنبر ، ويخطب فى الناس ، ويشعل الحماس فى قلوبهم ، ونحن معه ووراءه نهتف « الله أكبر ولله الحمد .. الله غايتنا .. والرسول زعيمنا .. والقرآن دستورنا .. والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » يا لها من أيام ويا لها من ذكريات .. ماتت كالحلم الجميل ، ولم تخلف وراءها غير الأسى والدموع ..

وقبيل يوم العيد انتقلت إلى عنبر آخر فى الجهة المقابلة (الطابق الرابع) ، وكنت سعيدًا بذلك ، إذ التقيت فيه برجل أحبه وأجله ، ذلكم هو الضابط الشجاع فؤاد جاسر رفيق عبد الناصر وأعضاء مجلس الثورة وأحد الضباط الأحرار الشجعان .. كان رجلًا لا يفرط فى كرامته ، وقد خرج من السجن عام ١٩٥٨ قرب نهايته ، لكنهم عادوا واعتقلوه هذه المرة أيضًا ، مع أنهم لم يعتقلوا بقية زملائه من الضباط الذين كانوا معه فى الاعتقال الأول .

وكان لفؤاد ابنان فى الكليات العسكرية أحدهما فى الكلية الحربية ، والآخر فى كلية الشرطة ، وكان يتوجس خيفة من أن رجال وزارة الداخلية قد يطردونهما من الكليات العسكرية بسبب اعتقال أبيهما كما حدث للكثيرين .

وفى يوم العيد جاءه عسكرى علي قدر كبير من الوفاء له ، فقد كان ذلك العسكرى مجندًا فى منطقة الضبعة ، وكان فؤاد جاسر ضابطًا هناك قبل الثورة ، ويعامل ذلك المجند برقته المعهودة وبالاحترام الكامل لإنسانيته ، واقترب فؤاد من باب العنبر ، فصافحه العسكرى وقبل رأسه ، فى غيبة قيادة المعتقل ، وأخبره أنه ذهب إلى بيته ، وأن ولديه لم يُفصلا من الكليات العسكرية ، وأن أهله جميعًا على ما يرام ، ثم أهدى ذلك العسكرى لفؤاد « علبة سجائر » وهى هدية ثمينة بكل المقاييس ، لكن فؤاد لم يكن يدخن ، ولهذا تبرع بها لعدد من المدخنين المحرومين فى هذا اليوم العظيم يوم عيد الفطر المبارك ..

وجلس فؤاد بيننا يشرق وجهه بالفرحة الكبرى .. سألت الأخ الأستاذ فؤاد جاسر : « ماذا فعلت بعد أن خرجت من السجن عام ١٩٥٨؛ أى بعد أن قضيت فيه أربع سنوات أغلبها كان فى سجن الواحات الخارجة ؟ »

قال بابتسامته الحلوة الطاهرة : « اشتغلت مقاول مبانٍ ، لم يكن يكفينى معاشى كبكباشى » .

– « لكن زملاءك من الضباط المسجونين الذين أفرج عنهم ، عينوا فى مجالس إدارات بعض شركات القطاع العام برواتب كبيرة » .

– « لم ألق من الرئيس القبول والرضى ، ولهذا تجاهلونى ، لقد عانيت كثيرًا من أجل الحصول على لقمة العيش الشريفة ، لكنى كنت سعيدًا .. ومع ذلك ، والحق يقال فقد حدث تطور مفاجئ ..»

وأخذ فؤاد يشرح قصة جديدة جرت أحداثها بينه وبين بعض رفاقه القدامى فى تنظيم الضباط الأحرار ، فقد أتى إليه عدد منهم وأخبروه أن صلاح سالم (عضو مجلس قيادة الثورة) مريض ويسأل عنه بإلحاح ، واقترحوا أن يقوم فؤاد بزيارته ، لكن فؤاد اعتذر بحجة أن هذه الزيارة قد تُؤول تأويلًا لا يريحه ، فقد يظن ظان أنه بهذه الزيارة يريد أن يتقرب منهم لكسب يتمناه ، أو فائدة يجنيها ، وأنه فى قرارة نفسه يدعو لصلاح سالم بالشفاء ، رغم أن فؤاد لم ينسَ أن صلاح سالم هو الذى وشى بهم لدى جمال عبد الناصر ، وأخبره أن فؤاد جاسر وحسين حمودة وغيرهم من ضباط الإخوان لا يزالون مصرين على تمسكهم بعقيدتهم الإخوانية ، مما دفع جمال إلى التخلص منهم ، وطردهم من الجيش ، وتقديمهم للمحاكمة وإصدار أحكام بالسجن ضدهم أمام الدائرة العسكرية لمحكمة الشعب ، رغم علم جمال بأنهم أبلوا بلاءً حسنًا فى إنجاح الثورة ، وقد حاول الوسطاء إقناع فؤاد بأن صلاح سالم آسف عن كل ما جرى ، وأنه يعتذر عنه بشدة ، ويريد أن يكفّر عن ذلك الفعل فى حق الأصدقاء ، وفى إحدى الليالى جاء الوسطاء من أصدقاء الطرفين (وهؤلاء الوسطاء من الضباط الأحرار السابقين) وأوهموا فؤاد بأنهم ذاهبون لزيارة أحد الأصدقاء فى مكان ما ، وذهب معهم فؤاد ، وما إن وصلوا إلى المكان المنشود ، ودخلوا فيه حتى وجد فؤاد جاسر نفسه وجهًا لوجه مع رفيق الأمس صلاح سالم ، فارتج عليه ولم يدر ماذا يفعل ، وتصافح الصديقان وتعانقا ، ودعا فؤاد لصلاح بالشفاء ، وكانت الدموع تترقرق فى عينى صلاح . « أهكذا يا فؤاد لا تأتى لزيارتى إلا بحيلة ؟ » .

– « أنت تعرف ظروفى ، والله يعلم كم أدعو لك » .

وبعد فترة قال صلاح : « ماذا تفعل الآن ..» .

– « ابتسم فؤاد وقال : « مقاول » .

– « مقاول ؟ وهل هذا يوفر لك الدخل الكافى ؟ » .

عاد فؤاد للابتسام وقال باقتضاب : « الحمد لله » .

وتبادل الجلوس شتى ألوان الأحاديث ، وفجأة قام صلاح من مكانه ، ثم غادر الغرفة ، وعاد بعد قليل ليقول : « مبروك يا فؤاد ، لقد وافق جمال عبد الناصر على أن يرفع معاشك الشهرى من بكباشى إلى لواء ، لقد حادثته فى التليفون الآن » .

طأطأ فؤاد رأسه فى خجل وقال : « متشكر جدًّا » .

وعمت الفرحة الحضور ، وأخذوا يهنئون فؤاد على ذلك ، وبعد فترة تبلغ حوالى النصف ساعة قال صلاح سالم : « هل تقبل العمل معى فى مؤسسة التحرير للطباعة والنشر ؟ » .

وكانت دار التحرير تصدر صحيفة الجمهورية ، وصحيفة المساء ، وعددًا من الصحف باللغات الأجنبية مثل البورصة والبرجوريه والإجبشيان جازيت .

قال فؤاد : « أنا لا خبرة لى بالصحافة » .

وغادر صلاح الغرفة مرة أخرى ، وبعد دقائق عاد ليقول : « لقد وافق جمال عبد الناصر على أن تكون مديرًا لمكتبنا بالإسكندرية ، وهذا المكتب مختص بالصحف التى تصدر باللغات الأجنبية فقط ، وسيكون معك نخبة من المعاونين الفنيين الأكفاء ، إذا أنت وافقت فاعتبر نفسك قد تسلمت العمل منذ الآن ..» .

وهكذا شاء الله أن تستقر أوضاع فؤاد ، وأن يعيش فى الإسكندرية مع أسرته يمارس عمله الجديد بقدر كبير من الرضى ، وقضى سنوات فى الثغر يذهب إلى مكتبه صباحًا ومساءً ، منهمكًا فى عمله ، وقد استطاع أن يكتسب ثقة الجميع ، ويطور الأداء ، ويحقق النجاح الذى تمناه ، وظل الأمر على هذا النحو حتى فوجئ فؤاد جاسر - دون غيره من الضباط - بالاعتقال مرة أخرى فى أوائل سبتمبر عام ١٩٦٥، أى بعد خروجه من السجن الأول بحوالى سبع سنوات ، وهو شىء لم يكن يخطر له على بال ، بعد أن كان قد ترك السياسة وودع الجيش إلى غير رجعة .

لم يكن فؤاد جاسر متبرمًا بهذا الاعتقال ، فقد كان رجل حرب ونزال وصبر ، يعرف كيف يصمد فى الملمات ولا يضعف أو يتهاوى أمام النكبات ، كل الذى يقلقه هو مصير ولديه فى الكلية الحربية وكلية الشرطة ، وشاء الله أن يفلت الولدان من عسف السلطة ، وكان هذا مصدر سعادة كبرى لفؤاد جاسر فى المعتقل ، وفى يوم عيد الفطر ، ولهذا خلع فؤاد ملابس السجن ، وارتدى بدلة كاملة ورباط عنق أنيق وجلس بيننا وسط العنبر كالعمدة يبادلنا الأحاديث الأخوية المرحة ، والفكاهات الطريفة ، ويذكر بعض ذكرياته عن تنظيمات الثورة فى الجيش ، وعن قيامها والوقائع التى جرت فيها ، ولم يخرج فؤاد من المعتقل هذه المرة إلا بعد أن قضى فيه ما يقرب من خمسة عشر شهرًا ، وعاد بعدها إلى عمله فى الإسكندرية ، وبعد ذلك بفترة طويلة عدت فى إجازة صيفية من مدينة دبى بالإمارات العربية المتحدة ، وحينما كنت أقضى بضعة أسابيع فى الإسكندرية التقيت فى بيت خالى الأستاذ عبد الرافع الشافعى بمحرر فى جريدة الإجبشيان جازيت وسألته عن فؤاد جاسر ، فقال إنه رئيسهم ، وأستطيع أن أقابله فى الصباح إذا شئت ، وفى اليوم التالى ذهبت إلى فؤاد جاسر ، وكان لقاءً عامرًا بالمحبة والوفاء ، الابتسامة النقية تضىء وجهه الأسمر ، والكلمات الحلوة تنساب من بين شفتيه ، كل شىء فيه يوحى بالثقة والأمل والإيمان ، سألته عن ولديه فقال : « الأول ضابط بالجيش الآن ، والثانى ضابط شرطة ، وهما يسيران - بحمد الله - على النهج القويم ..»

قلت : « كنت قلقًا على ولدك الضابط فى الجيش أيام حرب ٦٧» .

ضحك فى سعادة وقال : « بعد الهزيمة فوجئت به قادمًا متورم القدمين منهكًا ..» .

- « لا شك أنك تألمت من أجله » .

قال فى غضب واستنكار : « كيف هذا ؟ لقد أوقفته على الباب ، ولم أسمح له بالدخول ، وصرخت فيه أن يعود إلى وحدته العسكرية على الفور ليلتحق بها ، ويواصل عمله المقدس فى حرب الأعداء .. كانت أمه تبكى ، وإخوته يستعطفوننى ، لكننى لم أقبل شفاعة فى هذا الأمر .. وضعت فى يده مبلغًا من المال وأمرته أن يعود لوحدته .. قال لى دعنى أسترح قليلًا فأنا لم أنم ، وأريد أن آكل لقمة وأشرب ماءً .. قلت له معك النقود اشتر ما شئت .. هيا .. وأغلقت الباب فى وجهه ..» .

بعد مرور العيد بدأت التحقيقات من جديد ، وبدأ التعذيب والصراخ والأرق ، لكن بدرجة أقل من السابق .

وفى إحدى الليالى سمعت صوتًا يستغيث من العذاب : « والله ما بَعْرف .. والله ما بعرف ..» .

خيل إلىّ أننى أعرف صاحب هذا الصوت ، كما تأكد لى أنه ليس مصريًا ، وساورتنى الشكوك ، ترى من يكون ؟ خيل إلى أنه ربما يكون هو الأخ الليبى « محمد نشنوش » الذى نشر لى عددًا من الكتب ، حيث كان يملك مكتبة « النور » بمدينة طرابلس بليبيا ، ومن كتبى التى نشرها :

١- الطريق إلى اتحاد إسلامى .

٢- الإسلامية والمذاهب الأدبية .
٣- العالم الضيق وقصص أخرى .

وتوجست خيفة ، ذلك لأن الكتاب الأول (الطريق إلى اتحاد إسلامي) كان قد صودر في القاهرة ، وجمعت نسخه من المكتبات التى أخذت منه ، والكتاب فيه استشهادات من بعض كتب المودودى ، وكنت قد ألفته فى عام ١٩٥٩ - ١٩٦٠. في الوقت الذى كان الحديث فيه عن القومية العربية والوحدة العربية يحجب كل ما عداها ، وهناك أمر آخر أشد خطورة أقلقنى جدًا ، وهو أن محمد نشنوش كان قد طلب منى أن آخذه إلى الأستاذ سيد قطب للتعرف عليه ، وحققت له ما أراد على مضض ، فلو أن محمد نشنوش ذكر هذه الواقعة[1] فسوف يأخذوننى حتمًا إلى السجن الحربى حيث يوجد الأستاذ سيد قطب ، وسوف يحققون معى بالتأكيد عن مدى علاقتى به ، ومعنى ذلك أن أتعرض لأهوال لا يعلم إلا الله مداها . وبقيت - كما يقولون - جالسًا على نار ، حتى مر علينا الأخ م . عمارة ، وسألته عن ذلك الرجل الذى يعذب فى الدور الأرضى فقال : « يبدو أنه من طرابلس » .

- « طرابلس الشام أم طرابلس ليبيا ؟ » .
- « لا أدرى ..» .
- « إن كان من ليبيا فستكون كارثة » .

وأدرك عمارة قلقى فأراد أن يطمئننى فقال : « بل من طرابلس الشام » .

- « هل تعرف اسمه ؟ » .
- « لا أعرف ..» .
- « ربما يكون اسمه محمد نشنوش » .

قال كأنه يتدبر ما يقول : « بالضبط .. اسمه نشنوش » .

- « إذن هو من طرابلس ليبيا ..» .

وأصابنى هم ثقيل .

وقلت : « يا عمارة .. بالله عليك .. اذهب إليه وقل له لا يذكر اسمى على الإطلاق ، ولا يخبر المحققين بشىء عن زيارتنا للأستاذ سيد قطب ..» .

- « سأحاول إن شاء الله » .

ومرت ثلاثة أيام لا يعلم إلا الله كيف قضيتها ، وفجأة وجدت محمد نشنونش أمامى خلف الباب من الخارج ، وأخذ يصافحنى ويعانقنى . ووجدتنى أقول له : « احذر أن تذكر اسمى فى أى تحقيق يا محمد ..» .

قال بلهجته الليبية : « اتهنّا ..» .

ومعناها « كن مطمئنًا » ، واستراح بالى بعد أن سألته عن التحقيق الذى أجرى معه ، والحقيقة أن نشنوش لم يخبرنى بكل شىء ، فقد ذكر أثناء التحقيق أنه يتعامل مع بعض الناشرين فى القاهرة وخص اثنين بالذكر هما .

١- إسماعيل عبيد .

---

(١) تحدثت عن تفاصيل هذه الواقعة فى الجزء الرابع من هذا الكتاب .

٢- الحاج وهبة حسن وهبة .

وتذكرت أننى سمعت اسميهما فى مكبر الصوت أثناء التحقيق مع نشنوش، ولم أكن أعلم أن لهما علاقة به ، إلى أن رأيت إسماعيل عبيد فى الطابور ، وحدثنى عن نشنوش ، وأخبرنى إسماعيل أنه سئل عن تعاملاته فى الكتب مع نشنوش ، ولما سألت إسماعيل : هل ذكر نشنوش اسمى فى التحقيق قال : « نعم .. لقد ذكر أنه طبع بعض مؤلفاتك ، لكن الضابط قال له : تقصد الدكتور نجيب الكيلانى الذى يعمل طبيبًا بمستشفى السكة الحديد ؟ فأجابه بالإيجاب .. ثم استطرد قائلًا لعلها بعض القصص فقال نشنوش نعم ، ولم يشر إلى كتاب « الطريق إلى اتحاد إسلامى » أو « الإسلامية والمذاهب الأدبية » .

وهكذا مرت الأزمة بسلام ، ولم تخفت حدة قلقى إلا بعد أن أخذوا محمد نشنوش بعد عشرة أيام إلى المطار مباشرة كى يسافر إلى بلده ليبيا .. والحمد لله .

كانت مشكلة تفشى « القمل » بيننا تؤرقنا بشدة ، ذلك لأننا كنا نلبس ملابس المسجونين العاديين ، وانتشار القمل يعتبر مرضًا معديًا يسمونه باللاتينية « بدكيولوزس » وأذكر أن أحد المعتقلين من بور سعيد استطاع أن يجمع خمسين قملة من ملابسه (وهو رقم قياسي) ووضعها فى قنينة صغيرة ، ثم قدمناها إلى أحد الضباط حتى يخبر قائد المعتقل لعله يبحث لنا عن حل لهذه المأساة الصحية ، وفى أحد الأيام أحضروا لنا فريقًا صحيًا للرش بالمبيدات الحشرية من الخانكة ، وأمروهم بأن يؤدوا عملهم دون أن يكلموا أحدًا منا على الإطلاق ، وفى عنبرنا كان عامل الصحة يستخدم الرشاشات المعبأة بمادة د . د . ت ، فيرش البطاطين والملابس والفراش ودورات المياه ، كان العامل يطلق دفعات المسحوق من الرشاشة ثم يتوقف لحظة وينظر إلى ساحة الدور الأرضى ليرى المتهمين النائمين على البلاط تغطيهم البطاطين من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، ودهش عامل الصحة وقال : « ما هذا ؟ جثث ؟ يا ستار يا رب » .

ويرش ، ثم يعود ليطل من الدور الرابع ليرى البؤساء الراقدين ، ويستبشع المنظر .

قلنا له : « إنهم أحياء » .

- « لكنهم لا يتحركون » .

- « لأنهم نائمون » .

- « ولماذا لا ينامون فى الغرف ؟ » .

- « لأنهم تحت التحقيق ..» .

- « لا أفهم ..» .

ويعود للرش ، ويقول : « ربنا ينجيكم من شرهم » .

وكان بين المعتقلين رجل من السويس يتطوع دائمًا بخدمات المحتاجين من الضعفاء والمرضى فى العنبر ، فكان محل ثناء وشكر وتقدير من الجميع .. ولهذا الرجل خمسة من الأطفال وعندما اعتقلوه سقطت امرأته مغشيًا عليها ، لكنهم ساقوه إلى المعتقل وأوصوا بنقلها إلى المستشفى لإسعافها ، ولم يدر هذا المعتقل المسكين أن زوجته قد فاضت روحها . ولم يستطع المعتقلون من السويس الذين اعتقلوا بعده أن يخبروه بالحقيقة حتى لا يزيدوه همًا على همّه ، ثم ماذا سيفعل لها ولأولادها إذا علم ، لقد ماتت وانتهى الأمر .

فى المعتقل رجال ينهشهم الألم ، ويستبد بهم الندم حتى يخرجهم عن التفكير السليم ، والتصرف العاقل ، وكثيرًا ما يكون لهم العذر فيما يأتون من أعمال لا تليق بهم كحملة لرسالة عظمى ، لكنهم بشر ، يتناوبهم الضعف والخوف ، ولم يكن الناس فى أى يوم من الأيام متساوين فى طاقة الصبر

والتحمل ، من هؤلاء معتقل كان يعمل ميكانيكيًا فى الكويت لحسابه الخاص ، وقد قضى هناك ما يقرب من أربعة أعوام ، وذات ليلة قال لزوجته : « أريد أن أسافر لأرى أمى وأطمئن عليها ..» .

قالت له : « أمك بخير ، ويكفى أنك ترسل إليها الراتب الشهرى والهدايا والملابس وكل ما تطلبه نوفره لها » .

- « لكنها أمى ، والمال ليس كل شىء ، وأريد أن أزورها » .
- « وتتركنى وتترك أولادك الأربعة ؟ » .
- « لن أبقى فى مصر أكثر من أسبوع » .

وأعد حقائبه ، واتجه بها إلى المطار ، عندما نزل بمطار القاهرة الدولى ، وجد رجال المباحث يأتون إليه ويعتقلونه ، ثم يسوقونه إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، لقد اعتقلوه فى عام ١٩٥٤ وأفرجوا عنه بعد أكثر من عام ، ثم نسى الأمر تمامًا وسافر بعد فترة إلى الكويت ، وعاش فيها هادئًا هانئًا مطمئنًا ، يأتيه رزقه رغدًا .. لم يكن يتوقع على الإطلاق أن يعتقل مرة أخرى ، إذ لم يجد أى مبرر لذلك .. عندئذ تذكر نصيحة زوجته التى تنتظره فى الكويت ، وتذكر أولاده الأربعة ، من سيرعاهم وينفق عليهم هناك ، وإذا عادوا إلى مصر فمن أين يجدون الرزق الحلال ، كان الندم يعضه بأنيابه الحادة التى لا ترحم ، وهكذا اعتزل الجميع فى ركن من أركان العنبر لا يكلم أحدًا ولا يرد على أحد ، وخاصة بعد أن أدرك أن فترة الاعتقال لا يعرف أحد نهايتها ، عندئذ تناول حذاءه ! نعم حذاءه ! وأخذ يضرب نفسه به فى شبه جنون . « ماذا تفعل يا رجل ؟ » .

- « لا شأن لأحد بى » .
- « ثق بالله يا رجل واصبر واحتسب » .
- « كنت أعلم أن هذا البلد لم يعد وطنًا لى ، فلماذا عدت إليه بمحض إرادتى ؟! » .
- « إنها مشيئة الله ، وهو سبحانه لن ينسى عبيده » .
- « دعونى أؤدب نفسى » .
- « وماذا يفيدك ذلك ؟ » .
- « لا بد أن أتعظ وأتعلم » .

وبقى على هذا الوضع أيامًا حتى هدأت أعصابه ، وسكنت نفسه ، ثم انخرط مع الجموع يصلى ، ويقرأ القرآن ، ويذكر الله ويستغفره ، وقال : « إن خالقهم هو المسئول عنهم ، وهو الذى سيرعاهم » .

ماذا كانوا سيفعلون لو أنا مت هناك فى الكويت .. لله الأمر من قبل ومن بعد .. استغفر الله .. سامحنى يا رب » .

ومن بين الذين اعتقلوا معنا الأخ « صلاح الأنور » ، وهو ممن حكم عليهم بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة فى عام ١٩٥٥ ، ثم أفرج عنه فى أوائل الستينات ،من القرن العشرين ، قبل أن يكمل المدة لحسن السير والسلوك ، وبعد أن خرج استأنف حياته الجديدة ، وأكمل دراسته ، والتحق بعمل مناسب ، وحاول أن ينسى أيام السجن البغيضة والعمل الشاق فى قطع الصخور ، وكان كما أعتقد يعيش فى حى مصر القديمة (أو العتيقة) ، وفوجئ ذات يوم من شهر سبتمبر برجال الأمن يأتون لاعتقاله مرة أخرى ، فتذكر أيام التحقيق السوداء فى السجن الحربى منذ عشر سنوات ، وتذكر القسوة البالغة التى لم تكن تفرق بين مدان وبرىء ، فلم يستطع أن يتصور العودة مرة أخرى إلى ذلك الجحيم ، ولذلك قفز من النافذة الخلفية ، وهرب .. فماذا يفعل رجال الأمن ؟

لقد اعتقلوا أمه وأخواته البنات ، وهددوا بالفتك بهن إذا لم يأت صلاح الأنور ويسلم نفسه ..
واعتقد رجال الأمن أن صلاح ربما يكون سبب هروبه هو ضلوعه فى المؤامرة الكبرى التى تريد – كما يظنون – الإطاحة بجمال عبد الناصر ونظامه ..

وبقى صلاح هاربًا لأكثر من أسبوع ، لكنه خاف أن ينفذوا وعيدهم بالاعتداء على أخواته البنات ، فكان أن عزم على تسليم نفسه للسلطات حتى يفرجوا عن الرهائن من النساء ..

وسلم صلاح نفسه .

ثم أخذوه إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، وبدأ معه التحقيق الرهيب الذى لم ير له مثيلًا من قبل ، سألوه عن المؤامرة التى اشترك فيها عشرات المرات ، فنفى علمه بشىء من ذلك ، ظلوا يضربونه حتى تهاوى وكاد يلفظ أنفاسه ، قال لهم : « أريد أن أنام » .

– « لن نسمح لك قبل أن تعترف » .

وفكر صلاح ، وأخذ ينسج من خياله مؤامرة وهمية لا أساس لها ، استلهمها مما كان يقرؤه فى الصحف أثناء هربه ، وزعم أنه اتفق مع سيد قطب على اغتيال الرئيس وهو فى موكبه إلى مقر الرئاسة .. وأنه .. وأنه .. قال كلامًا كثيرًا .. وبعد استكمال التحقيق حول المؤامرة ، بعثوا بالاعترافات الهامة إلى « المخابرات » ونام صلاح بعدها نومًا عميقًا .. وأكل وشرب .. بل إنهم قدموا له كوبًا من الشاى المضبوط ... وحينما أفاق صلاح وجد أن ما قاله (وهو كذب فى كذب) قد يوصله إلى حبل المشنقة ، فضلًا عن أنه سوف يورط آخرين ممن ذكر أسماءهم ادعاء وظلمًا ، ولهذا قرر صلاح التخلص من حياته ، فقد كان فى حالة نفسية سيئة جدًا ، وقفز إلى أعلى ، وكسر زجاج النافذة الصغيرة ، وأمسك بالزجاج المكسور ليقطع شريان يده ، لكن العسكر فى الخارج سمعوا الضجة فهرولوا إليه وأمسكوا به دون أن يلحق بنفسه أذى . سألوه : « لماذا تحاول الانتحار ؟ » .

– « لأتخلص من حياتى » .
– « والسبب ؟ » .
– « المؤامرة » .
– « ماذا فيها ؟ » .
– « لا أساس لها من الصحة ..» .
– « لقد اعترفت ووقعت ..» .
– « كنت أريد أن أنام ..» .

وتم ترحيل صلاح الأنور إلى السجن الحربى متهمًا بالاشتراك فى المؤامرة الكبرى ، وهنا أنكر الجميع صلتهم به ، وأنكروا كل ما جاء فى اعترافاته ، وشرح صلاح للمخابرات كيف أنه ألف تلك المؤامرة حتى ينجو من التعذيب البشع الذى ظل يعانى منه طوال ثلاثة أيام حتى كاد يموت ..

وضحك رجل المخابرات ، وأمر ببطلان اعترافاته ، وإعادته إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، ليعيش مع المعتقلين المحجوزين تحت التحفظ ..

❁❁❁

[٥] السجون السبعة ونهاية المطاف



عندما أعود إلى الماضى خاصة عام ١٩٥٥ أذكر أن أول سجن دخلته كان السجن الحربى ، أما السجن الثانى فقد كان سجن مصر « قره ميدان » ، وبعده فى أواخر عام ١٩٥٥ تم ترحيلى إلى سجن أسيوط وهو السجن الثالث ، وبقيت فى هذا السجن حتى أغسطس ١٩٥٧ على ما أذكر ، وبعده انتقلت إلى سجن القناطر الخيرية وهو السجن الرابع ، وعدت مرة أخرى إلى سجن القاهرة حيث تم الإفراج الأول عنى منه . وفى عام ١٩٦٥ جئت مرغمًا إلى أوردى أبو زعبل وهو السجن الخامس ، ثم إلى معتقل أبو زعبل الجديد الذى أكتب عنه الآن ، أما ذهابى إلى السجن السابع والأخير فقد كان فى عام ١٩٦٦ وهو سجن « مزرعة طرة » .

هذه هى السجون السبعة التى تقلبت فيها على أحر من الجمر ، وكان لكل سجن مذاقه الخاص وسجناؤه وإدارته ، لكن المعاملة بالطبع بالنسبة للسجين أو السجن السياسى أسوأ معاملة ، على الرغم من التصريحات الرسمية الكاذبة التى تدعى المعاملة الإنسانية للسجناء ورفضها للتقارير الصادقة التى تصدر من منظمة حقوق الإنسان العالمية ، على الرغم من أن تلك التصريحات تصدر على أعلى المستويات ، وبالنسبة لى شخصيًا فأنا لا أنكر أننى عوملت معاملة طيبة ، بعد أن نلت الجوائز الأدبية ، وتحدد وضعى بشكل عام ، لكن هذا لا ينفى ما تعرضت له فى جحيم المعتقل الحربى ، وفى أيام التكدير بالسجون المدنية التى لم تكن تستثنى أحدًا أبدًا ، هذه الحقائق واضحة من خلال السطور التى كتبتها فى الأجزاء التى صدرت من هذا الكتاب ، وسترى فيما بعد كيف أن وسائل الإرهاب البدنى والنفسى لم تكف أبدًا ..

أعود مرة أخرى إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، فقد تدهورت حالتى الصحية ، وأصبت ببواسير نازفة ، أفقدتنى الكثير من الدم ، حتى بدا وكأنى مصاب بالأنيميا (فقر الدم) ؛ إذ لم يكن العلاج متوفرًا ، بالإضافة إلى التهاب مفاصل الركبتين ، واضطراب وظائف الكبد مما يقتضى إجراءات علاجية ووقائية لابد من اتخاذها ، ولقد ازداد خوفى من وضعى الصحى بعد أن شاهدت المعتقل « مدبولى » وهو مدرس لغة إنجليزية فى بنها ، وكان وحيد أبويه ، أصيب بنوع من الحمى طال أمدها ، وكلما عرض على الطبيب أعطاه بضعة أقراص أسبرين حتى تدهورت حالته تمامًا ، وفى اللحظات الأخيرة نقلوه إلى مستشفى سجن طرة ، ويقول الطبيب الذى استقبله هناك : « رأيت جثة تتحرك وتحمل حقيبة » .

وفعلًا مات مدبولى ، وقد أثبت تشريح الجثة أنه كان مصابًا بالتيفوئيد ، الذى سبب له ثقبًا نازفًا فى الأمعاء ، تلك حالة من الحالات التى عايشناها ، وكانت قلوبنا تتمزق أسىً أمام هذه المشاهد المحزنة .

من هنا كان لابد أن أبذل أقصى الجهود لكى أنتقل من هذا المكان الكئيب إلى معتقل آخر قد تتوفر فيه الرعاية الصحية الأفضل حفاظًا على حياتى ، وانتظرت اليوم الذى يأتى فيه الطبيب إلى معتقل

أبو زعبل الجديد ، وطلبت النزول للعرض عليه ، وشاء الله سبحانه أن يوافق الضابط ويكتب اسمى فى القائمة ، ولما قابلت الطبيب (وهو حكيمباشى مستشفى الشرطة التى سبقت الإشارة إليه) قام بفحصى بدقة ، ورقق الله قلبه ، ووعدنى بكتابة تقرير طبى للداخلية يطلب فيه نقلى إلى منطقة طرة كى يتيسر إجراء جراحة البواسير لى ، على أساس أنها عملية مستعجلة بسبب النزيف الذى يهدد حياتى ، وكان علىّ أن أنتظر الرد على التقرير ما يقرب من أسبوعين ، لدرجة أننى يئست من الموافقة على نقلى إلى طرة ، وفوجئت فى إحدى الليالى بالضابط المناوب ينادى اسمى فى الميكروفون ، فأصابنى الاضطراب المعتاد ، والقلق النفسى الذى أصبح رفيقًا لى أبد الدهر ، وليس فى السجن وحده ، لكنى هدأت حينما أخبرنى بأن أجمع حاجاتى واستعد للرحيل إلى معتقل « مزرعة طرة » ، وأخذ إخوانى يهنئوننى ويودعوننى بحرارة ، بل إن الدموع تقاطرت من أعين البعض ومن عينى أيضًا ، لكنى كنت سعيدًا بهذا الترحيل فقد قيل أن المعاملة هناك أفضل ، على الرغم من سوء المبانى ، ورداءة دورات المياه ..

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل ، ونزلت من العنبر فى الدور الرابع ، ووضعت الأغلال فى أيدينا ، وكنا ثلاثة على ما أذكر ، وكان من بيننا شاب فى هيئة التدريس بكلية العلوم يعانى من شلل نصفى مفاجئ فى هذه السن المبكرة ، وأعتقد أن اسمه الدكتور محمود عاصى ، ولست أعرف شيئًا عن مصيره بعد ذلك .

وركبنا سيارة السجن ، وانطلقت بنا تحت الحراسة المشددة فى الطريق المظلم ، كانت يمناى مقيدة مع يسرى أحد العسكر حتى لا نفر أو نقاوم .. هكذا تصوروا الأمر .. وأخيرًا وصلنا إلى ميدان محطة باب الحديد بالقاهرة حوالى الساعة الثالثة صباحًا .. كان الميدان فى هذا الوقت يكاد يكون خاليًا إلا من نفرين أو ثلاثة .. لكأنى اشتقت للقاهرة .. للدنيا .. للناس .. إننى أنظر إلى الأماكن فى حنان وشغف ، وأتذكر الأيام الخوالى حينما كنت أقطع هذا الميدان سيرًا على الأقدام ، كى أذهب إلى محطة قطار « كوبرى الليمون » التى ينطلق منها القطار إلى محطة أبو زعبل والمدينة السكنية وشبين القناطر ، أو اذهب إلى محطة مصر لأذهب إلى طنطا أو الإسكندرية .. وأنظر فأرى الدنيا كما هى .. الشوارع .. المبانى .. قضبان السكك الحديدية ، هناك فى طرف الميدان المقهى الذى كنت أستريح فيه أحيانًا وأشرب كوبًا من الشاى .. وعلى اليسار شارع الفجالة .. نعم فى بدايته « مكتبة مصر » التى طبعت فيها أول رواياتى الفائزة .. وهى رواية « الطريق الطويل » ، لكن مديرها الأستاذ غريب ، وصاحبها سعيد السحار لا يوجدان الآن ، فالأبواب مغلقة .. لكن كتابى ما زال كالعهد به معروضًا فى « الفترينة » فى طبعتين : طبعة خاصة بالمدارس ...طبعة عامة ..

وسمعت الحارس الذى قيدت يدى بيده يقول : « ألا تريد شيئًا ؟ » .

- « أشكرك » .

- « ألا تحب أن تبلّغ أهل بيتك بأى شىء ؟ »

وراقت لى الفكرة ، إنهم لا يعرفون شيئًا عن مكانى أو حالتى ، وأعتقد أنه من المفيد أن يعرفوا أننى فى معتقل مزرعة طرة ، حتى يكفوا عن البحث عنى فى مختلف المعتقلات المنتشرة هنا وهناك ، كما طلبت منه أن يخبرهم بأن يرسلوا إلىّ بملابس داخلية عن طريق وزارة الداخلية ، وليس عن طريق المعتقل مباشرة ، إذ المفروض ألا يعرفوا مكانى . ولا بأس من إرسال بعض الأدوية المقوية والكولونيا ، وهى أشياء مسموح بها .. وأخرج العسكرى ورقة وكتب العنوان ..

وطال الطريق ، وكنت أتمنى أن يطول ، حتى نرى مزيدًا من الدنيا ، وننهل من معين الحياة

الطبيعية ، وأخيرًا وصلنا إلى معتقل مزرعة طرة وقت الفجر ، وما إن دلفنا عبر البوابة حتى استقبلنا ضابط طيب سمح الوجه اسمه « فتحى طلبة » من مدينة بنها ، كان يبش لنا ، ويبتسم فى وجوهنا وهو شيء لم نألفه منذ شهور ، كانت معاملته تنم عن أصالة وكرم ، وسأل عنى فتقدمت إليه ، فأخبرنى أن هناك مجموعة من الإخوان طلبوا أن أنزل معم فى عنبر الملاحظة الطبية ، وذكر لى بعض الأسماء وكنت أعرفهم جمعيًا ، ففرحت واستبشرت خيرًا ، وبعد أن سجل أسماءنا وساعة وصولنا أخذنا إلى العنابر التى سننزل بها ، وفى العنبر إياه ، استقبلنى أخى الأستاذ الدكتور إبراهيم الصياد ، والحاج منصور موسى تاجر الذهب ، والحاج عبد العزيز عبد الجواد (الشهيد الحي) زميلنا السابق فى سجن أسيوط ، والبنهاوى بك أحد كبار الشخصيات العامة ، وشوقى كحلة أستاذ اللغة العربية ، وسجين الواحات السابق ، وكنت قد التقيت به قبل ذلك ، وهو مريض بتليف الكبد الآن ، ويعانى من الاستسقاء البطنى والضعف الشديد ، والدكتور عبد العزيز إسماعيل ، والساعاتى الخفيف الظل عبد المنعم قنديل (وله محل إصلاح ساعات فى الدقي) ويتميز بجمال الصوت وحب المرح والضحك ، وأخونا الذى يعانى من مرض الصرع « سالم » ، وغيرهم كثيرون .. وصلينا الفجر جماعة ، وأحضروا لنا طعامًا شهيًا ، ثم نمنا على أسرة حشاياها من القش ، لكنها كانت مريحة جدًا إذا ما قورنت بالبرش الذى كنا ننام عليه فى المعتقلات والسجون السابقة ، ولم أستيقظ إلا فى الثامنة صباحًا ، وحوالى العاشرة صباحًا نادوا على اسمى فذهبت إلى طبيب المعتقل وهو الدكتور خليل أيوب خليل ، الذى استقبلنى بترحاب ، وفهمت أن لديه فكرة كاملة عنى ، وكم كانت فرحتى عندما التقيت بعدد آخر من الأصدقاء القدامى ، منهم الدكتور ماهر حتحوت (رئيس اتحاد المسلمين الآن فى كاليفورنيا بأمريكا ، ويحمل الجنسية الأمريكية ، ويعمل أستاذًا للقلب بإحدى الجامعات هناك) كما قابلت الأخ اللواء كمال عبد الرازق زوج السيدة الأستاذة كريمان حمزة مذيعة البرامج الإسلامية الشهيرة ، والأستاذ محمد الفوال أحد زعماء الطلبة بجامعة القاهرة قديمًا ، والدكتور حسين عبد الدايم أستاذ الأشعة بالقصر العينى ، والأستاذ الداعية والكاتب المعروف د . عبد الودود شلبى ، وكثيرون غيرهم .

كان وزنى قد نقص كثيرًا ربما حوالى عشرين كيلو جرامًا ، وبدأ الطبيب العلاج الدوائى . ولم يدخر وسعًا فى توفير الراحة لى ، وذات يوم قال الدكتور خليل :

« إن لك شعبية كبيرة فى بيتنا » .

لم أفهم ماذا يقصد بهذه الكلمات ، ولهذا شكرته بكلمات مقتضبة ، لكننى عدت أسأله : « بأى مناسبة » .

قال : « لقد نشرت مجلة « الكواكب » صورة لك ، وصورة للممثلة « فاتن حمامة » واستعرضت المجلة رواية لك اسمها « الربيع العاصف » ، وقد رشح كاتب المقال الأستاذ الشاعر الصحفى « كمال النجمى » الرواية للإنتاج السينمائى ، واقترح أن تكون فاتن حمامة بطلة القصة ..» .

ودهشت لذلك ، على الرغم من أننى فرحت جدًا ، فمثل هذه الأمور تدخل البهجة على نفس المسجون ، وتمد له من حبال الأمل والرجاء ، ولعله من باب استكمال الواقعة أن أشير إلى أن أحد الصحفيين أخبر الأستاذ كمال النجمى أننى معتقل (ولم يكن يعرف ذلك) ، فأصابه شيء من الاضطراب والكدر ، وكف عن إثارة الموضوع مرة أخرى حتى لا تشوبه شبهة مجاملتى ، وقد علمت ذلك من أخى وصديقى الصحفى الكبير الأستاذ مصطفى نبيل عبد الخالق رئيس تحرير مجلة « الهلال » الشهيرة والعريقة الآن ، وذلك بعد أن خرجت من المعتقل .

وصرفت النظر مؤقتًا عن إجراء الجراحة العاجلة بعد أن نجحت العلاجات المبدئية فى وقف النزيف المتكرر .

فى هذه الفترة التقيت بالعلامة الكبير والمفكر المعروف الأستاذ محمود شاكر - مد الله فى عمره - وبقيت إلى جواره طول فترة اعتقالى فى مزرعة طرة ، وربطتنا علاقة وطيدة مفيدة . فكان إذا فتح باب العنبر أرى وجهه يطل علينا كأول وجه بعد وجه السجان ، ويهتف بصوته المميز القوى : « نجيب .. نجيب » .

فأقفز من فوق السرير ، وأذهب إليه لنبدأ رحلة اليوم فى الأحاديث الجميلة ، والمعلومات الوثيقة ، كان بمثابة مدرسة تتحرك ، لديه قناعاته الراسخة التى لا تتزعزع ، وهو محقق تفسير الطبرى الهام الذى أصدرته دار المعارف ، وله كتاب متميز عن المتنبى نال عليه جائزة الملك فيصل الكبرى ، ومن أشهر كتبه « أباطيل وأسمار » الذى رد به على ترهات وأكاذيب الدكتور لويس عوض ، كما حقق كتاب « جمهرة نسب قريش » وديوان « ابن الدمينة » وغيره من الكتب الثمينة ، ولقد كان بيته فى شارع الأسود بمصر الجديدة أشبه ما يكون بجامعة كبرى ، تتلمذ على يديه فيه أعداد كبيرة من طلبة الدكتوراه والماجستير فى العالم العربى كله ، وكان صديقًا بل أستاذًا للكثيرين من قمم الأدب والفكر فى مصر وخارجها ، وعلى الرغم من أنه اعتقل ضمن الإخوان المسلمين ، إلا أنه لم يكن عضوًا فى الجماعة ، ولقد اعتقل مرتين الأولى - كما علمت - بسبب صداقته للشيخ الباقورى وزير الأوقاف ، وكانا يسهران معًا ، وكان الأستاذ شاكر يروى بعض « النكات » والتعليقات التى تمس الثورة وشخصية جمال عبد الناصر ، وقد بلغت هذه الأحاديث مسامع الكبار ، فاعتقل الأستاذ محمود شاكر وعدد من الرجال معه منهم الكاتب الإسلامى المعروف الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، والأستاذ محمد عطا ، أما الأستاذ الباقورى فقد أعفى من منصب الوزارة ، وحددت إقامته فى بيته ، وخرج الأستاذ شاكر من المعتقل ، وتصدى لكتابات « لويس عوض » ، مما ساهم فى إعادة اعتقاله مرة أخرى فى عام ١٩٦٥ .

أقول إن محمود شاكر كان موسوعة علمية متحركة ، ولقد روى لى الكثير عن قصة حياته مما لا يتسع المقام له هنا .

وفى أوقات الفراغ كنت أجلس معه لنلعب الطاولة (النرد) ، وهى مصنوعة من لباب الخبز ، وكان يحتشد حولنا مجموعة من المشجعين له ولى ، وكان من أكبر المتحمسين له الأخ المعتقل « مصطفى كمال » شقيق الإخوانى الشهير الشاب « على صديق » ، وكان مصطفى حليق الرأس مثل « يول برانير) الممثل العالمى ، ومن شدة غيظى منه كنت أسميه « المأجور الأقرع » وكان الأستاذ شاكر يضحك من أعماقه عند احتدام معركة الطاولة بينى وبينه ، ويلعب دون اكتراث ويقول « دوسى » فيأتى الزهر بالدوسى ، فأتضايق وأهتف فى عصبية : « أنت يا أستاذ شاكر « تقرص » الزهر .. أنت غشاش » .

فيكاد يستلقى على ظهره من الضحك ..

وذات مرة كشف الأستاذ شاكر عن صدره وظهره فوجدته مصابًا بمرض جلدى اسمه « التينيا » ، وكان لابد من إحضار علاج لندهن به جسده ، وكان لدورة المياه « حوش » أو فناء مشمس ، فأخذت الأستاذ شاكر إلى هناك ، ولبس « مايوه » وخلع ملابسه ، ووقف عملاقًا تحت الشمس ببشرته السوداء ، كتمثال من النحاس ، وأحضرت قنينة الدواء ، وكان بغطائها فرشاة صغيرة لا تتناسب مع حجمه وطوله الفارع ، فكنت أغمس الفرشاة فى الدواء ، ثم أدهن بها جسده قطعة قطعة ، والمارون بنا من المعتقلين يبتسمون ، ويكتمون ضحكاتهم .

كان الأستاذ شاكرًا مشهورًا بنقده الشديد اللاذع للإخوان المسلمين ، وكثيرًا ما يستعمل بعض الألفاظ النابية الجارحة (وهذا هو عيبه الأساسي) ، وعلى الرغم من مكانته كأستاذ كبير ، ووضعى كواحد من أبنائه ، فهو فى مثل سن أبى تقريبًا ، إلا أنى كنت أكيل له الصاع صاعين ، ولم يكن يغضب منى أو يخاصمنى بل كان يضحك ، ويتهمنى بالغفلة وحسن النية ..

قال له أحد الإخوان : « أنت يا أستاذ شاكر تسب الإخوان وتشتمهم ، ولهذا كان عقاب الله لك أن تسجن معهم ..» .

فيرد شاكر : « أمثالك هم سبب المصائب ،ولن أغير رأيى » .

ومع ذلك فقد كنت أجلّ الرجل وأحبه وأحترمه ، ونقضى معظم الوقت - ومعنا مجموعة من الإخوة الأفاضل - فى الحديث وتبادل الآراء والأفكار ، بروح ودية طيبة .

اقترب عيد ميلادى الخامس والثلاثين (أول يونيو) ، وهو أمر عادى جدًا لا أتوقف عنده طويلًا ، لكنى فوجئت باسمى يتردد من خلال مكبر الصوت « المعتقل نجيب الكيلانى » وأنا أخاف مكبر الصوت ، ولا أريد أن يتردد اسمى فيه .

وجاء العسكرى ، وصحبنى إلى « المكاتب » فى الإدارة خارج العنبر ، وأنا أضرب أخماسًا فى أسداس ، وأتساءل بينى وبين نفسى : لماذا يريدوننى فى هذا الوقت بالذات ؟ هل جد جديد ؟ هل انكشف مستور يستدعى التحقيق معى ؟ أنا واثق أننى لم أرتكب أمرًا يعاقب عليه القانون .. حتى القوانين الاستثنائية أو العسكرية لا يمكن أن تديننى بشىء ، ومع ذلك فإنى أشعر بالخوف .. ذلك الخوف المزمن الذى استشرى فى كيانى وحياتى ومجتمعى منذ سنوات ، والذى يبدو وكأنه مقيم معنا حتى نلقى الله ..

وجدت قائد المعتقل ، والضابط الطيب أيضًا فتحى طلبة ، وعدد آخر من الضباط وضباط الصف .

قال أحد الضباط ساخرًا : « مبروك عيد ميلادك » .

لم أكن أتذكره ، ولا فكرت فيه ، وبدت الحيرة على وجهى ، قال فتحى طلبة بابتسامته المعهودة : « زوجتك أرسلت عن طريق الداخلى علبة من حلويات « التوفى » ، وصندوقًا صغيرًا من الملبن ، هدية لك بمناسبة عيد ميلادك ، ومعهما بطاقة تهنئة .. لكنك تعلم أن مثل هذه الأشياء ممنوعة ..» .

وعرضوا على الأشياء المرسلة إلىّ ، ثم قال الضابط فتحى : « سوف نحتفظ بها فى المخزن ، وسنعطيها لك عند خروجك ، أو فى الوقت الذى تأذن فيه « المباحث العامة » ..

وشكرتهم وعدت إلى العنبر مسرعًا ، وأنا فى قرارة نفسى أشعر بشىء من الغضب والضجر ، ذلك لأن زوجتى ما كان لها أن تفعل ذلك ، فى هذه الأوقات العصيبة التى تجرى فيها المحاكمات على قدم وساق ، والأمور تبدو فى غاية السوء ، وتذكرت قول المتنبى :

عيد بأية حال عدت يا عيدُ
بما مضى أم بأمر فيك تجديدُ

أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيدًا دونها بيدُ

عندما عدت إلى الإخوة فى العنابر ، أخذوا يضحكون ، وكذلك فعل الأستاذ شاكر الذى أخذ يضرب كفًا بكف ، ويعلق بعبارات يقصد من ورائها التخفيف عنى ، ولم أكن أعلم أن هدية عيد الميلاد

هذه سوف تجر عليّ متاعب تستمر أكثر من شهر ، وبالتأكيد لو أن زوجتى كانت على دراية تامة بما يجرى خلف الأسوار لما فعلت ذلك ، فهى طيبة القلب ، حسنة النية ، لا تستطيع أن تتصور وجود إنسان مهذب محترم يعتدى على حقوق زوجها الذى تعرفه جيدًا . وتعرف أنه لا يستحق إلا التكريم والمعاملة الطيبة ، هذا هو تصورها ..

بعد أسبوع من هذه الواقعة تردد اسمى مرة أخرى فى مكبر الصوت .. يا إلهى ! ! ماذا هناك . أصبحت لا أطيق سماع هذا الصوت ..

أثناء سيرى مع العسكرى إلى المكاتب قال : « سيحققون معك » .

- « يا خبر أسود ! ! لماذا ؟ » .

- « لا أعلم .. لكنى سمعتهم يقولون ذلك » .

أصابنى ما يشبه الدوار ، لكنى تحاملت ومضيت فى طريقى كأنى أسير فى حلم .. أعنى فى كابوس من كوابيس الطفولة المرعبة التى ظلت تلازمنى حتى اليوم .. ما هذا العناء يا ربى ؟ أليس له من نهاية ؟ لقد ضاق صدرى ولم أعد احتمل أكثر من ذلك ، لكنى تذكرت إخوة لنا يعانون الأهوال ، ولا يجدون فرصة للنوم الكافى ، ولا الطعام الكافى ، وينتظرون حكم القضاء فيهم ، عندئذ استعذت بالله من الشيطان الرجيم ، واستغفرت الله ، ودعوته من كل قلبى أن يكون إلى جوارى ولا يتخلى عنى أبدًا ، رحمة بى ورأفة .. ووصلت إلى المكاتب .

قابلنى ضابط نحيف نسيت اسمه ، كان يجلس خلف مكتبه ومعه قلم وأوراق ..

سألنى : « اسمك .. سنك .. وظيفتك ..» .

- « . . . . » .

- « كيف عرفت زوجتك أنك فى معتقل مزرعة طرة ؟ » .

- « لا أعرف » .

- « ألم ترسل إليها خطابًا » ؟ . « كلا ، وكيف يكون ذلك ؟ » .

- « أليس لك أقرباء فى إدارة المعتقل ؟ » .

- « كلا ..» .

- « ولا فى كتبة الحراسة ؟ » .

- « أبدًا ..» .

- فكيف إذن عرفت أنك فى معتقل مزرعة طرة ، بدليل أنها كتبت على طرد هدية عيد الميلاد عنوان المعتقل ؟ إن رجال المباحث فى الداخلية طلبوا التحقيق فى هذا الموضوع ...

إذا لم تجب على سؤالى ، فسوف يستدعون زوجتك ويحققون معها فى الداخلية .. وأنت تعرف أن ذلك أمر غير مريح لك ولها ..» .

ووقفت حائرًا لا أدرى بماذا أجيب ، وبرقت فى ذهنى فكرة .. سوف يكون فيها النجاة لى ، إذا واقتنع بها المحقق واقتنع ضباط المباحث فى مقر وزارة الداخلية .

قلت للضابط : « ربما تكون زوجتى قد قابلت أحد المفرج عنهم ، وأخبرها عن المعتقل الذى أنزل فيه » .

- « حسنًا ، فمن يكون ذلك الشخص ؟ » .

- « لا أدرى » .

– « أذكر لى من تعرف من المفرج عنهم » .
– « هم كثيرون ، ولا أعرف أحدًا منهم » .
– « فكيف إذن لا تعرفهم ثم يخبرون زوجتك بمكان وجودك ؟ » .
– « الأمر بسيط .. أنا رجل مؤلف .. أكتب فى الصحف والمجلات ، ونشرت عددًا من الكتب ، وأغلب الإخوان يعرفوننى ، وأنا لا أعرف إلا قلة منهم » .

وانصرفت إلى عنبرى ، والضيق يستبد بى ، أما لهذا القرف من نهاية ؟ هل هى جريمة أن يعرف أهلى أين أسجن ؟ أليس من حقى أن أراسل أهلى ؟ أليس من حقهم أن يزورونى وأستقبلهم ؟ ولا يمكن لأى إنسان عاقل أن يجد مبررًا لهذا التعنت من قبل السلطة .

وبعد أسبوع آخر ، سمعت مكبر الصوت يقول : « المعتقل نجيب الكيلانى » هتفت دون وعى ، وبصوت عالٍ يسمعه إخوانى :

– « يادى الداهية السودا » .

وجاء العسكرى ، وصحبنى إلى المكاتب الكريهة ، الضابط وبيده قلمه والأوراق وسين وجيم كالعادة ، شد انتباهى قول الضابط : « بسؤال زوجتك قالت إن رجلًا أتى إلى المنزل وأخبرهم أنك فى معتقل مزرعة طرة ، فمن يكون ذلك الرجل ؟ » .

يا إلهى ، لقد وقع المحظور وتعرضت زوجتى – كان الله معها – للتحقيق وهذا ما كنت أخشاه ، لقد تألمت لذلك بشدة ، لأنها ليست ذات خبرة بألاعيب المحققين وحيلهم ، فقد تفلت منها كلمة دون قصد وتسبب لى ولها مشاكل لا يعلم إلا الله مداها ، قلت للمحقق : « لا أعرف شيئًا عن ذلك » .

رد المحقق بجفاف :

– « إذا لم تعترف ، فسيتم ترحيلك إلى سجن القلعة ، وأنت طبعًا تعرف ماذا فى سجن القلعة » .
– « نعم أعرف ، وأقسم لك أننى لا أعرف أحدًا ذهب إليها فى عنوانها .. وما زلت أرجح أن أحدًا من الذين أفرج عنهم ربما تطوع بذلك » .
– « هل كان لك أقارب ضمن المعتقلين » .
– « نعم » .
– « من ؟ » .
– « الشيخ محمد كامل ، خال زوجتى ، وهو مدرس بالمعهد الثانوى الدينى بطنطا ، ويعانى الشلل النصفى منذ عامين ، وقد تخطى الستين من عمره ، وهناك أيضًا أحد أخوالى واسمه الحاج محمد محمد الشافعى فى سن الستين أيضًا ، ولم ألتق بهم فى المعتقل ، وقد أفرج عنهما بعد شهرين من اعتقالهما ، وكانا يعلمان أنى معتقل مثلهما ..» .

وطلب منى التوقيع على المحضر ، ثم انصرفت ، وأنا أدعو الله من أعماق قلبى أن يصرف عنى هذه المضايقات السخيفة التى تؤرقنى ، والتى لا معنى لها سوى تعنت المسئولين .

وفى كل مرة ينطلق اسمى من مكبر الصوت ، تصيح مجموعة من إخوانى فى العنبر وتقول معى « يا دى الداهية السودا » وينفجرون ضاحكين ، بينما أكاد أنفجر غضبًا ، لقد أصبح الأمر مادة للضحك والسخرية من إخوانى ، ومع ذلك فقد بقيت مهمومًا طوال شهر كامل ، وكلما استدعونى أعادوا نفس الأسئلة ، وأنا أكرر نفس الأجوبة ، حتى نفد صبرى ، إلى أن جاء يوم وسمعت اسمى فى مكبر الصوت ، وذهبت مع العسكرى إلى المكاتب ، لكننى هذه المرة لم أجد محققًا أو تحقيقًا ، بل وجدت

الضابط الطيب فتحى طلبة يستقبلنى بابتسامته قائلًا : « لقد وافقت المباحث أخيرًا على أن نسلمك هدية عيد الميلاد بعد تفتيشها بدقة » .

وفعلًا أحضروا علبة « التوفى » وفتحوها واحدة واحدة ، ولمَّا تأكدوا خلوها من أى رسائل مخبأة فيها ، سلموها لى ، كما سلمونى علبة « الملبن » ، وعدت بهديتى إلى العنبر ، واستقبلنى إخوانى بالتهنئة ، وزفونى من باب المبنى إلى العنبر الذى أقيم فيه ، وكان من الواجب أن أوزع التوفى بواقع اثنتين لكل معتقل ، أما الملبن – نظرًا لقلة كميته – فقد تم توزيعه على عدد قليل من الإخوة القريبين منى ، ولذلك فإن الإخوة بعد ذلك كانوا يمزحون قائلين : « إيوه يا عمّ .. ناس لها ملبن ، ناس لها « توفى » ..» .

من الأمور المؤلمة ، أن زوجتى بعد أن علمت بوجودى فى معتقل مزرعة طرة انتهزت فرصة مجىء عيد الأضحى المبارك ، فقررت أن تقوم بزيارتى ، فأعدت لى وجبة غذائية دسمة من النوع الذى أحبه ، مكونة من الحمام المحشو بالفريك ، ومحشي ورق العنب ولحم البوفتيك ، وهى تعلم أننى حرمت من هذه الأطعمة منذ اعتقلت ، ولقد أخبرتنى أنها أخذت أولادى الثلاثة وقصدت المنطقة التى يكون بها المعتقل ، وفوجئت بعدد كبير من الجنود المسلحين يحرسون المكان ، واقترب منها ضابط كبير وقال : « إلى أين ؟ » .

– « جئت لأزور زوجى المعتقل » .
– « ارجعى فورًا ، لأنك لو تقدمت أكثر من ذلك فسيطلق عليك الرصاص » .
– « لماذا ؟ » .
– « تلك هى الأوامر ، وأنت – على ما يظهر – سيدة مثقفة ، والمسألة خطيرة » .
– « خطيرة ؟ » .
– « نعم ، ويجب أن تنصرفى فى الحال ، ويجب أن تنسى أيضًا أن لك زوجًا ..» .
– « يا مصيبتى ! ! » .
– « تلك هى الحقيقة المرة .. انصرفى بسرعة » .

وعادت زوجتى بأطفالها وطعامها إلى بيت أبيها فى حى « السيدة عائشة » ثم ألقت ما معها من أوانٍ ، وشهقت باكية ، إن كل ما آلمها ، هو كلمة الضابط لها : (« يجب أن تنسى أن لك زوجًا) ما معنى ذلك ؟

كنت أعلم مدى المخاطرة التى أنا مقدم عليها ، لقد كنت قلقًا على زوجتى وأولادى ، وسمعت أن هناك سجانًا يستطيع أن يأخذ منى خطابًا ، ويسلمه لزوجتى ثم يأتى بالرد ، وذلك مقابل خمسة جنيهات ، وقررت أن أبعث بالرسالة لأطمئن عليها وعلى الأولاد ، وعلى وضعهم المالى والأمنى ، وحاولت أن أكف عن هذه المحاولة ، لكن دافعًا قويًا كان يهتف بى أن أستمر فى طريقى ، وليكن ما يكون ، وتمت المغامرة ، أو قل المقامرة ، وتسلمت الرد ، وكنت به سعيدًا لأن الأخبار التى وردت فى الخطاب كانت مطمئنة للغاية ، الشىء الوحيد الذى أخفته عنى زوجتى هو وفاة أبيها ، رحمه الله ، فى مستشفى العجوزة ، بعد أن تدهورت حالته الصحية عقب اعتقالى .. جاءنى طرد ملابس داخلية ، وبضع قطع الصابون ، وعدد من المناديل ، وأثناء التفتيش عثر العسكرى على خطاب من زوجتى

ملفوفٌ حول قطعة صابون ، ومن حظى الطيب أن المشرف على التفتيش كان فتحى بك طلبة ، الذى انتظر حتى خرج العسكرى ، ثم سلم لى الخطاب لكى أقرأه بسرعة ، كى يأخذه بعد ذلك ، ثم يمزقه فى حضور العسكرى مخافة أن يشى به العسكرى .

وفى يوم مشئوم طلبت الإدارة من جميع المعتقلين الخروج إلى فناء المعتقل الواسع كى نستمتع بالشمس ، ونجرى ونلعب حتى ننشط ، ويزول الصدأ الذى ران على مفاصلنا ، وكان الأمر ملفتًا للنظر ، ولم يطل بنا التفكير ، فقد علمنا أنه تم تنفيذ حكم الإعدام فى الأستاذ سيد قطب وزميليه محمد يوسف هواش ، وعبد الفتاح إسماعيل ، والتزمنا الصمت وأخذنا نجرى ونتحرك كالدمى ، كان الأمر محزنًا ، وكان بيننا ابن أخت الأستاذ سيد رحمه الله ، وظل صامتًا مثلنا لا يعلق بشىء ، وعلى فمه ارتسمت ابتسامة غريبة يصعب تصويرها أو تفسيرها .

فى اليوم التالى دخل المعتقل وافد جديد اسمه سيد كيلانى وهو لا يمت لى بصلة قربى ، ولم يكن من الإخوان المسلمين ولا من الشيوعيين ، ولا من الوفديين (وكان بالمعتقل عدد من الوفديين الذين اعتقلوا أثناء جنازة النحاس باشا ، كان الرجل يبدو مذهولًا مأخوذًا بما يراه ، سألناه لماذا اعتقلوك ؟ .

قال : « لقد ألفت كتابًا أدافع فيه عن الوفد ، وعن معاهدة ١٩٣٦ ، وقلت فيه لولا هذه المعاهدة لما دخل جمال عبد الناصر الكلية الحربية ، ولكان الآن موظفًا بالدرجة السادسة .. طبعت من الكتاب ألفين فقط .. على نفقتى الخاصة .. استولوا على الكتاب ، ومنعونى من توزيعه ، واستدعونى للتحقيق . ثم قالوا لى سوف نأخذك معنا خمس دقائق فقط .. ثم أتوا بى إلى هذا المكان ، وتركونى وذهبوا .. خلعت بدلتى ، ثم ألبسونى هذه « الهلاهيل » الكالحة .. حتى لكأنى مجرم .. » .

ثم ضحك فى شىء من السذاجة وقال : « جعلونى مجرمًا .. أظن أن هذا اسم فيلم سينمائى .. » .

ثم التفت وقال : « ومن أنتم ؟ » .

– « معتقلون على ذمة قضية الإخوان المسلمين » .

– « الله أكبر .. إذن اعتبرونى أنا أيضًا « مرابطًا فى سبيل الله » .. كانت حياتى فارغة .. لا زوجة ولا أولاد ولا وظيفة .. أعيش فى كفالة أخى تاجر الأقمشة .. نلت ليسانس الآداب ، وعينت فى دار الكتب ، لكن توفيق الحكيم الكاتب الكبير كان مديرًا للدار بعد الثورة وقد عاملنى معاملة سيئة .. ثم فصلونى .. تلك قصة حياتى باختصار .. أنا لست حزينًا لوجودى فى هذا المكان .. أنا مرابط فى سبيل الله » .

وأخذ يضحك ، وينثر الطرائف ، ونحن نشاركه الضحك ، كان فى الحقيقة شخصية بسيطة مرحة ، يأخذ الأمور أخذًا هينًا ، ولا يندم من أجل فقدان شىء ، ولا يكترث لما يأتى به المستقبل ، ومن آن لآخر يقول : « إن معاهدة ١٩٣٦ هى التى فتحت الطريق أمام جمال عبد الناصر ليدخل الكلية الحربية ، ولولا ذلك لكان الآن موظفًا بالدرجة السادسة ، ألا تصدقوننى ؟ هذه حقيقة ، لم يكن باستطاعته أن يقوم بانقلاب عسكرى وهو موظف مدنى ، ثم لماذا يغضبون منى حينما أقول ذلك ؟ » .

وسرعان ما تأقلم سيد كيلانى معنا ، لقد بدأ يتعود على الصلاة ، ويتقبل الطعام الذى نأكل منه ، ويشارك فى أحاديثنا المختلفة حتى أصبح واحدًا منا ، وكان الأستاذ محمود شاكر يسعد لوجوده ، ويحب أن يستمع إلى أحاديثه وأفكاره البريئة الجريئة ..

وفى إحدى الليالى دخل شاب إلى أحد العنابر ، كانت تبدو عليه آثار النعمة والنظافة الزائدة ، شعره أسود لامع منسق ، عيناه سوداوان واسعتان ، لكنهما قلقتان ، وعلى وجهه الحليق مسحة من

وسامة ، أخذ ينظر إلى العنبر المزدحم بشيء من الدهشة والاستغراب ، كان سكان العنبر يجلسون صامتين تحت ضوء المصباح الكهربائي الخافت ، وخطا بضع خطوات حتى أفسحوا له مكانًا يجلس فيه ، وجلس وهو يلتقط أنفاسه ، وبعد أن هدأ قليلًا سأل : « من أنتم ؟ » .

رد جاره قائلًا : « معتقلون من الإخوان المسلمين ..» .

هز رأسه وقال : « لقد ظننت فى البداية أنى نزلت مستشفى للأمراض العقلية ..» .

ضحك الرجال القريبون منه ، فاستطرد : « والله العظيم حسبتكم مجانين فى البداية ، لأنى رأيتكم تجلسون وكأن على رءوسكم الطير ، وترتدون زيًا موحدًا كالحًا ، وتنظرون إليّ نظرات غريبة ..» .

سأله أحدهم قائلًا : « من أنت ؟ » .

- « دكتور ح . م . ع » .

- « ومن أين أتيت ؟ » .

- « من ألمانيا رأسًا ، كنت فى بعثة علمية هناك ، أنا خريج كلية الزراعة ، ونلت درجة الدكتوراه من ألمانيا ، وبعدها حزمت حقائبى ، واشتريت سيارة « مرسيدس » من مدخراتى ، وأخذت زوجتى وركبنا سيارتنا حتى إيطاليا ، ثم ركبنا البحر من إيطاليا إلى الإسكندرية ، وما إن أنهينا إجراءاتنا فى الميناء حتى قدم رجال الأمن وقبضوا على » .

سأل أحد المعتقلين : « وهل أنت من الإخوان » .

- « لا ، ولا أعرف عنهم شيئًا يذكر » .

- « فلماذا اعتقلوك إذن ؟ » .

- « إنا لا أهتم إلا بالعلم ، وفى إحدى إجازاتى السنوية عزمت على الزواج ، وكان لابد أن يتم ذلك خلال شهر ، حتى يمكننى العودة وأنا متزوج .. وفعلًا أخذنا نبحث عن عروس مناسبة ، وأخيرًا وجدتها ، وتزوجنا ثم سافرنا سعداء .. لم أكن أعلم أن عروسى هى إحدى حفيدات الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين ، وحتى لو عرفت ذلك ، فماذا يهم ؟ ..» .

والآن هل عرفتم سبب اعتقالى ؟

هزوا رءوسهم ، ولم يعلق أحد .

وعاد الدكتور « ح » يقول : « شرحت لرجال الأمن موقفى ، أكدت لهم أنى لا أعرف شيئًا عن الإخوان ، ولا عن مرشدهم ، وكونى تزوجت من إحدى حفيداته لا يعنى أنى متهم .. أتدرون ما قال لى الضابط ؟ لقد أخذ يقهقه ويقول لى : تصوّر أنك تسير فى الطريق ، ثم يسقط فوق رأسك حجر من أحد البيوت دون قصد ، فماذا ستقول ويقول الناس ؟ سيقولون : هذا قضاء وقدر ، وعليك أن تصبر .. فكيف أصبر وأنا غير مقتنع بما يجرى ويحدث ، إن شيئًا كهذا لا يمكن أن يحدث فى ألمانيا .. هناك يحترمون حقوق الإنسان وحريته ، لقد حاولوا إغرائى بأن أبقى معهم وأحصل على الجنسية ، لكن حبى لوطنى منعنى من أن أتنكر له ، وهذه هى النتيجة ..» .

كان موضوع الدكتور « ح » محزنًا مخزيًا . وبقى المسكين بين المعتقلين حزينًا كابيًا ، لا يستطيع أن يتكيف مع الجو القاتم الذى ألقى به فيه ، وكثيرًا ما يعزف عن الطعام والكلام ، حتى ساءت حالته الصحية ، وضعفت بنيته ، ونقص وزنه ، وحاولنا قدر الإمكان أن نقنع طبيب السجن الدكتور « خليل » أن يضعه فى الملاحظة الطبية ، حتى يقدم له الطعام الأفضل ، والعلاج المناسب ، ومن المحزن أيضًا أن مرور الأيام الكئيبة على (ح) فى المعتقل قد أثر كثيرًا على نفسيته ، مما انعكس على تصرفاته وسلوكه .

ولم يقتنع قط بمعقولية الإجراءات التى اتخذت ضده ، وربما لو كان له أدنى علاقة بالإخوان ، أو أقدم على بعض التصرفات التى تجلب الشبهة ، لوجد الأسباب أو المبررات لما يحدث له ، ولشعر بقدر من العزاء ، لكن حياته العلمية وانهماكه فيها ، لم يفتح له بابًا تدخل إليه منه المعرفة الحقَّة بأعاجيب السياسة وبلائها وعجائبها ، وفى ألمانيا لم ير سوى الوجه المشرق للحياة وحقوق الإنسان التى يحترمها الجميع ، ولم ير إلا معاهد العلم الجادة ، ومختبراتها المتطورة ، وأساتذتها الأجلاء ، رآهم هناك يقدسون العلم وحرية البحث ، ولا يقدسون السلطة ، ولكن يحترمونها ما دامت تحترم حقوقهم ، وتعمل على خدمتهم .. أية صدمة أصابت (ح) فى هذه الأيام الحرجة من حياته ، وفكر هل يطلق زوجته ؟ إن كل شىء يوحى باليأس وخيبة الأمل ، أليس الموت أهون من ذلك العذاب كله ؟

ولم يخف ذلك عن إخوانه ، ولم يدخروا وسعًا فى التخفيف عنه ، وتقديم المسكنات الإرشادية له ، لكن خيبة أمله كانت أقوى من أية نصائح تقدم له ، وكثيرًا ما كنت أجلس إليه ، وأحكى له عشرات القصص والحكايات عن المظلومين ، والمثل الشعبى يقول « يا ما فى السجن مظاليم » ، وكان يرتاح لحديثى ، ومما يخفف عنه أن يرى ويسمع وقائع وأحداثًا تشابه إلى حد كبير ما وقع له ، وأخذ ينطبق عليه قول الشاعرة الخنساء :

يذكرنى طلوعُ الشمس صخرًا ... وأذكره لكل غروب شمسِ
ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
ولا يبكون مثل أخى ولكن ... أعزّى النفس عنه بالتأسّي

لقد كان « ح » أنموذجًا من النماذج العديدة التى لا تخفى دلالاتها على أى مراقب للأحداث فى تلك الأيام السوداء التى امتلأت بالغرائب والأعاجيب .

كنت أذهب إلى الأستاذ محمود شاكر أحيانًا فى غرفته حيث كان ينام على حشية من القش ، موضوعة على الأرض ، ولم يكن له سرير مثلنا ، وكلما ذهبت إليه أجد قبالته رجلًا يجلس صامتًا فى وضع الجلوس للصلاة ، كان هذا الرجل جامد النظرات ، يتطلع إلى أفق بعيد ، والبؤس على وجهه ، لا يرد على أحد ، ولا يكلم أحدًا ، ولاحظت أن جيرانه فى الغرفة الكبيرة يقدمون له الطعام فيأكل ، وكذلك الشراب فيشرب ، لكنه أحيانًا يرفض الطعام والشراب .

قلت لعالمنا الكبير الأستاذ محمود شاكر : « من هذا الرجل ؟ » .

قال فى اقتضاب : « مجنون » .

– « غير معقول » .

نظر إلى فى سخرية وقال : « ألا تصدقنى ؟ لقد أتوا به من مستشفى الأمراض العقلية بالخانكة » .

– « حتى المجانين يعتقلونهم ؟ » .

قهقه قائلًا دون أن تفارقه رنة السخرية : « كلهم مجانين » .

وعجبت أشد العجب لهذا التصرف من رجال الأمن ، بالأمس القريب استغربت وجود مرضى الجذام بيننا ، لكنهم بعد ذلك أعادوهم إلى مستعمرة الجذام مرة أخرى تحت الحراسة ، فلماذا لم يفعلوا نفس الشىء مع هذا المريض ؟ وأخذت أتقصّى سيرة هذا المسكين ، فعلمت أنه كان يشغل وظيفة « صول » فى الجيش ، ثم لحقت به شبهة الانتماء للإخوان المسلمين فاعتقل فى عام ١٩٥٤ ، وقضى فى المعتقل حوالى عامين ، ثم أفرج عنه فى عام ١٩٥٦ وطرد من الجيش ، وفجأة وجد نفسه فى الشارع

لا يستطيع أن يكفل الحياة الشريفة لزوجته وأولاده ، وسقط فريسة الهموم النفسية الرهيبة التى عجز عن تحملها ، لقد عاف النوم والطعام ، وأصبحت حياته مريرة المذاق ، وتدهورت حالته حتى أخذ يهذى ويتخبط ويرتكب بعض التصرفات العدوانية الخطرة ، لقد أصبح مجنونًا بالفعل ، وهكذا أدخلوه مستشفى الأمراض العقلية ، حيث قضى عددًا قليلًا من السنوات ، وجاء عام ١٩٦٥ ، والاعتقالات الواسعة ، فبحثوا عنه ووجدوه فى مستشفى الأمراض العقلية ، فذهبوا إليه واعتقلوه ، وأجلسوه قبالة الأستاذ محمود شاكر مباشرة ، وكان الأستاذ متبرمًا بهذا الوضع غاية التبرم ، ولذلك فإنه يغادر غرفته منذ الصباح ، ولا يعود إليها إلا فى وقت « التمام » أى عند إغلاق الغرف على المعتقلين ، وبينما كنت جالسًا ذات يوم مع الأستاذ شاكر نتحدث عن الشعر الجاهلى ، اخترقت آذاننا صرخات عالية ، واتجهنا بأبصارنا إلى مصدر الصوت ، كان ذلك المريض المجنون يصرخ ويضرب الأرض بكفيه فى ثورة عارمة مجنونة ، والدموع تتدفق من عينيه ، وسرعان ما عاد إلى صمته ، ووضع كفيه على ركبتيه كما كان فى البداية ، واستعاد وضعه السابق ونظراته الجامدة ، وكأن لم يحدث شىء ، لكن الدموع ما زالت فى عينيه وعلى خده ، وسألنا عن السبب قال جاره : « إنه يفعل ذلك أحيانًا دون سبب معروف ، لعل هناك ما يضايقه ونحن نجهله » .

وهم الأستاذ محمود شاكر بالوقوف ، وقال : « هيا بنا نخرج .. إنى أكاد أختنق » .

وفى أحد الأيام فى النصف الأخير من عام ١٩٦٦ جاء إلى المعتقل شاب قصير القامة ، حليق الرأس ، مرتعش اليدين ، قلق النظرات ، مهتز الرأس ، ينظر إلى الجميع فى خوف وتوجس ، ومن آن لآخر يقول فى توسل « والنبى ما عملت حاجة .. والله العظيم ما عملت حاجة .. » .

قصة أخرى من قصص اللا معقول التى نرى أشباهًا لها كل يوم ، وكان بالمعتقل بعض الإخوة الذين يعيشون فى الحى الذى يعيش فيه هذا الشاب بالقاهرة ، فتعرفوا عليه وأخذوا يحاولون بث الطمأنينة فى نفسه ، حتى ارتاح لهم ، وأنس إليهم ووثق فيهم ، وأخذ يستعيد هدوءه تدريجيًا حتى بدا أنه قد تخلت عنه وساوسه ومخاوفه ، ثم قص حكايته ، فروى لنا كيف أنه دخل خطأً فى الشارع الذى يقيم فيه الرئيس ، وكان يقود سيارته ، فأوقفوه فى عنف ثم قبضوا عليه ، وأخذوه إلى مكان ما للتحقيق معه عن سبب دخوله هذا الشارع ،واتهموه بأنه ضالع فى مؤامرة للاعتداء على الرئيس ، فنفى ذلك نفيًا قاطعًا ، وأكد لهم أن دخوله الشارع بسيارته خطأً غير مقصود يمكن أن يقع فيه أى إنسان حسن النية ، فلم يصدقوه ، ثم أخذوا يوقعون عليه شتى ألوان التعذيب .. وطال تعذيبهم له أيامًا حتى فقد القدرة على التحمل ، فتداخلت أمام عينه الصور ، واختلطت فى رأسه الأفكار ، ولم يعد قادرًا على التمييز أو الإجابة على أية أسئلة توجه إليه ، وقرر طبيب الشرطة ضرورة إحالته إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وخاصة أن التحريات قد أثبتت أن أباه من تجار الأقمشة المرموقين ، وأن أسرته تعيش فى بحبوحة من العيش ، وأن ذلك الشاب متزوج ، وليس لهم جميعًا أية انتماءات سياسية ، كما لا يمتون بصلة قرابة أو صداقة مع أحد العاملين فى الحركة الإسلامية أو غيرها ، وقضى المسكين فترة من الزمن فى مستشفى الأمراض العقلية ، وما إن تحسنت حالته ، وثبتت براءته حتى أحضروه إلى معتقل مزرعة طرة ، لينضم إلى نزلائه فى انتظار المجهول .

القاعدة عند السلطة أن البرىء متهم حتى تثبت براءته ، وحتى بعد أن يتأكد ذلك ، يظل سيف الشك مصلتًا على رءوس الجميع .

وليس سرًّا أن أقول أنه بطول المدة ابتدأت تظهر حالات مرضية نفسية كالهستيريا والهوس

والصرع ، وبعض الأمراض المزمنة الأخرى كأمراض الكبد والقلب وارتفاع ضغط الدم وقرحة المعدة وغيرها ، ولقد كان معنا معتقل أصيب بالشلل الهستيرى ، كان حاد الذكاء طموحًا ، يستبد به الضيق لوجوده فى السجن ، وكثيرًا ما يقول « إننى كالعصفور الحبيس فى القفص » ، هذا الرجل الآن (١٩٩٤) قد أصبح من كبار رجال الأعمال ، ويمتلك الملايين رغم أنه بدأ من الصفر ، ولم يكن يحمل أية مؤهلات علمية تذكر ، ومثله كثيرون ..

إن الناس يختلفون فى القدرة على التحمل ، وإذا ما طالت مدة الابتلاء فقد يأتون بعض التصرفات الغريبة المحزنة مثال ذلك أن أحد المعتقلين وقف ذات مساء فى وسط الغرفة وقال لهم بصراحة : « إن مشكلتنا مع الحكومة لا حل لها حسبما أرى ، وما حدث فى أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٦٥ يؤكد أن الظلم قائم ولن نستطيع الخلاص منه ، وقد قضيت ليالى أفكر فى حل لهذه المأساة المرعبة ، ووصلت فى النهاية إلى نتيجة حتمية لا فكاك منها » .

رد عليه أحدهم : « ما هذه النتيجة ؟ » .

قال : « لن يرفعوا يدهم عنى ما دمت مسلمًا » .

قال قائل : « ماذا تعنى ؟ » .

- « كلامى واضح ، سوف أذهب غدًا إلى قائد المعتقل ، وأطلب منه أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بتغيير دينى » .

هاج المعتقلون فى العنبر وماجوا ، بعضهم اتهمه بالجنون ، والبعض الآخر بالخيانة ، وثالث جرده من رجولته ، والبعض الآخر هم بالفتك به ، وتدخل رجل صالح من المعتقلين يتسم بالهيبة والصلاح وكبر السن ، وقال : « أتركوه وشأنه ، إنها نوبة من نوبات اليأس » .

وأخذ ينصح أخاه الجانح ، وذكره بأن الدنيا دار فناء ، والآخرة دار بقاء ، وذكره بقوله الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ وأن العمر مهما طال قصير ، وأن الإيمان الراسخ بالله من أعظم نعم الله علينا ، وأن الأزمة ستمر ، وسننال عليها أعظم الثواب ..

وصاح رجل فى آخر الغرفة : « إن المرتد عقوبته القتل .. » .

وساد الضجيج حتى جاء خفر الليل ، ودقوا على الباب وتوعدوا الجميع بالعقوبة الصارمة إذا لم يخلدوا إلى النوم ، ويكفوا عن إثارة الفوضى .

فى الصباح أمسك المعتقل المتمرد بيد العسكرى ، وطلب منه أن يأخذه إلى قائد المعتقل ، وحينما عرض أخونا مطلبه على أحد الضباط (وكان مسيحيًا) رد عليه ببرود : « ونحن لن نقبلك فى ديننا » .

وغمره عرق الخجل ، وقال الضابط : « وحتى لو تركت دينك ، فستظل فى المعتقل .. إن الحكومة تتعامل معك من الناحية السياسية ، وليس الناحية الدينية ، الملايين فى الخارج متمسكون بدينهم ، ولا يعترضهم أحد ، لكن الذين يتحركون سياسيًا ضد الحكومة هم الذين تتخذ ضدهم الإجراءات القمعية . . فى سجون مصر ومعتقلاتها يهود .. ومسيحيون .. وشيوعيون وكفرة .. وفيها مسلمون ، ولا يجمعهم سوى شىء واحد هو العداء السياسى للحكومة .. هل فهمت يا أخ ؟ اذهب إلى غرفتك يا أخ .. فنحن لن تنطلى علينا هذه الألاعيب ، وسأكتب تقريرًا عنك وأرفعه إلى المسئولين .. من يدرى ؟ قد يلقنونك درسًا قاسيًا فى الأدب .. » .

وعاد المتمرد إلى غرفته ، كانوا يجلسون فى صمت وهم ينظرون إليه فى حسرة ، عندما أذن الظهر ، وجدوه يذهب إلى دورة المياه ليتوضأ .. أشرقت الفرحة على وجوههم وقلوبهم ، وعندما أمَّ أحد الشيوخ الصلاة كان صاحبنا يقف فى الصف الأول ، وما إن انتهت الصلاة حتى وقف صائحًا يقول :

- « أستغفر الله .. تبت إلى الله ، وندمت على ما فعلت ، وعزمت على ألا أعود إلى المعاصى أبدًا ، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام ، وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » .

ثم انفجر باكيًا .

قال الشيخ الإمام : « رددها ثلاثًا ..بل سبعًا » .

وما إن انتهى من ترديدها ، حتى تجمهروا حوله ، وأخذوا يعانقونه ويقبلونه ، والدموع فى أعينهم ، كان يقول : « لقد غلبنى الشيطان ، لكنى أعود الآن إلى رحمة الله ، إن قوة شريرة سكنتنى بعض الوقت .. أنتم لا تعرفون ظروفى الخاصة .. لكن الله قادر على أن يحفظنا من كل مكروه ..» .

هذا الشاب الأسمر الممتلئ .. فى بداية الثلاثينات من عمره ما زلت أذكره .. إن صورته وملامحه الدقيقة مرتسمة حتى الآن فى خيالى .. وفى إحدى المرات ، ونحن نجلس فى فناء المعتقل مال أحد الإخوة هامسًا ، وقال : « ألا ترى ذلك الشاب الذى يسير وحده واضعًا منديلًا أبيض فوق رأسه ؟ » .

- « من يكون ؟ » .

قال أخى : - « سبحان الله .. كان أبوه من العلماء الذين تستعين بهم الحكومة فى توعية الإخوان فى السجن الحربى فى عام ١٩٥٦ ، وكان والده يُبَصِّرُنا بما يجب أن نلتزم به فى الإسلام ، على الوجه الصحيح ، ويأخذ علينا التصرفات الجامحة - من وجهة نظره - ويعتبرها عصيانًا وخروجًا على ديننا الحنيف » . ثم شرح لى الأخ كيف أن الأيام قد مرت ، ودارت الدائرة ، وأصبح ابنه بالذات واحدًا منا ، وتعرض لما يتعرض له المعتقلون من معاناة ومتاعب ، هل كان يتصور ذلك العالم الطيب أن ولده سينضم إلى الذين كان بالأمس يعظهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح ، مع أن هذا الابن لم تسجل ضده أية أعمال تمس أمن الحكم والحكومة .

إن ما يجهله الناس هو أن الأمر ليس أمر جماعة شاذة تحترف المعارضة ، وتعمل على إثارة الفتنة ، وتريد أن تستولى على السلطة بالقوة الجبرية ، وتقود الناس جبرًا إلى مهاوى الخطر والفساد ، إن الأمر فى حقيقته هو المنع التام لأى نشاط تشم منه رائحة الإسلام .. الإسلام بصورته الشاملة الصحيحة ، الإسلام الذى يتخلل نسيج المجتمع كله ، ويدخل فى صميم حياته ، ويلهمه القول السليم ، والفعل الصحيح ، والحركة المتزنة المحسوبة ، حتى يتحرر ذلك المجتمع من نوازع الجشع والأنانية ، ويتخلص من مظاهر الاستبداد والظلم والقمع والاستغلال ، وإهدار كرامة الإنسان ..

وذهبت ذات يوم إلى المبنى الآخر لزيارة بعض الأصدقاء القدامى هناك ، وعندما اقتربت من العنبر وقعت عينى على صديقى الأستاذ محمد العوضى سلام .. يا إلهى .. ماذا جرى ؟ لقد تركنا ونحن فى معتقل أبو زعبل الجديد على أساس أنه قد أفرج عنه ، وحملناه التحيات والسلامات للأهل والأحباب فى الخارج .. كان وداعنا يومذاك وداعًا مشحونًا بالعواطف والدموع .. ولكنى أراه الآن ، هل أفرجوا عنه ثم اعتقلوه مرة أخرى ؟ ولم تطل حيرتى ، فقد رآنى وقدم نحوى فى اشتياق ، وتعانقنا وتصافحنا ، ولعله أدرك ما يعتمل فى نفسى من تساؤلات فقال على الفور : « ضحكوا علينا ، أوهمونا بالإفراج ، وإذا بنا نجد أنفسنا ، وقد انتقلنا من معتقل إلى آخر ، لقد سعدنا ساعة أو بعض ساعة ، وسرعان ما ذهبت الفرحة ، وحل مكانها العذاب المقيم ..» .

ولاحظت أن الشيخ محمد العوضى سلام قد شحب وجهه ، ونحل جسده ، وبدا أنه يعانى من مرض ما ، وهو الذى عهدناه صلبًا كالصخرة قبل ذلك ، رغم قصر قامته ، وكنا نعهد إليه بالأعمال التى تحتاج إلى قوة ، كما كنا نطلب منه أن يخطب فى الناس بعباراته الملتهبة ، ومنطقه القوى ، وتأثيره الجماهيرى الفعال .. ماذا جرى له ؟ ؟ إنه يكاد يتهاوى من شدة الضعف والوهن ، وحاولت أن أوجه إليه بعض الأسئلة الصحية ، ثم فحصته فحصًا عابرًا ، وتبين لى أنه مصاب بمرض فى كبده ، وحاولت جاهدًا لدى أصدقائى الأطباء المعتقلين أن يقنعوا الدكتور خليل - طبيب السجن - بوضعه فى الملاحظة الطبية .

وبقى محمد فى المعتقل ، وقد ازدادت حالته سوءًا ، ولما أفرج عنه بعد شهور ، وعاد إلى بيته لم يمهله القدر طويلًا ، فلبى نداء ربه .

لقد كان محمد العوضى معارًا للعمل فى الجزائر ، وكان يغشى المحافل الفكرية والدينية هناك ، فهو طاقة من نشاط لا تكل ولا تمل ، وقد أصدر هناك كتيبًا يتحدث فيه عن شرع الله وضرورة أن يسود فى المجتمعات الإسلامية حتى تتخلص من مظالمها وهزائمها وتأخرها ، ويبدو أن أحد المصريين العاملين هناك قد كتب تقريرًا سريًا عنه ، وبعث به إلى الجهات المسئولة ، وكان ذلك يحدث فى معظم البلاد التى يعمل بها المصريون ، بل وفى داخل مصر نفسها ، وكان من جراء هذا السلوك أن طرد بعض العاملين المصريين فى دول عربية أو إسلامية بسبب ثبوت تهمة التجسس عليهم ، بل إن بعض الدول قد طردت جميع العاملين بها بسبب الخلافات السياسية الكثيرة التى كثيرًا ما كانت تحدث فى عهد عبد الناصر ، وهى أحداث مشهورة يعرفها الجميع ..

المهم أن الشيخ محمد العوضى الذى كان سلاحه الخطابة والقلم ، وهما من الأمور العلنية ، قد فوجئ ذات يوم بأمر ترحيله من الجزائر ، وتسليمه للسلطات المصرية ، وما إن وطئت قدمه أرض مصر ، حتى دفعوا به إلى المعتقل ضمن الآلاف الذين يعيشون وراء الشمس ، وبالتحقيق معه ، لم يعثر المحققون - رغم قسوتهم عليه - على أى دليل يدينه ، وعاش بين المتحفظ عليهم ، وكانت التحقيقات التى تعرّض لها ، والتعذيب الذى لقيه ، مليئًا بالطرائف المضحكة المبكية على حد سواء ، والتى لا يستطيع الإنسان أن يسجلها لأن بعضها يخدش الحياء ، ولا يصح أن يكتب على الورق .

وكان له من الأولاد ستة ، والمعاش الشهرى قليل لا يكفى الأولاد وأمهم .. ولهذا لجأت الزوجة إلى فتح محل صغير للبقالة .. وكلما سألها أحد عن حالها قالت : « أهى ماشية والحمد لله » ... رحمه الله ...

استيقظنا ذات صباح ، وأخبرنا أحد الزملاء بأن الحكومة قد اعتقلت عددًا من الشيوعيين ، والغريب أن عددًا منهم كان يعمل فى منظمة الشباب الحكومية ، والتى يرأسها الدكتور حسين بهاء الدين ، وقد لوحظ أن بينهم عددًا من الكتاب والأدباء ، وقد أحضروهم من سجن القلعة مساء أمس ، ووضعوهم فى مكان مستقل بهم فى عنبر من العنابر ، وعلمت أن من بين هؤلاء المعتقلين المتهمين بالشيوعية بعض الأصدقاء القدامى الذين يكتبون فى الصحف ، ويغشون المنتديات الأدبية ، ومن بين هؤلاء المعتقلين الجدد :

- الشاعر عبد الرحمن الأبنودى .
- الكاتب الناقد غالى شكرى .
- الناقد الدكتور صبرى حافظ .

- أمين مساعد منظمة الشباب جمال حمزة [وأظن أن هذا اسمه] وقد قيل أن خاله هو شعراوى جمعة - أحد وزراء عبد الناصر . « والشاعر الشعبى « سيد حجاب » .؟

- والأديب الصحفى الأردنى غالب هلسا ... وغيرهم ، وأخذنا نتساءل كيف تعتقل الحكومة الشيوعيين بعد أن أفرجت عنهم عندما زار خروشوف مصر عام ١٩٦٤ لافتتاح السد العالى ، وكان شرطه أن يفرج عن جميع المعتقلين ، لأنه - أى خروشوف - لا يزور بلدًا فيها سجين شيوعى .

ولم يطل بنا التخمين ، فقد سمعت وأنا فى حجرتى من ينادينى فعلمت أن أحد المعتقلين الشيوعيين قد أتى من عنبرهم ويريد مقابلتى ، فهرولت إلى الخارج فإذا بى وجهًا لوجه مع الناقد الأديب « صبرى حافظ » ، واستقبلته بالترحاب الواجب ، والكرم المعهود ، وقبل أن أستفسر منه عن شىء أخبرنى بأنهم جوعى منذ الأمس ، ولم يصرف لهم أى طعام ، ولهذا يطلب منى كمية من الأكل تكفيهم ، ثم قال هامسًا : « ولا مؤاخذة .. لى طلب سخيف .. أعنى بضع سجائر لأن الجماعة « خرمانين » وبعضهم يكاد يجن » .

لم أضيع الوقت فأحضرت كيسًا من القماش ، ومشيت بين الغرف أقول فى مرح : « يا إخوان ... زملاؤنا الشيوعيون يكادون يموتون من الجوع .. فجودوا عليهم بما تبقى عندكم من أرغفة أو جبن أو خلافه .. وأستسمح إخواننا المدخنين الذين يستطيعون تهريب السجائر أن يتنازلوا عن عدد قليل منها رحمة بأمزجتهم .. ومن قدم شيئًا بيديه التقاه .. هنيئًا لك يا فاعل الخير ..»

جمعت كمية من الطعام وثلاث سجائر ، وقدمتها للأخ صبرى حافظ ، الذى سعد بها أيما سعادة ، وسارع بأخذها والذهاب إليهم ، وللشيوعيين مقولة شائعة يرددونها وهى « أعطنى خبزًا وحدثنى عن الله » قال لنا زميلنا الأستاذ شوقى كحلة : « هل حدثتهم عن الله ؟ » .

- « لا .. أعطيتهم الخبز دون مقابل » .
- « لوجه الله ؟ » .
- « نعم » .
- « وهم لا يؤمنون بالله ..» .

وأشار شوقى إلى أن التصدق بالسجائر لا يجوز شرعًا ، وأنهم يمجدون الصداقة إذا كان فيها نفع مادى لهم ، ولكنهم يدوسونها إذا لم يكن لها جدوى ، وذكرنى شوقى بتلك الواقعة القديمة حينما كرمونى فى سجن مصر بعد فوزى بالجائزة ، وصدور رواية « الطريق الطويل » فى طبعتها الأولى ، ثم قاموا بعد ذلك بتقديم شكوى ضدى ، كى يحرمونى من الخروج للعلاج فى القصر العينين أيام سجنى الأول ، لكن وجهة نظرى فى هذا الأمر تختلف عن وجهة نظر أخى شوقى ، فقد كنت أميل إلى مقابلة الإساءة بالإحسان ، وأرى أنه من الواجب أن أقدم ما أستطيع من خدمات لخصومنا السياسيين إذا ما جمعتنا الظروف التعسة فى صعيد واحد ، ولقد كنت متأثرًا بالصداقة القديمة ، ثم إنى رأيت بعض الكدمات على وجوه البعض وعلى الأجزاء المكشوفة من أجسادهم ، ومن الغريب أن بعض الشيوعيين كانوا أعوانًا مخلصين للحكومة ، ويشغلون مناصب هامة للغاية ، خاصة فى وسائل الإعلام ، وشركات القطاع العام ، وقد حققوا من وراء ذلك ثراءً فاحشًا يتنافى مع الاشتراكية التى يدعون إليها ليل نهار ، وفى الوقت نفسه يُقبض على عدد منهم ويوضعون فى المعتقلات ، ويستطيع أى مراقب أن يستنتج أن الحركة الشيوعية فى مصر منقسمة على نفسها ، لكن غالبية الشيوعيين يؤازرون الحكومة مؤازرة كاملة ، وذلك كى يحققوا أهدافهم فى الوصول إلى سلطة القرار ، ولينتقموا من أعدائهم التاريخيين وخاصة

الإخوان المسلمين ، والواقع أن تجربتى مع الشيوعيين مريرة ، فقد كنت أحاورهم فى أدب ، واستقبلهم مرحبًا ، وأقدم لهم ما أستطيع من خدمات داخل السجن وخارجه ، ومن خلال عملى كطبيب ، وفى المجالات الأخرى التى أستطيع أن أقدم العون فيها للآخرين ، ومع ذلك فقد كانوا لا يجدون فرصة لتعويق مسيرتى ، وتعطيل آمالى ، والنيل منى ، إلا انتهزوها ، وكأنهم يقدمون إيذائى قربانًا لصنمهم الكبير المقام على قواعد من الكراهية والحقد والحسد والجحود ، لكن هل كان ذلك قادرًا على أن يوقف قدر الله ، أو يمنع مشيئته من التحقق ؟ لا .. وألف لا ، إن سخافات البشر وأحقادهم الصغيرة ما هى إلا فقاعات صغيرة سرعان ما تنفجر ، ويكتسحها الهواء ..

إننى أعتقد أن الفساد الأكبر الذى حاق بمصر فى العهد الناصرى نجم أساسًا عن وصول أبالسة الشيوعيين إلى صانعى القرار ، والمشاركة فى صنع السياسة الاقتصادية والتعليمية والحزبية . وسيطرتهم شبه الكاملة على وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات ومسارح وإذاعة وتليفزيون ، واستيلائهم على مناصب حيوية فى مجلس الوزراء والمجلس التشريعى ، وتكوين حزب « الاتحاد الاشتراكى » ، والسلك الدبلوماسى ، ومناحى الأنشطة الفنية المختلفة ، وقد طال بقاء هذه العناصر المدمرة فى مواقعها الحساسة ، فأفسدت كل شىء فى مصر « المحروسة » ولعل من أخطر الأمور التى نجمت عن تدخلهم فى كل صغيرة وكبيرة ، سيادة نمط من القيم والأخلاق الفاسدة ، والتهجم على قيم الإسلام وعقيدته ومثله الرفيعة . وحاولوا - من خلال أجهزة الأمن والمخابرات - أن يتصدوا للعناصر النظيفة ، ويبعدوها عن الالتحاق بهيئات التدريس بالجامعات ، ورفض موضوعات معينة لإعداد رسالات الماجستير والدكتوراه ، وفرض موضوعات أخرى مضادة على الدارسين ، وقد أشرت فى الجزء السابق من هذه اللمحات إلى ما حدث بالنسبة لروايتى « اليوم الموعود » الحائزة على جائزة « المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب » والتى تم التعاقد عليها مع مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى ، فقام أحد الشيوعيين (ب . ش) بكتابة مذكرة للإطاحة بها ، وتعطيل تنفيذها وكانت إحدى الحجج هى أن البطولة فى الرواية بطولة « فردية » وليست بطولة « جماعية » ، هكذا قيل .. وقيل أيضًا أنها - كرواية تاريخية - تحتاج إلى ميزانية ضخمة .. ولست أدرى كيف تكون البطولة فردية فى رواية عن الحروب الصليبية ، يحتشد فيها أبناء الأمة للدفاع عن إسلامهم وعروبتهم ووطنهم ، لكنها السفسطة الشيوعية التى تلعب بالألفاظ ، وتقلب الحقائق ، وتزيف التاريخ ، وترفع الشعارات الرنانة ، والعبارات الجوفاء ، حتى انحدرت الثقافة ، وفسد الفن ، وضاعت حرية التعبير والإبداع ، ولم يكن يهم السلطة القائمة سوى الاطمئنان على بقائها وحمايتها من أعدائها ، وليذهب كل شىء بعد ذلك إلى الجحيم ، إن المخلوقات المشوهة نفسيًا وعقليًا وأخلاقيًا ، لا يمكن أن تعيش إلا فى الأجواء الموبوءة العفنة ..

كان بالمعتقل جناح معين كنا نطلق عليه جناح « المعتقلون العرب » والسبب فى هذه التسمية هو أن هؤلاء المعتقلين كانوا يعملون كموظفين فى شركة « المقاولون العرب » التى يديرها رجل الأعمال الناجح الكبير عثمان أحمد عثمان ، ولقد كان عثمان صديقًا مرضيًا عنه من جمال عبد الناصر ، لأن الشركة كانت تحقق لمصر دخلًا لا بأس به من العملة الصعبة ؛ إذ كانت لها أعمال كثيرة فى الخارج ، ولقد كان بهذه الشركة عدد كبير من الإخوان المسلمين كانوا وراء النجاح الكبير الذى تحققه يومًا بعد يوم ، ولهذا أراد عثمان الاحتفاظ بهؤلاء الإخوان فى أعمالهم واستأذن عبد الناصر فى ذلك ، وتعهد بأن يسلم للحكومة أى فرد من الإخوان العاملين معه عند طلبهم للتحقيق أو الاعتقال ، ووافق عبد الناصر على مضض بعد أن أدرك أهمية هؤلاء العاملين فى الشركة التى تحظى برعايته ، وعندما حدثت أزمة ١٩٦٥

بين عبد الناصر والإخوان طلبت الحكومة عددًا منهم للاعتقال باعتبار أن سبق اعتقالهم أو طالتهم الشبهة، ووفى عثمان أحمد بوعده لعبد الناصر، فأحضر المطلوبين من كل مكان سواء داخل مصر أو خارجها، ومنهم من كان فى ليبيا أو السعودية أو غيرهما، ثم وضعوا فى أحد أجنحة معتقل طرة، ولهذا أطلقنا عليهم «المعتقلون العرب» وكان الأمر مثارًا للضحك والتعليقات المرحة، وكان الذى يفرج عنه منهم يعود إلى موقعه فى «شركة المقاولين العرب» مرة أخرى دون حرج أو حساسية، كما استمر صرف رواتبهم أثناء الاعتقال شأنهم فى ذلك شأن موظفى الحكومة المعتقلين، وبعض هؤلاء المعتقلين استطاع بعد ذلك الصعود إلى مناصب مرموقة فى الشركة حتى يومنا هذا، والبعض الآخر استقال من الشركة، وأسس شركة مقاولات مستقلة، ونجح نجاحًا كبيرًا، وأصبح من كبار رجال المال والأعمال، أى أصبحوا مليونيرات باجتهادهم وإخلاصهم وعرقهم.

ولقد كان هناك رجال أعمال آخرون غير العاملين أو المنتسبين لشركة المقاولين العرب، بدءوا حياتهم عصاميين معتمدين على كفاءتهم وموهبتهم أذكر منهم الأخ الأستاذ محمود شعراوى وشريكه الأخ الأستاذ جودة المحلاوى، وكان الأخ جودة يروى تفاصيل وأسرار العمل مع شركات القطاع العام والحكومة، وكيف يحصلون على حصصهم من الأسمنت والحديد والزجاج والخشب ومختلف متطلبات البناء، وتبين لنا للأسف أن الأمور لا تسير إلا بطرق ملتوية، وأن رجال الحكومة فى هذه القطاعات يرتشون وينهبون ويختلسون، فى الوقت الذى يكثرون فيه من الحديث عن نزاهة رجال الثورة وإخلاصهم، ونقائهم الثورى، وما إلى ذلك من العبارات الجوفاء، والشعارات الطنانة، حتى أصبحوا - كما قيل - حيتانًا فى عالم المال والأعمال، وفتحوا حسابات بالعملة الصعبة فى البنوك الأجنبية الخارجية، ولم يكن عجبًا أن يتحدث الناس، ويعقدون المقارنات بين باشاوات ما قبل الثورة، وسوبر باشاوات ما بعد الثورة، ومن هنا كان حرصهم الشديد على بقاء الأوضاع على ما هى عليه، والتمسك بمناصبهم ومكاسبهم ومشاركتهم الضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه أن ينتقد أو يعارض أو يكشف المستور. ذلك أن أنصار الثورة الكبار من رجال الجيش أو المدنيين الذين لم يحملوا حقائب وزارية، كانوا يلحقون بقطاعات الصناعة والتجارة الخاضعة لإشراف الحكومة كأعضاء أو رؤساء فى مجالس إدارة الشركات، أو يتولون العمل كمديرين تنفيذيين ويكون تحت أيديهم الأموال الطائلة، ولهم سلطة اتخاذ القرار دون أن يعترض طريقهم أحد، وفى حالة ما إذا ظهر معترض له سلطة أو نفوذ، فمن السهل إسكاته بقدر مناسب من الغنيمة الحرام، أو بالتآمر عليه لإبعاده قهرًا عن الطريق، حتى تمضى الأمور فى نطاقها المرسوم.

ولقد راجت شائعات تقول أن هناك دفعة إفراج فى عيد الأضحى المبارك أو فى عيد الثورة (لا أذكر)، وتفاءل الجميع خيرًا وخاصة بعد أن انتهت المحاكمات، وصدرت الأحكام ضد البعض ولم يعد هناك مبرر للاعتقال التحفظى، لأن إغلاق ملف المحاكمات يعنى أنه لم يعد هناك أحد ممن حامت حولهم الشبهات مطلوبًا للتحقيق أو المحاكمة، وجلسنا ننتظر، ولكن تبخرت الآمال، بعد مرور تلك المناسبة، ولم يفرج عن أحد، وقيل فى حينها أن السيارات التى كانت ستنقل المفرج عنهم كانت جاهزة، لكن الرئيس جمال عبد الناصر لم يعتمد قوائم الإفراج المعدة لذلك حسبما أخبرنا الدكتور خليل طبيب المعتقل، وكان من المعروف أنه يستحيل الإفراج عن أى فرد إلا بموافقة رئاسة الجمهورية فى تلك الفترة.. وشعر الجميع بخيبة الأمل، ولكن ما الحيلة..

فى هذه الفترة سمعنا أن الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل سوف يأتى إلى المعتقل ليلقى محاضرة

عنوانها «أعمال الثورة من أجل الإسلام» ، والدكتور عبد العزيز كامل هو أستاذ الجغرافيا فى كلية الآداب جامعة القاهرة ، والخبير المختص بالتسلل الإسرائيلى فى أفريقيا ، كما أنه كان عضوًا فى مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين (أعلى سلطة فى الجماعة) ، وكان قد التزم الحياد فى الصراع بين الثورة والإخوان ، كما كان يحسن الظن بنوايا الثورة ، وعندما جاء إلى المعتقل خرجنا إلى فناء السجن الواسع ، وجلسنا القرفصاء ، أما هو فقد جلس على مقعده خلف مكتب خشبى متواضع وأخذ يتحدث عما قدمته الثورة من أعمال مجيدة تهدف إلى رفع راية الإسلام ونشر مبادئه ، والعمل على الالتزام به ، وذلك بهدف تخفيف حدة العداء وسوء الظن بين الطرفين؛ الإخوان والثورة ، وكان الدكتور طوال محاضرته لا يرفع عينيه عن الأوراق التى أمامه ، ويتكلم بصوت خفيض دون حماسة تذكر ، وقد كان يجلس أمامه عدد من شباب الإخوان كانوا قد تتلمذوا على يديه فى الماضى ، كانوا لا يرفعون أعينهم عنه ، وهم فى الصف الأول ، وما إن أنهى المحاضرة حتى هبوا واقفين وصافحوه ، فكان يصافحهم فى حرارة ، دون أن تفارق شفتيه ابتسامة لها معنى لا يخفى على أحد ، وكأنه يقول إننى لم أفعل ذلك إلا من أجلكم ، أملًا فى إيجاد حل للمشكلة المزمنة التى طال عليها الأمد .

ولقد علمت بعد أن خرجت أنه قدم إلى المعتقل عدد من المحاضرين الآخرين للتوعية منهم كمال رفعت أحد كبار رجال الثورة (والوزير أيضًا) ، وقد كان ممن شارك مع الإخوان فى حرب القناة ضد الإنجليز قبل الثورة ، وقد أثنى على جهاد الإخوان القديم ثناء طيبًا ، وجاملهم بأكبر ما يستطيع كما جاء للمحاضرة بعد ذلك عدد من علماء الأزهر منهم الشيخ فتح الله بدران وغيره .

ولقد رأى رجال الأمن فى تلك الفترة ، أن يقوم الإخوان المعتقلون أنفسهم – إثباتًا لحسن النية – بدور ما فى التوعية وسط صفوف الإخوان المعتقلين ، على أن يذكر فيها منجزات الثورة ، وأن يتناول الحديث أيضًا – كشرط أساسى – الأخطاء التى وقعت فيها الجماعة ، وخاصة محاولة اغتيال عبد الناصر ، وتكفير الناس ، وما اقترفه الجهاز السرى (النظام الخاص) من أخطاء فادحة تتنافى مع الإسلام ، ومع القوانين السارية فى الدولة ، والواقع أن هذا الأمر كان قضية شائكة للغاية ، إذ أسفر عنها انشقاقات فى صفوف الجماعة ، ذلك لأن من شارك فيها كان عددًا من القيادات التى تولت مواقع حساسة فى الجماعة قبل ذلك ، ومهما قيل فى هذا الأمر ، فإنه تم بغير قليل من الضغط والإكراه ، كما وأن البعض شارك فيها كتكتيك سياسى مرحلى لا يعنى سوى الخلاص من المأزق بأقل الخسائر الممكنة ، ومن جانب آخر فقد كان لذلك رد فعل سيء فى البعض ، فقد رفضوا الإذعان لذلك ، واتهموا إخوانهم بالخيانة ، كما اتهموا الحكومة بالإجرام والكفر ، وهكذا نشأت «جماعة التكفير والهجرة» فيما بعد والتى أنشأها شكرى مصطفى وغيره ، ورأى الأستاذ الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين – وكان سجينًا فى تلك الفترة التالية – أن يشكل لجنة لدراسة الوضع ، وفى النهاية صدر كتاب فضيلة المرشد وهو كتاب «دعاة لا قضاة» أنحى باللائمة على من يكفّرون المجتمع ، ودعا جماهير الجماعة إلى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ونبذ العنف وغير ذلك من الأمور التى أسندها الكتاب إلى الأدلة الشرعية الناصعة التى ليس فيها شك ..

لكن آثار هذه الفتنة – إن صح التعبير – قد خفت حدتها ، وتكاد تكون قد تلاشت مع الزمن ، والدليل على ذلك ، أن الجماعة فى عهدها الجديد ، أيام المرحوم الأستاذ عمر التلمسانى المرشد الثالث ، والأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد الرابع قد اتخذت خط الاعتدال ، ونبذ العنف ، وشاركت فى العمل السياسى الشرعى تحت مظلة «حزب الوفد» فى المرحلة الأولى ، ثم بالاشتراك مع حزب العمل

فى المرحلة الأخيرة ، هذا وقد حققت الجماعة فى عهدها الجديد قدرًا لا بأس به من النجاح حينما دخلت الانتخابات النيابية تحت شعار «الإسلام هو الحل» ، ولولا ما شاب عملية التصويت فى الانتخابات من تزييف وتزوير وتهديد وألاعيب لكانت نسبة النجاح أكبر وأكبر ، كما استطاع أنصار الجماعة الفوز بالأغلبية المطلقة فى عدد من النقابات المهنية والاتحادات وعلى رأسها نقابة الأطباء ، ونقابة المهندسين ، ونقابة المحامين ، واتحادات الطلبة .

إن الحياة تجارب ، والعمل السياسى محفوف بكثير من المشاكل والمعوقات وقلما توجد جماعة من الجماعات ، أو حزب من الأحزاب إلا وتواجهه العديد من المحاذير والمنغصات ، واحتمالات الخطأ واردة كاحتمالات النجاح ، المهم أن تتمخض مثل هذه الأحداث عن رؤية جديدة أكثر إصابة ووضوحًا وصدقًا ، ولا يصح أن تتحول تلك الأحداث إلى ضربة قاصمة تبعثر الجهود ، وتمزق الصفوف ، وتزرع اليأس فى النفوس ، وتقضى على الآمال الكبيرة التى تخفق فى قلوب الملايين .

❁❁❁

[٦] زوجتى تقابل عبد الناصر

بلغتنى أنباء هزتنى هزًا عنيفًا ..
لقد أرسلت إلى زوجتى - وأنا فى مزرعة طرة - رسالة مخبوءة فى طرد جديد به صابون وملابس وأدوية وكولونيا ، وأخبرتنى فيها أنها قررت أن تذهب إلى الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًا وتقدم إليه التماسًا للإفراج عنى ، مستندة إلى أنى لم يرد اسمى فى القضايا الجديدة ، والتى نشرتها الصحف ، وأنها قد اتفقت مع شقيقتها الأصغر سنًا منها الأستاذة نفيسة التى تعمل كمذيعة بإذاعة القاهرة ، واتفقتا على أن تقوم زوجتى بهذه « المغامرة » دون أن يخبروا أحدًا بها ، وفعلًا بدأ التخطيط لذلك ، ثم ذهبت فى اليوم المتفق عليه إلى بيت عبد الناصر فى « منشية البكرى » فى سيارة « تاكسى » ، لكن قائد الحرس أخبرها أن الرئيس ليس موجودًا ، ويمكن أن تذهب إليه فى « قصر القبة » يوم (...) ، وتكرر ذهابها إلى قصر القبة ، فمرة يكون مشغولًا باستقبال بعض الضيوف الأجانب ، ومرة أخرى لم يحضر ، وأخيرًا حدد لها مدير المكتب موعدًا (ولعله الأستاذ سامى شرف وهو معروف جدًا) .

وفى اليوم المتفق عليه كتبت التماسًا ، وذكرت فيه بعض الأمور منها - كما قلت - أن زوجى لم يرد ذكره فى المحاكمات الجارية ، ومنها أيضًا أن زوجى له كتب تدرس لطلبة المدارس ، وهذه شهادة له لا عليه ، ومنها أيضًا أن سيادة الرئيس قد سلم زوجى جائزة القصة ١٩٥٩ وجائزة المجلس لأعلى لرعاية الفنون والآداب بالمنصورة ، وأن رجلًا هذا شأنه لم تلحقه شبهة إدانة ، من العدل أن يفرج عنه ليرعى أبناءه ويستكمل رسالته فى الحياة ، وأخبرتنى زوجتى أن الرئيس استقبلها وناقشها فى النقط التى ذكرت فى الالتماس نقطة نقطة ، وقالت أيضًا أنها سوف تشرح لى تفصيل المقابلة فيما بعد ، وكانت مهتمة جدًا بقول الرئيس لها بأنه سوف يفرج عنى مستقبلًا » ..

لقد اعتبرت أن ما أقدمت عليه زوجتى عملًا مقلقًا للغاية ، فهى ليست على دراية بدهاليز السياسة وأمور الأمن المعقدة ، فقد تصدر منها كلمة ، أو تقوم بعمل ما يفتح أمامها بابًا جديدًا للمتاعب ، فضلًا عن أن هذه المقابلة سوف يتبعها مراقبة دقيقة لها فى البيت أو الشارع ، أو معهد الخدمة الاجتماعية الذى تواصل الدراسة فيه ، وقد يجند لها بعض زميلاتها أو صديقاتها ، ولا يسلم الأمر من كلمة غضب تقولها ، أو نقد يصدر منها للحكومة ، عندئذ تقع الواقعة ، وتحدث الكارثة ، فمن الممكن أن تؤخذ من بين أطفالها ، وتوضع فى معتقل النساء .. الحقيقة أن الأمر أزعجنى غاية الإزعاج ، ولم أشعر بالارتياح إلا بعد أن بعثت إليها برسالة (سرية) أطلب فيها بإصرار عدم مقابلة أى مسئول ، والاعتكاف مع أطفالها فى المنزل ، وأخذ الحيطة والحذر من أية زميلة أو صديقة أو قريبة ، وأخذ رأى والدها شخصيًا من أى إجراء تتخذه ، كما أكدت لها أن الله وحده قد حدد التاريخ الذى سوف يفرج عنى فيه ، ولا داعى لأن

تقلق أو تتعجل الأمور على هذا النحو ، لأن العجلة كما يقولون فيها الندامة ، ونحن نعيش فترة حرجة من الزمن ، ولابد أن نحتاط ونتصرف بحكمة ولباقة تجنبًا لأية مضاعفات نحن فى غنى عنها ..

وعلمت أيضًا من رسالتها المشار إليها سابقًا ، أن أبى رحمه الله يسافر من بلد إلى بلد ، كما كان يفعل فى اعتقالى الأول ، ويتصل ببعض الشخصيات ذات النفوذ أملًا فى أن يستطيع أحدهم المساعدة فى الإفراج عنى ، كما أخبرتنى أن أمى رحمها الله عادت مرة أخرى إلى الحزن والبكاء ، وأنها تستغرق فى البكاء كلما سمعت الأغنية التى يرددها فريد الأطرش والتى تعلم أننى كنت أحب سماعها والتى يقول فيها :

بتبكى يا عين على الغايبين
ودمعك على الخدود سطرين
بسطر تقولى راحوا فين
وسطر تقولى ليه ناسيين
كفاية يا عين
كفاية يا عين ..

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، لماذا يا أمى توجعين قلبى وقلبك ، لماذا تزيدين من آلامى وهمومى ، بالله عليك أيتها الأم الطيبة المعذبة أن تصبرى وتحتسبى ، حتى تمر المحنة ، وتزول الغمة ، عندئذ تبتسم لنا الحياة من جديد ، ونجلس معًا فى الأمسيات ، ونتبادل الأحاديث والذكريات والطرائف ، وعند ذاك تضحكين فى سعادة ، ويشرف وجهك بالفرج ، وتحمدين الله على ما أسبغه علينا من النعم الكثيرة ..

هذا ما كنت أحدث به نفسى ، لكم أتمنى أن يطول عمر أمى وأبى ويطول عمرى أنا الآخر ، حتى أستطيع أن أرد لهما جزءًا من ألف من الديون التى فى عنقى لهما ، لقد كنت سببًا من الأسباب الرئيسية بخصوص ما تعرضا له من معاناة ومقاساة فى هذه السن المتقدمة من العمر ، لكن ما حيلتى ، إنها إرادة الله الحى الباقى ، الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ومن لنا فى هذا العالم نلجأ إليه سواه ؟

كنت أفكر كثيرًا فيما تجىء به الأيام ، وماذا سأفعل عندما يأتى فرج الله ، ونغادر المعتقل ، لقد فكرت طويلًا وخرجت بنتيجة ارتحت لها ، وهى أننى لابد أن أهاجر ، وأترك وطنى الحبيب وأهلى وأحبابى ، وقريتنا الصغيرة التى فتنت بها ، لقد اتضح بما لا يدع مجالًا للشك أنه ما دام جمال عبد الناصر موجودًا ، فلن يكون هناك ضمان لعدم تكرار المأساة ، إن التجربة أثبتت ذلك ، ومنهج الرئيس لن يتغير ، وأذكر أننى كنت أقرأ فى جريدة « الجمهورية » فقرأت تصريحًا نقلته وكالات الأنباء عن معلق إنجليزى جاء فيه أن عبد الناصر قد حقق إنجازات كبيرة ، وأنه إذا افترصنا أن أمامه حوالى ربع قرن فى الحكم ، فإن ذلك سوف يتيح له الفرصة لكى يحقق إنجازات أكثر وأكثر ، عند ذاك صحت بأعلى صوتى فى العنبر قائلًا : « ربنا يطول عمره » ودهش الإخوان وسألونى : « من تقصد ؟ »

- « قلت : « جمال عبد الناصر » فتعجبوا ، وقال أحدهم : « ولم هذا الكلام بالذات ، وفى هذا الوقت بالذات ؟ » قدمت لهم الجريدة ليقرءوا الخبر ، فوجموا ولم يعلقوا .

وكنت أدرس إلى أى البلاد أهاجر ، لم أكن أريد العيش فى بلد أجنبى ، فأنا لا أميل إلى الذهاب إلى أوروبا أو أمريكا ، واستقر رأيى أن أسافر - إذا قدر الله - إلى إحدى الدول العربية ، كالسعودية أو الكويت أو قطر أو ليبيا مثلًا ، وبهذا أستطيع أن أعيش فى جو عربى إسلامى أنا وأولادى ، فضلًا عن أن اسمى أصبح معروفًا لحد ما فى الأوساط الأدبية ، مما يعوضنى عن تركى لمصر وأصدقائى فيها .

وفى إحدى الليالى رأيت فيما يرى النائم أننى سافرت فعلًا إلى إحدى الدول العربية ، ووجدت نفسى فى مكان صحراوى عند الحدود ، به أحجار بيضاء مزروعة فى خطوط متصلة وأثناء الرؤيا أدخل فى روعى أن هذه الأرض ليس أرض السعودية ، ولا هى أرض الكويت ، فماذا تكون ، ولم أعرف الإجابة على هذا السؤال إلا بعد عامين تقريبًا حينما سافرت إلى الكويت للعمل بها فى آخر مارس ١٩٦٨ ، ومن الطريف أنه بعد أن تقدمت بأوراقى قيل لى أن العمل سيكون فى مدينة دبى بالإمارات العربية المتصالحة (أى الإمارات العربية الآن) ، ضمن أفراد البعثة الطبية الكويتية التى كانت تعمل بصفة دائمة هناك ..

وهكذا بقيت أحلم بالهجرة إلى الخارج طوال أيام الاعتقال ، على أساس أنها ربما تكون الحل للخلاص من مشاكل السياسة والاعتقالات التى لا يعرف أحد متى تبدأ ومتى تنتهى ، ولقد كنت واثقًا أن الاستقرار ضرورة حتى أستطيع أن أرعى أولادى بأسلوب صحيح ، وأن أضمن الحياة الطيبة لهم ولأمهم ، وسيكون أسلوبى الجديد للعمل فى خدمة الدعوة الإسلامية هو الكتابة ، وتطوير هذا الجانب فى حياتى وحياة الآخرين من حملة الأقلام ، بعد أن قطعت شوطًا فى دراسة موضوع الأدب الإسلامى وكيف يكون ، وأهميته بالنسبة لأمتنا ، وقد يتساءل البعض هل كان ذلك تراجعًا أو وهنًا ؟ لا أعتقد ذلك ، فإنى أعتقد أن لكل ظروف متطلباتها ، وأن ما قررته هو الطريق المناسب بالنسبة لى ، وبالنسبة للأوضاع الراهنة فى الداخل والخارج ، فقد كانت الدول العربية جميعًا لها توجهاتها السياسية ، وتفضل ألا تدخل فى مشاكل مع جيرانها أو شقيقاتها ، ومن ثم فإن الأمر يحتاج إلى شىء من الحكمة والحيطة والحذر .

فى أحد أيام الثلث الأخير من شهر نوفمبر عام ١٩٦٦ كان الحاج منصور تاجر الذهب المعروف يجلس أمام قدر كبير من العدس المطبوخ ، ومعه مغرفة يوزع بها حق كل معتقل بالدور ، ومن عادة الحاج منصور ، أن يثور ويرفع صوته ، ويحتج على أولئك الذين يطلبون الزيادة على اعتبار أن هذه الزيادة قد تحرم البعض من حقوقهم ، وفجأة انطلق النداء من مكبر الصوت قائلًا : « معتقلين ... كله يسمع . . .» .

وساد الصمت ، وجاء النداء من مكبر الصوت : « منصور موسى منصور موسى ..» .

وأخذ الشيخ منصور يهز رأسه يمنة ويسرة فى حركة عصبية ويقول : « الله ... ماذا جرى ؟ ... ما هذا ؟ ..» .

ولم يطل به التساؤل ، فقد توالت الأسماء واحدًا بعد الآخر ، وزادت الأسماء على المائة عدًا ، ونحن فى حيرة من أمرنا ، هل معنى ذلك نقل بعض المعتقلين من هذا المعتقل إلى معتقل آخر مثلما يحدث عادة ؟ ولقد سمعت اسمى بعد أكثر من ثلاثين اسمًا ، وكان الأخ الدكتور إبراهيم الصياد فى المستشفى لتنظيم عملية توزيع الدواء على المرضى من زملائه المعتقلين بالاتفاق مع طبيب المعتقل ، وقال إبراهيم الصياد : « أبشروا يا إخوان .. هذه هى القائمة الأولى من المفرج عنهم وأنا معهم .. الحمد لله .. سوف أخرج وأذهب إلى بعثتى المقررة فى روسيا ..» .

وساد الهرج والمرج ، وحضر الضباط والعسكر فرحين ، يلقون بالتهانى هنا وهناك ، ولم يستطع بعض المعتقلين السيطرة على أعصابهم وأخذوا يعانقون الضباط والعسكر ، وتلاشت فى هذه اللحظات صورة العداء التقليدية بين المحبوس والسجان ، لحظات لا يمكن وصفها بدقة ، أصدق ما يقال عنها أنها نوبة من نوبات الفرح الهسيترى ، وتنهدت فى ارتياح ، أخيرًا سأعود لأولادى وزوجتى وأهلى ، سأذهب إلى قريتى وأبى وأمى ، وسألتحق بعملى الذى أحبه ، وألتقى بأصدقائى العمال ، وأبدأ حياة جديدة .. سبحان مغير الأحوال ..

ولم يكن معنى ذلك أن نخرج على الفور ، فأمامنا يومان أو ثلاثة حتى تستوفى الإجراءات الضرورية ، ولم يكن أحد من أهلينا يعرف شيئًا عن هذه الأخبار السارة الجديدة ، كما لم يكن فى الاستطاعة الاتصال بهم فى هذه الفترة القصيرة ..

وفى غمرة السعادة التى شملتنا نسينا أنّ لنا إخوة لم ترد أسماؤهم بعد فى قوائم الإفراج ، ذلك أن الإفراج يأتى كما تعودنا على دفعات متتالية ، ولهذا أخذنا نواسيهم ونؤكد لهم أنهم سوف يلحقون بنا فى وقت قريب إن شاء الله ..

فى اليوم التالى جاء إلى المعتقل كبار رجال المباحث العامة (أمن الدولة حاليًا) ، وتكلم كبيرهم فينا ونحن جلوس أمامه ، وألقى التعليمات الضرورية ، وحذر من ممارسة أى نشاط حزبى وأخبرنا بأنه يجب أن نحمد الله على أن الرئيس قد عفا عنا ، وصدّق على قوائم الإفراج ، وما إلى ذلك من الأمور الهامة التى يجب أن نلتزم بها .

فى المساء جاء أحد الإخوة وهمس فى أذنى : « هناك أمر يجب أن تعرفه » .

- « خيرًا ..» .

- « الأمر يخص الحاج منصور تاجر الذهب » .

- « ماذا عنه ؟ » .

- « أحد أطفاله سقط من الشرفة منذ شهور ومات ، وأخفينا عنه الخبر ، والآن نريد أن نطلعه على الأمر حتى لا يفاجأ به عند وصوله إلى أهله ، وأعتقد أن الوقت مناسب الآن ، لأنه سوف يخرج غدًا ..» .

كان الأمر مؤلمًا ، والحاج منصور رجل عصبى حساس إذا ما انفعل أصيب بأزمة ربوية حادة تكاد تقضى عليه ، ولهذا أعددنا العدة لذلك ، وجهزنا حقنة « الأمينوفليين » ، ثم ألقينا إليه بالخبر آسفين بعد مقدمات عن الصبر والرضي بقضاء الله وقدره ، والأجر عند الله سبحانه ، وما إن سمع الحاج منصور الخبر ، حتى احمر وجهه الأشقر ، وانهمرت الدموع من عينيه ، واختنقت أنفاسه ، فبادر أخونا الدكتور إبراهيم بحقنه بالدواء حتى هدأت أنفاسه واستكان ... ترى كم واحدًا منا سيفاجأ بأحداث عندما يعود إلى بيته بعد الليالى الطويلة التى قضاها فى المعتقل لا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد ؟ .

وأخيرًا خلعنا ملابس السجن الكالحة ، وارتدينا ملابسنا التى خلعناها عند الدخول ، وركبنا السيارات المكشوفة ، فانطلقت بنا فى الطريق إلى جوار النيل ، والأغلال الحديدية فى أيدينا ، وبينما نحن سائرون رأينا سيارات النجدة والشرطة تمرق إلى جوارنا ، تحرس « شخصية كبيرة » سألنا ما هذا ؟

قال أحد العسكر : « هذا موكب « الفريق الدجوى » رئيس المحكمة العسكرية » .

فانكمشنا فى أماكننا ، فقد كان مجرد الاسم يوحى بالألم والقشعريرة ..

كل ما أتذكره بعد ذلك أننى أخذت - ومجموعة من المعتقلين المفرج عنهم معى - إلى مكتب

مباحث « شبرا الخيمة » وهو المكتب الرئيسى لمنطقتنا ، وجلسنا فى الانتظار ، وأحيانًا نوقع على بعض الأوراق ، ولم نكن نفكر فى قراءة ما فيها ، إننا نريد أن نتحرر ..

جاء أحد الضباط وقال : « أين نجيب الكيلانى ؟ » .

– « أفندم ..» .

– « يحيى بك كامل أمين رئيس مكتب مساكن أبو زعبل يطمئن عليك ، ويسألك إن كنت تريد شيئًا » .

– « أبلغه شكرى ، وأرجو أن يتصل ببيتى ويخبرهم أنى قادم إن شاء الله بعد قليل ، ولا بأس من أن يرسل لى سيارة المستشفى بدلًا من السفر فى القطار ..»

وفى أقل من ساعة وصلت السيارة البيضاء ، وهى سيارة الإسعاف ، عانقنى السائق « أنور » فى ود وحرارة ووجهه ينطلق بشرًا ، وما هى إلا لحظات حتى خطوت نحو السيارة ، وإذا بأحد ضباط المباحث يقترب منى ويقول : « يجب أن تنسى ما مضى ..» .

ابتسمت له فى رقة وقلت : « وكيف أنسى يا بك ؟ » .

وجرت بنا السيارة إلى جوار ترعة الإسماعيلية وما إن اقتربنا من الطريق الذى يتفرع جهة اليسار حتى رأيت الممرض رمضان الذى عمل معنا فى المستشفى يلوح بيده ، حاملًا طفلتى الصغيرة « عزة » على كتفيه ، وتوقفت السيارة ، والتقطت ابنتى الحبيبة ، وأخذت أقبلها فى حرارة وهى صامتة تمامًا لا تنطق ، مأخوذة بروعة المشهد ، وتتشبث بيدى ، وكأنها تخاف أن ينتزعها منى أحد .. ترقرقت الدموع فى عينى . « ماما بخير يا عزة .. إخوتك بخير يا حبيبتى ؟ » .

– « آه ..» .

وبعد أن هدأت أنفاسى اللاهثة قلت للممرض رمضان : « كيف حال الأهل والأصدقاء جميعًا يا رمضان ..» .

رد قائلًا : « كلهم بخير والحمد لله .. لكن الحاج الكبير .. تعيش أنت » .

هتفت فى رعب : « من ؟ » .

– « صهرك فضيلة الشيخ محمود شاهين والد زوجتك ..» .

– « متى ؟ » .

– « أواخر العام الماضى » .

– « ولماذا لم يخبرنى أحد ؟ » .

– « وماذا كنت ستفعل ؟ أكنا نزيدك همًّا على همّ .. لقد كان من الصالحين ، ليتنا مثله ..» .

شهقت باكيًا ..

تذكرت الرجل الطيب العارف بالله ، أيام أزمة الاعتقالات وهو يستقبلنى بوجه شاحب ، وجسد مضطرب ، ولا يكف لسانه عن الدعوات والابتهالات ..،تذكرت سيرته العطرة ، وجهاده الطويل من أجل أداء رسالته ، ورعاية أسرته ، وعطفه على الآخرين ، وتذكرت أيضًا أبناءه الثمانية الذين ما زالوا فى حاجة إلى المزيد من الرعاية .. وسمعت الممرض رمضان يقول : « لقد أخطأت حينما أخبرتك ، ما كان يجب أن أفسد عليك الفرحة .. سامحنى ..» .

جففت دموعى ، ومن عجب أننى رأيت ابنتى الصغيرة عزة تبكى هى الأخرى ، فجففت لها دموعها بمنديلى وقلت : « لا تبكى يا حبيبتى لأن جدك الآن فى الجنة » .

- « عارفة يا بابا .. ماما قالت لى ..» .

وصلت إلى (الفيلَّا) التى أسكنها والتى لم يغيرها الزمان رأيت ولدى حسام الدين جالسا فى الشرفة يقول : « لا أستطيع الوقوف .. عندى دمل فى رجلى ..» .

وحملته على صدرى ، ومشاعرى لا توصف ..

ووجدت نفسى وسط حشد هائل من العمال والموظفين ، لقد تركوا أعمالهم فى ورش السكة الحديد ليكونوا فى استقبالى ، بل وجدتهم وقد أقاموا الزينات الكهربائية والأعلام ، والنسوة فى البيوت المجاورة يزغردن ، والمسجل يشدو بإحدى أغنيات الأفراح ، لكأنما كنت فى يوم عيد ، القلوب العامرة بالحب تحيط بى من كل جانب .. فهل هناك أروع من ذلك ؟ الحمد لله ...

لم أجد زوجتى .. سألت عنها قيل أنها علمت فى الصباح بنبأ الإفراج عنك ، فذهبت إلى القاهرة ظنًا منها أنك ستكون فى وزارة الداخلية ، لكننا أرسلنا مندوبًا منذ ساعة ونصف إلى القاهرة كى تعود بسرعة . الصغير جلال الدين تائه فى الزحام ، يسأل أخاه الأكبر قائلًا : « فين بابا الجديد ؟ » .

ضحك إخوته ، كان عمره عامين ونصفًا ..

دخل يبحث عنى وسط الرجال ، يبدو أنه نسى شكلى ، ورأيته يمضى حائرًا يتصفح الوجوه ولا يدرى أيها وجه أبيه ، فقمت إليه وحملته وأنا أقول : « أنا بابا يا حبيبى » .

فابتسم وارتاح على صدرى .

كانت أختى الصغيرة « سميرة » بالداخل ، ولم يتركها أهل المدينة وحدها فقد قدموا ومعهم « الشربات » والمشروبات الغازية ، والفواكه والأطعمة .. كيف يستطيع الإنسان أن يرد جميل هؤلاء الناس الطيبين .

والعاملون معى فى المستشفى تركوا مواقعهم رجالًا ونساءً ، الأطباء والممرضون والممرضات وفنى الأشعة وفنى المعمل ، والطباخ والفراشون ، بل وبعض المرضى ، وأطبقوا علىّ عناقًا وتقبيلًا وتهانى ..

بعد أقل من ساعة قدمت زوجتى وشقيقتها الأستاذة نفيسة المذيعة بإذاعة القاهرة ، ونهضت لاستقبالهما ، نظرت إليهما وهما تدخلان .. ومن عجب أننى لم أستطع أن أفرق بينهما ، ووقعت فى حيرة .. كانت زوجتى أكثر امتلاءً وبياضًا من شقيقتها ، لكننى الآن أكاد لا أجد فرقًا بينهما .. ورجحت أن التى اندفعت نحوى والدموع فى عينيها واحتضنتنى دون تحفظ هى زوجتى ، والثانية هى شقيقتها ..

ولم أعد أستطيع أن ألم شتات نفسى ، البيت ممتلئ بالرجال ، وهم يتكلمون فى وقت واحد ، وأنا أرد على هذا ، وابتسم لذاك ، وأشارك هؤلاء فى الحديث ، حتى شعرت بإرهاق شديد .. ولم تكن لدى أدنى رغبة فى الطعام والشراب ..

كان فى نيتى أن أسافر فورًا إلى قريتى « شرشابة » حيث الوالدان والأهل ، لكنى وجدت أنه من غير اللائق أن أترك هؤلاء الناس الطيبين فى المدينة السكنية ، وأنسل من تلك الاحتفالات التى أقاموها لى ، ومن ثم بادرت بإرسال برقية إلى والدى أقول له فيها : « تم بحمد الله الإفراج عنى اليوم ، وسوف أحضر طرفكم بعد غد - الأربعاء - إن شاء الله .. تحياتى لكم جميعًا » .

وفى صبيحة اليوم التالى ذهبت إلى المستشفى ، واستلمت العمل رسميًا ، ووقعت على دفتر الحضور والانصراف وتصادف أن جاء الصراف ليوزع الرواتب الشهرية على الموظفين ، فتسلمت مرتبى ، وقد كنا فى حاجة إليه .

فى يوم الأربعاء استأجرنا سيارة ، انطلقت بنا إلى قريتنا .. ما أسرع ما تمر الأيام !

كان بيتنا القديم يقع فى وسط القرية فى شارع طويل لا تستطيع السيارة أن تسير فيه ، وعلى باب الشارع كان يوجد خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال ، وزغاريد النساء تنطلق فى سماء القرية ، ثم ، ها هو « الريس فريد » بمزماره الشهير ، وحوله فرقته ، إنه يسدد فوهة المزمار إلى أعلى ، ويتمايل برأسه عجبًا ، وطبوله تدق بقوة ، وبقية المزامير تسانده ، وتكاثر عليّ الرجال يصافحون ويقبلون ويعانقون ، وتلفتُّ فلم تقع عينى على زوجتى وأولادى ، ولا أعرف أين ذهبوا ، لا شك أنهم غرقوا فى الزحام ، وربما تسللوا إلى بيتنا ، وتركونى أنعم بوقت من أسعد أوقات حياتى ..

وأخيرًا ، بعد جهد جهيد ، وصلت إلى بيتنا .. رأيت صيوانًا كبيرًا مقامًا فى الساحة أمام منزلنا ، وأبى يقف رافعًا هامته ، على رأسه عمامته البيضاء ، كان يبتسم والدموع فى عينيه ، والفرحة تكسو وجهه السمح ، وأمسكت يده بيديّ وأخذت أقبلها مرارًا ، ثم احتضننى ولم يقل سوى . « ولدى .. حمدًا لله على السلامة يا .. ولدى » .

أما أمى فلم أستطع الوصول إليها ، لأن بيتنا كان مليئًا بالنساء ، وفيهن عدد كبير من نساء الأسر المحافظة ...

وجلست فى الصيوان مثل المرة السابقة ، أى منذ ثمانى سنوات تقريبًا .. وأخذت أستقبل أهل القرية واقفًا ، مصافحًا ومعانقًا .. يمر بى طابور طويل يبدو بلا نهاية ...

ولم تهدأ الحركة إلا قبيل منتصف الليل ، ومن ثم دخلنا البيت ، وقصدت الغرفة التى سأنام فيها ..

قلت لأمى : « هل ألّفت أشعارًا جديدة » .

– « طول الليل أشعار ودموع وصلاة ودعاء » .

أيتها الصابرة الطيبة ، لطالما عانيت وثابرت ، ولم تيأسى أو تكليّ .. كانت ضراعاتك تطرق أبواب الليل حتى الفجر ، ولم تكفى يومًا واحدًا عن الابتهال والضراعة والاستغاثة ، يا أَمة الله الساجدة الراكعة المتذللة .. لقد استجاب الله لدعائك ، وأنقذنى من براثن الوحوش .. ليس مرة واحدة .. ولكن مرتين .. لقد كاد بصرك يكف من انهمار الدموع ، وطول السهر ، وقلة الطعام والأحزان .. لكن الله أبقاك حية صامدة ، لم تقتلعك ريح الطغيان ، أو يعصف بك طاغى الأحزان ، كنت تنتظرين لا تملين الانتظار ، وتدقين باب الرحمة بيدك الواهنة المعروفة ، وأنت واثقة أنه سوف ينفتح لك فى يوم من الأيام ، وسيأتى إليك « طفلك » الكبير .. المتزوج .. أبو أحفادك .. ليمسح لك الدموع ، ويعيد إلى قلبك الفرحة ، وإلى ثغرك البسمة .. أيتها الأم العظيمة ..

واجتمعت الأسرة بكاملها معى فى هذا الأيام ؛ أخى المرحوم أمين وزوجته وأولاده ، وأختى فوزية وزوجها وأولادها ، وكذلك أختى عايدة ، وأخى محمد الذى تخرج وأصبح معيدًا بالكلية ، وكذلك عمى عبد الفتاح وعمى أحمد وأسرتهما ، واستعدنا ذكريات الماضى وآمال المستقبل ، كان أبى يجمع أفراد الأسرة تحت معنى عظيم « صلة الرحم » ، وجميع الأفراد ملتزمون بقيم الوحدة والتعاطف والتعاون ، ولعل هذه المبادئ لم تزل قائمة حتى الآن ، على الرغم من أن الآباء قد اختارهم الله إلى جواره منذ زمن ، فأرضنا الزراعية لم تقسم ، وبيوتنا شبه مشتركة ، والتكافل الاجتماعى ينشر أجنحته على الجميع والحمد لله ...

سألنى أخى أمين قائلًا : « كم سجنًا دخلت ؟ » .

قلت له : « سبعة .. آخرها سجن مزرعة طرة .. وأدعو الله أن يكون خاتمة المطاف ..» .

قال أخى : « أدعو الله ألا يعيد هذه الأيام السوداء مرة أخرى » .

- « آمين يا أخى أمين ..» .

وضحكنا ..

وكان أبى يسمعنا ، دون أن يتكلم ، وعلى وجهه علامات الارتياح والاطمئنان ، بينما قالت أمى : « لا تنتقل قدم من مكان إلى مكان إلا بأمر الله » .

وتلونت نظرات أمى بقدر غير قليل من الأسى وقالت : « أخبرتنى زوجتك بأنك تفكر فى السفر إلى الخارج » .

قاطعها أبى قائلًا : « إنه مسافر دائمًا » وماذا فى ذلك ؟ إذا كان فى السفر مصلحة له فلا بأس ....

❁❁❁

[٧] القافلة تسير والدائرة تدور



استأنفت عملى فى المستشفى والقسم الطبى بالمدينة السكنية بأبو زعبل كطبيب مقيم، ومعنى ذلك أننى أكون على رأس عملى بالقسم (العيادة) منذ الصباح داخل الورش، ثم أظل طوال باقى اليوم تحت الاستدعاء، وذلك لعلاج أو إسعاف الحالات الطارئة، ولم أكن متبرمًا بذلك فأنا أحب عملى والحمد لله، وبعد أن أستريح قليلًا فى الظهيرة، أذهب إلى المستشفى، وأجلس فى مكتبى انتظارًا لما يأتى من حالات مرضية، وهى حالات ليست كثيرة على أية حال، وكنت انتهز هذه الفرصة فأقرأ بعض الكتب، أو أكتب قصة قصيرة أو فصلًا فى رواية، وفى بعض الأحيان كنت أبقى فى مسكنى لأفعل نفس الشيء، أستطيع أن أقول أننى كنت أنظم عملى ووقتى بالطريقة التى تروق لى، ولم أعد أذهب كثيرًا إلى المحافل الأدبية كعهدى السابق، كما لم أعد أشارك بالكتابة فى الصحف مثلما كنت أفعل قبل ذلك، ووجدت نفسى عازفًا عن القيام بذلك ربما كردّ فعل لأيام المعتقل، وما شابها من مرارة وأسى ..

كان شغلى الشاغل هو السفر للعمل فى الخارج، وخاصة بعد أن علمت أن بعض إخوانى استطاعوا أن ينجحوا فى ذلك، ولهذا بقيت أحلم باليوم الذى أستطيع أن أرحل فيه عن بلدى الذى أحبه، ولقد قامت نقابة الأطباء أثناء الاعتقال بصرف مساعدات مالية للأطباء المعتقلين، إلا أنا، ذلك لأنى لم أكن قد اشتركت فى النقابة طوال السنوات الست السابقة، ولذلك ندمت أشد الندم، وبادرت فور خروجى من المعتقل باتخاذ الإجراءات الكفيلة بقيد اسمى فى النقابة العامة للأطباء، ودفع الاشتراكات المطلوبة، واستخراج الترخيص الخاص بمزاولة المهنة، والحقيقة أننى كنت أمارس العمل قبل ذلك بصفتى طبيبًا مكلفًا، ولم يكن يطلب من الطبيب المكلف مسوغات تعيين أو ترخيص. وبطبيعة الحال فإن السفر إلى الخارج - إذا تيسر - يحتاج إلى أن يكون الطبيب مرخصًا، وكان أصدقائى يعجبون كيف أسجل عضويتى فى اتحاد الأدباء، وأنسى أن أسجلها فى نقابة الأطباء، وللأسف لم يكن اتحاد الأدباء أو نادى القصة يصرف أية معونات للأعضاء، ولم يزل هذا الاتحاد حتى الآن تعسًا لم يقم بعمل أية مشاريع تخدم حملة القلم، وهو لا شك يحتاج إلى روح جديدة نشطة تبعث فيه الروح مثلما يحدث فى نقابة الصحفيين أو المحاماة أو المهن الأخرى عامة.

ومع ذلك فقد كتبت فى هذه الفترة رواية مواكب الأحرار، وحمامة سلام، وعددًا من القصص القصيرة، كما أعدت طبعات جديدة من بعض الروايات القديمة. وبعثت فى تلك الفترة ابنى حسام الدين وابنتى عزة إلى مدرسة الروضة، وكانت زوجتى قد تخرجت فى منتصف عام ١٩٦٦ أى قبل خروجى من المعتقل من معهد الخدمة الاجتماعية، كما تخرج أخى محمد بتفوق من كلية التربية البدنية والرياضية، وعُيّن معيدًا بها، وقد نال بعد ذلك الماجستير والدكتوراه فى المناهج وتدرج فى الوظائف الجامعية، حتى أصبح عميدًا لكلية التربية بطنطا والحمد لله، وحقق مكانة متميزة فى كليته، وفى

جامعة طنطا ، وفى نفس الوقت اختار الله إلى جواره زوج أختى السيدة عايدة ، وهى فى عامها التاسع والعشرين ، وترك لها من الأطفال ثلاثة : بنتين وولدًا ، ومعاشًا شهريًا ضئيلًا ، وقطعة صغيرة من الأرض الزراعية .

كنت قد أشرت إلى ضعف صحة زوجتى ، ولقد أدركت السبب وراء ذلك ، إذ إنها أصيبت بنزيف مستمر طوال الفترة السابقة ، وشخص أطباء النساء والولادة ، بأن النزيف راجع إلى أسباب نفسية ، وفشلت جميع الجهود العلاجية لوقفه ، ولم أدخر وسعًا بعد خروجى من المعتقل فى علاج حالتها لدى أفضل الأطباء المتخصصين فى هذا المجال ، وتكللت جهودهم والحمد لله بالنجاح ، وبعد بضع شهور قليلة حملت لكن الله أراد أن يحدث لها إجهاض ، ورأى الطبيب المعالج أن يجرى لها جراحة صغيرة ذلك لأن تشخيصه كان « إجهاض غير كامل » مما يستدعى عملية يسمونها « كحت وتفريغ » ، حدث ذلك وأنا أعد العدة للسفر ، وأدخلناها مستشفى كلية الطب بجامعة عين شمس تحت رعاية أحد الأطباء الأصدقاء ، وخرجت من غرفة العمليات بسلام ، وأخذت تصحو من آثار التخدير (البنج) رويدًا رويدًا ، وهناك فى إحدى مراحل الإفاقة يحدث لدى بعض المرضى أن يبيحوا بأفكار وأسرار مكبوتة ، وذهلت إذ سمعت زوجتى تصرخ بأعلى صوتها فى حضور الطبيب والحكيمات وتسب جمال عبد الناصر سبًا صريحًا متتاليًا ، وحرت فى أمرى ماذا أفعل ، ووجدتنى أقترب منها وأحاول جاهدًا أن أضع يدى على فمها إذ لو تسرب هذا الأمر إلى رجال الأمن لتعطلت عن السفر ، ولربما أعادونى إلى المعتقل ، وسجنوها هى الأخرى ، وضحكت إحدى الحكيمات وقالت : « نحن نشاركك نفس الشعور » .

وابتسم الطبيب وقال : « دعها ، وستفرغ ما فى داخلها ثم تهدأ .. » .

ويبدو أنها بعد ذلك تذكرت موت أبيها ، فعادت للصياح مرة أخرى وهى ما زالت تحت تأثير التخدير باكية منتحبة على أبيها ، وكأنه قد مات الساعة ولم يمت منذ أكثر من عام ، وأخيرًا زالت آثار التخدير ، وهدأت زوجتى ، وفتحت عينيها ، فحمدت الله على أن مر الأمر بسلام .

وعدنا إلى مسكننا ، ثم أخذت أشرح لها ما جرى منها ، فلم تكن تصدق ما أقوله ، وكانت تستغرب كيف يحدث ذلك منها دون أن تدرى ، وتأسفت إذ سببت لى حرجًا كنا فى غنى عنه .

وأخبرتنى أن أباها فى أيامه الأخيرة طلب بإلحاح أن يرانى قبل أن يلقى الله ، وكنت أنا فى المعتقل ، فانتهزوا فرصة ما كان ينتابه من شرود ونعاس وأحضروا شقيقى محمد وأوهموه أنه أنا ، فأمسك بيده مغمض العين ، وتحسسها ، ثم تركها فى هدوء ، ويبدو أنه أدرك أن فى الأمر خديعة ، ودمعت عيناه ..

وقبيل وفاته قال لابنته (زوجتي) : « لقد حصنتكم بقراءة القرآن ، وباسم الله الأعظم ، وبالدعوات الصادقة الواردة عن رسول الله .. ولدى يقين بأن الله سيستجيب لدعائى .. فسيروا فى طريقكم مؤمنين واثقين ، والله يرعاكم .. » .

وكانت زوجتى قد مرت ببعض الأزمات المالية مما اضطرها إلى بيع حليها الذهبية ، وأمسك أبوها بيدها العاطلة من أية حلية أو مجوهرات متألمًا وقال ووجهه إلى السماء : « اللهم ألبسها الذهب والفضة ، وجد عليها برزقك الذى ما له من نفاد » .

كان رجلًا صالحًا ، يثق فيما بيد الله أكثر مما يثق بما فى يده ، ولم ييأس قط من رحمة الله وعطفه وفرجه ، قالت له ابنته ذات يوم : « رأيت يا أبى فيما يرى النائم ، أننى أشرب عصير المانجو الذى أحبه كثيرًا .. » .

قال لها مبتسمًا : « مانجو ؟ الله الله .. خير إن شاء الله سوف ينجو زوجك بفضل الله من الأسر ..» .

لم يكن له فى الدنيا مآرب سوى أن يربى أولاده الثمانية ويعلمهم ، ولم يطمع قط فى الحصول على مال كثير ، وكان بذلك سعيدًا راضيًا ، يقضى يومه بين مذاكرة العلم وإمامة الناس فى المسجد ، وإلقاء الدروس الدينية عليهم ، ويحاول جاهدًا إحياء السنن التى انصرف عنها كثير من الناس .

وحاولت فى النصف الأول من عام ١٩٦٧ السفر إلى الخارج ، لكنى لم أجد استجابة من رجال الأمن ، ونصحنى يحيى بك كامل أمين ، رئيس مكتب المباحث فى منطقتنا بالتريث بعض الوقت لأن الأمر يحتاج إلى شىء من البحث والدراسة ، ولابد من وجود من يضمننى ، وخاصة أن بعض من سمح لهم بالسفر ، أخذوا يهاجمون الرئيس والحكومة فى الصحف المعادية فى الدول العربية والإسلامية ، بل وفى الصحف الأوروبية والأمريكية ، وهناك منهم من يشاركون فى تدبير المؤامرات ، ثم إن الموقف مع إسرائيل وحلفائها متأزم ، ولا أحد يدرى متى يحدث الانفجار الكبير فى الشرق الأوسط ..

كان يعمل معى بالمستشفى الجراح الدكتور رياض الشنوانى وهو المدير ، وهو رجل طيب ليس لديه أية اهتمامات سوى عمله ، وكان معنا أيضًا الدكتور عبد الخالق والى أخصائى أطفال ، وهو شقيق الدكتور جميل والى أستاذ الأطفال بالقصر العينى (مستشفى أبو الريش) ، وكنا نحن الثلاثة نعمل فى وئام تام ، وعلاقات طيبة حميمة ، وفى أحد الأيام نقل المدير إلى القاهرة ، وحل محله الزميل الدكتور عصام الدين مختار للعمل كجراح فى المستشفى ، وكان يقيم فى القاهرة ، ويأتى للعمل يوميًا ، ثم يعود إلى القاهرة بعد ذلك ، وعرض عليّ بعض الأصدقاء أن أنتقل إلى مسكن الدكتور الشنوانى الذى خلا ، وكان المسكن فى ڤيلًا عتيقة مبنية من دورين على الطراز الإنجليزى ، ويحيط بها حديقة واسعة أستطيع أن استفيد منها فى زراعة الفواكه والخضراوات ، فضلًا عن أن إيجارها نصف إيجار الڤيلًا التى أقيم فيها ، ولاقت الفكرة قبولًا لديّ ولدى زوجتى ، وتم الأمر بأسرع ما يمكن ، وبعدها حضر الوالدان وأختى الصغيرة سميرة ليقضوا معنا فترة من الزمن ، وكنت أرتاح لوجودهم وكذلك زوجتى ، والحقيقة أن وجود أبى كان يريحنى تمامًا ، ويجعلنى أتفرغ تفرغًا تامًا لأعمالى ، لأنه حكيم وذو خبرة طويلة فى تنظيم أمور حياتنا ، ذلك أنه كان على علاقة طيبة مع الجزار والبقال وبائع الخضراوات والفواكه والمخبز وأصحاب الحرف المختلفة ، وكانوا يحبونه جدًا ، ويعتبرونه واحدًا من المقيمين فى المدينة ، ثم إن وجوده يوفر عليّ كثرة الأسفار إلى القرية للاطمئنان على الأسرة .

ومن الطريف أن أحد عمال الورش كان يتقن عملية الزراعة ، وعرض عليّ أن يتولى شأن الزراعة فى الحديقة الكبيرة ، مقابل خمسين قرشًا فقط شهريًا ، وبلمساته السحرية أحال الأرض حولنا إلى خضرة وزهور وخيرات توحى بالجمال والسعادة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اقتنى عنزة ولدت ثلاثة ، كما اهتم بتربية عدد من الدجاج والبط ، حتى أصبحنا وكأننا نعيش لحد ما فى القرية ، وكنت أجد فى ذلك متعة وسعادة ..

وذات يوم دق جرس الباب ، ونظرت من الشرفة فإذا بى أرى الضابط « ع . س » قلت فى نفسى : « يا إلهى ! ! ما الذى أتى به ؟ هل عاد مرة ثانية ؟ » .

نزلت إليه ، وقدته إلى غرفة الضيوف ، كان معه طفل فى الثالثة من عمره يشبهه تمامًا ، وكان « ع . س » أزرق العينين أشقر الشعر والوجه ، يبدو وسيمًا ممتلئًا ، وكنت أعرفه جيدًا ، وله مع الإخوان تاريخ طويل ، كان ضابطًا فى سجن طرة ، ومشرفًا على عنبر الإخوان هناك حيث كانوا يقومون

بالأشغال الشاقة (تكسير صخور الجبل» وفى وجوده وقعت أحداث سجن طرة المؤلمة فى عام ١٩٥٧ حيث قتل بالرصاص واحد وعشرون وجرح مثلهم، ثم نقل الأحياء بعد تعذيبهم إلى سجن القناطر، وكانوا تحت إشراف (ع . س) الذى أخذ يخطط ويدبر للإيقاع بينهم، ونجح فى زرع الشقاق والخلاف بينهم، حتى انقسموا على أنفسهم، ووعد المنشقين بالعمل على الإفراج عنهم، واستطاع من خلال الضعفاء والموتورين أن يتسلل إلى أسرارهم، وحقق فى ذلك نجاحًا كبيرًا، وبعد أن أدى مهمته نقل إلى عمل آخر فى الشرطة بمنطقة القناة، وبعد فترة من الزمن تربو على العام أى فى عام ١٩٦٦ تذكروه، فنقلوه إلى معتقل أبو زعبل الجديد، ليبدأ فى تنفيذ مخططاته القديمة مرة أخرى، وقدموا له مسكنًا فى المدينة السكنية لعمال وموظفى السكة الحديد بأبو زعبل، وكانت الشقة التى يسكن فيها على مقربة من الڤيلَّا التى تخصنى.

لم أسأله عن سر مجيئه إليّ، فقد أخذ يبلغنى تحيات إخوانى وأصدقائى الذين ما زالوا قيد الاعتقال بمعتقل أبو زعبل الجديد، وفى مقدمتهم أخى الكريم محمود الجندى أخصائى الجراحة رحمه الله، وكان من الطبيعى أن يلمح إلى أن الحكومة أرادت أن تستفيد من خبراته القيمة، ولهذا نقلته ليتولى أمر الإخوان فى المعتقل، وكان بذلك فخورًا جدًّا، كنت أكره أسلوبه وتوجهاته وبروده وقسوته، لكنى لم أستطع أن أفصح له عما يدور فى نفسى، بل كنت ابتسم مجاملاً وأنا أقدم له الشاى، وأتذكر تلك الكلمات الصادقة «إننا نبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم»، وكان منظره رغم وسامته الواضحة يرتبط فى ذهنى بمنظر الثعبان..

قال: «أختى الأصغر منى مريضة، فهل لديك وقت لزيارتنا وفحصها؟».

– «بكل تأكيد ..».

مررت بالمستشفى وأخذت معى الحكيمة وأدوات الفحص الضرورية، وقصدنا بيتهم، كان البيت – أعنى الشقة – يتسم بالكآبة، والصمت يهيمن عليه، ليس فيه صوت مذياع أو تلفاز، ولا غمغمات أطفال، خيل إليّ أن السجن فيه حياة وحيوية أكثر منه، أديت مهمتى على وجه السرعة، خاصة أن الفتاة ليس بها سوى التهاب حاد بالحلق واللوزتين وارتفاع فى درجة الحرارة، وسعال جاف، وكان الصدر سليمًا إكلينيكيًا، وكذلك القلب.

كان واضحًا أن مملكة «ع . س» الحقيقية هى السجن وليس البيت، وكانت كل أحاديثه تنصب على أعماله وذكرياته، بين السجناء والمعتقلين، فى السجن يجد ذاته، إنه سعادة البك، إنه يأمر فيطاع، العساكر يؤدون له التحية، والمعتقلون والسجناء يحنون رءوسهم أمامه، يستطيع أن يقول أى شيء ولو كان بذيئًا أو ظالمًا أو كاذبًا، والجميع له مصدقون أو هكذا يتظاهرون بالتصديق، حياة الزيف تسكره وترضى غروره، واستخدام العنف والقسوة تشعره بالقدرة والقوة والانتصار.

وتمر السنوات، وينهى «ع . س» مهمته فى معتقل السياسيين، ويخرجون إلى عالم الحرية، ويعود هو إلى عالم الشرطة فى عمله الأصلى، ويتجرد من سلطات الطوارئ التى كانت تطربه وتغريه وتسعد قلبه، ثم بدأ يشعر ببعض الأعراض المرضية المحيرة، وبتوالى الفحص الطبى والتحليلات وصور الأشعة اتضح أنه مصاب بداء خطير عضال لا يرجى شفاؤه، وصارحه الأطباء بالأمر فى سفره إلى الخارج للعلاج، وأخذت الوردة النضرة الجميلة تذوى وتذبل، وحطم العجز إرادته وآماله وطموحه، وهد قواه، حتى جاءه الموت .. ترى هل كان يفكر فى الموت وهو يتفجر حيوية ونشاطًا، أم أن أوهام الخلود كانت لا تدع له فرصة لذلك؟ اللهم لا شماتة!!

عندما قرأت نعيه فى الصحف ، تذكرت ما فعله بأحد العلماء الأجلاء الشيخ « ح .أ » ، كان « ع . س » يضربه دون سبب محدد ، ويسخر من شيبته ولحيته ، ويقول له : « قل أنا عائشة . يقصد امرأة » .

فيرد الشيخ الجليل رافضًا ذلك ، ومذكرًا إياه بأنه رجل علم ودين ، ولا يصح أن يصل الاحتقار لشأنه إلى هذا الحد ، فيصر « ع . س » على طلبه ويواصل الضرب ، ولم يجد الشيخ بدًا من أن يستغفر الله ويحوقل ويقول : « أنا عائشة رضى الله عنها » .

ثم يتمتم الشيخ بينه وبين نفسه قائلًا : « ... إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان » وها قد مضى على وفاة ذلك الضباط سنوات طويلة ، لكن الشيخ الجليل خرج ذات يوم من السجن ، وساح فى أنحاء العالم الإسلامى والعربى يدعو إلى الله وإلى منهج الحق ، وطبقت شهرته الآفاق ، وهو حتّى كتابة هذه السطور (١٩٩٤) يحيا فى صحة جيدة رغم أنه فى العقد التاسع من عمره ، وقد عانى الشيخ من مرض فى ركبتيه كاد يقعده عن الحركة والعمل لكنه سافر إلى ألمانيا للعلاج ، وعاد بركبتين صناعيتين ، وعاد يمارس حياته الطبيعية دون مشقة ، ويبتسم وهو يحمد الله ويقول : « عاد الشباب إلى ركبتى » .

وعندما يتذكر ما كان يفعله « ع . س » يقول : « غفر الله لنا وله .. البقاء لله وحده ..» .

فى أحد الأيام كنت أجلس فى العيادة الطبية داخل الورش ، ودق جرس التليفون ، ورفعت السماعة : « نجيب ؟ » .

- « نعم ..» .

قال بصوته القوى الواثق : « ألا تعرفنى يا . ..؟ » .

قلت على الفور : « لا يجرؤ على مثل هذه الألفاظ إلا واحد فقط » .

- « من هو ؟ » .

- « الأستاذ محمود شاكر » .

وانطلقت ضحكاته الرنانة عبر التليفون ، وكانت نبراته توحى بالسعادة القصوى ، قلت : « كيف خرجت ؟ » .

- « عندما تأتى لزيارتى ستعرف ، سأنتظرك فى بيتى غدًا .. ولابد أن تكون معك زوجتك ..» .

- « والعنوان ؟ » .

- « ألا تعرفه ؟ هل هناك من يجهل شارع الأُسود بمصر الجديدة ؟ » .

عندما ذهبنا إليه فى الموعد ، وجدت نخبة من أصدقائه وتلامذته ، منهم الأستاذ جمعة حسين الكويتى وهو من رجال التربية والتعليم ، كما وجدت صديقه الشاعر الكبير « محمود حسن إسماعيل » وهو فى طليعة شعراء مصر ، بل والعالم العربى فى تلك الفترة ، كما رأيت لأول مرة الطفل « فهر محمود شاكر » وهو فى الثالثة من عمره ، كما التقيت بالأستاذ الدكتور عبد السلام هارون وهو أحد أقرباء الأستاذ محمود شاكر ، والحقيقة أن بيته كان أشبه بجامعة تضم عددًا من خيرة الأصدقاء والتلامذة ، وكان الأستاذ محمود معجبًا بشعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، ويقول أنه أدخل « بحرًا » جديدًا فى الشعر العربى ، ويقول أيضًا إنه كان يكتب الشعر ، لكنه عندما قرأ شعر محمود حسن إسماعيل توقف عن ذلك ، فترك الساحة لهذا الشاعر الفحل ، لأنه أجدر وأحق بها .

وحينما حانت ساعة تناول الغداء ، جلس جميع الحضور دون استثناء على المائدة يأكلون ، وكنت

أسأل نفسى من أين يأتى هذا العالم الكبير المتفرغ بالمال الذى يكفى لهذا كله؟ ويبدو أنه كان لديه دخل لا بأس به من مصنفاته ، ومن المكتبة التى يشارك فيها آنذاك وهى مكتبة دار العروبة ، كما علمت أيضًا أن هناك هبات ترد إليه من بعض تلامذته وأصدقائه القادرين ، المهم فى الأمر أنه يعيش فى سعة من الرزق ، ولا يحمل للغد همًّا .

كما علمت أيضًا أن المحجوب رئيس وزراء السودان فى تلك الفترة - وهو أحد تلامذته - قد توسط له لدى رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر ، فأفرج عنه ، وكان عبد الناصر يطلق عليه « الرجل أبو دقن » ، ولم يكن يحبه .

وتحدثت بعد الغداء مع الأخ الكويتى الأستاذ جمعة حسين عن طبيعة عمل الأطباء فى الكويت ، وعن موسم التعيينات وما إلى ذلك ، وأخبرته بأن أخى وصديقى الأستاذ محيى الدين عطية قد أرسل إليّ برقية يقول فيها « احضر للتعاقد مع وزارة الصحة بالكويت » وشرحت له صعوبة الخروج من مصر فى تلك الفترة بسبب الإجراءات المتعنتة ، ووجود اسمى فى قائمة الممنوعين من السفر (القائمة السوداء كما كانوا يسمونها) ...

وهكذا قضينا يومًا ممتعًا فى ضيافة هذا العالم الكبير ، وكانت زوجته السيدة المتواضعة الكريمة تبذل أقصى جهودها لتحقق لزوجها ولزواره أقصى درجات الراحة ..

وكان شهر مايو عام ١٩٦٧ شهرًا عاصفًا مليئًا بالأحداث الخطيرة ، وكان جمال عبد الناصر فى عنفوانه وشعبيته على المستوى المحلى والإقليمى ، لقد حشد الكثير من السلاح والرجال وأخذ يهدد ويتوعد إسرائيل بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وطرد القوات الدولية عند الممرات فى سيناء ، وحشد قواته هناك ، فاهتز المجتمع الدولى بأسره لما طرأ من أحداث في الشرق الأوسط ، كما أصبحت المنطقة كلها على شفا الهاوية ، وتوترت الأوضاع أيضًا على الحدود بين سوريا وإسرائيل ، وكذلك حدود الأردن مع العدو .

كان الشعور السائد بأننا قادرون على سحق إسرائيل وتحرير فلسطين ، وهو شعور الغالبية العظمى الذي يتجلى فى خطابات جمال عبد الناصر الملتهبة ، وفى حماسة الجماهير التى تشتعل تشوقًا إلى المعركة ، وفى عناوين الصحف الكبرى فى مصر وعلى رأسها جريدة « الأهرام » ، وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحريرها يدبج المقالات ، ويطلق الشعارات ، ويبرز صور قواتنا المسلحة فى صدر صحيفته ، فمثلًا يضع لقطة لطائرات الميج ، ويكتب بالمانشيت العريض فوقها :

« طائراتنا تحمى سماء الشرق الأوسط » .

ولقد علمت أن الحماسة انتقلت أيضًا إلى بقية الإخوان المعتقلين الذين لم يفرج عنهم بعد ، وأبدوا رسميًا استعدادهم للتطوع إلى جانب القوات المسلحة لمحاربة إسرائيل باعتبار ذلك جهادًا فى سبيل الله ، وكان ذلك شعور الكثيرين منهم ، وإن كانوا على يقين بأن الحكومة لن تستجيب لرغبتهم ..

لم نكن نعلم أننا نعيش فى وهم كبير ، صنعته الأقلام والألسنة المخدوعة المغرورة ، وعقد عبد الناصر مؤتمرًا صحفيًا عالميًا كبيرًا أظهر فيه إيمانه المطلق بالنصر ، وثقته الكاملة فى قواته المسلحة ، وهاجم أمريكا وبريطانيا وغيرهما من الدول التى تدعم إسرائيل ، كما أشار إلى أنه لم يزل صغير السن لحد ما ، وأنه باق لليهود وأذنابهم المستعمرين لفترة طويلة قادمة ، وأنه لهم بالمرصاد ، وقال عبارته التى حيرت المترجمين « أنا مش « خرع » زى مستر إيدن » الذى فشل فى اشتراكه بالعدوان الثلاثى على مصر عام .. ١٩٥٦.

الحقيقة أن الشعب المصرى والشعب العربى أيضًا كان على ثقة تامة بالنصر ، ولم يدر بخلدهم أن تحدث هزيمة لقواتنا التى أنفقنا عليها « دم قلوبنا » كما يقول المثل الشعبى .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أشير مرة أخرى إلى أن جمال عبد الناصر قد أصبح - كما يقولون - معبود الجماهير - لدرجة مذهلة ، حتى لينطبق عليه قول الشاعر القديم الفاسق والعياذ بالله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ ... فاحكم فأنت الواحد القهارُ

وأستغفر الله لذنبى ولذنوب المؤمنين أجمعين ، لكنها الحقيقة المرة التى يجب أن تسجل ، والتى يجب أن يعرفها الجميع ، ولم لا يصيبه الزهو والغرور وهو الذى يستطيع أن يفعل أى شىء دون أن يعترضه أحد ، أو يفكر فى مجرد مناقشته ، لكن الناس ينسون دائمًا .

لو فكر أحد فى العودة إلى صحف القاهرة فى تلك الفترة وأخذ يتجول بين صفحاتها ويتمعن فيما كتب بأقلام الكتاب والشعراء والفنانين . ولو استمع أحد لما حفظه أرشيف الإذاعة والتليفزيون من أغانى وتمثيليات وشعارات ، لو فعل أحد ذلك الآن لهاله ما رأى وما سمع ، وسيجد الباحث عن الحقيقة فى تلك السجلات القديمة العجب العجاب .. نعم سيجد أقلامًا تسبح بمجد عبد الناصر وعدالته وبطولته وقيادته الملهمة .. فإذا توالت السنون .. سيجد نفس الكتاب يكيلون الذم والنقد والتجريح للزعيم الملهم ، ناصر الملايين ، وحبيب الفقراء والمساكين والمستضعفين ، وقاهر الرجعيين ، ومؤدب الخونة والمتاجرين بالدين .. ومن بين هؤلاء الكتاب الناكصين وزراء وحكماء وفلاسفة وأعضاء سابقون فى مجلس قيادة الثورة ، وشعراء وصحافيون ، وعلماء مؤمنون ، وفلاسفة اشتراكيون ، كان يمكن أن نسمى تلك الأيام « عصر الفتنة » ، لكن كيف والفتنة قائمة منذ أن أيقظها الجاهليون ، وأخذت تطل على الحقب المتتالية من زمن بعيد ..

ولا أريد أن أخوض فى تفاصيل هزيمتنا المنكرة فى شهر يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ ، فقد صدرت عنها آلاف الكتب والمنشورات والدراسات ..

فى يوم بدء المعركة قال ضابط صغير بالأمن « ف » بصوت أجش ممتلئ بالثقة والغرور : « أعتقد أننا سندخل « تل أبيب » فى أربع وعشرين ساعة » .

وكان يحيى بك يجلس فى مكتبه وأنا معهما ، قلت هامسًا فى تردد . « يا « ف » بك .. نحن لا نحارب ماعزًا ولا خرافًا ، ولكننا نحارب جيشًا قويًا ذا عقيدة ، ومن الطبيعى أن المعركة لابد وأن تكون قاسية ..» .

وصمت برهة لكننى استدركت قائلًا : « سننتصر بإذن الله ..» .

كان لابد أن أستدرك بهذه العبارة ، فربما ظنوا كلامى عن قوة العدو مثبطًا للهمم ، ومفرقًا للصفوف ، ولابد أن يحذر الإنسان فى هذه الأيام حتى ولو كان بين أسرته وأصدقائه ، فما بالك بى وأنا أجلس مع رجال الأمن الرسميين الذين اعتقلونى منذ زمن ليس بالبعيد ..

عدت إلى منزلى قبل بدء المعركة ، وأشرت على زوجتى أن تأخذ الأطفال وتسافر معهم لتقيم فى قريتنا « شرشابة » نظرًا لأن المنطقة التى أعمل بها من المناطق الخطرة المعرضة لغارات الطائرات الإسرائيلية حيث يوجد بها عدد من المصانع والصناعات الهامة كمؤسسة الطاقة الذرية وبعض الأسلحة ، ومحطة إرسال الإذاعة ، ولكن زوجتى فضلت أن نعيش معًا ، ويجرى علينا ما يجرى على بقية خلق الله .

فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ كنت أمارس عملى بالمستشفى وسمعت أصواتًا هائلة لطائرات

حربية تطير على مستوى منخفض وتحدث ضجة لم أسمع مثلها من قبل، وتوقفنا عن العمل لأنه أمر غير عادى .. وأصابنا الذهول ها هى الحرب قد بدأت، وأخذ الناس يتابعون المذياع والبيانات العسكرية المتتالية، وخاصة عدد طائرات العدو التى أسقطتها قواتنا، وظننا أننا بدأنا خطوات النصر الأولى، ساعات قلقة رهيبة .. إنه مصير شعب بأسره .. مصير أكبر دولة عربية .. ثم استمعنا إلى الإذاعات الأجنبية .. الأخبار متناقضة .. بدأ الشك يغزو النفوس ..

عدت فورًا إلى البيت، وجدت أطفالى يجلسون تحت منضدة الطعام لعلها تحميهم، قلت لطفلى الأول حسام الدين: «أخرج يا بطل .. ألم تقل بالأمس: كيف تقوم الحرب وأنا صغير؟ يجب أن أكبر وأصبح ضابطًا حتى أحارب اليهود .» . وضحكت وأنا أقول: «هأنت تهرب تحت المنضدة» .

فخرج، ثم وقف إلى جوارى، وهو يرسل الأسئلة المتتالية عن الحرب، ومن المنتصر، وإلى متى ستستمر هذه الحرب، لم يكن لدى الوقت لأجيب، ولكنى أمرت زوجتى بالاستعداد للسفر إلى القرية على الفور، فقد أعددت لهم حافلة تنقلهم إلى القاهرة، ثم ينتقلون إلى القطار المسافر إلى طنطا، ومن طنطا يكون من السهل السفر إلى بيت أبى فى شرشابة وتم الأمر على النحو الذى أردته فى وقت قصير، وبقيت أنا فى المستشفى عازمًا على أن أقضى فيها أيام الطوارئ حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولًا ..

أيام ثلاثة مضت، تأكد لنا بعدها أن الكارثة قد وقعت، وأن الهزيمة الماحقة قد حلت بنا، إن معظم طائراتنا قد ضربت وهى جاثمة على الأرض، وأن قوات جيشنا البائسة تتراجع فى فوضى، وعشرات الألوف منهم قتلوا أو جرحوا أو أسروا، واستولى العدو على كميات ضخمة من أسلحتنا الحديثة، وأصبحت فضيحتنا على كل لسان فى أنحاء العالم، ولحق بنا عار أبدى ليس له مثيل فى تاريخنا القديم والحديث، سمعنا أن مدافعنا المضادة للطائرات قد أسقطت طائرة إسرائيلية ففرحنا وجرينا إلى هناك، والتقطت قطعة من الطائرة المحترقة، وعدت بها فخورًا آملًا أن أحفظها للذكرى، لكن يحيى بك أمين ابتسم فى مرارة وقال: «إنها ليست طائرة إسرائيلية بل طائراتنا نحن» .

أصابنا الهم والكمد، حزن لم نر مثله طول حياتنا، وتذكرت التصريحات الرسمية منذ أيام عن قواتنا التى لا تُقهر، وطائراتنا التى تحمى سماء الشرق الأوسط، وأسلحتنا الروسية الحديثة التى ستحقق النصر الأكبر، ثم جاء اليوم الذى أعلن فيه جمال عبد الناصر تنحيه عن السلطة، وهاجت الدنيا وماجت، وشعر الناس باليأس والضياع، ومن يستطيع فى هذا الوقت العصيب أن يتحمل تلك المسئولية الكبرى لشعب تحطمت آماله، وذاق مرارة الخيبة التى أوقعه فيها قادته، شعب لم يشارك فى اتخاذ قرار، أو يعرف شيئًا عن حقائق الأمور، وليست لديه الصورة الصحيحة عما كان يجرى، شعب وثق فى قائده البطل عندما قال بملء صوته فى خطاب رسمى «سيبونا نشتغل»، شعب جاع ليشترى السلاح، ويحارب فى اليمن معركة خاسرة لا ناقة له فيها ولا جمل، شعب محاصر لا يستطيع أن يعترض أو يناقش أو يعبر عن رأيه بصدق وحرية، وهكذا حدث ما لم يكن يتوقعه أغلب الناس فى مصر والعالم العربى، وأخيرًا خرجت منظمات الشباب وعلى رأسها زعيمها حسين كامل بهاء الدين تهتف وتطالب بعودة الرئيس إلى موقعه، وخرج خلق كثير يطلبون نفس الشىء، ورفض زكريا محيى الدين أن يبقى فى مكان عبد الناصر القيادى، وسادت الفوضى الشارع المصرى، وتناثرت الاتهامات، وقبض على قيادات الجيش، وعزل المشير عبد الحكيم عامر قائد الجيش، وصديق عبد الناصر الحميم، بعد أن أعلن عبد الناصر موافقته على الاستمرار فى عمله كرئيس للجمهورية وقائد للثورة .

ووصلت قوات إسرائيل إلى الضفة الشرقية لقناة السويس بعد أن احتلت سيناء بالكامل، أفراح من

إسرائيل واحة الديموقراطية فى الشرق الأوسط ، وأحزان فى مصر ضحية الدكتاتورية والحكم المطلق ، وضحية المخابرات ورجال أمن الدولة القساة غلاظ الأكباد ، وها نحن ندفع الثمن الغالى من كرامتنا ودماء أبنائنا وإخوتنا وسمعتنا ، وأخذ الشعراء والكتاب يغوصون فى متاهات الضياع والحرمان واليأس الأسود ، ويكتب نزار قبانى عن « السلطان » وكلاب السلطان التى مزقت حذاءه ، وأخذت تعد حركاته وسكناته ، كما أخذ خطباء المنابر يحثون الناس على العودة إلى الله ، والإكثار من الاستغفار والتوبة ، واللجوء إلى ساحة الإيمان حتى يخلصنا الله مما نحن فيه من كرب ، ويأخذ بيدنا لننهض من جديد ، وندفع عن بلادنا وبلاد المسلمين الأذى والعدوان ..

كنت أعيش بصفة دائمة فى تلك الفترة داخل المستشفى أنا ورفاق العمل من أطباء وممرضين وممرضات وفنيين وعمال ، وكان معنا رجل يعمل كفنى أشعة ، يقال أنه حشاش ، وهو سعيد جدًا لأن المستشفى يجهز لنا وجبات الغذاء الشهى ، فكان « ع . م » هذا يذهب إلى غسل يديه بعد الأكل ويقول : « يا رب احفظ لنا هذه النعمة ، وأدم علينا أيام الطوارئ » .

ونضحك بمرارة ، فنراه يستطرد قائلًا : « ألم يقل ربنا فى كتابه : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ » ؟ « بلى يا عم « ع . م » » .

– « خلاص .. انتهى .. وقد نصر الله المؤمنين » . كان كلامه ذا معنى لا يخفى على السامعين ، لكنه كان مؤلمًا . وكنت أقول له : « المعركة لم تنته بعد » .

– « يا ترى من يعيش .. » .

وفى المستشفى كان يفد إلينا أعداد من الجنود بأقدام متورمة ، ووجوه شاحبة كالحة ، وملابس متسخة ، لأنهم ساروا على أقدامهم مسافات طويلة دون طعام وهم يتراجعون فرارًا بجلودهم ، وأخذوا يتحدثون عن المآسى التى رأوها ، وعن الجنود الذين دفع بهم إلى ميدان القتال دون أن يتدربوا على استعمال سلاحهم ، فقد استدعوا – كاحتياط – على عجل ، وسط فوضى ضاربة ، وحشود مبعثرة ، لا تعرف لها خطة ، ولا تدرى ماذا تفعل .

وقامت مظاهرات فى أوروبا وأمريكا تؤيد إسرائيل ، وقاد الفيلسوف والأديب الوجودى جان بول سارتر مظاهرة فى باريس لتأييد إسرائيل وقال «إننى معجب بتلك الدولة العظيمة (إسرائيل) التى استطاعت أن تفلت من الفناء ببراعة ، وتحقق نصرًا أسطوريًا » .

وملأ « موشيه ديان » وزير الحرب الإسرائيلى الصحف العالمية بتصريحاته عن عبقرية إسرائيل ، وعظمة جيشها الذى لا يقهر ، وانهيار مصر والعرب تحت وقع ضرباته العاصفة ، كما كتبت ابنته مذكرات عن الحرب ..

وكان لابد أن يكون هناك « كبش فداء » يقدم لتبرير الهزيمة المحزنة ، والتى أطلقوا عليها اسم « النكسة » ، وهكذا بدأ الإعداد لمحاكمة قادة الأسلحة فى الجيش ، ومدير المخابرات صلاح نصر ، وحمزة البسيونى قائد السجن الحربى ، وغيرهم من الأسماء اللامعة الكبيرة ، وتوالت الأحداث ، وأعلنت الحكومة عن مؤامرة لقلب نظام الحكم فى صفوف القيادات الحاكمة أنفسهم ، ثم أعلن عن انتحار المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثانى بعد عبد الناصر ، وقيل أنه قتل ، واختفت وجوه ، وبقيت وجوه ، وطفت على السطح وجوه جديدة ، وأعلن عبد الناصر عن كثير من الأخطاء التى وقعت فيها السلطة ، ووعد بإصلاح الأمور ، والقضاء على المظالم والسلبيات والمهازل ، استعدادًا لمعركة جديدة لابد منها فى المستقبل ..

ويبدو أن جمال عبد الناصر قد تذكر التعساء القابعين خلف الأسوار كمعتقلين منذ ما يقرب من عامين، فأمر بالإفراج عن بعضهم، أما البعض الآخر فقد بقى ما يقرب من خمس سنوات، ولم يطلق سراحهم إلا فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات..

لم أشعر بأدنى قدر من الشماتة فى حكامنا الذين أذاقونا الأمرين، بل كان بداخلى إحساس عميق بالحزن والألم، إن جيلنا - جيل النكسة أو الهزيمة النكراء - تعس الحظ، قد رأى وسمع ما لم يحدث لأحد قبله، لكنه جيل معذور لم تتح له فرصة المشاركة بالرأى الحر، والتفكير فى صنع القرارات المصيرية للبلاد، كما أصيب الشباب المؤمنون بعبد الناصر فى العالم العربى بصدمة نفسية وفكرية شديدة، أخبرنى صديقى الدكتور على محمد موسى وهو من سلطنة عمان ويعمل حاليًا وزيرًا للصحة فى السلطنة، قال: «لقد فجعت بعد الهزيمة فى ١٩٦٧، وقررت ألا أقرأ أية صحيفة أو مجلة عربية، وأنا الآن لا أقرأ سوى الصحف الأجنبية، ذلك لأنى فقدت الثقة فى أخبار وتعليقات وتحقيقات كل الصحف والمجلات ..».

بل قال صديقنا الدكتور على أيضًا (وكان ذلك فى السبعينات، من القرن العشرين، أى قبل توليه وزارة الصحة): «لقد تركت العمل السياسى العربى، بعد أن كنت متحمسًا له لدرجة كبيرة منذ أن كنت أدرس فى القاهرة، لكن الهزيمة قد بعثت اليأس فى قلوبنا».

ومن عجب أن الناس رغم كل ما حدث بدءوا يعزفون على أوتار الأمل، ويحلمون بمعركة جديدة، ونصر أكيد، واثقين أن الله لن يتخلى عنهم، وإن تخلى عنهم الحكام وأعوانهم من الطغاة والمستغلين، ومن الطريف أنه أثناء محاكمة النخبة الحاكمة السابقة، قال حمزة البسيونى قائد السجن الحربى، ورائد التعذيب فى عصرنا: «أخبرنى (س) أن ما أصابنا من هزيمة كان بسبب تعذيب الإخوان المسلمين وظلمهم، وأنت يا حمزة فعلت الكثير والكثير فى إيذائهم ..».

وأصبح «حمزة البسيونى» خارج السلطة بلا عمل ولا زوجة ولا أبناء، وكانت نهايته فى حادث سيارة بشع فى الطريق العام بالقرب من مدينة «قويسنا» على طريق مصر إسكندرية، وقتل معه عدد من أقربائه، وعندما شاع الخبر، خرج الناس فى قويسنا والبلاد المجاورة ليروا «مصرع الجلاد» بأعينهم، ويأخذوا منه العبرة، ولم يبق من حمزة البسيونى سوى صفحة سوداء ملعونة فى سجل الثورة المصرية، وكنت قد نذرت لله نذرًا أن أثأر من هذا الطاغية حيًا وميتًا بطريقتى الخاصة التى تناسبنى، فكان أن كتبت رواية «رحلة إلى الله» عن ذلك الإنسان الشاذ، وإن كنت قد غيرت اسمه وجعلته «عطوة الملوانى» تجنبًا لمشاكل التقاضى وطلب التعويضات. هذا وقد كان لصديقنا وأخينا العالم والأديب الدكتور «يوسف القرضاوى» ملحمة من الشعر الجميل، تناول فيها حمزة البسيونى، وليالى التعذيب المهولة الطويلة فى السجن الحربى يقول فيها:

فى ليلة ليلاء من نوفمبر ... فزّعت من نومى بصوت رنين
وإذا كلاب الصيد تهجم فجأةً ... وتحوطنى عن شمألٍ ويمين

إلى أن يقول:

متبلدون عقولهم بأكفهم ... وأكفهم للشر ذات حنين

وهى قصيدة فريدة فى نوعها، شاع ذكرها فى كل مكان بالعالم العربى والإسلامى، وطبعت

أكثر من مرة ، وكان السجناء والمعتقلون ينشدونها طوال الأربعين سنة الماضية ، بالإضافة إلى كثير من القصائد التى صاغها إخوة آخرون ، لكنها لم تشتهر كما اشتهرت قصيدة القرضاوى ، والواقع أن هذا التراث الشعرى الذى يتحدث عن المحنة الكبرى جدير بأن يُجمع ، ويُتناول بالدراسة ...

عادت زوجتى وأبنائى من القرية بعد أن انتهت المعركة ، واستأنفنا حياتنا من جديد ، لكنى لاحظت أن قبضة السلطة على السياسيين أخذت فى التراخى قليلًا ، ومن ثم فكرت فى استئناف الجهود لكى يُسمح لى بالسفر إلى الخارج ، وخاصة أنى أعتقد أن السنوات القادمة ستكون مليئة بالاحتمالات الأسوأ ، ولا يضمن أحد تقلبات المناخ السياسى فهو عرضة دائمًا لمختلف التأثيرات الخارجية والداخلية ، فما إن وصلتنى برقية أخى الأستاذ محيى الدين عطية الذى أمكنه السفر إلى الكويت ، حتى بادرت بتقديم طلب رسمى لوزارة الداخلية ، مرفقًا به صورة من التلغراف (البرقية) طالبًا فيه السماح لى بالسفر للعمل فى الكويت ، كما تقدمت بطلب آخر إلى رئاستى فى الإدارة الطبية بهيئة السكك الحديدية بالقاهرة ، أطلب فيه الموافقة على إعارتى إلى حكومة الكويت ، أو إعطائى إجازة بدون راتب ، واستمر السعى المتواصل بضعة شهور ، وفى كل فترة أجد وعودًا بالموافقة القريبة ، لكن الوعود لم تتحول إلى حقائق ، ولم يكن أمامى سوى أن أتجمل بالصبر ، وأستمر فى المحاولات ، وخاصة بعد أن علمت أن عددًا من إخوانى قد نجحوا فى مساعيهم ، وسافروا بالفعل ، منهم أخى محيى الدين عطية ، وفكرت فى أمر هام ، وهو كيف أدبر ثمن تذاكر السفر لى ولزوجتى وأطفالى ؟ وأخيرًا اهتديت إلى حل وهو أن أبيع أثاث بيتى ، لأني لابد ،أن أخلى المسكن الحكومى الذى أعيش فيه تلك الفترة ، وليس هناك مكان آخر أنقل إليه ذلك الأثاث ، فضلًا عن أننى لن آخذه معى إذا سافرت ، وكان الأثاث به بعض الأدوات الكهربائية كالثلاجة والغسالة والتليفزيون وغيره ، وسوف أستطيع أن أجنى مبلغًا لا بأس به من المال إذا أنا بعتها ، وهكذا استطعت العثور على حل لا بأس به كى أحصل على تذاكر السفر بالطائرة ..

وقامت بعض المظاهرات فى الجامعات احتجاجًا على الأحكام الهزيلة التى صدرت ضد قيادات الجيش ، والتصرفات الخاطئة لحزب الحكومة ، ومظاهر الاستغلال والفساد هنا وهناك ، واستطاعت الحكومة أن تمتص غضب الجماهير باتخاذ بعض الإجراءات العلنية ، وكان منها إعادة محاكمة قيادات الجيش مرة أخرى ، وصدور أحكام أخرى قاسية عليهم ، لكنها كانت دون الإعدام ، ولا شك أن الحديث كان يدور همسًا حول مأساة المشير عبد الحكيم عامر الذى انتحر منذ فترة ، وكانت هناك شائعات قوية تؤكد أنه قتل ولم ينتحر ، وأن تقرير الطب الشرعى عن موته إنما هو ملفق ، وفى الوقت نفسه سقطت هيبة كثير من رجال السلطة الذين لم يكن أحد بمستطيع أن يتناولهم قبل ذلك بالنقد ، وكتب الأستاذ د . عبد العزيز كامل ، وهو من قيادات الإخوان البارزة ، دراسة حول « دروس من غزوة أحد » ، ونشر الكتاب فى دار المعارف ضمن سلسلة « إقرأ » وأعجب به الرئيس جمال عبد الناصر ، وبعد فترة عين الدكتور عبد العزيز كامل وزيرًا للأوقاف ، وكان الأمر مثار جدل أيضًا فى صفوف جماعة الإخوان المسلمين المنحلة ، وفى الوقت نفسه صعد نجم الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد وهو من الإخوان أيضًا ، وظل نجمه يصعد حتى عين فيما بعد وزيرًا للشباب ، ثم تولى بعد ذلك وزارة الإعلام وبعدها اختلف مع الرئيس السادات بعد موت عبد الناصر ، فقدم استقالته .

ويلاحظ أن هناك ما يقرب من خمسين مسجونًا من الإخوان بقوا رهن السجن منذ عام ١٩٥٤ وعام ١٩٥٥ ، لأنهم أصروا على موقفهم المعادى للحكومة ، وبالإضافة إلى بعض المعتقلين الذين اتخذوا نفس الموقف ، وظل هؤلاء وأولائك سجناء حتى جاء عهد الرئيس أنور السادات الذى أفرج

عنهم جميعًا ، وكان من بين المسجونين الذين طال سجنهم الأستاذ عمر التلمسانى ثالث مرشد للإخوان بعد ذلك ، والأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد الرابع للإخوان ، والأستاذ مصطفى مشهور وكيل الإخوان حاليًا ، وكذلك صديقى ورئيس مجموعتى السابق الأستاذ عبد المنعم سليم وغيرهم .

وبدأت مرة أخرى محاولات مستميتة كى أستطيع السفر إلى الكويت ، وتلقيت وعدًا شفويًا بالموافقة من وزارة الداخلية ، وذهبت إلى مبنى المجمع بميدان التحرير بالقاهرة لكى أعرف هل وصلت تأشيرة الخروج أم لا ، لكنى علمت أنها لم تصل ، فعدت مرة أخرى إلى الداخلية التى قالت أنها بعثت بها ، لكنى فى الأيام التالية ترددت على مبنى المجمع ، فلم أجدها واستمر هذا الوضع شهرين حتى كدت أيأس . وكان هناك مكان للانتظار فى إدارة الجوازات ، طالت جلساتى فيه ، وفى يوم من الأيام سألت بعض الجالسين ، فاكتشفت أنهم جميعًا مثلى من السياسيين ، وينتظرون على أحر من الجمر تأشيرة الخروج ، وأخيرًا وبعد شهرين من بداية عام ١٩٦٨ نجح مسعاى بعون الله ، وحصلت على تأشيرة الخروج ، وأخذت أعد العدة للسفر ، فبعت بعض الأثاث فى البيت ، واشتريت تذكرة طائرة ذهابًا وإيابًا حسب القانون على شركة مصر للطيران ، وقبل أن أسافر ذهبت إلى قريتى شرشابة لكى أودع أهلى ، إذ من المحتمل ألا أعود إلى مصر مرة أخرى فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر .

كنا قد بعنا بيتنا القديم في وسط القرية ، واشترى أبى فدانًا من الأراضى الزراعية فى أطراف القرية تصلح أرضًا للبناء ، وبدأنا فعلًا فى إقامة بيت جديد من الطوب الأحمر ، كما بدأنا إدخال الماء وبعده الكهرباء ، ونظرًا لأن البيت لم يكن قد اكتمل بناؤه والمشترى يريد أن يتسلم بيتنا الذى بعناه ، فقد انتقلنا بصفة مؤقتة إلى بيت أحد أبناء العمومة ، فأكرم ضيافتنا وهو الأخ إبراهيم بن محمد بن أحمد عبد اللطيف ، ويعمل بالشرطة .

حانت لحظة الوداع ، وكانت أمى تبكى بحرارة وتتشبث بى . وأبى يهدئ من انفعالها ويقول لها إن هذه ليست المرة الأولى التى اغترب فيها ، وأن حياتى كلها غربة ، ومع ذلك فقد كانت عيناه هو الآخر مبللتين بالدموع ، وأمى تقول له إن هذه هى المرة الثانية التى يذهب فيها إلى بلاد أخرى خارج القطر المصرى ، وكانت الأولى رحلة لمدة شهر ، أما هذه فقد تطول الغيبة إلى سنين ، ولا تكف عن القول : « منه لله اللى كان منه السبب » .

وهى تقصد بذلك الحكومة التى تطاردنا وتضيق علينا الخناق ، وتجرنا إلى السجون والمعتقلات من آن لآخر ، لكنى كنت أهدئ من روعها ، وأؤكد لها أننا ذاهبون إلى بلاد جميلة مليئة بالخيرات والآمان والرزق الواسع ، وليس فيها سجون لنا أو معتقلات ، فكانت تقول أن الوطن غال وعزيز وتردد الحكمة الشعبية التى تقول : « عزّك تلّك ..» .

فأضحك وأقول لها : « سيكون لنا تل جديد هناك نعزّ فيه » .

احتضنتنى بقوة وهى تقول : « الله معك ..» .

ثم أردفت بدعائها المأثور الذى كانت تقوله جدتى دائمًا : « يجعل فى وشّك جوهرة ، وفى حنكك سكرة ، ويحبب فيك خلقه .. ويردك لنا سالمًا ..» .

وأبى يقف صامتًا محتقن العينين .

وقبلت يد أمى .

ثم قبّلت يد أبى .

وانتزعت نفسى انتزاعًا ، وهرولت خارجًا ، وبعد أن ركبت السيارة تنفست الصعداء .

كان الوداع مهمة شاقة ..
ولم أكن أعرف متى سأعود .
ويتردد فى أرجاء نفسى تلك الأشعار التى كتبتها ذات يوم :

قد طال ترحالى فهل لمسافرٍ يومًا مآبْ ؟
أترى أعود لقريتى وتعود أحلام الشبابْ ؟
وأرى أبى والحاملين فئوسهم عبر الشعابْ ؟
العائدين من الحقول يلفّهم ليل السرابْ ؟
الكادحين
هم يا حبيبة أهلنا ، فى ظلهم ذقنا الحياة
حيث الأوز جوارنا يخطو وتصطرع الشياه
كل يخط على الثرى حقلًا بأوسطه قناه
يمضى على سنن الجدود مقلدًا فيها أباه
يا للحنين
هم يا حبيبة صانعو التاريخ آمال الغدِ
قنعوا بما دون القليل قناعة لم توجد
أعطوا ، وما أخذوا سوى ذاك القديد الأسود
الله يعلم أنهم سر الكفاح السرمدي
الصابرون

وكنت أتطلع عبر نافذة السيارة إلى البيوت فى القرية ، وإلى وجوه الفلاحين السمراء ، والصبايا يحملن الجرار على رءوسهن ، وأشجار السرو والتوت والجميز ، وكأنى ألقى تحية الوداع لكل ما تقع عليه عينى .

فى الواحد والثلاثين من شهر مارس عام ١٩٦٨ ، أى فى اليوم التالى لبيان ٣٠ مارس الشهير الذى أعلنه عبد الناصر ، كخطة جديدة للعمل السياسى وتحرير الأرض ، أقول فى اليوم الأخير من هذا الشهر ، توجهت أنا وأخى الأستاذ محمد على حسن إلى مطار القاهرة الدولى متجهين إلى مدينة الكويت التى بدت فى خيالى وكأنها حلم جميل ..

صادفتنا بعض المشاكل فى إجراءات السفر بالمطار ، ويبدو أن رجال الأمن أرادوا أن يشعرونا بأننا مسافرون وهم على علم بسفرنا ، وأنهم هم الذين يسروا لنا هذا السفر ، عندما حلقت بنا الطائرة فى الجو قال صديقى وأخى محمد على حسن ووجهه يشرق بالسعادة القصوى : « لقد نجونا » .

قلت له : « إن القاهرة لم تغادر الحدود المصرية بعد » .

قال : « لكأننى فى حلم ، لا أكاد أصدق ، هل استطعنا فعلًا الخروج من مصر ، بعد أن منعنا من ذلك سنوات طويلة ؟ ؟ »

تنهدت ، وأغمضت عينى لأجول بخيالى فى دنيا الماضى المزدحم بالذكريات ، الغاص بالآلام ، وأتذكر محطات حياتى الحافلة والحاسمة ، ثم تذكرت زوجتى .. آه أيتها المسكينة كم تعانين معي شقاء السنين العاصفة .. قالت لى وأنا أودعها هى والأطفال : « عندما تصل سالمًا بإذن الله فلا تنسنى أو تنس أولادك ، نحن لا نستطيع العَيش هنا بدونك .. أرجو ألا يطول انتظارى ، وبعد أن تحصل على عمل

أسرع بإرسال فيزة الدخول لنا حتى نلحق بك .. هذا أول شيء تفكر فيه .. سأعيش معك هناك على الحلوة والمرة ، ولن أضيق بالحياة هناك أبدًا مهما كانت صعبة .. أنا على استعداد لأن أعيش فى كوخ على شاطئ الخليج العربى وآكل خبزًا وملحًا .. المهم أن نكون معًا .. أنا واثقة أن الحياة ستحلو لنا .. وسنكون أكثر سعادة وأمنًا ، وسنجد الاستقرار الذى طالما حلمنا به ..» .

ودمعت عيناها وهى تقول : « لا أقول وداعًا .. ولكن إلى اللقاء .. لا إله إلا الله » .

قلت لها : « محمد رسول الله » .

قبلت الأطفال الثلاثة ، وقلبى ينوح بصوت مكتوم ..

إن صورة الأحباب تتجلى فى مخيلتى أبى .. أمى .. زوجتى .. أطفالى ..إخوتى وأخواتى .. أعمامى وأقاربى .. زملاء العمل .. حتى الأماكن التى ألفتها .. ورأسى يثقل وأكاد أنام وأنا أتملى تلك المشاهد والصور .. وأنظر عبر نافذة الطائرة ، فأرى السماء الزرقاء الصافية توحى بالسلام والأمان ..

وتقدم إلينا المضيفة الجميلة ، وتقول وهى باسمة : « ماذا تطلب من الشراب ..»

قلت وأنا أتذكر الرؤيا التى رأتها زوجتى فى منامها ذات مساء : - « عصير مانجو » .

وغدًا يوم جديد ، وفجر جديد

والأيام تمضي... والقافلة تسير

الدكتور نجيب الكيلاني

١٤١٤هـ

١٩٩٤م

***

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

❁❁❁

رقم الإيداع : ٢٤٨٣٧/ ٢٠٠٦